S.D

رواية

ذاتَ أمسٍ

حكايا الماضي تنقصها خاتمة!

عابرو الجحيم ٩

صابرين الديب

ذاتَ أمس

عابرو الجحيم (1)

رواية

بقلم

صابرين الديب

تصميم غلاف وداخلي

صابرين الديب

جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم..

للانضمام للحلم

https://www.facebook.com/groups/7elmhon

كلمة الكاتبة

إلى قاطني "يوتوبيا"..

فضلًا لا تقرأوا هذه الرواية..

نعم كما أبصرتم الأحرف تمامًا..

تلك الصفحات لا تناسب المثالية ولا النقاء ولا سلامة الفطرة..

الأبطال هنا مثال للاعوجاج..

يضربون بكل مبدأ عرض الحائط ولا يكترثون..

لذا نصيحة مني؛ أغلقوا الملف، لا تُلقوا به في مهملات الجهاز..

لا..

امسحوه بشكل نهائي..

Shift+delete

نعم.. هكذا ستمحونها إلى الأبد، عفوًا!..

كنتم تنوون قرائتها على الهاتف!..

حسنًا.. الأمر سهل، احذفوا الملف، ثم فتشوا عنه في مجلد ملفاتكم المحذوفة بعدها تمموا الحذف الحاسم..

الآن انتهينا..

وداعًا..

كان لقاءً قصيرًا لكن أتمنى لكم منه فائدة، وربما نجاة..

صابرين الديب

شكر خاص

الاستشارة القانونية

الأستاذة/ نادية فتحي الأبلق

الاستشارة النفسية

الأستاذة/ ألفت علاء

الاستشارة الطبية

دكتورة/ إيناس عادل

دكتورة/ مي حميدة

إهداء (1)

إلى كل من سيغوص في أوحال ديستوبيا الواقع بإرادته الحرة..

كلٌّ منا له جحيمه الخاص؛ فلتهنأ بجحيمك!

حكايا الماضي تنقصها خاتمة!

**

البداية؛ دومًا ما كانت أمس..

الانتقام طبق بارد بمذاق مُر..

مطهو على مهل، لا يُمضع؛ بل يُزدرد في قضمة واحدة..

أليسَ في إمكاننا أن نَغْلِبَ الألمْ؟

نُرْجِئْهُ إلى صباحٍ قادمٍ؟.. أو أمْسِيةْ

نشغلُهُ؟.. نُقْنعهُ بلعبةٍ؟.. بأغنيةْ؟

بقصّةٍ قديمةٍ منسيّةِ النَّغَمْ؟

"نازك الملائكة"

المقدمة

هناك لحظات يتوقف بعدها الزمن!..

**

"قبل اثني عشر عامًا"

لحظة موت!

أنت أبدًا لن تعود كما كنت، حتى وإن تبدلتْ كينونتك لوحشية تليق بماضيك غير البعيد حيث الظلم والظلمة والوحدة!..

حيث أرض زلقة بنزيف داكن الحمرة، وجثة ممددة في وضع نهاية يليق بلوحة رعب..

حيث امرأة اختارت الموت عليك!..

وصراخك الغاضب يشق سكون الليل كانفجار استهل سعير روحك..

"أماه!"..

تسأل كأنما ستجيب..

تضم الجسد المسجى بلا حراك فتلامس برودة الرحيل فوق بشرتها.. تهمس بهياج سجين صدرك..

"أماه"..

هذه المرة تخليتَ عن السؤال وتعلقتَ بأذيال الخيبة..

لقد تركتك بإرادتها..

لقد هجرتك..

.....

"قبل أحدَ عشرَ عامًا"

لحظة اختيار!

"أغِثنا بني"

تفحصها في ثانيتين..

امرأة خمسينية نال من خصلاتها المعقوصة شيب غريب، تحتضن رأس رجل يقاربها عمرًا فوق ساقيها بينما تجثو جواره..

رأس نازف!..

"سرقونا وهربوا، ضربوا زوجي"..

انجليزيتها ركيكة، سائحان ربما.. جمد بوقفته لدقيقة تامة..

نظرته مبهمة..

غامضة.. ومخيفة..

فتى.. شاب صغير، حدقتاه حالكتا السواد كقاع بئر شبه جاف، ألقى فيه طفلٌ شقي حجرًا فصنع ببقايا مائِه دوامات..

تأرجح.. ذهاب وإياب، رحيل وسفر..

بين القسوة والرأفة..

بين بقايا إنسانية ووحشية لها الغلبة..

بين بشر وشيطان؛ فالملاك نحروه في طفولته..

بين فقد يريد للعالم أن يتجرع علقمه مثله، وتشبُث بأن الحياة ليست عادلة مع الجميع..

"بني!"..

جزعت بها المرأة في نداء مبحوح واجم، نداء مسَّ بقايا نبض حي بقلبه، اتجه إليهما، بحركة سريعة رفع العجوز على كتفه ودون حرف أشار إليها أن تتبعه خارج الزقاق المظلم..

سلبوه حياته؛ فوهب هو ما تبقى منها لمن احتاج..

**

"قبل عشرة أعوام"

لحظة تمرد!

فاتنة، صهباء، لا تناسب ذوقه في النساء.. حيث هناك واحدة اكتفى بها القلب ولم يشتهِ غيرها، واحدة داكنة الخصلات بعينين كموج البحر حال جنونه وصخبه..

فاتنة ترميه بنظرة يفهمها رُغم كونه غير خبير بدنيا الأنثى..

هي تريده وأعلنتها صريحة بمصافحة تركت خلالها يدها الناعمة تدللها خشونة قبضته، ثم همس أقرب لفحيح أفعى على وشك التهام فريسة برضى:

- نيروز..

ورمقت زوجها من خلفها بنظرة كحطب النار، تشتعل قسرًا:

- أو روزي، زي ما زاهر بيناديني..

تتبع نظرتها ببسمة تخبرها أنه يقبل عطيتها غير المعلنة:

- يزن..

بعدها طارت عيناه تجاه جده الذي يحادث الزوج الغائب عن تحرش امرأته بشاب يصغرها باثني عشر عامًا قبل أن يضيف بمقت صريح:

- حفيد يونس أبو الغار..

.....

"قبل تسعة أعوام"

لحظة ضياع!

"يزن"

تمتمت باسمه بشغف، ودون مقدمات أو اكتراث بمظهره وعري جذعه فقد اندفعت نحوه.. وعانقته!..

لتكمل الهمس بأذنه في غياب كأنها لا تصدق أنها بين ذراعيه:

- بحبك..

كان قد أنهى حمامًا دافئًا يمنح جسده شيئًا من استرخاء قبل عودته للخارج في محاولة للبحث عن عمل بعد تخرجه..

خاله يسانده كثيرًا، تكفل بعامه الدراسي الأخير والآن هو رجل ناضج بما يكفي للاعتماد على حاله..

لكن الصغيرة ابنة الخال هدمت عالمه الذي استكان إليه في لحظة..

لحظة تهور، وازت اعترافًا أرعنًا بعشق.. وهي طفلة على وشك إتمام عامها الرابع عشر!..

تلتها لحظة تيه..

لحظة اختل فيها توازنه قبل أن يبعدها حائرًا في قرار عن نوع رد الفعل الملائم، مترددًا بين التعنيف واحتواء الموقف بعقلانية.. جذب قميصه بهمس مشتت:

- ديما!..

لكن القدر اختار عنه.. لقد كان خاله واقفًا عند باب الغرفة بملامح مُصمتة، نظرته وحدها تخبره أن خيطه الباقي..

قد انقطع!..

ليلتها رحل وحيدًا بحقيبة تحمل ثيابه.. خرج للشارع دون مأوى، دون عائلة..

ليلتها.. انتوى استعمار الجحيم..

.....

لحظة تخلي!

"مش هينفع نكون مع بعض يا دُچى"..

ترك أناملها تنسحب من أصابعه بعُسر، كان ينسلخ عنها وتنسلخ منه..

هو الجبان الذي تخلى عن العشق رُغم أن العشق لم يتخلَ عنه..

يودع عينيها، يودع بحرهما الذي غرق بكامل حرية في تقلبات موجه، في عتاب نظرتها، في الغضب والتعلق والخذلان..

والنهاية!..

.....

"قبل عام"

لحظة فقد!

نبش الأرض الصلبة جوار القبر الأنيق بأظافره، لَكَم الشاهد وسب المدفون تحته.. صرخ باسمه في لهاث..

توسله الرجوع ولو للحظات وداع، لكن تلك الرحلة لا عودة منها..

تسللت دموعه تكسر جدار صمته وكتمانه..

وتملك منه شيطانه..

فتلك الغابة البقاء فيها؛ للمستغِل!..

**

"قبل ثمانية عشر عامًا"

لحظة اختبار!

الميل آفة القلوب، والانحناء تعريفه انكسار..

تعلق قلبها به وهي لم تكترث لأمور النبض والعشق من قبل، هو الشاب الذي اقتحم الفكر والعقل بهدوئه وحزمه قبل أن يتجه إلى الخافق الصلب بخطى ثابتة..

لكنه كان فاشلًا حين المواجهة الجدية، راسبًا في اختبار الغرام..

"زاهر طلب إيدي من بابا"..

كان يعلم!..

أخفى عنها علمه بنظرة هاربة استنبطت منها ما يواريه ببساطة..

هو العاشق الذي صرح بالعشق ثم جبُن في حرب امتلاكه، ففر قبل بداية أول معاركها..

كسر المستقيم دائم.. كسر لا تتلاشى شروخه..

هفوة صمته كانت أبلغ جواب، جواب دفع بها لاستطرادة وليدة غلظة قلب دفينة، غلظة خلقها تخلِّي:

- وأنا بلغت بابا بموافقتي..

وقتها عاد لعينيها..

عاد يلتقي بامرأة غريبة عنه، امرأة لم يرها من قبل!..

.....

"قبل عشرة أعوام"

لحظة خيانة!

هي ورجل بفراشه..

هي قاتلته التي امتلكته وامتلكها، ثم بعد الامتلاك وككل ذكر أتى الاعتياد..

ظهر الاطمئنان لكونها دومًا هناك، له.. طوع بنانه، سارت وتيرة الحياة بروتينها البغيض..

تحفته الفاتنة بمنزله، وقت عودته ستكون بانتظاره؛ مهما تأخر!..

خرج الشاب بنصف ثيابه، وغادرت هي الفراش عارية لا تستحي أن ذلك الجسد الذي هو ملكيته الخاصة كان بين ذراعي غيره قبل دقائق..

تلتقط مئزرها الحريري تلفه حولها بإغوائها الفطري، تشعل لفافة تبغ، تضم شفتيها لتنفث دخانها بتلكؤ.. ترمقه بقسوة سوداء منتشية:

- أيوة خُنتك؛ هتعمل إيه يا زاهر!..

لم يُحِرْ جوابًا فلسانه عاجز وقيوده كثيرة، اتخذت من مقعد طاولة الزينة عرشًا ملكيًا تسترخي فوقه وساقها الناعمة تخرج من فتحة المئزر لتعلو الأخرى بتسلط ساخر:

- هتفضحني!.. هتطلقني!..

ظل على صمته الواجم لثوانٍ تالية أعلن بعدها قراره بحزم مهزوز ونبرة مرتعشة..

قيد العشق يمنعه.. قيد الفضيحة يغُل يديه إلى عنقه.. وقيد الانتقام:

- هنسافر..

**

"قبل أربعة أعوام"

لحظة خسارة!

تحكمت قبضتاه كفخ حديدي صلب بقبة معطف الطبيب الستيني، يجذبه ليقابل حمرة عينيه ونظرة الجنون بحدقتيه:

- يعني إيه!..

تراجع به يصدم ظهره بباب غرفة من خلفه وبعض العاملين بالمكان يندفعون للحؤول بينهما:

- اتعمى يعني إيه!..

صراخه يكاد يهد الجدران، أصابعه تتوق لاعتصار عنق ذلك الوغد الذي أذاقه خسارته الأعظم..

وألمه الذي فاق حد الاحتمال..

ثم أتى تهديده بنبرة إبليسية تتوعده بالويل:

- هتدفع حياتك تمن عينيه..

.....

"قبل ثلاثة أعوام"

لحظة اختلال!

عناوين جرائد كلها من صنع يديه، تصفحها واحدة واحدة بانتصار قاتم..

فحتى ذاك لم يكتمل بعد!..

"القبض على الطبيب سالم حجازي بتهمة الاتجار في الأعضاء البشرية"..

"الطبيب الكبير والشهير يتاجر بلحوم البشر"..

"محاكمة تاجر الأعضاء سالم حجازي بعد غد"..

"مشفى الطبيب القاتل تغلق أبوابها في وجه المرضى حتى النطق بالحكم"..

"أدلة جديدة تثبت إدانة سالم حجازي، الطبيب السارق"..

"الحكم على الطبيب حجازي بالسجن المؤبد، وتكليفه غرامة تقدر بمليوني جنيه مصري وشطبه من نقابة الأطباء"..

"سقوط سالم حجازي بسكتة قلبية بعد النطق بالحكم داخل قفص الاتهام، ووفاته بسيارة الإسعاف قبل وصوله للمشفى"..

تراجع في جلسته بوهج يحتل عينيه كبرق صاعق..

ثلثي الانتصار.. وبقي ثلثه الأخير!..

**

"قبل خمسة أعوام"

لحظة لقاء!

أن ترحل عن الوطن وفيه تهجر قلبك وروحك؛ ذلك قفص أسر ينزوي فيه الحنين باكيًا..

لم تره بعد الفراق، لم تعلم عنه خبرًا.. كأنما اختفى من سجل الأحياء لكنه لايزال حيًا يُرزق..

عملت بشركة مرموقة، ترقت فيها بثبات.. وأتتها على طبق من ذهب فرصة السفر لفرعها بأوروبا..

قبلت..

رحلت..

وحدث اللقاء.. ببسمة هادئة توازي هدوء عينيه وملامحه وهالته كلها:

- منذر الإدريسي.. أهلًا بيكِ في هامبورج يا آنسة دُچى..

.....

"قبل ثلاثة أعوام"

لحظة ربما تكون بداية!

"بحبِك"..

"تتجوزيني!"..

"منذر.. أنا...

أخرسها برفقه المعهود..

"ما تقرريش دلوقتِ.. سيبي القوس مفتوح، فكري وخدي وقتك وأنا منتظر"..

غاصت في تلك الهدنة بين جفنيه، ذلك الهوى الصريح الذي لم يحاول مواراته أو مداراته..

ابتسمت ووعدت بجواب قريب..

جواب كان..

نعم!..

(1)

بين ضفتي نهر الحياة هناك حبلٌ رفيعٌ معلقٌ يصل بينهما.. نحن فوقه عابرون..

فقط لنحذر السقوط..

**

ذلك النهر المتدفق، الحائر بين ركود ومسير هادئ.. ضفته القريبة ميلاد، وتلك الأخرى التي نظنها بعيدة موت.. بداية ونهاية، لحظة سعادة ومستقر حزن.. مستهل وختام..

وبين كليهما، حياة..

جسر ممتد، واهن.. لتعبره عليك التشبث بكل ما فيك..

إن أردت أن تنجو، لا تتخلى عن التمسك بجانبيه، لا تفلته، لا تحرر إصبعًا.. وإلا فمصيرك الغرق في القاع!..

جميعنا نحيا الروتين بشكل ما.. أغلبنا يتقبله، تمر به السنون والأيام تباعًا حتى لحظة النهاية.. وقِلة محدودة.. تتمرد!..

تحتج، ترفض وتبحث عن المغامرة، تفضل الغوص بأعماق المجهول وإن كان مخيفًا أو غيرَ محمود العواقب..

هي من هؤلاء.. أمها تخبرها أنها طائشة ولن تمر حياتها بسلام..

أبيها المسافر معظم عمرها لنجاح عمليّ أكثر منه ماديّ يُلقي نحوها بنظرة خيبة كأنما تمناها ذكرًا وفاجأه القدر بأنثى.. ويا ليتها من النوع الهادئ المطيع..

شقيقتها الكبرى التي تزوجت ثم أنجبت طفلين وتحيا روتينها الخاص بين الحفاضات والخبز الإفرنجي وجبن المثلثات وشطائر المربى والزبد والحلاوة الطحينية برضى تام؛ تقول عنها أنها ستقع على أم رأسها وستدق عنقها خلال رحلة بحثها المخبولة عن الجنون..

لكنها لا تكترث..

مغامرتها الخاصة تنتظرها في مكان ما وعليها أن تجتهد وتثابر لتعثر عليها وحسب!..

والدها هذه الأيام يقضي معهم أجازته السنوية، وكعادته يصطحبهم في رحلات متعددة داخل وخارج العاصمة تعويضًا عن غيابه.. اليوم هو يوم بسيط بأحد أفخم فنادق القاهرة "نايل بالاس".. قضته العائلة ومن ضمنها طفلا شقيقتها الشقيان وزوجها سلس الطباع..

"Day use"..

بعضه عند المسبح، بقيته بمطعم المأكولات البحرية.. وساعة أخيرة في أحد مقاهيه العالمية تستنشق عبق الاسبريسو باستمتاع متلذذ جوار صديقتها الوحيدة..

وليكتمل المشهد الباهت بنظرها؛ تسللت في الخلفية ببلادة موسيقى كلاسيكية ناعمة لا تشبهها، مطت شفتيها بملل:

- إيه المكان ده بجد!.. حتى اختيارات بابا تزهق..

راقبتها الصديقة بابتسامة واسعة رائقة تتفهم ما تمر به:

- الفندق تحفة يا زولي؛ مش كل مرة تعملي مع باباكِ كده..

زفرت بتذمر وارتشفت رشفتين متتاليتين من كوبها:

- ما هو اللي كل أجازة لازم يجيبنا أماكن مملة..

تراجعت في مقعدها تطوف بالمكان بعينيها:

- مافيش مرة نروح فندق يحصل عليه هجوم مسلح مثلا!..

شهقت المواجهة لها بصدمة تجاهلتها هي وأردفت بشرود تائق:

- ياخدونا رهاين ويعملوا مفاوضات بقى ونعيش مغامرة تخوف..

استمرت على تجاهلها لغصة الصديقة برشفة عصيرها البارد مكملة:

- طيب بلاش هجوم مسلحين، ليه ما كناش من الصعيد وبابا يكون عليه تار وهرب بينا، بعدين يجوزني غصب لواحد من العيلة التانية عشان نوقف نزيف الدم!..

قهقهت صاحبتها فخرج العصير من أنفها بعنف موجع جعلها تسُبَّها:

- يا بنتي حرام عليكِ، أنت طالعة من فيلم قديم!..

- لأ.. أنتوا اللي عايشين الحياة بطريقة تجيب الضغط والسكر والمرارة يا روفي..

تنهدت الفتاة باستسلام كأنما ذلك الحديث دار بينهما مئات المرات:

- سلامة مرارتك يا زولي..

زفرت "زولي" بضيق تتأمل ملامحها التي تضج بالحياة في مرآة مواجهة باهتمام، تحرك شفتيها وتضمهما ثم تلعق السفلى الممتلئة بنعومة مغرية عندما لمحت فوقها بقايا كريمة الكعكة المحلاة التي التهمتها مع قهوتها:

- طيب ما ينفعش أتخطف ويطلبوا من بابا فدية!.. أو يهددوه إنهم هيقتلوني!..

ضحكت رفيقتها واستقامت تشير إليها:

- أنتِ مجنونة والله، تعالي نرقص..

تبعتها بضجر سافر، تضغط أحرف كلماتها بتأكيد:

- دي موسيقى مملة يا رهف..

تأملتها تتحرك تجاه رجل "الدي جي".. تهمس له بشيء ما لتتبدل بعده المعزوفة الهادئة إلى صخب جامح ركضت تبعًا له خطواتها بمنتصف المكان.. تتمايل بعفوية، بحيوية وانطلاق.. وخصلاتها البنية الكثيفة تغمر وجهها..

تقفز.. تمرح.. وتنسى.. تعيش مغامرتها الخطرة بعقلها وتتمنى أن يجود عليها القدر بواحدة واقعية تحياها بجنونها وتفاصيلها الكاملة.. قديمًا قالوا: احذر مما تتمنى!..

لأنه عندما انتهى اليوم وأعلنت أنها ستعود بصحبة صديقتها التي تنتظرها بمرآب الفندق الضخم؛ عند الدوران المظلم.. تحققت أمنيتها!..

يد امتدت من الظلام الغريب حيث المصابيح كلها مطفأة..

كممت فمها ودفعتها لحائط مقابل يحتجزها جسد ذكوري صلب لم تتبين ملامح صاحبه الذي همس بأذنها بخشونة تسارعت لها نبضاتها بذعر:

- ولا كلمة..

ضربت أنفاسه الهادرة وجنتها عندما ثبَّت وجهه قربها باستطرادة مقتضبة:

- وإلا هاخلص عليكِ..

**

أن تشتهي المخاطرة شيء، وأن تخوضها فهو النقيض تمامًا..

كانت محشورة بين الجسد مبهم المعالم فشعرت به يحيطها من كل زاوية، وبين الجدار البارد الذي يلسع ظهرها.. وعطره يفوح بشذى الأعشاب البحرية المختلطة برائحة التبغ!..

تحاول عبثًا دفعه لكنه لا يتزحزح.. تجاهد لترى منه ملمحًا يخبرها عن هويته والعتمة اشتركت مع غموض اللحظة في منحها اللاشيء..

مرت بجسدها رجفة ابتسم لها ولم تره.. مال يهمس بعدما تيقن من ذعرها الحقيقي:

- هاشيل إيدي، بس لو صرختِ...

ترك بقية تهديده معلقة بدوامة حول أفكارها تستنتجها كيفما شاءت، أومأت تحت كفه التي تحتجز أنفاسها وشفتيها وخنوعها يعجبه.. مرر سؤاله بنبرة خبيثة لم تفهمها:

- وعد!..

كررت الإيماءة بوهن، أبعد يده فانتفضت ببداية صرخة حبسها بسرعة وذراعه تكبل خصرها باحتجاز مخيف:

- تؤ تؤ.. مش قد كلمتك يا زولي..

لامست دموعها أنامله في الظلمة فأيقن من بكائها الصامت، زفر بضيق وأجلى صوته أكثر بحزم:

- المرة دي وعد بجد..

يقرر لا يسأل.. يأمر لا يطلب، وهي استكانت وفضولها يشتعل..

لو أراد إيذائها لفعل.. صحيح!..

وتعاقبت بذهنها كل السيناريوهات المشابهة..

اغتصابها في مؤخرة سيارته ربما.. أو سجنها كرهينة ببيته يغتصبها وقتما شاء، حتى يمل فيقتلها ويلقي بجثتها على قارعة طريق مهجور؛ لا تعلم.. وتتساءل لمَ طفت حبكة الاغتصاب وحدها بذهنها المرتعب!..

لكن هذا الصوت!..

سمعته من قبل..

أحست بيده الثانية تمتد وراء ظهرها، تضغط مفتاحًا ما فيضيء المكان وتغمض عينيها لوهلة قصيرة فتحتهما بعدها تتأمله..

اللعنة..

هي تعرفه بالفعل؛ تطلعت لابتسامته الرجولية بمكر غريب يبدو محفورًا بين طياتها، دُجنة عينيه الحالكة بنظرة ثقيلة الوقع، وخصلاته الطويلة المصففة بعناية تناسب وجهه..

ترك لها متعة تأمله للحظات تمتم بإثرها:

- ها.. جربنا الخطف!..

توسعت عيناها بإدراك غاضب؛ لقد استمع لحديثها الأهوج مع الرفيقة الغائبة عن المشهد..

أحنى رأسه وحررها بغتة:

- لو صرختِ هاسكتك بطريقة تانية..

لم تفهم مقصده أو تبالي به، دفعته عنها بقوة وهتافها يحتد بينما تمسح عبراتها المهينة بقسوة:

- أنت مجنون!..

تلاعبت ابتسامته بين العبث والدهاء والوقاحة:

- آه..

ألجمها رده الصريح المقتضب فهاجمته:

- أنا عارفاك..

فرد كفه فوق صدره بتواضع وازى نصف انحناءة:

- يزن أبو الغار.. مدير الفندق..

زفرت بأنفاس لاهثة متتابعة لا تصدق نجاتها من خطر تمنته وحينما تحقق كاد يوقف قلبها.. أبعدت خصلاتها عن وجهها بحركة فاتنة وزمت شفتيها في غير استيعاب:

- طيب ممكن أفهم إيه اللي عملته ده!..

تراجع خطوة يهديها شيئًا من مساحتها الخاصة التي داهمها بالكلية قبل دقائق:

- كنت بأعيشك المغامرة؛ وقررت أبتديها بالخطف..

لم تفطن لمغزى كلماته فأشار بيده ببساطة مغيظة، بل مثيرة للحنق:

- سمعتك مع صاحبتك..

وسكن لحظة مفكرًا قبل أن يحسم أفكاره بعرض باغتها:

- إيه رأيك بقى نجرب جواز الغصب!..

لَم تدرك لِمَ توجس قلبها رغم أن مغامرتها قد قُدمت إليها على طبق من ذهب!.. ما تمنته؛ أدركته وإن كان جنونيًا.. لكنها تخشاه حد الهرب.. وذاك ما فعلته..

**

"لاريسا – اليونان"

أحيانًا لن تكون مجبرًا أن تبيع روحك للشيطان؛ هو سيسلبها منك عنوة..

عادت لبيتها من مناوبتها الليلية الطويلة بقسم الطوارئ بمشفى مدينة "لاريسا" التذكاري منهكة، عند الفجر أتاهم ضحايا حادث تصادم وكانت هي وأخرى الممرضتين الوحيدتين في مناوبة هادئة حتى بدأ توافد سيارات الإسعاف محملة بالمصابين..

أغلقت الباب من ورائها واستدارت تخلع معطفها لتراه عبر الردهة يقف بالمطبخ المفتوح..

حافي القدمين بسروال قطني دون سترة منامته وخصلاته الداكنة مشعثة بهيئة برية..

يضع حبيبات القهوة خاصته بالماكينة ويصب فوقها الماء ببطء كأنما يمنحها الفرصة لتتمازج على مهل..

كان وجهه متواريًا بظل لا تصله أشعة الشمس الصباحية المتسللة من بين ستائر النافذة الفاتحة، اقتربت بحرص في محاولة لمباغتته لكنه بادر قبل أن تلمسه:

- تأخرتِ كاليوبي..

تنهدت بإحباط وامتدت يداها تحيطانه بضمة مشتاقة.. تهمس بدلال:

- أتانا مصابي حادث بشع قبل الشروق..

ثم دارت حوله تواجهه بشقاوة محتجة:

- أنتَ خارج الفراش!..

هز رأسه ببديهية ونظرته الصلبة لا تفاوض:

- أنتِ تأخرتِ..

أحاط خصرها بتملك دومًا ما يفتنها، بل يستحوذ عليها.. امتلك شفتيها بومضة خاطفة ورفع حاجبه متراجعًا:

- سآخذ حمامًا وأتناول قهوتي بعدها أذهب إلى عملي..

سارت بأناملها ترسم خطوطًا عشوائية على صدره بعبث:

- حبيبي.. أنتَ تدير مطعمك الخاص؛ لا ضرر من بعض التأخير.. يمكنك أن تعود إلى الفراش ثانية..

شبه ابتسامته الغامضة التي تأسرها مال بها فمه وهو يحررها:

- نعم يمكنني..

تحرك عائدًا تجاه غرفة النوم بينما هي تتبعه بسعادة؛ كونه سيكسر إحدى قواعده لخاطرها، ليقضي وقتًا معها.. بتر سعادتها بغتة بحسم بارد:

- لكنني لن أفعل..

توقفت لحظة مبهوتة بضيق، تجمدت بمكانها ودبت قدمها بالأرض بعناد:

- جايكوب!..

لم يكترث ذرة بل أكمل طريقه إلى حمام الغرفة مستمتعًا بغيظها:

- أنتِ تأخرتِ كالي..

قرب بابه ثبت لثانيتين استدار إثرهما إليها بنصف نظرة مبهمة من فوق كتفه:

- يمكنكِ الانضمام إليّ إن أردتِ..

وترك لها الخيار الذي يعلم وتعلم أنها ستفعله..

هو ليس الشيطان..

هو فقط منبوذ آخر سقط من الملكوت!..

**

على حافة الفقد تتساوى الخسارات..

بعد الوصول للقاع أمامك خياران؛ أولهما البقاء حيث أنت مدفونًا تحت ركام هزائمك.. أو القتال، التسلق.. الصعود..

وصلت للمشفى الذي تديره منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، مشفى يحمل اسم أبيها الراحل، وكانت لتكون أحد أكبر جراحيه لولا أنها تركت الجراحة لدنيا الإدارة وبعض الاستشارات بين حين وآخر؛ وقتما تقدمت لتحتل موقعه في مجلس إدارته بعد وفاته..

استقبلتها مساعدتها ببسمة عريضة لم تردها كعادتها، تبعتها لمكتبها في محاولة بائسة لمجاراة خطواتها الواسعة السريعة.. تملي عليها جدولها اليومي والذي يبدأ بلقاء السمج الذي يظنها لقمة سائغة لأنها امرأة وحيدة تخطت حاجز الثلاثين قبل شهرين:

- دكتور فضل حدد ميعاد الصبح مع حضرتك أول ما توصلي، بيقول في مشكلة في جدول عملياته بتاع الأسبوع ده...

- خلاص يا لمار، لما يوصل دخليه.. خمس دقايق بالظبط وتبلغيني باجتماع مجلس إدارة المستشفى..

اعترضت الفتاة بتذكير مستغرب:

- بس الاجتماع لسه الساعة 11 حضرتك..

استقرت خلف مكتبها باستحواذ يليق بها، بهالة السيطرة التي تحاوطها.. رفعت رأسها إليها بنظرة شبه ممتعضة:

- نفذي اللي باقوله..

تراجعت المساعدة بحرج، أومأت بطاعة وإن لم تفهم:

- أمرك يا دكتورة وسن..

"صباح الخير"..

من الخارج عبر الباب المفتوح أتى الصوت، تبعه ظهور صاحبه بحضور دومًا ما يقلب معدتها..

بتلك النظرة التي تبغضها..

هو في كل لقاء يرمقها بها من بين جفنيه المنغلقين في شبه نعاس مستفز فيبدو وكأنه يلتهمها بعقله، أشارت له دون أن تترك جلستها:

- دكتور فضل.. خير!..

جلس على مقعد يواجه المكتب ببسمة صفراء:

- طيب ردي الصباح الأول يا دكتورة..

لم تنطق بحرف..

حافظت على صمتها وحدَّتِها ترسل بسهامها تجاهه عبر نظراتها التي تأمره بالاختصار، تنحنح دون ضيق ملوحًا بكفه في إشارة مبهمة:

- دكتور عدنان زودها يا دكتورة وسن، الأسبوع ده كان عندي عملية وحجزت عمليات "1" اتفاجئت إنه غيرها لعمليات "2" وأنتِ عارفة إن الأوضة دي محتاجة تجديد وما بعرفش أشتغل فيها.. كان عندي عملية حساسة و...

لم تكترث لبقية حديثه، هو في كل مرة يفتعل مشكلة ليحضر لمكتبها، يحاوطها بعينيه الخانقتين، حجة سخيفة يتبعها غزل مثير للقرف.. رفعت سماعة هاتفها بغتة بينما توقفه بحزم:

- أيوة يا لمار؛ ابعتي في طلب دكتور عدنان..

أغلقت الخط وأخبرته بعملية قبل أن تغادر مقعدها:

- هاحل مع الدكتور المشكلة، وإن شاء الله هنتكلم في اجتماع النهاردة عن التجديدات المطلوبة، شكرا يا دكتور فضل..

تركت له المكتب متجهة إلى غرفة الاجتماعات، ستعتزل هناك في محاولة للنهوض بذلك المكان الذى تداعى قبل سنوات ومن يومها وهو لم يعد كما كان رغم جهودها التي تخطت حدود قوتها وطاقتها..

بعد ساعتين كان الاجتماع، ضجيج واعتراضات من فريق الأطباء، العجز في غرف العمليات والعناية المركزة.. نقص الأجهزة وأعطاب القديم منها حتى أوقفت الجميع بحسم صارم أخرسهم:

- أنا مش عاوزة اعتراضات، أنا عارفة فين النقص وفين المشاكل بالظبط وبالتفصيل؛ أنا عاوزة حلول تتحط قدامي.. إيه ممكن نعمله عشان نجدد خصوصا إن السيولة محدودة والمستشفى بعبع لناس كتير!..

صمتوا دون رد كأن على رؤوسهم الطير.. تبادلوا النظرات بحيرة، قبل أن يأتي اقتراح أحدهم..

أشيبًا نحيف الجسد قصير القامة خبيث النظرة؛ وإن كان أحد أفضل الأطباء بمشفاها:

- إيه رأيك يا دكتورة نعمل حفل خيري!..

التفت الجمع إليه، أعينهم ما بين دهشة، استحسان واستغراب كان منها هي حين أردف بعملية مقنعة:

- حفلة نجمع فيها تبرعات ونشجع رجال الأعمال على الاستثمار في المستشفى، ونعلن عن افتتاح عيادة مجانية تخدم محدودي الدخل..

هنا علت الأصوات بالاعتراض مجددًا، فمن أين التكلفة التي قد يتم بها افتتاح جديد في حين أن القديم لا تكفيه موارد العمل الحالية!..

كما أن فكرة دخول مستثمر بغرض مادي بحت مقلقة للبعض..

تركتهم لمناقشاتهم.. أنصتتْ لكل مؤيد وكل معارض، بحثت الأمر بعقلها لعشر دقائق ثم أنهت الجدال بقرار:

- أنا موافقة على الفكرة مبدئيا..

وأشارت للطبيب صاحب الاقتراح:

- دكتور شاهر حضرتك هتكون مسؤول عن تنظيم الفعالية دي، هتعمل لها دراسة مفصلة وتبلغني بيها، دعوات رجال الأعمال، إعلانات في التليفزيون والجرايد.. بعدها هنشوف موضوع الاستثمار والعيادة المجانية، إذا هنقدر نفتحها ولا لأ..

عادت لمكتبها بعد مرور على أقسام المشفى ومتابعة سير العمل وطاقم الأطباء والممرضين..

استرخت على أريكة جلدية صغيرة بأحد أركانه وعقلها يعود بها للحظة الفقد..

والدها الذي رحل وخلَّف من ورائه حملًا ثقيلًا انحنت له إرادتها بعدما تخلت عن عملها كجراحة وطبيبة بمشفاه..

"مشفى السلامة"..

الاسم الذي يحمل في سجله الكثير من النقاط السوداء مهما حاولت تخطيها وإصلاحها..

قرب الغروب كانت تصل لمنزلها الصغير، تمر بحديقته، ترمق الأزهار حال استعدادها لغفوة الليل، تفتح لها مديرة المكان التي أصرت على العناية بها مهما كبُرت..

تأمرها بحنان أُم أن تغير ثيابها وتأتي لتناول الغذاء المتأخر، تنهرها على إهمالها لصحتها وطعامها كطفلة، ثم تشيعها للفراش بكوب

من الحليب الدافئ المحلى بالعسل، ولا تنسى ملاحقتها بأحقيتها في زوج وبيت وأطفال وقطار العنوسة الذي يبدو أنه سيدهسها..

بالفراش تهاجمها أفكارها.. يحاربها ماضيها..

معركة يومية لم تفُز بها في مرة..

تنزلق لوضع نوم فوق جانبها الأيمن وتُلقي تحية عابرة على صورة والدها عند طاولة مجاورة..

لقد تزوجت من العمل، كفاحها لأجله يكفيها وينهكها حتى أن احتلال آخرين لحياتها لم يعُد أمرًا في الحسبان..

هي تتشبث بمحاولة صعود نصف فاشلة، فالخضوع للهزيمة رفاهية ليست في متناول اليد!..

**

في رحلة البحث عن الجنون نقابل الهاوية، نحتاط للحؤول دون السقوط، نتشبث بجدران الممر الضيق ونفتش عن أرض صلبة، ثابتة تتحمل خطوات ركضنا المتعثرة التائقة..

في رحلة البحث نندفع لكن بشبه حذر..

في رحلة البحث أحيانًا محركنا يكون الفضول.. وحسب!..

والفضول كما نعرف جميعنا؛ قتل القطة..

مر يومان فقط؛ حديثه أجج النار بأفكارها وبدلها لجحيم غاص حتى في أحلامها باقتحام مزعج..

تنام فتحلم به، تتراءى لها هيئته الوسيمة الغامضة بخشونة جذابة رغم إشارات التحذير التي تنبه عن مطب قريب.. تصحو فتفكر بالحلم، وتصول كلماته وعرضه المبهم وتجول بعقلها فيغرقها بالحيرة الشغوفة..

إن كان الجهل آفة البشر فالمعرفة حريق وقوده؛ فضول..

لذا في اليوم الثالث عادت إليه!..

لم تعجبها نظرته التي تخبرها بثقة عن يقينه بعودتها، دعاها لتناول قهوتها وكعكتها تمامًا كآخر مرة بذات المقهى وواجهها عبر طاولة بركن هادئ في المكان..

كان يرتشف كوبًا دافئًا من الشاي الأخضر المنكه بالنعناع ورائحته تتصاعد لأنفها ممزوجة بدخان تبغه الذي ينفثه بأناقة غريبة، كأنما يشكل به الكلمات قبل نطقها:

- العرض لفت انتباهك!..

ولأنها هي.. لا تحب الالتفاف حول الأمور أو المواراة السفسطائية المموهة؛ وُلدت على شفتيها بسمة مكبوت بها الغيظ كما لاحظ:

- لازم..

مال فوق المائدة ونظرته الداكنة تمرر سخرية ضايقتها:

- كنت عارف إني اخترت صح..

نال من عصبيتها بتهكمه فعقدت ساعديها بلا إبطاء:

- اتفضل اشرح.. سامعاك..

عاد بظهره لوضع استرخاء لامبالٍ حد البرود:

- بسيطة؛ هتروحي تقابلي جدي عشان تقولي له..

بتر كلماته يتأمل ترقبها، لهفتها ووهج عينيها البنيتين بلون قهوتها قبل أن يردف بحسم جاد لم تتوقعه:

- إنِك حامل مني!..

كادت تشهق.. بل طالت أنفاسها بدايات شهقة وتغضن جبينها أعلى نظرة تخبره أنه قد فقد عقله..

أر ربما هي من كانت على وشك فقدان عقلها بمعمعة الخبال الذي ثرثر به في اختزال مختصر.. ومخل!..

**

هناك فوز تهون أمامه كل خسارة سبقته..

خطوة أخيرة، اتصال هاتفي بصوت رصين تشوبه لهفة جشع يميزها على بعد أميال.. معلومة ينتظرها، حدث خطط له.. هو!..

"عمار الديب"..

ذئب شرس، غير قابل للترويض، نجا من فخاخ الصيادين بعدما أغلقها حول أعناقهم هم..

"عمار الديب"..

الخلل في كل ثابت، الثغرة في كل خطة محكمة..

والموت في أعين أعدائه!..

وهو الآن ينتشي بنصر على وشك الاكتمال:

"الحفلة اتحددت كمان شهر زي ما اتفقنا"..

نصر بمذاق النهاية!..

(2)

أعلى هاوية الجحيم نقف كلنا في انتظار؛ يحول بيننا وبين السقوط فقط..

دفعة!..

**

هي تعشق المفاجآت.. لكن ماذا عن الصدمات!..

ألقى ما يريد على مسامعها بسلاسة تامة، هادئة وغريبة.. كأنما يخبرها عن ماهية طقس اليوم؛ مشمس وبرودة الشتاء لم تستطع هزيمة دفئه..

كان الحل الأمثل أن تنهض، تقذف وجهه بقدح القهوة الساخن فتحرقه.. تسبه وترحل بلا عودة..

ذاك هو الحل الأمثل، والقرار الأصوب.. لكن معها هي؛ الجنون دومًا ما يأتي كخيار أول!..

جمدت بمقعدها ترمقه بنظرة مرتابة تمازج فيها التعجب بالدهشة والاستنكار والتوجس؛ هل عليها أن تخافه!..

أي فتاة بمكانها تملك ذرة من عقل ستفعل، وهي فقدت تلك الذرة الباقية مع اقتراحه المثير.. نطقت أخيرًا بلهجة تتأرجح بين التساؤل والتقرير:

- أنت أكيد مجنون!..

مط شفتيه بملل غريب:

- أنا جاوبت على السؤال ده قبل كده..

باستمتاع طافت عيناه فوق ملامحها..

وجنتيها المحمرتين بخجل إثر تصريحه الوقح، عضتها القاسية لشفتيها بضغط متوتر من أسنانها وأناملها التي امتدت تزيح خصلاتها خلف أذنها بارتباك أمتعه..

بادر بحزم؛ يدرك أنه أخافها وحان وقت المزيد من التفاصيل.. فموجز الأنباء وحده لا يكفي:

- الخطة سهلة ومباشرة وعاوزة بس شوية تمثيل على دمعتين ولو انهيار مافيش مانع، هتقولي له إني كذبت عليكِ وخدعتِك وأوهمتِك بالحب لحد ما صدقتيني وباسم الحب ده سلمتيني أغلى ما تملكي.. وبلا بلا بلا إلى آخره..

تضاعفت حمرتها حد احتقان فاتن خطف بصره، ووازى الاحتقان نظرتها المترددة إليه كأنه مختل هارب من مشفى للأمراض العقلية أو ما شابه..

لكن غلب قطته فضولها بسؤال:

- وليه أقوله كده!..

تنهد بتمهل، شردت عيناه بعيدًا في ماضٍ تجهله:

- The end justifies the means..

الغاية تبرر الوسيلة!..

قفزت لذهنها كل المواقف التاريخية الحقيرة التي استخدمت هذه العبارة المكيافيللية.. أطل الاستفهام من عينيها فأوضح بإيجاز:

- دي حكاية طويلة؛ بس السبب الرئيسي.. عشان يطلب رجوعي ويجبرني أتجوزك..

معلومة أولى.. هو منبوذ، مطرود!..

عقدة حاجبيها لم تنفك خاصة مع اهتمامها بشروده قصير الأمد وحيرتها في معناه.. سكنت تفكر، تنبش عما يشبع احتراقها وتلهفها للفهم، وكل ما يحيط به جامد هادئ لا يفضي بشيء، زفرت بلا اقتناع:

- وهو هيصدق الفيلم الهندي ده!..

تذكر جده؛ كيف يراه.. تذكر الغضب والتمرد، الضياع والانفلات.. تذكر الرفض، البتر.. والإقصاء!..

تذكر من مات دون سابق إنذار وعرف بموته وهو بعيد عنه، بمصادفة كسرته!..

نعم.. هو يظنه جانحًا، ضالًا، فاسدًا عديم الأخلاق والمسؤولية وقد كان.. بلى؛ سيصدق.. جاوبها باقتضاب مُدرِك:

- هيصدق..

معلومة ثانية.. هو رجل سيء؛ على الأقل بنظر جده!..

ورغم أنه خبَّأه بمهارة اعتياد عشر سنوات؛ فقد لمحت الألم.. توقن أنه لن يروي فضولها إن سألت لذا مررت ما استشعرته وأكملت:

- وبعدين!..

أطفأ اللفافة بمرمدة صغيرة في مواجهته واعتدل قليلًا:

- بعدين هاقعد معاه، وأحط شروطي..

- ونتجوز!..

أومأ بإيجاب بسيط كأن الأمر لا يعدو عن كونه قائمة طعام غذاء اليوم بمطعم الفندق، أكملت هي باهتمام:

- طيب والبيبي اللي قلنا إنه موجود!..

حرك كتفيه باستخفاف لا مكترث:

- له حل، عادي يعني..

تغاضت عن جوابه العائم واعتدلت بنبرة يشوبها شيء من حماس لمجهول لا تراه مخيفًا إلى هذه الدرجة:

- وبعدها نتطلق!..

ضحكته الخافتة أقلقتها، وازاها باعتداله وأهداها غمزة عابثة:

- مش لما نتجوز الأول!.. مستعجلة ليه كده؟..

معلومة ثالثة.. حزين ويجيد مداراة حزنه!.. أو هكذا تخمن..

توترت!.. عيناه.. نظرته.. ضحكته وغمزته الجريئة أعادتها لظهر مقعدها في استناد هارب:

- وأنا هاستفيد إيه من الفيلم ده!..

- هتعيشي المغامرة..

كأن هذا كافيًا!..

عندها تخلل اعتراض العقلانية والمنطق هتاف الثورة المسجونة داخلها بجواب صريح:

"نعم"..

مخاطرة.. حكاية..

وإثارة تشتاق خوضها كأفعوانية الملاهي التي تركبها وتصرخ بانفعال مبتهج وإن تسارع النبض حد الجنون..

لكن في الظل؛ كَمَن قلبها..

قلب أنثى، ككل أنثى يفتش عن الحب ولا يريد سواه، همست بحيرة:

- أتجوزك من غير ما أكون بحبك!..

احتجزت بسمته الماكرة عينيها في قيد لا يبيح لها فرارًا بينما هو يبرر ببديهية:

- القاعدة بتقول: مافيش حب قبل جواز الغصب..

تمتمت والأنثى تسعى للنصر بين حواشي الباحثة عن الخطر:

- بس ده مجرد حلم، الواقع يخوف..

واجهها في استواء متحفز، انتصب يستعد للمغادرة:

- ساعات الواقع بيكون ألذ!.. خدي وقتك، فكري.. وقرري..

أوقفتْ رحيله بسؤال أنثوي بحت جاوبه قبل أن ينتهي؛ فالمرأة دومًا تسقط في إطار التوقع:

- ليه أنا!..

- مجنونة.. وأنا الجنون بيشدني..

والتوى طرف فمه بمشاكسة متلاعبة:

- وحلوة..

كلمة "حلوة" اقترنت بتجوال ذكوري من عينيه فوق تفاصيل أنوثتها لحد أغرقها بالخجل.. هو يغازل!..

وتلك بداية الحدث، أما عنه فقد بتر حبكتها الرومانسية قبل البدء بجدية مباغتة:

- فجدي سهل يصدق إني ممكن أعمل معاكِ كده..

معلومة رابعة.. هو وغد!..

تجهمت؛ أدرك أنه أغضبها لكن ذاك ما أراد..

لا يريدها أن تنقب بين طيات الحكاية عن قصة حب، عن مشاعر منحها لأخرى يومًا ولم تفُز بها غيرها بعدها..

أخرى ضيعها بعيدًا رُغم امتلاكها لقلبه، بإرادته الحرة.. بخسارته!..

استقام واقفًا فرفعت وجهها إليه بجبين مقطب مغتاظ كطفلة لطيفة، أجبرت ملامحها شفتيه على ابتسامة، انحنى فوق الطاولة بسؤال مداعب:

- زولي ده إيه!..

- كمان مش عارف اسمي!..

أمال رأسه بخبث:

- عارف اسم باباكِ من حجز الـ day use..

- غزل..

نطقتها بشفاه ممطوطة بضيق كأن لامبالاته تزعجها، وهو سلك درب المجون باقتراب عززه هدوء المكان النسبي:

- إمممممم.. غزل..

ينطق أحرف اسمها بتلكؤ في تذوق متلذذ، وبعدها يصدمها بجرأة:

- غزل عفيف بقى ولا فاحش!..

معلومة خامسة أعجبتها برغم الحياء.. هو وقح!..

استمتع بتوسع عينيها والحمرة التي عادت لوجنتيها..

الشقية المجنونة تخجل في رفة جفن، لم تُجِبه ولم يطالب برد، تراجع بسؤال ختامي أسبغ عليه أكبر قدر من عدم الاكتراث:

- قاسم درويش؛ قريبكم!..

ردت بعفوية شاردة:

- جدو..

لم تلمح وهج الظفر بمقلتيه، كانت هاربة من نظرته حين أومأ هو برأسه دون مزيد ورحل..

مع خطواته المبتعدة ترددت همسته لنفسه بانتصار:

"Bingo"..

الغنيمة باتت له والعقبة؛ مجرد وقت..

أما الطُعم؛ فقد انتقاه بحرفية تامة لصيد الحوت العجوز!..

**

في غابة البشر؛ اختر الضارية الأنسب للبقاء وكن مثله..

الثعلب..

حيوان انعزالي..

يفضل الانفراد بنفسه في الغالب، مفترس يتصف بالمكر والدهاء وتلك حقيقة، صياد ماهر يدرك مقدار قوته ويقيس قوة خصمه قبل الهجوم؛ لذا هو دومًا فائز..

يكره الصيد في قطعان فمتعته أن يظفر بفريسته وحده..

وهي أبدًا لا تكون منفردة، الثعلب لا يكتفي بشبع اللحظة؛ بل يطمع فيما يليها حتى أنه يقضي على مجموعة طرائده بالكامل ويتلذذ بها لاحقًا على مهل..

الثعلب له أرضه الخاصة ومخبأه السري الذي لو دخله غيره لضل..

ذو مخالب حادة قوية.. يتربص، يكمن، يدرس خصمه.. يهاجم، ينقض.. وينتصر..

نقد سيء لمطعمه ذي الخمس نجمات.. نقد سيء ومراجعة تصاحبه تُعدد سلبيات إقامة عشاء ما بعد حفل الزفاف بالمكان..

خدمة متأخرة.. ضعف في التنظيم.. وطعام غير مقدم بعناية رُغم جودته، وفي نهاية الحديث توصية باختيار غيره..

رمى جهازه اللوحي فوق مكتبه بعنف كاد يحطمه، رفع عينيه بنظرة كالهلاك لكبير النُدل الذي ذاب سواد خصلاته في رماد متناثر يتماشى مع سنوات عمر شارفت على نهاية العقد الخامس..

تراجع الرجل خطوة كأنما ارتد بفعل احتدام النظرة، ارتبك وتلعثم أمام رئيس يصغره بأكثر من عشرين عامًا وملامح قاتمة جامدة لا تنبئ عما يخفيه:

- سيدي.. أعتذر..

سيده لم يجِبه، ظل يرمقه بسكون.. حدقتيه تتقد فيهما ألسنة اللهب وذاك هو الشيء الوحيد الذي يثبت انفعاله، بل غضبه المضطرم:

- أنت تعلم أنني وزوجتي انتظرنا ما يقرب من خمس عشرة سنة لنحصل على طفل..

نعم يعلم.. كان مراهقًا طحنته الحياة عندما التقى "إيليا" وزوجته للمرة الأولى، حينما بدأ عمله بمطبخ المطعم كطاهٍ مبتدئ لايزال قيد التدريب فقط لأنه المكان الذي أمكنه العمل به..

استوى في جلسته باسترخاء بارد، يضم كفيه حول أنفه فيكاد يخفي نصف وجهه وورائهما عينيه تطالعانه من قلب السعير:

- ربما كان عليك التفكير في مستقبل الصغير قبل التغيب عن يوم عمل هام سيد إيليا ودون إعلام مسبق..

تضاعف ارتباك الرجل، دافع بتوسل:

- انشغلتُ سيدي.. زوجتي كانت بين الحياة والموت، وحتى طفلي أتى بعد عناء.. حاولت الاتصال لكن...

- لكنك تأخرت..

فرق يديه ليكشف عن زمة شفاه صارمة:

- تأخرت حتى أنني أشرفت بنفسي على الحفل لكن بعد فوات الأوان..

أحنى نادله رأسه باعتذار:

- آسف سيدي.. هذا الغياب المباغت لن يتكرر..

ناوشتْ شفتي المستقر بمقعده -كأنه ملك فوق عرش شيطان- بسمة وحشية:

- أنا موقن من ذلك سيد إيليا..

مع حيرة ملامح الرجل تبدلت نبرته لحزمٍ قاسٍ واحتل وجهه انفعال شرس:

- لأنك مطرود..

- سيدي!..

هتاف يستجدي رحمة أو إعادة تفكير!..

رحمة لن ينال ذرة منها حيث أنه رجل لا يفكر مرتين:

- سيصلك ما تبقى من مستحقاتك إلى بيتك، بلغ تحياتي لزوجتك ومبارك الصغير..

بُهت رئيس النُدل كأنما لا يصدق أن يتم فصله من عمل استمر فيه أكثر من نصف عمره.. ارتجف فكه واحتد بضعف:

- ما كان السيد خليل ليفعل ذلك..

ذكر الاسم لم يؤثر بالجالس سوى أن منحه جوابه الخالي من كل شعور:

- السيد خليل.. مات..

اعتكف بمكتبه حتى تخطى الوقت منتصف الليل، تفقد المطبخ وصالات الطعام الأنيقة بتفتيش أخير ثم غادر إلى منزله..

بأعمق أعماقه هناك عتمة قاتمة يخشاها النور؛ نعم يسيطر عليها.. لكن أحيانًا تستحل هي السيطرة..

عتمة خلقها من نبذه كأنه لم يوجد، من رحل باختياره عن دنياه قبل أن يحفظ ملامحه أو يستوعب تفاصيله..

فتح باب المنزل لتفاجئه صديقته بحضور مغوٍ يعزز فتنتها..

ثوب أسود مخملي يصل لكعبيها، على جانبه الأيسر شُق يمتد لأعلى ساقها الناعمة.. وصدر واسع يكشف عن جسدها بفتحة مثلثة مثيرة وإن احتشم بأكمام طويلة، تجمع خصلاتها الغجرية على أحد كتفيها وتنتظره بنظرة عاشقة:

- جايكوب..

اقتربت تمد يديها إليها، ترتفع على أطراف أصابعها رغم الحذاء عالي الكعب لتلامس شفتيه بقبلة دافئة تعد بالكثير.. تأملها ثم دار ببصره في المكان الهادئ خافت الإضاءة إلا من شموع عطرية موزعة برومانسية تتنافر بعنف ومزاجه الحالي:

- مرت أربع سنوات حبيبي..

لم يبادلها القبلة أو يكترث بما تمنح، أتى سؤاله البارد ليقصم كل أفكارها الحالمة:

- أربع سنوات على ماذا!..

مطت شفتيها بدلال متذمر، مدت يدها تمسك بكفه تمر بسبابتها فوق ندبة بعرض باطنه:

- على أول مرة التقينا فيها، بالمشفى عندما قطبتُ جرح يدك.. هل نسيت!..

انخفض بصره حيث يده وأناملها تداعب أثرًا لا يُنسى:

- لدي ندبة تذكرني كالي..

وكزت كتفه برقة مغتاظة:

- يا إلهي.. أنت سيء في الأمور العاطفية..

عقد حاجبيه.. هي لا تعلم عما تتحدث!..

حسنًا.. عليه أن يخبرها؛ مال قرب أذنها بهمس خفيض ونبرة خشنة أجشة أجفلتها:

- أنا سيء في كل شيء عزيزتي..

ابتعد عنها متجاهلًا الطعام الذي يلمحه عند المائدة، العطر والإغراء والفتنة..

تتبعته بنظرها في دهشة حتى انتهى قرب باب محرم عليها حتى الوقوف عنده:

- سأكون بغرفتي..

صومعته.. محرابه.. معتكفه؛ المكان الذي لم تدخل إليه في مرة وربما لن يُسمح لها أبدًا.. هي اعتادتْ، تعلمتْ ألا تعترض أو تتدخل..

بدأت في لملمة ما أعدت بإحباط مستسلم؛ فمادام قد اختار الانفراد بنفسه في وحدته بذلك السجن المغلق.. لا بديل سوى انتظار خروجه..

أغلق الباب الثقيل من خلفه وتحرك يضغط زر الإضاءة، تتلكأ عيناه في طواف خامل -كبركان خامد بانتظار ثورة- حول كل ركن قبل أن يستقر بالمقعد الوحيد بالغرفة..

هو رجل يرقص على حافة الجحيم بعدما فرَّ منه، ولا يُرهبه السقوط!..

**

هو رجل الواجهة الصلبة وإن غرق القلب بأحزانه..

رجل فريد اعتاد السيطرة على كل شعور بخلفية تشمل تربية عسكرية، حيث جدٍ من رجال الثورة المجيدة كما أطلق عليها في طفولته وهو يحكي له عن بطولاته.. وأبٍ لم يشذ عن طوق الجد أو يخرقه حتى أتى هو..

رفض الحلة الرسمية واللقب وبطيش شباب أغضب أبيه وأحبط جده؛ قرر خوض درب رجال الأعمال..

رجل عصامي كما يسمونه، بنى نفسه من فوق الصفر بقليل..

رجل لا تشي ملامحه أو عيناه بذرة من انفعال وإن احترقت دواخله وقبضت يداه على الجمر..

إلا في وحدته..

تنزاح الصورة الجامدة، تهتز النظرة وتشرد.. يتقوس الفم بانحناء خاسر..

غافل!..

غافل تمامًا عن مراقبة شريكه الشاب لوجهه كصقر جارح، عن تخمينه لأفكاره بيسر، فالحوت العجوز لا يغيب إلا في.. أحفاده!..

عندما دلف لمكتبه بشركته التي اضُطر لطرح الكثير من أسهمها للبيع قبل سنوات وكان حوت آل "أبو الغار" من اقتنصها.. وجد العجوز هناك بانتظاره..

رسم على شفتيه بسمة مرحبة بها شيء من ود:

- يونس بيه..

صافحه بهدوء نسبي يخفي به تساؤلاته عن سبب الزيارة رُغم كونه أحد أعضاء مجلس الإدارة:

- منور الشركة..

تبدلت نظرة "يونس أبو الغار" وانقلب شرودها لوهج غريب يفوق ببريقه سنوات عمره التي تخطت السبعين:

- قلت أعدي أشرب معاك القهوة وأهو نتكلم في صفقة التوريدات الأخيرة..

استقر الآخر خلف مكتبه بسلطوية تشبهه:

- تنورني طبعا..

لم ينبس "يونس" بحرف زائد ومضيفه يستنتج وجهة شروده:

- حفيدك برده!..

رمقه الجد بنظرة شاحبة باغتت مقلتيه:

- مافيش غيره، هو الوحيد اللي هاسيب له كل ده يا عمار..

ضميره ينهض من كبوة العقل الذي كبله يومًا حد النبذ..

حد القسوة والرفض والتعنت.. ثم الطرد..

وعقب ذاك..

الفقدان!..

- ربنا يديك الصحة يا يونس بيه ما تقولش كده..

ابتسم "يونس" بمرارة ساخرة:

- وبعد الصحة ما تخلص؟..

ترك "عمار" مقعده نحو ثلاجة صغيرة بركن الغرفة، تناول منها زجاجة عصير طازج، مد يده بها للجالس أمامه بركود، قبل أن يرفع سماعة هاتفه ويطلب من مساعدته قهوته الخاصة..

ركود داهم واجهة العجوز فتصدعت تظهر ما يخفيه:

- اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا.. فكر في بكرة على أنه بتاعك أنت يا يونس بيه..

وجلس يواجهه بحزم عملي خالٍ من المشاعر التي يؤمن أنها نقطة ضعف البشر الأزلية:

- لأنه لو مش بتاعك؛ يبقى هتقلق ليه!..

تنهد "يونس" ورمقه بتأمل صامت لثوان..

فبمكانه هو لا يرى ما يراه.. "عمار" مازال شابًا، الحياة أمامه ممتدة والمستقبل يسهل عليه تشكيله كيفما شاء، شابًا يمكنه الزواج والحصول على وريث في أي وقت.. لن ينمحي اسمه من سجل الوجود والحياة بموت الجسد، حول أفكاره لكلمات مسموعة:

- الكلام بالنسبة لك سهل يا عمار، لسه شاب والمستقبل قدامك، تقدر تتجوز وتخلف اللي يشيل اسمك ويكمل معاك.. لكن أنا زي ما بيقولوا؛ حسن الختام..

ألجم بقية حديثه وأجهض كل شعور ممكن..

الخسارة..

من أبعد.. ومن فقد!..

والذئب ليس حديث العهد بالسوق، بحروبه وصراعاته، هو قاتَل كجندي دُفع لأرض المعركة عنوة.. قاتَل للنجاة، قاتَل لحفر مكانه واسمه وسمعته التي تسبقه لدى حلفائه قبل أعدائه..

قاتَل حتى انتصر، سيطر على الكثير وتبقت أسهمه التي تحمل اسم الحوت.. تبقت لكنه سيمتلكها في يوم ما قد يكون قريبًا إن لم يعُد ذاك الحفيد المطرود!..

- مش ده بس المهم يا يونس بيه، المهم كمان تبقى ضامن إن اللي جاي من بعدك هيحافظ على الاسم والميراث فعلا مش العكس..

كأنما ينهر مشاعر أب ولدت على أعتاب قلبه.. يبث بنفسه الخوف عن ضياع أكبر لو سيطر الحفيد على أمواله من بعده..

الحفيد الذي يراه مصدر تهديد لابد من تحجيمه.. أو بتره!..

هو يدرك جيدًا أن "يزن أبو الغار" ليس رجلًا سهلًا، ربما كان طائشًا في الماضي كما علم قبل الشراكة مع جده، لكنه الآن رجل ناجح.. يدير فندقًا فخمًا..

رجل ناجح إذًا هو رجل خطِر!..

- يمكن زي ما بتقول أنا لسه الحياة قدامي؛ بس القدر مش بإيدي.. حتى لو اخترت أتجوز ويكون عندي وريث، كل ده مش مضمون والدليل حفيدك..

وكان على حق..

"يونس" يعلم أنه على حق؛ لا شيء يمكن الوثوق به.. المتمرد الذي كان تحت سلطته يومًا تحداه؛ ماذا إذًا بعدما تحرر منها وحطم القيد!..

ارتحلت أفكاره تحلق بعيدًا خارج حدود الوطن.. حيث غائب آخر يتنقل من بلد لثانية، لا يدري عنه شيئًا إلا من متفرقات باهتة كل زمان أقرب لدهر.. تنبئه فقط؛ أنه لايزال على ظهر الأرض ولم يُدفن بباطنها بعد..

ابنه الوحيد؛ الذي هجر طفليه.. وهرب!..

**

مقاومة الانسياق وراء الجنون أمر شاق.. خاصة لمن تغرق في حياة روتينية تقليدية سقيمة، لا تحتمل تقلبات أو تطولها موجات عنيفة..

مرت ثلاثة أسابيع.. ألقى بعرضه، أخبرها عن هدفه بغموض.. لا تفاصيل واضحة ولا أسباب مفهومة، كل ما أدركته أن الأمر محصور بينه وبين جده الذي نبذه بدافع مجهول..

هو يريد العودة، وهي الوسيلة!..

لم يرحل عن أفكارها لثانية.. مزقت عرضه وضربته عرض الحائط مائة مرة، ثم أعادت جمعه وطرحه على عقلها مائةً أخرى.. عقلها!..

الجزء الوحيد فيها المعارض لرغبتها في الاستجابة؛ لكن تبعات الأمر تخيفها..

كيف ستخبر رجلًا تظنه مرعبًا أنها تحمل طفل حفيده!..

كذبة.. ستجر وبالًا..

سُمعتها، سُمعة عائلتها والتي لو علم عنها جدها وابن عمها لدفنها الاثنان بمكانها، أمها وأبيها!..

حتى زوج أختها الهادئ الخامل؛ ربما سيتحول كوحوش الروايات..

تتبادل الأفكار إغراقها بدوامة لا نهائية، هل سينبئ الرجل أسرتها عن فضيحتها إن تجاوبت مع خطة ذاك المجنون!..

ومع تعاظم المساوئ في مقابل المحاسن؛ تناست العرض ومن تقدم به..

وصولًا لليلة أمس..

وما الذي حدث ليلة أمس!..

أتاها خاطب "كامل الأوصاف" على حد قول والدتها، أشاد به والدها.. وكان هدية ذكرى ميلاد قادمة خلال شهر من زوج الأخت الذي تود جذ عنقه بهذه اللحظة..

أحد أصدقائه، بالمصادفة البحتة عرف أبيها أنه ابن صديق قديم له تفرقت بهم الطرقات واختلفت المصائر عند سفره، حيث أنه ارتحل لدولة مغايرة..

اسمه "كريم".. لطيف المحيا، باش الوجه بنظرة وديعة، نبرة هادئة وابتسامة باعثة على الارتياح.. يرتدي منظارًا طبيًا داكن الإطار، دمث الأخلاق ولين العريكة، مهندس ناجح بدولة خليجية ما.. وله مكتبه الهندسي الخاص.. كان مقبولًا..

وسامته مقبولة..

عمله مقبول..

كل ما فيه يقبع بركود في حيز المقبول، المستساغ!..

واليوم موعد حضوره للقاء بعد عودته لمسقط رأسه ووطنه الأم باحثًا عن عروس..

عروس جميلة قمحية البشرة عسلية العينين بنية الخصلات، تجيد الطبخ، تشارك في الأثاث وتقدس الحياة الزوجية.. لكنه لم يعرف الخصلة الأهم..

مجنونة!..

أجبرتها أمها على ارتداء ثوب كلاسيكي كريمي ناعم، وهي تكره الكلاسيكية.. بل تكره الأثواب.. والألوان الباهتة..

ابتسم والدها وقبل رأسها كأنما يحمد الله أن غُمته ستنزاح عن كاهله..

جاورتها شقيقتها بالوصايا العشر قبل الدخول عليه، لا ضحكات واسعة، لا صوت عالٍ.. والأهم ألا تُكثر من الأسئلة..

وهي في الواقع لم تكن تملك أي نوع منها!..

لا تريد أن تعرف عنه أبخس معلومة، لأنها لا تبالي به.. أو بتلك الزيجة، ستجلس ساكنة، عاقلة كطفلة مطيعة.. ثم بعد مغادرته سترفضه.. وانتهى.. أو هكذا كانت تؤمن!..

تركوهما وحدهما كما تقتضي العادة، لم يتحرك عن مقعده الذي يواجه مقعدها من اليمين، ارتشف من عصيره البارد ببطء وتنحنح.. عدل منظاره الطبي بشبه ارتباك ونطق أول ما طاف بذهنه:

- غزل.. اسم حلو، مش معتاد في مصر بس عندنا منتشر..

تذكرت تعليق "يزن" الوقح على اسمها، انشقت شفتاها بعسر عن بسمة سمجة:

- أيوة.. ما هو بابا اختار أسماءنا أنا وأختي مختلفة، هي نوف وأنا...

وهزت رأسها بلا معنى، كرر النحنحة دون داعٍ:

- يا ترى عندك مشكلة تسافري برا مصر!..

كادت تقذفه بقطعة الشيكولاتة التي تحاول فض ورقتها اللامعة ولولا أنها تعشقها لرشقتها بعينه الخضراء..

يتحدث وكأنها وافقت..

- مش لما أوافق على الجواز الأول!..

حادة!..

فظة!..

نعم ولا تبالي، حاول الابتسام بحرج، صمت يفتش عن مدخل حديث مناسب ومع نظرتها المستاءة لم يجد..

انتهى اللقاء الكارثي وبعد دقيقة واجهت والدها بحسم باتر:

- لأ..

غضب الأب من عناد ابنته المدللة والمخبولة كما يعلم عنها، سحب نفسًا عميقًا وقرر سلك درب الصبر فربما تمر الليلة على خير:

- لأ ليه يا غزل!..

كتفت ذراعيها بعناد:

- ممل..

توسعت عينا الرجل، كاد ينهض يمزق عنقها كما يبدو من نظرته:

- وأنتِ حكمتِ عليه من أول مقابلة إزاي!..

- واضح يا بابا جدا يعني..

تحتج بإباء كأن ما تقوله بديهيًا، استقام بحزم صارم تعهده معه للمرة الأولى:

- لأ مش واضح يا بنت أحمد، الظاهر إني دلعتك بزيادة..

رمقته بحذر متوجس ولم تنتصب في مواجهته خشية قرار تراه بنظرته:

- يعني إيه يا بابا!..

تجاهلها وتحدث لوالدتها منهيًا الجدل:

- كلمي والدته وبلغيها إننا موافقين على قراية فتحة الأسبوع الجاي..

شهقت وانتفضت تقترب منه بحنق:

- يعني إيه!.. هاتجوزه غصب عني!..

لوهلة بدت الفكرة كمغامرة تستحق..

لكنها جابهت بعين متقدة وأبيها يجيبها ببساطة:

- أكيد مش هاجبرك يا غزل، بس هاتاخدي وقتك وتتعرفي عليه كويس.. شاب من عيلة ومستقبله مضمون..

كادت تصرخ.. أوشكت على تهشيم مزهرية باهظة جوار يدها وهي تهتف بكمد:

- مش عاوزة أتعرف عليه..

انتبهت لأمر فاتها فاستدركت:

- وبعدين إيه ماما تكلم مامته دي!.. هو مش ابن صاحبك؟..

جاءها صوت والدتها من ورائها بتفسير دفع بالدم لدرجة الغليان بعروقها:

- مامته تعرف مامة مهاب جوز أختك وهي اللي كانت بتدور له على عروسة وحماة أختك رشحتك..

وحدث الانهيار..

ستصرخ.. تبكي، تحطم وتهرب..

تهرب إلى غرفتها والجنون يتعاظم داخلها حتى ابتلع كل عقل ممكن وكل منطق متاح.. حينها طفا هو بعرضه إلى السطح..

"يزن أبو الغار!"..

واختمرت الفكرة ثم نضجت حد الاحتراق..

هي لا تريد البقاء على شاطئ النهر الراكد، لا تفتش عن موجة تقلبها رأسًا على عقب.. بل تتوق لـ تسونامي!..

**

درج التنازلات يبدأ بسقطة!..

لن تسميها كذلك لكنها لا تحبذ الفكرة، الثوب، أناقتها، زينتها وأنوثة لابد وأن تتحلى بها جوار العملية الخشنة لتمر الليلة بسلام..

فلنقل أن الطريق استهلته بخطوة!..

حفلها الأنيق على وشك البدء، هي ترتدي ثوبًا أسود اللون، محتشمًا وإن كان يحاوط جسدها ومفاتنها بإغواء رقيق تكفي معه عيناها كلافتة تحذر من الاقتراب..

تطوف بالقاعة التي أُعدت خصيصًا لتلك الليلة، تبتسم لضيوفها، تقف مع أحدهم بمجاملة وتهتم بحديث عملي أو علمي مع آخرين.. بعد مرور الوقت ووصول الحفل لمنتصفه كانت ثقتها بصحة الفكرة قد تضاعفت.. أكثر من رجل أعمال تبرع بالفعل، بعضهم قرر منحها شيكًا ممهورًا بتوقيعه ومبلغ جيد للغاية.. والبعض أراد الاستثمار في المكان معبرًا عن رؤية مستقبلية تليق بالمشفى الذي ربما أخيرًا سينهض من كبوته.. الحفل وصل منتصفه ثم ظهر هو..

حضوره خاطف..

ليس لوسامته الواضحة، ولا لأناقته باهظة الثمن، ليس لوقفته الثابتة بغرور صريح يخالطه تجبر، ولا لنظرته التي جالت في القاعة بأكلمها قبل أن تستقر بقلب عينيها!..

لا..

حضوره خاطف لأن تلك الهالة التي تحاوطه تجبرك على الابتعاد خطوتين على الأقل عنه..

كأنها سياج يمنع المرور إلى محيطه الخاص..

حتى أنه عندما تحرك للداخل كان الحضور يرمقونه بنظرات حذرة، يخلون الطريق أمامه.. ولا يقترب أحد عن جانبيه بمقدار هاتين الخطوتين اللتين فكرت بهما سابقًا..

انشغلت بحديث مع أحد ضيوفها قبل أن يظهر هو من خلفها بصحبة الطبيب صاحب فكرة الحفل، يهديها نصف بسمة، نظرة تظللها غيمة رمادية مبهمة، نظرة أشبه بأسلاك شائكة، تغريك بالاقتراب لكنك لا تفعل لأنك ستنهزم!..

وإن جازفت واقتربت؛ جُرحت أو علقِت..

أبعدت عينيها عنه والرجل يقدمه:

- عمار بيه الديب يا دكتورة وسن، رجل الأعمال الغني عن التعريف..

صافحته بأناقة لتشعر بضمة قبضته حول أصابعها مسيطرة، آمرة، أقرب لفخ لا يمكن الفكاك منه وبذات الوقت راقية لا تخدش أنوثتها:

- شرفت الحفلة يا عمار بيه..

تبدلت نظرته لتهديها إعجابًا عبر مقلتيه في ثوان قبل أن يعود لهما غموضهما المقبض:

- الشرف ليَّ..

ثم مط شفتيه وجبينه ينعقد بجدية، بلا تمهيد، مباشرًا لما جاء من أجله:

- عندي عرض، أعتقد مش هتقدري ترفضيه يا دكتورة..

رفعت رأسها بكبرياء وهي تلحظ انسحاب طبيبها بعدما قدمه إليها، عاندت بنبرة صارمة اعتادتها..

هذا الرجل به شيء يبعث لها برسائل الهروب..

رسائل الابتعاد:

- كل عرض ممكن يترفض، لو مش مفيد للمكان ده كفاية..

ابتسم هذه المرة وحيرتها ابتسامته، ليست ماكرة، ليست عابثة، ليست سوداء كسابقتها..

ربما هي مزيج من كل ذاك وفوقهم ذرة من غموض قبل أن يباغتها بعرضه الخاص للغاية:

- هيكون مفيد لو وافقتِ...

صمت لحظة يرمق انتظارها لتتمته بتقطيبة متوجسة:

- تتجوزيني!..

(3)

الحياة بها الهداف، وبها حارس المرمى.. المهاجم والمدافع، أما ذاك القابع على خط الوسط فباهت بلا معنى..

الحياة ضد وضد؛ وعليك أن تختار!..

**

الملل آفة الروح..

وهي أسرع مخلوق على وجه الأرض يمكن أن يصاب به..

تتبدل ملامحها تمامًا، يبهت وهج عينيها وتعقد خصلاتها في ذيل حصان معقوص بقسوة..

طيلة يومين مضيا لم تستطع لقائه، احتجزتها والدتها وأختها وبدأتا في ممارسة فن المرأة الأزلي والذي هو أقوى من السحر..

الإلحاح، المثابرة، الإصرار.. وفي لغة أبسط..

"الزَّن"..

تخبرها أمها:

- عريس كويس، مامته طيبة ومن عيلة ومحترم، هتسافري معاه وتشوفي الدنيا زي ما أنتِ عاوزة..

وتدمدم شقيقتها كأنما تدلل على بضاعة كاسدة:

- الراجل الممل ده نعمة يا بنتي صدقيني، لا يتعبك في الطلبات ولا يقولك عاوزك شبه أنجلينا جولي.. ويوم ما يفكر يعمل تغيير في حياتكم هيجيبلك جهاز جديد في البيت..

لكنها اكتفت..

اكتفت حد أنها صرخت دون أن يتخطى الصراخ شفتيها، واقتصر رد فعلها على إيماءات موافقة متتالية كنوع من التمويه!..

لأنها في اليوم الثالث كانت فوق رأسه بمكتبه بإدارة الفندق، طلب لها الاسبريسو ولنفسه عصير البطيخ الذي استنكرت تلذذه به.. عندما ترك كوبه على الطاولة التي تواجه أريكة استرخى بين وساداتها بكسل غريب؛ ابتسم بخبث ماكر وبادَر:

- لما عدى أسبوعين قلت خلاص مش هتيجي.. بس..

وأشار إليها بعينيه يخبرها أنها أتت على أية حال، زمت شفتيها بمكابرة عنيدة:

- أنا لسه ماوافقتش..

رفع حاجبًا مستخفًا بتهكم:

- أمال جاية ليه النهاردة!..

فكرت للحظات، تنفست خلالها بشبه لهاث كأنما ركض أفكارها يخنقها:

- أنا محتاجة ضمانات، لازم أطمن..

سكن لثانيتين يهضم كلماتها قبل أن ينحني فمه بسخرية:

- ضمانات!.. ليه!.. جاية شركة تأمين!..

زمت شفتيها وكتفت ذراعيها في تحدٍ:

- أمال هاتهم نفسي بتهمة زي دي وأنا مش عارفة أنا داخلة على إيه!..

فكر قليلًا، أنهى عصيره ومسح شفتيه.. اعتدل وشاب نبرته جدية مباغتة:

- عاوزة تعرفي إيه!..

تراجعت كأنما استجابته أتتها على غير توقع، لوت أصابعها حول بعضها بحيرة وتردد:

- هو جدك ممكن يرفض ويقولي اشربي من البحر!..

- لأ..

- ليه واثق قوي كده!..

حرك رأسه بسلاسة:

- عشان الكلام اللي هتقوليه هيخليه عاوز الطفل ده..

عاد لها ارتباكها وترددها بسؤالٍ ثانٍ:

- طيب ممكن يقول لأهلي!..

تمخض وجهه عن انفراجة مبتسمة انجذب لها بصرها:

- أكيد لأ..

ومال بغمزة عابثة:

- وكلمة السر؛ قاسم درويش..

استوعبت تصريحه المباشر بيسر:

- البيزنس..

نالت موافقة صامتة، تضاعفت جرأتها فطرحت استفسارها الأهم:

- هو ليه طردك!..

تصلبت بمكانها بانتفاضة خافتة مع قتامة احتلت عينيه.. مسحة من ألم طافت حول نظرته قبل أن تغرق في ظُلمة قبضت قلبها وأرهبتها:

- ده موضوع ما يهمكيش..

جوابه صدمها فاندفعت بحدة:

- نعم!.. افرض أنت...

- وحش، شرير، فاسد وعديم الأخلاق!..

تراجعت بحرج تعيد خصلاتها خلف أذنها بحلاوة أمتعت ناظريه:

- ماقلتش كده..

مال يستند بمرفقيه لركبتيه، يشبك أصابع كفيه، يسيطر على عينيها بنظرة مُستعمِرة احتلت مخاوفها وعصبيتها بهدوئها:

- ماتخافيش يا غزل..

ثم كرر الغمزة وإن كانت وقحة هاته المرة:

- أنا مابعضش..

تسللت حمرة ناعمة لوجنتيها، ابتسم باستمتاع مع لعثمتها:

- برده ما قلتش كده.. بس حقي أعرف..

- حقك!..

نطقها باردة، مستنكرة تبعها نهوض مفاجئ وخطواته تتوجه نحو الواجهة الزجاجية للغرفة، يشرد فيما ورائها وإن لم يرَ أبعد من صراعٍ دامٍ يحتدم جحيمه بعقله وحده:

- أنا باقول نفُضها، أنا مش قاعد مع وكيل نيابة يحقق معايا..

عقدت حاجبيها بغيظ.. ربما لو في وقت آخر لقذفته بالمرمدة الأنيقة أمامها، شجت رأسه ورحلت بترفع.. لكنها لن تتزوج ذلك الهامد الخامد المُقترح من زوج أختها المبجل والحائز على رضى عائلتها فردًا فردًا..

استقامت تتبعه، تقف خلفه.. تتنحنح بشبه عصبية وتنقر كتفه بسبابتها بغلظة:

- أنا هابقى مراتك، يعني لازم أعرف إيه الحرب اللي هادخلها!..

استدار إليها بنظرة باترة:

- أنتِ مش هتدخلي حرب يا غزل..

واقترب يهديها حرارة أنفاسه فتباعدت بخجل:

- أنتِ سلاح النصر..

هل هذا نوع من المديح!..

لم ينتظر ردها بل تحول بجسده كليًا ليواجهها بعرض ختامي:

- لو محتاجة وقت أكتر؛ ممكن...

- موافقة..

أرجع رأسه للوراء يناظرها بتأمل غامض لم تكترث له، بينما تبتسم بتآمر وحس المغامرة لديها يتغلب على كل تعقل ومنطق وغريزة بقاء:

- قولي المفروض أعمل إيه!..

لمعت عيناه بانتشاء ظافر كأنما مرت الخطوة الأصعب:

- هاقولك..

المخاطرة وإن كانت تودي إلى هلاك؛ هي متعة لا يشتهيها إلا ذوي حيثيات الجنون!..

**

المشهد يبدو ممتعًا وأنت خارج إطاره، حينما لا تكون في قلب معمعته، عندما تتأمله كوحش ناضج يفخر بصغار الوحوش وهم ينهشون طريدة..

لا تبالي بكونها مستضعفة فالطرائد دومًا بريئة، الطرائد خُلقت لتُفترس..

لكن مع الاقتراب قد يصبح أكثر متعة.. مع الاقتراب قد تغدو أنت بطل الحدث!..

في العادة لا تتقاتل الضواري على فريسة سهلة..

وفي الحقيقة كثعلب ماكر هو لا يبالي بفريسة منهوبة!..

فريسة اجتمع عليها ثلاثة من الضباع ينهشونها كجيفة سقطت بين مخالبهم دون عناء المطاردة..

كان بطريقه للمنزل بعد انتهاء يوم عمل آخر بمطعمه، روتين آخر، ملل آخر.. وتكرار بات يبغضه..

بحثه عن ماضٍ مظلم لا يباح نسيانه لم يهمد للحظة، والنتيجة لم تتحسن، النتيجة لم يلمس لها طرفًا بعد.. في جميع الأحوال محصلته صفر يؤجج جحيمه أكثر فأكثر..

أحيانًا يفضل السير..

المطعم يبعد عن البيت ما يقرب من خمسة شوارع، يقطعها في دُجنة الليل وهدوء منتصفه بخطوات ثابتة الوتيرة فتمنحه شيئًا من السكون والوحدة التي يقدسها..

عبَر الزقاق الضيق خلف منزله، دقيقة أخرى ويعود لصديقته التي هاتفته قبل قليل تخبره عن اشتياقها بعد مناوبة طويلة، تعده بليلة لا تُنسى وتتوسله ألا يتأخر..

لكن يبدو أنه سيفعل، فقبل خروجه للشارع الرئيسي لمح ثلاثة من الرجال ينهالون ضربًا على رابع ضئيل الجسد ضعيف البنية، يكيلون له اللكمات حتى سقط أرضًا فبدأوا بالركل!..

لم يكن ليتدخل..

هو ليس بحامي الحما ولا بطل المدينة المدافع عن مغفليها..

مكث بمكانه يراقب بجمود لثوان تالية التقط وجوده خلالها الواهن تحت أقدامهم فناشده النجاة بعينيه بصمت قسري، عقبها أبصره أحدهم فزعق من موقعه:

- ارحل يا هذا، أم تريد الانضمام للحفل!..

ثم اقترب منه بمُدية في يده يشهرها بمواجهته..

لم يهتز أو يتحرك خطوة، فقط رفع رأسه ببسمة جانبية ساخرة وازت حُلكة نظرته، بسمته ضاعفت من غضب الرجل فهاجمه بحنق:

- قلت لك ارحل، أو سأمحو تلك البسمة عن وجهك بيدي..

لم ينطق كذلك.. والبسمة كما هي، كفيه في جيبي معطفه الشتوي الأسود والمهاجم يندفع نحوه في محاولة لجرحه..

خطوة واحدة خاطفة لليمين جعلت يد الرجل تضرب الهواء، أجبرت جسده على الاندفاع إلى الأمام فاختل توازنه بعض الشيء، استعاده بسرعة وسباب بذئ ينطلق من فمه ليجذب انتباه صديقيه..

حينها بدأت معركة!..

في أقل من دقيقة تكوم الأول تحت قدميه، فاقدًا لوعيه برُسغ محطم..

ووصل الآخران!..

قبل أن يعتدل نال ضربة في وجنته جرحت طرف فمه، إثر دقيقة تالية كانت المعركة قد انتهت..

انتصب هو بهدوء وإبهامه يمسح الدماء عن فكه، وقف يرمق ضحيتهم يدنو بحرص، بترقب واجف، يتأمل أناقته واعتداله بشموخ لم يؤثر به ما دار قبل لحظات:

- شكرًا لك سيدي..

رمقه بنظرة باردة ورده يأتي مختزِلًا لكل معنى يناسبه:

- لقد هاجموني..

بعدها ارتد على عقبيه تجاه بيته متغاضيًا عن نظرة الرجل الجريح المبهوتة، متغافلًا عن وقفته غير المتزنة وسقوطه الوشيك، لقد فهم رسالته المبطنة في كلمتيه..

لم يكن ليتدخل لولا مبادرتهم..

لمحه يراقب من مسافة وود لو استغاث به، لكن اللكمات منعته فاكتفى باستجداء نظرة..

وكما يبدو أنه حتى لو فعل فما كان ذلك الغريب الغامض ليُقدم يد العون!..

وصل للمنزل بملامح خالية من كل تعبير إلا بعض نشوة تجول في عروقه..

شيءٌ من ملله، شطرٌ من غضبه.. تسرب للخارج مع فورة أدرينالين طفيفة بدمه..

ما إن دلف للداخل وأغلق الباب حتى وجدها تندفع إليه، تلقي بنفسها بين ذراعيه، تتعلق بعنقه بهمس دافئ:

- افتقدتُك حبيبي..

تراجعت تهدي شفتيه قبلة لم تكتمل عندما لمحت حمرة النزف، ارتدت بفزع:

- يا إلهي.. ماذا حدث!..

أبعدها متجاهلًا الغلالة القرمزية التي تحاوط جسدها الفاتن وتشف عن الكثير لناظريه، خلع معطفه متجهًا إلى الحمام، تفحص جرحه في المرآة حينما تبعت هي خطواته بقلق:

- جايكوب أخبرني..

مط فمه بلا اكتراث فاتر وأحرفه تمرر قسوة جليدية دومًا ما تخيفها:

- معركة صغيرة..

احتلت مقابله بقطعة من القطن المعقم رُغم التوتر، تنظف الجرح برفق:

- كيف!..

استسلم ليدها والدواء يحرقه لكن وجهه ظل كما هو، خامدًا بلا انفعال:

- ثلاثة من الأوغاد، لا داعي للقلق كالي..

- أنت جُرحت..

ذاك الاهتمام لا يريده وإن كان مسبوقًا بعشق أو متبوعًا بلهفة..

كل ما بينهما وما حرص على إعلامها به منذ اللحظة الأولى هو قرب مقنن، يقدره كما يرغب ووقتما يشتهي..

لكنها ومثل كل النساء حشرتْ قلبها في المعادلة فأخلَّت بتوازنها..

لن يمنعها عن حبه، لكنه يجذ حصار تلك المشاعر بمقصلة البرود، يُحجمها في دائرة لا يُسمح لها بالخروج عنها.. فقط تدور في فراغها بلا توقف، وهو المركز!..

تراجع إلى الغرفة يصم أذنيه عن عتابها المهتم باقتضاب صارم:

- مجرد خدش..

خطت تقطع طريقه، توقف حركته، تعانقه، تتدلل وأناملها تغوص في خصلاته الحالكة، تجاري لامبالاته حيث أنها لا تمتلك سوى الانقياد له:

- حسنًا.. قُل لي أنك لقنتهم درسًا قاسيًا..

رفع حاجبًا وبسمة باهتة تناوش ثغره، بسمة بترها بعد ثانيتين بقبلته هو هذه المرة بينما أصابعها تتبعها بركض فوق أزرار قميصه..

هو لقنهم درسًا نعم..

نال نشوة نصر مؤقتة ببضع لكمات..

رأى الخوف في أعينهم قبل أن تتلاقى الأجفان في غيبوبة قصيرة..

الخوف!..

الخوف هو وقود رجل مثله، رجل تنازل له الشيطان عن عرشه مجبرًا ورحل..

**

الجنون صفتها، والانسياق إليه وتطبيقه هو أكثر شيء تجيده..

لكنها لم تتوقع حنق صديقتها عندما أخبرتها بقلق عن خطتها..

كانت متوترة، مرتبكة، حائرة.. أفكارها تتأرجح معلقة في الفراغ المظلم بحبل رفيع من الخوف الممزوج برغبة البوح والمشاركة..

تريد رأيًا، أذنًا أخرى..

أو ربما تريد من يخبرها أن الأمور ستكون بخير لو استجابت لتلك الخطة الرعناء وألبست نفسها تهمة الخطيئة كذبًا.. أنها ستحيا

المغامرة كما تتمنى، أنه رجل جيد.. أنها لعبة ممتعة يمكنها أن تخوضها حد الثمالة بلا مخاوف..

تريد من يعلم!..

هي لا تثق بسواها، لا تمتلك صديقة حقيقية إلاها.. ورُغم فارق العمر الضئيل فـ"رهف" دومًا ما كانت مصدر دعم لا ينضب..

لم تتوقع الضيق، اتساع العينين والشهقة لذا اكتفت باستقبال بارد لرد فعلها المذهول بهتاف ساخط غير مصدق:

- أنتِ مجنونة يا غزل!..

سؤال معلوم الجواب معها..

الجنون هو مبدؤها في الحياة، بل هو الحياة..

ساوت خصلاتها وأبعدت واحدة إلى ما خلف أذنها، تهرب بعينيها وتعاند بمكابرة وتقرير:

- مجنونة يا رهف وأنتِ عارفة، أنا مش هاتجوز الباشمهندس كريم الممل عشان his mother راضية عني وعجبتها..

اعتدلت "رهف" لتواجهها، حيث تجلسان سويًا في النادي حول طاولة صغيرة:

- ماحدش كان هيجبرك تتجوزيه وأنتِ عارفة ده كويس..

زمت شفتيها دون رد بينما الأخرى تكمل:

- بس أنتِ بتدوري على المشاكل وتوقعي نفسك فيها من غير أي اعتبارات تانية..

عادت إليها بنظرة متضايقة:

- قصدك إيه بقى!..

عقدت "رهف" ذراعيها مقابل صدرها في تحدٍ:

- قصدي دي مش أول مرة تعملي حاجة مجنونة، ولا نسيتِ حسام اللي دخلتيه المستشفى بعد ماتش التنس!..

تباعد جفناها يكشفان عن نظرة مشدوهة رافضة:

- لأ.. أنتِ اللي نسيتِ طريقته معايا..

ابتسمت رفيقتها بسماجة باردة:

- ده ما يديكيش الحق تضربيه بالـ ball في عينه لدرجة إنه ينزف!..

أصرت بعناد لا تتخلى عنه:

- كان يستاهل، عشان يعرف his limits..

وأهدتها هي تلك المرة بسمة منتشية بظفر لا تخجل من الإفصاح عنه:

- من يومها لما بيشوفني في مكان بيغير اتجاهه بسرعة؛ he is just a coward..

هزتْ "رهف" رأسها بيأس ونظرتها تنكسر بشبه هروب تعلم صديقتها مغزاه.. وجهة حديث لا تريدها، لكنها تدرك تمامًا أنها ستسلكها بإرادة القلب:

- حسام كان ممكن ياخد رد فعل مش لطيف، ودلوقتِ بتفكري في ده!.. طيب ما جاش في بالك عيلتك يا غزل؟!..

لمحتْ اهتزاز حدقتيها فضغطتْ أكثر:

- جدو قاسم!..

التقطتْ "غزل" طرف الخيط..

ذلك الذي تحاول صديقتها خنقها به لتلفه حول عنقها هي بالمقابل بنبرة حازمة بها لمسة من فظاظة تسعى بها لصفعة إفاقة:

- وعُدي..

سكنت الصديقة لثوان قبل أن تجابه بصراحة لا تخجل معها أو تواري ما في قلبها:

- أيوة.. وعُدي، سمعة العيلة كلها بترميها عشان تعيشي مغامرة ماتعرفيش عواقبها هتكون إزاي، ومع راجل ما تعرفيش عنه أي حاجة!..

وأردفت بقسوة صريحة بينما الغيظ ينهشها:

- ما بتفكريش إلا في نفسك وبس!..

صمتت "غزل" للحظات عقبها استقامت تغادر مقعدها، تتناول هاتفها، تسحب حقيبتها وترمقها بعين موبخة:

- رهف، ما تربطيش الخيوط ببعض.. عُدي عمره ما هيحس بيك ولا هياخد باله منك.. وزعلك عشانه، أو عشان اسم العيلة..

وأشارت بالسبابتين والوسطى تشكل قوسين تحدد بهما الكلمات في استطرادة حادة:

- is not gonna make him pay any more attention, so let it go..

ثم تركتها ورحلت..

تدرك أن صديقتها التي تكبرها بعام واحد غارقة في غرام ابن عمها..

التقته مرتين.. بعدها توسطت لها لتعمل في شركة العائلة حيث يتواجد ومن يومها وهي لا ترى رجلًا سواه بهذا العالم..

كل شيء يدور حوله.. هو المركز وهي دومًا طوافها في مداره لا تبتعد عنه أو تفارقه..

ابن العم الأرمل..

والوالد لطفل تجاوز الخمس سنوات ببضعة أشهر، طفل هو كل ما تبقى له من زوجة رحلتْ عنه بعد ما يزيد عن ثلاثة أعوام بقليل من زواج مرتب..

طفل بات إلى جوار عمله؛ كل عالمه هو!..

**

الاسم: غزل أحمد قاسم درويش..

المهنة: حسنًا هي لديها اثنتان لا نهتم لأمرهما في الوقت الحالي..

الموقف الحاضر: تقف بسيارتها الألمانية الفخمة عند بوابة المجمع السكني "جاردينيا" بانتظار تصريح دخول من السيد "يونس أبو الغار"..

وجه خلا من مساحيق التجميل، جفون منتفخة تحايلت عليها بسهر ليلتين لتحصل على الإرهاق المطلوب.. خصلات مربوطة بلا اهتمام حد شيء من فوضى، وثياب بسيطة؛ سروال من الجينز الباهت وقميص حريري أزرق طويل الأكمام تعلوه سترة قصيرة بالكاد تصل للحزام الفضي الذي يحيط بخصرها النحيل..

حصلت على الموافقة، ثم اصطحبها أحد رجال أمن البوابة للفيلا المنشودة..

فيلا تتشابه مع التصميم المعماري الخاص بالمجمع، من طابقين.. واجهة الطابق السفلي تطل على حديقة غناء تشير لعناية جمة.. وفي الجهة اليمنى مسبح واسع أنيق..

جالت بنظرها في الردهة الراقية بتأمل قطعه الدخول المهيب للرجل السبعيني.. كانت تحفظ ملامحه من صورة يحتفظ بها حفيده، لكن الحقيقة والواقع يختلفان!..

الفك المشدود بصرامة، العينان الثاقبتان كأنهما مسبار حاد لدواخل النفس وما خفي منها، اللحية القصيرة والشعر الذي احتله الشيب الأبيض بالكامل إلا من نثرات رمادية منحته هيبة ارتجف لها قلبها..

حتى تجاعيده كانت مخيفة..

تطلع إليها باستفهام فتحركت تظهر توترًا يليق بالموقف:

- اسمي غزل أحمد قاسم درويش..

راقبت انعقاد حاجبيه، شروده القصير الذي يدلل على تعرفه الاسم ومن قبل دخولها، انتهاءً ببصره الذي حاوطها بتفحص خانق..

بدا كنسر وجد عصفورًا هشًا يستحق لعبة صيد..

- قاسم درويش صاحب درويش ليميتد وجناين الموالح في الإسماعيلية!..

أومأت بإيجاب صامت، أشار إليها لتجلس فاستجابت بخضوع مع سؤاله المقتضب:

- خير!..

تضاعف ارتباكها، أجادت افتعال دموعها ورجفة جسدها وشفتيها.. تناوبت عليها مشاعر شتى ألجمتها، بدءًا من خزي لم يكن مصطنعًا بالكامل فهي الآن تمثل مسرحية، أكذوبة تخدع بها رجلًا عجوزًا لا تعلم سبب العداوة بينه وبين حفيده الكتوم!..

مرورًا بخوف.. قلق وضمير يؤنب؛ هي كذلك تؤذي اسم عائلتها، تلطخه بدنس لم يحدث..

وانتهاءً بذنب يفترس قلبها، وندم على موافقة حمقاء تجهل تبعاتها!..

ترددت، أقدمت وتراجعت.. تلعثمت ثم اندفعت بحدة غير مبررة وكفها تمتد لتتحسس بطنها بشجن رآه طبيعيًا للغاية:

- أنا حامل..

الخبر استحضر الدهشة المطلوبة، خاصة وهو لا يدري ما صلة ذلك به:

- و!..

إتقانها بلغ أوجه مع نشيجها المكبوت ويدها الثانية تغطي فمها لتأتيه نبرتها المتحشرجة بعسر:

- باباه يزن.. يزن أبو الغار..

قنبلة..

هي فجرت قنبلة نووية ربما، بعقر دار الرجل الهادئ..

انفعل وجهه، اضطربت حركة يده التي كانت تشعل السيجار، وتصاعدت ألسنة اللهب بعينيه!..

لم تمهله الفرصة لاستيعاب شظايا الانفجار بل انطلقت تسرد عليه حبكتها المرسومة بدقة.. اللقاء.. الإعجاب.. المشاعر.. القرب.. الحب.. وعد الزواج، والنهاية المخزية..

خطيئة، فضيحة، عار.. وطفل!..

طفل تبرأ منه والده الذي زرعه برحمها والمسوغ عشق، بعدها كان كل ما تكرم به هو موعد طبيب يخلصها منه..

جابهت نظرته الغامضة بتوجس، كبتته لتظهر الكبرياء والعناد:

- أنا مش هاقتل ابني ولو الدنيا كلها وقفت ضدي..

وعادت للبكاء، تمسح عبراتها في إدعاء للصلابة التي تهزمها دمعاتها في كل مرة:

- كل اللي عاوزاه إنه يتجوزني، يعترف بابنه ويكتبه باسمه ونطلق.. بعدها مش هيشوف وشي تاني..

تركت المقعد الذي استقرت فوقه تجوب المكان بعشوائية حائرة:

- هو ما بقاش يهمني خلاص، بس ابني لأ..

ثم التفتت نحوه تهديه نظرة قاسية:

- ولو مش هيعترف أنا هاهد المعبد على دماغ الكل، هابلغ أهلي.. وهاعمل DNA وأرفع دعوى إثبات نسب وهيعترف غصب عنه..

اقتربت منه، تواجه جلسته، تفرك أصابعها بضعف خائف يناقض قوة اللحظة الماضية:

- أنا جيت لحضرتك عشان تقنعه.. أو تجبره..

تراجعت تتحسس بطنها المسطح بحنو باكٍ:

- أنا عارفة إني غلطت وأستاهل كل عقاب ممكن..

غاصت في عينيه بنظرة متوسلة:

- بس حفيدك مالوش ذنب يتحمل أخطاء مامته وباباه..

"حفيدك"..

طرقت الكلمة أبواب عقله وقلبه بذات التوقيت..

طفلًا يتمناه، وريثًا ينقب عنه.. وريثًا سيربيه هذه المرة كما ينبغي بعد فشله السابق مع أبيه..

أبيه الداعر الفاجر الذي خدع فتاة لا يعرف من هي ولا من أهلها بسوق العمل، سوق هو جزءٌ منه..

ترك سيجاره على مائدة جواره، رمقها بنظرة عنفوانها لا يناسب عمره وأخيرًا تكلم:

- خلال يومين هنيجي نخطبك من والدك..

وووووو...

هدف!..

**

"عمار الديب"..

رجل بملامح هادئة، نبرته رخيمة وكلماته محسوبة.. لا يطيل في حديث ولا يتفحص كلما نظر.. كلمة مقتضبة تكفيه، ونظرة قصيرة تغنيه..

ما بين جفنيه مساحة مقبضة لم تستطع أن تمكث بظُلمتها أكثر من بضع ثوان بينما تخاطبه..

هو رجل شرير في رواية أحدهم، شرير في روايته الخاصة.. ولا يبدو أنه يكترث..

هو رجل يريد ببساطة.. الزواج منها، ودون مقدمات!..

ظل لدقيقة أو أقل بالمكان ثم طلب يدها في عرض وقح مباشر خالي من المجاملات المعتادة فيما يشبهه..

عرض أشبه بصفقة بيع وشراء..

صففت خصلاتها بشرود، ترمق ملامحها الناعمة في مرآتها بحيرة.. تفاصيلها دقيقة، شفاه نصف مكتنزة، أنف إغريقي مستقيم، خصلات سوداء كثيفة، وبشرة سمراء ناعمة تتلاءم وقطعة الشيكولاتة الداكنة الذائبة في مقلتيها..

ليست فاتنة خلابة، لكنها قد تكون حلم مثالي لرجلٍ مثله!..

انتبهت لنفسها بحنق، ألقت فرشاتها على طاولة الزينة بضيق، تأففت واستقامت تتناول سترة بذلتها الرمادية، ارتدتها بحدة معاندة وعقلها يسحبها رُغمًا عنها لتلك الليلة..

منذ عدة أيام بالحفل وطلبه الغريب الذي جمدها بمكانها لثوانٍ في محاولة لاستيعابه قبل أن تشتعل أعصابها بغتة، تتجاهل واجهتها العملية، واجهتها الهادئة، واجهتها المنمقة كما يليق بحفل كحفلها وترتد خطوة غاضبة للوراء:

- آسفة ياعمار بيه، الاستثمار في المستشفى، إنما مديرة المستشفى مش فوق البيعة..

نظرته لها كانت مندهشة.. لا تدري أهي دهشة حقيقة أم مفتعلة!.. هي فقط كانت تحترق بنيران سعيرها الخاص..

رسم بسمة أنيقة فوق شفتيه ونبرته لا تزال ثابتة دون اهتزاز:

- واضح أنك فهمتيني غلط، ده عرض جواز حقيقي..

اقترب خطوتها ومعها واحدة من عنده متجاهلًا تحذير عينيها بصفاقة أثارت حنقها:

- زي ما أي راجل بيطلب إيد ست مش أكتر..

رفعت رأسها بكبرياء شامخ وتخطته بحزم:

- آسفة بس عرضك مرفوض..

الغريب في الأمر أنه لم يحاول إيقافها!..

تركها ترحل ساخطة عليه وعلى عرضه، واختفى من الحفل تمامًا كأنما أتى لذلك الغرض وحسب..

كانت تحاول تناسيه.. تناسي حضوره، ملامحه، تلك المساحة من اللون الأخضر كأوراق الريحان الطازج الواقعة بين جفنيه..

خضرة لامعة داكنة بعض الشيء وخانقة، تحاصر، تجبر على الصمت.. الخوف!..

وهي امرأة اكتفت من الخوف حتى باتت صديقته..

هي امرأة لم تعُد تخاف، تأبى أن تفعل..

في الصباح التالي للحفل كانت تحصي ما تم جمعه من أموال التبرعات، الشيكات التي تركها رجال الأعمال، وعروض الاستثمار كذلك.. تحاول دراستها والاستفادة من أفضلها بما لا يضر المكان أو يخرجه عن سيطرتها وطوره..

حينها وجدت الشيك الخاص به، التبرع الذي تركه بكرم حاتمي مثير للقلق..

مبلغ مالي ضخم، جعل حاجبيها يرتفعان استغرابًا تمازج باستنكار، هل دفع ثمن الزيجة المرفوضة مقدمًا!..

تركت الشيك في جارور محكم بمكتبها وهي تنوي رده إليه بعناد لا يناسب حاجتها لتلك الأموال..

ثم ها هي اليوم وطوال وقت استيقاظها، ارتدائها لثيابها وقيادتها لسيارتها رافضة الإفطار الذي أصرت عليه والدتها الروحية كما تناديها، أو مديرة المنزل كما تصر المرأة.. ها هي لا تتوقف عن التفكير فيه..

وكيف ستعيد إليه ما دفعه بشمم!..

وصلت لمكتبها بالمشفى لتستقبلها مساعدتها بقائمة المهام اليومية، تحمل لها كوب قهوتها وتتبعها نحو مكتبها في حديث لا يتوقف، تثرثر بالكثير من الأعمال التي تنتظرها بجدولها بينما هي تتحرك

بثبات إلى ما خلف المكتب الكلاسيكي، ليقع بصرها على ما أوقد استغرابها..

قبل أن تسأل كانت الفتاة تجيب بتذكر:

- الورد ده وصل من ربع ساعة بس يا دكتورة باسم حضرتك..

باقة غريبة من الزهور شبه الزرقاء، أو بما هي تميل للون الليلكي أكثر وبمنتصف الباقة زهرة واحدة بيضاء..

بطاقة فوقها بضع كلمات بخط أنيق..

"آسف لو كنت فاجئتك، أتمنى يكون بيننا فرصة تانية"..

والإمضاء الأكثر أناقة..

"عمار الديب"..

وقع الاسم يسقط بقلبها كقبضة عاصرة ولا تدري لمَ!..

صرفت الفتاة وتأملت الورود بتشتت..

هذا الرجل مُربك.. ذكره يعمل على زعزعة كل ثابت وشتات كل فكرة..

في البداية يفاجئها بطلب الزواج، وبطريقة جعلتها تود لو ضربت رأسه بأقرب مزهرية، والآن..

زهور!..

انتفضت بغتة مع رنين الهاتف الذي بتر تيهها فنظرت إليه بحاجبين معقودين.. رقمًا لا تعرفه، والرنين يتواصل.. تنحنحت تستجمع نفسها، تكبت انفعالاتها وتجيب بلهجتها الجدية العملية المعتادة:

- دكتورة وسن حجازي..

سمعت الصوت العميق عبر الخط يجبرها على الإنصات رُغم المفاجأة:

- معاكِ عمار الديب يا دكتورة..

صمتت لحظة..

يحيرها ولا تعلم ما الذي ينبغي فعله مع رجل مثله غير متوقع!..

لم يكترث هو بجوابها، بادَر بلهجة قوية وإن استشعرت فيها شيئًا من تردد رجولي لم تفهمه:

- يا ترى الورد عجبك!..

كررت النحنحنة ونبرتها تتخذ نهج الصرامة الرافضة:

- ماكانش له لزوم حضرتك تتعب نفسك، كنت لسه بفكر في طريقة أرجَّع بيها شيك التبرع..

استرخى في مقعده بسطوة فطرية، عيناه لا تحددان ما بداخله، وشفتيه تنثنيان ببسمة هادئة واثقة:

- أظن يا دكتورة العملية بتقول إن الشغل والمستشفى مالهمش علاقة برفضك الشخصي للي بيحاول يساعد..

حدة باهتة شابت صوتها واستشعرها، كما يبدو هو يضغط زناد غضبها بلا جهد:

- الرفض للمبدأ بشكل عام، حضرتك يا ريت تديني عنوان معين أبعت عليه الشيك وشكرا على تبرعك الكريم؛ بس مش محتاجينه..

لم تهتز ملامحه أو تتغير نظرته المبهمة، فقط صوته اكتسب صرامة ألجمتها للحظات:

- أنا اعتذرت على طريقتي.. العرض لسه مطروح، لكن واضح إني كان لازم أقدمه بشكل أفضل!..

- تفتكر!..

كانت مبادرتها سريعة، رسمت بسمة ماكرة فوق شفتيه..

ها هي الأنثى بداخلها تظهر..

أضفى على كلماته هدوءًا ناعمًا، وكرر اعتذاره فاستشعرت البسمة في حروفه:

- أنا آسف مرة تانية..

وقبل رد منها سارع بتوضيح بسيط:

- أنا بس راجل زي ما بيقولوا old fashion.. لما عرضت الجواز مباشرة كنت باحاول أدخل البيت من بابه..

انعقد حاجباها بتقطيبة حادة، لا تنكر أن حديثه باغتها؛ فرجل مثله.. بعمره.. بوسامته، لا يحتاج لكثير كي يوقع امرأة في شباكه..

فإذا به ماذا!..

بلا تجارب، وعتيق الطراز!..

صمتها شجعه على الاستمرار بلطف تسلل به لعقلها:

- كنت معتقد إن دي خطوة صح، وإن برده زي ما بيقولوا الخطوبة معمولة عشان التعارف، يا نكمل يا...

بتر حديثه كأنما يخبرها أنه سيحدث..

ستوافق..

ستكون له.. ستكمل معه..

وهو مستمر بذات النبرة التي تسربت لدواخلها قسرًا:

- لكن مادام أنتِ شايفة إنها خطوة سريعة، أو خوفتك...

- ما خُفتش..

ابتسم بانتصار وشعرت بتلك البسمة أيضًا وهي توضح ببرود:

- لكن ماحدش بيعرض جواز في حفلة المفروض إنها للشغل..

تنفست لحظة بضيق لم يرحل عنها بعد:

- كأنه بيقول إنها صفقة وكل عرض مربوط بالتاني..

- معقول يا دكتورة!..

لاحقها باستنكار لم تدرك أهو حقيقي أم اصطنعه ليخرسها لكنها صدقته رُغم إرادتها:

- أكيد لأ طبعا، أنا فعلا آسف لو ده الإحساس اللي وصلك..

هذا كثير.. الحديث بينهما طال، وهي لا تحبذ تلك الألاعيب النفسية التي تظنه يمارسها معها الآن..

تنهدت بسؤال صارم:

- عاوز تتجوزني ليه يا عمار بيه!..

قابلها صمته.. بل سكونه، صوت أنفاسه ذاته لم يعُد مسموعًا، وذلك أيضًا مُربك!..

دقيقة كاملة لم تنطق خلالها وكذلك هو إلى أن أنهاها بعرض آخر:

- إيه رأيك أجاوبك على السؤال ده، وكل الأسئلة اللي ممكن تيجي في بالك...

كرر الصمت حتى كادت تغلق الخط بوجهه.. هو بالفعل يلاعبها وهي تكره لعبته، وتكاد تكرهه شخصيًا:

- على الغدا في الوقت اللي تختاريه..

- ما أفتكرش إن..

- من فضلك، بلاش ترفضي المرة دي..

شاب نبرته حزم جاد لم يُخرجها عن سمت الهدوء:

- أظن من حق أي حد فرصة تانية..

استشعرت تلك البسمة لمرة ثالثة.. البسمة الماكرة اللعوب التي لا تفهمها:

- فرصة أصلح غلطتي..

فكرت قليلًا، ثم أخبرته بموافقتها.. لمَ!..

هي فرصة ثانية بالفعل، فقط حتى تعيد له ماله وتنهي تقاطع طريقها مع طريقه للأبد..

ذاك كان خيارها..

فماذا عن خيار القدر!..

**

الحياة لا تمنح أحدهم كل شيء، لكنها بذات الوقت قد تسلبه عنوة.. أهم شيء!..

تم إحراز الهدف الأول واهتزت شباك الحوت الحصينة بمفاجأة غير متوقعة.. أما الآن!.. فقد حان دور تثبيط الدفاع، والتسبب في طرد مهاجمه الأول من الملعب..

والمقصود؛ هو نفسه..

هاتفه على عجالة، مكالمة لفندقه ومن استقباله إليه فالجد العزيز لا يملك رقم هاتف حفيده الخاص..

طلب زيارة، تمنَّع بعض الشيء حتى أخبره أن الأمر يتعلق بحياة أو موت، حينها ابتسم بانتشاء ووافق على نصف ساعة من وقته..

هذا كل ما يمكنه منحه لمن نبذه من قبل..

تواجها..

الأسد الشاب في مواجهة الملك العجوز..

العين في العين، ثم تترك لقاء البصر لتطوف حول الكيان.. الأسد الباحث عن عرش المُلك، والمَلك المتحكم بعرشه حتى الممات..

وقفتهما متحفزة.. يرقب أحدهما الآخر كأنما هما وحشين من وحوش الغاب يتصارعان على طريدة.. يقيس كل منهما قوة خصمه، يفتش عن نقاط ضعفه ويتربص لحظة الهجوم الحاسمة ليظفر بالنصر..

يتأملان الملامح التي نقش عليها الزمن حضوره بوضوح..

الكهل وإن ارتفع رأسه بشموخ فتجاعيد الحزن حفرت خنادقها بوجهه وبلمعة عينيه بعدما شابها بهوت..

والشاب..

المتمرد الذي قصر خصلاته بعض الشيء، صففها بأناقة.. وجسده الرياضي يدلل على اعتناء دائم أسفل حلة كلاسيكية تليق بمدير عمل، وتحمل توقيع مصمم شهير..

نطق الجد بعد طول صمت والحزم يغلف لهجته بما لا يقبل تفاوضًا:

- اقعد يا يزن، الموضوع مهم..

لم يرحب، لم يسأل.. لم يهتم!..

ولم يأتِ هو باحثًا عن أو راغبًا في اهتمام..

استجاب لجده بهدوء في حين تهديه نظرته الساخرة استخفافًا صريحًا، أشعل لفافة تبغ نفثها بلامبالاة، انتظر غير آبه بزمة شفاه جده الرافضة.. ثم كانت البداية:

- غزل قاسم درويش..

أهمل اسم الأب!.. متوقع..

اختار التفاصيل التي يبالي بها وحسب..

حسنًا، حان وقت إجادة دوره كبطل في حبكة هزلية، استقام بحدة.. تسابقت خطواته نحو الرحيل حتى أوقفه "يونس" بزعقة تحمل اسمه والأمر يقتضي جمودًا دون استدارة، تتبُعًا لوقع قدمي

الجد الثقيل البطيء وصراع دامٍ على وشك الحدوث.. بادر هو بالهجوم:

- أنت بتراقبني!..

- الحقيقة لأ.. أنا اعتبرتك ميت..

ضربة قاسية تحت الحزام لم يهتز لها الناقم على من سلبه كل شيء، رفع حاجبًا هازئًا واستهجن:

- الميت ما بيرجعش للحياة..

- بس بيسيب فضايح تثبت وجوده..

تراجع خطوة لا مكترثة وهز كتفيه:

- أنا ما ضربتهاش على إيدها..

مط "يونس" شفتيه بلا انفعال:

- ودلوقتِ هي حامل..

وطفا بعينيه سؤال شاب لهجته:

- في ابنك.. مش كده!..

أدرك "يزن" أن جده لا يشتري القصة كاملة، يشكك كعادته ويدقق ويمحص كل جوانبها ليحوز النصر بأقل خسائر ممكنة.. لذا كان وقحًا:

- هي بتقول..

- وأنت مصدقها!..

عقد الحفيد ذراعيه فوق صدره باستخفاف:

- لأ..

أُخِذ "يونس" على حين غرة..

صمت يتأمل زحف السنين على وجه الصغير الذي مزق الشرنقة وحلق خارجها رُغمًا عن إرادته.. هل يفتش عن فضيحة!..

يعاند ويرفض لتخبر الفتاة أهلها بما حدث وتحدث الكارثة!.. هل هو بالفعل لا يصدقها!.. وهل تكذب عليه أو على حفيده فتاة لديها من الحسب والنسب والجاه والمال ما يكفي ويفيض!.. لماذا!..

تململ "يزن" أو تظاهر بالسأم..

موقنٌ هو أن أفكار الحوت تحتدم في هذا الوقت حد الاحتراق التام:

- أي طلبات تانية!..

كان يغادر بالفعل عندما استوقفه العجوز مجددًا بعملية باردة:

- أنت كنت أول واحد!..

التفت لجده بفجاجة صريحة وانحناء شفتيه ماجن:

- ماليش في المستعمل..

يستحق صفعة على رده، تلك حقيقة.. لكن "يونس" لن يبادر بها.. اكتفى بنظرة تذكره بماضٍ أسود لعين كان بداية الكارثة، إثرها بادر بما هو أهم:

- يبقى هتتجوزها..

الرد اقتحم مسامعه بقهقهة عالية حطمت سكون المنزل..

قهقهة امتزج فيها التهكم بالاحتجاج وشيء من ألم مكبوت يصاحب وجوده بهذا المكان:

- أتجوز مين!.. واحدة سلمتني نفسها بالحب وجاية تقولي أنا حامل لازم تعترف بابنك!..

ثم نفى برأسه في استهزاء:

- لأ.. وأعلى ما في خيلها تركبه..

- هتركبه وهتفضح العيلتين..

رفع "يزن" حاجبه غير آبه بفضيحة:

- تعمل اللي هي عاوزاه..

- هتعترف بابنك غصب عنك بالمحكمة لما تعمل DNA..

واقترب يواجهه بعجرفة قاسية:

- ووقتها الفضيحة هتكون طالت الكل لأنك مش عارف تحافظ على بنطلونك في مكانه..

تجاهل التعبير المحتقِر كعادته.. فالخطة تسير على أقصى ما يرام، ولا بأس من بعض سباب يعلم أنه بخس أمام الجائزة الكبرى:

- ما يهمنيش.. لما تبقى تثبت أبقى أعترف..

هذه المرة كان يهرول إلى الخارج.. بلحظة الحسم وعندما امتدت يده تتحكم بمقبض باب البيت الضخم أتاه العرض المنتظر:

- عاوز كام وتتجوزها!..

توقف.. استراحت كفه حول المقبض للحظات.. تظاهر بالتفكير بعدها استدار وعاد، تتهكم ملامحه، ابتسامته وعيناه:

- للدرجة دي يونس بيه أبو الغار هيتنازل!.. بيعقد صفحة مع حفيده المنبوذ!..

- خمسة مليون كويس!..

الجواب صامت باستهانة:

- عشرة مليون..

عرض ثانٍ بتقرير لا يتساءل.. والاستهانة تبدلت لسخرية أغرقت النبرة:

- دول ما يجوش تمن الفيلا دي يا.. جدي..

تجاهل "يونس" اللقب الحميمي وإن كان بمشاعر كالصقيع.. كرر:

- عاوز كام وتتجوزها!..

هل رأيت شيطانًا من قبل!.. لا..

جيد.. دعني أريك إذًا تجسده على ملامح العائد بعد غياب.. بعد فقد.. بعد حقد وغل وكره لم يبذل جهدًا في إخفائه، بجحيم تستعر ألسنته في الحدقتين وتهدد بإحراق أي شيءٍ وكل أحدٍ تطاله:

- عاوز اللي مات يرجع..

هذه الضربة لم تكن تحت الحزام.. كانت في قرار القلب المنطوي على نفسه بكمد غير قادر على الحس أو الشعور، بل يكبله صاحبه بأغلال الصمت والقسوة والقوة:

- ما تجيبش سيرته..

تشددت قبضتا "يزن" حد الوجع، والأنين تكبته عزيمة البغض.. رغبة الانتقام:

- بتوجعك السيرة!.. أمال لو عرفت خبر موته من نعي في جريدة!..

راقب الرعشة..

الخطوة التي ارتدها العجوز للخلف..

راقب تجاعيدًا ظهرت بغتة من العدم لتهدي وجهه عمرًا فوق عمر..

حزنًا فوق حزن..

راقب وتلذذ وانتشى والقلب ينزف في أسى..

يستعيد لحظات الكابوس، الغرق.. الاختناق، صراع الحياة مع الموت حتى اندحرت أمامه..

يستدعي لحظة التعلق، الأمل.. الاتصالات التي لم تصل ولم يجِبها أحد.. يتذكر لحظة الخبر بين سطور جريدة رمادية والسقوط عند تراب قبر!..

تحرك بغير وعي يقلب طاولة جواره ويصرخ بحرقة دون أن يتجاوز شفتيه صوت، يحطم كل شيء تناثر على الأرض بركلات عشوائية من قدميه وجسده ينتفض.. روحه تنتفض..

ثم يرجع للجد الذي وجم بمكانه ونظرته تعود إلى حيث عاد هو، يقرر ويحسم الصفقة لصالحه وحده فالشريك قد رحل:

- نص أملاكك بيع وشرا يا يونس بيه، والنص الباقي لابني هاديره بتوكيل منك.. توكيل غير قابل للإلغاء..

إثرها دنا يهسهس في وجهه كأفعى غاضبة:

- ده التمن..

- أنت اتجننت!..

إفاقة حتمية للملك، فالأسد الصغير يريد سرقة العرش بصفاقة وتبجح:

- اتجننت من زمان، من 13 سنة لما حرمتني من حلمي.. من عشر سنين لما طردتني من بيتي للشوارع تعلمني إزاي أعيش عشان شايف إني ما أستحقش حياة معاك..

مال برأسه قليلًا يقاتل عينيه في حرب شعواء لن يفر منها مهزومًا:

- واتعلمت..

ابتعد بعدها يردف باختناق التف بأنشوطته حول صوته قسرًا:

- اتجننت لما حرمتني منه ومن وجودي معاه وهو بيموت..

لهجته تقطر مقتًا وبغضًا وألمًا وأسنانه تضغط بعضها حد الصرير:

- ده التمن..

وخرج كعاصفة..

عاصفة أتقنت حفظ الدرس بأكثر الطرق شناعة ووجعًا..

في سيارته وقبل أن يغادر المكان هاتفها، نبرته الخشنة الباردة أجفلتها وإن كان ما قاله كلمة واحدة:

- دورك..

بعد نصف ساعة كانت تقوم بدورها..

صورة موجات فوق صوتية لجنين صغير، بذرة واهنة تتشبث بجدار رحم مظلم حولها دائرة حمراء توضح مكمنها.. بصحبة رسالة ووجه دامع:

- أول سونار.. أنا مش هاقتل ابني..

صورة تكفل بإحضارها الحفيد الناقم على كل شيء..

صورة مسَّت قلبه لكنها لم تتسلل لعقله، فحفيده جُن لو صدق لثانية واحدة أنه سيستجيب!..

سيجد وسيلة أخرى يضغط بها عليه، سيضاعف العرض فالمال لا يهم..

سيجبره حتى وإن كان يعلم عقب تحريات بسيطة جمعها عنه أنه لا يحتاجه..

هو الآن مدير ناجح لأحد أشهر فنادق العاصمة وأكثرها فخامة، صديق لمالكها المعروف بالسوق كأحد حيتانه الصغار الذي تربع على العرش بسطوة ونَهَشَ مجال عمله بلا رحمة..

لا يحتاجه لكنه سيجد وسيلة.. فالغاية باتت أمنية!..

مر يوم، ويوم ثانٍ.. قرب نهايته وعندما حلت العتمة على السماء الغائب عنها قمرها أتاه اتصالها الباكي:

- يزن كلمني وهددني وقال لي مافيش جواز..

نشجت تختنق بدموعها مع صدمته وجموده:

- أنا مش هاسكت؛ ولو وصل الموضوع إني أفضحكم كلكم وأموت نفسي..

وأغلقت الخط بوجهه؛ تهديد.. وعيد.. وجنون يعلم أن الفتيات تفعلنه كل يوم!..

الأحمق الأرعن الذي لوث سمعة عائلته وشرف عائلة أخرى، المتمرد الذي لن يتوقف حتى ينال انتقامه..

ظل طوال الليل ساهرًا إلى أن هداه عقله لحل يقبع في منطقة التوسط، أو هكذا بررت له رغبته في وريث، مكالمة مبكرة أيقظته من نومه وحزم ألقى به عرضه النهائي:

- ربع أملاكي يا يزن وهتتجوز البنت..

فرك عينيه باستفاقة منقبضة.. فصوت جده يشيع بالسواد داخل روحه:

- التلت ونقول مبروك.. حتى عشان نبقى ماشيين على الشرع..

وصله صمت قصير كأنما يهضم الكهل كلماته بعسر:

- هنروح نخطبها النهاردة.. والفرح خلال أسبوعين بالكتير في أفخم مكان يليق باسم العيلتين..

اعتدل "يزن" بفراشه ووهج نظرته الظافرة يكاد يضيء غرفته:

- موافق.. بس العقود هتتمضي قبل أي خطوة..

- العقود هتبقى باسم ابنك اللي جاي، وأنت الوصي عليه..

الحوت الهرِم يتغذى على الخبث!.. لا يدرك أنه ابتلع الطعم وما ظل فقط هو إخراجه من المحيط بجذبة مناسبة.. وتركه يموت على اليابسة ببطء!..

- العقود هتتمضي باسمي، أما بالنسبة لـ.. ابني..

وتلكأ فيها بسخرية:

- تقدر تدي له اللي أنت عاوزه لما ييجي بالسلامة..

صمت آخر.. تلاه جواب خاضع وإن كان الصوت صلبًا:

- موافق..

الهدف الثاني!..

لا.. لقد حُسمت المباراة لصالحه، وأطلق الحكم صافرته معلنًا النهاية..

(4)

طريق الجحيم بدايته خطيئة..

وبداية الألم هفوة!..

**

يتشرف السيد "يونس أبو الغار" والسيد "أحمد درويش" بدعوة سيادتكم لحضور حفل زفاف حفيد الأول على كريمة الثاني..

والعقبى عندكم في المسرات..

بقاعة "القبة السماوية" في الطابق الأخير من فندق "نايل بالاس" يقام الحفل السعيد.. حيث لا حجاب بين الحضور وبين السماء الحالكة بنجومها وقمرها المكتمل..

يرتفع سقف القاعة على شكل قبة دائرية من الزجاج، تربط بين ألواحه أعمدة معدنية صلبة تتلألأ بسطوع الفضة البراقة.. معلق بها إضاءات مصفوفة أحالت المكان لقطعة من النهار، السجاد تمازجت ألوانه بين الأسود والفضي.. والطاولات بيضاء كالمقاعد

حولها ومقعد العروسين الأنيق فوق منصة منخفضة تطل على ساحة الرقص..

أسفلها بطابقين كان ينتظر حضورها، بينما هي تنهي آخر لمسات زينتها..

تتأمل وجهها في المرآة وصديقتها تقف خلفها بعين حائرة، لا هي تستطيع إيقاف تلك الدوامة التي ألقت "غزل" نفسها بقلبها.. ولا يمكنها حراستها والاهتمام بها كما اعتادت أن تفعل وهي على وشك أن تصبح زوجة..

زوجة لرجل مجهول تعرف عنه اللا شيء!..

اقتربت منها تساوي خصلة من شعرها، تبتسم بعتاب ونظرتها تؤنبها رُغمًا عنها:

- أنا مش عارفة إزاي جاريتك في اللي عملتيه ده!..

قرصت "غزل" وجنتها بمداعبة شقية:

- عشان بتموتي فيَّ طبعا..

ابتسمت "رهف" برقة حانية:

- وبخاف عليكِ أكتر..

ترددت لحظة مع لمعة عين الصديقة بصدى مشاعرها:

- ده جنون يا غزل، خطتك نجحت لحد دلوقتِ من غير خساير بس...

- بس إيه!..

تلك كانت من المتمردة على كل تعقل، الغاضبة من رفيقتها التي تلومها كلما سنحت لها فرصة:

- بس أنتِ هتتجوزي راجل ما تعرفيش عنه أي حاجة!..

زمت "غزل" شفتيها وهربت بعينيها لتراقب ظلام الليل عبر الجدار الزجاجي للغرفة..

نعم تدرك ذلك، لكنها وللغرابة لا تخشاه.. هل نخشى الخطر عندما نختاره بإرادتنا الحرة!.. مادمنا قد اصطفيناه فلنتحمل عاقبة ذاك الخيار إذًا، ولكل مغامرة مخاطرها، وثمنها..

هي كذلك وللغرابة الأكبر، تثق به.. فيه شيء ما يطمئنها!..

فيه شيء ما يجذبها كفراشة تحوم حول لهب، كفراشة تثق أنها لو اقتربت أكثر من اللازم لن تحترق.. وهي!..

هي لن تدنو إلا لحدٍ رسمته بمخيلتها، حد لن تبيح له هو تجاوزه!..

دارت "رهف" حولها تواجه بصرها قسرًا:

- هتعيشي معاه إزاي لآخر العمر وأنت معلوماتك عنه زيرو!..

وتهدل كتفاها بيأس متوتر:

- إزاي هيكون أبو ولادك وأنتوا اتجوزتوا بالطريقة دي!..

رفعت "غزل" حاجبيها في دهشة وهي ترمق صديقتها مستنكرة:

- أبو ولادي!.. روفي دي مجرد لعبة؛ مش جواز حقيقي..

أتى دور الحانقة في الدهشة حد اتهام الأخرى بالغباء والسذاجة:

- غزل أنتِ هبلة ولا بتستهبلي!..

قطبت العروس بغيظ بينما تعقد ذراعيها في مواجهة صدرها و"رهف" تكمل بغضب صريح:

- مافيش راجل هيكون معاه ست ومراته ومايقربش منها..

تلك المجنونة رغم الاندفاع والطيش والتهور والقوة، تصدق أن رجلًا سيقاسمها حياتها في لعبة!..

طرقت رأسها بشيء من غلظة:

- الموضوع مش لعبة يا غزل، أنتِ اللي بتلعبي لكن هو واضح أنه مش سهل..

هزت رأسها بحزن قلق:

- الله أعلم دماغه فيها إيه!..

- رهف!..

تلك النبرة اللعينة..

فارق عمر عام واحد منحها صك الأمومة وعليها الدلال.. الصديقة نبرتها مرتجفة وهي من أهدتها الخوف.. لكنها تستحقه، بل

تحتاجه لتمر تلك الليلة بسلام.. لكن ماذا عن كل ليلة أخرى قادمة!..

عادت تهز رأسها تنفض عنها أفكارها، تعدل لها الثوب وتبتسم بحنو، تتأملها بفخر وسعادة وتخبرها برفق:

- خلاص، مش وقت الكلام ده.. دلوقتِ صاحبتي الوحيدة بقت عروسة وزي القمر..

لمعت عبرة بين أجفانها كأمها بالفعل:

- لو زعلك قولي لي وأنا أتصرف معاه.. يلا بينا لأن نوف مش هتتحمل الضيوف كتير تحت..

نقر خافت على الباب وصلهما، كان خلفه أبيها، يرمقها بحب ويبتسم بحنان بدا لعينيها وكأنها تراه لأول مرة، ينبئها أن الزوج ينتظر..

مع زفة شرقية تعزف نغمات زفاف كلاسيكية أتت هي، تتأبط ذراع والدها، بثوب فريد يليق بتفردها..

كريمي ابتعد بلونه عن الأبيض الصافي، مقدمته قصيرة تصل لركبتيها ويتدرج حتى يصل لحدود كعبيها من الخلف، منفوش بعدة طبقات خفيفة شبه شفافة، الصدر محاط بوردات رقيقة متباينة الأحجام، ويحيط بكتفيها العاريين ممررًا إغواءً ناعمًا..

خصلاتها الكثيفة مصففة بتموج فاتن، مضمومة على كتفها الأيسر ليظهر طول عنقها ونعومته من جهة اليمين..

زينتها للغرابة هادئة، وفوق رأسها تاج رقيق دون طرحة العروس المعتادة..

أجاد "يزن" إخفاء إعجاب سطع بمقلتيه فالتجهم هو سيد اللحظة، تسلمها من الأب الذي أوصاه عليها وانحنى يلثم جبينها بهمس مشاغب:

- طب والله قمر..

قبل أن تبتسم وتهرب من عينيه أو تجيب مجاملته بعنادها المحبب دمدم وحاجبيه مقطبين:

- ما تبتسميش..

وقتها تذكرت قواعد الليلة؛ ليلة عرس مجبرة هي عليها مع رجل لا تطيقه، رجل خانها وخدعها وسلبها شرفها وبراءتها.. لكن لولا طفلها لما وافقت..

ليلة عرس مجبر هو عليها ولا يكترث؛ فقد قبض الثمن مقدمًا!..

بدأ الحفل برقصة العروسين ثم توالت الفقرات تباعًا.. رقصت مع صديقاتها ما عدا العاشقة التي لم يرحل بصرها عن ابن عمها الواقف بأحد الأركان بانسجام تام في حديث مبهم مع جد من أضحى زوجها، إلى أن تدخلت والدته وجذبته لحديث آخر مجهول..

"عقبالك يا عدي"..

رفع أحد حاجبيه ونبرته تمرر جفاءً باردًا كلما فُتح باب الحوار عن زواجه:

- مافيش جواز تاني يا ست الكل وأنتِ عارفة..

تجاهلت اعتراضه كأنها لم يتلفظ بحرف منه وبصرها يتابع صديقة العروس التي تطوف حولها بعناية:

- مش كنت اتجوزت غزل وأهي بنت عمك!..

حافظ على هدوئه وشبه بسمة ترسم حضورًا باهتًا فوق شفتيه، بسمة تثبت مروره بتلك المناقشة آلاف المرات ربما حد وصوله للفتور:

- كمان غزل!..

انتبهت له أمه بالتفاتة كاملة ونبرة لها مغزى ماكر:

- بلاش غزل.. صاحبة غزل!..

تلك المرة ارتفع حاجباه معًا، تبدلت بسمته للسخرية التي لم تمس صوته:

- رهف!..

لم يكلف نفسه عناء نظرة نحوها بينما يردف بجمود:

- رهف موظفة معايا وبس..

وتراجع يهرب من تلك المحادثة التي تتكرر بمناسبة أو بدون:

- هاسلم على العروسة وأمشي، عندي مناقصة مهمة الصبح ولازم أكون في المصنع من بدري..

لم تصمت بل مررت آخر بطاقة في لعبتها معه:

- ابنك محتاج أم يا عدي..

لم يُجِبها، أشار بكفه من فوق كتفه بلا اكتراث، تابعته أمه بنظرة شجن، هو يحمل نفسه كل الذنوب..

ذنب البداية..

وذنب النهاية والفقد!..

قلبه المغلق أبد الدهر يحتاج لاقتحام.. اقتحام من عاشقة يرى العالم كله عشقها بعينيها.. سواه!..

سار بخطوات واسعة تجاه العروس التي استقبلته من بعيد ببسمة، بسمة نُقشت مثلها بقلب التي تجاورها.. بقلبها لا تلامس شفتيها أبدًا..

مع اقترابه أكثر قررت الهروب..

هي امرأة في العشق تنتهج درب الصمت!..

لا تنظر إليه، تهرب منه، كل جوارحها تخشى قربه رُغم عملها الدائم معه.. عمليتها واحترافيتها تتحطمان على صخرة عشقه، وعشقها يندهس تحت وقع خطوات جديته وجفائه..

ابتعدت تغادر منصة العروس، درجة وتعثرت في الثانية حين كان هو يواجهها.. ستسقط!..

بتلقائية مد ذراعه يدعمها؛ لكنها تراجعت أسرع.. تمالكت نفسها بمعجزة، تفر من عينيه وحضوره كفرارها من وحش جائع..

هي حتى لم تخاطبه، لكنه كان هو من أوقفها:

- رهف!..

ازدردت لعابها.. تبًا له..

معه تشعر وكأنها طفلة، تتلعثم.. تخجل.. ترتبك.. إلا في العمل، هناك تفقد نفسها في شغفها بعملها، توقفت بنصف استدارة وبسمة واهنة تجاهلها:

- مش لازم تكملي الفرح للآخر، في شغل مهم الصبح ومحتاجك مركزة..

أومأت بإيجاب وأحرفها تختنق بحلقها، ثم عادت للركض من محيطه بخافق قانط، خاسر، فاقد لكل أمل..

تدرك أن الحياة له معادلة قصيرة 1+1 = 2..

لكنه في كل أحواله؛ رجل المعادلات الصعبة!..

وهي معادلة ناتجها مجرد.. كسور..

هنأ هو ابنة عمه وزوجها وغادر بالفعل بعدما ترك لها هديتها بصحبة شقيقتها.. تلا رحيله تهنئة الحضور..

أهمهم.. "عمار الديب" شريك "يونس أبو الغار"، وشريك "يزن" الحالي.. يبارك له بمصافحة باردة ونظرة قوية داكنة لم يفهمها ولم يبالِ بها..

صديقه "وجيه نصار" مالك سلسلة الفنادق.. أصدقاء جده من المجمع السكني الذي من المفترض أنه محل إقامته بعد زواجه..

بعدها انتهى الوقت المحدد لفقرة المهرج من وجهة نظره، وحان وقت لاعبي الأكروبات، وقت المخاطرة الحقيقية..

جده في وداعه بصحبة أسرة العروس..

أمها السعيدة بدموع، والدها الوقور وأختها التي انفردت بها في حديث نسائي يجهل فحواه وإن خمنه..

- المرة دي خلِ بالك من بنت درويش..

ابتسم من بين أسنانه وقرر أن يهديه ضربة أخيرة:

- ما هو لولا اسم درويش كان زمان أمن الكومباوند رموها لكلاب السكك..

نعم يتهمه بالحقارة والتمسك بمبدأ المال والسلطة وكل ما عداه لا قيمة له، يتهمه ونظرته تخبره أنه سبق وباع الدم لأجل المال من قبل.. فما الجديد!..

رحل الجميع.. أغلق باب جناح العروسين بفندقه "سابقًا" من ورائهم، استدار بزفرة حارة، هو.. وبعد جهد، وعناء سنين..

انتصر!..

لم يجدها في محيطه فقرر استبدال ثيابه وانتظارها، كانت هي بغرفة النوم تتأمل الغلالة التي تركتها لها شقيقتها فوق الفراش بشفاه ممطوطة بتهكم..

تجذب حقيبتها الصغيرة ومن جيبها الخلفي تلتقط منامة وردية داكنة تشبهها.. سروال طويل وسترة قصيرة تلامس حافته، والهدية خف على شكل مُهر كرتوني معروف..

نصف ساعة مرت تخلصت خلالها من زينتها، حررت شعرها من أسر التصفيفة والتاج..

غسلت وجهها بماء بارد وخلعت ثوبها لترتدي منامتها الشتوية، ثم خرجت إليه.. رأته واقفًا قرب الجدار الزجاجي الذي يمثل واجهة الفندق بأكمله، يشرع نافذته وينفث تبغه بشرود..

تأملت ظهره.. قامته الطويلة وكتفيه العريضين، بعدها نفضت عن عقلها كل فكرة قد تخطر لها بهذه اللحظة..

تنحنحت تنبهه لحضورها.. مع التفاتته وسقوط بصره عليها انحنى فمه بعبث:

- هو ده لبس العروسة!..

تجاهلته وتوجهت إلى طاولة العشاء تتناول من طبق الفاكهة ثمرة موز، تتربع فوق أريكة واسعة وتقشرها، تقضمها بتلذذ جائع وتنظر إليه:

- هي فين العروسة!..

جذبت خصلاتها ترفعها لأعلى بربطة مهملة، مع حركة ذراعيها ارتفعت سترة منامتها لتظهر نعومة بشرتها لعينيه، أطفأ لفافته وخطا نحوها بينما عيناها تتألقان بحماس في محاولة لاستكمال المؤامرة وإنجاح الخطة:

- دلوقتِ اتجوزنا.. إيه الخطوة اللي جاية بقى!..

وقف يواجهها بنظرة ماكرة ومجون حركة شفتيه يريبها:

- الخطوة اللي جاية!..

تأملته بحذر وتراجعت في جلستها:

- آها..

خلع قميصه القطني عبر رأسه دفعة واحدة ليعري جذعه بمقابل شهقتها:

- جدي منتظر حفيد خلال أقل من تسع شهور..

اقتراب آخر تجاهها أفزعها مع استطرادته الخبيثة:

- فهنجيب له الحفيد..

وثبت عبر ظهر الأريكة، كادت تسقط على وجهها بصرخة مكتومة:

- لأ.. ده ماكانش اتفاقنا؛ أنت قلت لي له حل..

مالت عيناه إلى الفراش عبر الباب المفتوح بتأمل خاطف:

- ما هو ده الحل..

دار يقترب منها، تطلعت حولها بيأس..

لمحت باب غرفة النوم التي غادرتها فركضت إليها ولحق هو بها.. لم تتوقف، لم تستدِر بل أكملت ركضها إلى الحمام الملحق وأحكمت إغلاقه عليها بلهاث مذعور..

أتاها صوته من خلف الباب بمشاكسة، كادت تستشعر معها بسمته في نبرته فتضاعف غيظها:

- ما تقوليش عاوزة تجربي الاغتصاب كمان!..

شهقتها الثانية، اللعنة.. صديقتها على حق!..

وصلته الشهقة، توسعت البسمة:

- هتنامي عندك!..

لم تُجِب.. توجه إلى الفراش يلقي بجسده بين طياته وشراشفه المزينة لأجل ليلة الزفاف:

- براحتِك..

هل يلاعبها!.. أم هو جاد!..

أهي زيجة حقيقية بالفعل وهو يريدها كزوجة!..

خبطت جبينها بكفها بحيرة..

لكن رُغمًا عن عبثية المشهد وفوضاه.. تسللت لشفتيها بسمة!..

بسمة بلهاء لا معنى لها، فقط.. اللحظة الحالية تعجبها..

رمقت الجدران بقنوط، يبدو أنها ستقضي الليلة بالحمام كما خمن هو..

ويالها من ليلة عرس تشبهها.. ولا يليق بها سواها، هي المجنونة "غزل درويش" الزوجة المبجلة وحرم "يزن أبو الغار" المصون..

مع وقف التنفيذ!..

**

بعض الرجال يريدون فقط مشاهدة العالم بينما.. يحترق!..

"The dark knight"

هو لا يريد مشاهدته وحسب؛ بل يريد التربع على عرش رماده بعد الاحتراق..

عندما تسكن الهامش لا تطمح لدور البطولة؛ حينها الحياة ستسقطك عنوة.. تهديك خيارًا من اثنين..

دور الثانوي المقهور.. أو الشرير!..

لن تكون المثالي الخارق الذي يحلم الجميع بدوره.. بل ستكون الشيطان الذي يتمنون مكانته لكنهم يكبتون تلك الأمنية، يخافون من التصريح بها، معلنين أن المثالية هي الحل لكل معضلة..

فالخوف هو الجانب الآمن حين الحاجة..

توقف بسيارته السوداء قبالة المقهى العربي الشهير بأحد أحياء "لاريسا".. حيث اعتاد قضاء أمسية نهاية كل أسبوع هناك بصحبة أصدقائه من المصريين.. يخالطهم، يمتزج بهم، يتشبع بلغتهم التي أتقنها كأنها وُلد ينطقها.. وينغمس في عاداتهم ومعتقداتهم..

كل ما هو من المفترض أن يكون له، لكن أحدهم كما منحه الحياة أخذ منه طريقة معيشتها..

استقبله "سميح" البدين الطيب ببسمة مرحبة اختفت لها عيناه في اكتناز وجنتيه:

- الـ dark knight وصل يا رجالة..

أقبل على طاولتهم بوجه غامض وبسمة باهتة لا تكتمل على محياه أبدًا:

- مش قلنا ما يليقش..

من جوار البدين نطق آخر أسمر البشرة مجعد الشعر، يضع عوينات فضية الإطار تتناقض مع خشونة ملامحه:

- الـ joker.. ولا تزعل نفسك يا يعقوب..

قابله عبر الطاولة متطلعًا للعبة التي أتقنها من خلال صحبتهم:

- هو الكسبان يا ماجد..

حينها أتاه الجواب من ثالثهم..

الملقب بالمثقف العميق، ذا النظرة الثاقبة.. الثالث الذي لا يرتاح له ولا هو يتقبله بالكلية.. يراه الدخيل على مجموعة عربية مغتربة وإن كان يحمل اسمًا يشبههم ويتحدث لهجتهم:

- الشر مهما انتصر له نهاية يا.. جايكوب..

تأمله باستخفاف.. الوحيد من بينهم الذي يلتزم بل ويصر على مناداته دون تعريب؛ كأنما يستكثر عروبته عليه، حتى أنه يرى في نفسه مكانة أعلى منهم.. لم يكترث، لوى شفتيه باستهجان:

- الخير كمان له نهاية..

ومال يحدج الصديق اللدود بنظرة ساخرة لم تخلُ من قسوة:

- فارس الظلام بيخسر اللي بيحبهم، بيختفي، بيتحول لطريدة.. ووقتها شرير الحكاية بيحكم..

- هيظهر له بطل تاني يبقى شوكة في ضهره..

يتحداه، ويكمل ازدراءه بتهكم مشابه:

- ولو سقط؛ في غيره وغيره..

أغضبه!.. نعم.. ويحق لشيطانه رد الصفعة:

- عادي يا هشام، عشان كده الحشرات عددها أكبر على الأرض..

زوى ما بين حاجبيه مع امتعاض وجه المثقف المدعي من التشبيه:

- بتندهس في النص وماحدش بياخد باله، ما بيعلقوش في الذاكرة..

ثم تجاهله تمامًا.. تجاهل حضوره وجلسته في مواجهته..

اندمج في لعبة الدومينو التي يهزمهم بأدوارها كل لقاء.. تناول عشاء مصريًا أصيلًا بعده عاد لمنزله الذي كان خاليًا من صديقته، خطا بلا تأخير إلى الحمام وفتح الصنبور يملأ المغطس بالمياه الباردة.. قطرات من صابون برائحة الليمون المنعش عقبها نزع ثيابه ودلف إليه..

استرخى بهدوء وجسده يتكيف ببطء مع برودة الماء، أنفه تنتعش بالرائحة وجفناه يتعانقان قبل أن يغيب ذهنه في ماضٍ يبغضه.. تلك الذكرى الحارقة التي تقتحم سكون عزلته في كل مرة فتثير به الأعاصير، تصليه الجحيم كشيطان أُحتجز هناك دون دروب الوسوسة والإغواء..

سمع خطواتها رُغم غيابه.. الباب حين أغلقته خلفها، وجودها بغرفة النوم، وقوفها عند طرف المغطس ثم تنهيدتها..

ثوان أخرى وشعر بها تندس بين ذراعيه، كأنما تهديه بحضورها غيابًا من نوع آخر..

غيابًا يحتاجه.. يريده.. يشتهيه ويفتش عنه، فلم يتردد في اقتناصه فوق شفتيها..

**

"صباحية مباركة"..

تهنئة العروسين..

لكنها لم تكن صباحية وبالتبعية لم تكن مباركة..

ترك الفراش بكسل، استقام يتمطى ويبحث عنها في الغرفة ثم في الجناح بأكمله فكانت بلا أثر، باب الحمام مغلق كما هو منذ الأمس..

المجنونة نامت بالداخل حقًا!..

أخذ حمامًا سريعًا في الحمام الآخر وطلب الإفطار على ذوقه، طرق الباب عليها بينما بسمته المشاغبة لا ترحل عن شفتيه:

- الفطار يا زولي..

"زولي" التي تنصب نفسها ملكة المساكين في خانة المستضعفين البائسين ضد زوجها القاسي عديم الرحمة أو الشفقة..

لقد تركها تتكوم على نفسها بالمغطس الجاف، تتدثر بمنشفة ضخمة والآن بينما تحاول النهوض تكاد تسمع طقطقة عظامها المتيبسة..

لعنته وأصرت على وضع النقاط فوق الحروف؛ فالخطة جنحت عن السياق المفترض!..

غسلت وجهها بماء بارد، رفعت خصلاتها في ربطة حازمة وخرجت إليه برأس شامخ ونظرة باترة.. لم تلمحه فدارت بعينيها تفتش عنه، مع همسه من خلفها بمشاكسة انتفضت بعنف:

- صباح الخير..

انتفضت وركضت تبتعد عن مرماه بلهاث:

- أنت.. أنت..

رفع حاجبه بعبث:

- أنا إيه!.. بعدين مالك!.. أنتِ فاكراني هاغتصب فعلا!..

تفرق جفناها باتساع ساحر مُظهرًا لمعة حدقتيها في ضوء الشمس الذي اقتحم الغرفة عبر جدارها الزجاجي بذهبية متوهجة:

- لأ طبعا.. ما قلتش كده..

اقترب بخطوات متمهلة، متسللة، تراجعتها بتحذير صامت لم يوقفه:

- هو أنا ممكن أغير رأيي لو أنتِ عاوزة..

هرولت نحو مقعد يواجه طاولة الطعام تندس فيه هروبًا منه:

- ممكن نتكلم جد!..

استرخى هو فوق أريكة تقابلها ويده تمتد للخبز المحمص:

- ممكن نفطر بعدين نتكلم!..

تنحنحت باعتراض مبتور ثم أذعنت بسكون حيث كل طيور بطنها تتصارع بهذه اللحظة.. انتهت الوجبة بين نظراته الخبيثة وغضب نظراتها يتبعها فرارها، أمسك بكوب "سموذي الخوخ" خاصته

يتناوله بتمهل متلذذ دون أن يرحمها من سهام عينيه وبسمته المتلاعبة لا تفارق فمه بانحناء ساخر..

تراجعت في محاولة للاسترخاء عبثًا، تسحب نفسًا عميقًا بطيئًا قبل أن تقذف بأفكارها بغتة:

- يزن.. هو ده جواز بجد!..

رفع حاجبيه في دهشة مفتعلة ورسم جدية هزلية على وجهه:

- أمال كده وكده!..

زمت شفتيها بحنق رآه فاتنًا للحظة:

- بس ده ماكانش اتفاقنا.. الخطة كانت...

- كانت مرسومة عشان نوصل للمرحلة دي..

الجدية تحولت لحقيقية وجوابه يبتر احتجاجها المستاء:

- ماكانتش لعبة يا غزل، ولا الجواز نفسه لعبة..

تراجعت تتعلق بأذيال حالمية أنثى على وشك مواجهة الواقع الأليم:

- أنا ماعرفش عنك أي حاجة، ولا أنت..

ونهضت تدور حول نفسها بحيرة شاردة:

- لا اللي بتحبه ولا اللي بتكرهه، هواياتك.. شغلك..

عقد ساعديه مسترخيًا في جلسته دون أن يتخلى عن حزم ملامحه:

- نتعرف..

استدارت إليه بدهشة ساخطة:

- دلوقتِ!..

ترك الأريكة بغتة من وضع الاسترخاء فنفضها، تناءت عنه خطوة تتأمله:

- دلوقتِ، وبكرة.. وبعده.. وكل يوم..

لم يتخطَ حدودها، بل توقف قبل خطوتين منها:

- بس المهم؛ ما تدوريش فيَّ على فارس الأحلام..

ورُغم أن كلماته مقبضة فقد نفت عنها وردية الفكرة:

- أنا ماعنديش فارس أحلام..

- فعلًا!..

لا يصدق، يتلاعب.. ويمازح كما تقتضي قواعد الذكر؛ فكل أنثى لديها الحلم.. الفارس.. الحصان الأبيض والزهور والفراشات..

وهو!.. هو بقلبه بقعة مظلمة لا تبحث عن قبس ضوء.. من عشق..

لاحظت تسلله المتلكئ نحوها فنهرته بعينيها:

- أنت ماعندكش شغل تروحه!..

هي لطيفة.. لطيفة للغاية ولن يجادل..

أمال رأسه مصطنعًا الصدمة:

- شغل!.. وحشة في حقك قوي على فكرة لما العريس ينزل تاني يوم ويسيب العروسة..

وعاد يدنو بخبث:

- أول قاعدة.. العرسان ما بيطلعوش من أوضة النوم..

- نعم!..

- أيوة.. وتحديدًا؛ السرير..

خطت للخلف تراقبه في وضع استعداد للقفز بعيدًا في أية لحظة كطريدة وقعت بين براثن صياد محترف:

- عيب اللي بتقوله ده على فكرة..

تظاهر بالتفكير لثوان، نقر فكه وخلل خصلاته التي انساب بعضها على جانب جبهته فمنحته مظهرًا فوضويًا جذابًا:

- ممكن نبطل كلام عادي..

مطت شفتيها بغيظ:

- أنا شايفة كده برده..

مال فمه بمكر:

- ونبتدي بالفعل..

زمجرت كقطة غاضبة وجذبت ذيل حصان شعرها بانزعاج:

- أنت hopeless case بجد..

ثم صمتت حانقة عاجزة عن رد فعل مناسب بادر به هو:

- طب إيه!..

وقاحة نبرته وعبث عينيه أثارا بنفسها توجسًا، تراجعت بظهرها أكثر ترمقه بحذر:

- إيه!..

غمزها ورأسه تميل بإشارة لما خلفها:

- مش هتيجي!..

شهقت.. انتفضت تكاد تثقب عينه بسبابتها:

- أنت وقح وسافل وقليل الأدب ومش محترم و...

انحشر باقي السباب بحلقها عندما وازاها باقتراب فأشرف عليها بطول قامته وكفه تقبض على إصبعها المشهر بوجهه كسلاح قاتل:

- طيب بس بلاش الصباع ده..

وانحنى.. انحنى حتى كاد يلامس شفتيها وضحكته المكبوتة تعانده بانفلات..

لكنها هربت..

انتزعت نفسها من مواجهته، تحجب ابتسامتها إثر توقف واستدارة عند باب غرفة النوم، قبل أن تصفقه بوجهه ولهجتها تشبه طفلة عنيدة مدللة:

- مش هآجي..

لاحقها صوته بشقاوة:

- أنا باقول نجرب الاغتصاب..

وذهنه يفتح الباب على مصراعيه لكل الخيالات الإباحية الممكنة معها..

مرت وجبة الغذاء بمناوشات ممتعة له كالإفطار تمامًا، والعشاء تلاها بوجوم حذِر فالليل له قوانينه وطقوسه..

طقوسًا تتوقعها وينتويها هو..

سبقها إلى غرفة النوم مستغلًا مكالمة والدتها التي تطمئن على صغيرتها العروس، تمدد بالفراش يعبث بهاتفه حتى أتت بضيق:

- أنت برده هتسيبني أنام في البانيو!..

تراقصت بسمة عابثة عند حدود شفتيه، يجيبها ببساطة:

- وليه بانيو!.. عندك الكنبة..

بعدها ربت إلى جواره بنبرة هادئة لا توحي بشيء:

- ممكن تنامي هنا.. مش هاغتصب ما تخافيش..

استدارت مغتاظة من تعليقه المتكرر، تتأمل الأريكة المقصودة.. بحسبة سريعة أيقنت أنها ستحتوي ثلثي جسدها ومرحبًا بليلة جديدة من ألم الظهر والساقين..

وجدته يردد بتحدٍ كأنما يثير حفيظتها وحسب:

- قلت لك ما تخافيش..

- مش خايفة!..

نظرته تكذبها.. بل صوتها نفسه الذي خرج مهزوزًا رُغم العناد يكذبها..

خطت إلى الحمام تنهي عاداتها اليومية، عندما عادت إلى الغرفة وجدته يتلحف بالغطاء من أخمص قدميه حتى رأسه لا يظهر منه شيئًا.. أنفاسه هادئة منتظمة كأنما راح في سبات سريع..

سباته أهداها شيئًا من راحة، تجمدت جوار الفراش تنصت، تنتظر.. تتأكد من نومه بعدها تسللت إلى جواره بهدوء حريص خشية إيقاظه..

أطفأت الضوء الجانبي الخافت، انطوت حول نفسها عند الطرف البعيد عنه توشك على السقوط..

مرت الدقائق بتتابع بطيء.. تسرب النعاس إلى أجفانها فكادت تتعانق عندما شعرت به يتقلب، يتحرك، يلتصق بها معانقًا ظهرها وجسدها في حصار توسعت له عيناها، وخيالها يجسده في وضع مُخِل..

هل هو!.. لا.. مستحيل!..

أتراه يحلم إذًا أم...

- أنا باقترح نجرب الدخلة، صدقيني هتعجبك..

أدارها في ظلام الغرفة يطوق بكفيه ساعديها، يمنعها الاعتراض وجسده يشرف عليها بتسلط أخافها:

- يزن!..

نطقتْ اسمه برعشة فتنته فلامس شفتيها بتأنٍ، يتذوقها ويمنحها المذاق، مذاق القبلة.. مذاق رجل..

يبتعد لمسافة تتلاحم فيها الأنفاس بعناق حائر، يمرر حضوره بدفء شغوف على بشرتها، يتسلل إلى عنقها الناعم فيدفن في نعومته رغبته..

- يزن!..

تناديه.. والنداء هاته المرة لم يكن محتجًا.. بل قلقًا، متوترًا.. خجولًا ومتسائلًا:

- إمممم..

زفر لحظة حينما ابتلعت لعابها بارتباك:

- هو أنت من غير هدوم!..

بسمته كانت واضحة تمسُّ جيدها وجوابه مباشر.. فج:

- أيوة..

شهقتها ابتلعها، ومن ورائها ابتلع الصدمة وكل اعتراض مباح قد تجيزه براءة أنوثتها.. ابتلعها حد الامتلاك التام..

**

"صباحية مباركة"..

نعم.. هكذا ينبغي أن تكون.. لينة، ناعمة، بجسدٍ غض بأحضانه.. جسد بات ملكه وخصلات كثيفة نالت شرف تشعثها على يديه..

فتح عينيه يشعر بنوع من الامتلاء..

انكسرت نظرته بكسل تسقط فوقها، اعتدل قليلًا ومرر أنامله حول طرف كتفها بعبث، امتدت أصابعه تبعد شعرها عن عنقها.. وبُتر كسله ببسمة ماجنة وقتما لمح أثره هناك..

رفع رأسه ومال يطبع شفتيه عند الحمرة التي تركها في الليل، تمادى ويده تشاكسها في محاولة لإفاقتها.. تململتْ، انكمشت مبتعدة ثم انتهى تحركها العشوائي بانتفاضة متوترة:

- في إيه!..

تجمدتْ تمامًا مع لقاء عينيه الغائمتين برغبة صريحة:

- صباحية مباركة..

لم ينتظر ردها.. بل جذبها إليه، كفيه تسيطران على وجهها وشفتيه تلتقيان مع شفتيها في معزوفة شغف لم تنتهِ إلا وهي غارقة في سبات آخر منهك.. دثرها وترك دفء جوارها، أنهى حمامه وارتدى ثيابًا خفيفة إلى وجهته..

مكتب المدير والصديق الذي ما إن لمحه حتى رمقه بنظرة مبهمة:

- أنت إيه اللي جابك!.. مش خايف الموظفين لو شافوا العريس يقولوا بيهرب من مهامه الزوجية!..

الجاد يسخر!..

معجزة كونية.. منحه بسمة سمجة واستقر في مقعد يواجهه:

- كده دخلنا في منطقة أعراض والدم هيبقى للركب..

فاز بضحكة خافتة وهزة رأس يائسة من عبثه الذي لا ينفذ، أشعل "يزن" لفافة تبغ وغير فحوى الحوار:

- خلينا في المهم..

- هتسيب الشغل طبعا!..

ابتسم وأكد على ما قاله بإيماءة وازت جوابه:

- هادير شركة جدي وأشوف موضوع شركة الديب اللي اشترى أسهم فيها..

تراجع "وجيه" في مقعده باهتمام صادق:

- مش شايف إن الخطوة دي متسرعة!..

وقبل ردٍ شافٍ أردف بشيءٍ من قلقٍ على الصديق:

- هو صحيح جدك؛ بس الماضي اللي بينكم مش سهل يتنسي!..

التقط قلمًا باهظًا مدموغًا باسم الفندق من فوق مكتبه يتلاعب به بين أصابعه:

- فجأة يطلب منك ترجع وتدير كل الشغل!..

نفث "يزن" دخانه ببطء وذهنه يشرد في خطته.. في جنونها وانتصاره:

- مش فجأة ولا حاجة، ده تخطيط سنين..

ثم مال بعينيه يهديه نظرة منتشية:

- أخيرًا لعبت الكارت الكسبان، وجه الوقت إني آخد حقي..

انعقد حاجبا "وجيه" يتفحصه، كأنما يحاول استقراء أفكاره واستنتاج ما يخفيه عنه:

- كارت كسبان مع الحوت يونس أبو الغار!..

- ومع الشيطان كمان..

المباغتة أتت بجواب حادٍ، قاسٍ ضاعف القلق، تلك النبذة التي يعلمها عن ماضٍ مر ولم ينتهِ بعد؛ تُفجر هواجسه:

- يونس دلوقتِ بيرمي لك طعم، مجرد حاجة تدخلك الفخ يا يزن..

غيمة قاتمة ظللت نظرته.. دهس لفافته في مرمدة أمامه على الطاولة القصيرة واستقام يواجه النافذة بتوحش يليق بغابة استقبلته وقتما لفظه حضن العائلة:

- ما تقلقش.. الحوت لقط الطعم بتاعي أنا ومش فاضل غير إني أصيده وأسيبه يموت من العطش..

تبعه "وجيه" يتأمل المشهد معه، يضع كفه على كتفه بدعم:

- أنا مش عارف أنت عملت إيه، بس الثقة اللي بتتكلم بيها هتخليك تدخل الفخ من غير حساب أو حذر؛ خد بالك من نفسك..

أدار وجهه إليه بنظرة باردة يتأجج في حاشيتها السعير:

- قلت لك ما تقلقش، المرة دي أنا اللي حطيت قواعد اللعبة وعارف بعمل إيه..

- المهم تكون خيوط اللعبة كلها في إيديك..

أتاه الصمت كرد أكثر من كافٍ، عاد لما خلف مكتبه متمسكًا بوجود الصديق:

- على العموم.. أنا موجود، ومكانك محفوظ في أي وقت حبيت ترجع..

ابتسم "يزن".. التفت إليه ببسمة مشاكسة:

- مش هارجع..

والمشاغبة ليست حكرًا عليه وحده، مع رد "وجيه" شبه المداعب والذي كسر جدية ملامحه الدائمة:

- خسارة.. يعني صاحبي هيسيبني أضيع من غير خبرته العالمية!.. ماكانش بينا محشي ورق عنب..

ضحكة صافية انطلقت من صدر المتمرد السابق وهو يتذكر ذلك الطبق الشهي من يد زوجة "وجيه".. التي تصر على طهيه بنفسها لأنها فقط تعشقه..

ضحكة قد لا تتكرر في القريب مع خطة عودته لمنزل جده والذي يجري به العمل حاليًا على قدم وساق لتخصيص الجزء الشمالي من الطابق العلوي لإقامته وعروسه..

إلا غرفة واحدة لا يجوز المساس بها، ولا يباح حتى المرور من أمام بابها..

تجاهل أذى الذكرى وعودتها الموجعة بابتسامة باهتة انتهت بها ضحكته:

- معلش.. أنا عارف إن مدير خبرة زيي ما يتعوضش..

ودعه وعاد لجناح العروس.. عاد وخطواته يرسمها الظفر وتعلوها النشوة.. وأفكاره الخادشة لكل حياء ممكن تتشبث بفكرة مهامه الزوجية التي قد يظنها موظفو الفندق في خطر!..

**

الحياة حرب، والحرب خدعة..

وفي الخداع.. كل طريق مباح وكل غاية ممكنة..

تلك هي استراتيجية رجل مثله.. رجل وُلد بأرض المعارك وسط ضجيج صليل السيوف، اعتاد الفوز، أدمن جمع الغنائم وامتلاك السبايا..

لا يكترث لصعوبة الهدف أو استحالته، هو سيناله مهما بعُدت النهاية.. رجل لا يكتفي بوسيلة واحدة تجاه الغاية، بل تتعدد الوسائل، تتنوع، تكثُر إلى أن يصل.. يجيد الحصار حتى النصر.. إلى أن يعلن الخصم استسلامه وخضوعه، فاتحًا أمام جحافل جيوشه أبواب مدينته..

ذئب وحيد رُغم أن الذئاب تعيش في قطعان، لكنه هو قائد نفسه.. هو "الألفا" بلا نزاع والعالم كله قطيعه.. حاد الذكاء لا يهاجم إلا من موضع قوة، والآن تربع على قمة هرم السطوة والنفوذ!..

عندما يقرر الهجوم تسقط الفريسة بين مخالبه بلا مهرب، حينها يجهز عليها..

ضرباته قاتلة تستهدف نقاط الضعف بأقصى عنف وشراسة..

وهزيمته!..

هزيمة "عمار الديب"؛ درب من المحال..

أما هي.. الطبيبة السابقة ومديرة المشفى الحالية؛ فطريدته التي لن يتراجع عن الظفر بها مهما كانت التحديات أو العوائق!..

راقبها تدخل للمطعم الذي اتفقا على تناول الغذاء فيه بخطوات رصينة، تدور برأسها بتمهل، تفتش عنه.. حين التقى بعينيها ظهر بمقلتيه بريق خاطف جمدها لثوان..

بسمة صغيرة ارتسمت عند طرف شفتيه بينما يتأملها تقترب.. ووجوم ناوش روحها وقتما خطت إليه بثبات تجيده لا تصطنعه، هي امرأة قوية؛ لذا فليحترس إن فكر في تخطي حدودها..

تمحور شرودها حوله.. رجل غريب؛ وإن بدت ملامحه في حضور ضوء نهار غارب أكثر راحة، أكثر طمأنة..

حتى عيناه..

لونهما يظهر مشرقًا كأنما أضفت عليه حمرة الشفق مزاجية خاصة بها لمسة من عبث خفف رهبة النظرة..

استقام يستقبلها ما إن لمحها، ينتظر اقترابها بخطواتها الهادئة الثابتة، يرسم فوق شفتيه بسمة مرحبة لها وقع ثقيل يليق بتفاصيل وجهه الخشن..

يليق بهالته التي مع دنوها أكثر اكتشفت أنها لا تزال تقبض خافقها..

صافحها برقي يشبه مصافحته الأولى وإن احتفظ بيدها في قبضته لخمس ثوان أطول، وازاها يجذب لها المقعد بأناقة وهمسه يتردد بتعليق حروفه رخيمة تتناغم وعمق نبرته:

- في ميعادِك بالظبط..

استقرت جالسة بهالتها الشامخة، دار هو عائدًا لجلسته التي تواجهها تمامًا كأنما لا يريد ترك لبصرها فرصة الفرار من حصار بصره:

- متعودة أحافظ على مواعيدي، بس الواضح أنك جيت بدري..

ابتسم بمكر وصوته لا تتغير وتيرته:

- بحب أدرس أرض المعركة قبل بداية الحرب..

رفعت حاجبها وتهكمٌ ما يمر فوق أحرفها:

- ده مش ميعاد غدا بقى!..

ناولها قائمة الطعام وبسمته يشوبها شيء من جدية:

- الحياة كلها حرب يا.. دكتورة..

أمسكت القائمة من يده وأعادتها إلى المائدة، تتشبث بالرسمية مثله وأكثر:

- على العموم أنا مش من هواة الحروب، والحقيقة أنا وافقت على المقابلة دي لسبب واحد بس..

مدت يدها في حقيبتها تخرج شيكه الممهور بتوقيعه، تدفعه نحوه برفض صريح:

- أنا جيت بس أرجع لك الشيك، وراجعة المستشفى تاني.. ورايا شغل مهم..

رمقه بين أناملها بفتور، عقبها أخذه ووضعه بينهما في المنتصف تمامًا أسفل كأس زجاجي به زهرة!..

سكن يدقق فيها بنظرة لم تعجبها، تضايقت، زمت فمها واستعدت للنهوض لولا أن أوقفها بحزم صارم:

- الاتفاق وعد يا دكتورة، وأنا أخدت وعد بغدا..

ثبتت بجلستها للحظة رفعت بعدها ناظريها إليه بينما يردف هو بلا مبالاة غريبة:

- وعلى الغدا نتكلم في الموضوع اللي تحدديه..

عقبها أعاد إليها القائمة وحدقتاه تضيقان بنظرة آمرة:

- شغل.. أو العرض بتاعي اللي أنا مصر عليه..

سحبت نفسًا بطيئًا أقرب لزفرة حارة أرادت إخفائها.. رجل مربك ولن تتنازل عن ذلك الوصف!..

لكنها امرأة لا يدهشها شيء..

لن يخيفها رجل حتى وإن كان هو، لذا تحدته بلا اكتراث يشبهه.. بلا كلمة واحدة، ودققت في الأصناف تنتقي منها ما تشتهي..

بالنسبة إليه، فتلك الجولة.. هاته المعركة حُسمت لصالحه، بقيتْ؛ وما بعد البقاء أمره سهل..

امتلك طرف خيطها بالفعل، وجذْبه لن يكون مستحيلًا.. فقط عليه التمهل وصولًا للسيطرة الكاملة..

أثناء تناولهما الطعام حرص على الحديث العملي الجاد، اهتمامه بالمشفى، استغرابه من الحفل وفكرته وتساؤلاته عن تبعاته..

أخبرها عن شركته المتخصصة في تجهيز المستشفيات من الألف إلى الياء؛ أن تلك نقطة أخرى تجمع بينهما.. كلماته الملتوية طنت بعقلها حيث أدار اللعبة بحنكة عائدًا لفكرة الاستثمار والشراكة..

الغريب أنها انسجمت معه تمامًا..

تستمع لأفكاره التي لم تكن سيئة لتلك الدرجة في مجال العمل، والأكثر غرابة أنه تحدث عن شغفه بعمله فاستحوذ على سمعها وبصرها على حد السواء حتى أنها كانت ترتشف قهوتها في تركيز كلي مع كلماته المحسوبة بدقة..

بنهاية الساعة التي تخص راحتها من المشفى وجدت أنها لم تتحدث كثيرًا، هو تحكم بدفة الحوار باحترافية، انتقى حروفه وبعث لها برسائله التي استقبلتها بلا وعي منها.. كما بلا وعي منها كذلك كان يدس الشيك بيدها وعيناه تحاوطانها بتأمل غامض..

لكن غموضه لم يربكها هذه المرة؛ بل أوقد فضولها.. مع نظرتها تأكد أنه غرس حضوره بأفكارها وعقلها فغير وجهته إلى حيث يريد بسلاسة:

- إيه رأيك نبطل كلام عن الشغل شوية!..

لم تنبس بحرف، اكتفت بتساؤل صامت جاوبه هو ببساطة عندما ارتكن للطاولة بمرفقيه وخضرة عينيه تشع بخطر..

خطر يحذر من الاقتراب..

لكن المحظورات دومًا مثيرة للاستكشاف، وتلك الواحة القابعة وراء أهدابه الداكنة تجبرها على الدخول لعرينه بلا الكثير من الحيطة:

- في حد في حياتك!..

أفاقت بغتة على سؤاله من شرودها فيه.. أفاقت والذكرى تهدم لذة اللحظة وغموضها وبُعدها عن واقعها الذي تحياه بلا تغيير..

أحدهم كان هناك بالفعل.. يشغل مساحة لا بأس بها من العقل، يحتل الفؤاد ويحكمه بسلطة العشق..

أحدهم كان هناك..

وتخلى!..

نفت بهزة طفيفة بها مسحة من ألم صادها دون جهد:

- لأ.. كان في قصة قديمة وانتهت..

ملامحه ظلت على وضعيتها فبادرت هي بالاستفسار تتخطى سكونه:

- بس أنت ليه مهتم إذا في حد في حياتي ولا لأ!..

طوقها ببصره في فخ لا يسهل التخلص منه، صوته يتسلل إلى أذنيها هادئًا به لمسة من دفء أرجفتها..

هي تتعامل مع البرود بأريحية، لكن الدفء!..

دفء رجل مثله.. نبرته.. عيناه.. لغة جسده؛ أعاد إليها ارتباكها في حضرته خاصة بموازاة رده الواثق حد الغرور:

- ده مجرد دردشة، هاكون مهتم فعلا من اللحظة اللي هتوافقي فيها على عرضي..

غروره أثار ضيقها، بل وعصبيتها فاحتدت نبرتها بعض الشيء:

- واثق من موافقتي!..

- باتمنى موافقتك..

وسدد ضربة بمنتصف الهدف.. الهدف!.. قلبها..

بعث بين حناياها برعشة أربكتها أكثر فلملمت شتاتها وحقيبتها ببعثرة أمتعته:

- أنا لازم أمشي، break الغدا خلص من بدري..

نهض يتبعها بأناقته المعهودة وأمره يأتيها حازمًا لا يُقبل معه مراجعة أو جدالًا:

- هاتغدى معاكِ بكرة تاني..

لم يكن يسأل!..

يركض نحوها، يقتنصها.. يركض وهي تركض أمامه في هروب مذعور..

لم يتسلل رجل لعالمها منذ زمن طويل، وهذا الذئب اقتحمه بجرأة ووقاحة.. وعنفوان!..

فاجأها بعدها مبررًا برقة أدهشتها:

- عاوز أتعرف عليكِ وتتعرفي عليَّ..

اعتدلت تواجهه في وقفتها، ترفع رأسها إليه فقامته تُجاوزها بمسافة ليست بالضئيلة بينما هو يهيمن بحضوره على كل جوارحها..

على جميع حواسها:

- ممكن أجيلك المستشفى ونتغدى هناك لو تحبي!..

سكنت أمامه تستقبل حروبه عليها..

كَرِّه، مداهمته وسيوفه التي يشهرها بوجهها حتى أنها تعبت من لقاء واحد معظمه كان ثرثرة عن العمل..

هو رجل محيطه مُجهد، وجوده باعث على الإرهاق..

همست بشتات أنثوي لا يليق بها، لا يشبهها.. لكنه استطاع انتزاعه من بين مخالب ثباتها وحزمها:

- ليه عاوز تتجوزني!..

تكرر الدفء الذي أطل عليها من خلف أجفانه بحضور ناعم تسرب لكيانها.. ابتسم، ابتسامة لم ترها من قبل فوق ملامحه..

ابتسامته بهذه اللحظة لن يُنصفها سرد..

هي عالم فريد وحدها..

هي بُعد موازٍ أسقطها بغتة في دوامته..

هي تيه.. متاهة دفعها داخلها بلا حذر فسارت تبعًا لدفعته بطاعة:

- هاسيب السبب تكتشفيه بنفسك..

إلى هنا انتهى المشهد.. أصر على توصيلها إلى المشفى القريب، تركها ترحل عنه بتخبط.. ففي قانونه..

يحق له مع فريسته شيء من متعة اللعب قبل أن ينهشها!..

(5)

سفن الحياة لا تحوي قوارب إنقاذ..

ولا تحمل أطواق نجاة..

**

على متن سفينة هشة نسير كيفما يوجهنا التيار، نرتفع مع الموج.. يغور بنا ضعفه، يخيفنا شططه وعنفوانه..

لا نرسو على موانئ فالرحلة أبدًا لا تتوقف.. وكل ميناء نمر به ما هو إلا مرحلة عابرة نعلم جيدًا أننا سنتركها شئنا أم أبينا..

ميناء السلام..

ميناء السكون..

ميناء الفقد..

ميناء الهوس والخلل وانعدام التوازن..

ميناء القوة والعودة..

ميناء الثبات..

وميناء النصر..

ربما يرسو أخيرًا عنده بأمان، فقط عندما يمتلكها!..

أوقف سيارته قرب المشفى وهاتفها بوسط يوم عمل مزدحم، أنهت جولتها الاعتيادية على أقسام مشفاها، استمعت لشكاوى موظفيها في أحاديثهم الجانبية، ملت ثرثرتهم عن نقاط الضعف والخسائر المتوقعة تبعًا لها فعادت لغرفتها تنهي اجتماعًا مؤجلًا مع رئيس قسم الجراحة العامة..

استرخت خلف مكتبها تخلع منظار القراءة الطبي خاصتها، تضغط جسر أنفها بإنهاك ويتعانق جفناها بسكون دام لدقيقتين قبل أن يقطعه رنين هاتفها..

رنين متواصل ومُلِح.. برقمه!..

الذئب الذي بقدر ما يوترها بحضوره؛ يجذبها إليه ويلُف حول أفكارها خيوطه المحكمة..

تنهدت ببطء.. أجابته بسلاسة لم تتخلَ فيها عن الرسمية:

- عمار بيه!..

- بتحبي الحمام!..

ارتفع حاجباها بدهشة مستغربة تذكرت بعدها وعد اللقاء والغذاء للمرة الثانية خلال يومين متتاليين.. ارتبكت لحظة، لم يمهلها هو أن تطول أكثر، بحسم باسم.. عابث أجج تعجبها:

- أنا بحبه، وفي مطعم بيعمل حمام مشوي هايل..

شعرت بصوته يخفُت بينما نبرته تتخذ منهاج المكر:

- على ضمانتي؛ هتدمنيه..

لم تقاوم ابتسامة متعبة، ألاعيبه النفسية تلك ترهقها وهي بالفعل وصلت لحضيض طاقتها؛ لذا جاوبته باستسلام:

- موافقة..

سمعته ينهي المكالمة بحزمه المعتاد:

- نص ساعة بالكتير وأكون عندك..

استنكرت الوقت القصير الذي حدده..

هل هو قريب!..

لم تكن تعلم أنه يقبع أسفل نافذة مكتبها، إلى جواره عدة أكياس بها الوجبة التي اختارها بنفسه يفرض بها سيطرة بسيطة، وينسج معها خيطًا جديدًا يطوق به شرنقتها التي تسلل إليها بمتعة..

مرت الدقائق على مهل، هو لم يكن من النوع المتعجل.. كل شيء عنده له وقته.. يطهوه بتأنٍ حتى تمام النضج..

فريسته الآن على استعداد لاستقباله، حمل الطعام ودلف للمكان بهزة تغزوه.. قرب بابه الرئيسي تيبست خطواته للحظات، إثرها اعتصر أجفانه، زفر بحرارة وغضبه يشتعل وينطفئ في الثانية الواحدة ألف مرة.. ثم دخل!..

افتعل الجهل وهو يسأل عن مكتبها، دله إليه أحد العاملين، هناك وقف خارجه يتأملها عبر نافذته الزجاجية العريضة ومساعدتها تعلمها بوصوله..

رفعت رأسها تجاهه من بين أوراقها فلمح منظارها يعانق وجهها بأناقة وبساطة غريبة..

بساطة لم تعجبه ورُغم ذلك رسم بسمة فوق شفتيه وتحرك يقبل عليها مع دعوتها للدخول..

استقامت تستقبله ببسمتها المجهدة ولهجتها العملية لا تتبدل:

- ماكانش لازم تتعب نفسك يا عمار بيه..

صافحها بذات الطريقة وإن لم يحرر كفها هذه المرة، احتفظ بها لوقت أطول، رفع حاجبًا ونبرته تتغلغل في كيانها برفق يثير ارتباكها:

- عمار بس.. دلوقتِ نقدر نقول بقينا أصحاب..

لم يهبها فرصة الاعتراض أو التصحيح، توجه إلى جلسة صغيرة في ركن الغرفة بها أريكة مريحة وطاولة منخفضة، وضع فوقها حمولته بعدها التفت يشير إليها بالاقتراب:

- ويمكن نكون شركا!..

غادرت ما خلف مكتبها نحوه، فتحت فمها توشك على الاحتجاج عندما بتر احتجاجها المساعدة بطرقة وتنبيه:

- دكتورة وسن، الطوارئ فيها مشكلة!..

تنفست بعمق تستدعي صبرها.. أهدته بسمة معتذرة بينما تتخلل خصلاتها وتعيدها للخلف بحركة ملول:

- آسفة يا عمار بيـــ...

مع نظرته الثاقبة القاطعة توقفت لثانية، أردفت عقبها تتجاهل اسمه بالكلية:

- دقايق وراجعة..

تابعها بتدقيق غامض حتى اختفت عند بداية الرواق، مكث بوقفته يتأمل الغرفة.. يدور فيها ببصره بجمود.. تحترق بداخله ويلات..

تخبو..

تندثر لرماد..

ثم تنبعث منه عنقاء جحيم جديد..

جحيم عذابه يقتله ويحييه كل يوم، كل ساعة وكل لحظة..

رمش يطفئ لهيب صدره كعادته بسكون، خلع سترته وألقاها على مسند الأريكة الجانبي، تحرر من رابطة عنقه وتركها عند كتفيه.. شمر كميه إلى قرب مرفقيه واسترخى في جلسة شبه حميمية أذهلتها حين عودتها لتراه على هذه الصورة!..

كان يتصرف بأريحية تامة كأنما هو رجلها وهي امرأته في زيارة روتينية بينهما.. نفضت التخيل عن عقلها حينما التقت بعينيه الحادتين..

تكاد تقسم أن نظرته حين الحاجة قادرة على القتل..

رجل وسيم.. بل وسيم بوفرة تكفي عشرة رجال سواه، لكن خلف أهدابه الثقيلة الداكنة يقبع فراغ قاتم مجهول.. ومهيب!..

يضغط بداخلها زناد الرهبة والرغبة، رهبة القرب ورغبة الاستكشاف..

تصرفت ببساطة تعاند بها بساطته، جاورته تجلس على الطرف الآخر عندما سألها باهتمام صادق:

- أقدر أساعد في حاجة!..

تأملته حائرة فأشار إلى ما ورائها:

- المشكلة اللي حصلت دلوقتِ..

استعادت وعيها بالموقف بغتة، هزت كتفيها وزفرت بحرارة شبه يائسة:

- مشكلة معتادة وأدينا بنحاول نجدد..

تحدث بجدية واثقة وقوية:

- قلت لك أنا عندي استعداد أساعد، الاستثمار في المستشفى هنا أنا عارف إنه مكسب مش خسارة..

صمتت تراقبه بفضول.. تنقب في كلماته، في نظرته، تكاد تقتحم عقله وأفكاره في محاولة لاستشفاف ما يدور به وعقد الثقة ينفرط من يدها..

نعم..

هي امرأة لا تثق بسهولة..

لا تثق البتة إلا بعد جهد واختبارات عدة!..

كادت تجيبه حينما عقد حاجبيه بغتة وبدل لهجته لشيء من خفة تلقائية:

- آسف.. اتفقت معاكِ على ميعاد غدا وحولته لميتينج شغل..

داهم عينيها بنظرة متسلطة صلبة بها لمسة من فكاهة غريبة:

- بحب أفصل بين الاتنين..

مد يده إلى الطعام، بدأ في تذوقه بتلذذ وهو يحثها على الانضمام له:

- ناكل قبل الأكل ما يبرد..

استجابت بيسر.. كانت وجبة شهية بالفعل، استمتعت بها وأذنيها معه..

يغازل المرأة العملية بحديث عام، جاد.. ويداعب الأنثى بكلمات متفرقة مدسوسة بحرفية وسط حواره الجاف؛ فتصيبها بسهامه دون ألم، دون احتراز..

انتهيا، طلبت لكليهما قهوة داكنة..

وتبدلت الثرثرة لتدور حوله هو، لا تدري كيف!.. كان يتحكم بفحوى الجلسة كما فعل من قبل بسلاسة:

- تقدري تقولي عيشت لوحدي كتير وجه وقت يكون عندي بيت وأسرة..

مع سؤالها الصامت عن أهله رد بلا انتظار.. بلا انفعال:

- والدي ووالدتي متوفيين من زمان، عندي أخ صغير عايش مع عمي في جينيف بيدرس هناك..

تأملته لحظة بسكون أنهتها بسؤال مباشر:

- ليه اخترتني!..

انشق فمه عن بسمة خبيثة متلاعبة:

- قلت لك السبب هاسيبك تعرفيه بنفسك..

مال يقترب منها باحتلال يفرض به حضوره على حواسها، دون مكر، دون عبث، دون مشاكسة.. فقط صدق صريح، واضح وحازم:

- يكفي تعرفي إني مش عاوز غيرك..

أربك نبضاتها..

هاته المرة لم يدغدغ أنوثتها، بل لمس مشاعرها كوهج مسروق من برق خاطف..

استقامت تبتعد عن مجاله.. مجال جاذبيته ككوكب يريد سجنها في مداره:

- ورايا شغل كتير لازم أخلصه النهاردة..

لحق بها دون أن يتخطى حدود مساحتها الخاصة، يدرك أنه يعزف على أوتارها سيمفونيته المنفردة..

نغمات متتابعة بضربات ثابتة لن يصيبها معه نشاز.. يعلو بالإيقاع حين يرغب، ويهدأ به وقتما شاء..

- ممكن خدمة!..

همسة غريبة استدارت على إثرها إليه، وجدته يشير لرابطة عنقه المحلولة في يأس بريء:

- مابعرفش أربطها..

نطقها بإخلاص حقيقي خالي من الزيف، رفعت حاجبها بشك دحضه بهزة كتف وأمانة لهجة:

- مديرة البيت عندي بتربطهم وتسيبهم لي جاهزين.. فكيتها وأنا مش واخد بالي..

وجهه تقسم ملامحه بشرف على نقاء سريرته وصفاء نيته.. صوته.. عيناه..

تراجعت خطوة ثم تنهدت وعادت إليه، مدت يديها تعقدها بسرعة وذلك القرب يرجفها، منذ ثلاث سنوات وربما أكثر لما يكن هناك رجل في محيطها..

لم يشاركها طعامها، أو يجتذبها إليه.. لم يحاول أحد الاستيلاء على قلبها كما يفعل.. هو!..

هو المحير بدرجة قدير..

والذئب بدرجة حمل وديع..

أنهت العقدة فابتسم بشكر:

- life savior..

بادلته الابتسامة كما لم تفعل مسبقًا وهو التقطها بلمعة مقلتين وهمس لم يتجاوز حاجز أذنيها حتى إلى الهواء القريب منها:

- ابتسامتك..

- مالها!..

تمتمت بضياع انتشى به فصمت يفكر، يدقق أكثر.. يقترب ويبتعد..

يقذفها حتى حدود الكون ويعيدها بعد برهة قيد أصابعه..

يتظاهر بعجز ويغير الحديث ضاغطًا على كل نقاط ضعف اللحظة:

- هنتقابل تاني إمتى!..

رمقته بحيرة شاردة بعدما مرر ما ودت لو سمعته بحماقة امرأة وحيدة القلب والروح..

يُغرقها فيه بعجالة.. هي تجيد السباحة، تبرع في ركوب الأمواج، لكن معه تخشى أن تغوص إلى الأعماق فلا تطفو للسطح أبدًا!..

انتهك شرودها ببسمة أخيرة أدركت معها وعيه لما عبر ذهنها، بسمة أفاقتها فرفعت بصرها تلاقيه.. تكاد تفصم عنق تلك اللقاءات بقرار حاسم تلغي معه كل ارتباكها، تقتل به شتاتها والتيه الذي يتلبسها بصحبته..

وكان هو من بادر دون صرامة.. بادر بذات الدفء الذي يشيع في نفسها الفوضى ويعيث بروحها الفساد:

- نخليها للقدر!..

هامسة، ناعمة، أتقن بها التسلل لخياراتها التي أجبرتها على إيماءة موافقة بعفوية..

عفوية لم تعلم معها أنه رجلٌ يختار أقداره!..

في الليل.. قبل رحيلها لدنيا أحلام بات يزورها قسرًا بعث لها بثلاث كلمات كأنما استنار على حين غرة لما ودَّ وصفها به..

"ابتسامتِك.. عالم موازي!"..

شردت مجددًا، وبسمة تجبر شفتيها على الانصياع لحضورها..

ابتسمت ترحل لعالمها هي وعيناه تتراءى لها بين أجفانها المغلقة.. لقد فاز بجولة أخرى..

والنصر لا ريب حليف الذئب في معركة الامتلاك..

**

هي أنثى صباحها يختلف..

تتمطى في الفراش كقطة كسول، تصدم صدره بقبضتها فتسحبها بسرعة في فرار لطيف خجول لكن المحاولة أبدًا لا تكتمل.. يقبض عليها وينال صباحه الخاص بعبقها..

هي أنثى باتت امرأته..

اليوم سيغادران الفندق إلى بيت جده.. البيت الذي نبذته جدرانه من قبل، يعود إليه فاتحًا مظفرًا منتشيًا بالنصر..

ما الأجمل من خيط انفلت من يدك، انقطع طرفه الآخر فبترك عن جذورك!..

الأجمل.. أنك قسرًا زرعت وجودك بذات المكان..

خرج من الجناح يقطع خيطًا يربطه بفندقه الذي أداره لثلاث سنوات مضت، ينهي كل أموره العالقة، ما له وما عليه.. وتركها تحضر حقيبتها حتى يعود إليها.. لكنها كعادتها، فريدة.. مختلفة..

مختلفة حد الجنون الذي يشعره بالحياة، وبنفس الوقت يشتهيه معها ثم يشتهيها هي..

عاد فوجدها تتجول في غرفة الاستقبال، تطوف بهاتفها وتوجهه إلى الجدران والأثاث بوصف مفصل ونبرة ضاحكة مستمتعة، عندما تنحنح من خلفها انتفضت.. بعدها أهدته بسمة واسعة قبل أن تدير شاشة الهاتف إليه هاتفة بنبرة مسرحية:

– Ladies and gentlemen.. say hello to my handsome husband yazan..

وركضت إليه تتعلق بذراعه، تدخل معه كادر الكاميرا ببهجة:

– Smile yazan and say hi to my instafam..

رمق العدسة بنظرة غامضة وأتت الـ "hi"، مكبوتة من بين أسنانه وعينه تحدجها بصمت فهمت منه البتر..

ابتسمت بحيوية لا تنقطع، أنهت المقطع التي كانت تصوره بوداع مرح، حمَّلته إلى حسابها وواجهته تلوي أصابعها:

- مالك!..

أشار للهاتف باستياء:

- إيه ده!..

تربعت فوق الأريكة وثمرة الموز الأزلية بين أصابعها، تقشرها.. تلتهمها بتلذذ:

- باسجل vlog للفولورز بتوعي على insta..

عقد ذراعيه أمام صدره يرفع حاجبه باستهجان:

- وده يطلع إيه؟!..

أنهت موزتها وساوت خصلاتها بإغواء فطري لا تتعمده لكنه يروق له:

- فيديو.. باعرفهم على آخر أخباري وبافرجهم على الـ sweet ..

واستقامت تواجهه بحماس:

- أنا influencer وعندي 200 thousands followers بيستنوا أخباري..

اقترب خطوة وحاجبه لا يعود لمكانه كأنما يسخر ويشاغب ويسعى لإثارة غيظها:

- بتبيعي إيه يعني!..

وكزت كتفه بضيق فاز به على وجهها:

- إيه بابيع إيه دي؟!.. أنا بعمل ريفيوز للمنتجات اللي بحبها وفي شركات بتستفيد من الريفيوز دي..

غمزها بعبث وسحبها يحيط خصرها بذراع والثانية تتخلل شعرها، تثبت رأسها في مواجهته:

- وكنت دلوقتِ بتعملي ريفيو للجواز!..

أراحت كفيها حول كتفيه بدلال:

- لأ.. باقولهم آخر أخباري بس..

مسَّ ثغرها باختطاف ناعم:

- قلتِ لهم على الدخلة!..

- يززززن.. عيب..

كرر الاختطاف باستحواذ بطيء متلكئ يتذوق به نكهة حمرة التوت فوق شفتيها:

- حضرتِ الشنط؟..

وكانت تجيب من بين لثماته التي لا تتوقف أو تنتهي:

- آها..

ألقى نظرة على ساعة جدارية من وراء ظهرها، تراجع يميل بها على الأريكة التي غادرتها قبل دقيقة:

- أنا شايف لسه قدامنا وقت نعمل ريفيو لما بعد الدخلة..

هي لا تدري ما يحدث لها معه!..

يعجبها!.. نعم.. زوجها ولا تمانع قربه.. تذوب بين ذراعيه ويتقن هو التسلل إلى دروب أنوثتها والضياع في متاهاتها..

بأحضانه تمر بشتات المشاعر..

تتبعثر فيلملمها..

يجمعها ثم يعيد نثرها بفوضى..

تحمل أنفاسه لها حرارة الشغف فيضيع أنفاسها، وبعدها يمنحها السكينة فوق صدره..

تمدد يضمها على الأريكة الضيقة ويدها مفرودة عند موطن قلبه تستشعر نبضه الثائر الذي أخذ في الهدوء.. رفعتْ وجهها إليه بارتباك:

- هو إحنا لازم نروح البيت عند جدك؟!..

زوى ما بين حاجبيه وأخفض عينيه يهديها نظرة غامضة:

- مش عاوزة تروحي!..

حركت كتفها بلا معنى:

- بصراحة؛ جدك يخوف..

وللغرابة.. ضحك!..

قهقه بسوداوية حالكة كحُلكة ما مضى من عمر..

غامت عيناه في سحابة رمادية قاتمة وهمس يطمئنها:

- مادام أنا معاكِ ما تخافيش..

ابتسمت بشرود فثاب لعبثه بتلاعب:

- إيه رأيك نعيد الريفيو!.. حاسس إننا محتاجين ندرس الموضوع بشكل أعمق..

علا الخجل وجهها ممتزجًا باستنكار ضاحك وهي تنتفض، تعبر فوق جسده بركض متعثر وتخبره بحقيقة وحيدة يعلمها ويقر بها دون تورية:

- أنت مجنووووون..

تبعها في مشاكسة شقية:

- جددي يا زلابيا..

توقفت عند باب الحمام تواجهه بعناد مشاغب:

- إيه زلابيا دي كمان!..

تهادى يقترب بخبث:

- أنتِ..

قطبت بحنق مستفسر فأوضح بوقاحة:

- مقرمشة من برا وناعمة من جوا وغرقانة عسل.. وألذ من زولي..

قبل أن يقفز ليستحوذ عليها صفقت الباب بوجهه بضحكة مرحة، ناداها بمناشدة افتعل فيها الحزن:

- يرضيكِ كده طيب!.. يجي لي نقص في الزلابيا وآخد مقويات من برا، أم علي.. صوابع زينب!..

أتاه اعتراضها المستمتع، تكبت ضحكتها:

- أنت مشكلة..

- وأنتِ الحل..

كان يقصدها..

يقصدها من كل زاوية قد تجول بخاطرها.. أو لا تجول!..

بعد مناوشات متتابعة اتخذا طريقهما بسيارته إلى منزل الجد..

وجدا الرجل بانتظارهما جوار امرأة عجوز تعلقت عيناها بزوجها في حنين دامع أجبره على اقتراب.. وضمة!..

ضم المرأة وكأنها أمه التي يشتاقها!..

عرفها إليها باقتضاب، كانت مربيته.. صعد أحد العاملين بالحقائب إلى الجناح المخصص لهما وتبعته هي حيث تلكأ هو في صعوده..

عندما لحق بها ظلت عينه تحرق جده بنظرة شيطانية تفيض بالكثير من المشاعر المختلطة.. وحده جده يربك دواخله ويثير بنفسه بركانًا لا يخمد، وجعًا لا يهمد..

على يسار الدرج غرفته القديمة وغرفتين أخريين تم ضمهما إليها في تصميم منزل صغير خاص به وبعروسه.. وعلى اليمين ثلاث أُخر..

إحداهما مغلقة تعلوها خيوط عناكب الذكرى..

غرفة من رحل عن دنياه وهو غائب بعيد، وحيد.. قادته قدماه لبابها، يتوقف عنده.. يغوص ببصره فيما وراءه دون أن يمتلك شجاعة إدارة مقبضه وفتحه..

امتدت يده بالفعل إليه وارتجفت.. قبل اللمس تردد، انقبضت أصابعه وانفردت عدة مرات..

اعتصر عينيه عدة مرات..

لهث عدة مرات..

وزفر كالجحيم مرات ومرات قبل أن يهرول إلى جناحه بحثًا عنها..

كان يختنق.. يمناه تحيط بعنقه وكابوس الغرق يعاد بتفاصيله المقبضة في ذاكرته.. الصعود، الهبوط.. محاولة الطفو والسجن خلف زجاج ضاعف من قوته ضغط المياه عليه..

الأنفاس تنحبس.. تتلاشى.. تنقطع..

يغرق..

يتعلق بالحياة في شبه موت..

ثم موت.. حرمان..

فقد!..

أن تفقد نصفك الآخر؛ هو أقسى فقد..

أغلق الباب من خلفه وفتش بعينيه عنها، كان جزءًا منها يظهر عبر باب غرفة النوم الموارب، أتى من خلفها بخطوات صياد محترف على وشك اقتناص فريسته.. لا صوت.. لا كلمة.. لا تنبيه..

لمحها ترتب أشيائها في الخزانة وقد غيرت سروالها وقميصها إلى ثوب ربيعي داكن الحمرة لائم بشرتها، بسط ذراعه من وراء ظهرها يغلق الصوان بحدة.. استدارت بنصف شهقة وحسب؛ فقد بتر اكتمالها بشفتيه وجسده يدفعها لترتطم بالخشب الصلب..

ينتهك ثيابها بيد واحدة والثانية ترتكن إلى جوارها، تحتجزها كطريدة لا تملك من أمر فرارها قرارًا.. فمه يمنعها حقها في الاعتراض، عيناه مغمضتان عن ذعرها من مباغتته، عن قسوة لمسته.. عن اقترابه الجاف وامتلاكه لها في غضون دقائق.. دقائق تتألم ولم يكن هو معها..

كان يدفن حزنه.. وجعه، ضياعه، شتاته، خسارته، غضبه، ثورته.. في دوامتها.. يسيطر ويمتلك، يبدأ وينتهي..

وهي أخيرًا تتحرر شهقتها..

شهقة اختلط فيها الخوف بالألم، ورجفة لم يلحظها..

هو لم يلحظ شيئًا.. أي شيء..

فقط استند بجبينه لكتفها لاهثًا بخشونة للحظات قصار، ثم تراجع يعدل هندامه ويسدل ثوبها على جسدها بقرار لم يكلف نفسه معه نظرة:

- أنا رايح شركة الديب مع جدي..

خطواته التالية اختفت بالحمام.. ثوان أخرى وسمعت صوت الماء فحررت شهقة مكررة، حبستها بكفها لا تفهم ما حدث..

من كان هذا!.. هل هو الزوج العابث المراعي الشغوف!..

أم وحش كامن أسفل جلده كشف عن مخالبه بغتة لينهشها!..

خطت إلى الفراش وساقها تؤلمها، بل كل ما فيها.. تغض الطرف عن موضع إذلالها وإهانتها.. تكومت أسفل الغطاء في محاولة عبثية للتحكم بهدوئها الذي فجره وأشعل فيه النار وبعدها تجاهله حتى مرحلة الرماد..

كبتت كل ما تشعر به خشية أن يعود إليها.. سمعت خطواته..

حركاته بالغرفة، يعتبر وجودها عدمًا..

ثم انغلاق الباب من خلفه؛ غادر كأن شيئًا لم يكن..

غادر والحقيقة تتضح بعُنفها من غياهب ظلمة جهلها..

هي لا تعرف زوجها.. لا تعرفه البتة!..

وللمرة الثانية؛ صديقتها على حق، لقد صار الخوف حليف المشهد والأفكار..

**

تمرد إبليس فطُرِد من الفردوس..

وتمرد هو فنُبِذ من جنته..

إن كان جده يراه شيطانًا؛ فلمَ لا يعتنق مذهب الجحيم إذًا!..

أنهى حمامه وارتدى ثيابه متجاهلًا انتظام أنفاسها أسفل الغطاء.. كانت ساكنة بالفراش فخمن غيابها في النعاس، غادر غرفة النوم

ومنها إلى بهو المنزل ليقابله جده الذي يهبط الدرج ببطء، وازاه ببسمة امتزجت فيها السخرية بالعجرفة والمقت:

- هنروح شركة الديب..

لم يكن يسأل.. بل يملي عليه خطوته التالية بعدما باتت إدارة الشركة وأسهمهم في مجموعة "الديب" ملك يمينه..

كان يود التجوال في ذلك الصرح الذي يخطوه للمرة الأولى، يتعرف على شريكه عن قرب رغم معرفته بخباياه من قبل.. يقابل الذئب الشهير ويثبت غرسًا قويًا في أرضه التي له منها نصيب..

رمقه الجد بنظرة جانبية تبعها بإيماءة صامتة توافق رغبته، في السيارة صرف السائق متوسط العمر الذي يلازم "يونس" واتخذ مقعد القيادة بلامبالاة.. انتظر حتى استقر جده إلى جواره وتحرك بها بسرعة تشبه تمرده وعنفوانه..

لم ينكسر الصمت بينهما بحرف كأنما كان "يونس" يدرك أبعاد الموقف، يفطن لرغبة الحفيد في إحكام السيطرة وينتظر منه هفوة ما كان ليقدمها على طبق من ذهب في رفضه لقيادة متهورة..

وصل الاثنان لبوابة الشركة الأنيقة، هناك استقبله "عمار" بهدوء يليق بالموقف.. هدوءًا أيقن أن فيه اصطناعًا أجاد الذئب إخفاءه لكنه ظهر جليًا لعينه التي اعتادت المسرحيات الهزلية وأقنعة الوحوش..

مسرحية لم يكتمل بناؤها عندما تلاقى بناظريه هو.. الحفيد العائد بعد نبذ، رمقه ببرود وتحدٍ كأنما يظنه في صراع معه على مقاليد الحكم!..

انحنى جانب فمه بغموض وصافحه عندما تمتم جده:

- يزن هو اللي هيبقى مسؤول عن إدارة أسهمنا ومكاني في مجلس إدارة الشركة يا عمار..

هادن الشريك ببسمة هادئة:

- مؤكد يا يونس بيه..

ثم توجه لحفيده المتحفز:

- كرسيك في مجلس الإدارة محفوظ..

بعدها استطرد بثبات ونبرته شابها شيء من استخفاف:

- المهم تكون عارف شغلنا ماشي إزاي!..

واجهه "يزن" بحسم بارد:

- ولو مش عارف؛ أنا بتعلم أسرع مما تتخيل..

قبل رد من "عمار" بتر الجد صراعًا رآه وشيكًا بدفعة خفية:

- خد جولة مع يزن في الشركة ياعمار، عرفه على الشغل..

صمت الذئب للحظات قصار قبل أن يستجيب ببسمة متحجرة، ينهض من خلف مكتبه ويشير للحفيد بأن يتبعه!..

نعم، عليه أن يدرك مكانته هنا..

هو مجرد تابع في أرضه، لا يحل له تجاوز تلك المرتبة..

تجول معه في طوابق الشركة الثلاث، يشرح له أقسامها باقتضاب.. طريقة سير العمل محييًا من يقابله من موظفيه بسلاسة أنبأت الأسد الصغير أن الرجل ذو حيثية بين رجاله..

توجه معه إلى مقهى الشركة، وهناك شاركه طاولة جانبية، جلسا حولها يرتشفان عصير الليمون المثلج:

- أسهم أبو الغار في شركة الديب محدودة، أعتقد مش هتحتاج منك تركز جهدك معاها..

وأهداه نظرة تفرض حدًا لا يجوز تخطيه:

- فشايف إنك تركز مع شركة الاستيراد والتصدير، وتسيب المكان هنا تحت إدارتي.. طبعا مش هامانع وجودك في الاجتماعات المهمة؛ بس عشان يونس بيه يتابع الأخبار..

مهزلة..

ما نطق به ابن الديب مهزلة حقيقية لا تستحق ردًا سوى السخرية.. لقد عاد ليمتلك.. يسيطر، وإن كان لجده مثقال ذرة في هذه الشركة المعروفة بالسوق فستكون له وتحت عينه وحده..

هو لم يعد مشاهدًا يعترض في صمت على السيناريو الهابط الذي حُشر به؛ لقد صار بطل العرض، وللبطولة فروضها..

أخرج علبة تبغه وألقى لفافة بين شفتيه، قدم للمواجه له واحدة فرفضها بصمت، تجاهله وأشعل خاصته بهدوء لا ينبئ عن تلك العاصفة التي تقتلع كل ثوابت معتقداته، ذلك السعير الذي يحرق كوامن نفسه..

رفع حاجبًا واحدًا ونبرته أتت هادئة حد الجمود:

- تعرف يا عمار، واسمحي لي أناديك من غير ألقاب!..

لمح التساؤل بعيني الجالس أمامه، سؤالًا يلامسه شيئًا من صقيع لامبالي:

- دماغك عاجباني..

نفث الدخان كسحابة حجبته بين ضبابها القاتم شارحًا:

- أنا وأنت فينا شبه من بعض..

مال يستند للمائدة بمرفق يسراه ويمناه تتلاعب بلفافته:

- الطموح..

هز رأسه ومط شفتيه مع النظرة المفرغة من كل انفعال بصمت مبهم، تراجع لجلسته الأولى واسترخى أكثر:

- وإنك مستحيل تسيب حقك!..

وناوشت شفتيه بسمة خبيثة:

- هايل.. مبدأ البيزنس مان الناجح..

تأمله "عمار" لثوان، يفند كلماته ويكاد يخترق عقله ليقرأ أفكاره:

- مبدأ الغابة يا يزن..

- صح..

مبادرة جادة حازمة تلاها عبث غامض احتل لهجته:

- المهم توصل لهدفك بأي وسيلة..

والغموض تضاعف بعيني "يزن" التي تفشي سرًا ظنه مقتضب الكلمات خافيًا عليه:

- حتى لو بالخداع والتحايل، حتى لو لفيت حبل المشنقة حوالين رقبة عدوك.. حتى لو!..

صمت لحظة وبسمة تتلاعب عند طرف فمه:

- حتى لو قتلت..

لَم يفاجئه.. لِمَ!..

لأنه أجاد حفظ دروسه كما فعل هو بالضبط، لذا استعار منه ابتسامته واقترب بنظرة قاتمة يدلي بدلوه في تلك اللعبة:

- كلنا عندنا أهدافنا، وكلنا عاوزين نوصلها.. وبرده كلنا ممكن نستخدم أحقر وسيلة عشان نوصل..

بإثرها تحولت بسمته لقسوة صرفة:

- ولا إيه رأيك!..

داعبت شفتا "يزن" بسمة ماكرة وهو يفطن لما يرمي إليه الشريك برتبة غريم:

- مش باقولك شبه بعض..

شاب وجه "عمار" تهكمًا صريحًا وعينيه تضيقان بترقب بينما الآخر يردف بلا انتظار:

- أنا بقى؛ طموحي خلاني حاربت عشان أقف الوقفة دي معاك النهاردة..

واستقام يشد قامته فواجهه شريكه بحزم:

- الفرق إن أنت جنتك اتقدمت لك على طبق من دهب، وأنا جنتي انطردت منها ورجعت لها بطريقتي..

ثم اسودت نظرته بظلمة ذكرى.. شقاء، فقد، ضياع وتيه فقسوة.. قسوة احتلت صوته وهو يتمم سرده لنصه البطولي المقتَنص:

- فما أظنش إني بعد ما أرجع هاخد دور المتفرج!..

غيم السواد على المشهد بأكمله والدور الأول يتنازعه اثنان من الضواري بلا رغبة في انسحاب أو هزيمة:

- الجنة دي كان ممكن تبقى رماد من وقت قريب قوي، أنا اللي خليتها جنة.. وأنا بس اللي أحدد مين يدخلها ومين يقف على بابها للأبد..

تأمله "يزن" لحظة في صمت، يستدعي بعقله كل ما يعرفه عنه..

الابن الوحيد لـ "فؤاد الديب" وبإضافة أدق، الذكر الوحيد المُعول عليه تركة العائلة واسمها وسلطانها..

يكبره بخمسة أعوام تقريبًا، رافق والده في رحلة كفاح وإن لم تكن من بدايتها حتى موته قبل عشر سنوات، طور ونما بالعمل فذاع صيته إلى أن باتت شركته من أكبر شركات توريد مستلزمات المشافي بالدولة..

لكن التعب الذي يتحدث عنه لا يمت لما مر به هو بصلة..

لحرمان سنوات بدأت بطرده من بيته لا يحمل معه شيئًا سوى قميص وسروال خرج بهما مقهورًا، مكسورًا..

لأيام شظف العيش والتنقل بين أعمال دونية لا تشبه نعومة حياته السابقة في شيء لكنها أكسبته صلابة، قوة تحمل.. وغلظة قلب!..

لم تهتز نظرته أو تتبدل نبرته:

- لو تعرف عني حاجة يا.. عمار!.. هتكون متأكد كويس إن الحدود اللي بتحاول تفرضها دي أنا هاكسرها..

نطقها بيسر تام وتراجع خطوة يختم الحديث بقرار لم يكن منه بل من حقيقة كونهما شركاء رُغمًا عن أنف رفضه:

- مكاني محفوظ في مجلس الإدارة، وأنا ليَّ الحق في التحكم بأسهم أبو الغار سواء رضيت أو لأ..

حدجه "عمار" بنظرة داكنة تحداها "يزن" في صراع بقاء طال لدقيقة كاملة:

- مكانك محفوظ تحت إدارتي يا يزن، افتكر ده قبل أول خطوة تاخدها جوا الشركة وقبل أي قرار تاخده يخصها..

صمت آخر أقصر من سابقه حلَّ عليهما وإن ظلت الأعين تخوض نزالها بعنفوان، نزالًا أنهاه المتمرد على الدوام برفعة حاجب:

- ماحدش بيطلع السلم من فوق، أول خطوة دايما من تحت.. وأنا ما بحبش أنط..

كأنما يخبره أن السيطرة ستكون له في يوم ما!.. تلك الفكرة رسمت بداخله بسمة ساخرة واسعة ابتلعتْ صخب بقية أفكاره لكن في جميع الأحوال ذلك لم يكن الختام..

بل بداية تحمل بصمة الأسد، حضوره.. وقراره؛ في مشهد حليفه فيه سلطة لن تفلت من بين يديه!..

**

أعاد جده للبيت وأخذ هو جولة بالمجمع السكني الذي لم تطُل إقامته فيه من قبل؛ عند لحظة النبذ كان المكان جديدًا بعض الشيء وإن ظلت ذكرى تفاصيله محفورة بعقله..

ملاعب الجولف يراها من بعيد.. المركز التجاري الضخم.. النادي الرياضي.. ابتسم بسخرية مريرة، فبعض الأشياء لا تتغير!..

بعضها وحسب..

مرت ساعة عقبها كان يصف سيارته بالمرآب الذي يتسع لثلاث سيارات بباحة المنزل الأنيق، يترجل وتتسارع خطواته بشبه ركض إلى غرفته..

اليوم هو غرس بذرة وجوده؛ ومن الغد سيرويها لتمتد بجذورها عميقًا حد السيطرة الكاملة..

وجدها ممددة على الأريكة في استقبال الجناح، تشاهد فيلمًا أمريكيًا عن المافيا وتلتهم قالبًا ضخمًا من الشيكولاتة برتابة كأنما تشغل به الملل..

أزاح قدميها ليجاورها بتحية هادئة:

- مساء الخير..

استقامتْ ترميه بنظرة باردة.. تُغلق التلفاز وتتجه إلى غرفة النوم دون كلمة، دون رد تحيته..

تغضن جبينه في غير فهم فنهض يتبعها بنداء شبه زاعق:

- غزل!..

توقفتْ تزم شفتيها وألم تلك اللحظات لم ينمحِ بعد، دار حولها يواجهها، تحدته بغضب سجين نظرتها:

- مالِك.. في إيه!..

كتفتْ ذراعيها تذعن لطبيعة النساء في تصدير خاصية "عدم طلب الاهتمام":

- مافيش..

- أمال لاوية بوزك وما رديتيش عليَّ ليه!..

لم تعجبها كلماته، تراجعت خطوة فبالفعل هو لا يفطن لما بها!.. هو أحمق بليد المشاعر والأحاسيس ككل الرجال:

- أنت شايف إن مافيش حاجة حصلت تستاهل إني أتضايق!..

- يا بنت الناس ما أنا سألتك مالِك قلتِ مافيش..

عقدت حاجبيها بحنق مستنكر:

- المفروض تسأل تاني على فكرة، وتفكر أنت عملت إيه ممكن يضايقني..

رفع هو حاجبيه في تهكم مستخف:

- وأفكر ليه وليه أصلا اللف والدوران!.. ما تختصري وتقولي..

كادت تركله في ساقه بكل عنف متاح؛ هو حقًا يجهل ما بها!..

عدَّت حتى عشر، تنهدت ببطء تنتهج درب الصبر، فكَّت عقدة ساعديها تشيح في وجهه بشرح غاضب:

- اللي عملته النهاردة قبل ما تروح الشركة؛ أنت شايف إن ده عادي!..

وتذكر.. تذكر اللحظة..

الحزن والغضب.. وجسدها يفرغ فيه احتراقه..

ربما أساء تقدير الموقف لكنه كان يحتاجها، وهنا نقطة نبدأ بعدها من جديد..

عض شفتيه، زفر باحتدام قبل أن تغشى نبرته برودة:

- عادي يا غزل، كنت متضايق.. ما حصلش حاجة للفيلم ده كله..

كما خمنت، وهي لا تعلم السبب.. بل لا تعلم عنه أي شيء، لذا تبريره غذى سخطها أكثر:

- وهو لما تكون متضايق مش المفروض تتكلم معايا.. ولا.. ولا..

تبدلت قتامة نظرته لعبث وقح ينتظر تتمتها المبتورة بخجل:

- ولا إيه!..

وكزتْ كتفه وهي تلمح استمتاعه بلعثمتها:

– or just do what you did!..

اقترب فتباعدتْ.. ظل يقترب وحافظت هي على خطوات تراجعها حتى أوقفها حاجز المطبخ العالي فمد يديه يستند إليه، يطوقها بتملك:

– المرة اللي جاية هابقى أتكلم، بعدين i'll do what i did..

– أنت هتنام على الكنبة النهاردة على فكرة..

تؤنب وتعاقب!.. ابتسم بمكر ووضع سبابته فوق شفتيها بضغطة رقيقة:

– هاصالحك..

– يززززن..

– شششششش.. سيبيني أصلح غلطتي بقى..

اقترب يلثم فكها بتمهل متتابع، دفعته تتشبث ببقايا غضبها:

– أنا عاوزة أعرفك بجد يا يزن، الحياة بينا مش كده وبس..

همهم بلا كلمات ونبرتها تضعف مع شغف لمساته:

- طيب قولي بتحب إيه وبتكره إيه!.. في الأكل حتى!..

لم تسمع منه حرفًا بينما يثبتها حيث هي ويغيب في دنياها:

- طيب كنت متضايق من إيه!..

تجمد.. تجمد للحظة واحدة انتبهت لها لتوقن أن به خطب ما..

خطب مبهم يرفض التصريح به أو الحديث عنه، لأنه ارتفع بوجهه يحتوي وجهها بين كفيه في هيمنة لا تقبل سوى بالخضوع:

- بطلي رغي مش وقت عمق، أنا باحاول أركز هنا..

وأنهى حديثها بعملية تامة، بقبلة لم تنقطع وهو يحملها إلى غرفة النوم، يدللها ويعيد رسم أنوثتها برفق تألفه.. بل تحبه وتريده..

**

البداية.. أنت تبحث عن لحظة سقوط..

عن جذر مبتور وُلد بغرس في غير موطنه..

أغلق حاسوبه المحمول بشيء من عنف.. كل المعلومات التي تصله من المحققين الثلاث الذين استأجر خدماتهم لا تفيده مثقال ذرة..

عائلته التي يحمل اسمها دون انتماء حقيقي؛ كبيرة ومتشعبة وتمتد بفروعها في كل مدن وطن أبيه..

"مصر"..

الأحجية التي لا حل لها..

"مصر"..

حيث جواب سؤالك الفضولي سؤالًا أكثر فضولًا.. وإن حظيت بشك ما سيطحن أهلها عظام جسدك كأنك أتيت بجيشك تحتل أرضهم!..

أنهت حمامها وحاربت شروده بحضور رطب وجسد ندي معطر بنكهة الليمون التي يفضلها.. كان ممددًا بالفراش فنحت الحاسوب من فوق ساقيه، أخذت مكانه وكفيها تستندان إلى كتفيه، تحرر واحدًا تمر به إلى عنقه ثم تتخلل خصلاته الداكنة وعيناها تراقبان إجهاد ملامحه:

- ما بك حبيبي؟!..

زفر بعد صمت قصير وأبعد كفها يثبتها بيده بعيدًا عن وجهه:

- لا شيء بي..

أمسك بخصرها يرفعها، يزيحها عنه ويأمر بصرامة سوداء:

- اذهبي إلى غرفتك، أريد النوم..

تشبثت بذراعه تلوي شفتيها وتعقد حاجبيها بحنق:

- لكن أنت..

- أنا ماذا كالي!..

قاطع فضولها بحسم..

دومًا ما أخبرها أن حدوده لا يباح تخطيها ولو بشعور مكترث أو اهتمام لا يريده لكنها تفعل.. وفي كل مرة تنال عقابه الأسوأ ولا تتراجع، مرت بأناملها حول وجنته الخشنة برفق قلِق:

- تبدو متعبًا..

تجاهل لمستها.. قست نظرته بظلمة ترهبها رُغمًا عنها:

- ولهذا سأخلد إلى النوم لأرتاح؛ أليست هذه فائدته!..

ابتسمت بحنو..

هي تعشقه قهرًا..

قلبها مُعلق به وهو لا يبالي.. لا يمنحها من مشاعره حتى الفتات، منذ البداية وهو أخبرها ألا تعقد آمالها على تلك العلاقة أو تحلق معها نحو السحب الوردية، وحاولت..

جاهدت ألا تسقط..

جاهلة هي بدروب قلبه المعبدة بألم يكسر نظرته أحيانًا وتلمحه بغتة قبل أن يعود لسيطرته الأسطورية فيغيب وجعه في غيمة الغضب السرمدية.. الغيمة الرمادية الجافة التي تحجب نور شمس الحياة ودفئها عن قلبه..

جاهدت ألا تسقط، لكن دون إرادة سقطت.. سقطت بجهل، وحدثت المأساة..

وقفت على ركبتيها قربه، تفضي إليه بمكنون خافقها دون حرف، تضم رأسه لصدرها وتتنهد بتسليم:

- لمَ لا تنام بأحضاني الليلة!.. الليلة فقط جايك!..

شعرت بهزة خفيفة في جسده، هزة تشي بسخرية.. بغلظة قلب، وفظاظة انتزع نفسه بها من بين ذراعيها:

- اذهبي لغرفتك..

احتدت بحق العشق:

- لا جايكوب.. أريد أن أفهم، أخبرني ما بك!.. لا تتألم وحدك..

قبض على مرفقها بغتة يسقطها جالسة، أصابعه تكاد تكسر عظامها فأنَّت بصدمة مع اتقاد نظرته واللهيب الذى غشى مقلتيه المعتمتين:

- لا تعتمدي على مخزونك من الحظ معي كاليوبي..

- لا تكن قاسيًا جايكوب..

مررت إليه صياحها بوهن مغرمة حمقاء:

- لمَ تخفي عني أسرارك وآلامك!..

ووكزت صدره بإصبعها بينما يده لم تتخلَ عن تشددها حول لحم ذراعها:

- أنا الأقرب إليك وأنت تعلم..

لكنها كانت كل من يملك.. وهي لا تعلم!..

دفعها خارج الفراش وأشار إلى الباب ببتر أشبه بطعنة لروحها:

- اخرجي..

بُهتت..

وجمت لعشر ثوانٍ وحسب تهديه نظرة عاتبة، طفا بعدها غضبها للسطح بغتة:

- لمَ تبحث عنهم!..

دارت حول نفسها بكمد مكبوت فلم ترَ الشيطان يحتل حناياه بالكامل:

- ماذا تريد منهم!..

ثم جذبت خصلاتها تعود إليه بصرخة لم تنتبه لقسوة محتواها:

- هم لا يريدونك، لم يفتشوا عنك..

اقتربت تجثو أمامه ببريق دامع توهج بمقلتيها:

- ألا أكفيك أنا!..

تعلقت بكفه تفردها تحت وجنتها، تغمض عينيها، تترك لعبرتها حرية التسلل من خلف أهدابها لتستقر براحة يده:

- ألا يكفيك حبي!..

قبَّلت باطنها باشتياق وتشبث ووجع:

- لا تبعدني عنك، لا تغلق قلبك وعقلك دوني جايكوب..

عقبها سكنت.. صمتت تمامًا حتى أنفاسها تباطئت للحد الأدنى تترقب رد فعله الذي لم يتأخر:

- هل انتهيتِ!..

نبرته خارجة من قبر..

هو القبر.. بمنتصف بُحيرَة تجمد سطحها بينما أعماقها تختلج، تحترق بلا أمل في انطفاء.. رفعت عينيها إليه وارتجف قلبها هلعًا..

هاتين العينين خُلقتا لتراقبا الموت.. أو تكونه!..

- اخرجي..

رعشة مرت بجسدها كله، بشفتيها وحدقتيها وأناملها التي سحب من بينها يده بخشونة وجفاء.. نظرته ثابتة بمركز روحها التي تهفو إليه وبذات الوقت لا تحرك به ساكنًا..

استقامت ترمقه بعتاب لم تتبدل معه أيًا من تفاصيله أو تفاصيل اللحظة، بإذعان تحركت تغادر الغرفة بكسر..

تدرك أنها لو أصرت؛ حينها لن تخرج من غرفته فقط.. بل سيطردها من حياته بالكلية.. لذا لا تملك مع قلب متخم بعشقه سوى الخضوع..

هي عاشقة نالت من العشق أسوأ ما فيه.. وستبقى في قاع نهر عشقه الراكد حتى انتهاء النبض!..

مع انغلاق الباب من خلفها تحرك هاتفه باهتزاز ينبئ عن اتصال، التقطه يتفحص رقم الطالب لثوانٍ قبل أن يجيبه بصوت هادئ:

- ديمتري!..

كان الرد بنبرة تحمل عبق ماضٍ لا يباح نسيانه وإن مر بتقلبات الاستمرار:

- جايكوب..

الرقم وصاحبه والأمس الذي عاد.. عاد ليخبره بثبات:

- أتيتُك بهدية!..

البداية.. أنت شيطان تخشاك زبانية الجحيم..

وستظل..

ستظل ملعونًا إلى الأبد!..

**

الأنثى.. كل أنثى داخلها مفاجأة لرجلها، ورغم أنه يحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب؛ لكن هوايتها التي اكتشفها قبل قليل باغتته!..

هي تقرأ!.. وبنهم شديد..

تقرأ في كل شيء وأي شيء.. بداية من الأدب الرومانسي وصولًا إلى كتب علم النفس والتاريخ والفلسفة..

وبقدر ما يذهله ذلك فقد أخفاه، لم تكن ذلك النوع من النساء الذي ظنه، بل هي عدة أنواع مخلوطة ومدمجة في جسد واحد.. مثير!..

بدأت اللحظة عندما وقع بصرها على الكنز المخبأ في مكتبة جده الضخمة والتي تحتل جدارين كاملين يلتقيان عند زاوية الحائط بغرفة خاصة في طرف الطابق الأرضي من المنزل..

معها جلسة عصرية مريحة وإضاءات متنوعة بالإضافة لجدار زجاجي يواجه أحد جانبي المكتبة لقراءة نهارية مشمسة..

وصورة!..

صورة على أحد الأرفف، في إطار بسيط تحمل ملامحه وإن كانت أكثر رهافة، نظرته أرق وأهدأ وابتسامته ألطف..

تناولتها تتأملها بمشاغبة ثم داعبته بشقاوة:

- كنت كيوت!..

تأمل ما تحمله بين يديها وتديره ليواجهه ببسمة مداعبة.. تأمله بجمود وعينه تشتعل.. تتقد بشلال من حمم خامدة تحت الرماد، تضطرم حد أنها تمعنت في الصورة بارتباك وبسمتها تنحسر:

- ملامحك اتغيرت شوية..

تجاهل كل كلمة وحرف وانفعال.. عاد لثباته في الثانية التالية، أخبرها بالسبب الذي أتى به للمكتبة التي سمح لها جده بالتواجد فيها وقتما أرادت:

- جدي عامل حفلة كمان يومين بمناسبة جوازنا..

حفلًا يعلن به الرباط المقدس الذي عُقد بين وريث "أبو الغار" وابنة آل "درويش".. رباط النسب بالإضافة للعمل والتجارة بالطبع..

- شوفي لو هتحتاجي حاجة عشان أنا هاكون مشغول في الشركة ويادوب فاضي النهاردة..

واجهته تمرر حماسها بكل لغة متاحة.. بالحديث والجسد والنظرة:

- هاحتاج فستان وشوية حاجات كده..

في غضون ساعة كانت تتجول معه بالمركز التجاري داخل المجمع، تسحبه خلفها تجاه أحد محلات الأحذية وبعدها آخر يعج بالثياب الفخمة، تنتقي عدة أثواب تعرضها عليه:

- إيه رأيك!..

بعثت عيناه برسالة ملول وهو يشير بكتفيه دون رد، أجبرها على تمتمة مغتاظة بينما تتوجه إلى غرفة القياس بخطوات عصبية:

- محبِط..

ثوب أسود.. ثوب أزرق.. ثوب أحمر..

أحمر!..

تفرق جفناه باتساع غاضب عند رؤيته ونفى بعنف:

- لأ..

الثوب كان قصيرًا إلى ركبتيها، ضيقًا يحيط بحناياها، دون أكمام ويتفاعل بفتنة خلابة مع حنطية بشرتها المتوهجة وخصلاتها البنية الكثيفة المسدلة حول وجهها..

لم يدرِك شعورًا سوى الاحتراق والحنق..

والنتيجة أتت بشكل رفض باتر مطت له شفتيها بضيق تتهمه بقتل متعتها..

أما الأخير.. فكان ثوبًا نبيذيًا مخمليًا طويلًا إلى الكعبين، سحابه بطول الظهر.. يحيط بكتفيها في وشاية إغواء ناعم.. ابتسم يتأمله قبل أن يغمزها بعبث وهو ينهض، يقترب، يدور حولها ويده تتسلل خلسة تلامس خصرها:

- حلو ده..

تفحصت مظهرها في مرآة طولية وأخبرته:

- الأحمر كان أحلى..

ارتكن لجدار خلفه يعقد ذراعيه بمكر:

- مافيش مشكلة، هاتي الاتنين..

ومال برأسه إلى كتفه يتلاعب بمعاني كل كلمة ينطق بها لتفهمها بما يليق بأفكاره:

- بس هتلبسيه ليَّ لوحدي..

عقبها تحرك بغتة كأنما انتهى حبل صبره:

- يلا انجزي عشان الساعة بقت 10 وعاوز أنام..

ها هو يمرر لها الحنق والسخط في انقلاب مفاجئ..

منذ عادا لبيت جده قبل أيام؛ روتينه الذي بات معتادًا.. يغادر في الصباح الباكر إلى تلك الشركة التي يديرها ويعود قرب حلول الظلام.. بعدها لا يتركها ليلًا إلا وهي منهكة القوى فوق صدره مشاكسًا بعبث:

- موضوع الحفيد ده متعب قوي..

ويبتسم، يقبل كتفها ويضمها مكملًا بنبرة وقحة:

- بس ممتع..

فتنام بابتسامة ممتلئة راضية، لكنها حينما تفتح عينيها في اليوم التالي تجد نفسها وحيدة بالفراش، وذلك يزعجها.. عروس والأحمق يبدو أنه لا يقدر تلك التسمية ومدلولها..

تطلعت إليه لحظة عندما تقدمها..

لا.. لم تحبه.. لا تفطن لمعنى كلمة "حب"..

هي فقط اعتادته حد الألفة والسكينة والاطمئنان رُغم تقلباته غير المبررة أو المفهومة لها.. تقلبات تتمنى حينها لو يفتح لها عقله ويكشف أمامها خبايا نفسه..

تلمح بمقلتيه أحيانًا شيئًا من ألم..

وأحيان أخرى.. أحيان أكثر؛ غضب..

غضب بركاني ثائر، مكبوت!.. وياله من احتراق تتلظى فوقه روحه من الداخل، دون تصريح..

تنهدت تتبعه وقلبها يعترض على الاهتمام والمشاعر والغوص في لجُة ما تجهل..

فالجهل في العشق.. كما أخبرها أحدهم يومًا؛ مأساة!..

**

يقولون أن الشهوة هي إحدى الخطايا السبع؛ فكيف نمرر بداية الخطيئة بثمرة!..

علامة ميلاد وردية بحجم أنملة.. مظهرها ثمرة الإثم الأول، تفاحة شبه دقيقة الرسم والتكوين.. بنهاية ظهرها، لمحها للمرة الأولى من وضعه المضطجع فوق الأريكة، تبغه بين شفتيه وقدميه مرتاحتين على الطاولة المنخفضة أمامه، لم تكن توليه انتباهها وهي تصارع سحاب الثوب النبيذي المختار لأجل حفل الليلة، لمعت عيناه بمكر واستقام لتراه من ورائها بالمرآة..

انحناءة طرف فمه لم تفهمها لكن جسدها كله تجمد مع لمسة ظاهر سبابته لأسفل عنقها، سيره المتلكئ بضغط خفيف رقيق كفراشة تحلق فوق عمودها الفقري.. تصلبت بالكلية ثم ابتلعت لعابها وعيناها لا تبارحان فخ عينيه عبر السطح العاكس، كانت تلمح

فيهما ألسنة لهب، تراقب رغبته فتحرقها، لا تريد الهروب وهو لا يسمح لها.. يأسرها بنظرته ويهديها بمقلتيه النار..

وصلت سبابته لعلامة ميلادها التي تتناساها دومًا، بل تبغضها.. رعشة طفيفة حاوطتها مع ثبات إصبعه هناك وهمسته المراوغة:

- هي دي بقى التفاحة اللي خرجتنا من الجنة!..

أصاب منها دهشة تبدلت لسكون تام، حبست معه أنفاسها وهو يباغتها، شفتيه تستقران مع أنفاسه قرب عنقها:

- ولا دي اللي هترجعني أنا الجنة!..

لم يمكنها الحراك ويديه تحيطان بخصرها، يلثم بشرتها قبل أن يتنهد بتمتمة تائقة:

- إيه رأيك لو نخلع من حفلة جدي يا زلابيا!..

تحشرجت نبرتها بسؤال مخادع يجاريه:

- ونروح فين!..

استشعرت بسمته الوقحة:

- جناح مدير الفندق..

انفلتت منه بغتة.. استدارت تواجهه بخبث تدرك معه نواياه:

- عشان الحفيد برده!..

جذبها يطوقها ونبرته العابثة تخضعها:

- أنتِ فاكرة طريقة عمل الحفيد سهلة قوي كده!.. ده محتاج محادثات ومداولات ومفاوضات ورغي كتير..

ثم أردف بينما أنامله تندس بين خصلاتها:

- الموضوع متعب ومحتاج تركيز..

انطلقت ضحكتها الأنثوية الشقية.. وقبل أن تسعى لفرار جديد؛ أسقط الثوب عن كتفيها بشغف:

- كده تبقي موافقة..

الجهل مأساة نعم، والسقوط حينها.. كارثة!..

**

القدر يحمل في جعبته الكثير من المفاجآت..

فكلما ظننت أنك أخذت نصيبك منها حيث تتوقف كل الأمور عن إثارة دهشتك؛ يباغتك بأخرى تقصم ظهرك، تحرق أفكارك.. وقلبك!..

امرأة بتخمينه لم تتجاوز عامها الخامس والعشرين بعد، ناعمة.. رقيقة، حليبية البشرة، عسلية العينين، كستنائية الخصلات..

جسد نحيل هش يوحي بقابلية الكسر، ووهج مقلتين يفيض بالحزن.. ينضح بالضياع ويشكو الخواء..

جوار ما أدهشه..

الحنين!..

تتنقل ببصرها بينه وبين جده الذي وافق على لقائها بدافع الفضول، ثم تستقر فوق ملامحه باشتياق.. بفقد..

بتوق!..

شتات مشاعرها أشعل بعقله كل شك ممكن عن ماضٍ يعلم عنه القشرة لا غير، والجد يسألها بصرامة:

- أنتِ مين!..

تهديه نظرة مترددة، مرتبكة، حائرة.. وخائفة:

- اسمي شمس.. شمس الخولي، أنا...

تتوقف.. تتعثر، تتبعثر.. تتلاحم أنفاسها في اختناق وتتسارع في لهاث:

- أنا أرملة يامن الله يرحمه..

ومع الصدمة على وجه "يونس" والجحيم الذي غزا حدقتي "يزن" أردفت بوجع:

- وأم ابنه!..

(6)

الأمس مفاجأة!..

طعنة..

الأمس جحيم اليوم، كما اليوم سعير الغد..

هو ويل لا خلاص منه ولا مناص عنه..

**

عندما تباغتك الحياة بأنكَ أضعف مما ظننت، أسوأ مما اعتقدت..

وأجهل ما يكون فيما آمنتَ به معلومًا من الأمور بالضرورة..

أنك بنيتَ وشيدتَ واعتليتَ حد السحاب، ثم أتت السقطة لأن الأساس الذي وضعتَه، العمود الذي استندتَ إليه.. كان كذبة!..

امرأة ناعمة لا يبدو على ملامحها الخداع، تخبره أنها أرملة حفيده الذي في لحظة كان الوحيد والمفضل والأقرب..

زوجة وأمًا لطفله!..

استدار برأسه إلى المجاور له، يتأمل وجهه الجامد بلا انفعال محدد..

هل كان يعلم!..

لكن في الثانية التالية انتبه للنظرة، للسعير الذي يطفو فوق مقلتيه، لحيرة خفية ظهرت في ارتجافة فك وقبضة مضمومة بغير تصديق..

نعم.. هو لا يصدق..

كيف أخفى عنه نصفه الآخر حقيقة وجودها!..

هل تلك من أخبره بمشاعر وليدة تجاهها ثم سكت عنها كأنما كانت سرابًا!.. أم هي واحدة غيرها!.. متى تزوجها!.. متى حملت بطفله وأنجبته!..

كيف لم يرها أو يسمع عنها أو يعرف حتى اسمها!..

مئات الأسئلة وعلامات الاستفهام، والصمت.. وجوم، هياج مكبوت، ولعنات انهال بها قلبه على من مات، حتى بتر تيه أفكاره جده بزعيق:

- اطلعي برا..

كان لا يصدق أيضًا.. الحفيد المدلل الذي تربى على عينيه، صنيعة يديه.. من عاش على الطاعة وفُطر على الولاء..

تمرد!..

تمرد في الخفاء بجبن..

وهي تدافع، تتشبث وتخرج ورقة مطوية بعناية من حقيبتها، تقدمها للجد:

- من فضلك اسمعني.. أنا فعلا كنت مرات يامن الله يرحمه ودي قسيمة جوازنا..

التقط الجد ورقتها وألقاها تحت قدميه يدهسها بعنف رافض:

- أنتِ كدابة..

وهز رأسه باحتجاج مبهوت.. متألم:

- يامن ما يخبيش عني حاجة زي دي..

ثم تراجع خطوة بنظرة شاردة، رُغم قسوة اللهجة شابها شتات:

- يامن مش هيتجوز من ورايا..

بعدها رفع عينيه للساكن يسأله المشورة، يكرر والنبرة يتسلل إليها الاستفهام على استحياء حائر:

- يامن ما يتجوزش من غير علمي!..

ولم يكن يتخيل شبه البسمة..

التواء شفتي "يزن" بسخرية لامبالية والفتاة تجيب بتفسير إثر خطوة اقتراب:

- أنا بالذات كان لازم يخبي جوازه مني عليك..

نجحت في جذب اهتمام الرجلين، تمتمت بخوف عاث في نفسها الهلاك وإن أخفته:

- أنا اسمي..

ترددت!..

احتقن وجهها بنفس حبيس صدرها، أطلقته ومعه رصاصة طائشة.. أصابت قدَرًا في مقتل:

- اسمي شمس مصطفى إسماعيل الخولي..

تجمد الاثنان.. ضاقت عينا "يزن" في تذُكر لمعلومة أجاد البحث عنها، والجد اقتحمته صورة من غادرت دنياه في ومضة خاطفة فأجفلته وأرجفته:

- أنتِ.. أنتِ حفيدة وجدان!..

- بنت عمي!..

التفت "يونس" لحفيده بصدمة جديدة أضافها لسجل وجهه الذي تصلبت نظرته بغياب، والحفيد تتوسع بسمته متخلية عن سخريتها تجاه القسوة والوحشية:

- أيوة.. أنا عارف إن في عم، أخو ابنك من أب تاني.. عم ما اهتميتش تعرفنا بوجوده من الأساس..

سقط الجد..

سقط غروره من عليائه وجسده يتبعه إلى مقعد قريب، أنفاسه تتصارع في حرب اختناق وأفكاره المنحورة في قتال محتدم..

يعود للأمس البعيد، البعيد للغاية..

ليوم كان فيه شابًا يافعًا، زلت قدمه حينها في دنيا العشق وإن لم يتمرغ في أراضيه، دومًا ما استطاع السيطرة على مشاعره، أجاد التحكم بشغفه بامرأة.. التزم طريق العمل والنجاح حتى ظهرت هي..

"وجدان"..

السمراء الساحرة التي سلبت لُبه وأسرت قلبه فكتم عنها السر حتى ينالها.. ابنة رجل أعمال، الزواج بينهما هو صفقة ناجحة أخرى بين يديه، شارك أبيها.. تقرب منها، خطب ودها ثم خطبها ووافق والدها..

لكنها رفضته..

وكانت طعنة أولى لمن لم يؤمن بالعشق قبلًا..

عاندت، تمنعت.. عقبها صرحت بعشقها لرجل لا يليق بمكانة الأب أو مكانتها، وعندما نهرها والدها، منعها عنه.. بل حتى عن الذهاب إلى جامعتها حيث مهد اللقاء ووافق على الخطبة التي تمت في حفل ضخم..

هربت!..

هربت مثيرة فضيحة لعائلتها وله.. لعائلته.. وانكسارًا لقلبه ولا عزاء للكرامة وكبرياء رجل..

هربت وتزوجت عاشقها، لم يعرف طريقها أحد حتى أنجبت طفلًا وحيدًا يشبهها، حينها أعادها والدها تحت زمام سيطرته، أجبر زوجها على تطليقها ورمى له ابنهما رضيعًا، هدده بالسجن والتشريد.. بعدها اختفى العاشق..

وظل هو.. عاشق آخر لكنه خاسر، حانق، ساخط.. سيتزوجها رُغمًا عن أنفها وأنف القلب، وفعل.. تزوجها، أنجب منها ابنه.. ورحلت!..

رحلت عن الحياة والعالم بأكمله، مثقلة بهموم لم يحتملها قلبها فتوقف، أخضعها عنوة.. قهرها وكسرها كما كسرته..

هو أحبها كما لم يحب رجل امرأة.. وبغضها كم لو أن البغض تشكلت حروفه من الساكن بفؤاده..

والآن تعود، روحها تحل في جسد حفيدتها، نظرتها.. صمودها وعنفوانها وصلابتها..

تماسكها رغم الضعف، ومواجهتها رغم الخوف..

تقص عليهم قصة غرامها الخاصة، عن لقائها بـ "يامن" وبداية رواية حالمة كانا بطلاها، عن قربه وتفهمه وحنانه، عن أمنيتها وتمسكها..

عن هياج جدها وعناد أبيها..

عن هروبها بصحبة عاشقها تكرر حكاية وجع..

عن حملها.. موته.. عودتها لأهلها تجر أذيال الخيبة والخزي والعار، وبذرة جنين بأحشائها..

كلا.. لم يكن ليصدق:

- أنتِ كدابة..

يفتش عن مبرر ويفند دوافعه بغضب:

- كنتِ فين وهو في غيبوبة أسبوع بين الحياة والموت!..

- كنت بازوره وباقضي الليل كله معاه..

ردت ببساطة صادقة فتعلق بصره بها بينما تكمل وهي تدفع إليه بصورة:

- ابن خالي كان دكتور في المستشفى اللي هو فيها، يسر لي إني أكون جنبه، وقتها كنت لسه حامل في يزيد.. عرفنا بالحمل يوم الحادثة وبعدها...

سالت دمعة محترقة من خلف أجفانها التي اعتصرتها تحجبها:

- بعدها ابن خالي كلمني وعرفني اللي حصل..

ثم التفتت نحو "يزن" بألم:

- كان بيتكلم عنك كتير قوي، مرتبط بيك جدا.. حاولت أوصلك وقتها بس ما كانش معايا أي رقم ليك وهو عربيته...

نشيجها حبس كلماتها للحظات، انتهت بشهقة أنفاس مخذولة، متعبة.. ضائعة:

- عربيته وموبايله وكل حاجة غرقت..

أعادت له كابوسه الذي يلازمه منذ ذلك الحين.. تنفس بحدة وارتفعت أصابعه بلا إرادة تحيط بعنقه ونظرته تهديها اللا شيء!..

ظل على صمته دون تأثر، دون جواب.. دون اشتعال أو اضطراب أو حتى بداية تصديق، وضعت الصورة بكف الجد.. لرضيع صغير ملفوف بعناية:

- يزيد يامن أبو الغار..

لاحظت الرعشة..

أملت، تمنت.. هدأت نفسها وملامحها قبل إعصار لم تتوقعه:

- اطلعي برا قبل ما أجيب أمن الكومباوند يرموكي في الشارع..

صراخ يعاند بالرفض، يرمي بالصورة أرضًا ويهدد ويتوعد، صورة التقطها حفيده يتأملها بحنين.. يعترض المسافة بينها وبين "يونس" ووجهه إليه..

عيناه تظلمان بغيمة حزن وخيبة كأنما يخبره أنه يكرر الخطأ بلا ندم.. يرمى لحمه ودمه لا مجرد صورة، ويبتر الزمن بتوقف لا بديل عنه:

- سهل نتأكد..

عاد يتأملها بجمود بارد:

- هنعمل DNA..

عقله يعمل.. جوارحه تسانده، وضميره يُخلد اللحظة بذكرى..

ذكرى كذبة ونكران من رحل..

**

يقال أن الطريق إلى الجحيم كثيرًا ما تمهده النوايا الطيبة!..

حقيقة.. لكن هو!..

هو رجل يخلق جحيمه من مستصغر الشرر..

رجل بقلبه سعير لا يخبو لهيبه في لحظة، لا تخمد نيرانه أبدًا..

هو رجل يحمل كل النوايا الشريرة والخبيثة والسيئة على وجه الأرض.. رجل يريد أن يُحرق العالم بأكمله وبمن فيه دون تمييز، رجل احترق حد الرماد، ونهض من رماده إلى حدود الاحتدام..

كان يعلم ماهيَّة هديته التي أتاه بها صديق المراهقة عبر المحيط!..

استقبله صديقه بفندق يطل على برج الساعة، أحد أشهر معالم "لاريسا".. مصافحة قوية ونظرة تبادلاها عادت بهما لماضٍ غير بعيد..

لأكثر من عشر سنوات سالفة!..

وكزه "ديمتري" في كتفه بمشاكسة مألوفة بينهما:

- استطالت قامتك يا فتى..

كان فارق السن بينهما تسعة أعوام، فارقًا لم يشكل عائقًا للحظة في علاقة ودود دامت معهما بزمن فات، لكنه حفر بالذاكرة نقوشًا لا تنمحي، لذا جوابه أتى سلسًا فظًا كعادته معه:

- وأنت سمنت ديمتري.. كيف تعمل بهذه الكرة التي تحملها فوق معدتك!..

جلجلت ضحكة رفيق الأمس بمرح صاحب لفت بضع أنظار إليه، تغاضى عنها الاثنين بينما يخبره:

- لقد ترقيتُ كثيرًا، بتُ لا أخرج للطرقات كالسابق..

سخر منه بحميمية افتقدها:

- اعتدتَ الراحة حد الكسل إذًا!..

رفع "ديمتري" أحد حاجبيه والتوى فمه بخبث:

- الكسل جميل، جربه أيها الثائر وانتظر النتيجة..

هز "يعقوب" رأسه بيأس، وُلدت بسمة خافتة تناوش شفتيه تنهد بعدها، عيناه تخبران الصديق أن وقت الهزل انتهى.. ووقت الجد قد آن.. هناك ما هو هنا لأجله..

هناك خدمة طلبها بعد غياب عمر وكان يعلم أنه لا يباح له لكن كل الطرق أُغلقت سوى هذا الطريق!..

هناك ما يحتاجه حد الموت، وها هو يأتيه به..

جذب ملفًا من داخل معطفه، وضعه على الطاولة بينهما وفوقه ساعد يسراه، ضَيق عينيه بنظرة يشيع فيها الخطر وكرر نبأه الذي بات معلومًا:

- أتيتُك بهدية..

دون لهفة وإن ملأت عليه كيانه مد "يعقوب" يده يتناوله فتشبث به صديقه وملامحه لا تظهر أفكاره:

- لا.. تريدها مجانا هكذا!..

رمقه "يعقوب" بنظرة فاترة ونبرته تمرر برودًا جليديًا:

- لم أكن أعلم أن للهدايا مقابل!..

مط "ديمتري" شفتيه، أردف وجديته كما هي لا تنقص مثقال ذرة:

- في عالمنا لها؛ ذاك أنت تعلمه..

نطقها بتقرير حاسم تأمله على إثره رفيقه القديم.. يستعيد الأمس..

البداية والنهاية والفراق..

يستعيد كل ما لم ينسَه في لحظة لكن المشهد يحتم عليه العبور فوق صراطه دون أن يسقط بهاويته المستعرة..

المشهد يحتم أن يصل للجانب الآخر بسلام حتى ينال.. ثأره!..

تأمل "ديمتري" لثوان بنظرة جامدة، قابلها بمثلها قبل أن يسأله باقتضاب:

- ماذا تريد!..

فاز بالصمت..

صمت.. تظاهُر مفتعل بالتفكير يدركه جيدًا ثم أتاه الجواب بغموض:

- ماذا تظنني أريد!..

وتبدلت اللهجة للعبث الماكر ،الفاحش:

- النساء يا رجل..

غمزة فنظرة فاسقة وتعبير وقح:

- الكثير والكثير من النساء..

تجاهل معالم وجه الجالس أمامه بامتعاض لم يكلف نفسه عناء إخفائه، وبريق مقلتيه يعكس رغباته:

- سمعت أن اليونانيات تؤثر بهن حرارة المتوسط؛ أهذا صحيح!..

مسح "يعقوب" وجهه بقنوط:

- هل ذاك هو كل ما يشغل ذهنك!..

حرك "ديمتري" كتفيه ببديهية غير مكترث لغضب يتشكل بحدقتي صديقه.. بل زاده اشتعالًا باستمتاع:

- وذهن كل رجل..

- ليس كلهم..

أتت باترة حازمة مستهجنة فرد الآخر بتهكم مستهين:

- أنا أتحدث عن الرجال الطبيعيين أيها السيبيري..

رغمًا عنه منحه اللقب ومضة مخطوفة من ماضٍ لم ينسَه ولن يفعل.. فتح له نافذة على البارحة التي تركت بروحه ندوبها..

والندوب أبدًا لا تشفى..

الندوب تترك أثرها دومًا ليشوه كل حاضر.. كل غد..

ابتسم بخفوت والحنين يسحب شيئًا من شروده:

- مازلتَ تتذكر اللقب القديم!..

بادله "ديمتري" البسمة وهو يضطجع في مقعده.. بصره يطوف في الأرجاء مغازلًا كل أنثى بصفاقة:

- وهل نسيه أحدنا!..

عاد بناظريه إليه يرمقه بشبه دهشة كأنما الأمر خارق بالنسبة إليه:

- كنت أكبرك نعم، لكن تلك الفترة بعمرك كانت تتقافز فيها الهرمونات داخلنا من كل حدب وصوب.. وأنت كأنك مصنوع من جليد القطب الشمالي..

ثم ضحك بمرح مشاغب:

- أو الجنوبي لا فارق..

نظر إليه "يعقوب" بتدقيق ونهض، سحب الملف خاصته عنوة وغادره بلا اكتراث:

- أنا لستُ قوادك ديمتري، اختر نساءك كما تشاء..

أوقفه صديقه يقابله بتظاهر مداعب:

- لا تزال قاسيًا باردًا أيها السيبيري.. ماذا عن المقابل الخاص بي!..

مكث للحظات يغوص بعينيه، عقبها مال نحوه يخبره بفظاظة ساخرة:

- أنا لا أدفع مقابل ما حصلتُ عليه بالفعل..

يده تشير بالملف ونظرته خبيثة، سقط "ديمتري" عائدًا لمقعده بعبوس:

- صفقة أخرى خاسرة معك..

رحل "يعقوب" محملًا بلامبالاته، وآخر كلماته تشيعه بنبرة وحشيتها فطرة.. وحشيتها نجاة:

- أنا رجل لا يقبل بالخسارة أبدًا..

هو رجل يمتلك عود الثقاب.. بل القداحة التي يمكنها أن تشعل العالم ألف مرة، وجحيمه ينتظره ليتربع على عرشه بعد عودته منتصرًا من حربه الخاصة..

حربٍ لن ينتصر فيها سواه..

لم يذهب للمنزل مباشرة، توجه لمطعمه وبمكتبه طالع الملف، عائلته العربية والعبث الذي يليق بموقف جهل..

"عائلة أبو الغار"..

كل التفاصيل الممكنة، التي يمكن أن يحتاجها ليصل إليهم.. إلى أرضهم.. إلى جنتهم..

حيث ينتظره العرش والتاج والمُلك!..

تخطى الوقت منتصف الليل بساعة، تجاهل خلالها اتصالين من صديقته، عندما وصل للبيت وجدها لم تنم بعد.. منطوية فوق أريكة المعيشة بمنامة مبعثرة وعينيها تدللان على دموع..

قابلته بملامح زادها الحزن فتنة، بعتاب نظرتها وأصابعها التي تلوي حزام سترتها بتوتر، تبعته كلمات مختنقة بالكاد وصلت مسامعه:

- أنا آسفة..

اقتربت منه بخطوات مكسورة، تقف أمامه كمذنب في مواجهة قاضيه وجلاده..

ينتظر حكمًا بالعفو أو الموت، يترقب عقابًا قد لا يتحمله..

واجهته ترفع بصرها إليه بضعف ويدها تمتد لصدره:

- أنا أحبُك وأنت تدرك ذلك..

لم تلِن نظرته..

لم تتبدل تفاصيله..

لم تهتز فيه عضلة واحدة..

كل ما فعله أن منحها جوابًا مقتضبًا يكفيها ولن يزيد عنه:

- سأرحل إلى مصر..

انتفضت تتنفس بعسر.. لو كان قد مرر سكينًا ثالمًا فوق عنقها لبات أهون..

لو طعنها بقلبها لكان أيسر..

لكن لا.. هذه طعنة لن ينبض بعدها الخافق بحياة، عيناه بحُلكتهما التي تغرق فيها وترهبها في ذات اللحظة تقرران، تقولان ما لم ينطق به اللسان.. لن تسأل فهو أجاب دون سؤال..

لن يأخذها معه!..

والسؤال التالي صار عبثًا أن تطرحه.. متى!..

لا.. بل هل!..

- هل ستعود!..

نفى بسكون.. كلماته تختزل كل شعور ممكن في عدة أحرف:

- لا أعلم..

انهمرت عبراتها قسرًا بلا إرادة، هو يقطع الخيط الوحيد بينهما..

كانت وحدها عالمه وهو وحده عالمها، والآن بات له عالم كامل خالٍ منها!..

أكلت المسافة بينهما بوهن، تركت رأسها تسكن صدره وذراعاها تطوقان خصره كطفلة تتعلق بأملها الأخير..

وهو.. وربما للمرة الأولى.. والأخيرة؛ يضمها إليه ويبتعد بعد قليل لن يتحمل ما يزيد عنه.. فحربه على وشك..

لا.. ليس البدء، حربه على وشك الاكتمال!..

**

صفعة هبطت على عقله وقلبه في آن واحد.. صفعة يسخر بها القدر من خططه، من زمام أمور ظن أنه تحكم به.. ومن ثقة منحها بلا حساب فارتدت إلى صدره كذبًا وتضليلًا.. وإقصاءً..

حتى هو أقصاه بعيدًا عن حكاية عشقه!..

ولا يعلم السبب.. نفسه تحترق بهذه اللحظة، دخان التبغ يشكل أمامه غيمة سوداء حجبت كل ضوء فغرق في عتمته الخاصة.. بغضب يخالطه حزن..

أنهى علبة وها هي الثانية تنتصف بين أصابعه في شرفة غرفة نومه، الليل يطغى على السماء بظلمة خالية من قمرها ونجومها، ظلمة قاتمة تشبه ما يصول بروحه..

هو أتقن جمع الأوراق التي تهديه النصر في معركته مع جده، لكن فاتته ورقة..

"توأمك!"..

نعم.. فاتته ورقة توأمه الذي أخفى عنه زواجه، وطفله..

لم يكترث بنبرتها المتسائلة بضيق مكبوت وهي تدور حوله لتواجهه، يعلو عينيها غيمة ضائقة لائمة:

- في إيه تاني ما أعرفوش عنك يا يزن!..

وأشارت بذراعها بلهجة متماسكة:

- هو اللي صورته في المكتبة طبعًا، ما هو علاقتك بجدك ما تسمحش إنه يحتفظ بصورتك قدامه..

لم ينبس بحرف، لم يحِد ببصره.. استقر على حالة الجمود وهي كل مشاعرها مستنفرة في حرب دامية حامية الوطيس:

- ليه ما قلتش وقتها!..

اقتربت تنشد جوابًا عقلها يدرك أنه لن يحصل عليه:

- ليه أصلا في حرب بينك وبين جدك!..

"كفاية"..

لم يزعق.. لم ينهر..

لم يلمسها حتى..

الجليد كان يغلف حواسه وصوته ونظرته والرفض فاض مع كلماته:

- الجوازة دي كانت مغامرة بالنسبة لك.. لعبة، والتفاصيل اللي تهمك أنتِ عارفاها..

وزفر بوجهها جحيمًا كزمهرير شتاءٍ قاسٍ مع قسوة عينيه:

- ما تدخليش في تفاصيل ما تخصكيش..

- أنا مراتك..

هي من صرخت بحنق، وصرختها دفعت بقبضته لتنغرس بلحم ساعدها دون رفق.. يميل ولسانه على وشك هدم المعبد..

يدقق في وجهها، يزم شفتيه للحظة ثم ينفضها.. يتجاهلها ويترك لها المكان بأكمله بلا كلمة زائدة..

عقله لا يتسع لرغبات الأنثى الفضولية بداخلها، والضيق يخنق أنفاسه.. لو ترك لنفسه العنان لهدر في وجهها بالحقيقة..

الحقيقة الكاملة التي لن تعود عليه بالنفع..

الآن الخطط تغيرت؛ هناك ما جَدَ في صورة عائلته المشوهة..

هناك ابن أخيه..

هناك خيط لن يكون طرفاه إلا مُلك يديه!..

**

في الغابة هناك خياران.. أن تكون الصياد، أو الفريسة!..

الذئاب خلقوا صيادين، شرسين بالفطرة، ولدوا ليكونوا وحوشًا.. ليكونوا الكائن المفترس، وطريدتهم لا يسهل عليها الفرار من بين مخالبهم.. يتقنون حصارها، حبسها في ركن خاص محدد مسبقًا، يجيدون نصب الفخ لها فتسقط بين أنيابه دون جهد..

عائدة للمنزل بعد يوم عمل طويل، مجهد ككل يوم سبقه، تعبث بهاتفها في ملل وسائقها يقود بها بهدوء تحبذه..

يشغل بالها رغم غيابه لخمسة أيام.. لم تلتقيه ولم يحاول هو اللقاء، شغل أفكارها به ثم انسحب لركن هادئ يراقب شرودها فيه..

هذا هو ظنها السيء الذي اعتادت تقديمه قبل الثقة في الآخرين..

لن تنكر أنه يستحق اقتطاع جزءٍ وإن كان يسيرًا من وقتها.. من عقلها.. فيه مجهول يسحبها إليه، غامض مثير للفضول، ومحرك لروح أنثى غافلة مدفونة بأعمق نقطة فيها..

أنثى تعافر للنهوض في حضرته..

حضرة ذئب بثياب رجل أنيق، تخشاه وتود الاقتراب منه بنفس الوقت..

توقفت السيارة بها بغتة فقطبت بحيرة، هي لم تصل للمنزل بعد.. سألت السائق العجوز باهتمام قلق:

- خير يا عم لطفي!..

فتح الرجل بابه بينما يطمئنها:

- مافيش حاجة يا دكتورة، وقفت فجأة هابص كده..

تبعته، راقبته يفتح غطاء المحرك.. يتطلع فيما تحته بتفحص، يجذب شيئًا، ينظر لآخر بتدقيق.. يعود للداخل، يدير المفتاح لثوان دون استجابة فكررت سؤالها بحزم:

- خير.. في إيه!..

جاوبها العجوز بحرج كأنما ما حدث لا يناسب خبرة سائق مثله:

- البطارية نامت يا دكتورة..

انعقد حاجباها بتساؤل:

- ودي حلها إيه!..

تلفت حوله يفتش عن عون:

- ممكن نقومها من أي عربية معدية..

لم تفهم مقصده، فقط وافقته وارتكنت للسيارة في انتظار فهو الخبير بهذا الموقف.. انتظار لم يطُل بها كثيرًا عندما وردها اتصاله..

رجل الرهبة والرغبة..

أو كما يليق به..

"الدوق"..

كان لقبًا أطقلته عليه بسرها.. يلائمه تمامًا، أرستقراطي.. راقي.. مقتضب الكلمات.. غامض وجذاب..

هو رجل ملكي في جميع سكناته وحركاته..

ضبطت نفسها تفكر فيه بهاته الطريقة مع تواصل الرنين.. والآن ماذا "وسن".. أيتها الطبيبة القديرة!..

ردت بعجالة ترحب به، نبرته الرخيمة بثقل اخترقت كل حواسها دفعة واحدة فسببت لها اهتزازًا لم يعجبها:

- لو قلت وحشتيني أبقى باتخطى حدودي!..

ليس رجلًا سهلًا، هو يدرك وهي تعلم.. كما أنها ليست امرأة هينة تسقط بكلمة عاطفية:

- بتتخطاها فعلا..

- بس دي الحقيقة..

زمت شفتيها ولهجتها لا تتخلى عن العملية:

- احتفظ بيها لنفسك..

سمعت سكونه.. هل ضايقته!.. هل يهمها ضيقه!..

ماذا "وسن"!..

كررتها لنفسها بغضب لولا عودته للحديث بهدوء:

- هاحاول.. بس معاكِ ثباتي الانفعالي بيتهز..

وهي كانت تدعو الله بنصف ثباته ذاك!..

لم تجبه ولم ينتظر، سألها برفق:

- رَوحتِ!..

تأملت السيارة المتوقفة بيأس والطريق الهادئ نسبيًا:

- لسه.. العربية عطلت ومستنيين مساعدة..

أتتها نبرته قلقة، مكترثة بدفء ناوش قلبها:

- أنتِ فين!..

أدهشها سؤاله فاستفسرت، كرره هو بحسم أجبرها على الجواب..

لم تكن تعلم أنه قريب للغاية!..

أقرب مما يجب.. مما يمكن أن تخمن..

أن ذاك العطل مفتعل، وأنها أسيرته مهما ظنت النجاة..

أنها ملكه وكل ما تملك، فقط بقيت خطوة أخيرة!..

بعد أقل من خمس دقائق كان يتوقف أمامها بمظهر باغتها.. أين البذلة الكلاسيكية والسيارة الفارهة!..

سروال من الجينز الأسود، قميص رمادي وسترة جلدية بلون السروال.. يترجل عن دراجة نارية ضخمة أقرب لوحش معدني يسير على إطارين فقط وذاك مرعب..

يخلع خوذته ويدنو منها بخطواته الثابتة المألوفة، يواجهها.. يتأملها.. يطوف حولها ببصره في اشتياق ظهر لها جليًا كشمس الظهيرة..

يبتسم ويكرر بلامبالاة لحدود أقرتها قبل قليل:

- وحشتيني..

فتحت فمها تعاتب.. تنهر.. ترفض، لكن بغتة أنثاها الداخلية طفت للسطح وانتصرت بفرار:

- إيه ده!..

بإشارة من يدها لدراجته المخيفة، لم يلتفت تبعًا لرغبتها بل ظل يحاصرها بين جفنيه بنظرة مبهمة لم تفهمها:

- بحب أتمشى بيه لما يكون الموود مش تمام.. بحس بحرية أكتر من العربية..

وغمزها لأول مرة بعبث أذهلها:

- دلوقتِ أنا مش عمار الديب رجل الأعمال، أنا عمار اللي بيحب يعيش اللحظة..

ثم مد يده يناولها خوذته ببسمة ماكرة:

- إيه رأيك تعيشيها معايا!..

تبدل ذهولها لاستنكار، تراجعت بإثره خطوة للوراء وسائقها يقف على مسافة بعيدة باحترام:

- لأ طبعا..

رفع أحد حاجبيه بدهشة كانت يقينًا مصطنعة:

- لأ ليه!.. خايفة!..

هزت رأسها بشموخ نافية:

- أكيد لأ..

احتلها بنظرة تشبه استعمار جيش جرار لقرية صغيرة ليست أهلا لاقتحامه البتة:

- يبقى خايفة تقربي مني!..

يتحداها، وفاز بالتحدي، التقطت منه الخوذة، تخطته تجاه الدراجة وحديثها يصله من فوق كتفها:

- ما فيش حاجة بتخوفني يا.. عمار!..

ارتفع حاجباه بإعجاب صريح لم يسعَ لإخفائه.. شُجاعة.. ونطقت اسمه بعناد!..

اللعب معها ممتع، ليست فريسة مملة كما ظن.. حين يلتهمها سيتلذذ بكل قضمة على مهل..

انتظرته بعدما أشارت لسائقها بأن يحل مشكلة السيارة ويعود بها للمنزل، تناول خوذة أخرى فارتداها، أخذ مكانه فوق الدراجة هائلة الحجم وتبعته..

الأمر من زاوية نظرها كان مرعبًا بالفعل؛ هذا المحرك اللعين السريع، بهذا الهيكل المعدني الضخم.. يسير على إطارين وحسب!..

مأساة..

لكنها امرأة لا تخاف، امرأة تجابه مخاوفها بتحدٍ وتجبر.. وإن كان في ذلك رعونة؛ فهي أهل لها..

أخبرها بعدما أدار المحرك فزأر بصوت قبض قلبها:

- امسكي كويس..

هتفت من ورائه بحيرة ورجفة تمر بجسدها:

- أمسك في إيه!..

ابتسم من خلف الزجاج الداكن دون أن تراه:

- فيَّ طبعا..

اللعنة "وسن".. حمقاء ورعناء بالفعل..

الآن هي مضطرة للتشبث به، بقرب لم ينله منها رجل من قبل.. حتى بطل حكايتها القديمة كان يعلم حدوده جيدًا ويلزمها بجبن!..

أمسكت بسترته وهو لم يحاول أن يجبرها على ما هو أكثر، قاد بسرعة متوازنة حتى وصل قبالة سور نيل القاهرة، بغتة توقف.. مع توقفه احتارت، وتضاعفت حيرتها عندما ترجل، خلع خوذته وفرد كفه إليها:

- تعالي..

كشفت رأسها بدورها تعيد ترتيب خصلاتها، ترمقه من موقعها باستفهام:

- المفروض كنت هتوصلني..

لم يُجِب.. ظلت كفه ممدودة وعينه تنظر إليها ببسمة لم تلامس شفتيه.. بعد تردد وتفكير حائر وضعت يدها بقبضته، أقفل أصابعه حولها وتحرك بضع خطوات تجاه السور..

كانت هناك عربة جائلة لأحد البائعين سألها قربه:

- تاكلي من ده!..

تأملته بحذر:

- إيه ده!..

بسمة هادئة داعبت ثغره بينما يتراجع تجاه العربة، يبتاع منها كوبين بهما شيء تجهل كنهه، يناولها واحدًا ويتلذذ بمحتوى الآخر باستمتاع:

- دوقي..

رمقته بنظرة متشككة:

- أنا عارفاه..

مضغ ملعقة أخرى بابتسامة شقية غريبة على وجهه الخشن:

- حمص الشام..

تذوقته بتردد..

كان ساخنًا، حارًا للغاية حتى أنها ازدردته بأعين متسعة وشهقة:

- حراق جدا..

انفلتت منه ضحكة خافتة أغاظتها:

- بتضحك!..

أكملت الأكل من كوبها كأنما تعانده بينما يراقبها بلذة حقيقية.. اللعب معها له مذاق فريد!..

سمعها تسأل في محاولة للتذكر:

- له اسم تاني على فكرة وأنا عارفاه بس مش فاكرة!..

حافظ على بسمته العابثة وجاوبها بنبرة تمرر كل ما يريد تمريره إليها من مشاعر..

الرغبة..

الشوق..

الاحتياج والاجتياح..

والحب!..

- حلابسة..

هتفت بإنجاز يدلل على بساطتها أكثر:

- أيوة ده..

ظل يحاوطها بعينيه، ظلت تهرب.. والسجال بينهما لا ينتهي..

هو رجل معه البداية وبيده النهاية!..

انتهت فتركت الكوب في سلة قريبة، الهواء يداعب خصلاتها بفوضى محببة.. واحدة تغطي وجنتها، تبعدها فتعود تحت وقع عينيه المراقب بنظرة لا يسهل استيعابها.. عينيه لغز..

وبسمته أحجية لم تستطع تجميع كل قطعها بعد..

فجأة أزاح بأنامله خصلتها العنيدة واقترب خطوة، أشرف عليها بتأمل ساكن..

سكونه عاصف..

سكونه إعصار..

همس بخفوت لا يناسبه الهدوء، هدوء أقرب لغارة مخادعة هزمت جيشها على أرضه قبل بدء القتال:

- اتجوزيني..

وجمت كأنما أفسد اللحظة، أفسد غيابها في عالمه اللا محدود، وحده كون كامل بمجراته وشموسه وكواكبه..

كادت تعترض، تحتج وتعلن الاستياء لولا أن أوقفها بسبابته عند شفتيها دون لمس..

هو لن يكسر حدًا كذاك:

- ما ترديش دلوقتِ..

ولم يكبح غزوه بل هاجمَ وكرَّ واحتل:

- هاوصلك، هتدخلي أوضة نومك، تاخدي شاور وتغيري هدومك وتدخلي سريرك..

كانت ساهمة تمامًا قبالته..

هذا الرجل ساحر بلا شك، ألقى عليها تعويذة ما جمدتها!..

- وقتها عاوزِك تتخيلي نفسك في حضني..

توسعت عيناها بسباب كاد اللسان ينطق به لكنه بتره بذات النبرة المتسللة بنعومة.. برقة.. بصوت رجولي عميق قادر على الإحاطة بها من كل جهة:

- من غير ما تضايقي..

ثم أهداها بسمة لم تفطن لسببها أو مدلولها:

- ده اللي باعمله كل يوم عشان أعرف أنام..

ودنا أكثر، قُرب أذنها حتى أن عطره داهم أنفها، عطرًا احتارت في تكوينه.. عطرًا يجمع بين الجرأة والإقدام.. بين الرقة واللطف:

- باغمض عينيا وأتخيلك بين إيديا..

عندما أوصلها أخيرًا فعلت ما أملاه عليها دون نقصان..

فعلته قسرًا أو بإرادتها لا تبالي..

لكنه حال نومها كان هناك يمنحها أمانه.. بضمة!..

**

هو نبت شيطاني ليس له جذور..

عاش بقارتين.. يحمل جنسيتين لا يدين بالولاء حقيقة لأيهما، ومن حقه ثالثة حُرمها والدافع أبيه!..

يتحدث أربع لغات لا يشعر بانتمائه لواحدة منها.. حتى العربية..

هو من وجد أرضًا يُفترض به الانغراس في تربتها ومد جذره عميقًا، لكنه لا يراها أرضه.. ملكه ومملكته..

شعوره ذاك يحرقه، يثير بنفسه براكين الغضب والحقد والكراهية..

نبت شيطاني أصابه الخريف بصفرة النهاية.. فسقط!..

مر ما يقرب من ثلاثة أسابيع على لقائه بصديق الماضي، على معلومات أتاه بها، فقدره أخيرًا أهداه منحة مجانية استحقها بعد طول صبر..

لم تطأ قدماه الوطن إلا وهو على دراية بكل ما يريد، وبذهنه كل شيء مُعد لينال ما يشتهي..

السيطرة الكاملة..

وصل لـ "مصر" منذ سبعة أيام، تجول بطرقات عاصمتها ينقب في وجوه ساكنيها عن روح غابت عنه، عن حياة لم يختبرها من قبل فهي بموطنها الأصلي..

بدأ تحرياته، جمع ما يفيده من أخبار عن "يونس أبو الغار"..

"يزن".. أخيه نصف الشقيق..

وتوأمه الميت منذ ما يقرب من عام..

لديه عائلة هنا لا تعلم عنه شيئًا، وهو سيزرع وجوده قسرًا في بنيانها ثم يهدمه فوق رؤوسهم..

في النادي الاجتماعي؛ جلس على طاولة غير بعيدة عن طاولة جده بعدما استأجر فيلا صغيرة بالمجمع السكني الذي يقطنه، تابعه لثلاثة أيام.. أتقن روتينه واليوم حان موعد اللقاء..

أنهى الجد لعبة جولف ممتدة مع اثنين من سكان المجمع، جالسهما لنصف ساعة أخرى بعدها غادراه تباعًا وبقي وحده يدخن سيجارًا باهظًا مع قهوة داكنة..

خطا إليه بثبات غير متردد.. خطواته صلبة، صلدة كعينيه وقلبه المتحجر خلف ضلوعه..

وقف يواجهه دون حرف، ينتظر وينتظر.. والعجوز صامت يتأمل ملامحه بدهشة امتزج بها وجوم عندما رأى فيه شباب وحيده، وقتها نطق الساكن باقتضاب مع يقينه بأن الرجل قد خمن الصلة..

هو نسخة أبيه، الجبهة العريضة، الأنف المستقيم، الشفاه الرفيعة والخصلات الحالكة:

- لاحظت الشبه؛ مش كده!..

الكلمات الأولى..

النبرة قاتمة..

العين مظلمة..

النظرة قاسية لا تقتصد في إظهار الاحتقار جوار البغض.. ولهجة كالصقيع، تخبر عن شيء واحد!..

لن ينجو أحد من لعنة ذلك الطاغية في قاع السعير..

- أنت مين!..

جذب مقعدًا ولهجته لا تشي بمثقال ذرة عما يعتمل بنفسه:

- يعقوب عبد الله يونس أبو الغار..

مال يقتحمه بعين لا تخفي البغض والغل:

- حفيدك.. اللي ما تعرفش عن وجوده حاجة..

وسقطت مقصلة الهزيمة تكمل بتر انتصارٍ وهمي ظنه..

لا يعلم بزواج حفيده وإنجابه.. لا يعلم بوجود حفيد ثالث، ربما كان نزوة لابنه المهاجر بلا عودة.. لا يعلم!..

وذاك الثالث لم يكترث ببهوت وجه الجالس أمامه، بل اعتدل قليلًا وشد جذعه بحزم أسود طغى بعتمته على صوته حينما قرر:

- حفيدك اللي جاي عشان ياخد كل اللي اتحرم منه..

بعدها ضاقت عيناه بتصميم وحشي:

- كله..

طوعًا أو كرهًا لا يهم..

زرع الخوف قبل رغبة القرب.. ولا يهم..

هو الشيطان الذي تربع على عرش الجحيم ثم رحل عنه إلى أرض سيجعل منها مأواه الخاص..

أرض سيحفر بأعماقها موطنه..

**

شرعًا أنت غير محاسب على ما تجهل..

لكن العائد بلا غياب مسبق يعلم عنه؛ أقسم أنه وليس وحده سيُنزل به عقابه وإن لم يصرح بالكلمة..

"حفيد ما تعرفش عنه حاجة"..

"ابن ما حاولتش تدور على مكانه أو تهتم بأخباره"..

"أب كل مساهمته في حياتي إنه دمرها"..

"أب ساهم بنص الجينات وهرب"..

"أنت ربيته يكون أب غير مسؤول، يتجوز ويخلف ويرمي ولاده ويهرب"..

"وأنا.."..

"أنا الشيطان اللي هيحرم عليكم الجنة"..

الكلمات الأخيرة لم ينطقها صريحة، لكنه رآها بعينيه بلا تزيين!..

انهال بالتهم على رأسه، ويالمأساة لم يكن أغلبها جزافًا.. حقيقة واحدة أقر بها..

هو المخطئ منذ لحظة الميلاد، هو الذي لا تجد مشاعره مستقرًا..

هل يسعد بوريث ثالث وقد كان يظن أن نسله انقطع!..

هل يغضب من ابنه الذي حرمه وجوده!..

هل يخشى مَن عاد وهو رأى في دُجنة حدقتيه ويلًا لا نجاة منه!..

أم يحزن!..

يحزن لأن عقده الذي انفرط لم يُدرك حتى عدد حباته.. اختلت الصورة الباهتة أمام بصره باقتحام "يزن".. يجهل كيف يخبره عن ذلك الذي ظهر من العدم!.. يضع بين يديه تقريرًا ورقيًا بنظرة قاسية:

- يزيد يامن أبو الغار..

والآن.. ها هو الدليل القاطع على خطأ جديد اكتشفه مؤخرًا، خطأ في طريقته، في غيابه، في اعتقاده أنه المسيطر وكل ما حوله مفكك..

حتى الهادئ الرزين، من ظل عمره طوع يمينه.. تمرد!..

شروده جعل حفيده يبادر بالسؤال البارد:

- هتعمل إيه يا.. جدي!..

اللقب الحميم خرج بنبرة ساخرة.. حاقدة رفع بعدها وجهه إليه:

- عاوز تعمل إيه!..

سؤال عاجز، واهن من قلب أصابه الحزن بالشيخوخة المفاجئة.. لم يقتصد "يزن" في إظهار شماتة أو الجهر بقرار يبدو أنه خطط له وفكر فيه مليًا:

- شمس هتيجي تعيش في بيت جوزها، هي وابن أخويا..

- جوزها!..

مرارة واختناق ورفض مكسور، قبل أن تسيطر عيني الحفيد على عينيه بجمود:

- أيوة.. ومش المرحوم..

ثم جاوب على النظرة المتسائلة في صمت بحسم باتر:

- أنا هاتجوز شمس..

الخيط الآن لم يمتلك طرفيه وحسب؛ بل لفه في عقدة لا تنفصم حول أصابعه.. أصابعه وحده!..

(7)

الحياة تشبه لعبة خالية من القوانين..

كل لاعب يمكنه حرق قطع الخصم وقتما يريد، فقط عليه أن يسن قانونه الخاص قبلها..

وحينها ينتصر!..

**

هو رجل بقلبه ثورة، بعقله بركان.. وبعينيه يتناثر رماد ما بعد المحرقة، رجل لا تطفو مشاعره تجاه السطح إلا سهوًا..

رجل تعلم السيطرة قسرًا عندما فقد كل شيء بغتة..

تعلمها بالطريقة الأقسى، تعلمها، أرادها.. ثم أدمنها!..

والآن لم يعد يباح أن يتفلت خيط من قبضته، الآن الخسارة كلمة مزق وجودها من قاموسه..

ترك جده يفكر بعرضه..

نعم سيتزوج من كانت زوجة أخيه، يتزوجها رغبة.. يتزوجها تسلطًا.. يتزوجها عنادًا..

لا يبالي.. هي ستكون له، وطفلها سيصبح هو وصيه.. يدرك أن القرار ليس سهلًا على رجل اعتاد كونه قبطان سفينته ووحده المتحكم بدفتها.. رجل كـ "يونس أبو الغار".. تسري القسوة مع كريات دمه..

ابتسم ساخرًا وعقله يصحح.. أو بديلًا عنها!..

سيحسب ألف معادلة ويضع ألف حل ثم يرضخ في النهاية، هو ليس لديه غيره..

دلف لجناحه يخلع سترته ويلقيها فوق أريكة المعيشة الصغيرة، فتح زرين من قميصه يحرر هواء صدره وتحرك إلى غرفة النوم..

إلى تلك التي تعاقبه بخصام دام لأسبوعين لأنه لم يشبع فضولها تجاه ماضيه..

أسبوعين لا يدري لمَ تباعد خلالهما عنها كما نأت هي عنه!..

كان ينشد وحدته، ينطوي على ذاته وجرحه القديم يعود للنزف والذكرى تقتله.. تخنقه حتى أن كابوسه هاجمه من جديد!..

هاجمه وأصابها بالذعر فمنحته جرعة حنان لم تشبع احتياجه، بعدها عادت لتجاهلها واستراح له هو، فلم تكن به طاقة لإجابة أي سؤال..

كانت ممددة على الفراش، بيدها رواية وفوق أنفها منظار القراءة الذي اكتشف استخدامها له قبل أيام، جاورها بتنهيدة تغافلت عنها بعمد.. لكنه لم يكن ينوي أن يستجيب لعنادها الليلة، لابد وأن تعود الأمور تحت سيطرته بعد ذلك الاختلال المشاعري الذي مر به..

سحب روايتها من يدها فجأة فرفعت ناظريها إليه بحاجبين معقودين، أهداها بسمة مشاغبة وهو يقرأ العنوان باهتمام عابث:

- العراب وكمان حظك اليوم!..

مال يخلع منظارها بحركة مباغتة فلم يمكنها منعه:

- ناوية تقتليني ولا إيه!..

تركتهما بيده ورمقته بنظرة غاضبة:

- مش لدرجة القتل يعني..

غمزها بشقاوة:

- تعذبيني!..

تجاهلت عبثه ومرحه الذي رأت فيه الاصطناع وكتفت ذراعيها بجدية:

- برده لأ..

ثم واجهته في جلستها بحزم تقريري:

- نتكلم..

أبعد عينيه بزفرة قصيرة مستسلمة وقرر منحها شيئًا مما تريد:

- عاوزة تعرفي إيه!..

غادر الفراش يواجه الشرفة المشرعة، يشعل تبغه وينفثه بشرود تحت تأمل عينيها:

- أيوة.. كان عندي توأم..

اقتربت تجاوره بسؤال مهتم:

- ليه ما قلتليش؟..

لم يلتفت نحوها بل غابت عيناه في ظلمة السماء، تشدد فكه وغيمة رمادية تظلل نظرته:

- مش سهل أتكلم عنه..

أطلق سحابة مكبوتة من صدره، أردف إثرها بلا إبطاء:

- كان عندي توأم.. كل حاجة في حياتنا لحد من عشر سنين كنا بنعملها سوا، نفس الأكل بنحبه.. نفس الموسيقى، نفس المدرسة..

وتخلل شروده تهكم مرير:

- نفس الكلية..

- وبعد العشر سنين!..

نبرتها كانت ناعمة، هادئة بها حنان يلمسه للمرة الأولى:

- بعدها سيبت البيت ولقاءاتنا بقت محدودة بفرمان موجِب للطاعة، سافرت كتير واشتغلت في مليون حاجة لحد ما استقريت في الشغل مع وجيه..

تصلب جسده كأنما أتت لحظة الحسم:

- ومن سنة..

صمت وشفتيه ترتجفان بغضب مكبوت:

- من سنة وشهر وتلاتة وعشرين يوم.. مات..

كانت تعلم بموته مع ظهور أرملته وصغيرها، امتدت يدها بتربيتة عطف فوق كتفه.. تربيتة لم يكترث لها أو ربما لم يشعر بها وهو يشعل لفافته الثانية:

- عمل حادثة بالعربية..

وأصابعه تجاور كلماته، تحيط بعنقه كأنما يختنق، تدور حولها ثم تتخلل خصلاته بجذبة عنيفة:

- عربيته غرقت في النيل ودخل غيبوبة أسبوع..

طال سكونه هذه المرة، طال لدقيقتين تامتين احترمت خلالهما ألمه الذي يدفنه بصرامة تحت سطح من اللامبالاة والعبث، عندما تحدث أتتها نبرته بحشرجة كأنما يعاني ليلتقط أنفاسه:

- مات..

وناوش الحشرجة احتراق، هياج مسجون خلف قدرة عالية على التحكم اعتاد تطويعها ملك يمينه:

- اتفاجئت إنه مات!..

صدمها ما نطق به..

صدمها وأوجعها حتى أنها كررت الكلمة بحزن مشدوه:

- اتفاجئت!..

- أيوة.. كنت مسافر تبع الشغل برا مصر وعرفت الخبر أول ما وصلت من الجرايد..

استدار إليها وبين جفنيه لمحت بريق عبرة انقبض لها قلبها:

- قريت نعي أخويا، توأمي في جريدة..

وكان يسخر، كما يفعل دومًا.. يسخر من الفقد والألم.. من القسوة والضياع.. من التشتت والتيه والخسارة..

يسخر حتى تجمدت روحه وتحجر قلبه:

- ما حدش بلغك!..

انتبه أنها معه كأنما غفل عنها للحظات، عاد لذلك اليوم.. لتلك الليلة التي قضاها أظافره تنبش التراب بقبر من رحل..

يشتمه.. ينعيه.. يبكيه دون أن تذرف عيناه دمعة واحدة حتى قهرته.. ويقسم؛ يقسم أنه سيثأر.. سيثأر لكل لحظة فراق، لكل لحظة غياب.. سيثأر للحظة موت لم يكن فيها إلى جواره..

- ليه جدك ما اتصلش بيك!..

الآن هي تخوض في مستنقع الماضي الآسن..

ذلك المستنقع الذي يبغضه، ويهرب منه.. تحول بجسده يواجهها ببسمة جاهد ليرسمها فوق شفتيه:

- أظن كفاية كلام النهاردة..

تأملته لثوان ثم لامست فكه برقة ونظرتها تهديه أمان امرأة..

امرأة هي امرأته.. تحتويه بتفهم ودلال ناعم:

– Ok, baby steps..

توسعت بسمته وأضفى عليها المكر:

– بمناسبة البيبي..

طوق خصرها بذراعيه:

– مش عندنا بيبي في مرحلة التكوين برده!..

رمقته بدهشة.. تغاضى عنها وهو ينحني فيدفن وجهه وينغمس بأنفه بين خصلاتها الكثيفة:

– نسيني يا غزل..

أبعدته عنها تغوص بدُجنة عينيه، تتأمل حزنًا خط نفسه فوق ملامحه فأهداها انكسارًا أوجع قلبها، تحيط وجنتيه براحتيها وتتيه..

لقد تدخلت هنا نبضة مختلفة، تدخلت تجبرها على عناقه..

على ابتسامة وقبلة.. استهلتها هي وتمَّمها هو بلهفة سعيًا لنسيان أو غيبوبة في دنياها، كانت توقن أنها الآن.. الليلة.. في هذه الساعة والدقيقة واللحظة تغرق فيه.. تغرق ولا تنشد نجاة!..

المعرفة المنقوصة في العشق ترفع المأساة لمرتبة كارثة على وشك الحدوث.. حين يُستهل الحب بالاقتراب دون حذر، وينفتح باب القلب عندما تطرقه فقط.. بعض الأسرار..

**

لطالما ركنتْ لجانب العشق دومًا وخضعتْ لسلطانه..

حاربتْ في معركة خاسرة لأجله، وفرَّتْ من أرض تلك المعركة حينما لاحتْ الهزيمة.. كذلك لأجله!..

اصطفاها العشق لتكون من أهله فأذعنتْ بتسليم، تبعتْ معشوقها لآخر العالم.. وها هي تتبع ما بقي لها منه، ثمرة عشقها وإياه إلى بيت العدو..

العدو كما يلقبه جدها وأبيها وتُصدِّق على الوصف أمها..

جدها الذي ما إن سمع بقرارها، وعلم برفضها للزيجة التي دبرها لها كأنما يمحو عارًا طاله منها، برفضها للرجل الذي اختاره بمشيئته ليكون زوجها.. رجلًا طلب أن تكون له وحده دون طفل يحمل نصف جيناته من رجل غيره..

طردها!.. جدها طردها وأقسم أن خطوتها خارج عتبة بيت العائلة هذه المرة ستكون الأخيرة:

- لو خرجتِ المرة دي يا شمس يا بنت مصطفى؛ ما ترجعيش تاني..

ولأنها في العشق لا تفاوض فقد رحلتْ..

حملت طفلها وحقيبة وضعت فيها بعض ثيابها وثيابه وذكرى الحبيب الوحيدة التي تمتلكها وتخبئها عن أعين البشر..

والآن..

تقف أمام العجوز الصارم برجفة تصارع لإخفائها، يتفحصها من خصلاتها المعقوصة بربطة مهملة إلى أخمص قدميها الصغيرتين في حذائها المسطح..

بساطة ثوبها واللفافة التي استقر بها رضيعها نائمًا بأحضانها، وإلى جوارها حقيبة، عندما لمحها شمخ برأسه في أنفة واشتدت صرامة عينيه، هتف دون زعيق:

- بهجة..

ظهرت من خلفه إثر النداء امرأة خمسينية هادئة الملامح، تبعث نظراتها دفئًا مطمئنًا، أمرها بإشارة إلى الصغير:

- خدي الولد..

توجهت تمد يديها، تتناوله من أمه التي تشبثتْ به بتوتر، تتنقل ببصرها بينه وبين السيدة التي أهدتها بسمة متفهمة:

- ما تخافيش عليه، أنا اللي مربية أبوه..

لحظات أخرى من التعلق الخائف أنهاها "يونس" بحسم باتر:

- إديها الولد، في كلام مهم بيننا..

واستدار يوجه كلماته للمربية التي ضمت "يزيد" بحنو أم:

- ابعتي لي عبد الحميد..

أومأتْ بطاعة ورحلت بينما عينا "شمس" تلاحق خطواتها، لم تستطع النطق.. بل شعرت أن أنفاسها سجينة صدرها لا تتحرر، كانت تختنق.. تخاف!..

هي أتت لمنزلهم لتكون مع ابنها.. لألا يحرمها أحدهم منه، والآن يبدو أنها ستدفع ثمن خيارها.. ظهر رجل لمحته حين دخولها من بوابة المنزل عند بداية الردهة الواسعة، لوح له الجد برأسه تجاه حقيبتها:

- خد الشنطة دي اتصرف فيها..

تفرق جفناها باتساع مبهوت خاصة عندما استجاب الرجل بلا حرف.. مدت يدها تمسك بها بنبرة مشتتة:

- دي هدومي أنا ويزيد..

- خد الشنطة يا عبد الحميد..

أمر جامد لا رجعة فيه، شعرت بحيرة عندما سحبها خادمه بالفعل فركضت تلحق به، تفتحها وتحمل منها صندوقًا ورقيًا صغيرًا احتضنته بقوة:

- إيه ده!..

سؤاله الرافض لفعلتها ربما، استدارت تواجهه وحدقتاها تهتزان في وهن:

- دي الذكرى الوحيدة اللي باقية لي من يامن الله يرحمه..

انقلب وجهه، تضاعفت قسوة عينيه وزم شفتيه كأنما يكبت انفعالًا لا يريده..

أشار لرجله بالرحيل وعاد إليها يسن قواعد الحياة في ظل سقفه، حياة هي أقرب للجحيم:

- البيت ده له قوانين..

ضرب بيده فوق ظهر مقعد إلى جواره:

- قوانين أنا اللي بحطها، قوانين ممنوع تخرجي عنها..

سكنت تنصت إليه برهبة، هذا الرجل مخيف..

رُغم السن والتجاعيد التي تمنح من هم مثله حكمة الزمن وطيبة القلب.. رُغم أنه جَد من عشقت؛ هو مثير للهلع:

- وأول قانون هتنفذيه؛ تنسي إن ليكِ أهل، تنسي إنك بنت حسين الخولي تمامًا..

اعترضتْ بتوضيح خافت:

- حسين يبقى جدي..

- ما تقاطعنيش..

زعق بها فأجفلتْ لحظة، تماسكتْ إثرها تنتظر ما سيتلوه عليها من أوامر، كأنها تعلم أن ذلك ثمن بقائها مع طفلها شاءت أم أبت:

- كل علاقة ليكِ بأي حد قبل دخولك البيت ده تقطعيها..

وخطا نحوها مضيفًا بغلظة:

- خروج من البيت بإذني ومش لوحدك..

خطوة تالية وإضافة أشد قسوة:

- خروج برا الكومباوند ممنوع، خروج مع الولد ممنوع..

هنا بترت قراراته المتتابعة بحدة وهي تعقد حاجبيها بذهول:

- ده سجن!..

خطوته الثالثة جعلته يواجهها بقامته الطويلة والتي شدها بحزم أضفى عليه مزيدًا من الهيبة والرهبة رُغم العمر:

- دي قوانيني، حاولي تمشي عليها لأن أي كسر لها هيكون له عواقب..

هزت رأسها غير مصدقة:

- وبتهددني كمان!..

شاب نبرته صقيع أرسل لجسدها كله رعشة:

- تحذير، مش تهديد..

- وشغلي!..

- تنسيه..

ثم ولاها ظهره منهيًا سلسلة أوامره:

- مش هتحتاجي حاجة هنا..

قبل اعتراض جديد منها التفت يختم حديثه:

- حاجة أخيرة؛ أنتِ مالكيش مكان في البيت ده.. هتعيشي في أملاك ابنك..

قاسي.. هو أكثر من قابلت من البشر قسوة، حتى جدها لم يبلغ الأمر بغلظة قلبه هذا الحد.. هي في جميع الأحوال خاسرة، ستفقد ابنها إن غادرت.. وستذبل روحها إن بقيت!..

وبين الروح ومهجة القلب لا خيار..

زعقته باسم المربية نفضتها بعنف، أتت السيدة تهرول حتى كادت تتعثر، على يدها الحفيد الذي استفاق وبدأ يصدر أصوات مناغاة بريئة أجبرت عينا "يونس" على تأمله لحظة..

لحظة واحدة عصف بنهايتها بفرض واجب الطاعة:

- دليها على أوضتها..

انتبهت على ربتة هادئة رفيقة ويد تسحبها إلى بداية الدرج، صعدت واحدة وفي الثانية سمعته يحادثها:

- خلال ساعة السواق هيكون مستنيكِ تروحي معاه تشوفي أنتِ محتاجة إيه!..

تكررت خطوات صعودها بآلية.. أحرقتها عيناها وهي تحجب خلف أجفانها دموع القهر..

كم تكون الحياة ظالمة أحيانًا!..

لا تمنح خيارًا سوى الاستسلام والخضوع..

عند باب إحدى الغرف أخبرتها "بهجة" بعطف:

- يونس بيه شديد شوية بس بيحب ولاده..

مع اللمحة الساخرة التي مرت بنظرتها أردفتْ بتأكيد:

- في ناس كده؛ حبها قاسي..

وتركتها مع صغيرها الذي تثاءب بنعومة، قبَّلته وتركت لعبراتها العنان.. هي من ظنت أن عهدها مع الدموع سينتهي في يوم فإذا بها متجددة لا تفنى.. أمسك "يزيد" إصبعها بكفه الهشة فأجبر شفتيها

على بسمة رُغم نكهتها المُرة، لثمت يده المنمنة وابتعدت تفتح الصندوق الورقي تتأمل محتواه..

تطوف بأناملها فوقه وتتذكر، ترتجف.. ثم تسلم لتصاريف القدر!..

**

ما الأسوأ أن تحيا عمرًا في الجحيم!..

الأسوأ.. أن تحمل الجحيم بداخلك وإن سكنتَ الجنة..

والمخيف أن يراه الآخرون بعينيك..

استقبل جده بوجه لا يوحي بأي شعور، صوته لا يمرر انفعالًا محددًا ولغة جسده.. صامتة، ساكنة!..

فقط عيناه؛ عيناه وحدهما تسردان تاريخًا قاتمًا.. وتُنجمان عن قادم قاحل..

جلسا في شرفة الفيلا الصغيرة العصرية التي استأجرها، ناوله قدحًا من القهوة وارتشف من خاصته بهدوء غير فضولي.. هو لا يبحث

عن إجابات، لا يريد المعرفة.. يمتلك بالفعل ما يحتاج؛ والغاية واحدة..

الفناء!..

وضع "يونس" مظروفًا ضخمًا منتفخًا على الطاولة بينهما، بينما يرمقه بغموض، كأنما يقرأ دواخله ولا يمانع:

- ده كل الورق اللي هتحتاجه، الجنسية، باسبور مصري، بطاقة و credit cards لحساب فتحته باسمك..

- بالسرعة دي!..

مررت نبرة جده صرامة واثقة:

- اللي لازم تعرفه إن اسم أبو الغار هيفتح قدامك أبواب كتير..

ثم أخرج من جيبه مفتاح سيارة ألمانية تركه فوق المظروف:

- ودي عربية بدل اللي أنت مأجرها..

- واضح إنك عملت تحرياتك..

نطقها بلامبالاة ساخرة..

نعم فعل ولم يكتفِ، لا يعرف عنه الكثير إلا منذ وطأت قدماه أرض مصر..

خلاف ذلك، الأمر يتطلب وقتًا أطول، يريده قربه.. يتسلل لعقله وأفكاره ويفهمه، يدرسه ربما ويقرر الطريقة المثلى لخلق الوريث الذي ينشده منه..

سخريته جعلت جده يخاطر في سجال معه:

- زي ما أنت عملت تحرياتك قبل ما تقابلني..

لم يكترث "يعقوب" بحرب كلامية توقعها، أدار مقلتيه بين جفنيه باستخفاف وصمت ينهي قهوته.. لكن الجالس أمامه كان يرغب في المزيد ويسعى إليه:

- عايش لوحدك!..

- من زمان..

- ووالدتك!..

- ماتت..

- ما تعرفش حاجة عن عبد الله!..

- لأ..

نبرته لم تهتز، لم تتغير.. ملامحه لم تتبدل أو يعلوها اضطراب، كان كآلة باردة تجيب باقتضاب عن أسئلة لا ترغبها:

- أنا عاوزك تيجي تعيش في بيتي..

استرخى "يعقوب" في جلسته بهدوء:

- أفضَّل أعيش لوحدي..

حزم "يونس" طغى على كل خلجاته وهو يباشر بصراحة:

- لو جاي تنتقم لازم تقرب وتقتحم أرض العدو..

كان يظن أنه سينال منه.. سينفعل.. يغضب.. يصرخ ويفرغ مكنون صدره المحترق، لكنه ابتسم بتهكم وافتعل الصدمة:

- أنتقم!.. من مين يا جدي!.. أنتوا عيلتي اللي كنت بادور عليها..

مال يواجه عينيه بنظرة فارغة، خاوية كلهجته تمامًا:

- أنا جاي عاوز عيلة.. جدر، وطن..

والجد يفهم، يستوعب وتعجبه اللعبة!.. الحفيد القادم من المجهول يروقه، يرى فيه نفسه.. لذا حسم أمره:

- يبقى تعيش وسط عيلتك..

تنهد "يعقوب" باستسلام مفتعل بوضوح، استسلام أرسل ببسمة لنظرة جده دون أن تلامس شفتيه:

- أوك.. ويزن!..

بتر متعة اللحظة بذكر الحفيد الآخر؛ المتمرد الشادر.. والعنيف!..

- أخوك..

لم ينبس الأصغر بحرف والعجوز يردف بلا انتظار:

- هيعرف بوجودك ويقابلك..

تلك هي الخطوة الأولى.. والأصعب!..

**

في العشق لا توجد قواعد للسلامة، نحن نسقط أولا ثم نفكر فيما بعد.. نثمل.. نترنح..

والاحتراز حينها يصبح عبثًا..

فقد انطبق الفخ على القلب وانتهى..

انطبق على قلبها وحدها دون من عشقت، هو رجل عملي.. جامد.. تخلى عن المشاعر أو ربما لم يعرفها من الأساس..

كل ما سمعته عن زواجه الأول أنه كان مرتبًا، زوجة من عائلة تليق بمكانته كحفيد آل "درويش" الوحيد.. ورُبان سفينة العائلة بعد جده "قاسم" الذي تحمل رعايته عقب موت أبيه في طفولته..

زوجة أنجبتْ له طفلًا واحدًا، صغيره الهادئ واللطيف للغاية.. "واسل".. الذي استغربتْ اسمه في البداية ثم سقطت في غرامه فيما بعد.. كسقوطها في غرام أبيه..

ماتت أمه بعد عام واحد من ميلاده، ماتت بقلب ضعيف لم يتحمل إجهاد الحمل فالولادة وتبعاتها.. تخبرها أمها سرًا أنبأتها به أمه وبين قوسين "صديقتها"..

هو يُحمل نفسه ذنب موت زوجته التي تتيمت به وأرادت منحه طفلًا يشبهه، فخسرت حياتها..

كان رجلًا عمليًا لا يخضع للعاطفة ولا يكترث لها، والآن بات رجلًا جامدًا.. لا يفكر سوى بالعمل وابنه وحسب..

رجلًا تعشقه وتهابه..

خاصة مع عينيه اللتين احتدمت بهما النيران بهذه اللحظة ونبرته التي تمرر لها اتقاد غضبه دون زعيق:

- يعني إيه ملف زي ده يختفي يا رهف!..

تجولت في مكتبها بتشتت، وجوده حولها يشتتها، سخطه الذي يخفيه لكنه واضح لبصرها يرجف خافقها..

أفكارها تائهة وذاكرتها لا تسعفها عن مكان احتفظت فيه بملف أكبر صفقاته لهذا العام، صفقة تديرها هي.. خاصة بمصنعه للحديد والصلب..

صفقة سيتوقف عليها الكثير وهي.. فقدته!..

انتبهت له في محاولة للتماسك:

- ممكن حضرتك ترجع مكتبك وأنا هالاقيه بإذن الله، أكيد مش هيضيع..

توجهت لخزانة محكمة تفتحها، تفتش فيها بارتباك ونظراته تكاد تخنقها جوار قسوة لهجته المباغتة، المباشرة:

- قدامك عشر دقايق، الملف ده لو ما ظهرش اعتبري نفسك موقوفة عن العمل ومتحولة للتحقيق..

تصلب جسدها كله مع كلماته.. هي!.. سيفعل ذلك معها هي!..

ألا يرى عشقها بعينيها، ألا يدركه في ارتعاشة صوتها!..

هل يظنها ستخونه وتسلمه لمنافسيه أم ماذا!..

استدارت إليه لا تصدق وعيده:

- أنا!.. تحقيق!..

لم يتخلَ عن صرامته أو يقلل من جموده مثقال ذرة:

- أيوة أنتِ.. الشغل حاجة والعلاقات العائلية حاجة تانية..

تخطاها تجاه الباب عائدًا إلى مكتبه:

- عشر دقايق..

- هالاقي الملف وأجيبه لحضرتك يا مستر عُدي ومعاه استقالتي..

لاحقته بقرار أرعن تهجر فيه قربه، قرارًا لم يتوقف له لثانية بل سخر باقتضاب:

- لما تلاقيه!..

مرت خمس دقائق وهي تجوب المكان بجنون، مشاعرها ثائرة.. غضبها صارخ..

وقلبها مخذول..

تعلم أنه لم يمنح فؤاده لامرأة من قبل، تعلم أنه لا يبالي أو يهتم.. ربما هو حتى لا يراها.. لكن أن يصل الأمر لتهديدها بتلك الفظاظة، فستنتزع نفسها من محيطه حتى وإن احتفظ بسكنى القلب الأبله..

دقيقة تالية.. أخرى؛ ووجدته.. ركضت خطواتها إليه وهناك وضعته بحدة فوق المكتب الكلاسيكي الأنيق.. مكتبه يشبهه تمامًا..

عتيق.. بارد.. خالي من الحياة كروحه المتحجرة، ذلك الـ...

انتبهت لنفسها تسبه بسرها فأغمضت عينيها بسرعة تتنهد وتعد حتى المائة، حين رفع نظره إليها بهدوء:

- جهزي نفسك للسفر كمان أسبوع..

عقدت حاجبيها وارتفعت رأسها بشموخ لم يأبه به:

- لا يا مستر عُدي، مافيش سفر.. أنا مستقيلة..

ترك مقعده وواجهها بحزم تراجعت له خطوة..

اللعنة عليه..

قربه يضعفها.. يزلزلها.. يُفقدها ثباتها وقواها وإن لم يقترب لحد غير مباح.. هو حتى نبرته الجدية لا تتبدل أو تختلج في كل أحاديثه:

- رهف ده شغل مش لعب، هنخلص الصفقة دي لأنها أهم صفقة السنة دي، بعدها لما نرجع هاقبل استقالتك..

صعقها.. حقيقة ومجازًا..

هو حتى لم يعتذر، لم يخبرها أن ذاك مكانها فعاندت بحزن دفين:

- آسفة.. أنا...

- رهف!..

بحسم باتر ينهي احتجاجها الواهن:

- الصفقة دي أنت اللي حافظاها يا مديرة المشتروات، لما نرجع هنتفاهم.. هنطلع الأول على بروكسل نتفق مع المستورد هناك بعدين نروح كييف نشوف المورد هنعمل معاه إيه في التأخير اللي حاصل ده.. مفهوم!..

زمت شفتيها وصمتت لثوان، ردت بعدها بحزم يشبهه:

- تمام يا مستر عدي؛ هأجل الاستقالة لما نرجع..

رمقها بنظرة غامضة صلبة تجاهلتها ورحلت عنه..

تحبه نعم، لكن قربه جحيم وتعترف؛ رجل لا يؤمن بحاجته لامرأة، لا يريد.. فكيف تبرهن له على نقصه دونها ونقصها دونه!..

تابعها وضميره يسكن، يهدأ..

هو اكتفى برحيل زوجته عنه فمذاق الخسارة لاذع والفقد مُر..

كان يرى عشقها ويذبحه في كل لقاء بمهده علَّ عنقها تفلت من مقصلة حروبه -التي لا يدركها أحد- مع ذاته.. صراعاته التي لا يراها أو يشعر بها مخلوق حتى أمه!..

تلك العاشقة ستنجو.. فقط، مادامت خارج دائرته!..

**

البداية.. النهاية..

وما بينهما.. فقد!..

فقدتْ الأهل مرة وثانية، فقدتْ العاشق.. فقدتْ أمانها قربه.. وعندما كادت تفقد ثمرة ذاك العشق كررتْ الهروب..

هي امرأة في العشق تجد النجاة وإن كانت بقارب مثقوب..

الآن هي وصغيرها أحد أفراد أسرة "أبو الغار".. تلك العائلة المفككة التي لا يربط بينهم سوى اللقب.. تعيش معهم بمنزلهم منذ

أسبوع، تتلاقى والجد على وجبة إفطار باتت أشبه بأمر عسكري يومي، يداعب الصغير الذي بدأ قلبه يرق له لدقيقة ثم يعيده إليها ويغادر إلى صحبة أصدقائه فلا يعود إلا بعد الغروب..

الصغير الذي يمتلك دُجنة عيني وخصلات أبيه وعمه..

أنهتْ تحضير الرضعة فاستدارت تضعها بعلبة تحافظ على حرارتها عائدة إلى غرفتها وطفلها.. شهقت بمفاجأة عندما لمحته يرتكن لباب المطبخ بكتفه في جمود مبهم بات يخيفها كلما تقابلت معه..

ابتسمت بحرج ورفعت يدها بالزجاجة:

- كنت بحضر رضعة يزيد عشان لما يصحى..

تحرك إلى الداخل بصمت، تجرع الماء من زجاجة مثلجة حتى ارتوى وهي تقف حائرة، بتر حيرتها حينما واجهها بتأمل مبهم، همهم بعده بحروف لم تستوعبها..

تعلق بصرها بجرح شبه غائر بجانب جبينه، ينزف ببطء، توترت بقلق:

- أنت بتنزف!..

مسح جرحه بكفه ثم غسلها ووجهه بأكمله أسفل صنبور المغسلة مدمدمًا بلا اكتراث:

- حادثة عربية..

وتذكر ذلك الضخم الذي تخطاه في الطريق برعونة صدمت مقدمة سيارته، ثم امتلك من الصفاقة ما يكفي ليتوقف أمامه ويشعل معركة انتهت بذلك الجرح وبه يحتفظ برقم السيارة..

تكررتْ شهقتها وإن شابها الذعر هاته المرة والذكرى تخترق قلبها بسهم من نار.. يندفع منها السؤال عن الزمان والمكان والكيفية فيجيبها باقتضاب انتهى بها أكثر قلقًا:

- ليه ما طلبتلوش البوليس!..

بعث لها بنظرة فاترة وصوته يشبه زئير أسد خفيض يستعد لنهش طريدة حمقاء تركض في العراء:

- باجيب حقي بإيدي..

توجستْ للجواب المخيف، لكن رُغمًا عنها اقتربت بلا إرادة تطالعه باهتمام خائف.. حنون:

- أنت كويس!..

بادلها النظرة بنظرة..

غاص بعينيها اللامعتين وهو يعود لمنطقته المظلمة داخل مقلتيها بحثًا عن شيء ما؛ هذه هي امرأة توأمه..

معشوقته التي تخلى عن الكثير لأجلها.. التي أخفى عنه هو وجودها!..

مع تلك الفكرة غامت نظرته بظلام أرجفها رُغم نبرته التي طمأنتها:

- ما تقلقيش..

تركت الزجاجة على طاولة جوارها وأشارت إلى رأسه بتردد:

- طيب ممكن تخليني أشوف الجرح!.. أنا بعرف إسعافات أولية..

ولأول مرة منذ التقاها تناوش شفتيه بسمة باهتة:

- بتعرفي!..

هزت كتفيها بخجل ناعم:

- كنت أخدت كورس من فترة..

أومأ بصمت واستقر فوق مقعدٍ عالٍ، تحركت تواجهه وأناملها الباردة تبعد خصلاته عن جبينه المجروح برجفة..

رجفة استشعرها ولم يفهمها، أراد تخمين سببها وتَشتَت أفكاره مع همستها:

- في هنا صندوق إسعافات!..

انتبه لسؤالها فأشار إلى جارور خلفها، توجهت نحوه تنتقي ما تحتاجه، عادت إليه تبلل القطن بالماء لتمسح جبهته، ثم تعيدها بمطهر أحرقه..

تشنج مبتعدًا بعض الشيء برأسه إثر لمستها الحانية لجرحه وإن كانت برفق، سحبتْ يدها قليلًا وهمستْ بارتباك امتزج بدفء غريب:

- بيوجعك؟!..

ضغط فكيه بنفي صامت فابتسمت كأنما هو طفل صغير:

- أنا عارفة إن المطهر بيحرق.. معلش..

بدأتْ تنظف الجرح على مهل.. بصرها معلق به، بملامح ترسم وجهه وإن لم تكن لحبيب رحل، ذات الأنف، الوجنتين والشفاه والخصلات حتى لو كانت أطول..

لون العينين اللتين تنظران إليها بتفحص.. باقتحام!..

لقد خمن وجهة شرودها، ضاعف من اختلال توازنها.. تجمدتْ تحت وقع تأمله، تنفستْ بعسر.. تراجعتْ عندما تمتم بلا انفعال محدد:

- شبهه.. مش كده!..

أجابتْ بسلاسة وأصابعها تلصق له ضمادة:

- في الشكل بس..

انعقد حاجباه فأردفت وذهنها يغيب فيمن غاب:

- الروح لأ..

ثم نظرتْ في عينيه بحياء بعدها هربت بعينيها:

- والعيون لأ..

افتعل دهشة.. هو يمتلك اللون نفسه والأهداب، حتى الحاجبين الكثين.. وهي استوعبت دهشته فأجابت سؤاله غير المنطوق:

- يامن كان في عينيه أحن نظرة في الدنيا..

نالتْ منه سخرية سوداء لامستْ تمتمته الخافتة:

- وأنا!..

تشجعتْ لتخبره بثبات إثر تردد:

- عينيك تخوف..

دهشته لم تكن مصطنعة بهذه اللحظة لكنها أوضحت ببساطة غريبة:

- فيها قسوة.. أو يمكن جرح متغلف بقسوة..

ولم تكن تتوقع الضحكة العالية، يليها التهكم الممتزج بمذاق العلقم:

- ده مش تحليل نفسي، ده المرحوم حكى لك عني..

نفتْ ببسمة هادئة تتفهم شكوكه:

- يامن كان بيحترم خصوصيتك جدا، وأنا كنت بحترم حدوده حواليك..

تغضن جبينه بسكون ظنته تصريحَ رحيلها، التقطت زجاجتها وهمست برفق:

- مش محتاج حاجة قبل ما أمشي!..

- ليه ما عرفنيش بيكِ؟..

سؤال المليون دولار..

كانت تتوقعه، وكان لا يريد أن يطرحه، لكن مشاعره غلبته.. غضبه قهره.. حزنه هزمه وتحكم باللحظة..

ارتبكتْ أكثر، أبعدتْ ناظريها عنه.. استكانتْ بتفكير تائه حتى ناداها بحزم:

- شمس!..

نظرتْ إليه فكرر سؤاله بتطلع صارم أجبرها على قذفه بالجواب الحارق:

- كان خايف منك..

ظفرتْ منه بصدمة.. سرعان ما انقلبت لحنق واضح فبررت:

- كان متوقع إنه لو قال لك ممكن في لحظة تقول لجدو يونس عشان...

احتارتْ في استطرادة مناسبة لا تخرج عن حدود اللياقة.. استطرادة تممها هو بجمود:

- عشان أثبت له إن حتى الحفيد المطيع اتمرد..

بتقرير بارد تبعه بإضافة ساخرة:

- عنده حق.. أنا متهور..

- أنا...

- أنتِ مالكيش ذنب..

وتبدلتْ قسوة المقل لهدوء..

تلك الحرب الثائرة الدائرة بين جفنيه هدأتْ.. سكنتْ.. كأنما أعلن جنودها الهدنة ولو لدقيقة..

شيعته ببسمة واستدارت عائدة لطفلها عندما تحكم بكفها يعيدها إليه، أجفلت مع تسلط قبضته وجذبت يدها بخجل..

رفعت عينيها تواجه عينيه، ترى تشبثه.. لا تفطن لفحوى صمته لكنه هو من خرج عنه بسؤال بدا لها غامضًا وإن كان مشروعًا:

- كنتِ بتحبيه!..

شردتْ.. شردتْ في الراحل بالجسد دون الروح، فيمن سكن وحده القلب وانتزعه معه ليدفنه بين ذراعيه مقسمًا ألا يتخلى، من بين سُحب شرودها الجافة ترقرقت دمعة لم تُمطر بقرارها هي:

- أنا اتخليت عن كل حاجة عشانه.. تفتكر ده إيه!..

تلك البسمة..

بسمة نقشت حضورها عنوة فوق شفتيه فجعلته أقرب ما يكون لحبيبها خاصة حين همس بخفوت ساهِي:

- هو كمان حَبِك.. وضحى بكتير عشان يكون معاكِ..

صمتت تهضم كلماته وهي تعلمها حقيقية؛ فأبسط تضحياته نفي توأمه الوحيد خارج حسابات عشقه وحياته مع من عشِق..

أهدته نظرة أخيرة، بادلته ابتسامته فخفت حزن وجهها لثانية:

- تصبح على خير..

تابع رحيلها وتمتم دون أن تسمعه:

- وأنتِ من أهله..

**

الغيرة مرادف آخر للعشق، ملحه أو زاده.. لكنها هي تلك المجنونة التي تخالف المنطق، تكره الروتين، تحارب الملل في عقر داره بناريتها وتعترف بجنونها بكل فخر..

هي التي أعلن قلبها عليها العصيان وسقط، منح إحدى دقاته لرجل.. صنع من المصادفة قدرًا، ومن المغامرة حياة ورغبة.. وسكنًا..

والرجل.. ذاك الكائن المتفرد بذاته، الذي لا يبخل على أنثى بحضوره، ترك أخرى تضمد جرح رأسه بعد حادث سيارة ومشادة مع سائقها لم تكن بالهينة.. ثم أتاها يتبختر..

لا.. بل صعد إليها شاردًا وجاورها في الفراش بتعب لتكتشف الضمادة وتلامسها بقلق متوتر:

- يزن.. إيه اللي حصل!..

تنهد وأغمض عينيه، انزلق يسترخي على ظهره بجواب أشعل أعصابها:

- واحد كسر عليَّ بالعربية، واتخانقنا..

قطبتْ بدهشة.. قيادة الرجال لابد وأن تتحول لسباقات وحروب!.. اعتدلت بانتفاضة، أزاحت ساعده الذي يغطي جبينه وتأملت الجرح المختبئ بخوف:

- اتخانقت!.. Are you okay!..

انحنى فمه بشبه سخرية، ناور بنبرته لتلتحف بالهدوء مطمئنًا:

- أيوة..

لم تقتنع، لم تهدأ ولم ترتح.. بدأت التحقيق وعليه إجابة كل سؤال:

- رحت مستشفى!.. ليه ما كلمتنيش!.. فين وإمتى!.. حاسس بإيه!..

مع صمته قبضتْ أصابعها بغيظ وهتفتْ حانقة:

- يزن رد عليَّ..

فتح عينًا واحدة يرمقها بلا شعور مفهوم، جذبها يهدي ثغرها قبلة مسيطرة تخرسها، تلاها الجواب المتهكم:

- أنا كويس، مارحتش مستشفى الموضوع مش مستاهل.. كانت جنب الشركة، وحاسس بصداع أتمنى تسكتي وتشوفي لي مسكن يضيعه..

- أمال مين طهر لك الجرح ده!..

تجاهلتْ طلبه ولم تصمت.. هكذا، تنهد وأجاب ببساطة:

- شمس..

- نعم!..

وثبت تقترب، تثني ساقيها وتعتمد على ركبتيها لتشرف عليه بضيق، يتأجج بقلبها لهيب الغيرة بلا حساب:

- ومراتك كانت فين!..

تأملها لحظة مستغربًا ثم استسلم مع حصارها لحركته:

- كنت فاكرها نايمة..

- لو نايمة تصحيها مش تخلي another woman تعالج جرحك..

تتصرف بهذا الشكل وهي لا تعلم برغبته في الزواج منها بعد!.. ماذا عندما يخبرها!.. ابتسم بتفكه وفكرة واقعية تمر بعقله أعتمت لها نظرته..

هل تظنه ملكًا لها لتتصرف بغيرة!..

رفع حاجبًا ومد كفيه يحيط بخصرها وعنقها..

أسقطها فوق صدره ونسى ألم جسده بين شفتيها بعد دمدمة عابثة، متجاهلًا أفكاره:

- طيب ما تخليكي أنتِ المخدر!..

ولأن العشق مع القرب يدفع بالأوكسيتوسين إلى أنحاء الجسد فيستكين للمعشوق؛ منحته نفسها برضى وسعادة.. ولأن هناك عشق؛ كانت مخدره كما أراد..

"معلش يا غزل تعبتك!"..

أفاقت من شرودها في تلك الليلة قبل أيام بينما تحمل "يزيد" الهادئ بين ذراعيها، حتى تنتهي والدته من تحضير طعامه، ابتسمتْ وقبلتْ وجنته بشقاوة:

- مافيش تعب طبعا، يزيد عسل أصلا..

تناولته "شمس" منها بحرص، أجلسته في أحضانها وبدأت تطعمه بحنان، يعلو ثغرها بسمة ضائعة وترحل عن الكون كما تفعل كلما اجتمعتْ به.. بطفلها الذي تبقى لها من عالم لفِظَها..

ألقى بها في غياهب جحيم لا تعلم هل منه نجاة أم أن الثمن الذي تتوقع دفعه سيكون أقسى مما قد تتخيل!..

مع غيابها تأملتها غريمتها الجاهلة بفضول..

نعم.. اكتنفتها غيرة حادة منها، تضايقتْ.. غضبتْ ثم صبتْ غضبها على زوجها قبل أن يحتويه هو بشغفه، لم تهدأ لكنها أراحته وقررت وضع تلك الـ "شمس" تحت المراقبة..

لأول مرة تحتار في تفسير أنثى!..

هي اعتادت قراءة النساء.. تعرف اللعوب، القوية، الضعيفة، ترى.. تستوعب الخاضعة والعنيدة والمغرورة والمتواضعة والـ strong independent.. تفند الملامح وتقرأ لغة الجسد..

أما هذه التي تجلس قبالتها ترضع صغيرها؛ تثير حيرتها.. ترى فيها الضعف، الخنوع.. الانهزام والاستسلام..

وبين جفنيها، في هاتين المقلتين تقرأ حربًا دائرة، ووجعًا لا ينتهي..

أما بالخلفية فهناك قوة.. ثبات..

تضحية..

رُغم أنها تعلم الهوامش وتجهل التفاصيل!..

غيرتها هدأت بعض الشيء لكن فضولها اشتعل أكثر، هل يمكن أن تنمو بينهما صداقة ما!..

هي تود أن تتحدث معها بشأن توأم زوجها، كيف كان!.. هل يشبه أخيه في طباعه أم اكتفى بالملامح وحسب!..

فارق النظرة جلي من صورة قديمة..

فأي كارثة حدثت لتنقش القسوة بنظرة "يزن" والوحشية بانفعالاته المكبوتة والتي نادرًا ما تتفلت خارج نطاق سيطرته!..

رأتها تستقيم، تحمل الرضيع وتبتسم لها بصفاء:

- هاطلع أنيمه بقى..

- شمس!..

توقفتْ تستدير إليها بتساؤل، نهضتْ تجاور خطواتها ببساطة وبسمة ودود تحتل فمها:

- عندك مانع نبقى friends!..

توقفت "شمس" عن سيرها للحظات قبل أن تدير وجهها إليها ببسمة مشابهة وعينين بان فيهما التعلق المرتاح:

- أكيد لأ..

بعض العثرات تسقطنا.. تكسرنا، وبعضها نعود منه بغنيمة..

بهدية قدر!..

**

المرأة تحكمها العاطفة مهما ادعت التعقل والثبات، وعاطفتها هي حل كل ألغازها المعقدة.. اعزف على وترها ما تريد من نغمات، قد تفوز بلحنك الخاص.. قد تفوز بها، بقلبها!..

مر ما يقرب من شهرين منذ عرض عليها الزواج للمرة الأولى.. وثلاثة أسابيع بعد المرة الثانية، تلك التي حررها فيها من قيودها الجامدة الجافة وحملها معه تسابق الريح على دراجة نارية..

تسير بصحبته جوار النيل حيث تلتمع على سطحه الهادئ أضواء ليل العاصمة، تشبه الفتية والفتيات الذين لم تلمحهم سوى من

نافذة سيارتها في تلك النزهات، لم تحظَ من قبل بشيء قريب مما حظيت به معه..

لم يتعجل جوابها طيلة الفترة الماضية، فقط ابتكر لهما عادة معًا وخطط مع القدر لقاءات أضحتْ تنتظرها.. تتوق لها..

باتتْ تشتاقه!..

وذلك يخيفها..

دلفتْ مربيتها للغرفة تضع إلى جوار الفراش كوب الحليب الدافئ الأشبه بفرض يومي يلزمها تأديته:

- دادة زُهرة، كفاية لبن عشان خاطري..

جاورتها السيدة الحنون وانتزعتْ من يدها الرواية التي تغوص بين سطورها:

- اعتراض كل يوم وبرده هتشربيه..

حشرتْ القدح مكانها ودفعته قرب فمها:

- اشربي وكفاية قراية عشان ترتاحي..

ارتشفتْ منه بهدوء حتى أنهته وفكرها حائر.. هو لن ينتظر قبولها أو رفضها للأبد..

كارثتها أنها هي المشتتة بينهما!..

كانت تراه شريرًا، عينيه رُغم لونهما الآسر بهما غموض يحفز بها القلق والتوتر..

تود الاقتراب وتخشى عواقبه..

تريد الهروب وتشرد في تبعاته..

فما الحل!..

"سرحانة في إيه!"..

استفسار مربيتها التي رمقتها بنظرة واعية كأنما تدرك ما بها:

- وسن.. في حد شاغل بالك اليومين دول!..

سؤال آخر غير متوقع.. لكن لمَ!..

هي من ربتها وتفهمها من نظرة.. ابتسمتْ بشرود وملامحه ترتسم أمام ناظريها، تفاصيله، غموضه، وحصاره:

- في واحد عاوز يتجوزني..

عاتبتها السيدة بحزن صادق خالٍ من الدهشة كأنها خمنتْ:

- وأنا ماعرفش!..

اعتدلتْ تقترب منها، تسكن صدرها ببراءة طفلة تحتاج ضمة أمها:

- عشان أنا ماكنتش موافقة..

فطنتْ المرأة للتردد.. للحيرة.. لارتباك أنثى تختبره معها كما لم يحدث من قبل، أبعدتها قليلًا تنظر في عينيها:

- ودلوقتِ!..

بذكاء أمومي فطري همستْ لتجيبها الحالمة في ثوب القوية، والقوية التي لا تخضع أو تستجيب لحالمية لا تشبهها في شيء:

- مش عارفة..

أعادتها مربيتها بين أحضانها بتمتمة حانية:

- كلميني عنه..

احتارت في بداية!..

هل تخبرها عن اقتحامه لحفلها، عن فظاظة عرضه يومها ونظرته التي لم تستوعبها حتى اللحظة!.. أم تحكي لها عن اعتذراه، رقته، والاقتحام الذي تكرر وإن كان لدواخلها بعدها!..

ربما تهمس عن عينيه.. عن ابتسامته.. حتى عطره يبدو وكأنه يتبع ذات التعويذة التي تطوقها، تسقطها كلما كانا معًا..

أو تخجل من تصريح بتلك الدَقة الغادرة التي خانت عهد القلب!..

في النهاية لم تجِد إلا ملخصًا يناسب حيرتها لما حدث بينهما، ملخصًا جعل المربية بمثابة أم تتخلل خصلاتها برتابة دفعت بالنعاس لعقلها المُجهد:

- محيرك!.. أول مرة حد يحيرك..

أومأتْ بموافقة خافتة، أكملتْ السيدة بابتسامة يشوبها شيء من سعادة لصغيرتها:

- عاوزة أتعرف عليه..

فكرتْ هي للحظة قبل أن تجيبها بموافقة.. دقائق أخرى وتركتها تستسلم للنوم، لكنه هو من لم يتركها!..

تلك العادة التي انتهجها معها قبل أسبوعين؛ فإن لم يلتقيا يكون حاضرًا برسالته، والليلة كانت خطوة أخرى تزرعه بقلبها.. بمحيطها وفكرها الذي تحكم بزواياه..

"فتاة من ورق – صفحة 236– السطر الـ 11"..

لم تقاوم.. نهضت تسحب الرواية من فوق الطاولة التي تجاور الفراش، تفتح الصفحة وتقرأ ما أراد..

"يبدو أن ما يقع بينكما له قوة البركان"..

تشتتْ للحظة لملمها هو في التالية كأنما أجاد حساب الوقت اللازم لقرائتها.. فبعث بتعديل لكلمة واحدة بين قوسين..

(بيننا)..

كل يوم رسالة.. كل يوم رواية جديدة عندما أدرك أن هوايتها السرية هي قراءة الروايات بعيدًا عن زي الطبيبة العملية..

هواية نفتها عنها كتهمة مشينة لكنه لم يصدق وتشبث بها..

كل يوم صفحة وسطر وكلمات تخترق كيانها كله.. تهزها.. تزلزلها.. تبعثرها برياحه العاصفة.. تخبرها أنها ككل الإناث تستحق الحب، وعليها أن تجده وتغرق فيه بلا خوف!..

رنين أخير.. كلمات باسمة وحلم بات هو فيه المحتل الغاشم..

"تصبحي على خير"..

ثم بسمة شيعتْ بها الواقع لعالم الأحلام..

أنتِ تسقطين "وسن" وعلى مهل.. لا داعي للعجالة، القاع بعيد والعشق بئر قراره لين يتلقف القلب برفق..

استسلمي.. لا تقاومي..

كوني له!..

**

رفض!.. وهو استقبل الرفض بلامبالاة..

كان يتوقع..

فالحوت الرأسمالي لن يتنازل عن مكانته بمحيط عالم المال والأعمال أو يترك الفرصة له ليصيبها بهزة، الدافع واحد وواضح ودون التفاف، يحمل اسمًا من خمسة أحرف..

"درويش"..

لن يخسر رابط التجارة والنسب بمجازفة غير محسوبة من حفيده الطائش كما يراه دائمًا وأبدًا.. لامبالاته ضاقت لها عينا جده في محاولة لاستشفاف مغزاها، نعم يدرك أنه يريد السيطرة وهو منحه بعضها بمقدار مقنن يوافق هواه..

الصغير يظن أنه امتلك خيوط اللعبة، لا يدرك أنه ينتقل فوق الرقعة باختياره هو.. وبقدر ما يسمح له:

- كنت عارف أنك هترفض..

برر "يونس" ببديهية باردة:

- وأخيرًا بقينا على نفس الموجة..

ابتسم "يزن" باستخفاف ساخر:

- أكيد لأ.. بس دماغ يونس أبو الغار لها هدف واحد معروف من زمان..

واستقام يترك مقعده، يقترب منه، يميل ليواجه عينيه بحسم لا مكترث:

- أنا ممكن أتجوزها من غير موافقتك عادي، هاكلمها وأطلبها للجواز.. وعارف!..

صمت يدخر التتمة للحظات يشعل فيها غضب جده ونجح.. رأى نظرته تتصاعد منها ألسنة نار كانت خامدة قبل ثوان ثم أردف:

- هتوافق..

انحنى أكثر حتى لامست أنفاسه أذن جده وهمسه يتسلل إليه بخبث:

- أنا نسخة من حبيبها..

تراجع بهدوء لمقعده ثانية.. أشعل لفافة تبغ ونفثها ببطء متأمل بينما الجد يتابع الدخان بصمت..

صمت لا يوازي احتدام أفكاره وذلك الصراع الذي نشب بينها..

- بس أنا مش هعمل كده..

أعاده للمشهد حديث "يزن" الذي باغته وهو يمط شفتيه:

- أنا برده يهمني البيزنس وعلاقتنا بآل درويش..

تنهد "يونس" براحة بترها حفيده عندما قستْ عيناه وتشددت قبضته وأنامل الأخرى تهرس اللفافة قبل اكتمالها في مرمدة على طاولة تجاوره:

- ورغم كده لازم تعرف حاجة يا.. جدي..

شراسة النبرة رسمت فوق وجهه مفاجأة و"يزن" يردف بلا انتظار وبلهجة حمائية بدت غريبة لوهلة:

- أنا مكان يامن بالنسبة لشمس ويزيد..

استقام بغتة، تحرك نحوه بشبه ركض فانعدمت المسافة الفاصلة بينهما في خطوتين، مال يستند لذراعي المقعد حول جده بهدير قاس صارم:

- ما تفكرش تأذيهم طول ما أنا عايش..

كان تحذيرًا.. إنذارًا.. وعيدًا، بعينيه نظرة شيطانية يدرك مقصدها..

لقد حُرم أخيه وكان هو السبب؛ إذًا من تبقى منه له وحده!..

عاطفي هو كتوأمه، عاطفي ويترك لعواطفه السيطرة بحماقة.. تلك السارقة حفيدة السارق ستحترق في جحيم شيطان آخر..

شيطان عائد من جحيمه الخاص ليحول جنته لسعير، شيطان يعلم كيف يروضه ويمتلك خيوطه ويصنع منه نسخة تماثله..

نسخة تستحق أن ترثه..

تلك التي تمرد حفيده الهادئ لأجلها فاختلس قربها في غفلة منه، التي منحها ثمرته برحمها دون علمه، الذي مات ولم يخبره عنها..

ابنة ابن عدوه الذي سرق منه المرأة الوحيدة التي أحب ليسرقها منه الموت بعدها..

منعها أهلها وحرمهم وجودها كما حرموه حبيبته..

سيهديها للعائد..

من يدرك وعن يقين أنها ستذبل معه مادامت تربطها بهم رابطة، ستظل مهددة، فاقدة للأمان، خاضعة ومقهورة لأجل صغير سينتزعه منها بعد أن يجهز عليها..

هذه الخطة لن يقف في طريقها أحد..

حتى المتمرد الغاضب، من ألقى في وجهه بتهديده قبل دقائق..

تلك الـــ "الشمس".. ستغرُب..

ستنطفئ..

**

الحياة لا تكف عن مباغتتنا، لم ولا ولن تفعل..

الساعة جاوزت الثانية بعد منتصف الليل، كان نائمًا وزوجته إلى جوراه عقب ليلة طويلة احتدمت فيها حرائق نفسه وطموحاته وتهديداته لجده..

ارتفع نقر مزعج من هاتفه، ارتجاجه على الطاولة الخشبية بصوت أقلقه!..

استدار بتململ، يلتقطه ويتأمل الرقم بعين ناعسة، رقمًا فاجئه فاعتدل قليلًا يجيب بقلق:

- وجيه!..

الصوت أتاه مختنقًا، النبرة متحشرجة والأنفاس شبه مكتومة:

- يزن.. أنا...

وانقطع الاتصال!..

(8)

هناك لحظات تقلب الحياة رأسًا على عقب..

هناك لحظات تخلق فينا الوحوش ثم تطلقها تنهش البشر!..

**

الزمن لا يعود للوراء أبدًا..

ربما لو امتلكنا تلك القدرة لمحونا الكثير من الأخطاء، لفكرنا مائة مرة قبل كل قرار، لغدونا أناسًا آخرين نتمنى في الحاضر لو كنا عليهم ذاتَ أمس..

ربما لو أمكننا العودة لِما فات، لغيرناه قبل أن يبدأ.. وحينها قد ننجو!..

انقطع الاتصال بغتة، أعاده هو بينما ينتفض بالفراش وتستيقظ المجاورة له على صوته المتوتر:

- وجيه!..

ارتفع رنين الهاتف على الجانب المقابل لثوان أشبه بدهر وصله عقبها صوت مجهول بكلمات مشتتة:

- أيوة حضرتك، صاحب الموبايل عربيته خبطت في الرصيف وهو تقريبا مغمى عليه!..

تلا ذلك الخبر المزيد من الهرج، الاضطراب..

ركض يرتدي ثيابه، يسأل الشاب الذي أجابه عن العنوان، عن أقرب مشفى، يطلب منه بخوف أن يذهب به إليه.. أن الطريق لن يطول حتى يصل إليهم..

وبالفعل خلال ساعة كان يقف شاكرًا للشابين اللذين تدخلا لإنقاذ صديقه بعدما فقد وعيه أثناء قيادته لسيارته، إثر نوبة قلبية مباغتة لا يعلم لها سببًا في سنه ذاك.. بل حتى لا تليق بطريقته المنمقة في اهتمامه بطعامه وصحته حد توقفه عن التدخين قبل ثلاثة أعوام..

عندما أفاق وسمح له الطبيب بالتواجد معه، ابتسم له بشقاوة رُغم تجهم ملامح الراقد بفراش المرض:

- يعني يا سيدي المفروض تكون عارف إنك صاحبي الوحيد، مش محتاج أزمة قلبية ترعبني بيها في نص الليل..

لم يأتِه رد فاقترب يجاوره بمقعد صغير ونبرته تتحول للجدية المهتمة:

- وجيه!.. إيه اللي حصل!..

ذات الصمت.. النظرة الغائبة في بُعدٍ موازٍ، بُعد يبدو وكأنه جحيم خاص وُلد للتو.. بل وُلد قبل ست ساعات!..

"سامحني يا وجيه، أنا عمري ما حبيت حد غيرك.. كانت لحظة ضعف؛ غصب عني"..

تتوسله بينما هو جامد كتمثال قُد من صخر، جالس على مقعد بغرفة النوم وهي تجثو أمامه على الأرض، تتشبث بركبته، تنهمر دموعها كسيل لا تمنعه سدود، تنشج، تختنق وتستجدي غفرانه..

غفران!..

أي غفران يمكن أن يُمنح لخائنة!..

خائنة هي امرأته، زوجته!..

حبيبته!..

خائنة أتته باعتراف واهن وعبرات تحرقه هو فوق وجنتيها، عجز عن الحركة.. عن رد الفعل، عن الحديث..

كل ما يمكن أن يحدث في هذه اللحظة لم يحدث..

لم يقتلها.. لم يصرخ في وجهها.. لم يجذب خصلاتها ليمزقها أو يضرب رأسها بالأرض فيشجها..

فقط جمد بمكانه بعجز.. بقهر!..

وسؤال واحد من أحرف شبه مسموعة يهتك حنجرته:

- ليه!..

رفعت بصرها إليه بتضرع، تنشد تمريره للأمر، ألا يسأل.. ألا يفتش فالتفاصيل وجع والخوض فيها ذبح:

- وجيه!..

- ليـــــــــه!..

زعق.. أول ملمح للحياة في جسده وروحه، انتفضتْ تتراجع فلم يكترث، تحشرج صوتها عندما جاوبته بلوم استنكر جرأتها على استحضاره:

- أنتَ السبب..

قسوة عينيه بهذا الوقت لم ترها من قبل على مدى عمر، عشر سنوات هي فترة زواجهما، وقبلها عام كانا فيه غارقين بدنيا العشق..

كل ذاك لم يشفع.. لا له ولا لها!..

ارتجفتْ ورجفتها تخللتْ كلماتها:

- أنت أهملتني، البيت بالنسبة لك كان هو الفندق، وسلسلة الفنادق الكبيرة والعالمية هي المهمة.. هي البيت اللي ما بتغيبش عنه.. غيابك عني خلاني ضعيفة..

ثم عادتْ تقترب، تتعلق به مجددًا:

- كان غصب عني، أنت عارف إني بحبك يا وجيه؛ مش كده!..

تسأل بلهفة ويجيب هو بجمود غريب.. مخيف:

- انشغلت عنِك تنكدي عليَّ زي ما كل الستات بتعمل، تتخانقي، تخاصميني، ترجعي بيت أهلك وتهدديني..

اعتدل فجأة يجذب رأسها، أصابعه تكاد تخلع شعرها من منابته:

- مش تخونيني!..

وصل حد الصراخ..

الآن قلبه ينبض بعنف.. روحه تحتضر..

والحب يذوي مهزومًا في ركنٍ قصي ولا عزاء لأهل الغرام..

دفعها أرضًا وجثى فوقها، يده تحاوط عنقها فتكاد تقتلها، صوته كهسيس من باطن قبر عفِن:

- خُنتيني مع مين!..

اختنقت بالفعل، تشبثت بكفه تحاول إبعادها، تناشده بعينيها اللتين يعشق.. اللتين فيهما كان يغرق:

- وجيه!..

- مين!.. انطقي..

ومال قرب أذنها باحتراق:

- حياتك قصاد اسمه..

الخوف تمكن منها.. تمكن من المشهد والصورة التي تخبرها بيقين أن ذاك الرجل الذي يجثم أعلاها ككابوس مميت لن يحررها إلا بثمن..

ثمنٍ غالٍ سيهدم حياة أخرى..

لكنها ربما تنجو!..

وبمواجهة الموت كلنا جبناء، تمتمت في نزع أخير:

- راجح..

تصلب بمكانه كأنما الاسم اخترقه فقتله مرة بعد مرة..

ابتعد عنها كالملسوع يرمقها بلوثة، جلست تسعل، تسحب الهواء بجنون وترمقه بهلع، تتقهقر بعيدًا عن مرمى يديه وتخشى القادم..

قادمًا لم يتأخر وهو يرمقها من مكانه بذهول:

- جوز أختك!..

انفرج جفناه باتساع كمن ضربه البرق، يعيد على نفسه نبأ الصدمة:

- جوز أختك!.. للدرجة أنتِ حقيرة!.. أنتِ وهو!..

نفت وخوفها يكاد يقتلها دونه:

- لأ يا وجيه.. لأ، صدقني والله مرة واحدة وكانت لحظة ضعف..

عادتْ تدنو منه بزحف، تسقط تحت قدميه، تسترحمه..

تسترحم شيطانًا تراقص فوق ملامحه:

- ما اتكررتش صدقني، أنا بحبك.. بحبك يا وجيه..

ركلها ينفضها عنه، يتقزز حرفيًا من لمستها وإن كانت لحذائه..

يذبح روحه بسكين غدرها الثالم مرارًا وتكرارًا وبصره يحاصر فراشه الواسع بهوس:

- على سريري!..

- وجيه!..

لا تملك سوى النداء، أما هو فيملك كل شيء.. يملك الحدث والوقت والنهاية!..

- على سريري!..

علتْ صرخته فاستقامتْ تمنعه؛ أطفالها بغرفة ليست بعيدة:

- الولاد يا وجيه من فضلك!..

سخر لا يمكنه أن يعي صفاقتها وتبجحها.. خانته وتفكر في أطفاله!..

هذا عن بَعد، فماذا عما كان من قبل!..

اقتنص عنقها من وقفتها يكرر محاولة خنقها ولا يقدر، الكثير يغل يديه.. الكثير وأوله تلك الصورة التي تجمعه بطفليه قرب الفراش، ضرب رأسها بالجدار مرتين فأصابها دوار خفيف، يصر على سؤاله وسينال الجواب:

- على سريري!..

نفت بحدقتيها، هما كل ما يمكنها تحريكه، وتحقيقه لا ينتهي:

- فين!..

جاهدت لتزيح أصابعه فمنحها شيئًا من حريتها، تلتقط أنفاسها بعسر، يغص صدرها بالأكسجين المحدود وردها يتقطع:

- عنده في البيت.. لما كانت هالة مسافرة مؤتمر اسكندرية..

وجم لثوان ثم تراجع بقهقهة!..

قهقهة أعلمتها أنه على وشك فقدان عقله، ثباته، وكل ما يمنعه عنها..

أنه على وشك أن ينهشها:

- على سرير أختك!..

بصق تحت قدميها وتأملها بخذلان خلف سحابة غامضة قبل أن يجر خطواته جرًا ويغادر المنزل بأكمله..

ساعات ظل يدور بالسيارة.. اثنان، ثلاث، أربع..

عقله ذاته تحول لهباء منثور، أفكاره كانت تطير بخبال فاقد للسيطرة بين جنباته، قلبه نبضاته أوشك أن يسمعها بأذنيه..

الصورة قبالة ناظريه مشوشة، ضبابية، غائمة، يشوبها حمرة الدماء..

كيف لم يقتلها!.. أوليس عقابها القتل!..

كيف لم يفعلها!.. ماذا عن أطفاله!..

يعدمونه، ويكبرون على كرهه.. فهو قاتل أمهم دون جريرة معلومة!..

أوقف السيارة وضرب المقود بكلتا قبضتيه حتى كاد يخلعه من موضعه، مسح وجهه في محاولة للتفكير بعقلانية..

بل في جهاد للوصول إلى شاطئ آمن، إلى ميناء يرسو عليه..

طافت عيناه في الأرجاء، وكانت المفاجأة.. أو ربما هو تخطيط من قدره الذي هو أرحم به من نفسه..

لقد كان قرب بيت أختها وزوجها الخائن!..

لم يفكر مرتين، قاد المسافة المتبقية، توقف عند بوابته وفي غضون دقائق دهشة من الحارس وساكني البيت كان يقف بقلب المنزل بسلاحه يصوبه لرأس غريمه.. فوضى.. المشهد تعمه فوضى..

هو يريد الدماء، يشتهي أن ينهي ذلك العبث.. ذلك الوجع؛ بلونها الأحمر القاني..

زوجته من خلفه ترتجف، تتراجع خطوة وتصرخ بحشرجة..

الجبان يحاول تحديه وفوهة السلاح الناري تكاد تخترق جمجمته، بينما همسه يخرج من بين شفتيه بفحيح حار هائج كهياج بركان لا يجوز الوقوف بوجه حممه التي ستُحرق.. تُغرق الجميع بلا استثناءات:

-هقتلك يا راجح..

تتقدم شقيقة الخائنة بدفاع صارخ يفجر لغم جنونه:

- أنت اتجننت يا وجيه!..

والغادر يخرسها في محاولة لإخماد فضيحة:

- اسكتي يا هالة..

سحب المشط، استعدت الرصاصة للقتل، وتوقف!..

أوقفه قسرًا بكاء الأبناء الذين ظهروا بغتة أعلى الدرج الداخلي..

ست سنوات، ثلاث سنوات.. ومربية تحمل الرضيعة التي لم تكمل الخمسة أشهر بعد!..

ارتجفت يده والزوجة تستدير لتخبر خادمتها بحدة آمرة:

- رجعيهم أوضتهم..

عقبها تعود إليه، تناشده بحزم مرتعد:

- وجيه، من فضلك نزل المسدس ده..

تضاعفت الرجفة، كان يود لو أفرغ الخزينة كاملة بجسده الدَنِس، لو أسال دمائه ليطهر بها خطيئته؛ لكن الصغار الذين رفضوا الرحيل، دموعهم، شهقاتهم، الخوف في أعينهم والذعر منعوه..

أخفض سلاحه وأمرها:

- دخلي ولادك أوضتهم وتعالي نتكلم..

صعدت بتردد متلكئ، تلتفت للخلف بعد كل درجة كأنما تراقب الاثنين بالأسفل، تتأهب لصوت طلقة تنهي حياة من تحب ودون سبب تعلمه..

- هتعمل إيه يا وجيه!..

همس بها الخائن، يمتلك من الجرأة والصلف ما يُمكِّنه من سؤال كذاك، ابتسم الصامت بوحشية هي سمة اليوم والغد:

- هافضحك..

عاجله "راجح" بحسم يهدده:

- هتفضح مراتك!..

برقتْ مقلتا "وجيه" بنظرة مارد من الجحيم:

- هافضحها..

- وولادك!..

- أمهم ماتت..

- هتحرمهم منها وهي عايشة!..

- أمهم ماتت..

كررها.. أعادها..

صدقها.. ولولاهم لحققها!..

عادت الزوجة المخدوعة، عادت وفرد كل أوراقه على الطاولة بجملة واحدة:

- جوزك خانك مع مراتي في سريرك..

بعدها رحل..

فجر قنبلته ورحل، لم يكترث لتوابع الانفجار، لشظاياه، لم يأبه لصرخات وصلته..

هو لم يشفِ ذرة من غليله، ربما سيفعل في يوم ما وإن جهل كيف!..

بسيارته أخد اتجاه منزله ليخرجها منه مكللة بعارها ملطخة بنجاستها.. بسقطتها، لكنه لم يصله!..

أعراض قاسية داهمته، كتفه تشنج، جسده تعرق، أنفاسه تلاحقت، وألم مُمض اكتنف جانبه الأيسر فأفلت المقود لتصطدم السيارة بإفريز جانبي وتتوقف، تناول هاتفه واستغاث بالأقرب إليه لكن الاستغاثة لم تكتمل.. فقد وعيه!..

عندما استفاق وجد الصديق يعتني، يهتم، ويخفف من عناء الموقف.. عناءً لن يمحوه شيء أو يزيل أثره زمن:

- ليلى خانتني يا يزن..

رُفعت الجلسة..

القاضي حكمه جائر، المتهم مذنب حتى النخاع..

أما الجلاد فقد هرب بعجز..

القضية خاسرة والمجني عليه مهزوم!..

**

حدث اللقاء..

لمَ أخبركم هكذا!.. لأنه حدث هكذا..

الحدث لا يحتمل مقدمة أو سرد طويل فلسفي عن لقاءات الشياطين في عوالمها الجهنمية..

تكفي فقط اللحظة.. النظرة.. الحدث..

وتصلُب الجسدين في مواجهة صامتة..

صمتٌ انقطع بضحكة مجلجلة ساخرة يشوبها شيء من مرارة لا يستشعرها إلا الواقف أمامه على بُعد ثلاث خطوات..

كانتْ عودة متأخرة للمنزل بعد انتهاء دوام شركة الاستيراد والتصدير متبوعًا بزيارة لصديقه الذي لم يُصرح الأطباء بخروجه من المشفى بعد وهو يوشك على الجنون لكنه يجاهد معه في حربه الصامتة حتى حين.. فدوي المدافع وحريق الجنود مؤجل لتمام شفائه!..

مُجهد.. متعب.. ولاهٍ عن بطل جديد يصعد لخشبة المسرح في تلك الحبكة الرخيصة التي ظن أنه بطلها الأوحد..

استقبله جده بدعوة لمكتبه، يخبره عن أحدهم والذي يجب أن يقابله.. من ركن نصف معتم نهض الآخر بأداء درامي يستحق أوسكار دور الشرير، دخل بظُلمة عينيه حيز النور فأطفأه بحضوره..

ومن هذا!..

أخيك!..

تعجُب.. دهشة.. حيرة.. بلبلة.. ثم ضحكة..

حسنًا.. أبيه كما هو لم يتغير..

ويغضب جده عندما يتصرف هو برعونة!..

تزوج وأنجب، ماتت زوجته فهرب بعبثه ليتزوج وينجب من جديد، يكتبه على اسمه ويرمي في وجهها بورقة طلاق..

بعدها يهرب مرة تلو مرة!..

يختفي.. يتلاشى، وربما يموت..

وتحدث المواجهة بين الأسد الصغير، والثعلب..

تتقابل النظرات، يقرأ كل منهما غريمه ويبدأ الأكبر بالهجوم:

- وأنت بقى جاي ليه!..

هجومًا كان متوقعًا لذا الرد عليه خرج ببساطة وهدوء يقارب البرود والدهشة المصطنعة:

- إيه السؤال الغريب ده يا يزن!..

تحرك نحوه خطوة واحدة ثابتة ونظرته لا تتغير:

- جاي أدور على جدوري، أصلي..

تجاهله أخيه بلا اقتناع والتفتَ لجده مشيرًا خلفه:

- هذا الشبل من ذاك الأسد..

قست لهجته وتلبسها الحقد، يقصد والده:

- بيرمي لحمه..

وعاد بعينيه للصامت بنظرة مستخفة:

- ده لو كان لحمه فعلا!..

أشار "يعقوب" بيده واستخفافه لا ينحسر:

- أنا مستعد لأي إثبات أنت عاوزه، DNA مثلا!..

ابتسم "يزن" بسخرية رافضة لامستها نفحة من مرارة:

- مش لازم على فكرة، جدي مصدقك.. وأنت..

صمت ثانيتين أكمل إثرهما والسواد يغلف نبرته:

- أنت شبهه..

فاز من عينيه بهزة؛ نعم كان يشبه أبيه وذاك شيء يبغضه..

تأمله لثوان، قرأه.. تسلل داخله وأدرك ما يخفيه، هو مثله.. منبوذ..

لكنه مُنعم؛ لديه الجد والزوجة والاسم والعائلة..

يرى فيه الرفض ولا يبالي..

يرى بعينيه رجلا يُعري صدره استعدادًا لخوض مائة حرب..

وهو لم يأتِ ليحارب..

لقد أتى لينتصر!..

لذا بادر بالهدنة وعرض معاهدة السلام:

- أنا مش جاي أدخل في حرب..

ولم يأبه سوى بتتمة مستهلكة تشبه رواية عاطفية قديمة تقليدية حد الملل:

- أنا جاي أدور على عيلة أنتمي ليها..

ثم أضاف بقسوة تسللت لصوته بلا وعي:

- عيلة أبوك حرمني منها..

- قصدك أبونا..

بتر مشهده العاطفي بحسم محتج، وانتهج السخرية يداري بها وجعًا طفيفًا يخنق روحه:

- المفروض كده إني أصدق عواطفك الفياضة دي!..

اقترب خطوة تشبه خطوة أخيه الأصغر المحمل بتراب سنون الغربة والنبذ.. والهجر

اقترب يداهم، يكابر.. يرفض:

- أصدق إنك بتدور على حب وحنان!..

ولمعت عيناه ببريق مستهجن يفطن لما يخفى بالنفس حين الألم:

- مش بتدور على عقاب!..

- عقاب مين بالتحديد؟!..

سؤال متهكم ربما، يداري الكثير عن عين مجردة..

لكنه لا يدرك أن عيني الأخ الأكبر قد ألفتا القتامة واعتادتا الدُجنة حتى استأنستا بها.. خلف ذلك الهدوء إعصار كامن، أسفل ذلك الرماد الخامد بركان ثائر..

الغريب في الأمر كونه لا يكترث، مرر له نظرة باردة تخبره بوضوح أنه لا يصدق والعائد رآها، فهمها وابتسم يعبر بنبرته فوق حد سيف ساخر:

- أنتوا ما كنتوش تعرفوا إني موجود على وش الأرض من الأساس!..

الكلمة سوداء، التعبير حالك والمشاعر تحت السيطرة تمامًا إلا من نظرة تفلتت بمقت.. وبهذه اللحظة تلاقى وجع ووجع..

فقد وفقد..

ثأر.. وثأر!..

لتأتي النهاية من الجد المراقب بصمت كأنما هو في حلبة رومانية قديمة، ينتظر من يجهز فيهما على عدوه، يترقب لحظة الهزيمة المستحقة فيشير بإبهامه مقررًا الختام:

- أوضتك جاهزة دلوقتِ يا يعقوب، هتاخد أوضة...

ورمق "يزن" بنظرة غامضة.. قاسية:

- أوضة يامن الله يرحمه..

لاحظ تشدد قبضتيه.. غضبه المكبوت، تبعهما اندفاعه خارجًا كنيران تود افتراس الأخضر واليابس، فقط أخبر الأخ غير الشقيق بانفعال هادر يحجزه سد سيطرته بعنف موجع:

- عمرك ما هتاخد مكانه..

اندفع كعاصفة لا يرى أمامه.. ترك المنزل ووصلهما صوت صرير سيارته تكاد تطير خارجه كأنما يدهس تحت إطاراتها غضبه.. قلبه وألمه.. دنا "يونس" من حفيده الصامت بشرود، ربت على كتفه وبرر:

- مع الوقت هيهدى..

استدار "يعقوب" لجده بنظرة وحشية قبضت فؤاده للحظة:

- ليه أوضة يامن!..

تراجع الجد مبتعدًا وأشار ببساطة متغاضيًا عما رأى:

- في أوضة تانية بس مش جاهزة، هاجهزها ولو حابب...

- مش هتفرق..

كان يعلم..

يعلم بزواج أخيه دون إرادة كبير العائلة وسلطانها، بل بغير علمه..

ولذا يستحق عقابًا حتى بعد موته!..

لا يدرك.. كلهم لا يدركون..

هو لم يعُد ليحتل مكانًا ليس مكانه..

لم يعُد لينتزع العرش..

هو عاد ليهدم المملكة!..

**

العشق قانونه الأوحد؛ ألَّا قوانين تحكمه أو قواعد تُسيره..

فقط يُخضع القلوب، يُصفدها بأغلال الهوى، يُسقطها بلا حسابات عسيرة، يتملك منها بطرفة عين.. وسهام طفل الحب المدلل الطائشة تجيد اقتناص الهدف..

أو ربما هو..

الذئب الذي حفر وجوده بعالمها، بعقلها، بالعمل والسيارة وحتى الأحلام.. هو من أطلق السهم وجثم قريبًا يراقب الأثر..

كانت غاضبة، حانقة.. انفعالاتها انفلتتْ منها عدة مرات بالمشفى مع عثرات جديدة.. وازت غيابه!..

ثلاثة أيام، لم يظهر، لم يحدثها، توقفت رسائله الليلية.. اختفى تمامًا من رادارها.. من رادار مشاعر تسربتْ إلى خافقها بلا وعي!..

من حضور تسلل معه لدنياها فباتت دونه باهتة، غريبة.. فارغة..

ووجدت في لحظة وِحدة اعترافًا قاسيًا منها؛ هي تشتاقه!..

كررتْ لعن نفسها، خافتْ.. تراجعتْ، رفضتْ وأنكرتْ واحتجتْ وعارضتْ.. ثم في النهاية خضعتْ..

الذئب انتصر!..

كانت بالفراش، بيدها رواية تقرأها بنصف عقل ونصف تركيز، فوق الصفحات تتراءى لها عيناه، انحناءة فمه بهاته البسمة الصغيرة.. يطن بأذنها صدى ضحكة مرحة لذكرى تلك الليلة، عرض الزواج الآمر..

ونبضة القلب التي تستجديها موافقة!..

خطت بيدها كلمة في صفحة لم تلمح رقمها من خلف غيوم شرودها، أجفلها رنين الهاتف الذي لم ترسله للوضع الصامت بعد، رقم غريب.. من خارج مصر!..

ترددتْ قليلًا ثم فتحتْ الخط بصلابتها المعهودة ليأتيها صوته الهادئ بلمسة من إرهاق جلية:

- لو قلت آسف؛ تسامحيني!..

هنا الأنثى تنهض من أسفل ركام الجدية.. تُعلن الاستياء، وتُظهر الإنكار بنبرة باردة:

- آسف على إيه!..

شعرتْ بابتسامته عند جانب شفتيه، التواء محدود للغاية، به عبث.. به مرح.. به حياة تشدها إليه:

- يعني مش زعلانة مني!..

- وهازعل منك ليه!..

بحدة سريعة توسعت لها انفراجة ثغره، كادتْ تقسم على ذلك بينما تسب نفسها وتأمرها بالثبات:

- مادام مش زعلانة مني؛ يبقى أقولك المهم..

افتعلتْ اللامبالاة.. أصابعها تعبث في صفحات الرواية بيدها:

- إيه المهم!..

سكن للحظات قصار مرت عليها كعمر، أنفاسه كعادة سكونه تهدأ تمامًا، أنفاسها هي تصله بثورة على وشك الاشتعال، أخمدها بكلمة:

- وحشتيني..

- عمار من فضلك..

احتدتْ عليه فاسترخى في مقعده ممددًا ساقيه براحة:

- برده وحشتيني..

- هاقفل السكة..

تهدده بطفولية أوشكتْ على سرقة قهقهة منه، تمالك نفسه وتخطى الأمر برمته:

- طيب أنا آسف..

- مش محتاج تتأسف..

كل جملة منه تردها بحسم.. ببتر، وكل انفعال منها يُفصح عن غضبها، يفضح شوقها..

انتصاره!..

- غصب عني اضطريت أسافر بوسطن، بقى لي تلات أيام منهم يوم طيران بسبب مشكلة مع الشركة اللي بتوردلنا هنا..

تثاءب بتعب بان سافرًا على صوته:

- تقريبا ما نمتش خلال الكام يوم دول أربع ساعات على بعض..

قلب عليها الطاولة وقد بدأ الذنب يحاوطها بالفعل.. والاهتمام بإرهاقه يضعفها:

- وكل الغياب ده وأنتِ ماحاولتيش حتى تطمني عليَّ..

ثم شاكسها بمداعبة ماكرة:

- مش هانساهالِك..

كادت تعاند..

كادت وحسب، لأنها في اللحظة التالية خفتتْ نبرتها وشابها شيء من حنو دافئ:

- أنت كويس!..

ناوش قلبها بلمسة صريحة:

- مادام سمعت صوتك بقيت كويس..

انتقل سبابها الداخلي إليه، لا تحب ألاعيبه.. تخيفها، تكرهها، توهن عزيمتها وتثبط قواها.. ومع ذلك الوهن تستجيب، تقترب ومعدل الحذر يقل في الفكر والعقل، تفقد واجهتها الصلبة.. تلين، تريده:

- عمار!..

همست باسمه تعاتبه وهمس باسمها جوار لفظ الافتقاد ثالثًا:

- وحشتيني يا وسن..

أغمضتْ عينيها باستسلام منهك، أنهته بهروب لا يشبه صورتها الجادة العملية في شيء:

- ماما زُهرة عاوزة تتعرف عليك!..

مربيتها..

نعم يعلم عنها، عن رعايتها لها بعد موت والدتها في طفولتها، لكنه تظاهر بالدهشة:

- ماما زُهرة!..

أومأتْ برأسها كأنها يراها وأناملها تتخلل خصلاتها بتيه:

- الدادة بتاعتي، هي اللي ربيتني.. كبرت ما أعرفش أم غيرها..

وهزت كتفيها بنبرة رقيقة:

- تقدر تقول أمي الروحية..

سألها بلهجة متلاعبة، خبيثة مباشرة:

- يعني أطلب إيدك منها رسمي!..

شهقتْ بخفوت وسارعت تكبت شهقتها، لا تدري بما تجيب فتشتتْ كلماتها بخجل حائر:

- لأ.. أيوة..

عنفتْ لسانها المنعقد برد صارم:

- أنت بتقول إيه!..

مسح وجهه وعيناه تراقبان السماء التي صبغتها حمرة الشفق بلونها الآسر:

- تصبحي على خير يا وسن..

يحسب فارق التوقيت.. هي بفراشها، بيدها روايتها، تقرأ بضع صفحات قبل الغوص في نعاس مُجهد.. فتح الرواية أمامه واختار الكلمات، كتب رقم الصفحة بعجالة وبعثها..

بعثها وهو يعلم أنها سترد هذه المرة.. راهن على دراسته لها، على فهمه للبشر..

أضاء هاتفها في يدها برسالته فقرأتها بلهفة:

"رسائل إلى ميلينا.. صفحة 39.. السطر التامن للحادي عشر"..

الكتاب كان في مكتبتها بالطابق السفلي، تركت فراشها.. ارتدت خفها وتدثرت بمئزر، تسللت بخفوت لا تريد إيقاظ والدتها الروحية..

على ضوء خافت تناولت الكتاب المنشود، تسارعت أناملها وصولًا للصفحة المقصودة وقرأت بصمت:

"ترفضين أن ترسلي لي قصاصاتك، كما لو أنكِ لا تثقين بي؛ سأضعهم في المكان المناسب لهم كما نظرتي لك!.. إذن سأغضب منك بسبب ذلك، علمًا أن ذلك لن يكون بالشيء الهائل، فبعض

الغضب تجاهك سينزوي بزوايا قلبي، ليحدث بعض التوازن في قلبي"..

استقامت عائدة لغرفتها، اندست بالفراش تفكر به؛ للمرة الثانية يريد منها مبادلته الرسائل!..

وهي لا تعلم ماذا تقول.. أمام حضوره تتعثر، تتلعثم كفتاة صغيرة، ترتبك.. وتخاف..

أزاحت روايتها وانزلقت في وضع نوم قبل أن تقع عيناها على الصفحة التي توقفت عندها..

آخر سطر.. آخر كلمة..

والاعتراف بات سيد اللحظة..

أمسكت بهاتفها بعد تردد، تبعث إليه برسالتها الأولى دون جبن..

"عدَّاء الطائرة الورقية.. صفحة 179.. آخر كلمة"..

والكلمة لم يجهد نفسه في تخمينها فهو كان يثق بكل خطوة يخطوها نحوها، يحسبها بقياسات تفوق حسابات البشر..

يثق بكل هجوم.. بكل حصار وتطويق يُسقط فريسته أسيرة مخالبه..

الكلمة كانت..

"سأفتقده"..

وتعديلها إثرها أتاه بحياء..

"أفتقدك"..

غابت في سبات بات طوع يمينه.. كما الخفقات التي تعاندها لأجله، والشرود الذي امتلك ناصيته بروحها وأفكارها..

أنتِ عاشقة "وسن"!..

**

ولها في الجنون حياة.. طاقة.. ورقص!..

عند عودته من عمله متأخرًا، دلف لجناحهما الخاص بفيلا جده ليجدها بغرفة المعيشة مع هاتفها عالي الصوت.. ترقص!..

لا..

بل تتقافز في حركات ليست عشوائية بالمرة على لحن سريع الإيقاع لإحدى أغنيات ذلك المطرب الذي تدمن صوته "محمد حماقي"..

تصعد للأريكة، تتحرك فوقها بمرونة وتدير عنقها يمنة ويسرة بجموح خصلاتها الطويلة والكثيفة فتغرق بينها ملامحها..

تثُب عائدة للأرض برعونة وتهتز برشاقة.. تدور.. تُحرك كتفيها وخصرها مع النغمات بتناسق متقن..

استند بظهره للجدار جوار الباب عاقدًا ذراعيه، يراقبها ببسمة عابثة مستمتعة وضيقه الذي سيطر على أفكاره وروحه خلال الأيام الماضية يتسرب بعيدًا ببطء..

ينسى ذلك الغريب الذي عاد يقتحم صورة محطمة فيزيدها تحطيمًا..

الغريب الذي يبيت في غرفة توأمه وبدأ عمله معه بالأمس!..

العلاقة بينهما باردة، بركانية.. لو جازت تلك التسمية، أو صح ذاك المنطق الفوضوي.. هو حتى لا يدري كيف يجتمع النقيضان!..

ينسى ما حدث لصديقه ولو لدقائق معها..

جنونها حياة.. ولا ينكر أنه يحتاج ذلك النبض الذي تهديه لخمود روحه.. لمحته من وسط خطواتها فابتسمت بخفة مرحة وركضت إليه، تجذب كفه وتشده نحوها دون أن تتوقف، تخبره بشقاوة:

- ارقص معايا..

تصلب في وقفته وهز رأسه بنفي حازم لم تكترث له بينما تسحبه بقوة أكبر:

- يزززن..

تقفز وتفكك ذراعيه، تضعهما على خصرها وتتحرك لتجبره على متابعة خطواتها:

- خرج الـnegative energy ..

تدور بوجهها فتضربه خصلاتها، أبعد وجهه بضحكة خافتة:

- هاكتفي بوضع المتفرج..

تراجعت تناظره بغنج، تميل وتنفي بسبابتها، تغني مع الكلمات.. تخضعه لرغبتها بدلال..

"قدام الناس..

أنا وأنت بقينا لبعض الليلة خلاص..

أصل أنت ياقلبي في قلبي غير الناس..

ويا واخد روحي وعيني الليلة أنا جيت..

وباقول حبيت"..

تمط الكلمة بصوت ناعم تتابع الأغنية، ترفع كفها فوق رأسها.. تدور كأنما يمسك بها ويديرها..

أخيرًا استجاب بحركة مستسلمة من رأسه.. خطا إليها مُسيرًا يتحكم بيدها، يديرها كما تريد.. يدفعها، يبعدها، يقربها، يحيط خصرها بيده والأخرى تحتوي أصابعها، يخطو وإياها على الإيقاع الراقص.. يميل ويدور بها ومعها ولها..

قبيل النهاية كانت قربه، بأحضانه تلهث ببسمة وعيناها تغرقان بدُجنة عينيه.. بذلك البريق التي يتأملها به كأنما يراها للمرة الأولى..

بقلبها تهمس له دون تصريح..

"بحبَك"..

ويرد هو بغمزة ماكرة متلذذة:

- أنتِ مجنونة..

تحرر جسدها من حصاره، تتراجع بظهرها، تنفي بسبابتها مجددًا وتواصل الرقص.. لكنه لم يمنحها الفرصة هذه المرة، أعادها بين ذراعيه والتحم بشفتيها يهدي صدرها اللاهث أنفاسه هو..

**

هي امرأة اعتادت الارتجال.. في الحب والحياة..

والنجاة!..

لم تخطط لقرار من قبل، بل تترك مصيرها لتيار القدر.. عندما سقطتْ في غرام حبيب رحل، عندما تعلقتْ بطفلها منه، عندما ألقتْ نفسها في غياهب التهلكة بلا حول ولا قوة، وقت خضوعها لقوانين استنها على رأسها "يونس أبو الغار"..

قوانين ألقى بوجهها آخرها قبل ثوان في أمر لا يقبل مراجعة ولا يحتمل الرفض.. يخبرها أنها ستتزوج!..

تجمدت لدقيقة كاملة تحملق في وجهه بلا فهم، لم تستطع النطق بكلمات واضحة إلا حماقة غادرت ما بين شفتيها ظنًا منها بأنها قشة الغريق خاصتها:

- أتجوز!..

أومأ لها الجد ببساطة ونظرته تحاصرها حد الاختناق، بدا كأنه يريدها أن تشعر بها كأنشوطة إعدام بالفعل فأكملت اندفاعها:

- بس يزن متجوز..

رفع "يونس" حاجبًا واحدًا مستهينًا بأفكارها المتوقعة.. هل ظنت أنه سيهديها لرجل يشبه حبيبها!..

سيمنحها نسخته الثانية لتحيا بهناء وسعادة!..

ابتسم وبسمته كانت أقرب لأسد جائع يكشر عن أنيابه قبل التهام فريسته التي أسقطها القدر بين مخالبه:

- مين اتكلم عن يزن!..

قطبتْ بحيرة للحظات.. ثم استنارتْ بصورة ذلك الغامض العائد من المجهول ليصبح أحد أفراد هذه العائلة المخيفة..

الغامض الذي لم تره سوى ثلاث مرات؛ أولاهما كانت حين الترحيب بوجوده بالمنزل محتلًا غرفة حبيبها والتي رفض الجد وجودها بها من قبل.. ترحيب كان منها خجلًا وإن لامسته دهشة..

ومنه متجاهلًا بنصف بسمة أربكتها!..

بعدها مرتين تاليتين من باب المصادفة، لقاء على الدرج، مر بها كأنما لم يلمحها.. وفي الحديقة ليعاملها كطيف غير محسوس.. هذا من يريد تزويجها منه!.. ولماذا!..

هزتْ رأسها تنفض أفكارها وتيهها بحزم:

- أنا مش هتجوز بعد يامن الله يرحمه..

مط "يونس" شفتيه بسلاسة أقلقتها:

- عاوزة تقعدي في البيت ده؛ هتتجوزي يعقوب..

تهديد بديهي..

أوجف قلبها لكنها لن تستسلم له، شمختْ بنظراتها وقررتْ:

- يبقى مش هاقعد في البيت ده..

- زي ما تحبي..

بلامبالاة أثارتْ ارتيابها، تنهدتْ بتوتر واستدارتْ تبتعد مقررة دون تردد:

- من بكرة هاخد ابني وأسيب البيت..

- لأ..

بتر استدارتها ورحيلها ونبضات قلبها التي شعرتْ بها تتوقف بغتة، عادتْ إليه بحدقتين مرتجفتين:

- يعني إيه لأ!..

استقام يشرف عليها بقامته الطويلة التي لم تنحنِ لسلطة الزمن:

- يعني هتخرجي من البيت ده لوحدك.. حفيدي هيتربى في بيت جده، أنتِ مالكيش مكان..

لمح العبرة التي التمعت فوق مقلتيها، لمح الهزة والرجفة والخوف وانتشى، تلذذ برعشة صوتها حينما صاحبتْ كلماتها المختنقة:

- أنا سيبت بيت أهلي ورفضت الجواز عشان أكون مع ابني..

لم يهتم للحظة بينما يعلق:

- ودلوقتِ هتتجوزي عشان تكوني مع ابنك..

تراجعتْ خطوة مصدومة تنفي بهزة رأس:

- مش هاتجوز..

- خلاص.. شوفي لك مكان تاني تعيشي فيه، أو ارجعي لأهلك..

تذكرت وعيد جدها.. إن خرجت فتلك المرة الأخيرة التي لا تليها عودة، بل والوحيدة لذات السبب..

تحشرج صوتها وهمستْ بضعف:

- ليه بتعمل كده!..

تظاهر بعدم الفهم:

- بعمل إيه يا شمس!.. ده جواز على سنة الله ورسوله، هتعيشي في بيت جوزك معززة مكرمة مع ابنك.. وماحدش يحرمك منه..

- أنت ما تقدرش تحرمني منه..

صرختْ بها فتحداها بنظرة قاسية:

- تحبي تخوضي التجربة؟!..

انتفضتْ والفكرة تقتحم خيالها لتفجر كل مخاوف الأمس والغد..

لن تستطيع المقاومة، تلك حرب خاسرة.. أمواله، نفوذه، سطوته.. تجبره!..

ستُمنى بهزيمة ماحقة.. وتفقد ما تبقى لها من معشوق تركها تصارع معارك الحياة وحيدة دونه..

تأملها "يونس" بصمت.. أفكاره ترقص حول أشلاء روحها وقلبها وذلك الذعر الذي رآه ينهش دواخلها وتشي به عينيها..

الطعنة الأولى نفذتْ لأعماقها.. هي الآن تنزف، وستستمر بالنزف حتى الموت..

أشعل سيجاره ودار يتوقف خلفها، يوليها ظهره، ينفث دخانه بهدوء:

- قلتِ إيه!..

التفتتْ نحوه ودموعها تهينيها بحضور عنيف في الصورة:

- ممكن حتى وقت أفكر!..

- لأ..

دون أن يعيرها انتباهًا بأكثر من هذين الحرفين..

دون فرصة..

دون أمل!..

**

النقطة العمياء.. بتعريف علمي بسيط، هي حجب في مجال الرؤية.. زاوية لا يمكنك أن ترى ما فيها، وكلنا لدينا واحدة بصرية حقيقية..

هو.. كانت نقطته العمياء هي!..

الحبيبة، الزوجة.. الخائنة.. ألقاب ثلاث، لا.. أربع؛ أم أولاده!..

لذا مرر القتل، لكن هناك ما هو أقسى..

عاد لبيته تصاحبه أوامر الطبيب بالراحة وعدم التعرض لانفعالات حادة.. سيفعل أيها الطبيب؛ لا تقلق.. لن تراه بمشفاك ثانيةً، لن يجهد قلبه بعد اليوم.. لن يجهده بحزن أو عشق أو اهتمام..

وجدها في استقباله بوجه شاحب، ملامحها الفاتنة باهتة، خالية من مساحيق الزينة المحدودة التي كانت تستخدمها.. عيناها متورمتان بأثر دموع والترقب يعلو نظرتها..

الترقب جوار الخوف..

خطا لغرفته متجاهلًا وجودها بعدما ضم صغاره إليه، عاتبته طفلته التي منعها عن زيارته بفراش مرضه:

- مامي قالت أنك مش عاوزنا نيجي المستشفى..

قبَّل جبينها بحنو وأهداها بسمة دافئة:

- عشان أنا كنت راجع..

مطتْ شفتيها ببراءة:

- كنت عاوزة أشوفك، to show you my results..

داعب غرتها برفق:

- أخدتِ الدرجة النهائية!..

أومأتْ بفخر وشقيقها يقتحم المشهد وذراعي أبيه بغيرة:

- ضي.. أنا عاوز بابا..

ضمه بذراعه والأخرى منحها بها ضمتها يداعبهما:

- باهي وضي أغلى حاجة في الدنيا عند بابا..

انتفضتْ الفتاة الذكية المشاغبة تتباعد عن احتضانه، تجذب أمها الساهمة قربه وتشاكسه:

- أغلى من مامي!..

لم يرفع عينيه نحو زوجته، ظل يحاوط طفليه بوجوده وجوابه يقصم قلبها وروحها:

- مافيش حد أغلى منكم..

عندما صعد لغرفته كانت في ذيله، تركتْ المربية تضع الأولاد بفُرشهما، وتبعته.. خلع سترته وألقاها على مقعد بلا عناية، حينها همست باسمه:

- وجيه..

- أنتِ طالق..

ارتدتْ للوراء بعنف.. عنف أقرب لارتدادة لكمة قاسية، رصاصة قاتلة.. عنف لا يشبه بروده في شيء، هو نطق بلفظ الفراق بلا اكتراث.. بلا شعور.. بلا حضور..

نبرته ميتة كعينيه تمامًا!..

أقبلتْ عليه بتوسل وصوتها نحيب مختنق:

- وجيه.. أنا ما بقاش ليَّ حد في الدنيا إلا أنت والولاد..

جثتْ تحت قدميه.. تلك الشامخة التي كسرها الذنب ودنستها جريرتها حد رغبتها في الموت، تمسكتْ بساقه:

- كانت غلطة، لحظة ضعف.. أنا اعترفت لك لأني ما قدرتش أتحمل، في كل لحظة كنت باشوف فيها حبك ليَّ في عيونك كنت باموت، كنت حاسة إني كسرتك..

انهمرتْ عبراتها بلا حد في مواجهة ثباته ونظرته التي غابت في أفق مجهول:

- الذنب كان بياكلني، بيحرقني.. كنت عاوزة أطهر منه، عاوزاك تسامحني.. أنا مش كده، أنا مش وحشة يا وجيه..

نهضتْ تقابله، تبحث عن سكناها بعينيه فلم تجد سوى الاغتراب، لقد رحَّلها عن موطنها بروحه:

- أنا بحبك يا وجيه، أرجوك سامحني..

خفض بصره إليها بصمت جامد لثوان أتبعها بسؤال فاتر:

- هالة عملت إيه!..

تشبثت بجزء من السؤال وإن كانت تدرك كامل المغزى:

- هالة سامحت راجح.. سامحته في الخيانة، سامحني أرجوك..

- عملت معاكِ إيه!..

تراجعتْ خطوة..

فعلتْ الكثير، أهانتها، صفعتها، تبرأتْ من علاقة دم تربطها بها.. أخبرتْ والديها لتحظى بيُتم وهما على قيد الحياة.. استعادت كلمة أبيها..

"من النهاردة بنتي الكبيرة ماتت"..

وأمها التي رمقتها بخيبة وحزن.. كل القصة تلتها عليه نظرتها الشاردة فابتسم بقسوة:

- اطلعي برا بيتي..

رفعتْ بصرها إليه بصدمة جديدة:

- إشمعنى هي سامحته وأنت مش عاوز تسامحني!..

حافظ على ابتسامته التي غرقت في ظلام دامس كقلبه المغلف بالقتامة والغلظة:

- عشان أنتِ كنتِ عرضي، شرفي.. ومافيش راجل بيسامح في شرفه..

ارتجفتْ بوجوم.. فقدته، خسرتْ عائلتها، باتت وحيدة دون الجميع..

عادتْ تقترب بمناشدة أخيرة:

- ولادي يا وجيه، ما تحرمنيش منهم.. عاقبني زي ما أنت عاوز بس ما تحرمنيش منهم..

عندما التقتْ بعينيه أصاب فؤادها رهبة.. بل هلعًا، هذا ليس الزوج العاشق.. ليس المعشوق، هو وحش لم تقابله سوى الآن..

ابتعدتْ عن مرماه وكانت تدرك أنه هو من سيقتنصها، يمناه أحاطت عنقها من الأمام ويسراه ثبتتها من الخلف قبالة وجهه، أنفاسه تحرقها، لهيبه يذيب جلدها كعذاب جحيم سوف يتجدد:

- أعاقبك!.. أنتِ عارفة عقابك إيه يا ليلى!..

تعلقتْ بيده في استسلام، لم ولن تقاوم وإن قتلها..

بعد خسارته وأطفالها لمن ستحيا!..

راقبته يبتسم، تعود لشفتيه تلك البسمة الوحشية ونبرته تنخفض بخشونة يُحيدها غضب مسجون بين ضلوعه.. غضب لا يباح له ظهور وإلا أحرق الأرض ومن عليها:

- الرجم حتى الموت..

ثم دفعها فتعثرتْ، سقطتْ على ظهرها تتأمله كجبل شاهق يناظرها من علوٍ باحتقار:

- شنطة هدوم.. ده كل اللي مسموح لك تاخديه من هنا، وتختفي من على وش الأرض..

وتخطاها خارجًا من الغرفة بلا انتظار، هو لا يتحمل وجوده معها بذات المكان لوقت أطول:

- لو لمحتك من دلوقتِ ولحد ما أموت؛ هاقتلك يا ليلى..

- ولادي يا وجيه!..

نداء بأنفاس مقطوعة وفقْد لا تعوضه السنون:

- ولادي اتيتموا من النهاردة؛ عزا أمهم في خلال يومين..

توقف، استدار يرمقها من فوق كتفه بسخرية سوداء:

- ما تقلقيش.. هاعملك عزا يليق بالباشمهندسة ليلى شاكر حرم وجيه نصار..

اعتدلتْ مبهوتة لا تصدق ما يقرره.. هو حرفيًا يدفنها بباطن قبر وهي على قيد الحياة:

- وشغلي!..

غادر بالفعل يختم المشهد الدرامي بما يلائمه:

- الأشباح ما بتشتغلش..

هنا صفق جمهور العرض بحرارة..

لقد وُلد وحش من رحم عاشق، وحش صنيعة يد امرأة خانت عهد العشق..

**

البداية اختارها، وأتقنها.. الطريق قطع فيه خطوات حثيثة واثقة وشوطًا يكفيه كمرحلة مبدئية..

حيث وصل إلى المفتاح الأول، مفتاح السيطرة التي يليها امتلاك ويأتي بعد الامتلاك.. الهلاك!..

استقر بمنزل عائلته، بدأ العمل مع أخيه الأكبر متجاهلًا شكه فيه وثورته المكبوتة تاركًا لناره حريتها في إحراقه من الداخل.. ولا يكترث..

يتعلم منه ومن جده خبرات لا يبالي بها لكنها مدخل مناسب لثغرات الحوت العجوز..

روتينه اليومي يبدأ كما اعتاد قبل عودته لأرض يُفترض أنها الوطن، في السادسة صباحًا ركض لمدة ساعة بالنادي الرياضي، عودة للمنزل وحمام بارد يهدئ به عضلاته ويستعيد نشاطه.. ثم قهوة داكنة قليلة السكر دون إفطار، بعدها يقود السيارة التي منحها إياه جده إلى الشركة..

بالأمس علم أن لهم نصيب بأسهم شركة كبيرة يمتلكها رجل يدعى "عمار الديب".. لم يلتقِ به بعد لكن اللقاء مقرر..

والآن دعاه "يونس" لتناول إفطار خفيف معه قبل ذهابه للعمل بحديقة المنزل، لم يهتم كثيرًا بل فقط استجاب، أنهيا الوجبة الصباحية الخفيفة ليفاجئه الجد بالسؤال:

- أنت متجوز يا يعقوب؟..

رمق العجوز بتفحص بحثًا عن دافع غامض بينما يجيب باقتضابه المعتاد:

- لأ..

- في ست في حياتك؟..

تذكر "كاليوبي" التي حادثها بعد وصوله مرة واحدة، مط شفتيه واعتدل يرتشف قهوته:

- غريبة أنك مهتم بحياتي العاطفية!..

تناول "يونس" عصير البرتقال الطازج الذي يحرص عليه كل يوم ووازى اعتداله بحسم:

- عشان عندي عرض ليك..

زوى "يعقوب" ما بين حاجبيه ونظرته المبهمة تبرز على السطح:

- عرض قبل ما تقبله أو ترفضه عاوزك تحسبها صح..

وضع الجد كوبه على الطاوله بينهما ومسح فمه مردفًا بعملية جادة باردة:

- تشوف هتكسب إيه من وراه!..

نجح في الحصول على ردة فعل.. تبدلت النظرة اللامكترثة ليشوبها شيء من فضول لم يكسر مع ذلك حاجز الصمت، و"يونس" اكتفى بها ليصدمه بالعرض:

- عاوزك تتجوز شمس..

- مرات المرحوم!..

خرجت كبصقة ساخرة مستخفة، سوداء، مستهجنة ورافضة.. مع رؤيته لبدايات الرفض على وجه حفيده سارع جده يمنعه:

- قبل ما ترفض؛ احسبها بعقلك وبس..

واستراح في جلسته يعدد على أصابع يمناه كداهية يخطط لحرب، حيث ساحة المعركة فوق روح وجسد تلك السارقة:

- هتكون الوصي على يزيد مكاني، هيكون ليك النصيب الأكبر من ميراثكم مني..

انحنى جانب فمه بشبه بسمة لها مدلول ذكوري:

- وست في حياتك..

عاد الصمت يطوق "يعقوب" ووجهه يخلو من كل التعبيرات المباحة وغير المباحة، نظرته تشرد قليلًا ثم يعود إليه بصرامة:

- أنا قلت لك مش جاي أدور على ثروة وفلوس..

هز "يونس" كتفيه ببديهية كأنما يخبره الحقيقة بلا تزيين:

- ده حقك.. فكر كويس..

صمت جديد..

صمت أطول، ونظرة تسلل إليها شيء من مقت مظلم:

- أوضة يامن، مرات يامن، ابن يامن.. كل ده عشان اتجوز من غير علمك!..

قبل أن يدحض الجد فكرته في مهدها رغم صحتها، هو يمحو ذكراه من الوجود، يمحو اسمه وحضوره وأثره، بل وإرثه يُملكه لغيره.. أكمل بشيء من ازدراء:

- وكمان لما فكرت تعرض عليَّ ست في حياتي، اخترت بواقي أخويا الميت!..

نهض العجوز يرمقه من وقفته بجمود حازم ولمعة تمر بمقلتيه، لمعة إعجاب بالثعلب الصغير.. نعم يشبهه.. ونعم سيخلفه:

- اعتبرها صفقة، فكر فيها كويس ومستني قرارك.. ما تنساش تحسبها صح، بعقلك وبس..

تحرك إلى سيارته التي كان ينتظره سائقه جوارها تحت بصر حفيده الذي لم يتبعه، لم يرمش وربما حتى ظل يحبس أنفاسه جوار احتدام أفكاره في صراع سيطرة..

هو تغلغل تحت السطح بخبث أجاده، وفي طريقه إلى العمق بمهل لذا فالخطوة التالية هي أقرب لقفزة:

- موافق..

كلمة واحدة.. ونشوة نصر فاضت بعروق "يونس" عندما توقف لحظة.. استدار وقرر وبتر:

- كتب الكتاب يوم الجمعة..

- هي موافقة!..

كأنه يهتم!..

ابتسم له جده وأخبره بقبولها.. قبولًا أثار بنفسه الشكوك فانعقد حاجباه غير عالم بتلك التي كانت تقف قدرًا على مقربة لثلاث

دقائق كاملة.. ثلاث كانت كافية لتعلم أنها مجرد صفقة، هدية.. وعقاب!..

**

وضعت "غزل" لمسة الزينة النهائية لوجه "شمس" الشاحب..

زينة ناعمة خفيفة تليق ببراءة ملامحها، حمرة وردية أظهرت اكتناز شفتيها، لمسة سوداء فوق جفنيها الناعسين وجمعت لها خصلاتها تسدلها على أحد كتفيها لتظهر طول عنقها العاجي، أوقفتها تراقبها بإعجاب..

تتأمل الثوب الأسود الذي اختارته دون غيره، رغم محاولة "غزل" تغيير اللون بما يتماشى وكونها على وشك عقد قرانها.. لكنها أصرت على الأسود بعد سماعها تعليمات "يونس" لزوجة حفيده:

- روحي معاها يا غزل، واختاري لها حاجة تليق بالاسم اللي هتشيله..

كان الثوب أنيقًا بسيطًا، من قماش شفاف مطرز يعلو بطانة حريرية، يحيط بجسدها حتى الكعبين بنعومة، بكمين يصلان إلى ما بعد

مرفقيها بمسافة ضئيلة وفتحة صدر مثلثة تتأرجح بين الإغراء والتحفظ.. ساوت خصلة قرب جبينها باهتمام وهمست ترفض بهوت وجهها وضياع نظرتها، غياب بسمة تتلاءم وموقفها كعروس:

- مافيش ابتسامة!..

رفعت "شمس" عينيها إليها بوهن، تستجدي ما تبقى في روحها وجسدها من قوة لتخوض اللحظات القادمة بشيء من جَلَد، ترسم انحناءً مشدودًا عند ثغرها لا يشبه البسمة في شيء.. بل بدا أقرب لكتمان ألم.. وجع يطحن صدرها.. يعتصر خافقها..

والصديقة التي تتعلق بقربها تديرها نحو المرآة:

- You're so pretty..

نعم كانت جميلة؛ ذلك الجمال الحزين الذي يأسر العين والقلب معًا.. تُعلن الحداد بالسواد كأنما تخبر العالم أنها لن تكون لغير من أحبتْ وإن أجبرها القدر..

ترفع أناملها لقلادة رفيعة تنتهي بقلب بلاتيني يقبع بأنوثة بين ترقوتيها، قلب محفور بوسطه حرف واحد..

"Y"..

الحبيب الذي غاب.. لامست "غزل" ساعدها وهمست لها برفق:

- حلوة قوي..

أخيرًا استطاعت استدعاء بسمة تغرق في المرارة:

- كانت أول هدية جابها لي..

استشعرتْ المجاورة لها حزنها.. أرادتْ سؤالها إن كانت بهذا التعلق بمن أحبتْ لمَ وافقتْ على الزواج من غيره!..

لكن عمر صداقتهما لا يسمح بمثل ذلك التدخل..

وصلتْ "بهجة" لباب الغرفة بصحبة الصغير في أحضانها:

- ست غزل، يونس بيه عاوزك تحت..

أومأتْ لها بموافقة وتمتمتْ للأخرى بنبرة لا تعلم أهي سعيدة لأجلها أم مواسية لأحزانها:

- مبروك..

دقائق تالية حملتْ فيها طفلها تتشممه، تضمه لقلبها وتهمس له دون صوت:

- عشانك بس..

"بهجة"..

صوت خشن، أجش.. عند الباب، صوت تخلى عن عمقه وهدوئه الذي اعتادته معه بل ونظرة تحيطها باحتراق غاضب:

- نعم يا حبيبي..

من مربيته التي أشار إليها باقتضاب:

- خدي يزيد وانزلي..

تأملته "شمس" بحيرة متوترة في حين استجابت المرأة وعيناها تهديانه نظرة موبخة عندما مرت إلى جواره..

نظرة تخبره أنها تعلم بضيقه من زواج زوجة توأمه لكنه حقها ربما!..

دخل للغرفة، وارب بابها من خلفه إلا من فرجة صغيرة.. فرجة مر من أمامها الزوج المرتقب ليجد زوجته المستقبلية بصحبة أخيه في الجناح الذي تم تجهيزه بسرعة الصاروخ ليكون عشهما السعيد!..

وحدهما!..

وتوقف ينصت لمسرحية درامية تأججتْ لها عيناه بجحيم مروع..

- على فكرة، أنا ممكن أمنع الجوازة دي..

قالها "يزن" في صرامة، فتعلقتْ عيناها به.. كم يشبهه حين الحزم، ترى فيه قوة تهديها أمانًا تتوسله من قدر وحدتها وظُلمة أيامها دون حبيب راحل..

لكن هل يمكنه بالفعل!..

هل تستطيع التعلق بطوق النجاة الذي يلقيه إليها وسط الموج الغادر بهذه اللحظة!..

وحينها تنجو من مقصلة الجد!.. من تدرك وعن يقين أنه يعاقبها على زواج حفيده منها من وراء ظهره كما سمعت.. كيف!..

لقد تمرد عليه من قبل ونال النبذ، فكيف سيحميها هذه المرة!..

تسرب الخوف لروحها، اعتصرها.. خنقها، وانتفضت كطير ذبيح تتشبث بآخر أنفاس الحياة:

- تمنعها ليه؟..

- يعني أنتِ موافقة؟!..

- ليه لأ!..

حوار باتر سريع يعلوه الاستنكار منه والخضوع منها، تمثيل متقن لرغبة كاذبة:

- عاوزة تفهميني إن جدي ما استخدمش يزيد ورقة ضغط عشان يجبرك تتجوزي واحد ما نعرفش عنه حاجة!..

يعرف كيف يفكر جده.. وكذلك هي..

تعلم وتخاف:

- ليه بتفكر بالشكل ده!..

وولته ظهرها تتظاهر بتسوية شعرها في المرآة، هاربة من نظرته:

- أولا يعقوب ده أخوك وجدو يونس واثق فيه..

صمتتْ لحظة أكملتْ بعدها:

- الموضوع أبسط من المؤامرات اللي في خيالك..

وهزتْ كتفيها تظهر كأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد، هزتهما بلامبالاة كأنها ليست بطلة ذلك المشهد:

- هو عرض جواز.. وأنا وافقت..

- ويامن!..

- هيفضل أبو يزيد وحتة منه ومني..

- والحب!..

- الحياة ما بتقفش، ولو فكرت تقف في طريقها هتدوسك..

باغتته.. ببرود النبرة ولغة الجسد والنظرة الهاربة..

نظرة يريد أن يدقق فيها فأدارها لتواجهه:

- تمام.. يعني عاوزة تتجوزي!..

تباعدتْ عنه دون إجابة ليستطرد هو بعرض مباغت:

- نتجوز..

صدمها.. أخرسها، والتالي كان الاستهجان:

- أنت!..

- أيوة أنا..

- وغزل!..

زم شفتيه بحزم:

- تخصني ما تخصكيش..

تراجعت أكثر تنفي برأسها في حيرة.. في حزن.. في غضب:

- آسفة يا يزن، أنا مش هاكون زوجة تانية..

ورفعتْ عينيها تحرقه بنظرة غير مصدقة:

- لجوز صاحبتي..

ثم التفتتْ تبتعد عنه باستياء:

- مش متعودة على الخيانة ولا الطعن في الضهر..

- صاحبتك!.. من إمتى ده!..

لاحقها بتهكم مستخف أحنقها فعادت إليه:

- من وقت ما جيت البيت هنا..

وخطتْ تتحرك خارج الغرفة:

- عن إذنك..

- فهمت..

بتر خطواتها بكلمته..

توقفتْ ولم تستدِر نحوه لكنه أكمل بينما القسوة تتغلغل بنبرته، وصوته البارد يلسعها كسوط من جليد:

- الفلوس طبعا، إزاي ما شفتش الحقيقة دي من أول لحظة!..

صمتتْ تستوعب تفسيره لمؤامرتها الخاصة هذه المرة بينما وقف هو خلفها تمامًا بهدير هائج:

- في الأول اتجوزتِ الحفيد المطيع ولعبتِ لعبتك إن ماحدش يعرف غير وأنتِ عندك منه وريث..

ضغطتْ شفتيها بين أسنانها تخرس كل همسة قد تتسلل عبرهما، ويمناها تنفرد فوق صدرها قرب عنقها كأنها تختنق:

- ولما القدر خالف إرادتِك ومات..

صمتها هيجه أكثر فأجبرها على النظر إليه، حين انغرست أصابعه في لحم ذراعها بغلظة:

- لعبتِ بورقة الوريث، ووافقتِ تتجوزي التاني!..

نفضها عنه باحتقار فاتحًا ذراعيه كأنما هو ممثل لا يجيد تقمص دوره على خشبة مسرح خلا من الجمهور:

- فلوس.. و special offer؛ انتقام من الراجل اللي حرم أبوكِ من أمه..

الغصة التي ابتلعتها وازتْ انعقاد حاجبي من يقف بالخارج.. يشاهد العرض المجاني الرخيص، ويستمع لمهاترات المؤدين..

يرى أخيه يعرض زواجًا ثانيًا على من ستكون زوجته بعد دقائق..

يرى رفضها.. وينصت لتبرير الأخ، المقنع للغاية!..

شيطان خبيث في هيئة ملاك ناعم، قصة تقليدية مكررة ومملة..

تحرك يهبط الدرج متجهًا حيث جده والمأذون الذي سيعقد القران، يجاوره في انتظار وبداخله سعير.. سعير لن يحرق سوى قناع الملاك ذاك..

راقبها تتقدم نحوهم بتلكؤ، تقدم خطوة وتؤخر التالية كأنما تساق كشاة إلى النحر، تجلس على مقعد مواجه وتتم الإجراءات بلا اعتراض لتصبح زوجته.. ليحوز عقد امتلاكها..

مرتْ نصف ساعة أخرى تجاهلها خلالها مندمجًا في حديث لا معنى له مع "يونس".. عند نهايتها لمحها تقترب من أخيه مجددًا، تتأمله لحظة بحزن ثم تناديه، تهمس له بما لا يسمعه، ويؤجج النار بداخله أكثر..

كانت تخبره بتبرير لا تعلم لمَ تسوقه إليه!.. لكن قربه منها خلال ما مضى من وقت تحت سقف ذلك البيت ألقى بنفسها، ثقة فيه..

ثقة جزءها الأكبر يعود لكونه توأمه!..

- مش بحاول أقنعك بالعكس..

قطب جبينه وضَيَّق جفنيه لا يريد السماع، تجاهلتْ انعقاد حاجبيه وضيقه:

- بس لو أنا زي ما بتقول؛ كان ممكن أوافق أتجوزك.. وبكده هخرب بيتك أنت كمان وأحقق انتقامي كامل..

عندما استدارتْ عائدة حيث جلستها اصطدمتْ بمن بات زوجها، نظرته قاتمة رغم برود عينيه..

بل كانت تشعر بالجليد يحيط بها حينما سقطتْ في ظلام مقلتيه الحالك لحد أصابها برعدة..

- ما قلتلكيش مبروك..

وجذبها يلصق جسدها به، يلصق شفتيه بوجنتها، ويلصق همسته المخيفة بأذنها:

- مبروك يا زوجتي العزيزة..

**

ما الأسوأ أن تحيا عمرًا بالجحيم!..

الأسوأ..

أن تحول الجنة التي سكنتها إلى جحيمٍ يليق بك كشيطان مارق..

فتح باب شقتهما الصغيرة وانتظر يترك خطواتها تسبقه بتعثر، تبعها يغلقه من خلفها ومع إحكام إغلاقه شعرت بقبضة تعتصر خافقها.. حديثه بالأسفل، قبلته لوجنتها وشفتيه اللتين انطبعتا هناك بسيطرة تخيفها.. وتقلقها!..

لم تستدِر إليه رغم سماعها لوقع قدميه واقترابه، توقف بصمت ففركتْ كفيها بارتباك متوتر تبحث عن مدخل لحديث.. عن نهاية لذلك اليوم الطويل، يكفي قلبها همومًا تثقله.. التفتتْ إليه لترى نفسها تسقط في بئر معتم خلف جفنيه، بئر لا قرار له..

يرصدها كصقر في انتظار لحظة مناسبة لقنص فريسته وتحطيم عنقها بعيدًا عن الأرض..

يضع يديه في جيبي سروال حلته السوداء متلحفًا بالقتامة في قميصه تحت سترتها دون ربطة عنق..

رفعتْ عينيها إليه بحيرة من سكونه، همستْ بأول ما جال في خاطرها علَّ الموقف ينتهي:

- أنا ممكن أنام على الكنبة دي لحد ما يعدي وقت وأقدر أنام مع يزيد في أوضته..

أشارتْ لأريكة من خلفه، ومن بعدها لبابٍ موصدٍ في جدار مواجه..

تَلقَى عرضها الكريم ببسمة هازئة ونبرته تغلفها سخرية مزدرية:

- هو أنتوا عندكم العروسة بتنام ليلة الدخلة على الكنبة!..

اندفعتْ خطوة للوراء كأنما كلماته صدمتْ جسدها وليس مسامعها أو عقلها فحسب:

- الدخلة!..

مط شفتيه وهز كتفيه بلا حرف، صمته كان كافيًا لتعلم أنه يعني ما نطق به دون تزيين:

- بس.. بس..

زوى ما بين حاجبيه ولعثمتها لا تجدي معه:

- بس إيه!..

امتدتْ أناملها بعفوية لا واعية إلى قلادتها تحتوي القلب بين سبابتها وإبهامها كأنها تستمد منه شيئًا من قوة:

- أنا ماعرفش عنك حاجة!..

تأمل حركتها بنظرة غامضة:

- ورغم كده وافقتِ تتجوزيني..

يقرر بحسم جليدي تراجعتْ له أكثر..

الآن باتت تخشاه.. حقيقة لا مجازًا!..

صمتتْ لا تجد ردًا منطقيًا، وهو اقترب خطوتيها اللتين ابتعدتهما.. عيناه تتركان القلادة لتتجولا فوق جسدها المحاط بنعومة بالثوب

الراقي، تعودان إلى جيدها وبشرتها التي تتناقض مع لون ثوبها كالجحيم والجنة..

كالليل والقمر..

يمد أنامله، يقف بإصبعه عند قمة فُتحته المثلثة بهمس هازئ:

- على العموم، بسيطة.. نتعرف!..

انتفضتْ كمن لدغها عقرب.. تنأى عن تهكمه واستخفافه.. وجرأته، كفيها تتعانقان فوق تلك الفُتحة السخيفة كأنما تخفي نفسها عنه.. لم تعلم أنها تتجه بخطوات مباشرة إلى غرفة النوم المفتوح بابها.. وهو كان ينظر باستمتاع خبيث ساخر كضارية يراقب فريسته تجنح إلى الفخ بلا جهد منه..

تحشرجتْ نبرتها باحتجاج مبتور ،أبح:

- مش عاوزة..

لم يدرك مقصدها..

هل ترفض التعارف أم الفراش!..

اختار الثاني، طغا بخطوة واسعة يشرف عليها بينما تقسو عيناه رُغم خفوت صوته وبرود نبرته:

- أنا عاوز..

تجمدتْ تراقبه يدور حولها.. يراها كفريسة بالفعل، يفتش عن أي قطعة ينهشها منها أولًا، قبل أن يهمس بأذنها وصدره يلاصق ظهرها:

- ده بيسموه إيه!..

تكررتْ الانتفاضة وأوشكتْ على الابتعاد لولا أن تحكم بذراعها يثبتها حيث هي:

- آه.. حقي الشرعي..

شعرتْ بالحنق جوار الخوف.. لا تدري لمَ يخيفها!..

لكن كل ما فيه يرسل بقشعريرة باردة لكامل جسدها.. تشجعتْ تواجه خوفها، حنقها أجبرها على التفاتة، عينين تحدثْ بهما عينيه ولهجة محتجة بتمرد:

- حقك الشرعي من بواقي أخوك الميت!..

هل أخذته على حين غرة!..

لا.. بالطبع لا، طريدة ممتعة كما يبدو.. ولذلك تتضاعف متعة الصيد ونشوة القنص.. ويصبح المذاق أشهى..

رفع حاجبه بسخرية لامستْ اللهجة والبسمة:

- ده طلع بجد!..

تساءلتْ بصمت عن مقصده فأوضح:

- عندكم الستات بتحب تتصنت!..

توسعتْ عيناها ببريق جذاب خاطف، نفتْ بارتباك تهمة لم تأثم بها:

- لا طبعا، كانت صدفة.. ماكُنتش قاصدة أتصنت..

مال نحوها بتعليق وقح:

- كده أحسن، هيبقى عندك خبرة..

شهقتْ بخجل وتراجعتْ مرة وثانية قبل أن تعاند:

- ولو رفضت!..

خلع سترته ببساطة وتحرك داخل الغرفة، رماها بإهمال على مقعد طاولة الزينة:

- عادي.. أكيد مش هاجبرك..

كادتْ تتنهد بارتياح بموازاة استطرادته وتأملها المرتاب لتحركاته:

- ماليش في موضوع الاغتصاب ده بصراحة..

كادتْ.. رُغم حمرة طفيفة مرت بوجنتيها؛ لكنه بتر بداية التنهيدة بختام فظ:

- هاطلقك..

بُهتتْ والكلمة تخترقها بعنف كرصاصة طائشة اختارت قلبها كهدفٍ عشوائي:

- تطلقني!..

كررتها بضعف لم تملك إلا الخنوع له، لتبعات ذلك الطلاق..

للخسارة المتوقعة والفقد المحسوم أمره، رأى ترددها.. لمح اهتزازها..

وتعاقبتْ الأفكار بعقله ليصدق قصة أخيه عنها بدليل لا يقبل الشك.. ستخضع.. هي ستخضع..

عاد يقترب، يواجهها وينتظر كلمتها التي خرجت مرتجفة:

- ليه!..

- أكيد مش متجوزك حبر على ورق..

- يعني إيه!..

أظلمتْ نظرته بلا مقدمات، فاضتْ منها الغلظة ورعدتها تتضاعف:

- اقلعي..

يخبرها ما عليها فِعله بكلمة واحدة.. سيحول الزواج لحقيقة أو يمزق وثيقته التي لم يجف حبرها بعد!..

جذبها بغتة إلى الغرفة فلم تستطع الممانعة مع تسلط قبضته على معصمها، أوقفها جوار الفراش ووقف ورائها يفتح سحاب الثوب الطويل وهي ترتجف..

أنامله تلامسها وترتجف.. يزيحه عن كتفيها وترتجف..

يسقطه عنها، تتشبث به في محاولة فاشلة دحرها بلا تردد.. وترتجف..

واجهها يتأمل جسدها النحيف بامتلاء متوازن في بقايا ثيابها، سوداء بالمثل، تتناقض مع جنة بشرتها القشدية.. يطوف بناظريه فوق مفاتنها وصولًا لعينيها المغمضتين.. ويبتسم..

يبتسم بوحشية، فكك أزرار قميصه بتمهل وهو يخضعها لمراقبته..

وازاها بهمس بارد:

- كنتِ تفضلي تتجوزي يزن!..

أجبرها على لقاء بصره بصدمة، تمَّمَ كلماته المسمومة بتبرير صريح:

- شبه يامن، هتبصي له وتبقي في حضنه وتتخيليه هو!..

شهقتْ ولم يكترث.. تراجع بعض الشيء ليرى جفنيها يتعانقان ثانية، شفتيها تنطبقان في زمة متألمة ويديها تنعقدان حول جسدها برعشة..

دار حولها ومد يديه ينزع قطعتها العلوية، تمسكتْ بها فجذبها بعنف أجفلها.. طوقتْ هتْك سِترها بذراعيها بحثًا عن هروب من نهش بصره، بعدها سمعتْ همسته الصادمة بأذنها:

- تقدري تتخيليني هو لو حبيتِ..

كيف يفكر بتلك الحقارة!..

أيظنها ستكون واعية من الأساس إن تركتْ جسدها له يشبع فوقه غريزته الحيوانية!..

هي فقط.. ستموت..

دفعها، فتحتْ عينيها بصرخة خافتة لتجد أنها سقطتْ بالفراش، أكمل التخلص من ثيابه فأدارتْ وجهها عنه، أتتها همسته الهازئة:

- إيه!.. ما شفتيش راجل بالشكل ده قبل كده!..

لم يهتم بجواب؛ صامتًا اكتفى بممارسة سلطة ذكورته على أنوثتها المستضعفة.. لم يقترب من وجهها.. لم يُلثم شفتيها أبدًا..

دقيقة وابتعد عنها، ظنته سيحررها لكنها وجدته يفض مغلفًا ما..

وسيلة حماية تمنع رحمها ثمرته!..

استلسمتْ لعودته وقدرها.. خضعتْ بجمود ميت حتى انتهى، انتهى وتراجع على الفور.. انقلب على جانبه في وضع نوم، يوليها ظهره.. يخبرها بجفاءٍ كالصقيع:

- دلوقتِ تقدري تنامي على الكنبة..

انحبستْ دموعها والامتهان يطوقها، الإذلال يخنقها.. هي فقط تود لو أنها غادرت الحياة قبل أن تُمَّلِك آخرَ منها..

آخر أردف بازدراء:

- مش متعود حد ينام جنبي في السرير..

ولم تكن جنة..

لكنه كان الشيطان..

(9)

القاع.. حقًا فاض بمن فيه..

وهناك ليسوا جميعًا ضحايا!..

**

الخطيئة قاع بحر!..

على شاطئِه تقف، تتغلغل الرمال الناعمة بين أصابع قدميك، تختطف بصرك زُرقة لونه، عناقه للسماء بامتداد الأفق في مشهد ساحر..

لكن يخيفك هدير موجه من بعيد، تخشى الاقتراب..

ثم يحدث الإغواء، تأخذ خطوتك الأولى، تُطمئن نفسك.. لا بأس، سأمس برودة مياهه التي تزور الشاطئ وتنحسر بسرعة، لن أغوص أكثر.. لن أتعمق..

تغازل ساقيك موجاته، تستمتع، تضحك..

ترى أنه ليس مخيفًا كما يبدو من مسافة أبعد..

أنتَ تجيد السباحة، حتى وإن تقدمت أكثر.. لن تغرق!..

يصل الماء لركبتيك.. فخذيك، يتعدى خصرك، صدرك، عنقك.. ولا تزال أنت على إصرارك..

أنتَ سباح ماهر لن تتخطى حدود الموت..

تزل قدمك، تفقد اتزانك، تنزلق.. تعلق!..

ترتفع يداك في محاولة للنجاة، المياه المالحة لا تحتمل ثقلك، تخترق أنفك وفمك، تشهق.. تصرخ.. تستغيث بأحدهم، لكن الشاطئ فارغ دونك..

يصل الأمر لرئتيك، تتلاحق أنفاسك في صراع بقاء لن يطول..

تقاوم..

تخبر نفسك أنك قوي، ستنجو..

لكنك ذهبت للبعيد أكثر من اللازم، الموج هنا عالٍ.. الموج هنا قاتل..

أنت تغرق..

لا.. أنت غرقت!..

العقاب تطهير، نحن نتطهر من آثامنا بنيل العقوبة.. السارق تقطع يده، يتطهر من ذنبه، يتوب عنه.. يحيا بسلام!..

الزانية!..

لم تكن تنتظر عقاب الخالق فذاك نهاية، لكنها تمنت عقابه.. ثم عفوه.. يضربها، حتى لو حطم جسدها عظمة عظمة.. يُطلقها بعدها يعيدها إليه.. يحبسها بالبيت فلا ترى ضوء النهار إلا عبر نافذة بقضبان حديدية تليق بسجنها المختار، يمتنع عنها.. يهجرها، يتقزز من لمستها.. كل شيء وكل عقاب قد يطوف بخيالها سوى ما فعله!..

لقد فضحها لدى أهلها، شقيقتها الصغرى التي لا تملك من الدنيا سواها..

حرمها قربهم حتى الموت، حرمها أطفالها.. أعلن رحيلها وأقام لتابوت فارغ يحمل اسمها؛ العزاء!..

تمنتْ عقابه عساها تتطهر، تتوب، تعود، تستمر.. فقتلها وأنفاسها لا تزال تتردد.. متى كنتَ بهذه القسوة زوجي الحبيب!..

سألته في خيالها والجواب أتى منها هي؛ عندما سلمتِ آخر شرفه ليدهسه، عندما ذبحتِ قلبه العاشق بجرم خيانته، عندما غدرتِ ونسيتِ أبنائك ورجُلِك الذي لم يمس غيره عتبات قلبك "ليلى"..

أنتِ خائنة، تستحقين الرجم حتى الموت..

تستحقين الموت.. وليت ذاك يشفع..

بمعطف داكن طويل خفيف بعض الشيء يناسب نهايات الشتاء راقبتهم يدفنون تابوتها، والدتها تبكي كأنها ماتت بالفعل، والدها لم يكن حاضرًا.. شقيقتها بوجه جامد.. والزوج!..

الزوج كان في عالمه الخاص..

الزوج قتلها بيديه دون أن يدنسهما بدمائها..

عندما لمحته يلتفت عائدًا لسيارة صديقه الذي يرافقه كظله، كأنه يخشى عليه سقوطًا آخر.. حينها استدارت بشبه ركض تغادر

المكان، تندس بالمقعد الخلفي لسيارة أجرة كانت بانتظارها عائدة للفندق الذي استطاعت الإقامة به خلال اليومين الماضيين، بشيء من رصيد بطاقتها الإئتمانية والتي تحافظ عليه حتى تعلم إلى أين سيقودها قدرها..

دلفت للغرفة تخلع معطفها ووشاحها، تسقط بالفراش الضيق بانهيار وعبراتها تصرخ فوق وجهها تعوض صوتها المختنق.. شهقتْ تغص بأفكارها، بدوامة تسحبها نحو خسائرها الفادحة..

نحو العشق.. البيت.. الأسرة..

أولادها وحبيبها و.. الشقيقة!..

تلعن نفسها وتتمنى لو تموت، هي من أضاعتهم، هي المذنبة ووحدها تستحق أقسى عقاب..

فقط لو يكون بقربهم..

فقط لو لم تمت وهي على قيد الحياة..

فقط لو يمكنه الغفران!..

مسحتْ دموعها بيديها في عذاب، أمسكتْ بهاتفها وفتحته تتصفح الصور، هي.. هو.. صغارها، تتلمس شاشته كأنها تطوف بأناملها فوق وجوههم وتلامس دفئها..

تُقبلها بتتابع وملوحة الدمع تحرق لسانها.. تنعي فقدها، تنعي نفسها وروحها، تفكر في غدٍ قادمٍ بها وحدها، تنزلق بلا وعي في نعاس متعسر، تهاجمها أحلامها.. التي أضحتْ كوابيسها..

كابوس لحظة السقوط وهاتف شقيقتها الصغرى ليلتها:

- معلش يا لولو عارفة إني باتعبك، نبيلة البيبي سيتر اعتذرت عندها ظروف، فراس عنده رحلة مع المدرسة النهاردة ولمى وكادي هيفضلوا مع راجح في البيت.. هيحاول يرجع من الشغل بدري بس حبيبتي تروحي لهم الصبح..

تتوسلها الاعتناء بصغارها حتى عودتها في اليوم التالي من ذلك المؤتمر الخاص بحقوق المرأة في الاسكندرية، مؤتمر يشبه غيره الكثير، بعضها داخل مصر وقليل خارجها، تخبرها عن اضطرارها،

فصغيرتها بالكاد أتمت شهرها الرابع.. والزوج يغرق مع أطفاله بجهل..

يومها طيبتْ خاطرها وأخبرتها بحنو أم:

- ما تقلقيش عليهم، هانزل الولاد المدرسة وأروح لهم على طول.. وجيه في السخنة بقى له أسبوع عشان تجهيزات الفرع الجديد هناك..

وصدقتْ الوعد.. في الثامنة صباحًا كانت تلقي تحية رقيقة على حارس المنزل، تخطو داخله ليستقبلها الزوج المرتبك يحمل الرضيعة:

- ليلى الحقيني..

تناولتها منه برفق تضمها لصدرها، وبسمة واسعة مشاغبة ترتسم على فمها:

- كوكي حبيبة aunti لي لي..

زفر الوالد بحرارة وراحة تتسلل إليه:

- دلوقتِ إحنا كلنا في عهدتك..

حافظتْ على ابتسامتها وصعدتْ الدرج تجاه غرفة الفتى:

- هاجهز فراس عشان رحلته، ونشوف الآنسات هيحتاجوا إيه!..

بعد ساعة أصبحتْ الأمور كلها تحت السيطرة، رحل الصغير، تناولت الصغيرة رضعتها، بدلت حفاضها المتسخ وغرقتْ في سبات مرتاح، بينما شقيقتها الكبرى لم تستيقظ بعد..

مديرة المنزل سيدة غير مقيمة موعدها في الثانية عشر ظهرًا، والآن في تمام التاسعة والربع جلستْ وزوج أختها بقدحين من القهوة بالمطبخ الهادئ:

- مش عارف كنا هنعمل إيه من غيرك يا ليلى!..

ولأنها دومًا الداعمة فقد رفضتْ امتنانه بهدوء:

- دي أختي ودول ولادي يا راجح، مش محتاجة شكر..

امتدتْ يده تربت على كفها بود:

- بس أنتِ تستاهليه وأكتر..

ابتسمتْ وسحبتْ يدها برفق، ارتشف هو من قهوته متجاهلًا تباعدها، بسؤال مهتم يسعى به لحديث لا يريده أن ينقطع:

- مش معطلينك عن حاجة النهاردة!..

نفتْ برقتها المعهودة:

- لا خالص، السواق هيجيب الولاد من المدرسة وأنا هاستناك مع لمى وكادي لحد ما ترجع من الشغل..

أومأ باستجابة خافتة قبل أن يظهر ضيقه صريحًا على وجهه:

- ليلى.. أنا..

حدجته بنظرة متفحصة متسائلة دفعت به لكلمات لم تتوقعها:

- أنا تعبت يا ليلى؛ هالة فعلا البيت والولاد.. وأنا؛ آخر اهتماماتها..

وهي تدرك..

اندفاع أختها الصغرى، طموحاتها، لهاثها وراء أهداف المرأة والمساواة والحرية وتلك الألفاظ الرنانة..

لم تلحظ إعجابه الذكوري حين تأملها:

- يعني شوفي أنتِ، بتشتغلي.. مهندسة ناجحة، مهتمة بكاريرك ورغم كده بيتك وولادك وجوزك رقم واحد.. ما بتقصريش في حقهم، لو حد منهم احتاج لك هيلاقيك..

واسته تحمي ظهر الشقيقة الغائبة:

- هالة أنتوا رقم واحد في حياتها يا راجح، وأي ست مننا بتبقى محتاجة جوزها يكون في ضهرها زي ما هي دايما في ضهره..

ناوشتْ فمه بسمة ساخرة:

- أنتِ شايفة هالة في ضهري!..

كادتْ تعترض مجددًا لولا أن أوقفها بحنق طفيف:

- أنا بحبها، وعارف إنها بتحبني.. بس مش هاتحمل كتير غيابها عن البيت بالشكل ده، الولاد وأنا.. وفي الآخر أنتِ اللي دايما بتسدي مكانها، دي مش أول مرة ولا هتكون الأخيرة..

تنهدتْ بعمق، تمتمت إثره بمساندة:

- اتكلم معاها، هالة بتحبك زي ما قلت، وصدقني أنتوا أغلى حاجة في حياتها.. قول لها اللي بيضايقك..

تضاعفتْ سخريته يبتر مثاليتها السخيفة:

- زي ما أنتِ بتتكلمي مع وجيه اللي بيجي البيت زيارات كأنه فندق!..

رمقته بدهشة ساخطة..

الحمقاء أخبرت زوجها عن شكواها!..

أكمل هو بذات التهكم:

- هالة ما بتخبيش عني حاجة..

ثم تلونتْ نبرته باهتمام تراه للمرة الأولى:

- تعرفي!.. ساعات باتمنى أكون قابلتك أنتِ الأول، قبل هالة وقبل وجيه..

وشرد لحظة غائبة يتخيلها له، مُلكه:

- باتمنى تكوني أنتِ مراتي أم ولادي..

- راجح.. إيه اللي بتقوله ده!..

استقامتْ بحدة تعلن غضبها، استيائها ورفضها:

- أنت بتتكلم عن أختي، وأنا بحب جوزي...

جذ عنق حديثها الأجوف بمواجهة قريبة لحد مُقبض:

- ووجيه بيحبِك زي ما هالة بتحبني.. بلا بلا بلا، بس الحب عمره ما كان مجرد كلمة بنقولها وقت اللزوم..

غاص بعينيها الشفافتين بنظرة مقتحمة ومشاعره تشتعل في احتدام منفلت عن طور المنطق والعقل وحدود المشهد:

- الحب هو اللي أنتِ بتعمليه معاه، بتراعي بيته وولاده، بتراعيه ومهتمة بيه.. ناجحة في شغلك بس عمرك ما قصرتِ في حقوقه عليك..

ثم عادتْ له السخرية بقتامة:

- أنا مش فاكر آخر مرة كنت أنا وهالة فيها سوا زي أي زوجين بيحبوا بعض إمتى!..

شهقتْ ترتد بعنف، تنهره بغضب:

- خد بالك من كلامك يا راجح لو سمحت، أنت بتتخطى حدودك..

لم يكترث لغضبها، بل اقترب خطوتها وزاد فوقها أخرى، بنظرته التي تحاوطها كطوق لا فرار منه:

- ليه بنحب اللي ما بيقدروناش!.. ليه بتحبي وجيه للدرجة دي!..

وحرك أصابعه أمام وجهها، يكاد يلامس خصلاتها:

- ليه أنتِ جميلة قوي كده!..

شهقتْ ثانية، كادتْ تصفعه لولا أن تحكم بمعصمها ولم يحرره، يحتجزها قربه، تثيره.. تئن رجولته رغبة في امتلاكها.. يريدها ويالحظه الحسن فالسبيل مُيسر ،الطريق مفتوح والمنزل خالٍ إلا من طفلين لن يمنعاه عنها، عن إغوائها، عن الاستحواذ عليها:

- أنا ما أقصدش حاجة، ما تزعليش مني.. أنتِ فعلا جميلة، شكلك.. عينيك.. روحك، قلبك..

وسقطتْ عيناه فوق شفتيها بجوع لم يُخفِه عنها:

- شفايفك!..

سحبتْ يدها منه بغلظة، ركضتْ خارجة تلهث بهلع:

- روح شغلك يا راجح، ما تخلينيش أندم إني جيت..

تلاحقتْ خطواتها تعدو أعلى الدرج في وجهة غير محسوبة بدقة، تتجه لغرفة الصغار، تلقي عليهم نظرة من خلف الباب الموارب..

أنفاسها في ماراثون مرهق، مخاوفها تطفو لسطح صلابتها فتهزها، تضعفها.. تستعيد كلماته، جنونه، وصفه، نظرته!..

نظرته التي لم تلمح مثلها في عيني زوجها العاشق منذ زمن لا تستطيع حسابه!..

أوشكت على الدخول، تعتكف معهما بالغرفة ففي وجودهما درع حماية لولا أن أمسك بها بغتة، قبضته تحكمتْ بذراعها وأعادتها للخارج، يحاصرها بطغيانه والجدار في ظهرها..

هو فقد عقله بلا شك، بصره يصول ويجول حول حناياها وتفاصيلها بلوثة مؤقتة، مخيفة.. يهمس لها بهسيس خفيض أقرب لثعبان سام يخطط للدغها:

- ما تهربيش مني..

دفعته فلم يتزحزح، ستصرخ.. ستبدأ فضيحة لن تنتهي بسلام:

- راجح، من فضلك ارجع لعقلك..

- أنا دلوقتِ، في اللحظة دي أعقل من أي وقت تاني.. اطلبي الطلاق يا ليلى..

- أنت اتجننت!..

أجابها بقسوة مظلمة لم يسبق لها رؤياها:

- أبقى مجنون لو كملت في علاقة فاشلة زي اللي بيني وبين هالة..

- أنت بتحبها..

- الحب مش كل حاجة..

- أنا بحب وجيه..

- وجيه لو بيحبِك كفاية كنتِ هتبقي في حضنه في اللحظة دي.. مش حضني أنا..

هزتْ رأسها بخبال، تأبى سماع حقيقة تفكر بها وتكرهها:

- أنت اتجننت، ابعد عني..

- اطلبي الطلاق، هاطلق هالة ونتجوز.. نهرب من العالم كله ونبقى مع بعض..

- ابعد عني..

صدرها يعلو ويهبط..

لهاثها تختنق به، الهواء يحاوطها مثله تمامًا لكنها لا تكاد تتنفس:

- مش قادر أبعد؛ عاوزك يا ليلى..

نعم يشتهيها للحد الذي لا حد له.. فتنتها.. جسدها.. خيوطها الذهبية ببريق شمس ساطعة، يتوق لتمرير أصابعه في سيلها الناعم..

يشتهيها منذ أشهر مضت.. كان يمنعه عنها بقايا عقل دهسته تحت إطارات سحرها وهي بين ذراعيه الآن..

ضربتْ صدره وأزاحته عنها، لكنه كجبل يرفض الانصياع:

- من إمتى يا راجح!.. أنت أكيد مش واعي للي بتعمله، أنت شارب إيه!..

لامس وجهها بكفه فأدارته تبتعد عنه، لاحقها بلا وعي:

- مش شارب حاجة، أنا في كامل وعيي.. نتجوز..

- أنت مجنون، سيبني..

- لأ.. مستحيل أسيبك..

وهاجم شفتيها ينهل منهما بنهم.. ركلته، كبل ساقيها بساقيه يطحنها بينه وبين الحائط البارد، حاولت تكرار الصفعة، إبعاده.. فصفَّد رسغيها بكفه والثانية ترتع في حقول مفاتنها كذئب جائع..

يلهث وتلهث.. تبكي وتتوسله.. يتسلل بخبث أفعى:

- وجيه لو بيحبِك ماكانش يقدر يبعد عنك كل ده..

- وجيه بيحبني..

وتبكي..

- للأسف أنتِ إديتِ قلبك لراجل ما يستاهلوش.. زي ما أنا عملت مع هالة..

- وجيه بيحبني..

وتبكي..

- إحنا الاتنين خسرانين يا ليلى..

- وجيه بيحبني!..

تحمل لهجتها السؤال.. وتبكي..

قبلاته تتناثر حول ما يطاله منها، يحرقها، يفتح أزرار سترتها، تلسع أنامله جلدها.. يقيدها بكل قيد ممكن:

- وجيه عرف بس يختار الست اللي تديه حياتها وهو ما بيديهاش إلا البواقي اللي بيتكرم بيها عليها من وقته..

شيطان لا يتوقف عن وسوسته.. عن اشتهائه والتهامه..

عن ضغطه على مواطن ضعفها، أنوثتها العطشى للمسة عشق أهملها الحبيب..

- وجيه بيحبني..

همستْها بوهن ودموعها تنسحب خلف مآقيها بشرود، بشتات..

- اطلبي الطلاق..

- ليه بتعمل كده!..

قبالة ثغرها ختم قصيدة إغوائه:

- عشان أنا أحق بيكِ منه..

- راجح!..

دفعة أخيرة منها، مقاومة واهنة.. وحملها بين ذراعيه، يسقط بها في فراش واسع تعرفه.. يُجردها ويثمل..

يتلو على أنوثتها أنشودة ثورة، يعطل دفاعاتها برواية عاطفية هابطة تشبه رُخص اللحظة.. يصب على مسامعها فُحش الغزل، وعلى جسدها يحفر بصمته حتى وصلا للنشوة الكاذبة!..

نشوة بمذاق الخداع، الغدر، الخيانة.. والخطيئة..

نشوة أفاقت منها على الهوان، قبل أن تُسقطه عنها، تعتدل بلوعة.. تجذب قميصها، تستر به عريها وعارها ودنسها.. ترمقه بجنون ودموعها تنفجر كموج لا يمكن أن يصمد أمامه أي سد..

- إحنا عملنا إيه!..

صرختْ بها فجذبها يضمها، يخرسها، يدفن رأسها بصدره يئد نارًا رآها تشتعل بمقلتيها:

- اهدي يا ليلى.. اهدي..

أزاحته عنها بقوة وغادرت الفراش تتعثر في شراشفه، تسقط على ركبتيها، تنهض بتعب.. تلمحه من ورائها في مرآة طاولة الزينة فتصرخ.. تدور حول نفسها كأنما أصابها مس شيطاني أفقدها عقلها..

ترتدي سروالها، قميصها، ترمقه وقد تبعها يرتدي ثيابه بالمثل.. تتراجع للخلف بهلع، ترمق الفراش، وأثر خطيئتهما فوقه..

ترمي نفسها عليه وتسحب المفرش، يمنعها بضمة، يكتفها بذراعيه:

- بتعملي إيه!.. اهدي يا ليلى أرجوكِ..

تقفز من ضمته، تركله وتتملص منه بصياح أبح وأحبالها الصوتية تتمزق حائرة بين عويل لا يتوقف وكتمان لا يباح سواه:

- لازم أشيل الفرش ده، أغسله.. ده سرير هالة، سرير هالة..

تكررها بهوس.. عيناها تدوران في محجريهما بضياع، تجر الشراشف وتهبط الدرج تجاه المطبخ وهو يتبعها بسخط، يسحبها من يدها ويضعها بنفسه في المغسلة في محاولة لتهدئتها:

- هاعملك اللي أنتِ عاوزاه بس أرجوكِ اهدي..

رفعتْ وجهها إليه، وقع بصرها على أثر حمرتها حول فمه، عند عنقه.. تراجعت تكبت شهقتها بأصابعها وهتافها لا يتوقف:

- أنا عملت إيه!.. أنا خُنت وجيه.. خُنت حبيبي أبو ولادي..

وتبرق عيناها بجنون أكبر:

- ولادي!..

تقترب.. تضرب صدره بقوة لا تسمن ولا تغني من جوع، تلومه وتذبح نفسها:

- ولادي.. أنت السبب.. ولادي..

تكررها حتى أوشكت على السقوط، دعمها يجلسها على مقعد منخفض، هرول إلى جارور جانبي يسحب منه شريط دواء، دس أحد أقراصه بين شفتيها فلفظته:

- إيه ده!.. عاوز تعمل معايا إيه تاني!..

قبض على كتفيها يثبتها في جلستها بحزم:

- اهدي باقولك، ده مهدئ بتاع هالة..

كيف تهدأ!..

الموت أن تهدأ.. هي يجب أن تموت، الموت أن تتوقف أنفاسها في التو واللحظة لكنها بغتة.. تستيقظ!..

تغادر كابوس منامها لواقعها الكابوسي..

تلك الذكرى لن تنمحي، هي تتذكر تفاصيلها كلها بلا ذرة نسيان.. كل لمسة وقبلة وشغف مسروق لا تستره حتى ورقة توت، تتذكر هروبها وقد اقترفتْ يداها ذنبها الأعظم.. تركها له وحده مع أطفاله، عودتها إلى منزلها تتخبط كأنما ضربها أحدهم فوق رأسها وما بقي فيها من وعي، هو نزع أخير..

خطواتها المباشرة والثابتة إلى حمام غرفتها، خلعها لملابسها حد التمزيق، بعثرتهم.. المياه الساخنة التي أحرقت بشرتها..

وقفتْ تحتها تحك جلدها حتى أشرفتْ على النزف، تبكي.. تنوح.. تنتحب بلا صوت، فأقل أثر هو فضيحة..

تتذكر عودة زوجها باشتياقه عقبها بيومين، تباعدها عنه.. تهربها منه.. من احتضانه، من لمسته.. ذرائعها الفاشلة التي تحججتْ بها تتملص من قربه.. عادتها الشهرية التي ادعتْ وجودها..

كوابيسها الليلية وكوابيس النهار حال يقظتها..

الذنب ينهشها، يفترس روحها.. مخاوفها تضغط على نقاط ضعفها كلها في وقت واحد.. تتقزز من صورتها في مرآتها.. تنأى عن

الحبيب الذي بدأ يستغرب.. يستنكر.. يسأل ويهتم بحنوه ورفقه المعهود..

يوجعها أكثر.. يذبحها أكثر.. يُميتها..

وذنبها يقتلها في الساعة مائة مرة حتى تقيأتْ الحقيقة بين يديه..

ألقتها بوجهه بدموع آثمة لن تطهرها من جريرتها ما حيت..

"أنا خاينة يا وجيه!"..

سقطتْ المقصلة تفصم كل كمال كانته، بل تفتته.. تبعثره..

تنهيه وتنهيها معه..

والخاتمة، ماتت.. "ليلى"..

الخطيئة قاع بحر.. مظلم..

والغرق فقط البداية!..

**

الخطيئة قاع بئر جدرانه زلِقة، ما إن تقع فيها حتى تخسر روحك..

قاع؛ ما إن تسقط إليه حتى تفقد قدرتك على الصعود.. حتى وإن فعلت، فمن سيمنحك فرصة العودة إلى السطح!..

هو!..

لا.. هو دفنها وعاد من مقبرتها للتو، سيترك عقوبتها لخالقها، ويتفرغ لعقاب خائن آخر.. طعنه في شرفه، في ظهره، في ثقته..

خذلان الثقة هو الأقسى، مردوده مميت، ورد الفعل فرض عين!..

توقف صديقه بالسيارة في حديقة المنزل الواسعة، أمام الباب الأنيق، استدار إليه برأسه وبسمة مطمئنة تزين شفتيه:

- وجيه.. أنت كويس!..

تمخض فمه عن انحناء قاسٍ لا يشبه من كانه في يوم:

- أكيد مش كويس يا يزن، واحد مراته.. حبيبته، ماتت ولسه راجع من قبرها؛ هيبقى كويس!..

اعتدل "يزن" قليلًا في محاولة لمواجهته من مقعده:

- هديت طيب!..

رمقه "وجيه" بنظرة جانبية صلبة:

- عاوز تقول إيه!..

سكن الصديق لثوانٍ بتفكير، بعدها بصق ما في جعبته برفق يناسب الموقف:

- ولادك..

ومع الصمت الذي لا يشوبه أدنى اكتراث حتى بما يقصده، أردف بحسم:

- أمهم عايشة يا وجيه، كان ممكن تطلقها وده كفاية.. لكن..

- لكن إيه!..

بتر حديثه الأجوف بصرامة فظة واعتدل يواجهه بالمثل:

- لو مراتك خانتك يا يزن؛ هتعمل إيه!..

وجم المسئول بجمود والسؤال يخترقه كسهم من نار..

لا يكاد يتخيل، هو بالتأكيد:

- هتقتلها؛ مش كده!..

بتر أفكاره بالرد.. لكن داخله كان سيحرق العالم وهي ستكون عود الثقاب!..

فتح باب السيارة يرحل عنه بغضب مكبوت لا يُصرَح له بانفجار لن ينجو منه أحدًا:

- في مثل قديم بيقول: اللي إيده في الماية، ما تتكلمش في الموضوع ده تاني لو عاوزنا نفضل أصحاب..

قبض "يزن" على ساعده يمنعه:

- ده مش قصدي يا وجيه، الولاد.. مالهمش ذنب يتحرموا من أمهم وهي عايشة، أنك تتربى يتيم وأهلك عايشين مش سهل..

أدار وجهه إليه بنظرة حارقة:

- أمهم ماتت.. ماتت يا يزن..

سحب ذراعه منه بغلظة، يترجل من السيارة، يصفع بابها خلفه وخطواته تدق الأرض حتى وصل لمنزله..

كان في انتظاره طفليه.. الصغير الباكي، والكبرى الصامتة بملامح جامدة استغربها..

أتراها تكبت حزنها وخوفها كما اعتاد منها!..

استغربها أكثر عندما اندفع طفله لأحضانه بدموع:

- بابي.. إحنا كده خلاص مش هنشوف مامي تاني؟!..

ضمه برفق، أبعده يمسح عبراته بإبهامه وبسمة حانية تتشكل فوق شفتيه:

- ماما عند ربنا يا باهي..

سأله الفتى وملامحه تترقب بأمل:

- يعني مش هترجع!..

والجواب أتاه من خلفه، من الصغيرة التي تبعته تواجه أبيه الجاثى على ركبته:

- اللي بيموت مش بيرجع يا باهي..

انهمرت دموعه أكثر ووالدها يستغرب قسوة نبرتها، يعاتبها ويحتوي ابنه بين ذراعيه:

- مش هتقدر ترجع..

تراجع بعض الشيء يتشبث بوالده:

- طيب هنقابلها في الجنة!..

كاد يبتسم ساخرًا، بل كاد يقهقه بوجع..

فهل لعاهرة من فردوس نعيم!..

لم يستطع الجواب بنعم.. لم يمكنه النفي، اكتفى بالصمت الذي لم يناسب أخته فردت نيابة عنه وهي تحتضنه مع والدها:

- أكيد هنشوفها في الجنة..

أغمض "وجيه" عينيه للحظات، دفع بهما بعدها للمربية ونظرة آمرة مفادها الاعتناء بصغيريه اللذَين لم يعد يمتلك سواهما من الدنيا..

.....

دنيا فقدتْ فيها شقيقتها الكبرى التي كانت تحنو عليها أكثر من أمها، من أبيها ومن عالمها بأكمله.. كانت هي نصفها، كلها.. تتمة روحها المنقوصة دونها..

روحها التي نحرتها بفراشها مع زوجها!..

عادتْ من مراسم العزاء بدموع سجينة خلف أجفانها المثقلة بها، دخلتْ لغرفتها التي غيرت أثاثها بالكامل، تتأملها بغربة، بشرود.. بضياع..

هل الحب يشفع!..

يشفع له؟..

لمَ لم يشفع لها إذًا!.. لأمها الثانية التي دفنتها قبل ساعة!..

لأنها لا تستحق شفاعة، هي خانتْ الدم.. غدرتْ بعهد الرحم.. تلوثتْ وتدنست وهي من علمتها القيم والمثل، هي من كانت الأسوة، القدوة والمثال؛ فجأة تهدمتْ تحت سمعها وبصرها، تحولتْ لفتات نجِس..

هي!..

وحدها الخاسرة..

تحررت من سترتها مختنقة عندما شعرت به معها بالغرفة، يتفحصها باهتمام لم يعنِها في شيء قبل أن يبادر بسخرية أوقدتْ سخطها:

- البقاء لله..

التفتتْ إليه لا تريد كبت انفعالاتها، لن تفعل:

- عاوز إيه يا راجح دلوقتِ!..

اقترب بخطوات مداهنة وإن كان بها بعض غضب:

- مش دفنتِ أختك وارتحتِ!..

تذكرت المشهد.. عقاب أبيها لها إن عادتْ لخائن قتل شقيقتها على مذبح الخيانة..

رفضه لها وكلماته:

"اعتبري إن مالكيش أب لو رجعتِ له، بناتي الاتنين ماتوا خلاص"..

ولم يحضر العزاء.. من يومها يمتنع عن رؤياها، وأمها في المنتصف حائرة.. باكية على الدوام، تنوح على كل فقد..

- أنتَ السبب..

جذب ذراعها يواجه عينيها بصرامة:

- لأ.. أنتِ السبب..

مع انشداه نظرتها أكمل بفظاظة:

- أنتِ دخلتيها حياتنا، أنتِ خليتِ بيتك ناقص وهي اللي بتكمله، هي اللي بتسد مكانك في كل حاجة حتى تربية ولادك..

انتزعتْ نفسها بعيدًا عنه بقرف:

- وعشان كده خليتها تسد مكاني في السرير كمان مش كده!..

ضم قبضتيه يكبت هياجه، يهادن.. يرى أن الخسارة لن تطوله فقط لو مرت تلك الفترة بسلام..

عليه بالصبر، نزر طفيف منه، عاد يدنو، يهديها نظرة محبة يجيدها، نظرة تضعفها وهو يدرك:

- ماحدش يقدر ياخد مكانك في قلبي ولا حياتي يا هالة وأنتِ عارفة ده..

نفتْ بهزات متوالية منهكة من رأسها، نفتْ بعنف وبكاء صامت يذبح قلبها وأنوثتها:

- كانت لحظة ضعف، غصب عني..

رمته بنظرة لائمة تتهكم على حالها وحاله:

- إيه!.. هتقولي هي كمان اللي أغوتك!..

يدرك أنه لو قالها لن تصدقها..

لذا قال ما يمكن أن يجدي، نصف حقيقة.. بنصف وجع:

- أنتِ عارفة إنه لأ، وأنا مش هاكدب..

حينها كان في مقابلها تمامًا، مد يديه يتحكم بذراعيها:

- أنا وهي ضعفنا..

تراجع بها، خطواته لها وجهة واحدة وازت خنوعها وإنصاتها، الأمل المزروع بمنتصف حدقتيها:

- كنت محتاج لك، وأنتِ بعيد عني.. وهي وجيه كان بعيد عنها، غصب عننا ضعفنا..

ضمها إليه فتضاعفتْ عبراتها وتحولت لنشيج وانتفاضات احتواها فوق صدره يحجم اعتراضاتها:

- مستحيل يكون قصدي أوجعك..

ولم يبعدها، فقط تراجع بكتفيه وأنامله ترفع وجهها إليه:

- أنتِ بتحبيني مش كده؟!.. عشان كده سامحتيني!..

اللعنة عليها وعلى خضوعها له، لدقات قلبها البلهاء في حضرته..

تحبه.. تغاضتْ واستمرتْ لأنها تحبه وذاك أول أسبابها مهما عاندتْ بألف دافع آخر؛ أولادها.. بيتها.. هي تحبه وحسب!..

رأى الاستسلام خلف أهدابها شبه المتعانقة، رآه وانتشى شيطانه فمال يختطف من شفتيها قبلة ناعمة:

- أنا بحبِك يا هالة..

والاختطاف التالي كان بوسط فراشها الجديد عندما سقط معها:

- بحبِك..

الخطيئة!..

لها ثمن وإن ظننا أننا أفلتنا، وإن صدقنا أن هناك نجاة..

**

أحيانًا تضعك الحياة على الحافة لتجبرك على السقوط، تحجب عنك خياراتك وتفتح أمامك طريقًا واحدًا!..

القاع..

قاع الهاوية.. الحضيض..

على يقين من أنها سقطتْ.. وصلتْ، وارتطمتْ بالدرك الأسفل من جحيم الشيطان المختبئ تحت جلد أخيه..

رسم اللقب والصفة نصف بسمة مُرة على جانب فمه.. أخيه الذي عاد ليتجبر، نظرته تُصرح.. نبرته تفشي سر ظلامه.. حتى لغة جسده تخبر عن سعير يريده أن يطال الجميع، وجده سعيد به..

يرى فيه نفسه، وهو فقط لا يبالي.. لكن من قال أنه سيترك له ساحة المعركة بعد!..

لقد كان لديه أخًا وحيدًا، ومات..

راقب خطواتها الشاردة، تحجمها في دائرة عشوائية بالحديقة التي تطل عليها شرفة غرفة نومه.. ملامحها ضائعة، هادئة.. باهتة، ساكنة.. ومنطفئة!..

لقد أذاها.. آذى امرأة نصفه..

حاول حمايتها ورفضتْ، بدافع مثالية لا تليق بالموقف الذي حُشرت به.. قيدتْ حريتها أسيرة للحوت العجوز فقط لتكون مع طفلها، تركتْ نفسها تحت قدميه ليدهسها، لم تثق به ليكون بظهرها.. فإذا به ينكسر بين يدي الدخيل..

مر أسبوع على تلك الليلة..

يتذكر نظرتها، تيهها، تعثرها بين الخضوع والهروب.. وينتهي بالذكرى عند صوت الغريب الممتلئ بالسواد كعينيه تمامًا:

"مش هتشهد على كتب كتاب أخوك الصغير!"..

اللعنة عليه وعليها وعلى جده وذلك الأرعن الذي خافه قبل موته فتركها وطفله عُرضة للنهب والامتهان..

نفث دخان تبغه بكثافة أخفت نظرته عنها وهي تقترب من ورائه، ترى صديقتها الصامتة مؤخرًا تطوف في الحديقة بلا وعي، بلا هدف.. وهو يتابعها وإن لم ترَ وِجهة حدقتيه..

ليلة زواجها غادر المنزل ولم يعُد إلا عند الشروق..

عاد بوجه مصمت مغلق، رافضًا أي تواصل معها كأنما يغار..

يحترق بالغضب!..

- غيران عليها!..

اقتحمتْ عزلته وسط ضبابه الخانق بسؤال مباغت، زفر آخر أنفاس لفافته المحتضرة، أطفأها بلا اكتراث فوق السور المعدني ولهجته تنتهج درب البرود:

- هي مين؟..

تجاهلتْ مماطلته وتهربه من الجواب.. أشارت برأسها للسائرة على غير هدى، رفع حاجبًا مستخفًا ونهرها:

- إيه اللي بتقوليه ده!..

هزتْ كتفيها ببديهية متفهمة وداعمة:

- عشان كانت مرات يامن، توأمك!..

نالت منه بلحظة عاطفية، تلك المشاعر التي طالما احتلته وأضعفته..

المشاعر التي نهضتْ كأسطورة خيالية مخيفة من بين الرماد..

مشاعره لتوأمه..

مشاعرًا دومًا ما أوقفت خطوات انتقامه، منعته وأجبرته على التراجع فقط لأنه كان ذلك الضوء الأخير الذي يمنحه الراحة ويهدي روحه السلام.. وذلك الضوء خبا..

ضاعتْ الراحة وعمتْ الفوضى بدواخله.. خبا ولم يكن معه..

لحظة عاطفية جعلته يتمتم في غفلة من سيطرته العنيدة:

- خايف عليها..

كما خمنت؛ يرفض أن تكون لغير توأمه بعد رحيله.. ويخشى عليها من عائد لا يدرك كامل تفاصيله أو خبايا نفسه بعد..

تحركتْ قربه أكثر، مسدتْ ذراعه بكفها برفق:

- هو برده أخوك على فكرة..

بترتْ لحظته وأرسلت بفيض المشاعر إلى قبر من جليد..

أظلمت عيناه حد أن التفاتة رأسه إليها أرجفتها:

- ماعرفش عنه حاجة..

أكثر المبررات سخافة، وألطفها كذلك.. بريئة، ساذجة.. وهو لن يخوض معها غمار شيطان لا تراه:

- طيب ما تحاول تعرف..

هل عليه أن يقهقه ساخرًا!..

- قرب منه..

ويدها تترك ذراعه لكفه فتحتويها بين يديها:

- أخوك الصغير اللي يعتبر غريب ووحيد، وأكيد محتاج يحس بوجود أخوه الكبير جنبه..

لم يقاوم البسمة المتهكمة وهو يتراجع بعيدًا عنها:

- أنتوا عيلته..

تفهمتْ تباعده، بل وغضبه الواضح بنظرته ثم هزتْ كتفيها ببساطة:

- يمكن ربنا عوضك بوجوده عن يامن الله يرحمه..

لم تكن تعلم أنها بكلماتها تضغط جرحًا، وتشعل فتيل انفجار طال كبته.. ظلام عينيه بات أقرب لكهف معتم، ليل حالك لا يحق للنور طلب المرور بدُجنته، ظلام وتَّرها فكادت تضيف شيئًا جذ هو عنقه بحسم خطواته التي تسابقت في رحيل هادر كبركان يصارع ثورته المستحقة..

فلا أحد.. لا أحد في هذا الكون بأكمله سيعوضه من فقد، أو يحتل مكانه ومكانته!..

**

عادتْ وكأنها طيف غير مرئي، غير محسوس..

طيف لا وجود له ولا يشغل حيزًا من فراغ يحتله هو بهيمنته..

تركتْ قدماها تتحركان في كل اتجاه بلا وِجهة، تطوف حول نفسها وأفكارها تخنقها.. الذكرى تخنقها، تسعى لقتلها.. ثم تحررها على حافة الموت، بعدها تعيد لها أنفاسها دون أن ترحمها براحة الغياب..

مر أسبوع منذ ليلة هوانها.. مر أسبوع لم يحدثها خلاله بكلمة، لم يلقِ إليها بنظرة.. وقلما تواجد حولها..

هل تشعر بهدوء وسكينة!.. قليلًا، لكنها تخشى لحظة اهتمامه، لحظة سيطرته التي لن يتخلى عنها.. لا تفهم لمَ فعل ما فعل!..

لمَ عاملها بتلك القسوة!..

لمَ امتهن جسدها وأنوثتها!..

لمَ عاشرها كإنسان آلي يؤدي مهمة ما!..

بل لمَ أراد المعاشرة من الأساس!..

ويجيبها عقلها بوعي متأخر؛ كان يضع بصمته فوق جسدها، يوصمها باسمه.. يمحو أثر حبيب رحل، ويغرس وجوده بكيانها.. بكوابيسها!..

يستخدم وسيلة حماية كأنما يظن أنها تريد طفله!.. مهزلة..

فلو كان قد امتلك الجسد، سيظل القلب ونبضاته، الروح وهيامها، العقل وأفكاره مُلكًا خالصًا لمن عشقت..

هاته لن يمكنه محوها أو إثبات حضوره بها..

تستعيد لحظة ابتعاده، طرده لها وشعورها بأنه واقَعَها كبهيمة ثم انتهى عائدًا لطوفانه الخاص.. أنينها، حشرجة اختناقها، دموعها المكبوتة ولا تدري لمَ لم تمنحها سكن الهطول وراحة السيل!.. حركتها المتعثرة، نهوضها وبحثها عن شيء تستر بها عريًا مقززًا لمحته بمرآة الغرفة أمامها..

لامستْ يدها مجهولًا جذبته لتجده قميصه الداكن الذي خلعه قبل دقائق.. رمته كالملسوعة، كأنه نار حارقة.. كأنه ثعبان سينهشها،

استقامتْ تلف جسدها بشرشف، وتعثرتْ بعد خطوتين، كادت تسقط على وجهها لولا أن استندتْ للفراش..

رمقته بقهر، توجهت إلى الخزانة، تبتعد ببصرها عن الراقد بهدوء، بلا اكتراث.. لا يهتم إن ذبحها، إن طعن فؤادها بالعمق..

هو لم ينتهكها؛ لقد سرقها.. نهبها..

اختلس ما ليس له، ولا ترى أن ورقة ما يمكن تجيز له امتلاكه..

سرقه بخسة وحقارة، شعرتْ بغثيان.. تحركتْ تجاه الصوان تلتقط منه أول ما صادف يدها وركضت إلى الحمام الخارجي، عند المرحاض سقطت تفرغ معدتها..

تتألم.. تعتصر جفنيها في محاولة لاستدرار دموع الخزي والقهر ولا فائدة.. أسقطتْ عنها الشرشف، بداخل غرفة الاستحمام جلستْ على الأرضية الباردة، تضم ركبتيها لصدرها وتغوص برأسها بينهما، تركتْ للماء مهمة تطهيرها من دنسه.. تركتْ قطراته تلسع ظهرها والرجفة تهيمن على كل ما فيها..

أخيرًا استجابتْ لها غددها الدمعية فمنحتها بعضًا من رطوبة امتزجت بالمياه وتلاشت كأن لم تكن..

لا تذكر كيف نهضتْ.. كيف ارتدتْ ثيابها.. أو كيف سقطتْ فوق الأريكة تغوص بلا جهد في نوم تبدلت فيه كوابيسها..

رحل عنها كابوس الفقد، وأتى كابوس الضياع، الخسارة.. خسارة أخرى، هي خسرتْ نفسها مقابل طفلها..

ليتها لم تعُد.. ليتها لم تأتِ..

صباح اليوم التالي استيقظتْ على صوت تحركاته بالمطبخ الملحق بالجناح، يقف بكامل أناقته إلا من سترة الحلة الرمادية الموضوعة على مقعد عالٍ جوار السطح الرخامي، يعد قهوته بماكينة خاصة.. يصبها ويرتشفها بهدوء دون أن يمنحها نظرة..

يلتقط سترته، يرتديها.. يخرج!..

هكذا.. بل هكذا في كل يوم مر، كأنها ليستْ حوله، ولا وجود فعلي لها.. استراحتْ!..

ربما، لكنها تدرك أنها هدنة مؤقتة، هدنة تنتظر لحظتها المناسبة لتعود الحرب بساحة روحها وجسدها..

"شمس!"..

انتبهتْ على صوت الآخر..

أخيه الذي تجاهلها كذلك وكلما التقتْ ببصره كانت تلمح في نظرته اللوم، التوبيخ.. الخوف.. والندم!..

واجهته بوقفة هادئة ونظرة ثابتة، فاترة، جامدة أجبرته على الإشاحة بعينيه للحظات..

عاد إليها بعدها بهمس خافت:

- أنا آسف..

لم تجِبه فأكمل دفاعه:

- ما كنتش عاوز أجرحك ولا عاوزك لنفسي، كنت عاوز أحميكِ..

لم تنطق، لم ترمش. كل ما فيها ساكن، خامد، مبعثر:

- كنت أقدر صدقيني..

تعلق بصرها به في لمعة أمل مرتْ بمقلتيها سريعًا قبل أن تنطفئ، تنطفئ ويحل محلها رعشة ثم بسمة لم تكتمل:

- تعرف إنك شبهه قوي دلوقتِ، حتى نظرة عينيك!..

أغمض عينيه بغصة قبل أن يكرر بحشرجة:

- أنا آسف..

كان غافلًا، وكانت غافلةً عن عيني الجارح المراقب من خلف زجاج مكتبة جده!..

بوجه غامض ونظرة كزمهرير شتاء غاضب سقطت ببركان على وشك الثورة، تتقلب بين الاحتدام بلهيب لن يرحم أحدًا يسقط في طريقه، والسكون الجليدي الذي يخبئ إعصارًا لا يتصف بالنبل..

الآن أخيه يطارد زوجته، يقطع طريق شرودها ويهمس لها بما لا يسمعه لكن نظرته تكفيه ليفهمه.. هو يعتذر!..

عن سوء ظنه فيها ربما، في طمعها وانتهازيتها المستغلة والطامحة للثروة والانتقام الذي لا يعلم له سببًا؛ ولا يهتم بأن يعلم..

ربما لم تخضع لأجل المال، ربما هددها العجوز الذي يدرك أنه لا يرحم.. لقد زوَّجها إياه انتقامًا من ميت!.

ربما ذلك آخر همها، لكنها كانت تريد أخيه الأكبر، شبيه الحبيب..

ورفضها المبرر شبه منطقي.. هل هي مثالية!..

مظلومة!.. ملاك!..

ربما.. لكن الملاك سيحترق، سيذوي في جحيم الشيطان، وتلك هي الحقيقة الوحيدة التي لا يباح الالتفاف حولها..

- شمس شكلها حزين، أنت مزعلها!..

أتتْ من جده الذي وازاه في وقفته يراقب رحيلها عن حفيده واجم الملامح.. وجومًا شاع بالنشوة بصدره..

حطمها، حطمه.. وها هو يبني جسرًا من ود وثقة بينه وبين الحوت الصغير.. خليفته المنتظر!..

الخليفة الذي لم يلقِ إليه بنظرة بينما يجاوبه ببرود:

- ما بحبش الكلام عن حياتي الشخصية..

عقد "يونس" حاجبيه قبل أن تصله الاستطرادة الصخرية الخالية من كل شعور:

- بس أيوة، مزعلها..

تضاعفتْ النشوة بعروق المجاور له..

لقد كان على حق؛ تلك الشمس انطفأتْ وبعد أيام معدودة، فكيف بعمر!..

لقد أهداها له كوسادة، حقيبة لَكم يفرغ بها غضبه الذي يوقن بوجوده رغم أنه يخفيه بلا جهد، ستهدأ نفسه بعض الشيء.. يتراجع المحارب داخله عن خطة ثأر يعلم أنها قيد التنفيذ وإن كانت ببطء..

ثأْر لنفسه ولأمه التي يرفض الحديث عنها أو عن حياته الماضية، فكل ما يعرفه أنه يدير مطعمه الخاص ذي الخمس نجمات بإحدى مدن اليونان.. وياله من فوز!..

يفوز بوريثه المثالي، حفيده القادم في صفه، ويهدئ من غضبه..

ويقهر تلك السارقة، يعاقبها.. ويعاقب فلذة كبده في قبره، أو من كان!..

الحفيد الغالي الذي تمرد في الظل بجُبن..

لم يبخل عليه في يوم بشيء، بل في لحظة ما حرم أخيه وكان هو وريثه الوحيد، لذا يستحق عذاب روحه بفقدان من أحب:

- أكيد مش تدخل يا يعقوب، دي حياتك عيشها بطريقتك..

نعم.. فتلك الطريقة تناسبه للغاية، ولا يبغي غيرها..

- أنا لاحظت أوضة مقفولة في الجنينة اللي ورا، بتاعة إيه!..

غير فحوى الحوار في ثوان متجاهلًا ما سبقه حتى أن جده تفاجأ وفكر للحظات بعدها أجابه:

- دي أوضة فاضية، بس الجناينى بيحتفظ فيها بحاجته..

- عاوزها..

وازت الرغبة التفاتة، لقاء عينين.. وصرامة باترة ترفض السؤال المتوقع عن سبب، استجاب "يونس" بسلاسة تشبه نطق كلماته:

- هاجهزهالك..

- قفلها ومفتاحه بكل نسخه معايا أنا بس..

أومأ الجد بموافقة هادئة.. فكل طلب مجاب وكل رغبة مباحة ولا يبالي بالثمن!..

**

هي امرأة اعتادتْ الهروب.. ربما لأنه الطريق السهل، لم تألف الحرب بل وتخشى وغاها ونيرانها..

في المرة الأولى هربتْ مع حبيبها، في الثانية هربتْ لأهله.. وفي الثالثة هربتْ لزيجة كانت تظنها غير تامة الأركان.. والآن تكرر الهروب..

ها هي تقدم جسدهًا قربانًا لتبقى مع صغيرها الذي وضعته بين يدي "يونس" وفكرة وردية تناوش روحها الحمقاء..

صعدتْ لغرفته فوجدته بصحبة مربية أبيه "بهجة".. المرأة التي تعاملها كأمها وترعى طفلها كجدته، كانت تلاعبه بعدما غيرت له ثيابه واستعدت لتهبط به لجده في ميعاد يومي بات شبه ثابتًا..

هذا الرضيع هو مسمار تمسكها بجدار الحياة المهدم..

تتعلق به ففيه نجاتها..

هو قبس من نور يضيء عتمة تظلل هذا المنزل بكل من يسكنه..

حملته تقبله وتدفن أنفها في بطنه تدغدغه، تمسك بكفه المكتنزة فتكاد تأكلها، تداعبه وتنسى كل شيء.. تنسى العالم بمخاوفه وآلامه وخساراته..

لاحظتْ تصلب نظرة المرأة على مجهول خلفها، نظرتها مرتبكة هاربة وتأكدت أنه أتى، استشعرت جحيم صمته المراقب يحرق ظهرها!..

نهضتْ "بهجة" بهمهمة غير واضحة تتناول منها الصغير، تحيطه بعناية وتغادر الغرفة عبر بابها الآخر في حين استقامتْ هي تواجهه..

تواجه سواد عينيه الداكن والمخيف..

عيناه سوداوان كأخويه تمامًا، لكن نظرته هو مظلمة، تتأرجح على خيط رفيع بين القسوة، البرود، الوحشية.. والسعير..

تأمل ما ترتديه باستهجان.. ثوب ربيعي، خفيف ناعم بصُفرة ليمونية وأكمام طويلة، يصل لكعبيها من الخلف ويقصر قليلًا من الأمام، ثم يضيق عند خصرها بحزام رفيع، استدار عائدًا إلى غرفته بعدما أصبحت غرفة ابنها تخصها أيضًا مشيرًا بكلمة واحدة مقتضبة:

- تعالي..

تبعته تستدعي هدوء نفسها وثباتها.. مرتْ بكامل جسدها قشعريرة من جليد، هل يريدها ثانية!..

هل تَذَكرها الآن!..

دلف لغرفة النوم وأفكاره تحتدم، هي مجرد فرع من جذر أتى ليحرقه في جحيمه.. لا تزيد أو تنقص؛ جذرٍ أنبتَ رجلًا منحه نصف جيناته ثم اختفى..

ولأنها ترتبط بذات الجذر فعليها وعليهم اللعنة، ستحترق ولا يبالي..

لقد تركها تتلظى فوق نيران ذبحه لأنوثتها ليلة زواجهم، تجاهل وجودها وكان لا يراها بالفعل.. تركها تظنه يريد وشمها ببصمته وحسب، لا تعلم نيته وحتى لو علمت لن تفهم.. هو هنا ليشفي غليل سنوات القهر والذل والمهانة.. هذا إن كان لذلك شفاء!..

توقف بمنتصف المكان ونزع قميصه القطني عبر رأسه دفعة واحدة، التفتَ إليها وهي تبعد ناظريها عنه بفرار متألم..

نعم يريدها وسيكرر السرقة، والأذى..

- واقفة عندك ليه؟..

رفعتْ بصرها إليه، تزم شفتيها وتفرك كفيها في محاولة للتماسك وقد يكون العناد:

- عاوز إيه؟..

رفع أحد حاجبيه بسخرية لامبالية:

- عاوز مراتي..

وأشار لصدره ببساطة مغيظة:

- مش واضح ولا إيه!..

لم تستطع منع حمرة تسللتْ لوجنتيها، حمرة غضب ممتزج بحرج ورغبة في الاعتراض، تراجعت خطوة صامتة ضَيق لها عينيه وتحرك تجاهها باختطاف أشبه بفهد يقتنص طريدة جريحة:

- اسمعي يا شمس..

كان يشرف عليها بقامته الطويلة وجسده المتحفز، يحجب عن عينيها كل ما سواه بحضور قاتم:

- عاوزة تعيشي في سلام!..

رأى رمشات أهدابها تتابع بتوتر قبل أن يردف بشراسة:

- اتعلمي الطاعة..

تحكمت أصابعه بذقنها تجبرها على رفع وجهها لتقابله:

- أنا ما بحبش الجدال.. والأهم!..

انحنى يهسهس قرب أذنها وحرارة أنفاسه تلفحها فيتعانق جفناها برفض.. بانكماش:

- ما بحبش حد يعصى أوامري..

نفضها وتراجع دون أن يبتعد، ظل يهيمن بوجوده على محيطها، لمح الخوف بعمق حدقتيها اللامعتين بعبرة مكبوتة..

عبرة أمتعته..

هو ليس ساديًا يتلذذ بعذاب امرأة ضعيفة، هو يثأر لامرأة أخرى خُدعت باسم الحب!..

وتلك الواقفة في مواجهته ترتجف؛ هي درجة أولى سيدهسها بصدر رحب، ابتسم بتوحش:

- خايفة مني!..

ازدردتْ ريقها في محاولة واهية للتماسك، لم تكن أبدًا خانعة.. وورقة الضغط التي يلعب بها هو وجده في حربه معها يمكنها المناورة بها أيضًا..

هي أنثى.. وتعلم أن كيد النساء عظيم؛ لكن ليتها تمتلك بعضه، شمخت برأسها ونفتْ بنبرة هادئة:

- أكيد مش خايفة..

تكذب!..

مرحى.. القطة تحاول خدشه والنيل منه، لم يمنحها الفرصة لثوان، بل اقترب أكثر وأكسب نظرته قسوة طاغية..

قسوة لا نجاة منها، قسوة هي طبعه وطبيعته..

قسوة تمكنتْ من إخافتها فابتعدتْ برجفة ارتسمتْ لها بسمة ضارية فوق شفتيه وسبابته تنقر وجنتها بقوة:

- Good girl..

تباعدتْ خطواته إلى الحمام يأمرها بحزم:

- اقلعي واستنيني..

ارتفع حاجباها في صدمة غير مبررة، جوار دهشة حانقة جعلتها تتبعه بسخط:

- هو مافيش غير الطريقة دي!..

توقف فكادت ترتطم به لولا أن تماسكتْ وهو يلتفت إليها بتهكم:

- إيه.. عاوزاني أقلعك بنفسي!..

واجهته بإشارة من سبابتها الحائرة بين الإشهار بوجهه والانقباض:

- أنا.. أنت...

راقب لعثمتها بحاجب مرفوع غير مكترث:

- إزاي...

مع الحمرة التي عادت لوجنتيها بقوة فهم ما تقصده، فهمه وصمت عامدًا ينتظر استطرادتها التي أتته بحروف مهترئة تتمسك برداء الغيظ علَّها تكملها:

- أنت إزاي مش فارق معاك إنك بتعمل علاقة مع جثة!..

عقد ذراعيه حول صدره وهزأ كأنما يتعمد التقليل من شأنها.. من شأن أنوثتها:

- أنتِ شايفة إنك تقدري ترضيني!..

صمتت.. صمتت تدير عينيها، تنأى عنه، مط شفتيه بتقرير مبتور:

- كنت عارف..

عادتْ إليه بنظرة متحدية:

- تفتكر أنا بدور على رضاك!..

ابتسم باستهانة:

- طبيعي الزوجة تدور على رضى جوزها..

مال قليلًا يحتل بصرها:

- في كل حاجة..

ارتد للخلف يشد قامته ممررًا لها حقيقة واحدة عليها الانتباه لها:

- بس هاجاوبك..

وغامت عيناه بقسوة مباغتة بينما نبرته تصلها فظة صارمة خالية من انفعال يحتمه المضمون:

- بالنسبة لي نشوة السيطرة هي الأهم..

مقصود كلماته استوعبته.. وأخجلها!..

نعم وقهرًا..

خجلها ضاعف من غضبها لكنها جابهته بتماسك هش، لوى شفتيه هازئًا بعدها:

- ده غير إني ما يهمنيش أرضي رغباتِك..

نفتْ بحدة ما تراه تهمة:

- أنا ماعنديش رغبات..

- متفقين..

هكذا.. مجددًا!..

أوقفتْ رحيله ثانية بعجز كأنما تطيل أمد فرارها منه ومن قربه:

- أنتَ وافقت تتجوزني ليه!..

زفر بملل وجاوبها بلامبالاة باردة:

- جدي عرض عليَّ باكدچ معين، وأنتِ كنت من ضمن الصفقة..

أوجعتها الكلمات رُغم علمها بها.. هي من جنت على نفسها ذلك الألم، ويحق لها محاولة التخلص منه بردِّه لصدره:

- كان ممكن تختار اللي يهمك منها..

هز كتفيه باستخفاف:

- للأسف الباكدج يا كله يا مافيش، وأنا كان يهمني آخده..

كلمته الأخيرة جاءت تجاور غيمة داكنة ظللت عينيه بظهور قارص:

- Don't take it personal..

- بس...

كانت تريد معرفة لمَ يعاملها بهذه الطريقة!..

لمَ يقسو وهو لا يعرفها ولا تعرفه!..

لمَ ولمَ ولمَ!.. لكنه بتر كل سؤال بحسم:

- كفاية كلام..

واستدار إلى الحمام، يتجاهل تصلب وقفتها مدمدمًا بصرامة:

- نفذي اللي أمرتك بيه..

الآن بعد كل تلك المماطلة، هل تملك سوى الخضوع!..

خضوع جارية أمرها سيدها.. مالكها بأن تُحضر نفسها لمعركة امتهان ثانية بين يديه..

هي من دفعت بنفسها لمعمعة تلك الحرب، كانت تظن الثمن ورقة!.. ثم تفاجئتْ بأنه يزيد؛ وعليه فقد سبق السيف العذل والدفع والقبض.. وانتهى..

أغمضت عينيها بتعب.. استجابت بآلية تستمرئ دور الجثة حقيقةً، شعورًا وفعلًا..

إن هي إلا لحظات قصيرة وتنال حريتها حتى المرة القادمة، لينتشي بدهسه لجسدها كما يريد.. لكن هناك؛ بأعماقها..

روح حرة.. قلب نابض..

وذكرى لن يصلها بطش يديه مهما عاث بكيانها الفساد..

**

هو قناص محترف!..

ذئب، والذئاب أكثر من يتقن الصيد.. من يتفنن باجتذاب الفريسة، من يتلذذ بها بتأنٍ، من يلتهمها قطعة قطعة وهي على قيد الحياة!..

مخيف.. حدد معها موعد اللقاء بمربيتها، دعته لوجبة غذاء معدة بالمنزل وهاته لم يستمتع بشبيهتها منذ زمن طويل..

استقبلته مع السيدة بثوب كلاسيكي طويل الأكمام، ماروني يتماشى مع لون بشرتها بأناقة، يحيط خصرها بحزام رفيع معقود بربطة بسيطة وينسدل باتساع ليتخطى ركبتيها بقليل.. فتحة صدره المثلثة الصغيرة تخبره أنها متحفظة حتى وإن بدلت حُلتها العملية بثوب أنثوي..

تم تحضير مائدة الطعام بالحديقة، تطل على زهورها المفضلة، بينما تجالسه والمربية تحيط بهما بعناية كأنما تراقبه، تسبر أغواره، تفتش عن وحش يختبئ تحت جلده سيلتهم مدللتها ربما!..

لكن العذر معها..

فوحشه الكامن لا يرى النور أبدًا، هو يحيا بقلب الظلام ويتغذى عليه..

لن تراه عينا عجوز أقرب لأم خائفة..

مع انتهاء الوجبة أهداها بسمة راقية جذابة.. بل آسرة ساحرة وعمق نبرته يساهم في حصارها:

- مش عارف أشكرك إزاي على الأكل اللذيذ ده يا دادة زُهرة، بقى لي سنين تقريبا ما أكلتش أكل بيتي..

ختم كلماته بشبح شجن ظلل صوته، جعلها تربت على يده بحنو أم:

- ليه يا حبيبي، والدتك فين!..

غُصت "وسن" بعصيرها فنالتْ منه نظرة دهشة.. أهدتْ هي مثلها لمربيتها تثنيها عن تلك الأسئلة:

- دادة.. عمار صديق...

- والدتي الله يرحمها، من زمان جدا.. ووالدي كمان بس من حوالي عشر سنين..

وعينه تلومها، تخرسها..

تخبرها أنه يريد الحديث مع أمها الروحية لأنه يريدها هي.. الاقتراب.. الامتلاك، ولا مانع لديه من تحقيق شامل وكامل ووافي لو رغبت..

هربت بعينيها والمربية تنطق بدفء:

- ربنا يرحمهم يا حبيبي..

وهي تتأمل كيف ينظر لصغيرتها؛ عيناه غامضتان، لونهما الآخاذ رُغم روعته.. به شيء مقبض!..

رنين هاتف "وسن" قطع الحديث عندما اعتذرتْ بلباقة تجيبه:

- المستشفى.. معلش دقيقة واحدة..

ابتعدتْ عنهما عدة خطوات، استغلتها "زُهرة" بسؤال مباشر أرادتْ معه مباغتته:

- عاوز تتجوزها ليه!..

لم يندهش لكنها هي من أردفت بحسم سريع تسبق رده:

- ما تقولش بتحبها، عينيك مافيهمش حب..

ابتسم ببساطة، يسألها بفضول:

- فيهم إيه!..

تنهدتْ بحيرة وبصرها لا يحيد عن بصره بتدقيق:

- مش عارفة فيهم إيه!.. عشان كده سألتك..

اتسعتْ بسمته بهدوء واثق، امتدتْ كفه تربت على يدها هي هذه المرة يمنحها أمانًا تنشده:

- ماتخافيش عليها، أنا مش شايف إن في واحدة تانية في العالم كله ينفع تكون مراتي غيرها..

وقبل تعليقٍ منها يجاور استغرابها وكلماتها استطرد بحزم:

- مش عاوز غيرها..

- ليه!..

مال برأسه وثبات نبرته لا يهتز:

- لأن عينيَّ اللي محيراكِ دي؛ مش شايفة إلا هي..

منع المزيد من الحديث عودتها باعتذار متضايق:

- عمار أنا آسفة بجد، مضطرة أروح المستشفى حالًا..

استقام يوازيها باهتمام ظهر لها صادقًا:

- ولا يهمك، هاوصلك..

تراجعتْ للداخل بهرولة:

- لا طبعا، ماتتعبش نفسك..

راقبها حتى اختفتْ بذات النظرة المبهمة التي تحتل مقلتيه قربها، حتى انتزعته من شروده المراقبة له هو:

- وسن زي بنتي اللي اتحرمت منها، مش هتتحمل وجع يا ابني.. لو هتأذيها...

- مستحيل..

قاطعها متخطيًا حدود اللياقة.. بكلمة واحدة باترة، صارمة أدهشتها وهو يكمل:

- واعذريني قاطعتك.. بس الأذى بعيد عن الحياة اللي باتمناها معاها..

بقلق مستمر واجهته:

- وسن اتوجعت قبل كده، انكسرت.. مش عاوزة أشوفها مكسورة تاني..

لن يسأل.. لمَ!..

لأنه يعلم التفاصيل..

الآخر الذي تخلى وقت سقوط والدها في براثنه هو..

ابتسم متخطيًا تصريحها بكياسة:

- أنا مش عاوز أعرف ماضي، اللي عاوزك أنتِ تعرفيه يا دادة.. إن المستقبل مش هيكون زيه، أبدا..

كلماته ممطوطة، تحتمل مائة معنى..

لا يكذب ولا يريد، وكل ما فيه يوتِّر محاوره حتى أنها تباعدتْ خطوة عندما لمحتها عائدة ببذلة رمادية أنيقة:

- معقول برده استنيت!..

مد يده إليها في إشارة لتتقدمه:

- قلت لك هاوصلك..

ودَّعا السيدة التي وجمتْ بمكانها تراقب رحيل الاثنين معًا، نظرة طفلتها المتعلقة به..

نظرته هو التي تحاوطها كفخ!..

والقلق عاد يطفو للسطح، ليس برجل سهل لكنها ستظل معها، ستحميها حتى آخر أنفاسها..

عندما وصلا للمشفى ترجلتْ تشكره.. لم يمهلها فرصة، ببساطة تبعها فتأملته بتعجب:

- مش لازم تيجي معايا..

واجهها ببسمة داعمة:

- عشان لو احتجتِ حاجة!..

لم ترفض؛ كانت ترغبه قربها..

في ظهرها، حولها وفي محيطها كل لحظة..

ذلك كان لقاؤهما الأول بعد عودته من سفرته، وهي تتوق لأن يطول لأقصى وقت مباح.. وربما غير مباح!..

هزتْ رأسها تنفض عنها أفكارها، تستنكرها وتخطو للمكان، ترى الهرج والمرج والفوضى..

ماس كهربي بإحدى غرف العمليات أحرق جهازين، عطلهما تمامًا عن العمل.. وكاد يتسبب في اندلاع حريق يشمل المشفى بأكمله..

احتوت الأمر وطلبت إحدى شركات الصيانة التي أبلغتها بعد ساعتين أن تلك الأجهزة منتهية!..

سقطت على أريكة مكتبها منهكة تعتصر أجفانها وكل تلك المسؤولية تجهدها.. لم تعُد تتحمل، حتى التبرعات والاستثمارات الجديدة لم تبدأ في استغلالها بشكل وافي بعد..

شعرتْ به يجاورها ففتحتْ عينيها ترمقه بنظرة يائسة، ضمها بين جفنيه برفق:

- أنا ممكن أساعد..

ودون ارتباك.. تخطى حدًا يدرك أنها لن تمنعه عنه؛ أبعد خصلة عن جبينها وصوته يتغلغل لأعماقها، يبعثر بقايا قواها، يفتتها بين يديه:

- ما تخافيش مني..

كيف تخشاه!..

كيف تخشى رجلًا عشقته، وكل ما فعله ويفعله هو تقديم قرابينه لذلك العشق الوليد بقلبها!..

ابتسمت بوهن، سألته بخفوت:

- هتعمل إيه!..

أهداها وهجًا لامعًا تراقص فوق مقلتيه قبل أن يغادر جوارها، يتناول هاتفه وبمكالمة لم تتخطَ الدقيقتين كان ينهي الأمر..

سيارة نقل مخصصة تحمل جهازين جديدين تمامًا تتحرك من أحد مخازنه تجاه مشفاها!..

وقفتْ في ظهره بذهول:

- كده كتير يا عمار..

استدار إليها يسقطها في بئر عينيه.. يصل بها للقاع..

وهناك لا نجاة:

- عشانك أنتِ مافيش حاجة كتير..

تعويذته تتكرر.. سحره ينفذ تحت جلدها، يتخلل مسامها، ينبض مع خافقها ويطوف شرايينها الخاضعة له..

غرقتْ لدقيقة كاملة اكتنفها الصمت خلالها، دقيقة ابتسمتْ في نهايتها بخجل:

- موافقة..

لمحتْ استفهامه..

ولم تلمح شيطانه ينتشي بالنصر!..

- موافقة أتجوزك يا عمار..

القاع!..

القاع مليء بالمغلفين أيضًا..

الفرائس وحدها تسقط..

أما فريسته؛ فسيمزقها إربًا بهجوم بطيء، متتابع، متقطع.. حتى يستنزفها بالكلية..

حتى ينهيها الألم!..

(10)

ليست كل الحبكات محكمة؛ أحيانًا يكون هناك..

ثغرة!..

**

العشق ملحمة خالية من الأبطال..

هو بطلها الأوحد والعشاق مجرد أدوار ثانوية لا تستحق الذكر!..

أما عنها؛ فمجرد ضيفة شرف صامتة في رواية لا تخصها.. وحبكة بدأتْ قبل أن توجد هي بمدراه..

رجل "السايبورغ"..

نصف لحم ودم، نصف آلة..

تجاوره في الطائرة، ترى انهماكه في ملف ورقي بيديه، يقلب بين صفحاته ومنظار القراءة خاصته منسدل فوق أنفه المستقيم، تجاوره

كأنها النافذة.. الهواء المحيط به، موجود لكنه لا يكترث بذاك الوجود، غير محسوس، من المنطقي أن يكون هناك وحسب..

استرخت في جلستها ورُغمًا عنها عيناها تعلقتا به، تحبه!..

كلمة تافهة لا توازي ذرة مما بقلبها.. لمَ أحبته!..

حماقة السؤال تشبه مباشرة الجواب..

الحب لا أسباب له..

الحب غير مشروط بدافع..

الحب عثرة.. الحب سقطة..

الحب هو الحافة التي نَزِل من فوقها بلا مقدمات، ولا نشعر بالكارثة إلا مع الاصطدام بصلابة الحقيقة..

حقيقة أنه لا يحبها..

لم يحب أمس، لا يرى امرأة اليوم، ولا تدري أفي الغد أمل أما أنها في غرامه مفقودة!..

اعتدل لحظة يرمقها من فوق منظاره، حدقتاه تغيمان بنظرة مفهومها واسع، كبير.. غامض عليها..

نظرة أربكتها وإن لم تربكها كلماته الجامدة باعتياد:

- حاولي تنامي شوية على ما نوصل؛ مش هنروح على الفندق مباشرة، هنروح على المستورد..

هزتْ رأسها بلا معنى وهمستْ برفق:

- وأنت مش محتاج ترتاح شوية!..

رفقًا لا يناسب غضبها منه، وقرارها بالبُعد..

مادامت حوله ستعتني به، بقلب عاشقة واحتواء أم..

تجاهل اهتمامها وبصره يعود للعمل، يركز فيما يريد، ويقتل ذلك الاهتمام بالمهد:

- لا مش محتاج، لازم أراجع كذا نقطة في العقد اللي بينا وبينهم..

وازته في جلسته، تترك استرخائها، تعرض معاونة:

- ممكن أساعدك في المراجعة، في كذا حاجة لازم تتغير...

- الشئون القانونية تكفلت بالموضوع ده يا رهف، مش شغلك..

صدمها رده القاطع.. صدمها وفجَّر حنقها فقطبت باستياء، أدارت وجهها عنه باحتجاج وهمسها لنفسها يتكرر..

"كلها أسبوعين بالكتير وتسيبي الشغل، هتبعدي عنه وترتاحي"..

هنا يُطل قلبها من خلف دخان حريق دواخلها بحزن:

"تفتكري هتقدري!"..

- هاقدر..

دمدمتْ بها بعناد وصوت مسموع جعله يلتفت إليها بتساؤل:

- تقدري على إيه!..

كبتتْ دهشتها وأهدته بسمة سمجة بينما تسب روحها لغباء الصورة:

- مافيش..

منحها نظرته الغامضة مجددًا، ودفن نفسه داخل أوراقه..

مسكينة هي لا تدرك أنه رجل آلي، تتخلله بعض أنسجة بشرية، ومضخة دم.. تفتش فيه عن عاشق لن يكونه أبدًا، ويحميها هو من السقوط في لعنته..

فحينها لن تنال سوى الهلاك.. الموت!..

كمن سبقتها..

من منحته كل شيء، الحب، القلب، الروح، الجسد.. والابن!..

ابنًا حملته فقط إرضاءً له رُغم قلبها الضعيف وبدنها الأكثر ضعفًا..

ابنًا حُرِم منها قبل أن يتم عامه الأول.. وهو!..

"عدي درويش".. قاتلها بلا عقوبة، المذنب في قصة حبها الفاشلة، والرجل الذي لم يمكنه منح أنثاه ما تستحق..

هبطتْ الطائرة، ساعدها على النهوض ثم أشار إليها لتتقدمه..

وبلحظة المساعدة ارتبكتْ الأنامل قرب حزامها، ارتبكتْ وارتجفتْ بلمسة عفوية انتفض لها خافقها..

وهو!.. بالطبع لا شيء..

خطت تغادرها، تجلس معه في سيارة كانت بانتظارهما لتنقلهما مباشرة للشركة المقصودة.. بعد نصف يوم قامتْ فيه بدور المترجم من الهولندية إلى العربية والعكس، حيث هو يجيد الانجليزية والآخر لا يجيدها حتى!..

نصف يوم وعادتْ معه للفندق، قرب غرفتها توقف معها، أخبرها بنبرته العملية التي لا تتبدل في أي موقف وبكل مشهد:

- بكرة في اجتماع تاني بعد تعديل الشروط، الملف اللي معايا ده هاسيبك ترتاحي ساعتين وتيجي لي السويت نعدله ونشوف هيناسبنا منه إيه!..

اهتزتْ مقلتاها وجفناها يتباعدان كأنما ضربتهما موجة عنيفة عالية مع كلماته:

- أجيلك السويت!..

كان سيرحل..

صدقًا كان سيفعل.. لكنها بلهاء!..

اعتراضها ذاك، ومعه هو.. يستحق ردًا قاسيًا لن يبخل به:

- أيوة يا رهف، تيجي لي أو آجي لك أوضتك.. ده ملف مهم، وصفقة ضخمة ما ينفعش نقعد نناقش شروطها في كوفي شوب..

- بس...

- ده أولا..

بتر حروفها بصرامة أعلمتها أنه حتى لم يلحظ اعتراضها:

- ثانيا بقى، إحنا جايين في شغل.. الخيالات اللي في دماغك دي ما تنفعش معايا، وأنا مش مدير شركة في فيلم قديم هابط هاستغل سذاجتك عشان أغراضي الدنيئة..

ودقَّ الجدار جواره بقبضته:

- مفهوم!..

تراجعتْ بوجنتين محمرتين.. هي لم تشكك فيه، لا يمكنها أن تسيء به الظن، وليس لأنه رجل جيد، صادق وربما مثالي بعينيها.. ليس لأنها عاشقة والعشق سحابة تعمي الأبصار..

لا.. هو "سايبورغ".. ونصفه الآلي يسيطر..

همستْ باعتذار هادئ تتدارك موقفها رُغم الخجل:

- ما أقصدش حاجة يا مستر عدي، حضرتك مالوش لزوم الكلام ده كله..

لم يتحرك، لم يتنفس.. سلط نظرته عليها حتى شعرت بها تخترقها، وبعد خمسٍ وثلاثين ثانية استدار تجاه جناحه، دلف إليه وأغلقه من خلفه ببرود..

برودًا سيقتلها في يوم ما.. لكنها لا تملك سوى تلك الانتفاضة بين ضلوعها..

حتى في قسوته وجموده، قلبها يخفق له..

هي حمقاء في العشق، على وضع الصمت ربما للأبد..

لكن لو كان الهوى بضغطة زر يمتنع!..

لا.. لن تمنعه..

ستظل تسقط ولتذهب كل الحقائق الموجعة إلى الجحيم..

**

هو خرافة خلقها عشق، وأماتها غدر..

الأسطورة تحكي عن طائر جميل.. قوي، احتارت الملاحم في وصفه، في تخيله بين حقيقة الوجود ووهمه، لا يشيخ، قرب نهايته يهاجر لمسقط رأسه، ينتقي أعلى شجرة تصل لعنان السماء ثم يبني فوقها عشه.. ويحترق!..

بعدها يُبعث من رماد احتراقه..

يأخذ طوره في النمو، ومن شرنقته يعود طائر جديد..

إثرها يحمل رُفاة حياته السابقة إلى معبد الشمس، فيتم تبجيله وتعظيمه..

"العنقاء"..

طائر النار..

الوحش من رحم العاشق، والرجل الذي يرى العالم بلون الدم بعدما كفر بالعشق..

لم يعُد كما كان ولن يعود، خيانتها بدلتْ فيه كل خلية.. كل فكرة.. كل نبضة.. قتلتْ كل شعور ومحتْ كل عاطفة..

خيانتها أحرقته.. خيانتها بعثته من جديد..

ومن رماده له ثأر!..

كان بمكتبه في الفندق ينهي بضعة أعمال، صديقه القلق منذ ما حدث اتفق معه على موعد غذاء سويًا، لا يرى له أهمية لكنه استجاب بهدف التخلص منه ومن اهتمامه، بدفعة أخيرة يبعده بها لمسافة كافية تسمح له بالانفجار دون أذى..

قبل قليل أتاه مساعده ليخبره عن مشكلة في خدمة الغرف، عاملة كسرت شيئًا باهظًا ومالكه يصر على عقاب لم يتأخر هو فيه؛ أمامه وأمام الجميع فصلها من العمل..

وعاد لمكتبه ببرود لا يأبه لبكاء أو رجاء..

الساعة تخطت الواحدة ظهرًا، موعد عودة طفليه للبيت يقترب، مؤخرًا كان يذهب بهما للمدرسة بنفسه، ويعود معهما..

صغيرته منذ إعلان وفاة والدتها، واجمة.. صامتة.. كلماتها محدودة وحتى ضمته تهرب منها..

طفله يتعلق به، بات ينام بأحضانه كل ليلة كأنما هوة الفقد تخيفه كما ابتلعت أخته..

أخرجه من شروده هاتفه برنين، رمق الرقم بتوتر وفتح الخط بلا تردد ليجد مديرة مدرسة الصغار تطلب منه الحضور بهدوء..

هدوء لهجتها لم يخفف من ذعره، من ركضه وقيادته شبه المتهورة في زحام الظهيرة حتى وصل وهناك كانت المفاجأة!..

ابنته صفعت زميلتها!..

رآها باكية دون دموع، عبراتها متحجرة خلف أجفانها، وجهها ثابت جامد، ونظرتها ضائعة..

ضمها إليه.. وبعد محاولة الاستفسار علم أن مشادة حادة حدثت بين الصغيرتين انتهت بالصفعة، ودفعة أسقطت الأخرى.. طلب منها الاعتذار فأبتْ، عاندتْ وحافظتْ على السكون المتحدي..

السيدة الفاضلة لم تكن غاضبة، فقط اكتفتْ بلفت انتباهه لها، لما يحدث معها.. وقدرتْ الموقف عقب فقدان أم!..

عندما عاد بها وأخيها للمنزل، سلمه هو لمربيته واحتفظ بيدها في يده، سار وإياها لمكتبه وهناك جلس على أريكة واسعة ورفعها في مواجهته:

- ممكن أفهم إيه اللي حصل!.. من إمتى بنستخدم العنف يا ضي!..

رمقته بنظرة حادة لا تناسب الثماني سنوات قبل أن تخبره برجفة غلفتْ صوتها:

- قالت لي إني بقيت orphan!..

طعنته الكلمة بأعماق روحه بينما هي تكمل ودموعها ترفض السيل، بل لمعت فوق حدقتيها ببريق حزين:

- مادام مامي ماتت أبقى orphan، ماعنديش أم..

ولامته بنظرة باهتة ظالمة:

- وأنك هتجيب واحدة تانية مكان مامي..

تراجع قليلًا بدهشة.. صغار اليوم لا يشبهون الأمس في شيء!..

اقترب منها وحملها فوق ساقيه، ضمها لصدره باحتواء دافئ:

- أنتِ مش يتيمة مادام بابا عايش..

- بس مامي ماتت..

نطقتها ودفعته تبتعد عنه بغضب صريح أنبأه عن حالها:

- ماتت من غير ما تقول، اختفت من حياتنا من غير ما أشوفها..

أجبرها على العودة لأحضانه وأفكاره تشتعل:

- عشان كده زعلانة!..

لم تُجِبه.. صمتها كان الرد الذي لا يريد غيره، مهجة روحه التي ابتسمت له دنياه عندما ضمها بين ذراعيه للمرة الأولى، وردية البشرة رهيفة الحجم، واهنة وهشة.. وهو جدارها العازل وملاذها الآمن..

- الموت يا ضي ماحدش يقدر يقوله لأ..

تخللتْ أصابعه خصلاتها التي تشبه سطوع الذهب في خصلات أمها:

- لما بيجي بياخد مننا اللي بنحبهم وكل اللي نقدر نعمله إننا نقول ربنا يرحمهم..

حركتْ رأسها بنفي ولم تتراجع هذه المرة:

- كان ممكن تقولي إنها هتمشي، بس هي مشيت.. اختفت وبس، بقيت orphan..

وضربتْ صدره بقبضتها الصغيرة:

- عشان ماتت وسابتنا..

أبعدها هو ينظر بعينيها وكلماتها تمزقه..

كلماتها تعلقه فوق هاوية الألم.. فوق الجحيم..

تلك الخائنة لم تكسره وحده، لم تحطم فؤاده فقط؛ بل امتد الوجع لطفليها اللذين لم تحسب لهما حسابًا، ولم تلقِ لهما بالًا عندما كانت مع رجل غيره..

الصورة تقتحم عقله فتثير فيه البراكين؛ هي.. الحبيبة بفراش آخر، بين ذراعيه، يمتلك منها ما امتلكه، بغير حق!..

الحمم تنصهر بها عروقه، وعبرة حارقة تلسع أجفانه فيتعصرها ويعتصر قبضتيه قربها، متجاهلًا الأمر بنبرة حانية جاهد ليخلقها:

- عارفة يعني إيه اسمك يا ضي!..

نفت ببراءة رسمت بسمة دافئة فوق شفتيه، أعادها لطوق ضمته وهمس لها بفخر:

- الضي هو النور..

منح خصلاتها قبلة طويلة أردف عقبها بشرود:

- يوم ما اتولدتِ، وشيلتك أول مرة.. حسيت دنيتي كلها نورت، كأن الشمس طلعت فجأة مع إننا كنا بالليل..

واعتصرها بقوة تناسب حجمها الضئيل:

- أنتِ نور حياتي يا ضي..

اعتدلتْ ودمعة تترقرق أخيرًا بعينيها، تسافر عبر أهدابها فتنسال على وجنتها ببريق منطفئ:

- وباهي!..

ابتسم لها وإبهامه يمسح دمعتها:

- أنتِ وباهي دنيتي كلها..

- يعني مش هتجيب حد مكان مامي!..

سؤالها أوشك أن يستدعي منه ضحكة ساخرة..

هو في هذه اللحظة يشعر بالقرف من جميع النساء، يكاد يتقزز من مجرد الرؤية فكيف سيأتي بأخرى لحياته!..

قبَّل جبينها وتنهد بعمق:

- مافيش حد ممكن ياخد مكان ماما..

وكان صادقًا حد الاختناق؛ هي امتلكت فيه كل عشق، وقبل رحيلها أحرقته..

تركته يتلظى بأنينه وحده، فقتلها..

لكن هناك آخر!..

هناك ثأر لم يبدأ بعد؛ هناك في جهنم أفكاره.. جُحر مخصص، هوة محجوزة لمن خان وغدر.. سينهيه..

هو الخرافة التي قهرت الواقع وهدمت جدرانه..

لم يكن شيطانًا؛ لكنه سيكون!..

**

كيف يموت المرء!..

يتوقف قلبه، تنتهي أنفاسه.. يبرد الجسد وتمسه زُرقة رحيل الروح..

كيف يموت إذًا وكل ذاك لم يحدث!..

يموت بخطيئة لا تغتفر، بذنب عظيم يقتل دون موت حقيقي..

أسبوعين وبضع ساعات، مجرد أيام.. قبل قليل وقفت قرب سور مدرسة صغيريها تراقبهما، والدهما يمسك كل منهما بيديه، يتجه إلى سيارته ويقود بهما مبتعدًا..

امرأة ملعونة.. امرأة مفقودة؛ امرأة مدنسة يجب أن تدفن بقبر عفِن..

أم تشتاق ولا دواء للشوق، هي من قدمت الألم فاستحقت الخسارة حتى الثمالة..

بخصلات بنية مصبوغة تشبه الملايين غيرها، كنزة طويلة وسروال من الجينز، وشاح ومنظار شمسي ضخم يخفي ملامحها الباهتة.. وقفت في الظل تسترق النظر..

بل تسرق اللحظة..

تبكي.. هي في كل وقت تبكي، دموعها لم تتوقف منذ ذلك اليوم.. والآن بعدما فقدت كل شيء تشتهي الهلاك لا سواه.. فناءً حقيقيًا يريحها من ذلك الخيط الرفيع الذي يخنقها بين الحياة والممات..

عادت للفندق الصغير، أحصت بقنوط ما تبقى معها من مال.. الآن أصبحت كطيف، يزور عالم البشر فلا يشعرون به.. ورُغم ذلك لابد وأن تحيا!..

كيف تحيا!..

ربما زوجها لم يستخرج لها شهادة وفاة، اكتفى بالتابوت والعزاء.. أو فعل!.. هي لا تعلم.. هويتها كذلك لا تدري أيمكن تغييرها أم لا!..

وفكرتْ بسذاجة؛ هل تستطيع تغيير اسمها!..

انزلقتْ في الفراش تفكر في الغد، بالأمس قررت البحث عن مَسكن أقل تكلفة، عن عمل يناسبها.. ووجدت أن الأشباح لا يعملون كما أخبرها الحبيب..

كيف ستعمل بتخصصها وهي حتى لا تملك أوراقها كاملة!..

في الصباح وجدتْ شقة صغيرة، بمكان هادئ للمغتربات، تتشاركها بعض الفتيات العاملات أو الدارسات بينما صاحبتها تسكن في طابق يعلوها.. تواصلت مع السيدة وحجزت لها فراشًا بغرفة تشارك فيها فتاتين، حتى حين!..

هي حائرة من أين تبدأ!..

هل هناك بداية بالفعل أم أنها انتهت وبقي فقط أن تموت!.

استقامت ترمق الشارع من النافذة بتيه.. تستدير وتجمع حاجياتها البسيطة في حقيبتها الصغيرة، تتناول هاتفها وتغادر..

اليوم هناك واحدة جديدة وُلدت..

"ليلى عبد الهادي".. وحذفت اسم العائلة، فهي لم تعُد تملكها.. واحدة لم تقابلها من قبل، لكنها ستسلم للحياة دفتها ترسو بها أينما شاءت..

فإما تنجو.. وإما تغرق!..

**

قالوا: بالنار يُختبر الذهب.. وبالذهب تُختبر المرأة.. وبالمرأة يُختبر الرجل..

أو بالأحرى يُختبر صبره!..

ثلاث ساعات، خرج خلالها أربع مرات يدخن التبغ بالشرفة، يعبث بجهاز تحكم التلفاز بملل.. يفكر في الاتصال بصديقه ثم يلغي الفكرة فالصديق ملَّ من خناق اهتمامه.. يستلقي على الأريكة

وينال عشر دقائق من نوم مخطوف.. يستيقظ، ويناديها بعصبية فترد بدلال مشاكس:

- قربت خلاص والله..

ابتداءً بحمام ما يجهل كنهه ووظيفته، لقناع غريب مثير للفزع تلطخ به وجهها، انتهاءً بالثوب والزينة وتصفيفة الشعر وصولًا لزعقته نافذة الصبر:

- والله هاروح الحفلة من غيرك يا غزل..

وبداخله يسب العمل والشراكة وواجبات المجاملة السخيفة حيث عقد قران شريكه اللدود "عمار الديب" يستلزم حضوره..

يلعن نفسه لقراره الأهوج بالعودة المبكرة ظنًا منه بأنها ستنتهي معه بذات التوقيت!..

"اللهم طولك يا روح"..

كانت زفرة أخيرة متأففة عندما خرجت من غرفة النوم ترفل في ثوب فيروزي من خامة ناعمة وتصميم بسيط لا يناسب جموحها

المعتاد، مغلق حول جيدها بسوار فضي داكن، ويحيط بجذعها في انسياب رقيق..

ترفع خصلاتها الكثيفة في تصفيفة عشوائية تركت بعضها متهدلًا حول وجنتيها، وحمرة شفتيها الوردية التي أظهرت اكتنازهما.. مما أجبره على صافرة معجبة.. ومشتهية:

- أنا باقول نلغي موضوع الحفلة ده..

برقتْ عيناها تهدده بتحذير لطيف:

- يزززن.. إوعى حتى تفكر تكرر اللي عملته يوم حفلة جدو يونس..

دار حولها ويده تدغدغها بعبث نفضها من مكانها:

- نص ساعة بس!..

- لأ.. احترم نفسك ويلا بينا لو سمحت..

- تعويض للغلبان اللي قاعد في انتظار البرينسيس بقى له تلات ساعات..

سبقته إلى الباب تفتحه وتعبره بمرح في شبه ركض:

- No.. ولا عاوز تستنى تلات ساعات كمان!..

لحق بها يشاغبها بوقاحة:

- كده هيكون الفرح خلص والعريس دخل..

وكزت كتفه بشقاوة وسبقته تهبط الدرج برشاقة، تخبره بعبث يوازيه:

- معلوماتي إنه كتب كتاب بس..

استقرتْ جواره في السيارة تتردد في السؤال عن صديقتها وزوجها ثم استكانتْ بصمت.. فعقلها يدرك أن الأخ لا تناسبه الحفلات ولا صخبها..

دقائق سيطر عليها الهدوء وهي تتفحص هاتفها حتى وصلا قرب شاطئ النيل، حيث مرسى أنيق ترسو به باخرة هائلة يقام عليها الحفل.. هناك التقى مع ابن عم زوجته، فمدينة المال لا يوجد بين سكانها حواجز..

شقيقتها "نوف" كذلك كانت حاضرة، استقبلتها بصياح يناسب جموح تلك العائلة، وهمستْ له بخبث ماكر وقح:

- زولي زي القمر، عملت فيها إيه!..

التلميح خبيث نالتْ عليه وكزة من زوجته قبل أن يشاكسها هو:

- عملت كل خير..

- يزن!..

وكزة تالية له والأخت تبتعد بغمزة شقية:

- لا على فكرة، هي طول عمرها قمر..

لم تتوقع "غزل" نظرته المتفحصة عندما حاوطها بها لتنتهي باستقرار بين جفنيها قبل أن يحاوط خصرها ويجذبها في رقصة، لم تتوقع كذلك نبرته الصادقة وإن لامسها تلاعب جريء:

- واخد بالي..

هي امرأة مختلفة، فريدة.. رُغم الجنون، الانطلاق والتهور؛ تمتلك قلبًا نقيًا لم يعهد التعامل مع مثله فيما مضى!..

وهي انتبهت للنظرة والهدف الخفي بحروفه فتراجعت تبتعد عن ضمته بحياء، تولي اهتمامها لسطح الماء الذي تتلألأ فوقه أضواء الحفل وقلبها ينبض..

ينبض بقسوة بين ضلوعها..

أتُرى تلك النبضة التي تتمناها ولدت.. بقلبه هو!..

ظلت بعدها تجاوره بشعور غريب..

الدقات المتمردة على سياق القلب الدقيق تغالبها، ترفع عينيها إليه، تتأمل جانب وجهه وخشونة لحيته النامية على الدوام بينما يحادث شخصًا لا تعرفه، حين صافح العريس بعد انتهاء العقد بصلابة ولقاء عينين جامد لم تفهمه..

ثم ابتسامته المميزة بلمسة المكر المحفورة بثناياها، خفوت ضحكته الرجولية.. وتلك النظرة التي أهداها إياها عندما لمح كيف يتعلق بصرها به.. نظرة تنقلت بين معانٍ كثيرة، محيرة استجاب لها خافقها بلا تردد..

بين الدهشة.. العبث.. الاستفهام كأنما يسألها كيف تراه!..

والهدوء، الذي قطعه حديثه والتفاتة رأسه.. تراجعت تتجه لتقف قرب شقيقتها، تثرثر معها.. تنفض عنها أفكارها وغيابها في زوجها، فهي الجَموح التي لم تظن أن للقلب سلطان.. تسقط!..

مأساة..

**

هو رجل انتقامه أنيق، يمكن أن يقدمه باردًا بلا عجالة.. يتناوله في تأنٍ بشوكة وسكين..

هو رجل الصبر الأول..

رجل فقد السواد الأعظم من إنسانيته قبل أعوام في لحظة خلل، والآن ما تبقى يحفر بأنيابه ومخالبه بكيانه مجرد.. ذئب!..

ضارية جائع لا ينهش أي فريسة، بل ينتقي ما يشتهي.. ويأكلها على مهل.. يأكلها برقي يشبه عمق نبرته وهو يَقبل زواجها، بأرستقراطية تليق بنظرته التي سقطت عليها فأسقطتها في هواه مرة بعد مرة..

وهي.. الأنثى بداخلها تهرب!..

تخجل، تبتسم وترتجف في حضرة رجل بات الزوج..

يمر الوقت دون انتباه، يختفي البشر، الباخرة تسير ببطء.. تشق الماء كأنامل طفل لاهي..

ويبقى هو وهي وعيناه..

كيف تفر من ذلك السقوط والحافة هشة، تجبرها على الغوص حتى النهاية!..

شموع.. موسيقى هادئة رومانسية تناسب الليلة واللحظة والحدث.. وانفراد برقصة..

استقام يمد يده إليها، استسلمتْ بكفها في قبضته، بقدميها تتبع خطواته حتى منتصف السطح والهواء يداعب موجات خصلاتها في تصفيفتها البسيطة.. بشرتها السمراء تعكس الضوء كوجه قمر امتص من الشمس كل سحره، ثوبها محتشم يشبهها، وغرقها فيه محتم!..

توقف يحاوطها بحضوره فلم تعد ترى.. تسمع.. تتنفس سواه، عطره، قربه، ابتسامته.. لف ذراعيه حول خصرها وقربها منه بحد لا يرهبها، لكنه يمنحها شعور الامتلاك..

هي الآن ملكه ومعه الصك.. وضعت كفيها فوق كتفيه وسايرته في رقصة ناعمة قطعها بهمس هادئ مسيطر:

- تعرفي أنك كنتِ أمنية!..

توردتْ.. توترتْ.. ترددتْ في الجواب ثم ابتسمتْ وفرتْ من اقتحام عينيه:

- بقيتْ واقع..

عقبها عادت إليه بحياء عاشقة:

- ملك إيديك..

ضمها أكثر بحرص واجب وحاجبه يرتفع، يشاغبها:

- ملك إيديا!..

مال يغمغم بتقرير سلطوي لا يتماشى سوى وحروفه:

- دلوقتِ ما تقدريش تهربي..

باغت عنادها فأيقظه من سبات تعويذته، تحدته برقة وتباعدت بعض الشيء:

- أنا ما هربتش قبل كده عشان أحاول أهرب دلوقتِ..

وبسلاسة تميزها حاوطت عنقه بيديها، تتعلق به أكثر:

- دايما باواجه في كل حروبي..

ابتسم بمكر مشاكس:

- يعني كنا في حرب!..

مطت شفتيها بفتنة، هزت كتفيها بتسليم تُكرر ما سبق وتلاه على مسامعها في ثاني لقاء:

- الحياة كلها حرب..

رفعتْ وجهها إليه، تحبسه هو في أسر مقلتيها.. القهوة المحترقة بلون داكن جذاب لا يحررك إلا وقد اشتهيت تذوقه:

- بعدين مين قال إني عاوزة أهرب!..

بعدها اقتربتْ هي، تريح رأسها فوق صدره، تنصت لنبضه الرتيب بهدوء غريب لا يناسب كونها بأحضانه:

- أنا لقيت نفسي خلاص..

ربما في هذه اللحظة لو لمحتْ وهج حدقتيه، تلك النيران التي شبت هناك فاندلع من شرارتها حريق لن يخلف وراءه حياة..

ربما لو اختلستْ النظر لابتسامته الأقرب لتكشيرة وحش عن أنيابه استعدادًا لالتهام جميلة بلهاء..

وأيضًا ربما لو سمعت ضجيج أفكاره الذي لا يباح له ظهور على تفاصيله، سكناته وحركاته..

ربما.. ركضتْ، فرتْ كما تفر من طاعون قاتل..

همهمة أخيرة صدرتْ عنه وذقنه تلامس خصلاتها:

- إحنا لسه بنبتدي..

كلمته أدهشتها وإن خمنت معناها، تراجعت تتساءل بصمت رد عليه بنظرة ثقيلة الوقع:

- عمرنا لسه بيبتدي مع بعض يا وسن..

انتهتْ الموسيقى وبسمتها الخجول تزيد من سحرها..

أخرج من جيب سترته علبة مخملية، فتحها وتناول منها سوارًا ماسيًا طوق به معصمها كقيد إضافي، قبل أن يلثم ظاهر كفها.. ثم يتبعها بباطنها بينما عينيه لا تفارقان عينيها:

- مبروك عليَّ..

لم يكن يهنئها.. بل يهنئ نفسه، عقله، خباله واختلاله.. على ثأر اقترب اكتماله..

بقيت فقط؛ قضمة أخيرة!..

**

في لحظة ما أدرك أنه يسيطر بالفعل.. يسيطر على ما يهمه والباقي قابل للتحكم به وإن كان ليس له كاملًا في النهاية..

هو وحده يملك التوكيل الخاص بإدارة العمل، سواء الشركة أو نصيبهم من أسهم "الديب"..

وحده لديه حرية التصرف، والدخيل مجرد تابع له.. ظل لا يزال يحبو في عالم التجارة والأعمال!..

لذا قرر السباحة مع التيار بهدوء دون المقاومة بعبث غير مجدي وبذل الجهد بلا فائدة، فحين الجد سيمتلك كل شيء.. وبعدما نال الحرمان، سيذيقه لمن حرمه..

كان متأخرًا بمكتبه في شركة "أبو الغار" للاستيراد والتصدير، يندمج بالعمل، يراجع عدة حسابات وصفقتين سيعمل على تخليصهما من جمرك ميناء الاسكندرية بعد أيام..

وحده بالمكان إلا من أمن الشركة، يحرق التبغ ويرتشف القهوة في محاولة للانتهاء والعودة للمنزل الذي بات يهرب منه مؤخرًا..

يهرب حتى أن الساعة جاوزت التاسعة مساءً وهو مازال بالمكتب..

سمع خطوات حذاء نسائي تدق الأرض خارج غرفته، خطوات ثابتة، واثقة اقتربت حتى وقفت صاحبتها على بابه المفتوح ببسمة لعوب:

- يزن أبو الغار..

رفع عينيه للفاتنة التي ترتكن بكفها لإطار الباب بانحناء أنثوي، تناظره بإعجاب واضح وتستعيد معه كل ذكرى ماتت ودفنت..

أو ربما لم تمُت تمامًا بعد!..

استقام يخطو إليها، يدعوها للدخول بإشارة لم تترد في قبولها حتى تواجها مع همسه الخبيث باسمها:

- نيروز رستم!..

الاسم يشير لأصول تركية منحتها جمال طلتها المبهر رُغم العمر.. حيث أنها تكبره باثني عشر عامًا بالتمام والكمال.. مدت كفها إليه بتحية فتناولها يقبل ظاهرها ونظرته الجريئة تحاصرها:

- رجعتِ مصر إمتى!..

هزتْ كتفيها تجيبه بأريحية:

- من أسبوع بس..

غمزها وعيناه تطوفان فوق مفاتنها في ثوبها الأبيض القصير بتأمل بطئ:

- لسه حلوة زي زمان، ولا كأن عشر سنين فاتوا!..

ابتسمتْ بغرور يليق بفتنتها، دارت حوله تتأمله بوقاحة قبل أن تلامس خشونة ذقنه بأناملها:

- أنتَ بقى.. ظهر عليك العشر سنين..

مع ارتفاع حاجبه باستهجان عابث أردفت ويدها تنسل إلى عنقه بإغواء:

- more handsome and much more sexy..

قهقه باستمتاع وأوقفها تقابله:

- فين جوزك يا إسماعيل بيه!..

ضحكتْ بالمثل قبل ترسم على وجهها تأثرًا مفتعلًا:

- أنت ما عرفتش!..

رمقها بتساؤل فأكملت تصطنع الحزن:

- زاهر الرشيدي الله يرحمه..

تأثر بافتعال يشبه افتعالها ومط شفتيه بقوس بائس:

- الأرملة الحزينة..

تعالتْ ضحكاتها مجددًا وإن لامسها غنج، بينما يسأل بجدية هذه المرة:

- ويا ترى إيه سبب الزيارة السعيدة دي!..

اقتربتْ أكثر تلاقي وجهه، تواجه شفتيه وتزفر أنفاسها تلفح بشرته:

- وحشتني..

أبعد رأسه دون جسده وجديته لا تقل:

- نيروز!..

هو يفهمها جيدًا، يدرك أنها تبطن أكثر مما تظهر، راقبها تتراجع.. تخرج هاتفها وتهرب بعينيها بعيدًا عن بصره الثاقب:

- لما سيبنا بعض بعد زاهر ما عرف بعلاقتنا وسافرت معاه على ستوكهولم..

تأملها بتوجس منتظرًا تتمة حديثها حين أردفتْ بنبرة عاطفية:

- اكتشفت هناك إني حامل..

ثم حركت الهاتف تدير شاشته إليه؛ بصورة طفل خمن عمره..

أو أيقن منه!..

تسع سنوات وبضعة أشهر..

طفل تخبره أول امرأة فتحت أمامه باب عالم النساء أنه.. ابنه!..

**

هناك بعضٌ من النساء تكون العلاقة معها سلسة، مريحة، خالية من الضغوط والمتطلبات المادية والمعنوية التي تبدأها بالجملة الشهيرة..

"الاهتمام ما بيطلبش"..

تظهر، تقترب، تبقى لوقت قصير، تذهب.. هكذا.. تكون، أو ربما كانت!..

لأسبوعين، وبعد الأسبوعين عشر سنوات، ثم تتحول بعدها للنسخة الأخرى..

تلك النسخة المرهقة التي تخبرك أنك مسؤول وينبغي أن تمارس مهام مسؤوليتك وإلا فلا تلومن إلا نفسك..

هذه كانت هي.. وأصبحت كذلك هي!..

"نيروز رستم"..

ماضيه الأسود والدافع الذي منح الحوت خيط النهاية ليرميه خارج بيته وشركته، يقصيه عن أخيه وحياته المرفهة التي اعتادها، إلى حياة التشرد.. بلا سابق خبرة.. بجهل..

جهل شاب يبلغ من عمره العشرين دون مسكن أو مورد!..

كانت وقتها في الثانية والثلاثين، فاتنة لا يبدو عليها عمر ومازالت.. زوجة رجل أعمال شهير "زاهر الرشيدي".. والذي ينتوي مشاركة جده في سلسلة من الصفقات المتتابعة بربح خيالي..

عمل علِم أن "يونس" يتطلع إليه ويطمح للمكسب الهائل من ورائه.. حتى ظهرت الفاتنة بصحبة زوجها في حفل ما، رأته ورآها..

وبدأت المشكلة.. لحظة التمرد الأعنف..

فالمناوشات السابقة كانت تغضب الجد في حدود المعقول وهو انتوى طرق باب المستحيل..

شاب عشريني، يمتلك عنفوان الشباب وطاقتهم.. وسامة واضحة وخشونة مغوية لامرأة مثلها.. امرأة لزوج يهتم بالعمل أكثر منها ومن تدليل أنوثتها واحتياجاتها!..

لاحظته.. اقتربت، رمت طرف الخيط الذي لم يتردد في الإمساك به وجذبه عقابًا لمن حرمه حلمه..

"يونس أبو الغار"..

مقابلة بدعوى عمل، موعد غذاء، موعد عشاء، لقاء ومشاهدة أحد الأفلام الرومانسية.. لقاء انتهى بعد الفيلم بالقبلة الأولى..

وليلتها كان في فراشها.. يخطو عابرًا مرحلة الحبو إلى مضمار الركض بدنيا النساء.. بعد يومين تكرر اللقاء، وبذات الفراش.. لكن هذه المرة انتهى بفاجعة!..

ظهور الزوج..

زوجها الذي علِم المتمرد، بل خطط لموعد عودته بعد إلغائه اجتماع عملٍ معه ليكون معها هي.. والتوقيت أصبح مناسبًا للغاية ليتم ضبطه في وضع تلبس؛ هو.. هي.. عري.. وخيانة!..

كان يدرك أن الرجل يكترث لسمعته أكثر منها كامرأة أو عِرض، لن يفضح أو يصرخ أو يقتل.. سينهي الأمر بهدوء معهما.. ومع جده..

وكان على حق..

اكتفى الزوج بطرده بنصف ثيابه واستدار نحوها، ولم يهتم بمتابعة فقد نال ما ابتغى.. بعد يومين آخرين ألغيتْ الصفقات، خسرتْ الشركة مبالغ ضخمة واهتزت سمعتها في سوق الاستيراد والتصدير..

أخبر "زاهر" الحوت بما جرى، بالسبب؛ علَّه يفوز بعقابه عن طريقه..

وفعل.. كان طائشًا، متهورًا.. فنال النبذ والحرمان!..

ثم مرت عشر سنوات..

عشر سنوات من التعب والشقاء والتيه حتى وصل لمكانته كمدير لأحد أضخم الفنادق بالمدينة..

والآن.. تأتي لحظة تمرده الماضية فتعلن على استقراره الحالي؛ الحرب!..

ظل وجهه متجمدًا بالكلية، تصلبت نظرته على الهاتف والصورة التي تحتل شاشته، جسده تخشب وأنفاسه تباطئت لحد غير محسوس..

ثوانٍ طويلة لم ينطق خلالها إلى أن انتبه على صوت غالق كاميرا هاتفها يلتقط اللحظة!.. عقد حاجبيه وهز رأسه بإفاقة جعلتها تطلق ضحكة ماجنة وتخبره بمكر:

- صورة بمليون جنيه..

اقتربتْ إثرها تغمزه بعبث:

- ولا أقولك؛ خليهم مليون دولار..

انقلبتْ ملامحه لغضب يحتدم بنار السعير، تراجع يزعق بها:

- أنتِ بتستهبلي يا نيروز!..

لم تأبه لهياجه بل عادت تدنو، تلامس وجنته بكفها بنعومة:

- اهدى يا يوزي.. بهزر، إيه ما بتهزرش!..

انعصرت أنامله حول معصمها بقسوة باغتتها وهي من اعتادت منه الملاطفة والإغواء:

- ده ابن مين!..

أنَّت بعتاب رقيق:

- ابن زاهر..

- وبتقولي لي ليه إنه ابني!..

هزتْ كتفيها ببساطة مغيظة:

- كنت عاوزة أشوف رد فعلك..

دفعها بحنق ونبرته تحترق:

- هو الموضوع لعبة!..

تبدلتْ نظرتها لجدية مباغتة بينما تجيبه بحسم:

- يزن أنا لما سافرت كنت حامل فعلا..

برقتْ عيناه وكاد يخنقها عندما أردفت بتفسير:

- بس مع ظروف السفر وقتها واللي حصل قبله مع زاهر.. أجهضت..

وترته الكلمة فتجاهل توتره وانتقل للوقاحة المزدرية:

- وعرفتِ منين بقى إن الحمل ده مني!..

ربتتْ على فكه وتركت يدها تحتويه ببسمة متلاعبة:

- حبيبي.. وقتها زاهر كان بيجي البيت كأنه فندق، ماكانش في غيرك..

هزأ منها ومن زوجها بسخرية:

- وعمل إيه الغضنفر بعد الإجهاض!..

تأملتْ أظافرها اللامعة بحمرة نبيذية تشبه حمرة شفتيها قبل أن تمرر جوابها بسلاسة غريبة:

- زاهر كان بيحبني رغم إهماله ليَّ بسبب البيزنس، وقف جنبي ولما فتحت عينيَّ بعد ما خرجت من العمليات قال لي هنقفل الصفحة دي ونبتدي من جديد..

أهداها نظرة ممتعضة ثم زفر بحرارة وابتعد عنها؛ شتان بين ذاك، وحريق روح صديقه الوحيد، موته وهو مازال حيًا..

أشعل لفافة تبغ يحرق أنفاسه وصدره بها كأنما تلك القنبلة فجرت كوامنه كلها.. لقد كان من الممكن أن يصبح أبًا لطفل، بعمر تسع سنوات.. لو عاش!..

انتظرتْ حتى أنهى لفافته والتفتَ إليها:

- أنتِ جاية النهاردة ليه يا نيروز؟..

تحركتْ تخطو إليه، تحاوط عنقه بذراعيها وتغوص بأناملها في خصلاته:

- عشان بجد.. وحشتني..

فكك يديها ونظرته الجادة الغاضبة لا تتغير، أكملت بتبرير بسيط:

- وكمان شغل، أنا فتحت مركز صحي ملحق بيه بيوتي سنتر وفي صفقة أدوات تجميل من سويسرا عاوزاك تجيبهالي..

أشعل لفافة أخرى.. كأنما احتراقه بالأولى لا يكفي ثورة مشاعره المباغتة بعد فعلتها الحمقاء:

- تمام.. سيبي لي تفاصيلها وهاتصرف..

أخرجت من حقيبتها ذاكرة صغيرة تركتها فوق سطح مكتبه وعادت إليه، تلتصق به وتهمس قرب شفتيه:

- ده بالنسبة للشغل، بالنسبة بقى لوحشتني!..

نأى بوجهه بعض الشيء دون أن يبعدها هي بينما تكمل:

- زاهر مات، ودلوقتِ أنا حرة..

سكن للحظات قبل أن يجيبها:

- وأنا دلوقتِ راجل متجوز يا نيروز!..

نطقها بعبث مرواغ، لم يكن غاضبًا كما كان قبل ثوان.. رافضًا أو مستاءً، لم يُنحِها أو يزيحها عنه، عن كون جسدها قرب جسده وبين ذراعيه!..

نبرته تلك لم تكن الكارثة، الكارثة أتت في استطرادتها الفجة بجرأة لعوب:

- ما أنا برده كنت متجوزة لما كنا مع بعض قبل كده، وما فرقش معاك يا بيبي..

الكارثة.. كانت فيمن أتت قبل أقل من دقيقة واحدة ووقفت عند الباب المفتوح دون أن يلحظها الاثنان، لتسمع نهاية حديث ماضيه الآثم.. تتصلب..

تعميها الصدمة..

وتفيق على الاقتراح الخبيث.. المقزز!..

لتجد أن شفتيها تحركتا بلا إرادة وعقلها يتدخل في اللحظة الحاسمة بنحنحة حادة:

- احمممممم..

- غزل!..

**

ككل فريسة، ترى أن لحظات غفلة صيادها عنها هي هدنة مستحقة..

غفلته المتعمدة، تجاهله المقصود.. وخيوط الدمية التي يتحكم بها حين يشاء، المحصلة أنها حرة منذ عدة أيام..

وهو يحبس نفسه بعزلته التي جهزها له جده قبل أسبوع، يقضي فيها معظم وقت تواجده بالمنزل، يغلقها على ذاته وحيدًا فلا يخطو قربها بشر..

أمس لم يعد للجناح إلا قرب الفجر، نام لساعتين أو أكثر قليلًا ثم استيقظ بكامل نشاطه ليركض كعادته كأنما نال ليلة كاملة من النوم المريح!..

هو غريب، يفيض بالغموض وهي.. هي لا تهتم..

وضعت صغيرها بالفراش، قبلته بحنو بعدما أنهى وجبته وغرق في نعاس برئ ينبض له قلبها بحب.. تحركت من جواره بهدوء، فتحت خزانة الغرفة ومن جارور داخلها أخرجت صندوقها الورقي الثمين..

تحية مساء، دمعة وبسمة مكسورة ترمي بهم بين يدي حبيب غائب بالجسد دون الروح..

مررت أناملها فوق محتواه بحسرة، بشوق، بافتقاد حزين.. و...

"إيه ده!"..

صوته كان يلامس أذنها تقريبًا.. أفزعها.. بل نفضها فقفزت من مكانها بشهقة أثارت استهجانه.. لقد كان يهمس!..

سقط الصندوق أرضًا وبصره يتابعه، يتأمل ما اندفع خارجه بنظرة شابها شيء من دهشة وازت هتافها المحتد بدافع الخوف:

- أنت دخلت هنا إزاي!..

نبرتها كانت عالية بعض الشيء، قلبها ينبض بقسوة الخوف، هي حتى لم تسمع حفيف قدميه ككل ليلة!..

أشار بسبابته حازمًا يغلق شفتيه:

- شششششش..

عينه تلقي بنصف نظرة إلى النائم بالفراش، راقبها بجموده المعتاد قبل أن يجيبها ببساطة باردة:

- الباب كان مفتوح..

كرر تفحصه لصندوقها بحاجب مرفوع.. جثت تلتقطه، تمسك ما سقط منه وتعيده إليه في محاولة لإغلاقه وإعادته إلى مكمنه بعيدًا عن كل رصد مراقب لولا أن أوقفها، منعها وقبضته تتسلط حول رسغها في حين امتدت أصابع الثانية تعيد فتحه..

يتأمل محتواه..

الحذاء الرقيق من الستان الأبيض اللامع، اللؤلؤتين اللتين تزينان مقدمته، الأشرطة الطويلة الممتدة على جانبيه..

كان حذاءً خاصًا برقص الباليه!..

نظر إليها بسؤال جوابه حتمي، ابتلعت ريقها بعسر وهمستْ بحشرجة:

- آخر هدية تخص شغلي من يامن الله يرحمه..

انعقد حاجباه هذه المرة.. والاستفهام الصامت مستمر بمقلتيه فتمتمت بفقد:

- أنا كنت باليرينا..

تخلى عن يدها، يحررها والتهكم يغزو ملامحه بفظاظة:

- كنتِ!..

لم تفهم فيمَ اهتمامه بالتفاصيل إن كان يسخر من الفكرة.. من الألم!.. تباعدتْ عنه تضع الصندوق بالجارور، تغلقه وتلتفت إليه بوهن:

- ممكن نطلع برا عشان يزيد!..

رفع وجهه يحاصرها بعينيه للحظة خانقة قبل أن تسبقها خطواته فتتبعه باستسلام، لم يتوقف بالمعيشة بل واصل حتى دلف لغرفته، سارت خلفه بتعثر ثم تيبستْ قرب الباب، التفت إليها بانتظار تنهدت وهي تشبعه بالرد المنهك:

- عربية خبطتني وضهري انكسر، بعدها ماقدرتش...

سكنتْ تقتلع الذكرى من أعماقها بوجوم مهزوم، وتيه عينيها يتضاعف.. يحتل روحها ويمتد لكيانها كله فيفتته..

هي في الحزن ملكة، وفي الضعف مملوكة..

مملوكة له.. بكل ما فيها له..

لذا تغافل ومرر انكسارها، شرودها في ماضيها الذي لا يكترث بما فيه واقترب، دار من حولها، أغلق بابه وعاد يقف خلفها ممارسًا سلطانه على إرادتها المُلغاة.. ممررًا استهتاره بما ضاع منها عنوة..

ممررًا رغبته!..

كأنما لم تُفرغ تحت قدميه صندوق أوجاعها الأسود؛ مد يديه يزيح عنها سترة منامتها المحتشمة والمثيرة للسخرية.. مع صدمتها فاجئته بتشبُث!..

بالتفاتة معارضة، نظرة رافضة وهمسة غير مصدقة، غير مكتملة، غير مؤثرة:

- أنتَ...

- اتكلمنا عن الطاعة قبل كده..

بتر.. توحش.. غامت نظرته بقسوة شرسة وألمها وصل منها الحلقوم، تراجعتْ تبتعد عن متناول عذابه الذي يحيق بها، تهرب وتتمنى التلاشي في الهواء كدخان ما بعد موت النار:

- فعلا.. اتكلمت عن السيطرة..

فاضتْ نظرتها بالغضب المطعون، فبدتْ كقطة حزينة تريد خرمشته كما ظن مسبقًا.. هو لم يراعِ حتى لحظات رثائها لما فات، بل يريد انتهاك ذكراها الوحيدة الباقية.. وعنه!..

لقد كان يشعر بالملل، في كل مرة يطلبها تتمنع ثم تخضع.. نهاية حتمية تسعى قبلها للنجاة بتخاذل، عقبه ترضخ، والأمر لم يعد مسليًا كالمرتين الأوليين..

أردفتْ بعناد وليد رحم المذلة:

- ودلوقتِ بتطالب بالطاعة، ممكن تقولي إيه الممتع في السيطرة على جثة خاضعة!..

حسنًا.. لقد حصلت على الوحش الذي فتشت عنه بحماقة، قبض على ذراعها يغرس أصابعه فيه بغلظة كتمت أنينها لها عامدة.. بينما لفحها بأنفاس كالجحيم وهو يوازيها:

- خضوعِك في حد ذاته إثبات لسيطرتي..

ازدانت دُجنة حدقتيه بعتمة أرجفتها:

- الخوف من رد الفعل على التمرد، على المقاومة..

ثم نفضها من يده بازدراء أشعرها بالامتهان أكثر:

- أنتِ مهزومة على أرض حرب ما حاولتيش حتى ترفعي فيها سلاح..

رمقته بنظرة مبهمة من وقفتها المهتزة.. نظرة لم يفهمها وهو لم يعتَد الغموض بعيني امرأة!..

نظرة اجتمعت في ثناياها القوة بالضعف..

التمرد بالخنوع.. الألم بالأمل..

الحرب بالاستسلام.. والفوز بالخسارة..

هي امرأة انتصارها هزيمته وهو لم يُهزم في أرض النساء من قبل، وأبدًا لن يفعل!..

نظرة صامتة تحاول بها خوض نزال ضئيل الحجم والمدى يليق بقصور سلاحها، اقترب ثانية.. واجهها، جسده يكاد يلاصقها ومزاجه يتبدل فجأة بغرابة:

- إيه رأيِك في رهان صغير!..

رُغم محاولة الثبات، المجابهة، الصمود والمواجهة.. التحدي فقد انتابها قلق تجلى بتوتر بؤبؤيها، توترًا تجاهله تمامًا بينما يميل ليقابل وجهها، ينفث لهبه باشتعال ساخر في مزيج عجيب:

- قاوميني..

ارتبكتْ، ارتجفتْ، وتمسكتْ بمحاولة الفوز، ففي النهاية وإن خسرتْ يكفي شرف التجربة:

- أنت عاوز تحول العلاقة لاغتصاب!..

ثم خاطرتْ بخطوة خاطئة.. خاطئة للغاية:

- يا ترى ده هيمتعك أكتر!.. السيطرة بالعنف!..

خاطئة لأن أنامله امتدت تلامس وجنتها بتسلل ناعم باغتها، وعينه تركت درب القتامة لدرب المكر:

- قلت لك قبل كده ماليش في الاغتصاب..

وقبل أن تتراجع ثبَّتها وتمَّم همسه بحرارة أمام شفتيها:

- بس في طرق تانية للإخضاع!..

قهرًا تعانق جفناها.. ارتعشتْ، صمتتْ واستكانتْ.. وكررتْ الخضوع.. ولم يقبِّلها!..

كما في كل مرة.. لم يمس ثغرها، أنفاسه كانت تضرب صفحة وجهها دون لمس، ثوانٍ مرت ومع سكونه في المقابل فتحتْ عينيها..

فتحتها ليقابلها ظلام عينيه مباشرة في مواجهة مخيفة..

قسوة النظرة وحُلكتها التي ألفتها، برودها ووحشيتها، وختم ذاك كله بالاستهانة المحتقرة:

- أنتِ خاضعة بالفطرة يا شمس..

تراجع بجذعه في استعلاء فشعرتْ أن قامته باتت أطول.. أو ربما هي من تقزمتْ أمامه تزدري نفسها وخنوعها:

- تكوينِك متعود على الاستسلام..

أكمل بقساوة ولم يتوقف، بل استمر ونبرته يعلوها امتعاض:

- ودي مش مشكلتي..

ابتعد أكثر بينما يهديها ميزة الفهم وهي الغبية في دنيا الرجال..

في دنياه هو:

- إخضاعك وأنتِ قوية ممتع أكتر بس للأسف؛ أنتِ بتفقديني المتعة دي بالخضوع الصامت..

وكرر مفتعلًا اليأس كأنما هي حالة مفقود في كبريائها الأمل:

- مش مشكلتي إنك جثة هامدة، من غير إرادة..

أفسح لها طريقها لتمر خارج الغرفة..

فتح الباب ووقف جواره يُفند قراره مع تطلعها الواهن إليه:

- you turned me off..

وتقوس فمه بسخرية سوداء:

- بتقولوها إيه هنا!..

فتش في ذاكرته عن كلمات أصدقائه الماجنة حول علاقاتهم الغرامية قبل أن يتذكر بتهكم لاذع:

- فصلتيني..

وخرجت مكسورة.. مهزومة..

رُغم معركة لم تدُر رحاها فوق جسدها هذه المرة!..

**

"غزل!"..

همسته المشتتة باسمها.. استدارة وجهه وتلك الشمطاء المتعلقة بعنقه نحوها..

خطواتها التي اقتحمت غرفة مكتبه بثبات وهزة رأسها التي وازت سؤالها البارد:

- جيت في وقت غير مناسب!..

تغضن جبينه خشية جنونها الذي يعلمه، في حين تراجعت "نيروز" بسؤال مستخف:

- دي السكرتيرة!..

- غزل مراتي..

جاوبها بنبرة باهتة رفعتْ لها حاجبيها بعبث وهي تلتقط حقيبتها بُغية الرحيل:

- أوووبس..

وبوقاحة عادتْ إليه، تربت على وجنته باعتذار:

- sorry يا بيبي..

أمسك بكفها يبعدها فاستجابت بلامبالاة وتحركت تغادر..

توقفت تواجه الزوجة المتصلبة بملامح غامضة عند الباب:

- nice to meet you يا مدام..

ورحلتْ..

رحلتْ لتبدأ العاصفة.. عاصفته هو..

- أنتِ إيه اللي جابِك هنا!..

لم تندهش.. كأنها كانت تدرك أنه سيقلب الطاولة عليها، لذا تمسكتْ بواجهتها الجليدية..

مشاعرها في مرحلة الغليان، وقلبها يسقط بانكسار.. رمتْ تحت قدميه قطعة بلاستيكية لم يفطن لمدلولها وهي تُعلمه بجمود:

- كنت جاية أقولك إني حامل..

تأمل اختبار الحمل قرب حذائه، هل تخبره أن ذاك الحدث أصبح يساوي اللا شيء!..

نبض قلبه بغتة.. نبض وسكن بذات اللحظة قبل أن يرفع عينيه إليها بظلام:

- والخبر ده ماكانش ينفع يستنى لما أرجع من الشغل!..

الوجع يتصاعد برتابة بين جوانحها، خلف ضلوعها.. يدمر هدوئها عنوة فخرجت كلماتها ببدايات عصبية:

- كنت فاكراه خبر يفرح بما إنك مستنيه..

شعر بأنينها المكبوت.. بعتابها المختفي بين طيات حروفها، لكنه لم يملك سوى الغضب؛ منها ومن اللعوب التي ظهرتْ في التوقيت الخطأ بلعبة تافهة تشبهها..

ومن نفسه!..

من تخبط دواخله وأفكاره حتى بترتْ شروده بسؤال مستحق:

- ممكن أعرف بقى مين دي!.. وعلاقة إيه اللي كانت بينكم وهي متجوزة!..

أدرك أنها تدعي الهدوء، تتظاهر باللامبالاة.. كما أدرك أن جنونها لم يبدأ بعد وهو في غنى عنه وعن ذكريات الأمس؛ لذا رده أتى كموجة من صقيع:

- بأي حق!..

أخيرًا بان على وجهها اضطراب.. بعثرة، صدمة مخلوطة بغضب وحزن، زعقتْ بلا مقدمات:

- أنت لسه مقدمني على إني مراتك؛ ولا نسيت!..

صوته هو كان هادئًا، متدثرًا بالتجهم فأوان الحقيقة قد آن:

- وطي صوتك..

اقترب بصرامة والقسوة التي تتغلغل بنظرته توجه حِرابها لقلبها:

- ده أولًا.. ثانيًا بقى، اسمحي لي أوضح لك حقيقة مهمة قوي غايبة عنك..

لمح اهتزاز نظرتها، رجفة طفيفة مرتْ فوق ملامحها..

لم يكترث مثقال ذرة بل أكمل بعنف:

- أنتِ في العلاقة دي كنت مجرد وسيلة لغاية أهم، حل لمشكلة..

راقب عبوسها ورمشات أهدابها الثائرة في انتفاضة غير مصدقة:

- أنتِ في العلاقة دي؛ مجرد رحم..

تفرقتْ شفتاها تتنفس عبرهما باختناق وكلماته لا تصدمها وحسب، بل تذبحها.. بينما مال هو برأسه متمِّمًا بذات الغلظة والفظاظة:

- عشان العقدة والمفتاح؛ الوريث..

نفتْ تحرك وجهها يُمنة ويُسرة ببطء خامل، صوتها ينحشر بحنجرتها بحثًا عن رد حين أردف بلا رحمة يقتلع سكينتها وأمانها:

- قضينا وقت لطيف سوا أنا وأنت، انبسطنا وبس.. مش أكتر من كده..

قلبها عقَّب بحماقة عاشقة مغفلة.. تدخل بنبضة عاتبة وتصريح بأنها منحت ما هو أكثر..

لكنه لم يره، لم يبالِ ولم يشعر وقتما فرد ذراعيه بانتصار:

- وتمت المهمة بنجاح..

كان يواجهها في هاته اللحظة فهمس أمام وجهها ببرود:

- Game over..

لم تكن عيناها بعينيه رغم أنه كان يبحث عن النظرة.. عن الرعشة.. عن البغض والانفعال وربما الصراخ..

كان يتوقعه وخانته التوقعات، وبصرها معلق باختبار الحمل الملقى أرضًا على بعد خطوات منهما.. تتأمله بنظرة فارغة!..

تتابع المشاعر بحرية ظهور، تتأرجح بين الاشتعال والفتور، بين الهياج والجمود، بين الأسى وشهوة الانتقام..

ثم تهديه نظرة.. خاوية، جوفاء كنبرتها عندما ردت:

- أنا بلعن الصدفة اللي جمعتني بيك..

لا ينكر أن هدوئها، صمتها، سكونها.. يقلقه..

هي مجنونة.. طائشة وانفعالية.. فلمَ هذا البرود!..

الخواء!..

تغلبتْ مع كلماتها قسوته على بعثرة أفكاره..

ابتسم بوحشية والحقيقة تنطلق بوجهها كصاروخ عابر لكل حواجز حماية القلب، لقد كان يفتش عن جنونها الذي يجيد التعامل معه:

- صدفة!..

نطقها ساخرة، مستهجنة.. شامتة:

- لا يا.. مراتي، اسمحي لي برده أعرفك حاجة كمان، مقابلتنا ما كانتش صدفة..

مع فوزه بصدمة جديدة تطوق ملامحها انتشى، فتضاعفت القسوة غير المبررة بصوته وهو يدمدم بهسيس خبيث قرب أذنها:

- بابا.. أحمد بيه قاسم درويش، راح له بروشور دعائي لداي يوز في واحد من أكبر فنادق القاهرة بديسكاونت لا يقاوم، وعشان الخطة

تبقى مش مثيرة للشك راح لأربعة غيره.. من أول ما دخلتِ الفندق عيني كانت عليكِ، شايف كل حركة وسامع كل كلمة..

صدمتها بلغتْ مداها الأقصى وهو يكمل بأريحية عجيبة، كأنما في البوح راحة لم يدركها إلا حين التجربة:

- اخترتِك أنتِ.. غزل درويش..

ارتدتْ خطوة للوراء تبيح الاستنكار، الألم..

هو يُعلمها أنها الساذجة.. الغبية، الرعناء في هذه الحكاية!..

ناوشتْ عيناها دمعة سجنتها بكل ما أوتيت من صلابة وهو يشعل لفافة ثالثة، يتنفسها وينفثها بشرود:

- الخطة كانت تقليدية وأصعب، مقابلة.. نظرة فابتسامة فموعد والباقي اللي أنتِ عارفاه، قصة حب تخليكي تنفذي خطتي..

ورمقها بصفاقة ماكرة.. وقحة:

- ولو كانت الحدوتة لازم توصل للسرير؛ كنت هاوصلها للسرير..

شهقتْ وخطوة تراجعها الثانية تضرب ظهرها بالجدار جوار الباب.. هل يظنها بذاك الانحلال!:

- بس بصراحة أنتِ سهلتِ لي الموضوع على الآخر، كنتِ عاوزة تعيشي مغامرة..

وازاها يستند بذراعه عن يمينها، يحاصرها بجسده وعينيه وحضوره المقيت:

- وعيشتك المغامرة..

ارتفعتْ أناملها تخفي ارتجافة شفتيها، رمشتْ تعتصر أجفانها منعًا لسيل عبرات يراود تماسكها عن نفسه.. يهدمه ويهدمها معه، كل ما استطاعتْ الهمس به كان سبابًا خفيضًا مرتعدًا:

- أنت حقير..

حقير وأحبك.. حقير وزوجي.. حقير ووالد طفلي..

حقير.. وأُحبك!..

لدهشتها سبابها لم يغضبه، بل رسم بسمة ظافرة فوق شفتيه:

- ده حقيقي.. كده كل الورق مكشوف، واللعبة...

- Game over..

بترتْ كلماته بتتمتها التي سبق وقالها قبل دقائق..

بنبرة ثابتة هادئة، وخطوتين أبعدتاها عنه، تفكر بصمت قصير جمد له بترقب حتى استدارتْ إليه بلهجة لا مكترثة كأنها لم يطلق رصاص قسوته على قلبها وعشقها منذ ثوان:

- طبعا لو طلبت الطلاق هتهددني تاخد مني ابني!..

رفع رأسه ونفث غيمته الداكنة مجيبًا بالحقيقة التي لا خلاف عليها:

- ده اللي هيحصل، مش مجرد تهديد..

- بس أنا مش هطلب الطلاق..

باغتته!.. نعم..

- هفضل مراتك..

تضاعف المباغتة وعيناها ترهبانه بنظرة غامضة:

- مرات يزن أبو الغار..

تؤكد الكلمة وتكررها، تحشرها بعقله وضميره.. هذا إن كان حيًا!..

عقبها تلتفت عائدة من حيث أتت فيوقفها بريبة.. صمتها بدأ بالفعل يخيفه:

- رايحة فين؟..

أكملتْ طريقها بلا اهتمام، وجوابها يقلقه أكثر:

- هارَّوح، osn movies هتعرض فيلم في السهرة مستنياه من الأسبوع اللي فات..

تركته مذهولًا.. غاضبًا.. ومعجبًا!..

تركته هاربة من معركة لم تكد تبدأ.. هاربة دون أن يلمح دمعتها التي تسللت تلسع وجنتها كما احترق قبلها فؤادها الذي امتلك ناصية عشقه..

**

النساء.. عاطفيات بالفطرة، تطغى لديهن المشاعر على كل عقل ومنطق.. وذلك دومًا ما كان مأخذًا عليهن بدنيا الرجال!..

لا يدركون أنه لولا تلك العاطفة لانقلبتْ حياتهم لجحيم..

لولا العاطفة لقتلته ومثَّلتْ بجثته، حطمتْ غرفة مكتبه فوق رأسه ثم هربتْ بطفله ولن يجدها حتى الممات..

لولا العاطفة لما اختارت الكيد وانتوت المكيدة..

والبادي أظلم يا حبيبي!..

ظلتْ لعشر دقائق خلف مقود سيارتها في حالة من الصمت.. الباكي، تذرف دموعها بلا محاولة منع أو مسح.. تبكي سذاجتها..

تُرثي فطنتها المعتادة في قراءة البشر وهي من اطلعت على عددٍ لا بأس به من الكتب في لغة الجسد وفراسة العرب..

كانت حمقاء وكان ماهرًا في الخداع..

كانت مجرد رحم لحمل الوريث الذي سيعيده ملكًا متوجًا على عرش عائلته المنبوذ خارج مملكتها..

كانت مغفلة..

والغفلة مباحة في المرة الأولى.. لكن لو تكررت تصبح الثانية عارًا؛ عارًا لن يمسَّها..

مسحتْ عبراتها.. تنفستْ بعمق.. ربتتْ على بطنها بوعي فطري لأول لحظات حمل وأمومة.. وقادتْ سيارتها مباشرة إلى المنزل، من المدخل لغرفة مكتب الجد الذي كان يطالع كتابًا فلسفيًا بتركيز، طرقت الباب وواجهته:

- جدو يونس، ممكن أتكلم مع حضرتك شوية!..

رفع وجهه نحوها، آثار البكاء لم تنمحِ تمامًا، رآها فخلع منظاره الخاص بالقراءة وأشار إليها.. استجابت بخطوات ثابتة لتستوي فوق الأريكة الجلدية جواره..

وتسرد عليه البداية..

أفرغتْ كل ما بجعبتها بأذنيه، تلقتْ منه انفعالات طفيفة.. بين نظرة محيرة، غامضة، غاضبة، مستاءة.. ثم جامدة حتى انتهت..

انتهتْ من سرد غير واقعي لمغامرة طائشة ختامها حملها بطفل من حفيده الذي ظن نفسه الملك فوق رقعة الشطرنج ولتحترق البيادق وتتهدم القلاع..

صمت يفكر لثلاث دقائق تامة، لم تقاطع خلالها أفكاره.. عندما نطق؛ كان سؤالًا بسيطًا لم تدرك أبعاد الغرض منه:

- يعني أنتِ حامل دلوقتِ؟..

ازدردتْ لعابها وأومأت بنعم، استقام يواجه الجدار الزجاجي المطل على الحديقة المضاءة بأعمدة كلاسيكية أنيقة، يشبك كفيه خلف ظهره لثوان أخرى ثم يعود إليها بيسر كأن ما قصته عليه مجرد إضافات مُنكهة لطعام يحبه:

- تمام يا غزل.. جوزك عندك..

جاورته في وقفته تتطلع إليه بقامته الطويلة في شيء من دهشة:

- مش فاهمة!..

رسم نصف بسمة على جانب فمه بينما يوضح ببديهية:

- اتصرفي معاه بطريقتك.. عاقبيه زي ما أي ست بتعاقب جوزها لو اكتشفت خيانته..

تراجعتْ خطوة لا تنكر أو تستنكر دهشتها..

ملامحه هادئة.. نظرته باردة.. يبتسم، ويخبرها بوضوح أن تتصرف كما تشاء، كأنما لم تُفضِ إليه بمخطط زوجها للسيطرة والامتلاك، لم تخفِ استغرابها بل ظهر بعينيها عندما سألته:

- يعني حضرتك مش متضايق من الخطة دي!..

توسعت بسمته لتدرك أنها طفلة تحبو في عالم داهية كالماثل أمامها.. عالم مليء بالمؤامرات والحروب والصراعات الخفية:

- أتضايق ليه يا غزل!..

وربت على كتفها بأبوة غريبة:

- الفرق اللي حصل مجرد تأخير تلات شهور على ما حفيدي يوصل..

ثم تمم حديثه يقطع عليها طريق المزيد من الاستفسارات الجدلية:

- كل حاجة تانية زي ما هي، نسب عيلة درويش اللي حفيدي هيكون جزء منها، حفيدي الكبير بيدير شغلي وناجح فيه..

تراجع إلى جلسته الأولى، يعيد منظاره فوق أنفه ويفتح كتابه:

- أنتِ بنت ذكية.. استخدمي ذكائك مع جوزك..

شمختْ برأسها في كبرياء عنيد، حسنًا.. هي ستستخدم الذكاء والمكر والغضب والحزن.. والهرمونات!..

تركته بخطوات سريعة تصعد لجناحهما، مباشرة إلى غرفة النوم فخزانة الثياب، تجذب كل ما يخصه منها وتلقيه من وراء ظهرها حتى تجمعت خلفها كومة ضخمة، قسمتها على ثلاث دفعات وحملتها للغرفة الأخرى والتي كانت معدة للصغير القادم..

كوَّمتها على الأرض بلا اكتراث، عادت للمطبخ تصنع وعاءً ضخمًا من حبوب الذرة وتتجاهل المشروب الغازي فهي أم ومسؤولة عن جنين الآن.. تحضِّر كوبًا هائلًا من الشيكولاتة الساخنة بالحليب وتتربع على أريكة غرفة المعيشة أمام فيلمها المنتظر..

تأكل باستمتاع.. تشرب بتلذذ، وتقرر الحرب!..

لم يتأخر في العودة بعدها كثيرًا، نصف ساعة تالية وظهر عند مدخل الجناح، لمحها حين دلف إليه في جلستها تلك..

عيناها معلقتان بالشاشة، تلتهم مسلياتها وترتشف حليبها.. ولا تراه!.. كأنه لم يعبر الباب.. كأنه لم يمر جوارها.. كأن عطره لم يقتحم أنفاسها!..

صمت لثوان وقرر التجاهل بالمثل، خطا لغرفة النوم لتوقفه قبل بابها بحزم:

- هدومك في الأوضة التانية..

رفع حاجبه.. هكذا إذًا ستصبح اللعبة!..

ليكن.. لم يجبها وغير وجهته ببساطة، بساطة تطايرت مع شرارات غضبه عندما وجد ثيابه ملقاة على الأرض كخرق بالية..

زم شفتيه، ضم قبضتيه وكاد يلتفت عائدًا إليها.. بل التفتَ بالفعل، حينما سقط بصره على جلستها مجددًا؛ توقف.. صمت يفكر، ثم قرر مجاراتها في لعبتها..

دخل للغرفة الصغيرة وصفق الباب من خلفه بعنف أراده أن يصلها.. عنف لم تبالِ به مثقال ذرة وعيناها تبرقان بنصر..

فالمعركة حتى لم تبدأ بعد!..

**

في الحروب؛ إن وجدت ثغرة تقربك من النصر.. استغلها..

تلك حقيقة.. وثغرته كانت واضحة لعينيه خلال الأيام الماضية، أخيه الأكبر على خلاف غير معروف السبب مع زوجته!..

لا يجتمعان على طاولة طعام، لا تستقبله بحفاوتها المعتادة.. مرحها خفت رُغم خبر الحمل الذي يسعد أي امرأة..

لذا قرر التدخل والمرور من تلك الثغرة..

راقبها لدقيقتين فوق أرجوحة الحديقة، تضع بأذنيها سماعة صغيرة وتنصت عبر هاتفها لشيء ما، اقترب أكثر ليسمعها تردد بلهجة ركيكة بعض الشيء:

– Cómo está usted؟..

ناوشت فمه بسمة ظفر، دنا أكثر حتى وقف خلفها تمامًا ثم نطق مكررًا بأسبانية سليمة يصحح لها النطق المتكسر:

- Cómo está usted؟..

انتفضت تدير وجهها نحوه، ترفع رأسها لتقابل عينيه الداكنتين وبسمته الظافرة تتبدل للهدوء الخالي من الانفعالات، استدعى من عينيها نظرة دهشة فمال قليلًا يعيد نطق السؤال، يجبرها على تكراره وراءه..

انتبهتْ فتأملته لثانيتين قبل أن تتبع إرشاده المنطوق وتنطقها أقرب للصحة، توسعتْ بسمته واعتدل ثانية يضع يديه في جيبي سرواله:

- بتتعلمي أسباني!..

هزتْ كتفيها بتلقائيتها المعتادة:

- أنا بعرف أسباني، بس بحاول أحسن اللهجة..

ظهر على وجهه استفهامًا أدركته فجاوبته ببساطة:

- أنا مترجمة..

وأكملت بتفسير بديهي:

- بعرفها قراءة وكتابة بالإضافة للـ English طبعا بس اللهجة زي ما شُفت..

الخطة تستلزم اقترابًا أكبر، لذا اقتنصه وعرض:

- ممكن أعلمك يا غزل..

- بتعرف أسباني!..

رده كان مثيرًا للدهشة بقدر الغموض:

- لغتي الأم..

مع رده تضاعف استغرابها فألقى إليها بطعم يمهد طريقها إليه:

- مولود في فنزويلا..

- بجد!..

أومأ بإيجاب صامت بعدما منحها أول معلومة عنه مخففًا هالة الجهل المحيطة به، استدار حول الأرجوحة ليجاورها فوقها بيسر،

يجذب السماعة من أذنها متجاهلًا سكونها المستغرب، قبل أن يكسب نبرته جدية مخلوطة بمداعبة لم ترها منه مسبقًا:

- نشيل دي، وتركزي مع ده..

وأشار لفمه بعدها.. صمتتْ لحظة ثم أهدته بسمة ناعمة ودود بينما ينطق ذات الجملة مجددًا..

ترددها وراءه..

ويعبر من ثغرته التي أجاد اختيارها!..

(11)

جبهة الحياة تحتاج لمقاتلين أشداء، والشرف ليس منهج اللعبة هنا!..

**

هي امرأة تحمل ذاك اللقب العتيق؛ وُلدت وبفمها ملعقة من ذهب.. أو لنقل من ماس!..

لم تُعانِ الحرمان يومًا إلا من عاطفة واهتمام زوج ادعى الحب، لا.. بل كان صادقًا فيه، زوج يكبرها بأكثر من خمسة عشر عامًا، امتلكها ببيته كتحفة ثمينة تزينه بعدما تخطت عامها العشرين.. أتت من نسل عائلة أرستقراطية ذات أصول تركية من ناحية الأب كما هو واضح بلقبها..

"نيروز رستم"..

الفاتنة التي خانت زوجها في زمان بعيد قد مضى، مع شاب يصغرها بالكثير!..

خانته كعقاب..

خانته كتمرد..

خانته كرغبة..

لا يهم الدافع فلن يشكل فارقًا..

هي المرأة التي تفهم الرجال أكثر مما يفعلون هم، والتي لا تكترث لإظهار خجل أو إدعاء ضعف أمام واحد منهم..

هي المرأة التي يخشاها معظمهم فيمتنع عن الاقتراب.. وتُعجب البعض الباقي فيقرر امتلاكها وتطويعها، أو كسرها!..

وهي أبدًا لم تنكسر.. هي سيدة الأعمال الناجحة جدًا، والذكية جدًا جدًا.. الذكية التي ترى أن الحياة كلها ما هي إلا حرب، نهايتها إما نصر أو هزيمة.. لكنها لا تنوي أن تكون الطرف المهزوم فيها..

كانت جالسة بأحد المقاهي الأنيقة بمجمع "جاردينيا" السكني الذي استقرتْ به بشكل لم تحدد بعد إن كان دائمًا أم مؤقتًا، لقد بدأتْ العمل بمشروعها بهذا المكان ولا مانع في السكن بالقرب منه..

تحتسي قهوة مُرة بمزاجية خاصة تناسبها، وتراقب الجمع من حولها بنظرة ثاقبة.. تحلل الوجوه، النظرات وتقرأ الكلمات فوق الشفاه..

مشادة بين اثنين من العشاق، أو لا.. هي عاشقة ساذجة، وهو أحمق مدعي ينظر لمفاتنها بخبث فج، ينتظر لحظة مناسبة لقنصها في ظُلمة مشاعر كاذبة..

رجل خمسيني صامت، يتظاهر بقراءة جريدة وعيناه تبحثان عن الوقت كل دقيقتين.. و... فتاة!..

فتاة باكية، دموعها تغرق وجهها، شهقاتها تعلو ويبدو أن أنفاسها تتحشرج.. تابعتها لثوان؛ الأمر لا يتطلب الكثير من الذكاء!..

السبب رجل؛ أول وآخر دوافع دموع النساء..

رجل خائن.. رجل قاسي..

رجل مهمل.. رجل مسيطر..

رجل يستحق عقابًا..

تعددتْ الصفات والذكورة واحدة، كلهم أوغاد لا تستثني أحدًا..

التَمَ بعض الموجودين بالمقهى حولها فتركتْ مقعدها بأناقة، اقتربتْ من طاولتها وصرفتهم بحسم صارم وازى نظرة باترة خضع لها الكل بتلقائية..

جلست بجانبها في صمت واحترام لحالة ضعفها، منحتها محرمة ورقية وبعدما هدأتْ بعض الشيء علقت بأريحية:

- مافيش راجل يستاهل الدموع دي..

التفتتْ ناحيتها الشابة الصغيرة، في غرابة من ثقتها سألتها:

- ليه افترضتِ إنه راجل!..

ابتسمتْ "نيروز" ببساطة بديهية:

- عشان الرجالة دايما مسؤولين عن دموعنا؛ أيا كان السبب..

لمحتْ التواء شفتي المقابلة لها بسخرية.. شرودها فيما تجهل، وأدركتْ أن تخمينها أكثر من دقيق..

السبب رجل، وكما يبدو ليس بأي رجل!..

- معاكِ حق..

التمعتْ عينا "نيروز" بانتصار، توسعتْ بسمتها عقبه وهي تخبرها:

- يبقى برده معايا حق، لما أقولك مافيش واحد منهم يستاهل دموعك أو حزنك، أو حتى وقتك اللي بتضيعيه وأنت بتفكري فيه..

ثم أشارتْ للنادل تأمره بحزم:

- اتنين ليمون بالنعناع..

مدتْ يدها في مصافحة متأخرة:

- نيروز رستم..

ابتسمتْ الفتاة الهشة.. بإثرها استجابتْ بشيء من راحة، مدتْ يدها تصافحها:

- ميرهان الجمال..

وشكرتها بلطف يناسبها:

- شكرا..

غمزتها "نيروز" بعبث فطري:

- لا شكر على واجب يا ميري..

تراجعتْ في مقعدها باسترخاء:

- شكلنا هنبقى صحاب..

أغمضتْ "ميرهان" عينيها توافقها كما فهمت، ارتاحتْ على مقعدها وعادت تسأل:

- أنتِ ساكنة هنا من زمان؟..

انتظرتْ "نيروز" حتى وضع النادل كأسي العصير أمام كليهما.. ردتْ بهدوء:

- لأ.. لسه مأجرة جديد، ومش عارفة هاستقر في جاردينيا ولا لأ..

وارتشفتْ من كأسها بأناقة قبل أن تبادلها السؤال:

- وأنتِ!..

اهتزتْ ملامح التي وُجه لها السؤال، تنهدتْ، ونطقتْ بعد فترة ترقُب من الأخرى:

- مأجرة بس مستقرة..

عقبها احتارت:

- أو مش عارفة.. ماعرفش فعلا..

وأرادت تخطي الأمر بجملة وافقة وإن كانت مقتضبة:

- موضوع صعب شرحه..

تأملتها "نيروز" للحظات قصيرة، واستوعبت.. الألم المحفور فوق الوجه، النظرة المنطفئة.. تقوس الشفاه بحزن، والشحوب..

مدتْ يدها بألفة غريبة تربت على كفها فوق الطاولة بينهما:

- مش مهم تشرحي دلوقتِ..

أشارتْ لأذنها برقة:

- وقت ما تحتاجي تتكلمي هاسمعك..

رمقتها "ميرهان" بشيء من إعجاب.. علقتْ تكشف عن هدوء نفسها:

- أنتِ إنسانة جميلة حقيقي..

تظهر امتنانها برقة:

- سعيدة بالصدفة دي و.. بصداقتنا الجديدة..

صمتتْ لثانيتين بنهايتهما اعترفتْ لها:

- كنت محتاجة حد أفضفض معاه ويفهمني من غير كلام النهاردة بالذات..

حافظتْ "نيروز" على بسمتها وإن ألبستها رداء العبث الشقي:

- any time ya baby..

عندها لمحتْ الحلقة في بنصرها الأيسر وتطلعت إليها بدهشة!..

هذه الصغيرة زوجة!..

عادتْ تنظر في عينيها بتساؤل ماكر:

- أنتِ متجوزة يا ميري!..

رأتْ عينيها تتعلقان بالباب بغتة.. قبل أن تلتفت لترى ما أثار وجوم ملامحها جاوبتْ باقتضاب:

- أيوة..

التفتت حينها خلفها، تنظر نحو ذاك الذي سرق اهتمامها، وفطنت أنه زوجها وقد حضر..

عيناه تحاصران زوجته بينما هي كانت ترمقه بنظرة مختلفة!..

نظرة أنثى مخضرمة لرجل وسيم، ممشوق القوام، عريض المنكبين.. و..جذاب..

جذاب للغاية!..

تأملتْ خطوات اقترابه بمكر حتى جاور طاولتهما، قدمته الصديقة الجديدة بفتور:

- موسى..

توقف التعريف بحلقها قبل أن تتممه قهرًا:

- جوزي..

وأشارتْ إليها بينما تنتقل ببصرها نحوها:

- نيروز.. صاحبتي..

قالتها ببساطة، بسلاسة.. بتحدٍ..

وهو رسم فوق شفتيه بسمة خبيثة وازت نظرته إليها، وقد أدرك ما في عينيها تجاهه!..

نظرة لم تقتصد في تمرير ما تريد من أفكار..

صافحها بانتفاخ ذكوري مستحق مع إعجاب أنثى فاتنة مثلها، ويده تضغط كفها بخشونة فتنتها أكثر:

- تشرفنا..

حقًا كان الشرف لها..

يبدو أن إقامتها بهذا المكان ستصبح دائمة!..

**

يقولون أن الطيور على أشكالها تقع.. حسنًا هذه حقيقة..

وكذلك الشياطين مع أقرانها تتآلف..

الضواري تتلاقى عندما تتوحد الفريسة، وكلٌ له طريقته في النهش!..

لقاء كان ينبغي أن يحدث في وقت سابق لكنه تأخر، وربما التأخير منحه تميزه، تفرده وأناقته..

"يعقوب أبو الغار"..

في مواجهة وبمصافحة قوية تليق بـــ

"عمار الديب"..

النظرة وحدها بينهما ملحمة أسطورية تحتاج لـ "هوميروس" جديد يرويها بأشعاره، كأنما يراها من خلف عينيه الزجاجتين..

النظرة وحسب كتاب مفتوح بين الاثنين، صفحة أولى قرأها كل منهما واكتفى بسطورها، فلا يهم ما تخبئه بقية الصفحات..

بسمة ترحيب أخبر بها الذئب قرينه:

- أهلا بيك معانا يا يعقوب..

نعم.. هذا هو المفتاح لعودة أملاكه كاملة له، مفتاحًا سيكسر به كل الأبواب المغلقة..

قابلها بسمة مقتضبة تشبه كل بسماته، وعيه بما يدور في ذهن المواجه له بلا تزيين.. بلا اكتراث..

فيبدو أن الأهداف تتمازج في خليط شيطاني مناسب لأفكاره:

- عمار بيه!..

الجد الذي اصطحبه لأحد الاجتماعات الدورية لمجلس إدارة شركة "الديب" يراقب بنظرة ثاقبة..

لكنها لم تكن كافية لتنبئه عما يدور في ذهن الرجلين أمامه، كانت تتطاير بينهما إشارات عبثية بشفرة لا يقرأها سواهما..

أحدهما يخبر الآخر أنه سيستغله كنقطة ضعف..

الثاني يبتسم بوحشية ثم يوافق، فهو أتى ليهدم كل الجدران العازلة وأبراج الحماية التي تحاوط مملكة "أبو الغار"..

ترأس "عمار" طاولة الاجتماعات بحكم كونه مالك النصيب الأكبر من الأسهم، جاوره الجد عن يمينه وجوار "يونس" جلس "يعقوب".. يتابع بصمت..

يدرس كل من حوله بنظرة واحدة هي أكثر من كافية..

يلتقي بصره والذئب فتبرق حدقتاه بوهج جحيمي يتماشى وما يدور بذهنه.. يتعلم.. ينصت.. يفهم.. ويغوص في أعماق المشهد، يُخرجه.. يُحرك ممثليه فوق مسرحه المتهاوي كقطع شطرنج يجوز التضحية بها جميعًا..

لقد وجد ثغرته؛ وهي واسعة بما يكفي ليقفز عبرها دون ديباجة مستهلكة..

الضواري وحدها تتقن النهش في النهاية..

**

العشق نبضة مسروقة لا تعود لمالكها أبدًا حتى وإن تخلى عنها السارق..

نبضة تعني الامتلاك..

توشم القلب بالتيه، والروح بالضياع..

أما العشق غير المكتمل فمأساة والجهل فيه وجع!..

لم تكن تجهل عنه الكثير، صداقة أمها مع أمه منحتها تفاصيلًا تكاد تقسم أنها مقصودة.. مدسوسة من السيدة "راوية" التي تحبها كطفلتها، وترمقها بحنان أم كلما لمحتها مع الصغير "واسل"..

طفله هو..

هي سيدة لطيفة، ممتلئة باتزان، يملك عينيها وحُلكة خصلاتها، قصيرة القامة حد أنها تصل لكتفها وخصره..

سيدة تجيد حَبك الخطط وتنفيذ المؤامرات بكل براءة؛ بدايةً من دعمها للعمل تحت إمرته وبالقرب منه، وانتهاءً باتصال هاتفي باغتته به قبل ساعات من عودته لأرض الوطن تطالبه بأشياء كثيرة ارتفع لها حاجباه باستنكار:

- إيه كل ده يا أمي!.. ده كله ممكن يجي من مصر عادي..

هي تدرك؛ لكنها تمنحه المزيد من الوقت بصحبة فتاة تعشقه..

ترى فيها أمًا صالحة لحفيدها، امرأة تليق به.. وأنثى يحتاج وجودها بحياته لكنه يجحد احتياجه بحماقة ذنب لا يُدنس يديه حقيقة كما يثقل كاهله بنفسه..

لذا بترت اعتراضه بحسم:

- أنا عاوزاهم من عندك يا عدي، اقفل وهابعت لك list بالحاجات دي ولو نسيت حاجة هارجعك تجيبها مخصوص..

جذب مقدمة خصلاته بغيظ وصوته يمرر حنقه:

- يا ست الكل نجيبها من مصر، لزومه إيه الخروج دلوقتِ والطيارة يا دوب فاضل عليها أقل من نص يوم!..

لم تكترث، لن تفعل.. هي ببساطة تحاصره بين سندان قربها ومطرقة الإحساس بها، أنهتْ المكالمة بصرامة تدرك أنه لن يجادلها بعدها:

- اتصرف، خد رهف تشتري الحاجات دي لأنك مش هتعرف، وخلي بالك من البنت..

وأغلقتْ الخط بوجهه!..

رمق هاتفه بذهول غاضب، ما هي إلا ثوان ووصلته قائمة طويلة من الأغراض، لأمه.. لطفله.. لجده، بقي فقط جيران المزرعة..

تنفس ببطء يكبت سخطه، أنهى حمامًا سريعًا وارتدى ثيابًا خفيفة تناسب الموقف، في غضون دقائق وبعد تردد لم يدُم طويلًا كان يطرق باب غرفتها، سألتْ من ورائه عن الطارق فأجابها لتفتحه بقلق:

- خير يا مستر عدي!..

تأمل كنزتها التي تتوقف عند منتصف فخذيها، وإن سقطتْ تُعري أحد كتفيها، سروال الجينز البسيط القصير.. وخصلاتها المبعثرة بعشوائية لا تناسب مزاجه الحالي، انتهاءً بوجهها الأسمر الخالي من المساحيق مما جعلها تبدو كمراهقة متمردة..

تأمله أرجفها فتراجعت خطوة:

- دقيقة هاغير هدومي..

- لأ.. هو المفروض ماكنتيش تفتحي كده من الأول..

توسعتْ عيناها بدهشة سارعتْ عقبها بدفاع:

- أنا سألت مين..

استنكر جوابها.. أغضبه أكثر فهاجمها ببروده الفطري وسبابته تشير إليها صعودًا وهبوطًا:

- وهو عادي تفتحي لي أنا كده!..

- حضرتك دي توب وبرمودا جينز..

خلل شعره بأصابعه، لا يريد الجدال.. لا يهتم حتى إن فتحت عارية، يراها كابنة عمه.. يهتم لها بمقام الأخوة والأبوة، وهي هنا في عهدته.. عهدة ائتمنه والدها ووالدتها عليها..

سكن للحظات، زم شفتيه بضيق، ثم زفر عن يمينه وعاد إليها بأمر مقتضب:

- غيري هدومك وحصليني، هاستناك في اللوبي تحت..

ساوتْ خصلة نافرة تعيدها خلف أذنها:

- ليه خير!..

كان يفقد بقايا صبره المفقود بالفعل، ألا يكفيه دلال أمه لتأتيه هي!.

قبض يديه وعقله يخبره عن حل واحد.. الرحيل، فنَّد ببسمة سمجة:

- الحاجة عاوزة شوية حاجات من هنا، هننزل نجيبها..

وتنهد.. الكلمات تتعثر على أطراف لسانه، تنحبس خلف شفتيه لكن لا مفر:

- لو ممكن تساعديني أنا مابفهمش في الحاجات دي!..

أدار إليها شاشة هاتفه لتقرأ القائمة المرهِقة بتعجب:

- وليه طنط اتأخرت قوي كده!.. مش فاضل كتير على ميعاد الطيارة..

- رهف!..

رفعتْ عينيها إليه وقلبها يسقط..

يسقط بسرعة جنونية..

يسقط في فراغ لا محدود..

لا تجد له أرضًا، لا سماءً، لا جدرانًا.. لا يوجد شيء ينبئها عن مكان أو وجهة سقوطها؛ فقط لأنه نطق اسمها وتودد مجبرًا:

- أنا ماعرفش أسباب، بس هي مصممة..

ابتسمتْ بارتباك محبب وتراجعتْ أكثر تومئ برأسها:

- أوك؛ مش هاتأخر..

رحلتْ خطواته بتسارع ثابت، عشر دقائق وكانت تقف أمامه، ساعة تالية وبدأ يمل.. حقائب كثيرة، مليئة بما لا يراه هامًا ليحمله معه جوًا من دولة لأخرى.. وهي معه حماسها لا يفتر للحظة..

النساء والتسوق!.. أمر جنوني كادت أعصابه تنفلت بسببه مرتين مع أحد الباعة، نصف ساعة زائدة ووصلته رسالة جديدة مفادها أجج ناره أكثر:

"هات هدية للبنت اللي هتتعبها معاك دي، خليك جنتلمان"..

حسنًا.. لثانية فكر في أن يرمي بالهاتف على أقرب جدار ويراقبه يتحطم.. ثانية واحدة لم تمتد لأنها عادتْ إليه بحماسها المبالغ فيه:

- كده فاضل شوية حاجات بسيطة..

رمق شاشة هاتفه بعجز:

- فاضل عشر ساعات على الطيارة..

ابتسمت بهدوئها المعهود:

- مش مشكلة، ممكن ننام في الطيارة عادي..

اللعنة.. هو لم ينم بوسيلة مواصلات طوال عمره، لم يستطع أبدًا..

تبعها حيث آخر متجر في مركز التسوق الضخم، لم تواتِه الفرصة للتجول بـــ "كييف".. المدينة الراقية، وإن كان العمل يحتم أن يمر بمعظم طرقاتها خلال اليومين الماضيين..

وبيومه الأخير، الآن..

يتجول معها في أشهر شوارعها، شارع "خرشتشاتيك".. ينهيا مهمة التسوق المجهدة وتسقط هي على مقعد جانبي بإعياء:

- كده خلصنا..

تفحص ساعته ثم ثاب ببصره إليها، يرمق إنهاك ملامحها قبل أن يقع بصره على أحد المطاعم التركية التي تشتهر بها المنطقة، فكر قليلًا ثم قرر:

- هاودي الحاجات دي العربية وأرجع لك..

استقامتْ بغتة تجاوره بحيرة:

- ترجع لي!.. مش هنروح!.. كده جبنا كل حاجة..

أشار برأسه من ورائها تجاه المطعم:

- نتعشى بعدين نروح..

فتحت فمها لتعترض.. لحظة واحدة..

لحظة مبتورة، لا.. لحظة لا يجوز معها سوى البتر..

هو سيتناول عشاءه معها وحدهما!..

وجمتْ بمكانها تتابع ابتعاده، اختفاءه عن ناظريها.. لم يمتد بها الوقت حتى عاد وبيده كتاب ما قدمه إليها بقنوط:

- هدية أمي، لازم أنتِ كمان يجي لك هدية..

تناولته منه بسعادة رُغم أنها ليست قارئة مخضرمة.. ما يهمها أنه استجاب لرغبة والدته واختار لها هديتها على ذوقه!..

الذي بالمناسبة صدمها تمامًا وهي ترمق عنوان الرواية بيدها..

"1984 لجورج أورويل"..

رواية قرأتها من قبل، خليط من البؤس والحقارة، السوداوية وانعدام الأمل.. ديستوبيا كما قال الكتاب..

ابتسمتْ تشكره بينما داخلها تريد ضرب رأسه بها، تقدمته تجاه المطعم الراقي وهناك تركها تختار الطعام لكليهما كأنما لا يكترث بما يتناوله.. والذي في الواقع لم يكن بالكثير..

أنهيا الوجبة وعاد معها إلى الفندق، يشدد في تعليماته بصرامة:

- ساعتين بس هتناميهم، وهاصحيكِ عشان ميعاد الطيارة..

استجابتْ ببساطة اتجهتْ عقبها لغرفتها..

راقبها حتى اختفت خلف بابها، ثم أغلق بابه..

يعلم أنها أنثى جيدة، طفله يحبها، أمه تحبها، أمها تحبه وتلك سابقة تاريخية، هي نفسها تحبه كما تخبره كل رفرفة أهداب من عينيها، وكل لمعة بمقلتيها.. أنثى جيدة فقط بعيدًا عنه..

هو تزوج من عاشقة قبلها، وثمن عشقها كان موتًا.. لذا تكرار التجربة محض خيال أحمق لا يباح مروره بالفكر..

لتهنأ بوحدتك أيها الآلي جامد المشاعر.. يكفيك طفل هو العالم، وما بعده.. لا أهمية له!..

**

هل احترق العالم!.. لا..

لم يصل لمرحلة الرماد التي ينوي التربع فوق عرشها بعد، لكنه أشعل الشرارة الأولى.. والبقية تأتي..

امرأة فراشه وصلت به لمرحلة الملل سريعًا.. هو لا يبحث فيها عن إرضاء غريزة ذكر؛ بل يكسر عنق كرامتها ويدهس كبرياء أنوثتها.. يهديها الألم مقننًا بجرعات متفاوتة وينتعش بمرآها تذوي..

هي مجرد درجة.. وتخطيها واجب..

في لحظة صراحة مع نفسه اعترف أنه يفتقد صديقته "كاليوبي".. هاتَفها، أعلنت حزنها وغضبها وبتر كل ذلك بكلمة واحدة أخرستها..

ظل معها على الهاتف لخمس عشرة دقيقة كاملة قضى منها ثلاث عشرة في صمت، تأنس بأنفاسه الهادئة وينصت لتسارع أنفاسها الصاخب.. تسارعًا أدرك معه أفكارها عنه فابتسم بنشوة وودعها ببساطة كأنما استعاد نشاطه بغتة ودون كلمة واحدة أو إيحاء ماكر!..

غادر صومعته، أحكم إغلاقها والوقت يقارب الثانية بعد منتصف الليل.. عندما عاد لجناحه كان على يقين من كون "شمسه الغاربة" تغوص في أحلامها مع حبيب راحل.. أحلامًا لا يكترث لها..

لكن باغته صوت بكاء الصغير عبر باب غرفتها المفتوح، باب الحمام مشرع بنصف فتحة وضجيج رذاذ الماء يظهر من خلفه.. الحمقاء!..

بدأ البكاء يتحول لصراخ متحشرج، الأنفاس تنقطع بلهاث ووقفته عند مقدمة الفراش في مراقبة مترددة ملأت نفسه بالغضب..

تنهد باشتعال ومال يحمله.. كان لا يريد منه اقترابًا، منذ باتت زوجته لم يلمسه والآن أجبرته بغبائها على حمله في محاولة لإسكاته..

الغريب أنه توقف عن البكاء بخفوت تدريجي حتى هدأ تمامًا!..

مع صمته كانت هي تركض متدثرة بمئزر استحمام، خصلاتها الطويلة مبللة وجسدها لم يجف بعد، لقد سمعته وهرولت إليه لكن المشهد بالغرفة صدمها!..

جمدها قبل خطوتين من الدخول ولهنيهة فكرت أنه سيؤذيه.. خطوة أخرى للأمام.. تود انتزاعه منه، وصمت.. ثم تراجع..

تراجعتْ خطوتها تتخذ من الجدار ساترًا عن عينيه رغم أن بصره كان معلقًا بطفلها بين يديه.. يحمله بعسر..

بارتباك!..

رجل النار والرماد كما أسمته بعقلها.. يرتبك!..

سكون الصغير قرب دفء صدره بدا لها غريبًا، كانت كفه تسند عنقه ورأسه والثانية تدعم جسده في وضع رأسى أمام بصره.. يرمقه بنظرة غير واضحة من زاويتها..

بعدها استدار ليواجه الباب فاختفتْ أكتر تستتر عن نظرته.. وقفتْ تحبس أنفاسها، لوهلة شعرتْ بالاطمئنان.. هو لم يؤذِه، أو يعلن غضبه من بكائه الصارخ..

فقط حمله.. فسكن!..

راقبته يعود به إلى الفراش، يضعه برفق ولغة جسده ترفض كل انفعال مباح بالبراءة والنقاء المتمثلين في ابنها..

تركه.. بعد ثوان تالية وقبل ابتعاده تصاعد بكاءه مرة أخرى، تأملته يعتدل قليلًا.. يزفر بضيق، ثم يجلس ويرفعه بضمة متوترة..

ليهدأ مجددًا..

هذه المرة كان وجهه بالكامل تجاهها..

ترى انقباض ملامحه، نظرته الغامضة، الغائبة بشرود فيما تجهل!..

وصمته ليوازي صمت المكان بقتامة..

أخيرًا حررت الهواء المسجون بصدرها وارتدتْ خطواتها إلى الحمام تكمل ارتداء ثيابها..

هنا، الآن.. في هذه اللحظة، لمحتْ جانبًا آخرَ من وجه الشيطان!..

عندما عادتْ تعمدت أن تصدر صوتًا عاليًا ينبهه لقدومها ولا تدري لمَ!..

هل تمنحه الفرصة ليعود لجانبه المظلم الآمن مخفيًا قبسًا من ضعف أم تخبره أن تلك العاطفة الوليدة يجب أن تموت في مهدها، فهي لا تريد منه تقاربًا مع طفلها!..

حينما لمحها ناولها إياه بلا تردد.. بلا كلمة واحدة.. بلا نظرة تلتقي وعينيها، واندفع عبر الباب كرصاصة لا تجد لانطلاقتها هدفًا..

خطا لغرفته دون أن يشعل ضوئها، الظلام وحده كان يحتويه برفقته وألفته.. الألم.. الماضي..

البداية!..

وحكاية لم يكن ينبغي لها أن تُكتب، بين فتاة بالكاد هجرتْ مرحلة طفولتها لمرحلة الأنوثة بكل تبعاتها..

من فتنة.. من إغواء.. من سذاجة لا تزال تربطها بسنها الصغير..

سبعة عشر عامًا!..

ورجل.. يكبرها بعشر سنوات، قصة حب، وهم.. خداع.. ملاطفة، قرب ووعد بعشق.. ثم هربتْ تتبعه من مدينتها النائية إلى العاصمة الفنزويلية "كاراكاس"..

في قنصليته العربية وبحضور محامٍ تنصل من شرف مهنته كانت تضع إمضائها على أوراق زواج مدني، بها استحلها..

استحل كل ما فيها، غرس وجوده برحمها، كان معها حتى لفظ الرحم ابنه لأرض الواقع القاسية، قيده باسمه.. وعن طريق ذات المحامي وصلتها أوراق طلاقها.. بعد عام واحد..

ثمانية عشر عامًا..

ورضيع بين يديها!..

تنقلت به من منزل لآخر، من عملٍ حقير لثانٍ، تخدم هنا وتعمل هناك.. إلى حد تخطى تحملها ورضيعها بالكاد قد تمم عامه الثاني..

مرِض الابن.. وبالمشفى قررتْ شئون الخدمة الاجتماعية أن تحرمه وجودها وتحرمها منه؛ أخذوه لدار رعاية وكل ما يربطه بها هو قلادة..

قلادة نصفها صورتها.. والنصف الثاني صورة أبيه الذي اُستنسخت منه ملامحه!..

كبر الطفل المشتت، تنقل من بيت لآخر..

هذا بيت يحرمه الطعام لأنه كسر لعبته.. وبيت آخر يحبسه بقبو رطب لأنه أعلن غضبه على زميل له بالمدرسة فحطم أنفه..

بيت ثالث ضربه الأب هو وأمه بالتبني حتى كسر لها ضلعها بركلات حذائه بينما تحميه، بإثرها اُضطرتْ للتخلي عنه كما فعلتْ أمه البيولوجية قبلها..

بيت تالٍ ظنه جنته الموعودة، بعدها رزق صاحبيه بطفل حقيقي، طفل أخذ مكانه ومكانته فأعادوه من حيث أتى..

بلغ من عمره ثلاثة عشر عامًا تنقل خلالها بين أكثر من ثمانية بيوت رعاية وتبني، حتى وصل للأخير؛ صاحبه لم يكن يبحث فيه عن ابن، بل عن تابع.. عن ذراع يمنى تساعده في عمله؛ والعمل كان.. السرقة!..

بالإكراه.. بالتخفي.. بالمراقبة والاحتيال..

لم يجد بدًا من الاستجابة، بدأ المقت يتملك منه، القسوة تتغلغل بذراته.. الضياع يتحكم بأفكاره..

والحقد.. الحقد يسيطر عليه، على كل ما فيه تجاه من نبذه.. إلا من قلادة فضية رخيصة هي كل وأثمن ما يملك..

ثم أتت اللحظة التي حولتْ قسوته لوحشية، وقتلتْ فيه الإنسان ليحيا الشيطان..

صديق والده بالتبني، الذي يسهر معه كل ليلة يعاقر الخمر ويضاجع النساء.. يحاصره في غرفته والأب بالأسفل!..

بالأسفل أو ربما رحل ليتمم الحقير مهمته بمزاج رائق، فقد منحه الضوء الأخضر لينال منه.. يجاوره بفراشه الضيق ورائحة التكيلا

المقرفة تفوح من فمه وثيابه.. يتحسسه.. يلامس جسده بشهوة مقززة، ويهمس في أذنه بنبرة ثقيلة:

- مرحبًا يا فتى..

انتفض من نومته، حاول الهرب لكن الرجل الذي يفوقه حجمًا بمرتين ثبته بعنف:

- لا تخشَ شيئًا؛ سنمرح معًا قليلًا..

يمزق قميصه القديم بينما يده الثانية تفتح سحاب سرواله بلهاث:

- سأريك شيئًا مثيرًا للغاية..

ولم يفكر مرتين، كان مكبلًا أسفل الجسد الضخم، الصور تتابع في أفق عينيه بسرعة قاتلة..

قطعتها ومضة..

ومضة خاطفة انتزع خلالها مُدية والده الحادة والمخبأة تحت وسادته، فردها كما تعلم واعتاد وأتقن..

عقبها.. في الومضة التالية وبحركة باترة؛ تفجرت الدماء بوجهه والرجل ينقلب من فوقه على الأرض، يعوي كفأر أقفل أحدهم مصيدة صدئة على ذيله، يتلوى وينزف..

يستقيم هو ويواجهه من علو، يرمقه بشراسة وبقايا آدميته تتحلل، تسيل جوار الحمرة القانية التي أغرقت الأرضية الباردة ومن قبلها الفراش المتهالك بخبال مستحق..

يشعل عودَ ثقابٍ متجاهلًا الصرخات المتألمة، الغاضبة.. المذهولة والخائفة، ينتشي بالنظرة المرتعبة بعيني الملقى أمامه:

- الآن.. انظر إلى شيئك المثير يحترق!..

وأشعل في المبتور من جسده نيران وحشيته الوليدة..

ألقاه إلى جواره بقرف، تجاهل نظرة الرجل المصعوقة وصراخه ونزفه، ركض عبر النافذة، تعلق بحبل طويل دومًا ما ثبته هناك كخطة احتياطية حين الحاجة..

اختفي تاركًا كل ما فات من خلفه، ركض حد الهلاك.. حتى كلَّت قدماه وانقطعت أنفاسه..

تمر عليه الليالي في شقاء، بين زمهرير الشتاء القارص، ولهيب الصيف الحارق.. ينام بالشوارع، محطات المترو.. أسفل الكباري، يأكل من القمامة ويتحرش به الأوغاد..

كان طفلًا جميلًا وإن ظهر نحيل الجسد، لكن نظرة القسوة بعينيه أصبحتْ ترهب كل من تسول له نفسه معه تعديًا لخطوطه الصارمة..

كان مضطهدًا..

لاسم عربي يحمله.. وديانة لا يدري عن تفاصيلها شيئًا.. إلى أن انتهى به شتاته على رصيف السفن بميناء مدينة قريبة، ومن هناك أُجبر على بداية أخرى..

أرادوه أن يكون وحشًا؛ فكان..

أتقن الدور وانتشى به حتى فاق الأمر حدود التقمص إلى الحقيقة.. الواقع.. الحياة!..

"شكرًا"..

انتشلته من خضم غيابه في الأمس بحضور هامس مباغت.. حضور أنار ضوءًا خافتًا في ظلمته السرمدية فاحتدمت عيناه بنظرة تحترق.. اللعنة عليها وعلى طفلها الذي ضغط زناد الذكرى بضعفه وبرائته واحتياجه..

استدار إليها ببطء، كانت تقف عند بابه بتوتر..

لا تراه جيدًا على ضوء غرفة المعيشة وهو يقف في ركن بعيد يواجه الليل الحالك من وراء زجاج الشرفة..

توترتْ أكثر، ارتبكتْ..

فركتْ أصابعها وفسرتْ بذات الهمس:

- سِكت معاك..

لم تلمح رد فعله..

وهو لم يكن يمتلك أي رد فعل خارج نطاق الغضب..

اقترب بخطوات واسعة سريعة أشبه بانقضاضة ثعلب هائج، جائع.. تراجعتْ لها بانتفاضة فاصطدم ظهرها بإطار الباب، قربه

أوقفها.. جمدتها نظرته.. هناك كانت ترى الجحيم.. تسقط، تصلاه وتهلع!..

قبض على ذراعها بكل قساوته المكبوتة، آلمها فتأوهت بوضوح وهو يميل أمام وجهها بأمر بارد ينافي عينيه:

- المرة الجاية لما تحبي تاخدي شاور؛ تنادي بهجة تخلي بالها منه..

قهرًا امتدت يدها الثانية تحاول تفكيك أصابعه الغليظة الأشبه بكلابة حديدية بلا فائدة:

- كان نايم، ومش المفروض يصحى دلوقتِ..

- ما تجادليش..

بلا انفعال!.. خلا من كل انفعال بغتة.. وهذا مرعب!..

دفعها فارتطمت بالإطار ثانية وهو يتخطاها، يخرج من الجناح وبصرها يتبعه بحيرة.. بفضول تسللت للشرفة وكما خمنت..

لقد عاد لعزلته ومعزله.. تُرى أي جرح نكأتْ بداخله، أو بالأحرى نكأه صغيرها!..

هي على يقين من أنه جرح، فرُغم الوحشية لمحت أثر النزف..

لكنها هنا، في وقفتها ومتابعتها لخطواته المهرولة؛ لم تفطن بسذاجة تبيحها فطرتها العاطفية إلى أن البداية يمكن أن تكون فضولًا ممزوجًا بشفقة..

لم تدرك أن دواخله هو خالية من كل عاطفة قد تجيزها إنسانيته المنحورة، إنسانيته المدفونة على عمق سحيق بقبر روحه..

هو رجل رسم طريقه بالدم والنار، لذا فالزهور في مساره فقط.. سيدهسها!..

**

كأن كل الجروح الماضية تفككت قطبها دفعة واحدة وعادت للنزف بلا رحمة.. الخسارات.. الحلم..

الفقد.. الغضب.. الظلام.. الثأر.. والحب!..

وكان العلاج في البوح بقسوة.. كان الدواء في قطع درب العشق المستقيم، فالالتفاف هو المهرب، هو الحل.. به ومعه النجاة..

لمح بعينيها سقطتها في هواه، وهو ليس بفارس أحلام ولن يكون..

مرتْ بقلبه واحدة فقط من قبل، مرتْ ورحلتْ أو رحَّلها لا فارق، الفارق أنها تركتْ المكان خاويًا من بعدها.. معتمًا كعتمة نفسه الغارقة في آثامها.. لمح بعينيها ما لن يُعينه في حربه فدهسه بلا تردد..

دهسه وداس معها فوقه عائدًا لماضيه القذر، لتمرده برعونة أضاعتْ أهم ما امتلك يومًا، أفقدته ما كانه.. بدلته لما أصبحه!..

أصبح وغدًا، مستغلًا.. محاربًا بسلاح غير ذي شرف، وخسر واحته بصحرائه الجرداء!..

خسر واحته وراحته..

وقف قرب سور شرفة مدخل البيت الواسعة، يراقبها تحمل ابن أخيه فوق الأرجوحة، تجاورها "شمس" في ثرثرة صباحية مبهمة..

"شمس" التي هدأت ملامحها بغرابة وناوش حزنها شيء من سكينة لا يفهمها!..

"ذكية غزل"..

التفتَ لجده الذي نطق كلماته بينما يقترب وعيناه تتابعانها مثله، نطقها بتقرير يشوبه إعجاب قلما يزور نبرته..

واجه الجد نظرته المتسائلة ببسمة محملة بعبق النصر:

- واضح إنها بدأت حربها معاك بعد ما كشفت ماضيك الوسخ..

تراجع برأسه في حركة حادة والشك يساوره، شكًا لمحه "يونس" ففنَّد ببساطة:

- حكت لي على كل حاجة، على لعبتك والعاهرة اللي ظهرت في مكتبك..

برر ببرود رافض متغاضيًا عن حقيقة كشف المستور على يد البلهاء زوجته؛ فهو الآن يمتلك، يحكم ويفرض سيطرته:

- نيروز كانت جاية في شغل..

- شغل!..

ورفع حاجبه بتكذيب صريح:

- هو أنا مش عارفها وعارفك ولا إيه!..

أهداه "يزن" نظرة باهتة بها بعض من تهكم:

- للأسف مش عارفني..

مط جده شفتيه قبل أن يضع بينهما سيجاره، يشعله بتلذذ متلكئ ويقصف مخاوفه بالعمق:

- احمد ربنا إنها حامل المرة دي بجد..

- وإلا كنت رمتني أنا وهي في الشارع!..

قبض "يونس" على السيجار بأسنانه بنصف بسمة ساخرة:

- لا.. الموضوع كان هيبقى أصعب من كده شوية..

يملك الجرأة ليهدده!..

حسنًا، الجرأة متبادلة واللحظة تستدعي معركة:

- أنا مش يزن اللي عنده عشرين سنة..

رمقه الحوت بنظرة جانبية تليق بخبرات داهية قديم:

- ولا أنا يونس اللي طردك للشوارع تربيك قبل كده..

استدار إليه حفيده بكامل جسده في مواجهة حتمية، عينه داكنة.. نبرته قاتمة والحرب بروحه تشتد:

- أنا عارف إنك كنت عاوزني على العرش من بعدك..

تغضن جبين "يونس" بضيق.. استطاع مداراته بحنكة، والأسد الصغير يردف بلا اكتراث:

- يمكن يامن كان الحفيد المطيع الهادي، بس أنا..

وأشار لصدره بحزم صارم مدرِك:

- أنا كنت الصياد اللي بتتمناه خليفتك..

واجهه "يونس".. العين في العين، والحرب بالحرب والفائز وحده من يسدل ستار النهاية الذي لم يحِن وقته بعد:

- بس دلوقتِ أنا مش بدور على صياد..

انثنى جانب فم "يزن" بشبه بسمة هازئة ولهجته تشي باستهانة جوار الاحتدام:

- عارف.. بتدور على وحش..

لم يترك له فرصة التفنيد أو التبرير حيث أنه لا اعتراض هنالك:

- زمان كنت شايف إني المتمرد الطايش اللي مش قادر تسيطر عليه..

وتحركت سبابته من وراء ظهره بإشارة مبهمة:

- أهو اللي جالك وشايف نفسك فيه..

اقترب حد احتلال البصر والعقل والأفكار.. والصوت يخفت دفعة واحدة فيصبح همسًا هادرًا في تناقض مهلك:

- إبليس اللي هيهد الجنة اللي عِشت عمرك تبنيها..

أنهى كلماته وغادره..

تركه من ورائه مقطبًا.. متسائلًا، وعازمًا على الفوز بالوريث المنشود مهما بلغت التضحيات أو كان الثمن..

عاد بعينيه للشمس التي لا يعجبه ما يراه على وجهها منذ يومين..

كانت هادئة.. هادئة للغاية..

هدوءًا لا يشبه الانكسار المنشود في شيء، لا يقترب من الوجع الذي اشتهاه فوق ملامحها..

راقب حفيده المتمرد يقترب منها ومن زوجته..

راقب الزوجة تنهض، تناول الصغير لأمه.. راقبها تتخطاه عائدة إلى البيت..

وراقب نظرته الصامتة التي تبعتها في.. فقد!..

**

هو رجل قائمة خساراته قصيرة للغاية..

خسارة واحدة.. قاصمة!..

خسارة واحدة ثمنها العالم بأسره، عالمها الذي سيمتلكه ويمتلكها فيه أولًا ثم يهدمه فوق رأسها بلا تمهيد.. وبأقسى وأعنف وسيلة..

قلبها!..

خطوة أخرى جديدة زادتْ من ملكيته لها، بات شريكًا في مشفاها بنسبة أسهم خمسة وعشرون بالمائة كلها من نصيبها وحدها..

منحها المال المطلوب لإعادة بناء المكان، واسمه أصبح واحدًا من ستة أفراد يديرونه.. وقعا العقود سويًا في اجتماع لمجلس الإدارة أقيم خصيصًا لأجل تلك الشراكة، وعند رحيله همستْ له بخجل أنها ستحتفل بتلك المناسبة وإياه على طريقتها الخاصة..

دعوة عشاء لهما وحدهما ببيتها..

حين شاكسها عن وجود مربيتها التي تراقبها كملاك حارس، وتراقبه هو كصقر جارح؛ ضحكتْ بخفوت رقيق وتمتمت له بعشق أضحى يفيض من بين أجفانها دون بُخل:

- هنبقى لوحدنا..

وأوفتْ بالوعد، عشاء لذيذ.. طاولة أنيقة بمقعدين بحديقة المنزل الخلفية، إضاءة خافتة تطل على مسبح صغير وموسيقى هادئة تنبعث من داخل البيت وتصل إليهما بتسلل ناعم..

هو.. هي.. وثرثرة بدأتها عنه بفضول:

- أخوك هيرجع من جينيف إمتى!..

لاك قضمة من شريحة اللحم المشوي خاصته بتمهل متلذذ بينما يجاوبها بسلاسة:

- لما يخلص امتحاناته..

ابتسمت بفضول وارتشفت بعض الماء البارد:

- يعني هيحضر الفرح!..

هز كتفيه بأريحية وعينيه تحاوطانها بنظرة تخترق قلبها بسهام طفل الحب الطائشة:

- المفروض..

ثم ترك شوكته وتحول إليها بجذعه:

- بعدين هو السهرة دي عشان نتكلم عن أخويا!..

تنحنحتْ بحياء أنثوي يلائمها للغاية، أرجعتْ خصلاتها للوراء بعيدًا عن كتفها وبسمتها تتسع:

- لأ.. السهرة دي عشان نحتفل..

غادرتْ مقعدها إلى داخل المنزل، دقيقة وعادت إليه بعدما بدلتْ الموسيقى بنغمات تناسب ما تريده بهذه اللحظة، اقتربتْ منه بخطوات وقعها ثابت كما هو حالها دومًا:

- تسمح لي بالرقصة دي يا حضرة الدوق!..

استقام يواجهها فطغى على أفقها بطول قامته، وسؤاله المستغرب:

- دوق!..

احتواها دون مقدمات، استكانت إليه بجواب يسير:

- دايما باشوفك دوق، قائد معركة.. من وقت ما قلت لي إن الحياة كلها حرب..

مط شفتيه بسكون وإن أعجبه اللقب، لكن همسها هي أتاه مغرمًا حينما كانت عيناها تسقطان إلى القاع دفعة واحدة ببئر عينيه:

- النهاردة ما بقيناش زوج وزوجة بس، بقينا كمان شركا في الشغل..

ابتسم لها بتملك أسعدها قبل أن تردف:

- حاسة إن بكرة هيكون أحسن عشان أنت معايا..

ضمها يقربها منه، يترك غزو النظرة لغزو اللمسة بلا حدود مكسورة..

هو يدلل أنوثتها بمقدار مقنن، لكنه يحرمها كامل الدلال.. يحرمها كامل انتصارها في حرب مع ذكورته التي تظنها ستخضع لفتنتها وسحرها..

يرى في حدقتيها الكثير من التوقعات..

الانتظار.. الترقب.. السؤال الذي لم يعبر حاجز الصمت ولن يفعل..

هو هنا المسيطر والمنح بالمقدار الذي يرسمه فحسب:

- بكرة أكيد هيكون أحسن عشان أنتِ ملك إيديا..

مشيرًا لتصريحها السابق، عندما ملكته منها بكل عشق.. أبعدت رأسها تغرق فيه.. تعترف له بالحب كمفتونة بلهاء، تبث اعترافها بنظرة صامتة ويستقبله هو بنظرة مشتعلة..

اشتعالًا يحرقها بناره أكثر.. تذوب فيه أكثر..

وتتمنى لو يأتي الغد وبعده حتى تصبح له..

لمحتْ تبدل ملامحه لجدية فاجأتها:

- خلال أيام المهندسة هتخلص الشغل الأساسي في الفيلا اللي هنعيش فيها، المفروض تروحي زيارة تحددي معاها الشكل النهائي..

لم تلتقط من حديثه كله سوى كلمة واحدة:

- مهندسة!..

بصقتها بغيرة صريحة رفع لها حاجبًا بتغافل متعمد:

- أيوة، اللي بتعيد ديكورات البيت..

- مهندسة!..

تكررها باستنكار تراقصتْ له بسمة فوق شفتيه:

- أنتِ غيرانة!..

طوقتْ عنقه بكفيها بتملك:

- أيوة..

ضحك بهدوء ودار بها بغتة فأصابها دوار عشقه:

- لأ..

هزتْ كتفيها بتذمر.. هي امرأة مغناج دون تعمد، دون مبالغة، دون إخفاء.. مال يهمس بأذنها وأنفاسه تلفحها كأقرب ما يكون:

- أنا مش شايف غيرك في الكون كله..

تعانق جفناها ونبضها يتعجل طرق أضلعها بعنف يكاد يحطمها، جسدها يستند إليه، تذوب بين يديه، تريد أن تكون له..

تتراجع بعض الشيء، يطوقها بقيد عينيه فتذعن بتسليم، تنتظر منه الاقتراب، المبادرة..

القبلة الأولى التي ستنزع عن شفتيها رداء العذرية للأبد، تخرج حروفها محملة بخضم مشاعرها المبعثرة:

- بحبَك..

تلمح الوهج بمقلتيه.. لمعة أشبه ببرق ضربها وهرب في ثوان..

لقد وسم قلبها بهواه، والبقية تأتي لا محالة..

غارقة في بحر الانتظار، تتقلب بتوازن مختل بين موجه الصاخب.. حين ابتعد يتناول هاتفه من جيبه، متعللًا باهتزاز مكالمة وبسمة معتذرة!..

أحبطها.. ويقصدها..

فتلك يا فريسته، مجرد مناوشة قبل بداية اللعبة!..

**

السؤال كان: ماذا بعد البدايات اللطيفة!..

والجواب أتى: ننتقل لمرحلة اللعب بعنف..

حان دورها في اللعب.. في مشاهدة الرقعة من زاويتها الخاصة وتحريك القطع بما يتناسب ومزاجيتها، ويجاري رغبتها في الفوز..

ثلاثة أسابيع مضت على ليلة الحقيقة المجردة من ستر الغفلة.. ليلة القسوة العارية من رداء اللين والخبث والمكر الخادع..

ثلاثة أسابيع تجاهلته خلالها تمامًا كما فعل بالمثل.. كأنه لا يعيش معها بذات المنزل، الجناح والغرفة تقريبًا وإن كان ينام وحده بحكم إقصائي منها..

ما إن يظهر بمكان حتى تغادره، لا تلتقي بعينيه.. لا توجه له كلمة أو تطلب منه شيئًا.. وبينها وبين أخيه نمتْ علاقة ما، يمكن تسميتها بالصداقة..

حيث أنه لو نحينا جانبًا صمته وغموضه؛ به شيء محبب تجهل مسماه.. لكن صحبته تريحها..

بعض نهارها تقضيه في إتقان لغتها الإسبانية، وبقيته مع من باتت صديقتها "شمس" وصغيرها الذي تود أكله أحيانًا من فرط لذته ونعومته..

جزء من الليل عمل على ترجمة نصيبها من النصوص الحرة على الانترنت، ثم نوم.. أضحى كأنه لا وجود له في كونها الخاص..

كانت تنتشي بنظرته التي تلمحها تتبعها كثيرًا وتراقبها بشوق أكثر..

أما الآن.. بغرفتها، فكانت حانقة، تدور حول نفسها بضيق، يدها تغوص بكثافة خصلاتها فتبعثرها بفوضى وتعود لتسويتها بملل..

لمستْ بطنها تربت عليها بعتاب تمازج غضبه بحنوه:

- على فكرة عيب قوي اللي بتعمله ده!..

تخاطب طفلها بنبرة مستهجنة رافضة:

- ومش هاسامحك عليه..

تصمتْ.. تفكر، وتزعق فيه بخفوت:

- أنت bad boy by the way..

تمط شفتيها بتذمر مدلل:

- naughty baby ..

ثم أعلنتْ استسلامها وأمسكتْ بهاتفها.. تتردد أناملها عند الأحرف، تعاند للحظات بعدها تكتب بحنق وتستغل الحدث..

فالغاية تبرر الوسيلة.. مبدأه الأوحد والأفضل، لذا يستحق منها بعض التطبيق عليه!..

كان ممددًا بفراشه في أرق بات خليل لياليه مؤخرًا.. يحملق في السقف على ضوء خافت تركه إلى جواره.. يعيد في عقله تلك اللحظات الحاسمة التي قطع فيها خيط العشق الواهن.. لا يعي لمَ فعلها بتلك القسوة وإن كانت حقيقة لا مناص منها!..

هل أراد إنهاء قصة رومانسية لا تليق بشخصه الحالي!..

أم أنه كان مطعونًا بخنجر الذكرى، وسَمتُ الجرح نزف يستحق أن يطال بدنسه كل من خطا لمحيطه!..

بُترت أفكاره برنين خافت، بغتة أتته رسالة على هاتفه..

رسالة ساكنة، جامدة.. خالية من كل انفعال بشري ممكن.. رسالة أججتْ انفعالاته هو، أشعلتْ به النيران ورمته في جوف الخوف، قذفته بأعمق نقطة من بئر وساوسه الضحل:

"There is something wrong with the baby"

رسالة منها.. لا يدري كيف وثب خارج الفراش!.. كيف ركض بتعثر إلى غرفتها!.. كيف فتح بابها باندفاع كاد يكسره ولهاثه يسبقه:

- في إيه!.. مالك؟.. البيبي ماله؟..

كبتتْ بسمة منتصرة، منتشية.. بينما تخطو عائدة إلى فراشها، تستقر فوقه بجلسة متنمرة وملامحها ممتعضة:

- He wants his dady..

حدق فيها لثوانٍ بغباء وهي استقبلتْ نظرته بهزة كتف في استسلام، وأصابعها تعيد خصلة شاردة خلف أذنها..

بعد تلك الثواني اعتدل يشد قامته والفهم يتسرب لعقله المبهوت، يتنهد.. يزفر بحرارة غاضبة، يضم قبضته والأخرى تغلق الباب من خلفه، اقترب منها بشيء من حنق:

- ما كانش في طريقة أحسن من كده!..

افتعلتْ البراءة وكررتْ هزة كتفيها:

- This is the truth..

وقف عند طرف الفراش يواجهها بحاجب مرفوع:

- طيب وماما!..

- ماما لأ..

جذبها يقيمها في مقابله، كفيه تحيطان بوجنتيها وكلماته يهمسها قرب شفتيها:

- متأكدة!..

استقبلت قبلته بمثلها.. بل بشغف باغته وهي تعانقه:

- متأكدة..

مرر بسمته بعبث ومال بها عائدًا إلى حيث كانت:

- أنا تحت أمر ابني حبيبي والله..

كان يظن أنه نال الرضى.. أنها عادتْ وعاد وتلك بداية أخرى بأوراق مكشوفة؛ بداية سلسة، سهلة.. دون توقعات أو أحلام وردية تخص فارسها الخيالي..

نامتْ بأحضانه طوال الليل، ولأول مرة منذ أيام يفوز بنوم هانئ مريح.. لكن في الصباح عندما استيقظ لم تكن إلى جواره!..

فتح عينيه يتمطى بكسل، يفتش عنها ببصره حتى التقاها تجلس أمام طاولة الزينة، تصفف خصلاتها بعناية، ترتدي سروالًا ناعمًا

داكن الزرقة وقميصًا كريميًا بلا أكمام، ترسم شفاهها بحمرة هادئة وتنهض..

تلتفتْ فتراه يتأملها بمكر ذبحته في المهد عندما أشارت بلهجة باردة:

- تقدر ترجع أوضتك..

لا ينكر ضيقه فقد تمنى صباحًا مغايرًا، لكنه أجاد توريته خلف دهشة مرحة مفتعلة:

- يعني إيه!.. كده أخدتِ غرضِك خلاص!..

كانت قد أولته ظهرها في طريق المغادرة لتناول إفطارها اليومي مع "شمس" والجد حينما توقفتْ لحظة.. سكنتْ ثم أجابت بثلاثة أحرف لامبالية من بين شفاه ممطوطة:

- آها..

رفع حاجبه معجبًا بطريقتها في اللعب.. ابتسم بشقاوة وارتمى بين طيات الفراش مصطنعًا تأثره بضعف ويمناه تلامس موطن قلبه:

- قلبي.. على فكرة ده اسمه استغلال..

مع استمرار تجاهلها وخطواتها إلى الخارج أردف بأسى:

- إحنا كده وصلنا ليفل الوحش..

أكملت طريقها بصمت.. دون استدارة وبسمتها تشق حضورها عنوة عند طرف فمها.. بسمة بلهاء، عاشقة..

لا تتنصل من كونها تحبه، تهوى عبثه ومشاغباته.. تغرق في دُجنة عينيه وتذوب بين ذراعيه..

هي لا تبحث عن دواء من ذاك الداء؛ بل تريد له هو.. العدوى..

واللعبة مسلية؛ إذًا لتستمر!..

**

في الحروب هناك دومًا طرف مهزوم، أما في حربه معها فقد انتصر بعد كل خيانة لطختْ حياتهما سويًا..

ليس شيطانًا كما تخبره نظراتها.. بل فقط رجل يجيد العزف على أوتار أنوثتها.. وأوتار قلبها!..

حتى عندما أسقط شقيقتها في براثنه بفراشها، أعادها طوع يمينه بأنشودة تلاها على فؤادها العاشق، وجسدها الذي نقش خرائطه بنفسه حتى أدمن حضوره بين حناياه..

هي مسلسلة إليه والحرية لا تلوح حتى في الأفق البعيد!..

عاد للبيت من عمله مبتهجًا، وجدها بالمطبخ تقف باهتزاز وحدها، تبتلع أحد أقراصها وبصرها شارد في مجهول أغضبه فهاجمها:

- إحنا مش هنبطل القرف ده!..

استدارتْ إليه بعين حزينة ووجه شاحب.. هي تفقد روحها معه..

ومع كل فقد تتيه أكثر، ربما قريبًا ستصل للرمق الأخير، بادلته هجومًا بهجوم:

- لما تبطل أنت قرفك يا راجح..

أمسك شريط أقراص المهدئ الخاص بها وألقاه في سلة القمامة، جذب ذراعها بعنف يواجهها:

- خير تاني!..

تناولتْ هاتفها من جيب سروالها، فتحته تحشره أمام ناظريه ليرى نفسه بصحبة.. امرأة!..

غزوة جديدة من معارك انتصاراته فوق أجساد النساء..

نساء عاهرات.. شريفات.. متزوجات.. مطلقات..

لكل منهن ثغرة، هفوة، سقطة.. يقتنصها هو بخبرة شيطان وسواس، أبعد الهاتف وحاصرها بجسده الضخم:

- قلت لك مليون مرة دول مجرد نزوات..

وأحاط عنقها بكفيه، يتخلل خصلاتها التي أضحتْ باهتة مثلها:

- أنا بحبك أنتِ..

دمعت عيناها وهي تستسلم لحصاره بوهن:

- والحب ده مش كفاية!..

ثم ضربتْ صدره بقبضة ضعيفة تستجديه صدقه، إخلاصه:

- أنا مش كفاية..

وقبل رد يخرسها به كانت تصرخ بوجعها الحاضر في كل لحظة:

- أنت كسرتني بأختي..

ضمها بقسوة غريبة أنَّت لها ضلوعها؛ تلك الهيستريا ليست في صالحه، هو عاد باكرًا من عمله لهدف محدد.. لفوز سيعلنه لها، وبعدها يظفر منها بما يريد!..

- أنا بحبك يا هالة، أي ست تانية مرت في حياتي مجرد طيف..

أبعد وجهها يُغرق احتياجها باجتياحه، يُعلق عينيها بعينيه، يسقطها من فوق حافة ثباتها المهتز لقعر خطاياه:

- بحبك وعندي خبر هيفرحك، هينقلنا نقلة تانية..

استسلمتْ لتغييره فحوى الحوار بألم:

- خبر إيه!..

حررها بغتة ودار حول نفسه في المكان ببهجة انتصار:

- هادخل شريك بنسبة كبيرة في مشروع قرية سياحية في الساحل..

قطبتْ بحيرة واعتدلت تسأل باهتمام:

- شريك منين يا راجح!..

عاد يقترب منها، يحاوط خصرها بذراعيه، ويخبرها بسره:

- هابيع نص أسهم شركة المقاولات، وهادير المشروع مع شريك تاني..

ثم مرر أنامله بخصلاتها وبصره يطبق عليها فخ هدفه بلا جهد:

- هاحتاج بس شوية سيولة..

همستْ بتشتتها اللحظي من فرط حماسه:

- ودي هتوفرها إزاي!..

ابتسم لها تلك البسمة التي يعرف أنها تشوشها، تبعثرها.. هو رجل وسيم، ويدرك مقدار وسامته..

بل يستغلها!..

- هالة حبيبتي هتساعدني، ونفك وديعة الولاد..

انتفضتْ بين يديه، كادتْ تبتعد لولا أن كان سطح المطبخ في ظهرها وهو يلتف حولها كثعبان ماكر:

- لأ يا راجح، ما ينفعش.. دي تأمين مستقبلهم الوحيد..

رفع كفيه يحاوط وجهها، يلاقيها، يفتش عن شفتيها:

- عارف، والمشروع ده هيأمن مستقبلهم أكتر، وهيرفعنا كلنا معاه..

- راجح!..

تمتمة أخيرة ابتلعها بقبلة.. بعناق.. بعد أقل من دقيقة كانت ممددة معه على أرضية المطبخ يمنحها ما يدرك أنه سيُخضعها..

في النهاية همس لها وأنفاسه تحتل أنفاسها:

- هنفك الوديعة مش كده يا حبيبتي!..

ضمها إلى صدره فاحتضنته بإذعان:

- حاضر يا حبيبي..

في الحروب..

لا يهم أن تقاتل بشرف، ما يهم حقًا.. أن تنتصر في جميع معاركك مهما كانت الوسيلة!..

في الحروب؛ كانت تلك حربه الأولى..

هاتف.. اتصال مقتضب، ونبرة تخبره بعملية جادة عن نجاح الفخ في جذب الطريدة:

- بلع الطعم يا وجيه بيه..

أغلق الخط وبريق عينيه يظلم..

فحتى مذاق النصر المؤقت لا يغني ولا يسمن من جوع؛ ربما يشعر به حقيقة وقتها.. يسحقه!..

**

عندما وافقت على المغامرة؛ لم توقع صك السقوط في الغرام..

بدايتها كانت حماسية، لعبة مختلفة بعيدًا عن الروتين الممل..

بداية تحولت من المغامرة للجدية في لحظة تقَرَب منها كزوج حقيقي وتمم الميثاق الغليظ، في لحظة غضبه وتفهمها.. حزنه واحتوائها.. ألمه ودعمها.. في لحظات الجنون والعبث والقرب..

جدية حفرتْ سكناه بقلبها، وتجاهلتْ زيارتها لقلبه..

الخطة منذ انطلاق صافرة اللعب كان له منها هدفًا، ولها هي منها هدفًا مغايرًا؛ هو يفتش عن عودة لامتلاك ما خسر وإن كانت تجهل حيثيات الخسارة وتفاصيل الفقد..

وهي!..

هي تغامر في أرض لا تدرك أبعادها أو تتقن خارطة طرقها..

أرض قلبه.. وماضيه الذي مازال غامضًا مليئًا بالأثام كما يبدو؛ وإلا لَمَا نال النبذ!..

لذا فقد قررتْ بعدما علمت بعلاقته بتلك الشمطاء وستتغاضى عن فتنتها الواضحة، هي شمطاء وستظل.. قررتْ أن ما مضى لا يخصها، فقط إثر دخولها لحياته ذاك ملكها..

ملكيتها الخاصة التي لن تتنازل عنها..

وحتى يسقط بغرامها ستستمتع بلعبتهما معًا..

صباح جديد عادت فيه لسياسة التجاهل، صباح يوم العطلة الذي يقضيه بالعمل أيضًا كأنما لا يوجد غيره..

بسروال قطني قصير، وقميص من ذات الخامة، هاتفها وسماعاتها بأذنيها.. خصلاتها مرفوعة في ذيل حصان شبه محكم إلا من واحدة أو اثنتين تفلتتا بعشوائية ناعمة.. وخطواتها الهادئة تقودها إلى صالة الألعاب الرياضية الملحقة بالطابق السفلي والمطلة على الحديقة الخلفية للمنزل..

سمح لها طبيبها بشيء من الممارسة المحدودة عندما اشتكت الضجر وضيقها بحصار حركتها..

وقفت فوق سير الـ "treadmill".. وعلى أبطأ درجاته بدأت المشي ببساطة..

لم تمر ثلاث دقائق إلا واقتحم بصرها بحضور صباحي منتعش، هو على العكس من أخيه يقضي نهاية الأسبوع بالمنزل وسط مكتبة الجد..

بادر ببسمة متعجبة.. فالحامل تمارس رياضة لا تليق ببداية الحمل:

– Buenos días..

سحبتْ إحدى السماعتين من أذنها وردت تحيته بذات اللغة التي تحسنت لهجتها فيها كثيرًا بفضله:

- Buenos días..

أشار إليها برأسه باستغراب:

- مَشي!..

هزت كتفيها باستسلام لرغبتها في كسر السأم:

- الدكتور إداني الـ ok ..

ثم امتعضتْ بشرود أنثوي يشبهها:

- بالنسبة لي الرياضة روتين أساسي، مضطرة أعمله..

بعدها ابتسمتْ له بشقاوة، تخبره بغبطة مرحة:

- I envy شمس، باليرينا، حقيقي كل حاجة فيها perfect..

وصفها لزوجته بالكمال كان غريبًا!.. هو لا ينتبه لتفاصيلها، بالكاد يراها كامرأة تسد احتياجات رجولته حين يشتهي.. وذاك نفسه محدود للغاية..

لا ينتبه ولا يريد أن يفعل!..

مط شفتيه بلا تعقيب، اتجه إلى جهاز "multi gym" بالركن المجاور لها دون إضافة أخرى.. أعادتْ هي السماعة وتجاهلتْ حضوره..

لأول مرة يلتقيا هنا؛ ولو غادرتْ الآن لفهم أنها استاءت من وجوده؛ لكنها فقط خجلى..

خجلى وتضاعف خجلها عندما خلع قميصه الخفيف وبقي بالسروال القصير فقط!..

يمارس تمارين إحماء خفيفة.. يلوي عنقه يمنة ويسرة ويمدها براحة بموازاة كتفيه.. يفرد ساقيه بمرونة ثم يعد عشر ضغطات بعدها يجلس فوق المقعد الخاص بالجهاز..

تضايقت عندما ضبطتْ نفسها تحصي ما يفعله، تراقبه بجانب عينيها بفضول فطري..

وتضايقتْ أكثر عندما اكتشفتْ أنها لاتزال تفعل، بينما هو يسحب ذراعي جهازه بقوة للأمام مستمرًا في تمارينه، منشغلًا بها..

مرتْ ثوان تالية رمقتْ فيها عداد سرعتها تلتهي عنه وقررتْ زيادتها قليلًا.. بضع خطوات وحدثتْ الكارثة!..

التوى كاحلها..

شهقتْ بعنف، حاولتْ التشبث بالجهاز فأفلت عند أطراف أناملها واستعدتْ الأرض لاستقبالها بصلابتها القاسية.. حاوطتْ بطنها بساعدها بسرعة كأنما تقي طفلها تبعات ما هو قادم لا محالة..

ثانية واحدة؛ سبقتْ حركته حركتها بعفوية مع شهقتها..

كان يندفع، يقطع المسافة بينهما بخطوتين واسعتين، ينزلق ليسقط قبلها جالسًا ممددًا جسده، فيتلقاها بأحضانه.. يده تحيط بظهرها، الأخرى تسند ساقيها، وساقاه هو تمنعان الارتطام الخشن..

سكنتْ للحظات تلهث بذعر..

أتراها سقطة مؤذية!.. ماذا لو فقدتْ جنينها!..

استكانتْ يمناها فوق صدره لثانيتين زائدتين في حين لا تزال اليسرى تحمي طفلها قبل أن تنتفض مع سؤاله الصادق:

- أنتِ كويسة!..

رفعتْ وجهها وعينيها المرتعبتين إليه فقطب باهتمام:

- حصلك حاجة!..

نفتْ بهزة صامتة من رأسها قبل أن تفيق لوضعهما ذاك.. انتفضتْ مجددًا تبتعد عنه، تستند للأرض تتفادى لمسه وتحاول النهوض بعسر.. آلمتها قدمها فتأوهتْ تعتمد على جهازها الأحمق الذي رمقته بغل كأنه السبب، وازاها وقوفًا وأمسك بكفها ومرفقها يقودها للمقعد الوحيد بالمكان..

هنا يعود لثغرته التي أجاد امتلاكها..

هنا صدقه قد مضى، أدى دوره ورحل!..

عاونها لتستوي فوقه بأنَّة ألم، جثا أمامها يمسك بقدمها، انتزعتها منه مستنكرة:

- أنت بتعمل إيه!..

رفع حاجبه وبسمة تناوش شفتيه:

- هاطمن على رجلك، مش واضح!..

تراجعتْ باحتجاج متوتر:

- لا.. مش مهم، بسيطة..

جذبها عنوة ودحض احتجاجها بالفعل:

- اهدي يا غزل..

- يعقوب ما ينفعش..

تجاهلها يخلع حذائها الرياضي، تبعه بجوربها، تأمل كاحلها بعين راضية ثم أخبرها:

- مافيش حاجة.. بس يمكن عشان ضَغطتِ عليها شوية..

مسده بأصابع خبيرة أدهشتها، فسألته بمشاكسة ونظرتها تتركز على يديه:

- أنت خبير علاج طبيعي ولا إيه!..

حرك رأسه ليواجهها باستفهام، سؤالها يستدعي منه ضحكة خافتة ربما للمرة الأولى منذ عاد للوطن:

- لأ.. ليه!..

أومأتْ نحو قدمها وعلامات الراحة تظهر على وجهها، تفهم واستقام يتركها تعيد ارتداء الجورب والحذاء.. مد يده إليها، تمسكتْ بها بتلقائية، لكن مع الضغط عاد الألم بشدة، خففتْ اعتمادها عليها قسرًا فكادتْ تسقط، سارع يدعمها:

- لسه بتوجع!..

- إممم..

- أشيلك!..

لم تكن لهجته عابثة، كانت جادة.. كان يقصدها حقيقة وهي لا تظنه قد يفعلها، نفتْ بهزة رأس سريعة تداري ارتباكها بضحكة:

- لأ طبعا، وعلى فكرة أنا تقيلة مش perfect زي شمس..

تكررها، كأنما تحشرها بعقله دون قصد، رُغمًا عنه!.. هو حتى لم يحمل زوجته في مرة ولا يدري عن خباياها شيئًا؛ نفض حضورها

عن أفكاره وتحرك.. فوجئت به يديرها لتجاوره، يحاوطها ويرفع ذراعها فوق كتفه بلا جهد:

- طيب هاوصلك أوضتك..

تناءتْ عنه فرمقها بدهشة مصطنعة..

كان يدرك أنه يتخطى حدودها، يدرك ويريد وسيفعل!..

- إيه!.. ممكن أسندك عادي..

- لأ.. هعرف أمشي..

كررتْ الرفض باعتراض منطوق هذه المرة، خطوة والتالية أوشكتْ معها على السقوط، وجدتْ دعم ذراعه حولها ونبرته تؤنبها كطفلة عنيدة تكابر مع الألم:

- بتعاندي في إيه مش فاهم!..

تراجعتْ تبعد يده عن خصرها بخجل هادئ:

- يعقوب..

عقبها أشارتْ إلى جذعه المكشوف هاربة ببصرها:

– you are shirtless!..

أخفض عينيه لصدره لحظة وابتسم ببدايات عبث، تركها تستند للجدار وأحضر قميصه:

– دي المشكلة يعني!..

ارتداه بحركة سريعة وقلب كفيه بيسر:

– ok now!..

هزت كتفيها ببراءة.. براءة لم يكترث لها..

هي مجرد خطوة أخرى، درجة أعلى يصل بها لعرش الهيمنة..

يزيح الخصم، ويتربع هو بعدما يحرقه!..

ظل معها حتى وصلا للدرج الداخلي للمنزل، هناك بات الوضع أكثر مشقة، ولم يسأل هذه المرة!..

باغتها بانحناءة، حاوطها بذراعيه، وحملها.. ببساطة الكلمة وسلاسة نطقها؛ فعلها..

مع الصدمة تصلبت تمامًا، حافظ هو على طبيعيته وشبه البسمة الماكرة..

غافليَن عن العينين المراقبتين بألم!..

فالمشهد من حيث تنظر؛ بغيض.. حقير، وشيطاني.. لقد عاد..

عاد الوحش المختبئ تحت جلده للظهور..

عاد الشيطان..

**

الرجم لا يكون فقط بالحجارة..

فأحيانًا أنفاس الحياة نفسها تصبح أحجارًا تثقل الصدر، تخنقه..

أنفاس الحياة تتحول لقيد يغل الروح لمكان لم تعُد تريد البقاء فيه..

وأمنية الموت حلم بعيد المنال إلا لو حققته بيديها!..

يديها اللتين ترتجفان برعدة طالتْ جسدها بأكمله وهي تجلس على أرضية الحمام الضيق، تنهمر دموعها بفيض حارق.. تكبت شهقاتها بهلع وكل أفكارها لا تسعفها في إنقاذ..

فإلى جوارها كان ملقى اختبار حمل تأخرتْ فيه..

اختبار حمل.. إيجابي!..

(12)

الحياة ليست قاسية إلى ذاك الحد..

الحياة أقسى مما نتخيل!..

**

هي امرأة لها فوضى محببة.. فوضى رقيقة ممتعة للعين، جاذبة للنظر، مبعثرة لنبضات القلب..

اشتاقته وكانت تعلم أنه اشتاقها بالمثل، اليوم موعد عودته من سفرته المحدودة التي مرت عليها كأسابيع وليست أيام..

لم يخبرها متى سيأتيها بالتحديد، لذا أعدتْ طعامه المفضل بخبراتها المتواضعة والتي يثني عليها فقط لخاطرها، رتبتْ عشهما الصغير وحملتْ دفتر رسوماتها "سكيتش"، قلمها الرصاص.. وتمددت على بطنها فوق الأرضية في مواجهة باب الشرفة؛ حيث الشمس وضوء النهار الدافئ..

اندمجت بكامل مشاعرها في خطوطها السريعة الأنيقة فلم تشعر بحضوره، بمراقبته لها باستمتاع عاشق في ثوبها الكريمي القصير الذي يكشف عن نعومة ساقيها من حيث تنبطح بأنوثة لا تبذل فيها جهدًا للإغواء..

هي ببرائتها.. بفطرتها مغوية، وذاك سحرها الخاص جدًا..

لم تشعر إلا عندما جاورها بهدوء تام وذراعه تحاوط خصرها بتملك وازى همسته بأذنها:

- وحشتيني..

انتفضتْ بشهقة عاتبة، وكزتْ كتفه واستدارتْ قليلًا تواجهه:

- مش هتبطل تخضني!..

نال من شفتيها باستحواذ تائق مشتاق، ثم ابتعد يهبط بكفه إلى موطن خافقها النابض بجنون:

- لأ.. مش هبطل، ولا هو هيبطل..

اعتدلتْ تجلس بشقاوة:

- فاتَك عرض يوم الجمعة..

وازاها في جلستها وأصابعه تفك رباط خصلاتها لتحررها حول وجهها وكتفيها كما يعشق:

- أنتِ عارفة إنه غصب عني..

هزتْ كتفيها بأنوثة تغيظه وأناملها تتخلل شعرها:

- أنتَ الخسران على فكرة..

وقبل رد منه دفعت بدفترها بين يديه:

- خلصت قصة وبدأت التانية..

تأمل الرسومات بعين مهتمة، فكل ما يتعلق بها يهواه.. بل يدمنه، قلب الصفحات حتى وقعتْ عيناه على صورة ملامحها تشبهه كثيرًا، ابتسم لها:

- Y!..

- آها..

أشارتْ بسبابتها، مرورًا بطيئًا فوق رسومات قصتها المصورة الخيالية والخالية من فقاعات الحوار حتى تلك اللحظة:

- رمز..

توسعتْ بسمته بمكر لطيف:

- اشمعنى!..

اعتمدتْ على ركبتيها في مواجهته وكفها تلامس وجنته:

- عشان أول حرف من اسمك..

أمسك بيدها يقبل باطنها بشغف:

- يعني القصة الجديدة أنا فيها super hero!..

أومأت بموافقة وبريق عينيها يأسره:

- أنتَ بطلي..

استقام واقفًا ثم جذبها يحاصرها بذراعيه، تلكأ بشفتيه يطوف بهما ملامحها.. حتى انتهى إلى ثغرها وهمسته تكلل نبض القلب بالتصريح الملهوف:

- بحبِك..

ابتعدتْ عدة خطوات للخلف ودارتْ حول نفسها برشاقة وثوبها يتبع حركاتها حتى التقتْ به، تغرق بأحضانه وتمط شفتيها بأسى:

- كان نفسي تحضر العرض..

طوقها بعاطفة دافئة وأسف عينيه يسبق كلماته:

- أوعدك المرة اللي جاية، عارف إنك بتحبي Nutcracker..

حافظتْ على حزن وجهها وتعلقتْ به:

- وكان أول رقصة صولو ليَّ..

ناوش قوس فمها الحزين بإبهامه في حنو:

- Dance of the Sugar Plum Fairy!..

جاوبتْ بنعم صامتة في دلال جعله يحملها إلى غرفة النوم:

- هاصالحك، وترقصيها لي تاني..

عانقته تريح رأسها فوق كتفه بتذمر رقيق:

- يا سلام!..

ارتكن بركبته للفراش قبل أن يمددها فوقه بلين، يستند بكفيه حولها بينما يداها تتشبثان به:

- خسارة فيَّ!..

نفتْ بكل جوارحها وعيناها تسقطان بسواد عينيه الداكن:

- الكون كله مش خسارة فيك يا حبيبي..

انتعشتْ حواسه بعشقها فاقترب يلثم كامل تفاصيلها.. يمتلكها برقته التي تذوب فيها.. يمنحها قبل أن يأخذ، يسعدها قبل أن ينتظر منها سعادته.. ومع كل ضمة منه كانت تهديه حبها..

وجودها.. تشبثها.. قلبها وحياتها..

وهمسها المغرم بهواه:

- بحبَك..

"يامن"..

تمتمة باسمه غادرت دنيا الأحلام ودائرة الماضي المحشورة داخلها حين نومها.. غادرتها لأرض الواقع، حيث الفقد والخسارة.. الضياع والموت.. والخوف!..

حيث هي ورجل آخر احتل بحضوره القاتم غرفتها في مراقبة مثيرة للرعب..

يقف قربها يديه بجيبي سرواله، بصره مثبتٌ عليها في تأمل غامض.. صغيرها نائم بمهده، هي بفراشها تتنعم في أحلامها بأحضان حبيب راحل غافلها لسانها بذكره.. غافلتها شفتاها ببسمة عاشقة، حالمة تهديها له.. غائبة عن عيني شيطان لا يعجبه ما يراه..

لقد هشم فيها الكثير ولايزال ينشد تحطيم ما هو أكثر؛ لكنها تمتلك القدرة على الحلم!..

هذا إذًا هو سبب ثباتها.. هو دافع تحملها!..

ينتهي منها فتركض هاربة لأحضان العاشق في غياب غير مباح..

غياب لا يكترث له، لكنه فقط يريد تلويثه!..

كان يعاني من أرق حارق، ككل ليلة منذ سنوات طويلة.. نومه لا يتعدى الأربع ساعات في ومضات مبتورة غير مريحة حتى ألفها جسده وبدأ يعتاد على استجماع راحته منها..

وهي رُغم ما مرتْ به معه تنام في راحة، ببسمة صافية وحلم هانئ، واسم معشوق يفترض أنه أخيه!..

ترك الغرفة بخطوات هادئة غير مسموعة والقرار يتشكل بذهنه..

تلك الأحلام ستكون له..

له بحضور شيطاني، يُبدلها لكوابيس تليق بجحيمه!..

**

على شفا جُرف تقف..

خطوة واحدة أخرى للوجهة الخطأ تعني النهاية الحتمية..

عن يمينها جحيم تتلظى ألسنة نيرانه اشتياقًا لإحراقها، عن يسارها غابة ينتظر مفترسيها فرارها إليهم.. خلفها وُضعت المتاريس وأُنشئ جدار عالٍ حيث لا تباح عودة..

وأمامها هوة مظلمة لا ترى لها قرارًا..

تكاد تقسم أنها لو سقطت فستستهلك عمرًا بأكمله حتى لحظة الارتطام بقاعها الذي يوجه حرابه لروحها..

ألم تنل من العقاب ما يكفي!..

ألم تمت وهي لاتزال حية تُرزق على وجه الأرض!.. ألم تخسر الزوج والحبيب!.. ألم تفقد الأولاد!.. ألم تُضيع نفسها!..

ماذا تبقى لها إذًا!..

هي حامل.. والحمل هنا لا يحمل بهجة تناسب أُمًا، لا.. هو يحمل كل خوف ممكن.. هل سيتقبلها لو عادتْ إليه تخبره عن جنينه برحمها!..

هل سيسامح!.. هل يعيدها!..

كلا.. الموتى لا يعودون للحياة أبدًا، وهي لم تعد تملك ما تخسره، لذا القرار جاء بعد يومين من التفكير المجهد؛ ستذهب إليه وليكن ما يكون..

تَخَّفَتْ بأقصى ما أمكنها، وشاح داكن، منظار ضخم، ثياب لا تشبه ماضيها.. ودخلتْ للفندق كزائرة، بمرآبه الواسع، قرب سيارته التي تحفظها وقفت بانتظار.. تعلم مواعيد عمله، وتتذكرها..

لمحته يقترب من بعيد، وجهه!..

بدا كغريب، ليس المعشوق العاشق..

عينيه!..

هذه النظرة، تلك الصرامة والخشونة والغلظة، القسوة المحفورة بثناياها..

لم يعُد كما كان حتى بعدما قتلها.. أو ربما هي من قتلته!..

سالتْ من عينيها دمعة يتيمة، اقتربت بخطوات صامتة بينما يفتح باب سيارته، همستْ باسمه:

- وجيه!..

قبل الهمس كان يعلم أنها هناك خلفه.. قبل الهمس أدرك وجودها..

وقبل أن تتمم حروفها كان يجذبها بعنف، يصدم ظهرها بالسيارة ويده تطوق عنقها بوحشية أوقفتْ نبض قلبها:

- قلت لك لو شُفتك تاني هاقتلك..

تحشرج صوتها، اختنقتْ حقيقة لا مجازًا ويديها تجاهدان لتفكيك أصابعه، تسعل بحروف مبعثرة علَّه يبتعد:

- أنـ..ـا.. حـ..ـا..مـ..ـل..

ربما لو ضربه برق بهذه اللحظة لما كان التأثير سيختلف كثيرًا!..

تجمد..

انتفض..

وابتعد مصعوقًا يرمقها بنظرة تليق بوحش كان في يومٍ ما عاشقًا، ثم ابتسم بعد استيعاب الخبر..

ابتسم بسخرية قاتمة تشبه قتامة نفسه:

- حامل!.. حامل من مين!..

شهقتْ ترتد للخلف، تُجدِد ارتطام ظهرها بالسيارة، وكفها تكتم شهقتها لكنها لا تحبس دموعها:

- وجيه.. أنت بتقول إيه!..

سؤاله.. اقتراحه.. تخمينه الظالم لم يطُف بأقسى خيالاتها!.. عاد يدنو، لا.. يهاجم، ينقض، يصرخ بهمس جحيمه مكبوت:

- باسأل سؤال منطقي؛ حامل من مين!..

التصقتْ بالصفيح البارد في هلع:

- أكيد منك يا وجيه، مش معقول عشان...

- عشان إيه!..

ومال يلفحها بأنفاس كنيران جهنمية تشتهي كل مزيد ممكن:

- أنتِ ناسية أنك نمتِ مع جوز أختك!..

تعيد شهقتها، تنهمر عبراتها، ترتعد وتهز رأسها بنفي هستيري:

- ما تقولش كده..

انطلقتْ منه ضحكة خافتة تفيض بالمقت.. بالتهكم.. بالألم:

- مش ده اللي حصل!..

رمشتْ بوهن وكيانها كله ينتفض بوجع لا يُحتمل:

- كانت غلطة، مرة.. أنا..

-أنتِ إيه!..

يزعق، يثور.. يمنح نفسه وأنين قلبه حق الغضب بلا جماح مكبوحة:

- اللي في بطنك مش ابني، روحي لأبوه يتصرف..

كاد يغادر لولا أن تعلقت بمعصمه بقهر، تنحني لتقبل يده وتتوسله بضعف:

- وجيه، أرجوك.. ما تتخلاش عني..

انتزع ساعده منها بتقزز مزق دواخلها:

- أنا مراتي ماتت؛ ماتت بعد ما قتلتني..

لم تنحبس دموعها لثانية وهي تتراجع بحسرة.. عذابه يثقل عذابها بضعفين:

- بس ابنك..

- مش ابني..

نطقها بحرقة شبه صارخة أخفض بعدها نبرته باحتراق:

- مش ابني..

- أنت قتلتني وأنا لسه عايشة..

- كنت أتمنى أقتلك فعلا، بس الولاد مالهمش ذنب في الفضيحة، مالهمش ذنب يتيموا من أبوهم وأمهم مرة واحدة..

- حرمتني منهم..

- أنتِ اللي حرمتِ نفسك..

انتفض جسدها كله يقص حكاية خسارتها:

- أنا غلطت، عارفة إنها غلطة كبيرة...

- غلط..

وزم شفتيه يضغطهما بين أسنانه حد النزف:

- غلطة عقوبتها الموت..

- كنت اقتلني أرحم من اللي أنا فيه..

هزأ بسخرية سوداء:

- ومين قال إنك تستاهلي الرحمة!..

ثم فاضتْ مقلتاه ببغض يكفي كونًا بأكمله:

- تعبانة!.. موتي نفسك..

رمقته بنظرة مذهولة، لا تصدق قساوته التي كانت صنيعة يديها، في حين توسعتْ بسمته هو بخبال مستحق:

- عشان تبقي عشتِ عاهرة ومُتِ كافرة..

شهقتها الثالثة طالت المسجون بين ضلوعها فاعتصرته، منحته حق إراقة دمائه حتى التوقف التام عن النبض.. حتى الموت، عاتبته بانشداه:

- أنا عاهرة يا وجيه!..

بفظاظة لم يكترث لكل مشاعرها التي تعاقبت على ملامحها تحمل تفاصيل كامل حكاية الوجع:

- أُمال تسمي إيه واحدة خانت جوزها، وأختها!..

- أنا أم ولادك..

وكانت هي من تهتف به في صياح غاضب، إن كان يحق لها الغضب!..

كمم فمها بكفه كلها، فمها وأنفها، يخنقها من جديد:

- أم ولادي ماتت، ما تجيبيش سيرتها..

لامست دموعها بشرته فأبعد يده يمسحها بقرف:

- أنا حامل في ابنك يا وجيه.. ابنك أنت..

عاد ببصره إليها.. يفكر، ودوامة أفكاره تبتلعه بجنونها، كل ما فيه يغرق في قسوة مظلمة تلائم الحدث.. بمشهد درامي بائس لم يجِد مخرجه ممثلًا فاشلًا يؤديه أفضل منه!..

تأتيه على أمل، والحماقة لا دين لها.. شد قامته بصرامة وفتح باب سيارته:

- لو ابني؛ هيتولد ومش هتشوفيه..

كأنما ينبهها لقرار حاسم لا مناص عنه.. تأملته بخوف، تكذب تصريحه.. هل سيحرمها منه أيضًا، لكنه بتر كل شرود ممكن ببرود لهجته:

- اركبي..

صفق بابه ينتظرها.. تسابقتْ خطواتها تفتح الباب المجاور له، منعها بنفور مشمئز:

- مش جنبي، اقعدي ورا..

أغمضتْ عينيها بوهن.. بتعب، واستجابت..

نصف ساعة وكانا بعيادة طبيبة نسائية تراها للمرة الأولى، ليست طبيبتها المعتادة.. تبتسم السيدة الأربعينية برقة بعدما لمحتْ بهوت وجهها وملامحها، تطمئنها على جنينها وطرف نظرتها يلتقي مع

الواقف بجمود، يراقب بصمت عبر الغرفة، كانت تمرر فوق بطنها جهاز الموجات فوق الصوتية:

- كله تمام، ليه شكلك قلقان كده!..

ابتسمتْ "ليلى" بشحوب وسألتْ بلا مواراة:

- عمره قد إيه!..

ضغطتْ الطبيبة عدة أزرار في جهازها ومررت ذراعه تضغطه أسفل بطنها:

- إحنا كبار أهو..

رفعتْ بصرها إليها ببسمة أمومية:

- في أول الأسبوع التاسع..

رمشتْ "ليلى" بتتابع مرتعب، خاصة حين لمحتْ البسمة الساخرة التي ارتسمتْ على شفتي من كان زوجها..

هو لم يمسها منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر أو يزيد!..

تعلقتْ بأذيال أمل خائب:

- مش أكبر من كده!..

مررتْ السيدة الذراع مرة أخرى وتأكدت بقرار حاسم، نهائي، باتر.. بتر في هذه اللحظة كل رجاء، كل أمنية:

- لأ.. بالظبط 3 أيام من الأسبوع التاسع..

تشبثتْ بيدها فجأة واللهفة تخط حضورها واضحًا على خلجاتها:

- هو في اختبار DNA ممكن يتعمل دلوقتِ!..

ارتفع حاجبا طبيبتها، رمقتْ الزوج بحذر متوتر وبسمته تثير توجسها، تقلقها:

- اختبار!..

وافقتْ "ليلى" بهزات متوالية عنيفة من رأسها:

- أيوة.. يحدد الأب!..

ارتبكتْ السيدة وتركتْ مقعدها..

منحتها محرمة ورقية تمسح بها السائل اللزج عن جلدها قبل أن تلتزم رداء المهنية الجادة متخطية غرابة الموقف:

- في اختبار حديث بيتعمل بعد 8 أسابيع من الحمل، بس مش في مصر..

- مش مهم بيتعمل فين؛ إيه المطلوب!..

كان السؤال منه بنبرة صارمة.. نبرة فظة.. نبرة يبدو وكأنها تحترق في قعر سعير النهاية:

- هناخد عينة دم من الأم، ومسحة من لعاب الأب.. وهابعتهم معمل في لندن..

وافق بلا تردد:

- تمام، والنتيجة!..

ابتسمتْ بحرج، وجانب عينيها يتأمل الواجمة فوق فراش الكشف:

- خلال أسبوعين بالكتير بإذن الله..

أربعة عشر يومًا سيتحدد بعدها مصيرها.. بل مصير طفلها الذي لا يصدق أنه منه.. لكن ماذا لو!..

ماذا لو كان ابن الشيطان حقيقة!..

تعانق جفناها ترفض الفكرة، تستنكرها، تنهار تحت وطأة مرورها بعقلها.. لا..

هذا عقاب لن تتحمله، تلك خاتمة هي الأسوأ..

ليتها تموت..

ليتها تموت..

بل ليتها ماتت قبل لحظة السقوط!..

وتتمة الحدث، دمعة أخيرة تنهش وجنتها، وتعتصر عنقها..

ليتها تموت..

**

اللعبة تشتد، القوانين تتبدل بسرعة والآن دورها لتسُنها..

المرحلة الثانية بدأت!..

جمد على باب غرفته يراقب حركاتها الراقصة بعدما تحسن كاحلها الذي التوى إثر حماقتها بالصالة الرياضية قبل عدة أيام..

هذه المجنونة كأنها لا تحمل جنينًا له طقوسه الخاصة!..

أين الغثيان والقرف وساعت النوم الطويلة!..

أين ترهات النساء!.

هي ترقص، زوجته الحامل.. ترقص!..

تقف بالمطبخ المفتوح ترتدي ثيابًا تُظهر أكثر مما تُخفي.. سروال قماشي أبيض توقف أعلى ساقيها.. وما هذا!..

وشاح!..

أو ما يشبه الوشاح، معقود حول خصرها وطرفه الآخر حول العنق، يخفي جذعها من الأمام ويترك الظهر منكشفًا بأريحية..

وعند طرف العقدة من الأسفل علامة ميلادها.. تبرق!..

ألصقتْ فوقها وشمًا لامعًا على شكل شعلة نار لاهبة، ببريق ذهبي خاطف تنعكس عليه إضاءة المكان مع حركات خصرها على اللحن الذي لا يسمعه من مسماع الأذن خاصتها.. لكنه وجدها تردد

الكلمات بنبرة ناعمة وانتشاء جوار شيء مبهم تتذوقه بتأوه مستمتع..

أنت اللي طول حياتي عِشت أنا أدور عليه..

أنت اللي بين إيديه، نسيتني الدنيا دي..

خليتني أحب عمري وأنسى قبلك عِشت ليه!..

أنت اللي روحي فيه..

أنت اللي روحي فيه..

حسنًا.. اللعبة ممتعة لأقصى حد، وهو على بكرة الصباح في مزاج أكثر من جيد للعب..

سكَنَ بلا حركة أو صوت.. يتأمل حركات خصرها المتمهلة المغوية، كانت تهتز بإيقاع خافت غير عنيف كما تفعل عادة..

تميل يمنة ويسرة، تحرك عنقها ورأسها بخصلاتها المعقودة بعشوائية.. تهبط للأسفل لمسافة قصيرة ثم تعود فتقف ببطء رفع له حاجبيه..

هل تشعر به!..

تريد إغواءه!..

نعم.. كانت تفعل، ربما منذ أول دقيقة؛ فالآن اللعبة بقوانينها هي..

ارتسمتْ فوق شفتيها بسمة ظافرة ورفعتْ من درجة صعوبة لعبتها وهي تتذوق الشيكولاتة بالنعناع، ذلك المذاق الداكن والمنعش بلذوعة في ذات الوقت..

تئن.. تتأوه.. تتمايل..

ويبدو أنه لم يقاوم كثيرًا فقد شعرتْ بكفيه تتسللان حول خصرها لتطوقها بتملك.. رفعتْ حاجبيها والتفتتْ إليه من فوق كتفها عندما تمتم بخبث:

- ده أحلى صباح ده ولا إيه!..

نظرتْ أمامها بانتصار، استدارتْ بين ذراعيه، تتأمله بنظرة غامضة توجس لها قبل أن تبعد يديه وتلتقط قالب الشيكولاتة متجهة إلى غرفة المعيشة:

- صباح الخير..

تشبث بها يحاصرها بين جسده وسطح المطبخ، والمكر يفيض من عينيه:

- حاف كده!..

مضغتْ حلواها بتلذذ:

- لا بالشيكولاتة..

وحشرتْ قطعة عنوة في فمه ليفاجئه المذاق المختلط، لاكها بتمهل مستغرب وهي تتأمل رد فعله، ابتلعها ممررًا لسانه بين شفتيه:

- طعمها غريب!..

هزتْ كتفيها بسلاسة:

- بالنعناع..

انحنى فمه بشقاوة:

- شيكولاتة ونعناع!..

فككتْ ذراعيه وابتعدتْ بغتة:

- آها..

تبعها يعاود تطويقها.. لا يبيح لها الفرار، وهي كانت تفر بخطوات مدروسة.. تسمح له بالحصار، بقرب الامتلاك..

ثم تمنعه في اللحظة الحاسمة فينكفئ على وجه رغباته، وتمارس هي الشماتة بغرور، مال لشفتيها بهمس دافئ:

- عاوز أدوقها من هنا..

تراجعتْ برأسها عن متناول قبلته بحزم جامد:

- لأ..

وجم لحظة وتجمدتْ نظرته باستفهام غير منطوق، دفعته عنها بهزة كتف ثانية:

- البيبي مش عاوزك النهاردة..

- يا بنت الـ...

- الـ... إيه!..

ابتسم بحنق مكبوت:

- يا بنت درويش..

بسمتها كانت باتساع منتصر تنتشي بهزيمته:

- عارفة إني بنت درويش..

وفكرت لثانية قررتْ بعدها طعنه في موطن طعنتها:

- أنت اخترتني عشان الاسم ده، ولا نسيت!..

غيرتْ وجهتها عائدة لغرفة نومها بتلكؤ.. تركته يتلظى بنيران غضبه، ضيقه.. واشتياقه لها..

نيران لم يستطع الحمام البارد إخمادها، بل ظلتْ تحرقه حتى ذهب لعمله يلعنها ويلعن لحظة صراحته القاسية..

يسب نفسه، ويعلن أنه كان الأحمق هنا..

فهي كانت ملك يمينه.. هي وقلبها!..

لكن ذاك الأخير كان دربًا لن يسلكه، لذا فالهروب أصبح هو الحل الأمثل وإن نفذه بذبح..

**

ويفوز باللذات كل مغامر.. أو كل قناص..

"نيروز رستم"..

دومًا ما كانت امرأة تجيد تدليل نفسها، ورغباتها!..

"ميرهان"..

فتاة بريئة المظهر والمضمون، صغيرة السن، باكية.. صداقة نمت بسرعة الصاروخ وكان ليتوقف نموها بعد مصادفة اللقاء الأول لولا.. الزوج!..

"موسى"..

مثير الهيئة.. لا يتقن التخفي..

وجهه بالنسبة إليها كتاب مفتوح، وعيناه هما أول السطر، أما الخاتمة.. فكله!..

لا يشبه امرأته في شيء؛ بل هو على النقيض منها تمامًا.. كل ما فيه يقول أنه حانق، غاضب.. مستغِل..

ومادام الاستغلال هو سمته؛ يمكنها الاستفادة منه، خاصة وأنه ببساطة.. يعجبها!..

هي فقط تقتنص ما تشتهي بلا مبادئ أو مثاليات رنانة لا تليق بمدعيها على مر حياتها..

وُلدت صداقة ودامت لأسابيع ثم ذهبت في زيارة لبيتها قبل أيام؛ زيارة عبارة عن مجرد تقارب مشروع بغرض سبق تحديده..

تؤذيها!..

لا.. إن خضع سيكون هو من آذاها..

حين فتحت لها الباب يومها التقطتْ من النظرة الأولى اختلالها واختلافها!..

اختلافًا تدرك معناه أنثى تمتلك مثل خبرتها بعالم الرجال.. هذه الصغيرة كانت بأحضان رجل ربما قبل ثوان، بل ربما حضورها هو ما بتر اللحظة!..

تذكرتْ ترحيبها الخجول بها، شرودها.. استعادتْ نظرته الجائعة..

توقه الواضح لعين تفهم دواخل الرجل..

وحديثها معها بعد رحيله، شبه مصالحة حدثتْ بينهما كما في عُرف كل ذكر.. القبلة والفراش!..

الساذجة سامحته وإن لم تعترف.. وقتها أخبرتها ألا تعطيه للنهاية، أن تمنع عنه بعض دلالها:

"خلي زعلك غالي، مش يزعلك ومن كلمتين، ولا حتى بوسة وعلاقة ترضي عنه"..

"طول ما هو شايف إنه ممكن يجرحك ويرجع يراضيك ببساطة، هيفضل جرحك هين وسهل عنده"..

"اتقلي يا بيبي.. أنا عارفة إنه جوزك، بس كل حاجة تاخد حقها"..

"الراجل بيدوب في الست اللي تجننه، لا تديه للآخر ولا تحرمه للآخر"..

وإثر تلك الكبسولة المركزة من خبراتها بعالمهم الخشن لاحظتْ صمتها فاصطنعتْ الحرج، ربما هي تتدخل أكثر من اللازم..

لكن من يكترث!..

اقتنصتْ فرصتها وطرحتها للبريئة على طبق من فضة..

الصيف بدأت حرارته تلفح الجميع.. المناخ يحتاج لسفرة مريحة حيث البحر والخلوة..

هو.. هي..

وثالثهما!..

لا تحتاج لثالث؛ تكفي هي..

وافق، لم تبالِ بسبب موافقته حتى وإن كان لأجل زوجته، بالأمس بدأتْ في إعداد العدة وتجهيزاتها الخاصة للسفر القريب.. ولأنها تجيد الصيد؛ فالأمر لا يستلزم الكثير من الجهد..

فقط فخ واحد يرحب بسقوطه كما يسقط أمثاله!..

**

طبيعة الوحوش الهجوم حيث الظلام، الغفلة، الخوف.. إلا هو..

وحش أوجاعه يهاجمه بغدر كلما رأى النور!..

يطعنه، يربكه، يجبر روحه على النزف ويرغم قلبه على القسوة..

يهديه هالة الشيطان ويخبره بأريحية أنه مالكه الوحيد..

نور تمثل في طفلها، في لحظات ضعف أعادت له ذكرى ضعفه واستضعافه فيما مضى، نور هرب منه ومنها حتى عاد فوجدها تحلم بحبيبها.. قبسها هي الخاص!..

نور قرر تحويله لعتمة بما يتناسب ومزاجه، بما يتماشى مع رغبته..

ابنها الآن بصحبة مربيته وجده في الحديقة، هي تتباعد عنه منذ لمحته يحمل زوجة أخيه بقدم مصابة لأعلى الدرج، ينزلها عند الأخيرة ويلتقي بعينيها في برود قبل أن تعلن الأخرى ضيقها باعتراض وتباعد مشابه.. ثغرته تحاول الانغلاق في وجهه وهو يهديها مساحتها من حق الغضب، بعدها سيعود!..

أما هي؛ فدورها قد حان..

تلك التي تقف في مواجهته بمعيشة جناحهما بثبات مهزوز وقوة مدعاة، تلك المتجمدة التي أمرها بالتجرد من ثيابها كما يفعل في كل مرة، فإذا بها تتصلب أمامه بلا رد فعل..

أو ربما في جهاد غير ذي جدوى للاحتجاج، لإعلان الاستياء..

لا يكترث بدوافعها ولا يبالي بأسباب تمردها اللحظي، فقط رمقها بنظرة باردة تفيض بالضجر ودمدم باستهانة:

- شمس.. أنتِ مملة..

رفعتْ رأسها تقابل نظرته الغارقة في السأم، فهمتْ مدلول كلماته ونالتْ الطعنة.. هو على حق؛ فلا هي تتمرد بجدية ولا تخضع بسلام..

محاولات يائسة، بائسة للنجاة، لا فائدة مرجوة منها..

تمتمتْ بخفوت حزين:

- معاك حق..

امتدتْ يداها تنزعان عنها ثوبها الربيعي الذي حمل زرقة السماء بين طياته، تلقيه أرضًا وتقف بثيابها الداخلية التي تشبهه في اللون، في صراع غير متكافئ مع نظرته القاتمة:

- اتفضل.. جاريتك ملك إيديك..

لم يتحرك رغم أن لفظ "جارية" أعجبه.. لم يرمش، بل كبتَ أنفاسه في صدره وهو يتأملها..

يستعيد كلمات زوجة أخيه عن كمال زوجته هو، عن أنوثة امرأة تحمل اسمه.. أنوثة لم يرَها، ولا يريد أن يراها..

عن تفاصيل يرفض التدقيق فيها، عن بشرة ببياض قشدي خالي من كل عيب.. تدرك نعومتها بمجرد النظر..

جسد نحيف متناسق، لا يظهر فيه الامتلاء إلا عند مواطن الفتنة..

وخصلات كستنائية، برتوش حُمرة كعود قرفة، طولها متوسط، منسدلة بحرية، تصل لما بعد كتفيها.. ثم عطر وصل لأنفه.. هادئًا، رقيقًا يشبه حضورها..

لاحظ طول تحديقه في خبايا أنوثتها.. ولاحظتْ صمته..

احتدم غضبه بلعنة مكتومة لم تحررها شفتاه..

وهي كانت تدير بصرها بعيدًا عنه؛ لا ترغب في رؤية نظرته المزدرية، المحتقرة..

أصابعها تتخذ وجهتها المعتادة إلى قلادتها المعلقة بعنقها، تحتوي قلبها والحرف المحفور فوقه بين أناملها، تستمد منه أمانها وهدوء نفسها، تتعثر أنفاسها عند حافة الراحة فتسقط في بئر اللهاث المختنق.. أجفلتْ برعدة عندما سمعتْ باب غرفته ينغلق!..

لقد رفضها هو رُغم طاعتها.. لم تكن الأولى لكنه عرَّاها هذه المرة، صمتَ أمامها؛ بعدها تركها..

حجبتْ دمعة هوان، حبستْ أنين ألم كاد يخترق حلقها بشهقة، التقطتْ ثوبها تشعر بالمهانة والامتهان، ركضتْ به إلى الحمام تغوص أسفل الماء دون أن تكمل خلع ما تبقى مما يحيط بجسدها..

أما لإهاناته من نهاية!..

أما لذلك الشيطان الذي يتخفى وراء وحشيته من ثغرة!..

بعدها تحاشته طوال النهار كما اعتادتْ الأيام الفائتة.. بل بشكل مضاعف، قضت بعض الوقت مع صديقتها التي رأتْ ضيق ملامحها من ردة فعل زوجها يوم ألم قدمها وتباعُدها عنه ما تلاه من أيام..

الآن باتتْ لعنتها أنها بدأتْ تفهمه.. أو تظن أنها تفعل؛ وكلما فهمته أكثر تخشاه أكثر فأكثر ثم تشفق عليه في تضاد غير محتمل!..

تخشى الوحش وتشفق على الحائر النازف بين ضلوعه..

حملتْ صغيرها وعادتْ لغرفتها، ساعة أخرى ونام إثر وجبة مشبعة فوضعته بمهده، تمددتْ بفراشها عسى أن تفوز بغياب جديد بين ذراعي من تعشق..

من منحها أمنها وسلامها، من كان ملجأها وملاذها وصدرها الحاني حين الشدة ووقت الحاجة..

غياب تشحن به طاقتها للصمود يومًا آخر، تسللتْ أناملها تحاوط قلادتها في تلقائية فلامستْ الهواء!..

انتفضتْ بذعر تتحسس عنقها، تتذكر وتحاول التفتيش بعقلها عن مكان وجودها.. هرولتْ خارج الغرفة بخطوات راكضة إلى الحمام، حيث خلعتها عصرًا بعد ما فعله معها، بحثتْ عنها بجنون بلا فائدة..

على الأرض، في المغسلة وتحتها، فوق الرف وداخل خزانة جانبية..

لكنها لم تكن هناك!..

خرجتْ بيأس، عيناها منطفئتان في سعي حثيث للتذكر.. لم تحتج أكثر من خطوتين لتلمح وقفته بهالته المظلمة بمنتصف المعيشة، قلادتها تتدلى بين سبابة وإبهام يسراه بينما تستقر يمناه في جيب سرواله..

وعيناه كجحيم وحدها من ستذوق عذابه، لا.. هما باردتان كقبر من جليد..

كيف يجمع في مقلتيه النقيضين!..

كيف تحثها كل خلية بجسدها وعقلها على الفرار، ويتعلق القلب وحده بالشيء الذي يحمل قيمة العالم بين أصابعه فتتجمد، تراقب تأرجحها باستخفاف معلقة في الفراغ!..

كيف تقترب بلا وعي.. بلا إرداة.. بلا أمل.. بخوف ومجهول يعتصر خافقها قبل همس متوجس، شاحب ورعشة شفاه:

- يعقوب.. من فضلك، لأ..

لم ينبس بحرف أو تتغير نظرته.. ظل على وضعه، جموده.. وبقيت هي تحارب في معركة وهمية بذهنها حتى امتدتْ يدها تلتقطها منه فرفعها بسرعة يحكم إغلاق قبضته حولها لتختفي عن ناظريها..

وانتشى هو..

انتشى بنظرتها كيف تلاحق يده بهوس، تتشبث بها، تحاوطها كأنما ستنقذ قلادتها بعينيها، كررتْ الهمس بحشرجة متوسلة:

- يعقوب!..

ثوان أخرى تركها تحترق خلالها قبل أن يُدليها ثانية بأمر كالصقيع، لا يقبل مفاوضة:

- لو عاوزة تحتفظي بيها؛ عيني ما تقعش عليها تاني..

أومأتْ بموافقة لا تردد فيها.. ها هو يحرمها آخر نقطة ارتكاز تدعمها في مواجهته، لكنها لا تهتم طالما ستكون معها..

بعيدًا عنه..

اختطفتها من كفه وعادت خطواتها إلى غرفتها ورضيعها النائم، ألقتْ إليه بنظرة تطمئن بها عليه، توجهت للخزانة وأخرجتْ صندوقها الثمين، وضعتْ القلادة جوار الحذاء، وعقد ذابل من الياسمين لا يزال يمتلك بقايا عطر لم ترحل بعد..

تأملتهم لحظة ثم أغلقته وأعادته لمكمنه الآمن..

عندما استدارتْ عائدة لفراشها حيث تنتظرها فسحتها الخاصة من جنة العاشق الغائب اصطدمتْ بصدره.. تسلل خلفها دون أن تشعر وباغتها.. أرعبها فشهقتْ بشيء من ذعر، غامتْ عيناه بنظرة قاسية مفادها أمر بالسكون.. بالصمت، بينما يدير جسدها ويتحرك معها للخلف، تمتمتْ بخفوت متوتر:

- يعقوب، يزيد نايم..

وضع سبابته فوق شفتيها فشعر بطراوتهما، باكتنازهما المغوي بلا إرادة أو رغبة:

- شششششش..

تخلص من ثيابها وهي تحاول المقاومة بضعف قانط:

- طيب نروح أوضتك!..

هل تمزح!..

حقًا تمزح.. دفعها على الفراش دون كلمة.. فراشها هي، الذي اعتادتْ سكناه بأحلامها.. تلك الأحلام التي انتوى احتلالها بعدوانه الغاشم..

بقرب.. بأثر..

برائحة وأنفاس وحضور..

عندما انتهى ابتعد، هندم ثيابه التي لم ينزع أيًا منها، رمقها بنظرة أغمضتْ عينيها عنها ورحل..

رحل بعدما بدل حلمها لكابوس.. بعدما أطفأ ضوء خيالها العاشق وأحاله إلى عتمة بسطوة ظلامه..

**

لذة الحرب تكمن في لحظة النهاية، لحظة تمام النصر..

ولحظته اقتربت، على مرمى بصر قصير!..

منزله الذي أعده خصيصًا لأجلها شبه مكتمل، إلا من شيء أخير سينتهي منه قريبًا، خطته على وشك الوصول للحظة الحسم..

لحظة الصفر.. والبقية!..

البقية سيتلذذ بمذاقها معها بكل روية، تلكؤ، وبطء، جميع مرادفات مزاجيته المناسبة للمشهد..

كانا معًا بعد فراق دام لعدة أيام، يتعلل بالعمل، بالانشغال، ويخبرها بخبث عن محاولة للتخلص من كل الأمور العالقة حتى يتفرغ لشهر العسل بعد الزفاف الذي اقترب..

يجبرها على التواري والخجل..

ينتزع منها ضعف الأنثى وينتشي بنصر الضارية بأعماقه..

عندما وقعتْ عيناها عليه وقد ترجل من سيارته متجهًا إلى داخل المنزل؛ استقبلته ببسمة عاشقة ونظرة تائقة، بهمسة قريبة للغاية تحمل دفئها طُرًا:

- وحشتني..

قبض على يدها ونظرته تسترق تأملًا خاطفًا للمهندسة المشرفة على إعداد المكان والواقفة بالقرب:

- أنتِ وحشتيني أكتر..

تعلقتْ بذراعه تخطو معه نحو شرفة إحدى الغرف التي اكتملتْ اليوم وحسب:

- لو كنت وحشتك؛ كنت فضيت نفسك عشان تشوفني..

وكانت حزينة بدلال أنثى تشتاق لرجلها..

رجلها الذي يجيد عزفه على أوتار ضعفها وقلبها واعتراضاتها جميعها:

- أنا بحاول أفضي نفسي عشان وقتنا مع بعض يبقى بعيد عن أي مخلوق..

أهدته نظرة مغرمة بها خجل ناعم:

- يعني مش هتتحجج بشغل بعد كده!..

استدار إليها يعيدها لمكانها الذي يرفض أن تتخطى دائرته المرسومة حولها:

- هفاجِئك..

كانا في الشرفة الخلفية، الجدار في ظهرها ويديها فوق صدره، ذراعيه تحاصرانها وتنتظر.. تنتظر تلك القبلة الحمقاء التي تناسب مراهقة تتطلع لحبيبها..

لا امرأة قوية، ثابتة بعمرها!..

- هتعمل إيه!..

همستْ بها حالمة، ليقتنص هو الحلم والواقع والخيال لحسابه الخاص، بميل.. بأنفاس محسوبة، وتمتمة محملة بألف معنى:

- هخطفك.. ليَّ.. لوحدي..

نطقها متمهلة، متقطعة.. كاد جفنيها يتعانقان، كادتْ اللحظة المخطوفة تسلبها اتزانها، كادتْ تضيع فيه لولا النحنحة والخطوات التي ينقرها كعب عالٍ إلى جوارها:

- إحممم.. آسفة يا عمار بيه!..

تراجع خطوة واحدة وذراعه لايزال يحاوط خصرها:

- إيه الأخبار يا باشمهندسة؟..

ابتسمتْ المرأة الفاتنة فتضاعفتْ فتنتها، وجوار أنثى جميلة عليك أن تحترس؛ أنثاك يمكن أن تنهشها وتنهشك معها!..

- كله تمام، فاضل بس الفرش اللي اخترناه، وهيجي كمان يومين بإذن الله..

بادلها البسمة والملاصقة له تحترق.. اللعنة عليه..

بسمته تسرقها لعالمها معه، بسمته من حقها وحدها!..

سمعته يجيب بعملية بسيطة:

- هايل، مش هاوصيكِ..

واستدار يخفض وجهه إليها بسؤال:

- في حاجة معينة تحبي تعدليها!..

ابتسمتْ بسماجة باردة:

- لا.. كله تمام، الباشمهندسة قامت بالواجب وزيادة..

رفع حاجبًا وحيدًا وعينيه لا تبتعدان عن عينيها بينما ينهي كلماته:

- خلاص كده، كله تمام..

ضغطتْ أسنانها وغيظها يسطر ملامحها حين رحلتْ الأخرى:

- قلت لَك باغير..

تأملها بنظرة رجولية نفضتْ قلبها، نظرة كالحلم.. حلم نساء العالم؛ في عين رجل عاشق..

- وأنا قلت لِك مش شايف غيرك في الكون كله..

ثم تراجع بغتة مكررًا حالة الإحباط بداخلها:

- ها.. تيجي نتعشى سوا!..

أومأتْ بإيجاب وتقدمته، خطواتها تضرب الأرض بشبه عنف حانق، هي التي لا ترتدي سوى البذلات العملية ارتدت ثوبًا أنثويًا لأجله..

ثوبًا تابعه ببصره وهو يسير خلفها، كان قصيرًا يتخطى ركبتيها بمسافة غير ملحوظة، ضيقًا يضم حناياها برقة يشوبها إغراءً راقيًا يشبهها..

قرب سيارته قرر منحها لمسة من غزل تثبتها لأرضه بوتد جذره ممتد.. لا يباح اقتلاعه، فتح لها الباب، مسَّ خصرها بكفه وشفتيه كانتا قرب أذنها حد الالتصاق:

- الفستان يجنن..

التفتتْ إليه بحياء فوجدتْ أنها محاصرة بينه وبين السيارة، نظرته تخبرها أنه يريدها، لكن كل ما فعله أن أسقطها بها في صمت وسكون حتى يئستْ وجلستْ بمقعدها قانطة..

لا تفهم ما يفعله..

لا تدرك أبعاده كرجل..

ربما خاطِبها السابق كان يلتزم حدوده، لكنه حاول تقبيلها مرات عدة..

"عمار".. زوجها!..

وقبلة بداية لم تنلها بعد ولا تدري لمَ!..

فكرة مجنونة مرتْ بذهنها عن مبادرة، فكرة وأدتها في مهدها وهي تأمر نفسها بالتعقل، وتفتش عن دافع له..

قلبها يتلهف قربه، وعقلها يأمرها بالصبر.. فلذة الامتلاك ستكون أشهى بعد توق!..

**

في الحروب إن انغلقت ثغرة كنت ستعبر من خلالها؛ دُر حولها.. ناور، كُن داهية واستغل كل أرض المعركة لصالحك.. وإن لزم الأمر؛ استغل أسلحة الخصم نفسه!..

في الحروب.. كُن ضارية، وحشًا، لا تكترث للضحايا ولا تهتم بنزيف الدم..

تأملها في جلستها المعتادة فوق الأرجوحة، وحيدة.. شاردة، تهزها بقدمها في رتابة ملول دون أن تعي حضوره..

ثوانٍ أخرى واقترب يدفعها برفق قبل أن يبدأ حواره بمشاكسة تعيدها كبيدق مطيع إلى مكانها في رُقعة اللعب.. المكان الذي اختاره لها:

– a little bird told me إنك عاوزة home made chocolate cake..

انتفضتْ مع كلماته وأوقفتْ أرجوحتها بحدة، استقامتْ تلتفتْ إليه بضيق:

– شمس قالت لك!..

مط شفتيه بنفي هادئ فكررتْ السؤال بعينيها في صمت كان جوابه عليه متلاعبًا:

– شمس قالت لبهجة..

– ودادة بهجة قالت لك!..

نطقتها باستنكار غير مصدق نفاه على الفور:

– لأ..

عقدتْ ذراعيها تنتظر استطرداته فابتسم ببساطة:

- سمعتهم صدفة..

رمقته لحظة بغير اقتناع، دارتْ حول الأرجوحة تتخطاه بلامبالاة:

- whatever..

قبض على معصمها بلا مناورات أو التفاف وشاب نبرته شيء من حزم:

- مش شايفة إنك مكبرة الموضوع!..

سحبتْ يدها بغيظ وهرموناتها ترفع من درجة عصبيتها:

- فعلًا!.. أنت بقى مش شايف إن المفروض في حاجة اسمها limits؟!..

رفع كفيه بموازاة جسده في حركة تشي بمحاولة عقد هدنة:

- أنا اتصرفت بتلقائية، زي لحظة ما كنتِ هتقعي بالظبط.. أنتِ ما قدرتيش تطلعي درجتين حتى..

قطبتْ بحنق بينما تبعد خصلاتها عن وجهها:

- المفروض على الأقل كنت تسألني..

انحنى جانب فمه بمكر:

- المرة الجاية قبل ما أخد أي خطوة إنقاذ أو مساعدة؛ هاسأل الأول..

ضيقتْ عينيها تحاول استيعاب مزاحه من عدمه فمد يده يبتر فرصة غوصها في أفكارها:

- truce!..

رمقتْ كفه للحظات بلا رد ثم تخطته بكلمة مخطوفة:

- No..

تتبع خطواتها العائدة للمنزل بحاجب مرفوع، وفي ذهنه كان يعد تنازليًا حتى لحظة التفاتتها التي أتتْ كما توقع:

- 3، 2، 1..

تهدل كتفيها باستسلام متذمر وتقطيبتها تأخذ مظهرًا طفوليًا ممتعًا:

- about the cake!..

اقترب يواجهها ببساطة:

- نعملها سوا..

- أنت بتعرف تطبخ!..

مال يهمس بتواطؤ كأنما يخبرها بسر حربي:

- أنا كنت شيف، قبل ما أكون صاحب المطعم..

حقًا هو رجل ملئ بالمفاجآت..

تأملته بدهشة ابتسم لها ثم بسط يده لتتقدمه إلى المطبخ الواسع الخاص بالطابق السفلي، صرف الخادمة والطاهي المقيم وبقي.. هو وهي، ولحظات مرح عفوية مسروقة..

لحظات ربما أراد القدر منحه إياها وإن كانت من قِبله محض استغلال..

حضَّرا المكونات.. بينما تخبره أنها تجيد الطهي، بل تعشقه.. وتتقن صناعة الحلويات.. ماعدا الكعكات بأنواعها..

دومًا ما تفشل فيها، ودومًا ما تغتاظ..

واليوم طفلها المشاغب يشتهي كعكة منزلية الصنع خفيفة المحتوى..

كان يرشدها عبر الخطوات ببساطة، يداعبها وتضحك ببراءة.. يمسح سبابته من بعض خليط لامسها بأنفها فتدفعه باستياء لطيف..

انتهيا من صنع المزيج فوضعه بالفرن، استدار إليها ليخبرها أن أمامهما بعض الوقت حتى تنضج فوجدها تتذوق التغطية التي صنعها لأجل الكعكة.. خليط من الشيكولاتة الداكنة وكريمة الخفق في قوام مخملي ناعم، مدتْ فيه إصبعها ولعقته بتلذذ وازى تأوهًا شاردًا:

– mmmm.. this ganache is amazing..

حركتها رسمت بسمة لا إرادية فوق شفتيه.. بسمة انحسرتْ عندما لمح العائد من العمل مبكرًا اليوم..

هل يخدمه الحظ أكثر هذه المرة!..

بسمة اختار لها البتر بينما يأتي من خلفها، حينما رأى زوجها يتجه نحوهما دون أن تراه هي..

يقف قربها وإن لم يمسَّها، في ظهرها تمامًا، يده تمتد من ورائها لتتحكم بكفها..

تبدل وجهة سبابتها بالصلصة العالقة فيها إلى فمه هو بدلًا من فمها فيلعقه بتمهل متجاهلًا نظرتها المشدوهة وتجمدها في ارتباك..

بإثرها يمنحها غمزة عابثة مرددًا كلماتها بهمسٍ موحٍ:

- فعلًا amazing..

والمشهد لا يحتاج لتفنيد..

زوجته بين ذراعي أخيه في وضع يليق برواية رومانسية، حيث البطل والبطلة ومطبخ!..

عيناها بعينيه.. يتذوق شيئًا ما من يدها.. بل يتذوق يدها ذاتها..

المشهد كان يحمل عنوانًا ذابحًا..

خيانة!..

**

"هتعيشي بخطيئتك قدام عينك طول العمر.. مش ابني"..

رسالة مقتضبة أرسلها لهاتفها، يخبرها ببساطة أن نتيجة الاختبار قد عادتْ من سفرتها الطويلة والتي كان خوفها ينهشها خلالها في كل ثانية..

عادت "سلبية"..

لم تصدقه، هو يكذب.. ببساطة يكذب عقابًا لها، لن تحمل ابنًا من زوج أختها.. الحياة ليست قاسية إلى هذا الحد!..

لكنها عندما ذهبت لعيادة الطبيبة، وسلمتها التقرير النهائي بمظروف مغلق علمت أنه لا يكذب..

هو لم يكذب من قبل ولن يكذب الآن..

كلمة واحدة خرقت بصرها، انغرست بجسدها وروحها وقلبها كمائة ألف سهم..

تركتها تنزف، تموت على قارعة طريق المذنبين..

"Negative "..

وفي ركن الورقة جنس المولود الذي يخبر عنه الاختبار الحديث كذلك.. ذكر..

جنينها ليس ابن الزوج والحبيب.. ليس منه ..

جنينها بذرة خطيئة..

جنينها ثمرة زنا..

جنينها نبت شيطاني لا يجوز إنباته بتربة رحمها..

لا يباح أن يرتوي من دمائها ويحيا من حياتها..

ستقتله!..

لن تفكر مرتين..

في ومضة أمل ممزوج بخيبة حاولت الاتصال بشقيقتها، وبخوف قبل الرنين أغلقت الخط..

هل سترحمها!..

ماذا ستخبرها!..

أغيثيني؛ أنا أحمل طفل زوجك!..

هذه هي النهاية "ليلى".. أنتِ وحدك في هذا الكون..

ابتاعتْ أقراصًا خاصة بعد بحث سريع على الانترنت، ابتلعتْ منها اثنين وانتظرتْ النتيجة.. وعندما تأخرتْ كررتْ الفعل..

هي ستنهيه بيديها، ستقتله..

بل تتمنى لو ماتت معه؛ فمثلها لا يستحق الحياة..

جلستْ بفراشها في غرفتها المشتركة.. واجمة، ساهمة.. أفكارها في حلبة مصارعة رومانية عتيقة، تنتظر لحظة ينخفض فيها إبهام القيصر بحكم إعدام..

بطنها تتمزق حرفيًا وتكبت كل ملمح للألم حين جاورتها إحداهما:

- ها يا لولا.. لقيتِ شغل النهاردة!..

تلك الحجة التي تتعلل بها يوميًا، تخرج، تدور في الطرقات بلا هدف، تضيع وتتيه عن نفسها وحالها حتى تكل قدماها ثم تعود..

وكل يوم تدور بذات الدائرة الفارغة عما سواها، هي حتى لا تجد عملًا تتقنه إلا ما درسته!..

ابتسمتْ لها بوهن:

- لسه يا سحر.. مافيش للأسف..

بادلتها البسمة واستوتْ تتمدد بأريحية:

- أنا مش فاهمة واحدة زي القمر زيك، إزاي مش لاقية شغل!..

جاءتْ من خلفها الثالثة بتذمر:

- سيبيها في حالها، أنتِ مش شايفة شكلها تعبان!..

لكنها من سألتْ في محاولة لكبت الوجع وتناسيه:

- وإيه علاقة شكلي بالشغل يا سحر!..

تحمستْ تواجهها في جلستها وترمق البعيدة عنهما شزْرًا:

- جمالك ممكن يفتح لك أبواب كتير..

لاحظت امتقاع وجهها فأردفتْ تلاحق اتجاه أفكارها:

- وماتخليش دماغك تروح شمال، بس في العموم أنتِ وشطارتك، ماحدش يقدر ياخد منك حاجة غصب عنك..

شردتْ بحيرة مرتبكة..

هي امرأة انطوائية في المعتاد.. خجول، قليلة الكلام رُغم أنها كانت صارمة بعملها:

- مش فاهمة!..

شعرتْ بالآتية من خلفها ترتمي بمحاذاتها بسخرية:

- ولا هتفهمي، ارتاحي يا سحر.. ليلى دماغها مش زيك..

نهرتها "سحر" بضيق:

- وأنا عملت إيه يا هند!..

ابتسمتْ "هند" بسماجة باردة تشبه ملامحها:

- كل خير يا حبيبتي..

ثم واجهتْ الصامتة بوجه متألم غريب:

- بصي يا ليلى، ابن عم أبويا راجل كبير وعنده مكتب تخديم، نروح له يمكن يشوف لك شغل..

- بقى الجمال ده عاوزاه يخدم في البيوت!..

اعترضتْ الأخرى فنهرتها:

- بيوت إيه يا جاهلة!.. بيشتغل في حاجات كتير، وحسب ما تقوله واللي هي بتفهم فيه..

لكن "سحر" لم ترتدع، جذبتْ ذراع "ليلى" تلفت انتباهها إليها:

- سيبك منها، أنتِ تشتغلي في محل الملابس معايا، صاحب المحل لو شافك هيتهبل عليكِ..

وكانت تترنح..

كل ما فيها يترنح..

عقلها، قلبها، أفكارها، حيرتها.. عالمها بأكمله يدور والبلل من تحتها يتسرب بلا هوادة..

وعيها يتراجع والصراخ المفزوع من الفتاتين ينادي باسمها..

الفراش يغرق بدمائها، بنزف مخيف..

وصورة المعشوق تتجسد بقسوة عينيه بين أهدابها المضمومة في عناق أخير..

موتي "ليلى"..

موتك هو النجاة!..

(13)

سقطة العشق مدوية..

سقطة العشق مأساة!..

**

هو رجل لم تمنحه الحياة الخيار.. حُشر بين مطرقة الصياد وسندان الطريدة..

جرب الضعف.. واختار القوة..

القسوة قوة.. البغض قوة..

الوحشية نجاة..

الثأر حق مشروع، القصاص واجب مفروض..

وإن لم تستطع الوصول إلى رأس الأفعى؛ مزِق جسدها إربًا ثم احرقه..

حينها قد يهدأ سعير روحك وإن كان ينشد المزيد..

حالم-هن

في هذه اللحظة، مزق قطعة أخرى من الجسد..

لقد أنشب نيران الحرب بقلب أخيه؛ وبداخله سخر من اللقب والمسمى وحامله.. رأى احتدامها بعينيه، لمح الغضب وتلذذ بالطعنة..

والآن عليه أن يغادر ساحة المعركة تاركًا لطرفي الصراع حرية الاقتتال.. حرية النزف والموت.. فالغنيمة بعد الهزيمة له وحده..

هو بدأ الشرارة، وسيترك للسعير جنون السريان في الهشيم..

رمق "يزن" بنظرة ثابتة وبصره يتجاوز الواقفة أمامه كأن وجودها وهم، تراجع خطوة وأكمل تحركه بخطى واثقة إلى الخارج، تخطى الواقف قرب الباب، عند طرف فمه بسمة ساخرة تناور أخرى منتشية، فتتسابقان أيهما أجدر بامتلاك شفتيه..

والواقف بجمود كان كأن لم يره، عيناه معلقتان بالزوجة التي تصلبتْ في مكانها بنظرة متأرجحة، تغوص بأعماق الحيرة ثم تطفو لسطح التحدي والثبات.. تعاند وتفتش عن معركتها الخاصة..

معركة لم تحدث لأنه ببساطة وبعد ثوانٍ استدار.. ورحل!..

صعد الدرج إلى الجناح الخاص بهما، خلع ثيابه، وفي غضون خمس دقائق أنهى حمامًا باردًا يسعى به لإطفاء تلك الجمرة التي تحرق دواخله..

تلك الحمقاء.. لا فائدة منها، حتى درسها منه لم تتعلم بعده شيئًا..

ارتدى ثيابًا بيتية مريحة وتمدد بفراشه إلى أن أتته هي، لا تزال تبحث عن الانفجار فالصمت يخيفها أكثر.. هي لم تخطئ..

خطأها الوحيد في هذا الموقف؛ فرط الثقة..

لقد أيقنتْ أن أخا زوجها برتبة صديقها لا يريد صداقتها.. بل وضعها كبيدق يباح التضحية به فوق رقعة لعب لم تعلم بوجودها..

وهي.. من كانت تطالب أخيه بمنحه الفرصة، بتعويضه وتعويض نفسه بوجوده!..

ساذجة.. لعنتْ نفسها ووقفت قرب الفراش..

بصرها لا يهرب من نظرته الغامضة، الجامدة.. وإن كان احتراقها لا يمكن توريته..

عقدتْ ذراعيها أمام صدرها وبادرتْ بنبرة جاهدت لتخفي ما بها من قلق..

قلق من فهم خاطئ للمشهد الهزلي..

قلق من ظن سيء عن قلبها الذي يملكه..

قلق من عشق يجبرها على التبرير وسذاجة وضعتها بموقف المدافع:

- أنت أكيد ما فهمتش الموقف غلط!..

تقرر.. تتساءل.. تحتار.. تترقب..

يرمقها بصمت ساكن مبهم، يدفع بعصبيتها إلى فوهة البركان، نحو حافة الثورة:

- يعقوب ما لمسنيش..

ثم ترفع سبابتها أمام وجهها تتأملها بحنق:

- هو بس...

تبتر بحيرة.. بغيظ وغضب ينهشها من برائتها، من حماقتها التي تركتْ له حبل ثقتها على الغارب:

- أنا مش فاهمة هو عمل كده ليه!..

- أنا فاهم..

اندفعتْ كلمتاه ببرود تمازج بجحيم في خليط مروع.. نظرته الداكنة برقت بحريق لو طالها لأفناها، وصوته يتلكأ في نطق الأحرف حد الجمود..

ناظرته بتوتر حين اعتدل بغتة، استقام يقابلها، يميل بوجهه فيحتل عينيها:

- أنتِ مش بس ساذجة؛ أنتِ كمان غبية..

- يزن..

وتمتلك حق الاحتجاج!..

دفع كتفها بامتعاض وتجاوزها يفتش عن علبة تبغه:

- بلا يزن بلا زفت..

تناولها من جيب سترته التي نزعها قبل دقائق، أشعل واحدة وأحرق أنفاسه معها للحظات قبل أن يواجه تأملها المشدوه:

- أنتِ بالنسبة له ولا حاجة، صفر على الشمال.. استغله صح، ولما وصل لغرضه داس عليه..

وتأجج صدره باحتدام جهنمي قاتل:

- سلمة من سلم السيطرة..

كان يفهم أخيه الأصغر.. الشيطان العائد للتربع على العرش..

مع كلماته التي تطعنها ارتجفتْ شفتاها، اهتزتْ نظرتها بوهن لم يوهن عزيمته في تلقينها درسها حتى النهاية بينما يقترب، يطل عليها بنظرة سوداء:

- أنتِ مجرد ورقة ضغط عليَّ أنا..

نفث لهيبه الرمادي القاتم بوجهها كأنما يحرقها معه بلا اكتراث:

- لما كان بيقرب منك؛ كان حاططني أنا هدف قدام عينيه..

ونفى بهزة رأس قانطة، ساخطة:

- ما كانش شايفك يا غزل..

عبرة مهينة تسللتْ لمقلتيها، استقرتْ عند أطراف أجفانها دون أن تتخطاهما.. هي التي منحتْ الثقة فطُعنتْ بالاستغلال..

هي التي كانت تقرأ البشر حتى أتتْ لذلك البيت فغابتْ عنها فراستها وتاه منها وعيها وفطنتها..

رفعتْ أناملها تمسحها قبل أن تهدر كرامتها أكثر وتمتمتْ باختناق:

- أنا فعلا اكتشفت إني مغفلة، ومش مرة واحدة..

أهدته نظرة مجروحة حين انفصم عقد كلماتها، نظرة فهمها فأدار وجهه عنها، أردفتْ بلهجة دفعتْ بين ثناياها بكل ما تبقى من تماسك داخلها:

- مرتين..

ثم استدارتْ عائدة إلى غرفتها بحقيقة أخيرة:

- وقانون الحياة لا يحمي المغفلين..

مع صفعة بابها من وراء ظهره تغضن جبينه..

هي على حق، مغفلة نعم.. وهو استغفلها، استغلها..

لكنه وحده يملك الحق فيها؛ هي زوجته، وأم طفله..

لذا فهناك آخر يستحق أن ينال نصيبه من لعبة الجحيم، ولعنته!..

**

ماذا إن نصرك الحظ وخدمك القدر!..

ماذا إن لم تستخدم جميع أسلحتك بعد!..

أنت حتى لم ترفع سيفًا أو تحتج درعًا، لقد مُني خصمك بهزيمة، بنزف.. وأنا لاتزال تسيطر على جبهة الحرب بخطوة واحدة..

جردَّته من درعه، من أرضه.. من حصون أمانه وقوضتَ دفاعاته..

ترك الساحة من خلفه دون نظرة للوراء، لقد وصل للهدف، حيث أن لحظة شك واحدة كفيلة بهدم حياة!..

بتشتيت عدو يحمل لقبًا لا يستحقه، ولا يليق به..

أخ أكبر.. مهزلة!..

صعد لجناحه وكانت هي هناك، بثوب صيفي محتشم لدرجة مغيظة، بل كئيب!..

خلفيته السوداء تناثرتْ فوقها نقاط بيضاء متوسطة الحجم.. يتناقض مع بشرتها كما العادة، ينغلق حول جسدها بصف من الأزرار الفضية.. أزرارٍ جذبت بصره لوهلة استغربها قبل أن تبادر هي بنبرة حانقة مندفعة خارجة عن سيطرة مخاوفها وخنوعها المألوف:

- دي مرات أخوك على فكرة..

رأتها مجددًا!.. توقف لحظة يرفع أحد حاجبيه مستهجنًا كلماتها، لهجتها، بل تدخلها نفسه.. تظاهر بعدم سماعها كأنما يتحداها أن تكرر اتهاماتها:

- نعم!..

كتفتْ ذراعيها تبتلع ريقها في محاولة للثبات:

- غزل مرات أخوك، وبتحبه..

لم تتغير ملامحه، لم يخالطها انفعال وإن كان الغضب، أو يهزها اضطراب ولو كان الحرج، بينما تستطرد بتصريح عاطفي استسخفه:

- وهو كمان بيحبها..

هذه المرة لم يقاوم.. رمقها بنظرة ساخرة وانطلقتْ من بين شفتيه ضحكة عالية أجفلتها..

ليست ضحكة رائقة أو مرتاحة، بل قهقهة شيطان يقبع فوق عرش جحيمه بمَلَكية وتجبر..

تراجعتْ خطوة عندما بتر هو ضحكته بغتة، أصابها برود مفاجئ بعدما لامستْ سعيره اللحظي:

- بيحبها!..

سؤال متهكم، هازئ.. يحمل بين طيات أحرفه المعدودة استهانة حقيقية وترتها..

تنهدتْ بزمة شفاه ثم هزتْ رأسها توضح:

- حتى لو مش بيحبها؛ هي مراته.. وبيرتاح معاها..

كان يود أن يجذ عنق لغو حديثها، يقطعه ويحدد لها مكانتها بهذا البيت.. امرأة لفراشه وحسب!..

لكن عنادها المؤقت أشعره بشيء من المتعة.. متعة تشبه ملاعبة ثعلب صياد لأرنب لطيف محتجز بين مخالبه.. أكمل لعبته وقد أشعره فوزه السابق بهدنة من راحة:

- أنتِ بتتكلمي كأنه شافني معاها في سريره!..

نفضتْ الكلمة مبادئها بعنف.. عنف أجبرها على دفاع مستحق وهي تكشف أمامه أوراقها، أوراق فهمها له حتى مع محدوديته..

هي فقط تستجمع القشور وتخمن ما تخبئه أسفلها، لا تدري هل تصيب أم تخطئ!..

ما تبعات الخطأ!..

والكارثة..

ما تبعات الصواب!..

فككتْ عقدة ساعديها واستندت لظهر مقعد يجاورها:

- أنت ما كنتش عاوز أصلا توصل معاها للمرحلة دي..

رُغم حمرة خجل احتلتْ وجنتيها فقد جابهتْ، أرنبته الصغيرة تناور!..

والمناورة حقه الآن:

- وعرفتِ منين!..

غاصتْ بدُجنة عينيه، بتماسك تضاعف مع هدوءه واستمراره في الحديث، غرقتْ بعتمتها حتى وهو يبعد عنها أكثر من ثلاث خطوات:

- لأن هدفك تشتت يزن، تحرمه أمانه واستقراره، تسحب منه منطقة راحته..

أظلم وجهه بغتة وهي تكمل دون انتباه:

- ألف باء خطة استراتيجية..

دارتْ حول نفسها بسخط.. لا تدري منه!.. أم عليه!..

أم على فهمها الغريب له:

- هدفك تبعد خصمك عن ساحة الحرب، تشغله بمعركة جانبية عشان تركز أنت مع الهدف الرئيسي..

ثم توقفتْ تواجهه بنبرة مهتزة قانطة وقلب حزين:

- بس ده أخوك وهي مرات أخوك..

حينها وقعتْ عيناها عليه، على حريق تحتدم ألسنة لهبه بين جفنيه.. حريق لم يمس صوته الذي أتاها غامضًا، داكنًا كأنما يحمل بين طياته ظلمة الليل وسكونه، هيبته وغموضه:

- ده إحنا عندنا محلل استراتيجي كمان!.. مواهب متعددة..

كادتْ تفضح سرها..

سر هوايتها التي ماتتْ مع من مات..

قصصها التي تؤلفها.. أبطالها وحكاياتها الخيالية..

هي دومًا تجنح لما خلف الصورة الواضحة، ترى المؤامرة وتفتش عن الخبايا..

كادتْ تجيب بشتات مرتبك أوقفه هو حين اقترب، يقف في مواجهتها وغسق حدقتيه الحالك يثير بنفسها الخوف بينما إصبعه يمتد لقبة ثوبها:

- بدل ما تجهدي نفسك في تحليل شخصيتي والتفكير في أهدافي..

تتبعتْ يده بعين مرتجفة حين أدركتْ أنها بالفعل تجاوزتْ الحد..

منذ متى تتحداه!.. تحاوره!.. هل تفتش عن غضبه لتفقد ما تبقى لها من سلام!.. ألم يكفِها كابوس الأمس!..

حين احتل بوجوده القاتم حلمها، سيطر على ملامح حبيبها بملامحه وبرقتْ مقلتاه بسعير لا يهدأ.. هل تفتش عن مزيد من إذلال!..

هي بالفعل تملك ما تريد، فلمَ تقامر بخسارته برعونة وطيش!..

جذب فتحة الثوب بسبابته فأعادها إليه مع تتمة حديثه:

- فكري إزاي ترضيني!..

تصلبتْ للحظة عاجزة عن الفهم بغباء مفاجئ.. ومع استنارة أضاءتْ عقلها عاد إليها عنادها:

- ولما أرضيك؛ هتنسى أهدافك!..

ابتسامته كانت وحشية، متملكة وبها لمسة من عبث شيطاني أخافها أكثر:

- على الأقل بشكل مؤقت..

وبحركة واحدة، مزق الثوب!..

**

هو رجل يحركه شيطان الرغبة، ولا يكترث بمن يدهس في طريقه..

وهي امرأة لعنتها عشق إبليس، لعنتها ضعفها معه وبه..

بفراشهما دارت معركة تناسب غرائزه الحيوانية فوق جسدها الذي يحفظ دروبه عن ظهر قلب ورُغم ذلك لايزال يريده..

ومن بين الأنفاس والجنون والشغف كانت تُصرح بحبه كما يُفضل أن يسمعها منها؛ هو يستعبدها بعشقها..

يُخضعها برغبتها فيه؛ رغبة وحده يُجيد إخمادها، يُتقن إسكاتها..

لا ينكر أنه يحبها، أنها تتفوق على نفسها مرة بعد مرة لإرضاءه، تمتلك مفاتيح ملذاته.. قبل ساعتين عندما عاد من السفر بعد تحديد توقيت بدء مشروعه الجديد الذي يترقب انتهاءه لينقله لمصاف آل المال والسلطة بقفزة واسعة؛ وجدها في استقباله..

المنزل هادئ، الأولاد نيام.. وبغرفة النوم كانت تنتظره، بثوب طويل مثير يناسب ذوقه وتطلعاته وهي خير من يعلم.. بل خير من تحفظه وتجاريه وتجاهد لترضيه..

ثوب فجر كوامن اشتياقه لها وهو قد غاب لثلاثة أيام بسفرته تلك، لا يخفي الكثير لكنه لم يقاوم تمزيقه كما تريد منه وهو يفهم..

ما باغته أنها لم تكن ترتدي شيئًا سواه!.. هي امرأة تدرك كيف تلبي احتياجاته، وبإجادة تامة..

يحبها نعم؛ لكن الحب خارج حسابات شهواته..

ففي معادلة الرغبة؛ وحدها أبدًا لا تكفي مهما بذلت من جهد!..

انتهت المعركة بانتصار جديد سجل أهدافه في مرمى قلبها وأنوثتها.. كانت منهكة إلى جواره، تتدثر بالشرشف حتى عنقها.. عيناها ساهمتان، معلقتان بسقف الغرفة، سألته دون مقدمات:

- مبسوط يا حبيبي!..

لهجتها رُغم لفظ الحب كانت جامدة، باردة..

تجاهل كل ذاك واعتدل يشرف عليها، يُغيبها فيه بدهاء خبيث يشبه سيطرته على كل ما فيها، يحفظ خطواته في طرقاتها فيبعثرها، يعزف مقطوعته على أوتار احتياجها كما كلماته المقصودة:

- أنتِ عارفة إني باكون سعيد معاكِ..

أبعدته تواجه عينيه.. أناملها تغوص في خصلاته المشعثة، وكفها الثانية تحاوط عنقه:

- ورغم كده أنا مش كفاية!..

تصلب مع حديثها.. زم شفتيه بغضب لم يحاول مداراته، وابتعد عنها، ترك الفراش يفتش عن سروال منزلي يرتديه، فقد نزعت عنه

حُلته بهوس حين عودته، جذب سترته الملقاة على الأرض يتناول منها علبة تبغه، يشعل لفافة ثم يقف عند رأسها ينفث دخانها بوجهها:

- مافيش فايدة يا هالة، حتى الليلة الحلوة بوظتيها.. خميرة عكننة..

اعتدلتْ جالسة تتشبث بالغطاء في ضعف:

- أنا بحبك..

ابتسم ببرود ودخانه يغيم المسافة بينهما بضباب مظلم:

- عارف..

نهضتْ تقف على ركبتيها في مواجهته.. تلامس موطن نبضه بيدها والأخرى تحافظ على سِترها:

- طيب ليه بتوجعني!..

لم يُجِبها، ظل يرمقها بسكون ذبحها..

ترى لامبالاته بمقلتيه، يخبرها عن حب ثم يطعنه في منتصف روحه بين جوانحها المغرمة به..

يملك عليها كل كيانها وهي تفوز منه بالفتات الذي يتنازل ويهبها إياه، يقهرها تحت قدميه بلا اكتراث ويمضي.. لو رأتها واحدة من سيدات مجتمعها الباهت لجلدتها..

فهي المنادية بحقوق بالية لا تنال شيئًا منها!..

ارتجفتْ لحظة وسؤال تالي يداهمها من وحي قسوته:

- راجح.. لو أنا خُنتك هتعمل إيه!..

هاجمها بنظرة شرسة أخافتها.. انحنى يطوق فكها بأصابع خشنة غليظة، يضغطه حد الألم ويهمس بفحيح جحيمي أمام ثغرها:

- هاقتلك..

مع رعدتها ابتسم بسخرية:

- أنتِ فاكرة إني ممكن أسامحِك عشان أنتِ بتتجاهلي نزواتي!..

لم يمكنها النطق مع تكبيله لذقنها بينما هو يكمل بأريحية مرعبة كأنما يتحدث معها عن عشاء يشتهيه:

- لأ يا هالة؛ فوقي.. خيانة الست حاجة تانية، أنا راجل واحدة بس مش كفاية عادي، وممكن أتجوز تلاتة غيرك.. لكن أنتِ...

وغمزها بمكر حررها عقبه بعنجهية ذكورية:

- أنا مكفيكِ..

انحنى فمها ببسمة هازئة، تغلفها مرارة اللحظة والمشاعر واليأس:

- يعني أنا مش كفاية..

ربتَ على وجنتها بكامل كفه ثم احتواها برفق:

- أنتِ مراتي وحبيبتي..

ضغط موضع قلبه بحقيقة يحشرها بعقلها.. حقيقة حتى وإن لم تكن كافية له لكنها بالتأكيد يجب أن تكفيها:

- هنا.. مافيش غيرك..

وأعاد رُحى معركته على أرض جسدها المنهوب بانتصار جيشه الجرار، دكَّ حصونها فتهاوت تحت سلطانه واحدة تلو تابعتها، أغار على كل حواسها وجوارحها حد الإدمان.. هي بيدقه المطيع، الذي

كلما جنح عن مكانه في رقعة اللعب ردَّه بسلاسة تمكنه من التحكم به..

غادرته تأخذ حمامها، وبقي هو بالفراش شاردًا، حالمًا.. ينفث سُحبه بإسراف؛ حتى قطع شروده في غده المشرق رنين هاتفها هي..

باسم الشقيقة الغائبة!..

بعجالة كتم الصوت، نهض يترك الغرفة، يجيب بهمس خفيض:

- ليلى!..

لكن الجواب كان من صوت مجهول لا يعرف صاحبته:

- لأ.. أنا صاحبتها، هو ده مش تليفون...

- هالة..

أتاه صمت قصير خمن خلاله ارتباكها فبادر:

- ده رقم ليلى..

- أيوة.. هي في المستشفى..

تغضن جبينه بقلق وسؤاله يتلهف الجواب:

- مستشفى إيه وليه!..

جوابًا ألجمه للحظات عندما وصله بتوتر:

- القصر العيني، أجهضت..

اللعنة!..

ألف لعنة وسباب أطلقه وهو ينهي اغتساله في حمام خارجي، يُقبلها بين عينيها، يبرر بحجة رحيل ساذجة وعمل هام أعاقه شوقه إليها عن اكتماله..

وصل للمشفى حيث كانت شريكتيها بالغرفة تقفان قرب فراش مرض بعنبر كبير يمتلئ بغيره، تتهامسان بارتباك:

- كلمتِ حد!..

سألتْ "هند" ونظرتها الخائفة تحط على الفاقدة لوعيها أمامهما، راقبتْ "سحر" التي جاوبتها بينما تعيد الهاتف الذي فتحته ببصمة "ليلى" إلى جوارها:

- اتصلت على آخر رقم كلمته، مكتوب هالة بس رد عليَّ راجل..

وصمتتْ لحظة تتأمل الساكنة بشحوب:

- تفتكري أبوه!..

وكزتها "هند" بضيق:

- مالناش دعوة..

مصمصت "سحر" شفتيها بتعجب ساخر:

- وبتقولي لي مش زيك، أهي طلعت أوسخ..

كررتْ "هند" الضربة وسحبتها بعيدًا بعض الشيء:

- ما تتلمي يا سحر، البت شكلها غلبانة..

هزأتْ منها صديقتها باستهجان:

- والله أنتِ اللي غلبانة..

غيرتْ "هند" فحوى الحوار بضيق:

- تفتكري مدام علية هتعمل إيه!.. ممكن تطردها!..

هزتْ "سحر" كتفيها بلا اكتراث:

- أكيد هتطردها، أنتِ مش سمعتيها وهي بتصرخ في وشنا وتدعي عليها وبتقول مش عاوزة مشاكل في شقتها!..

- سمعت، وربنا يستر..

"ليلى!"..

نداء أتى عن يمينهما، صوت رخيم، نبرة قلقة.. وقرب ثم تدقيق في الغائبة باهتمام:

- أنت مين!..

هاجمته "هند" بتوجس، في حين طافت عينا "سحر" حوله.. تتفحصانه بنظرة معجبة لمحها وهو يلتفت ليواجه كليهما:

- أنتوا اللي مين؟!..

ظلتْ "هند" على حدتها وضيقها:

- إحنا أصحابها، أنت مين بقى!..

- أنت جوزها!..

الثانية التي تدخلت ونظرتها تخبر عن الكثير:

- جوز أختها..

- وفين أختها!..

أسئلة مثيرة للحنق، كاد يرد عليها بعنف حين أنقذها منه اتصال هاتفي أتاها.. ابتعدتْ قليلًا ونظرتها تحاصره بمراقبة منزعجة، اقتربتْ "سحر" فلم يعُد يفصل بينهما سوى خطوة واحدة..

تتأمل طول قامته، جسده العريض.. نظرته الثعبانية، وسامته وخشونته الواضحة:

- أنا سحر..

لم يكُن في مزاج لتلاعب أنثى؛ لذا اكتفى بما يبالي به في هذا الوقت:

- إيه اللي حصل لليلى!..

تغافلتْ عن تجاهله وتظاهرتْ بالحزن:

- مش عارفين، فجأة لقيناها أغمى عليها وبتنزف، جبناها المستشفى قالوا لنا إنها بتجهض.. كانت هتروح مننا لولا لحقناها..

قطب بتفكير وخلل خصلاته حينما استدار نحوها، يرنو إليها ببصره، يرى شحوبها، ضعفها، وألم تشي به أجفانها المرتجفة، رجفة تنبئ عن صحوتها!.. انحنى نحوها بنداء دافئ:

- ليلى..

فتحتْ عينيها لتراه قربها، ظلتْ تائهة.. حائرة.. متعبة ولا تعلم في أي عالم هي!..

ألا تزال على قيد الحياة، أما أنها الآن بصحبة شيطانها في الجحيم!..

من ورائه ظهرت "هند" بوجه واجم قانط:

- حمد الله على السلامة..

إذًا لم تمت بعد!..

تبعتها "سحر" تفتعل الأسى:

- خوفتينا يا لولا، وللأسف كمان مدام علية اترعبت، وكلمتنا دلوقتِ عشان نروح نجيب لك شنطة هدومك..

كانت منهكة، تلمح انعقاد حاجبي زوج الأخت قربها.. تسمع الخبر من خلفه ولا تكاد تستوعبه.. ضائعة لا تجد لروحها مستقرًا، ولا لشتاتها موطنًا أو خوفها ملاذًا.. تدخل هو بحزم:

- هاتوا الشنطة واتفضلوا أنتوا، شكرا..

كادتْ القلقة تعترض بتدخل لولا أن منعتها رفيقتها وسحبتها من يدها بضغطة لترحلا بصمت..

صمت قطعه شيطان سقوطها ببسمة بدتْ لها وحشية:

- كده تختفي وتقفلي تليفونك وما أعرفش مكانك!..

تعانق جفناها في شبه موت، ورغبة الرحيل تقتحم كيانها.. تتسلط على أفكارها، تسطو على عقلها:

- رعبتيني عليكِ يا ليلى..

وجاورها فوق الفراش بجلوس نفضها، عادتْ تنظر إليه عاجزة عن استخراج حرف واحد من بين شفتيها:

- ما تخافيش، من النهاردة أنا معاكِ..

والآن.. حقٌّ عليها أن تخاف، تهلع.. وتهرب..

لكنها فاقدة لكل طاقتها، لكل رغبة في الحياة.. لكل أمل!..

**

أحيانًا ينقلب السحر على الساحر، ويسقط الصياد في فخه الذي نصبه لطريدته!..

بالأمس يستخدمها الأخ كدمية أتقن التحكم بخيوطها.. يلاعبه بها..

ومعه هو تُمزق كل خيط.. كل رباط..

تمزق برعونة تجعله يشتهي خنقها!..

حيث أن زوجته المبجلة اليوم، خرجتْ في رحلة قصيرة كان من حقه التواجد معها بها..

عادتْ من موعد الطبيبة لتجده بانتظارها وعيناه تستعران، غائمتان بنظرة مظلمة غاضبة أرسلتْ بقشعريرة باردة لروحها لكنها أجادتْ إخفائها..

تقدم منها بخطوات واسعة وازتْ فحيحه الهادر:

- كنتِ فين!..

ألقتْ حقيبتها على أريكة قريبة وتخطته ببساطة:

- عند الدكتورة..

كان يعلم.. وذاك ما يحرقه، ويثير جنونه..

أوقفها ويده تقبض على مرفقها بقسوة آلمتها:

- من غير ما أعرف!..

تجاهلتْ أنَّه كادت تطلقها واستدارت إليه دون أن تحرر يدها:

- ويهمك في إيه!..

هز يدها وزعقته التي مررها لها أجفلتها:

- أنتِ اتجننتِ ولا مِخك فيه حاجة!.. ده ابني..

رمقته برهبة قصيرة..

عصبيته تلك هي الأولى بينهما رُغم موقف الأمس!..

سواد عينيه بات داكنًا خاليًا من بريقه العابث الذي تألفه وتفضل التعامل معه.. شفتيه مزمومتان وأصابعه تكاد تطحن عظام مرفقها..

انتزعتْ نفسها بعيدًا بحسم استدعته بعسر:

- ما أنا عارفة إنه ابنك، وعارفة إني مجرد رحم.. في حاجة تاني تحب تضيفها!..

وحركتْ كتفيها تنأى عنه قليلًا بلامبالاة مفتعلة:

- لو عاوز تعرف شكله إيه؛ تقدر تبص على الصورة اللي فبركتها لجدك أول ما لعبنا لعبتنا.. زيها بالظبط..

لمحتْ رجفة مقلتيه.. رجفة خاطفة سرقتْ نظرته، قبل أن يعود لها سخطها وصلابتها..

تشددتْ قبضتاه جوار جسده وصوت اصطكاك أسنانه يصلها، كان يحجم هياجه بإرادة حجرية لأنه في هذه اللحظة يود تهشيم رأسها على أقرب جدار، خطا نحوها خطوة واحدة جعلته يسطو

على بصرها بحضوره، يشهر سبابته في وجهها وينهي الأمر بحزم صارم:

- أول وآخر مرة تعمليها يا غزل.. كل مواعيد الدكتورة بعد كده أنا هاكون معاكِ، مفهوم!..

لم ينتظر جوابها بل غادرها لغرفته كعاصفة وقدميه تكادان تخترقان الأرض تحت وقع خطواته.. لا تعلم لمَ مر بين ضلوعها ألم!..

هو غاضب، غضبه انعكاس لوجع، لخوف، لتشبث، لتشوش وبعثرة لا تفهمها!..

مطتْ شفتيها بضيق والتقطتْ حقيبتها تفتحها، تخرج منها شيئًا وتتبعه.. وقفتْ على باب الغرفة ترمقه بنظرة باهتة بينما يُفكك أزرار قميصه باختناق، يتخلص منه، يلقيه على الأرض بلا اكتراث ويدور حول نفسه بتشتت!..

يدور حتى التقى ببصرها.. ثبتَ للحظات اقتربتْ هي خلالها تمد يدها إليه بصورة صغيرة وهمسة غير مسموعة:

- ابنَك..

مد أصابعه قربها.. يفردها، يضمها، يعتصر قبضته قبل أن يتناولها منها برعشة، يدقق فيها.. أنامله تلامس النقطة الداكنة الضئيلة والتي تشير لموطن طفله..

تطوف حولها ويزفر بتيه..

هذا هو من لن يتخلى عنه ولو كان عمره الثمن.. هذه قطعة منه لن يمكن لبشر أن يحرمه منها..

تأملتْ تتابع المشاعر واضطرابها الفوضوي على ملامحه، ارتج قلبها لأجله..

سبَّتْ نفسها على حماقتها وعاطفتها التي خذلتها من قبل وها هي تفتش عن خذلان جديد.. خذلان قررت الهروب من محيطه باستدارة وخطوة بترها هو، كفه تطوق معصمها فتتوقف، تلتفتْ إليه بوهن هز له رأسه لثانيتين بعدها احتجزها بين ذراعيه.. يد تحاوط خصرها والأخرى تثبت وجهها، تجبرها على الاستسلام لاجتياحه..

كان ينسى.. يضيع، يغيب..

يتنفس بحشرجة دون أن يبتعد تمامًا وأصابعه ترتحل عن الخصر لتعبث بثيابها، استجمعتْ كل قواها التي تبقتْ إثر رغبة قلب أبله في مداواة جرح لا تعلم مداه أو سببه أو حتى مكمنه لكنه سافِرٌ بعينيه.. استجمعتها ودفعته بضعف، تهمس برفض:

- لأ..

لم يستجِب.. بل عاود الغياب في حناياها وهذه المرة كفيه تطوقان وجهها، تحاصرانها، تخضعانها قسرًا، تبعده.. تحشر ذراعيها بين جسدها وجسده.. وتنتفض باحتجاج:

- لأ يا يزن..

وهو كان يود سكرتها.. يبحث عن ثمالتها، عن الغرق فيها والنسيان.. لم ينصاع بل همهم بلهفة:

- ما تقوليش لأ..

ظل يتحكم بها، يضعفها.. يضعف فؤادها العاشق ونبضه المتعلق به.. تراجع يُسقطها ويسقط معها على فراشه، وهنا حانت الإفاقة الحتمية:

- لأ..

أتت أعلى، بصوت أقرب لصرخة غاضبة.. يائسة وحزينة!..

تباعد بدهشة مهتزة يحررها فاستقامت تحيط جسدها بذراعيها في ضمة مرتعشة، تبعها يمنحها أمانًا لا تريده:

- غزل أنا مش هجبرك..

رمقته بنظرة خاوية فأردف باعتراف مشاعري غامض كغموض نبرته:

- أنا محتاجك..

هزتْ رأسها بنفي ودمعة تخدش أجفانها:

- مش هكرر غلطتي يا يزن..

رمقها بتساؤل حائر أجابته بصلابة ودمعتها تنسحب، تشارك قلبها نزفه:

- لما قربت قبل كده، لما صدقت ووثقت؛ انجرحت.. دلوقتِ..

ثم أشارت لصورة الموجات فوق الصوتية التي سقطت من يده عندما أرادها:

- دلوقتِ ده اللي بينا..

وهربتْ تتركه واجمًا، جامدًا يتأمل الصورة؛ فحتى رغبتها في إصابته بعدوى الحب باتت ثقيلة على الروح والفؤاد معًا..

هربتْ وهي تعلم عن يقين أن كذبتها غير متقنة.. لكنها الوحيدة التي تملك لحفظ كرامة القلب الساقط بحماقة أهل العشق في هواه..

**

أول العشق قطرة؛ وآخره غرق!..

أما هي فعالقة بالمنتصف؛ لم تنل لذة رشفة البداية كاملة، ولم تصل لقاع هواه البعيد بعد..

أول العشق شرارة، ونهايته نار حارقة تأكلها وحدها..

الحب معادلة منطقية.. حاصل جمع طرفين لا تكتمل النتيجة دون أحدهما؛ عندما تنظر حولها تجد أن معادلتها منقوصة.. ينقصها

طرفها الثاني الذي أخلَّ بقوانين قلبها وتركها تصارع غرامه في حرب طاحنة بلا فوز.. لكنها لم تفقد الأمل، وإن فقدته والدته.. حتى وإن تركتْ العمل معه بالفعل قبل أيام عقب عودتهما من السفر..

قدمتْ استقالتها وقبلها!..

هكذا.. دون مسافة فاصلة، دون تمسك، دون اهتمام.. ها هي تجلس في البيت منذ يومها بلا عمل، لا تريد أن تفتش عن واحد جديد ومحبطة من كل شيء حتى باغتتها أمها بخبر بعثر أفكارها..

"عريس!"..

تجاهلتْ الأم ذهولها وجلست تواجهها على فراشها:

- أيوة عريس يا رهف؛ ولا هتفضلي ماسكة في حبال الهوى الدايبة!..

اعتدلتْ تساوي خصلاتها بتوتر حانق:

- إيه الكلام ده يا ماما!..

ابتسمتْ والدتها بضيق ولم تنكر غضبها:

- الحقيقة يا قلب ماما..

وجذبتْ وجهها تجبرها على لقاء واقعها بعينيها:

- عدي لا بيحبك، ولا عمره هيحبك ولا شايفك من الأساس..

استقامتْ تعاند بقلب عاشقة وفية:

- هيحبني، العمر لسه...

- لسه إيه!..

نهرتها أمها ونهضت تتبعها، تديرها إليها وتُضيق عليها الحصار:

- هتستنيه كام سنة كمان!.. أنت بقى لك سنتين تحت عينيه ولا فكر فيكِ..

وقستْ نبرتها تريد سعادتها، ترجو لها الخير ولا تراه بين يدي رجل ثلجي المشاعر كابن صديقتها:

- حتى أمه عارفة إن مافيهوش أمل..

ثم ربتت على كتفها برفقٍ حانٍ:

- العمر بيجري، عاوزة أطمن عليكِ مع راجل يصونك وأفرح بولادك حواليا يا رهف..

تقوس فمها بشجن:

- يعني أتجوز أي واحد وخلاص يا ماما!.. ألغي قلبي وأنسى مشاعري!..

ضمتها السيدة بعطف رفيق مشفق، تدرك ما بقلب طفلتها.. تدركه وتخشاه وترفضه مادام بلا جدوى:

- لأ.. تتجوزي واحد شاريكِ واختارك من بين البنات كلها..

قطبتْ بحيرة وتراجعتْ تسألها:

- شاريني!..

أعادتْ أمها خصلة من شعرها للخلف وتمتمتْ برضى كأنما تسللتْ لقلبها المغلق على رجل لا ينبض لسواه..

تسللتْ تفتح بابه ولعلها تحررها من لعنة عشقه الضائعة بأرضه:

- أيوة.. هتقعدي معاه، تتعرفي عليه ولو مش موافقة مش هاضغط عليكِ بس ريحيني يا رهف..

- ماما.. أنا بحب...

أخرستها بزعقة باترة:

- والله لو جبتِ سيرته تاني أنتِ حرة، وهتقعدي مع العريس سواء رضيتِ ولا لأ..

ورحلتْ عن الغرفة، تبارحها وحدها تفكر..

هل خسرتْ معركة العشق والجبهة لم يكن بها جنود سواها!..

هل انتهتْ الحرب قبل أن تبدأ!..

مُنيتْ بهزيمة سحقتْ عزيمتها وقلبها بوقت واحد!..

اللعنة على الغرام ومريديه ودراويشه.. وألف لعنة عليه؛ آسر القلب ومالكه ومانحه الوجع..

لعنة كما يبدو وصلته، فتعثر بوالدته عند عودته مجهدًا من مقر مصنع الحديد والصلب، وقيادته لساعتين ونصف في ظلمة الليل لتخبره

بنبأ تظنه سيؤثر به؛ نبأ.. نبرة درامية.. ونظرة أقرب لأنشوطة خانقة تحاصره به:

- رهف متقدم لها عريس وماجدة موافقة..

توقف لحظة بمكانه، لقد أتتْ من خلفه بتسلل يليق بلص محترف، انتظرتْ حتى رفع قدمه فوق أول الدرج واقتحمتْ المشهد بخبر تعتقد أنه سيصدمه وربما يركض ليختطفها لنفسه!..

استدار إليها ببسمة يائسة:

- مش قديم الفيلم ده شوية يا ست الكل!..

كتفتْ ذراعيها واقتربتْ توبخه بغضب:

- ده مش فيلم يا عدي، دي حقيقة، وأنت الوحيد اللي هتخسر..

رفع حاجبيه بدهشة مفتعلة، عاد خطوته واستند للسور بإجهاد:

- مبروك لرهف؛ بس هاخسر إيه بالظبط!..

ظهر حزنها جليًا على وجهها وبعينيها:

- البنت بتحب ابنك وحنينة معاه، وهو بيحبها..

رفع وجهه للسماء كأنما يتوسل خالقه رحمة وهي تردف بدفء:

- وبتحبك..

باغتها بجواب بارد حاد:

- وده أهم سبب يخليني ما أقربش منها..

اعتدل في وقفته إيذانًا برحيل، هروب من حديث لا يرغبه، وبتر لفكرة لا يجوز مرورها بالذهن:

- أنا لو حتى فكرت أكرر التجربة اللي ما نجحتش في المرة الأولى؛ مش هاكرر غلطتي تاني..

اقترب يقف أمامها، يكشف لها جروح نفسه التي تعلمها وتتجاهلها في كل مرة:

- هاختار بعقلي، وهي كمان لازم تختارني بعقلها..

- أنت بتحمل نفسك ذنب مش ذنبك..

ارتد خطوة كأن المواجهة مع إثم اجترحته يداه غير محتملة:

- الموت ماحدش بيقوله لأ..

تشددتْ قبضتاه وجريرة نفسه تغص بها روحه، تشعل جحيمًا في قلبه، تستعر بلهيبها أنفاسه:

- بس الحب بنقوله لأ، الخوف بنتحكم فيه، والاختيار في إيدينا..

- مش ذنبك إن نورا حبتك..

- أهلها شايفينه ذنبي، ذنبي إنها ضحت بحياتها عشان ترضيني..

ودار حول نفسه بألم يتمازج بهياجه في خليط أوجع قلبها عليه:

- ذنبي إني ما قدرتش أحبها زي ما هي حبتني، فقررت تديني طفل يمكن وقتها قلبي يدق لها رغم مرضها..

ثم ضرب صدره بقبضته بقسوة:

- وما دقش..

بعدها تراجع، ينفي ويهز رأسه برفض محتم:

- مش هاتحمل ذنب واحدة تانية.. بتحبني وأنا مش قادر أحبها في المقابل..

زم شفتيه وتعانق جفناه بهمس أخير:

- مش هاتحمل ذنب قهر وكسرة قلب تاني..

بإثرها ركضت خطواته تأكل الدرج..

تتجه إلى غرفة صغيره، يراقب ملامحه المقتطعة منه، ينطوي جواره بفراشه الضيق ويكتفي به..

هو عالمه الذي لا يشتهي سواه..

هو إثمه وتوبته.. جحيمه وجنته..

هو الإثبات الذي يجبر نفسه على العناية به في كل لحظة، الإثبات أنه.. رجل بلا قلب!..

قاتل مع سبق الإصرار..

ومفقود في دوامة جريمته حتى الأبد..

**

فاقد الشيء لا يعطيه!..

حقيقة؛ فالفاقد يخالف في المعنى "المُفتَقِد"..

الفاقد لا يملك.. المفتقد محروم وقد يملك..

هو افتقد الرحمة، لم ينَلها.. حُرمها طوال عمر إلا قليلًا، ومع طول الحرمان حدث الفقد.. فقدها في قلبه، بل فقد قلبه ذاته..

نبتتْ محلها القسوة.. هو فاقد للحنان، لن يهبه لمن يعوزه، هو حتى لا يدري كيف هو مذاقه!..

فاقد للشفقة، فذلك معنىً عندما استشعره كرهه وكره من غرسه في ذاك الموضع.. فاقد للعطاء فكيف يمنح!..

نسياته لهاتفه بالصباح أجبره على عودة مفاجئة للمنزل..

عودة أرته منها ما لم يرِد أن يراه في يوم..

أرته قوتها!..

أرته أساسًا جديدًا تعتمد عليه، يخالف كل ما هدمه في السابق..

هي لا ترتكز على أحلام حبيب، على ذكرياته وسعادة غابت معه.. بل ترتكز على صغير لمحها قبل ذهابه لعمله تضمه بحنان الدنيا..

لم تكن المرة الأولى لكنها الوحيدة التي استوقفته لسبع ثوانٍ تامة!..

كانت تمر بأنفها بين ذقنه وعنقه ببسمة ومداعبة ناعمة، تدغدغه، تقبله وتهمس له بشيء غير مسموع..

بعد العودة المؤقتة رأى ما هو أكثر؛ سرها الخاص..

رآها تتوكأ على جناحي فراشة تمنى بقسوة بترهما..

فراشة تطير قرب اللهب بلا خوف.. بلا احتراق.. بلا انجذاب..

تدور..

تسقط..

تستكين..

تنهض..

وترقص!..

عندما فتح الباب الجناح وقتها أتاه الصوت الخافت لموسيقى عالمية يعرفها..

"Nutcracker"

الباليه الشهير!..

ومن خلف بابها المُشرع بفتحة ضيقة كانت هي هناك بغرفتها.. ترتدي ثوبًا أبيض اللون تمامًا يناقض ما مزقه بالأمس..

بقدميها حذائها الصغير بلؤلؤتيه وأشرطته الملتفة حول ساقيها..

تقف على أطراف أصابعها، ترفع رأسها بشموخ، تدور ببطء، تفرد أجنحتها..

تثني ركبتها، تسرع في دورانها.. وتسقط!..

ينعقد حاجباه مع سقوطها، ثم دون وعي تَردد دواخله أمرًا صارمًا..

"انهضي"..

ودون وعي منها أيضًا بحضوره أطاعتْ بعد استكانة قصيرة، ضمت جسدها على الأرض.. انطوت على نفسها كزهرة انغلقتْ أوراقها الندية بخجل.. مع عودة الإيقاع لمرحلة أعلى استقامتْ..

أكملتْ رقصتها رُغم هزيمة وشجن ملامحها..

أجفانها متعانقة.. ذهنها في كونٍ موازٍ.. وهو هناك!..

يدفع الباب بلا تنبيه، يقرر اقتحام المشهد بحضور يليق به، بعدما طالتْ مراقبته الصامتة..

دوران آخر أطول يتابعها فيه ثوبها استقبله بين ذراعيه.. ولتفصيل أدق!.. هي اصطدمتْ بجسده الذي قطع طريقها فتوقفتْ بشهقة، تفتح عينيها لتواجه غموض عينيه..

كان بمقلتيه شيء ما لم تدرك أبعاده؛ شيء أرسل بروحها رعدة!..

رفع يده مشيرًا لكمه:

- في زرار وقع مني لما كنت معاكِ هنا آخر مرة..

أعادها لأرض الواقع الصلبة بقسوة.. حجته جاهزة، تجاهله موجع، وتأثره بتلك المرأة غير مباح.. مرفوض..

كلما اقترب سينحرها، سيشاهد النزف.. ويبتعد بعده بانتشاء!..

- هدية مهمة ما ينفعش تضيع..

التلميح واضح، صريح.. هدية من حبيبة ربما!..

عشيقة!..

لا تدري، ولا تهتم..

تخلت عن جمودها وصدرها يرتفع بلهاث، تتجاهل تجاهله، تتجه إلى طاولة تجاور الفراش ومن جارورها أخرجت الزر المحفور فوقه حرف "ل".. ببروز ناري يشبهه..

تناوله منها ببساطة واستدار عائدًا من حيث أتى.. قرب الباب توقف، التفتَ يسقطها بكهف حدقتيه المعتم، بفرض لا يقبل التفنيد أو المرواغة:

- خليكي بالفستان ده لحد ما أرجع بالليل..

كان أمرًا باترًا حادًا.. ومختلفًا!..

فجوار صرامة النبرة، أرجفها اشتهاء النظرة!..

هل ستتحول الآن من جارية الخضوع وإثبات السيطرة، إلى جارية المتعة ومصب الشهوة!..

بل لمَ يشتهيها وهو لم يرَها كأنثى تستحق من قبل!.. لا تدري لمَ أخافتها عيناه!.. لمَ رغبة مر طيفها بمقلتيه أوجفتْ قلبها!..

كلا، لا تريد.. يتعاظم خوفها..

هي تجيد التعامل مع الوحش، مع الفظ القاسي.. لا ترغب في لقاء آخر..

آخر لمح منها ما لم يلمحه غيره حتى عاشقها الراحل..

آخر رأى سقوطها.. نهوضها.. فشلها.. واستقبل نهاية رقصة آلامها فوق صدره باصطدام أرعبها..

تعامى عن شرودها في أمره وخرج.. كان يدرك حدود أبعاد أفكارها، مخاوفها.. ينتشي بسلطانه عليها ويوقن من الطاعة..

هو في هدنة انتصار منذ يومين..

لقد أجاد التعامل مع الحرمان طوال عمره، ومذاق النصر فريد، قابل لإدمانه!..

انقطعتْ أفكاره بطرقات ثلاث متتابعة على باب مكتبه بالشركة، كان قد عاد قبل قليل من لقائه مع "عمار الديب".. الشريك مع مرتبة الافتراس..

تأمل دخول "يزن" بخطوات هادئة ثابتة لم يتوقعها..

أحيانًا يدهشه!..

أحيانًا فقط.. والآن واحد من تلك الأحايين، جلبته مبادرته الصريحة الخالية من المقدمات إثر جلوسه على مقعد مواجه:

- في ثغرة في لعبتك يا يعقوب..

رفع حاجبًا مستخفًا، هو لم يسمع أصوات شجار ولاتزال الزوجة ببيت زوجها.. إذًا لقد أجاد أخيه اقتناص ثغرته كذلك:

- أنتَ فاكر أنك مسيطر على أرض اللعب لوحدك، بتحرك كل القطع زي ما أنتَ عاوز ومخطط..

أتتْ استطرادته بلهجة باردة، تبعها بمطة من شفتيه وذراعه ترتاح فوق المكتب بينهما:

- مش واخد بالك إن في خصم حقيقي..

انزلق استخفافه ليتمازج بسخرية عند ركن شفتيه والأكبر يكمل:

- شايف خطواتك..

وهز رأسه بتأكيد:

- بيدرسها كويس.. وبيتحداك..

لمعتْ عينا الأصغر بتحدٍ..

ما الأكثر لذة من خوض لعبة مع خصم جدير بها، وتعلم أنك ستفوز فيها!..

أن يدرك خصمك قواعدها، يلعبها معك.. يعلو بالقدرة ويضاعف الجهد.. ثم تقصمه في النهاية بنصرك أنت:

- جميل يا يزن..

ترك مقعده ودار يواجهه في جلسته ببسمة ماكرة:

- التحدي ممتع، ولما تكون الأوراق مكشوفة تبقى اللعبة مشوقة أكتر..

وافقه "يزن" بهدوء كالصقيع:

- فعلا..

نهض ينظر إليه من عُلو:

- بس المرة اللي جاية..

ميل طفيف ونظرة تتصارع مع أخرى في معركة حامية الوطيس:

- حاول تلعب بشرف!..

وهنا.. كان للأكبر النصر..

أجج ضيقه ورحل، غضبه ينهشه، يحجمه فينفلت من عقاله بعدها يسيطر عليه بإرادة فولاذية اعتاد تطويعها..

عاد للبيت، عندما فتح الباب رآها، مازالت تنتظره!..

تتكوم على أريكة غرفة المعيشة بذات الثوب، تضمه حول جسدها في سِتر، وتطوق كتفيها بوشاح يماثله لونًا..

هل مكثت هنا لتمنعه من الولوج لغرفتها، من اقتحام أحلامها!..

كانت نائمة، غابتْ عنها السكينة، ملامحها خالية من بسمة الحلم..

وجهها محتقن بفعل كابوس على الأرجح..

جفنيها يهتزان بقلق؛ ربما هو زائر ظلامها بهذه اللحظة..

تأملها لثوان تالية ثم اعتصر عينيه بزفرة فاترة، مر جوارها دون أن يكرر النظرة وأغلق غرفته عليه..

الوقت لايزال مبكرًا على النوم، مبكرًا للغاية وهو يلتقط دقائقه بعُسر.. بدل ثيابه بعد حمام دافئ أرخى جسده المشدود وخرج، غادر الجناح كله.. استيقظتْ هي على صوت انغلاق الباب من خلفه..

رمقتْ غرفته بحذر، خطت إليها ببطء، لمحت الثياب التي كان يرتديها صباحًا مكومة على مقعد طاولة الزينة فعلمتْ أنه عاد..

لمَ لم يوقظها إذًا!..

ولمَ أمرها بالاحتفاظ بالثوب مادام لن يمزقه كما فعل بشبيهه!..

هل ترك لها مساحة الألم خاصتها، تغوص في ذكرياتها بنقائها دون أن يدنسها بحضوره!.. أم أنه فقط أمر ليُطاع!..

ظنتْ أنها بدأتْ في استيعابه، في الوصول لخباياه..

لكنها كلما صعدتْ معه درجة سقطتْ التي تليها..

خطتْ إلى الشرفة وكان تخمينها صحيحًا، لقد ذهب لمعتكفه المثير للفضول!..

فضولها في كل مرة كان يتوالد بحجم أكبر..

لذا ربما عليها أن ترويه.. لكن كيف!..

تراجعتْ لغرفتها تجاور صغيرها، تشرد فيه وحيرتها تسيطر عليها..

حيرة كانت تتسلل إليه هو الآخر بعد ساعتين أخريين بينما يسترخي بالمقعد الوحيد بصومعة وحدته.. يغمض عينيه بإرهاق وكفيه تستريحان فوق فخذيه، يضم أصابعه ويفردها بتمرين متعب..

حيرة لم يألفها أبدًا.. حيرة تغضبه..

وهو اعتاد التعامل مع غضبه بوحشية..

وحشية لا يشتهي سواها، ولا يمارس إلاها..

**

لم يرَ نفسه كجندي من قبل؛ هو دومًا قائد في حرب أبدية..

يخطط.. يضع كل مقاتل في مكانه المناسب.. ينفذ..

ويوجه معاركه تبعًا لإرادته.. والآن!..

انتصر..

استراتيجيته معقدة، هو ليس بالرجل السلس.. خلق لها الأرض التي تقف عليها، علقها فوق هوة سحيقة حفرها بيديه، وتحكم بصلابتها وزلازلها وحده.. منحها هدفًا تقاتل للوصول إليه!..

قلبه..

بعدها أسرها إليه، والليلة.. الليلة سيوقع عقد الامتلاك الختامي، سيسدل الستار بعد انتهاء عرضه الخاص، وسيبدأ معها عرضًا جديدًا هي بطلته..

لا جمهور.. لا متابعين.. لا مُلقن..

الحرب بها ومعها ولها وحدها..

زفاف أسطوري يليق به، ثوب بديع راقي يحاوط جسدها بملكية، ورقصة أنهتْ الحفل..

بسيارته التي يقودها سائقه الخاص جاورته في صمت مترقب، مفاجأة وعدها بها واشترط عليها كبت الفضول..

كانت تتأمله بحالمية فتاة عشرينية وجدتْ فارسها الهمام؛ وسيم، أنيق، حلته السوداء تزيده رقيًا وفخامة..

"الدوق" خاصتها، ساحر التعويذة وكاسر لعنة انطوائها ووحدتها..

عيناها تتنقلان بين وجهه، ابتسامته الغامضة التي تبعثرها، وكفه المحاوطة لكفها بينهما في المقعد الخلفي..

ساعتين وتسللتْ رائحة اليود لأنفها، البحر ورهبته في ظلمة الليل، عند أحد مراسي اليخوت بالاسكندرية توقفتْ السيارة..

ابتسم يخبرها أن تنتظره للحظات وترجل يقابل أحد رجاله الذي بادره، يناوله مظروفًا:

- كله تمام يا عمار بيه، اليخت جاهز للرحلة، دي التصاريح.. وألف مبروك..

أومأ للرجل ودار يتجه إليها، يفتح بابها، ويستقبلها قربه..

يغزوها.. يحتلها بحضور وعطر ونظرة تداهم عقر دار قلبها فتهلكه..

يتقدم معها تجاه المرسى، إلى يخت محدد يحمل اسم عائلته، رمقته بدهشة جاوبها بسكون.. كان قليل الكلام تلك الليلة..

لغة جسده كافية..

عيناه أكثر من كافية..

عند الممر الخشبي الضيق وقبل خطوة زائدة تفاجئتْ به يميل ويرفعها بين ذراعيه، طوقتْ عنقه بحياء واستندتْ إليه.. يهبط إلى يخته وينزلها على قدميها، يتأملها فيُسقط خافقها في غرامه ألف مرة.. يهديها همسه الدافئ:

- شهر عسلنا هيبتدي..

ابتسمتْ بخجل ولم تفهم مقصده إلا حين أشار نحو قمرة منخفضة:

- تحت هتلاقي كل حاجة، غيري الفستان على ما أطلع باليخت..

مشيرًا لقمرة القيادة في الأمام، استغربت كلماته ولم تقاوم السؤال:

- بتعرف تسوقه!..

ببساطة كان رده:

- طبعا..

انتظر حتى هبطتْ للداخل بالفعل، حائرة.. شاردة، فهو حتى الآن كل ما فعله أن منح جبينها قبلة مخطوفة فحسب!..

شعرتْ بالقارب يتحرك، يشق سطح الماء ببطء قبل أن تتسارع وتيرته رويدًا رويدًا.. تنهدتْ بزفرة حارة وتفحصت المكان حولها..

قمرة راقية كعادة كل ما يخصه.. بها فراش عريض، حمام جانبي لمحته من فرجة بابه.. وعلى اليمين مطبخ صغير إلى جواره جلسة مريحة وطاولة طعام..

كررتْ تنهيدتها وسحبتْ حقيبتها تفتحها، تنتقي غلالة ليلة زفافها التي ابتاعتها وهي تدرك أنها ستعجبه..

فتحتْ سحاب الثوب من الأعلى، مدتْ يديها من الأسفل تسعى لجذبه، لم تصل إليه رغم الإصرار، تأوهتْ بضيق وجاهدتْ مجددًا حين شعرت بأنامله تلامس بشرة ظهرها..

انتفضتْ شاهقة تلتفتْ إليه، هي لم تشعر بوقع خطواته، ثبتها في وقفتها دون استدارة، اقترب يهمس في أذنها بمكر:

- خايفة من إيه!.. مافيش غيري أنا وأنتِ..

مرر أنفاسه بطول عنقها وكتفها الذي أزاح عنه الثوب بتلكؤ:

- جيت أساعدك..

ارتجفتْ مع لمسته.. أصابعه تشد السحاب بتمهل، سبابته تتبعها بمرور خبيث.. ترتعش.. تتباعد..

وتتوتر بخجل عذراء حتى وإن تخطتْ الثلاثين..

أدارها إليها يحاوط خصرها.. يطيل النظر، يقتحم أعماق عينيها، يهديها سقوطًا يسحق مقاومتها بحدقتيه، يُتبعه بسقوط الثوب حول كتفيها.. يقترب..

بصره يتركز على شفتيها، بصرها معلق به..

في توقع.. في انتظار.. في توق..

توق أنهاه بقبلة!..

وقبلة "عمار الديب" كعينيه.. كابتسامته..

قبلة لا يجوز سردها..

هو ابتلعها بين شفتيه، اختطف أنفاسها..

ليس ابتلاع رجل جائع لامرأة؛ بل كان كدوامة اصطدم مدها بجزرها في عراك مباغت..

دوامة دارت بها قبل الغرق..

**

هي أنثى تعشق الدلال، لم تعتَد أن تبخل على نفسها برغبة..

ورُب صدفة جمعتها بصغيرة باكية أفضل من ألف موعد مخطط له مع زوجها الجذاب..

سار كل شيء كما أرادتْ؛ حُدد يوم السفر.. حضرتْ حاجياتها وحاجيات طفلها ودنياها بأكملها "آدم".. ونهبتْ الطريق نهبًا إلى الفيلا خاصتها بـ"سهل حشيش"..

في اليوم التالي أتيا.. ثم بعد ترحيب تراه يستحقه، بدأتْ خطتها في امتلاكه..

مر يومين آخرين، وبداية رابع.. تركتْ ابنها المتعجل للعب معه على الشاطئ وارتدتْ ثوب سباحة أرجواني تناقض مع عاجية بشرتها بفتنة، رمت حول جسدها مئزرًا شفافًا لا يكاد يخفي شيئًا، وخرجتْ إليهم تتهادى بخطوات بطيئة، تأملتْ صديقتها باعتبار الاستغلال باستغراب رافض ثم بادرتْ:

- مش معقول يا ميري، مش هتنزلي البحر النهاردة كمان!..

هزتْ "ميرهان" كتفيها برفض:

- لأ.. ماليش في البحر قوي..

لاحظتْ "نيروز" هروب عينيها وحمرة خجلها فابتسمتْ بعبثها المعتاد تحثها:

- لأ.. كده بنتدلع، البحر تحفة في الوقت ده وهتندمي لو مانزلتيش..

ودفعتها بمشاكسة:

- ها.. معاكِ مايوه ولا أجيبلك واحد من عندي!..

رأتْ الخجل يحاصرها مع إصرارها، لمحت اختلاسها النظر بطرف عينيها نحو الزوج الذي كان يتابع الموقف في صمت بينما تجيب:

- سوري يا نيروز؛ حقيقي مش هينفع.. ماتعودتش ألبسه قدام أي حد..

رفعتْ "نيروز" حاجبًا متلاعبًا:

- إممم.. لا، هو شكلنا كده موسى بيغير..

وغمزته بمكر:

- قولها إن مافيش غيرك هنا..

حرك "موسى" كتفيه بنفي:

- هي اللي رافضة أنا ما اتدخلتش..

صمت لحظة طافت خلالها عيناه بالمكان مردفًا بحزم:

- بس هي كمان فاهمة دماغي..

مع آخر كلماته التفتَ يرمقها بنظرة غامضة لم تفهمها، نظرة وجودها غريب في مقلتي رجل تجاه زوجته..

نظرة بها أمل!..

شاهدتْ خجلها يتضاعف..

هروبها وانضمامها لـ "آدم" الذي كان يلعب بالرمل، تجلس بجانبه، وتشاركه اللعب بمتعة، تقبل خصلاته الناعمة ثم تشعثها، وتداعبه وكل ما فيها يشع سعادة..

ظل هو يراقبها لبعض الوقت بشرود، و"نيروز" تتمدد فوق مقعدها باسترخاء لتراقبه هو!..

عندما نهض طفلها كي يعود للبحر قرر بديكتاتورية أن يأخذ محله، خطا إليها يجاورها، وهي في خلفية المشهد تتابع بفضول..

بسماتها الخجول، فرار عينيها، ثم عقدتْ حاجبيها عندما أخرج هاتفه يلتقط صورًا عديدة للبحر انتهتْ بصورها هي..

ببراءة ملامحها وفوضى تفاصيلها..

مطتْ شفتيها باستخفاف.. هو ليس برجل عاشق، وتتحداه شخصيًا في ذاك؛ لكن به شيء غريب لا تفهمه، وتصر أن تفعل!..

شاهدته ينهض، يخلع قميصه، يعدو تجاه المياه ويقفز بلا تردد..

يسبح لوقت ليس بالقصير، يخرج بعده ويمازح زوجته بالقطرات المتطايرة من خصلاته الطويلة بعض الشيء..

سحب منشفة من مقعد إلى جوارها يجفف جسده واتجه عائدًا إلى الفيلا تحت وقع مراقبتها..

كانت تراقب الصورة بإعجاب صريح لا تبذل جهدًا لتوريته، تتأمله بشغف منذ لحظة نزعه للقميص، استقامتْ تتبعه بحجة ألقتها على مسامع تلك التي عاد صغيرها لصحبتها:

- ميري.. نسيت الصن بلوك، هاجيبه من جوا عشان أنزل الماية..

أشارتْ لها "ميرهان" بعفوية لم تلمحها حتى.. فكل أفكارها وجوارحها كانت مركزةً حول ذلك الذي سبقها للداخل!..

التقطتْ العلبة من على طاولة تجاور الباب في طريقها وخطتْ خلفه إلى المطبخ المفتوح، وقفت عند المدخل كأنما تحتجزه داخله، تتأمله يتجرع بعض الماء المثلج من المبرد وبعض منه يسيل حول فمه إلى عنقه فصدره الذي لم يجف تمامًا بعد..

ضغطتْ شفتها السفلى بتوق أظهرته عامدة، تنحنحتْ باقتراب:

- موسى.. ممكن خدمة!..

وولته ظهرها ليكتشف عريه إلا من رباط رفيع، شدته فانفك بيسر!.. أسدلتْ مئزرها عن كتفيها، بينما تمد يدها إليه بعلبة واقي الشمس:

- ممكن تدهن لي صن بلوك!.. مش بعرف أعمل ضهري..

تجمد لحظة.. لاحظتْ صمته الذي عزته لمبادرتها بالخطوة الأولى، يشبه كل رجل؛ يريد أن تكون كل الخيوط بيديه.. خاصة خيط البداية!..

سمعته يبتعد، يخبرها بنبرة جافة:

- ميرهان برا.. روحي لها..

كما خمنت!.. تنهدتْ بقنوط ومطت شفتيها دون أن تتزحزح من مكانها الذي يحجم حركته:

- أوك.. ممكن طيب تعقُد لي رباط الكاش مايوه!..

زفر بضيق متأفف، مسح وجهه بكفه في حركة سريعة قبل أن يمد يده، يعقده لها بعجالة بلا لمسة واحدة.. شعرتْ بإحباط فاستدارتْ تواجهه وقد قررتْ أن الهجوم خير وسيلة للامتلاك..

تأملتْ ملامحه الخشنة برجولة جذابة، زمة شفاهه شبه الغاضبة وعينيه..

عينيه اللتين كانتا أول ما لفت نظرها إليه، دققتْ فيهما بدلال قبل أن تهمس بنعومة:

- موسى.. حد قالك قبل كده إن عيونك خطر!..

- نعم!..

تصدمه ثانيةً، خاصة بعد نصف خطوة كادتْ تلصقها به:

- أيوة.. لونهم يخطف..

ومالتْ برأسها ويدها تتخلل خصلاتها بإغواء:

- فيروزي زي لون البحر في الشتا، مافيش مصيفين.. نقي من غير شوائب..

راقبت استنكاره بحدقتيه، استنكار خالطه إعجاب!..

نعم.. هو ككل ذكر من حقه الانتفاخ بإعجاب امرأة، وهي أكثر من بارعة في العزف على ذاك الوتر.. هي خبيرة!..

جددت صدمتها له باقتحام ويدها تلامس كتفه، تتجول حوله بغنج:

- قولي.. أنت أكيد رياضي صح!..

لم تنتظر جوابه، أكملتْ مناوشات أصابعها فوق بشرته، تتسلل إلى صدره فتلامس عضلات بطنه التي تشددتْ تحت لمستها، حتى وصلت لحافة لباس البحر خاصته فقبض على كفها بقسوة..

كان متجمدًا للحظات وكما يبدو غير مستوعب لجرأتها واقتحامها..

ضغط أصابعها بقوة آلمتها فتأوهتْ بعتاب:

- مش المفروض تعامل أي ست بالعنف ده على فكرة..

لم يتراجع، بل زاد من ضغطته بعنف أكبر، أبصرتْ في عينيه النفور والتحذير أيضًا:

- بيتهيألي إن ميرهان صاحبتك ولا أنا نسيت!..

أنَّتْ بوضوح في محاولة لسحب يدها من قبضته:

- موسى، إيدي..

تركها دفعة واحدة بنظرة جامدة، فرَكتها بألم:

- أنت قفوش قوي كده ليه!..

وهزتْ كتفيها بتبرير مغيظ:

- أنا وميري يادوب اتعرفنا من حوالي شهر ونص..

استنكر مكررًا كلمتها:

- قفوش!..

لاحظتْ سكونه، شروده، تفكيره وتقسم أنه الآن يعيد ترتيب أفكاره.. ابتعد خطوة ونظراته لم تتخلَ عن العنف واللسان يحذر:

- ابعدي عن ميرهان.. اتحججي بأي حاجة وماتخليناش نشوفك تاني، وإلا مش هاعرف أضمن تصرفي معاك..

ثم تركها، تناول قميصه من فوق الأريكة وارتداه بينما يعود للخارج، غضبه سكن ملامحه، ضيقه مما حدث وصل لأقصى مدى..

وكانت هي تلاحظ ذاك كله وتتابعه بنظرة مبهمة..

حسنًا.. ستعترف، ليس برجل سهل.. يحتاج لالتفاف حول المدخل المباشر، لكن في جميع الأحوال هو له بابه.. وهي ستكسره..

خطتْ حيث الجلسة لتسمع كلماته.. هروبه!..

"طيب جهزي الشنط"..

واعتراض الصغيرة بنبرة حزينة..

"دلوقتِ!"..

تدخلتْ تقطع عليه الطريق بخبث:

- شنط إيه!..

لهجتها مستنكرة كذلك ونظرتها تخبره ألا مهرب.. هل يظهر الشرف أم أنه شريف بالفعل!..

لكل رجل مدخل كما سبق وقررت وهي لم تعتد اليأس.. أو الهزيمة!..

بادرتْ بحسم متسائل:

- أنتوا ناويين تسافروا النهاردة ولا إيه!..

جاورت "ميرهان" في مقعدها بعرضٍ مغرٍ:

- على فكرة الليلة في مجموعة من أصحابي جايين مخصوص، وفي حفلة وباربكيو.. وقت لطيف مش المفروض تفوتوه..

شعرتْ بحيرتها فتركتها له، كانت رغبة "ميرهان" في البقاء وخاصة مع عرضها تلوح في عينيها وبشدة، رأتها تكتفي بهزة كتف حائرة:

- موسى عاوزنا نسافر دلوقتِ.. مش عارفة..

تأملتها "نيروز" بصمتْ قبل أن تتوجه بنظرها إليه ونبرتها المتلاعبة لا يفهمها سواه:

- مستعجل ليه يا موسى!.. في حاجة ضايقتك!.. ده حتى المكان يجنن..

التحدي بتحدٍ كما يبدو؛ ونظرته الساخرة التي وجهها لها خير دليل:

- خالص..أنا مافيش حاجة ممكن تضايقني..

مع تأمل أخير لوجه تلك البريئة التي لا تفهم ما يدور حولها وفقط تنتظر قراره بشدة وبأمل طفولي؛ قرر:

- خلاص.. خلينا نمشى بكرة الصبح..

تنهدتْ زوجته، ارتاحت ملامحها بغبطة.. في حين ابتسمتْ "نيروز" باستخفاف مع كلماته ونظرته التي وجهها للغافلة عن الحرب الباردة بينهما.. استقامت بغتة تخلع المئزر، تمر من أمامه بتعليق أخير:

- هايل..

وركضتْ فوق الرمال الناعمة تلقي بنفسها بين الموجات الزرقاء الصافية باستمتاع غريب..

هي تدرك أن له ثغرة، كلهم يمتلكون واحدة..

وإن أرداته عليها فقط أن تفتش بهمة أكبر، وتُغير تكنيك البحث!..

**

الألم؛ إعصار أهوج يجتث جذور القوة من باطن الروح..

الخوف؛ عاصفة تقتلع السكينة من القلب، تفصم عنقها بمقصلة حادة باترة.. والفقد؛ هو ضربة النهاية التي تجهز على النفس..

الحياة يمكن أن تنتزع منك كل شيء في طرفة عين، باستطاعتها أن تقتلك في اليوم مائة مرة، وتحييك مائة مثلها لتستأنف عذابك بعد كل منها..

الحياة مسلسل قاسي لا يرحم، كما أن الموت ليس النجاة إلا لو وثقنا مما يليه؛ وذاك هو المستحيل..

عشرة أيام مرت..

منذ بقيت وحيدة بمشفى فقير، أجبروها على الخروج منه إثر عدة ساعات عقب نزيف مرعب، تحمل معها حقيبة ثياب صغيرة، دون مأوى أو ملجأ تختبئ بين جدرانه..

وشيطانها!..

كان هناك يتربص لها، لم يتركها.. سارتْ بصحبته تترنح لا تعلم إلى أين تقودها قدماها!.. إلى أين يذهب بها هو!.. وحلقها الجاف لا يكاد يسعفها بكلمة واضحة..

كانت مُسيرة تمامًا معه..

سحبها إلى سيارته، ومنها إلى مبنى في منطقة هادئة تجهل معالمها، ثم شقة أنيقة فتح بابها وتقدمها يدعوها للدخول:

- تعالي يا ليلى..

أهدته نظرة متعبة فاقدة لكل تركيز تعوزه اللحظة، ابتسم يطمئنها:

- ما تخافيش، أنتِ من النهاردة مش لوحدك..

كأنها تريد أن تكون معه!..

هي وحيدة في هذا العالم، خائفة، مذعورة، وأمنية الموت تحلق فوق رأسها في كل حين..

خطت للداخل بتعثر، عندما سمعت صوت انغلاق الباب انتفضتْ.. استدارتْ نحوه لتجده يقف خلفها بذات البسمة التي ترعبها:

- إيه المكان ده!..

تمتمتْ بها في حشرجة واهنة، تحرك يتخطاها، يحمل حقيبتها لغرفة جانبية ويعود بجواب بسيط:

- دي شقة كنت أجرتها لما اتخانقت مع هالة من كام شهر وسيبت لها البيت..

لم يخبرها أنها مخبأه الخاص والسري للغاية..

مخبأً يخصه وحده، فلم تلوثه إحدى عاهراته.. لم يأتِ بنسائه بها سوى مرتين مضطرًا، وهي الثانية منهما:

- كلمت واحدة بتيجي تنضف في العمارة هنا وجهزتها لك، هانزل أجيب لك شوية طلبات واعتبريها بتاعتك..

تراجعتْ خطوة تحتج بهزة رأس حائرة، مشتتة، ضائعة:

- لأ.. أنا لازم أمشي..

اقترب خطوتها، وثانية فثالثة حتى واجهها.. بل حاصرها وباب المنزل في ظهرها:

- تمشي تروحي فين!.. المكان اللي كنتِ فيه طردوكِ منه، وأنتِ تعبانة ولسه خارجة من المستشفى..

ثم تردد لحظة يتأمل ارتباك ملامحها، سحرها الذي رُغم الشحوب لم ينقص مثقال هفوة.. شعرها بعدما غيرت لونه لكنه ناسبها بفتنة آسرة:

- كنتِ حامل!..

رفعتْ إليه عينين باكيتين وهمستْ باختناق:

- ابنك..

ابتسمتْ بتيه مرير، تتذكر كلمات زوجها المطعون في عشقه وشرفه:

- حملت على اللوب؛ عشان قدري خطيئتي تفضل قدام عيني طول عمري..

وجم لثوان يخضعها لتدقيق بعث بقشعريرة باردة في كيانها كله، قرر التسلل من باب نفسها الخلفي؛ فالأبواب الخلفية دائمًا بلا حراسة:

- ليه ما كلمتنيش!..

وهنها تضاعف وبسمتها تتبدل لساخرة تفيض بمذاق الحنظل:

- كنت هتعمل إيه!.. هتعترف بيه!..

بلل شفتيه بتفكير قصير، لا يسد في وجهها باب أمله وبذات الوقت يقطعه:

- على الأقل أكون جنبك، آخد بالي منك..

تحركتْ بعشوائية متعبة، تريد الهروب.. الابتعاد.. تشتهي مغادرة الكوكب بأكمله وبمن فيه:

- أنا لازم أمشي..

قبض على ساعدها يثبتها في مواجهته:

- ليلى فكري كويس؛ هتروحي فين!..

انتزعتْ يدها من بشبه صراخ:

- ما تلمسنيش..

رفع كفيه بتسليم مطمئن يهدئها:

- خلاص.. آسف، ممكن تهدي!..

وشرح بينما دموعها تنساب بلا حساب لتغرق وجنتيها:

- الشقة دي اعتبريها بتاعتك، وأنا جنبك لحد ما تقرري هتعملي إيه.. أنتِ تعبانة دلوقتِ، ارتاحي، بعدين قرري..

تجاوزها يفتح الباب، يغادر بأمان أخير يناسب سقوطها بجُحر ضارية ينتظر التهامها بالكامل في الوقت الملائم:

- أنا هامشي، هاجيب لك شوية حاجات للبيت ومش هاضايقك، بس لو احتجتِ حاجة كلميني فورا..

واختفى من أمام ناظريها.. تركها وحدها كما قال؛ فصدق!..

من يومها وهي بهذه الشقة وحيدة، لا تدري ما تفعل، تجاهد للوقوف على قدميها.. تحارب أشباحها وتقاتل بهزيمة متجددة في كل يوم..

تفكر في مأوى.. في عمل..

في نجاة محتومة وإلا نهاية..

تتساءل بتعب؛ كيف تعيش الأشباح يا تُرى!..

كان يرسل إليها باحتياجاتها مع سيدة تأتيها لتنظيف البيت، أدويتها، بل حتى ابتاع لها ثيابًا وتركها على باب الشقة قبل أن يهاتفها ويعلمها عن وجودهم..

شيطانها يوسوس، يتسلل، يسعى لفرض سلطته على عقلها، يخطط لإخضاعها.. وهي لا تمتلك طاقة البحث عن مكان آخر بعد، لكن يكفيها سقفًا يظللها حتى حين!..

أنهتْ حمامًا دافئًا وخرجتْ ترتدي مئزرًا خفيفًا، تجفف خصلاتها المصبوغة وكل جوارحها تسايرها حتى تسترد عافيتها بالكامل وتقرر وسيلة الاستمرار..

رفعتْ المنشفة عن وجهها ووجدته!..

بغرفة نومها، يجلس على طرف الفراش، يتأملها بعين تنهشها.. عين أرعبتها فشهقتْ وارتدتْ صارخة بهلع:

- أنت بتعمل إيه هنا!..

استقام يتحرك إليها، يقترب وتبتعد.. يحاصر..

يكبلها بكل أغلال ممكنة وغير ممكنة، ترفع يديها لتوقفه بينما يجيبها:

- إيه يا لولو!.. أنتِ ناسية إن ده بيتي!..

- خليك بعيد يا راجح..

لم يستجِب فركضتْ تهرب منه.. ركضها أشبه بفرار فريسة شاردة، جريحة، تنزف.. ونزفها يُزكي اشتهاء صيادها..

لاحقها يحبسها قرب جسده، يضمها، يطوق خصرها ويتراجع بها حتى الفراش:

- مابقاش ممكن أبعد يا ليلى..

يسقط فوقها ويده تحل حزام مئزرها بهوس:

- أنتِ ليَّ مهما حاولتِ تهربي..

انحنى يدفن وجهه في منحنى عنقها متجاهلًا مقاومتها، صراخها الأبح وضعف قواها، فلم تكتمل عافيتها بعد:

- ما تتخيليش العشر أيام اللي فاتوا عدوا عليَّ إزاي وأنا متخيلك نايمة في سريري..

لم تكتم صرخاتها لكنه أطبق على فمها بفمه يحبس أنفاسها، مزيج عريها مع رطوبة الماء الذي لم يجف عن بشرتها يشعل جنونه، يؤجج ثورته ويحرقه:

- بحبك يا ليلى، بحبك..

لم تتوقف عن المقاومة.. عن الركل، والصراخ وهو يغُل رسغيها بيده.. عضتْ شفته حتى شعر بدمائه فدفعها ونهض يحررها بأنين غاضب:

- أنتِ اتجننتِ!..

ضمت سترها حول جسدها تتغافل عن نظرته التي تلتهمها بنهم مقزز:

- اطلع براااا..

سقطتْ تصيح بها، جمد بمكانه يمسح دمه:

- ليلى أنتِ محتاجة تحسبيها صح..

ودق الأرضية بحذائه في ثبات:

- ده بيتي، وأنتِ عايشة فيه.. باصرف عليكِ ومخليكِ مش محتاجة حاجة..

ثم ابتسم بشراسة تليق بوحشيته:

- إيه!.. هاعمل كل ده مجانًا!..

كانت منهارة حتى النخاع، ساقطة على الأرض قبالة الفراش، تحت قدميه.. مهانة، ذليلة، مكسورة ومُنتهكة.. جلس القرفصاء يواجهها، يرفع عينيها إليه، يتحكم بذقنها ويجبرها على حرب ليستْ أهلًا لها مع واقعها:

- ده مصيرك، مش محتاجة ذكاء ولا حسبة طويلة..

نفضتْ يده وابتعدتْ بانهيار تنكمش على نفسها بهوان، لم يرحمها وهو يفرد تحت سمعها وبصرها حقيقتها:

- لو مش أنا هيبقى غيري، هتتنقلي من سرير لسرير مع كل راجل شوية..

- اخرس..

صرختْ بها ويدها ترتفع في محاولة لصفعة لم تكتمل، قبض على معصمها وضغطه بقسوة كادتْ تحطمه، آلمها فتضاعفتْ عبراتها:

- الحقيقة بتوجع مش كده!..

جذبها قربه حتى شعرت بأنفاسه تلفحها، تقلب معدتها، تؤذيها:

- على الأقل كنتِ معايا؛ جربتِ وعارفة أنا ممكن أخليكِ تحسي بإيه!..

وحاوط وجهها بكفيه، يسيطر على أفكارها، أفق عينيها، يحتل كل ثوابتها ويهدمها فوق رأسها مرارًا وتكرارًا..

يزرع في عقلها أفكاره، توقه، اشتهائه..

يحفر بكيانها أنها عاهرته..

ينهي حديثه بقبلة خانقة قاومتها لكن قوته هزمتها..

ينهض يرمقها من علو، يخبرها عن وقت..

ثلاث ساعات، ينهي خلالها عملًا عالقًا.. بعده يعود إليها..

يغمزها برغبة سافرة ونظرته تخلع عنها ما ترتديه بجوع.. ثم يعرض أمنيته؛ يريد منها.. بل يأمرها في ثوب طلب..

أن تنتظره حتى عودته بفراشه..

عارية!..

(14)

لكل بضاعة ثمن؛ ودومًا هناك من يدفع أكثر!..

**

لا شيء مجاني في هذه الحياة.. لكل مَنح مقابل، ولكل عطاء ثمن..

هو أخبرها ثمن عنايته بها؛ ببساطة عليها أن تصبح عاهرته الخاصة.. عاهرة بمسمى عشيقة والسقوط في بئر محرماته مباح مادامت لا تملك ما تحيا به أو له.. إذًا لتنغمس في أوحال آثامها وصولًا للنهاية..

غادر منذ ساعة، كانت بذات الجلسة مكومة على الأرضية بمئزرها المبتل وجسدها المنتهك..

هي من وهبته صك الانتهاك، من أسقطت نفسها في براثنه؛ وكل ما فعله كان تتمة منطقية للمعادلة الكارثية..

أنتِ محض عاهرة "ليلى"..

زحمة أفكارها تكاد تقتلها، تشلها لمكانها، تكبلها وتُسور عقلها بسور عالٍ من الخوف والضعف، كل جوارحها عاجزة عن رد فعل مناسب، حواسها مشلولة، وإدراكها ضائع..

يعلو دوي كلماته بأذنيها قبل رحيله بصخب مريع.. كألف قنبلة تنفجر برأسها.. تفتتها، تحيلها لرماد.. تسعى لقتلها ثم تتركها على أطراف مدينة الموت..

لا تعبر بها حدود الخلاص، ولا تتركها تجد لشتاتها موطنًا..

تسحبها لخارج مقبرة روحها.. وتعيد الذبح..

"إيه!.. هاعمل كل ده مجانًا!"..

"ده مصيرك، مش محتاجة ذكاء ولا حسبة طويلة"..

"لو مش أنا هيبقى غيري، هتتنقلي من سرير لسرير مع كل راجل شوية"..

"أنتِ بالنسبة للعالم كله ميتة"..

"مالكيش عيلة ولا أهل ولا حد يهتم بيكِ.. غيري!"..

"أنا وبس"..

"ولو رفضتِ تدفعي التمن؛ يبقى تشوفي حد تاني تعيشي على قفاه"..

"احسبيها صح يا ليلى"..

"اعرفي مين في ضهرك وواخد باله منك وبيحبك"..

"معقول مش عاوزاني أعرفك بحبك قد إيه وأثبت لك إني أقدر أسعدك!"..

"أنتِ من غيري هتضيعي، عيشي في حضني ومش هابخل عليكِ بأي حاجة تطلبيها"..

"راجل واحد وجربتيه مش مِيت راجل تلفي عليهم عشان كام جنيه في الليلة"..

"أيوة.. مصدومة ليه!.. ما هو المومس بتقبض بالليلة"..

"وعلى حسب الزبون، اتبسط منها ولا لأ"..

"طبعا هناخد احتياطاتنا، مش هنكرر مشكلة الحمل تاني.. أنا مش هاطلق هالة ولا هاسيب ولادي"..

"فكري كويس، هانزل تلات ساعات وآجي لك تكوني رجعتِ لعقلك"..

بروق ورعود، عواصف وأعاصير، حمم براكين ثائرة..

هي تحترق.. تموت في الثانية الواحدة عدة مرات..

تفقد نفسها وتضيع وتعود وتغيب وتصحو لتفقد كل وعي ممكن.. تنزلق مع كلماته إلى قاع الجحيم، والويل لها لو احترقتْ بنيرانه مجددًا.. هنا الموت أكثر هونًا عليها من أن تخضع لغواية شيطانه..

زلتْ مرة لكنها لن تكرر الزلل، كبوة جوادها لن تُعاد..

الحياة ثمنها بخس في مقابل الإثم..

استقامتْ بتعثر، تفتش عن ثياب ترتديها؛ فلن تنتهي عارية، توجهتْ للمطبخ المفتوح عبر ردهة الاستقبال..

وترددت!..

الآن هي تخرج من حفرة خطيئة لتقع في منحدر جُرم أعظم..

لكن كيف النجاة وكل الطرق مغلقة!..

كيف الخلاص وجدران الخطايا ملساء يستحيل تسلُقها، بل وأعلى من تخطيها!.. كيف تتطهر وهي غارقة في أوزارها!..

إما هو أو ألف سواه، والاثنين عذاب القتل أهون منهما.. انسابتْ دمعة باهتة فوق وجنتيها، وصورة حبيبها وطفليها تقتحم عقلها كأنما تثنيها عن قرارها الأهوج الذي لا مفر منه..

عندما نرتطم بحضيض اليأس نتهشم لشظايا، ومن بين الحطام لا يمكن أن تولد حياة..

عند اسطوانة الغاز توقفت، دقائق أخرى من تفكير باهت، محاصَر، مختنِق ثم خلعتْ الأنبوب الموصل للموقد، فتحتها عن آخرها وتراجعتْ، لن تحتاج لأكثر من ساعة وعودته بعد اثنتين..

ترتجف.. كل دواخلها تنهار بسرعة كمبنى نَسَفَ أساساته ديناميت خادع.. صور حياتها تتابع في ذهنها بخبال، باختلال..

ابتلعت قرصين من منوم ألفته مؤخرًا، وخطواتها قادتها ثانية إلى غرفة النوم؛ كان يريد منها انتظاره بالفراش عارية..

حسنًا..

ستكون بالفراش، لكن مجرد جثة!..

.....

وسوسة الشيطان ليست دومًا أرض الهفوات الزلقة؛ ففي هذه الرواية يقوم هو بدوره على أكمل وجه.. والدافع شهوة الدنيا وزينتها..

امرأة!..

ساعتين وخمس دقائق عاد بعدها، أنهى عمله العالق في ساعة، ترك لها واحدة تالية.. ولم يقاوم العودة باكرًا وخياله يتمحور حول كل لذة يمكن أن ينالها فوق جسدها..

توقف أمام باب شقته، مد يده بالمفتاح وتسللت الرائحة لأنفه..

من الداخل!..

ثوان محدودة كانت كافية لاستيعاب الصورة، الملعونة قررت الهروب بالموت.. والموت في بيته كأنما تشركه في جريمتها..

فتح الباب برفق، لم يغلقه ولم يحاول إشعال أي ضوء أو العكس.. هرول تجاه غرفة النوم، لمحها محمرة الوجه مختنقة فوق فراشه الذي تصورها ستكون بانتظاره بين شراشفه في لوحة إغراء متكاملة تناسبه.. إلى جوارها شيء من قيء واضح، وصدرها بالكاد يتحرك!..

كتم أنفاسه وخطا للمطبخ يحكم إغلاق الاسطوانة، فتح كل النوافذ بأكبر قدر من الهدوء وركض إليها.. مسَّ وجنتها، ضغطها وناداها لكنها كانت فاقدة لوعيها بالكلية، لم يدرِ ماذا يفعل!.. ظل يسُبها وهو يحملها إلى سيارته ثم يقود لأقرب مشفى..

هناك تم إسعافها بعجالة، وإن ظلت في غيبوبتها المؤقتة بينما يكاد يُجن..

هل يغادر ويخلفها من ورائه ولتحترق في جحيمها تلك الحمقاء!..

أم يكرر الاستغلال وربما يفوز هذه المرة!..

شيطانه ظهر في الصورة يهلل للثانية، لكن الأولى كانت أكثر أمانًا.. ومن بين تضارب أفكاره وحيرته قرر بغتة الاتصال بأمها..

سيتخلص منها ويفوز بنقطة في رصيده عند السيدة!..

أمها التي جاهدتْ للوصول إليها ولم تستطع كما فعل هو بعد رحيلها عن بيتها بعزاء لتابوت فارغ.. وما جهله بهذا التوقيت أنها كانت بمنزله بصحبة زوجته وأطفاله، عندما جاوبته حائرة همس لها عن وجود ابنتها الكبرى بالمشفى، ثم طلب منها تكتم الأمر حتى عن أختها..

وهي فعلتْ، رحلتْ بلهفة أثارت فضول الأخرى وشكوكها.. فتبعتها!..

وصلتْ الأم للمكان وقلبها يختلج بين ضلوعها بوجل، دلفتْ للغرفة تتأمل وجه صغيرتها.. تلامسه بحنو ووهن ودموع وألم..

تود لو ضربت رأسها بجدار وحطمتها.. تود لو ضمتها..

تود لو طوتها تحت جناحها أو حتى أعادتها لرحمها حيث الأمان من وحشية كل مستغل، حيث النقاء والبراءة والطهر..

كانت لم تستفِق بعد، انحنتْ تلثم جبينها بقبلة وعبرة ثم خرجت إلى المنتظر بالخارج، المشهد من زاويتها يحتاج لخاتمة..

وقفت تواجهه للحظات صامتة أنهتها بصفعة مباغتة برقتْ لها عيناه بغضب.. زم شفتيه وضم قبضتيه يضغط أسنانه، يكبت رد فعل لا يليق بكونها والدة الزوجة المصون، كانت هي تنظر إليه بكره.. بغل ورفض ووجع:

- أنت السبب في كل اللي هي فيه..

- يا حماتي أنا...

- أنت تخرس خالص..

وتراجعتْ خطوة.. تترك لعبراتها عنان الانهيار، تصيح به ونبرتها مشروخة خائفة متوجسة:

- احكي لي اللي حصل، كانت معاك فين وإيه اللي حصل بينكم تاني!..

بادر ينفي عن نفسه تهمة التكرار:

- ماحصلش حاجة بينا، هي تعبت وكلمتني وطلبت ما أقولش لحد، أجرت لها شقة ولما تحتاج حاجة كنت بابعتها لها، لقيتها بتكلمني النهاردة بتقولي عاوزة تشوفني ولما رُحت لقيتها موتت نفسها..

وأباح لنفسه إعلان السخط بكذبة:

- بنتك كانت هتوديني في داهية، أنا فهمتهم هنا في المستشفى إنه تسريب مش انتحار عشان السين والجيم..

استدارتْ ترمق الباب المغلق بنظرة واهنة.. عادتْ إليه بامتعاض رافض، تشير ليتبعها بأمر صارم:

- تعالى نقعد في حتة نتكلم..

بمقهي المشفى تواجها، شفتاها ترتجفان، نظرتها توشك أن تقتله، حانقة، خائفة، وقبضة وحشية تعتصر خافقها المشفق على ابنتها التي خسرت كل شيء في طرفة عين.. في جُرم هو الأكبر لكن توبته بين البشر غير مقبولة، دنسه باقٍ أبد الدهر..

ابنتها التي ماتت على قيد الحياة؛ كأن ما تعيشه حياة!..

بدأتْ حديثها تجلي صوتها، ترمقه بحزم وتُدلي بسلسلة من الأوامر لن تقبل سوى بتنفيذها:

- هتشوف لها مكان كويس تقعد فيه، ورقها اللي ينفعها في شغلها هتوفره، وأنا هافتح لها حساب هاحط لها فيه كل فترة مبلغ لحد ما تلاقي شغل وتعيش حياتها..

ضربتْ الطاولة بكفها وأنين فؤادها يمزقه بين جوانحها:

- زي ما وحلتها الوحلة دي هتطلعها منها..

زفر بضيق وخلل خصلاته بأصابعه:

- تفتكري الورق ده هيفرق معاها في حاجة!.. بنتك ميتة في نظر ناس كتير، مش هتعرف تلاقي شغل وطليقها عامل لها عزا يليق باسمه..

تمم كلماته.. يسطر الواقع والحقيقة تحت عينيها وعلى مسامعها بسخرية رسمت الوجوم فوق ملامحها قبل أن تعقد حاجبيها وتصر بعزم:

- وفر لها الورق ومالكش دعوة بيها بعد كده، وقسمًا بالله يا راجح لو اتعرضت لها تاني هاعمل لك أنا عزا يليق بيك..

هزأ باستخفاف غير مكترث:

- وكان فين الكلام ده وجوزها بيموتها بالحياة!..

استقامتْ ترحل عنه ولهجتها القاسية تختم المشهد:

- بعد اللي عملتوه في بنتي مش هاسكت، كفاية أبوها الله يسامحه..

هي أخيرًا وجدتها، ومن الآن ستحميها مهما كان الثمن!..

توجهت عائدة للغرفة بخطوات سريعة لا تناسب تجاعيد عمرها، تتمنى فقط أن تفيق وتعتني بها..

لكن الصدمة حين وصلت كانت في انتظارها!..

الصغرى في مواجهة أختها المستيقظة.. الباكية بصمت، تطلق على قلبها وروحها رصاصاتها بلا رحمة..

"ليه ما موتيش وريحتينا!"..

"بتكلمي جوزي تاني ليه!.. عاوزة منه إيه!"..

"ابعدي عننا بقى"..

"هالة!"..

زعقة واقتراب، وصفعة تتكرر فوق وجنتها كما زوجها.. الطيور على أشكالها تقع، وبلهائها يلائمها الثعبان المربوطة إليه.. أمر ونهي وخيبة:

- اطلعي برا وإياكِ تتعرضي لأختك تاني..

أشاحتْ "هالة" بذراعها دون أن تلمح الزوج الذي أتى من خلفها بصدمة:

- بنتك نامت مع جوزي، بتقفي في صفها ضدي!..

- برااا..

ذبحتها بنظرة ميتة واستدارتْ للواقف بالممر في مواجهتها.. ترى بجانب عينها والدتها تقترب من الفراش، تضم شقيقتها، تمسح على رأسها وتجفف دموعها..

تقبلها وتهمس لها بما تجهله..

أهدته هو تأملًا يائسًا حزينًا وصوتها تجاهد لتلبسه رداء الغضب؛ هي بهذه اللحظة مطعونة في مقتل، تنزف الحياة من جرح غائر بمنتصف قلبها..

"بتشوفها ليه تاني يا راجح!"..

همستها باختناق بتره في مهده وهو يدنو منها، يطوق كتفها بذراعه ويسحبها خارجًا من المكان.. يقص على أذنيها ونابضها ذات الحبكة المملة التي أخبر بها والدتها..

- لجأت لي يا هالة، ودي أختك.. حسيت بالذنب كان لازم أساعدها، ماكنتش أعرف إنها هتنتحر..

وأكمل وسوسته، تلا على عقلها تعويذة لعنته..

طوقها بسحر أسود لا ينتهي إلا بالموت..

أخضعها ككل مرة، اختلق لفعله مسوغه الذي أخرسها، وفي البيت أكمل إحكام سيطرته حول عقلها وقلبها وجسدها كمشعوذ ينتهج كل الطرق مادام سيصل إلى روما مع كلمة النهاية..

الشيطان يفوز في لعبة الشهوة، يزينها، يجملها.. يذلل العقبات في سبيل الوصول إليها..

وهي امرأة أَمة لعشقه، وله!..

**

لا أحد يتعلم درسه على هذه الأرض بالطريقة السهلة.. لابد من صفعة، وأحيانًا صفعات!..

صفعها العاشق.. صدمها أخيه، من وضعته في رتبة صديق عائد من غربته فكانت هي المنحة الودود في رواية وحدته..

لكنه استغلها وحسب.. استغلها مقتًا للأخ الأكبر الذي ربما كان على حق فلم يفتح ذراعيه مُرحبًا بود لاستقباله..

كانت تعلم موعد عودته المحدد ككل يوم من العمل.. هو يأتي باكرًا عن زوجها، وقررتْ أن تكون أول وجه يراه..

لمحتْ سيارته تعبر بوابة المنزل فوقفت تنتظره عند بداية الدرج الخارجي، ترجل منها والتقى بعينيها في نظرة جامدة تجاهلتها بينما

تهبط، تسير بضع خطوات حتى واجهته بكلمة واحدة حرصت على ثباتها:

- ليه!..

هي تعلم الجواب، تعلمه داخلها والزوج الغاضب قذفه على مسامعها بصراحة مؤلمة.. لكنها تود أن تسمعه منه وعيناها في عينيه..

هو ليس وحشًا..

هو ملعون بالوحشية كبطل الحكاية الخيالية، وتتمنى أن تنفك اللعنة وإن لم يكن الحب هو الهدف والوسيلة..

لكن رده الذي أتاها باردًا مباشرًا سحق ورديتها، فدون التفاف أو تورية غاص في عسل حدقتيها بنظرة سوداء مقبضة تراها منه للمرة الأولى وصوته يطغى عليه اللاشيء:

- The end justifies the means..

صفعة ثالثة..

التعبير المكيافيللي الذي مرره "يزن" من قبل عندما اتفق معها على مغامرتها الرعناء..

المبرر الحقير لكل خطيئة.. ووجع!..

أهدته نظرة حادة، غاضبة، ورغم كل شيء عاتبة:

- ماكانش في وسيلة تانية غيري؟..

هل تسأل أم تفتش عن دافع يحفظ لكرامتها حقها!.. لا تعلم.. لكنها تتشبث بأمل برائته من ذنبٍ اعترف به للتو:

- أنتِ كنتِ الأسهل..

لمَ يحادثها بذاك البرود!..

هي لوهلة شعرت باهتمامه حقيقي.. بخوفه يوم سقطتها!.. هل يجيد التمثيل إلى هذه الدرجة!..

تمتمتْ بضيق مختنق:

- أوك..

ثم تمسكتْ برداء الصلابة وعلتْ نبرتها قوة رافضة:

- بس في حاجة مهمة لازم تحسبها في خطواتك اللي جاية..

تأملها بتساؤل ساخر ردها عليه كان حازمًا:

- مادام قررت تحارب وتسعى ورا الدم؛ ما تدخلنيش في حربك الغير معلنة مع أخوك..

انشقتْ شفتاه عن بسمة قاسية، قاتمة تشبه دواخله، مال يقترب:

- لكل حرب ضحاياها يا غزل، وأنتِ..

صمت لحظة يتأمل ترقبها الواجم بعدها أردف باستخفاف جليدي:

- أنتِ مجرد collateral damage..

صفعة رابعة ألجمتها لثوانٍ..

ابتلعتْ لعابها بحشرجة مكتومة واستدارتْ ترحل عنه، تُشيعه بنظرة باترة جافة، تقطع الخيط الواهن الذي ربط بينهما بشبه صداقة، تخطو ببطء والأفكار تنهشها حتى وصلتْ للدرج فتوقفت بنصف التفاتة ونصف اهتمام ورغبة كاملة في التصديق:

- يوم الـgym لما أنقذتني؛ كان جزء من خطتك برده!..

ولأنها تفتش بدواخل شيطان مارق عن قبس من نور لا يباح له ميلاد فقد ترك ظلام عينيه يهديها الجواب..

الجواب الكاذب.. بنعم!..

مطتْ شفتيها، هزتْ رأسها بأسى ربما عليه أكثر منها، بإثرها قررتْ طعنه بالمقابل وإن كانت طعنتها حقيقية غير ملفقة أو مدعاة:

- يزن كان معاه حق..

تجاهلتْ لامبالاته الصامتة باستطرادة ممتعضة:

- أنا فعلا ساذجة..

رفع حاجبًا متهكمًا قبل أن تقسو نظرتها التي اعتاد سَنَاها المتوهج بالحياة:

- كنت باقوله يقرب منك..

انغلقتْ ملامحه مع انعقاد حاجبيه وهي تنعي سَفَه وجهل عواطفها:

- أنت أخوه ومحتاجه، أخوه اللي يمكن هدية من ربنا تعوضه خسارة يامن الله يرحمه..

وجهه بهذه اللحظة استحال مقفرًا من كل شعور..

من الانفعال، القسوة، السخرية، البرود أو حتى الغضب.. وجهه بات خاويًا كخواء روحه تمامًا حين أنهتْ كلماتها بتقرير قاسٍ:

- بس أنت مش محتاج أخ ولا عيلة ولا جاي تدور عليهم؛ أنت جاي تصفي حسابات هُمَّ حتى ما يعرفوش عنها حاجة..

وغادرته بخطوات واسعة دون نظرة إلى الوراء.. غادرته وحيدًا..

لكن ما الفارق!..

الثعلب دائمًا وحيد، لا يجيد العيش في قطعان، كما يتقن الالتفاف والطعن في الظهر.. وذاك هدفه الذي لا يشتهي غيره..

**

مذاق الفقد تتضاعف حدة مرارته كلما كان ما فقدناه غاليًا..

غضبه لم يهدأ للحظة منذ قتلها..

في أحلامه يتخيل نفسه يذبحها، يغسل يديه ووجهه بدمائها، ينتشي ويضحك بقهقهة مخبولة تناسب لوثة عاشق مطعون..

في كوابيسه بعد الذبح يجاهد لوقف النزف لكنه لا يتوقف، تُغرق دمائها الفراش والأرضية وثيابه..

يتشربها جلده، تتسلل عبر مسامه، يمتصها، فتوشمه بحضورها.. يجاهد ويختنق ويستيقظ بغضب أشد..

عاشق ملعون بمعشوقة خائنة، كان يرى نفسه مثاليًا فإذا بها تُثبت له أنه غبي، غافل.. يباح الغدر به وطعنه في قلبه..

فرك جسر أنفه بإنهاك، تعانق جفناه وتراجع إلى ظهر مقعده في محاولة فاشلة للاسترخاء، بترها الجالس أمامه برفق حازم:

- أنت بتطحن نفسك في الشغل على الفاضي يا وجيه..

لم يفتح عينيه، فقط بسمته الباهتة تراقصتْ على شفتيه وقسوته الوليدة تفيض بها عروقه:

- دي الحاجة الوحيدة اللي بتريحني..

أشعل "يزن" لفافة تبغ سحب منها أنفاسه الرمادية ببطء:

- والولاد!..

تأمل تصلب جسده مع كلمته، صمته، وجومه، ثم اعتداله ونظرته الغاضبة.. الحزينة:

- ضي..

شردتْ أفكاره تجاه صغيرته..

ابنته التي فاقت كل حد معقول ومتوقع، إلى حيز اللا توقع والرفض والعنف:

- أنا تعبت يا يزن؛ تصرفاتها بقت لا تُحتمل..

عاد يفرك أنفه وجبهته والصداع يكاد يفجر رأسه:

- كل مدرسينها اشتكوا منها.. من كسلها وإهمالها وعنفها، ودلوقتِ نتيجتها زفت..

مع مرآه لتقطيبة صديقه أكمل بعجز حانق:

- إمبارح بس اتخانقت مع أخوها وضربته..

وقلب كفيه بقنوط، يزم شفتيه ويعلن استيائه:

- سلوكها العدواني ده كان لازم له وقفة؛ عاقبتها..

سكن "يزن" بالمقابل لثوانٍ في تفكير شارد، من المنطقي أن تتبدل سلوكيات طفلة ارتباطها بأمها كان قويًا عندما تتلاشى من حياتها بلا تمهيد أو تنبيه..

منطق لا يتحمله والدها الغاضب من كل شيء..

هز كتفيه بتبرير ونظرته تؤكد كلماته:

- بالراحة على البنت يا وجيه، طبيعي يحصل لها كده، كانت مرتبطة بأمها وفجأة اختفت من حياتها.. مافيش وداع حتى..

ترك "وجيه" مقعده بغتة واستقام بشيء من حدة، يزيحه للخلف ويواجه النافذة بزفرات حارة متقطعة أقرب للهاث:

- كأنها ماتت في حادثة عربية يا أخي، ما أظنش كنت هادخلها عليها المشرحة..

والتخيل ذاته مقبض، مخيف، وموجع!..

نهض يتبعه.. يقف من خلفه، يواسيه ويدعمه كما كان هو في ظهره من قبل:

- بالهدوء، احتويها.. وبالنسبة لموضوع الدراسة، ممكن تشوف لها مدرس أو مدرسة يتابع معاها دروسها في البيت..

مع صمته الذي طال قرر مناوشته بعبث قاتل:

- ما بتفكرش تتجوز!..

برقتْ عينا "وجيه" كبركان ثار دون مقدمات، استدار إليه والوهج كان جادًا حازمًا وحشيًا لا يقبل مفاوضة أو تلاعب:

- اطلع برا يا يزن..

- بهزر يا وجيه، في إيه بس!..

وكان يكبت بسمة مشاكسة ضاعفتْ من سخط صديقه فدفعه من طريقه:

- هاطلع أنا..

وبالفعل توجه نحو الباب وفتحه في اندفاع كاد يصدمه بمن تقف وراءه!..

أم المعشوقة الغادرة، الرحم الذي حمل الخديعة ومنحها الحياة..

"ممكن نتكلم!"..

هل يطردها!.. يُمثل بها كما مثَّل بطفلتها!..

في هذه اللحظة هو لا يمتلك أخلاقيات المثالي السابق، ولا كياسة رجل بخلفية أرستقراطية.. في هذه اللحظة هو عنقاء تحترق كل دقيقة وتُبعث ثم تعود لتحترق..

في هذه اللحظة هو وحش صنيعة يدي ابنتها..

قطع تواصل البصر بينهما الصديق من الداخل بنحنحة واعتذار وازى رحيله:

- هابقى أكلمك بعدين..

دخلتْ هي، أغلقتْ الباب بهدوء وتلكؤ كأنما ترتب شتات ذهنها، واجهته بقلب أم:

- ليلى انتحرت يا وجيه..

الشعور الذي اكتنفه لم يكن خوفًا، شفقة أو ندمًا..

كان قسوة خالطها نشوة؛ عاهرته ماتتْ كافرة كما تمنى..

- بس الحمد لله لحقناها..

خسارة.. لا تزال حية!..

- ارحمها يا وجيه، خليها تشوف ولادها..

هنا ارتفع حاجباه في دهشة حقيقية، أطلق ضحكة ساخرة:

- تشوف ولادها!..

توحشتْ نبرته بكراهية صريحة:

- تموت أسهل..

شهقتْ بخطوة ارتدتْ بها للوراء، ترمقه بقلب كسير وعين تترقرق بمنتصفها عبرة محترقة تحرق روحها معها:

- من إمتى كنت بالقسوة دي يا وجيه!..

أظلمتْ عيناه مع السؤال، لا..

تحولتا لخسوف قمر في ليلة طويلة استسلمتْ للعتمة بإرادة تامة:

- اسأليها..

كلمة واحدة مقتضبة تمنع الجدل، كلمة واحدة فتح لها بعدها باب الرحيل، هذه هي المرة الخاتمة.. استجدته بنظرة، بكلمة، بضعف أمومتها.. والجحود ظل هو الرد الوحيد الذي يمتلك منحه..

هذه المرة بالفعل خاتمة!..

**

في الحروب كُن طاغية، وفي السِلم تجبر.. أنت لن تفقد زمام السيطرة أبدًا..

لكن ماذا عن الهدنة!..

تلك الفترة الصامتة بين المعارك المتوالية، الفترة التي يعود كل طرف محارب فيها إلى جبهته الخاصة.. يستكين وينتظر ويهدأ!..

هل يطلق مصطلح هدنة على التباعد!.. التجاهل!..

فقدان الشغف!..

لقد فقد شغفه المؤقت بخنوعها وخضوعها.. أثبتَ هيمنته مرة ومائة، وفي كل منها كان يمحو ركيزة من ركائز ثباتها وتحملها..

لكنه ومنذ عشرة أيام؛ بعد رؤياها تحلق بتعثر كفراشة مكسورة الجناحين، وعقبها نائمة على أريكة ضيقة في صراع خانق مع كابوس، على يقين من أنه يحوز دور بطولته.. منذ ذلك الحين وهو يبتعد عنها، يتحاشاها..

يصحو ككل يوم باكرًا، يركض في طرقات المجمع السكني، يذهب للعمل، يعود منه لغرفته.. ومنها لمحراب راحته المقدس والمغلق في وجه الجميع، ثم إلى فراشه يتقلب بين طياته في أرق منهِك، يختطف من قسوة براثنه ساعات نوم محدودة..

تكرار روتيني بارد مثير للضجر، وهو فقط اعتاده، بل انطوى معه على ذاته.. لم يحتك بأخيه، بجده.. إلا من حصار زوجة الأخ قبل أيام لتهديه مزيدًا من الغربة على غربته..

هو مشتت.. بهذه اللحظات مشتت..

وشتاته لا يغضبه كما يفعل دومًا؛ بل يزيده حيرة..

لم يعتَد النقاء والبراءة؛ حياته لم يخُض دروبها سوى الوحوش، وشمسه الغاربة ليست واحدًا..

مؤخرًا بات يكره وجودها حوله؛ تفاصيلها.. ضياعها.. شرودها..

متابعتها ومراقبتها له بتوجس، بخوف سجين الضلوع.. بفضول حائر لا يخرج عن إطار الصمت..

لم يحادثها بكلمة وهي فعلت المثل.. كان يلمحها بطرف عينه فيدير بصره.. وهي بعد الفضول تهرب!..

أرنبته اللطيفة لا تزال تخشاه ولا يكترث..

عاد بجسد متعرق في حلة رياضية من ماركة شهيرة، خصلاته الداكنة تلتصق بجبينه ومن بينها تتسلل قطرات عرقه بخطوط متتابعة فوق عنقه وصدغيه، ليجدها مع جده في وجهه..

بأحضانها صغيرها..

والساعة لم تكد تتجاوز السادسة والنصف صباحًا!..

يديها مرتجفتين.. نظرتها محتقنة بدموع مكبوتة، ووجهها مصمت كأنما تكتم هواجسها عن كل ما ومن حولها.. بادره "يونس" باهتمام قلق على حفيده الرضيع:

- يزيد تعبان..

أكملت هي بتوضيح متحشرج:

- سُخن من قبل الفجر ومش عارفة أعمل إيه!..

لوح جده بإشارة مبهمة قبل أن يخبره:

- المستشفى في أول الكومباوند، بعد البوابة بمربع..

لم يُعلق وعينه تميل بنظرة مختلسة إلى المستكين قرب صدرها، ترجمة الموقف ليست بالعسيرة؛ امرأته تخشى أن تخبره، أن تطلب منه.. صمتتْ حتى استيقظ الجد فتوسلته هو!..

اتخذ طريقه إلى الدرج بخطوات واسعة متمتمًا باقتضاب:

- هاجيب مفاتيحي..

بالأعلى لم يهتم بتغيير ثيابه، غمر رأسه ووجهه تحت مياه الصنبور، جففهما، التقط مفاتيح سيارته وعاد إليهما..

عندما جاورته وأدار المحرك بادر بالسؤال الغامض، غامض لأنه خلا من انفعالاته التي ألفتها معه:

- ما صحيتينيش ليه؟!..

ارتبكت لحظة وقرأ ارتباكها، راقب سكونها وواجهة تماسكها الهشة المزعزعة تتفتتْ بعض الشيء.. تحرك بالسيارة يغادر بوابة المنزل متجهًا إلى العنوان الذي أملاه عليه جده بسلاسة، هزتْ هي كتفيها بتيه ونبرتها تأتيه مختنقة، تشرح كل أوجاعها ومخاوفها منه وعلى طفلها:

- ما حبيتش أقلقك..

مرر كذبتها بلا رد فعل.. في هذه اللحظة خوفها منه لم يثِر بنفسه نشوة السيطرة الأثيرة!..

بالمشفى طمأنها طبيب متوسط العمر، مجرد نزلة معوية خفيفة، تحدث للأطفال عادة في بداية التوقيت الحار..

علاجها سهل وستنتهي سريعًا مع العناية به.. احتجزوه بغرفة لساعتين ضاعفتا من قلقها، تم تركيب محلول وريدي له وإعطاءه الأدوية المناسبة.. بقيتْ إلى جواره..

وقبع هو في الخارج على مقعد يواجه باب الغرفة المفتوح..

يلمحها متيبسة بنظرة فارغة في الفراش مع الصغير.. تمسك بيده الحرة وتكبت كل شعور مباح قد يجيزه الألم أو الرعب..

هي مرتعبة، متعبة.. تشتهي البكاء.. تنشد راحة الدموع..

لكنها لن تسكبها أمامه!..

لن تهدر المزيد من كرامتها تحت سمعه وبصره في امتهان وإن كانت لأجل طفلها..

مر الوقت ببطء قاتل، دون أن يتحرك كلاهما.. عيناها على ابنها وعيناه تمران بنظرة من خلالها، ينظر نحوها ولا يراها.. يخترقها إلى الجدار خلف الفراش، ومن الجدار إلى أفق مجهول.. معتم كعتمة نفسه وروحه..

أفق تقلص في ثوان ليستقر على أخيه الذي اقتحم الصورة بقلق واضح، عابرًا باب الغرفة تجاهها، متجاهلًا وجوده:

- شمس.. ماله يزيد!..

اللحظة، تلك اللحظة..

كانت تستحق لقطة ثابتة تخلدها بذاكرته وعقله، هي وتوأم حبيبها في كادر واحد يخلو عما سواهما!..

هي وهو.. وعبرات حارقة انفجر سد كتمانها بغتة..

أهدته وحده دموعها، أظهرتْ خوفها واستسلمتْ لضعفها.. أهدرتْ كرامة التماسك ومزقتْ حجاب الكبرياء له دون غيره!..

عبرات وشهقة وتشبُث:

- يزن.. يزيد تعبان قوي..

ككل أم تبالغ، تهذي.. تهلع..

ناوشت فمه بسمة ساخرة؛ لم يجرب تلك المشاعر مع أمه، فحينما التقاها كان مقَررًا عليه المنح، لم تكن بها طاقة لعطاء.. لم تكن حتى

تملك ما يمكن أن تعطيه.. دورها في حياته كان استدرار الشفقة، كان التلقي بلا حساب، كانت امرأة مهترئة، ممزقة.. ميتة على قيد الحياة..

لمح كف "يزن" تربت على كفها فوق الفراش، يهدئها برفق حانٍ وبسمته تهديها أمانها المفقود:

- الدكتور طمني ما تقلقيش؛ إن شاء الله هيبقى كويس..

لعنها، لعنها وسعيره يحتدم بدواخله التي اتقدتْ باحتراق بينما يجلس مكانه.. لقد أعادت الوحش؛ فلتهنأ بسُكناها في عرينه إذًا!..

مكث عند الباب يراقب الموقف..

الصورة كاملة تامة بلا وجوده، لا ينقصها حضوره حتى وإن كان الزوج..

هو غائب عن المشهد والأفكار، وعليه احتلال كليهما.. تدخل بنبرة صارمة:

- يلا عشان نروح..

انتبه إليه الاثنان وانقبض قلبها.. تلك النظرة تعلمها، تحفظها، ترهبها، تجمد قلبها، هو غاضب.. وهي تجهل السبب!..

في البيت تركها بلا كلمة وتوجه إلى العمل الذي تأخر عليه مع الأخ الأكبر.. عندما انتهى الدوام وعاد؛ أصبح على موعد مع إذلالها..

سيُعلمها من هو سيدها!..

من وحده يمتلك الحق فيها..

في ضعفها وقوتها، في حزنها وبهجتها، في انكسارها وثباتها، في سطوعها وانطفائها، شروقها وغروبها..

وفي رعبها وكوابيسها!..

هو سلطان الخوف في مملكة؛ ظلامها من صنع يديه..

وقف قبل خطوة من غرفتها، يتأمل ضمتها للصغير الذي انخفضتْ حرارته كثيرًا وينعم منذ ساعة بنوم هادئ مرتاح، لم ينبهها لوجوده بل أمرها بغتة بحزم:

- نادي بهجة تفضل معاه..

أجفلتْ ترفع رأسها إليه في حيرة مرتبكة:

- بهجة!..

لم يكرر كلماته.. لم يشرحها..

بل استدار وأمره التالي يتردد صداه مخيفًا باترًا:

- وحصليني..

انتهت الهدنة، رحل التجاهل وآن أوان إثبات الخضوع، والملكية!..

تبعته بتردد تقف قربه وهو يواجه زجاج الشرفة المُشرع:

- مش هاقدر أسيب يزيد..

تبرر، تتوسله بصوت واهن.. لم يكترث بالتفاتة ونظرته تغوص في دُجنة السماء، جاوب باختصار حاسم:

- بهجة معاه..

بعدها بثوانٍ التفتَ يواجهها، يقترب فيسيطر.. يهيمن.. يغزو ويحتل البصر والجوارح والأنفاس:

- وأنتِ الليلة معايا أنا..

ثم بفراش القهر والخضوع استعبدها، هي جاريته التي لا تملك من أمرها شيئًا.. ملك يمينه، سبيته الضائعة بين يديه..

فراشته المكسورة تحت قدميه..

انتهى منها، نهضتْ تبغي الفرار المتعجل من محيطه المظلم كما في كل مرة؛ أوقفها:

- ما قلتلكيش تمشي..

جمدها.. أعادها.. كرر الامتلاك..

كرره مرات ومرات بطاقة سوداء لا تنضب، طاقة من قلب الجحيم تغرق فيها أوردته وشرايينه..

كانت ليلة طويلة لا يبدو لها نهاية، وهي هلكتْ واُستهلِكتْ..

حررها أخيرًا؛ استرخت منهكة بسكون مُجهَد إلى يساره، يتدثر معظم جسدها بالغطاء في لوحة تستحق الأبدية بنظره، هو من

رسمها، من صنع فوضاها وبعثر ألوانها، من وشم مروره بحناياها، بخباياها!..

تعانق جفناها رُغمًا عنها بتعب.. رأى تهالكها، ابتسم، انتصر.. وعاد له شعور النشوة فقرر عتقها من تجبره..

أخبرها بهدوء كزمهرير شتاء قارص، صارم، داكن.. اقشعر له بدنها:

- نامي في أوضتك..

رمشتْ بأهدابها بانتباه واهن وجلستْ ترفع الشرشف إلى عنقها، تستقيم، تتلكأ في خطواتها إلى الباب وسترة منامتها الطويلة فقط تواريها عن عينيه، بينما بقية ثيابها تضمها بيدها إليها..

فتحتْ شقًا ضئيلًا ومنه لمحتْ المرأة تتحرك بالمعيشة إلى حمامها الذي كانت ستطهر نفسها من دنسه أسفل مائه..

تصلبتْ في وقفتها فارتكن لمرفقيه بحاجبين مرفوعين:

- في إيه!..

وقفتها تشبه قطة متسللة محشورة بين باب وحلقه، أجابته بهمس وهي تغلقه مجددًا وتلتفت بحرج:

- دادة بهجة برا!..

رمقها بنظرة غير راضية، نظرة سيد إلى جاريته غير المطيعة:

- البسي يا شمس، مش مهمة مستحيلة..

وكان يسخر.. يعلم أنها دومًا تركض عقب اجتياحه إلى الحمام شبه عارية، لتزيل أثار عدوانه عنها، يسمعها ولا يبالي.. والليلة تخجل، بعد خضوعها لغاراته المتتالية بفراشه..

خضوع حفر بصمته على روحها، بجوارحها، فوق ملامحها، وبشرتها الناصعة، وحتى خصلاتها المشعثة، مربية العائلة المخضرمة بالخارج؛ مما سيجبرها على البقاء بعبقه فوق جسدها حتى إشعار آخر!..

هربتْ نظرتها لحمام غرفته، ومنه ثابَت إليه لتجد رفضه القاطع، استسلمتْ لقدرها واعتدلتْ تكمل ارتداء ثيابها.. تخطو ببعثرة إلى غرفتها وبصره يتابعها بظُلمة قاسية..

الهدنة انتهت؛ الشيطان عاد بطلًا للمسرحية التراجيدية..

لن تشتته ثانيةً، لن تشوشه ذكرى تفاصيلها، لن تحيد به عن دربه المنشود..

فبعد مطحنة الاستضعاف والقهر والهوان؛ يظل الطريق الوحيد المفتوح أمامه هو هاوية الشياطين..

حيث ينال وحده أحقية اعتلاء عرش ما بعد الزوال..

**

في العشق وُشمت بلعنة السكوت..

والمسكوت عنه مخيف، حتى وإن كانت نبضات القلب تصرح به في كل لحظة..

حُدد موعد مقابلة العريس المقترح من قِبل الخالة، كانت أعصابها مشدودة، حانقة.. تريد الرفض، حينها تلمح غضب والدتها فتكتفي بالصمت، تقنع نفسها أن خوض التجربة حتمي، ستجعلها قصيرة، مقتضبة، وتُنهي الأمر..

تستعيد كلمات صديقتها ابنة عم المعشوق، الموبخة بنبرة كسيرة لم تفهمها والأخرى رفضتْ التوضيح:

- طنط ماجدة معاها حق يا رهف، أنا قلت لك زمان عدي مافيش منه أمل..

وانبرتْ على نفسها بوجوم غطى وجهها خلاله شجن:

- الحب من طرف واحد جريمة في حق نفسك..

ثم شجعتها على الخضوع لرغبة أمها:

- ماحدش هيخسر غيرك، اسمعي كلام طنط.. يمكن تلاقي اللي يستحق حبك بجد..

وها هي تستعد.. ترتدي ثوبًا مناسبًا، زينة تلائم سمرة بشرتها، تجمع خصلاتها في تصفيفة أنيقة وتجلس في مواجهته ووالدته ووالده.. أشادتْ السيدة بجمالها الشرقي الساحر.. ربت الوالد على كتف ابنه وتمنى له الخير.. وتسرب الجمع في مشهد معتاد مانحين الاثنين دقائقًا من الانفراد..

دقيقة صمت مرت، لم ترفع بصرها إليه، لم ترَ حتى كيف يبدو!..

صوته أثناء الحديث مع والديها كان يأتيها من خلف ضباب حجب وصوله لأذنيها..

سمعت نحنحة.. نداؤه الخفيض فحركتْ عينيها لتلتقي بعينيه!..

زرقاوان كبحر هائج في فجر صيف، خصلاته داكنة السواد، وملامحه تجمع بين الخشونة والهدوء في تفاصيل مريحة، بسمته البسيطة أهدته جاذبية خاصة وازتْ نبرته الرخيمة الواضحة:

- اسمي أدهم على فكرة..

هزتْ رأسها بخفوت بلا معنى، لم تقدم نفسها هو يعلم اسمها.. تأملها للحظات، بادر وهو يخمن أن ذاك الصمت لا يعني الخجل وحسب..

هناك شيء ما دخيل على تلك الصورة!..

اعتدل يرتشف عصيره البارد ببطء:

- مش عاجبك فكرة جواز الصالونات؛ صح!..

ابتسمتْ بحرج، تعترف؛ لا جريرة عليه كونه أرادها زوجة وهي عاشقة لآخر!..

اعتدلتْ قليلًا تحافظ على بسمتها:

- مستغرباه..

أمال رأسه بنظرة ثاقبة:

- كنتِ تفضلي تعيشي قصة حب الأول!..

تراجعتْ بخجل تهرب بناظريها:

- مش بالظبط، يعني مثلا أنت اخترتني على أساس إيه!..

كان صريحًا، مباشرًا بسلاسة غريبة..

سلاسة لا تثير النفور بل الفضول:

- أنا كنت بادور على زوجة، الشكل الكلاسيكي المعتاد.. جه الوقت اللي أستقر فيه ويكون عندي بيت وأسرة وولاد..

- ورشحوني!..

نطقتها معاندة بها شيء من غيظ جليّ ابتسم له:

- أيوة..

- وأنت وافقت على أساس إيه!..

أجاب بذات البساطة المباشرة:

- على أساس أقعد معاك، نتكلم ونحاول نتعرف على بعض، وجهات نظرنا في الحياة بشكل عام..

وارتكن لركبتيه بمرفقيه يحاصرها بزرقة عينيه الصافية:

- ولو حصل كيميا؛ نسيب الحب ياخد وقته..

- كيميا!..

نطقتها باستنكار، توسعتْ له بسمته التي ناوشها لمسة من شقاوة مرحة:

- أيوة.. كيميا، قبول.. والحب يجي بالعشرة، بالقرب..

تراجعتْ قليلًا تتأمله خارج إطار الصورة المسبقة بذهنها عنه..

استرجعتْ بسرعة معلوماتها، طبيب ناجح، ثلاثون عامًا وعيادة خاصة افتتحها قبل عام.. له شقيقة واحدة، وهو قرة العين لعائلته بأكملها..

- تفتكر الحب بيجي بالعشرة فعلا!..

سألته شاردة وأفكارها تتمحور حول معشوق هارب، رافض:

- قصص كتير عاصرتها، الحب اتولد بعد القرب..

جاوبها برفق، ثم أردف بمنطقية جادة:

- لما تعيشي مع الطرف التاني، تدرسي تفاصيله، تفهميه وتحفظي عاداته.. حياتكم بتتحول لشراكة كل يوم فيها جديد..

بعدها عادتْ إليه بسمته وإن كانت دافئة هذه المرة:

- ومن ضمن الجديد ده بنسبة 90٪ بيكون الحب!..

غاصتْ بمقلتيه الغامضتين.. نعم كانت النظرة التي تعتليهما الآن مبهمة، لغز لم تستطع فك شيفرته:

- دي نظرية مدروسة!..

ضحك بخفوت وهو يشعر أن اللقاء شارف على الانتهاء، فعينيها تخبرانه بالرفض.. هناك آخر بالفعل!..

- دي تجارب علمية مطبقة على أصناف كتير من البشر..

لم تقاوم ضحكة.. ربما في زمان آخر كانت لتوافق، تقترب وتمنحه الفرصة؛ لكنه تأخر والقلب سلبها إياه رجل أحمق، ستكون حمقاء بالمثل لو تخلت عنه دون حرب..

انتهى اللقاء.. أعلنت الرفض، غضبتْ الأم وهدهد الأب يمنع والدتها عن عقابها، وتمت التسوية بسلام..

كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً، قررتْ الخروج بكذبة هي الأولى منها:

- هاروح لغزل..

طريقها وجهته مقر مكتبه بمصنع العائلة، الوقت تأخر وبقي فقط أمن المكان وهو.. تعلم أن كل ليلة خميس يسهر لينهي عمل الأسبوع، فجأة وجدها أمامه، ترمقه بنظرة عاتبة قابلها ببروده المألوف، تخبره بحزم وعزم:

- عاوزة أرجع شغلي..

تنهد ونهض يغادر مقعده، يواجهها ويقسو ببتر أخير حاسم:

- آسف يا رهف، جبت بديل فعلا، وخبير مش هينفع أستغنى عنه..

لكن قرارها كان صارمًا لا تراجع فيه:

- ممكن سكرتيرة ليك عادي..

رفع حاجبيه بإدعاء دهشة غامضة بينما هي تردف بثبات:

- المهم أكون جنبك..

أخذته على حين غرة!..

تراجع برأسه يتأملها باستنكار تجاهلته وأصر هو عليه:

- أنتِ بتقولي إيه!..

عقدتْ ذراعيها، شمخت برأسها واقتربت خطوة واحدة تجبره معها على الخضوع لحصار القهوة الفائرة بحدقتيها، الخضوع لدفئها وحبها:

- بأقولك إني بحبك..

صدمة أخرى؛ أسقطتْ نفسها عن الحافة الآمنة لهوة عشقه بقاعها السحيق، بكامل إرادتها.. ورُغمًا عن إرادته!..

**

هي امرأة في ثوب طفلة، وطفلة في جسد أنثى..

بريئة.. نقية.. مجنونة.. تفيض بالحيوية.. ومغوية!..

حتى وهي تعقِد ساقيها في جلسة مرتاحة على أرضية الشرفة، بمنامة سوداء.. نعومة بشرتها القمحية ينعكس عليها ضوء النهار الغارب بفتنة، وأمامها طبقين ضخمين من المانجو..

بأحدهما استقرتْ بعض القشور المكوبة والمجوفة حيث فرغتها من محتواها الشهي.. وفي الثاني عدة ثمرات مقسومة لنصفين في انتظار التلذذ بها كما تفعل مع تلك البذرة التي تمسكها بأصابعها، تمتصها بين شفتيها وأسنانها بأنّات غريبة أشبه بقرقرة هرة راضية..

ثبت بمكانه لدقيقة كاملة يراقبها..

لم تشعر بوجوده أو تنتبه لحضوره.. فقد كانت غارقة تمامًا في فاكهتها وعصيرها الذي أغرق فمها بلا اكتراث منها.. بسمة حانية سيطرتْ عنوة على وجهه بأكمله فانفرجت ملامحه لتزيد من وسامته، وعبثه يجبره على اقتحام خلوتها بخطوة زائدة ونحنحة نفضتها..

تجمدتْ لحظة تتذكر هيئتها!..

خصلاتها المربوطة بعقدة مهملة، إزاحتها لإحداها عن وجنتها قبل دقيقة بظاهر يدها الملوثة، والسائل البرتقالي اللذيذ يغرق شفتيها، لعقتهما بلسانها وهو يخضعها لتأمله المستمتع، أعادتْ ثمرتها للطبق أمامها وبررتْ بحدة فاترة:

- ابنك موده مانجا بدل التشوكليت اليومين دول..

نظرته الماكرة أخجلتها بعض الشيء خاصة عندما اقترب خطوة ولهجته ترِق بعاطفة لم تفهمها:

- بالهنا والشفا..

تجاهلتْ رقته غير المبررة وصمتتْ لثوانٍ تنتظر منه أن يفسر دافع وجوده أو يعرب عما أتى يرغبه، مع نظرتها انحسرت بسمته وحرك كتفيه بخبره الذي أتى يُعلمها به:

- أنا مسافر ألمانيا كمان تلات أيام..

ظلت على صمتها لا تدري ما الذي يتوقعه منها!.. هل تقفز بين ذراعيه لتخبره أنها ستفتقده.. أم تقفز لفراشه في مصالحة!..

هزتْ رأسها بلا معنى وجاوبته بهدوء:

- have a safe trip..

ظل على وقفته في تردد لم تعلمه عنه من قبل؛ نعم هو ينتظر شيئًا!..

لم يدُم تردده طويلًا كأنما كان يترقب أو يتوق لاهتمام أكبر، لعاطفة ما فات أوان منحِها فبردت بداخلها.. تراجع خطوة محبَطة ثم استدار عائدًا من حيث أتى..

سكنتْ بمحلها لخمس دقائق حائرة؛ قلبها يلومها وعقلها يشجعها في حين انخرس ضميرها..

العشق هاوية دفعها هو برعونة من فوق حافتها، حين سقطتْ علمتْ أنها لا تقل حماقة عمن سبقنها من النساء في دروب الهوى المعبدة بالألم..

لقد سقطتْ وحدها دونه!..

اعتصرتْ جفنيها بتنهيدة حارة، استقامتْ تتبعه بعدما غسلت يديها ووجهها، طرقت بابه وفتحته تقف على عتبته..

تخشى أن تخطو إلى عرينه، وخافقها الأبله يكاد يعطي الأوامر لقدميها بدلًا عن المخ الذي تيبس معها بنفس المكان..

رمقها بنظرة متسائلة.. متشبثة.. آملة، والأمل فيها أجبرها على تمتمة تطمئنه:

- ابقى طمني عليك لما توصل..

أومأ بموافقة فورية وخطواته تدفعه إليها، يقترب ليقابلها فترفع رأسها إليه بسكون مشتت، تغرق في عينيه.. تطفو بعسر، تفتش عن طوق نجاة، تغوص تحت السطح.. تختنق وتطفو وتغرق.. والمزيج قاتل..

همس باسمها فارتجف جسدها وكيانها كله، امتدتْ كفه تلامسها، ابتعدتْ برفض:

- تصبح على خير..

قبض على معصمها بتشبُث، التفتتْ نحوه تنهره بنظرة واهنة بادلها هو بواحدة متمسكة:

- هاسافر وإحنا كده!.. يمكن ما أرجعش..

كلمته رُغم أنها تدرك زيفها، عبثها وعدم جديتها أوجعتها، انتفضتْ تمس شفتيه بأناملها ترغب في إسكاته:

- Don't say that..

لثَّم ما يطاله من أصابعها فنأتْ بها عنه.. لأول مرة منذ أيقن من عشقها له لا يخشى ذلك العشق.. بل يريده؛ ينقب عنه بعينيها.. بقلبها.. بصوتها المهزوز ورعشة شفتيها..

طوق خصرها برفق وسحبها إليه، يده الثانية تمر بتأنٍ رقيقٍ حول ملامحها، تتنقل من جبينها إلى وجنتها..

تمر بسلاسة فوق فكها وتضغط ثغرها، يميل ليسرق قبلة خاطفة بمذاق المانجو.. يبعد رأسه ويترك لها منحة تنفس أنفاسه، يندس في ضمة مبعثرة بين جفنيها.. يسألها قربها، امتلاكها والقبول.. وتتردد..

ترتبك.. تحتار.. ثم توافق!..

توافق فيحملها بين يديه إلى غرفتها وهناك ينقش بقلبها حضورًا مختلفًا.. مراعيًا، لينًا، مهتمًا.. شغوفًا ومشتاقًا..

استرخى على ظهره وجذبها تستريح بوجنتها عند موطن نبضه الهادر، تنصت إليه يهدأ على مهل وأصابعه تغوص في خصلاتها تارة، وتدلك فروة رأسها تارة تالية..

كان شاردًا في أفكاره المتضاربة..

ما بين قرب يبتغيه.. ومشاعر لن يمر بها مجددًا..

لن يسمح لقلبه بعبور عسير، شاق فوق جسرها شبه المتماسك.. لن يهدي نفسه حرية السقوط..

وهي أفكارها كانت تتمحور حوله، حول اختلافه، نظرته، لمسته، وحتى قبلاته وضمته.. حول ماضٍ تعلم عنه الفتات، وحاضرٍ تحياه معه على الهامش..

حول غرام امتلكها كداء لم يكتشف له الطب دواءً بعد..

غرام عاد له الأمل الليلة..

أمل تخشى التعلق بضعف حباله، فلو تكررتْ السقطة.. ستهجره، سترحل!..

حركتْ وجهها ترفع عينيها إليه ببسمة ضائعة، أخفض بصره يلتقي بنظرتها.. ببسمتها وحيرتها وضياعها في شبه استيعاب، ضياع تناسته وهي تشاغبه بعناد:

- فاكر لما قلت لي إنك كان ممكن توصل الموضوع للسرير!..

رفع حاجبًا متعجبًا وخياله يعود لتلك اللحظة القاسية.. لحظة نزف الجرح القديم، هل ستعود لغضبها منه الآن!..

- إيه اللي فكرك بالكلام ده دلوقتِ؟..

وفي ذهنه أكمل كلماته بوصف يلائم الحدث.. "نكدية"..

مرتْ بأناملها تحاوط فكه بمشاكسة:

- مافيش.. عاوزة أقولك بس ما كنتش تقدر..

أطلق ضحكة خافتة ومسَّ نبرته لؤم منتشٍ:

- بجد!..

عقدتْ حاجبيها بغيظ وسبابتها توخزه بشيء من قسوة:

- طبعا.. أنت فاكرني إيه يا أستاذ!..

مرور أنامله هو كان بطول ظهرها ليثير بها رجفة لذيذة وبسمته تعابثها، يثبت لها بذات التوقيت أنه يستطيع إغوائها متى شاء:

- أنا عارف قدراتي، وأظن أنتِ كمان عارفاها..

وكزته بقوة أكبر حين عارضت بكبرياء:

- I know my limits too..

ثم غيرتْ الموضوع للنقطة التي تبغي الوصول إليها منذ البداية..

لتلك الساحرة التي نهشتها الغيرة وقتما لمسته.. اقتربت منه وتركها تقترب، اعتمدت على مرفقها ووجهها الفاتن يكاد يختفي بفوضى محببة بين كثافة خصلاتها:

- لكن قولي؛ مش شايف إنها كبيرة عليك شوية!..

أبعد شعرها بكفه في إغاظة:

- رجعية..

والتوى طرف فمه بمكر وقح:

- بعدين مش مهم السن، أنت ما شفتيش شكلها!..

استشاطتْ نظرتها بهياج حينما أكمل مشعلًا حفيظتها أكثر:

- ده سن اكتمال الأنوثة..

ونال ما فتش عنه..

غضبها.. دمدمة حانقة، وهمهمات مكبوتة ضاعف من كبتها بين شفتيه بضحكة مبتورة وهي تسبه بكمد:

- أنت منحرف وفلتان..

دفعتْ نفسها للخلف برفض حجَّمه، أعادها لأحضانه بضمة حازمة لم تكترث لها، بل تملصتْ تحرر نفسها قليلًا وكلماتها تتسرب لأذنيه بغيرة أرادته أن يعرف بوجودها:

- لسه بتشوفها؟..

ابتسم بموازاة جوابه الصادق:

- هتصدقيني لو قلت لك ما شفتهاش غير مرتين!..

تململتْ تنظر إليه بأمل ولهجتها تهديه ثقتها:

- هصدقك..

زفر مفسرًا ببساطة:

- كانت جاية في شغل، خلصته لها وما شفتهاش تاني بعدها..

لم يأتِه منها ردًا شافيًا فخضع لصمت مشابه قطعته هي بغتة:

- يزن.. أنا عارفة إنه ماضي؛ بس لو فكرت تخوني دلوقتِ وإحنا مع بعض هاقتلك..

نطقتها بتقرير جاد، حاسم وكفها تتحكم بذقنه تجبره على السقوط بعينيها، قبض على يدها يلثم باطنها وعبثه يشاكسها:

- يا وحش..

رفعتْ حاجبًا تستهجن استخفافه.. اعتدلتْ بجسدها ثانيةً تتحرر من ضمته، تتكئ لمرفقها، تزيح خصلاتها بيدها الطليقة ثم تلوح بسبابتها في وجهه:

- أنا مجنونة وممكن أعمل أي حاجة على فكرة..

سكنتْ لحظات تعض شفتها السفلى قبل أن تهديه نظرة خبيثة متلاعبة:

- أو مش قتل.. هاعمل حاجة تخليك ما تفكرش في ستات بعد كده!..

قهقه بمرح وتظاهر بالخوف وهو يقلبها ليحاوطها بعناق:

- وأهون عليكِ طيب!..

منحته بسمة سمجة، قبَّل أرنبة أنفها وانسل إلى فكها ببطء ناعم:

- طيب نخاوي مخيمر إزاي!..

شدتْ خصلاته تبعده، تعيد بصره إليها بحنق مغتاظ:

- إيه مخيمر ده!..

ترددتْ قهقهته للمرة الرابعة بابتهاج كأنما مصالحتها أعادت لروحه سُكناها وراحتها:

- ولي العهد..

بتر هجومها المتوقع باجتياح لم يسعها سوى الاستجابة إليه، وبينما يتمادى ليكرر امتلاكها همست له بدلال:

- أنا حامل على فكرة..

شعرتْ ببسمته تشاغب بشرتها وعبثه لا ينفذ:

- I'll be gentle..

جاهدتْ لتخفي بسمتها العاشقة المشتاقة حينما دفعته لتحلق بليل عينيه:

- أنت سافل..

غمزها وعاد لجنته بأحضانها:

- عارف..

جنته التي لا يشتهي سواها..

فردوسه المفقود دون قيود، دون أغلال أو متطلبات..

بعدها أراح هو رأسه عند كتفها فتنهدتْ تناديه، رده كان احتكاك خشونة ذقنه بها.. همستْ بقلب عاشق:

- ابقى طمني عليك كل يوم وأنت هناك..

ابتسم براحة قبل أن يغيب في نعاس هانئ:

- حاضر..

ولم يكن يعلم أنها ستزور أحلامه؛ بل تحتلها رُغمًا عن أنف عناده!..

**

إن لم تستطع تشتيت الخصم؛ ماذا عن احتلال موقعه في ترتيب الحكم بالمملكة إذًا!..

الأمر كان بسيطًا للغاية.. جملة واحدة لرأس العائلة أزاحتْ أخيه بعض الشيء وأفسحتْ له مكانًا إلى جواره.. يوازيه..

ذات المكانة وإن لم يكن نفس مقدار السلطة، وذلك ليس ببعيد.. فقط بعض الصبر والتسلل الخادع..

"بفكر أسافر مع يزن.. أتعلم بتتعاملوا إزاي مع الشركات اللي بتستوردوا منها!"..

وصاحب السلطة، الرجل الأول.. الحوت العجوز.. حشر الثعلب قسرًا بمقعد طائرة يجاور الأسد الصغير في درجة رجال الأعمال..

يجاوره ببسمة ظافرة تدهس هزيمته، الآن النصر له.. بسمة قابلها "يزن" بنظرة حانقة، يتذكر اعتراضه على وجوده وإصرار جده الذي صرح بلا تكلف:

- عارف إنك الخبير في شغلنا، وشايف إن ده الوقت المناسب إن أخوك الصغير يستفيد من خبراتك دي..

نظرة حانقة تأججت باحتراق مع تعليق الصغير الساخر بنبرة باردة:

- أظن المرة دي لعبت بشرف..

واهتزتْ شباك الأسد بهدف الماكر هذه المرة..

**

يقال أن حب المرأة طاغية لا يقبل شريكًا.. وديكتاتور يريد أن يُخضع جميع عواطف الرجل لإرادته..

تتذكر تلك الكلمات من منشور ما سبق وقرأته؛ لكنها في الحب لا تتجبر..

هو من يتجبر، يتحكم، يتسلط ويأمر ويمتلك.. وللغرابة؛ تسعد هي بامتلاكه لها، تود لو تهديه ما هو أكثر لكن القلب أغلى ما تملك وقد فاز به بالفعل..

استيقظتْ من نومها بتململ، إيقاع الاهتزاز الثابت بالقارب كان يضايقها في الليلة الأولى، تغافلت عنه في الثانية واعتادته في الثالثة..

اليوم هو الرابع والأخير لهما وحدهما بهذا المكان..

هي وهو وأفق أزرق واسع فقدت خوفها منه بصحبته..

لمحته عبر القمرة يقف عند سطح المطبخ، يوليها ظهره بسروال صيفي أبيض قصير وقميص قطني رمادي، قامته الطويلة وبنيته العريضة تجذب بصرها.. اعتدلتْ قليلًا في نومتها تنقلب على جانبها، تتابع حركات كتفيه كأنما يصنع شيئًا ما أمامه..

تتذكر صبيحة ليلة عرسها وتبتسم بخجل وتوتر.. رهبتها عندما استيقظتْ لتجد أنها وحيدة على اليخت، بحثها عنه وتوتر نبضها وارتباكها وذعرها.. في النهاية وعندما كادت تنهار رأته يشق وجه الماء، ويظهر من الأعماق ببسمة وتحية صباح..

يتسلق للسطح، يقترب، يضمها دون اكتراث ببلله أو ثيابها، يمنحها بسمة مطمئنة:

- مالك!..

ابتسمتْ بارتباك وتشبثتْ به رُغمًا عنها:

- صحيت لوحدي..

أعاد خصلاتها التي يطيرها الهواء لما وراء أذنها، ضمها أكثر فدفعته ترفض البلل:

- كنت فاكرِك هتتأخري في النوم، الساعة لسه 7 الصبح..

هزتْ كتفيها مبررة بحياء تبعه هروب:

- عشان مش متعودة بس، ما عرفتش أنام كويس..

ليلتها لم يحررها من بين ذراعيه..

عندما أفاقتْ في الصباح التالي وجدته قربها، سبقها في إفاقته ولم يغادر مكانه أو يبعدها عن صدره..

يتأملها حال نومها في سكون أخجلها..

استقامتْ جالسة تنفض عنها الذكرى، تترك نفسها لتيار العشق والقرب والأمان الذي تشعر به معه، تنهض حافية القدمين، تدنو منه فترتسم بسمة لا تراها فوق شفتيه، تضمه وتلقي بتحية صباح استقبلها بالتفاتة وقبلة تغرقها فيه أكثر..

أراحتْ رأسها على كتفه:

- هنرجع البيت النهاردة!..

جاوبها بيسر وسرعة:

- أيوة.. بالليل..

تراجعتْ ترمقه بنظرة مغرمة تائهة في غابة هواه البرية، غابة غير مروضة لم يخطُ إليها بشر من قبل..

نظرة من فقدت الدرب ولا تمانع..

- إيه!..

سألها بتأمل خبيث احمرتْ له وجنتاها، وكزتْ كتفه وتملصت من احتضانه، حررها بسلاسة واستند للمطبخ من خلفه بينما مدت أناملها تلتقط شريحة من ثمرة تفاح كان يقطعها:

- مافيش..

وخطتْ تبتعد عنه بدلال أنثى عاشقة لرجلها:

- هاخد شاور وأعملنا فطار..

وجدته يتبعها بغتة وهو يخلع قميصه:

- هاساعدك..

جولة عشق تحت رذاذ الماء انتهت به ينتظرها على السطح حتى أتت إليه بإفطار خفيف، تناولاه بشهية وتجاورا في رقود مستمتع يراقبان السماء الصافية بسكون.. كانت هي من قطعته، تستند لمرفقها وكفها، تدقق في تفاصيله وتسقط متيمة في كل لحظة مرارًا وتكرارًا..

هو صندوق مغلق، مفتاحه ضائع.. تريد فقط العيش في كنف هواه..

تفتح قلبها، تفشي أحد أسرار مخاوفها:

- تعرف إني كنت باخاف من البحر!..

أدار وجهه إليها ببسمة مداعبة:

- الموج عالي!..

نفت تشرد في حقيقة أنها امرأة ترفض الخوف..

تحاربه.. ثم عقبها تصادقه، وتنهيه:

- واسع، كبير، غامض ما تعرفش إيه نهايته!..

ومررتْ سبابتها حول ذقنه بمشاكسة:

- أنت غامض زيه..

تحرك يوازيها بمكر:

- مش عارفة نهايتي!..

ابتسمتْ وبسمتها تجيب بلا، بسمة أوقفها قبل اكتمالها بشفتيه، بجولة غرام تالية تترك لها حبال عشقه على غارب قلبها المملوك له..

تطيلها لأمد يسمح لها بشنق نفسها، عند تلك النهاية التي تفتش عنها وتجهلها!..

.....

ليلة لم تكن فائضة بالأرق كسابقتها على فراش اليخت؛ فقد عادا للبيت واحتوتها ضمته حتى صباح مبكر..

استيقظ قبلها كما تعودتْ، وجدته ينهي ارتداء ثيابه فابتسمتْ بكسل:

- أنت كل يوم هتصحى بدري كده!..

رده أتاها مبهمًا في ظُلمة الغرفة إلا من ضوء طفيف تسرب مع النهار:

- ده ميعادي، المفروض تتعودي عليه..

مطتْ شفتيها بتذمر جاهلة لمغزى كلماته الصلب البارد، كادت تنهض لكنه سبقها، يسطو عليها بحضور أنيق، وبسمة لم تفطن لمعناها بالكامل..

بسمة بها شيء من بُغض أقنعت هواجسها أنه محض وهم!..

مال يقترب من وجهها بحزم:

- خدي شاور والبسي، مستنيكِ تحت.. في ضيف مهم لازم تقابليه..

جلستْ بدهشة مستغربة تتساءل:

- ضيف هنا!.. دلوقتِ!..

- أيوة..

كلمة واحدة مخطوفة، حروفها مسروقة من بين أنفاسه الرتيبة كروتين بدأه للتو..

مرحبًا بك "وسن" في سعير الذئب!..

غادر الغرفة دون مزيد مما أجبرها على الاستجابة، أنهتْ حمامها وارتدتْ ثوبًا صيفيًا مناسبًا، هبطتْ الدرج في صمت المكان.. لم يكن بالمنزل سواهما ليلة أمس..

بحثتْ ببصرها عنه فلم تجده بالداخل، خطتْ للشرفة الخارجية ورأتها بالحديقة.. رسمتْ على ثغرها بسمة دافئة مرحبة واقتربت..

مع وقع خطواتها استقام الضيف!..

كان فتى مراهقًا، يرتدي منظارًا شمسيًا يخفي عينيه.. يحجب شيئًا من ملامحه التي لمست وترًا في الذاكرة وعزفتْ عليه مقطوعة موت..

نزعه، وصخب العزف يتعالى..

انحنى جانب فمه ببسمة ساخرة لا تتماشى وعمره؛ ستة عشر عامًا بالتمام بعد إضافة أربع مضتْ، أربع تحفظها وأحصتها يومًا بيوم.. بسمة غارقة في قتامة مقبضة.. بسمة تلائم رجلًا قاسيًا أكل على روحه الدهر وشرب بل وتقيأ.. ثم عاث كل فساد ممكن!..

قدمه زوجها بنبرة جوفاء لا تناسب نظرته التي تشعل في جسدها النار كجحيم ستُخلد فيه دون موت لتكفر عن جريمتها:

- نوَّار العاصي.. أخويا..

أخيه الأصغر..

الأعمى..

والجاني يديها!..

(15)

الحرب خدعة، القتال فيها للجنود.. أما القادة فيخططون للنصر في أروقة الهزيمة مهما بلغ عدد الضحايا!..

**

الحروب لم تكن يومًا شريفة، الحرب خدعة!..

الحرب قتال محتدم، ضحايا، دماء وموت..

الحرب استراتيجية بمذاق هادئ، رائق، لذته تكمن في برودته، حينها يصبح أشهى.. كطبق انتقامه منها..

أخيه الأصغر، أو في الواقع الأقرب.. الابن!..

حسنًا يا سادة، تريدون معرفة الأمس!..

استعدوا.. موعد عرض الساحر الخاص للغاية قد حان، ماذا يقول!..

"أبرا كادبرا"..

أخ من أم واحدة لم يتمكن الصغير من الاكتفاء من حنانها، فقدها بعمر أشهر، ووالده سبقها أثناء حملها به في حادث كان أقرب لكارثة قضت على قلبها..

وجوده بهذا العالم بدأ وحيدًا، واهنًا، لا يملك من البشر سواه و"خال رحَّالة" لا يمكث في أرض لأكثر من شهر!..

هو من تكفل به، رعاه، رباه، وطواه تحت جناحه..

كان له كل أحد قد يحتاجه بدنياه رُغم رفض "فؤاد الديب" لوجوده، حيث أنه ابن امرأة تركته لنزوة واحدة اقترفها بحقها، امرأة تزوجت من غيره لتأتيه بطفل يتشبث ابنه به كنِتاج صلبه..

مات الأب، وبقي هو والصغير..

ثم دوامة!..

مرض مخيف، ورم دماغي، علاج وجراحة خطيرة، هامة وعاجلة.. مشفى كبير ومشهور، طبيب خبير وغرفة عمليات..

بداخل الغرفة سلَّم الطبيب أخيه لابنته، تركه تحت رحمة يديها!..

جرَّاحة المخ والأعصاب، النابغة، في سنتها النيابية الثانية، الكل يشهد لها بالمهارة، بالموهبة، ورصيد فشلها إلى الآن.. صفر!..

معها الطبيب المخضرم وتحت إشرافه؛ تسببتْ في عمى دائم لا علاج له للأخ اليتيم..

يومها كاد يقتل والدها، أقسم أن يدفع حياته ثمنًا للنور المفقود، وضاعف القَسم بأنها لها منه نصيب، وبئسه من مصير..

اندفع خارج المكان الذي ود لو أشعل به النار، لو هدمه فوق رؤوس مالكيه.. اندفع وتعثر بها!..

تجلس على إفريز منخفض غير مكترثة بزي غرفة العمليات الذي لم تخلعه بعد، تجلس في شبه انهيار، دموعها لا تتوقف.. تنتحب وتكتم نحيبها، تغرق في وحدتها والجريمة التي تلطخ روحها بنزف لا يزول..

كاد يتجه إليها، كاد يقتلها..

كاد يرميها تحت عجلات أقرب سيارة مارة..

لكن لا، ذلك الألم الذي يطعن فؤاده وروحه ستذوقه أضعافًا كثيرة، ستتشربه مقطرًا، سيوشم به قلبها؛ فوحده قد يكون ثمنًا مشبعًا..

عاد للحظة الحالية..

لحظة قصم ظهرها وقصف خافقها برصاصة سامة تحدد هدفها وتحفظه، حاصرها ببصره تتأمل أخيه بنظرة كالهلع لو كان مُجسدًا.. تراقب ابتسامته السوداء التي تبدلتْ بلا مقدمات للطافة، ملامحه التي استرخت بغتة، ثم نبرته عندما وصلتها مداعبة مشاكسة تخبرها عن ضيقه وغيظه من تعجل الأكبر في أمر زواجه قبل انتهاء اختباراته فلم يحضر الزفاف أو يتعرف إلى العروس!..

يختم كلماته بأنه سعيد للقائها، يصافحها ويتجاهل رجفة كفها، يتخطاها بخطوات ثابتة ترى طريقها، عند مدخل المنزل يتوقف، يلتفت ببسمة غامضة ولهجة محايدة لا يُدرَك مدلولها:

- طريقي لأوضتي زي ما هو ولا في تغييرات!..

جاوبه "عمار" من وقفته بلا تعبير:

- زي ما هو..

اختفى بالداخل، وحلَّ على الاثنين الصمت..

عبرة ترقرقتْ خلف أجفانها، تحجرتْ فوق حدقتيها، لمعتها جلية لكنها ترفض السيل..

لم تنطق بحرف واضح، وهو ينتشي بوجومها، بإخضاعها لسكونه، فالقبور دومًا صامتة..

هزتْ رأسها بعتاب، بوجع لم يبالِ به، هو من اصطنعه وهو من سيتممه على الوجه الأكمل، تراجعتْ تدخل للمنزل، تركض لغرفتها.. تجذب حقيبة وتبدأ في ملئها بثيابها بفوضى، لم تلحظ تتبعه، وجوده معها، ذات الخمود الهامد الهادئ..

ولا الباب الذي أغلقه من خلفه بمفتاحه وظل بمكانه يتابعها بعينيه في نظرة بلا معنى..

"بتعملي إيه!"..

انتبهتْ لحضوره فجأة فتوقفتْ، رأى عبراتها تغرق وجهها.. انهزامها ولذة مذاقه، اقترابها ومواجهة خائبة فاترة منتهية قبل البدء:

- ليه!.. كل ده ليه!..

كان يفطن لوجهة السؤال.. تسأل عن قلبها الذي حشره بمعادلة انتقامه.. وجوابه حاضر بعمر أعوام خطط فيها لتلك اللحظة وما سيليها من لحظات..

تحرك يقترب وتتراجع، يحاصر بكل جوارحه وتهرب بكل ما فيها، تكاد تعدو من أمامه فغموض عينيه رغم روعة اللون كان مثيرًا للفزع!..

أوقفتها الخزانة فوقف قبالتها، مد سبابته وحسب يغرسها بموطن خافقها، ينتقل إليه هدير نبضها المرتعب ولا يأبه له:

- عشان ده هو التمن.. ده كان لازم يتوجع، يتكسر..

أبعدتْ يده، حاولتْ دفعه فحاصرها أكثر، طوقها يمسك برسغيها، انتفضت تخشى ما يمكن أن يقدم عليه، ضمهما معًا بقيد قبضته وراء ظهرها ومكث على وقفته يقابلها، صاحت بفقدان سيطرة:

- أنا مش هاسكت..

الحقيقة قطعتْ منها الوتين.. مزقتْ عنق الأمل ونهشتْ جسد الأمنية.. الحقيقة ذبحتها ونحرتْ معها الروح..

الحقيقة التي لن تجود عليه برؤية أثرها على تفاصيلها مهما تألمت أو ذاقت من عذاب.. غاص بمقلتيها المتوهجتين بأثر العبرة، رفع حاجبه ببسمة ساخرة مغيظة:

- بلاش تهديدات مش هتقدري تنفذيها..

تملصتْ منه بلا جدوى، جنونها على وشك البدء.. بل صراخها سينطلق بلا هوادة في أية لحظة:

- سيبني..

قبض على ذقنها بيده الثانية، يحطمها أمامه بنبرة باردة:

- الأوامر كلمة تمحيها من قاموسك، لازم تتعلمي إن كل طلب هيكون بصيغة رجاء، وقبله تقولي من فضلك.. أرجوك.. لو سمحت..

برقتْ عيناها بهيستريا وصرختها بالكاد تكبتها، هو هنا يدفن الوجع بقبر عميق وينبش عن الهياج:

- أنت مجنون!.. عاوز تنتقم؛ ماكانش لازم تعمل كل اللي عملته ده..

حررها بغتة فكادتْ تفقد توازنها.. تراجع خطوتين وفرد جسده بشموخ، عرضه الأول على بُعد ثوانٍ:

- أنا عملت أكتر من اللي في خيالك يا وسن..

رفعتْ وجهها إليه، ترى ظلام نظرته، جموده.. تلك القسوة المحفورة بملامحه.. كيف لم تلحظها من قبل!..

توجستْ، ارتعدتْ.. وخشيتْ السؤال لكنه كان محسومًا:

- عملت إيه!..

- قتلت أبوكِ..

تقرير صريح، مقتضب.. صلب تمامًا، يمرر به خبرًا مميتًا بلا اكتراث!..

يسرد عليها خطته، التهمة التي ألصقها به وهو بريء منها، سمعته كطبيب وسمعة مشفاه الملوثة.. رغبته في إلقائه بين أسوار سجن حتى الموت، هروبه بموت فعلي قبل أن يتحقق كامل انتصاره ويراها هي.. ابنته.. طفلته.. جراحته الماهرة؛ مُلك يمينه!..

"عمار الديب"..

الذئب الذي سيفترسها قطعة قطعة وبتأنٍ حتى ينال كمال المذاق وروعته..

عندما بلغ نهاية سرده كانت قد بلغت عتبة الانهيار، تمه بصرامة حازمة:

- ودلوقتِ دورك تموتي وأنت عايشة معايا، في كل لحظة..

جسدها كان ينتفض بالكلية، ترتكن للخزانة بلا وعي، لولاها لسقطت تحت قدميه في مهانة.. تخفي وجهها بكفيها وتستوعب حقيقته.. حقيقة كونها سقطتْ بغرام قاتل أبيها!..

حقيقة أنها أحبتْ وحشًا!..

حقيقة جديدة تضاف لسجل غبائها وجهلها وضعفها وخساراتها..

ها هي تعود لقاع بئر الفشل بقنوط، الجدران تحاوطها وتعلو.. تستطيل وصولًا للسماء، تراها تتمدد بعجالة، بمعادلة خارج حسابات المنطق..

الفتحة الضيقة أعلاها تنغلق، تحبسها في القرار المظلم، في قعر شيطان له عليها كل حق!..

- كان المفروض تدخلي السجن، بس أبوكِ حماكِ منه، غطى على الموضوع، عتم عليه ومنع تسريبات الصحافة ولولا غرقي في دوامة أخويا كنت عرفت آخد حقه منه في وقتها..

عاد يقترب، يحاصر، يخنق ويطوق ويسحب الهواء من حولها بشهيق حاد، يلمح هذيانها، غيابها، ضياعها وينتشي:

- لكن ما دخلتيش، فأهلا بيك في سجن عمار الديب..

مرر أنامله حول وجنتها فدفع في عروقها بصحوة، أفاقتها من معترك التيه الذي انهزمت داخل ممراته، أبعدته بامتعاض وتهربتْ من تطويقه بينما يردف:

- وما تقلقيش، سجن five stars..

فرتْ من أمامه، وقفتْ خلفه تصيح بثورة مستحقة وإن شابتها حشرجة النحر:

- أنت فاكر إني هاسكت على الكلام ده!..

عقر قلبها وروحها بطعنة واحدة، تختلج، تضطرب.. تجاهد لأجل غريزة بقاء فطرية، وكبرياء أنثى باسلة صادقت مخاوفها منذ زمن بعيد.. ضربت الأرض بقدمها تثبت بها وجودها، تغرس حضورها.. تنفي عن نفسها تهمة التخاذل، العوز والاحتياج:

- أنا هاوديك في داهية، هاثبت براءة بابا، هافضحك وأسجنك مكانه..

استدار إليها بتلكؤ، يرمقها بنظرة خاملة مستخفة:

- مافيش حاجة ممكن تعمليها..

اقتربت تجابه، تعاند، تحارب.. ستظل امرأة لا تخاف، حياتها كلها ملخص لمعركة طويلة الأمد..

معركة يبدو أنها لم تنتهِ بعد ولن تفعل في وقت قريب:

-لأ.. في..

رفعت سبابتها في وجهه بإشارة حاسمة:

- وعد مني؛ هادفعك تمن اللي عملته..

رفع حاجبيه بسخرية مستهينة، صوته، عينيه، لغة جسده كلها تمرر استهجانه، احتقاره، بغضه ومقته:

- هاستمتع وأنا باتفرج..

تتوق للصراخ وتمنع نفسها.. لن ينال لذة شماتة بضعفها، بخنوعها، بعجزها.. لن تمنحه خوفها كهدية مغلفة يفضها وقتما شاء..

تحركتْ تفتش عن هاتفها بجنون.. لن تبقى لدقيقة، لن تكتفي بالصمت ولو لتستجمع أفكارها..

الكثير من النهي والنفي والشجب..

ستبادر بالهجوم، ستقطع كل وريد وتراقب انفجار الدم..

"لو بتدوري على الموبايل فانسي.. أخدته"..

تصلب جسدها، تجمدتْ في مكانها، تلتفت إليه.. ترمقه من مسافة قصيرة بغضب، عيناها سعير مروع يخصها..

عيناها فتنة لا يباح له فيها سقوط!..

دنا بخطوات متلكئة، يدور حولها، يلتف كذئب يحيق بفريسة جريحة فقدتْ قدرتها على الركض، يتفحص.. يبحث عن موطن القضمة الأولى:

- أنتِ هنا في سجن..

شمختْ برأسها في تماسك، يدرك أن نصفه مصطنع والنصف الآخر واهي كدواخلها المنهارة وإن أجادتْ إخفائها:

- والمسجون حقوقه معروفة..

توقف عن دورانه.. يلاقي بصرها الذي جابه في حرب قاسية مع ناظريه:

- لو كنتِ سجينة مهذبة، هتتعاملي كويس.. أما لو!..

ولم يكمل..

التهديد كان وعيدًا حصريًا متقدًا بين جفنيه، بواقع لن تنجو منه، ابتعد عنها بظهره ونظرته تتوحش، تتوازى وحديثه الذي لا يتخطى رتبة البرود:

- كان لازم تعيشي في الجنة، عشان تعرفي الفرق بينها وبين جحيمي..

صمتها كان غريبًا.. أفكارها تتداخل، تتصارع، تضل، تتشتت، الذنب يطفو على السطح، يحاوط عنقها بسوار خانق..

والغضب يغيم على اللحظة، يظلم الأفق..

الحزن يظهر هناك منكمشًا، خائفًا مطعونًا..

والثورة تجاهد معها في صراع حتى تواجهه بذاك الثبات، بذاك السكون، بتلك القوة والجمود.. بغموض!..

لا تعلم ماذا ستفعل!.. لكنها ستفعل شيئًا ما، في وقت ما..

زمتْ شفتيها وناضلتْ ليخرج صوتها بلا شعور:

- وآخر الخط إيه يا عمار!..

ابتسم بانفعال مبهم، بسمته الوسيمة التي ترى فيها مكنون نفسه بوضوح الآن.. متأخرة للغاية:

- الخط مالوش آخر، بس السجن له مدة..

مس وجنتها بسبابته ووسطاه في ربتة متملكة:

- ممكن تقضيها بسلام، أو تضاعفيها بتمرد..

لم تبتعد عن لمسته، تتحداه بكل حواسها، تقهره في نزال بين الأعين لا ينهزم فيه كلاهما:

- والمطلوب من السجينة إيه!..

- تتعاقب..

نطقها بأحرف مخطوفة تركض خلف حروفها، تنهشها وتلتهمها.. تبتلعها وتغرقها في ويله المخلوق لأجلها دون سواها:

- إزاي!..

باردة، مبهمة!.. لا يعجبه رد فعلها لكنه مستمر:

- هتكون عيونه اللي ضيعتهم..

وألقى بثقل ذنب فوق ذنب.. ذنب اجترحته يداها، لن تمحوه جريمته في حقها وحق أبيها.. ذنب كان هو خيط البداية:

- بس كده!..

هنا التوى طرف شفتيه بشراسة هازئة:

- أكيد لأ..

ولاها ظهره، خطا تجاه الباب في نية مغادرة جلية:

- لكن كل حاجة في وقتها، يكفي تعرفي إن ده هدفك الوحيد في الحياة من دلوقتِ..

- نصيحة؛ مش المفروض تدي عدوك ضهرك..

حروفها هذه المرة كانت من تركض وراء حروفه، تعدو وتلاحق وتسبق وتضرب.. ظل بمكانه، لحظات قصيرة استدار إليها عقبها باستهانة:

- أنا عارف حجم عدوي كويس، المهم هو يعرف حجمه..

- أنت محتاج تراجع نفسك..

- ما تقلقيش، أنا حاطط استراتيجية حرب لخمس سنين قدام..

- عمرك كله مش كفاية يا عمار..

عاد إليها بغتة باقتناص نفض قلبها وإن تحلتْ بتماسك ظاهري اخترقه بنظرة فظة:

- بلاش تغريني آخد عمرِك..

- ده معناه إني ممكن أخرج من سجنك حسن سير وسلوك!..

انتشتْ بسمته بمبارزتها معه، بتحديها وعنادها وكبريائها:

- ممكن..

وأشار من ورائها بلا هدف:

- المهم ما تفكريش تهربي، عشان أي سجن.. له قضبان!.. جدران عالية، وحراسة ممكن تضرب في المليان..

لم تفهم توريته الكلامية.. تلك الحرب، تلاعبه بالألفاظ لم يمتنع عنه ولو لمرة، وهي التي كانت تكتفي بالمعنى الوردي..

لم تدرك أن الأسود هو لونه الأثير:

- يعني إيه!..

أدارها ببساطة لتواجه النافذة، الشرفة.. تدقق النظر وتتمعن بحرص:

- سجن يا وسن..

شاهدتْ القضبان.. كانت أسيرته بالفعل، النافذة العريضة وباب الشرفة يحاوطهما قضبان حديدية لا تظهر للوهلة الأولى دون ضوء نهار صريح وتدقيق من الداخل، ابتسمت بمرارة ساخرة:

- هو أنا هافضل محبوسة في الأوضة دي!..

حرر كتفيها وابتعد بسلاسة عجيبة:

- أكيد لأ، القضبان في كل مكان.. قلت لك هتكوني عيون نوَّار؛ بس هتفضلي هنا لحد ما تفكري صح، وتقرري هتقضي فترة عقوبتك إزاي!..

- وشغلي!..

- مافيش شغل..

فجر بركانها بقراره الأرعن، لا يعلم أن هذه هي منطقتها المحظورة، التفتت إليه بحنق:

- ده المستحيل..

- اتعودت أكسر المستحيل..

شد قامته يسيطر على محيطها بهيمنة، يجبرها على الطواف في فلكه، كوكب تابع لا ينفلت عن مداره:

- المستشفى من النهاردة هتكون تحت إدارتي.. مجهز كل حاجة عشان ما تجهديش نفسك في التدوير على ثغرات، والوقت قدامك لحد ما تقرري هتكوني سجينة مطيعة ولا هتتمردي!..

استدار على عقبيه إثرها، ثم تاليًا طرقع أنامله كمن نسي شيئًا حيويًا فارتد إليها:

- في حاجتين مهمين كنت هانساهم..

لم تبدِ اهتمامًا، لم تتحرك أو تنفعل حتى بنظرة، تركته يتمم مهمته على أكمل وجه.. تريده أن يختفي من أمامها..

تنقب عن حقها، عن وقتها في الاستيعاب، ورد الفعل..

في السقوط والبكاء، لكن واجهتها الصلبة تكبلها:

- عصام صالح الفقي!..

نطق الاسم ببطء، ونال الانفعال الذي يشتهي..

تفرق جفناها تحدق فيه برجفة طالت جسدها بينما يكمل بأريحية:

- رشوة.. اختلاس.. صفقة ملعوب في مواصفاتها، أي حاجة من دول كفيلة تدخله السجن للوقت اللي أنا عاوزه..

لمح كفيها المضمومتين، فكيها اللذين يصطكان بكبت لصرخة ربما:

- لو عاوزاه يكون في أمان مني، زُهرة هتخرج من حياتك.. بإيدك وبطريقتك..

- أنت حقير..

ابتسم باتساع أنيق كان يزيده وسامة في السابق، لكنها الآن تراه شيطانًا لم تذُق جحيمه بعد:

- أشكرِك..

مد يده في جيب سترته، سحب علبة دوائية لم ترها بوضوح، تركها فوق الفراش بحزم صارم:

- الحاجة التانية، تنتظمي في الأقراص دي..

تحققتْ منها لتجدها خاصة بمنع الحمل، قطبتْ بامتعاض رافض حين طعنها مجددًا بلهجة كجليد شتاء قارص:

- أنتِ مؤكد ما تصلحيش تكوني أم ولادي..

باغتته قهقهتها!.. انتظر حتى انتهت منها ومقلتيه تحاصرانها دون رد فعل، اتخذته هي عندما بادرت بخطوات الاقتراب:

- أنت فاكر أنك هتلمسني تاني!..

- طبعا.. أنتِ مراتي..

افتعلتْ دهشة مستهجنة:

- إزاي!.. هتغتصبني عشان تبقى طبقت كل شروط السجن!..

عادتْ لفمه بسمته المخيفة، تلك التي تكرهها وترعبها:

- يمكن أجرب في مرة، بس مش دلوقتِ..

ونجح في إشعال غضبها، لوحتْ مقابل وجهه بقبضتها:

- في أحلامك يا عمار..

لم تنحسر بسمته، حافظ عليها ومال هو يقترب من وجهها فأجبرها على التراجع.. الهروب:

- ماعنديش أحلام، كل اللي باعوزه بانفذه فورا..

- وإزاي بقى واثق إني مش حامل حاليا!..

مررت وعيده -الذي سيشربه مع كوب من الماء فيغص به- باستهتار، التقط هو العلبة ثانية، فتحها ورفع الشريط قبالة ناظريها:

- كنت باديكِ الأقراص بنفسي، ومن قبل جوازنا..

ينقصه سبع حبات!..

- كوباية اللبن الدافي بالعسل بتاعة كل يوم، وصاية ماما زُهرة لعريس بنتها..

لمعتْ عبرة ساكنة.. ميتة فوق أهدابها، لم ترحل عنهما.. تعلقت بهما في فتور وتعب سحب بقايا قواها.. تأملها بنشوة..

رعشة.. هفوة.. سقوط حظي هو بشرف دفعها من فوق حافة ثباته..

هذه المرة غادر بالفعل..

سمعتْ الباب ينغلق من ورائه كمعدن زنزانة صدئة تحبسها عن العالم..

المفتاح يدور في المزلاج.. القضبان.. الظلام والوحدة والألم والفقد..

هي من تسببتْ في موت والدها عندما حماها وأنقذها من السجن حتى لو دون شرف..

هي البلهاء التي عشقتْ ذئبًا تخَفَى بصوف حمل..

هي العمياء التي سترافق أعمى..

هي الجانية والضحية..

هي الفاقدة والمفقودة..

هي العاشقة والكارهة..

انهارتْ حيث كانت تقف، تفكر بلا هدف.. دموعها محبوسة خلف سد من عنفوان مدعى، مخاوفها ترفعها عاليًا وترميها لتضرب بجسدها الأرض فتهشمه..

الصدمة والجنون والتراجع والهروب..

الذنب!..

الرعب.. الخسارة..

و"عصام".. شاب صغير هو ابن أخو والدتها الروحية، سيخسر حياته ومستقبله إن لم تبعدها عن عالمها وتلتزم بتعاليمه وأوامره!..

انكمشتْ على نفسها ودفنتْ وجهها في الأرضية، صرختْ واستقبلتْ صلابتها صرختها..

تأوهتْ وماتتْ وعادتْ للحياة في ذات اللحظة..

دنياها تدور..

أفعوانية من خبال تحلق بها نحو المجهول وهي لا تدري ما تفعل!..

الاستيعاب.. كان الخطوة الأولى لكنها صعبة وثقيلة وروحها تنوء بحمول الإثم..

الانتقام.. هل تفعلها!..

هو قاتل والدها، سارق أحلامها، وذابح القلب..

ستفعلها.. ولكن كما قال هو..

لكل شيء وقته، ولجُل جريمة عقاب!..

**

الفوز له لذته، والخسارة كلمة مطموسة من قاموس امرأة مثلها..

الخسارة طعم لاذع لم ينجُ من أذاقها إياه ولو لمرة واحدة، حتى ذاك الهارب من غوايتها بجبن حد تركه لامرأته من خلفه..

تململتْ في فراشها بكسل، أفاقتْ وتحركت تغادره، تساوي خصلاتها بأصابعها وتستقيم تجاه الحمام، تملأ المغطس بالماء الدافئ وصابون الياسمين خاصتها، تخلع ثياب نومها وتدلل جسدها بين فقاعاته..

تسترخي بهدوء، تتذكر قبل أيام، ليلة حفل الشواء والتي تفاجئتْ بفراره في صباح اليوم التالي..

مداهمتها له، إعلانها لرغبتها وحربها بوضوح.. أنه غنيمة لن تتنازل عنها وإن عاند وأصر..

ليلتها حملتْ له طبقًا من اللحم المشوي، تبعتْ خطواته السائرة بلا هدى على الشاطئ وبسمتها اللعوب لا ترتحل عن شفتيها:

- طبقك.. على ذوقي..

تناوله منها بلا اعتراض ودون اهتمام كبير، ولكنه لم يتردد في أن يحادثها بصراحة يظنها تناسبها:

- مش هنخلص من الحوار ده؟..

اقترب من أذنها ليهمس بوقاحة:

- أنتِ مش نوعي المفضل على فكرة..

عندما أوشك على الابتعاد بعد همسته أمسكتْ بقميصه تجذبه إليها، وفمها يلتصق بأذنه بوقاحة أكبر:

- بس أنت نوعي المفضل..

نفض رأسه بحركة حادة استهانتْ بها وهي تردف بمكر:

- وأنا متعودة آخد اللي باعوزه..

ثم هزتْ كتفيها مع نظرته المستنكرة:

- فاضل بس أدور على مفتاحك، ومش هيأس بسهولة..

ضحك، تعجب، ونطق بكل سخرية ممكنة:

- واثقة قوي في نفسك..

كررتْ هزة كتفيها بغنج هذه المرة، ابتسمتْ بعبث وأعادتْ الهمس:

- عشان فاهماكم كويس يا بيبي..

عقبها ربتت على وجنته بنعومة بترتها يده تبعد يدها:

- صدقني.. مش هاقبل الرفض بسهولة..

وتأملته بنظرتها المعجبة التي لا تخفي خيالاتها عنه:

- على الأقل في الوقت الحالي..

اكتفى بأن يعلق بتحدٍ:

- هنشوف!..

انتهتْ الليلة به يكاد يتعارك مع أحد أصدقائها معلنًا الغيرة كرجل شرقي أصيل، تلاها حمله لزوجته إلى غرفتهما كرجل كهف؛ ورجل الكهف نوعها المفضل في حالات معينة!..

ابتسمتْ بغنج مستعيدة تفاصيل الصباح التالي، كان صباحًا عاديًا بالنسبة لها، استيقظت شبه مبكرة عن عادتها فهو اليوم الأخير قبل رحيل مدعي الفضيلة كما تراه!..

أنهتْ حمامًا سريعًا واطمئنتْ على صغيرها "آدم" الغارق في نومه، قبلتْ جبينه بحنو وخرجتْ تحضر عصيرها الصباحي حين سمعتْ صوت البكاء!..

لم يكن بكاءً خافتًا بل كان شبه منهار، يحمل صوت من يفترض أنها صديقتها.. ماذا حدث!..

اندفعتْ بخطوات شبه راكضة إلى باب الغرفة المفتوح لتراها جالسة على الأرضية في مواجهة خزانة الثياب الخالية، دموعها تغرق

وجهها وبين كل ثانية وتالية تتفلت منها شهقة عالية مختنقة، جثتْ إلى جوارها بقلق حقيقي:

- ميري مالك!..

لم تحصد جوابًا يشفي قلقها فكررتْ:

- ميرهان، حصل إيه!..

وتلتفتْ حولها لتلمح خلو المكان من زوجها:

- فين موسى!..

للتو ترفع المنهارة عينيها ناحيتها، تنطق بدموع، بشرود وتيه:

- مشي..

الدهشة ملأت نيروز حينها، بل الحيرة!..

هل رحل بسببها!.. لكن لمَ ترك زوجته خلفه!.. ولمَ تبكي!..

علامات الاستفهام ليستْ كافية.. ولا حتى التعجب؛ فالأمر مثير للاستنكار:

- مشي لوحده!..

نعم وحده!..

كان جوابها الصامت قبل رد خافت أبح:

- خد هدومه ومشي..

شردت للحظة، ردت على تلك التي تنتظر جوابها بعين قلقة مستنكرة:

- هو ليه بيعمل فيَّ كده؟..

لمحتْ "نيروز" وهنها، هشاشتها.. خوفها الغريب الذي لا تدري له سببًا، ورغم طعنتها السابقة في ظهرها فقد استنفرتْ دفاعاتها النسوية عنها وهي تجذب يدها لتدفعها للنهوض:

- لأنه راجل، والرجالة شايفين إن من حقهم يكسروا الست وقت ما يحبوا..

كان جوابًا مائعًا لا مدلول له، لكنه ربما يحمل الحقيقة بين حروفه وهي تردف:

- قومي.. ما تقعديش تبكي عليه، اغسلي وشك وتعالي معايا تحت تقولي لي حصل إيه بالظبط!..

أقامتها وسحبتها، تحركتْ خلفها بوهن، بوجه باهت..

عندما استقرتا في جلسة شبه مريحة لمحتها تضع يدها على رأسها، بعدها تنطق بانفعال ودون تركيز:

- هو كان عارف.. وافق.. أنا ماخدعتوش!..

ورُغم دهشتها ربتت "نيروز" على كفها بحنو وازى سؤالها الفضولي:

- عارف إيه يا ميري؟..

هنا أبعدتْ "ميرهان" يدها بذهول يخالطه تردد، فكما يبدو أنه مع وجعها لم تنتبه لما تمتمتْ به.. والسؤال بإثرها أسقطها بضياع، حائر مشرد بين البوح والكتمان..

سقطتْ من عينها دمعة لا تصنيف لها، مسحتها، ثم ردت بتحامل على نفسها:

- الموضوع مكلكع شوية زي ما قولتلك..

أضافتْ "نيروز" لوجهها بسمة لطيفة مع فضولها الذي تضاعف، كررتْ ربتتها برفق:

- وأنا قلت لك أنا ممكن أسمع في أي وقت، وممكن أفهم.. ولو في مشكلة أقدر أساعدك تحليها..

أتتها هزة رأس شاكرة من البريئة الصغيرة، ورأت الثقة ترتسم على صفحة وجهها:

- عارفة يا نيروز، وحقيقي شكرا إنك جنبي دايمًا وبتسمعيني من غير ما أتكلم بس...

لاحظتْ تخوفها من الحديث كأن ما ستفضي به لا يجوز معه تصريح، وتتابَع صراع الأفكار بعقلها، تتقافز كل واحدة خلف الأخرى في حرب حيرة واهتمام، نطقتْ بأولها ونبرتها يناوشها غضب لا تفهم سببه الفعلي:

- بس إيه!..

وضيقتْ عينيها بحزم مكترث:

- موسى بيخونك!..

مع النفي الصامت زمتْ شفتيها وأكملتْ:

- بيزعلك طيب؟..

ولم تنتظر جوابها هذه المرة، بل ألقتْ بورقتها الأخيرة وهي تبتعد عنها قليلًا.. تظهر ضيقها:

- أنا مش عاوزة أضغط عليكِ يا ميري، بس لو مش واثقة فيَّ أنا مش هاتدخل تاني..

تنهدتْ "ميرهان".. بدا على وجهها أن التعب قد وصل لذروته.. لكنها لا تريد فقدان الصديقة، سارعتْ برقة:

- نيروز ماتقوليش كده؛ أنتِ صاحبتي.. وثقتي فيكِ مالهاش حدود..

أغمضتْ عينيها تضغط على جفنيها، تعتصر دموعها وتنزف ألمها:

- أنا مش قادرة أتكلم..

وتلازم قولها بقول آخر كان صداه أقوى:

- بس أنا تعبانة قوي ومحتاجة أتكلم..

التنهيدة هذه المرة، خرجت من صدر "نيروز "محملة بالصبر ورغبة الفهم.. للحظات تجاهلتْ رغبتها السابقة في زوج الغافلة أمامها واسترختْ أكثر، يضيق قلبها مع بوحها المسجون ودموعها الحارقة:

- اتكلمي يا ميري..

نطقتها بهمس داعم، كأنما تخشى لو علا صوتها فسيكسر جدار السكون الذي تحتاجه اللحظة!..

- اتكلمي وأنا هاسمع..

كانت همستها وصلة أمان، نبضة تسللتْ لقلب التي ترتجف وسط دموعها، لا تعلم كيف ومن أين تبدأ، ولا ما إذا كان هذا بشيء يقال!..

ولكن البوح لم يعُد خيارًا:

- موسى كان بيشتغل عامل عند بابي في المصنع..

لم تكن تلك البداية، الأزمة أبعد، ولو قبلها ببضعة أسابيع!..

أسابيع نعم ولكن مقدارها كدهر.. بدا تضاربها بالحديث واضحًا لتلك التي تستمع لها بكل اهتمام:

- أنا أعجبت بيه، شفته حد لطيف ومهتم.. بس كان مجرد إعجاب وبس..

رغم صدمة بطاقة التعريف التي وصلتها للتو فقد تفهمت بهدوء مع سكون الصغيرة للحظات، سألتها عن آخر كلماتها:

- تقصدي موسى!..

نفت تفصح عن آخر:

- هشام..

مع أمارات الدهشة التي علتْ وجه المجاورة لها أكملتْ من موضع ما بدأتْ بتيه غريب:

- اتعرفت عليه مرة صدفة في النادي مع بنات صحابي من الجامعة يعرفوه..

استفاضتْ بألم صريح:

- اتقابلنا بعدها مرتين.. والمرتين هو كان متعمد يجي يشوفني فيهم..

والاختناق بدأ يتجدد ويطفو على سطح ملامحها:

- قالي إنه مشدود لي وحاسس بحاجة ناحيتي وأنا كنت طايرة من الفرحة لأني كنت اتشديت له كمان..

ثم بسطت ذراعيها تهبها تفسير:

- هشام ابن وزير فمتخيلة البنات كانت بتزحف وراه إزاي!..

نبرتها تزعزعتْ بعض الشيء، سعلتْ تجاهد للتخلص من حشرجتها وانفعالها:

- كنت مبهورة بفكرة إنه ساب كل دول واختارني أنا.. أعجب بيَّ أنا!..

ظهرتْ ابتسامة مريرة فوق شفتيها، وهي تراقبها.. تتأملها بعين واعية حين تصف ألف باء السقوط في خدعة العشق بحماقة:

- في نفس اليوم جالي عشان يديني وردة الساعة تلاتة الفجر..

ثم استقلتْ قطار الشرود وعادت بأفكارها ومشاعرها لذلك اليوم.. لهذا المشهد.. تقص عليها رواية الجميلة والوحش اللعين، الوحش الذي لم يكن أميرًا في حقيقته، بل شيطانًا!..

والدها الذي دفع بها بين أحضانه أملًا في سلطة، ترتيبات تناسب تطلعاته ورحلة تقربه درجة أو درجات من تلك التطلعات..

"أنتِ وشطارتك"..

كأنما يرمي بها نحو الهاوية بيديه!.. والشاب كان حلمًا يلائم وردية الفتيات، لقاءات، اقتراب، اقتحام وسهرة لم تنتهِ على خير..

استغل برائتها وجهلها بالكثير لتجد نفسها بعد صحوة من غفوة اصطنعها بدمها.. عارية بفراشه!..

صرختْ، بكتْ، هاجتْ، وألقتها في وجهه.. مغتصب..

لكنه برر ببساطة تليق بوغد مثله، هو لم يجبرها.. كانت معه بكامل إرادتها، وأعلن فضيحتها أمام أبيه وأبيها.. وقتها انتهت..

والده طردها ووالدها، أخبرهم أنه خطب بالفعل ابنة عمه، أن الأب يحتاج لتهذيب ابنته أولًا.. وهذبها بكل وجه ممكن..

جرها لغرفتها، ضربها، حبسها.. ثم باعها لأول شارٍ!..

"موسي"..

أنصتتْ "نيروز" لحكاية الفراشة المكسورة.. لكل قصة وجهان..

تلك حقيقة!..

الصغيرة التي ضمتها تحت جناحها وإن كان الدافع الأول هو الوصول لزوجها مجرد أنثى بلهاء، حمقاء كآلاف غيرها..

طوال حديثها كانت صامتة.. تكبت انفعالات وجهها التي تنهشها من الداخل.. تحرقها.. أناملها تطرق ركبتها بتتابع رتيب.. ومشاعرها تنتفض.. تصرخ.. تتأجج وتستعر، ظلت صامتة حتى

انتهت المنكمشة أمامها بنشيج خافت كأنما راحة التصريح منحتْ دموعها سببًا لتتوقف.. وقتها آن أوان الانفجار..

انفجارها هي، عندما زعقتْ بها بغتة بتقرير حازم فأجفلتها:

- أنت غبية يا ميرهان..

ومع تصلب الواجمة اقتحمتها بنظرة كالجحيم بينما تميل لتواجهها بغضب:

- أنت مش غبية وبس، أنت أغبى ست شفتها..

استقامت تغادر جوارها، تدور حول نفسها.. تبعثر خصلاتها، تتجه إلى المطبخ ومن خزانة منخفضة تلتقط زجاجة ما، تصب شيئًا من محتواها في كوب، تلقي فوقه بمكعبين من الثلج وتتجرعها جوار لفافة تبغ أشعلتها واشتعلت معها..

عادتْ إلى الساكنة بشيء من شرود وعبراتها تتجمد خلف أجفانها بخنوع، أشارتْ إليها بحنق:

- أنا مابحبش أشرب بالنهار، والسجاير دي بس لما باكون متضايقة.. دلوقتِ عملت الاتنين ومع بعض..

وانحنتْ تنفث سحابتها بوجهها ساخطة:

- والشكر لغبائك..

- نيروز!..

عاتبتها بهمس مختنق لم تكترث له وهي تترك الكوب فوق الطاولة، تستمر بسحب الأنفاس المحترقة إلى صدرها:

- غبية وعبيطة ولعبة مضحوك عليها..

ورمقتها بنظرة مزدرية:

- كنت فاكراكِ ذكية، بس كل اللي في الحدوتة بتاعتك استغلوكِ.. وكل واحد منهم أكل حتة من التورتة..

ارتمتْ بجسدها على الأريكة جوارها دون أن توقف رصاصاتها:

- أنتِ ساذجة بجد!.. إزاي ما فهمتيش الحيوان ده كان عاوز منك إيه!..

أطلقتْ ضحكة مبتورة، حانقة، غافلة عن تلك التي تجمعت دموعها بمقلتيها وسوط الحقيقة يجلدها بذنوبها وجهلها، سفهها وضعفها:

- وعشان إيه!.. عشان بابي يرضى عنك!..

أطفأتْ لفافتها تهرس عقابها في المرمدة بعنف قبل أن تعود بغضبها:

- طيب guess what ya baby!.. بابي حيوان أكتر منه..

تجاهلتْ شهقتها وارتداد جسدها مردفة بإشارة من يدها:

- كلهم تاجروا بيكِ، بس للأسف بابا بيعته خسرانة وبضاعته دلوقتِ معيوبة..

مع ما نطقتْ برقت عينا المخدوعة في صدمة، تجمدت الدموع كما رد الفعل، صفعتها بالحقيقة التي تعلمها في وجهها..

جسدها بدأ يرتجف، رؤيتها مشوشة، روحها من الألم فقدتْ قدرتها على الإحساس والإدراك التام، قلبها يئن وعيونها رغم الدموع التي تتراكم ما زالت على جمودها..

مع توالي انفعالاتها ظلتْ "نيروز" تراقبها، تستوعبها وتهتاج.. فائرة هي كبركان ثائر:

- وطبعا موسى ابن الجنايني اللي ستر على بنت الباشا بعد ما قبض التمن!..

مدعي الفضيلة ذاك، باع ما هو أكثر من جسده.. باع مروءته، شرفه، مبادئه.. باع وحصل على المقابل!..

ولم تتحرر العبرات.. فقط نُحرت الروح..

عبرة واحدة سالتْ كأنما لم تحتمل أجفانها كل ذاك الثقل، عبرة انتبهتْ لها "نيروز" أخيرًا ولمحت الفيض المسجون خلفها بلا حرية، وقتها هدأت بعض الشيء، زفرتْ بحدة حارة واقتربت تجذبها فوق صدرها بضمة قاسية، تعتصرها وتهمس في أذنها بأمومة غريبة:

- أنتِ بس اللي بتدفعي التمن يا ميرهان، وكلهم كلاب بينهشوكِ..

مع آخر أحرفها حدث الانهيار، كان لابد أن يحدث..

النحيب.. النشيج.. الاختناق.. وسيل الدموع الذي أغرق كتف من تضمها فاستشعرته ساخنًا محترقًا كحمم على بشرتها، أكملتْ وقد عاد غضبها:

- كل واحد استغلِك بالطريقة اللي تناسبه..

ربتتْ فوق خصلاتها المشعثة برفق:

- بابا شافك سلمة تطلعه درجة لفوق..

واضطرمتْ نظرتها بلهيب:

- والحيوان اللي استغل سكوتك شاف معاك ليلة لطيفة ويمكن بعدها ليالي..

ودون وعي أكملت تذم الزوج الغائب بغرابة عن المشهد:

- حتى موسى...

عندها خرجت الباكية من أحضانها، دموعها توقفت لتنطق بدفاع استنكرته:

- لأ..موسى مش زيهم..

وبعاطفة لا مكان لها وسط هذا الألم بررتْ له:

- أنا قادرة أشوف اللي جواه..

غابتْ فيه وفيما بينهما وما بنفسه المنغلقة:

- هو ظروفه صعبة وأجبرته..حياته غير حياتنا خالص...

- هه.. ظروفه صعبة!..

بصقتها باترة هازئة ممتعضة، لمحت دموعها اللامعة ببراءة لا تليق بوحشية العالم، لا تليق حتى بصحبتها هي..

"نيروز رستم"..

ذات الباع الطويل في عالم المال ودنيا الرجال..

بدلت سبابها بتفهم هادئ:

- يمكن معاكِ حق، مش الكل بيقدر يحارب الظروف.. في ناس بتنتهز أول فرصة وتنط للدور التاني من غير سلم..

اعترضتْ "ميرهان" على تقريرها، بيقين من اختلافه، بإحساس بما في داخله من صراعات وأزمات مجهولة:

- أنتِ صعب تفهمي..بس موسى مش الشرير اللي في الحكاية دي..

لقد عايشتْ من هم أسوأ!..

مطتْ نيروز شفتيها بصمت ليس بطويل.. ربما هي متعلقة به، ربما ترى فيه الفارس.. لكنه ليس بزمن الفرسان، كل الرجال يجيدون استغلال ثغرات النساء وقت الحاجة، وإن انقلبتْ الصورة وانعكستْ الفكرة باتت المرأة ماذا!..

عاهرة رخيصة..

تنهدتْ وربتتْ على يدها مجددًا قبل أن تمسح دموعها بأناملها بحنان:

- عارفة!.. لو كنت أعرفك وقتها كنت جبت لك حقك من الكلب ده هو وأبوه وأبوكِ كمان..

ابتسمتْ الفتاة وعلا ثغرها تعبير ساخر غير مصدق، ماذا كان من الممكن أن تفعل وقتها!..

- سهل قوي إن الواحد يحط نفسه في خانة السوبر وومن يا نيروز..

نطقتها بنبرة فاترة، وابتسامتها وسط دموعها في مشهد متناقض:

- الكلام سهل.. بس صدقيني ماكُنتيش هتعرفي تعملي حاجة وقتها..

وقبل أن تتحدث بشيء تقاطعها بإصرار:

- كانت غلطتي وده العقاب اللي أستاهله..

ثم فردتْ ذراعيها وعيناها تنزفان المزيد من الدموع:

- life is always fair..

تفهمتْ "نيروز" منطقها..

الفتاة مكسورة، لا تؤمن بالمعجزات، فاقدة للثقة بنفسها لكنها تثق به!..

أهدتها بسمة واثقة يشوبها شيء من غرور مفتعل:

- أولا.. don't underestimate me، أنتِ ما تعرفيش نيروز رستم ممكن تعمل إيه!..

أتت تنهيدتها الأخيرة لتحسم الأمر بعنفوان يليق بها:

- ثانيا.. لأ يا ميرهان، life is not always fair..

ولأنها ليست عادلة تمامًا أو دائمًا، فالقوي وحده من يمكنه استعادة حقه.. ولو عنوة!..

أما الجنة فلنتركها للمستضعفين في حينها..

**

هناك امرأة تحفر بصمتها بغرفات القلب، تمتلكه.. تعتصره.. تمزقه.. تتهاون في مراعاته؛ ثم يظل الأحمق الغِّر مغرمًا.. متيمًا بمن نقشت حكايتها بسطور أوراقه..

ذاك هو قلبه.. وتلك المرأة.. هي..

هي.. ليله بهيبته وسكونه وجماله..

ليله بقمره ونجومه وكواكبه السيارة..

دُچاه..

تلك المرأة.. هي زوجته التي تريد الفراق!..

فراقًا عانده، رفضه.. ماطل فيه..

أعلن الغضب ثم استسلم بصمت، ترك لها المنزل قبل أسبوعين محتجًا أن ترحل هي عن مملكتها، أقام بفندق قريب منها وعارض بشكل كلي رحيلها عن عملها معه، لكنها في كل لحظة لا تزال تصر بعناد بات يخنقه، يزعجه:

- دُچى إحنا اتفقنا، الشغل حاجة وعلاقتنا الشخصية حاجة تانية..

رمقته بنظرة صلبة لا تتنازل، لا تفاوض.. نظرة يدمن تفاصيلها بين جفنيها:

- واتفقنا برده على الطلاق يا منذر، وما أظنش إني ممكن أكمل شغلي معاك بعدها..

أشار بسبابته في وجهها بحزم:

- أنا أظن، بس ده اختيارك أنتِ..

تبدلتْ نظرتها الصلبة لأخرى مستنكرة تجاهلها مردفًا:

- وأنا ماعارضتش اختيارك..

شد قامته في بذلته الرمادية الأنيقة منهيًا الجدال بحسم:

- لكن لحد ما ناخد القرار النهائي بخصوص طلاقنا؛ هتفضلي مديرة مكتبي وأعمالي ودراعي اليمين..

مالتْ برأسها تهديه تأملًا متعجبًا قبل أن تهزها في غير استيعاب:

- قرار نهائي يا منذر!.. أمال الفترة اللي عدت دي كانت إيه!..

عقد ذراعيه قبالة صدره ونبرته تتأرجح بين الصرامة واللين..

بين الأمر والتوسل..

بين العشق والخوف:

- فرصة أخيرة..

اقترب خطوته التي أشبعتْ أنفاسه بعطرها واحتلتْ بصره بنعومتها ورقتها:

- دُچى!..

خفتَ صوته بلا إرادة ويده تمتد لتحنو على وجنتها بربتة خافتة:

- أنا بحبِك..

في كل مرة كان تصريحه بالعشق، اعترافه به.. يكبلها، يغُل يدها إلى عنقها فتتهاون.. تتراجع.. لكنه لا يستحق منها ذاك..

هي زوجته منذ ثلاثة أعوام..

حرمته أبوته بقرارها واختياره فقط لأنه يريدها إلى جواره..

زوجته التي لم تمنحه حتى فُتات المشاعر وهو لم يبخل بكل ما يمكنه عطاؤه للحظة.. زوجته الملعونة بقصة قديمة مازال جرحها ينزف!..

أبعدتْ يده برفق لا تريد أن ترى الحزن بعينيه:

- وعشان بتحبني؛ ما ينفعش نكمل مع بعض..

كانت طعنة نافذة؛ لطالما ظل عشقه لها عائقًا بينهما.. كلما منح منه أكثر، تباعدت هي أكثر فأكثر..

لم يمتلك قلبها، لم يصل لأعماق روحها..

كل ما فاز به منها وجودًا قصيرًا بحياته الباهتة دونها، انطفاء وهج مقلتيه بانهزام أوجعها، تراجعت خطوتين تفصل نفسها عن مداره:

- منذر.. أنا آسفة..

زم شفتيه بعضة قاسية وأسنانه تصطك من خلفها، حدج الأفق عبر الجدار الزجاجي لغرفة مكتبه بنظرة خاوية عاد بها إليها بعد ثوانٍ منهيًا تلك السفسطة ببتر:

- النهاردة في meeting مهم، هتجهزي ورق شركة الحسيني وتكوني موجودة معايا بصفتك مديرة أعمالي يا دچى.. مفهوم!..

- منذر!..

تناشده السماح لها بالغياب، بالرحيل ويتشبث هو بآخر ثوانيها معه، حوله.. في محيطه، ولو كان يتنفس أنفاسها من بُعد..

أومأتْ بموافقة شاردة..

ربما هو خيط وحيد.. أخير؛ وآن الآوان أن ينقطع!..

**

أحيانًا نختار الكذب لأننا لا نتحمل وجع الحقيقة..

نختار السراب لأن بيننا وبينه أملًا واهيًا؛ خطوات قد نجده بعدها ملموسًا..

نختار الوهم فالواقع يفيض بالخسارة!..

والوهم كان في مماطلة لم تُفِد بشيء، غاب عنها.. ظن أن الفراق قصير المدى قد يعيد قلبها لدرب الصواب، درب عشقه.. لكنها أصرت على طريقها البعيد عنه.. طريق النهاية..

دلف لغرفة الاجتماعات الأنيقة الملحقة بمكتب صديق الغربة وإن كان بوقت قريب، "مروان الحسيني" ومساعدة الأخير تتبعه بترحاب:

- أهلا وسهلا فيك مسيو منذر، مسيو مروان بانتظارك..

من الجهة المقابلة غادر "مروان" ما خلف مكتبه يستقبله بود دافئ:

- إيه يا بن الإدريسي!.. لازم يكون في شغل تقيل عشان نشوفك!..

صافحه "منذر" بذات الود وبسمته يشوبها حزن واضح:

- أنت عارف الظروف الملخبطة اليومين دول..

لوح "مروان" لمساعدته بإشارة فطنتْ لمغزاها فتركت لهما المكان، انفرد هو بصديقه الذي بات مقربًا عقب استقراره بألمانيا منذ ما يقرب من عامين ونصف:

- دُچى لسه مصممة على الطلاق؟..

هز الصديق والشريك رأسه بقنوط حائر والغضب يتسلل لنبرته:

- الطلاق وكمان عاوزة تسيب الشغل وترجع مصر..

توجه للجدار الزجاجي يتطلع للمشهد الخلاب من خلفه بتيه:

- حاولت أقنعها بكل الطرق.. بعدت عنها وإديتها مساحة تقرر وتعيد تفكير؛ بس برده لسه مصرة..

جاوره "مروان" ونبرته يغزوها حزم من سبق وخاض التجربة..

خاضها بخسارة وألم وفقد.. رحل وعاد وفي النهاية فاز:

- هي عارفة إنك بتحبها..

لم يكن يسأل، كان يعلم.. أفلتتْ عصبية شريكه من لجام تحكمه، التفت إليه بشبه زعقة:

- عارفة، عارفة من قبل جوازنا يا مروان.. أنا ما حاولتش أضغط عليها، ماحاولتش أحاصرها بمشاعري.. حتى تصريحي بالمشاعر دي كان محدود عشان ماأبقاش بفرض عليها حاجة هي مش قادرة تتجاوب معاها..

وضرب قبضته المشدودة بكفه المبسوطة بسخط:

- كنت باقول مع الوقت والقرب هتقدَّر وتفهم ويمكن قلبها يتفتح لي.. بس...

بتر كلماته بيأس مختنق والمجاور له يشرد بالمثل:

- ما فكرتش إن ممكن يكون حد سبقك لقلبها!..

- أنت بتقول إيه!..

قلب "مروان" كفيه بتسليم هادئ:

- أنا بفكر معاك، أحيانا لما الانسان يمر بتجربة حب نهايتها جرح بيبقى صعب عليه يقدر يخوض التجربة تاني بسهولة..

نفى "منذر" بضيق والغيرة تعلن عن حضورها سافرة بعينيه:

- دُچى عمرها ما قالت لي إنها حبت قبل كده..

وهو كان عاشقًا قديمًا، تذكر ما مر به فابتسم بفهم:

- مش لازم تقول..

وضع كفيه بجيبي سرواله ثم استند للجدار الزجاجي بكتفه:

- عارف الحكمة القديمة اللي بتقول إذا أردت شيئًا بشدة أطلق سراحه، إن عاد إليك فهو ملك لك، وإن لم يعد فإنه لم يكن لك من البداية!..

أومأ صديقه بموافقة متعَبة ليكمل هو:

- أنا كنت بطل قصة تشبه قصتك، بس الوضع كان معكوس.. والطير المهاجر رجع لوطنه، عارف إمتى!..

مال يحتل نظرته المترقبة في أمل بنظرة مسيطرة:

- لما اتأكد إن ده الوطن اللي فراقه وبُعده عنه هو الغربة الحقيقية..

تنهد بعدها بعمق وتحرك تجاه الطاولة فقد اقترب موعد حضور مندوبي شركة "أبو الغار" للاجتماع:

- حررها، ولو ليك فعلا هترجع لك مهما طال الوقت..

مع نهاية حروفه فتحتْ مساعدته الباب أمام شركائه الجدد والذي قدَّم أولهما نفسه بمصافحة لبقة:

- يزن أبو الغار..

أفسح للقادم من خلفه معرفًا بلهجة جامدة:

- يعقوب أبو الغار..

دخل "منذر" للمشهد في ترحيب مشابه وبدأ الاجتماع الذي امتد لدقائق ليست بالطويلة قبل أن تقطعه المساعدة.. تتقدم من رئيسها، تنحنى لتهمس له بشيء مبهم وتناوله حقيبة تعَرَفها "منذر" على الفور..

حقيبة أوراق زوجته!..

رفع ناظريه إلى صديقه، استقبل نظرته المندهشة بتفسير صامت؛ لقد أتتْ، سلمتْ الأوراق الخاصة بالصفقة.. ورحلتْ!..

اللعنة عليها..

طال الاجتماع لساعات تالية تخللتها استراحة غذاء دامتْ لنصف ساعة.. ثلاثون دقيقة راقب "مروان" في بعض منها ذلك الغامض الساكن طوال الوقت..

سطحه ساكن.. جامد.. خامد؛ لكن عيناه تُصرحان بجحيم مروع..

ما تحت السطح بركان مكبوت..

هو يعلم تلك النظرة..

يدرك مغزاها ويفهم مقصدها..

"يعقوب" الذي لم ينطق بكلمة، بل ينصت باهتمام جليّ كأنما يستوعب الحديث حرفًا حرفًا ويتشبع به!..

انتزعه من أفكاره اقتراب "يزن" يحمل كوبًا ضخمًا من عصير التفاح بعدما أعلن تفضيله له طازجًا على قدح من القهوة السوداء، ناوله لفافة تبغ وأشعلها حين سقطت عيناه على صورة طفلة فاتنة بركن مكتبه فابتسم يسأله:

- بنتك!..

راقب البسمة التي تشكلت فوق شفتيه بحنين لا يناسب ما لم يأتِ بعد، بترقب يليق به أكثر.. حنين لمستقبل قادم ويشتهيه اليوم قبل غدٍ، بعدها سمع رده بعاطفة يود اختبارها:

- أيوة.. شجن..

نطق الاسم من وراءه كأنما يتذوقه باهتمام:

- شجن!.. اسمها حلو زيها، تشبهك قوي على فكرة..

توسعتْ بسمة "مروان" لبداية ضحكة خافتة وعينه تميل للصورة بيد "يزن" بنظرة فخور:

- بيقولوا..

وكان هو يراقب وحده.. ما الجديد تحت الشمس!..

مزيد من الاحتراق..

حدث التآلف بين أخيه والآخر بسلاسة؛ كل منهما أب.. كان أو سيكون.. هما حتى يدخنان ذات النوع من التبغ الذي يتشاركاه بهذه اللحظة، في حين يقبع هو بمقعده عند طاولة الاجتماعات ورابع تلك الجلسة يواجهه مشغولًا بالأوراق والعمل؛ كأنما يدفن نفسه فيه لينسى شيئًا آخر!..

لم يكن يعلم أنه محور حديث أخيه مع مستضيفه:

- أخوك تقريبا ما اتكلمش معانا في شروط الصفقة أو حتى حاول يعدل عليها..

لم يلتفت "يزن" نحوه بل اصطنع بسمة عنوة:

- تقدر تقول لسه جديد في الشغل، بيتعلم..

رفع "مروان" حاجبيه بسؤال مهتم:

- career shift!..

وذلك تخمين جيد للغاية..

فسنه لا تسمح بأن يكون مبتدئًا في عملهم حيث أنه يوازيه عمرًا تقريبًا، لذا من المنطقي أن يكون قد غير مجاله منذ وقت ليس ببعيد، تخمين تأكدتْ صحته من جواب الأخ:

- أيوة فعلا، كان مدير مطعم في اليونان لحد من شهور بس..

أشهر تسرب فيها لحياته، أقحم نفسه بأركانها..

ونيته لا تخفى عليه، هو نفسه لا يخفيها عنه.. السيطرة!..

قبل تعليق ملائم رن هاتف "مروان" باسم زوجته، التقطه يجيبها بدهشة هامسة:

- خير يا سما!..

لم تكن هي.. كانت صغيرته تشكوها بحنق لذيذ:

- مراتك بوظت البيتزا يا مروان..

كتم ضحكته بعُسر وإن لم يمكنه سوى مجاراتها:

- يا خبر!.. البيتزا باظت!..

مع حديثها معه؛ تواترتْ الكلمات لأذني الطاهي السابق فتدخل بنصيحة مقتضبة تُصلِح الأمر بيسر، رمقه "مروان" بنظرة هادئة خالية من الانفعالات أو الأحكام.. نظرة هدوءها مريح تقبلها هو بهزة رأس..

سمعه ينقل التعليمات قبل أن ينهي المكالمة بخفوت باسم، وينتقل ليجاوره، يمد يده.. يعرض عليه تبغًا فيرفضه ببساطة:

- ما بدخنش..

ابتسم "مروان" بينما يشعل لفافته:

- يا بختك، أنا جربت مرة وماعرفتش أبطل..

وتحولتْ نظرته الهادئة لأخرى غامضة:

- التغيير مش سهل..

لم يأتِه منه ردًا ولم يكن ينتظر واحدًا، فقط أكمل بعد نفثة قاتمة:

- مش سهل تتنقل من وضع لوضع مختلف تمامًا وتتقبل أو تتعايش وتتكيف بسهولة..

رأى تقطيبته التي تمازجت حيرتها باستيائها، استياءً تجاهله، لقد كان يتفهم ما يمر به..

هو حُشر بنفس المكان قبل سنوات ولم يكن الانتقال سهلًا طيعًا، استرخى في مقعده أكثر ودخانه يشكل سحابة داكنة بينهما، أكسبتْ ملامح كل منهما تشوشًا مستحقًا ومرغوبًا:

- مش سهل هدفك يتغير سواء باختيارك أو غصب عنك..

ثوانٍ من صمت سادتْ وهو يتأمله.. يلقي بنظرة نحو أخيه المنشغل بالحديث مع "منذر".. أنهى اللفافة ودهسها في مرمدة أمامه متممًا حديثه بحزم جادٍ:

- الفرق فيك أنتَ، أنك تطوع ظروفك وخيارك الإجباري يكون هو طريق نجاحك..

وزفر ببسمة مطمئنة:

- نجاحك اللي تستحقه..

رنا إليه "يعقوب" بنظرة مبهمة:

- ليه الكلام ده!..

توسعتْ بسمة "مروان" وناوشها شيء من ود:

- مجرد رغي..

ثرثرة أصابت قلب الهدف بلا وعي..

تلاقت الأعين في حديث آخر.. حديث يغلفه السكون وبين سكونه تبعثرتْ الحروف والكلمات والحكايات.. تقابلت الخسارات..

فبين ضارية سلخ جلده، وشيطان يتمسك بعرش جحيمه..

هناك نقطة التقاء!..

.....

البعض يستحقون منا ألمًا رحيمًا..

عشقها ألمه، وفراقها رحمة من ذاك الوجع..

هو لا يفهمها، لا يدرك، لا يفطن لقرار البُعد.. هي تعتق قلبه من أسرها، لكنه يصر بحماقة عاشق على البقاء سجينها..

سجين حب لن يتجسد بعيدًا عن دنيا الأمنيات..

لبتْ رغبة زوجها في الحضور لاجتماع العمل كمديرة أعماله وذراعه الأيمن، وصلتْ لمقر شركة "الحسيني".. صفتْ سيارتها وراجعتْ أوراقها.. همتْ بالهبوط وبلحظة تصلب جسدها كله..

عندما يهاجم الماضي الحاضرَ عليك بالتنحي، بالفرار.. فالحرب دومًا خاسرة!..

لقد كان هناك أمام البوابة الأنيقة، صاحب النبضة الأولى..

اللمسة الأولى.. العشق الأول.. وإلى الآن؛ الأخير..

مشعوذ اللعنة وساحر تعويذة امتلاك الروح الأبدي..

"يزن أبو الغار"..

غرامها المفقود الذي نبذ قلبها باختيار حر!..

**

عندما تلوح الهزيمة في الأفق خُض الحرب كمقاتل ليس لديه ما يخسره.. بادر بالهجوم وانتزع من بين أنيابها النصر..

كن جنديًا صبورًا فهناك حروب دامت لمائة عام، تجلد، تثبت، واستخدم كل أسلحتك، اضرب نقاط ضعف المحارب الواقف في مواجهتك على خط النار بأشد عزم وأقصى قوة، ثم انتظر لحظة استسلامه.. في النهاية أنت أبدًا لن تكون الطرف المهزوم!..

"باقولك إني بحبَك"..

نجحت في أن تثير تعجبه واستنكاره، تفوقت في أن تسحق ثوابته ومبادئه بصدمة مباغتة لم يتوقعها..

صمت طويل مرَّ على كليهما، الأعين تتلاقى.. هي تتحدى وهو تتابع انفعالاته بإطراد، تتصاعد من الوجوم مرورًا بالاستياء حد الغضب، همسه يخرج محملًا باحتراقه وإن كان جامدًا، باردًا يشبه نصفه الآلي:

- عارف..

ذاك كان دوره في أن يهديها الصدمة، تبهت ملامحها، ترتد خطوة.. ترمش بتسارع بغيض، قلبها يرقص على حافة النبض الجنوني بهوس.. وتتجمد بلا حرف، اقتنصه هو بمبادرة قاسية:

- اللي مش عارفه؛ أنتِ متوقعة توصلي لإيه بعد تصريحك ده!..

رعشة تسربت لخلاياها جميعها، مرت بمسامها وتخللتها، اخترقت ضلوعها، وانتهت في شفتيها حين كابرت بإصرار عنيد:

- مش عارفة ممكن أوصل لإيه، مش عارفة ممكن أوصل أصلا لحاجة ولا لأ.. بس اللي أعرفه!..

وسكنتْ تمنحه وقت الانتظار الفضولي..

تلاحظ تقطيبته، ترقبه، لمعة عينيه برفض لحصار سيجت أفكاره به:

- إن أنا مش هاعلن الهزيمة من أول معركة في الحرب..

مع حديثها أعلن هو استهجانه:

- حرب!..

عادتْ خطوتها تقترب، تهدد وتتوعد قلبه بالنيل من دقاته واحدة تلو أخرى:

- أيوة.. حربي معاك، ومع قلبك يا عدي..

رفع حاجبًا مشدوهًا، رُغمًا عنه تلمس فيه وترًا استغربه:

- عدي!..

أمالتْ رأسها بلا اكتراث وكتفتْ ذراعيها تواجهه:

- ما تغيرش الموضوع، المرة دي أنا قلتها..

خطوة أخرى، ارتكنتْ لمكتبه بكفها وثباتها لا يهتز:

- أول وآخر مرة.. لأن المرة الجاية؛ أنت اللي هتقولها..

تلامس وتره الجديد عليه ثانية، تغضبه.. تفجر اعتراضاته، ويتعجب من صمته تجاه تصريحها المشاعري، من حربها ومباغتتها..

هو رجل لا يجيد الحب، لا يتقن فن رسم المشاعر وتلوينها.. ألوانها معه دومًا باهتة، محايدة تقع في منطقة رمادية لا معنى لها..

لم يدرك سر أحمر الغرام أو يفهم أصفر الغيرة، وردية الحلم ونارية الاشتياق واللوعة..

هو هناك يقطن في الواقع الرمادي، حيث التوازن والأمان!..

لذا خطا يرحل عن منطقة التيه بخطوة واسعة أقرب لقفزة:

- مافيش حاجة تستاهل الحرب دي يا رهف، خصوصا لو الغنيمة نفسها بعيد عن جبهة القتال..

لم تحتج أو تعارض..

اكتفتْ بالتنويه عما تؤمن به وتعتقد فيه كأسطورة قابلة للتصديق.. كأمنية ممكنة التحقيق:

- أنا شايفاك تستحق، وده قراري أنا..

هزأ باستهجانٍ قاسٍ، يدفعها بعيدًا.. بعيدًا للغاية، حتى حدود المجرة كلها:

- حربك نهايتها محسومة، والسحابة الوردية مش هتحميك من سواد الواقع وقسوته..

غيمتْ نظرة حزينة بين جفنيها وإن لم تتخلَ عن التشبث والعنفوان:

- أنا عمري ما كنت وردية، جرب تتخطى القشرة معايا يمكن تفهمني..

ذلك الوتر.. تلك النغمة الشاذة.. تعزفها بحسم، بدفء.. باقتحام لم يألفه!.. تنتهك خصوصية شروده بقرار:

"دلوقتِ هاشتغل سكرتيرة مع مي، ومش هتقدر تبعدني عنك تاني"..

صمته لم يتخلله سوى أنفاسه، غيابه.. نزال محتدم بين أفكاره وقناعاته الأزلية..

"لحد ما الحرب تنتهي.. يا تعلن استسلامك، يا أعترف أنا بهزيمتي"..

هناك شيء ما بها، لا يدركه.. شيء ألجمه للحظات قصار حتى أنهت حديثها بحزم..

"وأنا مش بانهزم بسهولة يا عدي"..

ثم غادرت.. فتحت أمام خطواته فخ العشق الذي يجهل دروبه غير المعبدة أو المستوية، ودفعته ليخط خريطته وحده..

وهو!..

هو رجل يفقد شجاعته دفعة واحدة فوق أرض المشاعر..

قرب الباب أوقفها صوته الساخر وإن لم تتضايق:

- صاحبة غزل، طبيعي الجنون يكون صفة مشتركة!..

استدارتْ تكابر، تجابه وتسيطر:

- الجنون حياة للي يعرف يعيشه صح..

وها هي الأيام تتابع.. عادت للعمل معه، مساعدة خاصة بمكتبه.. لا تمر ساعة دون أن تراه، تنقش حضورها في محيطه..

تمنحه الفرصة ليتشبع بوجودها، يستشعره.. يأنس إليه ويألفه.. تترك بصمتها بعقله قبل القلب.. فالقلب في هذا الصراع خصم صعب، مقاتل متمرد صلب..

"رهف!"..

كان يقف عند طرف مكتبها.. يطرقع أصابعه بمواجهة عينيها تمامًا ويبتسم بغموض، ينتزعها من شرودها في تلك الليلة قبل أسبوع..

لا يستوعب لمَ أعادها للعمل بالفعل!.. لمَ يُقربها منه!.. يتركها تطوف في مدراه، تحيط به وتدنو لحد يستنكره.. لكنه بذات الوقت لا يخشاه!..

هو لا يحبها، لم يتبدل ما بقلبه تجاهها، لا يخشى لحظة سقوط في هواها؛ فالعشق وأهله غرباء عنه وغريب عنهم.. هي فقط مختلفة!..

امرأة فريدة، مميزة.. يمكنه أن يقول استثنائية، شجاعة، قوية.. لا تخشى الهزيمة، ولن يقتلها قلب مكسور..

اعتدل في وقفته عندما رفعتْ رأسها تنظر إليه وأمر بصرامة جادة:

- ممكن نركز في الشغل!.. أنا واقف قدامك بقى لي دقيقتين تقريبا بانادي عليكِ..

نهضتْ عن مقعدها وإن لم تغادر ما خلف مكتبها:

- آسفة يا مستر عدي، ورق المستورِد كامل وأنا جاهزة..

حملتْ ملفًا ضخمًا مرتبًا، وضعته بحقيبة عمل أنيقة.. هندمتْ ثيابها وتقدمته ببأس تجاه الباب:

- فاضل على ميعادنا ساعة إلا ربع، هنوصل الفندق خلال نص ساعة بإذن الله..

تبعها بإعجاب عملي بحت..

هي هنا مسيطرة، متمكنة، وفي وقت العمل تبدو وكأنها محصنة ضد قربه!..

ابتسم وتلك الحرب التي أعلنتها عليه، المعارك المتوالية التي شنتها على فؤاده تنشر في أوردته شيء من.. حياة!..

**

الأم هي جدار الأمان الأول والأخير..

سد الحماية في مواجهة ضربات معول القسوة التي تهدم الروح وتُقوِض أساسات النفس والعقل والقلب..

الأم هي الاكتفاء عن العالم بمن فيه..

الأم التي حملتها، أنجبتها، تقوتت على جسدها وحنانها ودفئها.. وها هي تحملها من جديد لبيت تحميها تحت سقفه..

تبعتها إلى داخل الشقة الصغيرة الأنيقة، كانت منطقة هادئة غير حيوية لكنها تناسبها، غرفتي نوم، ردهة استقبال بها معيشة مريحة ومطبخ.. الآن لها مسكن يأويها..

"بتاعة مين الشقة دي يا ماما!"..

راقبتها تغلق الباب بهدوء خلف حارس العقار الذي حمل الحقيبتين الضخمتين لأجلها، تقترب منها وتجيب بنبرة جامدة لم تنتبه لها:

- بتاعتك.. دفعت لك إيجارها سنة، لحد ما أقدر أجمع مبلغ وأشتريها من غير أبوكِ ما يعرف..

واجهتها بوقفتها غير المتزنة، نظرتها الضائعة التي رغم كونها معها منذ ذلك اليوم.. يوم العودة من الموت؛ لا تزال ترسم رعبها وخوفها من الغد..

ناولتها مظروفًا ممتلئًا:

- ده ورقك، عشان تدوري على شغل.. ولو مش عاوزة هنا سافري أي محافظة تانية وعيشي حياتك..

الجمود يغلف صوتها بغرابة!..

جمودًا انتبهت له "ليلى" هذه المرة فرفعتْ عينيها إليها بحيرة وتساؤل لم تتأخر والدتها في تفنيده بجواب..

صفعة!..

صفعة قاسية، عنيفة ارتدت لها خطوة بصدمة قبل أن تبترها السيدة واهنة القلب والجسد.. تجذب خصلاتها، تهزها.. تصرخ فيها وتكرر الضربات الضعيفة المنحورة:

- ليه!.. عملتِ في نفسك وفينا كده ليه!..

انهارت "ليلى" تحت قدميها فتبعتها، تلكم ظهرها بتعب، بإنهاك، بفؤاد مجروح مطعون بالألم..

تبكي وتشاركها النحيب وتستمر في السؤال:

- ليه يا ليلى!.. ليه!.. كسبتِ إيه!..

لا.. بل ماذا خسرت!..

لم تتوقع ردًا وابنتها مستسلمة تمامًا تحت وقع الخبطات واللطمات، منطوية تحت جناحها.. بين ذراعيها، مستكينة للوجع الذي يمر على خلاياها واحدة واحدة بسكين ثالم..

في النهاية استكان الجسدان ولم تتوقف الدموع، هدأت الشهقات رويدًا رويدًا، حتى خُتم المشهد البائس بضمة..

الأم جالسة على الأرض، ظهرها يرتكن لأريكة المعيشة، وفوق صدرها ابنتها الباكية بنشيج مختنق.. ساعة أو أكثر بقليل ظلتا على ذات الوضعية في سكون حتى أبعدتها أمها عن أمان احتوائها:

- لازم أمشي، أبوكِ لو عرف إني معاكِ مش هيسكت..

حركتْ ابنتها وجهها لتلاقيها، تركته لها لتمسح عبراتها بأناملها في حنو حزين:

- هاشوفك تاني!..

أعادتها بغتة بين ذراعيها في ضمة غليظة فظة خائفة:

- طبعا.. مش هاسيبك لوحدك أبدا..

الأم!..

جدار السلام والسكينة.. ملاذ آمن ضد نكبات الحياة.. وملجأ صلب يحمي من كل فقد..

**

متى يعود الشيطان إلى الجحيم!..

عندما يحين وقت العقاب..

هو عائد إلى جحيمه بعد غياب ما يزيد على الأسبوع.. جحيمه وسط عائلته، الجد.. الأخ، زوجة الأخ..

وهي.. زوجته..

شمسه الغاربة وابنها..

أهدأ ما مر عليه من وقت خلال الشهور الماضية، كان تلك الرحلة.. وتحديدًا؛ الساعات التي قضاها في الهواء، معلقٌ بين السماء والأرض في جسم معدني ثقيل يحلق به وسط السحب.. رُغم أن

أخيه يجاوره لكنه لم يشعر بوجوده، كلاهما تجاهل الأخر مانحًا إياه شيء من راحة التغافل المؤقت..

موعد وصول الطائرة كان في السادسة صباحًا، بعد إنهاء الإجراءات قرر "يزن" الخروج من المطار رأسًا إلى شركة "الديب" وإنهاء العمل مع "عمار"..

واختار هو العودة إلى المنزل..

حمام منعش، قهوة مُرة.. واستعادة نشاط..

استقبله جده بمصافحة منعتْ نظرته الرافضة تطورها إلى ضمة.. ضمة لا تشبهه ولا تشبه الجد ذاته..

في الأعلى كانت هي بغرفتها، بابها مفتوح على مصراعيه كأنما ظنت أنه سيتبع أخيه للعمل، نائمة في وضع جلوس بفراشها وطفلها بمهده..

تحرك يخطو إلى غرفته، ينهي ما أتى لأجله ويرحل.. لكن قدماه غيرت وجهتهما بلا إرادة إليها!..

ثوب بيتي كريمي، بحمالتين عريضتين وفتحة صدر دائرية لا تخفي الكثير ولا تظهر الكثير كذلك.. بل تقع في حيز الحياد كمن ترتديه..

ناعم، بسيط مثلها تمامًا..

غارقة في نعاس هادئ رُغم وضع جسدها غير المُرتاح، بين يديها دفتر ورقي ومن قبضتها سقط قلم رصاص على الوسادة.. و.. وجهه!..

رأى ملامحه تتشكل بالخطوط الرمادية الباهتة، تتشكل دون اكتمال..

وجهه مبتور.. مقسوم..

عينه الواحدة تحمل نظرة قاسية، شرسة.. غاضبة!..

الصفحة مقسمة لأربعة أجزاء، في كل منها رسم ما، والأخير يحتويه هو.. قرب فكه فقاعة حوار كما في القصص المصورة، خالية من الكلمات.. مالتْ شفتاه بشبه بسمة ساخرة..

لها هواية إذًا!..

التقطتْ أذناه تململها، تنهيدة مقطوعة انتهت بأنَّة خافتة قبل أن يتفرق جفناها ويتجسد حضوره بينهما..

انتفضت حينما لاحظت دفترها بيديه.. والتوقع القادم؛ أن يمزقه ويلقي بهبائه المنثور فوق هدنتها المحدودة من وجوده!..

تصلبتْ نظرتها، وهو خالف كل توقع عندما توسعتْ بسمته.. توسعتْ لتخيفها وتمتمته تستخف بموهبتها:

- comics!..

هزتْ كتفيها بلا معنى، ترتبك وتفند:

- مجرد هواية..

قلب الصفحات ليجد قصة خيالية لا ينقصه حوارها ليفهمها..

البطل الخارق.. الشرير.. انتصار الخير!..

وهو.. كان الشرير..

تهكم باستهانة:

- بتدوري على super hero!..

بتر ردها الذي لم يسعه مغادرة حلقها المختنق:

- مافيش حد مثالي يا شمس..

عاد للصفحة التي وجد الدفتر مفتوحًا عليها، يتمعن في تفاصيل رؤيتها له:

- الناس مش عاوزة تكون بطل سوبر..

وأكمل بفلسفة شيطانية تليق به:

- بيتمنوا يكونوا الشرير..

كادت تقاطعه باستنكار لكنه تمم حديثه بلا اكتراث:

- اللي بينتهك كل قانون..

ثم تبدلتْ البسمة المستهجنة لأخرى ضارية:

- ويدوس على أي حد..

اعتدل بعدها يمرر لها بين طيات كلماته الرسالة:

- بس أجبن من مجرد المحاولة..

جلستْ في وضع مستقيم تساوي خصلاتها الطويلة بهروب:

- ليه بتسميه جبن!.. ليه مش اختيار!..

- دي الحقيقة..

- كده يبقى إنسان مش سوي..

- وهو مين فينا سوي!.. كل واحد جواه خلل بشكل أو بآخر..

اقترب خطوة مُميلًا رأسه، مستطردًا بيقين قاتم:

- الفرق إن البعض بيعتنق الخلل ده ويعترف بيه..

وعاد ينتصب مختالًا بأفكاره الحالكة:

- والباقي بيخبيه ويهرب منه..

منطقه روَّعها؛ كيف يرى العالم بتلك الجهامة!..

ما الذي مر به خلال عمره ليصبح ما هو عليه الآن!..

حاولتْ سحبه من ظلماته بنبرة هادئة متحدية:

- ليه ما تقولش بيحجمه عشان يعيش حياة سوية!.. بيسيطر عليه عشان يكون...

- مثالي!..

بتر جديد.. وازدراء سافر:

- كده هنرجع لنقطة الصفر في كلامنا..

وكبتَ أنفاسه بصدره لثوان، يترك لها حرية اختراق ضلوعه على مهل:

- مافيش حد مثالي..

ارتد للدفتر بيده وبسمته تنتشي للحظة ضائعة بما رسمتْ، هي تراه الوحش.. وهو واحدٌ لا ينكر، قرر بلامبالاة:

- يعني أنا الشرير في حكايتك..

كان يتأمل نصف وجهه المرسوم على أوراقها بلا غضب يُذكر..

الجمود يطغى على كل انفعال سواه، يرى النصف الآخر يتلاشى في ضباب، أو ربما هو دخان يتصاعد بعلامة الموت..

جمجمة فاقدة لفكها السفلي، وتجويف العين يبدو وكأنه يلقي بتعبير مُهلك.. ألَّا مهرب منه!..

أبعدتْ بصرها عنه من جلستها وفؤادها ينبض بتوجس.. نبرتها تختنق بارتباك حائر، خائف يدعي الثبات ويتمسك بالعناد ولو من باب التعب:

- أنت اللي اخترت الدور ده..

لم يحِد بناظريه عن صورته، التصقتْ نظرته بها كأنما يرى حقيقته بالفعل فيها.. نطق كلماته شاردًا ربما لأول مرة:

- ما اتعرضش عليَّ دور غيره..

تبدل توجس الخفقات لألم؛ لا تصدق انها تألمتْ لأجله الآن!..

لكن ما نطق به لا يحتمل التورية أو الالتفاف.. كان صادقًا حد شفقة مسَّتْ قلبها لخاطر ذلك السواد، الفراغ الذي ابتلع عينيه، لهجته، أفكاره وربما روحه:

- ولو اتعرض غيره؛ هتقبل الدور!..

أفاق على سؤالها وأدرك أنه زل.. أن الشيطان الذي سلب منه الروح، والوحش الذى تغذى عليها قد أفلتا قيده المتين سهوًا، عاد لمقلتيه عتمتهما، فاء لصوته قسوته وجموده وشراسته فكان الجواب باردًا، مخيفًا:

- مابقاش مجرد تقمص يا شمس..

وألقى بالأوراق إليها فوق الفراش متخطيًا البرود إلى الوحشية:

- بقى جلد بيتسلخ بالوجع والدم..

سكنتْ بعض الشيء عاجزة عن رد فعل.. بعدها بلا وعي استقامتْ تواجهه، ترفع عينيها إلى عينيه.. تشرف على الغرق وتتشبث بطوق نجاة مثقوب، بالكاد يحملها فوق موجاته العاتية..

تلمح بقعة الضوء الخابية خلف الظلمة التي تسود النظرة واللحظة والحياة..

تلمحها تنطفئ.. تقاوم.. تذبل.. تحركها رياح القسوة..

توشك على الموت، وتتعلق بحبال النجاة.. تختنق بها كأنشوطة..

تلمحها تسطع كمنارة في بحر هائج، وتخبو كشرارة ميتة تحت الرماد..

كادت تنطق بشيء ما، لكنه أجفلها وبين جفنيه يستعر جحيم مباغت لطالما أرعبها:

- إيه ده!..

تخطاها يزيحها من طريقه بساعده، انحنى يلتقط منحوتة خشبية صغيرة بحجم قبضة يد، دقيقة الصنع للغاية؛ بل هي في الواقع تحمل بين خطوطها ومنحنياتها ما هو أكثر من الدقة..

تحمل حياة!..

المنحوتة تمثل راقصة باليه في وضع جلوس، منطوية على نفسها كزهرة تضم بتلاتها إليها في انتظار دفء الشروق..

رعدة جليدية مرت بكل خلية فيها، رعدة أوشكت أن تزهق روحها وهي تدرك أي خطأ أوقعتْ نفسها به؛ لكنها بذات الوقت توقن بخبرتها معه أنه لن يصرح لو كذبتْ!..

ازدردتْ ريقها بمشقة، أشارتْ بتوتر:

- دي هدية..

مع سواد حدقتيه الذي ابتلعها كلها كما تبتلع الثقوب السوداء وهج النجوم والكواكب أردفتْ بحشرجة:

- من غزل..

لدهشتها تبدلتْ الدُجنة لاستخفاف ساخر بينما يقلبها بين أصابعه:

- فعلًا!..

أومأتْ بصمت فتفحص قاعدتها باهتمام هازئ:

- وإيه التاريخ ده بقى!..

هزتْ كتفيها تفتعل حيرة دون إجادة:

- مش عارفة، يمكن اللي اتصنعت فيه..

كانت تكذب.. تناور.. وكان يلاعبها.. يناور بالمثل مناورتها الساذجة المحدودة.. لعبة الثعلب مع أرنبته التي تنبش وراءه بجهل..

ثباته في هذه اللحظات يُحسد عليه..

هي تستحق الموت على تخطيها حدوده، لكن عقابها سيكون أشد هولًا!..

دفعها إلى قبضتها وشد قامته باقتضاب وازى رحيل خطواته:

– piece of junk..

تحررتْ أنفاسها بتنهيدة صعداء حارة، لقد نجتْ.. حتى لو كانت نجاة مؤقتة..

قلبتْ المنحوتة بين أصابعها بعين مرتجفة، ترتسم بسمة مشتتة فوق شفتيها وتتذكر!..

كانت سفرته هي فرصتها الوحيدة، ولطالما اعتادتْ التمسك بأذيال الفرص.. معزله ومعتزله خالٍ منه، والمفتاح قد يكون في مكان ما..

فتشتْ غرفته شبرًا شبرًا، قلبتها رأسًا على عقب ثم أعادتها سيرتها الأولى.. في النهاية وجدت كتابًا!..

رواية عالمية لم تقرأها لكنها تعلم نبذة عن مضمونها..

Great Expectations لتشارلز ديكنز، قصة الطفل "بيب" اليتيم الوحيد الخاسر لكل شيء..

فتحتها تمر فوق سطورها بسرعة وسقط المفتاح!..

سقط وقد كان مثبتًا بلاصق في دفة الكتاب الخلفية.. مفتاحًا واحدًا يبدو أنه المستخدم دومًا لأن بقية النسخ مختفية، لكن نسخة واحدة أكثر من كافية.. انتظرت حتى انتصف الليل، هدأ المنزل ونام كل من فيه مثل طفلها.. وتسللتْ تتصلب أمام باب الغرفة الموصد..

تتردد، تحتار، تخاف رد فعله لو علم.. وتفوز رغبة المعرفة في حربها مع كل مشاعرها المتضاربة.. تمد يدها وتدير المزلاج بهدوء..

القرب أرض زلقة؛ ما إن تقترب حتى تنال السقوط.. والبداية دومًا خطوة.. خطوة واحدة!..

خطوة أسوأ ما يليها إدراك المزيد من التفاصيل، إدراك ما خفي عن العين البعيدة..

والتفاصيل وحدها كارثة؛ لأنها تبيح لك الغوص فيما كنت تجهل بحماقة وطيش، حينها.. تولد المشاعر!..

تولد دون انتباه..

لقد أخذتْ خطوتها برعونة، بفضول قططي النكهة.. وها هي الآن تقف بصومعته، بمنتصف محراب وحدته حين غيابه!..

تقف لتتأمل المكان بصدمة..

لم تكن هناك جثثًا مذبوحة معلقة من أعناقها كالخراف، تسيل منها الدماء، وابتسمتْ للفكرة الطفولية..

كانت الغرفة متوسطة المساحة، بأحد أركانها طاولة مربعة بسيطة، خلفها مقعد في ظهره الجدار.. فوقها أدوات تشكيل أو نحت معدنية منسقة بعناية.. وعلى جدار مواجه عدة أرفف تتراص عليها في نسق واضح منحوتات صغيرة من الخشب..

منحوتات متقنة الصنع لحد مبهر..

هل هو من نحتها!..

بالتأكيد نعم، فهنا يقضي الكثير من وقته..

أهي هواية!..

ولمَ يكتمها كسر حربي لا يجوز البوح به!..

خطتْ تطوف قرب الأرفف، تتفحص التماثيل باهتمام، طيور.. حيوانات.. بشر.. أشكال تجريدية..

و.. راقصة باليه!..

بل العديد منها، مكومة بلا نظام في ركن مظلم..

نبضها تسارع قهرًا بينما تلتقط إحداها، تمسكها باستغراب، تتأملها بين أصابعها، تتفحصها وتلمح التاريخ أسفلها..

هي تذكر ذلك اليوم، منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع أو يزيد..

يوم انتهت رقصة آلامها بين ذراعيه!..

جذبتْ المجموعة كلها تفتش فيها، تقلبها وترى الزمن المحفور على قاعدتها، ترتبها تبعًا له..

بداية بالسقوط..

نهوض.. تحليق..

دوران.. وجمود!..

هي رقصتها.. وهو.. نحتها بكل تفاصيلها حتى اصطدام جسدها به!..

تجمدتْ كل أفكارها، لحظتها لم تستطع تخمين سببٍ واحدٍ يجبره على تجسيدها..

تجسيدها بدقة تكاد تنبض بوجعها، بانكسارها.. بقوتها..

اختطفتْ الأولى منهن، ضمتها قرب صدرها وشيء من الضباب الذي يحيط بزوجها ينقشع..

هناك بداخل ذلك الرجل.. خلف قشرة الشيطان؛ يقبع مجهول!..

مجهول لن تتراجع عن الغوص فيه بحماقة أنثى، دون أن تفتش عن دافع..

أنثى لا تدرك أن المعرفة قد يليها سقوط!..

**

في الحروب لم يكن أبدًا جنديًا مقاتلًا، كان قائدًا يجنح للسلم ويبادر بالهدنة رغبة في السلام.. كان مسالمًا حتى احترق..

والعائد من الاحتراق لن يكون سوى شيطان يمكنه العيش بجحيم الحياة دون أن يتجدد الموت..

ابنته لا تزال على حالها، أخيها حزين ومنطوٍ.. هي حادة، عنيفة وقاسية، وهو بات يفقد صبره معها من كل ثلاث مرتين..

ألحقها بدراسة صيفية فشلتْ فيها بجدارة كأنما تتحداه بالخذلان، تتباعد عنه وعن شقيقها المتعلق بها..

تُقلب في صور أمها التي لم يحرمها من وجودها قربها كل ليلة قبل نومها.. ثم تبكي!..

لم يقبل جبينها حين نومها إلا ولمح أثر الدموع، دموع تخفيها بواجهة خشنة لا تليق بطفلة تحتاجه ولا يدرك كيف يلبي ذاك الاحتياج!..

كان بمكتبه بفرع فنادقه الذي يديره بنفسه، يجلس خلف المكتب في وضع استرخاء لا يمنحه راحته الكافية، مسح وجهه يتذكر عقابه لها بالأمس لأنها صرختْ في مربيتها وقلبتْ طعامها على الأرض..

مخاصمته لها وضمته حال نومها، تعبه وإرهاقه وشعور الفقد الذي خلق بداخله فجوة شاسعة، هوة واسعة ابتلعته بالكامل..

اللعنة عليكِ يا معشوقة لم تجنِ شيئًا من متعة مسروقة في لحظة فجور..

بل خسرتْ ولعنته بالخسارة مثلها..

سمع طرقات منتظمة على بابه ومساعدته تخبره بحضور مدير الموارد البشرية بالفندق لضرورة هامة..

استقبله ليخبره الشاب النابغ بحرج بينما يعدل منظاره الطبي:

- آسف يا وجيه بيه، عارف إن ده شغلي بس قلت أعرض الموضوع عليك..

قدم له ملفًا صغيرًا التقطه "وجيه" بتساؤل والشاب يردف:

- دي CV بنت عم مختار حارس الجراج، بيدور لها على شغل.. هي معاها شهادة تربية انجليزي وبتعرف ألماني على كلامه.. أنا مش شايف الورق كفاية خصوصا إن الخبرة معدومة، فقلت أستشير حضرتك يمكن يكون في رأي تاني خاصة إنه خدم المكان من سنين طويلة..

تصفح "وجيه" الملف بشيء من ملل قبل أن يأمر بصرامة:

- ابعتهولي يا سامر وأنا هاتصرف..

أغلق الورق ورماه إلى جواره بإهمال.. انتظر العجوز الذي وقف يواجهه بعد ربع الساعة بحيرة:

- خير يا وجيه بيه!..

غادر مقعده واستقام يقترب منه، يبتسم له برفق ويطمئنه:

- خير يا عم مختار، ما تقلقش يا راجل يا طيب..

وأشار له بالجلوس قرب المكتب فاستجاب على استحياء، واجهه في جلسته وبادر بحزم:

- سامر بلغني أنك بتدور على شغل لبنتك!..

ارتبك العجوز قليلًا ثم ابتسم بخجل:

- اعذرني يابني، أنا عارف إن يمكن مؤهلها مش كفاية، بس هي محتاجة شغل وبتعرف لغات والله يا وجيه بيه، لو أمكن تشتغل في الاستقبال حتى..

استرخى المقابل له أكثر ونبرته الهادئة لا تتبدل:

- مش سهل أخليها واجهة للفندق يا عم مختار، أنا شفت إنها خريجة تربية؛ ليه ما تشتغلش مدرسة!..

سارع الرجل بتبرير يشوبه لمسة من حزن كسير:

- اشتغلت فترة، ولما اتجوزت من خمس سنين جوزها قعدها في البيت، بس دلوقتِ..

بتر كلماته بقلب منهك، لم يحثه "وجيه" على الحديث.. ترك له استكمال سيرتها بنفسه وفعل:

- دلوقتِ بعد ما اتطلقت مش سهل تلاقي شغل في الحكومة..

ثم اندفع بفخر أب وحنوه:

- بنتي شاطرة قوي، كانت بتدرِّس انجليزي لطلبة الثانوي.. ولما قعدت في البيت اتعلمت ألماني عشان تشغل وقتها وخدت دبلومة في علم النفس..

- تشغل وقتها!..

كلمة لفتت انتباهه!..

فإن كانت متزوجة ولديها بيتها وأطفالها لم تحتاج لملء فراغ!..

هم وحدهم يحتاجون فوق طاقتها طاقة مضاعفة وهو خير من يعلم..

- أيوة يا وجيه بيه، لما اتطلقت قعدتها في البيت واجعة قلبي عليها.. هو جوزها له الحق بس اللي حصل كسرها..

انتفضتْ دواخل "وجيه" بغتة!..

قستْ نظرته.. أظلمتْ وتوحشتْ حتى أنها أرجفت العجوز الصامت بلا فهم:

- له الحق!.. ليه هي عملت إيه!..

يفتش عن تهمة تستحقها..

عن إثم قد تنحر به كل أنثى رجلها!..

- ماعملتش حاجة والله يا بيه، رحيل دي زي النسمة؛ بس.. بس..

- بس إيه!..

صارمة، داكنة بسوادٍ يغلف روحه، سوادٍ أجبر من أمامه على رغبة هروب نصف ناجحة عندما نهض فقابله بنهوض مماثل يمنعه:

- ما خلفتش طول خمس سنين، لفوا على دكاترة كتير وربنا ما أرادش.. جوزها ماكانش بايع، كان شاري.. قالها أتجوز وحقه يكون له حتة عيل يشيل اسمه.. بس هي ما قدرتش تستحمل، طلبت الطلاق..

صمت طويل مر، ظل خلاله "وجيه" يتأمل الرجل الذي يعانق الأرض ببصره، يفكر.. يُجري معادلة سريعة حول صدفة أسقطها قدره بطريقه.. معلمة.. مربية.. ومعها شهادة بعلم النفس..

أتلك ضربة حظ، أم رحمة من خالقه به!..

تنهد ثم أعلن قراره:

- خليها تقابلني يا عم مختار، وربنا يقدم اللي فيه الخير..

برقتْ عينا الواجم بسعادة، شكره كثيرًا، دعا له أكثر وغادره يتركه غارقًا في لُجة أفكاره..

هو جندي وحيد بحرب ينشد نهايتها، يرجو عودة للخطوط الخلفية، وهدنة تهدي روحه شيئًا من سلام!..

**

نحن نرحل حين الفقد، ونعود كذلك حين يتجدد الفقد..

هجرتْ وطنها عندما فقدتْ العشق والمعشوق..

وعادتْ وقتما فقدت أمها!..

أمها الغالية التي منحتها كل قوة امتلكتها يومًا، رحلتْ عن دنياها قبل ثلاثة أشهر، ومن بعدها بات والدها منعزلًا عقب خسارته لحب العمر.. الأول والأخير..

والدها الذي دفع من حياته وصحته واغترابه عنهما فقط ليوفر لها حياة كريمة لا تقل عن رفيقات سنها..

طالبته بالسفر إليها، لكنه أصر بحزن على البقاء:

- عاوزاني أسيب بيت وصال يا دچى؟..

والدتها.. من وصلته حتى انقطعت الأنفاس، حبيبته وعاشقته التي بفقدها فقدت جزءًا من روحها لا عودة له أو لسابق عهد ما قبله..

والآن ها هي.. فارقتْ زوجها المحب تفاديًا لظلمه وظلم قلبه أكثر مما مضى.. تطأ أرض وطن غابتْ عنه لما يقارب عمرًا.. وتجد حبها الأول في انتظارها عند بوابة المطار، فاتحًا ذراعيه بنظرة شجن داعمة:

- حبيبة أبوها..

ضمته ترمي برأسها على كتفه لتنال راحتها أخيرًا:

- أبو علي..

تنفسته، شدَّدت من ضمته وتنهدت..

تراجعتْ تدور بعينيها من حولها، لا شيء تغير.. أو ربما كل شيء تغير إلا ما يقسو على قلبها بنبض حائر مشتاق.. خائف..

الخوف حين العشق؛ مباح..

والأمل حين خسارة ذات العشق؛ مشروع!..

(16)

عجلة الحياة لا تتوقف عن الدوران، لتحمل لنا معها في كل يوم..

مفاجأة!..

**

الزمن مفقود بين جدران السجون..

خلف القضبان يتماهى الاحساس بالوقت، يتشابه الليل مع النهار، ويتمازج الشروق بالغروب فيضيع من ذهنك عدد الأيام..

اثنان.. ثلاثة..

سبعة..

بالكاد تغادر زنزانتها والمسمى غرفة، وهو بالكاد ظهر..

هناك اثنين من الخدم المقيمين، فتاة عشرينية أو أصغر، هادئة لا ترفع عينيها إليها أبدًا.. تهتم بأمور التنظيف اليومية، ومديرة المنزل

الخمسينية، سيدة صارمة بخصلات رمادية معقوصة بحزم يوشك على تمزيق جلد جبينها، وهي الأخرى لا تتبادل معها حرفًا واحدًا..

طعامها يأتيها أمام باب غرفتها التي يتم ترتيبها كخدمة الغرف بالفنادق، غير مسموح لها بالخروج عبر باب المنزل المدعوم بجهاز أمني يعمل ببصمته.. وبصمة أخيه والسيدة المخيفة "وسيلة"..

قبل يومين أخبرها أن صبره ينفذ، أنها مرغمة على اتخاذ قرار وخاصة تجاه والدتها الروحية، هدد مجددًا بالشاب الذي وظفه في شركته قبل ستة أشهر.. ورضختْ لتهديده، لا تملك هنا سوى الرضوخ..

كلما حاولتْ التفكير في ثغرة، تدرك أنه امتلك من الوقت ما يكفي ليدرسها.. يدرس أرضها، مواقع دفاعاتها وقوتها وقوضها قبل بداية الحرب.. تلك الحرب التي هزأ منها عندما ذكرتها مستهجنًا:

- أنتِ مش طرف في حرب يا وسن، أنتِ طروادة.. كل اللي عليك تعمليه تقاومي شوية، في الآخر تقعي في الفخ.. وتفتحي بابك بغباء لعدوك..

نعم كانت غبية، ساذجة.. متلهفة لسقطة عشق دقتْ عنقها..

كانت وحيدة، ووحدتها بهذه اللحظة تبدو أفضل ما في الكون، فقط لو تشبثتْ بها.. هي تخلتْ عن قناعاتها، أدخلتْ أحدهم لحياتها..

لا.. أدخلت أسوأهم!..

بالأمس وبعد وعيد بالأذى قابلت "زُهرة".. منحتها منزلًا صغيرًا بقريتها، بمساعدته، وأخبرتها أنها الآن حرة من التواجد حولها، أنها تستحق الراحة.. أن تكون ملكة في بيتها..

بكتْ السيدة وهي تماسكتْ، لم تذرف دمعة واحدة..

كل خوفها تجمع وهرب عابرًا باب قلبها الخلفي فرارًا من عاصفة عاتية اقتلعتْ كل ثوابتها، من إعصار أسود رآه قادمًا ليدمر ما بقي فيها من مبادئ لا تسمن ولا تغني من جوع..

حربها معه قذرة، حربها معه دموية.. ولن ترضى إلا بنزفه هو!..

ليلًا تناولت معه وأخيه العشاء، الصغير الذي كلما لمحته بحديقة المنزل يطوف فيها بلا هدف، يجلس على أرجوحة أنيقة بشرود نحو

السماء.. يغلق عينيه كأنما الجفون المتعانقة تشكل فارقًا بقاع ظلامه.. الصغير الذي يلوي عنقها بقبضة الذنب، ويطعن روحها بحراب الألم والندم..

ليتها لم تستجِب لوالدها، ليتها لم تكن فخورًا بنفسها حد الغرور وعنجهية الكمال.. ليتها ماتتْ يومها قبل أن تؤذي طفلًا أضاعتْ بيديها مستقبله في تحدٍ مع العلم، مع خبرة الأب الذي حذرها من التمادي مع ورم متشعب..

وليت الأمس بالأمنية!..

على مائدة العشاء تساءل الأخ عن غيابها، وتعلل هو بخبث ذكوري أنها عروس..

ابتسمتْ له ساخرة..

عيناها تتحداه، ولغة جسدها تعلن المقت!..

هنيئًا لزوجها العزيز، سيرى منها الجانب السيء، عليه فقط بقليل من الترقب وعليها هي الصبر..

اليوم لأول مرة تغادر غرفتها وحدها، تتأمل المنزل بتدقيق، كل النوافذ وأبواب الشرفات مغلقة بقبضان صلبة، الباب الأمامي مؤمَّن، وهاتفها لم يُعده إليها إلا عندما حادثتْ مربيتها وعاد يستولي عليه..

تركتْ الغرفة للخادمة تهتم بتنظيفها، هبطتْ الدرج ببطء إلى المطبخ وقابلتْ السيدة "وسيلة" فحيتها بهزة رأس دون حرف..

توجهتْ للداخل تشتهي قدحًا من القهوة، أرادتْ أن تعده بنفسها.. تبتعد عن الغرباء الذين تحيا معهم، وتفاجأت به هناك!..

ينحني أمام المبرد، يفتش فيه عن شيء ما، ثم يعتدل، يستدير إليها وبيده ثمرة تفاح..

وجمتْ للحظات، لم تخطُ للأمام أو ترجع للخلف، تصلبتْ بمكانها حتى ظنتْ أن أنفاسها قد تثاقلتْ للحد الأدنى، الأبطأ والأعمق..

حين ابتسم هو بغتة بينما يرفع الثمرة قبالة وجهه:

- حمرا ولا صفرا؟..

لقد أحس بوجودها!..

بديهي، فأبسط ما تعلمه عن العُميان أن باقي الحواس ترتقي في مقابل فقد إحداها.. تنحنحت واقتربت بتمهل أوقفه:

- استني ما تقوليش..

رفعها لأنفه يتشممها، تحسسها بسبابته وإبهامه قبل أن ينطق بثقة:

-حمرا..

شعرتْ بدهشة.. لقد أصاب!..

دنتْ أكثر تسأله بفضول مهتم:

- عرفت إزاي!..

مال برأسه وقد كان يفوقها طولًا ببضعة سنتيمترات:

- عمار ما بيحبش الأصفر، فمش بيشتريه..

وضحك بخفوت مرح انتزع منها بسمة حزينة..

هذا الفتى..

ذاك الفقد..

ربما لو لم تكن يومها هناك تعاند المرض وتتحداه، لكانت حياته الآن مختلفة!..

لو والشيطان والإثم وخطيئة لن تمحوها حسرة..

لاحظتْ التواء طرف فمه بمكر، وهمسه كأنما سيخبرها سرًا:

- بس فعلًا في فرق، الريحة وملمس القشرة..

اقترب هو خطوة فوازاها تقريبًا مكملًا بذات النبرة:

- الأحمر ريحته نفاذة أكتر، وقشرته أنعم ومشدودة..

عقبها حرك ثمرته تجاه ما خمن أنه وجهها:

- شوفي بنفسك..

لكن قرب المسافة بينهما وتقديره الخاطئ لها جعل الثمرة تضرب أنفها بشيء من قوة تأوهتْ معها، ابتعد باعتذار مرتبك:

- آسف.. كنت فاكر إني أبعد..

نفتْ بهزة رأس تطمئنه، ونبض قلبها يقسو على ضلوعها بطرق عنيف مختنق:

- لا عادي، مافيش حاجة..

بدلتْ فحوى الحديث لأول ما جال بذهنها:

- تعرف إن اسمك حلو قوي..

لاحظتْ صمته، تباعده، تلو ذلك بسمته المريرة بشيء من تهكم:

- نوَّار.. اسم للأعمى، ironic مش كده!..

ارتدتْ بدهشة معتذرة:

- لأ.. أكيد مش قصدي، بجد معناه جميل ولايق عليك جدا..

تنهدتْ بخفوت.. نعم يليق به، هو فتى وسيم بملامح خشنة وعيني الأخ الأكبر وإن امتلكتهما العتمة!..

لأول مرة تلتقي به وحدهما، تشعر أنها تسير معه على قشور هشة.. كل كلمة محسوبة.. كل همسة ونفس ونبضة..

لا تريد إيذاءه، وتقتلها صورته طفلًا مخدرًا تحت يديها بلا حول أو قوة لتنزع عنه بصره وينزع عنها إيمانها بنفسها وقدراتها..

اعتزلتْ الجراحة بعدها تمامًا، ولم تعد للعمل كطبيبة إلا بعد رحيل أبيها بغدر أخيه!..

ذاك ما لن تنساه، أو تتخطاه..

تابعته ببصرها يتجاهل الحديث، يتجه إلى أحد الأدراج ويعبث به قليلًا، يخرج سكينًا متوسطة الحجم، ويضعها على السطح الرخامي في محاولة لتقطيع الثمرة بيده..

لاحقته بشبه ركض تمد يدها لتتناولها منه:

- هاقطعها لك..

- لأ..

هدر بها حازمة، غاضبة فتراجعتْ بارتباك ترمقه بنظرة حائرة، قبل أن يرسم بسمة غريبة فوق شفتيه:

- باعرف أتصرف، مش محتاج مساعدة في كل كبيرة وصغيرة..

بسمة تمازج فيها الحنق بالحزن، الرفض برغبة في إثبات استطاعته الاعتماد على حاله!..

زفرتْ بحرارة وظلتْ إلى جواره، بصرها معلق بالسكين وأصابعه التي تثبت الثمرة.. يقيس مسافة مناسبة بحذر، قبل تقطيعها بأطراف أنامله..

قسمها لنصفين..

وتنهدت بشيء من راحة..

الآن يسعى لتقسيم آخر، تقسيم لم يكتمل عندما تأوه بصرخة؛ السكين تخطتْ الثمرة إلى إصبعه فقطعته!..

شهقتْ بينما تنظر لسيل الدماء التي أغرقت الرخام والسكين وطالت قميصه الفاتح، خطا هو للخلف بعشوائية صدمته بمقعد.. تعثر وسقط أرضًا فهرولتْ إليه..

جثتْ إلى جواره تتفحص الجرح..

كان شقًا عميقًا أرعبها، يحتاج لتقطيب وأنينه يحبسه بصلابة لكنه ينفلت منه رُغمًا عنه، كفه الثانية تقبض على الجرح والنزف يتسلل من تحت قبضته..

تحركتْ بفوضى وعبث.. تلهث بجنون.. تفتش عن صندوق إسعافات أولية دلتها إليه مديرة المنزل التي حضرتْ بغتة مع صرخته..

حاولتْ تضميد الجرح لكن الدم أغرق الضمادة.. كانت ترتجف، كل خلية فيها ترتجف.. يدها التي تربط جرحه ترتعش، أنفاسها مبتورة مقطوعة من المنتصف، تشعر أن رئتيها منقبضتين كأنما تغرق في محيط مخاوفها وتحاول طمأنته:

- ما تخافش.. إن شاء الله بسيطة، هيحتاج خياطة بس.. مافيش حاجة..

لمحتْ عبرة تسللتْ فوق وجهه بمهانة، مسحها بيده المدممة فلوثت وجنته، كادت عبراتها توازيها بانفعال لا تدري ما تفعل!.. هي الطبيبة، الجراحة، الماهرة.. لا تدري ما عليها فعله في مواجهة جرح إصبع!..

صرختْ بالمرأة الواقفة بثبات تحسد عليه:

- اتصلي بعمار بيه فورا..

"تتصل بيَّ ليه!"..

الصوت أتى من باب المطبخ، ظهر هو بهالة مظلمة أخافتها خاصة وهي تدرك سوء ظنه مع مرأى أخيه، وجدته يعدو إليه، ينحني عليه ويسب في سره فشرحت:

- كان بيحاول يقطع تفاحة بس...

- وأنتِ وظيفتك إيه!..

عنفها بزعيق نفضها وذنبها يفترسها حتى النخاع، تراجعتْ بتوتر:

- حاولت أساعده، هو اللي...

لم ينصت إليها..

اكتفى بنظرة كجحيم شيطان لن يطال لهيبه سواها، دعم الصغير وسار به للخارج، أجلسه في السيارة، أحكم حزام أمانه، ثم قاد به تجاه أقرب مشفى وكل ما فيه يتوعدها بعقاب يفوق احتمالها وينسف بقايا تماسكها..

بعد سور المنزل بعدة أمتار ومع غيابه عن ناظريها من وقفتها تراقب رحيلهما وراء نافذة الطابق السفلي.. توقف!..

استدار للصامت إلى جواره ويده تقبض على جرحه، نظر إليه بقسوة مستاءة، يُظهر معه حدته للمرة الأولى:

- إيه اللي عملته ده!..

الغريب أن كل ملامح الألم تلاشت، تبخرت.. كل الذعر والتوتر والهلع واللهاث والعرق.. اختفوا جميعهم!..

كان جامدًا باردًا، حدقتاه مثبتتان على اللاشيء في دُهمة ليله الأبدي، حتى جوابه أتى بنبرة ميتة من أعماق قبر في منتصف فراغ لا محدود:

- اختبار صغير..

صمتَ لحظة، أكمل بعدها بسخرية:

- لثباتها الانفعالي..

فكر "عمار" لثوانٍ، تنفس إثرها بضيق جاور وحشية صوته:

- إحنا اتفقنا تأذيها؛ مش تأذي نفسك..

مط "نوَّار" شفتيه بلا اكتراث واسترخى في مقعده:

- بسيطة..

رفع أخيه حاجبًا وقرر عقابه:

- فعلًا!..

عاد ينظر أمامه، قبضتيه تضغطان المقود بعنف مكبوت:

- تمام.. كده هتتخيط من غير بنج..

- تفتكر هيفرق معايا!..

دمدم بها الأصغر في تهكم لا مبالي، أزعج الأكبر فأغمض عينيه للحظة بزفرة متضايقة:

- نوَّار..

- إيدها كانت بتترعش وهي بتحاول تربط الجرح، يا ترى كانت بتترعش كده في أوضة العمليات!..

جذ عنق اهتمامه، تعنيفه وغريزة الأبوة التي يمارسها عليه بسؤال هازئ.. سؤال أوقد سخطه عليها مائة مرة..

أعاده للحظة الفقد، أقسى ألم ذاقه على مدار عمر.. ماتت أمه، مات أبيه..

كاد يخسر عمله لولا شراكة أنقذته..

لكن ذلك كله لا يوازي نصف ما شعر به عندما علم أن الطبيب الخبير لم يمنح صغيره خبرته، بل تركه لحديثة عهد بالجراحات الخطرة فأجهزت عليه!..

استدار إليه بنظرة خاوية، نبرة مصمتة فارغة وحزم لا يقبل الجدل:

- آخر مرة..

ابتسم الآخر باستهانة مستمتعة:

- ما أقدرش أوعدك..

وتعانق جفناه مستعيدًا الدقائق الفائتة، فزعها، ارتباكها، أنفاسها التي كانت تضرب صفحة وجهه والدموع التي استشعرها مسجونة في صوتها:

- اللعب معاها مسلي..

- نوَّار!..

قهقه بمرح غريب، بتره دفعة واحدة فبدا مختلًا مخيفًا.. أراحه برد مقتضب:

- خلاص.. نغير قوانين اللعبة..

ثم فاء لسخريته بظُلمة غلفت كلماته:

- دور الـ overprotective ده، بيخنقني..

اعتدل تاليًا يلتفت إليه، ينظر لعينيه تمامًا كأنما يبصره بلا لبس:

- أنت عارف إني مش محتاج لا حماية ولا مساعدة..

رُغم قتامة الرفض ومحتواه ولهجته؛ فقد ظهرتْ نظرة حانية تعلو مقلتي الذئب وكفه تمتد لتشعث خصلات صغيره:

- عارف..

أبعد "نوَّار" وجهه واسترخى ثانيةً ببسمة باهتة:

- طيب يلا على المستشفى..

- برده هتتخيط من غير بنج..

ضحك الاثنان بخفوت هادئ، وانطلق "عمار" بالسيارة..

يفرط في حمايته.. يدرك أنه يمكنه العناية بنفسه، لكنه لا يستطيع سوى أن يحرر مشاعر الأب الحمائية معه..

هو كل دنياه وعائلته..

وهي!..

لها عقاب ستتمنى لو ماتتْ دونه..

**

لا تفتش عن الحب بين جنبات عاشق خاسر؛ فهو حين الجد سيلوذ بالفرار!..

حين الاصطدام بعشق آخر لن يصبح فارس الأحلام، كان يعلم ويدرك وحشرها بعقلها عند لقائها الأول به، هو ليس بفارس أحلام ولن يكون واحدًا في يوم ما..

لكن يمكنه أن يكون زوجًا مراعيًا مهتمًا سعيدًا بطفله القادم حد أن يعود من سفرته التي افتقدته خلالها كثيرًا بهدية مباغتة!..

شيكولاتة فاخرة.. هدية تلقفتها بصدمة مبتهجة بينما تفضها بعينين متوهجتين:

- OMG.. Swarovski!..

وقفزتْ تتعلق بعنقه، تهديه قبلة معطرة بأنفاسها المشتاقة:

- دي رهيبة جدا يا يزن، وبعدين جبتها إزاي وأنت في هامبورغ!..

داعب أنفها بسبابته وذراعه تحتوي خصرها، يتحرك ليجلس فوق أريكة غرفة المعيشة وهي بين أحضانه:

- طلبتها من لندن مخصوص..

غرق بشفتيه في عنقها يمنحها لثمات خاطفة:

- عشان خاطر أبو سِريع..

شهقتْ بغيظ وهو يكمل ببسمة عابثة:

- وأم أبو سِريع..

وكزتْ كتفه وحررتْ نفسها من ضمته، نهضتْ تتخصر في مواجهته بعناد طفولي:

- مخيمر وأبو سِريع!.. وإيه كمان!..

قهقه بمرح ثم جذبها يسقطها بين ذراعيه مجددًا:

- اللي زلابيا تقول عليه..

بعدها أغرقها في موجة دافئة من شغفه لم تفِق منها إلا صباح اليوم التالي لتجد نفسها وحيدة وهو بعمله كالعادة..

واليوم الصغير المدلل برحمها كانت له رغبة مختلفة!..

"فواكه البحر"..

طلبتها من الطاهي بوصفات متنوعة.. عاد هو من العمل لتفاجئه جلستها على الأرض أمام التلفاز، وعلى الطاولة المنخفضة أطباق عديدة تحتوي "السمك"..

أكثر شيء لا يطيقه ولا يتحمل رائحته!..

وقف قرب الباب بأنف مكرمش:

- إيه المزاج ده!..

تأملته لحظة قبل أن تفطن لكونه لا يحب ذلك النوع من الطعام، هنا تدخل شيطانها الخبيث فابتسمت:

- إيه!.. مش بتحب الـ sea food!..

نفى بهزة رأس رافضًا الاقتراب من مكانها البتة، استقامتْ هي تحمل حبة "جمبري" مشوية ضخمة، تواجهه وتجبره على فتح فمه:

- طيب دوق ومش هتندم، It is so delicious..

أبعد وجهه وتراجع خطوة فبات الجدار في ظهره وهي تحاصره بمكر:

- ما هو هتاكلها يعني هتاكلها..

دفع يدها برفض جاد حاسم:

- غزل، ما بحبوش بجد..

الرائحة تقلب معدته حقيقةً.. بلؤم مرح استغلتْ حديثه لتحشرها بين شفتيه عنوة وابتسامتها تتسع بشر.. وفازت بما بحثت عنه..

خطواته هرولت إلى الحمام، وهناك تقيأ بالفعل!..

ضحكتْ بشيطنة مرحة كشريري الأفلام القديمة بينما تراقبه.. استدار إليها وهو يتمضمض بامتعاض مستاء:

- أنتِ بتهزري!.. عاجبك كده!..

إيماءتها أتته موافقة باستمتاع استهجنه، وفي الثواني التالية رسم بسمة مستسلمة على ملامحه بأكملها..

اللحظة معها اختطاف مشروع.. والسعادة سرقة مستحقة..

مر بها متجهًا إلى المطبخ وأصابعه تقرص أذنها من خلف خصلاتها المرفوعة بفوضوية:

- الجريمة اللي عملتيها دي محتاجة عملية تطهير..

ضحكتْ رغمًا عنها بشقاوة وهو يفتح المبرد ويفتش فيه باهتمام:

- عصير مخصوص!..

تتبعته ببصرها ينتقي بعض الفواكه، يرصها على السطح الرخامي باهتمام.. ماء بارد، مكعبات ثلج.. بلا سكر!..

يقشر الثمار بحرص وهي تغسل فمها، تخطو ببطء لتتكئ إلى السطح أمامه، تتأمله بعين لامعة ونظرة عاشقة كأنما يصنع سحرًا ما يلقي عليها بتعويذته.. الكيوي، أوراق النعناع الطازجة، الليمون..

يخلطهم بعناية، يصفيهم، يصب لنفسه كوبًا هائلًا ولها آخر، يرتشفه على مهل بتلذذ:

- أهو ده اللي لذيذ بجد..

وكان يعنفها بعينيه، تذوقته بلا تردد كأنما يكفيها أنه صنيعة يديه، أعجبها فأنَّت وحواسها تتيه في الطعم الفريد المنعش..

راقبها بنظرة مبهمة لم تفهمها، لم تفكر في مدلولها.. بل دارتْ تقترب منه، تدفن نفسها في طوق ضمته التي احتوتها على الفور..

ترتفع على أطراف أصابعها وتنتهي بنيل المذاق على شفتيه وهمسها يتخلل ظلمات قلبه الغائبة في ماضٍ مفقود:

- أنت غريب..

عقد حاجبيه دون غضب.. بفضول مداعب:

- ودي حاجة حلوة ولا!...

استسلمتْ لحصاره وخافقها ينبض بعنف عاشقة لم تفقد الأمل في معشوقها بعد:

- غريب وبس..

فيكرر هو امتلاكه، وتعيد هي سيناريو السقوط!..

**

البدايات الجديدة لا تحمل معها بالضرورة أملًا في اختلاف، قد تكون مجرد استمرار لعجلة الحياة التي إن توقفتَ ستزيحك من طريقها، وإن سقطتَ ستدهسك تحت إطاراتها..

مجرد تكيف بفعل قصور ذاتي لا يقبل بالتغيير المفاجئ..

تبعتْ أبيها بخطوات هادئة وقلب واجف إلى داخل الفندق الضخم والفخم، بصرها يدور بخجل فيما حولها قبل أن يعود لتحت قدميها كأنما تتثبت من موطئ كل خطوة..

لم يجد لها عملًا واضحًا بالمكان، لكنه أخبرها أن مالكه يريد مقابلتها وحينها قد يعثر على ما يناسبها..

صعدتْ معه للطابق الأخير، هناك بمكتبه أخبرته مساعدته عن وجودهما فسمح لهما بالدخول.. ورأته!..

رجلًا طويلَ القامة، مهيبَ الطلة، أنيقًا بحلة داكنة الزرقة.. ونظرة أرسلت برعدة في جسدها..

لا يبدو مخيفًا أو وحشيًا، لكن بين جفنيه هناك قسوة..

نظرة معذَبة.. نظرة تبغض العالم أجمع.. نظرة محترقة.. وآسرة!..

مقلتيه شفافتين بلون موج بحر هائج، خصلاته بنية داكنة، وعمره ربما في النصف الثاني من الثلاثينات.. لقد ظنته عجوزًا!..

هربتْ بناظريها عندما تلاقتْ ببصره.. تختطف منه لمحات كونَّتْ بها صورته بذهنها، بينما هو يراقبها بتعمن وهو يحادث والدها..

يدقق فيها بلا تورية.. متوسطة القامة.. وجه ناعم وملامح حزينة، ثياب محتشمة لا تظهر شيئًا وإن حددتْ جسدها ما بين النحافة

والسمنة في توسط أنثوي.. وحجاب فاتح يحاوط وجهها المعانق للأرض..

هادئة، صامتة، لا تستمع إليهما بل شاردة في عالمها الخاص..

شاردة حتى أنها لم تنتبه لخروج الأب من الغرفة،بقائها معه وحدها.. حتى تنحنح برفق نفضها..

رفعتْ عينيها إليه فواجهها بنظرة متفحصة:

- عم مختار قال إنك بتعرفي أكتر من لغة ومعاكِ دبلومة في علم النفس!..

أومأتْ بموافقة صامتة لم تعجبه، ذلك السكون بأكمله لا يريحه..

لا توجد امرأة خانعة ساكنة بذلك القدر، لذا أكسب نبرته حزمًا هجوميًا بعض الشيء:

- طيب يا مدام رحيل هو في الفندق حاليا مافيش شغل ينفعك..

رمشتْ بتوتر حائر:

- أُمال...

- في شغل تاني هاحتاج مؤهلاتك فيه!..

اعتدلتْ في مقعدها قليلًا ونظرتها تتساءل دون كلمات..

ذاك أيضًا لم يعجبه..

كيف ستعتني بابنته إن كانت بالكاد ترفع عينيها إليه، ولسانها منعقد عن الحديث سوى من كلمة واحدة بترها فلم تعترض!..

ارتكن لمكتبه بمرفقيه واقتحم سكونها بصرامة:

- التردد والصمت ده مع مُدرسة ما ينفعش..

ارتبكتْ.. كأنما تعزز بارتباكها صورتها السيئة بعقله، هي في الحقيقة كانت يائسة.. لا تهتم إن وجدت عملًا أو لا..

بالنسبة إليها البدايات الجديدة محض سراب نتعلق به بحثًا عن شفاء جروح تركها الأمس..

لكن حتى الجروح بعد التئامها تترك عميق الأثر، بالجسد والروح..

وهي امرأة منقوصة.. رحل عنها رجلها الذي ظنته قدرها لأنها لم تمنحه ما يحتاجه كل رجل..

أبوته!..

تنفستْ بتمهل وشدتْ جذعها تواجهه بلا تزيين:

- وجيه بيه، الحقيقة أنا مابدورش على شغل.. والدي هو اللي شايف إني محتاجاه، ووافقته عشان...

صمتتْ دفعة واحدة..

هل ستخبره أنها وافقتْ حتى تخفف من قلقه عليها!..

هل ستحكي له قصتها، أو النصف الذي عاشته.. هي حتى لا تعرف إن كان يهمه السماع، أو إن كان يمكنها إفشاء سر وجعها لغريب!..

- والدك حكى لي نبذة عن الموضوع..

توهجتْ حدقتاها بلمعة غاضبة لم يكترث لها وهو ينهض، يدور حول مكتبه ويقابل مقعدها في جلسته:

- حياتك الشخصية ما تهمنيش في شيء، كل اللي يهمني مؤهلاتك.. خاصة دبلومة علم النفس..

نجح في إثارة فضولها رغم جفاء طريقته، سألته باهتمام:

- ممكن أعرف الشغل اللي حضرتك تقصده!..

- بنتي..

كلمة واحدة..

حملتْ معها كل المشاعر المباحة التي يجوز أن تثقل كاهل اللحظة..

حزن، غضب، قنوط، أمل، خوف..

سرد عليها واقعة وفاة أمها، عنفها المكتسب مع الجميع حتى أخيها الأصغر.. ورفضها للطعام في كثير من الأحيان.. درجاتها المتدنية وتركيزها المتدهور..

ودون أن يشعر أو يقصد، مسَّ وترها المقطوع.. نقصها المؤلم وألمها الخانق؛ أمومتها المفقودة حتى الأبد!..

استمعتْ إليه بتركيز، ناقشته بعملية حفزتها مشاعرها الوليدة، ظهر جانبها الآخر..

ذلك الذي يراعي ويبالي ويهتم..

لن ينكر أن لمسة من دهشة أصابته، فعندما بدأ الحوار عن عملها، عما يحتاجه منها وعن طفلته تبدلتْ بالكلية..

طغى على نبرتها العزم، ونقش الفهم حضوره فوق تفاصيلها ولهجتها وحديثها..

سألته كثيرًا وجاوب قدر ما أمكنه، في نهاية الجلسة أعلنتها بحسم..

ستصبح معلمة ابنته الخاصة بشكل رسمي.. وراعيتها النفسية في خلفية الصورة.. وهو تعجب بعض الشيء من تخطيها لحاجز صمتها ووجومها وخجلها، وارى تعجبه ذاك وعقد معها الاتفاق..

في اليوم التالي قدمها لصغيرته المدللة وشقيقها.. ابتسم لها ابنه بحياء يشبهه لكن الابنة لم تخالف توقعاته وإن شطتْ عن المعقول..

رمقته بنظرة خائبة، مكسورة.. دموعها تترقرق دون سيل:

- هي دي اللي هتاخد مكان مامي!..

صرخت باحتجاج، ثم ركضت لغرفتها..

كانت بداية؛ لكنها ليست جديدة وحسب، بل شاقة.. ومهمتها عسيرة..

وهي امرأة تغامر أحيانًا مع المستحيل..

رُغم الخوف والانكسار والوجع!..

**

في الحروب، هو الجاسوس..

قائد فرقة الاستطلاع، والجندي في آخر صفوف المحاربين حيث يُقتل كل من يتقدمه..

وينجو هو وحده..

ينجو ويظفر بالغنيمة.. وإن كان ظفره حاليًا مشكوكًا بأمره!..

عاد لمنزله متأخرًا كعاصفة، وجدها ممددة بالفراش.. تثرثر مع إحدى سيدات مجتمعها القميء عن حريات نزعها منها وبإرادتها، أشار إليها بغضب لتنهي المكالمة وهي رمقته بنظرة مستفهمة استجابتْ إثرها بهدوء..

نهضت تقترب منه، ترى هياجه وسخطه ولا تفهم حتى بادر هو بزعيق:

- جوز أختك مش عاوز يسيبني في حالي، بيحاربني في شغلي..

واجهته ببرود غريب غير معتاد:

- قصدك طليقها..

وهاجمتْ بنبرة ساخرة وازت نظرتها المتألمة رُغما عنها:

- أنت نسيت إنه طلقها لما خانته معاك!..

ثم عقدتْ ذراعيها أمام صدرها بتحدٍ:

- ده حقه على فكرة..

تجادل، تعاند.. ولا تدرك خطورة موقفه، وعصبيته بهذه اللحظة.. جذب مرفقها بغلظة آلمتها، ضغطه بقسوة وبدأ حربه:

- إحنا مش هنخلص بقى من الموال ده!..

جابهته متغافلة عن كل أوجاعها، أوجاع الجسد والقلب والروح:

- لأ.. مش هنخلص يا راجح..

طرفتْ عينها بدمعة باهتة تشبه بُهُوتها معه:

- الخيانة ما بتتنسيش..

دفعها بقرف، أشعل لفافة تبغ نفثها بوجهها حانقًا:

- أُمال كملتِ معايا ليه يا هالة!..

- عشان غبية..

صاحتْ بأنين..

سكنتْ تفكر، أردفتْ ودمعتها تغدر بتماسكها، تحفر أخدود عذاباتها فوق وجنتها:

- عشان ولادي وسمعتي وسمعة أهلي..

وتراجعتْ خطوة للوراء ترمقه بحزن مكسور:

- عشان غصب عني؛ لسه بحبك..

تنهد بصبر..

لا يريد أن يفقد اللحظة، الجاسوس في الحروب ثابت.. يجيد التخفي والتسلل والامتلاك!..

هرس لفافته في مرمدة على طاولة منخفضة، اقترب منها وأدار وجهها إليه، مسح عبراتها بإبهاميه وقبَّل جبينها برقة:

- وأنا بحبك يا هالة، عمري ما حبيت حد غيرك. .

تعلقتْ عيناها به في خنوع يدركه، ضم رأسها إلى صدره وحاوطها برفق حانٍ:

- أنا محتاج لك جنبي، مستحيل أقدر أعيش من غيرك!.. أنتِ والولاد كل دنيتي..

استكانتْ لثوانٍ استفسرتْ بعدها باهتمام واجم:

- وجيه عمل إيه!..

أرجعها للخلف ينظر إليها بشتات مفتعل:

- اشترى نصيب منير في شركة المقاولات..

شهقتْ بارتدادة مذعورة:

- يعني كده بقى هو!..

- معاه 85٪ من أسهم الشركة بسبب اللي بعته لما دخلت مشروع القرية السياحية..

ارتجفتْ بقلق؛ زوج أختها لن يمرر ما حدث دون عقاب..

وإن كان قد قتل زوجته وهي لا تزال تتنفس، فكيف سيعاقب من خانته معه!..

- مش بس كده..

اقتحم شرودها ومخاوفها بإضافة جديدة جذبتْ انتباهها:

- أنا أخدت قرض بضمان الباقي من الشركة، والفيلا دي..

تكررتْ شهقتها وإن أتتْ أكثر عنفًا وهلعًا:

- أنت بتقول إيه ياراجح!..

ابتعد يدور حول نفسه بخبال:

- دي قرية سياحية يا هالة، مشروع كبير وهينقلنا نقلة تانية.. كان لازم تضحيات..

صرختْ بخبال مقابل بينما تلوح بذراعيها:

- تضحيات إيه!.. أنت متخيل إنك ممكن تخسر كل حاجة!..

زعق بالمثل وإن أشرف عليها بجسده الضخم فأرجفها:

- أخسر ليه!.. ده شغل وكل حاجة بورق..

تراجع ثانية في غضب يعيد ويزيد كأنما يهدي نفسه ثقة مفقودة:

- كل حاجة بورق..

لم تفهم فيمَ قلقه إن كان واثقًا من أوراقه!.. بل لمَ يخبرها بهواجسه الآن ليهديها خوفًا فوق خوف!..

لم تفهم إلا عندما سألتْ بخفوت متردد، فمالتْ نظرته إلى صندوق مصوغاتها بتشبث:

- محتاج حبيبتي تقف جنبي..

وعانقها يلصقها به:

- أول دفعة من القرض لازم أسددها خلال شهر واللي معايا ما يكملش..

تملصتْ منه بغير تصديق:

- حتى مجوهراتي يا راجح!.. لأ.. دي آخر حاجة ممكن نفرط فيها، ماحدش ضامن بكرة ممكن يحصل إيه!..

لم يحررها..

حاصرها وقاوم مقاومتها، هبط برأسه يدفن وجهه في عنقها، يتنفس بحرارة أراد بثها في أوردتها:

- أنا ضامن، بكرة هنعيش في الجنة..

لم يتوقف حتى انتهى بين شفتيها:

- بس لازم نتعب قبلها شوية..

يده تخلصتْ من ثوبها البيتي، عاثتْ في كيانها فساده بهوس يدرك أنه سيجبرها على الرضوخ.. سقط بها بين طيات الفراش وأنهى ما بدأه ليسمع ما يشتهي بنبرتها الخاضعة:

- حاضر..

في الحروب..

الجواسيس يجيدون التشبه بالعدو والنفاذ من ثغراته.. لكنهم لا يدركون أنهم أحيانًا يخطون إلى فخه بلا جهد!..

**

هو رجل صمته مخيف، مخيف كصمت القبور..

مرتْ عدة أيام على عودته من سفره، عودة صارمة لكل ما فاته وتركه خلفه، ذات الروتين اليومي..

النوم المحدود، الاستيقاظ المبكر.. الركض.. لا فطور.. قهوة داكنة وعمل.. الصومعة.. كل ما كان يفعله سوى الاقتراب منها..

تعلم أن ابتعاده هذه المرة ليس بهدنة، بل حرب من نوع آخر..

حرب على أعصابها التي تشتعل وتخبو في الساعة الواحدة مائة مرة خشية ردة فعله.. خشية عقابه المنتظر!..

هو لن يمرر سرقتها لمنحوتته وإن كانت تجسدها..

لن يمرر كذبتها..

ولن ينسى أو يتجاهل تخطيها لحدوده الدموية..

لذا قررتْ أن تبادر هي بالصلح فوق أرض معركتها الخاملة، انتظرت حتى انتهت وجبة غذائه المتأخرة، صعد لغرفته لتبديل ثيابه وأخذ حمامه البارد.. ولم يخرج!..

قبعت بانتظاره بغرفة المعيشة بعدما سلمتْ الصغير لجده بصحبة مربيته ولم يأتِ..

تصلبتْ عند بابه يدها تتأرجح بين رغبة الطرق ومناشدة الفرار..

نعم تريد أن تعرف عنه أكثر، لقد تصدع قناع الشيطان ولمحتْ ما يختبئ أسفله..

هناك حيث الظلام، في ركن بعيد منبوذ يوجد، رجل وحيد.. رجل غير ذاك الذي تعاشره.. لا تدري لمَ تستجيب لفضولها!.. لمَ يدفعها للاقتراب!.. لكنها تخضع له وحسب..

عادتْ بخطوات هادئة إلى المعيشة، ومنها تسللت للشرفة التي تتصل بشرفة غرفته، هناك لمحته..

وسط حُلكة الليل والسماء المدلهمة دون قمر، بثياب بيتية تنافسها دُكنة وملامح غائمة، غائبة في مجهول، افتعلتْ المصادفة والنحنحنة

ودنتْ الخطوات رُغمًا عنها أو ربما بإرادتها الحرة هاته المرة، لم يلتفت.. ظل على وضعه الثابت كتمثال قُد من صخر أسود..

تجاهلتْ تجاهُله واستندت للسور العريض بمرفقيها تجاوره، ترفع عينيها للسماء مثله تمامًا وتلقي إليه بين ثانية وتالية بنظرة جانبية مرتبكة.. مرت خمس دقائق وهما على حالهما من الصمت..

صمته جامد بلا مفاوضة أو ترقب، وصمتها متوتر لاهث خائف يفتش عن بداية..

تنهدتْ بحرارة واعتدلتْ تواجهه بلا رد فعل منه:

- فاكر يوم جوازنا!..

تقطيبة طفيفة كانت كل انفعاله، مرتْ فوق جبينه ورحلتْ في ثانيتين لا أكثر.. وهي لمحتها وتمسكتْ بها مردفة:

- يومها قلت لي بسيطة، نتعرف..

لم يتغير معدل أنفاسه البطيء كأنه في غيبوبة اختيارية وإن كانت عيناه مفتوحتان، لم يستدر.. ولم ينبس بحرف، تغافلت عن جموده

فهي تنبش قبر روحه ولن تمل بعد أول دقيقة.. مدتْ كفها في وضعية مصافحة ونبرتها تلين بشبه مزاح:

- شمس الخولي.. باليرينا سابقًا، عاطلة حاليًا..

هل فازت بشيء!..

نعم.. نظرة جانبية مستهجنة، وأخرى وجهها ليدها الممدودة أكثر استهجانًا..

لم تتراجع، ابتلعتْ خوفها وهي تسحب يمناه لتحاوطها بأصابعها الصغيرة:

- يعقوب أبو الغار.. صاحب مطعم سابقًا، رجل أعمال حاليًا.. وغامض حبتين..

هل تظن أنها يمكن أن تنال بسمة!..

حمقاء كما هي العادة، كل ما فعله أن جذب يده منها ببرود وبلا مجهود يُذكر؛ لقد باتت امرأة تخشى التشبُث وترى أن سطحية العلاقات معها وبها السلامة..

تركتها له وعادتْ لوقفتها الأولى، تراقب السماء المظلمة وتفكر، ثم تنطق بشرود يليق بحزن نبرتها ورقتها:

- يومها برده قلت لي إنه رغم كده وافقت أتجوزك!..

القرار كان لحظيًا.. كان مخطوفًا..

كان تائهًا ضائعًا يبحث عن ملجأ آمن:

- عاوز تعرف وافقت أتجوزك ليه!..

ربما إن فتحتْ قلبها؛ يفتح هو باب أعماق نفسه المغلق دون البشر، ربما إن بادرت؛ أمسك بطرف الخيط وشده.. لا تفهم لمَ تفعلها لكنها تألمت لأجله في وقت ما لا تذكره، والألم مسوغ القرب.. الفهم، محاولة الاستيعاب..

في النهاية ظفرتْ بشيء من اهتمامه، رأسه تستدير إليها نصف دورة، بينما صوته يغوص في قعر بحر هائج، جبروت موجه لا يصل لقاعه الخامد أبدًا:

- عشان الفلوس!..

تغضن جبينها بحيرة متضايقة، تحولتْ لاستنارة مع استطرادته الساخرة:

- ولا عشان انتقام أنا ماعرفش سببه!..

لقد سمع حديثها مع أخيه يوم عقد قرانها عليه!..

سمع عرض الزواج، الاتهامات، الرفض والتبرير الذي يشوه صورتها..

لذا كان غاضبًا.. لذا امتهنها ليلتها.. امتهن أنوثتها وكرامتها، ودهس كبريائها..

ارتسمتْ فوق ثغرها بسمة شجية:

- أنت فعلا مش عارف!.. جدو يونس لما طلب منك تتجوزني ما بلغكش بحيثيات الموافقة دي!..

اسودتْ نظرته وإن لم ترَ تفاصيلها المختلطة بحلكة الليل، أدركتْ من صمته جوابه، أكملت والهواء يداعب خصلاتها الطويلة المسدلة بعفوية ناعمة:

- أنا وافقت عشان يزيد..

لم تدرك أن السواد تحول لعتمة وحشية حينما أردفت:

- جدك هددني؛ لو ما وافقتش أتجوزك هيطردني وياخد ابني مني..

وماذا بعد العتمة!..

جحيم..

استعرت نظرته بينما يلتفت إليها بجسده كله وهي تشرد في ذكرى البعيد للغاية.. البعيد الذي لم تعِشه لكنها عاشت تبعاته:

- أنا بنت عمك يا يعقوب..

كلماتها كانت تستحق معها تأملًا لوجهه، لصدمة لم يستطع كبحها فوق ملامحه وصوته يهدر بخفوت صارخ، متناقض ومفزع:

- أنتِ بتقولي إيه!..

هزتْ كتفيها واعتدلت تواجهه هي أيضًا:

- دي حكاية طويلة قوي، تحب تسمعها!..

لم يمانع، ولم يمنحها الموافقة.. ترك ثباته في مقابلها يهديها الجواب فبادرت بسرد روايتها..

الجد.. زوجته، حبيبة آخر.. الخسارة والفقد والأب اليتيم..

أفكار انزرعت بعقلها قسرًا عن عائلة السارق الذي حرم والدها أمه..

وقصة تقليدية بين جنباتها عشق مسموم، انتهت بعشق جديد..

عشق وُلد من رحم الكره ورغبة الثأر، وُلد بقلبها وقلب أخيه..

ختمتْ كلماتها بنبرة غافلتها دمعة، منعتها الوصول لوجنتها:

- عشان كده جدو يونس شايفني حرامية، سرقت منه حفيده زي ما جدي سرق منه حبيبته.. ورماني تحت رجليك..

لم يعجبه التعبير، بل لم تعجبه حكايتها بأكملها، ولم يصدقها تمامًا..

أما الجد!..

فقد تضاعف البغض بداخله نحوه؛ ذلك الرجل نهايته لن تكون إلا بيده وحده..

رفع رأسه ولهجته الباردة تجمد أوصالها، كأنما لم تسكب تاريخها البائس كله بين يديه:

- معلوماتي إن القانون المصري بيدي الحضانة للأم، يعني إيه هددك ياخده منك لو رفضتِ!..

هزتْ كتفيها بخنوع واهن وجسدها يبتعد خطوة للوراء، خطوة لا إرادية:

- أنت شايف إن البلد ماشية بالقانون!.. شايف إني ممكن أقف قصاد يونس أبو الغار وأكسب!..

ارتكن للسور بانحناءة غير مكتملة وتقريعه لا يتوقف:

- ولما أنتِ عارفة إنك مش هتقدري تكسبي؛ اتجوزتِ حفيده من وراه ليه!..

- حبيته..

نطقتها كلمة واحدة.. كلمة واحدة حملتْ كل مشاعر العشق التي قرأ وسمع عنها دون أن يحياها..

كلمة واحدة فاضت بخلاصة ما في قلبها تجاه من رحل.. كلمة مررها وحديثه يجلدها:

- ويامن كان يستاهل تضحيتك بأهلك!..

أدارتْ وجهها تراقب جانب وجهه المصمت، تتحداه:

- يامن الله يرحمه كان يستاهل الكون كله..

ثم شردتْ فيمن غاب عن دنياها بجسده وخلَّف من ورائه روحها معلقة بروحه في فضاء سرمدي لا بداية له ولا نهاية:

- كان أحن راجل في الدنيا..

ورمقته بنظرة لائمة، ضائقة، غاضبة.. أو ربما تدعي الغضب فهي تجهل ما بها بهذه اللحظة لكنها تريد إثارة حفيظته..

نيل غضبه بدلًا عن ذاك البرود القاسي الذي يحاوطها به:

- وأنت جيت من بعده ولوثت كل ذكرياته معايا بوجودك..

النصر له نشوة.. لكن نصرها الآن مر في كيانها كله بقشعريرة كزمهرير شتاء قارص وعينه تميل إليها باحتراق:

- أنتِ غبية لدرجة تعصب..

كانت تقصد تهشيم سطح سكونه، وعندما فعلتها خافتْ، انتفضتْ دواخلها..

كررتْ تراجعها خطوتين لم يكترث لهما وخطته تكتمل بذهنه، لقد أتت بقدميها، وعليه فعقابها قد حان، هي من عبرتْ خطوطه الحمراء برعونة، من فتشتْ وراءه ودستْ أنفها فيما لا يعنيها؛ والجزاء من جنس العمل..

أو أشد قسوة!..

انتصب بوقفته وكفه تعتمد على سور الشرفة.. تخللتْ الثانية خصلاته الفحمية، ونظرته تهدأ بغرابة أثارت توترها:

- طيب لو ضمنت لك وجود يزيد معاكِ، وتسيبي البيت هنا وتبقي حرة؛ هتوافقي!..

حرة!..

الكلمة أخذتها على حين غرة، لم تأتِه مستعدة لتنال حريتها..

وفي لحظة صدق مع ذاتها أعلنتها باختناق: هي لا تريد حريتها، تخشاها، تجهل ما يمكن أن تفعله بها.. لذا كذبته:

- حرة إزاي!..

- هاطلِقك..

- تطلقني!..

متحشرجة، مستغربة، باهتة، ضائعة كأنما مستقرها بات معه وإن كان وحشًا بلا قلب!..

هز كتفيه ببديهية سلسة:

- أيوة، ولو عاوزة ترجعي لأهلك هارجعك.. مش عاوزة هاجيب لك بيت أنتِ ويزيد وتعيشي حياتك باختيارك في أي مكان!..

نبضها العنيف أوجع ضلوعها.. بدا وكأن قلبها يختض، يرتج بعنف في مكمنه بصدرها، حد أن أنفاسها انحبستْ للحظات طوال ثم تحررتْ بشهقة.. تحررتْ وتحررتْ معها أفكارها.. ومخاوفها..

في حين مال هو يكمل خطة عقابه:

- تعيشي حرة..

ومط شفتيه ببساطة:

- تتجوزي شخص بإرادتك، باختيارك..

- أتجوز!..

همستْ بها شاردة مبحوحة فأجاب بهدوء:

- أيوة..

- أتجوز تالت!..

كانت تسخر بلا وعي، ويهادن سخريتها بمثيلتها:

- ورابع وخامس، ليه لأ!..

شاب صوتها مرارة عندما فسرتْ بقنوط:

- لأن كل زوج بياخد جزء من روحي، لو وصلت للرقم الي بتقول عليه هاعيش من غير روح..

كانت تقذفه بالكلمة.. تعنيه هو، لا من رحل عن دنياها قسرًا..

تخبره أنها تحيا معه بلا روح لأنه استهلك كل ما تبقى لها منها..

لكنه ظل على هدوئه وتلقائيته:

- مش لازم جواز، عيشي عشان يزيد..

شعرتْ بتشتت؛ امتلك عليها مشاعرها وبعثر كوامن نفسها، سيعتقها من أسره، من سجنه.. من عبوديته..

تأملته بتيه، وفي ذات الوقت غاص هو بعمق عينيها..

هل سيفعلها!.. هل عليها أن تصدقه!..

سينقذها، يحميها، يبعدها.. ستفوز!..

دونه!..

لامها عقلها.. هل سقطت الأسيرة في غرام سجانها!..

مستحيل.. ذلك في حكايا الخيال أو أمراضه!..

نفتها بحدة وعناد، ونبرتها تعلنها صريحة متحدية:

- موافقة..

اعتدل يدنو..

يسيطر على بصرها بطول قامته فتعلو بوجهها إليه، تتأمل بسمته الغامضة بتشتت وتمتمته تصلها عميقة، ثقيلة:

- اتفقنا..

امتدتْ يداه تحيطان بخصرها، تقربانها منه.. يخطو حتى يحتجزها بين جسده والجدار الذي كان في ظهرها:

- نوثق الاتفاق!..

لمرة أخيرة!..

دفن أنفه وفمه بين خصلاتها، تصلبتْ بسكون كمنحوتتها دون خوف أو رفض، استنكرتْ رد فعل جسدها على قربه!.. جسدها الذي كان يعاندها بخضوع غريب.. لرفق ضمته الأكثر غرابة!..

تعلق كفاها بساعديه، تسارعتْ نبضاتها بلا إرادة قبل أن تنبهه بهمس مختنق:

- يعقوب؛ إحنا في البلكونة..

بسمته مسَّت بشرتها فتنهدت رُغمًا عنها، حرك وجهه ينظر في عينيها للحظات قبل أن يثني جذعه قليلًا ويرفعها بين ذراعيه، ثم يعود إلى غرفة النوم.. أسقطها بالفراش، استند إليه بركبتيه وانحنى يشرف عليها، أنامله تطوف حول منابت شعرها عند جبينها برقة أدهشتها.. تنسل منه إلى جانب وجهها، تتخلل خصلاتها وبصره يحتل بصرها..

عيناه تقيدان عينيها في أسر نظرة لم تستطع فهمها.. نظرة أخلتْ سبيل نظراتها من قيده بغتة لتهبط بتلكؤ، وتتأمل امتلاء شفتيها!..

نظرة طالتْ حتى تعانق جفناها في استسلام وآخر ما لمحته كان رأسه التي تقترب في إعلان صريح لقبلة.. وأنفاسه تحاوطها حد حبس أنفاسها.. ثم صمت!..

صمت مخيف كصمت القبور، إلا من لهيبه يلفح وجهها.. لم يمسّ فمها.. لم تشعر بحركته أو ابتعاده..

فقط سكون أوجف قلبها ففرقتْ جفنيها والرهبة تحتلها، تسيطر عليها.. خاصة مع تهكم مقلتيه السافر.. الجارح:

- أنتِ ساذجة لدرجة مملة يا شمس..

مال يهمسها بأذنها، بل شفتاه تمسانها بالفعل:

- حتى اللعب معاكِ مش ممتع، مافيهوش تحدي..

تمَّم حديثه الممتعض وتراجع يطلق سراحها بيسر، كأنما يخبرها أنه لا يفقد معها سيطرته بمثقال ذرة..

يقف قرب الفراش، يتأمل خضوعها بين طياته، ويهديها ازدراءه.. بعده يهجرها تاركًا الجناح بأكمله.. تاركًا لها وحدتها ودموعها..

وفقدًا جديدًا على شفا هاوية الأمل..

لقد صدقته!..

الشاهد؛ كونها سلَّمت له..

السيء؛ أنها خضعتْ مستسلمة بين ذراعيه، بسكون عجيب لا تدري كنهه أو فحواه..

أما الأسوأ؛ أنها كانت تنتظر قبلته..

تنتظرها وتتسآل بلهفة كيف سيكون المذاق!..

**

هو رجل صمته ثورة، هدوؤه اضطراب وفوضى، وسكونه غليان..

يخطو فوق لهيب الجحيم بلا هوادة أو اكتراث، ويتربع على عرش سعير الشياطين..

رجل يستمر قدره في نكأ جروحه بلا شفقة حتى فقد الشعور بالألم!..

وبعد الفقد يأتي التلذذ، الآن بات يشتهي أوجاعه، يستعذبها.. فكلما مر بواحد منها احترقتْ ذاته وبُعثتْ عنقاء ثأره من بين الرماد..

لم يرحمها.. ولن يرحمها!..

هل رحموا أمه!.. لا..

هل نال هو هفوة من رحمة مباحة!.. لا..

حتى تشبعتْ روحه بالقسوة والوحشية، لم ينلها.. حتى أنها عندما قُدمتْ إليه متأخرة زهِدَها..

لم يستسِغ مذاقها؛ فلفِظها..

تسارعت خطواته لمعزله، استقر خلف طاولته وبيده مكعب من الخشب يحاول تشكيله، تجسيد ثعلب صغير منه..

ثعلب اعتاد الوحدة وأتقن الصيد والافتراس..

هي ليست موهبة، بل هدنة مطلوبة.. دروس متتالية في الصبر وضبط النفس.. خلوة من الأفكار والحروب والصراعات..

لكن كفه ظلتْ ترتجف.. نظرته تهتز.. أنفاسه تختلج باضطراب بغيض.. والغضب يصيله ناره..

ألقى به من يده واسترخى بزفرة مختنقة في مقعده، دفع رأسه لمسنده وتعانق جفناه بإنهاك عجيب تمكن من خلاياه وأفكاره وروحه..

روحه التي سحبته عنوة إلى الأمس البعيد بزمن البشر، القريب جدًا بزمن قيح جروح نفسه التي لا تهدأ أو تستكين..

يتذكر ليلته الأخيرة قبل وصوله للميناء، البرد والصقيع الذي ينهش عظامه حتى كاد يفتتها، قلْب القلادة الذي لا يفارق جيبه بصورتيه..

أمه الفاتنة الصغيرة.. وأبيه!.. تلك الليلة انتزع من القلب صورته..

صورة رجل ألقى به في دهاليز هذا العالم وتركه يصارع متاهاته دون إرشاد، رماها بين شرارات النيران المشتعلة ببرميل معدني كان يقف إلى جواره، يستمد منه بعض الدفء..

أحرقها وود لو أحرق صاحبها معها..

بعد ثلاثة عشر عامًا علم أن أمه كانت وحدها، أنهم انتزعوه منها لأنها لم تستطع رعايته.. هي لم تتخلص منه بإرادتها..

لذا احتفظ بصورتها.. تشرب ملامحها الفتية حتى باتتْ تزور أحلامه وتضمه.. تقيه قسوة البرد ووحشية البشر..

من حيث انتهى؛ التقطه أحد العاملين على سطح سفينة تجارية خط سيرها بين ميناء لا غويرا ونيويورك، آواه مقابل عمل وضيع..

تنظيف مخلفات حمولتهم المعتادة من الخنازير، وقبِل..

لم يملك سوى القبول.. أخفى هويته، ديانته المنسوب إليها اسمًا وحسب..

أضحى وظل واستمر "جايكوب" فتى الشوارع اللقيط..

فاقد الوطن والهوية والإنسانية..

في نيويورك بعد أشهر من الاختباء والهروب من دوريات الشرطة التي قد تعيده موطنه الأول، تعرف على أحد المهربين، ومنه تقابل والعصابة التي هو أحد أفرادها..

ثم انضم إليهم بعد إثبات ولائه وجدارته بسرقة سلاح رجل شرطة!..

كان صغيرًا وعمر روحه يتجاوز الألف عام..

من هنا بات "جايكوب جوناه" رجل العصابات.. اسمه واسم جده الأقرب لمنطوق لا يدلل على عروبته المطموسة..

ثلاث سنوات تالية اقتطعت من عمره الذي لا يبالي به، كان ينهب.. يسطو على البنوك، المحلات.. يقبض الإتاوة من دافعيها ويتجبر..

أدمن القسوة..

أدمنها إلى ما دون القتل وكان يشتهيه، ظل يرفض حمل سلاح ناري قد تنطلق رصاصاته لو استسلم لوحشيته في لحظة..

وهو أقسم أن دمًا واحدًا سيلوث يديه..

دم والده البيولوجي..

كان مراهقًا حاد الملامح والنظرة، وبعد تلك السنوات الثلاث تعثر بها..

أمه الجميلة التي غدَت أكثر فتنة..

بحسبة طفيفة خمن عمرها ببداية الثلاثينات، ترقص.. تتعرى، تخلع ثيابها قطعة قطعة بإغراء لا يقاوم لأجل رغبات رجل..

تعثر بها عندما كان يقضي سهرة بصحبة بعض أفراد عصابته في نادي تعرٍ!..

وكانت هي إحدى راقصاته من خلف ستار لأجل واحد فقط.. تغويه، والرجل يده تمتد إليها.. تتحسسها، يتحرش بها وترفض، تبعده، تدفعه.. تتوقف عن حركاتها الماجنة وتهدده بحارس ظهر

بغتة من اللامكان.. تعرفها بقلبه أكثر من عينيه اللتين تعلقتا بها في ألم..

كيف وصل بها الحال للحضيض!..

كيف خسرت كل شيء حتى كرامتها وأنوثتها!..

تعرفها وملامحها لا تختلف عن صورتها كثيرًا، والاسم الذي هدر به الحارس زاعقًا فيها يخرسها هو ذاته المحفور على سلسلته..

"كاميللا"..

اقترب بلا وعي.. كان يريد أن يناديها، يسألها، يخبرها عنه ويعلم عنها..

لكن اندفاع الخرتيت المتحرش خارجًا أسقطه أرضًا وعندما عاد لوقفته لم يجدها، تلاشت في الهواء كأنها كانت سرابًا جسَّده له خياله المُتعب..

رحل أصدقاؤه وبقي هو، انتظر عند باب الملهى يترقب رحيلها، كلا.. لم يكن يحلم.. لقد كانت هناك، مر الوقت وبدأ الحضور

بالانصراف، زميلاتها التي لمح بعضهن.. سكن المكان وهي لم تظهر بعد!.. استوقف واحدة مرتْ به، تأملته باستياء:

- ماذا تفعل هنا يا صغير!..

لم يكترث بتوصيفها له بل بادر بلهفة:

- كاميللا، هل مازالت بالداخل!..

تأملته الفتاة العشرينية بنظرة وقحة:

- العجوز!.. مزاجك غريب يا فتى..

وأشارتْ من وراء ظهرها بلا اكتراث:

- كاميللا تخرج من الباب الخلفي، أقرب لبيتها..

ركض بلا تفكير.. ركض كأنما حياته تتوقف على سرعة خطواته التي دارت حول الملهى بحثًا عن بابه الآخر..

عند بداية زقاق مظلم يحتوي المدخل لمح سيارة ذات دفع رباعي متوقفة بعرضه، ومن داخلها تواتر لسمعه صوت صرخات مكتومة..

لم يبالِ للحظات فهو أتى بحثًا عن والدته..

التقط بطرف عينيه ارتجاج السيارة، الصراخ الصادر منها يتقطع، الجسد الذي يظهر من زجاجها الخلفي بلا وضوح.. رُغمًا عنه اتجه إليها، ومن النافذة رأى ما يجري..

اغتصاب!..

بالداخل امرأة تُغتصب.. يجثم فوقها وحشًا ضخمَ الجثة، يكبلها، ينهشها، يعاشرها قسرًا وقهرًا، يصفعها ويأمرها بزعيق أن تخرس وإلا سيقتلها..

رآها تركله، تقاوم، تصرخ، تتوسل، تبعده، تنهار، تبكي..

رأى وجهها في انفعال مخطوف؛ لقد كانت أمه!..

مقيدة بقبضة ذاك الحيوان الذي تحرش بها حين رقصتها، تجمد لثوان عاجزًا عن التصرف قبل أن تنتفض غريزة البقاء بداخله، تنتفض لتجاور غريزة الحماية فينقض على الزجاج ويلكمه..

يصرخ بالرجل أن يتركها، يهدده بالقتل..

يلكم الزجاج مرة وثانية وثالثة ثم يلعن اللحظة التي قرر فيها عدم حمل سلاح..

يدور بعينيه في الزقاق بقهر بحثًا عن شيء يساعده.. يلتقط حجرًا ويهشم به النافذة، يمد يده ليفتح الباب، يجذب الضخم من فوقها وإن كان الأوان قد فات فالرجل بلغ ذروته بعدما افترسها..

لم يدرك مقدار ضخامته إلا عندما واجهه!..

أخرج مُديته من جيبه وحاول طعنه بها فتفاداها الوحش بسهولة، عقبها قبض على كفه وانهال عليه باللكمات كأنما يضايقه أن تَدَخَل في لحظات ساديته فوق جسد امرأة لا تخصه..

تركه على حافة فقدان الوعي والدم ينزف من فمه وأنفه، بضلع محطم نتاج ركلة أخيرة لصدره، عاد لسيارته يسحب ذبيحته من قدميها ليلقيها خارجها جوار الفتى الذي حاول الذود عنها، يبصق فوق الاثنين ويرحل كأن شيئًا لم يكن..

أو ربما كان..

كان إثمًا جديدًا يضاف لسجل من أتى به لهذا العالم ونبذه.. كانت قسوة تنقش بصمتها بقلبه وروحه.. كانت أنفاسًا متحشرجة لا يسع صدره ابتلاعها وضلعه المكسورة تكاد تخترق رئته..

كانت لحظة بعدها لم يفارق سلاحه الناري حزامه!..

تحامل على نفسه بعسر.. استند لمرفقه والعجز يكبله بأغلال الخزي والضياع، تأمل سكونها.. جمودها.. شحوبها.. وخيط النزف المتسرب من بين ساقيها فتتشربه بقايا ثوبها الممزق، لقد آذاها..

همس باسمها لكن عيناها الجاحظتان، الشاخصتان بلا روح نحو ظلمة السماء لم تتحولا إليه، تمتم باسمه بينما يبصق دمه..

وهنا دب فيها شيء من حياة!..

أدارت رأسها نصف دورة ومع لقاء البصر ظن أنه وجد ملاذه، وطنه معها..

الأمل أحيانًا يدفع بنا للتشبث بالوهم!..

والوهم ما هو إلا خديعة عقل يخشى مواجهة الحقيقة..

بعد ما مرتْ به، بعد يقينها من كونه طفلها الضائع، بعد شهرين قضاهما يعتني بها؛ علِما بحملها نتاج تلك الليلة القاسية..

أمه التي كان يكتشف عنها كل يوم مفاجأة..

تدمن الكحوليات، تتعاطى الهيروين..

شهر آخر انتهى لتفقد جنين الإثم وتفقد معه ما تبقى فيها من رغبة المقاومة.. كان دومًا إلى جوارها، يخشى الابتعاد عنها كأنها ستهرب أو تضيع منه، كان يحمل همومها فوق كتفيه ولا يبحث عن مقابل من عاطفة أمومتها التي يحترق لأجل نُدفة منها..

وهي كانت ممزقة، منتهية الصلاحية والحياة..

بقيتْ معه لعام واحد ثم غادرتْ دنياه بأكملها..

عاد للبيت بعد عملية سرقة مع عصابته ليجد دمها يغرق الأرضية، الشمس توشك على الشروق.. وهي في ظُلمة الليل حال غيابه قطعت شرايين معصميها.. نزفتْ حتى الموت!..

ولم يكتفِ منها بعد.. بل لم تكتفِ منه قسوة العالم بعد..

دفنها.. بحث عن مغتصبها ولم يستطع الوصول إليه، فهو حتى لم يميز نوع سيارته، حارس الملهى الليلي لا يعرفه.. والتهديد لم يُجدِ مع زميلاتها.. حينها كان القرار الحاسم!..

سيجد أبيه، عائلته.. ويمحوهم من على ظهر البسيطة..

هم في الذنب سواسية وهو ليس بقاضٍ عدل..

هو الجلاد، حامل السيف.. سيثأر، ولن يتهاون..

ظلتْ رغبة الثأر تحرقه حتى التقى "خليل الكتاني"..

سائح يوناني من أصل مغربي.. يجيد العربية بعدة لهجات منها المصرية.. وكان طرف الخيط الذي به النجاة..

قابله وزوجته في يوم عندما سطا عليهما أحد مجرمي الشوارع، ضرب الرجل كبير السن وسرق حقيبتها هي وهرب..

اقترب هو..

اقترب بالبقية الباقية من إنسانيته ليحمل معها زوجها لمشفى قريب، ومن بعدها تبدل المسار واختلفتْ الحكاية..

ليس من السهل على الشيطان أن يترك جحيمه الخاص، أن يغير جلده ويتماشى مع طين الأرض.. لكنه فعلها..

كان قد حصل على البطاقة الخضراء مع صلات قادة عصابته، عصابته التي لم يكن الخروج منها سهلًا كما الدخول تمامًا لكنه نجح في إثبات ولائه فاستحق الجائزة.. الحرية..

عقب نيل حريته سافر مع "خليل" إلى اليونان..

وهناك بات رجلًا آخر..

عاد لهويته العربية في الأوراق الرسمية وإن لم يعترف بها لمن حوله..

تعلم لغة العرب حتى أتقنها، درس من المنزل وخاض اختباراته إلى أن أنهى كلية تجارية في عامين أو أكثر قليلًا..

كان ذكيًا.. تواقًا.. شبقًا للعلم وما يتبعه..

فكل هاته خطوات تقوده لهدفه الأوحد..

في كل يوم من تلك الأعوام ظل يبحث عن أصله، يفتش عن عائلته.. يختلط بالمصريين المقيمين هناك..

يدرس عاداتهم، تقاليدهم.. أكلاتهم، تنوع لهجاتهم ينغمس في أسرارهم.. وحتى مزاحهم..

يغوص في عالم من المفترض أنه ينتمي إليه..

قرأ في كل شيء.. في الشرع، الأدب، التاريخ.. حفظ خرائط مصر وطرقاتها وأسماء شوارعها ومعالمها..

عمل بمطعم "خليل" لسبعة أعوام عامله الرجل خلالها كابنه، بل تبناه بالفعل وإن لم يمنحه اسمه..

لم يكن ينجب، فكان هو الابن الذي لم يحظَ به..

ثم رحلتْ زوجته، من أصبحتْ بمثابة أمه..

رحلتْ بمرض خبيث لم يمهلها الكثير بينهما، ومن بعدها رحل الأب الذي لم يتحمل فراقها..

رحل "خليل"..

وترك من خلفه وصيته، وأوراق تثبت ملكية "يعقوب" لمطعمه..

إثر رحيل الوالدين الوحيدين الذين عرفهما لم يبخل عليه القدر بالصحبة.. بدفء وحب امرأة لم تضِن عليه بمشاعرها ووجودها وحنانها.. "كاليوبي"..

المرأة التي مر على علاقتهما عامين كاملين قبل أن يخبرها عن أصله المصري، وشيء من فتات مبعثر تضمن حياته الماضية..

المرأة التي همس لها في لحظة ضعف شاردة:

- كنت أحمل عروبتي معي أينما ذهبت كالي، أحملها رُغم أنني لا أعلم كيف تبدو تفاصيلها أو حتى كيف أعيشها!..

واليوم.. ها هو بأرضه العربية، يغرس حضوره بتربتها بتجبر.. يمد جذوره عميقًا حتى يحين وقت حرق جذور عائلة لم يشعر في لحظة بانتمائه إليها..

زفر ببطء.. انحنى يتناول مكعبه الخشبي، يعاود تشكيله بدقة..

فالآن..

عاد الثعلب!..

**

في العشق هي محاربة اكتفت من الصمت، من الدفاع.. فبادرت بالهجوم..

لاحقته.. حاصرته..

أهدته اعترافها بسقوطها في هواه، منحته طرف الخيط.. وتركتْ له حرية جذبه..

بينما هي تحاول بقلب امرأة مغرمة تطويقه به!..

شهر مر على عودتها للعمل معه، مشاكلها مع أمها لم تنتهِ أو تتوقف.. رفضت خاطبًا آخر، ووالدها يقدم غصن الزيتون بين المرأتين في كل معركة ويكاد يفقد عقله..

من ثباتها على صراط عشق غير مأمون العواقب.. ومن جنون الأم التي أقسمت بثقة أنها لن تنال سوى الجرح، والخسارة..

دلفتْ معه لمصعد شركة أحد عملائهم، أنهيا سويًا صفقة جيدة وكانا في طريق عودتهما للمصنع..

تجاوره بصمت، وهو يعبث بهاتفه في محاولة لإجراء مكالمة لا تسعفه شبكة المحمول لإنهائها بسبب المكان..

زفر بضيق.. قبل وصولهما إلى الطابق الأرضي ارتج المصعد بغتة، أظلم العالم وتوقف بهما على ارتفاع ثلاثة طوابق..

في العادة هي شجاعة، لا تخاف..

لكنها بهذه اللحظة انتفضتْ ودون وعي قفزت عند موطن وقوفه وتعلقتْ بذراعه بشهقة:

- حصل إيه!..

لم ينزع منها ساعده عندما شعر برعدة جسدها.. هل تخشى الظلام!..

أنار مصباح هاتفه وتأملها على ضوئه بشبه اهتمام:

- غالبا الكهربا قطعت..

رمق يديها المتشبثتين به في نظرة وترتها:

- بتخافي من الضلمة ولا إيه!..

"سايبورغ".. ماذا يمكنها أن تناديه!..

بل ربما يوشك على التحول لرجل آلي كامل، خالي من المشاعر البشرية البديهية..

حتى الخوف..

ابتعدتْ بحرج، ساوت خصلة شاردة تعيدها خلف أذنها بارتباك:

- لأ..

- الأماكن الضيقة أو المقفولة!..

نفتْ بهزة رأس، ارتكن بظهره للجدار براحة متجاهلًا سجنهما الصغير معًا:

- خلاص بسيطة..

عقدتْ حاجبيها بحنق وأدارتْ وجهها بعيدًا عنه، لم تلمح ابتسامته أو مطة شفتيه شبه الساخرة من غيظها..

وجودها حوله، قربها.. أصبح روتينًا يألفه، يعتاده.. لا يرفضه وإن كان لا يجدي مع قلبه المنغلق على ذاته..

تعمل بجدية، ولا تشير إلى اعترافها السابق كما لم يفعل هو..

دقيقة تالية لم ينطق خلالها بحرف، رُغم نظراتها التي تسترقها تجاهه بين كل فينة وتالية..

وجدها فجأة تجلس على الأرض بأريحية، تعقد ساقيها وتعبث بهاتفها.. تلعب!..

اعتدل يرمقها بفضول نجحتْ في خلقه بداخله:

– candy crush!.. فعلا!..

تجاهلته، لم ترفع وجهها إليه وأكملت لعبتها بتركيز:

– بتسليني، إيه المشكلة!..

لم يعجبه تغافلها عن وجوده، عن كونهما وحدهما بمصعد ضيق مظلم، محتجزين حتى إشعار آخر..

لم يعجبه وقرر أن يخيفها بلا سبب مفهوم:

– مش ملاحظة إننا لوحدنا هنا!..

هزتْ كتفيها بينما تستمر في اللعب:

- عادي..

جلس القرفصاء يجاورها.. استدارتْ إليه بوجهها مع حركته بلا استيعاب حين أكمل كأنما لم تجِبه:

- والشيطان!..

رمقته بغباء للحظة قبل أن تضحك..

انطلقت ضحكتها مرحة، ناعمة، ممتعة كادتْ ترتسم لها بسمة فوق شفتيه.. لأول مرة يسمعها!..

هي دومًا جادة، حيادية الملامح والنبرة..

توقفتْ وإن احتفظت ببسمة لطيفة مشاكسة:

- ما تخافش مني..

باغتته!..

باغتته وضايقته فقرر رد الصاع بالصاع:

- مش المفروض أنتِ اللي تخافي مني!..

اعتدلتْ لثوانٍ تتأمله بنظرة يفيض منها العشق الخالص.. نظرة لو كان رجلًا سواه لاستغلها في التو!..

لكنه للأسف، رجل جيد، مثالي.. "سايبورغ"..

- ماباخافش منك أبدا..

قطب بحنق مكبوت، حنق استنكره واستغربه:

- ليه!..

وقبل ردٍ شافٍ منها سارع بنبرة مستاءة:

- مضمون!..

هزتْ كتفيها ببسمة هادئة، صافية:

- لأ.. محل ثقة..

وعاد الضوء!..

انتهت الليلة بها في فراشها تتذكر نظرته، كلماته، قربه.. بل تباسطه الأول معها.. وبه يواجه أمه الساخطة، المعنفة والرافضة لما يجري بحياته:

- ماجدة هتتجنن من بنتها ومنك، رجعتها الشغل ليه يا عدي!..

تصلب في وقفته يواجهها بثبات بارد:

- هي اللي طلبت..

اقتربتْ منه توبخه بحزم:

- أنت كده بتعلقها بيك بزيادة..

وجم لدقيقة.. والدته على حق، لا ينكر أن ذلك يحدث في كل ساعة تقضيها قربه.. كما لا يدري سببًا محددًا لرغبته في وجودها حوله..

القلب هنا خارج المعادلة لكن...

"إيه!.. رجولتك مبسوطة إن بنت جميلة بتحبك وبترمي كرامتها وقلبها تحت رجليك!"..

أفاق على قسوة كلماتها، على تشكيكها فيه!..

اعتدل بغضب لم يحاول إخفاءه:

- إيه الكلام ده يا أمي!..

- أُمال إيه يا عدي!..

جلستْ تشير إليه ليجلس بالمثل وإن لم تهدأ نبرتها:

- رابطها جنبك ليه!..

وقسرًا تعلقت بأمل، بقلب أم يتمنى لصغاره سعادة الدنيا:

- قلبك دق لها!..

- لأ..

كان قد استقر في مقعده، انتفض منه مجددًا مع سؤالها.. نافيًا بصلابة جامدة:

- لا حبيتها ولا هاحبها..

أجج غضبها فاستقامتْ تقابله بسلطة قلبها الخائف، بأمنية راحته التي تراها بعيدة عن قلبه وروحه:

- ليه بتقول مش هتحبها!..

ربتتْ على صدره بحنو وعيناها تحاوطانه بضمة دافئة:

- ليه ما بتديش نفسك فرصة!..

ثم ابتسمتْ برفق هادئ، تجاهد به للتسلل إلى دواخله المدفونة أسفل ركام الذنب والندم:

- جرب قرب منها..

- ولو ماحصلش؛ أبقى علقتها بيَّ وجرحتها أكتر!..

نطقها بلهجة حانقة بينما يبتعد عن لمستها وعاطفتها، يوليها ظهره ويخلل خصلاته بتعب.. بخشية التعلق بحبال من سراب..

حبال الوهم!..

التفت والدته حوله لتغوص بعينيه المجهدتين:

- أنت بترفض على افتراض ممكن ما يحصلش..

هز رأسه بقنوط قبل أن تتعانق أجفانه في استسلام:

- وأنت عاوزاني أجازف على افتراض غالبا مش هيحصل..

- أنت عندك قلب محتاج بس تلاقي مفتاحه..

وضعتْ كفها فوق موطن نبضه، كررتْ الربتة والحنان والدفء:

- ماتحرمش قلبك من الحب..

وتنهدتْ بضعف قلق:

- ماتحرَّموش على نفسك..

- هي ماتت وحرَّمته عليَّ..

الزوجة التي حملتْ له بفؤادها كمال العشق، ولم تفُز منه حتى بالفتات رغم المودة والرحمة..

الزوجة التي رحلت فداءً لقلبه ولم تظفر بنبضة خالصة لها..

- كانت أحق واحدة بيه..

نفتْ والدته بصرامة، تجبر عينيه على النظر بعينيها وتثبت وجهه قبالة وجهها:

- أنت لسه عايش، وأحق حد بالحب والحياة..

ثم تراجعتْ بحسم وأمر أخير، بل خيار لا يدري لمَ أسقطه في بئر الحيرة والوجوم:

- يا ترفدها يا تتجوزها ياعدي..

غادرتْ بخطوات واسعة وكلمات قاسية:

- يا تسيبها تعيش حياتها، يا تعيش حياتك معاها..

ليلتها لم ينم..

هجر النوم عقله واعتنقتْ أفكاره كل صراعات الكون وأسئلته الوجودية بلا جوابٍ شافٍ..

في اليوم التالي تجاهلها، والذي يليه تابعها، راقبها..

أما في الثالث؛ ناداها، سيحررها.. لن يسلسلها إلى جوار قلبه الموصد بقفل صدئ لا تجدي معه مفاتيح العالم أجمع..

وقفتْ أمامه بنظرة متسائلة كان رده عليها باترًا حتميًا:

- رهف.. أنتِ...

ماتتْ الحروف على حدود لسانه، تجمدتْ على أطراف شفتيه..

"أنتِ مفصولة"..

أراد نطقها، لكن عوضًا عنها صمت..

صمت طويلًا وإثر صمته استقام، اقترب، واجه عينيها الحائرتين، وبلا مقدمات نطق:

- تتجوزيني!..

(17)

محاولة النجاة في العشق توازي الغرق، كالرمال المتحركة.. كلما تضاعفت مقاومتك؛ غُصت في الأعماق أكثر!..

**

للعشق قوانينه الخاصة، أحدها أو ربما الأول منها قانون الجذب..

والجذب أول عوامله التي يعتمد عليها هو.. القرب!..

أن تكون في مجال التأثر به، أو العكس.. هو في مجالها..

لم تكن تتخيل أنها ستنجح، على الأقل ليس بهذه السرعة؛ لقد قدم لها عرض زواج مباغت دون مقدمات!..

ورُغم الأمنية والحلم وهوى القلب فقد توجست، ترددت.. رمقته بنظرة حائرة لا تستوعب عرضه الذي صمت بعده كأنما يترك لها فرصة ابتلاعه وهضمه على مهل..

بعد الحيرة وُلد ضيق، لمحة من غضب.. هل يظنها ستقفز بين ذراعيه، تتعلق بعنقه وتصرخ "أخيرًا"!..

جواب السؤال أتاها مع عقلها الذي يحفظه، لا.. ليس ذلك النوع من الرجال، هو مختلف وربما لاختلافه استحق عشقها..

استحق حربها لأجل قلبه، وقلبه وحده هو بدايتها المنشودة..

ثم تعود لنقطة الصفر، لحديث مازال رنينه يتردد بأذنها ويحتل أفكارها..

القرب يظل المدخل الأول للانغماس في التفاصيل؛ التفاصيل تعني الإدراك، والإدراك قد يتبعه.. الحب!..

كان يراقبها بسكون، حائر بالمثل، غاضب من نفسه ومن شتاته.. لا يريد استغلال ما بقلبها نحوه ليمتلكها..

لكنه رجل، والحياة لا تكتمل دون شريك مهما تهرب من ذاك المنطق أو التف حوله.. شريك يراه فيها!..

"طنط راوية السبب في العرض ده!"..

سؤالها باغته، قطب بدهشة مستغربة في محاولة لاستنباط مغزاه، قبل أن يبادر بهجوم مضاد، لا ينكر أنه حانق:

- تفتكري أنا ممكن أعرض عليكِ الجواز لأن والدتي عاوزة ده!..

هزتْ رأسها بحركة مشوشة جاهلة بالدافع والهدف:

- طيب ليه!.. ليه فجأة!..

كرر صمته، تنهد.. وتراجع يجلس على مقعد أمام مكتبه، يشير إليها لتجاريه:

- مش فجأة، أنا بفكر بقى لي أيام..

- ليه!..

سارعت بغير انتباه لشيء من حدة مسَّت نبرتها.. لم تجلس، دارت في الغرفة وعقلها يكاد يتفتت لقطع صغيرة، كل منها تفتش عن حل لأحجيته:

- بسبب مشاعري!..

مسح وجهه وأعاد إشارته، نظرت ليده، خضعت بقنوط تبتغي الفهم، ولم يتأخر:

- شوفي يا رهف.. العرض ده بالنسبة لي معادلة بسيطة جدا، تيجي نحسبها سوا!..

رمقته بنظرة متوجسة، سعى لطمأنتها بنبرة هادئة:

- طرف أول شايف إن الحياة لازم تستمر، وإن حربه مع الطبيعة مجرد حرب خسرانة.. محتاج شريكة لحياتي، وأم لابني.. وده أول نقطة على الحروف..

"سايبورغ" عملي.. نصف آلي.. لا يُجمل كلماته، أو حتى يزينها لأجل نيل موافقتها.. بل يلطمها بها على وجهها وقلبها في ذات الوقت:

- طرف تاني..

وقصدها هي هنا مردفًا:

- حنونة، بتحب ابني.. ومهتمة بيه وعارف إنها هتهتم بيَّ..

- بس...

أوقفها بكفه ونظرة حازمة تخبرها أن لديه المزيد:

- معادلة بسيطة، 1+1.. هتساوي حياة مقبولة فيها مودة ورحمة، معادلة مافيهاش طرف تالت يا رهف.. ما فيهاش مشاعر..

انقبض خافقها بين ضلوعها.. يقطع دابر الأمل وينحره في المهد، يبتر القصة التي تشتهي سردها بنهاية تليق به دونها:

- أنا جوايا مشاعر..

- وأنا عرضي خالي من المشاعر..

ثم نهض، خطا عائدًا لما خلف المكتب، جلس بتحفز يستند إليه:

- أنا ماحبيتش قبل كده، ومش هاقدر أوعدك إني ممكن أحب..

مع مرأى الحزن بعينيها زفر بحرارة:

- اللي أقدر أوعدك بيه هو المودة والرحمة، المعاملة اللي تستحقيها.. وفي المقابل معاملة بالمثل، مش هاطلب منك بذل جهد أكبر أو

تقديم مشاعرك قربان لرضايا.. أنا عاوز حياة تقدري تسميها روتينية بسيطة مع انسانة فاهماني ومستوعبة دماغي وشخصيتي..

وابتسم يرمقها بنظرة لم تدرك مقصدها:

- انسانة قوية وعنيدة وتقدر تتحمل... سايبورغ زيي..

شعرتْ بدهشة أجبرتها على الهروب ببصرها.. تعض شفتها السفلى بخجل، توسعتْ بسمته فضاعفتْ من راحة ملامحه:

- سمعتك بتكلمي نفسك بيها مرة..

عادتْ إليه بعناد مكابر:

- دي حقيقة..

فرد كفه فوق صدره بإقرار شبه مداعب:

- معترف..

اكتنفها الصمت هذه المرة، تركت جلستها واستقامت تقترب من النافذة..

تشاهد السماء من خلفها، نهار يوليو الحار والزرقة الصافية التي تناسبه.. ماذا إن أتتها الأمنية على طبق من معدن رخيص!..

هل تقبلها أم تصر على الذهب!..

هل تحترق في البعد ومخاوفه، أم أن نار القرب أكثر هوانًا!..

ماذا لو ابتعدتْ، رفضتْ.. وبحث عن سكنى روحه مع غيرها!..

ماذا لو سقط في عشق أخرى كانت أكثر منها جرأة، أكثر تضحية وثباتًا وتحديًا!..

ماذا لو قاومتْ الغرق ففقدته!..

لكن ماذا لو غرقت بالفعل ولم يمد يده لينتشلها من قاع خسارتها!..

لم يهدِها بحبه طوق نجاة!..

ماذا لو اقتربت فاحترقتْ حد الرماد!..

كانت حائرة، خائفة.. مترددة وهذا ليس عهدها بنفسها، اعتصرتْ أجفانها واستدارتْ إليه بنبرة حاسمة:

- أنا محتاجة أفكر..

اعتدل في مقعده يشد جذعه:

- حقك، خدي كل الوقت اللي تحتاجيه..

تحركتْ تدنو منه بخطوات بطيئة:

- مش هاقدر أخرج مشاعري من المعادلة يا عدي..

ضيق عينيه والاحتجاج يبدو على وجهه جليًا حين أكملتْ بتفكير:

- أنا قلت لك مش هاكرر تصريحي تاني.. مش هتسمع مني اعتراف، وده كان وعد..

التفتتْ مجددًا تجاه السماء.. غيمة مارة حجبتْ ضوء الشمس فأكسبتْ النهار رمادية باهتة شوهتْ نقاء زرقته:

- لو عاوز تتجوزني؛ هتاخد الباكدج على بعضه، ما ينفعش تلغي منه الجزء اللي أنت مش راضي عنه..

استقام يدور حولها، يواجهها.. يجبرها على السقوط في بئر عينيه..

لا.. التعلق!..

هي لا تطفو للسطح، ولا ترتطم بالقاع..

الترقب.. الانتظار.. القلق وما يتبعه:

- مش هالغيه يا رهف، عاوزك أنتِ تسيطري عليه.. وتحتفظي بيه في صندوق مقفول جواك، بعيد عن الحياة البسيطة اللي ممكن تنجح بينا..

تراجعتْ عن مجال سطوته، سيطرته على القلب والعقل والروح..

أغمضتْ عينيها ثم فتحتهما ترمقه بنظرة باترة:

- هاخد أسبوع أجازة؛ بعده هارد عليك..

رفع حاجبه مستهجنًا، معارضًا بجدية:

- ليه أجازة!.. الشغل شغل..

بررتْ بلهجة جازمة لا تقبل الجدل أو التورية:

- عشان آخد قرار صح، لازم أبعد عن أي مؤثر خارجي..

وابتسمتْ بشجن، تهديه عتاب مقلتيها ثم تفر منه:

- محتاجة أفكر بعيد عن حسابات المشاعر.. وأقرر ناتج المعادلة دي هاقدر أتعايش معاه ولا لأ..

وافقها عقب تفكير محدود..

فبعد كل شيء، هي تضاهيه قوة، المنح مقنن، والقلب تحت السيطرة حتى حين.. هي اختيار جيد، استثنائي..

وبها قد تكتمل معادلته المنقوصة؛ حيث حياة تحتاج لبعض الدفء والسكينة.. ومن أفضل من امرأة دافئة مثلها!..

**

في الدلال والمتعة هي سيدة نفسها الأولى..

حل الليل بسكونه وهدوئه الذي يناسب مزاجها، دومًا ما كانت تعشق الفوضى وتغرق في الصمت..

امرأة متناقضة، تغوص بتنافر بين ضد وضد.. الآن صغيرها بفراشه، مربيته ذات الدوام الجزئي رحلتْ لمنزلها، وهي ترتدي ثياب نومها، منامة بيضاء، بظهر مكشوف ومظهر مثير..

امرأة أنيقة وإن كانت تتجه إلى الفراش.. تلك هي "نيروز"، لا تتخلى عن أنوثتها أو تبخل بتدليلها في لحظة..

تسير بتمهل، تحمل كوب البابونج الساخن غير المحلى خاصتها وتتجه إلى غرفة المعيشة.. أمامها ساعة أخرى تقضيها أمام فيلم ممل وبصرها يتنقل بينه وبين هاتفها حيث آخر أخبار العالم من حولها..

بترتْ خطواتها الطرقات!.. طرقاتْ شبه خافتة عند باب المنزل المكون من طابق واحد، طرقات نبض لها قلبها للحظة بتوجس في هذا الوقت المتأخر قبل أن تغير اتجاهها نحوه وتنظر من عدسته إلى الخارج..

مرحى.. انظروا من أتى إلى عتبتها!..

فتحته بلا تردد، بسمتها الماكرة تنقش حضورها بمكر فوق شفتيها:

- مش معقول!.. موسى بنفسه عندي في البيت!..

مع مرأى نظرته شبه الضائعة التي ناوشها شيء من غضب لسخريتها تراجعتْ تفسح له طريق الدخول بإشارة من يدها.. جاء إليها!..

لم يتوقعها من نفسه وقرأتْ ذلك بعينيه، هي آخر امرأة في العالم قد يلجأ لها في أي وقت كما توقن، خاصة بعد اختفائه من منزلها بـ"سهل حشيش" وتركه لزوجته من خلفه وحيدة حتى عادت هي بها:

- أزعجتِك؟..

مر للداخل ولسانه يردد السؤال، سؤاله أغرب ما يكون، رجل يذهب لامرأة في هذا الوقت ويسألها عما إذا كان يزعجها!..

الوضع كله مريب، الوضع يفضح نفسه بنفسه.. أغلقتْ الباب من ورائه تتبع خطواته المترددة بوضوح؛ ليس من السهل أن تستجيب روحك البريئة لغواية شيطان.. وهو ليس ببرئ..

كما أنها ليستْ الشيطان هنا.. هي تفاحة الإثم.. هي الجنة..

ومعها وبها الخطيئة..

وقفتْ تواجهه والجواب تنطقه بسلاسة:

- تفتكر ده المهم!..

تركتْ القدح من يدها على طاولة إلى جوارها، وذكرى أمس زوجته تطوف بهوامش أفكارها، قبل أن تتجاهلها عائدة للحظة واليوم وهو في بيتها.. تأخذ دورها في السؤال:

- تشرب حاجة!..

سخافة!.. نعم..

هي لا تماطل.. لكنها تهديه بابًا للهرب، تتركه مواربًا، تدرك غرضه وترى تشوشه.. لا تفهم سبب التشوش ولا تصدق في وجود ملائكة يمشون بيننا.. خاصة هو!..

لذا قررتْ منحه فرصة الفرار قبل أن يطبق عليه الفخ..

- ما بشربش..

الغريب أنه نطقها بشيء من الضيق!..

ينهرها رغم أنه جاء بنفسه إليها، ولا تكترث لسبب أو دافع؛ فالفعل يجُب النية..

رفعتْ حاجبًا مستخفًا وعينها تميل للكوب الذي كان بيدها:

- أنت فهمت إيه!.. أنا قصدي بابونج.. بيهدي الأعصاب خصوصا قبل النوم..

نطقتْ كلماتها الأخيرة بخبثٍ موحٍ، تخبره معه بوضوح أنها تفهمه، تفهم غرضه.. نعم.. لا تزال تريده..

فقط.. زوجته تقف حائلًا بينهما في هذه اللحظة ولا تدري لمَ!..

هي امرأة قاسية ولا تنكر..

تختطف ما تشتهي بلا ندم، وتناله حتى الثمالة بلا إبطاء.. لكن صديقتها البريئة تركت بنفسها أثرًا لم تعتَده من قبل!..

أشارتْ إليه ليجلس فوق الأريكة العريضة متجاهلة صراع أفكارها:

- هنفضل واقفين!..

ابتسم على إثر سخريتها السابقة، تتعامل معه باختلاف تلك المرة..

تراوغ.. تدور بحديثها رُغم أن نظراتها تتحرك في مدار آخر!.. مدار يجمعهما بنهاية اتفقا عليها..

تحرك قبلها بأريحية عجيبة ليجلس على الأريكة، فرد ذراعيه يتصنع الراحة.. عيناه بدأتا تلمعان بتحدٍ غير مبرر، يبتسم لتلك التي تقف قبالته.. يبتسم بثبات بينما نظرته تقيمها كأنثى، جمالها، حضورها، ملابس نومها شبه العارية..

والمدهش وسط كل هذا أنه يراقب أريحيتها هي في التعامل معه بتلك الهيئة بالغة الإثارة:

- أديني قعدت.. هتفضلي أنتِ واقفة!..

كانت تستمتع بنظرته، تقرأ أفكاره بيسر تام، ملامحه ككتاب مفتوح يعرض كل محتواه من العنوان وحسب..

والآن يناور..

لا يهاجم، بل ينتظر هجومها هي..

تُقر أنها تتغذى على اهتمام الرجال، وهو رجل.. وسيم.. جذاب، ينتظر إشارة إصبعها ليسكن فراشها.. هي أكثر من راغبة، ولا تخفي رغبتها..

تهادتْ حتى وصلتْ إليه، جاورته وذراعه المفرود باتت وراء كتفيها، اعتدلتْ في جلستها قليلًا تميل لتستند بجانبها لظهر الأريكة حتى تواجهه بتحدٍ؛ إن كان يريدها فليتجرأ وينطقها:

- جاي ليه دلوقتِ يا موسى!..

- جاي.. أشوفك..

نطقها بفاصل زمني، ببطء..على منوال التحدي، مع تعبيرها الساخر الذي لاح فوق وجهها سألها:

- مستغربة السبب؟..

حافظتْ على ملامحها الساخرة توبخه:

- أنت ما قلتش السبب..

ومع آخر قولها شرد يفكر في سبب..

تأملته تضيق ما بين جفنيها، تقلب صفحته الأولى وتتسلى في الثانية.. تقرأها بتمعن وتدرك دواخله دون جهد..

حيرته.. غربة نفسه، خطواته المرتبكة المتعثرة..

رغبته في السقوط ثم خوفه من ألم الارتطام بصلابة قاع الخطيئة..

تشتته الذي قاده إليها، والتشتت نفسه الذي يمنعه عن امتلاكها منذ فتحتْ بابها إليه، التفافه وتوريته وتيهه..

- يمكن لأني مش عارف!..

خرجتْ من فمه متكسرة، متقطعة، ضالة في متاهته المتشعبة التي تجهل هي دروبها، رُبان سفينته فقد بوصلته في ليلة ماطرة شتوية..

يغرق.. يغرق أكثر ويفقد أنفاسه، لكن في الوحل!..

رمقته بنظرة صامتة طويلة تسبر أغواره بها..

ذلك التردد المغموس بالارتباك، تلك الحيرة الغارقة في الضياع.. هو لا يلاعبها هنا لكنه يستحق صفعة.. صفعة إفاقة:

- بس أنا عارفة..

مال إليها بنظرة متسائلة تقابلتْ مع بسمتها ونبرتها الحازمة:

- أنت جاي عشان تخون ميرهان معايا..

واسترختْ في جلستها تهديه نظرة لا ترحم:

- جاي توافق على العرض بتاعي..

صدمته كلماتها لوهلة، كان غافلًا فلم يتوقعها، لن ينكر ذكائها.. أدرك أنها استغلتْ الفرصة لتنتقم.. تعيد له الصاع صاعين!..

رفضه السابق.. إهانته لها واحتقاره وقتما تقربتْ منه..

تحداها بعناد ينتزع نفسه من قاع غيابه ولو افتعالًا:

- ليه فكرتِ في كده؟..

اقترب منها أكثر، ابتسم بخبث مصطنع لم يقنعها:

- مش يمكن أكون ندمان، وجاي أعتذر لأني ماكنتش جنتل كفاية مع واحدة ست جميلة زيك!..

ثم يضيف أسبابًا أخرى وهمية:

- نفتح صفحة جديدة..

يهمس في أذنها بقول ليس بسر:

- نكون أصدقاء..

هل تستنكر التفافه!.. لا.. هو يريدها تحديًا وهي أهل له، هي امرأة خائنة.. تلك حقيقة لا تُنسى!..

وخبرتها في تلك النقطة تحديدًا تفوق عمره، أما عنه فهو مستجد في طريق الخيانة.. إن أراد؛ من الممكن أن تبدأ في تلقينه بضعة دروس احترافية..

تراجعت بوجهها تغوص بعينيه، ترى ما خلف التحدي، تراقب خبثًا مفتعلًا يسعى لإجادته ولا يستطيع..

ابتسمت بذلك التلاعب الذي تتقنه، اقتربت مجددًا تهمس بأذنه:

- مشكلتك إني مش بريئة زي مراتك..

لم تلمح انعقاد حاجبيه.. أكملتْ وأنفاسها تلفح عنقه:

- ميرهان ما تستاهلش الخيانة..

دفعته ليعود بظهره للوراء، استقامتْ واقفة ترمقه بغموض.. ترى دهشته ومحاولته للاعتراض.. تبترها بحسم قاطع، تستقر بأحضانه، تحيط وجهه بكفيها وتحاصره بهمس أخير أمام ثغره:

- بس أنت تستاهل تكون خاين يا موسى..

ورُغم تقطيبته الغاضبة فقد بادرتْ كما أراد هو بالضبط..

منحته بشفتيها طرف الخيط.. أهدته البداية!..

استشعرتْ تجمد جسده على إثر تصرفها للوهلة الأولى، تلاه ابتعاده لحظة لمسافة قصيرة، عقبها تحركت عيناه بانفعال ذكوري تجاهها، يغرق في فاصل من الفوضى، أفكار عدة تتقلب على سطح مقلتيه دون وجهة وتراها.. تخبره بعينيها أن يعتنقها، ويُسلم لتيارها..

حينها استجاب..

استسلم لشيطانه، أو لها.. فهي تقوم بدوره على أكمل وجه، تحكم بكفيها يوقف اقتحامها، مع ترقبها لردة فعله التي تتوقعها داهم ثغرها بسيطرة، يجذب طرف خيطها بشيء من عنف..

بقسوة لفتت انتباهها، قسوة لا تحبذها لكنها لن تمانعها كبداية بهذه اللحظة!..

**

هي امرأة اعتادتْ مذاق النجاح..

هُزمت مرة، وبعدها لم تتوانَ عن الوصول للقمة.. مهما كانت العقبات.. نجاحها في العمل وحسب!..

فحياتها الشخصية مكونة من عدة خسارات، فشل وراء فشل..

لذا ها هي تتشبث بتفوقها العملي وتسعى لإثبات قيمتها بمكانها الجديد، والشكر لمن كان زوجها، ومازال عاشقها حتى اللحظة..

"منذر الإدريسي"..

من كان وجعها، وهي باتتْ جرحه الذي تتمنى شفاءه منه..

بعد الفراق وعودتها للوطن، هاتفها يخبرها عن عمل وفره لها، يحفظها عن ظهر قلب.. يدرك أنها امرأة لا تركن للراحة، وشغفها عملها الذي تبرع فيه..

بعدها بيومين كانت تقابل "وجيه نصار" مالك سلسلة فنادق "نايل بالاس".. يُعلمها عن وصاية صديقه القديم بها وبين قوسين الزوج السابق، وعن فترة اختبارية ستخضع لها قبل أن تنال

الصلاحيات الكاملة والثبات في موقعها كإحدى موظفات فريق العلاقات العامة..

ها هي، بالمقر الرئيسي لسلسلة الفنادق التي على وشك نيل عالميتها..

دقت خطواتها الأرض بثبات بينما تتجه لمكتب "وجيه نصار"، تقابل مساعدته ببسمة هادئة ثم تسمح لها بالدخول..

- خير يا مدام دُچى، طلبتِ تقابليني؟..

قالها بنبرته الجافة التي لم تعتدها، رفع عينيه عن الورق الذي غرق به، يشير إليها لتجلس.. استجابتْ لإشارته ببسمة واسعة متجاهلة جفاف استقباله وحماسها يغلبها، قبل جلوسها وضعت أمامه ملفًا متوسط الحجم، نقرتْ فوقه بقبضتها المضمومة ونظرتها تتألق بحيوية:

- خطة فاعلية جمع التبرعات لمستشفى السرطان..

صمت للحظات ثم تناول الملف، تفحصه بتدقيق سريع بعده أعاده إليها:

- حماسك ده شيء مطلوب وصحي يا مدام دُچى، المهم التنفيذ يكون بنفس جودة التخطيط النظري..

أومأتْ برأسها تصدق على حديثه، وإن كانت تفتخر بقدرتها على التنفيذ الأفضل:

- التنفيذ ده بتاعي أنا..

زفرت بحرارة، اعتدلت في جلستها وقد سكنتْ تراقبه حائرة في طلبها الذي أعلنته بغتة باندفاع:

- محتاجة بس دعمك..

قطب بتساؤل جاوبته هي بعجالة:

- خطة الفاعلية في دماغي فيها شوية أفكار يمكن مش تقليدية، في حملة دعائية كبيرة لازم تتعمل الأول...

أوقفها بإشارة حازمة:

- دُچى إحنا الفندق اللي هيستضيف الفاعلية، مش مسؤول عن تقديمها للجمهور..

عارضته بحجة منطقية:

- دعم سلسلة الفنادق مطلوب، وده له هدفين.. الأول طبعا عمل الخير بالإضافة للاستضافة المجانية.. والتاني نوع من الدعاية والترويج للسلسلة ككل، خصوصا الفرع الجديد اللي افتتاحه قرب..

فكر لدقيقتين كاملتين انتظرته خلالهما حتى قرر بجدية:

- تمام.. هاديكِ صلاحيات شبه مفتوحة في التنفيذ، المهم تكوني عارفة إن الفاعلية دي لها هدف محدد، أي دعاية هتعمليها ما تخرجش عن الإطار ده.. وبرده لحد معين..

ابتهجتْ وبرقتْ عيناها بوهج انتصار النجاح القادم حين أوقفه هو بحسم:

- في شرط كمان..

فتر انتصارها جوار الحماس الوليد وهو لاحظ ولم يكترث:

- رئيسك المباشر لازم يوافق على كل خطوة، اتفقنا!..

وجومها غيم على وجهها ونظرتها، أومأتْ بموافقة بعد صمت قصير.. حين غادرتْ مكتبه؛ كان وجهها محبطًا..

هل تصورت أنها ستتصدر المشهد بعمل ضخم مثل هذا، كأول فاعلية تنظمها بعدما انضمتْ للعاملين بالفندق حتى وإن كانت الواسطة هي الدافع!..

بالطبع لا..

لكن طريق القمة يبدأ بخطوة، وهي جاهزة لوعورة التسلق وإن كان الجبل شاهقًا..

**

هي امرأة تجد النجاة ولو بقارب مثقوب..

في الألم، العشق والحياة..

لكن قاربها هذه المرة تحطم، لم يبقَ منه سوى بضعة ألواح جمعت بينها ببعض الحبال المهترئة.. قاربها تحول لطوف بدائي بالكاد يحملها بين موجات بحره العاتية حالكة العتمة..

طوف لا تدري إلى متى قد يستمر وتستمر معه النجاة، فلا مرسى له ولا مرساة.. طوفها الذي امتدتْ أشرعته اليوم بعد سعادة أهداها إياها قدرها وصغيرها..

وأولى خطوات حبوه!..

قبعتْ أمامه على أرضية غرفتها تترقب حركته، تتابع كيف يستند بيديه للأرض، كيف يعتمد جسده على ركبتيه، ووجهه إليها..

يتشبث بها بعينيه ويبتسم ببهجة الإنجاز، تشجعه بنظرة لامعة دامعة، تصفق وتناديه، تفتح ذراعيها لتستقبله بين ضلوعها..

تنهال عليه بالقبلات والدغدغة ويضحك فتشرق شمسها وتضيء ملامحها المُثقلة بضباب الحزن منذ منحها سلم الأمل، منذ رفعها به عاليًا ثم سحبه من تحت قدميها لتسقط وتحطم عنق ثباتها المزعوم..

كان يراقبها بلا وعي منه..

عاد من العمل مبكرًا بعض الشيء، عشر دقائق ربما.. وتلك الدقائق المحدودة كانت جحيمه!..

تأملها تنقلب على ظهرها وطفلها فوقها، يرفع وجهه لينظر إليها فتداعب وجنته بأنفها وشفتيها، وتهديه ضحكة صافية خالية من كل هم وتعب..

تهديه عاطفة لا يدرك أبعادها أو تفاصيلها أو حتى كيف يمكن أن تمتلك مثلها!..

منذ تلك الليلة..

منذ آلمها بكذبته التي صدقتها ببرائتها ونقائها المزعجين له.. منذ نهض وحش أوجاع ماضيه من قبر ظلامه.. منذ عاد الثعلب..

وهي تتحاشاه..

لم يحاول الاقتراب منها، بل ترك لها مساحتها بعيدًا عنه، ليس رحمة بها.. لكن فتورًا!..

وكلما تلاقتْ بعينيه رأى في نظرتها عتابًا لا يفطن لمغزاه.. ولا هي تفعل.. هل تعاتبه على قسوته!..

على وحشيته!.. على نهشه لأمنياتها!..

على كونه هو!..

شيطان واقعها وأحلامها..

أم ربما تعاتبه على قُبلة كانت تتوقعها، تنتظرها ولم يقدمها..

لقد كانت مستسلمة بين ذراعيه، ليس ذاك الاستسلام الخاضع المألوف لديه.. بل كانت ليلتها ترغبه وهو يدرك..

والآن كل ما فات كأن لم يكن.. لماذا؟..

لأن طفلها، دعامتها الثابتة التي لن يمسَّها بعالمها.. بدأ يحبو..

أوجعت صورتها عينيه، أغشى نورها الساطع بصره فغض الطرف عنها وانصرف من حيث أتى..

بداخله صراع حيرة لا يرضى عنه، هو أحيانًا لا يفهمها..

تارة تكون هينة.. لينة.. طيعة، سهلة التشكيل.. وأخرى..

لا.. ليست صلبة قوية معاندة، بل حارقة.. ثابتة..

تجيد التكيف وتستمر بالتعايش..

مهما ارتقى بسقف قسوته، تعلو هي بسقف تحملها..

هي شمس لا تنطفئ، وإن كان غروبها مُحتَّم فشروقها مُنتَظَر..

هي امرأة تصلح له!..

تصلح لأن تتحمل دُجنته.. تغرق في سرمديتها إلى أن يموت أو تنتهي هي..

وكيف تنتهي الشمس!..

ككل نجم.. لكنها تختلف حتمًا، فقبل النهاية تصل لأقصى سطوع وأشد حرارة.. الشمس لن تنتهي وحدها، ستبتلع معها وقت الرحيل أقرب الكواكب إليها..

وهو لا ينوي أن يكون أحدها، لن يكون أبدًا جُرمًا حائرًا في مدارها..

يكفيه فقط أن تكون هي تابعة له، تدور في فلكه حين الحاجة حتى تذوي.. يكفيه أن يكون معها في هدنة من حربه..

من حرب أعماقه وأفكاره، من حرب ثأره..

لا يتخلى عن سلاحه، بل فقط يحيا وإياها على طبيعته الوحشية..

هدنة من الأقنعة، من الخداع، من تلون الثعالب..

هو معها ضارية مفترس لا يبالي بافتراسها أو نزفها، ولا يخفي لامبالاته تلك..

ملجأه الوحيد بهذا الوقت كان صومعته، تسابقت خطواته في هرولة إليها، وفكرة ما وسوس بها شيطانه بأذنيه..

النهار يوشك على الرحيل، شمس السماء تكاد تنزوي بالغروب لكن الضوء يغمر الحديقة، وهي دومًا ما تخرج في تلك الدقائق تتأمل حمرة الشفق كأنما تودع معها وهجها الخاص حتى شروق اليوم التالي..

رفع رأسه فلمحها بالشرفة، تستند لسورها وبصرها معلق بالأفق الذي تباينت ألوانه بين الأحمر والبرتقالي والذهبي بإبداع صُنع الخالق..

ظل على وقفته حتى تنهدتْ بغتة ومالتْ بناظريها إليه، تفاجئتْ بوجوده.. كانت تظنه لم يعد من عمله بعد!..

مازال بحلة العمل بالفعل وإن خلع سترته الداكنة، يحمل بيده دلوًا معدنيًا أثار فضولها، وبسمته القاسية عند منحنى شفتيه تشي بخبرة وجع جديدة سيضيفها لسجلها الأسود معه!..

راقبته يترك حمله على الأرض جوار جدار الغرفة، يدلف إليها لثوان معدودة ثم يعود وبين يديه عدة منحوتات خشبية ميزتها بينما يلقي بها واحدة تلو الأخرى داخل الدلو فتصدر قرقعة عالية مزعجة..

منحوتاتها!..

رقصة آلامها التي جسدها ولا تدري حتى الآن لمَ!..

ارتجفتْ وهي تعتدل، تتمسك بالسور بكلتا كفيها حتى تشدد جلدها، ترمقه بعذاب.. عذاب من أيقن مما سيفعله..

تتابع صبه بعض الكيروسين فوقها، بل الكثير منه كأنما يود حرقها حتى الثمالة.. يشعل عود ثقاب وعينيه تعودان إليها، تلتقي بعينيها رُغم المسافة.. تتوسع بسمته بانتشاء، ويلقيه بجوف الدلو ببطء!..

هبَّتْ ألسنة اللهب بغتة فلم يكترث بها حتى وإن كادتْ تطاله.. لقد فهمتْ الرسالة..

هي ليستْ نقطة ضعف، لم تُشغل ذهنه حتي ينحت حضورها حال غيابه فيها، لم يهتم ولن يفعل..

كانت فقط محض إلهامٍ لحظي.. مرَّ بلا معنى وانتهى بلا أثر!..

اهتزتْ مقلتاها تزدرد لعابها بعسر، تجاهلها تمامًا وعاد يغلق باب معزله عليه، تاركًا لها حرية اجترار أحزانها وحدها..

وهي من ظنتْ أن بذاك القلب النابض بكراهية العالم بصدره، هناك نبضة تتشبث بالحياة!..

حمقاء.. كانت وستظل..

ارتمتْ على أريكة غرفة المعيشة بضيق، تزفر بشجن وتعتصر أجفانها بقنوط.. تتمتم لنفسها مؤكدة على حقيقة الشيطان..

"مافيش فايدة"..

وتميل بيأس لتغوص في أحلامها مع معشوقها.. رأته يقف بين غيوم هي أقرب للضباب، ليست السحب البيضاء الناعمة التي تألفها، بل رمادية منفرة تعميها عن رؤيته..

نادته وأقبلتْ عليه مبتهجة، بخافق واجف يخشى أن يتبدل وجهه لآخر، صار كابوسها..

وكلما أقبلت كان يبتعد، خطواتهما في توازٍ عسير..

تناديه مجددًا فيعاتبها بعينيه وأسى نبرته وخيبة وقفته:

- قلبِك مال يا شمس..

تجمدتْ بمحلها في صدمة، استنكار مذهول، غاضب، محترق، تبعته بهزة رأس نافية غير مصدقة، غير واعية أو مدركة:

- ليه بتقول كده!..

وكررتْ عبث محاولاتها للقرب، لضمة تشتاقها، تحتاجها، تتوق إليها، تباعد فبكت:

- يامن، ما تبعدش عني..

يلومها بنظرة رافضة فتفند بحسرة:

- أنا عمري ما حبيت ولا هحب حد غيرك..

لكنه يدرك، يوقن، ويذبح بالقرار:

- حبيتِ..

ويغتَّم صوته بأنين:

- حبيتِ أخويا..

ثم يسوغ كراهيته من قبره:

- اللي بيجرحِك ويأذيكِ..

بعدها يزعق، يصرخ فيها ويبني بطول ذراعيه حاجزًا وهميًا بينهما:

- حبيتيه ليه!..

- ما حبيتوش يا يامن..

تركض أحرفها، تتعلق بذيل سؤاله بجواب صادق.. كل ما فيها يستشعره صادقًا، مخلصًا، وفيًا لعاشقه الأوحد الذي تحيا على حبه وستموت عليه..

حبه عقيدتها في دنيا الغرام ولا عزاء لموت اختطفه منها:

- ده وحش..

تبكي.. تدنو.. يبتعد..

يتضاعف نزف الدموع وتشتعل النيران بالقلب الحزين:

- ما ينفعش يتحب..

لكنه لا يُقِّر بكلامها، لا يؤمن به وهو يسكن أعماق لا وعيها، يتراجع أكثر.. يتلاشى بين ضبابه المعتم ولومه يصلها موجوعًا:

- قولي كده لقلبك..

- يامن ما تمشيش..

صرختْ وتبعته، تعدو خلفه، تدور حول نفسها في الفراغ الخالي من حضوره، من حضور عشقه وأمانه..

هو ملاذها وموطن همومها وآلامها، هو الحياة وما دونه موت..

تُعيد الصراخ فيتردد صداه نادمًا مقهورًا:

- ما تحرمنيش منك..

"يااامن"..

تنتفض على الأريكة التي غفتْ فوق مسندها الجانبي لساعة كاملة..

تنتفض وعبراتها ترحل عن دنيا الأحلام لتحرق واقعها بوجودها..

تشهق وتهمس بنداء مختنق.. لكنه لم يعد هنا، ولن يعود!..

لهثتْ ترتجف، كأنما أتاها الشتاء بصقيعه باكرًا.. تضم جسدها وتنطوي على روحها في أنين..

بعد لحظات غاب معها عقلها في مجهول اعتدلتْ تفكر به، تفتش عنه بهوس وتعلم مكانه.. تناولتْ هاتفها تعبث بمحتواه، تقلب في صوره.. صورهما معًا..

هذه من سفرة للأسكندرية، والبحر يداعب خصلاتها الطويلة فاختطف هو اللحظة في كادر ثابت وابتسم بتتيم:

- الشمس والبحر، أجمل لوحة في الوجود..

ويخجلها، تبتسم.. تمرر الصور..

يوم علمتْ بحملها وأخبرته، صورة شخصية تجمعهما..

قبل حادثتها بيوم.. بعد حادثتها بعدة أشهر..

أول مرة تقف فيها على قدميها وحصن أمانها ذراعيه..

غُصت بالدموع فسعلتْ، تمتمتها تتكرر باسمه في حشرجة.. حشرجة لم يميزها عندما عاد ووجدها على تلك الحال..

هذه العبرات ليست له!..

لن تفقد شعورها بحضوره أو بالزمن بسببه؛ هناك سبب أكثر قسوة منه!..

"مالِك!"..

أجفلتْ مع اقتحام صوته المباغت لعزلتها الساكنة، رفعتْ ناظريها إليه في بُغض واضح لم تبذل جهدًا لمداراته، غادرتْ جلستها وتحركت ترحل عنه:

- مافيش..

أوقفها عنوة ويده تتحكم بمعصمها لتواجهه:

- كنتِ بتعملي إيه!..

هل تتمرد!..

نعم هي تريد، تتحدى وتوجع وتقسو وتطعن.. يمكنها أن تفعل:

- باشوف صور يامن..

لم تعلم أن ثمن التمرد مزيد من ظلامه، غامتْ نظرته بوحشيته التي تقبض قلبها، قبل أن ينتزع هاتفها من يدها بجذبة حادة، وتعود هي لِخدر مخاوفها معه:

- هتعمل إيه!..

لم يكترث لسؤالها الملهوف بشبه هلع، مرر الصور فوق الشاشة يتأملها بجمود غريب.. زوجته بين أحضان أخيه الميت!..

هو نسخة من الآخر الباقي على قيد الحياة، نسخة رآها من قبل في صورة وحيدة بمكتبة الجد.. نسخة مختلفة ومتماثلة بذات الوقت!..

رفع حاجبًا واحدًا وجانب فمه يلتوي بانحناء تمازجتْ فيه شراسته بسخريته:

- شبه يزن فعلا!..

أظلمتْ مقلتاه بغموض لم تفهمه..

غموض أرجفها:

- جميل إنك تعيشي مع توأمه في بيت واحد.. صح!..

وبلحظة كان يقذفه على الجدار من وراء ظهرها.. يتأمل تحوله لأشلاء دون انفعال، يرمق ذهولها بجمود وازى صراخها المستنكر المحترق:

- إيه اللي عملته ده!..

مط شفتيه وخرجت نبرته محملة ببرود قطبي:

- Ooops..

ركضتْ على حطام ما تبقى من ذكرياتها بجزع، بهَّمٍ يحيط بعنقها فيخنق أنفاسها، بكمد يشعل بروحها جحيمها الخاص:

- أنت إزاي تعمل كده!..

تفتش فيه بجنون، تبحث عن دليل حياة:

- الصور دي من حق يزيد..

انعقد حاجباه لوهلة.. لقد أراد إيذائها، رغب في استمرار عقابها لكنه فوت أمرًا هامًا!..

أمرًا ليس من حقه أو من حق الوحش تحت جلده، مالتْ إليه بنصف التفاتة تفيض بالمقت:

- حقه يشوف أبوه اللي مات قبل ما يجي الدنيا..

تكررتْ الهزة التي نالتْ من دواخله، زم شفتيه بصرامة وتبعها، انحنى وبحركة واحدة التقط ذاكرة الهاتف يدقق فيها، كادت تختطفها من يده لولا أن وضعها بجيبه تحت مراقبتها المشدوهة:

- تمام، هاحتفظ بيهم معايا عشان.. يزيد..

- كفاية..

أتته كهمسة خفيضة، تجاور نفي رأسها بإيقاع رتيب، همسة تبدلت لحدة وزعيق:

- كفاية بقى..

وامتلأتْ مقلتاها حد السيل بالنفور، الغِل، الرفض:

- أنا بكرهك..

نطقتها مختنقة بعبرة قهرتْ أجفانها أمامه.. لم تكن لتسمح لنفسها باستسلام، لم ترِده أن يشهد على ضعفها، وجعها.. خسارتها التي تسبب هو فيها..

هو وحده المذنب هنا!..

وهي التالية في الإثم بخضوعها وخنوعها ووهنها، تممتْ تصريحها بحروف مسمومة تتمنى لو تنغرس بروحه كنصال ثالمة:

- المشاعر الوحيدة اللي تستحقها؛ هي الكره..

- لأ.. في مشاعر تانية أهم..

تلاحمتْ أحرفه بنهاية كلماتها وأعتمتْ نظرته كليل بهيم:

- الخوف!..

ورُغم أن شيء ما مع اعترافها طعنه.. شيء لا يدري كنهه؛ لكنه كان يفتش عن خوفها..

وفاز به!..

**

في الحروب هناك فترات يتوقف فيها القتال، تتغير الاستراتيجيات ويفكر طرفي الصراع في أفضل وسيلة لهزيمة العدو، وتقليل الخسارة للحد الأدنى..

هو قائد جيد في حربه.. أما حربها فلم تبدأ بعد!..

تمتلك وقت العالم كله لتهديه خسارته التي لن ينهض بعدها أبدًا، وليستْ متعجلة بل ستتركه يغرق فيها على مهل..

بعد ذلك اليوم الذي قطع فيه أخيه الأصغر إصبعه، لم يحادثها بكلمة.. كان يمنحها عقابه موشومًا بشظايا الانتظار..

ترقب الأذى الذي لم تعُد تكترث له، لذا صمته كان راحة.. نادرًا ما تغادر غرفتها، ليلتها اطمأنت على الصغير الذي ابتسم لها بألم أوجع قلبها، ومنذ ذلك الحين وهي تتحاشى لقاء الاثنين..

ثلاثة أيام.. في الرابع تفاجئتْ بالخادمة الشابة، تجر عدة حقائب وتقف أمام الخزانة لترتب بها كل ثيابه؛ منذ عادا من خديعته عقب الزفاف وكل منهما بغرفة، فما معنى هذا!..

نادتها، لم تكن تعرف اسمها فاستدارتْ إليها الفتاة، تغضُ الطرف وتعانق الأرض ببصرها:

- اسمي خلود..

احتفظتْ بالاسم وتجاهلتْ الاهتمام فالسؤال عما يحدث الآن أكثر أهمية:

- أنتِ بتعملي إيه!..

جاوبتها الفتاة وهي على ذات الوضع:

- برتب هدوم عمار بيه في الدولاب زي ما أمر..

تغضن جبين الزوجة السجينة بغضب، كبتتْ زعيقًا لا ذنب للواقفة مقابلها فيه، قبل أن يأتي صوته عبر المكان:

- انزلي تحت يا خلود..

هُرعتْ الشابة بخطوات أقرب للعدو حتى كادت تنكفئ على وجهها، أغلق الباب واقترب منها، استقامتْ تقاتله في معركة أولية:

- ممكن أفهم إيه معنى اللي بيحصل ده!..

توقف على مسافة خطوتين، كتف ذراعيه ورد بيُسر تام كأنما لا شيء بالفعل يستحق الدهشة أو السؤال:

- معناه إني هاعيش في أوضتي مع مراتي..

ورفع رأسه يرمقها بنظرة تقييمية أظهرتْ امتعاضه مما ترتديه أو ربما ربطة شعرها المهملة:

- ده الوضع الطبيعي..

اتخذتْ نحوه خطوة تقصر المسافة وتعاند بحدة فظة:

- الوضع الطبيعي لما نكون زوجين طبيعيين، لكن إحنا...

- إحنا إيه!..

خطوته كانت التالية، التصق بها فتراجعتْ وهاجم.. فرَّت وكر والحرب طرف خيطها الأول بيديه، حتى أوقفها الجدار..

حاوطها دون تمهيد، وجسدها تصيبه رجفة أشعلتْ نيران جنونها وسخطها!..

القلب لا يزال يعرف من هو، النبض يناديه.. الدفء الذي لم تنسه بعد بين ذراعيه.. الحب الذي طعنه وتركه ينزف على قارعة طريق الغدر والغضب والثأر الخاليين من الشرف..

لمح كل ذاك، لمحه وابتسم بمكر منتشٍ، مال إثره يهمس في أذنها.. لا يبخل بحرارة أنفاسه أو خبث لمسته المتسللة:

- أنا وأنتِ، راجل ومراته، والحياة بينا لها شكل معين لازم تتعودي عليه..

لم تُبعده؛ ليس ضعفًا، لكن مكابرة..

يظن أنها خانعة باسم العشق.. هو لا يدرك كل مخابئ نفسها للآن.. وحتى يفعل؛ سيكون أوان انتصاره قد فات:

- لو عاوز حياة زوجية طبيعية، تقدر تتجوز واحدة تانية..

رفع حاجبه، تراجع برأسه يحدق بعينيها دون أن يرمش ولو لمرة:

- أتجوز ومراتي موجودة!..

انحنى يقترب بوجهه منها، يتمتم أمام شفتيها:

- مراتي اللي بتحبني..

دفعتْ صدره بلا إرادة وقد ظنته على وشك تقبيلها:

- كانت..

عاد يبتعد، يتأملها بغموض.. يراقب تتابع انفعالاتها ودقات القلب التي تكاد تصله رُغم أنه لا يمسها:

- أنتِ بتحبيني..

قررها ومر بأنامله فوق عنقها بتلكؤ ناعم، خبيث شتت دواخلها رُغم الواجهة الباردة، والنبرة الجامدة:

- الحب زيه زي أي حاجة بتتولد..

رمقها بتساؤل ساخر مستخف فأبعدت يده تجابه عينيه في حرب طاحنة:

- ممكن يموت..

ولأن الموت قدر، والقتل اختيار فقد قست بتعديل:

- ممكن يتقتل..

استند بكفيه حولها وسخريته تتسلل للصورة:

- والقتل سهل بالنسبة لك طبعا..

رمقته بنظرة كمنجل الموت، تنتظر لحظة مناسبة لتجذ عنقه:

- زي ما هو سهل بالنسبة لك أنت كمان..

لم يُجبها، ولم تنتظر.. أكلمت بحقد:

- إذا كنت أنا غلطت وكان ليَّ ضحية؛ فأنت قتلت ضحيتك عمد..

تحكم بذقنها يجبرها على الثبات، وصوته يتوحش بقسوة مثيرة للهلع:

- قصاص يا وسن.. اسمه قصاص..

ثم أعلن غضبه باشتعال كاد يحرقها:

- لما قلت لك اسمه، كنت معتقد إنه هيفكرك بحاجة، بماضي، بطفل مالوش ذنب هدَّيتِ مستقبله قبل ما يتبني..

ارتجفتْ مقلتاها والذكرى تنهشها، عذاب اللحظة يعاد، يفترسها.. يميتها.. أنامله تشتد حول فكها فتكاد تحطمه:

- بس للأسف نسيتِ..

لمح بريق عبرة ولدت بين جفنيها فتلذذ وبريقه هو كان بوهج الدم:

- كويس إن الملامح لسه عايشة في ذاكرتك، مش سهل المجرم ينسى وش ضحيته.. صح!..

أبعدته بقوة تفارق حصاره فلم يمانع، تجمدت بعد ابتعادها عنه، تلو فرارها من طوقه الخانق..

أفكارها تختنق بالمثل مع مشاعرها.. قبضة عاصرة تضغط قلبها..

تجبره على نزف حياته قطرة قطرة، وتنزف هي معه نفسها.. مبادئها، مثاليتها..

لتحارب الوحوش عليها أن تكون وحشًا، فالفرائس خُلقت لتؤكل.. وهي لن تكون فريسة مأكولة مهما برر وعاند وعزف مقطوعته الشيطانية على أوتار الذنب..

"الحرب لسه هتبتدي يا عمار"..

"مش هانسى اللي عملته، ووعدتك أدفعك تمنه"..

كانت تدمدم بالكلمات مرتعشة من بين أسنانها، رعشتها غضب.. فطرتها بركان ثائر، ومثواها سعير لن ينجو منه..

- حربي عليكِ مافيهاش خطوة مرتجلة..

همسها بأذنها بينما يقف خلف ظهرها ملتصقًا به، ينطقها "عليكِ".. لا "معكِ"..

يراها أرضًا تنتظر فتوحاته، لا طرفًا يماثله قوة في صراع متكافئ..

يظنها هكذا.. وذلك خطأه الأعظم!..

يكفيه زلة واحدة كهاته، لا يُقدر خصمه حق قدره.. ليخسر الحرب بأكملها..

- الارتجال دايما أعنف من التخطيط طويل المدى..

واستدارت تواجهه بعنفوان:

- مافيش خطوات محسوبة، في ضرب مباشر سريع عشوائي على أي هدف متحرك، في فوضى..

كانت قاسية، تتجبر كما يفعل، تكابر وتصر على نصرها الخاص..

على ثأرها وستناله، تستغل صمته لتستمر ضرباتها كلسعات سوط تجلد بها أفكاره:

- خليك حذِر، خصوصا لو عدوك ماعندوش اللي ممكن يخسره..

- لأ في.. حياتِك..

نطقها بشراسة مظلمة قبالة عينيها تمامًا..

وبين النظرة والنظرة أُعلنت بداية المعركة..

دقت طبول الحرب.. غارة أولى..

من هنا ستبدأ ملحمة تخشاها الأساطير، ملحمة لا يجوز سردها.. فالوحوش بقلب المعمعة لا يشبعها سوى الدم!..

**

عند الأنثى؛ هناك علاقة طردية بين العاطفة والفقد..

تمنح كلما زاد الألم، تتشبث كلما تضاعفت الخسارة..

وتغدق من مشاعر أمومتها الفطرية حين يحرمها قدرها طفلًا يسكن رحمها..

"ضي".. الصغيرة العنيدة القاسية، ذات ردود الفعل غير المتوقعة أو المتوازنة والمتناسبة مع الفعل نفسه..

"باهي" أخيها الأصغر، اللطيف الهادئ، والذي يفتقدها كما يفتقد أمه، لكن رد فعله يختلف.. ينطوي على نفسه، ويسكن كثيرًا في حيز الصمت والوحدة..

يوم اللقاء الأول ومع صرختها بأنها البديل لأمها وهروبها؛ اكتنف ملامح الوالد حرجًا جمًا جوار غضب كاد يخرجه على رأسها لولا أن أوقفته؛ منعته من تتبعها وإنزال عقابه بها..

تساءلت عن سبب تلك الفكرة، ذلك الشك المطروح في كلماتها وعلمت منه ما حدث بعد وفاة والدتها.. تفهمت الموقف وطالبته بسلاسة وأريحية أن يترك لها حل الأُحجية، هي كفيلة بتفكيك قطعها وإعادة تركيبها واحدة واحدة.. وقد كان!..

طيلة ستة أيام كانت مثابرة في الحضور، في لقاء الطفلين.. تحسنتْ علاقتها بالفتى، اندمج معها بعض الشيء، تقبل وجودها كمعلمة تبقى بصحبته مدة ساعتين كل يوم..

لكن المتمردة، شقيقته الكبرى لم تتقبلها ولو للحظة..

وهي لا تتعجلها..

لقد أخبرها أبيها عن سوء حالتها النفسية بعد موت والدتها المفاجئ، لذا هي تقدر الموقف وتسعى للقرب منها بحيطة وحذر.. بخطوات مقننة متمهلة علَّها تنجح في مسعاها..

ترفض الاهتمام بدراستها، تتحجج بأجازة صيفية تستحق خلالها راحة، تعاند وتتصرف بحدة.. وتتباعد..

اليوم أتت مبكرة عن موعدها بنصف ساعة، وستعود متأخرة نصفًا آخر، والحجة.. ستعلم الصغير لعبة الأذكياء..

"الشطرنج"..

فردت الرقعة وأهدت الجالسة على مسافة ليست ببعيدة نظرة بطرف عينيها، تلمحها منهمكة بجهازها اللوحي، لا توليها ذرة من اهتمامها بحضورها..

نادتها فرفعتْ بصرها إليه بلامبالاة، ابتسمتْ لها برفق:

- مش عاوزة تتعلمي شطرنج مع باهي!..

- لأ..

بالتواء شفاه ممتعض، ورأسها تعود لتندفن في شاشتها لكنها لن تستلم اليوم:

- على العموم أنا وباهي هنلعب سوا، هي لعبة مش سهلة.. للأذكيا بس..

واستدارتْ تولي الشقيق جُل اهتمامها بتعمد:

- يمكن تكون صعبة عليكِ شوية..

خطة نفسية بسيطة وبدائية..

مناورة محسوبة بدقة ونتيجتها دومًا ناجحة، حتى وإن تأخرت لخمس دقائق تابعتهما فيها بنظرات مختلسة مخطوفة..

بعد الخمس وجدتها تترك جلستها، تقترب، تتفحص اللوح والقطع المتراصة فوقه بغموض، تنقلب ملامحها لغضب عارم ثم تقلبه على الأرض متظاهرة بالتعثر!..

تنهض بعدها لتعتذر ببرود غريب لا يناسب عمرها:

- سوري يا ميس رحيل، I tripped..

اعتدلتْ "رحيل" تلملم القطع بثبات، بصبر، بوجهٍ خالٍ من كل انفعال تنتظره منها الفتاة.. تبتسم لها وتتقبل اعتذارها بهدوء:

- مافيش مشكلة يا ضي، المهم أنتِ كويسة..

زمت الصغيرة فمها ببدايات غضب ونبرتها تتشنج بكلمة مبتورة:

- fine..

راقبتها حتى اختفتْ عن ناظريها رُغم تعليمات والدها، أن تظل بصحبة معلمتها طوال زمن وجودها بالمنزل..

لو أخبرته سيعاقبها، وتلك عثرة لا تريدها في طريق الوصول إليها، انتبهتْ لأخيها الذي همس باسمها في خجل وأعادت الرقعة لموقعها.. أهدته بسمة حانية واستأنفتْ تعليمه..

غافلة عن عينين لوزيتين محترقتين، تراقبان من بعيد..

تراقبان بألم..

فحتى من أتت لتهتم لأمرها؛ لا يبدو أنها تفعل!..

والمدلل الناعم هو من يحوز كل اهتمام وحب دونها، هي وحيدة بعد غياب أمها..

وحيدة وستظل!..

**

هي امرأة بعبق الحرية..

معها تخلو الحياة من القيود وتُفَض أغلال الروح..

معها هو رجل مختلف!.. مختلف للغاية حد إثارة دهشتها وجنونها ببعض الأحيان.. حيث أنه مهووس بالشراء أكثر منها!..

شراء احتياجات طفلهما القادم بعد ما يقرب من خمسة أشهر أو أقل قليلًا..

طفلهما الذي لا يعلمان جنسه بعد لكنه يبالغ معه في كل شيء، في الألوان، الأثواب البناتية، الحُلل الأولادية.. وأحذية لا تليق بمولود حديث..

أوقفته عندما حمل ثوبًا ضئيلًا من قطعة واحدة بلون أزرق يتأمله بنظرة لامعة:

- إشمعنى أزرق بقى!.. مين قال إنه baby boy!..

مط شفتيه ولم يكترث لاحتجاجها بل حمله لابتياعه بتصميم:

- ومين قال إنه بنت!..

اعترضتْ خطواته بحزم متضايق:

- يزن.. أنت عاوز ولد بجد!..

مرر إليها نظرة عابثة وقحة أخجلتها:

- أنا عاوز ولد وبنت وولد وبنت وو...

وضعتْ سبابتها فوق شفتيه تخرسه، تنتزع منه القطع التي يحملها وتدفعه للخارج بلا جدال:

- بس، إيه كل دول!.. هنجيبهم في sale من كارفور!..

قرب الباب توقف برفض فأصرت هي:

- استناني دقيقتين بس وأوعدك هنروح محل تاني..

أتتها بسمته الماكرة مع نصف التفاتة:

- دقيقتين بس، ولما نروَح هاضطر أشرح لك تاني وأمري لله الولاد بتيجي إزاي!..

زجرته بنظرة حادة وعادت للداخل، خطا يستند للسور الزجاجي الخاص بالطابق الثاني من المركز التجاري، أشعل لفافة تبغ وتجول ببصره في المكان بملل..

هل تستغرب رغبته في عدد كبير من الأطفال!..

أم لا تصدقها!..

هو من عانى الحرمان وعُجن بالفقد..

يريد أن يحصل على دزينة منهم وسيجبرها على ابتلاع اعتراضاتها بطريقته..

انسحب من ملله بغتة ونظرته تسقط على محل يجاور ذاك الذي تختفي به زوجته، المحل لم يكن لأغراض الأطفال..

بل لأغراض الرجال، الأغراض الدنيئة للغاية!..

أثواب نوم، فاضحة، مثيرة..

عبث في خصلاته الطويلة ثم رتبها بتمريرة سريعة من كفه وعينه تلتقط واحدًا تخيله فوق جسدها، والخيال وحده بهذه اللحظة كان كافيًا..

انتظرها حتى أتت تحمل عدة حقائب تشي بكثرة ما اشترته، استقبلها ببسمة غامضة توجستْ لها بينما تسأله بحذر:

- في إيه!..

أحنى رأسه وجوابه يصلها جادًا بطريقة مريبة:

- أنتِ ليه مش بتلبسي لي قميص نوم!..

انفرج جفناها باتساع جذاب أظهر عسل عينيها كنهر من الذهب الرقراق الصافي، كادت تسبه على استفساره الذي لا تدرك أبعاده لكنها اختارت العناد:

- أنت شايف إنك بتديني فرصة!..

ارتكن للسور بظهره، توسعت بسمته بلؤم:

- طيب فرصة أهي..

ونظرته تميل لما وراءها في إشارة واضحة:

- الأسود الطويل..

قررت مجاراته في عبثه بعبث مشابه..

فاللحظة معه متعة تستحق الاختلاس والتشبث!..

استدارت تتأمل ما ألمح إليه وتكرر اتساع عينيها المذهول، هذه المرة شابهُ استنكار:

- إيه ده!..

- إيه!..

اقترب حتى التصق بظهرها، وهمسه يخترق كيانها كله بعمق ثقيل مُتخم بالخبث:

- عاوزه..

ابتعدتْ بانتفاضة تؤنبه بخجل:

- يزن.. إحنا مش في البيت..

هز رأسه بشقاوة متلاعبة وتناول منها الحقائب:

- عارف.. روحي هاتيه..

كادت تعارض لولا أن رأت عزمه بعينيه، إصراره وشيء من توسل لم ترَه بنظرته من قبل.. هو يريده كطفل صغير تعلق بلعبة!..

أو لنصحح الوصف؛ كذكر اشتهاه فوق جسد أنثاه!..

هزتْ كتفيها باستسلام وخطت تبتاعه كما أراد.. بالمنزل لم يستطع الصبر، أوقفها عقب دخولهما للجناح بأمر:

- البسيه بقى..

أهدته تأملًا مشدوهًا:

- دلوقتِ!..

أومأ بصمت فعقدتْ ساعديها في مواجهة صدرها:

- المفروض هنغير هدومنا وننزل نتعشى..

زمجر بحنق وسبقها إلى غرفة النوم كأنما تذكر أمر العشاء الآن فقط، كان يمكنه تجاهله، لكنه يحرص على اهتمامها بصحتها ووجباتها أكثر منها..

مرتْ ساعتان أخريان، تناولا طعامهما، داعبتْ خلالهما "يزيد" بأحضانها وهو كان يضطجع بين وسائد أريكة مقابلة باسترخاء مصطنع؛ فخياله كان نشطًا للغاية وهي محوره..

هي وذاك الثوب!..

كانت كمن تتعمد التأخر، كمن تريده أن يحترق أكثر فأكثر..

وربما كانت تفعل، خاصة عندما التقتْ الأعين ففهمت نفاذ صبره وفطن هو لدلالها..

خمس دقائق أخرى ونهض بحركة مباغتة، تناول منها الصغير.. داعبه وقبَّله ثم تركه بين ذراعي أمه ملقيًا تحية المساء عليها وجده..

فالعشاء بالطبع دومًا ما يخلو من أخيه!..

بالغرفة دفعها ولوح بسبابته في وجهها بحسم:

- البسيه بقى..

همستْ بنبرة ناعمة مغوية:

- مافيش صبر!..

- مافيش..

ضحكت بخفة وخطت برقة تتناول الحقيبة التي تحتويه، أخرجته تفرده، تتأمله تحت بصره كأنما تمنحه المزيد من الخيالات حول صورتها به دون أن ترتديه فعليًا..

لذا قرر إغاظتها بالمثل، عاد للخارج بخطوة واسعة:

- هاستناكِ برا..

نطقها بعبث امتزج بعبوس جبينه ليفوز بضحكتها ثانيةً..

ارتمى على الأريكة.. وحاول شغل ذهنه عنها أو ربما بها والوقت يتخطاه ببطء مقيت..

في النهاية أتته تتهادى بغنج شقي يشبهها..

ترحب باستقبال نظراته التائقة التي تلتهم فتنتها بتبجيل، تتجول بلا حواجز، تتمهل حول منحنياتها بتلكؤ شغوف..

تتشرب من معالم أنوثتها التي تظهر وتتوارى في مزيج جنوني لأي رجل!..

منحها ما تستحق من ثناء، صافرة معجبة، دوران متأنٍ حولها، والختام حصارها بين ذراعيه ومشاكستها المغموسة بخجل ممتع رسمتْ حمرته سحرًا فوق وجنتيها:

- حلو..

لم تقصدها كسؤال فهي ترى نفسها بمقلتيه، رده أتى صادقًا بحرارة كهجير نهار صيف قائظ، في حين مالت رأسه لتغوص بكثافة خصلاتها:

- يجنن..

تتابعت لثماته بلهفة وذراعيه تحاوطانها:

- واللي جواه يودي العباسية رسمي..

ضحكتها الثالثة وازتْ حمله لها تجاه غرفتهما وهناك بدأ ينزعه عنها بلا تردد حد أنها تمسكت به في مكابرة:

- أنت بتعمل إيه!..

رفع عينيه إليها، رأت ألسنة اللهب تحتدم بمنتصف حدقتيه، أجابها ببديهية مقتضبة:

- باقلعك يا زلابيا..

أبعدته تتخصر باستهجان شبه طفولي:

- بجد!.. ده ما كملش تلات دقايق، أمال اشتريته ليه!..

مال بها إلى الفراش، وأصابعه في سعي حثيث للتخلص منه:

- اشترتيه عشان تقلعيه، معروفة..

- يزززن..

تنهره كأنه سيستجيب!..

معها هو رجل مختلف، رجل غارق حد الثمالة..

ضائع في شغف اللحظة دون تكهنات لتلك التي تليها!..

**

كان شابًا عنيدًا له السبق في التمرد.. في الخروج من عباءة أسرته العسكرية وبدء مداره الخاص كرجل أعمال.. حوت يمتلك من السوق ما يكفي ويفيض..

كان رجلًا السيطرة هي عمود حياته ومستقر خطواته..

رجلًا عقابه قاسٍ مهما كانت العاطفة تحكمُه، وحفيده رحل عن دنياه قبل أن ينال جزاءه على تمرده في الخفاء، على تهربه من عقال تحكُمِه في الظلام.. على فشله أن يكون رجلًا صارمًا حازمًا في اختياره، في مواجهته وإن كان الرفض هو الجواب!..

حفيده الذي رحل قبل ما يزيد على عام ونصف..

والآن، اليوم.. قبل ساعتين أتاه مظروفٌ مغلقٌ من أحد البنوك التي لم يتعامل معها من قبل.. مظروفٌ مضمونه قصير، مباشر.. ومقلق!..

لديهم هناك خزينة خاصة مغلقة باسم "يامن عبدالله يونس أبو الغار"..

خزينة لم تُفتح منذ أكثر من عام ونصف وانتهى إيجارها المدفوع مقدمًا لعامين.. وقد أوصى صاحبها أن تُفرغ من محتواها إن غاب عنها لذاك الزمن..

بآلية قاد به سائقه إلى البنك المنشود، أثبت هويته ووثَّق موت المالك، ثم أمام الخزينة تركوه..

لم يكن بها الشيء الكثير..

فقط ذاكرة فلاشية صغيرة لا غير!..

ذاكرة ظل على مكتبه يراقبها لأكثر من ساعة كأنها ستنفجر كلغمٍ بوجهه..

بعد الساعة أوصلها بحاسوبه المحمول، فتحها.. كانت تحوي مجلدًا واحدًا بداخله ملف فيديو مدته أقل من العشرين دقيقة بثوانٍ..

ترددتْ أنامله قربه للحظات أخرى بإثرها قرر المجازفة..

"جدي!"..

أول كلمة بصوته الرخيم الهادئ على الدوام..

يناديه باستفهام متردد كأنما ينتظر جوابه وهو لا يراه..

لا تزال ملامحه الحبيبة كما هي، نظرته النقية الخالية من خبث العالم، الخاوية من مكره ودنسه..

بسمته الصافية الخارجة مباشرة من قلبه..

كان فريسة لا تصلح للعيش في غابة الضواري، فالفرائس تُنهش ولو بعد حين!..

كان فريسة اختارت التمرد على قوانين حمايتها من قسوة البشر، اختارت التمرد بجبن، في الظل..

فريسة اختارتْ طعن حاميها في ظهره..

بل في أعماق فؤاده!..

**

كل الخسارات محتملة إلا خسارة الروح..

حين تحدث.. يموت الجسد، يتوقف النبض، تتشتت الأفكار، وتبهت القوة التي ربما وُجدت آنفًا، قبل لحظة الخسارة الحاسمة..

ببطء تجاهد لتستجمع كيانها المُهدم، تغرق في وحدة اختارتها، تتمسك بأذيال أمل خائب؛ أنها إن لم ترحل يمكنها ولو كل حين رؤية أطفالها من بعيد.. بعيد للغاية..

الأشباح لا تمتلك حياة..

والخائنة لا يحق لها الحياة..

هي ميتة وإن كان الجسد مازال في دنيا البشر..

قبل يومين زارتها أمها، ارتمت بأحضانها كطفلة مذعورة، لم تغادر ضمتها إلا وقت رحيلها.. أرادت منها أن تحيا، تستمر.. تجد لنفسها عملًا، وتخلق لوجودها ركنًا ولو ضيقًا في هذا العالم رُغمًا عن أنف من قتلوها، وأخذوا في جثمان روحها العزاء..

"سافري اسكندرية، هاكلم خالك يشوف لك شغل في شركته هناك"..

بترتْ أفكارها وغيابها في دفئها باقتراحها المباغت، كان غريبًا احتاجتْ عدة ثوانٍ حتى تستوعبه بالكامل، حينها رفعت وجهها إليها بنظرة مستنكرة:

- خالي!.. اللي حضر عزايا!..

تذكرتْ الأم التي كانت تتعلق بقشة الغريق الأخيرة، ضياع ابنتها، نهايتها.. وداعها المرسوم بحبر خادع وهمي:

- مش مهم خالك، ابعدي عن هنا وعيشي يا ليلى..

لمعتْ دمعة بين أجفانها فأغمضتْ عينيها تحجبها بأنين صامت:

- أعيش لوحدي هناك!.. من غيرك!.. من غير حتى ما يبقى في إيدي أشوف ولادي من بعيد!..

تراجعتْ قليلًا تمنح عبرتها حرية السيل..

دموعها وحدها باتت نديم لياليها، صديقة الوسادة وصندوق أسرارها الأسود الموصد بإحكام على ما فيه..

على العشق والفقد.. على الخطيئة والإثم..

على الذنب والندم والضياع والوجع..

- أنا هافضل هنا يا ماما، هاحاول ما أظهرش كتير، هاشوف أي شغل بسيط على الأقل أشغل وقتي بيه.. بس ما تحرمنيش منك..

أعادتها والدتها تعتصرها بعناق مرتجف:

- طول ما أنا عايشة هتفضلي في حضني..

ليلتها وبعدما أصبحت وحدها ترددتْ أناملها فوق اسم صديقة لم تـدُم معرفتها بها كثيرًا، لكنـها استشعرتْ فيها الخير والاهتمام الحقيقي..

ترددت كثيرًا، لساعة ويزيد، حتى غلبها النعاس، وعاشت كابوسها اليومي المتجدد..

هي عارية بفراش أختها، يجثم فوقها زوجها.. ينهل منها بنهم، بلا شبع، ضحكاتها تتعالى بخلاعة تناسب عُهر المشهد..

تتغنج.. تتدلل.. تثيره وتنال منه الثورة..

تشعل ناره وتترك له جسدها ليحترق بين ذراعيه..

يمتلكها مرة بعد مرة، حتى تظهر الأخت على الباب، تبكي، تنهار، تسقط.. وهي لاتزال على حالها!..

تضحك وتنشر فحش رغباتها بفراشها النجِس..

كأنها لم تكن هناك..

كأنها لم تضبطها في تلبس بلحظة خيانة!..

ثم يأتي هو!..

الحبيب المغدور، تتسع عيناه بجنون، يراقب عريها بخبال ويرفع عليها سلاحًا ناريًا لم يحمل مثله في يوم..

يفرغ في الجسدين المدنسين طلقاته دون بخل، وتهب بصحوة فزع من نومها على ألم انغراس الرصاصات بقلبها..

على توقف النبض..

على مشهد انحفر بذهنها وعقلها ولا تصدق أن الزمان سيمحوه..

كانت الساعة قد شارفتْ على التاسعة صباحًا، العرق يغرقها ويغرق وسادتها وخصلاتها..

أنهت حمامها فاقدة لكل شعور، ثم أجرتْ المكالمة دون تردد هذه المرة:

- هند.. أنا ليلى، كنتِ قلتِ ممكن قريبك يوفر لي شغل!..

وانتهى الحديث بموعد محدد، قابلتْ العجوز طيب الملامح سمِح النظرة، تأملها باهتمام كمن يقيم بضاعة عليه أن يختار نافذة عرضها..

يبتسم لها ويخبرها ببساطة أن العمل كخادمة لا يظنه يناسبها، يفكر ويفتش في دفتر صغير في أحد جوارير مكتبه العتيق، يدقق وصديقتها تعدد مناقبها، كمن يدلل على بضاعة كاسدة، حتى حسم هو الأمر:

- في ناس يهموني كانوا عاوزين مربية لحفيدهم تكون مقيمة، هم ناس أكابر ولسه الولد راجع من برا ما بقالوش شهور..

تشبثت بالعرض وإن لم يصرح به تمامًا:

- موافقة..

دقق فيها برصانة حازمة خلتْ من رفقه الفائت:

- المهم هم يوافقوا، عاوز منك ورقك، بطاقتك، مؤهلاتك.. معاك دبلوم ولا ثانوية ولا شهادة إيه!..

تراجعت خطوة مشتتة؛ ترى مـا رد فعله لو أخبرته أنها تحمل شهادة الهندسة الالكترونية، بل وخبيرة في مجالها.. حد أنها حازت على الماجستير في وقت قياسي أثبت نبوغها!..

من بين أوراقها اختارت الأبسط وسلمته إليه، بعد يومين تاليين كانت معه في زيارة لتلك العائلة التي حدثها عنها..

جد وجدة وفتى يكبر ابنتها بعام واحد، لطيف هادئ أحبته من اللحظة الأولى..

كانت الجدة تتحدث معها بحرص، تجري معها تحقيقًا شبيهًا بمقابلات العمل وهي لا تملك هنا سوى خبرة أم!..

ادعتْ أنها فقدت ولديها في حادث..

أنها مطلقة لأن العلاقة بينها وبين الأب تصدعتْ برحيل صغيريها..

وهي الآن وحيدة تبحث عن عمل يشبع أمومتها، عمل تحيا منه..

بدأتْ العجوز تبتسم بود، تتقبلها، ترتاح لوجودها حتى ظهرت أمه!..

صهباء فاتنة، نارية النظرة، ثابتة الخطوة، قوية من اللمحة الأولى.. واثقة من كل حركاتها وسكناتها..

تأملتها، تفحصتها كميكروب أسفل مجهر عالم خبير، ثم ابتسمتْ ببساطة حين سألتها عن اسمها فجاوبتْ بخفوت بات يلائمها:

- ليلى..

- نيروز.. مامة آدم!..

(18)

على الحافة كلنا قابلون للزلل..

على الحافة لا يوجد ما يمنعنا عن السقوط؛ حيث التشبث قد يكون أكثر ألمًا من الاستسلام!..

**

"جدي!"..

رمق الصورة أمامه بحنين لم يمكن لقلبه إنكاره أو التغاضي عنه..

ذاك كان قطعة منه، القطعة الأقرب.. أنصتَ بنظرة جامدة ونبضه يهدأ كأنما في بسمته الهادئة راحة يهديها له..

"مش عارف إيه الداعي إنك تشوف الفيديو ده!"..

"يمكن أنا ما بقيتش في وسطكم"..

"يمكن هربت وبعدت عن الصراعات وحروب الماضي مع شمس"..

"مراتي.. وابني"..

تأمله يصمت..

يسكن تمامًا، تتهرب عيناه من مواجهة الكاميرا التي تلتقط تفاصيله دون أن تفوت واحدة..

سمعه يتنحنح كأنما يستدرك وقد وجد طرف الخيط..

"تعرف يا جدي إن ده رابع فيديو أسجله!"..

انعقد حاجباه بتساؤل ورد الفعل يأتيه من حفيده بسلاسة..

"مستغرب؟"..

نعم بالفعل.. رآه يتنهد، يسحب الهواء بعمق ويزفره ببطء..

يفيء لصمته العسِر..

"أنا عارف إني ماليش غيرك.. الأب هرب والأم ماتت"..

"والأخ"....

بتر حديثه وعينه تكمل الكلمات نيابة عن لسانه..

عينه تلوم، تعاتب.. تعاود الهروب..

تجاهل ما أراد قوله وأردف بما قصده..

"أول فيديو كنت باتكلم عن شمس.. النور اللي دخل حياتي فجأة، وحسسني إن الدنيا لها طعم تاني"..

"إن الدنيا لها هدف أهم، غير الفلوس والنجاح العملي وامتلاك السوق"..

لمعت عينا "يونس" برفض بينما "يامن" يكمل ببساطته المعهودة..

"كنت باقولك فيه إني قابلتها، من قبل ما تفاصيل الماضي اللي بيجمع بيننا تترمي في وشي وأنا ماكنتش عارف عنها حاجة"..

رأى بسمة ساخرة لم يألفها تناوش شفتيه..

"بعدها اتفاجئت إنها عارفاه، شارباه بالمعلقة"..

"ولما عِرْفِت أنا مين؛ حاولِت تبعد"..

قطب الجد بحيرة غير مصدقة.. فهي السارقة الطامعة ابنة السارق، من نسله ودمه الملوث بخطيئة السلب والنهب..

"بس أنا ماقدرتش أسيبها تبعد"..

أعاده "يامن" من شروده بجملته قبل أن يعود لجموده.. يفكر قليلًا ويكمل بنبرة دافئة يشوبها شيء من حالمية عاشق..

"كل ذرة فيَّ حبيتها.. وكل حاجة معاها بقت تستحق تتعاش"..

ثم ابتسم بخجل زاد ملامحه رفقًا، خجل يعلمه عنه..

"أكيد دلوقت بتقول عليَّ عاطفي وضعيف، زي ما دايما كنت بتفكر فيَّ!"..

لم يصمت طويلًا بعد تخمينه المنطقي للغاية، بل زفر بحرارة..

"تاني فيديو بقى لما قررت آخد خطوة رسمي وأتقدم لها.. رحت وأهلها رفضوني، كنت حزين وموجوع"..

"منعوها عني"..

"حبسوها في البيت"..

"حتى دروس الباليه اللي كانت بتديها للأطفال في المركز اللي بتشتغل فيه حرموها منها"..

تغضن جبين "يونس" أكثر فأكثر.. لوهلة بدا وكأن عقدة حاجبيه لن تنفك أبدًا وهو ينصت بألم مهتم..

"كنت بازعق"..

"مخنوق"..

"باحملك المسؤولية"..

"مسؤولية خسارتي للانسانة الوحيدة اللي حبيتها"..

وسكت.. ظهر ضيقه، حزنه.. غيمة كئيبة أطفأت وهج مقلتيه..

"بس هي كانت أشجع مني"..

"هربت لحضني وباعت الدنيا كلها عشاني"..

"وقتها سجلت لك فيديو تالت"..

"عشانها هي"..

ضاقت عينا المستمع الواجم؛ من يراه على الشاشة الآن رجلًا لا يعرفه، رجلًا ظنه صنيعة يديه فإذا به قد تكَوَّنَ من طفرته الخاصة بعيدًا عن تعليماته، عن خريطته التي حدد طرقاتها له..

"عشان هي تستحق تكون زوجة في النور من غير خوف.. تستحق فخري بيها"..

وانغلق جفناه بقنوط يفيض بالأسى..

"وبرده ما قدرتش أبعته"..

"ماقدرتش أواجه"..

ثم يعترف بشجاعة، أو بحماقة..

"كنت جبان"..

حماقة لأنه يهاجم الآن، يواجه بقسوة..

"يمكن لأنك ربيتني على الجبن وإن الاحتياط واجب وفرض أهم من الشجاعة والمواجهة"..

تعلو نبرته بتصاعد غاضب..

"حبستني في قمقم الضعف"..

"في الوقت ده كنت غضبان منك وعليك"..

وأدار وجهه بعيدًا عن العدسة مقرًا بذنبه..

"اخترت أكون معاها في ركن لوحدنا بعيد عن العالم بتاعك، بعيد عن صراعاتك وكرهك وماضيك مع أهلها"..

صمته يتضاعف.. يفكر وأفكاره لا ترتسم على وجهه فيقرأها كما اعتاد أن يفعل معه دومًا!..

"عيشت أنا وهي أجمل سنتين، رغم حاجات كتير اتعرضنا لها سوا"..

"رغم إنها خسرت شغلها اللي بتحبه ورغم وجودي المحدود معاها، بس كانت دايما زي الشمس"..

ارتسمت فوق فمه أجمل بسمة رآها جده..

بسمة عاشق وجد نوره بعد ظلام، فاء لدربه بعد ضلال..

وجد سكناه بعد غياب في وحدته، استقر بموطن روحه..

"مالية حياتي نور ودفا"..

وشرد بصره في معشوقة هي الحياة..

"دلوقتِ باسجل الفيديو ده ومش عارف هيوصل لك برده ولا هيتمسح زي اللي سبقوه"..

تلوها أعلن الخبر بلا مقدمات..

"شمس حامل"..

ابتسامته تلك المرة كانت تشع بالبهجة والترقب..

"عرفت الخبر ده من ساعات بس"..

"هيكون لك حفيد جديد"..

فكر لثوان ثم رفع عينيه لعدسته التي بدا وكأنها حبست هالته وحضوره في تلك الدقائق القصيرة، حتى كاد يستشعر أنفاسه معه بذات الغرفة..

"يا ترى هتربيه على الخوف والجبن زيي؟!.. ولا هتطرده وتربي جواه الحقد والكره زي..."..

سَكَت.. يعلم من يشير إليه وجفناه يتعانقان بتعب..

"زي يزن!"..

لقد حمَّله كل الآثام، أثقل كاهله بجميع الذنوب..

ورحل قبل أن يمنحه صك التوبة والغفران..

"أتمنى تكون مختلف معاه"..

"أتمنى شمس تكون تحت جناحك رغم الماضي بكل اللي فيه"..

"لو أنا مش موجود؛ أنا واثق فيك"..

وأحس للحظة كأنه تسرع فيما نطق فعاد يدقق في حروفه ويصيغها من جديد..

"بحاول أثق فيك"..

"ياجدي"..

والآن بعد الطعنة، بعد الغدر، بعد الكذب..

هو المقصر.. هو المخطئ.. هو شرير الحكاية!..

هو من اعتزل شهوات الدنيا لأجل طفل بقى له من حبيبة راحلة، حبيبة وإن أظلمتْ حياتها معه بالقسوة لم يرَ أنثى غيرها وقد كان شابًا صغيرًا يحق له مِن النساء مَن اشتهى..

هو من لأجل أبناء ذاك الابن.. استمر في وحدته رُغم أنه كان أربعينيًا ثريًا يمكنه العيش لنفسه وكفى..

حفيده صنيعة القلب ماذا فعل!..

أفلتَ المقصلة، أسقطها لتبتر عنق كل قناعاته الماضية..

كل ما قدمه له كان هباءً..

كل ما فعله لأجله كان بلا معنى..

كل ما كانه لخاطره لم يكن ذا قيمة..

هو عاشق قديم.. عاشق مخضرم..

عاشق ذاق الفقد..

هو عاشق كان عشقه لعنته..

لعنته التي حولته لوحش لم ينقذه عشق جميلته فبات وحشًا ملعونًا للأبد!..

**

العشق أفعوانية عالية، تعلو بك نحو السماء، تقلب كيانك رأسًا على عقب.. تدفع بالأدرينالين في دمائك وكامل جسدك، تهديك متعة اللحظة وجنونها وخبالها..

تذيقك الخوف.. الرهبة.. اللذة.. تمنحك الذعر..

ورُغم ذلك تعيدها مرة بعد مرة؛ فنشوة الحدث وحدها كافية للتكرار..

الحب معركة غير شريفة، الطرف الآخر فيها ليس بعدو.. بل خصم نود سبي قلبه..

أَسَر مشاعرها، امتلك عليها جوارحها وأفكارها، سلبها تعقلها حد تصريح أرعن.. والآن أنهى سيطرته على دواخلها بعرض قرب، استحواذ كامل، دائم.. والشرط!..

الصفقة الروتينية لا تشمل العواطف..

يخبرها ببساطة أنه يريد منها سجنها بصندوق موصد، مدفون على عمق سحيق بين الضلوع.. لا تصله أشعة شمس، ولا يراه ضوء نهار..

يظل حبيسًا أبد الدهر في كهف خوفه المعتم، وذنبه حالك الظلمة والأسى.. لكن كيف تفعلها!..

ألم يسأل نفسه أن الدافع الوحيد لرغبة القرب قد يكون العشق!..

لا تنكر أن عاطفتها تتحكم بجزء كبير منها، لا تشعر بالحرج من ذلك، لا تستنكره أو ترفضه، هي ميزة تفخر بها ولن تتنازل عنها..

مرتْ ستة أيام، بقي واحد أخير، عليها عقبه منحه جواب سؤاله..

نعم..

لا..

معضلة!..

حين أعلمتْ والدتها بنبأه ابتسمتْ لها بحنو، رأت تخوفها بعينيها، شيء من ضياع وحيرة وقلق.. هاته النظرة التي تُشكك في نهاية القرب؛ هل مزيد منه أم فراق محتم!..

ضمتها، طمأنتها.. همستْ لها ببساطة الحياة التي يحياها الملايين من حولها:

- أنا وأبوك اتجوزنا زي ما بتقولوا جواز صالونات، لا هو اتقدم لي عشان بيحبني، ولا أنا شفته قبلها.. حصل النصيب، وأهو.. أنتِ شايفة دلوقتِ، ما أقدرش أعيش من غيره ولا يوم..

ثم أبعدتها تحتضن تشوش بصرها باحتواء آمن بين جفنيها:

- عُدي راجل كويس، ابن ناس ونعرف عيلته.. وأي جوازة ماحدش عارف ممكن يحصل فيها إيه بكرة!..

أمها لم تمانع، والدها اكتفى ببسمة مشجعة فهو يحترم رجلها الآلي ويراه كابنٍ له، والآن القرار على عاتقها وحدها..

كل الطرق تؤدي إليه!..

طريق العشق.. طريق العقل..

وحتى الطريق المستقيم الخالي من كل تورية أو مطبات اصطناعية..

كانت جالسة على العشب بحديقة منزله، تعلم أنه بالعمل.. لن يعود قبل ثلاث ساعات على الأقل، وهي أرادت الحديث مع والدته، ورؤية صغيره..

بدأتْ حوارًا قلبيًا انتهى بوصول ممنطق للعقل، حيث هو ما يتحكم بالصورة ويرسمها:

- الحب يجي بعدين يا رهف..

نطقتها أمه، رمقتها من جلستها على المقعد بشفقة مدركة لطوفان المشاعر الذي تغرق بين موجاته:

- عُدي قلبه صفحة بيضا، مستني اللي تكتب فيها حكايتها، مشكلته بس.. إن الكتاب لسه مقفول..

اعتدلتْ بتنهيدة حارة قلقة على طفلها، رجلها، كل ما بقي لها في الحياة بعد رحيل أبيه:

- عاوز اللي تقدر تقرا العنوان صح، تركز وتعرف الوقت المناسب اللي تفتحه فيه وتبتدي تكتب..

كان "واسل" يلعب معها بقطار يصدر صوتًا صاخبًا، يتركه ليركض إليها، يرتمي بين ذراعيها بضحكة فتدغدغه، تضمه.. تتشمم فيه عبق والده، وتقبله حتى تنقطع أنفاسها مع استمرار

ضحكاته، استمعتْ لوالدة الحبيب بفؤاد حائر لم تجاهد لتخفي حيرته:

- أنا خايفة..

تأملتها السيدة برفق، تتفهم مخاوفها وتقدرها لكنها تراها أكثر من تستحقه..

تراه يستحقها.. يحتاجها..

- الخوف ده طبيعي في كل تجربة جديدة بندخلها، المهم...

استقامت عائدة للمنزل، تهديها مساحة حريتها في اللعب كطفلة، كأم، كعاشقة حالمة مع قطعة ممن تعشق:

- المهم ما يلجمناش، ما يتحكمش فينا ويخلينا بدل ما نتشجع وناخد خطوة لقدام، نرجع لورا.. نخسر.. ما نخوضش التجربة عشان خايفين من الفشل، رغم إن كل التجارب فيها نسبة نجاح لو بصينا من الزاوية الصح..

تضرب بقوة على وتر الغرام المقطوع.. تضرب بعنف..

تُعلقها بحبال الأمل.. وهي تخشى أنها ستختنق بها أعلى هاوية الفقد..

نصف ساعة تالية وقررت الرحيل، كل الطرق تؤدي إليه..

كلها بلا استثناء..

عندما انتصبتْ تحمل ابنه لتعود به إلى الداخل؛ وجدته يقف مستندًا بكتفه إلى إطار الباب، يراقبها بصمت وبعينيه شيء مجهول لم تفهمه..

هو ذاته لم يكن يفهمه..

لكنه في كل مرة يشاهدها مع صغيره يسقط في فجوة!..

فجوة يضيع فيها الإحساس بالمكان والزمان، يكتفي بمراقبة الاثنين بلا ملل.. أو تحليل..

اقتربتْ.. تناوَلَه منها يحتضنه بعناق دافئ، ينزله أرضًا فيركض إلى جدته، احتجزها هو فبادرت بالسؤال:

- رجعت بدري ليه!..

كان يسد طريق عودتها عامدًا.. يقف بقامته الطويلة وصدره العريض، يحتل كامل الأفق في مواجهة ناظريها:

- عشان أشوفك..

أخذها على حين غرة.. دهشة، وارتباك..

مؤخرًا؛ بات يستمتع برؤية ارتباكها، تصرف ذكوري قُحّ من رجل مثله لم يهتم ليوم بمشاهدة تأثيره على امرأة.. لكنها تختلف!..

أعادتْ خصلة شاردة خلف أذنها، وتوترها مسجون بمآقيها، مفضوح لعينيه:

- كنت ماشية، ممكن تعديني!..

رفع حاجبًا واحدًا، لم يتزحزح قيد أنملة، بل استرخى في وقفته أكثر وساعديه ينعقدان بأريحية متجاهلًا رغبتها:

- غريبة إنك هنا؛ قلتِ هتاخدي أجازة أسبوع!..

ابتسمتْ بسماجة تستوعب ثباته، تغافله، وتعمده لوضعها بذلك الموقف:

- أنا مش في الشغل، جيت أشوف واسل وطنط راوية..

وعاندته ببرود:

- غير كده؛ أنت راجع بدري..

مط شفتيه واعتدل قليلًا:

- مرهق شوية..

- أنت كويس!..

فاز باللهفة.. وهي بحماقة أهل الهوى تسقط في بديهية الخدعة..

أو!..

لا.. "السايبورغ" لا يفعلها.. هو متعبٌ بالفعل، ملامحه يبدو عليها الإجهاد وهناك دوائر سوداء تحاوط أجفانه..

- كويس، ويمكن عشان قدري أشوفك..

يخلخل ذرات الهواء من حولها ببطاقة اختيار القدر.. لا يدري أن تلك النغمة أعلى من استيعاب أوتارها الواهنة تحت أنامل عزفه..

دقق في طبق صغير تحمله بيدها، فيه بقايا حلوى طفله المفضلة:

- أنتِ عرفتِ منين أنه بيحبها!..

الارتباك لا يساعد..

الهجوم هو الحل، وخير وسيلة للدفاع حتى في حروب الغرام:

- هتستغرب لو قلت لك إني عارفة عاداته، زي ما حافظة عاداتك!..

نفى بهزة من رأسه فأشارت تريده أن يفسح لها طريق المرور:

- هامشي أنا بقى..

صمتَ لثوانٍ استجاب إثرها بهدوء، مرتْ بهرولة قبل أن يوقف اندفاعها بنداء حازم:

- رهف..

ثبتتْ في مكانها بنصف استدارة بينما يكمل بنبرة مبهمة:

- بكرة آخر يوم في الأسبوع، ممكن على فكرة تبلغيني موافقتك دلوقتِ..

استنكرت ثقته، بل غضبت منها..

هل يمنحه العشق الضوء الأخضر ليوقن من كل خطواتها!..

مما بقلبها، وتوقها إليه!..

من لهفة قربه وترقُب تحقيق الأمنية!..

مطت شفتيها تجابهه بتحدٍ:

- واثق للدرجة دي إني هاوافق!..

أومأ بإيجاب سلس للغاية ضاعف من حنقها الأنثوي..

هنا هو يهين كبرياء امرأة!.. لقد وقع في محظور لا يدرك أبعاده، استدارتْ تواجهه بالكامل، تعقد ساعديها قبالة صدرها مثله وإن اكتنفها الغيظ:

- ده غرور!..

ابتسم يفطن لما تفكر به، وابتسامته كالعادة جذبتْ عينيها.. جذبتْ كل حواسها دفعة واحدة فتعلق بصرها بها..

تسارعتْ نبضاتها..

تشتت أفكارها، حتى غضبها تبخر بحماقة عاشقة:

- لأ.. 1+1..

تبًا له ولمعادلاته، لترتيباته المسببة ودوافعه المبررة..

أيها القاسي..

القلب دومًا خارج حسابات المنطق!..

مسَّ نبرتها شيء من حزن، شجن شارد وهمسها يخرج محملًا بضيق باهت:

- مش كل حاجة تنفع تتحل بمعادلة..

اقترب خطوة واحدة يحشر بعقلها قناعاته، في هذه اللحظة لديه المفتاح لحياة متوازنة، سوية بينهما..

سيبدأ بنقش خريطتها، وعليها أن تسير معه تبعًا لما يخطه فوق صفحتها البيضاء:

- في حاجات ده أساسها، وكل ما اقتنعتِ بده وطبقتيه هتلاقي مشاكل كتير اتحلت، ومواضيع أكتر بقت أسهل..

هل يباح لها ضرب رأسه بتلك المرمدة الكريستالية الكبيرة فوق طاولة إلى جوارها!..

لن تحـطمها.. ستشجها فقط وتنتشي بمشهد دمائه، ثم ترفض عرضه.. تلقيه في وجهه وترحل بشموخ..

هل يباح!..

- تعرف إن كلامك ده مش محفز أبدًا إني أوافق!..

تكررتْ ابتسامته وإن زاد اتساعها، كانت صافية.. أقرب لضحكة، نظرته يعلوها غموض لم تُلِم به ولا تحبه..

غموض يضاعف من حيرتها وارتباكها:

- أنتِ عارفة إني ما بعرفش أزين الكلام، مباشر وصريح ومختصر..

دنا مجددًا، يخفض صوته، يطوق نظرتها بسياجه الذي لم تهرب منه في مرة:

- مستعدة تقبلي بيَّ بكل عيوبي!..

اللعنة عليه..

كل الطرق تقودها إليه، تسقطها في هواه.. حبلها المعلق على هاويته ينقطع، تتبقى شعرة.. تتأرجح معها..

بها..

لها..

تتشبث وتقاوم وتظن أنها قد تنجو، ليهتف القلب سابقًا العقل والجوارح واللسان بحياء هامس:

- مستعدة..

لكن القدر في معارك الحياة لا يمهلك وقتًا لالتقاط أنفاسك، يقودك نحو الجنون.. يتملك منك ويخبرك ألا مهرب:

- هاقابل عمي ونحدد ميعاد الفرح خلال أسبوعين بإذن الله..

صدمة، اعتراض مبتور، رفض، عناد..

تلاهم استسلام..

نديم العشق أمل.. وخليل وحدتها في دروبه سراب!..

**

نحن نعيش على الحافة..

حافة الخوف.. حافة الترقب..

حافة الاستمرار.. حافة القوة..

حافة العشق.. حافة الانتظار..

حافة النجاة..

نخشى السقوط فنسقط.. نغرق، نشتهي، نطمع..

نريد الهروب فنتجمد.. نهلع، نأثم..

وتبقى خطواتنا حبيسة، متيبسة فوق الحافة نرمق قاع الهاوية بضلال..

مازالت تتباعد عنه، تباعدًا غير مفهوم له أو حتى معلوم السبب.. لقد منح بقدر استطاعته فإذا بها ترفض، تتضايق، لا تكتفي.. وتتحاشاه.. حتى ضمته تحرر نفسها منها..

منذ ليلة حفل فاعلية جمع التبرعات لمشفى السرطان بفندق صديقه والتي كان مدعوًا إليها، للمساهمة بصفته رجل الأعمال الممثل

للحوت الكبير "يونس أبو الغار"، تلك الليلة التي أفقدتهما توازن علاقتهما مجددًا وقد جاهد ليحافظ عليه..

كان مستعدًا بالفعل، وهي كذلك.. بثوب داكن الزرقة لائم بشرتها، وتصفيفة أنيقة أظهرت طول عنقها..

استعدا وقبل الخروج بدقائق شعرت بتقلص في معدتها، ألمًا لم تتحمله فتأوهت والتقطت أذناه آهاتها المكبوتة، حينها احتواها تحت ذراعه معلنًا قلقه:

- حاسة بإيه!..

زمت شفتيها وطمأنته:

- مغص بس، مش مشكلة.. دلوقتِ يروح..

لكنه لم يصدق، بل بالغ في رد الفعل وهو يسحبها بلا تردد:

- هنروح للدكتورة بتاعتك..

تبعته مرغمة بينما تتأمل ظهره حينما كان يسبقها بخطوة وكفها سجينة قبضته:

- يزن الموضوع مش كبير للدرجة دي، مجرد مغص..

فتح لها باب السيارة وحثها على الدخول بقرار لا يحتمل الجدل:

- هنطمن..

بمكالمة أعاد الطبيبة لعيادتها بعدما انتهى اليوم، وقف قُربها يحتوي يدها برفق، عيناه معلقتان بشاشة جهاز الموجات فوق الصوتية، صوته متوتر ولغة جسده تشي بخوفه:

- يعني البيبي كويس!..

نطقها باهتمام مضاعف جاوبته طبيبتها ببسمة هادئة وهي تمرر ذراع الجهاز فوق بطن زوجته:

- كويس جدا الحمد لله، مافيش قلق..

- أُمال إيه الوجع ده!..

استقامت المرأة تغادر مقعدها عائدة لما خلف مكتبها وبسمتها تتسع بتفهم:

- مجرد تقلصات عادية بتحصل من وقت للتاني..

ساعد "غزل" الصامتة تمامًا بخضوع شارد، وقف جوارها بينما أسئلته تنهال بارتباك مضطرب:

- بس دي أول مرة يكون بالشكل ده!..

حافظت الطبيبة على ابتسامتها المتفهمة، ردتْ بصبر:

- مافيش قلق صدقني..

- طيب في علاج أو فيتامين أو أي حاجة مهمة ناسيينها!..

انزعاج ملامحه كان سافرًا، غير منتبه للساكنة جواره وعيناها غائبتان في مجهول، أذناها معه.. تنصت لكل حرف وكلمة..

تبتلع لهفته بمرار كالحنظل، وقلبها يتساءل..

"على من هو مذعور هكذا!"..

سمعتْ السيدة تجيبه بهدوء:

- هي بتاخد كل فيتاميناتها، ما تقلقش يا بابا..

كلمة "بابا" نفضت قلبه؛ فما باله عندما يلفظها صغيره بأحرف متكسرة!..

بعدها ظلتْ صامتة طوال طريق العودة، حاول الحديث مستغربًا جمودها:

- هابقى أكلم وجيه أعتذر له؛ أنتِ أهم..

رُغمًا عنها ناوش فمها شبح بسمة ساخرة لم يلمحها، كانت تتابع الشوارع من النافذة بلا اكتراث حتى وصلا للمنزل، وهناك أوقفها:

- ممكن أفهم مالك!.. ساكتة ليه!..

رمقتْ مرفقها بين أصابعه بذات الجمود قبل أن ترفع بصرها إليه بثقل:

- كنت خايف عليَّ، ولا على ابنك أكتر!..

تصلب لحظة بلا فهم، فتح فمه يجيبها ببديهية تتمناها..

تَردد.. رَكَن للصمت..

حرر يدها، ومرر أصابعه بخصلاته بشبه عنف قرر بعده قلب الطاولة:

- أنتِ شايفة إن ده سؤال منطقي!..

أعلنتْ نبرته ضيقه بلا تورية:

- بتدوري على أي سبب لمشكلة ليه يا غزل!..

ضغطتْ شفتيها بين أسنانها تبتلع غُصة خانقة دون أن تتراجع:

- ما جاوبتش على السؤال..

تقررها بلهجة باهتة، بنظرة خاوية حركت هواجسه، اقترب يستدعي الصبر.. يتنفس بعمق، يمد يده ليتناول يدها، يحتويها بدفء:

- أنتوا الاتنين مهمين عندي، ما تشكيش في ده أبدا..

مع مرأى نظرتها غير المصدقة أردف بصراحة يعلم أنها تريدها وهو لن يدور حولها بكذبة:

- هيسعدك لو قلت إني كنت خايف عليكِ أكتر!..

تعلقتْ عيناها به تترقب الطعنة القادمة ولم يتأخر نافضًا يدها دون قسوة:

- ده ابني يا غزل، ابني اللي مستنيه من زمان.. حاولي تفهمي ده وتقدريه..

ورُغم عاطفة تغلغلتْ بصوته تدلل على ما بداخله، فقد ردت بصوت خلا من أي شعور:

- فهمت..

ثم رحلت عنه إلى غرفة النوم..

هي امرأة في العشق لا تقبل أنصاف حلول..

تحارب، لا تتهاون، لا تتراجع، لا تولي الدُبر..

تكر ولا تفر..

ترفع السيف وتخوض معاركها بصدرٍ عارٍ، بلا درع حماية أو وسيلة أمان تقيها أسهم الغدر أو.. الرفض!..

راقبها تغير ثيابها بآلية، تدلف للفراش وتدثر جسدها بغطاء خفيف، تغمض عينيها عنه.. عن حضوره واهتمامه..

النساء والنكد؛ صنوان لا يفترقان..

لم تطُل الهدنة بينهما حتى نقضتها بمبرر سقط على رأسه من الفراغ!..

بدل ثيابه بالمثل وتبعها..

اقترب من ورائها يضمها إليه، يجذبها بين ذراعيه، يحاوطها بجسده كله كأنما يريدها تحت جلده، يريدها أن تشعر بذلك وتصدقه..

وأرادتْ الابتعاد!..

ربما في الأمس كانت ستلتصق به، تبادله ضمة بضمة وقربًا بقرب..

لكنها بهذه اللحظة لا تتحمل..

لذا فقد أتى سؤاله كقشة نجاة:

- أنتِ كويسة دلوقتِ!..

لا.. هي ليست بخير..

قلبها حزين وعشقها مكسور حد جرح الخافق الذي يسكنه..

تشبثتْ بالفرصة وأفلتت من حصاره، تنطوي على نفسها في ركن الفراش، تنأى عنه:

- لسه تعبانة شوية، محتاجة أرتاح..

والآن، بعد مرور يوم كامل وليلة أخرى؛ تظل على هجرها له، بالشعور والجسد والنظرة..

زفر بحرارة بينما يطلب رقم هاتف صديقه الذي تأخر في مكالمته بسبب العمل.. وبسببها، انتظر الرنين حتى أتاه صوته فبادر قبل أن ينال تعنيفًا يلائمه:

- وجيه باشا.. قبل ما تعلن الحرب؛ كان غصب عني والله..

- ما هي لو كانت ليلة خمر ونساء ما كنتش اتأخرت..

ضحك بخفوت وإن كان يعلم أن تلك السخرية تخفي ضيقًا حقيقيًا، الدعوة وُجهت له ولزوجته.. وتبرعه كان حاضرًا لولا ما حدث!..

الآن الصديق لن يمرر الأمر بسهولة كما يوقن، استرخى في جلسته على الأريكة، يضع حاسوبه فوق ساقيه الممددتين أمامه، عيناه تتصفحان صور الحفل الضخم والحضور القوي لأفراد علية القوم والطبقة المخملية:

- أنت تعرف عني كده برده!.. أنا راجل متجوز ومستقيم، من البيت للشغل ومن الشغل...

- للـ night club!..

تعالت قهقهته هذه المرة، يبدو أن صديقه في مزاج رائق وإلا لصبَّ اللعنات على رأسه، أو قبل اعتذاره باقتضاب وأغلق الخط بوجهه:

- شكلك رايق!..

كان "وجيه" بمكتبه في منزله، يتابع الصور بالمثل، يشعر بفخر لا حد له لنجاح تلك الفاعلية وانتهائها على الوجه الأمثل..

لديه واحدة ليقدر جهدها، يشكرها على ذلك:

- تقدر تقول فخور..

رد "يزن" بسرعة يدفع بالزهو في عروقه أكثر وهو صادق:

- ليك حق، واضح إن الحفلة كانت هايلة، شغل على كبير.. باشوف الصور أهو..

اعتدل الآخر في جلسته وتوعد بحزم:

- أنت الخسران، بس مش هتتهرب من شيك التبرع!.. تبرع أبو الغار لازم يليق بالاسم..

توسعت بسمة "يزن" وأصابعه تضغط زر تحريك الصور:

- من الناحية دي ما تقلقش، الشيك جاهز فعلا وهيتبعت للمسؤولين بكرة الصبـــ...

انحبست "الحاء" بعرض حلقه بغتة..

انحبست وحبست معها عيناه فوق إحداها..

صورة فتحت كل جروح الماضي دفعة واحدة، فككت القُطب غير المحكمة وكررت النزف..

سمع نداء صديقه باسمه فتنحنح باختناق، فضوله يتقد، مشاعره تحترق.. وأفكاره تتركز حولها..

حول بطلة المشهد، صورة تالية، فثالثة!..

بطلة قصة العشق القديمة..

"دُچى"..

لقد عادت!..

الحبيبة التي لم يمر بدروب القلب سواها هنا.. بالقرب..

لكن ما الذي تفعله بالحفل!..

افتعل نحنحة ثانية وسلك درب العبث الماكر يواري به فضوله الملهوف:

- إيه يا وجيه!.. اقتنعت بفكرتي وهتكرر التجربة!..

لم يستوعب "وجيه" مقصده، استفسر بحيرة:

- تجربة إيه!..

ازدرد "يزن" لعابه فتألم حلقه كأنما يبتلع صخرة حادة تكوينها من وجع:

- الجواز!..

وقبل رد فعل قاسٍ يتوقعه تلاحقت كلماته:

- شايفك في كذا صورة واقف مع واحدة!..

- أنت فاضي يا يزن!.. تصبح على خير..

كان ذاك الجواب..

الجواب الذي لا يشفي غليل اشتياق القلب ووهن الروح:

- استنى بس ما تزعلش، بهزر يا سيدي.. لكن بجد مين دي!..

مسح الصامت الغاضب وجهه بكفه وتذكر صاحبة الفضل في خروج الحفل على تلك الصورة الأنيقة الفخمة، هي من حادثها لبعض الوقت خلاله.. بخلاف ذلك كان يتجول بشكل إشرافي على كل خطوة تتم..

دمدم من بين أسنانه بضيق:

- دي دُچى نصر الدين، موظفة العلاقات العامة الجديدة..

- موظفة بس!..

وانتبه للهفة سؤاله.. انتبه للشك..

كلا، للغيرة بين أحرفه.. للأمل!..

اللعنة..

تمهل.. تنفس، وأعاد الصياغة بهدوء مبررًا:

- يعني.. مش عادتك تظهر بالشكل ده مع الموظفات!..

تضاعف ضيق "وجيه" لا يرى داعيًا لذلك الفضول أو الاهتمام..

لا يريد أنثى.. لا يفتش عن واحدة..

وقصة عالمه منتهية من حيث ينظر:

- مجرد موظفة واقفل على الموضوع، لا أنا بفكر في جواز ولا هي بترسم عليَّ، ارتحت!..

دافع عنها بغرابة، وذلك الدفاع عقب نطقه له استنكره..

لمَ حشرها بالموقف من الأساس!..

كانت زوجة لصديق قديم في يوم مضى، الآن تعمل بفندقه.. وذلك كل ما في الأمر..

النبرة حملت حمية لها أكثر مما حملت له هو ذاته كأنها لاتزال قرينة رفيق الشباب، وتلك الحمية توجس لها العاشق الذي لم ينسَ عشقه بعد، قرر المهادنة:

- ما تتحمقش قوي كده، أنت صاحبي وتهمني..

خلل خصلاته بأصابعه إثر تنهيدة طويلة:

- على العموم الحفلة هايلة، وأوعدك التبرع هيكون عندهم بكرة الصبح إن شاء الله..

سمع همهمته المبهمة فكرر تطييب خاطره وأنهى المكالمة..

عينه تسكن تفاصيل صورها..

ملامحها التي لم تتغير، ابتسامتها الفاتنة ببراءة لم تتبدل، خصلاتها الداكنة المعقوصة بصرامة لا تشبهها..

أغلق الصفحة ثم شاشة الحاسوب واسترخى أكثر في وضع نوم بمكانه.. رحلتْ أفكاره إليها قهرًا..

إلى تخلي ورحيل ونهاية أُجبر عليها مرة، واختارها بيده في التالية رُغمًا عن أنف القلب..

سمع حركة من حوله فرفع رأسه ليرى زوجته تغادر عزلتها الاختيارية بغرفتها، تمر به دون أن تراه.. تتجه للمطبخ، تشرب

بعض الماء البارد وتصب لنفسها كوبًا من عصيره الذي بات إدمانها الخاص..

تعود للغرفة بعد نظرة مخطوفة نحوه وتغلق الباب من ورائها، تغلقه بوجهه كأنما تحجب حضورها عنه وتمنعه رؤياها..

زفر بضيق وعاد للحاسوب يفتحه، يفتح المتصفح، الصور.. يتأملها وجبينه يتغضن بحيرة، يتنقل بصره بتيه بين الباب الموصد والشاشة أمامه..

فالآن هناك إضافة للمعادلة القاسية التي يحياها..

إضافة لا يدري هل هي خطأ، أم هدية قدر!..

إضافة تُحيي نبضًا ظنه لن يعود للحياة..

نحن نعيش على الحافة..

حافة القرار.. حافة اللحظة..

لحظة تقلب كل ما كان ثابتًا، ساكنًا.. تبدله لعاصفة، لإعصار.. لموجة عاتية لن ترحم استقراره..

لحظة تفجر ثورة البركان الخامد..

حافة لحظة تهزم إدعاء النسيان!..

**

هناك طقوسٌ معينة تكتسب الحياة بدفئها مذاقًا خاصًا، تحتفظ به الذاكرة مهما غبنا عنها أو نسيناها في غمرة السعي..

طقوسٌ جمالها في بساطتها، في اعتيادها وألفتها وارتباطها بمن نحب..

ككوب الشاي الساخن ورائحة النعناع التي تتصاعد منه بين كفيها وهي تجاور أبيها بشرفة منزلهم القديم، عالي السقف شاسع المساحة..

كوب لابد وأن يكون من الزجاج الشفاف، دون يدٍ يُحمل منها..

بالشرفة حيث زهور أمها التي لم تمت بموتها؛ فقد كان العاشق الوفي يرعاها..

طقوس تضمنت إفطارًا تكونت منه خلاياها على مدار العمر..

الجبن الأبيض بالطماطم وزيت الزيتون، الفول المتبل بالكمون والفلفل الحار، الفلافل منزلية الصنع.. والبيض المقلي بالزبد مع أوراق الريحان الطازجة من حديقة والدتها الصغيرة بشرفتها والمنكه بذرة من الفلفل الأسود..

كل ذاك عاد بها لزمن كان أكبر همها أن تحصل على تقدير بكليتها فقط لتحقق حلمها بمهنة ترى مستقبلها فيها..

التفتتْ لوالدها الذي تركت هاتفها معه، يتصفح صور الحفل المُقام تحت إشرافها قبل أيام، كانت الصور على صفحة الفندق بموقع "فيس بوك".. الكثير من الصور الأنيقة التي يظهر جهدها جليًا بها..

ابتسمتْ تسأله باهتمام من ينتظر رضاه لتكتمل سعادتها بنجاحها:

- ها يا أبو علي.. إيه رأيك؟!..

رفع عينيه إليها وبسمته الحنون الفخور تهديها ما تمنته:

- هايل يا حبيبة أبو علي..

ثم أدار لها شاشته بنظرة متفحصة:

- مين ده بقى!..

تأملتْ الصورة المضافة للصفحة قبل ساعات، هي لم ترها قبل هذه اللحظة.. كانت تقابل "وجيه" في وقفتها، تشرح له شيئًا ما وذراعها تتحرك دعمًا لشرحها، حين التقطت الكاميرا وقفتهما من زاوية جانبية، حافظت على بسمتها وإن شابها شيء من تقدير:

- ده البوص وجيه نصار، صاحب سلسلة الفنادق..

لم يأبه كثيرًا بالاسم، هو يريد توصيفًا محددًا تهربت منه بضحكة خافتة مرحة بينما لا تتغير نظرته:

- وأكيد مش عريس محتمل يا أبو علي..

ثم اقتربت منه، تميل لتهدي رأسه قبلة:

- أنا قاعدة على قلبك..

جذب يدها ليجبرها على مجاورته وحنو نبرته لا ينفذ:

- قاعدة في قلبي..

عاد لممارسة أبوته بحزم:

- بس ده ما يمنعش إني أطمن عليكِ..

كانت تدرك نيته..

نيته التي تتهرب منها منذ عودتها عقب طلاقها المرفوض من قِبله..

لقد أحب "منذر".. يراه ابنه الذي لم ينجبه، والابن لم يبخل.. كان سند ظهره في كل وقت..

"منذر" الرجل الحقيقي الذي لم تعشق وإن غرق هو في عشقها حتى النخاع..

لذا بترت مبادرته بثرثرة لا تريدها، لا تتحملها في الوقت الحالي:

- بابا..

- هنتكلم المرة دي يا دُچى..

بتَر بتْرها، نظرته الحاسمة الجادة تجبرها على الصمت للحظات قبل أن تتنهد باستسلام:

- ما كانش ينفع نكمل يا بابا..

- ليه!..

- عشان...

سكون جديد وذهنها يفتش عن تبرير يقبله كرجل.. كأب، لم تجد سوى الحقيقة فهمستْ بها بخفوت:

- عشان بيحبني قوي، حبه كان بيعذبني وأنا مش قادرة أدي له مقابل لحبه من مشاعري..

لمعت عينا "حسن" بنظرة متفهمة حزينة وهي تردف:

- كنت باوجعه دايما، ومنذر ما يستاهلش الوجع ده..

كررت تنهيدتها بحرارة أكبر:

- يستاهل واحدة تحبه زي ما بيحبها وأكتر..

تمتم والدها بتفهم يائس:

- أنتِ ماحاولتيش بجد يا دُچى..

- بابا.. أنا..

- أنتِ لسه غرقانة في الماضي اللي فات عليه عمر..

استقام يتطلع للشمس التي بدأت تسيطر على كبد السماء بحرارة صيفية في طور الاحتضار:

- قلبك لسه مسجون مع راجل ما قَدَّروش..

نهضت تتبعه، تفند، تدافع.. وتغيب في الأمس:

- قَدَّره يا بابا، وكان معاه حق يبعد.. كان بيحبني..

شاب نبرة أبيها صرامة قاطعة:

- لو بيحبك كان هيسعى عشانك، عشان يكون معاكِ.. مش مع أول عقبة في طريقه يستسلم ويهرب..

تهدل كتفاها بقنوط واجم:

- مش بالسهولة دي..

ربت على كفها فوق السور برفق:

- أنا عاشق قديم، عارف إنها حرب صعبة.. بس اللي بيحب بجد ما بيهربش من أرض المعركة..

واستدار عائدًا للداخل بتنويه أخير:

- قلبك محتاج يتحرر من أسر قصة انتهت وبخسارة يا دُچى..

بعدها همس لنفسه بقلق على صغيرته الوحيدة في الدنيا من بعده:

- محتاج فرصة..

فرصة بخلت بها..

أو ربما بخل بها خافقها على نفسه وهو يحيا فيما ضاع كأنه.. الأبد!..

أبدًا لم يتنازل عنه عاشق آخر ثمِل بالعشق حتى أفناه، وأنامله تتنقل بين صورها التي تعيد لروحه الحياة ولفؤاده النبض..

على الطرف البعيد من العالم كان يتابع أخبارها، يطمئن عليها كأنما لاتزال له..

يجلس بمقعده خلف مكتبه، يحرك الصور فوق شاشة حاسوبه، ويتوقف عند إحداها، وأخرى..

صورة لم تكن فيها وحدها، بل تحادث صديقه!..

رب عملها الذي استقرت به بعد رحيلها بتوصية منه..

لعن الشوق والاحتراق والغياب، اتقدتْ النار بقلبه، طيره الذي هجر العش رُغما عنه لم يعُد وربما لن يعود..

وكيف يعود وعشه القديم فتح ذراعيه له!..

لم يتمكن الصمت من السيطرة على جموح افتقاده، تناول هاتفه وبدأ مكالمة دولية لأجل هدف واحد:

- وجيه، معاك منذر الإدريسي..

سكن لحظة يستمع لرده المرحب قبل أن يسأل بلهفة لم يمكنه كبتها أو مداراتها:

- طمني على دُچى..

في العشق لا يجوز الفراق..

في العشق..

إما بتر..

أو موت!..

**

القسوة تنحر البراءة، والذنب ينحر الروح..

في كل ليلة ترى نفسها تموت، تنزف حياتها عبر ثقوب كثيرة تصطنعها رصاصات عاشقها المغدور بخيانتها..

في كل ليلة يُطعن قلبها كما طعنت قلبه ولوثت شرفه في لحظة سقوط..

هي العاشقة التي وقفت على الحافة وظنت أنها آمنة، أن السقطة لا تليق بها، أنها ناجية قوية صلبة ستقاتل الإثم وتهزمه..

لكن الحافة اهتزت تحت قدميها، أوقعتها فأتى ارتطامها بالقاع مدويًا..

كانت سقطة الموت.. وهل بعد الموت عودة!..

تلك الحياة التي تحياها ليست بعودة، مجرد استمرار، تكيف، تعايش لأن الثبات في محلها لن يفيدها بشيء..

مُنيت بهزائم كثيرة متتالية، متتابعة، تلاحقتْ ورائها أنفاسها فلم تستطع التقاط بعضها سوى منذ وقت قريب..

هزائم لم تطُف بأفكارها في يوم، ولم توازِ أعنف خيالاتها عن المستقبل الذي كان بعينيها ورديًا يناسب حاضرها..

أسرتها، الزوج، الأولاد.. العائلة..

كانت في الجنة ثم استجابتْ لغواية الشيطان، فلُعنت بالجحيم، انتهت به واستقرت بقعره المستعر..

عمل جديد، طفل يعوض ما فقدت.. وسيدة بالكاد تلتقيها، بعملها معظم اليوم وحين عودتها تتسلم منها صغيرها وترحل..

حتى ليلة أمس، كانت تجالس "آدم" الفتي الذكي، تعليقاته على ألعابه وحواره معها يذهلها، هادئ الطباع، لكنه لمَّاح مهتم بالعلوم لحد كبير حتى أنها سألته بينما تجاوره في غرفة المعيشة أمام أحجية صعبة، جلس يركب قطعها بتركيز وبسالة دون ملل:

- يعني عاوز تطلع مثلا عالم لما تكبر!..

رفع رأسه إليها لثانيتين ببسمة صغيرة مستفهمًا:

- عالم إيه!..

هزتْ كتفيها وتركتْ جلستها لتجاوره على الأرض، ترمق اللغز بتدقيق، تلتقط إحدى قطعه وتضعها في مكانها:

- أي حاجة، فضاء، ذرة، هندسة!..

أضاف بالمثل قطعة أخرى نافيًا بنبرة مستمتعة:

- لأ.. أنا هاشتغل قبطان..

شعرت بدهشة مستغربة، هواياته الحالية لا تتماشى ورغبته في عمل المستقبل!..

استوضحت باهتمام:

- ليه قبطان!..

نظر إليها بحماس، جاوب إثره ببديهية لم تتعجب لها ولهجته تشع شغفًا كان هو المثير للعجب:

- عاوز أِلِف العالم على سطح سفينة، بس أكون أنا القائد..

ابتسمت بحنو أم وهي تنهي معه أحجيته:

- حلو الهدف، اتمسك بيه وحققه..

وضع قطعة الختام لتكتمل أمامه صورة البحر، سفينة ضخمة وطيور محلقة.. اعتدل يرمقها بنظرة مبتهجة تناسب عمره:

- هاحققه..

"هو إيه ده!"..

دخول درامي كالعادة..

هذه السيدة رغم صمتها الغالب على حضورها، لكنها دومًا ما تظهر بغتة من العدم فتنفض قلبها..

تأملتها من موقعها قبل أن تستقيم، تتبع الصغير بخطوات محسوبة، حين ركض هو إلى أحضانها فضمته بلهفة ونال منها عدة قبلات متتابعة، رد على سؤالها:

- هدفي، إني أكون قبطان..

شرد بصرها للحظة.. خللت بعدها خصلاته الداكنة الطويلة بأناملها، حركت عينيها لتواجه الواقفة على بُعد مناسب بسكون لتسألها:

- آدم عمل معاكِ إيه النهاردة يا ليلى!..

عادت لها بسمتها الحانية وإن شابها دفء:

- كله تمام يا مدام نيروز.. آدم ذكي جدا ومش متعب..

قبلت رأسه ودفعته ليعود إلى لغزه، أشارت نحوها لتتبعها فاستجابت بخضوع، خارج الغرفة توقفت تحادثها باهتمام أمومي..

هي لا تملك غيره في هذا العالم..

لا يهمها سواه.. لا تكترث إن انتهى الكون وعاش وحده معها..

لذا تحرص على العناية به مهما كان الثمن، واجهتها بحسم:

- لو في أي مشكلة قولي لي..

نفت "ليلى" بهزة سريعة:

- بالعكس، آدم ولد أي أم تفخر بيه..

تفحصتها "نيروز" بغموض، هالة الحزن التي تحاوطها، الانكسار بنظرتها والهروب المستمر من كل لقاءات الأعين المباشرة..

علمت عن فقدانها لأطفالها، زوجها من بعدهم.. قصة موجعة لا تدري إن كانت حقيقية أم لا!..

لكن ملامح وجهها لا تزيف الألم.. محفور فوقها، حقيقي كحقيقة الحياة ذاتها..

اقتربت خطوة ونادتها تجبرها على اللقاء ببصرها:

- إيه رأيك تكوني مربية بدوام كامل!..

ارتدت "ليلى" خطوة مرتبكة، حائرة في شبه استيعاب:

- قصد حضرتك أعيش هنا!..

مطت الأخرى شفتيها بإيماءة موافقة..

كان عرضًا مفاجئًا، تريده.. وتخشاه بذات الوقت..

معه ستهرب من وحدتها..

لكن.. هل بإمكانها العودة لمجتمع قريب من مجتمعها القديم!..

ماذا لو قفز الأمس على الحاضر فطعنه في مقتل الحقيقة الخفية!..

ماذا لو تكررت الخسارة بعدما تسلقت جدران البئر وعادت للحافة!..

مع شرودها أعادتها "نيروز" للحظة والعرض، تهديها وقتها للتفكير، تمنحها فرصتها في اتخاذ القرار، وتخبرها أنها تنتظر ردها خلال أيام.. أنها كذلك ستظل بعملها إن رفضت، لا يوجد ما تخشاه..

وهي تخشى الكثير..

أوله؛ أن تفقد ما حظيت به اليوم لأنها طمعت فيما هو أكثر!..

**

في الحروب تتلاشى الحافة، تولد جبهة قتال.. يظهر خط النار، وتبدأ أسلحة طرفي الصراع في التراشق..

الحرب سجال، معركة لك.. ومعركة عليك!..

وبينما هي تقبع في خانة المهزوم منذ علمتْ الحقيقة، كان هو ينتشي بانتصاره كل ليلة..

لم يحاول التقرب منها كزوج، يتعامل في غرفتهما بأريحية تامة، يتجرد من ثيابه ببساطة، ينام في الفراش الواسع.. وحيدًا!..

حيث استوطنتْ هي الأريكة، ولم يمانع أو يعترض.. رمقها بنظرة ساخرة وشد الغطاء فوق رأسه ثم غرق في سباته..

كانت تلك الليلة الأولى، بعدها وصل الأمر حدود الاعتياد، ولا تزال عظامها تتصلب فوق أريكتها التي لا تكفي جسدها في وضع مريح..

عندما فكرت في ترك الغرفة له بالكامل، أغلق عليها بابها حتى جنَّ الليل، وعندما عاد دخل وأعاد إغلاقه ونام..

هكذا.. كل ليلة..

حتى أنها تهكمت في مرة تخبره بفظاظة:

- المفروض تنام بنص عين، ممكن أقتلك وأنت نايم..

حينها ابتسم باتساع مستمتع، مال عقبه يهمس بأذنها محررًا أنفاسه لتداعب بشرتها:

- الديب دايما بينام وهو سايب عين مفتوحة..

لم تبتعد.. كانت كما في كل مرة، تتحدى نفسها، قلبها، مشاعرها.. وتتحداه..

اقترابه لن يؤثر بها، لن تهتف النبضات باسمه، ولن يشتاق الجسد إلى دفء عناقه..

أغلقت الرواية بيدها، تنهدتْ تتركها على طاولة جوار الفراش ونهضت تتمطى بكسل.. العجلة من سمات الخاسرين، وفي السجن لديها كل الوقت لتقلب موازين خسارتها، تحولها إلى نصر حاسم وأخير..

هي لا تفتش عن برائتها من إثم يطلخ يديها بالفعل، بل تريد الهروب بعد أن تحرق سجنها وسجانها..

وصلتها ضوضاء غريبة من الخارج، صوت زجاج يتهشم، ضربات في حائط أو أرض!..

صرخات.. صرخات تحمل صوت أخيه الصغير!..

ركضتْ دون انتباه إلى غرفته، وجدتْ مديرة المنزل المخيفة تقف بثبات عند بابه المفتوح، تنظر عبره دون خطوة زائدة والصوت تتعالى وتيرته، جاورتها بلهاث ترمق الثائر بالغرفة..

الغرفة المحطمة تمامًا!..

سألتها بذعر:

- في إيه!.. إيه اللي حصل!..

ردتْ السيدة بجمود بارد:

- نوبة غضب..

الجواب ونبرتها ونظرتها كلها تدلل على تكرار، ألفة!..

ثبتت تراقبه يدفع مقعد طاولة الزينة بعدما اصطدم به فكاد يسقط، يحمل زجاجة عطر ويقذفها بعشوائية لتصطدم بالمرآة، تتحطم بدوي مزعج جاور صرخته الهائجة:

- دي مراية!.. حاطين مراية في أوضتي ليه!.. هاشوف فيها إيه!..

ويده تتجه إلى قطع الزجاج بعمد:

- أنا أعمى.. أعمى..

المشهد مأساوي، تعِس.. تراجيدي بامتياز، أوجع قلبها..

لم تلحظ أنه لِعَين تعرف الحقيقة؛ مجرد تمثيل متقن للغاية!..

لمحتْ حركاته الفوضوية، سيجرح نفسه ثانية إن لم تتحرك، وهذه المرة سينغرس الزجاج بقدميه العاريتين!..

حاولت الدخول فمنعتها "وسيلة" بحسم:

- عمار بيه مانع أي حد يقرب منه في نوبات غضبه..

ابتلعتْ لعابها بعسر فغصت به، سعلتْ بنحنحة:

- هي متكررة!..

أومأت المرأة بإيجاب صامت، صمتها لم تستطع ابتلاعه، وليتجرع "عمار" أوامره مع رغباته ويذهب بهم إلى الجحيم..

خطت تقترب منه..

تمد يدها فتلامس كتفه برفقٍ حانٍ، وكانت خطوة خاطئة لم تحسب لها حسابًا!..

استدار بغتة بنظرة كالشرار، ترى الظلام وحده وتحياه حتى العمق السحيق، عيناه محمرتان، وجهه ثائر.. وملامحه متغضنة بالألم..

عقب ثوانٍ من صمت مخيف تجمدت خلاله كمنحوتة في وضع هلع؛ امتدتْ يداه إليها، دفعتاها للخلف بغلظة، اعتصرت كفاه عنقها..

قادها نحو الموت بخطوات أسرع من استيعابها.. وأنفاسه معها تتسارع في ركض مختل، فاقد للاتزان..

شهقتْ بفزع قبل أن تختنق، تدفع أصابعه، تهمس باسمه.. تناديه وغشاوة ضبابية تعتم المشهد، حتى أتى الصياح من ورائه بصوت المرأة الجهوري:

- نوَّار.. هتقتلها..

جمد للحظات طوال أقرب لعمر، عمر مر أمام ناظريها والرعب يسيطر على خلجاتها.. هي تموت!..

ابتعد بغتة كما اقترب تمامًا، يرتجف.. وترتجف..

يتعثر، يسقط..

تنزلق على الجدار الذي ثبتها إليه، تشهق بعنف.. لا تصدق في معجزة النجاة، للحظة تمنت لو يقتلها علَّها تتخلص من جرمها، من جريرة حرمانه بصره ودنسه الذي يطاردها..

للحظة وصلت للحافة..

وفي التالية عادت منها فاقدة للنطق والرشد..

للحظة، سقوطها لم يكتمل وقد أملتْ أن تجهز عليها صدمة الارتطام..

ازدردتْ لعابها فاستشعرت جفاف حلقها، تألمتْ بحشرجة واستندتْ لكفها ترفع ناظريها تجاهه، تناديه بغمغمة خافتة، تأمر الواقفة بنظرة أن تتراجع، تبتعد.. تترك لها لجام التصرف رُغم أنها كانت على وشك النهاية..

تأملته ينطوي على نفسه، يضم ركبتيه إلى صدره، يطوقهما بذراعيه ويهتز بإيقاع رتيب متتابع أقلقها، زحفتْ نحوه، همستْ باسمه فلم

يتحرك أو يُظهر حتى أنه سمعها، كررتها، أعادتها ولامست كفه فانتبه.. هذه المرة عندما رفع وجهه إليها كان يبكي!..

في سكون كامل..

دنتْ تجاوره، تتمتم بقلق حزين والعالم كله ينطبق حولها، يضيق عليها الخناق.. يثقل كاهلها بأقسى ذنب..

- إيه اللي حصل!.. مالك!..

تضاعفتْ الرجفة بجسده.. توقف عن اهتزازه لكن شروده في ظلامه أربكها خاصة وظلامه كان موجهًا إلى أعماق عينيها كأنما ينظر إليها بثبات!..

- نوَّار!..

- عاوز أموت..

نقل إليها رجفته مع تصريحه، نقلها لقلبها مباشرة فقبضتْ على كفه، تفكك عقدة ساعديه حول ركبتيه، تحتويها بين يديها ونبرتها لا تتخطَ حاجز الهمس الحاني:

- الحياة لسه قدامك طويلة..

- الحياة مع لون واحد مالهاش معنى..

هاجمها بحدة ونفض يدها عنه:

- الأسود هو ملك العالم بتاعي..

ظلامه الذي كان صنيعة يديها، تحديها ومكابرتها، ثقتها الزائدة بقدراتها..

- مش كل حاجة لازم تتشاف، في حياة بنعيشها بمشاعرنا، بباقي الحواس.. وأنت بس اللي تقدر تطوع كل ده ملك يمينك..

ابتسم باستهجان قاتم:

- الكلام من برا الصورة سهل..

امتدتْ أصابعه إلى وجهها على حين غرة، ضغطتْ جفنيها اللذين تعانقا بتلقائية:

- تحبي تجربي حياتي!..

تباعد في الثواني التالية بلهجة كالحنظل:

- أنا متعود على الخسارة، من قبل ما آجي الدنيا وأنا بخسر..

انقبض خافقها بين جوانحها، انعصر بقسوة لم تحتملها فكادت تضمه لصدرها لولا أن الموقف لا يصح..

هو رجل؛ حتى وإن كان صغيرًا تراه طفلَ إثمها..

لم ينتظر ردها، تحرك يمد ذراعه يفتش عن مجهول كان الحائط، عندما وجده يمم ظهره إليه واستند فوقه..

أكمل بنبرة ميتة:

- أبويا مات وأنا لسه جنين، أمي ماتت قبل ما أعرف ملامحها.. أخويا الوحيد اللي كان قريب مني أبوه رفضني وصمم يبعده عني لولا هو صمم..

وهزأ بشبه ضحكة مكتومة:

- وفي الآخر مرض مميت، انتهى بعمى..

ثم قلب كفيه بتسليم قانط:

- دي الحياة اللي بتتكلمي عنها!..

مع حديثه لم تشعر أن عبراتها تسيل على وجنتيها بصمت يشبه صمته، لم تجد جوابًا يناسبه، حسرتها تعقد لسانها، ألمها يغلق فمها عن الكلمات ويحرمها حق مواساته فهي الجانية..

الجانية الظالمة التي تجالس ضحيتها وتنصت لمعاناته، تحياها معه لحظة بلحظة، إلى أن ختم هو روايته البائسة:

- حتى عمار كنت هاتحرم منه، لما مراته ما قدرتش تتحمل طفل أعمى مش عارف ياخد باله من نفسه..

فجأة تلاشت جميع الموجودات..

"زوجته!".. كان متزوجًا قبلها!..

ولم يخبرها، لم يهتم حتى بإعلامها بمن سبقتها!..

نقطة جديدة لرصيده حالك السواد الذي يثقل ميزانه في كل يوم، رصيدًا ستحاسبه عليه قطرة قطرة..

تجاهلتْ الخبر، اعتدلتْ تتوازن على ركبتيها، تجذب ساعده وتجبره على النهوض، تتشبث بنبرة قوية آمرة:

- كل حاجة اتغيرت، دلوقتِ أنت اللي بإيدك تحدد، والحياة ممكن تتعاش بكذا شكل..

استجاب بخضوع هادئ بينما تردف بحزم أمومي صارم:

- تقدر تختار اللي يناسبك منهم..

ساعدته على ارتداء خفٍ منزلي، سحبته خارج غرفته بعيدًا عن الحطام وبعينيها أمرتْ الخادمة الصغيرة التي تجاور "وسيلة" لتنظف المكان وتعيد ترتيبه، هبطتْ به إلى الحديقة وقد فتح هو باب المنزل المؤمن ببصمته.. ثم مر الوقت دون شعور..

تحدثتْ معه في مواضيع كثيرة باغتتها معرفته بها، حتى الأساطير كان يعلم عنها الكثير.. رُغم سنه وعجزه، نجح في شيء ما.. وذلك حرر عقدتها قليلًا..

لكن ربما لو قرأتْ أفكاره، لو استمعتْ إليها وعلمتْ ما يدور بخلده، لو لمحتْ ابتسامته الجانبية القاسية حين يدرك ابتعاد وجهها عنه..

ربما لو فعلتْ لنجتْ!..

لتخلصتْ من تلك العقدة التي يُحكمها حول مشاعرها في كل لحظة..

استهلها بالندم والحسرة..

دموعها حين تمس صوتها تزجي ناره لا تطفئها، كان يشتعل بالرغم من حزنها وضعفها والأسى..

هي التي حشرته بقاع جحيمه المظلم، وهي التي ستستقر به معه مهما جاهدتْ للهروب..

في المرة القادمة، سيجرب معها مذاقًا مختلفًا.. مذاق الخوف!..

يستشعره بأنفاسها، يفوز به في قلبها..

في يوم آخر..

مر الوقت عليها بصحبته دون ملل، مجالستها له هي الأمر الوحيد الذي تتقبله بهذا المنفى، لذا عندما غابتْ الشمس واعتلتْ حمرة الشفق الأفق الغارب عادا للداخل، ظل هو بغرفة المعيشة وصعدتْ هي لغرفتها، وقتها التقته!..

زوجها..

يقف قبالة خزانة الثياب، بخصلات مبتلة، ومنشفة تحيط بخصره كأنما أنهى حمامه للتو، اقتربتْ تواجهه فاستدار إليها يرفع أحد حاجبيه:

- جيت إمتى!..

مط شفتيه بجواب بارد:

- من نص ساعة، ليه!..

أشارتْ من خلفها بلا معنى:

- كنت مع نوَّار في الجنينة، ماجيتش تشوفه!..

جذب سروالًا بيتيًا وانحنى يرتديه فهربت خطوة بخجل، تحدث هو بصوت لا يهتز، لا يخرج عن المألوف مثقال هفوة:

- ماحبيتش أزعجكم، كنتوا مندمجين..

عادتْ إليه بحدة غاضبة:

- ليه ما قلتليش أنك كنت متجوز قبل كده!..

استقام يسأل بنبرة كصقيع أبرد بقعة على وجه الأرض:

- ويهمِك في إيه!..

ضمت قبضتيها.. هي لا تهتم..

لا تهتم بحكم عشق لم يمت بعد، بحكم كرامتها، بحكم كونه مجرمًا قاتلًا ينتظر ثأرها منه، لا تبالي.. هو فقط فضول:

- طلقتها!..

- أيوة..

- ليه!..

- قالت لي تعبت من وجود نوَّار، قلت لها أنتِ طالق..

تراجعت مبهوتة..

هو يفوز بانتزاع ردود أفعالها المصدومة في كل مرة:

- بالبساطة دي!..

أجاب يومئ بخفة، بلا تعقيدات:

- وأبسط مما تتخيلي..

عقبها ضيق عينيه بنظرة قاسية:

- جبت له اللي هتكون مجبرة تتحمله..

هزتْ رأسها لا تصدق تماديه، جنونه ووحشيته التي تخطتْ كل حد في مقابل عدم اكتراثه برد فعلها:

- السجين مالوش حق اختيار يعيش إزاي!..

ولوح بكفه في حركة أنيقة:

- كل اللي يملكه؛ هو اللي بيتقدم له جوا جدران سجنه..

شد قامته ليعلوها بحضور متسلط:

- ولازم يكون ممتن..

ثم سحبها بغتة يحاصرها بينه وبين الخزانة فأجفلتْ، علا المكر ملامحه، صوته.. عندما مرر أنامله على جانب وجهها بنعومة:

- غيرانة إني كنت لواحدة تانية قبلك!..

استنكرتْ أفكاره باستهانة ولم تبعده كما هي الحرب بينهما، تتحداه ونفسها قبله:

- أكيد بتهرج..

انحنى أكثر يقترب بوجهه منها، يتحدث وكلماته تلامسها مباشرة فتضعفها:

- أُمال منفعلة ليه!..

دفعتْ صدره برفض، استسلم لدفعتها ولم يفلتها، أغرقها بمقلتيه اللتين تحولتا لدرجة داكنة من الأخضر اللامع:

- لا، عادي.. مش أول مفاجأة أعرفها عنك، وأكيد مش هتفاجئني أكتر من كونك قاتل..

ابتسم بخبث وتلاعبه بها ومعها لا ينتهي أو يتوقف:

- ورغم كده مش قادرة تكرهي القاتل..

يقررها بثقة فجرتْ غضبها، دنت هي تحتوي وجنته الخشنة بكفها، تتغافل عن إدراكه لما بقلبها..

لذلك الحب الذي مازال حيًا يُرزق، وقتله كما تتمنى ليس أبدًا بالأمر السهل..

برقتْ حدقتاها بوهج حارق أمتعه:

- عاجباك لعبة القط والفار يا عمار!..

قبض على كفها التي تحاوط وجهه، حركها تجاه فمه ودفن بباطنها شفتيه، يلثمها بدفء أرجف دواخلها قبل أن يرتد ببصره لحدقتيها، يرى تأثرها وينتشي به:

- قط وفار إيه!.. إحنا مش أطفال..

هبطتْ كفاه تطوقان خصرها، يجذبها بلا مقدمات فيسقطها بأحضانه:

- وأنا.. أكيد مش قط..

وضعت ذراعيها حاجزًا بينهما ولم يكترث، أردف بوقاحة وعيناه تسقطان عند قبة ثوبها المفتوحة:

- ولا شايفك مجرد فار!..

جاهدتْ للتخلص من عناقه ونظرته واستحواذه المربك:

- غزال يمكن..

مع نهاية أحرفه حررها فتراجعتْ تهمهم بسخرية مستهجنة:

- وأنت بقى الأسد!..

مد يده خلفها فحاصرها ثانيةً، تناول سترة منامته وابتعد بجواب باتر صارم:

- لأ..

ثم تبدلت الصرامة دون مقدمات لغمزة عابثة، ألقى بعدها السترة فوق جسده:

- أنا الديب..

والذئب يجيد الصيد، يعلم كيف يلتهم فريسته بتلذذ.. حتى وإن كانت تظن نفسها تجاريه في الافتراس!..

**

رجل الصمت، صمته سجن روحه..

هذا البيت بمن فيه ينبش مقبرة أوجاعه..

بات يختنق كلما مر بردهاته أو تسلق دَرَجه..

مقبرة دفن فيها كل ما مضى، ردم فوقه.. دهسه واستمر..

لكن جدرانه تنقب بأعماقه كباحث أجنبي غارق بين تراب مقبرة فرعونية.. باحث نشط لا يتكاسل في لحظة..

عادا للروتين بعد تصريحها بالبغض وانتشائه هو بالخوف..

كلمتها لا يزال يتردد صداها داخل عقله..

"بكرهك"..

تتحاشاه!..

لا.. فهي لم تكن تهرب من عينيه كعادتها..

بل ترفض الالتقاء بهما..

تتعمده..

تحفظ مواعيده حضوره وتختفي حينها ببساطة..

حتى عندما رجع من عزلته قبل يومين فتصادم معها بالمطبخ الصغير تُعد رضعة طفلها؛ لم تلتفت إليه رُغم سماعها لصوت الباب ووقع خطواته..

وهو لم يتوقف، لم يكلف نفسه عناء استدارة خاصة..

فقط سقطت ببصره لحظة دخوله، ثم تلاشت حيث تتلاشى كل أفكاره السوداء؛ بمدار مظلم لا نهائي.. بعيد للغاية، خالي من البشر لتسقط وحدها فيه!..

وحدها وأمه التي أصبحت تزور شروده مؤخرًا بكثرة..

عام واحد.. عام قضاه معها فحمَّلته خلاله بأثقال من الذكريات القاتمة غير القابلة للمحو أو حتى التناسي..

عام هو أطول من عمر..

في ليلة مبهمة من ليال كثيرة، عاد إلى البيت يحمل مستلزماتهما من الطعام والشراب ليجدها ممددة على أرضية المطبخ، بيدها زجاجة نبيذ رخيص ولفافة محشوة تنفث دخانها بضياع..

كانت قابعة بخمود تستند لأحد الخزائن، بثوب نوم لا يكاد يستر شيئًا.. لا تكترث بوجوده، لا تنتبه له.. حتى وضع ما بيده على طاولة تتوسط المكان وتوجه إليها يُقيمها بحزم غاضب:

- كُفِّي عن محاولة قتل نفسك..

غضب يداري خوفًا.. سخط يخبئ بين طياته ألمًا..

لكنها لا تشعر به، لا تراه.. ترى آخر، تتوهمه فتهاجمه بخبال:

- أنا أكرهُك..

ثم تضحك بخلاعة غريبة، ترتمي بعدها بين ذراعيه، تتعلق بعنقه، تبكي بدموع مثيرة للشفقة.. مثيرة للقرف، وتتراجع باستدراك ضائع:

- لا.. لا.. لا تغضب..

تريح رأسها على صدره تتشبث به وهو يحاول دعم جسدها المتهاوي حد السقوط بينما نظرته تظلم بقسوة:

- أنا أحبُك.. لم أحب غيرك..

تنشج بضعف، تضربه فوق ضلوعه بقبضتها:

- لكنك تركتني، تركتني وحدي عبد الله..

تتهاوى بالفعل..

تعود للأرض ويعود معها دون أن يحررها من أحضانه، ظلام عينيه يغيب في شرود، وقسوته تغرق في المقت:

- هل رأيت طفلنا!.. يشبهك حبيبي..

تلامس وجنته بأناملها، ترفع عينيها إليه.. تقرب شفتيها من شفتيه:

- يشبهك لأنني أحبك، هو نسخة مصغرة عنك..

يُبعد وجهه عنها وينفذ صبره بزعقة حانقة:

- أنا هو طفلكِ أمي.. طفلكِ الذي يشبهه..

تريح كفها فوق كتفه والثانية تعيده إليها برفق متذلل:

- نعم.. نعم جايكوب، أنت هو طفلي.. كنت سآتيك بأخٍ مجهول الأب، لكنه رحل..

- كفى..

زعقته تتكرر.. تعلو..

قلبه يئن بين ضلوعه، وبُغضه للكون بمن فيه يتضاعف..

يحملها عنوة، خطواته تتجه إلى الحمام وبحوض الاستحمام يتركها، يفتح فوق رأسها وجسدها الماء البارد فترتجف.. تصرخ وتسبه، تلعنه بأقذر اللعنات.. ثم تضحك بجنون..

بعدها يجففها، يبدل لها ثيابها كطفلة، يضعها بفراشها.. ويظل إلى جوارها تضم كفه أسفل وجنتها حتى تغرق في النوم..

وفي أحلامها تردد اسم أبيه..

اسم معشوق جعله يكفر بكل ما يمت للعشق وأهله وتابعيه بصلة.. وتأتي هي، لتخبره ببساطة عن حبيب رحل!..

حبيب مثالي، نقي، لا يليق بدنياه الخبيثة ولا جحيمه الشيطاني..

وتهديه الكُره..

كأنه يكترث!..

"يعقوب"..

نداء جده انتزعه من صمته الشارد في شرفة المنزل وبين يده قهوة باردة، نسيها حتى فقدت مذاقها الحار الذي يلسع به فمه كأنما يشتهي الاحتراق من الداخل..

رمقه بجمود يجاوره، يبتسم بهدوء غريب وعيناه بهما شيء لا يفهمه منذ عدة أيام..

بهما.. حزن، انكسار!..

- بكرة فرح عدي درويش، ابن عم غزل مرات أخوك..

حرك بؤبؤيه بلا استيعاب، بلا رغبة فيه.. أكمل "يونس" بحزم:

- خد مراتك وروحوا الفرح ده..

لم يقاوم بسمته الساخرة أو حاجبه المرفوع بتهكم غير مصدق:

- فرح!.. وآخد مراتي كمان!..

اعتدل جده في جلسته ونبرته تكتسب صرامة غير مألوفة لأذنيه معه:

- أيوة يا يعقوب، أنت دلوقتِ رجل أعمال.. ورجل الأعمال الناجح بيعرف إمتى يجامل شركائه، عيلة درويش لها اسمها وسمعتها في السوق ونسايب أبو الغار.. لازم تكون مراتك معاك، دي طبيعة المناسبة..

نهض من مقعده يقاطع كل اعتراض:

- بلغها تجهز نفسها..

رجل الصمت يكره الضوضاء، يكره الضوء الساطع.. يكره زحام البشر، يمقت أنفاسهم، تحركاتهم، همساتهم.. والآن سيحضر زفافًا ما، لا يعرف أحدًا فيه!..

كم أن الفكرة مثيرة للبهجة، وتوسعت بسمته الساخرة..

بعدها بلا اكتراث أخبرها، بخمس كلمات لم تزِد حرفًا.. وها هو يقف أسفل الدرج بحلة سوداء، وقميص من اللون نفسه متخليًا عن اختناقه بربطة عنق.. ينتظرها!..

زوجة أخيه تقضي اليوم من بدايته مع العروس صديقتها، والأخ يرتدي ثيابه بالأعلى، سمع باب غرفته يُفتح..

باب آخر!..

لقاء.. ثم الصوت العابث يخترق صمته برنين مغيظ:

- دلوقتِ عرفت الليل جه بدري النهاردة ليه!..

أخيه يغازل زوجته.. لم يظهرا لعينيه بعد، لم يلمحه وهو يدور حول وقفتها الخجلى بمرح ماكر:

- الشمس هربت من السما وجت البيت عندنا..

أخجلها أكثر فأخفضت عينيها ببسمة خافتة..

تلك كلمات لن تسمعها من غيره..

كانت بالفعل متوهجة كشمس هاربة..

بثوب أسود من قماش ناعم، ينسدل حول جسدها إلى كاحليها باحتواء يدمج بين البراءة والإغواء في مزيج خاص.. كُماه وصدره من الشيفون المطعم بخيوط من اللؤلؤ تحيط بكتفيها، وخصلاتها المرسلة في العادة منحتها تموجًا أنيقًا زاد من فتنتها..

انتهاءً بقرط صغير من لؤلؤتين تتماشيان مع زينة الثوب..

- ميرسي يا يزن..

همستها بحياء خفيض، وقف يواجهها بجدية:

- مش مجاملة على فكرة..

كان يريد إسعادها فحسب.. ونجح..

وجهها أشرق فبدتْ أكثر ألقًا وسحرًا بينما يشير لها بيده لتتقدمه، تهبط الدرج ببطء بحذائها عالي الكعب وهو من خلفها..

ترى الواقف عند نهايته بعينين غامضتين.. مع كل خطوة اقتراب كان فحوى النظرة يتضح..

غضب.. سعير.. صقيع.. وحشية.. ورغبة!..

هناك رغبة ما تقبع في خلفية مقلتيه..

أوجفتْ قلبها فأبعدتْ عينيها عنه، إلى أن وصلتْ إليه، بادر هو موجهًا حديثه الجليدي للآتي من ورائها:

- أعتقد مراتك مستنياك في الفرح..

لم تلمح انعقاد حاجبي "يزن" المتسائل خاصة وهو يرى كيف ينظر الشيطان الصغير لزوجته ويردف عقبها بسخرية مقصودة:

- مش المفروض تسيبها تستنى كتير لوحدها..

همهم بتعبير مدلوله أنه سيسبقهما وغادر..

مكث بمكانه ووجمت هي تقابله بوقفتها، وقفة ثابتة، خاوية، فارغة من كل انفعال قد تبيحه اللحظة..

انفعال منه أو منها..

وقفة طالتْ حتى ملتْ، فزفرت بضيق وعيناه لا تحيدان عنها بغموضهما المُقبض:

- مش هنروح!..

- أنا هاروح..

نبرته حادة كالسيف..

حادة كالكلمتين اللتين نطق بهما باختصار مُخل..

حدة جعلتها تدرك ما يعنيه وبصره يرتفع للأعلى عن يمينها:

- أنتِ هتطلعي على فوق..

لم تندهش، لم يُثِر فيها أي اضطراب، لم تغضب أو تحزن أو تهتم، كل ما فعلته أنها همست بكلمة واحدة:

- تعرف!..

واستدارتْ عائدة من حيث أتتْ بلامبالاة أزعجته:

- مش فارقة..

ظل منزعجًا بعدما وصل للمكان الفخم، وإن كان الحفل بسيطًا هادئًا لا يفيض بالصخب المعتاد، دلف إليه فتضاعف انزعاجه، ثم تحول لغضب حقيقي مع سؤال الأخ عن غيابها!..

حينها جاوبه باستهجان هازئ:

"معلش، حبست الشمس في البيت عشان ما ترَجَّعش النهار تاني"

وفهم "يزن" أنه سمع مديحه لها، عندها نُثرت بذرة شك بداخله..

هل يغار أخيه الأصغر على زوجته منه!..

هل يغار!..

**

على الحافة نتأرجح بين الشك واليقين..

بين الرغبة والهروب.. بين الحنين والخوف!..

على الحافة كلنا نخشى السقوط لكن للقدر رأي آخر..

فحفل زفاف "عدي درويش" مقام بفندقه السابق، ومحل عمل الحبيبة القديمة الحالي.. يا تُرى هل يلتقيان!..

منذ رآها قبل أيام وأفكاره تدور بحيرة في فلكها، هو من اختار الفراق في المرة الأخيرة، من قرره ودفعها بأقصى ما امتلك من قوة..

كان يعشقها نعم.. لكنه كذلك كان منبوذًا، مطرودًا، دون مأوى أو عائلة، فكيف يفكر بالحب!..

كيف يحشر بمعادلة حياته غير المُتسقة فتاة جُل إثمها عشقه!..

لذا هجر، ابتعد ورفض.. بقسوة..

واختفتْ هي من بعدها، تاه في دوامته حتى توقفتْ دوائرها الخانقة عن دورانها حوله بعودتها للمعادلة..

بملامح لطالما أسرته.. وبسمة كانت ملكه..

عودة مباغتة لم يتوقعها وفي توقيت لم يدُر بخياله..

حيث أن زوجته تحمل طفله، وبينهما حياة مستقرة ارتضاها.. لتأتي هي كزلزال يصدمه بأن الأساس هش!..

كان يقف قرب باب الشرفة بقاعة العُرس، ينفث دخان تبغه بشرود حين دلفتْ بفتنتها اللافتة للنظر من بابها الرئيسي خلف العروس..

طلتها سلبتْ أنفاسه وحجبتْ كل ما عداها عن ناظريه فلم يرَ سواها..

بثوب ناعم لا يشبه جموحها في شيء، رمادي هادئ كغيمة شتوية تجوب السماء بطيف ساحر.. خصلاتها الغجرية الكثيفة مسدلة ببساطة غير مألوفة لعينيه، ومرفوعة على جانب وجهها الأيمن بوردات بيضاء أكسبتها جاذبية غريبة لم يرها من قبل..

سار نحوها كمسحور بتعويذة سرقته من شروده، كانت تراقب المكان.. تتأمله باهتمام وتلقي بالتعليمات لأحد العاملين به فقد بدأ الحفل..

وقف خلفها تمامًا بهمس مشاكس:

- قمر..

انتفض قلبها بين ضلوعها مع استطرادته العابثة:

- مش المدام حامل برده!..

رُغم كل شيء هي تعشقه، روحها تهفو إليه..

استدارتْ ببسمة لم تستطع كبتها قبل أن تشاغبه بالمثل:

- تقريبًا كده..

حاوط خصرها بذراعه في خبث وكفه تستريح فوق بطنها المسطح:

- أمال ابني فين يا لينا!..

أطلقتْ ضحكة خافتة خطفت سمعه للحظة قبل أن تزيح يده بحزم:

- يزن الناس حوالينا..

دغدغها في الخفاء فأجفلت تنهره بعينيها بينما يخبرها بمكر:

- لما الناس ما تبقاش حوالينا؛ هادور على ابني بضمير عشان كده ما ينفعش..

احمرتْ وجنتاها، هي تشتاقه.. وتدرك أن الأيام الفائتة كانت لعبة من هرموناتها الجنونية، وقلبها العاشق الحالم بأمنية اللقاء مع قلبه..

لا تريد أن تتعجل مشاعره..

ترغبها نعم، لكن لتتركها تنضج بهدوء حتى تصل معها لبر النجاة بسلام.. باستقرار واثق، ثابت.. أبدي..

تهربتْ منه بخطوات شبه راكضة وبسمتها تنبئه عن الغفران:

- نوف بتشاور.. أكيد محتاجاني في حاجة..

شيعها ببسمة مشابهة ووقف يراقبها من بعيد، تدور حول صديقتها العروس بصحبة شقيقتها باهتمام أمومي جعل بسمته تتحول لدفء خالص وأفكاره تتركز حولها.. حولها وحدها لهذه الساعات..

بعد وقت قصير بدأتْ رقصة ثنائية فتوجه إليها، يسحبها بأحضانه، يحاوط خصرها بتملك ويميل بشفتيه قرب أذنها:

- فاكرة ليلة فرحنا!..

ابتسمتْ بحالمية لا تليق بها لكنها تخضع لها معه.. حالمية قتلها في المهد وهو يتمم همسه بوقاحة:

- النهاردة هنعيد ريفيو الدخلة..

وكزتْ كتفه في محاولة لكبت بسمتها لكنه لم يتوقف بل تمادى بجرأة:

- فاكرة دخلت إزاي!..

- يززززن..

وكررتْ الهروب.. تابعها ببصره تعود للعروس، تفر بعينيها من سهام عينيه..

لا يدرك هو أن السهم قد انغرس بعمق القلب وانتهى!..

**

على حافة العشق دومًا ما يحدث الخلل، تفقد القلوب توازنها، رشدها وتضل في متاهات الهوى..

هناك وقفتْ وحدها، حلقت كفراشة عنيدة تجابه رفضه، لكن في لحظة الحسم لم تستطع مقاومة الاقتراب من اللهب..

والاقتراب احتراق..

كما الفراق اختناق..

موت محتم لنبض قلب لم يعرف ساكنًا سواه.. الآن باتت زوجته!..

اقترن اسمها باسمه، ووُثق عقد العشق بروحها حتى الأبد..

انتهى حفل الزفاف الذي أصرتْ عليه والدته لخاطرها، وخضع هو بتذمر.. بالطبع أضاف له لمسته، فكان هادئًا سريعًا مختصرًا يناسب نصفه الآلي..

أوصلتها والدتها لجناح العُرس حيث ليلتين هدية من الفندق الأنيق، أوصته بها، أوصته أمه بها كذلك فهي لا تحتاج لوصاية..

هي العاشقة في هذه المعادلة الباردة..

قبَّلها أبيها وشدَّ على يده، غمرتها صديقتها بدموع عزتها لهرمونات حملها المتقلب.. ثم رحل الجميع!..

بغتة بقيا وحدهما.. صوت إبرة ساقطة قد يُسمع، حتى أنفاسها حبستها بتوتر، تفاداه هو بعمليته الغريبة في موقف كذاك:

- هاسيبك تغيري هدومك براحتك..

وترك الغرفة!..

رمقت نفسها بالمرآة.. ليست فاتنة، هي لها جمالها الخاص، سمرتها الشرقية، دُجنة خصلاتها، اكتناز شفتيها ولمعة عينيها..

أتراها تجذبه كأنثى!..

أم أن ذلك الجزء يتبع ذات المعادلة النمطية البسيطة بعقله!..

استبدلتْ ثوبها، أنهت حمامًا مخطوفًا تغسل عن جسدها عناء اليوم وما سبقه من تحضيرات، خلا وجهها من مساحيق زينة العروس فبدت كمراهقة، هل تخرج له على هذه الهيئة!..

عاندت نفسها وبحثتْ عما سترتديه، غلالة!..

بالطبع، العروس ترتدي غلالة.. وليحترق الحياء في نيران ليلة عُرس..

تأملتها بارتباك قليلًا ما يزورها، حريرية، قصيرة.. بمئزر أكثر طولًا يهديها شيئًا من احتشام تحتاجه واختارته بعناية..

انسلتْ داخلها بعجالة، وقفت قرب الباب، تتردد في الخروج.. تفرك كفيها، تعتصر أصابعها وتلويها دون وعي، هي لا تخشاه لكن رُغم دروب الغرام المعبدة بتتيمها به لا تتخيل أنها ستكون بعد دقائق بين ذراعيه كزوجة!..

اللعنة..

دمدمتْ بكلمات غير مفهومة تخطت بعدها ترددها وفتحت بابها بغتة، كانت حركتها حادة بعض الشيء مما أجبره على الالتفات إليها بدهشة وقد تخلص من حلة عرسه السوداء وارتدى ثيابًا بيتية مريحة، خصلاته مبتلة.. ويمسك بجهاز تحكم التلفاز يقلب فيه بملل..

خرجتْ بخطوات بثت فيها شيئًا من الثبات، ثبات ظهر متعثرًا مع كل واحدة خاصة عندما نهض يستقبلها، يبتسم لها برفق ويسألها باهتمام:

- جعانة!.. تتعشي!..

نفتْ بهزة رأس سريعة توسعتْ لها بسمته، شيء من مشاغبة تسلل إليه، إلى قلبه واللحظة بينما يخطو هو نحوها إثر توقفها بمكانها:

- خايفة!..

تفرق جفناها تهديه نظرة حانقة ونبرتها تزيد من معدل الحنق بوضوح:

- هاخاف من إيه!..

واجهها بقرب نبض له خافقها بعنف، امتدتْ أنامله تزيح خصلة عن وجنتها فارتجفتْ:

- يعني.. ليلة فرحنا، مش ده العادي!..

لم تقاوم نطق كلمات الفؤاد الغارق فيه:

- عمري ما حسيت بخوف وأنا معاك..

غامتْ نظرته بما لم تفهمه..

هل أخطأتْ!..

شرودها أضاع انتباهها حين جذبها قرب صدره، يحاوط خصرها، يغوص بنظرتها التائهة في دروب عينيه، يقترب بتمهل.. ويتذوق..

يمنح شفتيها قبلة البداية، قبلة أصابت جسدها كله برعشة لذيذة لا ترفضها.. أهكذا هي قبلة الحبيب!..

أهكذا تشعر الأنثى بأحضان من تحب!..

بتر أفكارها الحالمة عن العشق عندما تعمق في امتلاكها، حجب أنفاسها بحضوره، داهم الباقي من قواها باستحواذ أجبرها على التعلق به.. تمسكت بساعديه ترتكن إليه..

تستقبل غارته الدافئة على جوارحها وجسدها الذي سيكون له بعد ثوان..

الجسد، قطعة أحجيتها الأخيرة لتصبح ملكه بالكامل..

همستْ باسمه بتشوش عندما فارق عناق ثغرها للحظة، فنفث بوجهها احتراق أنفاسه، تكررتْ رجفتها قبل أن يحملها إلى غرفة النوم..

وهناك لم تعد زوجته بالاسم والصفة فحسب..

هناك باتتْ امرأته بكل فوضى المسمى وتفاصيله..

هناك سقطتْ في عشق رجلها من جديد..

(19)

النصر لا حدود له..

والهزيمة لا تنتهي عند القاع وحسب!..

**

دنيا الأحلام تستوعب غياب الحالمين، لكن أرض الأوهام تكسر تيه الواهمين..

هي من امتلكتْ الحلم وحلقتْ في سمائه، ليتها تنجو من سراب الوهم لحظة الحقيقة.. ليتها تحيا حتى الأبد بين سحب أحلامها الناعمة، تسافر بها حول عالمه.. وتطوف معها في أوردته وشرايينه، ربما في يوم ما..

تصل لمستقرها بقلبه!..

استيقظتْ قبله، باكرًا قبل السابعة بعد نظرة خاطفة لشاشة هاتفها الصامت.. لم تألف بعد النوم في فراش قرب رجل فتلك أول ليلة، أول صباح وبداية حياة..

اعتدلتْ تتأمله، انقلبتْ على جانبها الأيمن تفرد كفها أسفل وجنتها وتراقبه، تستشعر هدوء أنفاسه جوارها، كان منكفئًا على بطنه، وجهه يقابلها، ذراعاه ممتدتان أعلى كتفيه، وكفيه أسفل الوسادة.. خصلاته مشعثة تكمل الصورة، تناسب حميمية المشهد الذي باتت بطلته..

خمس دقائق فاتتْ وهي غارقة فيه، في خشونة ملامحه واسترخائها حين نومه، عقدة جبينه التي انفكت ولحيته الكثيفة بعض الشيء..

خمس لم تكد تنتهي حتى سمعتْ همسته المستمتعة:

- كفاية كده ولا أفضل مغمض عينيا!..

أجفلتْ رُغم خفوت صوته، اعتدلتْ تبتعد عنه بتوبيخ خجول:

- صحيت إمتى!..

فرق أجفانه لتظهر نظرته الماكرة.. والغريبة!..

لم تظنه يجيد التلاعب وعبث الرجال..

ارتكن لمرفقه يساوي مقدمة شعره بأصابعه وبسمته تشاكسها:

- من حوالي تلات دقايق..

لامته بعينيها وركضتْ خارج الفراش تتلحف بالغطاء:

- وعرفت منين بقى إني...

- بتتفرجي عليَّ وأنا نايم!..

زمتْ شفتيها بغيظ لذيذ انتزع منه ضحكة هادئة مخطوفة:

- نَفَسِك كان بيقول إنك صاحية ووشك ناحيتي، يعني بتراقبيني..

أهدته بسمة سمجة ساخطة وغادرته إلى الحمام قبل أن تشج رأسه بشيء ما تجهله في هذا التوقيت..

في آليته يزعجها، ووقت بشريته يثير حنقها، لا أمور وسطى معه!..

لكنها تحت رذاذ الماء اعترفتْ أنها تحبه، في كل ثانية يتضاعف ذلك الحب كأنما يتوالد ذاتيًا، هو رجل يستحق عشقها..

بكلمة.. بهمسة..

بلمسة وقبلة امتلك بها عذرية الشفاه فالجسد وقد سبقهما القلب..

عندما أنهتْ حمامها وخرجت إليه كان يجلس في معيشة الجناح، يمسك بقائمة طعام أنيقة.. لتفطن إلى أنه قد أخذ حمامه بالفعل وينتظرها ليتناولا الإفطار سويًا..

تناولت منه القائمة تقرأها فاعترض:

- هاطلب فطاري اللي متعود عليه، ما تغيريهوش..

رفعتْ حاجبًا ترمقه من فوق قائمتها:

- اللي هو!..

مال يستند بمرفقيه لركبتيه فوازاها وبسمته تناوش ثغره:

- مش بتقولي حافظة عاداتي!..

تركتها من يدها بينهما على الأريكة، مالت بالمثل تجيبه بتحدٍ:

- عصير برتقال فريش بالعسل، شريحتين توست محمص، أومليت بالزبدة وأحيانا لما بتحب تعيش مغامرة بتاكل فول بالزيت الحار، بتحب الأكل الحراق.. وبعد الفطار فنجان قهوة مظبوطة..

كان يرمقها بدهشة، بينما تعدد على أصابعها إفطاره الروتيني المفضل، هي تحفظه كما قالت..

لم تفتعل الكلمة أو تدعي قربًا غير حقيقي!..

فرد كفيه لها في إيحاء بدعوة لتطلب وجبتهما، أنهياها بجو مشحون بعواطف متغايرة، حيث كان يخضعها لعينيه وتهرب.. تستغرب نظرته، إحاطته لها بها.. تطويقه غير المفهوم بسياج أجفانه كأنما يراها للمرة الأولى..

بعدما ارتشف قهوته كان دورها لتكتشف عادة جديدة لا تعرفها عنه!..

هو رجل كلاسيكي عتيق الطراز للغاية حتى أنه يقرأ الجرائد الورقية، طلبها خصيصًا فأتاه بها عامل الفندق لينال نفحة كريمة منه.. ابتسمتْ بعاطفة لا تريد كبتها أو تحجيمها:

- جرايد!..

لم يُزِح جريدته من أمام وجهه، جاوبها من خلفها بنبرة استشعرتها باشة:

- قديم قوي صح!..

أسندتْ ذقنها لقبضتها المضمومة وهي تعقد ساقيها فوق الأريكة، هاتفها بيدها تعبث به:

- مختلف..

لم تنتبه لنظرته التي عادت إليها، تركتْ الورق ورائحته ولونه الرمادي الباهت لتستقر عليها!..

طوى الجريدة فرفعتْ بصرها إليه ليباغتها بجذبة، سحبها بين ذراعيه، احتوى وجنتها بكفه وانغمس في مقلتيها الداكنتين كقهوته التي ارتشفها قبل دقائق..

استغربتْ فعلته وإن استكانتْ له ببساطة وتلقائية؛ كأنما جسدها خُلق ليحيا بأحضانه..

قربها منه، امتلك شفتيها حتى أنهك أنفاسها، ويداها تستقران فوق صدره، أبعدها ينظر إليها بغموض أتبعه بغمغمة مستفهمة:

- هتزعلي لو قلت لك المفروض نروح البيت النهاردة!..

نفتْ بهزة حائرة في محاولة لاستيعاب تقلبه، دفء اللمسة والقبلة، وعملية النبرة والسؤال الذي أوضحه:

- مش متعود أبعد عن واسل أكتر من ليلة، حتى لو كان مع أمي..

قطبتْ بتشتت، هل يظنها تريد امتلاكه لنفسها بالكلية!..

لا.. هو جزء من كُل، كُل يشمل صغيره الذي تعشقه بالمثل، طوقتْ عنقه وأراحت رأسها على كتفه:

- مش محتاج تسأل على فكرة..

تنهد بجدية مكترثة:

- لازم أسألك، ده حقك..

حركتْ كتفها ببديهية:

- المفروض تكون عارف الإجابة..

مط شفتيه بشبه بسمة وإن لم تتخلَ نبرته عن جديته:

- مش سبب كافي يخليني أتجاهل السؤال..

عقدتْ حاجبيها بصمت..

توقن أنه يرسي قواعد الحياة بينهما، يحسب بمعادلة كيف ستكون الأمور، وهي لا تريد تشتيت ذهنه عن حساباته المنطقية..

حسابات لا تناسب عبثية حساباتها هي، الخاضعة لأحكام القلب..

لذا اكتفتْ بالصمت عندما أردف:

- الحاجة هتسافر الاسماعيلية في المزرعة عند جدي، أنتِ عارفة صحته مش بتساعده يفضل لوحده كتير..

همهمتْ بأحرف مقتضبة:

- عارفة..

تحدث دون توقف فأحستْ كأنه لم يسمعها:

- يعني هنبقى لوحدنا برده..

عضتْ شفتها السفلى بخجل، لقد شطحتْ أفكاره بعيدًا للغاية عما يجول بعقلها!..

اعتدلتْ تقابل عينيه بوجنتين محمرتين:

- أنا مافكرتش في...

مسَّ ثغرها بسبابته يبتر احتجاجها:

- زي ما قلت لك؛ ده حقك..

ورقة وقلم ومسطرة..

قانون، قاعدة وخط سير..

خريطة لا تريد أن تضل في متاهاتها لكنها ضاعتْ في أرض عشقه من قبل وانتهى..

أفاقتْ من شرودها على لمسته تستحوذ على ذقنها برفق:

- كنا بنقول إيه بقى!..

هل يختبر شرودها وغفلتها عنه وفيه!..

ابتسمتْ ترد بلهجة محايدة:

- كنا بنتكلم إننا هنروح النهاردة..

رد بسمتها بمثيلتها وإن شابها خبث:

- لأ.. قبل كده..

استدعتْ المشهد من بدايته فلم تتذكر، حديثهما عن الجريدة ربما!..

فوجئتْ به يعتدل، يميل معها على الأريكة، يخبرها بذات البسمة الخبيثة:

- مش مهم.. أنا فاكر..

وكان يقصد القبلة.. العناق.. والامتلاك..

**

في لعبة الحياة؛ هو لاعب محترف.. خبير بالقوانين، يطوعها لأجل فوزه، ويسن تاليًا منها ما يتلاءم مع مستواه الجديد في اللعب..

عند البداية كانت تحكمه العاطفة، ينظر إليها بعين القلب، يترك للمشاعر ذراع التحكم، ويستجيب تبعًا لتوجيهاتها كلاعب مسيطر.. كان انفعاليًا، حادَ الغضب، تنفلت عصبيته بسهولة من لجام سطوة ثباته وهدوئه.. يدخل كل معاركه دومًا بكامل عتاده، ويفتح صدره بانتحارية حتى بعد انتهاء ذخيرته..

كانت حربه مبتدئة في غابة وحشية يمتلكها ذوو المهارة والخبرة..

لكن الآن!.. هو صياد، برتبة ذئب، قائد قطيعه من العالم بأسره..

لعبته تحولت لحرب تلزمها استراتيجية، تقنية عالية وخطة ذكية تهديه النصر، حرب يصارع فيها ضاريتين.. أحدهما داهية كثعلب، يجيد الصيد مثله تمامًا وبالتواء كُلي خادع.. مثير للقلق!..

والثاني أسد، يُقبل على معاركه بلا تردد، يخوضها باندفاع.. عيبه الغرور وإن كان هو الملك..

ينقض، يلتهم، يزأر، ويستحوذ على ما يريد بأقل معدل خسارة..

أما هو هنا فحليفه الخبث، لا يريد مواجهات عنيفة تحمل معها نهش المخالب والأنياب، بل يريد بابًا خلفيًا لنفق ظفره بما يشتهي..

وبابه الخلفي يستوعب أنه هدفه، كما استوعب هو كونه ثغرته!..

اجتماع مغلق، محدود بين حفيدي "أبو الغار" الشريك العتيد، ونجل "الديب".. المالك الأصلي الرافض للشراكة في عرش ملكه..

"الصفقة دي نسبة شركة أبو الغار منها مش هتقل عن 75٪، إحنا اللي هنستورد وهنكون مسؤولين عنها من بدايتها"..

زمجر بها الأسد في صرامة جعلته يستدير بوجهه إليه، ينحني جانب فمه ببسمة تفتعل الدهشة وإن لم تُخفِ السخرية:

- مش كتير شوية النسبة دي يا يزن!.. تمن الصفقة بالكامل على شركة الديب..

اعتدل "يزن" في مقعده بسيطرة لا تقبل الجدل مع شروطه:

- وأبو الغار شريك بالربع في شركة الديب، يعني جزء من الصفقة هنتحمله..

طرق فوق ملف ورقي على الطاولة العريضة بينهم:

- الصفقة دي ماحدش هيقدر يوفرها لك بشروط ولا مواصفات أفضل.. غيرنا، وده حصل بس عشان أسهمنا في شركتك..

رمقه "عمار" بنظرة غامضة بها من القتامة ما يكفي لإغراقه في عتمة أبدية، نظرة تعلن هيمنته وحده على مقعد قيادة هذه السفينة:

- fifty fifty ونوثق العقود، شركات الاستيراد مالية البلد يا يزن..

الثعلب صامت.. الأسد يهاجم، ولا يبدو أنه يهتم بمراوغة الذئب، لكنه وصل لما أراد..

ابتسم بهدوء ماكر، تراجع في جلسته وأعلن شرطه الحاسم:

- 65٪ ونقول مبروك..

الضارية المهاجم يفوز بالهدف في مقابل المحتال، يفوز بإرادة خصمه فهو ينتظر قنصًا من نوع آخر!..

قنصًا لا يجوز عرضه على طاولة المفاوضات بوضوح، قنص لابد من نصب فخه أولًا حتى وإن علمت طريدته أنه يجذبها إليه فتبعته بلا جهد وبرغبة تامة..

رحل "يزن" وبقي الاثنان، واحد يجمع الأوراق فهو لا يجاور أخيه الأكبر في سيارة، والثاني يتأمله بصمت حين وصله التعليق البارد:

- واضح إن أنت ويزن ما بتتفقوش..

مط "عمار" شفتيه وأمال رأسه دون اكتراث:

- طبيعي، دماغنا مش زي بعض..

ثم استقام يقترب من الواقف عبر الغرفة، يشاهده يعيد حاسوبه لحقيبته ويستقبل خطواته بنظرة مبهمة:

- الأسد عاوز يحكم الغابة، بس ما يعرفش إن الديب ما ينفعش يتروض، ما ينفعش يكون محكوم..

سكن "يعقوب" لثوانٍ معدودة، استقبل تلاعبه اللفظي وتشبيهه بشبه بسمة تحمل سَمته الصامت..

هو رجل قليل الحديث، ما لا يبالي به لا يجهد ذهنه في التعبير عنه بحرف!..

والواقف أمامه أدرك فحوى سكونه فتجاهل المشهد، ونقل كاميرته على مشهد آخر..

مشهد يهمه!.. اتكأ على الطاولة في شبه جلوس، عقد ذراعيه وتفحصه باهتمام مبتور:

- كويس إنك سافرت مع يزن ألمانيا على فكرة..

استقام "يعقوب" يشد قامته بحزم، ينتظر منه استطرادة توصله لهدف يعلمه مسبقًا، هدف لا يحب الالتفاف حوله لكن لمَ لا!..

إن كانت اللعبة تستحق..

استطرادته لم يتأخر فيها، غمغمها بنبرة غامضة:

- على الأقل تتعلم شغلنا ماشي إزاي!.. مش سهل الـ career shift، الناجح هو اللي بيقدر يتكيف ويتعايش في أي مكان..

بسمة هادئة ناوشت شفتي الثعلب، بها من اللؤم والاستمتاع ما بها، عاد لمقعده يستريح فوقه بأناقة:

- عملت تحرياتك طبعا..

- مؤكد..

نطقها "عمار" بحسم صارم، اختار بعده مقعد قريب يجاوره فيه، يواجهه والكلمات تشكل بينهما مقطوعة متناغمة من لعبة الحياة وحربها:

- تفتكر هاسمح بوجودك في المكان ده من غير ما أكون عارف عنك كل حاجة!..

لم تتبدل ملامح "يعقوب" مثقال ذرة، ظلتْ مصمتة بلا انفعال محدد، وإن كانت نبرته تستهين:

- ويا ترى وصلت لحد فين!..

تراجع "عمار" بظهره يرتاح في مقعده، يمدد ساقيه ويعقدهما باسترخاء:

- وصلت لكل اللي يهمني، من الألف للياء..

وبرقتْ عيناه بوهج ربما يرعب الآخرين في العادة، من هم سوى الجالس في مقابله:

- من كاراكاس لحد لاريسا!..

- هايل..

ذات الملامح الفارغة، النظرة الخاوية، لا شعور.. لا غضب.. لا دهشة..

رجل يجيد الكتمان، ويتقن التخفي، جلده الخارجي يحجب دواخله بصلابة حتمية، ولا يكترث إن علم عنه كيف كان جنينًا يسكن بطن أمه!..

كان الذئب يراقبه، يدقق في وجهه، يتفحص نظرته، ينتظر.. وكما يرى فانتظاره دون جدوى، لذا عاد لنقطة البداية:

- المهم زي ما قلت لك، كويس إنك بتتعلم، وبتقرب..

مط "يعقوب" شفتيه بلا مبالاة:

- الحياة فرص..

أشار إليه "عمار" بسبابته في انتصار:

- صح، والذكي هو اللي بيخطفها ويستغلها..

وافقه جليسه باقتضاب ملول:

- فعلا..

نهض عقبه في إيحاء للرحيل:

- لكن الداهية هو اللي بيخلقها، ويطوعها..

نطقها وحدقتاه تتقدان بجحيمه الحي أبد الدهر، أبد الأنفاس ونبض مضخة القلب..

جحيم لن ينتهي أو يزول حتى وإن زال من منحه شرارته الأولى، تبعه "عمار" يواجهه في وقفته، تتلاقى الأبصار في نزال خاطف..

تتوافق على لعبة، لها قوانينها التي يستنها كل منهما تبعًا لأهوائه، لرغباته، لأهدافه:

- وأنت بقى خطفتها، ولا.. خلقتها!..

جذب "يعقوب" حقيبة حاسوبه.. تملك منها بيسراه بينما يمناه تشرح كلماته بحركة دائرية:

- أنا لاعب بيقدر يوزع تركيزه على كذا هدف..

واصل شرحه وأصابعه تنقبض بغتة كأنها فخ انطبق على فريسة صعبة المنال:

- باخلق فرصتي في المكسب بإيدي..

شد جسده بختام يليق به:

- ولما بتتقدم؛ ما باترددش لحظة إني أخطفها..

بسمة الذئب كانت منتشية بفحوى الحوار، بوجهته، بتراكيبه وتلاعبه.. هو يتلذذ بتلك اللعبة، وباللاعب الخصم:

- اللعب كده معاك ممتع..

- معايا آه، ضدي لأ..

لاحقه بها "يعقوب" باترة، شرسة دون اضطراب أو اختلاج صوت، صقيع نبرته لا يذوب، وتوازن أفكاره لا يختل حين أكمل:

- دايما الطرف التاني بيخسر..

- أنت ما بتقبلش بالخسارة!..

- مش في قاموسي..

تراشق بالكلمات كأسلحة خفيفة، تجد هدفها وتصيبه بلا نسبة خطأ..

أشار له "عمار" في دعوة للرحيل، جاوره في خطواته يوصله لباب المصعد متممًا حديثه براحة غريبة تناوش أحرفه، تمر معها فوق حد

سيف ثالم لا يمكنه قطع عنق الحكاية، لكنه يستطيع ضغطها وتحويلها لناحية تناسبه:

- تعرف الحكمة اللي بتقول مصائب قوم عند قوم فوائد!..

نال نظرة جانبية تعني الإيجاب، أردف بهدوء مسيطر، نهائي لا تليه خاتمة:

- دي بقى.. فرصتي أنا، اللي ناوي أستغلها لحد آخر نقطة..

توقفا عند المصعد، ضغط "يعقوب" زره وانتظر معه بتعليق مقتضب، يحمل بين أحرفه الثلاث كل الخطة القادمة:

- حقك..

ثم التفت إليه بوجهه في تعبير أقرب لأحجية تنقصها قطعة الحل الأخيرة، قطعة مفقودة لن يجدها مهما فتش عنها:

- فرصتك ولازم تسرقها..

وصل مصعده فدخل إليه بخطوتين واسعتين، يستدير ليواجه مضيفه الذي منع بابه من الانغلاق بكفه:

- ماتسميهاش سرقة، لفظ مش شرعي..

رفع "يعقوب" رأسه ينتظر التتمة التي أتت بعد تراجع، تحرير الباب فانساب يُقفل ببطء اخترقته جملة الغاية النهائية من "عمار":

- سميها قنص، وكلنا بنحب الصيد..

في الغابة، تؤكل الفرائس..

والضواري وحدها تفوز!..

**

ليلة تقليدية مملة تقضيها وحيدة، حيث صغيرها بصحبة مربيته في منزل عائلة أبيه لعطلة نهاية الأسبوع كما هي العادة..

وقتها توزعه بين تلفاز سقيم، فيلم قديم كما تفضل، هي تحب رقي فئة الأبيض والأسود وإن كانت حبكاتها غير مقنعة أو سخيفة أحيانًا، فليست كل الحكايا تنتهي بثوب الزفاف ثم تنزل كلمة النهاية مع قبلة سطحية.. هاتفها بيدها تعبث به، تتنقل بين حساباتها على مواقع التواصل المختلفة..

تنشر صورتها مع صغيرها، أو رجُلها كما تسميه.. ترتشف آخر قطرات قدح البابونج الدافئ، وتقرر أن تبتر الليلة بنوم متقطع، نوم لم تكد تعزم عليه حتى سمعت جلبة خارج عتبة باب بيتها!..

ولأنها امرأة نادرًا ما ترتبك فقد تقدمت من الباب بخطوات ثابتة وإن لم تمنع توجس قلبها، فتحته بحذر لتجده!..

المستغل برتبة خائن متردد، حائر بين أرض الخطيئة وسماء المثالية، معلق ككل بشري، يختنق بحبل يتأرجح به بلا هوادة حد الاختناق، دون ثبات فعلي أو خيار حقيقي.. "موسى"..

من أتاها يفتش عن خيانة منحته خيط بدايتها فأسقطه من يده، ليلتها بتر القبلة، تراجع يبتعد.. يتنهد ويزفر حيرته وتردده، حينها استقامتْ من جلستها، وبوجه هادئ أمرته بالرحيل..

كانت قبلتها اختبارًا توقعت فشله فيه، وفشل..

والآن يعود!..

رأته يفرك عينيه، يرمقها باستغراب، يجاهد للحفاظ على توازنه، ثم يدمدم بسخرية:

- نيروز دي أنتِ!..

بعدها ضحك ليستوضح:

- ولا أنا سكرت؟..

تقدم خطوة جديدة ، كاد يسقط على إثرها فأمسكتْ به بأعجوبة، كانت تدعم جسده الثقيل بعسر، لا تدري ماذا تقول!..

الآن يظهر على عتبتها مجددًا، وهذه المرة كان ثملًا ضائعًا كأن هذا ما ينقص الصورة.. زمتْ شفتيها وتركته يستند إلى كتفيها بذراعه:

- أيوة دي أنا.. وأنت فعلا سكران يا موسى..

رفع ناظريه إليها يسألها ويضحك:

- بجد؟.. أنا سكران!..

فتح عينيه.. أغمضهما وما بينهما نفاذ طاقة:

- أنا نايم.. بنام خلاص..

زفرتْ بحرارة واتجهت إلى غرفة نومها:

- طيب حاول تمشي معايا..

تحرك معها تقوده بصعوبة حتى الفراش، بمجرد أن لمحه شعرت باسترخاء جسده أكثر، تركته يلقي بنفسه ليستلقي فوقه بينما قدميه لم تفارقا الأرض بعد، غاب عن الدنيا وفقد اتصاله بالواقع..

رمقته من وقفتها بشبه غضب، تنهدتْ باستسلام وهي تلمح بلل ثيابه بأي ما كان يتجرعه حد الغرق والضياع كما يبدو..

أحمق يفتش عن نجاة في الغياب..

كأن الغياب شافٍ!..

انحنتْ بملل تخلع حذائه، سرواله وقميصه.. ترفع قدميه للفراش وتدثره بغطاء خفيف كطفل، أطفأتْ النور وغادرتْ الغرفة تضع ما بيدها في المغسلة حتى يفيق وترى ما الذي عاد به لمنزلها ثانية!..

قضت ليلتها بغرفة صغيرها، ظلت تتقلب بأرق حتى غاصت في نعاس متعب، فلأول مرة منذ دهر يشاركها هواء بيتها..

رجل!..

في الصباح الباكر استيقظتْ كعادتها، دخلتْ لغرفة نومها لتجده على ذات الوضع منذ تركته.. التقطتْ ثوبًا من الخزانة، أنهتْ حمامها اليومي وارتدته تشمر كُميه حتى المرفق، جاورته على طرف الفراش تنتظر إفاقته التي بدأت بالفعل..

فتح عينيه بمشقة، رأسه متعب ثقيل كما يبدو، ونظرته أخبرتها...

هذا ليس منزله!.. هي إلى جواره!..

إلى جواره وهو بالكاد يرتدي شيئًا!..

انتفض لينهض وعيناه تفتشان حوله عن تفسير، سألها:

- إيه اللي حصل!..

آخر ما يتذكره هو أنه كان في ملهى ليلي يتجرع الخمر، الكثير منه:

- أنا جيت هنا ازاي؟..

تغافلتْ عن حروبه الداخلية التي تجهلها، تراجعتْ برأسها وبسمة متلاعبة تخط حضورها فوق شفتيها، افتعلتْ الضيق واعتدلتْ توبخه:

- إيه اللي حصل!.. معقول يا موسى؛ هو أنا ست تتنسي بالسهولة دي!..

استقامتْ تترك جواره، تواجهه بوفقتها وتعقد ذراعيها:

- كنت فاكرة الليلة دي هتفتكرها للأبد..

بعدها ادعتْ الحزن:

- تؤ تؤ.. زعلتني..

هز رأسه بنفي، بعدم اقتناع أو برفض، تراه لا يصدقها:

- نيروز ماتهزريش..

كرر سؤالها بجدية، نظرته تحذرها ألا تتلاعب بالكلمات كما تفعل في كل مرة:

- إيه اللي حصل امبارح؟..

ابتسمتْ ببساطة وعادت لجلستها الأولى:

- مافيش.. فتحت الباب لقيتك، هدومك كانت مبلولة بالبيرة.. دخلتك السرير وأخدتها تتغسل لحد ما تصحى..

تحولتْ البسمة لاستخفاف:

- ومن ساعتها وأنت نايم زي البيبي..

ابتسم بانفعال مكبوت، اعتدل بهدوء يواجهها ساخطًا من تلاعبها، قبض على ذراعها بقوة ولسانه ينطق بإيقاع ثابت، يناقض نظراته الغاضبة:

- بتحبي اللعب أنتِ..

أمسكتْ بأصابعه تفكك قبضته، تزيح يده، وعادتْ لها بسمتها الماكرة:

- وأنت ما بتحبش!..

تنهد، أسدل ستار جفنيه لثوان.. فتحهما، هو متعب حد أنه قرر تجاهلها، استفسر بعدما رمق جسده بنظرة أظهرتْ ضيقه:

- فين هدومي؟..

أجابته بسلاسة:

- في الـ dryer..

ونهضتْ بلهجة حازمة، شبه آمرة مشيرة لباب جانبي:

- قوم خد شاور، والبس أي برنص جوا على ما أعملك قهوة.. محتاجين نتكلم..

قالتها وتركتْ له الغرفة، اتجهت لمطبخها الأنيق، أعدت قدحين من القهوة وانتظرت مجيئه، لم يتأخر.. بعد دقائق كان يواجهها، يتناول منها الكوب، يجاورها على أريكة واسعة ويسأل باهتمام هامس:

- أُمال آدم فين!..

أمسكتْ بقدحها الضخم من النسكافيه، تسترخي في جلستها:

- بيقضي الويك إند مع جده وجدته..

طوتْ إحدى ساقيها أسفل الأخرى واحتوتْ الكوب الساخن بكلتا كفيها، ارتشفتْ منه ببطء متلذذ قررتْ بعده الإمساك بزمام المبادرة:

- يا ترى عارف المرة دي جيت ليه يا موسى!..

وتأملته بنظرة غامضة:

- عارف عاوز إيه ولا لسه بتدور!..

رفع عينيه نحوها في هدوء، بطء.. وتفكير شارد..

تراقب هي شروده بتدقيق، بتمعُن.. لا تدرك مدى حيرته؛ لكنها تراها عميقة، ثقيلة.. متعبة، لا تفهم لها سببًا ولا تكترث بالبحث في خباياه، بدأ يسرد لها بعض التفاصيل:

- أنا يمكن ماجيتش وأنا في وعيي..

انتظر قليلًا قبل أن يخبرها:

- بس أفتكر إن جوايا حاجة بتزقني أكون هنا!..

رمقته بذات النظرة المبهمة وسؤالها المقتضب يصر على جواب مباشر وصريح:

- حاجة إيه بالظبط؟..

دس يده في خصلاته يبحث عن جواب من أعماقه، جوابٍ فهمت أنه يريده قبلها لأجله، عندها ربما يصل لنهاية سعيدة..

السلام ربما!.. كأن على الأرض هناك سلام..

جوابٍ فظنت أنه لا يملكه فاختار المراوغة:

- قهوتك مميزة يا نيروز..

نطقها بإعجاب، وفي الهروب درب آمن للغاية!..

حافظتْ على صمتها لدقيقتين كاملتين، تتأمله من خلال الدخان المتصاعد من القدح بين أناملها.. تشعر بغضب يتسلل إليها قويًا عنيفًا..

لا تحب الالتفاف حول الحقائق.. لا تحبذ التورية أو الدوران والتَمَوُه، وهروبه يثير بنفسها الغيظ..

تكره الجبن.. وبشدة، هو هنا يخشى مواجهة نفسه بالحقيقة الوحيدة التي يتيه في دوامتها..

ارتشفتْ رشفتين متتاليتين ثم وضعته على الطاولة، استندتْ ترفع ذراعها على ظهر الأريكة ونظرتها تسبر أغواره بدهاء:

- الهروب جميل ومريح.. مش كده يا موسى!..

أمالتْ رأسها إلى ذراعها المرفوع:

- نفضل نلف وندور عشان المواجهة صعبة، وأنت ما بتحبش الحاجة الصعبة.. صح!..

صريحة.. قاسية ولا تبالي، ما ترغبه شيء، وما يفتش هو عنه شيء آخر.. لكنها لن تكون مصب حيرته وضياعه، سمعته يعاند بخبث:

- عن تجربة الهروب أصعب بكتير..

اقترب منها بوجهه محافظًا على هدوئه وبسمة شفتيه التي أعجبها مذاق قهوتها:

- الهروب.. حرب..

الهروب جبن، وهي اعتادتْ القتال بلا هوادة:

- بتحارب أوهامك ومخاوفك..

هاجمتْ هجومه ومالتْ إليه باقتراب أشد من اقترابه:

- بتحارب نفسك، والنتيجة أنك ما بتطوِّلش على أرض المعركة كتير..

ابتسمتْ بسخرية:

- عشان الانسحاب وإعلان الاستسلام بيديك فرصة تماطل، بيديك وقت أطول ترجع تحارب فيه روحك تاني..

وهزتْ كتفيها برفض متضايق:

- وهي هي نفس الدوامة..

ناظرها بإعجاب استغربته لكنها كتمتْ دهشتها؛ هل بات يعجبه أنها تجيد الطعن!.. تمسك السكين بمهارة وتصيب قلب الهدف!:

- جايز..

يعلن ببعض استسلام لها ويغرق في دوامة قصيرة من الشرود:

- بس مش يمكن الروح تستحق الحرب دي!..

مطت شفتيها ببديهية:

- كل روح تستاهل تحارب عشانها، المهم توصل بيها للسلام..

وصمتتْ لحظة شاردة بالمثل:

- سلام روحك فين يا موسى!..

لم يعجبه السؤال، ومسلك الحوار الذي طال، لا يجب أن يكون محور حديثهما أو أي حديث كما أخبرتها عيناه!..

عاد يراوغ ببساطة:

- على فكرة الهروب مش وحش قوي كده..

أحنى عنقه يدنو منها، يفصل أنفاسهما مسافة قصيرة:

- نصيحة ليكِ.. جربيه..

بدأ يناوشها ببداية قبلة:

- يمكن تدمنيه زيي وما تقدريش تبطليه..

يتعمق بقبلته، ينتصر الهروب رغم محاولاتها لوضعه على جبهة حرب ليس أهلًا لها.. تركتْ له شفتيها دون استجابة للحظات دفعته بعدها تبعده، نظر في عينيها باستفهام..

كانت حائرة.. حيرة غريبة وجديدة عليها..

وبسبب رجل!..

لا.. بسبب حيرته هو، لقد نقل إليها العدوى..

رفعتْ كفها تلامس وجهه، تمر بأناملها فوق وجنته الخشنة ومنها إلى فكه وذقنه النامية.. تبتسم بذات الحيرة وهمسها يجاور أنفاسها قرب شفتيه:

- ما بحبش أهرب.. بحب أواجه، وأنتصر..

تتمسك بسيطرتها على الموقف، وكما توقن سيطرة هو لا يبحث عنها الآن من ناحيته.. تفطن إليه، يشتهي أن يسلك درب الهروب الذي تمنعه عنه، تقف بينه وبين بدايته!..

لكنه يتشبث به لآخر نفس:

- هروبي هو انتصارك يا نيروز..

يمنحها حقيقة..

أليس هذا ما أرادت من البداية ورفضه هو بكل تحدٍ!..

أعجبها ما قاله..

لكن هل يدرك أن ما يفعله في كل مرة هو نصف هروب..

نصف انتصار..

والنصف.. ذاك مذاق تكرهه!..

- أنت بتحاول تهرب بس بتقف في نص الطريق، محتار، خايف.. رافض!..

نقرتْ ذقنها بسبابتها قبل أن تخبره بصراحة وقحة:

- أنا عاوزة منك مجرد علاقة يا موسى، مشاعرك وحيرتك حاول تدفنهم بعيد عني..

مسَّتْ وجنته بشيء من قوة:

- ما تدخلنيش دوامتك اللي أنت تايه فيها..

تهديه البداية الصحيحة، وعليه أن يختار..

إما أن يبقى ويحصل على وصم الخيانة كما تراه يستحقه أو يبتعد عنها بدوامته الغبية، والنتيجة إلى الآن دون حسم..

يغرق في ضلاله بقرار مشتت:

- جربي تدخلي الدوامة معايا، يمكن تبلعنا سوا..

تنهدتْ وابتعدتْ بغتة:

- تفتكر هترتاح وقتها!..

بعدها قررتْ المجازفة بزمة شفاه ونظرة قاسية:

- موسى.. أنا جربت الخيانة قبل كده..

وشابتْ القسوة نبرتها تاليًا:

- طعمها مش مغري زي ما أنت فاكر..

ثم عادتْ ترنو إليه في شبه شرود:

- أول حد بتأذيه وتخسره.. أول حد بتكسره؛ هو نفسك..

ومن خلف نظرتها الشاردة أكملتْ بلهجة خاوية:

- الخيانة حد فاصل، مافيش بعده رجوع للشخص اللي كنته قبلها.. حتى لو اللي خنته سامحك وكمل معاك..

تحذره، يشرد، يتجاهل، يهرب من أرض معاركه إلى أحضان الخيانة بصحبتها.. لا تستوعب ما يجري بينه وبين نفسه أو زوجته التي تحمل مسمى صديقة مع مرتبة الاستغلال.. لا تريد أن تعرفه، تلك التفاصيل لا تخصها والجهل إرادتها..

أعلن هو إرادته بوضوح في قرب من شفتيها يتجدد، وتوافقه هي عليه تلك المرة، يميل معها فوق الأريكة، تتعثر أنامله في طريقها إلى أزرار ثوبها..

لوهلة ظنته سيبتعد.. ينجو بنفسه من ذاك المستنقع الضحل الذي كلما حاولت الهروب منه غرقتْ أكثر..

لكنه فعلها وأخذ الخطوة الأولى..

ها هي قدمه تتحرك للأمام، تغوص بالوحل، خطوة، خطوة ثانية..

قررتْ الغرق معه، بادلته اللمسة باللمسة..

يكشف جسدها فتفعل بالمثل، تجذبه إليها وتتشبث به..

يريدها!..

وتريده.. والمعادلة ناتجها صحيح، خالٍ من الكسور..

دقائق من المتعة المسروقة.. المحرمة..

دقائق من الخطيئة..

لكنها لا تبالي..

مع شغفه الغريب غير المتوقع تجاوبتْ أكثر، أظافرها خدشت جلده وهمستْ باسمه تتلهف قرب الامتلاك بينما تخضع للمساته بتوق..

لكن انغراس أظافرها كان بمثابة صفعة إفاقة كما يبدو!..

فتح عينيه بغتة، تصلب لثوان يستوعب فيهما الحدث وهي لمحتْ جموده، شرود بصره كأنما كان في حلم وأفاق منه بلا مقدمات.. فطنتْ لمغزى النظرة بحدقتيه، لابتعاده.. وأيقنتْ أنها كانت مجرد دُمية لخيالاته عن أخرى!..

عن زوجته التي أراد خيانتها..

مع الطعنة التي لم تنل من أنوثتها مسبقًا تأجج سعير سخطها، وشعور بالإهانة يحرق دواخلها..

تراجع في نهوض فاتر، جاورها بالأريكة بعدما أحكم رباط المئزر، واعتدلت هي كذلك تغلق أزرارها المفتوحة بفعل يده حال غيابه عن وعيه في سراب أوهامه الخاص..

تغلقها بأصابع أرجفها الغضب، تساوي خصلاتها المشعثة بسببه وأنفاسها تتقطع بهياج مكبوت..

تنهد هو يزفر أنفاسه المحبطة.. استقام يمرر يده بين خصلاته، يدور ويلتف حول نفسه، على يقين أن أفكاره تتيه في حيز فشل..

استدار للخلف ليصطدم بنظراتها الجحيمية، بادر بأسف:

- نيروز..أنا...

قبل أن يكمل ما تظنه اعتذارًا فارغًا عن دهسه لأنوثتها حدثتْ الصفعة، كفها ارتفعتْ بحدة، بلا سابق إنذار لتثأر لنفسها منه.. من استغلال، بل استغفال حدث للتو فوق جسدها الممتهن..

بدلتْ صفعتها ملامحه من الأسى للاحتراق، من الندم للعصبية.. تحركت يده لتقبض بعنف على يدها التي تجرأتْ بصفعه:

- لولا إني عارف إنك عندك حق تغضبي؛ كان هيكون ليَّ تصرف تاني..

نفضتْ يده عنها بامتعاض وملامحها كلها ثائرة:

- لأ.. دي حدودك يا موسى..

وبصقتْ الحقيقة في وجهه كصفعة ثانية:

- ما تحلمش تكون أكبر من كده..

خطتْ بهرولة إلى غرفة جانبية، اختفتْ داخلها لبضع ثوان عادتْ بعدها تلقي بثيابه في وجهه:

- اطلع برا.. ولو فكرت تيجي هنا تاني هاقول لمراتك على حقيقتك الوسـ...

التقط القطع من الأرض ليرتديها على عجالة، والعصبية تختطف ملامحه في ثورة يكبتها، تناول أغراضه وتحرك باتجاه الباب..

فتحه ليتفاجأ بزوجته أمامه!..

زوجته عند منزل صديقتها تتأمله بصدمة، تنقل بصرها بينه وبين سيارته المصفوفة قربه، تدمع عيناها المركزتان على فوضوية ثيابه التي توثق خيانته لها!..

- ميرهان!..

يناديها وتتوقف الكلمات..

أمسكته متلبسًا بجريمته، فكيف سيدافع عن نفسه!..

يقترب منها أكثر، الآن جمود الصدمة يزول، تبدأ الدمعات في السقوط، والخائنة بتقدير امتياز مع مرتبة القسوة واللامبالاة تراقب من الخلف، تنتصر الشماتة بقلبها..

الصغيرة مسكينة.. نحن لا نفيق على الوجه الحقيقي لمن نعاشر إلا بعد ألم، صفعة موجعة، وصدمة قاصمة.. راقبتها تتحرك للوراء بخطوات باكية مستنكرة وبطيئة تناسب حالتها.. أوقفها هو:

- ميرهان.. أنتِ فاهمة غلط...

صرختْ بوجهه، دفعته، نطقتْ بكل نفور ممكن:

- ماتنطقش اسمي على لسانك..

تحركتْ تحتل بطولة المشهد دون اكتراث فتوجهت نحوها المطعونة بنبرة لائمة:

- أنتِ كنت صاحبتي..

ترتفع نبرتها من حيز الضياع لصخب الواقع، تطرق على جبينها بانهيار تراه عليها للمرة الأولى:

- كالعادة حمارة وباتخم في الناس..

فالطعنة لا تأتيها إلا من كل من وضعته بمنزلة قريب!..

لم تنتظر ردًا، وقت الانتظار قد فات مع موت التوقعات، استدارتْ لترحل فحاول "موسى" منعها مكررًا:

- أنتِ فاهمة غلط..

أبعدتْ يده عنها في رفض غاضب للمسته، هزتْ رأسها من بين دموعها بسخرية من حالها:

- قصدك كنت فاهمة كل حاجة غلط..

هرولت بعيدًا ليعترض طريقها ثانيةً تحت نظراتها المنتشية بحقد، صرختْ بلا احتمال:

- ابعد عني وإلا والله هاعملكم فضيحة هنا..

ابتعد من أمامها مجبرًا ليفسح لها الطريق، بخطوات عاجلة أشبه بالركض فرتْ.. ظل على وقفته المتجمدة يراقب رحيلها المنكسر

حتى غابتْ في الأفق، وهنا أتت حقيقة جديدة في صفعة ثالثة من ورائه والنبرة ساخرة.. شامتة.. فظة، لا تأبه لما حدث قبل ثوانٍ:

- تستاهل تخسرها..

تجاهلتْ التفاتته ونظرته النارية وهي تردف بشراسة:

- المفروض تكون عارف إن ميرهان كتير عليك..

وخطتْ تصفق الباب في وجهه بتصريح أخير:

- كتير قوي..

هل ثأرت لكرامتها وأنوثتها!..

لا.. لم تكتفِ بعد..

لكنها في هذه اللحظة تحتاج لهدنة، لصمت.. فالبريئة لا ذنب لها كونها سقطت بين أنياب وصولي مستغل، وأفعى مثلها..

أفعى لا تغرس أنيابها لتقتل؛ بل تلتف حول الفريسة ببطء حتى تختنق!..

**

هناك قلوب تظل على العهد مع مشاعرها المكسورة..

وفية، مخلصة.. لا يسهل عليها التملص من الألم أو الفرار من الوجع..

أرواح كلما غرقتْ في الخسارة ازدانتْ بالمنح..

طفلة تشعر باليُتم، بالوحدة، بالاشتياق لأم رحلتْ عن عالمها بغتة كما علمتْ.. طفلة لا تتكيف بيُسر مع الفقد.. لا تجيد آلية التعايش، أو تفهم معنى الاستمرار..

طفلة حزينة ترفض قرب كل البشر حتى أبيها الذي انفطر قلبه عليها والعجز يكبله، فلا يملك ما يقدم به علاجًا لهزال نفسها وضعف روحها..

مر ما يقرب من شهر ونصف وهي مع الصغيرين، بدأتْ بساعتين يوميًا، والآن باتت ثلاثًا.. الفتى تقرب منها، صادقها، أحبها.. تعلق بها.. والفتاة!..

"ضي".. اللغز الصعب الذي لن تستسلم في مواجهتها معه..

تحتد مرة، تتباعد أخرى، تغضب، تكسر شيئًا ما.. تهرب، ترفض.. وتراقب!..

تراقب من مسافة غير بعيدة في صمت..

هي لا تدفعها للاقتراب، ولا تقترب بالمثل، تترك لها مساحتها الخاصة، حريتها في اتخاذ القرار.. تغويها بألعاب توقن من أنها تجذب انتباهها، تتماشى معها.. ومع أخيها الشغوف بالتعلم واكتساب المهارات المختلفة..

كان فتىً ذكيًا تمامًا كشقيقته الكبرى، الشقيقة التي اكتفتْ فجأة من التباعد، ونهضت من جلستها المراقبة لتمنعه بفطنة:

- ما تحركش الفارس يا باهي، دي حركة غبية.. القلعة هاتها هنا..

ونقلت قطعة الشطرنج لمكانها على الرقعة، نقلة أهدت الصغير -الخجول من سُبتها الضمنية- بداية نصر بينما تبتسم هي بسماجة لمعلمتها:

- checkmate..

رفعتْ "رحيل" حاجبيها لثانية خاطفة، حافظت بعدها على استرخاء ملامحها وحنو نظرتها وابتسامتها، تهديها بتعقيبها اعتزازًا بنفسها:

- برافو يا ضي..

والتفتْ في جلستها بجذعها تقابلها، العين في العين، النبرة هادئة عميقة لينة، والسؤال مهتم:

- اتعلمتِ اللعبة من غير مشاركة؛ إيه رأيك نلعب سوا!..

أمالتْ الفتاة رأسها بزمة شفاه لامبالية:

- no, thanks..

استقامتْ "رحيل" تغادر مقعدها، تجلس القرفصاء أمامها، تحثها برفق مهتم:

- ليه!.. أنا متأكدة لو لعبنا هتغلبيني..

تراجعتْ "ضي" خطوة عن مرمى حنانها الذي تريده وتبغضه بذات اللحظة..

هي فقط تتوق لضمة من أمها، لا تبحث عن أم غيرها.. لا تريد سواها:

- أنا كمان متأكدة؛ بس مش عاوزة ألعب معاكِ..

وركضتْ كما العادة، أكلتْ الدرج بخطوات متوثبة إلى أن اختفتْ عن ناظريها، حينها ظهر أبيها من خلفها بتقرير حازم:

- أظن ضي محتاجة عقاب..

كادتْ تنتفض مع حضوره المفاجئ دون تنبيه أو حتى نحنحة، استدارتْ إليه بثبات حاسم تحتج على تدخله:

- لأ يا وجيه بيه، من فضلك.. ضي مهمتي أنا، وقت ما أعلن فشلي حضرتك تقدر تتدخل.. قبل كده لأ..

رمقها بنظرة مستهجنة، هي رُغم مرور شهر ونصف لم تُحرِز معها تقدمًا ملموسًا أو واضحًا لعينيه:

- أنتِ شايفة إنك لسه ما فشلتيش معاها!..

رمشتْ بحرج لوهلة..

قررتْ عقبها مجابهته مثل طفلته العنيدة التي يبدو أنها ورثتْ عنادها منه:

- لسه حضرتك، مش سهل أستسلم للهزيمة خصوصا وأنا عارفة طريقي للنصر..

رفع حاجبه باستهانة صريحة أغضبتها فاحتدتْ بعض الشيء:

- لو حضرتك شايف إني مقصرة في شغلي تقدر...

- أكيد مش هارفدك من شغلك يا مدام رحيل..

عقدتْ ذراعيها قبالة صدرها بحزم مماثل:

- ده اللي لازم تعمله لو فشلت من وجهة نظرك..

مط شفتيه ببساطة ضاعفتْ من غيظها:

- باهي بيحبك..

وقبل رد منها عاجلها بقصف باتر:

- لكن باهي طفل سلس، بسيط وعاطفي.. تقدري توصلي لقلبه بسهولة، عكس ضي..

ثم توجه بعينيه الشفافتين حيث اختفتْ قيد ألمه، طفلته:

- ضي كلها أنا، وأنا.. لما باقسى ما بارحمش..

أرجفتها كلماته، نبرته.. نظرته وغيابه الغريب فيما تجهل، غيابٌ لا يهمها البتة حتى وإن استشعرتْ ما وراء تلك القسوة..

وراءها وجع فاق حد الاحتمال والصبر وأمان النفس!..

تغافلتْ عن أفكارها وابتعدتْ عنه ببصرها:

- أنا هازود ساعة كمان بعد إذن حضرتك، عشان ضي..

انثنى فمه بسخرية لمحتها فأردفت باستياء:

- والوقت مالوش علاقة بمرتبي..

- وقتك اللي بتقدميه لولادي مش هدية أو منحة منك يا مدام رحيل، ده شغل.. والشغل مالوش علاقة بالعواطف..

مُلمحًا لعاطفة القلب المكسور، الغريزة غير المشبعة أبد الدهر..

أمومة هي فطرة الروح، وفقْد كان قرار القدر..

شدت قامتها في جمود توازيه:

- تمام، اللي تشوفه حضرتك..

ابتعدتْ تجاه ابنه الذي يجلس في مقعده، يتأمل رقعة اللعب بعين مهتمة.. ويدرك خطوات مكسبه قبل الخسارة..

لم تعلم أنها كانت تطوف في مدار مشتت بعقل الأب، الذي انتبه للتو مع بهوت وجهها وعينيها جوار كلماته..

هي امرأة مكسورة.. وفي كسرها ذاك جبرًا لهشيم أطفاله!..

**

هو رجل سيء في كل شيء..

وفي العاطفة؛ هو الأسوأ!..

يجيد القسوة متى شاء؛ لا.. في الحقيقة هو لا يجيد غيرها..

رجل لا يبالي إن أطفأ الشمس، شرط أن يكون وحده من يحولها لنجم ميت، راحل بلا أثر..

يومان.. ثلاث.. أربع..

منذ ليلة الزفاف بعدما أحبطها وهي مختلفة، متغيرة..

لم تعد تتحاشاه، لا تختفي من حضوره بهروب..

بل بات التجاهل هو سمة الفعل ورد الفعل..

تراه، تمر من أمامه، تطوف في مداره بلا اكتراث، ترميه بنظرة مبهمة، لا تفر من عينيه ولا تخشى قتامة نظرته..

وذاك سلوك جديد لم يألفه معها.. سلوك يعجبه!..

الأرنبة اللطيفة تخبره أن أنياب ومخالب الثعلب لم تعُد ترهبها، فقد نالتْ منها الأقسى..

شمسه الغاربة تشرق من حوله، لا تحجب نورها أو حرارتها عنه كأنما تبغي إحراقه..

كأنما تريد إجباره على فتح عينيه والنظر إليها إن استطاع!..

تتحداه وقبل هو التحدي.. فلنر من ينهزم أولًا!..

عطلة نهاية الأسبوع، لا عمل.. رياضة صباحية روتينية، قهوته وإفطار خفيف يصر على صنعه بنفسه..

ثم حان دورها في الالتهام..

لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة كانت فيها معه، وقليل من مرح ثعلب مع أرنبته الصغيرة لا يضر خاصة والملل يملؤه مؤخرًا..

ثأره؛ خطوة واحدة أخيرة ويفوز بشيء من راحته المنشودة..

هذه الخطوة تأخرت لكنه لن يتراجع دونها.. سيمزق جسد الأفعى ويحرقه مادامت الرأس مختفية بجُبن..

وقف صامتًا على باب غرفتها، بصحبتها ابنها ومربيته العجوز التي لمحته أولًا فتوترتْ كعادتها..

تلك المرأة ينتشي بمظهره في مقلتيها؛ لقد نبت له فيهما قرنا شيطان بالفعل..

استقامتْ تحمل الطفل الذي رمقه بنظرة لامعة من فوق كتفها.. نظرة ودود تخبره أنه يحفظ ملامحه.. نظرة لم توقفه عما ينتويه..

مع وقوفها تحدثتْ بهدوء:

- هاخد أنا يزيد ليونس بيه..

وبالتأكيد انعقد حاجبا تلك التي يقف خلفها، لمَ!..

لأنها تعرف بوجوده؛ تعرفه من نظرة "بهجة"، من العطر.. والعتمة التي تحل على المكان بحلوله..

تعرفه عندما تختنق ويضمحل الأكسجين حولها؛ هو وقتها يكون بالقرب..

اعتدلتْ ببطء ونهضت تلتفتْ إليه، تجابهه من مسافة بعيدة، ترفع رأسها بشموخ ثم تخطو تجاهه بلا تردد.. بثوب أسود!..

للمرة الثالثة..

يبدو أنها تعشق اللون مثله، وإن ظهر عليها أكثر فتنة؛ ذلك التنافر بين بشرتها وحُلكته آسر، لافت للنظر..

وقفتْ على بُعد خطوتين، ترى عينيه.. ترى كيف ينظر إليها وكفيه بجيبي سرواله البيتي الرمادي..

ترى التواء شفتيه ببسمة منكهة بالوحشية التي لم تعُد تثير بنفسها انفعالًا محددًا؛ حتى الخوف..

تراقب استدارته، عودته لغرفته دون كلمة واحدة.. لقد فهمت هدف زيارته بعد طول انقطاع..

سيدها يشتهي جاريته..

تبعته بلا تفكير، بلا تباطؤ، بجمود يسيطر على خلاياها وجُل مشاعرها، دخلتْ وراءه وأغلقت الباب بسلاسة كأن ما سيحدث بعد دقائق لن يكون فوق جسدها..

ظل واقفًا بمكانه بقامته المشوقة، تحركتْ تدنو وقبل خطوتها الأخيرة توقفتْ، تأملتْ نظرته لثانية واحدة ثم أسدلتْ الثوب عن كتفيها، مررته بخصرها حتى أسقطته ليحاوط قدميها..

امتدتْ يداها نحو بقية ثيابها.. تخلصت منها بينما يراقبها بصمت مستغرِب..

لم يبقَ سوى بشرتها وخصلاتها الطويلة تناوش ظهرها وكتفها.. وقفتْ تواجهه بثبات غريب، حجري لم يفهمه..

كأنما لا تؤثر بها عيناه اللتان ارتحلتا بين مفاتنها واحدة تلو الأخرى بتلكؤ يقصد به العبث بأعصابها.. ولم تهتز!..

بادرتْ ببرود:

- هتتفرج كتير!..

عاد لعينيها بنظرة غامضة وترتها، حبستْ مشاعرها بسجن الحقد الذي يملأ قلبها نحوه وتماسكت..

هو يريد منها امتلاكًا لا تراه حقه، فلينعم بها جثة إذًا..

لا فارق..

ابتسم نصف ابتسامة كانت أكثر قسوة، أكثر سخرية، أكثر ازدراءً:

- من غير جدال كل مرة!.. غريبة..

ورُغم المشهد، عدم اقترابه أو حتى محاولة اللمس فقد زفرتْ بضيق وأفندتْ أسبابها:

- كل مرة بنوصل لنفس النتيجة؛ ليه الجدال!.. طبيعي أوفر على نفسي إهانة لفظية كمان بجانب المعاملة الحيوانية اللي بتعاملها لي..

أخذ هو خطوتها المتبقية، فبات الفاصل بينهما أنفاسها المحتدمة بالغضب وأنفاسه الباردة كقبر نفسه الثلجي، مد أنامله يبعد

خصلاتها عن كتفها، يمر فوقه بسبابته ووسطاه بتمهل منتشيًا بالرجفة التي طالتها..

الأرنبة ستظل أرنبة مهما حاولت تلبس رداء الضواري..

- شمس.. أنتِ ما بتحاوليش ترضيني؛ يعني طبيعي تكون العلاقة بينا كده..

لأول مرة يرى منها بسمة ساخرة، انحناء غير مكتمل مخطوف مر بطرف شفتيها.. كأنما تخبره أنه لا يحاول بالمثل، ابتسامة أتتْ نبرتها بعدها جامدة:

- أرضيك ليه وأنا مش موافقة أكون مراتك!..

رفع حاجبًا بإدعاء دهشة لا تليق بالموقف، دهشة مستخفة تشبه سخافة ما نطقت به:

- وعدم الموافقة ده ظهر دلوقتِ بس!..

تمادتْ لمساته فأصبحتْ قشعريرة جسدها تحت يده أعنف:

- كان فين الرفض ده قبل ما نكتب الكتاب وتبقي مراتي!..

بادرته باندفاع وهي تتحدى نفسها ألا تبتعد عن مرمى أصابعه التي تعيث في روحها الفساد والموت:

- أنا شرحت لك وافقت ليه..

- وأنا مش مهتم..

نطقها بسرعة، بشفاه ممطوطة بلامبالاة كما أخبرها ثم أردف بحسم:

- دلوقتِ أنتِ مراتي وده حقي، وحقي آخده بأي شكل يرضيني..

تراجعتْ خطوة ترمقه بغِّل لم يستنكره، تتجاهل انكشاف سترها تحت وقع نظراته التي لا تتسبب لها في أي خجل ولا تفهم لمَ!..

تتجه إلى الفراش، وهناك تبسط له جسدها بخضوع تام:

- اتفضل.. قلت لك قبل كده، جاريتك ملك إيديك..

واستجاب.. اعتلى الفراش، يحاصرها بكامل ثيابه، يستند إلى ركبتيه وكفيه حولها..

يخنقها بحضور داكن لن تألفه أبدًا، لن تقبله..

يغوص بعينيها ويتحداها ألا يتعانق جفناها أمام سطوته..

والسطوة لم تأتِ في شكل امتلاك بل ميل وهمس وشفتاه تمسان أذنها باحتراق:

- أنتِ فعلا مجرد متلقي يا شمس..

هزأ من قوتها المصطنعة بقسوته حالكة الظلام:

- ماريونت خاضعة، خيوطها بتتنقل من إيد لإيد..

نال منها.. ظفر بهزة داخلها أجبرتها إثر ثوانٍ من الصمت على إبعاده.. ولدهشتها ابتعد دون مقاومة..

يراقبها تعود للثوب فتنسل بين خيوطه، تستر به عري الروح لا الجسد وحسب.. توليه ظهرها..

تسكُن، تنفعل، تنفجر بالتفاتة شبه زاعقة:

- أنت إزاي بتكون معايا عادي كده من غير مشاعر بينا!..

ودارتْ في الغرفة بلا هدف ساخطة:

- أنت ماتعرفش عني حاجة ولا حتى مهتم تعرف..

فوزه بالحدة.. بالغضب.. بالصراخ كان انتصارًا جديدًا يتوج به سجل انتصاراته معها، اعتدل يسترخي على الفراش، يتمدد في شبه جلوس ويسند كفيه خلف رأسه براحة قبل أن يتبجح بما يناسب خلفيته غير العربية والتي لا تشبه تحفُظها في شيء:

- ده مجرد جنس..

لم تكترث لخجل أصابها مع صراحته الفجة، لقد ألفتها، تشربتها.. ولم تعد تخشاها، حتى أنها ربما تجاريها:

- إحنا مش حيوانات..

تعارضه، تحتج.. تظن أنها تمتلك زمام رأيها ومن حقها أن تدلي به، رسم بعضًا من بسمة هازئة على جانب وجهه واعتدل، استقام، ثم اقترب لحد أوجف قلبها، يهديها فلسفة الغريزة بلا تجميل:

- في الجنس؛ كلنا حيوانات..

- بس أنا مابحبكش..

- بتكرهيني.. عارف..

وكان ينطقها بسماجة لا مكترثة:

- بس تفتكري ده يهمني!..

تأملته لحظة..

كل ما أمكنها فعله في التالية هو أن تُكرر بسمتها الساخرة بمرارة كالحنظل:

- أكيد ما يهمكش..

مع كلماتها ارتفعت بناظريها إليه، تتحدى عينيه، تجبره على الغوص في عسل عينيها الداكن المتوهج بالحزن.. حتى نبرتها كانت تعانده وإن لم تتخلَ عن البراءة:

- لما اتكلمنا آخر مرة؛ قلت لي إني غبية لدرجة بتعصبك..

تغضن جبينه وهو يتذكر ليلة خداعه لها، ليلة كذبته، لقاء الشرفة وقبلة لم تحدث!..

- لمجرد إني اتكلمت عن الانسان الوحيد اللي حبيته..

كادت تقف على أطراف أصابعها فقط لتحاصر بصره ببصرها..

في هذه اللحظة أصبحتْ مقلتيها هما كل ما يقع في حيز النظر بمواجهته:

- أنت كمان جبان..

تمتمتها بهمس مكابر يعلن شجاعة لحظية رُغم سَّخَم نظرته:

- عارف ليه!..

لم تنتظر رده، أكملت بتبرير حاسم:

- لأنك مش قادر تواجه مشاعري دي ناحيته؛ بتنكرها وبتنكر أي مشاعر في العموم..

وحان دورها لتتهكم منه هو ولو بورديتها:

- بتنكر الحب..

منحته حريته من أسر مقلتيها بتراجع مستهجن:

- يمكن ده بيرضي غرورك كراجل..

هزتْ كتفيها تفتش لصمته عن دافع، ولمخاوفه التي أضحتْ تؤمن بوجودها بين جنبيه عن سبب.. عن نهاية:

- أو بيحسسك بالأمان والقوة، لأن في نظرك المشاعر ضعف..

بعدها نفتْ برأسها في شرود.. شرود فيه هو:

- ماعرفش!..

تتحدث كأنها وحدها، لم تتنفس، انطلقت كلماتها كرصاصات قاتلة فوق أرض حرب شبه منتهية..

ما الذي تعرفه عنه لتحادثه عن الحب وأهله!..

لا شيء..

اللعنة عليها وعلى كل ما فيها..

كم تشبهها.. في كل شيء تشبهها، في حماقتها وغبائها وعشقها باهظ الثمن..

لقد كان ثمنه خسارة لا تعوض، وأثرها خالد لا ينمحي..

- بتتكلمي عن الحب والمشاعر!..

قبض على مرفقها بغلظة، أصابعه ككلابة حديدية حادة الأطراف تكاد تنغرس بلحمها، سحبها بقوة فانكفأت فوق صدره، جسدها

يرتطم بجسده، عيناها تواجهان عينيه.. تغرقان دون نجاة في حدة النظرة وسوادها:

- أنا أقولك إيه هو الحب..

لأول مرة تستشعر غضبه صريحًا خالصًا، خاليًا من شوائب الثبات والجمود!..

جدار صلابته البارد انصهر مع اشتعال صوته، احتدامه:

- الحب هو بنت عندها 17 سنة قلبها يتفتح لراجل انتهازي، يخليها تهرب من مدينتها وأهلها وتروح وراه عشان ضحك عليها بالمشاعر ووعدها بالجواز..

زم شفتيه بين أسنانه حد الألم، لا.. لقد شعر بمذاق دمائه بحلقه حقيقةً:

- الحب إنه يضحك عليها بجواز غير قانوني، وحتة ورقة عن طريق محامي نصاب بيلعب بالقانون على مزاجه..

بهذه المرة مع استطرادته ربما كان الأجدر بها أن تهرب..

كانت في حضرة شيطان لم يفر من الجحيم، بل امتلكه.. تحكم به، استساغ طعم الحكم بالمملكة وأخضع شعبها لأجل سعيره:

- الحب.. إنه يعيش معاها سنة يستهلك فيها مشاعرها وجسمها ويزرع جواها حتة منه، ولما يجي ابنه للدنيا؛ يبعت لها ورقة برده، بس المرة دي ورقة طلاقها عن طريق نفس المحامي ويختفي من حياتهم..

دفعها عنه فكادت تتعثر.. كادت تسقط وما نطق به يطعن قلبها بموازاة تتمته الخاتمة:

- ده الحب اللي أعرفه..

ازدرد بعدها لعابه، حلقه صار جافًا فشعر بوجع كَبَته كعادته، عيناه لا تفلتان عينيها رُغم العاطفة التي مرت بحدقتيها في لمحة خاطفة..

لمحة لم تعجبه، كانت شفقة!..

ترددتْ وهمسها يتحشرج:

- اللي بتتكلم عنها دي تبقى...

- اطلعي برا..

بتر حديثها بلا مفاوضة..

انفعاله اللحظي كلفه الكثير، فتح بابًا أغلقه منذ عمر، منذ دهر.. وهي الحمقاء التي نبشت في مزلاجه بجهل فتحطم برعونة..

طردها.. حملقت به لثانيتين إضافيتين عقبهما رحلت من أمامه.. مهزومة!..

حتى وإن لم يمارس معها وحشيته فقد هزمها..

هزم تحديها وعنادها وبرودها.. هزم ثباتها.. هزم جمودها..

والآن احتل أفكارها بلا منافس، فوق مائدة الغذاء ظلتْ شاردة.. تهديه نظرة بين فينة وأخرى، لا يلتفت هو نحوها كأن وجودها لا يشغل حيزًا من الفراغ.. من فراغ يهيمن هو عليه..

تخلى عن العشاء ورحل لصومعته.. بعد ساعتين كان يخطو للجناح بتجهُم لم يفارق وجهه منذ ما حدث..

يخطو فتقطع هي طريقه رُغمًا عنها..

ظلتْ صامتة وحافظ على صمته حتى مل فبادر بخشونة فظة:

- عندك حاجة تاني عاوزة تقوليها!..

ارتبكتْ قليلًا ثم تمسكتْ بخيط الشجاعة الواهي الذي لا تملك سواه:

- مش عاوزة أتكلم، بس عندي استعداد أسمع..

- تسمعي!..

نطقها باستخفاف شبه غاضب، جاوبته بسرعة:

- أيوة، لو حابب تتكلم عن أي حاجة ممكن تيجي في بالك..

كانت تقف غير بعيدة عنه بذات الثوب الذي لم ينسه بعد، تقف بثبات مفتعل، ومواجهة ليست أبدًا أهلًا لها.. لقد بات يدرك تفاصيلها دون عناء.. وتلك كارثة!..

- بتعرفي ترقصي؟!..

سؤال داهمها به على حين غرة، سؤال لم تتوقعه لذا فكرتْ لحظة وردتْ بلا فهم:

- أنا كنت باليرينا..

أفلتْ ضحكة هازئة خافتة:

- لا.. ما هو أنا مش عاوز عرض خاص من كسارة البندق..

لمَ اختار "كسارة البندق" بالتحديد!.. لا تدرك.. فقد كانت تخصها وحبيبها، أتراه قرأ أفكارها!..

غزا أحلامها حقيقة وليس وهمًا بخيالها!..

تضاعفتْ حيرتها في سعي واهن لاستيعاب مقصده:

- قصدك!..

- أيوة.. رقص شرقي..

ابتعدت خطوة بصدمة، هل يصدمها تفكيره!..

كونه رجلًا.. أم كونه أجنبيًا لا يدرك من عادات رجال موطنه الأم إلا القليل!..

لم يأبه لتفسير فقط كرر بأمر حازم:

- بتعرفي!..

- مافيش ست ما بتعرفش..

تمتمتها ببراءة تائهة فابتسم بانتصار كضارية وجد فريسة شهية.. سهلة:

- هايل.. ارقصي لي..

خطوة أخرى تتراجعها والصدمة تزيد، ترسم ملامحها فبدتْ المسافة بين جفنيها كشمس لم تعتد الغروب، شمس مشرقة لحد يكفي مجرة بأكملها:

- إيه!..

تعاند، تكابر، ترفض:

- أنا ما بارقصش شرقي..

- ليه!.. مش قلتِ بتعرفي!..

هز كتفيه دون عقبات، ببديهية الموقف والفكرة والطلب المصبوغ بالأمر:

- وعندكم العادي إن الست ترقص لجوزها!..

- مش كل الستات..

كان اعتراضها خجولًا، وبعد الخجل ظهر التحدي.. الضيق.. الامتعاض:

- حتى لو هترقص لجوزها يبقى عشان بتحبه وعاوزة تسعده..

تحديها يقابَل بتحدٍ أعظم، ضيقها يتواجه مع قسوة، وامتعاضها باستهجان:

- سيبك من الحب والإرادة الشخصية؛ فكري في إنها لازم تسعده وبس..

كادتْ تكرر احتجاجها، استيائها من تحويله لها لجارية في كل مرة..

من خضوعها لأهوائه ورغباته..

كادت لكنها لم تفعل، ونظرته الراغبة إليها يوم حفل الزفاف تقتحم أفكارها.. يليها صباح اليوم..

ليلتها اشتهاها.. وبالصباح رغم عريها طردها حتى لو أغضبته!..

حسنًا.. الفكرة تستحق تجربة، والتجربة لن تكون بخضوع معتاد..

بل ستكون خصمًا جديرًا به حول رقعة اللعب.. ستتحداه..

الليلة.. هو من سيسقط ويخضع وإن لم تكن تلك طبيعتها، لكنها ستجاريه في لعبته!..

رأى تقلب انفعالاتها على وجهها، شرودها، أفكارها الغامضة ونظرتها التي عادتْ بها إليه:

- اللي مولاي يؤمر بيه جاريته..

ملك يمينه ولا يبالي، يمكنها أن تناديه ما تشاء..

توجهتْ إلى غرفتها بلا تأخير، أوقفها:

- على فين!..

استدارتْ إليه بثبات:

- لازم الرقصة تليق بمولاي، هالبس حاجة ترضيك عني..

لم يعجبه ما حدث.. استغربها.. جهل ما بعقلها..

وهو لا يحبذ الجهل بأحدهم ولو لثوان..

وقف يواجه باب الشرفة بغرفته في انتظار خالٍ من التوقعات؛ لقد نجحت بغرابة في إثارة بعض من فضوله!..

وهي اطمأنتْ على طفلها، تزينتْ وذهبتْ إليه.. وصله دبيب خطواتها الخافت من خلفه.. التفتَ ليلمحها حافية القدمين، تأمل الثوب دون أن يتخلى عن ثباته وجمود نظرته.. ثوب أسود!..

للمرة الرابعة.. لا يدري ما سر اختيارها للون!..

هل لأن تناقضه مع بشرتها يشكل تعويذة ما من سحر قديم منسي، مدفون على بعد سحيق!..

سحر ملعون لا ينفك، وتعويذة كارثية لا نجاة منها..

يحاوط جسدها في إغراء صِرف، لا يناور أو يلتف حول المعنى، بشقين جانبيين يصلان لأعلى ساقيها، وعندما استدارتْ لتضع هاتفها على طاولة الزينة استطاع أن يرى ظهرها مكشوفًا حتى المنتصف..

خصلاتها مسدلة بحُرية غجرية ولمسة من فوضوية حول وجهها، حمرة شفاهها نبيذية داكنة، كخمر يسكر من الرشفة الأولى..

وعطرها لم يكن بنعومة كل مرة؛ عطرها كان مثيرًا!..

أية لعبة تمارسها هذه المرأة!..

ما الذي تسعى إليه!..

راقبها تقترب، توازيه، تمسك بكفه برقة، وتجذبه ليتمدد فوق الفراش كسلطان يستعذب آلام جاريته:

- استريح يا مولاي، عشان تستمتع برقص جاريتك ليك..

تجاهلتْ انعقاد حاجبيه، رجعتْ للهاتف ومنه خرج الصوت..

هو يعرف هذه الأغنية.. واحدة من ضمن كثير سمعه فقط ليفهم كيف يفكر هؤلاء الفئة من البشر!..

"مالي..

طب وأنا مالي وأنا مالي..

بالأحزان أنا مالي..

عايشة في أحلى ليالي..

ويَا حبيبي الغالي"..

غابتْ عيناه معها..

تتمايل كراقصة باليه لم تنسَ شغفها بعد؛ خفيفة تشبه ريشة.. ناعمة مثل فراشة، جميلة مثلها.. ساحرة مثلها..

كأنثى مغناج تحترف درب الإغواء بلا جهد.. بلا قصد..

كعاشقة منحورة فوق مذبح الفقد..

"بحبك قوي يا عيوني..

بحبك مهما لاموني..

ما يلوموا طب وأنا مالي..

طب وأنا مالي..

وأنا مالي وأنا مالي..

مالي"..

هي لا ترقص له، كلا.. هي ترقص لحبيبها الراحل..

تراه هو أمامها الآن، تغني له تلك الكلمات..

تهمس بها في سكون لأجله..

"الحب ومدفينا..

الورد ومغطينا..

الشمس وطالعة لينا..

من فرح الدنيا لينا..

من شهدها بتسقينا، وبكرة مستنينا..

ناسية هنا ناسية..

أيام كانت قاسية..

ناسياها معاك يا عيوني..

وفاكرني أخاف يلوموني..

ما يلوموا طب وأنا مالي..

وأنا مالي وأنا مالي..

مالي"..

هي تشتاقه.. تريده.. تتمناه.. تهديه ميل الخصر وتحليق أجنحة الفراشة.. تحيا معه بخيالها!..

تجتثه هو من صورة وحده يمتلك أركانها وتخلق لنفسها بُعدًا آخر لا يشمله!..

تقتلعه من دوامات مشاعرها..

تستأصله من حلمها الكامل دونه..

المشهد من حيث ينظر كان يحتاج لبتر، لنهاية..

نهاية اختارها عندما ترك جلسته دون أن تنتبه لحركته إلا عندما أوقف الصوت الصادر من هاتفها فتوقفتْ تبعًا له..

اقترب حتى تواجها..

أنفاسه هادئة وأنفاسها لاهثة..

عيناه تحاصران عينيها وبصرها لا يحاول الفكاك من ذاك الحصار..

يتلكأ هبوطًا إلى شفتيها، إلى عنقها الناعم الطويل.. إلى فتحة الثوب السخية.. كان ينظر برغبة!..

يتأمل باشتهاء غريزي قُّح خالٍ من بقية الانفعالات التي تحتمها اللحظة!..

المشهد الآن كما يراه، يجدر به ختامًا لائقًا يتناسب وأفكاره.. ختامًا حدد هدفه ثغرها المنفرج قليلًا لراحة تنفس، ثغرها المرتجف في ترقب، ثغرها الذي لا يعلم كيف هو مذاقه!..

وهذه المرة؛ لم تغمض عينيها في انتظار، تحدته بالقرب ولم يتباطأ هو، بل هاجم بلا إمهال..

لم تكن قبلة؛ كان اختطافًا!..

كان يمتلك فمها وأنفاسها باستحواذ.. بقسوة.. بشغف.. بتسلط.. باحتلال..

لا يستوعب هل يفعلها لأنه يشتهيها، أم ليمحو بقايا معشوق من ذاكرة جسدها، ذاكرة شفتيها، خيالها وكل ما فيها!..

ولا يترك لها بالمثل فرصة للاستيعاب..

كان يغرق في اللحظة ويجذبها معه للقاع..

ظل ينهل من عذوبتها بجشع كترياق من سم عضال، يبتعد ليسحب الهواء ويعود فلا يمنحها الفرصة لتتنفس، تستسلم بإرادة حرة.. تراجع ينظر في عينيها..

حينها ضاعتْ بلا نجاة في ليل مقلتيه..

رأتْ ليله متوهجًا بضوء فضي ساحر، راغبًا بها، بكلها.. بالجسد والروح والذكرى..

امتدتْ أناملها بلا وعي تتحسس شفتيها إثر اجتياحه.. لا تفارق عينيه.. تتيه، تغيب وتعود ثم تفيق على قبضته تسحب يدها، تزيحها عن مكمن توقه المؤقت بعدما نال جنة المذاق..

تبعدها ليحتلها مجددًا بحضور لا يريد له نهاية.. كان يغالب انفعاله، يصارع تأثره، يغضب لاشتهائه.. يتحرك بها ومعها ويغرق فيها، يطفو لسطح الرغبة ويغوص بأعماق اللذة..

يداه تطوقانها بتجبر، لا يكترث لأنَّة صدرت من صوتها ببحة مكتومة أو همسها باسمه، يتخلل خصلاتها بأصابعه فيجذبها بشيء من غلظة، يثبتها، يجبرها على الاستسلام لسلطان حضوره..

يحارب في معركة خاسرة مع نعومتها التي يستشعرها للمرة الأولى كأنما لم تلامسها أنامله قبلًا.. مع لين جسدها مقابل جسده، مع ضعفها في مواجهة هيمنته، وأنوثتها التي حاصرتْ إرادته..

إلا من محاولة أخيرة للتشبث بوعي الشيطان، أجبرته على تمتمة بحروف محترقة:

- العادي برده؛ إن العرض المبهر ده ينتهي في السرير..

وكان رجلًا آخر تجهله..

لم تدرِ ما حدث!.. كيف حدث!.. من كان هذا!..

لكنها فقط نسيتْ واقعها معه وبه وفيه.. سمعتْ من كونٍ موازٍ تمتمته بكلمة غامضة بلغته الأسبانية.. لم تفهمها لكنها خرجت محملة بأنفاسه لتوقظ حواسها كلها..

تهز ثباتها وتخترق حواجزها وسدودها..

تعيدها.. ثم تدفعها نحو السقوط!..

**

أَخْبِرِ الشيطان أنه سيفقد سيطرته على عالمه الإبليسي للحظات؛ وانظر بعدها كيف سيستعر الجحيم!..

لحظات، طالتْ أم قصُرت هي لحظاتْ، كان فيها رجلًا آخر يتقاطع دربه معه للمرة الأولى..

لحظات.. كانت فيها امرأته، زوجته بين ذراعيه كأنما ينالها كذلك للمرة الأولى..

لحظات فقد فيها نفسه.. نسيها.. توقف عقله عن العمل، تراجعتْ كل أفكاره المعجونة بالمقت، المغموسة بالحقد والبغض..

تراجعتْ واستقرت حولها هي!..

وتلك كارثة لن تمر..

كارثة لها وعليها..

ابتعد عنها، أنفاسه تهدأ ببطء، يجاورها والعالم يفئ لظلامه أمام بصره.. ينصت لأنفاسها التي تنافسه في حدتها.. وجومها..

لم يلتفتْ إليها، فقط تعلقتْ عيناه بالسقف وهي مثله..

كان وقتًا سقطتْ خلاله بفجوة كونية لا اعتبار فيها للزمان أو المكان.. وكان رجلًا تختبر معه أنوثتها من جديد، لم يمر بخيالها أنها يومًا ما قد تستجيب للغريزة!..

بدأتها لعبة مقصودة، وانتهتْ معها بتجاوب حقيقي دون اصطناع.. هي من ظنتْ انها امرأة تمنح بالحب ولخاطر الحب.. تخضع لشهوة جسد!..

لم تكن تعلم أنها ستضيع فيه، لم تكن ترى نفسها بين ذراعي رجل سوى حبيب رحل، لم تكن تدرك.. أنها بالفعل يمكن تسقط!..

مرور الفكرة بعقلها نفضها.. أجفلها فاعتدلتْ لا تريد في تلك اللحظة إلا الاختفاء من الغرفة.. الهروب..

جلستْ على طرف الفراش تفتش عن ثوبها، تبعها..

شعرتْ بسبابته تمر فوق ذراعها بتلكؤ ماكر جمدها.. خاصة عندما تساءل باستحواذ:

- رايحة فين!..

تسارع تنفسها رُغمًا عنها بينما تجاوبه بهمس أبح:

- هاروح أوضتي، يزيد نايم لوحده..

اقترب أكثر يزيح خصلاتها عن كتفها، يطبع شفتيه فوقه، يتمهل في همساته:

- بس أنا مش عاوزك تمشي دلوقتِ..

تراجعتْ وحروفه تدغدغها، جذبتْ الثوب تضمه بيديها باعتراض واهن:

- يعقوب..

اهربي..

اهربي..

اهربي..

كانت نداءات متتالية من عقلها الذي استفاق بغتة.. من هذا الرجل الذي يسعى لامتلاكها!..

ما يحدث الآن كثير.. كثير للغاية، يفوق استيعابها..

اعتراضها المهزوز لم يفلح في شيء، فقط جعله يتحكم بذقنها ليدير وجهها إليه، يمتلك فمها بغزو لا يمكن مقاومته..

يعيدها إلى فراشه راغبة بالكلية.. دقائق طويلة مرتْ، انتزع منها رضاها، انتشى بتجاوبها، انتصر على رفضها.. على تصريحها السابق بالكره..

هي امرأة تمنح بالعاطفة.. تخضع للعاطفة، وعاطفتها معه ستكون أنشوطة الموت!..

دقائق أثبتَ خلالها أنه مر فوق هذا الجسد مرورًا خالدًا، لن يُنسى.. ولَّته ظهرها بإجهاد غريب، طاقتها مستنفذة وخصلاتها مبعثرة على وسادته تجاور وجهه، أزاحها بعيدًا واستند لمرفقه من ورائها، مال لأذنها بهمس بارد.. غيابها فيه أعماها عن صقيعه:

- ها.. إيه رأيِك!..

ملأتها دهشة حائرة خجول تضاعفتْ حينما أعادها لتواجهه، سألته بغيمة ارتباك ظهرت في سمائها:

- مش فاهمة.. رأيي في إيه؟..

لم يكترث بجواب سؤالها؛ كان له هدفًا محددًا لن يتراجع حتى يصل إليه، طاف بأصبعه من ذقنها هبوطًا إلى عنقها، هناك رسم دائرة وعيناه تتابعان ما يفعله:

- الطريقة دي ممتعة أكتر.. مش كده!..

هل خدعها!.. سرق منها استجابتها ليطعنها بها في قلبها!..

شيطان..

توسلته بنداء خافت ألا يؤكد على ظنونها:

- يعقوب!..

ارتفع بناظريه إلى عينيها ببريق كشرارة في قلب الظلام، هنا أدركتْ أنها كانت وستظل حمقاء!..

حاولتْ إغوائه فانقلب سحرها عليها وهي لم تكن أبدًا بساحرة، كانت محض هاوية مبتدئة في جحيم رجل لن يكترث لها بمقدار طرفة عين..

أرادته أن ينكر فأثبت التهمة:

- قلت لِك قبل كده في طرق تانية للإخضاع..

لم تستطع الهرب، كان يحاصرها، يسجنها قربه، ذراعه حولها ودُجنة حدقتيه تتضاعف لحد خانق:

- ليه!..

رفع حاجبيه بسخرية وجدد الطعن:

- عشان تعرفي إن مافيش حاجة اسمها حب..

نهض يرتدي سرواله، يرمقها من وقفته باحتقار:

- في سرير ورغبة..

ثم لوى جانب فمه بتهكم:

- ياريت تكوني عرفتِ قيمة قصتك اللي بتتباهي بيها..

مال بعدها يطل عليها في وضعها المتجمد بفراشه، يكرر بفظاظة:

- مافيش حاجة اسمها حب، مافيش حاجة اسمها إخلاص..

أشار إليها، أتبعها بإشارة إلى صدره والخبث يتمازج مع الازدراء والقسوة بنبرته في مزيج وحشي، شرس:

- في ست وراجل.. غريزة وشهوة..

اقترب أكثر عند أذنها متجاهلًا بريق عينيها الدامع:

- مجرد ست خاينة معتقدة إن بكلامها عن حبيبها اللي مات هتقتنع إنها كانت بتحبه فعلا.. للأبد!..

خائنة!..

هي بالفعل خائنة.. بكل حرف في الكلمة وبكل معنى مرادف..

هي خائنة..

جلست تخفي جسدها بخزي ونبرتها تجاهد للثبات، لاستعادة شيء من كرامتها المهدرة:

- مين قالك إني ماكنتش متخيلاه مكانك!..

أظلمتْ عيناه.. انتصب واقفًا يرمقها بتعالٍ وهي تردف:

- إني كنت حاسة إني في حضنه هو!..

لكن بسمته الساخرة التي ثابت لشفتيه ونظرته التي تدلل على حماقتها أرجفتا كيانها:

- سبب واحد بس..

وتحكم بعنقها بكفه يجبرها على مواجهته، شفتيها في مقابل شفتيه، أنفاسه تحرقها بلهيب من نار الجحيم:

- كنتِ بتهمسي باسمي أنا..

حررها وتراجع، تأمل نهوضها المتعثر.. ثوبها الذي انسلتْ داخله ولا يكفيها ستره، وقفتها الأخيرة أمامه، فاقدة للسيطرة على عبراتها وصوتها المختنق:

- أهنيك..

لم يهتز.. لم يُظهر انفعالًا بينما داخلها ينهار بسرعة البرق:

- وصلت لروحي وقلبي وكسرتهم..

وركضتْ من الغرفة وهي على وشك سقطة مهينة:

- أنا فعلا خاينة..

هل فاز الشيطان!..

بكل بساطة وبمذاق لا يعجبه.. نعم..

**

الحرب خدعة!..

حقيقة مثبتة، فالحمقى وحدهم يهاجمون دون خطة.. بمباشَرة، وظهر مكشوف.. الحمقى وحدهم يخسرون..

هي ليست حمقاء، وهو ليس بالخصم السهل.. أو حتى الصعب، هو خصم تستحيل هزيمته..

خصم بقي أن يجردها من سلاحها الأخير وبعدها يحين السقوط..

لم تخسر كل شيء بعد، لكنها على وشك الوصول للحضيض، معها لا يكتفي بدور الذئب، بل تتعدد الأدوار، تتوفر الأقنعة وتكثر

الوجوه.. معها هو حبَّار هائل مخيف، يعمي طريقها بحبره، وتمتد أذرعه في كل مكان..

"سكوبولامين".. اسم علمي لا يكترث له..

"نفس الشيطان".. اسم أكثر ملائمة، للحدث والمشهد والهدف..

جرعتين وحسب تكفيانه لتحقيق ما يريد، الأولى منحها لها قبل دقائق مدسوسة بقطعة من الشيكولاتة التي تفضلها..

والآن يقف أمامها بغرفة مكتبه بالمنزل، يتأمل سكونها بعين مدققة، يأمرها بعده بحزم وإشارة من سبابته:

- قربي..

انقادتْ بسلاسة عجيبة، خطتْ حتى وقفتْ قربه، حاوط خصرها، سحبها بلا تمهيد، ودون مقدمات امتلك شفتيها.. كانت طيعة بالكلية!..

خاضعة له حتى مَل.. تراجع برأسه وأعاد التجربة:

- أنتِ مش جثة يا وسن..

رمشت بعينيها لا تعي مقصده.. لا تعي أي شيء!..

أمسك ذقنها بين سبابته وإبهامه وتمتم قبالة ثغرها:

- بوسيني..

وخضعت!..

كما أمر حرفيًا.. أبعدها بعد الاختبار الصغير، والأكثر من مناسب.. حررها وتوجه إلى أحد جوارير المكتب، أخرج منه ملفًا وتركه على سطحه، جرها لتجلس بمقعده وناولها قلمًا:

- وقعي..

ورقة تلو ورقة، إمضاء خلف مثيله..

انتهت فالتقط الأوراق يتفحصها، يدقق في توقيعها الذي يحفظه.. كان هو!..

ابتسم بانتصار كمن فاز بخطوته الخاتمة..

غادر الغرفة وهي على وضعيتها، توجه إلى الشرفة الخارجية حيث ينتظره رجل قصير القامة ممتلئ البدن يحتسي كوبًا من الشاي الثقيل،

يحمل حقيبة جلدية بسيطة بها دفتره المنشود، منظاره الطبي عريض الإطار يأكل نصف وجهه، قدم له الملف جوار مظروف منتفخ:

- التوكيل، يتوثق.. نص المبلغ، والنص التاني لما تسلمني الورق كامل..

تناوله منه الرجل بلهفة، عيناه تبرقان بجشع صريح وخطواته تتراجع دون التفات كأنما هو في حضرة امبراطور، طاغية لا يجوز أن يوليه ظهره:

- تحت أمرك يا عمار بيه، خلال يومين بالكتير كله هيكون جاهز..

تابعه حتى اختفى عن ناظريه وعاد إليها ليجدها كما تركها.. تتطلع لأفق مبهم بلا انفعال محدد، أخذ في طريقه حقيبة ورقية تحمل اسمًا شهيرًا من على طاولة قريبة.. دفعها بين يديها بينما يقيمها لتواجهه:

- البسي الفستان ده وانزلي نتعشى سوا..

خنوع.. خضوع.. امتلاك حتى العمق..

إذًا ما يشاع عن ذلك المخدر حقيقي تمامًا!..

يسلب ضحيته إرادتها، يجبرها على الانقياد لمن يمتلك ناصية الأمر وقتها، ويسقطها بفجوة غياب تنسى أنها كانت بها بعد زوال تأثيره.. ابتسم بتلذذ ماكر؛ ترى إلى أي مدى يمكنه الاستفادة من هذه الحالة!.. أو إلى مدى يمكنه التسلية!..

أخيه كان معتكفًا بغرفته تبعًا لرغبته، صرف الخادمتين بعد تحضير مائدة العشاء.. والليلة..

الليلة سيعاشرها للمرة الأولى بعد انكشاف الحقيقة.. ليس لأن الشهوة تتحكم بالصورة، لكن لأن الصورة لابد وأن تحتويها مهانة، ذليلة.. طوع يمينه!..

بعد انتظار جاءت إليه، فاتنة لا يمكنه نكران فتنتها..

خصلاتها مسدلة بفوضى حول وجهها، الثوب قصير، داكن الحمرة يطوق جسدها بإغواء، حمرة شفاهها تنافس نارية الثوب، وحذائها عالي الكعب يطرق الأرض بأنوثة هي مُلكه..

استقبلها يقبل أناملها، يغرقها في نظرته الغامضة ويمرر أصابعه عند أطراف شعرها، يتشممها باستحواذ طاغية، يسحب لها مقعدها..

يناولها عصيرها المفضل وقد دس فيه جرعة جديدة مقننة من مخدره الممتع، حيث الليلة الطويلة لا يباح أن تنتهي بغتة بإفاقة منها!..

أنهيا الوجبة برقي هادئ يناسب عاشقين ، لا أعداء حرب..

استقام فتبعته، وضع كفه على ظهرها ودفعها معه تجاه الدرج، ثم إلى غرفة نومهما.. وقف بمنتصفها يخلع سترته، رابطة عنقه.. يفكك أزرار قميصه وهي صامتة، ساكنة كدمية لا تتقن إلا الطاعة ولا تقدم سوى فروض الامتثال لرغباته..

تخطاها تجاه الخزانة، عاد يمسك بعلبة مخملية أنيقة، فتحها وأخرج منها قلادة ماسية تنتهي بلؤلؤة في مكان القلب، طوق بها عنقها بيُسر فاستقرت لؤلؤته أسفل عظمتي الترقوة، اقترب أكثر، رفع وجهها إليه وأمرها باستمتاع بينما وهج عينيه يطغى على الضوء شبه الخافت بالمكان:

- اقلعي.. ببطء..

نطق أمره بتلكؤ، دار حولها يفتح لها السحاب حتى نهايته وواجهها، أسدلت الثوب عن كتفيها تستجيب له دون اعتراض، أسقطته

بتمهل.. ترميه أرضًا بأطراف أصابعها في إغواء أراده، تخلصتْ منه ثم تجردت بالكامل تحت وقع نظرته المنتشية..

نظرة لا تنتشي بامتلاك وشيك، قدر انتشائها بسيطرته على المشهد واللحظة، وإرادتها، هي دميته التي سينهل منها حد الشبع والتخمة والامتلاء..

كان مطمئنًا؛ فأقراصها يحرص على أن تستمر في ابتلاعها بنفسه..

بدأ في وشمها بحضوره.. كل قبلة كانت تخلف من ورائها أثرًا، كل لمسة ستخبرها عندما تصحو أنه رسم خرائط هذا الجسد وامتلكه حتى النخاع، كل انفعال ثارت به رغباته حققه.. كما نال منها نصيبه من الشغف.. ربما حين تستيقظ في الصباح لن تتذكر شيئًا مما حدث..

لكنه يريدها أن تعي أمرًا واحدًا!..

أنها نامت ليلتها كزوجته، بين ذراعيه، وبفراشه.. وذاك ما حرص على أن يكون أول ما تراه عقب يقظتها بينما يضمها إليه ويغرق في نوم عميق..

نوم مرتاح يليق بملك منتصر..

**

دنيا العشق لا تحتمل البطولات؛ فالعشاق دومًا ضحايا..

العشق إثم مُعلق على حافة الجحيم، لن تقترب إلا وتنال السقوط..

والسقوط احتراق..

إن اقتربت لن تفلت..

إن هربت لن تنجو..

وليس من السهل إتقائه..

في جميع الأحوال أنت خاسر.. آثم، والذنب يثقل كاهل القلب وحده..

كان يقاوم.. بل ظل يقاوم لأيام..

لأسبوعين، ربما أكثر.. ثم انهارتْ مقاومته..

انهارت رغم السد المنيع المتمثل في زوجته وطفله..

قلبه انتصر على إرادته فخضع بهزيمة..

ذهب إليها.. هل يكرر الإثم بتخلٍ جديد، أم يحارب ليبقى!..

بحكم إدارته السابقة للفندق كان يعلم موقع مكتبها في قسم العلاقات العامة، أمام بابه وقف..

تصلبتْ خطواته فلم يمكن لقدميه السعي لأخرى..

تصارعت أفكاره.. وذنبه الحالي يحيط بعنقه..

عن ماذا سيتخلى لأجل عشق مضى عليه عقد من الزمان والجرم على عاتقه دون غيره!..

أُجبر على الابتعاد.. تخلى وتمسكتْ هي..

اختفى يمنحها فرصتها في الحياة فاقدًا هو كل فرصه..

من أدراه كيف ستكون الآن!..

هل ما زال يسكن قلبها!..

هل تذكره!..

وبأي ذكرى.. جيدة؛ أم موجعة!..

هز رأسه بقنوط وقرر العودة من حيث أتى، حياته لا تحتمل مزيدًا من التعقيدات وإن كانت عقدة عشق!..

وإن كانت لعنة عشق..

استدار في يأس هارب كان للقدر فيه رأي مغاير..

حيث أتت هي مقبلة وهو راحل..

يتكرر المشهد، تتلاقى ببصره..

تتعرفه رغم سنوات قاسية حفرت آثارها فوق ملامحه.. بعينيه..

بنظرته التي لم تعُد تعرفها..

الهمس يتساوى بين طرفي عشق عاد إلى الحياة بلا تمهيد..

- يزن!..

- دُچى..

تستفهم..

ويتشبث..

والاقتراب كان سيد اللحظة بلا إرادة من طرفيه..

العشق لم يعُد، لا..

هو لم يمت بعد!..

**

عندما يسقط خصمك في فخ حِصانك الخادع؛ اترك له ليلة من السلام..

من سكينة الفوز..

حينها سيصبح ألم الهزيمة أقسى وأعنف..

بعدها هاجمه بكل قواك من داخل حصونه، داهم قلاعه، احرِق أبراجه، اقتُل جيشه وادحره في حربه الخاسرة معك..

ثم تجرع خمر نصرك حتى الثمالة، أبِح لنفسك السُكر بنزفه، والعربدة في طرقات مدينته التي استقبلتك كفاتح عظيم..

كُن طاغية، لا تأخذك بأسراه رحمة أو شفقة.. فلكل حرب أضرارها الجانبية، لكل حرب ضحايا لا ناقة لهم فيها ولا جمل..

جلبة بترت نشوة انتصاره من خارج مكتبه، حيث استرخى على أريكته العريضة وساقيه ممددتين بأريحية، يغلق عينيه.. يغيب، يختال في فوضى اللحظة.. ونهاية الحرب!..

خطوته الأخيرة تزعق بمساعدته، تطالب بمقابلة عاجلة.. تهدد وتتوعد أنها لا تعلم مع من تتحدث..

بالطبع لا تعلم، ولا هي تعلم.. وحده نصب المحرقة التي سيتلظى الخائن بين لهبها بلا نجاة.. وحده أطبق عليه الفخ، حتى وإن أتت هي تتوسله..

تقتحم الباب، خلفها المساعدة تجاهد لمنعها حتى أوقفها، بإشارة واحدة من يده تركتهما وحدهما لتبدأ صرخاتها الغاضبة:

- للدرجة دي يا وجيه!.. ما بتفكرش غير في نفسك وانتقامك!..

لم يرمش، لم يتحرك قيد أنملة، ظل مسترخيًا مرتاحًا يرمقها بنظرة خاملة كسول وبسمة تشبهها تنقش حضورها فوق شفتيه:

- اهدي يا هالة، الموضوع مش مستدعي الانفعال ده كله..

اقتربتْ خطوة تشرف عليه من وقفتها، دموعها تبدأ في سيل واهن، وحنقها يتضاعف:

- مش مستدعي!.. أنت سجنت جوزي..

وضربتْ صدرها بقسوة تحجب ألم الكامن خلف الضلوع:

- أبو ولادي يا وجيه..

تمطى بتثاقل واعتدل ينزل قدميه للأرض:

- غلط.. اللي سجنه طمعه وجشعه..

هتفتْ تتهمه بجنون:

- أنتَ اللي زرعت الطموح في طريقه..

انتصب يواجهها، بل يسطو على بصرها بنظرة قاسية أرجفتها:

- غلط تاني.. طموح جوزك فطري، طموحه هو شيطانه اللي أغواه يدخل في مشاريع مش قدها، يكتب على نفسه شيكات بدون رصيد ويوسع دايرة ثروته وهو مش عامل حساب اللي ضيعه منها..

تراجعتْ خطوة برهبة.. النبرة، ونار الحدقتين تكاد تحرقها.. نارًا تخشاها منذ لحظة اندلاع الحريق الأول ولم تتأخر:

- مشاريع من تخطيطك، لدرجة إنك اشتريت نصيب شريكه..

ابتعد يتشي بكلماتها وهي تعدد حرابه التي وجهها لصدره.. ونعم صدره، هو رجل لا يطعن في الظهر..

لكن عدوه كان غبيًا، يصر على درب العمى طمعًا في مكاسب أكبر:

- اشتريت ديونه من البنك، أجبرته ياخد قرض والفيلا اتحجز عليها لما ما سددش..

تنفس بعمق..

كل كلمة تهديه أكسجينًا يريح رئتيه، قطرة من نبيذ معتق لا يتذوقه لكن في هذا التوقيت يشعر وكأنها قد تلذذ بزجاجة فاخرة كاملة منه:

- هابقى أنا والولاد في الشارع يا وجيه..

دارتْ حوله تسعى لمواجهة، لمناشدة، لتوسل:

- أنا وولادي مالناش ذنب، اللي حصل مش غلطة راجح لوحده..

مط شفتيه بسلاسة غريبة:

- عارف، وماعاقبتش راجح لوحده..

وأرجع رأسه للوراء، يبتلع الهواء بتمهل متراخٍ:

- هي ماتت، هو اتسجن..

- وولادي!.. ذنبهم إيه ولادي!..

عاد بغتة ببصره إليها.. عاد يهديها ظلام عينيه في قنبلة موقوتة أمامها بضع ثوانٍ على تفعيل الانفجار:

- ذنبهم إنهم ولاده..

ارتدتْ خطوة أخرى، نبرته القاسية تخيفها؛ هذا رجل لا تعرفه، لم تقابله مسبقًا!..

- مابقاش حيلتنا حاجة يا وجيه، خلاص.. على الأقل طلعه يعيش وسط ولاده، إحنا هنبتدي من الصفر تاني..

برقتْ مقلتاه بنشوة خاصة.. خالصة، تمنحها وحدها مغزى ما فعل:

- عاوزاه يطلع من السجن يا هالة!..

تجمدتْ عبراتها بمآقيها..

تتشبث به بنظرة مستجدية.. تستعطفه بقلب ضعيف موصوم بعار عشق ملعون..

اقترب خطوتيها وفوقهما ثالثة، واجهها يميل بعض الشيء، يغزو كل حواسها بوحشية عاشق منحور لم يتوقف جرحه عن نزيفه بعد..

يحتل البصر والسمع وعطره يقتحم أنفها:

- اطلبي الطلاق..

المقصلة لا تعرف الرحمة..

المقصلة صُنعت لجذ الأعناق!..

(20)

الشياطين لا تلعب بشرف، واللعبة لا تناسب الضعفاء!..

**

الحياة دائرة مفرغة.. بدايتها ونهايتها نقطة واحدة؛ العدم..

طوافنا بداخلها لنعيش خطنا الخاص بين النقطتين يوقعنا في الكثير، نتعثر بما هو أكثر ويطالنا دنس عثراتنا..

هو كان بطلًا مثاليًا في حكايته الخاصة، لكنه كذلك بات شريرها الأول بلا منازع على عرش الوحشية.. والآن أضحى فاقد الأهلية بها؛ حيث سيحطم بجنون وهوس كل من يعترض طريقه حتى لو بخطأ أو مصادفة!..

"اطلبي الطلاق"..

نطقها كأمر واجب النفاذ.. وراقب اتساع عينيها بمزاجية تناسب قتامة ما فعل..

الأمر بدأ بخطة بسيطة، الكثير من المال دون بخل، شريك موثوق، ومحامٍ متلاعب..

ألقى لغريمه بطرفِ خيطٍ سال له لعابه ككلب يلهث خلف عظمة، ركض وراءه، سحبه وسقط معه، مشروعٍ ضخمٍ لا يناسب ميزانيته، نقودٍ لا حصر لها، ديونٍ.. انتهاءً بشيكاتٍ دون رصيد كافٍ وقرضٍ ضمانه منزله الذي بات ملكه الآن..

كل شيء بات ملكه، كل ما كان لغريمه أصبح له.. وبقيت هي!..

جدار أمانه الأخير، وملجأه الوحيد..

الزوجة التي باعتْ شقيقتها وعائلتها كلها واشترته..

ثمن باهظ لشيء بخس..

الزوجة التي هتفتْ بخبال لا تصدق جنونه وجنون ما يطلبه:

- أنت اتجننت يا وجيه!..

رفع حاجبًا مستهجنًا وابتسم بسخرية تتلائم مع نظرته المتوهجة بمزيج عجيب من المقت والنشوة والألم:

- مش لدرجة جنون يا هالة، أنا الحقيقة شايف إن استمرارك معاه ضد إرادة والدك وبعد اللي حصل مع أختك هو الجنون بعينه..

مطتْ شفتيها بتهكم مرير تنعي العشق والشيطان واللعنة:

- عشان كده قتلتها بالحياة وسجنته ودلوقتِ...

رمته بنظرة محترقة، محتقرة غاضبة:

- دلوقتِ عاوز تاخد مراته لنفسك زي ما خانك مع مراتك!..

تأملها لحظة بإدعاء صدمة خلَّفت بإثرها قهقهة عالية وترتها، تراجعتْ لها خطوة وكبلتْ نفسها بذراعيها في وهنٍ حتى ملَّ وتوقف على حين غرة يهديها نظرة غير مصدقة:

- أنتِ سامعة نفسك!..

تحرك خطوتها دانيًا منها، مسيطرًا بحضور قاتم على محيطها حد الاختناق والتعثر والبعثرة:

- خانني مع مراتي..

دمدم بالكلمات، مقررًا بسلاسة كأنما لم يعُد الأمر يهمه من قريب أو بعيد، بعدها أشار إليها بامتعاض:

- خانني بس مش لدرجة آخد مراته لنفسي..

مال يهسهس قبالة عينيها تمامًا حتى أنها انتفضت ولم يلاحظ:

- أنا باقرف..

انقبضتْ ملامحها بغتة وكادتْ تصفعه لولا أن تحكم بمعصمها وضغطه بغلظة آلمتها:

- الزمي حدودك يا هالة..

- الزم أنت حدودك يا وجيه..

صرختْ بها فرمى يدها بدفعة لامبالية ونبرته تقسو بجمود:

- حدودي هتكسر كل خيالاتك عن اللي ممكن أعمله فيه جوا السجن..

ابتعد يشد قامته، تستطيل في مواجهة بصرها لترفع رأسها إليه في ضعف مقهور:

- عاوزة تنقذيه؛ هتخليه يطلقك..

فكر لحظة ابتسم عقبها هازئًا بتقزز وعيناه تحاوطان وجهها الباهت الشاحب كالموتى بظفر، كونها غنيمة نهاية الحرب:

- ولو إني واثق إنك لو قلتِ له إن تمن حريته طلاقك؛ مش هيتأخر فيه..

نفتْ بهزات متتابعة من رأسها وصوتها يتحشرج باعتراض:

- راجح مستحيل يطلقني..

غمزها بعبثٍ أذهلها:

- تراهني!..

تحدته وقبلت رهانه.. تحدته أكثر وهي تعلنها بعناد:

- حتى لو حصل واتفقنا على الطلاق، بعد ما يخرج هنـــ..

- مش هتشوفي وشه، ولا مسموح له يشوف ولاده..

بتر خطتها البلهاء بصرامة حادة ألجمتها، ترمقه برهبة..

لهجته، نظرته، هالته التي أظلمت بغتة وغيمة سوداء تظلل مع كلماته المشهد:

- يعني إيه!..

- يعني اعتبريه مات؛ زي أختك بالظبط..

عاد يقترب، يستحوذ، يتسلط ويسطو على كيانها كله بتصريح حاسم:

- مش هتغيبوا عن عيني للحظة يا هالة؛ ولو بلغني إنه قرب منك وأنتِ سمحتِ له.. هيعفن ويموت في السجن..

ثم تمخض فمه عن بسمة أقرب لتكشيرة وحش مفترس:

- هتفضل رقبته تحت إيدي؛ لحد ما السر الإلهي يطلع..

أعتمتْ ملامحه بشراسة أعادت تشكيلها مائة وثمانين درجة، كنيزك ضرب سطح الأرض فبدَّل وجهها ونحته بقسوة الاصطدام للأبد، شراسة لا تشبه المغرم المتفاني، رجل الأخلاق والمُثل والمبادئ ذو البسمة المطمئنة والنظرة الأنيقة الهادئة..

لا تتلاقى معه في نقطة سبق ودمرتها الخيانة:

- أو أطلع روحه بنفسي في يوم من الأيام..

انهمرتْ عبراتها بلا حاجز، وازى انهمارها نحيبًا مكتومًا خدش حنجرتها وهي تحاول سجنه بقلبها المطعون..

لا تصدق أن هذا هو زوج أختها المثالي..

العاشق حتى النخاع..

والمخلص بكل خلية من خلايا جسده ونَفَسٍ من أنفاسه..

المسالم، البسيط، الراقي والحنون.. من هذا!..

تكرر السؤال فوق لسانها دون وعي، فجاوبه هو بخفوت باسم لا يخلو من وجع:

- أنا حاجات كتير قوي يا هالة، وأولها.. الراجل اللي هيحرَّم عليكم الراحة لحد آخر يوم في عمركم..

تلوها زفر بحرارة.. بل تنهد وتنهيدته اعتلتْ سقف الغرفة كلهيب جحيم ثائر:

- لا أنتِ ولا هو، هترتاحوا إلا في القبر..

تلعثمتْ ودوامة الرفض تبتلعها:

- ليه!.. أنا ذنبي إيه!.. ولاده ذنبهم إيه تحرمهم من أبوهم!..

هاجمها بغتة بانقضاضة انحبست لها صرخة بين شفتيها، قبض على لحم ذراعها فانغرست أصابعه فيه بعنف:

- وذنبي إيه!.. ذنب ولادي إيه!..

سار بها تجاه باب مكتبه، دفعها في إشارة لطرد وختم مشهده حيث كان وحده البطل والشرير والضحية:

- زي ما هي ماتت، هو هيموت.. هتفضلوا قدام عينيه ومش عارف يقرب منكم، هيشحت ومش هيلاقي اللي يدي له، هياكل من الزبالة وينام في الشارع.. عشان أنا مش هاسيبه يا هالة..

وفتح الباب بجملة ذبحتها في ثوانٍ:

- موته هو خلاصه مني..

خطتْ بانكسار تغادر..

راقبها هو حتى اختفتْ بظهر منحنٍ عند بداية الرواق.. حينها أغلق بابه وعاد لجلسته التي تركها لحظة حضورها، تمدد فوق الأريكة، تعانقتْ أجفانه في راحة..

ورسمتْ بسمة نفسها على شفتيه في سلام..

فالآن؛ وحشه تلذذ بمذاق دماء فريسته.. وعلى ما يبدو سوف يدمنه!..

**

الصراع بين الخير والشر قائمٌ منذ الأزل..

لا يحدث انتصار لطرف على آخر بشكل حاسم أو دائم وإلا اختلت موازين الكون..

صراع حتمي بين الظالم والمظلوم..

الضحية والجلاد..

البريء والوحش..

في حربه، الصراع يدور بين الشرير والأكثر شرًا..

هنا هي ليست الضحية، المظلومة، البريئة.. وهو ليس الوحش الظالم، الجلاد..

هي من قضمتْ تفاحة الإثم فأخرجته من جنته..

هي من هدمتْ عالمه وأخلتْ بتوازنه واستقراره، هي التي جذبتْ طرف الخيط فمزقته، وهددتْ بالذبح فأفلتَ منها السكين حد تمام النحر..

وعليه؛ فوصوله للجحيم مشروط بسحبها معه!..

فتح عينيه بهدوء، تغيرت وضعية نومه حيث انقلب على ظهره، باتتْ رأسها تستريح فوق صدره، تحاوطه بذراعها ويطوقها بذراعه في تملك تام..

يخمن أنه لم يفلتها طوال الليل، الشمس أشرقت برفق حانٍ يناسب نهار صيف عليل النسمات، لم يتحرك ولم يتبدل إيقاع أنفاسه، ظل كما هو وأفكاره تتطاير بعشوائية في كل اتجاه..

فرُغم النشوة؛ تظلل الصورة عتمة الأمس!..

الصغير الذي استيقظ من نومه في يوم ليجد أنه أمسى وحيدًا بلا أم.. والده وفقط، الذي أخبره ببساطة كأنما الأمر لا يعدو كونه إحدى ألعابه:

"ماما مشيت وسابتنا، مش عاوزة تعيش معانا"..

عشر سنوات إلا بضعة أشهر كانت كل عمره..

والدته، ملاذه وموطنه.. تركته!..

وقتها بكى كثيرًا، غضب أكثر، كرهها، كره أبيه.. واستقر في الختام على كره نفسه ثم اتهمها بأنها السبب..

نفسه من أغضبت أمه، لم تنصت لكلامها أو تتبع أوامرها فهجرته..

ومرتْ عشر أُخرى حتى ظهرت في عالمه مرة ثانية..

ظهرت بحقائق كارثية، كان قد بدأ عمله مع أبيه قبيل ثلاثة أعوام بموازاة دراسته، تقبل أنه بات يتيمًا، أنها رحلتْ عنه بلا رجعة وباختيارها الحر.. والوالد أعلمه بالنبأ الأهم بعد عدة أعوام..

لقد غادرت الدولة بأكملها مع زوج جديد!..

باكتمال عشر سنوات عادتْ، عادتْ في لحظات وداع قصيرة وصغيرًا تحمله بين يديها، يتشبث بها في خوف بعد وفاة أبيه قبل مولده دون أن يراه..

وإثر علمها باقتراب موتها!..

قصة سوداء لا تشبهه، قصة أمسكت بلجام غضبه وجنونه واندفاعه فكبلته، ملامحها كانت كما هي..

وابنها الذي تخبره أنه أخيه الأصغر يشبهها، له ذات العينين والخصلات.. مثله هو!..

تتعلق بيده وتؤمِّنه عليه.. تتلو على قلبه صلاة صامتة من خوف ووجع ووحدة ورحيل مرتقب..

تحكي له ما فاته، وما عاش في ظله من كذبات!..

فالأب ليس هو المثالي الذي ظنه، وهي ليست الخائنة الهاربة مع حبيب سارق.. هي المُخانة، المهدور حقها، المسروق منها سعادتها وطفلها.. هو سُرق منها كما سُرقتْ منه..

عقاب والده على هجرها له بعدما اكتشفتْ خيانته ورفضها الاستمرار.. كان حرمانها منه، التضييق عليها وعلى أسرتها متوسطة الحال حد فرض الفرار مع أول فرصة سانحة بصحبة زوج جيد ومحب مخلص.. حقائق لم يستطع ابتلاعها فما باله بهضمها!..

حقائق لم يتأخر في مواجهة الوالد بها، والصدمة كانت تأكيده لها.. ثم محاولة قلب الطاولة لصالحه، فهي الزوجة التي لم تكفِ زوجها وعندما ضعف وخان واعتذر رفضتْ اعتذاره وأهانته ثم أصرتْ على الفراق..

وللفراق ثمن باهظ؛ كان هو..

ابنها الوحيد الذي حُرمتْ منه وحُرم منها والداعي؛ شهوات رجل!.

عالمه تهدم في لحظات، كره كل ما فيه، كره زيفه وخداعه وتضاعف غضبه وتهوره وطيشه..

تعلم القسوة وقررها خريطة درب الغد، فخريطة الأمس مغلوطة أسقطته في متاهات الغفلة والحُمق..

تعلمها وأتقنها وبات فيها الخبير.. خاصة إثر فراقها، ماتتْ بمعاناة هائلة.. فقدها في طفولته، وفقدها في شبابه.. وكِلا الفقدين عذاب، ظلت لأشهر تكابد آلامها، وهنها، ضعف جسدها حتى استسلمتْ لراحة السكن في قبر..

وهو رفض كل قرب من أبيه، كل محاولة إصلاح.. تباعد حتى أجبرته ظروفه وظروف عنايته بأخيه على العودة..

عاد.. ووضع شروطه التي لم يخِل بها لليوم..

كان أولها.. أهمها وأقربها إليه؛ أن يظل الصغير معه، هو سيربيه ويعتني به كقطعة منه، حتى وإن كان لهما خالًا لا يعلم الكثير عنه.. حيث لا يستقر لأكثر من شهرين في بلد..

ظل بصحبته رُغمًا عن أنف الخائن والمسمى والد، يهتم لأمره، يكبر أمام بصره، يراقبه.. يتزوج وتستقر حياته وإن كانت الزوجة مدللة بعض الشيء، يموت العجوز.. وتبدأ عجلة الحياة في سحبه إلى أن أتتْ ضربته القاصمة..

طفله على وشك الفراق كمن سبقته..

ورم يقضي على الأخضر واليابس داخل جمجمته، ورم شرس يجب استئصاله وإلا سيقربه من الموت بأسرع مما قد يتخيل.. بدأتْ سلسلة طويلة من العلاجات، الاستقرار الذي بات حتميًا بمشفى راقٍ له سمعته الجيدة.. توزيعه لوقته بين العمل والبيت والزوجة.. والصغير..

ثم حُدد موعد العملية الحاسمة، تلك التي من المفترض أن تنهي الكثير مما تبقى من ورمه، ليحيا بأمان..

تأخر في سفرة عمل لساعة واحدة، ساعة انقلب على إثرها عالمه بأكمله.. فعندما عاد، كان طفله قد فقد بصره!..

هو له نصيبه من الإثم و"لو" تفتح الكثير من الأبواب الشيطانية أمام عقله، أما هي..

هي بذرة شجرة الخطيئة وأوراقها الوارفة وثمارها المغوية..

هي الجانية، الآثمة..

هي من بدأت حبكة روايتها، وهو من سيتممها كما يريد..

هو الآن في تخطيط حاسم لضربته القاضية التي سلبها وعيها لأجلها، أوراق التوكيل العام وقد وضعتْ فوقها توقيعها حال غيابها، ستمنحه السيطرة على كل ما تملكه.. وينهيه!..

انتزعه من أفكاره تململها، رفة أجفانها، ذراعها التي تنفك عنه لتدس أناملها بين خصلاتها المنثورة على صدره وتبعدها عن وجهها..

ركز بتدقيق، أنفاسها تتسارع بحدة مباغتة.. جسدها ينتفض، كلها تنتفض.. تبتعد برجفة مفزوعة وشهقة أقرب لصراخ..

رد فعل درامي يشبهها، بل يشبه كل أنثى..

تظاهر بأنها أيقظته، فتح عينيه وتمطى بابتسامة كسول:

- صباح الخير..

اندفعتْ تكاد تركض فوق الفراش، تراقبه يعتدل مرتكنًا لمرفقيه، يتأملها بعبث ممتلئ كأنما قضيا ليلة لا يباح نسيانها، تتباعد أكثر حتى تكررتْ شهقتها بينما هي تسقط تجاه الأرض..

لولا أن قبض على معصمها وسحبها بقوة ألقتْ بها بين ذراعيه:

- في إيه!.. مالك!..

أبعدته تتعثر في نهوض مرتبك، تحاوط جسدها بالغطاء وتتلفتْ حولها بجنون:

- إيه اللي حصل!.. أنا.. أنت.. إزاي!..

استدارتْ إليه فجأة ترمقه بنظرة مختلة:

- إحنا حصل بينا إيه!..

رفع أحد حاجبيه بدهشة بدتْ لها حقيقية للغاية، غادر الفراش واستقام يرتدي سرواله، يدور في الغرفة متجهًا نحو ثوبها المرمي جوار بقية ثيابها وثيابه بفوضى، أمسكه بقبضته وأشار به يحشره في مجال بصرها المذهول:

- ده حصل بينا..

تفحصتْ الشيء القصير بيده، هي لن ترتدي مثله.. لن تفعلها أبدًا، لا يشبهها أو يشبه تحفظها وخجلها المعتاد..

كاد يطيش اتزانها، تجذب خصلة من شعرها بقسوة وتهمهم من بين اختناق أنفاسها:

- يعني إيه!..

رماه من يده يقلد طريقتها في إغوائه ليلة أمس فتوسعتْ عيناها بوجوم، اقترب منها.. ابتعدتْ ناحية الطرف الآخر من فراش ما تظنه إثمها، عقد ذراعيه ووقف يواجهها:

- أنتِ فعلا مش فاكرة، ولا دي لعبة معتقدة إنها هتنطلي عليَّ!..

استقامتْ تلف الغطاء بعنف حولها، تحاول التذكر، تضيع أفكارها وتتيه في تشتت، هناك شيء ينبغي فعله وهي لا تعلم ما هو، لا تستدعيه ذاكرتها بشكل كافٍ..

نعم.. ينبغي أن ترتدي شيئًا أولًا!..

أوشكتْ على الحركة حين أوقفها بسؤال بدت لهجته فيه مهتمة مبالية:

- أنتِ جالك blackouts قبل كده!..

التفتتْ تهديه نظرة قاتلة لم تخلُ من الشتات والبعثرة، تتابع خطواته، دورانه ودنوه واللقاء على بُعد نصف متر وازى بسمته الماكرة:

- ولا نقدر نقول إن دي حال نفسية!..

- تقصد إيه!..

هدرتْ بها غاضبة لا تستوعب كامل المشهد بعد، مط شفتيه بتبرير بسيط منطقي للغاية بعثرها أكثر:

- عاوزة تعيشي معايا حياتك بقلبك وعقلك الباطن، بس عقلك الواعي بيعاند!..

نفتْ برأسها في حركات سريعة متتابعة، تتراجع خطوة واسعة فتصطدم بطاولة جانبية صغيرة، تنقلب عيناها، تدور في تعب وتعتصر ذهنها.. لن تصدق..

هي لن تفعلها وإن كانت غارقة في عشقه!..

لن تسلم جسدها لقاتل أبيها..

سلمته القلب بغفلة منها، فكيف لوعيها أن يمنح ما هو أكثر!..

لا.. هو فعل شيئًا، وستعرفه!..

اقتحمتْ عينيه بنظرة ساخطة لم تتماسك بالكلية بعد:

- أنا مش فاكرة حاجة!..

عاد لدهشته المدعاة، يفرد كفه فوق موطن قلبه.. ويفتعل الألم والصدمة:

- أوه.. You broke my heart..

دفعته من طريقها، تتجاهل ردوده التي ترفع من معدل عصبيتها وشكوكها حد الخبال المحتم:

- أنا ليه مش فاكرة!..

استدارتْ إليه تحدجه باتهام صريح:

- أنت إديتني إيه!..

لو كانت بمشفاها لعلمتْ في دقائق وبتحليل بسيط، لكن في سجنه ماذا بيدها أن تفعل!..

بذات اللحظة التي نطقتْ سؤالها استشعرت الثقل يطوق عنقها، ويسقط ليلامس بداية ظهرها وجيدها، مدتْ يدها تتحسسه حين وصلتها ضحكته الهازئة، أهدته نظرة سامة لم يأبه لها.. اللعب معها ممتع، ومثير للفضول.. لمزيد من الاستكشاف، شيء طريف أن يصطنع قواعد لعبة مسلية، لعبة تشملها قيد أصابعه.. وأنشوطته تغلها إليه، ربما تفقد عقلها عما قريب؛ وياله من نصر!..

رد بجوابٍ ساخرٍ:

- إيه!.. شربتك حاجة أصفرا!..

لامستْ قلادته الخانقة، تفحصتها بأناملها في حيرة وسكون واجم قبل أن تجذبها دفعة واحدة فتفصمها لنصفين، تتناثر منها عدة لآلئ تحت قدميها، ترميها إلى أبعد ما يكون وتصرخ بانفعال منفلت:

- إيه ده!.. أنا عاوزة أفهم!..

أظلمتْ نظرته مع رؤيته لهديته تتدحرج في المكان، تجمد صوته وشاع في نبرته الجليد:

- دي كانت هدية مني، والحقيقة أنا مش عارف أقولك إيه!..

مضغ كلماته تحت ضروسه فطحنها بسخط لم تدرك صدقه من كذبه وهو يتحرك مقتربًا منها:

- أنتِ جيتِ لي مكتبي وأنا سهران على ورق مهم، بالفستان ده..

امتدتْ سبابته في إشارة وقحة لثوبها الملقى أرضًا، ذلك الأحمر الناري الذي لا تعلم من أين أتى!..

أو حتى كيف يمكن أن ترتدي مثله باحتشامها الدائم!..

هو يكذب.. يتلاعب..

يحركها كدمية بخيوط خفية لا تراها واضحة لكن حدسها يعلمها، البركان على وشك الثورة.. تريد أن تلم بجوانب ما حدث جميعها:

- والباقي أنتِ عارفاه..

مر بذات السبابة فوق ذراعها العاري، ارتعدتْ تنفر منه، تنهره بزمجرة شرسة ابتسم لها معللًا بنظرة طافتْ حول جسدها ومفاتنها التي لم يفلح الشرشف في مداراتها بالكامل:

- ما قدرتش أقاوم جمالك، مش هنكر..

قستْ عيناه بنظرة حجرية تسن قانونًا جديدًا من قوانين لعبته التي يبدو أنه يلعبها وحده:

- أنتِ مراتي وده حقي..

لم تستطع سماع ما هو أكثر..

التفاصيل تخنقها، الذكرى غائمة كضباب مُبيح لكل حادث ممكن، والوعي يتأرجح بين التكذيب والتمسك بكونه تخلص منه عامدًا لينالها..

هتفتْ تمنعه من الاستطراد بأنين حائر:

- اسكت.. اسكت..

اعتصرتْ جانبي رأسها بأصابعها في صداع، صراع مُنهِك، تجاهد لاستجماع رماد أفكارها المحتدمة:

- أنا محتاجة أركز..

بعدها نظرتْ إليه تطرده بحسم:

- اطلع برا..

تضاعفتْ القسوة بحدقتيه، أعتمتْ النظرة أكثر فأكثر، واقتنص خطوة ليشرف عليها بقامته الطويلة، يتحكم بعنقها وذقنها.. كان نصف وجهها بقبضة يمناه بينما اليسرى تعتصر خصرها بغلظة أطلقتْ منها شهقة رُغمًا عنها:

- كنت فاكر إننا سوينا النقطة دي؛ بس واضح إنك مش فاهمة قوانيني كويس..

تراجع يهرسها على جدار بارد، يميل قرب ثغرها وحرارة أنفاسه تتناقض والبرودة التي تلسع ظهرها.. العبرة التي تحرق أجفانها المثقلة بها وتحجبها الكرامة عن الهطول، يسجنها الإباء وتحبسها كبرياء امرأة لن تترك لقلبها مقاليد الحكم أبدًا:

- أنا إديتِك كل الوقت اللي ممكن تحتاجيه، عشان تستوعبي هدف ومعنى وجودك في البيت ده..

خرجتْ إثر لحظة صمت كلماته مستهينة، تتجاهل حنق ملامحها ونيران عينيها:

- لكن واضح إنك عاوزة تتعبيني..

ثم ابتلع أنفاسها وشفتيها في قبلة كالصخر، صلبة جافة، مؤلمة خانقة.. قبلة يخط بها صك الامتلاك، ويفرض معها خطوط الولاء والخضوع..

تلك خريطة لا يباح أن تنشق عنها..

لا يحل لها التمرد..

بل حتى لا يجوز أن تُحلق في ذهنها فكرة؛ سوى الاستسلام..

لذا سيكسرها مرة بعد مرة، ألف مرة، سيدهس حطامها تحت قدميه العاريتين.. يمر فوقه فيفتته لشظايا لن يبالي إن جرحته..

هو يشتهي نزفه ووجعه مادام هشيمها سيكون السبب!..

لكمتْ كتفيه تبعده بمقاومة حادة لم يكترث لها وهو ينهل منها بتسلط، يحررها وقتما يشتهي..

لقد قدم البرهان، أثبتَ بالدليل أنها في عالمه محض سبية من حرب خاسرة:

- أنتِ مراتي، وقت ما أعوزك ما أسمعش كلمة لأ..

تركها إلى الحمام بصفير منغوم منتشٍ يواكب شعور الظفر الذي يحتله..

ذبحها.. أشعل وساوسها.. أودعها مصحة جنون تخصها..

وما خفي لهو أعظم!..

**

الماضي باب مغلق، مفاتيحه دومًا في متناول اليد..

نحيا.. نتناسى ونظن أننا نسينا..

الحياة تمر.. اللحظات تمر..

والبقية تظل في حيز الذكرى دون انفجار؛ حتى نضغط الزناد.. حينها ترتد رصاصة الإدعاء لصدورنا..

نتواجه مع ما آمنا أنه مضى ورحل..

فنجد أنه لا يزال حيًا بالقلوب.. بالعيون..

بالأرواح التي تلاقتْ في عناق مشتاق رُغم تباعد الأجساد..

جلستْ وإياه على مائدة بأحد المقاهي التابعة للفندق، ترتشف قهوتها بالحليب ونسي هو عصير الخوخ بالبرتقال الذي أمرتْ به له..

كانت تتذكر ويتذكر..

النظرات تحكي ألف رواية ورواية، وتغض الطرف عن صمت اللسان وصراخ النبض..

تعاتب ويهرب.. تهاجم ويدافع.. تلوم ويُعلن الندم!..

حتى همستْ أخيرًا بنبرة هادئة مختنقة بطوق عشرة أعوام من الفراق:

- ملامحَك اتغيرت كتير..

وتاهت بعينيه لحظة كأيام عشق خَلَت:

- عينيك..

ابتسم بشجن؛ دومًا ما كانت تقرؤه..

تهديه بحضورها سلام نفسه، وبعشقها أمان روحه..

ابتسم وشجن بسمته تمخض له قلبها عن ألم في المقابل:

- تفتكري بعد كل ده هافضل زي ما أنا!..

رمشتْ بحيرة، تنهدتْ بينما يغير هو فحوى الحديث بعيدًا عنه:

- أنتِ اللي ما اتغيرتيش..

- بجد!..

تشتتْ بسمته بين حب كان، وحياة كائنة في كل دقيقة:

- بجد.. عينيا دايما بتلاقي راحتها في عينيك..

مال يسعى بتردد للمس كفها فوق الطاولة بينهما:

- نفس النظرة اللي كلها اهتمام وقوة وثبات.. وشجاعة..

أبعدتْ يدها قبل أن يمسَّها، أدارتْ وجهها عنه وعتابها يتحرر من لجام سيطرتها، بغضب سجين صدرها منذ سنوات:

- شجاعتي ما كانتش كفاية يا يزن..

انحسرتْ ابتسامته ببطء، تراجع في جلسته بتعب غريب..

قلبه متعب.. روحه متعبة..

حتى أفكاره في دوامة خانقة لا نهائية:

- عشان الخوف كان أكبر مننا إحنا الاتنين..

- خوفَك أنت..

كانت تحدق بعينيه في قسوة، لقد خذلها يوم بقيت إلى جواره، دفعها لأبعد ما أمكنه.. أجبرها على الرحيل كما أُجبر هو من قبل، ومذاق القهر قاتل..

أكملتْ بشرود ساخط على ما مضى وما هو آت:

- اتغيرتْ كتير يا يزن..

ثم ابتسمتْ بشبه سخرية مُرة:

- بس أنت مش عاوز تشوف التغيير ده، فاكر إننا لسه عايشين في إمبارح..

مرار بسمتها انتقل لشفتيه وعينيه، جاوبها بحنين:

- يمكن باتمنى نكون لسه عايشين في إمبارح!..

هاجمتْ بتهكم موجوع:

- ويا ترى رد فعلك كان هيتغير؟..

تعلق بصره بها كأنها الحياة.. كأنها غيمة ماطرة في يوم صيف حار، جاف:

- يمكن..

حركتْ رأسها ترفض خنوعه غير المبرر:

- ماكانش هيتغير.. كنت هتبعدني عنك وتعيش دور الفارس النبيل تاني..

اختطفتْ من شفتيه ضحكة خافتة هازئة:

- الفارس مات من زمان..

اعتدل في مقعده وظلمة مقلتيه تزداد عتامة:

- الموجود دلوقتِ أناني؛ ما بيسيبش حاجة عاوزها لغيره ياخدها منه مهما كان التمن..

نبرته كذلك كانت قاتمة.. لهجته..

حركة كفه وهي تعيد ترتيب خصلاته التي لم يُقصرها منذ عرفته..

انقبض قلبها الذي عرف بنقائه فيما فات من عمر:

- ياريتك كنت أناني وقتها..

- ماكنتيش هتتحملي..

- ده مش قرارك عشان تاخده بالنيابة عني..

ونقرتْ فوق الطاولة بإيقاع غير متزن:

- ده اختياري، حريتي.. بس كالعادة أنت اتصرفت بجُبن..

دون وعي علا صوته بشبه زعيق:

- ماكانش جُبن..

- يزن.. وطي صوتك من فضلك..

زم شفتيه بحنق وأنفاسه تتسارع باحتراق، أردفتْ بعتاب:

- أول مرة...

- كنت خايف عليكِ وعلى أهلِك..

بتر تذكيرها له بشناعة تخليه عنها، فأكملتْ بعينيها صامتة..

صمته هو كان عودة للماضي، لأيام من القهر والضعف والعجز، لأيام من الخذلان!..

لتهديد جده بأذيتها إن لم يرتجع عن عشقه لها..

عن رغبته في الزواج منها قبل عامه الجامعي الأخير..

"أظن مش محتاج أقولَك أنا ممكن أعمل فيها وفي أهلها إيه!"..

حينها صرخ.. أعلن الغضب.. قلب مقعدًا وحطم مزهرية وتوأمه يحجمه عن مداهمة جسدية لجده العجوز:

- أنت بتهددني!..

يزعق بلا رادع، ويجابه بكل انفعال متاح، لكن الحوت ظل شامخًا في وقفته.. لا يرمش، لا يهتز، لا يتراجع.. لا يبالي بقلبه العاشق المكسور:

- أنا بافوَّقك..

رفع رأسه بتجبر بينما كبرياء نبرته تحاوطه حد الاختناق:

- لازم تكون عارف مقامك.. وحجمها..

نطق آخر كلماته بازدراء والأخ المحشور بمنتصف حلبة الصراع يلوم الجد بنظرة مخطوفة.. ذراعاه تمسكان بأخيه قسرًا تفاديًا لهجوم متوقع:

- والله لو على الفلوس فأنا عندي منها كتير، بس في حاجات تانية أهم هي عندها منها أكتر..

نفض عقبها توأمه عنه، دار حول نفسه و"يامن" يراقبه بحذر:

- أنت عايش في زمن ماحدش لسه عايش فيه غيرك..

- كل اللي قلته ده يا يزن صفر بالنسبة لي..

كأنه لا يَبَح صوته معه..

كأنه لا يبرر ويدافع ويريد..

كأنه لا يعشق!..

- قراري مش هيتغير..

اقترب بتؤدة، يشد قامته في مواجهته بصرامة قاسية لا جدال معها:

- الحب ده تنساه..

- زي ما نسيت رغبتي في دراستي والمجال اللي كنت عاوز أشتغل فيه؛ مش كده!..

لم تتضاءل صرامة الجد مثقال هفوة وهو يجيبه ببديهية أججتْ نيران قلبه وأعصابه أكثر:

- الحياة كده يا يزن؛ اختيارات وأولويات.. اتعلم إن دايمًا الأولوية تكون هي اختيارك..

- أنا اخترت دُچى..

نطقها بتحدٍ قابله الجد ببرود مخيف:

- يبقى ما تلومش إلا نفسك..

وتركه يكاد يتحول لرمادٍ بوقفته وسعير روحه لا يخبو:

- مافيش حاجة اسمها حب تضحي بمركزك الاجتماعي عشانه..

تركه يتلظى فوق جحيم مخاوفه.. ضعفه.. جُبنه..

واختيار الهروب..

تركه على عتبة بوابة التمرد الواسعة التي انتهت به بفراش رجل آخر، بأحضان امرأته في وضعية خيانة أتاحت له تكبيد الحوت خسارة فادحة لم ينسَها للآن!..

"أنا اتجوزت"..

همستها تخللتْ غيابه الشارد بتقرير مهزوم، رمقها بنظرة تائهة قبل أن ترتجف شفتاه بإنهاك:

- حقك.. أكيد مش هتعيشي على ذكرى الحب وأمنية الرجوع..

- تلات سنين.. بعدها اتطلقت..

تعلق ناظريه بها في دهشة.. في أمل لمحته فنبض فؤادها باسمه:

- كان راجل مثالي؛ بس ما قدرتش أحبه..

سَكَنَ ينتظر كلمتها التالية..

صمتَ يحترق في توق وعيناه لا تبتعدان عن شفتيها عندما أكملتْ بتمتمة مستسلمة:

- ماقدرتش أحبه عشان.. لسه بحبَك..

تعانق جفناها في هروب..

أبعدتْ وجهها عنه وتنهدتْ تلقي على كاهله بالذنب:

- كان ممكن نكمل يا يزن بدل سنين الفراق..

مد يسراه يحتوي يمناها فلم تبتعد هذه المرة:

- أنا كنت مطرود، كنت ضايع وهاضيعك معايا..

كان منبوذًا بعد علاقته المشينة بزوجة شريك جده..

أتتْ معشوقته إليه تخبره أنها هنا، ستظل هنا.. لكنه هو من أبعدها.. وبإرادته الحرة!..

- وعدتَك إني هاقف جنبك، مش لازم تكون مليونير وتعيشني في قصر.. كنا هنعيش مع أهلي، نتخرج ونشتغل سوا.. نبني بيتنا حجر حجر سوا.. نكمل حياتنا سوا..

- دُچى!..

كان ينهرها، ينهر دمعة ارتحلتْ عبر أهدابها السوداء الطويلة ولمعت في زرقة حدقتيها كألف شمس، ارتجفتْ يدها بيده وسألتْ بوجع:

- ليه ما حاربتش معايا ضعفك ووحدتك وخوفك يا يزن!..

هز كتفيه وتحجرتْ الكلمات على طرف لسانه، بل غص بها في حلقه وأعماق قلبه قبل أن يقذفها فربما ينال بها راحة:

- كنت جبان، ضعيف زي ما بتقولي.. ماكانش عندي قوة كفاية زيك عشان أحارب معاك في حرب حاسس إني مش قدها..

سحبتْ كفها منه فتشبث بها، لكنها أصرتْ بغضب:

- وكانت النتيجة إيه!..

بلحظة تجمدت ملامحها، جفت عبرتها، توقفت أرضها عن الدوران ووجمت كل أصوات الكون..

فهناك حول بنصره الأيسر، تبرق حلقة زواج أمام عينيها..

- أنت متجوز!..

فرد أصابعه أمام وجهه ينتبه لخاتمه كأنما لم يره من قبل، يتأمله بضياع مؤقت..

ارتطم بقاع هاوية الخسارة بغتة..

نعم.. هو متزوج، وعلى وشك نيل لقب الأبوة.. هو لديه امرأة أخرى تعشقه وإن لم تسكن المغبون في كل معارك العشق بين ضلوعه..

جموده منحها الجواب فاستقامتْ بحدة:

- وجودنا مع بعض دلوقتِ مش صح يا يزن..

وقف يواجهها بتشبُث..

كأنما سيعاد الفقدان.. سيتكرر الخسران..

تراجعتْ خطوة تدور حول مقعدها، تتباعد عنه قدر ما يمكنها:

- إحنا كنا قصة نهايتها مش سعيدة، ومافيش نهاية بتتعاد.. بيتك ومراتك وو..

تحشرج صوتها بوهن:

- وولادك لو في أولاد، دول أولى بيك..

أولاده!..

الكلمة ذبحتها.. دومًا ما كانت أمنيتها أن يكون هو أبًا لأطفالها..

والآن هو له حياته التي لن تهدمها..

لحق بها في تعثر:

- دُچى.. استني..

نفتْ برأسها في حركة عنيفة وذراعها تمتد لتوقفه، تصنع بينهما حاجزًا وهميًا يصل لعنان السماء:

- يزن من فضلك، أنا كنت محتاجة خيط أخير يتقطع..

زمتْ شفتيها تضغطهما حد الأنين بين أسنانها:

- وخلاص اتقطع..

بعدها ركضت.. ركضت حقيقة لا مجازًا وتصلب هو في وقفته يتابع فرارها منه بضياع.. عذاب الفراق يحاصره..

ونفسه التي تهفو لنصفها الغائب؛ سقطت بوسط بحر يأس موجه عالٍ وقاعه عميق، لا نجاة منه..

هو عاشق مكلوم في عشقه..

ومعشوق خائن لمن منحته القلب والحياة..

هو الحائر الذي لا يصل للكمال أبدًا..

هو المشطور لنصفين في صراعٍ دامٍ..

رجل نصفه إن اختار العشق خسر..

والنصف الآخر إن اختار اللاعشق أضاع روحه..

فكيف يلتقيان!..

**

فراغ!..

هوة واسعة قاعها سحيق معتم تستحيل رؤيته..

بهذه اللحظة هناك خواء بداخلها يتسع بلا هوادة، دوامة من الظلمة الفارغة ابتلعت كل ما فيها..

لقد باتتْ امرأة خاوية والشكر له..

فقدتْ زوجها ثانية، مات حبيبها مرة أخرى.. أتاها في حلم أقرب لكابوس مظلم، ينهرها ونظرته تقسو كما لم تفعل من قبل:

"خلاص يا شمس؛ نسيتيني"..

لا ينطقها بنبرة سؤال، بل يقرر ويغضب ويقترب بحزن:

"أنتِ مش كده يا شمس، إوعي تضعفي"..

اقتربتْ بالمثل تسقط في أحضانه التي تتوق لضمة أخيرة منها، تبكيه وتبكي روحها وجسدها المهان بين يدي شيطان مريد:

"ما تبعدش عني وأنا مش هاضعف، أنا من غيرك مش عايشة يا يامن، باموت معاه في كل لحظة، لولا ابننا كنت جيت لك"..

تراجعتْ تلومه بنظرة مبللة بعبرات الأنين:

"أنت سيبتني، مابقيتش تزورني"..

مسح دموعها بإبهامه برفقٍ حانٍ:

"كنت زعلان، غيران.. أنتِ بقيتِ ملك واحد غيري"..

بسمتها كانت مُرة كحنظل مقبض:

"لو حياتي كلها ملكه، قلبي ملكك أنت.. ما تسيبنيش تاني"..

ضمها إليه فأغمضتْ عينيها تستشعر أمانه، تغرق فيه:

"اوعديني قلبك مش هيكون لراجل من بعدي"..

همستْ بالوعد من داخل حلمها الباهت قبل أن تستيقظ على حقيقة الوحدة دونه:

"أوعدك يا يامن، أوعدك"..

أعادتها كثيرًا قبل أن يطفو الواقع فوق سطح الخيال فيدهسه، الآن يتكرر شعور الخسارة والضياع والوحدة..

الآن هي تكره نفسها أكثر مما تكرهه..

الآن تود اقتلاع خافقها المشفق عليه من مكمنه وإشعال النار فيه، إحراقه في جحيم الألم المُعاد مرة بعد مرة..

هو لم يفُز؛ بل هي من خسرت..

هي من منحته أنشوطة الموت ليلُفها حول عنقها ببساطة..

هي من خاضت تحديًا ليست أهلًا له، وإن سمح لها بالانتصار في جولة فقد حسم المعركة النهائية لصالحه..

كشف أمامها قصور مشاعرها، عرَّى أمام عينيها حقيقتها بخيانتها للمعشوق..

هتك سِتر الإيمان بحب خالد، وأعادها لأرض واقع؛ لا شيء.. لا أحد فيه سيدوم..

مزَّق ورقة التوت عن قلب لطالما ظنَت أن ملكيته لا تتجزأ.. وبابه مغلق دون من رحل..

لكنه ليس له.. لن يكون له..

هي ليست امرأة حسية، بل امرأة تجيد المنح بالعاطفة وحسب..

فهل لامس هو وتر عاطفتها!..

هل عزف فوق خيطه المشدود لحنه الشيطاني حتى انقطع!..

لا..

انتفضت من جلستها الشاردة بحديقة المنزل، تدور بلا هدف.. تتذكر ليلتها بعد هروبها مهزومة من مواجهته..

تتذكر عينيه.. احتقاره..

تستعيد أنفاسه فوق بشرتها، يداه حول جسدها، لمساته؛ وقفتها تحت الماء تحُك جلدها بعنف..

تبكي بشبه نواح مكبوت..

وتحُك جلدها بقسوة..

تضرب رأسها في الجدار بتتابع رتيب نادم..

وتحُك جلدها بغلظة..

تحُكه بغضب..

تتأوه بخفوت واهن بعدما كشطته وانبثقت نقاط من دماء لتختلط بالمياه ثم تذوي بلا أثر..

ترتجف، تلعنه وتلعن نفسها.. تنشج بوجع وتتوسل مالك الروح والقلب الصفح، تناشده الغفران..

ترتدي مئزرًا وتتعثر في خطواتها إلى فراشها، تنطوي فوقه كجنين يفتقد دفء رحم أمه، عبراتها لا تتوقف..

تبلل وجنتيها، الوسادة.. وهي تنكمش في تعب.. في ذنب..

حتى انتزعها من غيابها بكاء صغيرها، ركضت إليه تضمه لصدرها، تعود به للفراش وتحتويه بحنو، تهمس له فتطمئنه بوجودها وهي من كانت في حاجة لطمأنة منه..

تتشممه.. تفتش فيه عن أبيه..

تتوسمه في ملامحه، عينيه، خصلاته، ورائحته.. تكاد تجزم أنها منه..

لقد خانته!..

هي لم تكن مع زوج.. لم تكترث بتسليمه الجسد دون الروح، دون القلب، دون الفكر والعقل والمشاعر..

لم يذهب معها لأعمق من السطح..

لم يتخطَ القشرة..

لكن بعد تلك الليلة.. لا؛ هي كانت مع رجل آخر بكل كيانها..

ووصم الخيانة حقيقي حد الألم..

كانت في وضع خطيئة.. خطيئة لن تغفر زلتها لروحها أبدًا..

سقطة لن تقوم منها سوى بخطوة واحدة!..

هرولت في عدو مرتبك إلى غرفة مكتبه.. الآخر بعمله مع أخيه، وهو وحده بالمنزل معها؛ طرقت بابه بتردد لم يحسمه سوى غضبها، لم تنتظر إذنه، فتحته واندفعت للداخل خطوتين جمدتْ بعدهما في مكانها تتطلع إليه بتوتر متشنج:

- خير يا شمس؟!..

ازدردتْ لعابها باختناق وأكملتْ سيرها حتى اقتربتْ:

- جدو يونس، ممكن أتكلم مع حضرتك شوية؟..

أغلق الملف بيده، كانت أوراقًا تخص صفقة ألمانيا الأخيرة والتي اقترب موعد توثيقها، خلع منظار القراءة خاصته وأشار إليها بهدوء مبهم لم تعتده منه:

- تعالي.. اقعدي..

ظلت على وقفتها دون خطوة زائدة..

مرتبكة، حائرة.. غاضبة وتتألم..

فركتْ أصابعها بقسوة قبل أن تندفع بحدة:

- أنا عاوزة أتطلق..

لم يفاجئه الطلب، قدر مفاجئته بامتلاكها شجاعة التصريح به!..

أهداها نظرة تحمل ذات الهدوء الذي توجست له أكثر، كرر إشارته:

- طيب اقعدي عشان أفهم..

تراجعتْ للخلف ونبرتها تتحشرج:

- مش عاوزة أقعد، أنا عاوزة حريتي..

وبلا انتظار لرده أكملت بوجع:

- أنا عارفة إن حضرتك رهنت وجودي في البيت هنا مع ابني بجوازي من... من يعقوب..

تلعثمت في مرور اسمه من بين شفتيها كأنما ذاك في حد ذاته خانق:

- بس.. أنا عاوزة أتطلق..

ظلتْ عيناه على سكونهما.. هو يفهم.. يدرك..

كان ذاك هدفه ويبدو أنه وصل إليه بلا عناء..

هي لم تنطفئ بالكلية؛ لكن دفئها، نورها محجوب خلف غيمة شتوية هائلة أصابتها بالعتمة.. خلف ضباب قاتم مُقبض..

تذكر حفيده.. موته.. ثقته..

والخسارة التي لاتزال بمذاق العلقم بحلقه..

سمعها تردف برعشة طالتْ صوتها:

- ده حقي.. زي ما حقي أكون مع ابني، يا تخليني معاه يا تسيبني آخده وأمشي..

تبدلتْ نظرته لغموض أقلقها بينما يسأل:

- ولما تاخديه وتمشي؛ هتروحي فين!..

- مش مهم..

هتفتها بشبه صراخ.. عذاب، بعده تعود لتقترب وتلوم:

- ما بقيتش قادرة أتحمل عقابك..

وخزتْ صدرها بإصبعها:

- بتلومني إني سرقت منك حفيدك!..

ثم وجهت إليه إصبع الاتهام بوجع:

- أنت اللي ضيعته من إيدك..

خطوتين.. وكانت أمام مكتبه، ترتكن إليه بكفها في ضعف يناقض هجومها:

- أنت اللي عيشته في خوف خلاه يخبي جوازنا عنك..

لوحتْ بذراعها في تعب:

- رسمت له خط سير لو خرج عنه يتعاقب بالنبذ والحرمان..

بإثرها تنهدت بإنهاك كامل يخترق خلاياها خلية خلية..

أفكارها، فكرة فكرة..

يمزق أحشائها ويترك بداخلها فجوة سوداء تنهش كيانها بأكمله بلا رادع، بلا مضغ، تزدرده في قضمة كالشوك:

- خاف تعمل معاه زي ما عملت في يزن، كان عارف إنه مش في قوة يزن.. مش هيقدر يعيش في الغابة اللي أوهمته إنها برا جدران سجنك..

كانت تهاجم دون إرادة.. ولا تدرك أنها تهاجم، فقط تفرغ مخزونها من الحسرة والخسارة بوجهه:

- ماكانش قدامي غير إني ألجأ لك بعد ما أهلي حاولوا يجبروني أتخلى عن ابني وأكون لراجل غير يامن الله يرحمه..

انهارتْ فوق المقعد الذي رفضته قبل دقيقة:

- ماكانش عندي مكان أعيش فيه ولا دخل ثابت يكفيني أنا وابني، مجرد شغل في مكتبة يادوب مرتبي منه كان بيخلص في المواصلات..

كررتْ توجيه سبابتها نحوه برعدة:

- جيت لك بحتة من حفيدك اللي خسرته، فقررت تعاقبني على الخسارة دي..

سالتْ دموعها بلا انتباه:

- ارحمني.. أرجوك ارحمني..

هل يؤذيها إلى تلك الدرجة!.. ما الذي يفعله معها حتى تصل لحافة الانهيار في غضون أشهر معدودة!..

أصاخ لها السمع، تطعن وتطعن.. تحرق جرحًا لايزال مفتوحًا منذ رأى واستمع لرسالة حفيده إليه، تذر فوقه الملح بلا شفقة.. بلا عطف.. ودون أن تلمح ما بعينيه..

أوقفها بصوت حازم وإن شاب نبرته هزة طفيفة غير ملحوظة:

- شمس..

رفعتْ بصرها تواجهه في استغاثة صامتة:

- أنا مش هاتدخل بينك وبين جوزك، ده بيتك وبيت ابنك..

عقبها سافرت أفكاره إلى الحفيد الغريب بوسط عائلته، العائد من غربة يجهل الكثير من تفاصيلها:

- بس فكري في يعقوب قبل ما تقرري تسيبيه..

وزفر ببطء:

- جوزك محتاج وجودك معاه..

استقامتْ بحركة عنيفة تغادر مقعدها ولهجتها تتعمد الأذى، لا تفهم ما يرمي إليه ولا تريد أن تفعل:

- وأنا محتاجة أتحرر منه..

شدتْ قامتها بقرار لا تنشد غيره:

- زي ما أجبرتني أتجوزه؛ اجبره يطلقني..

ثم انطلقت لا تلوي على شيء..

هي لن تنتظر حتى تموت بين يديه..

ستتحرر منه مهما كان الثمن!..

**

هي امرأة نهج عشقها الصمت؛ ما لم يهتز قلبه بنغمة هواها.. لم تُعِد كلمة الحب على مسامعه كما أخبرته، وسائرة بطريق عنادها وتحديها حتى يهمس بها هو في أذنها يومًا ما..

أما هو فرجل ثابت على مبدأه الصارم ومساره المستقيم، لا اعوجاجات يصطنعها الفؤاد، ولا عثرات قد تفقد النبض اتزانه وتدفع به لهاوية الاختلال..

هاوية غرامها به، التي تتمنى أن يسقط من فوق حافتها حيث القاع.. وعشقها..

باتت زوجته، اللقب والمسمى والشعور والتبعثر التابع لنطقها..

عدة أيام، كانا وحدهما كما وعدها تمامًا، والدته رحلت عن المنزل لمراعاة الجد في مدينة أخرى، بقي هو وهي وطفله الصغير المتعلق بها.. والمغرمة به كأبيه..

منهكة بشغفه، ضائعة فيه، ومستسلمة لاجتياحه لأنوثتها التي ارتوتْ بين يديه، لكن قبل لحظة الاكتمال حدث البتر، "واسل" يطرق باب غرفتهما ببكاء حزين نفض الاثنين..

أبعدته عنها بدفعة حادة بعض الشيء استنكرها، استقامتْ ترتدي مئزرها وخطواتها تركض إلى الباكي خلف الباب، تفتحه، تجثو

قربه، تحتضنه لصدرها وتنهض، تحمله لتجلس به على طرف الفراش وعينها تطالب زوجها أن يفسح لكليهما..

استجاب ودهشته لم تنتهِ بعد، همستْ للصغير تطمئنه، تسأله عما به فأجابها بحروفه المرتجفة شبه الواضحة:

- وحش.. تحت.. السرير..

رفعتْ حاجبيها بحنان وضمته إليها، مد والده ذراعيه إليه:

- تعالى يا واسل..

لم يستجِب الابن لأبيه، بل عانقها ودفن وجهه في صدرها أكثر، انعقد حاجباه خاصة مع اعتصارها له ونظرتها الرؤوم كأنها هي أمه حقيقةً.. لا يدري لمَ تشوشتْ الصورة في عينيه!..

هو تزوجها لأنها تناسبه من زوايا كثيرة، امرأة جميلة، راقية، دافئة، تحب وحيده وتحنو عليه..

المعادلة كانت ومازالت بسيطة، لكن عاطفتها التي تعلق بها ابنه أثارتْ بداخله شيئًا من غيرة صرح بها في صدق على الفور:

- أنا كده هابتدي أغير..

كانت تعلم أنه يقصد منها لا عليها..

هو الوالد وهي زوجته، فكيف يرفضه طفله ويتشبث بها!..

لم تُحمل الكلمات معانيَّ أكثر مما تحتمل، ولم تفتش بين حروفها بوردية عن رومانسية لا تشبه من نطق بها، لذا جارته ببساطة مشاغبة:

- حقك على فكرة، بس دي قدرات..

ضيق نظرته بهدوء، حاوط نعومة ملامحها بتأمل غامض مكابر:

- نص ساعة لعب معاه وهيبيعك..

ضحكتْ برفق ثم قبلت خصلات الفتى الطويلة:

- نص ساعة معاك واليوم كله معايا..

عقد ذراعيه مدعيًا الغيظ:

- كده هاغير بجد..

تكررتْ ضحكتها وإن انخفضتْ قليلًا عندما لاحظت عودته لنعاسه، تثاءب بلطف وفرك عينيه ثم استرخى في دفء ضمتها، أشارت لزوجها بالصمت حتى راح في نوم مرتاح، اعتدلتْ في محاولة لوضعه بالفراش بينهما لكنه أوقفها بجدية:

- بتعملي إيه!..

رفعتْ رأسها إليه بارتباك من تبدُل نبرته:

- هانيمه معانا، واسل مش متعود ينام لوحده.. أنت قلت لي..

تحرك بنية حمله وجوابه يأتيها حازمًا:

- لازم يتعود، الأول كان بينام معايا لأني كنت لوحدي، دلوقتِ الوضع اتغير..

انحنى يتناوله منها، يطوقه برفق ويتمم قانونه جامد المشاعر:

- في حدود لدلعه ورغباته يا رهف.. خدي بالك، مش عاوز حبك له ينسيكِ ده!..

خطا خارج المكان غافلًا عن وجوم ملامحها..

نعم هو رجل نصف آلي، لكن هذا طفله ومعه تتحور وتتبدل كل القوانين.. وكما يبدو، فرجل المعادلات الصعبة لا يغير مبادئه مهما كان الثمن.. أو الدافع..

تمددتْ على ظهرها ترمق السقف بشرود حتى عاد، جاورها يراقب شرودها وهو يدرك جفاف فعلته.. غيرته على طفله وتعلقه بها، اهتمامها الزائد به كأنما تخبره أنها أمٌ جيدة..

يعلم أنه ليس مصطنعًا، هو فقط لا يريد إرباك نظام اعتاده مع ابنه لأنها تحاول وتجاهد لأن تكون أمه!..

خرج عن صمته بسؤال مقتضب:

- مالك!..

لم تلتفتْ نحوه، ظلت على وضعيتها قبل أن ترد ببساطة تشبه وضوحه:

- أنت فعلا غيران عليه مني..

صمت لحظة.. سأل بإثرها في ضيق:

- طفولي الموضوع ده!..

اعتدلت توازيه في جلسته، تربت على وجنته بباطن يدها برقة حانية كبسمتها التي أسرتْ بصره:

- خالص.. أنت أب حنين قوي يا عدي..

ولمعتْ عيناها بعشقه دون ذكره:

- عشان كده صدقني واسل مستحيل يحب أو يتعلق بحد زيك..

تراجعتْ بعدها في شيء من حرج ضايقه:

- أنا ماكنتش أقصد أعدل عليك معاه أو أتدخل في...

- ما تقوليش كلام انفعالي مالوش معنى..

جذ عنق حديثها بحسمٍ نافذٍ وإن علا لهجته هدوءًا غريبًا، يؤنب نفسه قبل تأنيبها، جذبها يميل بها حيث انتهى المشهد قبل دقائق:

- أنتِ دلوقتِ مكان أمه يا رهف، أنا بس باقولك المفروض يتعود على إيه!..

وابتسم فغرقت في ابتسامته:

- يعني لو كان في النص ماكنتش هاعرف أكملك الموضوع المهم اللي كنا بنتناقش فيه، مش كده!..

بادلته البسمة بخجل صامت وسلمَّت كيانها كله له..

هي مُلكه مادام في العمر بقية..

ومادامت الروح لن تتحرر من مدار قربه..

**

الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الطيبة..

أو الشريرة للغاية؛ لا فارق فستنتهي في سعير لا زوال له..

ما تحياه منذ ذلك الصباح؛ نيران تحرقها.. لم تنطفئ إلى الآن..

هي امرأة سيئة لا تنكر.. قاسية ولا تكترث..

محاربة متجبرة على استعداد لذبح من تريد في لحظة ولن يطرف لها جفن.. فلكل حرب ضحاياها.. ولكل رغبة!..

ذلك الوغد استغلها، استغل أنوثتها، استغل إعجابها المجرد به.. كذكر!..

استغل رغبتها فيه، استغفلها.. وقانونها الخاص جدًا يحميها..

قانونها الخاص يُعيِّنها كقاضٍ وجلادٍ؛ لذا فلن ترحمه..

له سقطة، ولها شرف الدفع من فوق الحافة.. وكما نعلم طبق الانتقام البارد أكثر لذة.. لولا أنها تحترق!..

زفرتْ بضيق وكادت تشعل لفافة تبغ ضاربة بقوانينها الخاصة عرض الحائط، حيث في البيت مع رجلها الصغير.. لا تدخين أو ثمالة..

هرستْ اللفافة دون نار بين أصابعها قبضتها، غادرت الشرفة عائدة إلى داخل المنزل لترى ابنها بصحبة مربيته يتنافسان في حل أحجية سويًا كما يحب هو.. وقفت تراقبها لدقيقة..

هي جميلة لا تناسب كونها مجرد مربية، ملامحها لا يليق بها عمل الكادحين، نظرتها الغارقة في شجن مبهم والألم الساكن بحدقتيها يثيران ريبتها جوار فضولها..

قصتها عن طفليها قد تكون منطقية لكنها لا تبتلعها بشكل كلي!..

بترت أفكارها بنفسها حين تقدمت منهما ونادتها، عندما رفعت عينيها نحوها أهدتها بسمة بسيطة وأشارت إليها لتتبعها بعدما بعثرت خصلات طفلها حالكة السواد..

استجابتْ "ليلى" بارتباك هو سمتها مع هذه المرأة..

تخشاها دون تعقيدات، تهرب من اقتحام عينيها، وتتباعد عنها قدر ما أمكنها، خطت تجاه المطبخ المفتوح تقف خلف حاجزه الرخامي باستفهام قبل أن تسألها "نيروز" بلا تمهيد:

- تشربي كابتشينو!..

أُخذت لهنيهة تنحنحتْ بإثرها وأخفضت بصرها:

- العفو حضرتك..

- أوه please يا ليلى.. سكرك إيه!..

استنكرتْ خجلها ورفضها بنبرة مستخفة، قبل أن تأمر في صيغة سؤال عن كيف تحب القهوة!..

غمغمت الساكنة بصوت شبه مسموع:

- طيب اسمحي لي أعمله..

بدأتْ "نيروز" في العمل بالفعل متجاهلة عرضها حتى استسلمتْ بتنهيدة مبتورة:

-من غير سكر..

مطت الأخرى شفتيها واعتدلتْ تسحب قدحين تضعهما أمامها:

- إممم.. نفس مزاجي..

مرت ثلاث دقائق ناولتها عقبها كوبها، وحملت خاصتها متجهة إلى غرفة المعيشة، المغزى كان جليًا للمتوترة من صُحبتها بينما تلاحق خطواتها الثابتة..

هي تريد منها أن تحذو حذوها وفعلت، جاورتها تتشبث بالقدح الساخن بكلتا كفيها في تشنج حتى داهمتها "نيروز" بتصريح مباشر:

- عينيكِ بتحكي وجع كبير يا ليلى..

مالت برأسها تحدجها بنظرة مسيطرة:

- حكايتِك إيه!..

تعثرتْ أحرفها بحشرجة كبتتها، الجواب كان حتميًا.. الحزن حقيقيًا ومذاق الخسارة لاذعًا يلسع لسانها بلا كذب.. همهمت بوجع:

- أنا قلت لحضرتك على ولادي...

- لا.. ده كلام عادي يتقال لأي حد، وأنا مش أي حد..

البتر الذي يخبرك أن كذبك مكشوف، أن لعبتك ساذجة، وأنك لستَ ماهرًا كفاية لتلعبها..

البتر الذي تلاه الحسم:

- عاوزة الحقيقة!..

ازدردتْ "ليلى" لعابها كأشواك مسممة، تنهدتْ بتقطع وانحنت تترك الكوب على طاولة مقابلة، ترمش بوهن قلب مكلوم.. وأم فقدها لا جدال فيه:

- حقيقة إيه حضرتك!..

فركت كفيها بإغماضة متعبة:

- أنا مش بكدب..

تفحصتها "نيروز" لفترة من صمت مقبض، صمت من ذلك النوع المثير للرجفة والفزع، نظرتها تتأرجح بين النار والجليد.. بين السلام والحرب.. بين الرفض والاتهام بالكذب..

نظرتها تخيفها!..

- تمام..

تمتمتْ بها بأريحية سلسة تعجبتْ لها "ليلى"، سحبتْ نفسًا محملًا بعبق القهوة، بعده عادت إليها بنبرة عادية للغاية؛ كأنما هما صديقتان حميمتان:

- تعرفي يا ليلى!..

نطقتها ببطء متعمد، غاصت في حزن عينيها تنقب عن سرها الدفين غير المسموح له بالطفو إلى السطح، تسبر أغوارها حتى أعمق نقطة وتسقطها لقاع الرهبة المنشودة:

- آدم ده حياتي كلها، أغلى من عمري..

ارتشفت من قهوتها بتمهل، تتلذذ بالمذاق المُر وترمقها بنظرة أخرى غير مفهومة.. نظرة مجهولة محاطة بسياج غامض، قبض قلب الجالسة بوهن فسكنتْ تترقب تتمتها بحذر:

- باهتم بيه وأراعيه حتى لو مش معاه..

انثنتْ تضع قدحها على ذات الطاولة المنخفضة بحركة أنيقة، تعدل من وضع ساقيها، تحني عنقها، ولا تتبدل نظرتها:

- اللي يقرب منه أو يأذيه ولو بدون قصد..

ثم لثوانٍ مدروسة تأملت أظافرها المطلية بحمرة نبيذية أقرب للون الدماء، تأملتها بلامبالاة باردة خالفتها النبرة بحزم صارم، جاد وباتر:

- هامحي اسمه من سجل الأحياء..

لاحظتْ الانتفاضة الطفيفة التي غزت جسد الساكنة، الساكتة بوجوم، لاحظتها واصطنعتْ التجاهل:

- مش عاوزاكِ تقلقي أو تخافي مني..

امتدتْ كفها تربت على ركبة "ليلى" بطمأنة مدسوس بين حناياها تهديد مبطن:

- عاوزة بس تاخدي بالك منه، وتعرفي إنك هتفضلي تحت الميكروسكوب طول ما أنتِ معاه..

عقبها أشارت إليها لتعود لصغيرها.. وكأن الإشارة هي طوق نجاة أُلقي للغارقة في مخاوفها فتعلقت به وهربت من مواجهتها..

جلستْ مع الفتى أرضًا تنشغل به، تمنحه ما لم يعُد بإمكانها منحه لصغارها..

تغدق عليه من حنوها ورفقها وعاطفتها واهتمامها، متغافلة عن النظرات التي توقن من أنها تلسع ظهرها بهذه اللحظات..

وكان تخمينها صحيحًا!..

فمع صب قليل من الحمم التي تحرقها فوق عقل وقلب مربية ابنها؛ هدأتْ نيران "نيروز" بعض الشيء..

بعد احتدامها لأيام؛ وضعها للنقاط على الحروف مع "ليلى" هو بمثابة هشيم جديد.. يهديها الحياة دون أن يحولها إلى رماد..

**

هي أنثى الرقة ووطن الحنان والدفء..

"رحيل"..

امرأة نقش الحزن تفاصيل ملامحها، وحروف اسمها.. وترك الانكسار خدوش ندوبه بقلبها..

تقدم علاقتها بالصغيرة "ضي" لا يكاد يذُكر، تتباعد عنها، ترفض اهتمامها، تنطوي على نفسها كزهرة أصابها الذبول باكرًا في وحدة تقلقها.. تُقدر أن فقدان أم ليس بالأمر الهين، الذي يمكن أن يمر على طفلة بعمرها مرور الكرام..

الفقد كالعلقم، مذاقه مقبض.. وأثره ممتد..

الفقد باهظ لكن الاستمرار فرض عين، تجاهد لتسحبها من فقاعتها الضيقة لعالم أكثر رحابة، لطفولة تناسبها وحياة تنتظر خطواتها..

لغدٍ آتٍ مهما تعلقنا بالأمس..

تمارس معها كل خبراتها النفسية، تجذبها بطرق عدة.. تستجيب مرة وتظن أنها وجدت طرفَ خيطٍ لتتراجع الطفلة بعدها مجددًا، وتغلق باب روحها في وجه دعمها..

لذا هي تريد المزيد من التفاصيل، تفتش عنها وتعلم أنه وحده مصدرها.. تأخرت لساعة في انتظار عودته، عندما لمحت سيارته تتوقف عند بوابة المنزل هبطتْ الدرج القصير تستقبله بهدوء بعدما أشار لها بتحية مندهشة:

- ممكن أتكلم مع حضرتك شوية!..

مد كفه لتتقدمه تجاه جلسة أنيقة في الحديقة المزهرة، خطت بالفعل واستقرتْ بمقعدها بجسد متوتر:

- كنت عاوزة أسأل عن مامة ضي وباهي..

بادرتْ دون زينة أو مقدمات أو حتى لعثمة تناسب هيبته التي تحاوطه من كل زاوية..

في الغالب ترفض مواجهته، ترى في نظرته ذات الحزن والفقد.. لكن هناك ما هو أكثر، ما هو أسوأ..

هناك جحيم مستعر تجهل سببه، تخشاه.. لذا تفضل الصمت والتعامل في أضيق الحدود..

زم شفتيه واعتدل في مقعده يضيق نظرته متجاهلًا احتراق دواخله مع ذكر خائنته:

- بخصوص إيه!..

تنحنحتْ تستجمع أفكارها قبل أن تجيبه باهتمام:

- يعني.. علاقتها مع ضي كانت إزاي!..

وشرحتْ بكفيها في توضيح:

- إزاي كانت لما بتغلط بتعاقبها!..

أضافت أكثر بعد هنيهة تفكير غافلة عن شروده..

بل غيابه التام وإن كانت أذناه معها.. عقله غادر..

قلبه تباطأ نبضه حد الموت..

تتابعت رمشات أهدابه بتيه:

- إزاي لو زعلانة أو حزينة بتراضيها وتصالحها!.. إمتى بتمنع عنها حاجة عاوزاها وإمتى لأ!..

أنهتْ أسئلتها وانتبهت لسفره عبر الزمان ربما، هو لم يعُد معها.. فقط جسده قربها في مقعده جامدًا بلا حياة..

الحياة والنظرة والروح كانوا مع من ماتت عنه، بادرتْ باعتذار خجول مكترث، دافئ:

- آسفة لو الكلام مؤلم؛ بس حقيقي محتاجة أعرف، هيساعدني في علاقتي بيها..

عاد إليها بغتة بتقطيبة لم تدرِ سببها، لم تحاول حتى تخمينه.. الألم الذي حفر أخاديده حول عينيه وبين حاجبيه كان كافيًا ليخبرها كم يجاهد.. يصارع ويحارب لينطق بهدوء:

- ليلى كانت أم حنونة جدا، نادر لما بتعاقبهم..

سكن لثوانٍ، يفكر.. يتذكر، يستعيد أمسه معها..

معشوقته.. حبيبته.. زوجته.. أم أولاده التي خانته!..

التي فطرتْ قلبه ونحرتْ روحه:

- كانت قريبة من ضي رغم طباعها اللي تشبهني، بس مع مامتها بتبقى مختلفة..

وابتسم بينما الذكريات والصور تتابع بعقله رُغمًا عنه..

ذكريات السعادة والعشق والكمال، لوح بتعبير ذكوري لا يدرك كل أبعاد عالم النساء:

- الصور اللي بتشوفيها.. أم وبنتها لابسين زي بعض وعاملين شعرهم زي بعض، كانوا بيعملوها سوا..

تنهد.. لا، هي أقرب لزفرة حارة تحتدم بين طياتها نيران فقده:

- الشوبينج.. ضي كانت بتختار اللي بتحبه..

غاب أكثر فأكثر مكملًا كأنما هو وحده، يرمق مشهدًا مبهجًا مكررًا من بعيد:

- أوقات يقفوا سوا في المطبخ يطبخوا، ليلى كانت بتحب تدخل المطبخ بنفسها كتير..

ارتجف فكه، تحطمتْ كلماته وحروفه تحت ضغط أسنانه:

- لما ضي تغلط وليلى تعاقبها، كانت بتخاصمها.. بس كده، ضي كانت بتبين إنها قوية ومش فارق معاها يوم واحد بس!..

ارتخى تشنجه بعض الشيء:

- بس بالليل كانت بتيجي تنام في حضنها..

ثم فسر بحنو رفيق:

- ليلى وقتها بتحضنها، وده معناه إن ضي معترفة بغلطها ومش هتكرره، وإن مامتها سامحتها خلاص..

لم تعُد كم مرة نطق فيها اسم زوجته، ففي كل واحدة كانت أحرفه تخرج محملة بعشقه، باشتياقه، وبغضب غريب يكبته دون جدوى.. قهرًا تطفو شذرات منه إلى سطح انفعالاته المسجونة بصدره، حافظتْ على صمتها حين انحشر حديثه بنهاية مبتورة بين شفتيه:

- ليلى كانت...

تدخلتْ برفق تجذبه من الهوة السوداء الواسعة التي ابتلعته قبالة عينيها:

- آسفة مرة تانية يا وجيه بيه.. كفاية كده أنا وصلت للي عاوزاه..

أهداها نظرة مبهمة، بها مزيج جنوني من مشاعر فوضوية مبعثرة، أومأتْ له برأسها واستقامتْ بنية المغادرة، تبعها وأوقفها بنداء مقتضب:

- مدام رحيل..

استدارتْ مع ندائه، كان قريبًا للغاية..

قريبًا حد أنها انتبهت لشفافية عينيه كبحر هادئ لم يزُر موجه بشر، خجلتْ وتراجعت خطوة تطوف ببصرها على كل ملامحه إلا لقاء بصره:

- آسف لو كنت جاف معاكِ؛ بس أنا قلقان عليها..

دهشتها أجبرتها على النظر إليه باستغراب..

منذ اليوم الأول كان بالفعل جافًا، قاسيًا، فظًا.. ولم تهتم، هي هنا لأجل أطفاله، معهم ولهم وبهم أسباب وجودها..

لم تفهم سبب تغيره، وهو أكمل بلا إبطاء:

- كل اللي عاوزه.. بنتي ترجع زي ما كانت، وعارف إن المسؤولية دي مش سهلة..

أوقفته بحزم عملي، تقتل أفكارها التي تركزت حوله لوهلة غريبة.. حول الوجع والحزن والشجن والغضب، كلهم في دائرة واحدة زرقتها آسرة بين جفنيه:

- ما تتأسفش أبدا، حضرتك أب وده حقك.. ومسؤوليتي أنا قدها؛ ما تقلقش..

أتمت حديثها باختصار وركضت..

لمَ!.. كيف!.. ممَ تخاف!..

لا تعلم، هي فقط كل جوارحها أخبرتها أن عليها الفرار؛ ففعلتْ..

**

أحيانًا عندما تصل لقمة الجبل بعد عناء؛ تجد أنك اخترت التلة الخاطئة؛ هناك قمة أخرى على بُعد كانت تستحق منك المثابرة، تستوجب بذل الجهد!..

هو وصل لأعلى القمم في عالمه..

السيطرة، المال، النفوذ والجاه..

لكنه في سبيل الوصول أسقط عائلته ودهسها دون أن يدري..

نبذ واحدًا وفقد الثاني.. وحتى عندما أهداه القدر ثالثًا تعامل معه كصفقة مثالية بعقلية تجارية، لها مميزاتها وعيوبها وفي سبيل الأولى يمكن ابتلاع الثانية..

لم يستقبله بعاطفة جَد.. لم يحاول التقريب بينه وبين أخيه الأكبر، بل انتشى بالصراع بينهما ووقف يراقب لمن سيكون النصر!..

من يستحق في مملكته الخلافة وكرسيّ العرش!..

هو رجل لم يرضخ للعاطفة سوى مرة واحدة..

مرة واحدة ندم عليها كثيرًا.. بدَّلت فيه ما هو أكثر..

حولته لما هو عليه الآن..

الحوت "يونس أبو الغار"..

ثم أتى الصغير من قبره برسالة أخيرة، تذكِرة لن تُعاد وفرصة لن تتكرر.. ضغط جرحًا لم يندمل بعد موته، طعن قلبًا لا يزال يرثيه، ويقسو على من خلَّفها وراءه..

فتح عينيه على حقيقة واحدة؛ أنه أخطأ..

أخطأ معه حين رباه على الخوف، على الأمر والطاعة، على الولاء..

أخطأ مع توأمه حين نبذه وطرده لتمرد كان هو دافعه والسبب فيه..

أخطأ حين أحكم حول الاثنين طوقه الخانق إلى أن تملصا منه، كلٌّ بطريقته.. والآن.. ربما حان وقت التصحيح..

كابر زمنًا طويلًا بما يكفي، والعمر لا يحتمل مزيدًا من الجبروت..

انتظر عودة الحفيد الأصغر الذي فوَّت الغذاء كأنما يتعمد عدم لقاء زوجته، أظلمت السماء، اختفى الشفق بشمسه وبدأ الليل يسدل أستاره بهيبته الأثيرة لديه..

حينها سمع باب المنزل يُفتح ورآه يعبره، ترك جلسته ووقف يناديه بصرامة:

- يعقوب..

لم يكن الثعلب منتبهًا لجده الذي يتربص عودته، بتر خطواته ثم غير وجهتها إليه بدهشة لم يهتم بها الجد بل أشار إليه:

- تعالى معايا المكتب، عاوزك في موضوع مهم..

هناك لم يجلس، توقف بمهابة تشع منه بمنتصف الغرفة وبادر:

- بكرة قبل ما تروح الشركة هنطلع سوا على الشهر العقاري..

لمح النظرة المتسائلة بصمت في عيني حفيده فأكمل بتوضيح حازم:

- هاعملك توكيل تدير بيه الشغل..

- توكيل!..

تمتم بها "يعقوب" بلا انفعال محدد، كانت غامضة كعينيه تمامًا، اللتين لا تظهران أبدًا ما يخفيه بداخله:

- أيوة.. زي التوكيل اللي مع يزن، هيكون لك حرية الإدارة والتصرف في الشركة ونصيبنا في شركة الديب..

عقد الآخر ذراعيه أمام صدره في مواجهته:

- وهيفرق في إيه!.. أنا باديرهم فعلا..

تنهد "يونس" وجاوبه بحسم نهائي:

- مش هتكون مضطر ترجع لي أو ترجع ليزن في أي إمضاء أو عقود.. ده حقك، زي ما هو حق أخوك..

ثم زفر هذه المرة بشرود حزين:

- أنا مش عارف أبوكم حي ولا ميت.. ومش هاسمح إن ميراثكم مني يضيع بسببه..

على ذكر أبيه أظلمت نظرته بغضبه المخيف.. غضبه المكبوت بإرادة من صلب لا يلين.. غضبه الذي ينتظر فتيل التفجير!..

تمتم بموافقة مبتورة مقتضبة واستدار ليرحل:

- أوك..

- استنى..

عاد ينظر لجده بجمود لم يكترث له الحوت وعينه ترِق بنظرة عاتبة:

- شمس..

تغضن جبين "يعقوب" بصمت؛ امرأته لجأت لجده!..

- افتكر إنها كانت مرات أخوك، إنها أم ابنه..

تفككت التقطيبة.. تحولت لسخرية ناوشت شفتيه ببسمة مشابهة:

- بمعنى!..

والسخرية تذكره بسبب تزويجها منه..

كان "يونس" يفهمه، يدرك ما يفكر به؛ لذا اقترب يربت على كتفه بهدوء:

- بمعنى.. خد بالك منها..

وألقى بقنبلته غير منتبه لشظايا الانفجار:

- شمس جات لي النهاردة..

ظهر سؤال جديد بحدقتي الحفيد داكنتي السواد، أجابه بتمهل:

- جات عشان تطلب الطلاق..

هل عيناه سوداوان!..

نعم..

لكن هل بهما جحيم قاتم مفزع!..

نعم كذلك..

لم تهتز عضلة بوجهه، بجسده.. كل ما حدث هو لهيب اتقد بين جفنيه وناره لن تحرق سواها..

تلقى الخبر، رفع رأسه بهدوء والتفت يغادر، صعد الدرج بخطوات مخطوفة، فتح باب الجناح وصفقه بحدة..

خطا بلا هدف إلى الداخل وزعق باسمها..

كانت أول مرة تسمع فيها صوته العالي!..

انتفضتْ بذعر، ربتتْ على صغيرها النائم بالفراش إلى جوارها، حين ظلت هي سارحة في ملكوت حبيبها الذي لم ولن تحب سواه..

خرجتْ من الغرفة لتواجهه، وانتفضت للمرة الثانية..

لقد لسعتها نيران نظرته.. حرفيًا كانت تشعر بكيانها يحترق!..

ابتلعتْ ريقها بعسر وأدركت أن جده أخبره بطلبها، لم ينتظر اقترابها التام منه.. هاجمها هو بخطوتين واسعتين أشبه بوثبتي وحش جائع، جذب مرفقها ودمدم من خلف أسنانه التي تكاد تطحن بعضها البعض:

- عاوزة تطلقي!..

لم يمكنها الجواب.. سقط عنها رداء شجاعتها مع مرآه..

رُغم خواء عينيها وتيهها، رُغم دمعة لم تستطع السيطرة عليها.. نفضها بامتعاض وسأل بلا اكتراث، بهدوء غريب بعد عاصفة..

بعد إعصار سكن بغتة.. وذلك مرعب:

- ما طلبتيش مني أنا ليه!..

تراجع خطوة يدرس ملامحها، يستشعر خوفها، يشتعل لرؤية عبرتها:

- رايحة لجدي ليه!..

جاهدت لتجيبه باختناق، بنبرة خانتها فخرجت مرتجفة والشجاعة تثوب لروحها رويدًا رويدًا:

- لأنه أجبرني أتجوزك؛ فيقدر يجبرك تطلقني..

لدهشتها، بل لذهولها ضحك..

تأملها لحظة في غير تصديق ثم ضحك..

كانت ضحكته شرسة مخيفة يولول بها شيطان من قاع الجحيم..

قطعها فجأة ودنا منها، لم يمسَّها، واجهها بوحشية نظرته كأنما يتحداها:

- عاوزة تطلقي؟..

العناد يتسيد اللحظة، يتحكم بالخفقات المذبذبة فتبتُر بحرفين:

- آه..

- أنتِ طالق..

لم يتردد.. لم يتنفس.. لم يبعد عينيه عنها، فقط نطقها بقسوة باردة وانتهى!..

**

لا تسأل الشيطان لمَ هو شيطان..

بل اسأله: كيف يؤدي دوره على أكمل وجه!..

اسأله: كيف يتسيد سَقَر يتأمل أتباعه يحترقون بنشوة!..

اسأله: كيف يتنصل منهم ويتلبس وجه البراءة حين الحاجة!..

اسأله عن قسوته، جبروته، عن لعنته التي يصيب بها قلوب البشر..

شمسه الغاربة تجرأتْ وطلبتْ الفراق.. وممن!..

من جده.. تتخطاه بوقاحة كأن الجد يملك من أمرها شيئًا، تظنه بحماقة سيجبره!..

البلهاء.. لا تعلم أنها لن تكون سوى له..

نهايتها معه، أفُولها الأبدي على يديه..

شمسه لم تعد مجرد درجة يدهسها في سُلم الصعود لعرش ما بعد المحرقة.. لقد باتت خصمه في حرب خاصة؛ هما وحدهما طرفي الصراع فيها.. وهو لن يسمح بهزيمة!..

باتت امرأته..

والنزال بين ظلامه وضوئها..

بين ليله وإشراقها..

بين عتمته وشرارة سطوعها..

نزالٌ سرمدي، خالدٌ مادام في صدره وصدرها أنفاس تتردد..

هي امرأته وانتهى.. نقطة بعدها صفحات خالية من السطور، صفحات غارقة في الفوضى ونزيف الدم.. فالحرب لا تحتمل الهدنة وهو لن يقبل بالسلام..

مر أمام ناظريه شريط اليومين الماضيين وبريق الدمع يحتل عينيها..

هدوئها، غيابها، ضياعها.. كانت تنظر نحوه أحيانًا فيشعر أنها لا تراه.. تخترق وجوده إلى المجهول.. إلى اللاشيء..

والآن أعلنتْ عن مفاجأتها، فنالتْ عقابها المستحق..

"أنتِ طالق"..

وهج العبرة المعلقة فوق أهدابها كان متحجرًا كأنما جمدته صدمة ما نطق به.. صدمة تحريرها!..

نظرتها ترتعش.. جسدها يرتعش.. تعاتب في الخفاء..

وهو يفهم.. يعي ما يدور بخلدها؛ لقد استأنستْ للحرب معه، ألفتها واستعذبتها كما يريد هو نزالها..

ثلاثون ثانية، زمتْ شفتيها بعدها واستدارتْ تغادر بانهزام..

لكن.. هو له رأي آخر!..

قبض على معصمها يعيدها حيث كانت، يدفعها إلى الجدار خلفها، يصدم ظهرها بصلابته في غلظة ويحبس تأوه ألمها بشفتيه..

كان يداهم روحها في معركة متبادلة..

يقاتل، يهاجم، يسعى لنصر.. وهي تحارب، تدافع، ترفع في وجهه درع الرفض..

تدفعه بصراخ مجنون، تضرب صدره وكتفيه بقبضتيها وتزعق في شبه لوثة:

- أنت اتجننت!..

تفر منه.. تهرب بعيدًا عن مرمى لمسته ويحاصرها، يخنقها:

- إزاي تعمل كده!.. أنت طلقتني..

ختمتْ سؤالها بتقرير الفراق الذي لن يسمح به، كما لن يسمح بأن تفلت من حصاره بهذه اللحظة..

ابتسم بشراسة ومال أمام وجهها بهمس شيطاني:

- وكده رجعتك لعصمتي..

هزت رأسها بنفي واجم.. لا..

هذا كثير، كثير للغاية.. جهرتْ بغضبها وأصرتْ على انفصالها عنه، حريتها التي امتلكتها لثوان..

ثلاثون ثانية!..

- لأ.. الطلاق مش لعبة، أنت بتكدب..

تحكم بوجهها بأصابعه، قبض على ذقنها بخشونة وأعاد القبلة بتملك أخافها وإن تجمدت شفتاها تحت وقع قسوته:

- غريبة إنك تكوني عايشة في بلدك طول عمرك ومش عارفة الراجل ممكن يرجع مراته إزاي بعد الطلاق!..

ارتعدتْ كل خلية فيها وبصرها يواجهه بلوم بينما يكمل بثقة مسيطرة:

- بالكلام.. أو بالفعل..

مرتْ أنامله فوق وجنتها فأدارتْ وجهها عنه، لم يكترث منتشيًا برعشتها:

- فعل حميمي مشروط بالنية يا شمس..

لم تُجِب، كررت محاولاتها المستميتة للخلاص منه لكنه ثبتها بحزم:

- ولا لازم أثبته في السرير!..

لم يكن يسأل.. كان يقرر.. يفعل، حملها بغتة فشهقت، هبط بها إلى فراشه بغرفته.. تحكم بساعديها وأراد امتلاكها..

لكنها ولأول مرة منذ أذعنت بالخضوع.. بالخنوع، تمتنع!..

تبعده، تحتج، تنفر، تُخلص نفسها منه.. تتملص وتصرخ:

- لأ..

تتلوى بعنف حتى أيقن من عدم رضاها بالكلية فجمد للحظات تراجع بإثرها.. انتفضتْ من جواره، تساوي تشعث ثيابها، لا تبالي بخصلاتها التي تبعثرت بعشوائية.. تلف ذراعيها حولها في ضمة واهنة وترتجف.. ترتجف كما لم تفعل من قبل..

كأن الصقيع يفترسها من الداخل بلا هوادة.. بلا رحمة..

جلس على طرف الفراش، وقرر سلك درب الصراحة بهدوء مفتعل:

- عاوزة تطلقي ليه يا شمس!..

أفلتَ منها نشيج مكتوم وهي توليه ظهرها، تهتز ليدرك بكاءها الصامت:

- عشان أنا زي ما قلت..

لم يخمن مقصدها؛ هو قال الكثير!.. لكنها منحته الدلالة باستطرادة شاحبة:

- أنا خاينة..

هذه المرأة حمقاء، غبية.. تجيد الضغط على أزرار جنونه ولا تدري أن ذاك غير قابل للتعامل معه، هو يكبل غضبه نحوها وهي تؤجج لهيبه في كل مرة:

- عشانه!..

نطقها بهسيس خافت، جامد:

- عشان واحد ميت!..

زاد عليها بنبرة شرسة، نهض يتبعها ويديرها إليه:

- أنتِ بتحاولي تثبتي لي ولا تثبتي لنفسك إن الحب موجود فعلا!..

ثم سخر بنصف بسمة كان نصفها الآخر هياجًا:

- ولا يمكن عاوزة تثبتي له هو!..

لم تكترث بتبرير، فقط رفعتْ عينيها إليه..

تُكر على عينيه.. تهاجم بكبرياء، تسعى للاحتلال، تجاهد للسيطرة والاستحواذ..

كله في صمت دون وعي:

- الحب موجود، ما يهمنيش إن تجربتك معاه قتلت قناعتك بيه..

غامتْ نظرته بظلام تعلم سببه؛ هي خاضتْ في مستنقع ماضيه العفِن.. عطِن الرائحة، لكنها بهذه اللحظة لا تهتم لوجعه، لعذابه مثقال ذرة:

- والميت اللي بتتكلم عنه ده يبقى أخوك..

- أنا عمري ما شفته..

- أنا شفته..

يسخر وتزعق وتحرر نفسها من قبضته..

تضرب صدرها بغلظة موجعة كأنما تسعى بالألم لإثبات الحياة..

حياة عشق لم يمت ولن يموت بموت صاحبه مادامت هي لا تزال على وجه الأرض:

- كنت مراته وحبيبته، وعاشرته سنتين كنت معاه فيهم في بيت واحد..

مسح وجهه بكفه قبل أن يزم شفتيه بغضب صريح:

- وسرير واحد.. عارف..

لم تصدق هذيانه.. تراجعتْ خطوة ترمقه باستهجان:

- هو ده اللي يهمك!..

بادلها استهجانها باستهانة:

- ده اللي مهم عندك أنتِ كمان، لمجرد أنك...

أقفل فمه عنوة عن كلمة بذيئة، كلمة كانت ستحرقها..

أقفله ولا يدري السبب؛ تلك مرة أولى!..

- بقيتِ شايفة نفسك خاينة..

هزتْ رأسها بضياع.. بنفي وأفكارها تهيم على وجهها بعقلها المثقل بالتعب:

- أنتَ اللي اتهمتني بالخيانة..

ثم سكنتْ تفكر لحظة مع انعقاد حاجبيه لكلماتها:

- أو خلينا نقول فوقتني..

جففتْ دموعها بثبات واقتربتْ..

بحسم ونبرة صارمة لا تليق بنغمة صوتها الناعم، ختمتْ حكايتها معه قبل الوصول للمنتصف:

- حتى لو فضلت مراتك لآخر يوم في عمري؛ مستحيل هاكون بكل كياني.. بكل ما فيَّ معاك زي ما كنت مع يامن الله يرحمه..

تزيده اشتعالًا.. تتركه على وقفته المتصلبة وصدى حروفها يتردد بدوي مزعج من حوله..

يعلن خسارته في معركة مع شبح معشوق ميت..

فإن انتصر فوق الجسد؛ يبقى القلب مدفونًا معه بقبره..

وتظل الروح شاردةً في ملكوته..

**

هو إبليس..

هي عاشقته..

والجحيم يتسع لكليهما معًا..

هكذا كانت تظن عندما ذهبت لزيارته في محبسه المؤقت حتى جلسة النطق بالحكم عليه في قضية ملفقة من زوج أختها السابق..

قضية تعلم أن له اليد العليا فيها، لكن التهمة لا تخصه وحده.. بل تخص الثأر وناره التي تأكل الأخضر واليابس في طريقها..

تأكل الجميع حتى من أوقد شرارتها..

لذا وقفتْ تواجهه بثبات عاشقة تخاف على معشوقها، تخبره أنها في ظهره مهما تكُن النتائج، ورُغما عن أي شيء قد يحدث..

أما هو فسألها عنه!..

عن ذهابها إليه كما طلب منها، ألح وغضب عندما تهربت وفي النهاية أقرت بمطلبه..

بشرطه حتى ينال حريته..

أنهتْ حديثها عن العرض الحقير كما تسميه، ووجمتْ تراقب جمود وجهه، احتراق عينيه وانتظرتْ كلماته التي لم تتأخر، بل دمدم بها في هياج مكبوت:

- عاوزِك لنفسه!..

خمن مثلها تمامًا.. أردف بزعيق قبل أن تنفي:

- عاوز يعمل معاك اللي أنا عملته مع مراته!..

اقتربتْ خطوة تكمم فمه بأصابعها في هلع رُغم وجيعتها بطعنات حروفه:

- راجح اهدى من فضلك، أنت مش واعي أنت بتقول إيه!..

دفعها عنه بحدة كادت تسقطها:

- وهو اللي بيقوله ده يخلي أي راجل في وعيه!..

نفتْ بسرعة فالأمر يتصاعد وينفلت من يدها:

- وجيه مش عاوز يتجوزني، عاوز بس نتطلق.. ونبعد عن بعض، عاوز يحرمني منك ويحرمك مني ومن ولادك زي ما عمل مع ليلى..

هدأ بغتة وتحرك نحوها بهسيس مندهش:

- بس كده!..

دهشتها هي كانت أضعافًا مضاعفة وهي ترمقه بخوف:

- بس!.. هو ده قليل يا راجح!..

زم شفتيه وواجهها بنظرة غامضة:

- مجرد طلاق يا هالة، هنرجع بعده عادي.. بس أخرج من جحر الموت ده..

جمدتْ أمامه في ذهول.. لا تصدق أنه قد يتخلى وإن كان الثمن سجنًا يمكن أن تجد له حلًا قانونيًا..

لا تصدق أنه قد يفعلها، واجهته بوهن:

- عاوز تطلقني يا راجح!..

أمسك بكفها بين يديه برفق ونبرته الثعبانية تحاوطها:

- لحد ما أخرج من هنا، وهارجعك، بعدين نسافر أي حتة ونبعد عن البلد كلها..

ارتجفتْ ترفض ما يوسوس لها به:

- ندور على حل، نجيب محامي واتنين وعشرة، نشوف طريقة نسدد بيها القروض.. بس...

- بس إيه!..

دنا أكثر، كاد يلتصق بها وغرفة الضابط لهما وحدهما بدفعة من محاميه، ينخر كالسوس في أساسات قناعاتها، يهدم مبادئها..

ينحر عشقها!..

- هالة، أنتِ متخيلة إن في مخرج قانوني وأنا طلبت منك من الهوا تروحي تتفاهمي مع وجيه!..

رفع يدها يضعها فوق صدره لتستشعر هدير نبضه:

- ده كان آخر خيط، ولو اتقطع هاتسجن مش أقل من سنتين ده لو ماكانش أكتر..

- هتطلقني يا راجح!..

- مؤقتًا، وأخرج.. ونرجع ونبعد، نعيش مع بعض لآخر يوم في عمرنا..

سحبتْ يدها منه والبرودة تقتحم كيانها:

- وجيه عنده شرط تاني!..

رمقها بنظرة متوجسة قلقة لم تكترث لها بينما تكمل بحزم تلبسه أنين وجع:

- هنطلق، ومش هنرجع لبعض تاني..

أظلمتْ نظرته وهي تكمل ضغطها على زناد خياراته حتى انطلاق الرصاصة الأخيرة:

- هيراقبنا، هنفضل تحت عينيه، رقبتك في إيده.. في لحظة ممكن ينهيك لو رجعنا..

جادل بمكابرة محتجة:

- نرجع في السر، نسافر ونبعد..

عاتبته بنظرة جريحة، بنبرة أبحة:

- تفتكر مش هيعرف!.. وجيه اتغير يا راجح، اتغير كتير.. أنا ما بقيتش عارفاه..

ثم أهدته لومًا خانقًا هرب منه ببصره:

- ولا عارفاك..

صمتَ يفكر لثلاث دقائق..

يدور في المكان بحيرة مشتتة، يغوص ببصره في الجدران الرمادية المقبضة، يحترق ويقرر بعد اقتراب.. بعد احتلال..

وجهها بين كفيه، عينيها في عينيه، وهمسه يلفحها بأنفاسه:

- نكتب ورقة عرفي، المهم نكون مع بعض.. هو ممكن يعرف لو في ورق رسمي..

وتمتم بهمس يشبه شيطانًا داعرًا ينتهك منها كل ما تطاله أنامله:

- كده مش هيعرف، هاجيلك وأكون معاك ومع الولاد، وهاعرف أهرب من مراقبته لو هيراقبني فعلا..

انهمرتْ عبراتها منهكة، متعبة، ترفض التصديق أنه يعاملها كإحدى عاهراته:

- أنا مش زي الستات اللي كنت بتخوني معاهم..

تماسك قدر ما أمكنه، فالنصر على بعد خطوة، والنجاة أقرب:

- أنتِ حبيبتي، مش زي أي ست مرت في حياتي.. أنتِ اللي عاوز أكمل معاها عمري رغم كل الصعوبات..

تعلقتْ بساعديه في أمل:

- مادام بتحبني يبقى نشوف حل تاني، هنلاقي صدقني..

فجرتْ لغم سخطه فسحب يديه وقبضهما حول جسده:

- أنتِ مش قادرة تستوعبي ليه يا هالة!..

وضرب الجدار بيمناه في هياج صريح:

- أنا ممكن أموت في السجن لو هو عاوز ده..

تحشرجتْ أنفاسها مع فكرته القاتمة عن النهاية، همستْ باسمه في ضعف لم يرحمه، سألتْ بعذاب:

- يعني إيه يا راجح!..

استدار إليها.. العزم في عينيه أخبرها عن نيته قبل النطق بحكمه الجائر:

- أنتِ طالق..

وربح المُقتص رهانه!..

(21)

كل شيء مباح في الحب والحرب؛ حتى الطعن في الظهر!..

**

هناك حروب تنتهي قبل أن تبدأ..

يدُك في بدايتها العدو حصون خصمه بضربة قاصمة، يهدم قلاعه، يقوض أبراجه، يضرب جيشه على الأرض قبل أن يمتلك فرصة الدفاع.. فرصة النجاة!..

حربه معها من زاويته كانت منتهية، ومن زاويتها لم تبدأ بعد.. هو يدرك أنها لن تبدأ، يراها غنيمة النصر، بيدق مهزوم، لا تصلح أن توازيه في لعبة فما بالها بوَغَى حرب مشتعلة!..

هي "طروادة"، وهو "أوديسيوس" الذي ترك جواد الخدعة خلف أسوارها حتى فتحتْ بواباتها له واستسلمت..

وبعد الاستسلام عاث في أرضها الفساد.. استباح، ذبح وقتل وسبى وامتلك وحكم!..

بالفعل بات له الملك والحكم، تبقت خطوة واحدة أخيرة حاسمة ستكون كبوتها القاضية التي لن تنهض بعدها أبدًا..

منذ شن عليها غاراته لم تتنفس للحظة، كان يلاحقها بالضربات، يطعنها بسيوف الغدر، يدهس مبدأ الشرف تحت قدميه ويحطمه على عتبات ثأره..

هو يقتص والقصاص لصاحبه عادل مهما كان الثمن!..

إثر ما حدث قبل أيام باتت كل أفعالها أقرب للجنون، ظل يراقبها بصمت مستمتع منتشٍ طوال وقت وجوده معها..

لا تأكل دون أن تتذوق خادمتها الطعام قبلها.. لا تذهب لغرفة أخيه أو تحادثه بسلاسة كما كانت تفعل من قبل، تتلفتْ حولها في ذعر لا تبيح له كبريائها ظهور، لكنه منعكس فوق حدقتيها المرتعشتين..

تكاد تفقد عقلها، وهو منتصر كما خطط تمامًا.. بل وزيادة..

حافظ على صمته لفترة ثم قرر التدخل، لم!.. لأن اللعبة صارتْ لذة مذاقها مضاعفة، وهي تستحق مناورة تجذبها نحو القاع أكثر..

دلف للمطبخ حيث تقف، تراقب الطاهي يُعِد طعام الغذاء بعين كالصقر، تجبر الخادمة الصغيرة على تذوقه فيبتر هو بهيبة حضوره عبثية المشهد:

- مش شايفة إن كده كتير!.. هابتدي أقلق؛ الوسواس مرض على فكرة..

استدارتْ إليه بحركة حادة، ترمقه بنظرة لها مفعول الدم والموت، تجيب دون تمهل أو تفكير أو دهشة:

- أنت السبب..

صرف الطاهي والفتاة بإشارة من يده واقترب منها، تراجعتْ أمامه فتوقف ببسمة شيطانية:

- أنتِ مزوداها، ومش قادرة تقتنعي إن اللي حصل بينا كان بمزاجك..

خطا يدنو بمزيد من استحواذ بينما تهز رأسها بنفي مرتبك، رافض وتتباعد في مواجهته:

- عمري ما هاكون ليك بإرادتي يا عمار..

أوقفها المبرد، حاولتْ الهروب بخطوة جانبية لم تسعفها لنجاتها من حصاره، وثب بغتة يطوقها، يحتجزها حيث هي فضمت قبضتيها فوق صدره تدفعه.. تبعده عنها.. تكره نفسها بين يديه:

- تحبي نجرب تاني!..

همس بها في نبرة ثعبانية خبيثة أوقدتْ غضبها:

- ابعد عني..

حاوط خصرها بذراعه في سيطرة، تحكم بكف الثانية بوجهها، مع مقاومتها قستْ لمسته، آلمتها، ارتجف جسدها كله وكان يعلم أنها رجفة احتجاج لا ضعف وخنوع..

هي صادقة، وهو يمارس ألاعيبه كما العادة..

مال عند شفتيها يحجم حركتها بأصابعه، لم يقبلها، لم يجبرها، ترك لأنفاسه أريحية مداعبة بشرتها، وحروفه أحل لها التغلغل بقلبها الذي يعلم أنه ملكه، أنها لم تُرَحِّله عنه بعد:

- كل حركة منك، كل نظرة بتقولي قرب.. لسانك بس بيخالف قلبك ويرفض ويطلب البعد..

كررتْ جهادها في حربها مع قوته، منذ ما حدث والطعام الذي يدخل لجوفها محدود للغاية، تكاد حتى تخشى رشفة ماء بارد، واهنة.. مستضعفة.. وحيدة في وجاره:

- أنت أخدت كل حاجة، كسرتني، كسرت قلبي، اتسببت في موت أبويا.. كفاية بقى..

لم يتحرك قيد أنملة، كأنما هي ورقة ذابلة هشة صفراء أسقطها خريفها في طريقه فداسها، حطمها بلا انتباه:

- لما أحس إنه كفاية، هتعرفي يا وسن.. أنا بس اللي أقدر أحدد ده..

تهدل كتفيها، ارتخى جسدها دون أن تملك طاقة أو قدرة على الفرار من فخه:

- أنا سيبت الجراحة من بعد اللي حصل، كل ده مش كفاية!..

أشعلتْ غضبه جوار حريق الذكرى..

العودة والفقد والوحشة وما تلاها من ألم يتذكره لحظة بلحظة:

- مش كفاية..

رفع ذقنها يجبرها على مواجهة عينيه في معركة محتدمة الوطيس، كعدو يستوجب القتل والتمثيل بجثمانه بعد الممات:

- عمرك كله مش كفاية..

ارتعدتْ ببرودة تتخلل كيانها، ارتجفتْ أجفانها وخضعتْ بتعب:

- أنت أخدت عمر أبويا..

- وأنتِ ضيعتِ مستقبل أخويا..

عاندتْ بضعف:

- لسه عايش، يقدر يخلق حياته بإيده..

رفع حاجبيه لحظة ثم عقدهما بقسوة:

- محتاج يشوف الحياة الأول..

تأملته بنظرة شاردة، مبهمة، حائرة:

- هترتاح لو مُت!..

- موتك هروب..

- يعني عذابي معاك للأبد..

همستها بتقرير يائس رسم على ثغره بسمة ظافرة:

- يمكن..

سعتْ لمحاولة تملص جديدة وأدها في مهدها بطوق أكثر غلظة:

- أنت مجنون، مش طبيعي..

علا صوتها بشبه صراخ:

- ماحدش بيعمل كده..

- آه.. أنا مجنون..

صدم رأسها بالمبرد بشيء من قوة فتأوهتْ بصدمة، تمم وحشيته بامتلاك فظ:

- وليس على المجنون حرج..

امتلاك لشفتيها اللتين أصابهما بتورم مكدوم محدود في قبلة لم تدُم لثوان..

تراجع برغبته رُغم عنف امتناعها، زعق بغتة:

- خلوووود..

عادتْ الفتاة إلى المطبخ بخطوات راكضة، مكثت بثبات في ركن بعيد تنتظر أوامره دون أن ترفع بصرها إليه في وقفته الحميمية مع زوجته، ابتسم بسخرية هازئة:

- دوقي الأكل عشان الهانم تطمن..

أعاد القبلة برفق ناعم جدد صدمتها:

- بالهنا والشفا.. لما تخلصي غدا؛ نوَّار مستنيكِ في أوضته..

ابتعد دُفعة واحدة فكادت تسقط كخرقة بالية، مهلهلة هي من صراع لا تعلم مداه، لا تدرك متى أو كيف أو هل سيكون له نهاية!..

إن كانت هي أهل لخوضه!..

استندتْ بعد خطوتين لطاولة بمنتصف المكان، انزلقتْ بمقعد أمامها بإنهاك وأناملها تلامس شفتيها بألم، لم تنظر لها الفتاة لمرة واحدة.. ظلتْ على وقفتها الجامدة لثلاث دقائق كاملة حتى استقامتْ هي تغادر بهرولة متعثرة..

لمحته من خلف باب غرفة مكتبه الموارب فتسارعتْ خطواتها بخبال، صعدت الدرج تجاه الصغير الذي كان وحده، لا أحد سواه سبب وجودها..

وحده تقضي معه دقائقًا من الراحة والهدوء والسكينة، يثرثران كثيرًا رُغم كونها لم تره ليومين مضيا، تكتشف أنها ربما لو لم تطمح للكمال لبات هو رجلًا كاملًا في مستقبل قريب..

لكنها كابرتْ وعاندتْ فباءت بفشل باهظ..

نقرتْ بابه بخفوت، تنهدتْ تستجمع ما بقي من قواها، تلك البقايا هي التي تحملها كقارب محطم بين موج محيط غضبه اللامعقول..

تلك البقايا هي فقط التي تتوكأ عليها حتى تسترد عافية روحها وعقلها وقلبها، وبعدها ستشن حربها..

بعدها سيكون هو الطرف المهزوم!..

فتحتْ الباب بهدوء، طافتْ ببصرها في الغرفة تفتش عنه، كانت الشرفة مفتوحة وضوء نهاية النهار يتسلل عبرها بنعومة، نسمة هادئة تداعب الستائر الشفافة، وهو لا يظهر!..

خطت للداخل تهمس باسمه، تراقب خلو الباب العريض من القضبان الحديدية السابق وضعها ليحيل بيته لسجن خاص بها وحدها.. أزالها كلها!..

فقط ترك حراسته وأمنه خارج المنزل، كأنما يخبرها ألا مهرب لها، أو أنها حتى لن تحاول بالمرة..

وجدتْ الفتى جالسًا على الأرضية، يعقد ساقيه أسفل جسده في وضعية تعرفها، عيناه مغمضتان، كفاه كل واحدة تستقر فوق أحد فخذيه، سبابته تلتقي مع إبهامه في دائرة والبقية مفرودة باسترخاء تام.. وضعية تأمل!..

فكرت لثوانٍ.. ربما هكذا يعالج ويسيطر على نوبات غضبه، لم تدرِ ما تفعل، كادت تعود أدراجها لولا أن تمتم بتململ:

- مافيش داعي تمشي، خلصت..

شهقتْ بخفوت، لم يصدر عنها أي صوت يشي بنية الإياب من حيث أتت، حتى وإن أدرك وجودها من خطواتها فالتفاتتها لم تكتمل قبل أن يبترها!..

فتى ذكي، وتضاعفت أوجاعها.. هي اقتصتْ من ذكائه ذاك أكثر من النصف حين حرمته نور البصر..

جاورته في جلسته ببسمة رقيقة تتأمل وجهه الهادئ حين بادر هو:

- كنتِ فين اليومين اللي فاتوا!..

نطقها ببرود متذمر، لم تفهم هل افتقدها أم يضايقه غيابها كونها مصدر الرؤية في عالمه:

- تعبت شوية..

همستها باختناق مقتضب وجنون أفكارها يعود لمرتعه بعقلها، مط شفتيه، اعتدل يتحرك، يستند لسور الشرفة بظهره ويواسيها باهتمام:

- سلامتك..

ابتسم بخبث عقب كلمته وتساءل بفضول:

- ممكن أبقى عمو قريب ولا إيه!..

تكررتْ شهقتها ونفتْ بعجالة مثيرة للريبة:

- لا لا.. مش اللي فكرت فيه، مجرد تعب عادي..

قطَّب مع ارتباكها لكنه تغاضى عنه، مرره وقرر العبث معها قليلًا:

- ممكن أسألك سؤال فضولي!..

أومأتْ برأسها في صمت ثم تذكرتْ أنه لا يراها فهمستْ بجواب موافق، اقترب برأسه منها على أثره، بسمته شقية ماكرة وملامحه تترقب باستمتاع:

- الـ sex مع عمار أخباره إيه!..

توسعتْ عيناها وتجمدتْ ترمقه بنظرة مبهوتة، تباعد هو مردفًا بسلاسة عجيبة لا تناسب سؤاله الذي طرحه للتو:

- أنا نسيت ملامحه للأسف، بس فاكر إنه وسيم، مراته الأولانية كانت مهووسة بيه..

تظاهر بكبت ضحكة خافتة وشرد في تذكر مغيظ:

- مرة قفشتهم مع بعض في مكتبه تحت، كان منظر لطيف.. بس هي كانت بتكرهني..

بترتْ حديثه وكل كلمة فيه تصدمها، تبهتها، تثير غيظها.. ولا تصدق ما تعترف به تاليًا..

غيرتها!..

- إيه اللي بتقوله ده!..

هز كتفيه بتلقائية غريبة:

- مجرد فضول..

وغمزها دون أن يراها:

- بيرضيكِ!..

تشدد فكها، زمتْ شفتيها تمنعه بصرامة أمومية:

- نوَّار، المواضيع دي مش المفروض تتكلم فيها.. وكمان مع مرات أخوك..

افتعل لامبالاة، لكن لعبته لم تنتهِ حينما صرح:

- أتكلم ليه وأنا مارستها فعلا!..

شهقتها كانت عالية لم تتحكم بها، انتفضتْ بجلستها وهو لا يكترث.. يستشعر تسارع أنفاسها، يكاد يصله اختلال نبضها، يبتسم بانتشاء بلا مواراة:

- من حوالي تلات شهور.. كانت مرافقة، أكبر مني بست سنين، نوبة غضب من اللي شفتيهم، بعدها قالت لي عندي حل تخرج فيه مشاعرك وحزنك..

عقد كفيه خلف رأسه يستند بهما على السور ، بسمته متلاعبة.. تقسم أنها تشبه ابتسامة أخيه نصف الشقيق:

- والحقيقة طلع معاها حق..

ثم ضحك بمرح وقح:

- هي كانت خبرة..

- نوَّار.. اسكت..

رفضتْ وشجبتْ وردعته عن قص حكاية اقشعر لها بدنها.. هذا الفتى الصغير الذي غادر طفولته قبل أعوام محدودة؛ تعرض للاستغلال الجنسي بسببها!..

اللعنة عليها وعلى يديها وتجبُر مشرطها الجراحي، لقد حرمه قدرته على الاختيار.. على النجاة من النهش في غابة وحشية..

همستْ باهتمام حزين تداري به اختلاج جسدها:

- عمار عرف بالكلام ده!..

رد ببديهية سريعة:

- لأ طبعا، كان هيمشيها..

لم تستغرب رغبته في وجود تلك الفتاة، كذكر يستكشف دنيا النساء عبر قفزة واسعة، سألتْ بحزم:

- وعمك!..

تغضن جبينه للحظة بحيرة قبل أن يمرر السؤال بسؤال:

- ما جاوبتنيش برده!..

تمتمت بشرود غائب وقلبها موتور بذبح، لا تستطيع القصاص له سوى من نفسها التي رمته بهذا الخندق العفِن:

- على إيه!..

امتعضتْ ملامحه يستنكر نسيانها:

- عمار!..

أفاقتْ على إصراره، رغبته الغريبة في المعرفة.. لا تفطن إلى أنه يلاعبها، يرى حمرة وجنتيها في دُجنة عالمه، يبتسم شيطانه ويتربع على عرش سلطانه بسطوة وتسلط يليق به..

هو حاكم مملكة ظلامه..

ومعها!..

يمتلك الضوء والعتمة..

**

الماضي لا يرحل عنَّا إلا عندما نُرحِّله بإرادتنا، نعبر فوق جثمانه الهامد ونستمر.. لكن ماذا لو كان الماضي لايزال حيًا!..

ماذا لو لم يمت بعد!..

"أنساك ده كلام..

أنساك يا سلام..

وأحب تاني ليه!..

وأعمل في حبك إيه!..

ده مستحيل قلبي يميل..

ويحب غيرك أبدًا..

أهو ده اللي مش ممكن أبدًا..

ذكريات..

حبي وحبك ما أنسهاش..

هي أيامي اللي قلبي فيها عاش"....

تسللتْ الكلمات لأذنيه خفيضة، بعيدة حين كان يفتح عينيه من مذياع العم "عبد الحميد" حارس المنزل كعادة كل صباح..

تتكرر وتنطقها "أم كلثوم" باحتراق يوازي احتراقه..

حيرته وشتاته..

والذنب الذي يثقل قلبه دون توبة، فخيار الندم والعزم على عدم الرجوع خطيئة أعظم.. خطيئة تزيد الروح سقمًا..

تحرك يستوي على جانبه يتأمل الساكنة إلى جواره، أنفاسها الهادئة، ملامحها الناعمة التي تتحول لطفولية حال نومها.. وخصلاتها الكثيفة تخفي جانب وجهها..

زوجته وأم طفله، الحاضر.. لكن ماذا عن المستقبل!..

بل ماذا عن الماضي!..

ماضيه لم يكن مجرد قصة عشق فاشلة، بعدها يحق للخافق النبض من جديد.. لا..

هي ندبة تركت أثرها عميقًا بالقلب، والندوب لا تبرأ..

ربما لا تؤلم لكنها تبقى هناك قابعة في حيز الذكرى حتى يقع عليها البصر فيتفجر الوجع مضاعفًا..

دقائق طويلة مرت إلى أن فتحتْ عينيها لتلتقي بعينيه، بنظرة لم تفهمها، بعدها حجبتها أهدابه في رمشة!.. تبتسم بكسل وتتمطى قبل أن تستفهم بشيء من عجب:

– You were watching me sleeping!..

مد أصابعه يزيح خصلة منسدلة عن جبينها ووجنتها برفق، ببسمة شاردة تسيطر على شفتيه ونظرة حائرة مستقرها بين جفنيها:

– آه..

اعتدلتْ تنقلب على ظهرها، تتأمله بدهشة مستغربة لم تخلُ من شقاوتها اللذيذة:

– ليه بقى!..

مال إليها يلثم وجنتها باختطاف دافئ:

– بتبقي ناعمة قوي وأنتِ نايمة..

نهضتْ تجلس في مواجهته، تتخصر بنزق:

- نعم!.. أمال وأنا صاحية باكون إيه بقى!..

ضحك وحاوطها بذراعيه، يجذبها لتستوطن صدره:

- بتبقي مجنونة وبتجنينيني معاكِ..

ابتسمتْ بغرور وعضت شفتها السفلى في إغواء مختال:

- الجنون حياة..

كبل عنقها، ثبت وجهها في مقابله وبدأ قبلة بعد همسة صادقة:

- غزل حياة..

حررها بعدما ارتوى، تأملها من وضعه وبسمتها يشوبها شيء من حيرة بينما ترى تيه عينيه ولا تفطن لمغزاه!..

تخللتْ أنامله خصلاتها برتابة قبل أن يثوب لوعيه باللحظة فيخبرها بعبث ماكر:

- عندي ليكِ مفاجأة..

اقترب يهمس بأذنها في مؤامرة مع وهج عينيها الفضولي:

- هنعمل أوضة عبد الجبار سوا..

ابتعدتْ برأسها ترمقه باستفسار مشدوه:

- سوا إزاي!..

ظل ذراعه يطوقها، وأنامل يده الثانية تسير على وجهها، تغوص بشعرها:

- هكلم عبد الحميد يفضيها النهاردة، آخد أجازة من الشغل وننزل نشتري دهانات ونعملها سوا..

ثم داعب أنفها بسبابته:

- هتبقي الواد صنفرة المساعد بتاعي..

كانت سعادتها جلية وشرود بصرها يوضح إلى أين ذهبت!..

هي الآن تتخيل الألوان والديكورات، حتى الستائر ورسومات الجدران..

- That's an amazing idea..

رفعتْ جسدها قليلًا تستند إليه بتحدٍ عابث:

- ولو فضلت تسميه بالأسماء العجيبة بتاعتك دي؛ هاسميه عبد الجبار فعلا..

قهقه بخفة وروحه تحلق حولها:

- حلو عبد الجبار..

وكزت كتفه بحنق هدأت ملامحها بإثره، مررت كفها حول وجهه، فكه وذقنه الخشنة قبل أن تهمس بعشق صريح لا يحتمل تورية أو مرادفات:

- أنا اخترت اسمه خلاص..

رفع حاجبًا واحدًا وهو يتغاضى عن نظرتها بهروب خبيث:

- فعلا.. هتسميه إيه!..

وأسرع يردف قبل جوابها:

- إوعي يكون بحرف الياء برده..

ابتسمتْ برقة ونظرة العشق تتضاعف بمقلتيها حد الغرق..

هو مباح له الغرق لكنه لايزال بحماقة يتشبث برمال شاطئ مهجور..

- لأ..

نفتْ بهزة من رأسها ودفئها يلفه:

- من وقت ما الدكتورة قالت إنه baby boy وأنا قررت أسميه زين..

دهشته كانت حقيقية، تذوق الاسم بغرابة:

- زين يزن أبو الغار!.. غريب شوية..

طافتْ بأناملها برقة تتلمس تفاصيله:

- نفس حروف اسمك..

كاد يطلق لعنة..

اللعنة "غزل".. أنتِ تصعبين الأمور.. كل الأمور..

كيف يفكر بأخرى وتلك العاشقة تتلاشى فيه عشقًا، تذوب بين ذراعيه، تنطوي به وتحيا له!..

اللعنة عليه هو..

عاشق خاسر، موصوم بأبدية الفقد..

ازدرد لعابه وابتسم يداري ضياعه:

- وليه مش بحرف الغين زي مامته المجنونة؟!..

فكرت لحظة وإصبعها بين شفتيها:

- غسان مطر مثلا..

عاد يضحك براحة:

- اسم مركب..

ابتسمتْ بنعومة وهي تطرح فكرة أخرى:

- غازي!..

تأملها لحظات قصيرة، دفعها بعدها يعيدها لضمته باستحواذ:

- هو من ناحية غازي فإحنا عندنا فتوحات..

- يزن!.. الأوضة..

تؤنبه فيهمس كلماته الختامية بين شفتيها ينتهج درب التيه:

- تتأخر ساعة..

اختارالعشق.. اختار الهروب.. سقط في هوة الفقد..

وانتهى ضائعًا في حنايا امرأة لا تترك له منفذًا للفرار من حصار عشقها..

" وأحب تاني ليه!..

وأعمل في حبك إيه!..

ده مستحيل قلبي يميل..

ويحب غيرك أبدًا..

أهو ده اللي مش ممكن أبدًا"..

**

خطيئة إبليس الكبر، وخطيئته الجشع..

لكن كلاهما يشترك في واحدة؛ شهوة السيطرة والسلطة..

طُرد الأول من الفردوس، وخسر هو كل نعيمه الذي صنعه بعُسر..

هو رجل بدأ من القاع..

كان عصاميًا تسلق سلم الثروة بجشع ودون أمانة..

حفر الجدران، غرس فيها أظافره وصعد إلى القمة، كلما وصل لمسافة؛ تطلع للأعلى وتضاعف طموحه، لم يولد بملعقة ذهبية يتناول بها ملذاته، بل لم يمتلك ملعقة من الأساس..

حارة ضيقة، أب دون أم تركتهم وهربت مع أول رجل ابتاعها كعاهرة تناسب شهواته..

أب لم يمنحه شيئًا؛ سوى السب واللعن، الرفض والمهانة والأذى، كبُر في منزل أقرب لغرفة فئران، كبُر يراقب أبيه يأتي بالساقطات إلى الفراش الوحيد بها ليعاشرهن تحت سمعه وبصره..

جاهد ليتعلم، ليكبر، ليصبح شيئًا.. ليصبح شيطانًا في عالم لا يعترف بالملائكة ولا بالضعفاء..

قاتل لأجل اللقمة والجاه والنفوذ..

جسده الضخم كان مؤهله الأول، حارس لراقصة، فسقوط في هواه سعى هو إليه.. وزواج أصر أن يكون رسميًا، ثم مال..

الكثير من المال..

وصولي، مستغل، ماتت عنه ليرثها ويتغير.. يموت الفتى الفاشل، ويولد رجل النجاح والسلطة..

"راجح طولان"..

المخلوق من العدم..

البادئ مما تحت الصفر بمسافات لا يصلها أفق العين..

خمسة وعشرون عامًا ووُلد بأوراق جديدة، هوية، عالم، مكانة.. وشراكة بينه وبين واحد من مالكي سوق المقاولات..

شراكة دفعت به لمحيط لم يكن يعلم عنه سوى الفتات..

وتضاعفت أطماعه، من المال والنساء..

الجشع بعد حرمان أمر واجب؛ ذاك قانونه..

حتى قابلها!..

"هالة عبد الهادي شاكر"..

كان قد بلغ عامه الثامن والعشرون، فاتنة، أنوثتها سخية، عيناها واثقتان، ودعوة جمعته بها في إحدى الجمعيات الخيرية..

هي من أسرة تتخطى المتوسط بعدة درجات لا بأس بها، وهو!..

هو كان قرشًا صغيرًا في خضم محيط هائج، لفتت نظره منذ الوهلة الأولى، اقترب، شاغلها، ادعتْ القوة، هربتْ..

ثم سقطتْ..

وتلا ذلك سقوط متواصل..

كان يخونها، يؤذيها، يطعنها في ظهرها وقلبها..

وتعود لترتمي بين ذراعيه..

أدمنته وكان يدرك، أدمنت العشق والجسد والرغبة.. كان يخطط؛ ونجح في تخطيطه كما كل خطة سبقتها..

ثم أتتْ سقطته الحاسمة!..

شقيقتها الشقراء التي تفوقها فتنة، دفئًا وأنوثة ونجاحًا..

أرادها، اشتهاها، ووقتما أتت اللحظة المناسبة اقتنصها بفراش عُهر.. بفراش أختها الصغرى..

لكن حساباته معها كانت خاطئة..

هي ليست كعاهراته، هي عاشقة تعثرت في سقوط مدوٍ، مخلصة لم تستسغ مذاق الخيانة، وأم خسر عالمه كله بسببها..

خسر أمواله التي جمعها بشق الأنفس..

خسر بيته، زوجته وأطفاله.. خسر وخسر وخسر، وعلى من كبده تلك الخسارات دفع الثمن فادحًا!..

انتظره بمرآب فندقه، ساعات طويلة مرتْ، كان قد خرج من محبسه بعدما وفَّى عدوه بوعده للزوجة المغدورة، يمين طلاق حاسم هو ثمن حريته ولم يتأخر في دفعه، لكن غريمه هو من تأخر في تحريره حتى تنتهي عدة مطلقته، يضمن اللاعودة..

لمحه من بعيد يتجه نحو سيارته فركضت خطواته إليه، امتدتْ يداه ليقبض على ثيابه لكن اللمسة لم تتم وإن تمت الزعقة:

- هاقتلك يا وجيه الكلب..

لم تتم لأن رجلين ظهرا من العدم، من اللامكان، يحاوطانه، يكبلانه، يوقفانه أمام خصمه بمهانة.. قاوم وحاول التملص منهما دون جدوى، ضخامتهما توازي ضخامته بضعفين..

استدار إليه "وجيه" بثبات، نظرته سوداء ساخرة تفيض ببغض لا محدود، بغضب يحق له، ونشوة ظفر اكتسبها بيديه:

- الكلاب أحسن من الفيران اللي بتستخبى في الضلمة وتستنى لما صاحب البيت يكون مش واخد باله عشان تسرق منه..

زمجر "راجح" بعنف شرس في محاولة للإفلات من قيده بين يدي الرجلين الصامتين كجبلين بلا حياة:

- هاقتلك..

كررها ولم يأبه الثائر، فثأره على وشك الاكتمال، دنا منه، واجهه، لكمه في فكه بكل ما أوتي من قوة، تمزق جانب فمه وبصق دمائه بجنون، نظرته تبرق بخبال وهياجه خرج عن السيطرة لولا الأسر:

- يا جبان، بتضربني وأنا متكتف!.. خليهم يسيبوني ووريني شجاعتك..

كرر "وجيه" اللكمة بشراسة، ثانية وثالثة ورابعة في جسده كله، وجهه، معدته، جانبيه.. انتهى الأمر بركبته بين ساقيه مرتين متتابعتين ليفوز بشهقة عذاب..

ينظر للرجلين فيتركا غريمه يسقط على الأرض، يتأوه ويتلوى، كفأر دهس أحدهم ذيله فمزقه؛ استقر في وضع استلقاء صارخ، جلس الآخر في مقابله القرفصاء ببسمة قاسية، وحشية نظرته تحاصره بنهش مخالب الحقد والكره والمقت:

- مش ده اللي تاعبك، أديني ريحتك..

هرس رأسه في الأرضية الأسمنتية دون مبالاة بسحله:

- أقسم بشرفي اللي وسخته ما هترتاح في يوم يا راجح، زي ما هي ماتت هتموت، زي ما اتحرمت من ولادها هتتحرم من ولادك، زي ما ولادها اتحرموا منها ولادك هيتيموا وأنت عايش..

ثم استقام يرمقه من علو باحتقار، ترتفع قدمه لتدهس وجهه بحذائه بلا اكتراث، يضغطه فيقاوم لكن ألم جسده كله يفترسه:

- هتعيش حر، هم تحت عينيك زي ما هي بتراقب ولادها من بعيد.. هتشوفهم عايشين ومش عارف تلمسهم، هتلف حواليهم زي التايه، أقرب مسافة مسموحة لك 200 متر، متر زيادة وهارجعك السجن وهناك هاعرف أخليهم يوجبوا معاك..

ضغط أكثر لوهلة، انتهتْ بركلة لبطنه وإشارة لرجاله، أقامه الرجلان بصمت تام كأنما التعليمات لا تشمل نطقهما بحرف واحد، تهاوى بينهما، تراخى جسده في سقوط مهلهل بينما يأمرهما "وجيه" باشمئزاز:

- ارموه في أي صندوق زبالة..

الوحوش لا تعرف الرحمة..

والانتقام عدالة الغضب..

**

كانت لا تهتم، وكان لا يبالي..

سقط هو في بؤرة اهتمامها فامتلك من عقلها ما يكفي ليشغله به..

وأثارتْ هي أفكاره فأصبح يحفظ تفاصيلها!..

الكارثة دومًا تبدأ مع أول درجات المعرفة، بداية الإدراك..

أدركتْ آلام روحه.. وأراد تحطيم أسطورة الحب بقلبها..

أما الآن فمصيبته الأعظم؛ أنه يشتهيها!..

سبعة أيام طويلة مرت منذ طلبتْ الفراق، منذ منحها إياه لثلاثين ثانية ثم أعاد ربطها به للأبد كما أخبرها.. كما ينوي..

وقبلها يومان، تسعة أيام منذ كانت له بكل ما فيها..

تسعة أيام يفتقد المذاق!..

الويل لها، كيف لورقة خريف ذابلة أن تهز جذعًا ثابتًا صلبًا حين سقوطها!..

كيف لأرنبة صغيرة أن تسعى لترويض الثعلب!..

بدأ يغرق فيها، لن يستنكر الفكرة فهي امرأة خلابة.. امرأة تستحق الغرق في حناياها، غرق لوقت مستقطع..

هدنة مستحقة لرجل مثله لم تتوقف حروبه للحظة!..

كان يترك لها مساحة خاصة خالية من حضوره فقط لسبب واحد؛ أن تهضم خلودها معه.. ضياعها فيه.. امتلاكه الكامل لها..

أن تبتلع كل ما فات وتستعد لما هو آت..

لم يتغير روتينه إلا قليلًا وابتسم لنفسه بنشوة، ركض يومي، عمل، معتزله ومنحوتات هي ملهمتها..

هذه المرة جسد رقصتها الشرقية وإن كان خيالها حينها سحبها في دوامة ماضيها.. عودة للجناح، قد يلتقيها صدفة فيتفحصها بنظرة كأنما يفتش عن أثره بروحها، لكن في الغالب تختفي هي قبل أن يعود..

تسعة أيام رآها أكثر من كافية لتتكيف مع فكرة كونها جاريته حتى الموت.. موتها أو موته..

لم يُنهِ منحوتته لتلك الليلة، غادر الغرفة باكرًا عن المعتاد وصعد إليها، عند باب غرفتها صمتَ للحظات بعدها فتحه بهدوء حيث أنه يعلم بنوم طفلها في ذلك التوقيت..

أما هي فكانت مستيقظة، تقف قرب الخزانة وقد أنهت حمامًا دافئًا يهديها استرخاءً تنشده، لترتدي ثيابها..

لمحها تنسل داخل ثوب بيتي قطني داكن الزُرقة، يحارب عاجية بشرتها في صراع مميت.. شعرها ندي، بشرتها رطبة.. وناعمة..

ناعمة للغاية حتى أنه قبض كفه جواره بشيء من عنف، ربما ليمنع نفسه عن لمسها.. تحرك للداخل، أغلق الباب من خلفه، حينها انتفضتْ بغتة واستدارتْ تتفاجأ بوجوده!..

تنفستْ بحدة وصوتها الخافت يشتعل بالحنق:

- أنت بتعمل إيه هنا!..

ظل يخطو نحوها بلا كلمة حتى واجهها، لم تهرب.. لم تحاول حتى، كانت تتحدى نفسها وتتحداه بالرفض والمواجهة..

ورأتْ نظرته، رأتْ في عينيه ما يريده..

رأته وأقسمت ألا يناله، طردته بخشونة رافضة:

- يعقوب.. اطلع برا..

اللعنة عليها لو استجاب!.. كان صامتًا، وصمته يثير جنونها.. يقترب.. يلمسها فتتراجع ويتقدم هو معها حتى أوقفتها خزانة الثياب.. عندها حاوطها بذراعيه في فخ لا مهرب منه..

تضغط أسنانها وتهمس بغضب:

- اللي بتعمله ده مش هيوصلك لحاجة..

قرب أنامله من وجهها وعيناه تطوقانها بنظرة كالقيد..

مررها فوق وجنتها، فكها، تحرك صعودًا إلى جانب عينها، جبينها.. مفرق خصلاتها ثم تخللها بطولها، غاص بشلالها المبتل بأصابعه وكيانها يتجمد في مواجهته تمامًا كأنما نظرته تصفدها إليه رُغمًا عن إرادتها..

لكنها مجددًا أعلنتْ الرفض:

- اطلع برا..

تنهد ببطء، حرر بصرها ومال برأسه إلى شفتيها..

اللعنة..

هو يشتهي!..

يريد!..

يشتاق!..

وملعون لو امتنع وما يشتهيه بين يديه..

لامس ثغرها برقة غريبة ضاعفتْ من تيبُس جسدها، لمسة خافتة وابتعد.. تنفس.. سحب شهيقًا بعبق الشمس إن كان لحرارتها التي تحرقه بهذه اللحظة عبقًا..

وعاد..

لمسة خاطفة، ثانية، وثالثة انتهت بامتلاك شغوف، أهلك أنفاسها..

لكنها لم تخضع، دفعته.. أبعدته، بقبضتيها لكمتْ كتفيه، صدره وخصره.. أدارتْ وجهها تهرب من احتلاله.. من غزوه..

من سيطرة لا تريدها، من استسلام بدأ يتسرب إلى خلاياها.. تقاوم نفسها قبل أن تقاومه.. تكتف يديها عن تطويقه وتزيد من صراعهما بضربات فقدت الكثير من قوتها..

وهو شعر بها.. بضعفها..

بتجاوب وشيك ينقصه دفعة.. إصرار..

بجبروت رجل.. برغبة ذكر تحكم بكفيها، كبل معصميها بيسراه بينما يمناه تتيه في فوضى سحرها.. تخبرها عما يريد..

شفتاه تحررانها لثانيتين فتشهق بعذاب:

- لأ..

لكنه يفرض صمتًا هو ملك اللحظة:

- شششششش.. أيوة..

لا ينفصم عناق الشفاه.. يتواصل، ينهل منها على مهل.. يخوض مع فتنتها ألف مغامرة في دقيقة..

وتتكرر كلماته الإسبانية، لم تكن كلمة واحدة بل أكثر!..

تلهث بضعف، تغيب في دنياه، تحتج بـ "لا" هامسة بين شفتيه فيبتلعها بانتصار.. سكون تتخلله الأنفاس المحتدة..

سكون انتهى بها معه في فراشها وقد جردها بلا وعي منها.. تخلص من قميصه، وأمرها بحزم:

- افتحي عينيكِ يا شمس..

فتنظر في عينيه.. وتضل!..

يتسلط هو بدُجنة مقلتيه، يأخذ منها، ويفتش عن رضاها..

يلمح غيابها معه، جفنيها يتعانقان في تشوش اللحظة، فيفيق بذات الأمر وإن كان أشد صرامة:

- افتحي عينيكِ..

يستحوذ على أفق بصرها..

يخبرها أنها تراه هو، لا ترى سواه..

لن ترى سواه.. لن تفكر بسواه.. لن تحلم بسواه..

هو هنا.. هو وحده وهي معه.. هي له..

قهرًا تستجيب.. قهرًا ترمش بضعف، وحزمه لا ينقص، لا يلين:

- شمس..

تعود لعينيه.. تعود بوهن.. تعود بفهم..

تعود بألم!..

كفها بلا إرادة تحاوط وجنته.. تُطمئن سواد أفكاره، نظرتها تأسره وتهديه راحة اللُقيا.. راحة السكن لعينيها، راحة تمام الامتلاك..

امتلاكًا انتهى به يرتكن بجبينه إلى كتفها، وبها خاضعة كجسد فاقد للروح.. سرق منها ما لا يحق له باسم عشق مات صاحبه، لكن العشق ذاته في القلب حي لم يمت..

سلبها حق الرفض..

وهذه المرة الامتهان كان أقوى وأكثر عنفًا ووجعًا..

عندما تراجع يجاورها للحظات، تباعدتْ وانطوتْ على نفسها في جمود.. سحبت دثارًا تستر بها عريها، عارها.. وانهمرتْ دموعها دون صوت..

رمقها بنظرة غامضة.. استقام يرتدي ثيابه، يستدير إليها.. رجفة جسدها دللتْ على بكاء لم يتخطَ حاجز الصمت..

تأمل ظهرها لثوانٍ، تنفس.. زفر بلا ضيق، وغادر..

امتلاكه لها لذة..

لكن تجاوبها معه انتفاضة..

وهو يفتش عن ثورة.. يشتهيها، يريدها، ومتى ما أرادها سيأتيها، سينالها حتى الثمالة..

ولتحترق بعدها في جحيم إخلاصها المزعوم إن شاءتْ!..

**

إن كان الدلال رجلًا لتزوجته، ولأخلصت له..

"نيروز"..

امرأة من طراز خاص، قوية، صارمة، حازمة.. وكذلك أنثى حتى النخاع!..

تتخلص من طاقتها السلبية وضيقها بعدة أشياء؛ أولها وأهمها وأكثرها متعة.. التسوق..

طفلها مع مربيته بالمنزل، بينما هي تتجول في المركز التجاري الخاص بالمجمع السكني.. ابتاعتْ الكثير، بعثرتْ المال بسخاء.. ونهاية جولتها كانت في أحد محلات بيع ثياب النوم..

خلو حياتها من زوج، من رجل؛ لا يعني ألا ترى فتنتها بعينيها ولو على سطح مرآة..

هي تعلم أنها ساحرة، وتهمس لنفسها بها دون مجاملة.. بل بثقة تامة، وشيء من غرور..

انتقت ثلاثة وفي طريقها للرابع لمحتها!..

الصغيرة البريئة التي نسيتها أو تناستها هي والملعون زوجها، التي أيضًا على ما يبدو سامحت خائنها الوغد، بل تدلله بابتياع ثوب نوم فاضح!..

تحركتْ نحوها بلا تردد، وقفت تشرف عليها، ترميها بنظرة مستنكرة مفتعلة بها من السخرية مقدار لا بأس به، ترى العَبرة التي

وُلدت على أطراف أجفانها، لمعتها المصدومة الرافضة وارتباكها تستعيد أثر الخداع والطعن في الظهر!..

لمعة معها استعادت الأفعى ذكرى الغفلة.. لم يُخلق بعد من يلبسها ثوب الحماقة ويتلذذ به فوق عقلها وجسدها..

كانت المغفلة معه مرة.. وها هي تُمنح لقب شرير الحكاية في الثانية..

البلهاء ككل أنثى على وجه البسيطة سامحته، نظرتها تخبرها أنها هي المذنبة.. هي الآثمة.. هي تفاحة الخطيئة ومغويته بالقضمة الأولى.. هي السارقة أما هو!.

المظلوم.. المنهوب..

البريء المسكين الذي عاد نادمًا فنال الصفح!..

اقتربتْ أكثر بلا تردد تتأمل الثوب بيديها، تبتسم باستهجان مستخف وتميل بناظريها في تعبير وقح:

- واو يا ميري.. ده إحنا اتجرأنا خالص، ووصلنا لفقرة البيبي دول الأحمر..

تضربها بالكلمات دون خجل!..

قبضتْ "ميرهان" على الثوب بين أناملها بغيظ، تحركتْ بانفعال لتدنو بالمثل، بتحدٍ والنبرة رغم قوتها شابها شيء من وجع:

- إيه.. هو إنتِ مالبستيش واحد زيه عشانه!..

رفعتْ "نيروز" حاجبًا واحدًا وقررتْ طعنها في موطن النزف علَّها تفيق.. تدرك أن الخيانة وإن لم تكتمل فهي تؤلم..

عليها أن تحيي الجرح.. عليها أن تريها من هو السيء هنا!..

هي ليست اللعوب التي أغوت ملاكها البريء..

ناوشتْ شفتيها بسمة ماكرة.. غمزتها بعبث:

- الحقيقة لأ..

ومالتْ نحو أذنها بسفور كأنما ستخبرها سرًا:

- ماكانش بيديني فرصة ألبس، كنا معظم الوقت naked..

نجحتْ في مهمتها بشكل ما كما يبدو.. راقبتْ بلذة ارتعاشة فكي العاشقة الغارقة، تصلُب ملامحها لبعض الوقت..

ترى تشكيكها فيما نطقت به بعينيها، إقدامها وتراجعها وحيرتها، ثم قرارها!..

انتظرتْ تقدمها قربها خطوة زائدة:

- موسى حكى لي على كل حاجة يا نيروز..

النظرات تشمئز والنفس ينتابها غثيان:

- عرفت قد إيه أنتِ إنسانة وقحة وإني اتخدعت فيكِ!..

تبسط يدها لها:

- Guess what!.. هو مامثلش وعمره ما ضحك عليَّ في حاجة..

بعدها ترفع سبابتها في وجهها:

- بس أنتِ.. أنتِ حية ب **100** وش ولون..

هي أفعى، وتلك بلهاء..

لكنها لن تعترف أو تقر لحماقتها بنجاح..

مطتْ شفتيها وتأملتْ طلاء أظافرها تتظاهر بالملل كما تفعل عادةً:

- مغفلة يا ميري..

وبصقتها بوجهها بازدراء:

- مغفلة وهتفضلي مغفلة، له حق يخونك ويرجع ينام في حضنك عادي جدا..

ثم اسودت نظرتها بقسوة:

- هيلاقي أسهل من كده فين!..

أغمضتْ "ميرهان" عينيها بلا تحمل، ابتلعتْ هواءً لتزفره بوجهها، تتصنع البسمة بكل استفزاز:

- أنا مغفلة وسامحته ومصدقاه..

تقترب بإثرها أكثر لتحاصرها بالكلمات:

- واللي حصل خلانا أحسن من الأول كمان..

وتقذفها بما يليق بحقارتها:

- لما قرب منك عرف قيمة اللي بين إيديه..

تتسع ابتسامتها، تدعي التماسك أمامها:

- أحب أفكرك هو جوزي..

تهمس في أذنها بثبات مريب:

- أنتِ الرخيصة السهلة هنا مش أنا!..

تصلبتْ "نيروز" في وقفتها، ليس لأن الكلمات آذتها.. ليس لأنها حقيقة لا تنكرها ولن تفعل، فداخلها يعلو جداران متوازيان من التهكم المزدري، والغضب الجامح..

في دنيا النساء مثل الصغيرة، وفي عالم الرجال من أمثال زوجها امرأة مثلها تقتنص ما تشتهي بلا تردد؛ مخيفة..

ومخيفة توازي لقب عاهرة، فاجرة..

لقب لا تكترث له، ولا لأهله..

خطوة "ميرهان" التالية تجاوزتها، دفعتْ معها كتفها ومرتْ تجاه ماكينة الدفع، سددتْ ثمن ثوب النوم لترحل دون أن تنظر خلفها.. تابعتها "نيروز" ببسمة جامدة، باردة..

القطة نما لها مخالب؛ لكنها لا تدرك أنها مهما بلغتْ من قسوة لا تساوي فيها مثقال ذرة.. ستبتلعها وزوجها بقضمة واحدة..

في ثوانٍ اختمرتْ فكرتها الشيطانية، خرجتْ من المكان ترفع هاتفها لأذنها، تنتظر للحظات حتى أتاها الرد المبتهج فبادرتْ:

- جيمي، واحشني والله.. باقولك أنا عندي حفلة كمان يومين في البيت إيه رأيك تيجي!..

صمتت لحظة تنصت لجوابه قبل أن تبتسم بخبث:

- great.. قولي بقى؛ لسه على علاقة بهشام الفايز!.. أيوة، ابن الوزير!..

أتاها الرد الموافق لرغبتها فانقلبتْ ملامحها الفاتنة لوحشية وبسمتها تتوسع بانتصار دامٍ:

- هايل.. ابقى هاته معاك الحفلة..

القطة تظن أنها فازت..

فلنر إذًا كيف ستخدش الحبيب الغادر عندما ترى حقيقته!..

**

في عالمها وإن نالت من التعقيدات نصيب الأسد، هي امرأة بسيطة للغاية.. مخلصة، تعشق ما تعمل وتؤديه بتفانٍ وإتقان..

بعد تحضيرات دامت لعدة أيام بالاتفاق مع أبيها، وتجهيز حديقة المنزل الخلفية باتت خطتها قيد التفعيل.. الوالد لم يبخل بشيء، كانت تغريها بمفاجأة تجاهلتها الفتاة كثيرًا حتى بدأ يولد بداخلها بعض فضول..

تفجر عندما عصبت عينيها هي وشقيقها وقادت الاثنين تجاه "أرض المعركة" كما أسمتها!..

وقفت تنظر بفخر وثبات لإنجازها، أبيهما على الطرف الآخر من الحديقة، ينتظر ببسمة آملة بها لمحة من مرح..

كشفتْ عن أعين الصغار واستكانتْ في صمت تنتظر الانفعال..

"باهي" تأمل المكان الذي تحول لساحة حرب فعلية، حواجز متراصة بترتيب معين، مساحات خالية متفرقة تصلح للهروب والركض، الأسلحة المفترض استخدامها..

تأملها كلها بنظرة تائقة ثم قفز بمكانه مهللًا بسعادة:

- paint ball fight..

"معركة كرات الطلاء"

أما "ضي" فقد رمقتْ كل ذاك بنظرة فاترة انتهتْ عند معلمتها ومعالجتها النفسية الخفية، قبل أن ترسم فوق وجهها بسمة سمجة:

- مش عاوزة ألعب..

اقترب "وجيه" من الوقفة الثلاثية بحماس حقيقي، جذب الصغيرة وجثا أمامها:

- ليه يا ضي!.. على فكرة أنا وأنتِ تيم، وميس رحيل مع باهي تيم..

بعثر خصلاتها وجذب بندقيته الخاصة يحرك صمامها بافتعال بأس جندي محارب مقدام:

- هنهزمهم يا فندم..

ترددتْ برجفة طفيفة لاحظها..

تلاقتْ عيناه بنظرة مسروقة مع "رحيل" تدفعه للمزيد فاستجاب:

- ها.. هنسمي فريقنا إيه!..

تدخل "باهي" بحماسه الطفولي متوثبًا بلهفة:

- أنا وميس رحيل The brave team..

سخرتْ منه شقيقته وقد بدأتْ في الانفعال لمجرد التحدي والمكابرة كما هي دومًا:

- أنا وبابي The conquerors..

تقدمتْ خطوتين تجاه الزي المعد لها ووالدها يساعدها في ارتدائه، تراقبها المعلمة الفخور ببذرة نجاحها المغروسة بأرض الصغيرة الجدباء..

هي اعتمدت على كبريائها وعنادها، ونجحت..

ساعدت أخيها واقترب منها "وجيه" وقد لانت ملامحه ببسمة وسيمة، أبعدتْ عينيها عنها بينما يقترح:

- أساعدك!..

رمقت تنورتها الطويلة ووشاحها بيأس، رفعت رأسها عقبها بحزم:

- هنهزمكم..

توسعتْ بسمته وشابتها بهجة أسعدتها..

هي لم تره مبتسمًا من قبل!..

- ما أظنش..

قطبت تستمر في تحديها بنظرة هربت بعدها تنشغل بارتداء بعض أجزاء زيها، خوذة الرأس وقناع الحماية الذي تدخل يحكمه حول وجهها بخبرة فتجمدتْ قربه، ابتعد يتأمل المشهد بوهج حماسي ثم جذب ابنته لاتخاذ موقعهما:

- Game is on..

وبدأت اللعبة..

معركة جنونية، فوضوية، ممتعة.. كثير من الطلقات ولطخات الألوان التي غمرت الجميع ولوثت ثيابها..

دقائق وضحكات "ضي" تعالت تنشر بهجتها في الأجواء..

كانت هزيمتها موشكة مع الأخ الأصغر الذي لم يهتم وهو يختفي معها خلف أحد الحواجز:

- ميس رحيل؛ ضي بتضحك..

يلهث ويعلن سروره بعودة شقيقته، حتى هو لاحظ تباعدها وغيابها عنه.. رمقته بنظرة دافئة من خلف قناعها الملطخ بالدهان، لا تكاد ترى شيئًا من تفاصيله لكن قلبها خمنها..

انتهى الوقت بفوز فريق الغزاة الفاتحين..

"ضي" و"وجيه"..

رفعها فوق كتفيه يدور بها، ضحكاتها لا تتوقف، تعلن بغرور طفولي لطيف انتصارهما، سلمهما لمربيتهما لتنظيفهما من آثار تلك الجولة المذهلة من السعادة..

دخل للمنزل لكن قبله وقف قبالتها بأمر لا يقبل سوى الطاعة:

- ماتمشيش، دقايق.. هاخد شاور وأوصلك..

لم يمنحها فرصة موافقة أو اعتراض..

اختفى من أمامها.. بعد خمس عشرة دقيقة عاد، مليئًا بالحيوية، شفتاه صامتتان لكن عيناه تفضحان غبطته وحبوره، خصلاته ندية مصففة بعناية وثيابه خفيفة على غير عادته في ارتداء الحلات الرسمية.. تأمل لطخات ثيابها وابتسم:

- أكيد مش هتروحي بالشكل ده لوحدك..

بادلته بسمته وأخفضت عينيها:

- عادي، مخاطر المهنة..

عقبها هزتْ كتفيها بتعديل منشرح:

- ضريبة النجاح..

أشار إليها لتتقدمه تجاه سيارته، فتح لها الباب فدلفتْ لداخلها بخجل، جاورها يدير المحرك قبل أن يسألها عن عنوانها فتجيبه بخفوت..

ساد الصمت طوال الطريق حتى وصل لحي منزلها الهادئ القديم، توقف قرب البيت، شكرته بهمهمة وهمت بالنزول، أوقفها بغتة:

- مدام رحيل..

تجمدتْ يدها على المقبض بحيرة، استدارتْ إليه وتلك المسافة الضئيلة بينهما تربكها..

مساحة السيارة المحدودة.. ملامحه المرتاحة المسترخية..

قلبها الذي ينبض بشكل غريب وعقلها الصارخ فيها بجنون أن عليها الابتعاد.. وجدت بسمته تحتل وجهه..

تحتل أفقها الضَيق قربه..

تسيطر على بصرها ونبرته الرخيمة الأنيقة تتسلل لمسامعها بسحر أزعجها:

- أنا مش عارف أشكرك إزاي!..

تساءلتْ بنظرة ساكنة فلوح بكفه ببساطة:

- الولاد..

أردف بتفصيل أوضح:

- ضي..

شرد في أحداث اليوم، كيف بدأ!.. كيف انتهى!..

صغيرته التي عادت إليه:

- ضحكتها اللي رجعت..

ردتْ باقتضاب تسعى به للخروج من مأزق وجودها معه وحدهما:

- ده واجبي، شغلي..

اعتدل قليلًا ويسراه تمسك بالمقود، أصابعه تنقره بتتابع هادئ:

- كلنا بنشتغل وبنجتهد في شغلنا..

وتألقت نظرته بسعادته، بامتنانه الصادق:

- بس مش كلنا بنعمله بحب..

مالتْ عنقه قليلًا بينما يفركها من الخلف براحة بعد تعب:

- العاطفة اللي بتقدميها للولاد رجعتهم للحياة تاني.. بعد موت مامتهم..

همس كلماته الأخيرة بتنشج جلي أحزنها عليه..

حزنها أخرج منها كلمات مبتورة ترفض بها شكره على واجبها.. وتكرر الفرار..

في حضرته بدأت القصة برهبة، بخوف.. باحترام وتباعد..

والآن هي عند نقطة تستغربها، تستنكرها..

هي تلاحظه كأب..

كزوج عاشق وفي لراحلة ماتت عنه..

تلاحظه كرجل!..

أنهتْ حمامًا متعجلًا، تناولت عشاءً خفيفًا سريعًا بصحبة والديها، واندستْ بفراشها تهرب إلى النوم من أفكارها.. لكن الأرق تحكم بالمشهد..

ضحكته التي أطربت مسامعها اليوم كطفلته تمامًا، ابتسامته الجذابة، عينيه الآسرتين.. ذلك الموج المتأرجح بين العصف والهدوء بين جفنيه..

دلكتْ جبينها بإرهاق مشوش ترفض حضوره بعقلها..

زواجها الأول كان مرتبًا كزواج السواد الأعظم من البشر حولها، رجلًا هادئًا متزنًا يعاملها برفق وحنو حتى تدخل القدر وحرمها قدرتها على منحه أطفاله فقرر الحصول عليهم من غيرها..

طالبها بالبقاء فاختارت الرحيل، تمامًا كاسمها..

والآن.. ماذا الآن!..

"وجيه نصار".. الرجل المهيب، الثري للغاية، التي تعمل هي ووالدها عنده..

يظهر ليخطف من قلبها نبضة هي الأولى من نوعها!..

يسرق من عقلها فكرة ويفوز من جسدها برجفة!..

لا.. لن تكرر قصتها بحماقة، لن تعيش الفقد والكسر مرة أخرى..

هي اكتفت، وفي أول فرصة سانحة بعد نجاحها.. ستهرب!..

**

بعض الرجال يريدون مشاهدة العالم بينما.. يحترق!..

"The dark knight"

المشاهدة أحيانًا لا تكفي؛ ما يشبع نشواه حقًا أن يشعل وحده عود الثقاب.. وها قد فعل!..

الآن حان وقت جمع غنائم ما بعد نهاية الحرب..

تمَّم على كل شيء، كل خطوة.. كل تفصيلة..

الأمور لم تكن صعبة فالحرب خدعة وخصمه فيها استسلم باكرًا، خصمه منحه الثقة وكان غافلًا.. لذا عجَّل بعقابه..

أخيرًا حصل على شيء من ثأره..

دلف من باب المنزل وهاتفه في يده لتستقبله العاصفة المتوقعة، أخيه الأكبر يهاجمه، يمسك بقبة سترة حُلته ويجذبه ليواجه احتدام عينيه بجحيم مستعر:

- أنت عملت إيه!..

زعيق كالنار.. وخسارة لا تُحتمل من طعنة غدر..

طعنة رآها، حذر جده منها.. لكن العجوز كان أحمقًا عاطفيًا بما يكفي ليهدي الدخيل ثقته.. عاطفيًا على غير العادة وبغرابة!..

قبض "يعقوب" على يدي "يزن" بغلظة.. وأصابعه تتضاعف قوتها بفعل نقمة.. بفعل حقد..

بفعل مقت.. بفعل غضب..

بفعل ألم مدفون عمره ألف عام..

- اهدى بس يا أخويا، الموضوع مش مستاهل..

- مش مستاهل!..

نطقها ذاهلة قبل أن ينفضه الصغير عنه بامتعاض، ينظر إليه بشراسة والبُغض لا يستر سطوته وجبروت حضوره بين جفنيه، لا يتوارى وراء قناع الوداعة..

لقد ظهر الشيطان على حقيقته الصِرْفة:

- بس أنتم.. تستاهلوا..

تراجع "يزن" خطوة بحيرة؛ تلك القسوة.. هذا الغل المغموس بالنفور.. الضغينة الغارقة في الكره..

ذاك كله قشرة تخفي وجعًا!..

هو أكثر من يفهم.. من يدرك.. من خاض التجربة إلى آخر قطرة، غاص بأعماقها المظلمة وظن أنه نجا..

على الصوت يأتي الحوت بخطوات ثابتة، نبرته الصارمة تمنع صراع الأسد مع الثعلب..

تُوقف نشوب حرب بين ضاريتين على حكم مملكة خَرِبة:

- في إيه يا يزن!.. بتتخانق مع أخوك ليه!..

ابتسم المسئول بسخرية وعيناه لا تترك عيني المسئول عنه:

- اسأله..

ثم استدار لجده بحنق مزدري:

- اسأل اللي وثقت فيه وعملت له توكيل رغم رفضي..

بعدها صاح بهياج جذب زوجته من غرفتها بركض متوتر:

- اسأل أخويا..

النبرة، الكلمات، الاتهام.. كلها تفاصيل مرعبة..

مرعبة للجد الذي وقف بصلابة صامتة بين الاثنين للحظات، استدار إثرها لحفيده الأصغر:

- حصل إيه يا يعقوب!..

وعن الحفيد فلم يشفِه بجواب يريحه، فقط ارتسمتْ فوق شفتيه بسمة شيطانية منتشية، ظافرة تفيض بالبأس..

الجواب أتاه من خلفه ولم يكن شافيًا، كان طعنة:

- البيه باع أسهمنا في شركة الديب..

عم الصمت كأنما تجمدت جميع أشكال الحياة بغتة!..

كل ما مر بملامح "يونس" كان رجفة.. رجفة اخترقتْ زمة شفتيه وصلابة وجهه، والآخر لا ينكر.. لا يعارض..

لا يكترث!..

رجفة صرخ عقبها عقله يتهمه بالتخاذل والضعف حين استسلم لعاطفة أب:

- الكلام ده حصل يا يعقوب!..

- حصل..

ارتد جده خطوة، الكلمة أتت كلكمة بصدره لم يتحملها فأراد اليقين.. الصوت يهتز، وتجاعيد السنين تهاجم على حين غرة:

- بعت نصيبنا في الشركة!..

- أيوة..

ارتد خطوة أخرى بلكمة ثانية..

تيقن؛ هو السفيه في هذه الصورة..

هو الأحمق الذي ظن أنه يصلح أخطاء ماضيه مع قطعة منه..

الأحمق الذي لا يزال يتمنى أن يخيب ظنه:

- طيب فين.. فين تمنه!..

كل الأعين ثبتت تتركز عليه..

"يونس"

"يزن"

حتى زوجة الأخ التي هبطت الدرج بتوجس..

مط الثعلب شفتيه ببسمة وحشية بينما يرفع هاتفه دون رد، ويجري اتصالًا قصيرًا.. اتصالًا لم يكتمل رنينه حين أصدر الطرف الآخر صفيرَ انشغال الخط:

- تمنه!..

النظرة بثلاثة أزواج من الأعين تتوحد بين السؤال والفضول والقلق:

- حرقته..

ثم صوت انفجار محدود، مكتوم يأتي من الحديقة الخلفية.. أخيه يتصلب في وقفته وعينه تدرك ما خفي وراء واجهة الوحش..

جده يتجمد.. أنفاسه تتلاحق وعيناه تتسعان بلا تصديق..

زوجته تأتي من الأعلى، تعدو بخوف هارب وصغيرها بأحضانها:

- جدو..

لمحته فتوقفتْ تستوعب وجوده لتوجه وقتها حديثها إليه:

- أوضتك بتتحرق..

وازى صيحتها ذعر الحارس في الخارج:

- حريـــــق..

ومن بين الدخان تتناثر بقايا الأوراق المالية في الهواء..

يتبعثر شقاء السنين كهباء منثور..

يحترق إلى رماد..

ويتمم هو الذبح بعدما أجهز على القلب:

- 100 مليون جنيه مصري، بالتمام والكمال..

الكل ينظر إليه..

ما بين رهبة.. صدمة..

حيرة.. وعتاب!..

عتاب في عيني جده الذي طاردتْ أنفاسه بعضها البعض في لهاث مختنق أكثر فأكثر والنتيجة.. سقوط..

راقب أخيه الأكبر يهرول إلى من فقد وعيه بوجه شاحب، يرفع رأسه فوق ساقيه ويناديه، يصرخ بزوجته أن تطلب سيارة إسعاف وصوت عربة المطافئ يدوي من بعيد..

راقب تلك الفوضى العبثية بانتصار، تأمل صنيعة يديه بتباهٍ وتراجع خطوتين، جلس بتجبر على مقعد منفرد ضخم أشبه بالعروش..

وضع ساقًا فوق أخرى وتنفس..

الآن مذاق النصر؛ حقيقي.. مثير.. قابل لإدمانه..

الآن يحق له نُدْفة من راحة..

الآن يمكنه أن يهدأ.. أن يستكين.. أن يحيا..

أحرق العالم ثم انتظر في ثبات حتى تتهدم المملكة..

أحرق العالم..

وأراد التربع على عرش رماده بعد الاحتراق..

فكان له ما أراد!..

(22)

كلنا نستحق استراحة محارب..

كلنا ننشد هدنة..

فبين الهدنة والنصر، هناك خيط رفيع من أمل!..

**

هناك امرأة تهديك بضمتها السلام..

في خِضم حرب مشتعلة ونيران تأكل الأخضر واليابس؛ بضَمِها فوق صدره استكان.. ينشد هدنة!..

يفكر.. يحتار.. ويتنهد بتيه..

كانت رأسها تستريح برفق بين ذراعيه، يحتضنها بعناق متعلق كأنما يكفيه وجودها قربه لينال نصيبه من الراحة والسكن..

أنامله تتخلل خصلاتها بشرود وهي تتفهم شروده..

وتخاف عليه!..

رفعتْ رأسها تمسك بكفه، تلثم باطنها وتبتسم لعينيه المتعبتين بحنو:

- هيبقى كويس إن شاء الله..

بادلها البسمة بخفوت مبهم؛ لا.. هو لن يكون بخير..

الطود العظيم..

الحوت المخيف، الذي يمكنه ابتلاع السوق بقضمة واحدة..

سقط!..

الطبيب أخبره عن سكتة دماغية شبه قاتلة، ضغط دمه المرتفع كمرض مزمن مع انفعاله الحاد كادا أن ينهيا حياته..

وها هو لليوم الثاني بغرفة الرعاية المركزة، حياته تتأرجح بخيط واهن أخير من حبل رفيع أعلى هاوية الموت..

لم يكن يتخيل أن ينتفض قلبه لأجله كما حدث!..

هو من قسا.. هو من نبذ..

هو من حرمه قرب توأمه حين رحيله.. من حرمه نظرة وداع..

من طرده من جنته ليسقط بأعماق الجحيم..

فكيف يخشى عليه حد الجزع!..

سكتة دماغية لا يدري ما سيترتب عليها حتى يفيق الحوت؛ فقط ليتها تمر بأمان..

شعر بشفتيها تلامسان فكه بدفء:

- اطمن..

أحنى عنقه ينظر في عينيها.. يستمد منهما ثباته وهدوءًا بات عسيرًا على أصابعه أن تتشبث به، سحبته من دوامة أفكاره لتغرقه في دوامة مغايرة بسؤال متوتر:

- هتعمل إيه مع يعقوب!..

"يعقوب!"..

اللغز الغامض الذي يستعصي على الحل..

ماذا سيفعل معه!..

لقد رأى بين جفنيه سعيرًا خالدًا كخلود الحياة في خلاياه..

رأى طيرًا ذبيحًا ينتفض منتشيًا بلحظات موته مادام سيصحب جده إلى قبره..

لمح خلف القسوة لينًا منهوبًا..

خلف الوحشية براءةً مغتصبةً..

خلف الشراسة ضعفًا ممقوتًا..

وخلف هوس السيطرة حقًا مهضومًا..

رأى ما وراء قناع الشيطان..

فماذا يفعل معه؟!..

ينبذه أم يضمه تحت جناحه!..

يتجاهله أم يفتش عن آلامه حبيسة غلظة القلب!..

أي منهما متاح له!..

زفر بحُرقة ورمش بحيرة لا تناسبه:

- مش عارف..

احتوتْ وجنته بيمناها تمنحه عاطفتها بلا حساب:

- أنا خايفة عليك..

رد ببديهية سريعة وإن كان على حاله من الشرود:

- مش هيأذيني..

حركتْ وجهه تلفتْ انتباهه إليها:

- يزن.. أنت ما شُفتش كان بيبص لجدو إزاي لما وقع!..

واعتدلتْ قليلًا بنبرة مرتجفة:

- مجرد إنه يغدر ويحرق عشان يأذي أيًا كان السبب؛ معنى كده إنه عنده استعداد to go further..

وازاها في اعتدالها حتى استند لظهر الفراش، جذب علبة تبغه يشعل واحدة.. يحرقها ويحترق معها:

- مش هيقتلني ما تخافيش..

تأملته لحظة ثم تنهدتْ بتقرير منطقي من حيث تنظر:

- هو قاتل على فكرة، بس بشكل غير مباشر.. تفتكر لو جدو...

- غزل!..

بتر كلماتها بنفثة لهيب بوجهها أجبرتها على سعال مختنق:

- مش قاتل..

أزاحتْ السحابة الداكنة بيدها من بينهما بدهشة مستنكرة:

- أنت.. أنت عندك استعداد تثق فيه!..

رمقها بنظرة ثائرة لدقيقة كاملة، نظرة متحدية مكابرة عنيدة.. مغلولة لأفكاره المقيدة بعاطفة مجهولة.. هدأتْ ثورته بغتة وهو يذكرها باستهانة:

- أنا أكتر واحد عارف سبب اللي عمله، عارف الواحد وقت وجعه ممكن يوصل لحد فين!..

وتبدل الهدوء للمسة من قسوة أحزنتها:

- وما تنسيش إحنا اتجوزنا إزاي وليه!..

زمتْ شفتيها بضيق، أبعدتْ خصلة وراء أذنها وغمغمت بحنق:

- بس أنت ما أذيتش جدو، ما ضيعتش تعبه to satisfy your sadism..

غامتْ عيناه بنظرة قاتمة أرسلتْ في جسدها بقشعريرة باردة:

- لو ضياع الفلوس يرضيني؛ كنت حرقت أملاكه كلها..

وانقلبتْ ملامحه مائة وثمانين درجة نحو السخرية:

- الفرق إني فضَّلت آخدها لنفسي..

- يزن..

- نعم..

- أنت بتخوفني منك..

أدار بصره إليها يتفحصها لثوان، أعادها بعدها فوق صدره:

- ما تخافيش، لا مني ولا عليَّ..

قبَّل جبينها برفق سارح:

- خليكي في حضني؛ محتاج هدنة..

اندستْ بين ذراعيه أكثر كأنما ستغوص داخله، حاوطت خصره بذراعها وتنفست بعمق، تهديه بدفء أنفاسها هدنته الموعودة معها بصمت..

قلبها ينبض له.. يخشى عليه..

يغضب منه ويحترق لقربه..

وفي الختام..

تعشقه ولا تدري إن كان يباح من عشقه نجاة!..

**

أطفأ النار بالنار..

نظرية علمية بمنطق مخبول.. لكن النيران عندما لا تجد ما تأكله؛ تأكل نفسها..

تتلاشى.. تخبو.. تنتهي..

الآن نيران روحه أكلتْ الكثير ولم يتبقَ ما يشتهيه إلا الدماء.. دماء أبيه، لذا هي في طريقها للخمود المؤقت..

لراحة بعد سعير.. لسكون بعد احتراق..

أما بعد النصر فالغنائم تُجمع؛ وتلو الجمع يحين وقت الاستمتاع بها.. هي غنيمته الكبرى.. سبيته، أسيرته، جاريته المطيعة.. تعددت المسميات والدلالة واحدة..

هي مُلكه..

ما الضرر في أن يموت العالم بأكمله لتحيا أنت!..

هذا حقك بفريضة ألم.. بموجب تيه وضياع لن يفهمه أحد..

كان قابعًا في الظلام يستعيد حيثيات النصر، تفاصيل هزيمته لعدوه الأوحد.. جنون لحظة مزق فيها جسد الأفعى وانتشى وإن لم يقطع الرأس بعد..

ممددٌ فوق أريكة المعيشة والليل يسطُر دُجنته على السماء والغرفة، يتنفس بهدوء، يزفر بانتشاء.. يغمض عينيه وقد وصل لمرحلة قصوى من اللذة..

لذة الألم، في هذه اللحظة هو سادي ولن ينكر..

سقوط الجد أمام عينيه، ذعر أخيه عليه.. النار تأكل الغرفة بمحتوياتها كلها..

سيارة إطفاء تجاور أخرى للإسعاف..

فوضى..

هو من صنع تلك الفوضى..

صنعها بدقة، بمكر، بصبر.. ونال الظفر..

حاز على ثقة الحوت، بتوكيل يمنحه الحرية دون قيد.. يمنحه السلطة، كم من وقت فات حتى يصل!..

لا يهم.. ما يهم أنه وصل..

"يونس بيه موافق على موضوع بيع الأسهم ده!"..

كان سؤالًا فرضه الموقف على الذئب الذي نال ما اشتهى دون جهد، سؤالًا يعلم أن جوابه لا يعنيه في شيء سوى إضافة بُعدٍ راقٍ على صورة اجتمع فيها اثنين من الشياطين حول جثمان خطيئة ذبحا صاحبها سويًا..

الذئب لا يكترث إن كان الفوز بشرف أو لا.. السوق ليس لعبة بل حرب، والحرب إن لم تبادر فيها بالهجوم أول طعنة ستكون بصدرك أنت..

أما الثعلب فماكر، دومًا ما يلتف بخبث حول مكاسبه، لذا رفع حاجبًا ونبرته الباردة تأتي بجواب مباشر، صريح:

- يفرق معاك!..

مط "عمار" شفتيه بلامبالاة صامتة كانت الجواب الشافي، اتفقا على سعر حدده المالك الأصلي، حيث كونه قد انتصر في حرب أخرى قبل أيام ترك لديه الكثير من السيولة التي وفقته في شراء كامل أسهم شركته، حضرا العقود.. وحُدد موعد التوثيق بعد يومين آخرين، تبادل الاثنان مصافحة أنيقة، رسم معها "يعقوب" بسمة هادئة فوق شفتيه..

بسمة لا توحي بأي انفعال من تلك المتناقضات التي تتصارع داخله في حرب أبدية، استقام بختام حاسم:

-congratulations..

بعدها لم تكن الترتيبات عسيرة، وُثقت البيعة، قبض الثمن كاملًا.. وعدة حقائب تمتلئ بالأوراق المالية، نقلها بسيارته تباعًا إلى الغرفة على دفعات بلا انتباه من أحد..

في اليوم الموعود، أغرقها بسائل سريع الاشتعال، مفجر الكتروني صغير مطلوب منه شرارة واحدة..

مفجر متصل بهاتف يحتاج لرنين من هاتف آخر ويستعر الجحيم..

حريق.. أحرق العالم ولا يبالي..

عالم عائلة "أبو الغار" التي ينتمي إليها بالاسم لا غير..

يتذكر أنفاس "يونس" المتلاحقة..

عيني "يزن" اللتين رمقتاه بصدمة، تلاها حيرة ثم صمت خالٍ من كل شعور ممكن..

عيني "غزل" التي تراجعت خطوة تهديه ذعرًا لا يصدق جموده، قسوته..

وأخيرًا..

عيني "الشمس".. التي وقفتْ عند نهاية الدرج تضم صغيرها لصدرها بكلتا ذراعيها وتتأمله بألم..

تتأمله كأن الطعنة انغرست في قلبها هي..

ولم يكترث لأي منهم؛ فورة الفوز كانت تصول بجنون في دمه، تطوف معه بأوردته..

بوسط ظلامه الحالي انفتح بابها، أتاه من خلفه ضوء خافت تابع على أثره خطواتها المتجهة إلى المطبخ المفتوح، تضيئه، توليه ظهرها لا تنتبه لوجوده.. وتحضر رضعة ابنها.. اعتدل يجلس في مراقبة صامتة حتى انتهت؛ حينها نهض إليها..

أتى من خلفها بتسلل وامتدتْ يده تقبض على معصمها، لم يتوقع الشهقة.. الانتفاضة.. ولا سقوط الزجاجة التي تلقفها بسرعة قبل أن تتحطم..

استدارتْ تواجهه باختناق أسير للهلع، تفحصها بنظرة طويلة يفطن لما تمر به معه، اقترب يغزو محيطها بحضور جذل:

- الخوف اللي في عينيكِ.. جديد!..

تنفس شذاه الذي يفوح من خلاياها.. من عينيها.. من هروب سَجَنه هو بحصار:

- نكهة مختلفة..

كتمتْ أنفاسها لثوان، استندتْ بيديها للسطح الرخامي وراء ظهرها، تتشبث به بكفيها كأنما هي على وشك السقوط:

- لأنك تخوف.. كل تصرف ونظرة منك تخوف..

رفع حاجبًا مستخفًا وإن انتشت دواخله بكلماتها:

- أنا الشرير في حكايتِك؛ ولا نسيتِ!..

نفتْ بقلب مقبوض.. موجوع:

- أنت مؤذي..

بسمته الشيطانية التي تبغضها نقشت هيمنتها الجهنمية فوق شفتيه بينما تردف بحشرجة لائمة حزينة:

- دمرت تعب عمره كله..

أرجع رأسه للوراء يتنهد ببطء، بعمق..

كل مخدر العالم لا يساوي مثقال ذرة من تأثير مقارنةً بتلك الأحرف التي تنطقها.. بانفعالها.. بخوفها حد رجفة ذعر تحاول احتواءه بتعب ولا يمكنها:

– Music.. أنت بتقولي كلام أجمل من أي سيمفونية سمعتها..

ثم أردف باستخفاف يليق بالموقف من حيث يقف وينظر:

– Drama queen يا شمس، ده مجرد نصيبه في شركة مش بتاعته..

استنكرتْ بضيق ومحاولاتها للتخلص من طوقه الخانق لا تتوقف:

– ده جدك..

تبدلتْ النبرة للوم والنظرة للأسى:

– اللي اتعرض لجلطة ممكن تعمل أذى دايم، ودلوقتِ في العناية المركزة وأنت حتى مش بتحاول تطمن عليه..

هزتْ بعدها رأسها بقنوط واجم:

– اللي هو فيه بسببك..

– واللي أنتِ فيه بسببه..

دحض حجتها بقسوة حقيقةْ واقعها معه:

- ما تنسيش ده..

مال يقابل وجهها، ينفث لهيبه يلسع به بشرتها، يجبرها على ابتلاع أنفاسه.. احتراقه.. عبقه الذي باتت تحفظه:

- هو اللي رماكِ في جحيمي..

قررتْ تحديه بعاطفة تعلم أنه لا يمتلك منها بادرة ضعف، لكنها تريد رد الطعنة:

- ولو مات!..

- يامن مات..

لم تصدق.. كل ما يفعله غير قابل للتصديق..

هو رجل مخالف للتوقعات، وهي امرأة تتيه داخل دائرة مفرغة من العاطفة والتوقع..

دائرته!..

أبعدتْ عينيها عنه بأنين:

- مش بسببي..

فكرتْ لحظة عادت عقبها إليه بتحدٍ آخر:

- مش هيفرق معاك لو مات بسببك!..

اعتدل قليلًا وإن لم يحررها من أغلال عينيه ويديه اللتين تحيطان بها، جاوب بسلاسة باردة:

- أكيد هيفرق..

تحول البرود لبريق قاسٍ أضاء ما بين جفنيه:

- النصر هيبقى مضاعف..

تكررتْ شهقتها.. صدمتها.. تضاعف خوفها..

دفعتْ صدره بشجن:

- آذاك في إيه عشان تكرهه بالشكل ده!..

كانت ابتسامته جليدية، ونبرته وحشية مفزعة:

- خلِّف أبويا..

جواب محدود أتاها بعده التفسير بلهجة قاتمة تشبه مقلتيه.. تشبه وجعه.. تشبه ضياعه وسلسلة خساراته اللا منتهية:

- ربَّى الوحش اللي زرعني في رحم أمي وهرب..

تجاهل كونه يكشف الستار عن أحلك أسراره سوادًا..

أسرار الألم والماضي البغيض..

أسرار مخيفة كتابوت فرعوني موصوم بلعنة تصاحب من يفتحه إلى الموت..

تجاهل كونه يُعري جرح روحه الذي لن يندمل أبدًا، فالنزف منه حي في كل لحظة..

قبضتْ أصابعه بغلظة على فكها فأنَّت بإنهاك يغلف كيانها:

- تفتكري عبد الله كان كده بالفطرة، ولا صُنع إيد يونس!..

لم يتركها، فقط أكمل بظلام وأسنانه تصطك بثورة مكبوتة:

- صَنع إنسان غير مسؤول، بيمشي ورا شهواته بغض النظر عن النتيجة..

أزاحت يده ودواخلها تتشتت معه، جنون.. ما يحدث معه، بينهما.. جنون.. ترى ما خلف الصورة الواضحة، تتأثر به.. تهتز وتجاهد للثبات:

- بغض النظر هيدوس مين في سكته..

تجمدتْ بالكلية مع تصريحاته المتوالية..

متوالية من ألم.. من قهر..

من عجز وذل وهوان..

متوالية من حال تبدل لحال..

من إنسان بات الشيطان..

راقبته بحسرة يتراجع خطوة، يفرد ذراعيه بطولهما على جانبي جسده في نهاية مسرحية تستحقها عبثية الموقف..

نهاية تراجيدية مأساوية أقرب لجنون هاملت المُدعى:

- شمس.. أنتِ عايشة مع الشيطان؛ فما تدوريش بسذاجة على ملاك مدفون جواه، مافيش ملاك يقدر يتحمل نار جهنم..

ختم العرض، طرد الجمهور..

أصبح نجمًا وحيدًا فوق خشبة مسرح ملعون وحان وقت متعته بجاريته الأثيرة كملك نصَّب نفسه عنوة على عرش خراب، اقترب يحيط عنقها ونصف وجهها بكفيه.. ينهب شفتيها بلا مقدمات..

شهقتْ ثالثًا واحتجتْ تتملص من استحواذه بعنف:

- أنت بتعمل إيه!..

أحكم أصابعه فكادت تنغرس بلحمها وصوته يشتهي غيابه فيها:

- أنتِ شايفة إيه!..

أعاد القبلة وتسلطه يطغى:

- عاوز أحتفل بانتصاري مع مراتي..

دفعته بكل قوة متاحة في وهنها الحالي، دفعته بغضب، دفعته بمهانة و.. خوف!..

- لأ..

تصلب بلا حراك لثوان، تأملها وسخر باستهانة:

- أنا في موود مش عاوزه يتعكر بسخافاتك دي..

لن يجبرها.. لن يحاول إغوائها وانتزاع تجاوبها معه رُغمًا عن أنف التمنع والرفض.. لماذا!..

لأنها الآن تخافه.. تخافه بعبير متفرد، مميز للغاية.. مغاير لكل ما سبقه.. عبير يثيره، لا يحرك فيه غريزة ذكر تجاه أنثى، بل يناوش غريزة السيطرة داخل الثعلب.. سيتمتع بتشمُم عبق رعبها منه فوق جسدها وحسب..

مع مرور الفكرة بذهنه فعلها ببساطة!..

أحنى رأسه بغتة يغوص بأنفه بين خصلاتها وجيدها، حتى أنها أجفلتْ وتيبسَتْ للحظات سعتْ بعدها للابتعاد..

تحكم بساعديها يثبتها في مواجهته حيث هي، يمنعها الفرار.. يكبل حريتها.. يسحب الهواء بلا حساب ويستقيم بشموخ..

يرمقها من عليائه بنشوة خالصة، يبتسم في غياب مستحق كأنما منحته الثمالة:

- خوفك يسكر يا شمس..

هي امرأة تشبه النبيذ المعتق..

وهو رجل لا يتعاطى الخمور، لكنه معها لن يقول.. لا!..

**

هناك نصر يهدي مزاجك ثمالة واجبة..

فماذا إن كان أكثر من واحد!..

هذا كثير حتى على رجل مثله اعتاد الفتوحات وأَلِف إنهاء أعدائه دون أن يطرف له جفن..

هي.. وشركته..

نصر مهما حاول أحدهم تعكير صفوه، سيبقى مذاقه فوق لسانك مُسكرًا، شهيًا، مشبعًا..

تأمل الواقف أمامه بنصف بسمة، وقفة صلبة، نظرة فارغة وإن لم تخلُ تمامًا من غضب يراه حقه بشكل ما، يديه في جيبي سرواله وكلماته تخرج محملة بشحنة مقت صريحة:

- معلوماتي عن الديب إنه شريف في حروبه، ما بيهاجمش في الضل ولا بيضرب في الضهر..

تراجع "عمار" في جلسته بلا تأثر يُذكر، استرخى وأشار لغريمه باستعلاء:

- معلوماتك صح..

ابتسم "يزن" بسخرية محتقرة، الحقد يقتحم دُجنة عينيه:

- ورغم كده اشتريت من يعقوب..

قررها بصرامة ممتعضة رفع لها "عمار" أحد حاجبيه مفتعلًا دهشة:

- والله مش أنا اللي عملت له توكيل عام يتحكم بيه في كل حاجة..

استقام يغادر مقعده، يخطو تجاه المتجمد بوقفته، يواجهه بصرامة:

- واحد من المُلاك عرض عليَّ إن كامل أسهم شركتي تكون ملكي؛ ما أظنش أي واحد مكاني هيرفض..

ولوح بسبابته في وجهه بحزم يخبر عن حقيقة:

- لو أنت مكاني مش هترفض..

استخف "يزن" بما يقول وإن كان صادقًا، أمَّن عليه برد مقتضب:

- معاك حق..

سيطر على عيني الذئب بنظرة داكنة، بها شيء من لوم لا يمكنه تخطيه:

- أنا جاي بس أقولك إن جدي، شريكك السابق اللي وقف جنبك في أزمتك لما كنت هتخسر كل حاجة.. دلوقتِ في العناية المركزة بعد جلطة في المخ..

لم يتأثر الآخر للحظة، لكنه اصطنع شيئًا من حزن وربتَ على كتف خصمه في حرب منتهية بالفعل:

- ألف سلامة على يونس بيه، هابعت ورد أكيد.. ولو قدرت أزوره أطمن عليه مش هاتأخر..

كأنه يبالي أو يفكر في تبعات ما حدث، كل ما يأبه له أن ما كان مُلكه عاد تحت إمرته بالكلية.. هو الآن منتصر في عدة حروب، والنصر يلزمه احتفاء.. احتفال، تلذُذ بمذاقه حتى آخر قطرة..

عاد للمنزل وبلا تمهيد كان يقف أمام الفراش حيث تجلس، تطالع كتابًا طبيًا رمقه باستهجان، انتزعه من يدها وجذبها يقيمها بين ذراعيه..

أبعدته بدهشة حانقة وأفكارها المشتتة تزداد تشتتًا كما في كل مرة تكون قربه، لكنه سيطر على رفضها وتحرك بها في خطوات راقصة على معزوفة صامتة تصدح بذهنه وحده..

تأججتْ نارها فتصلبتْ بعناد:

- إيه اللي بتعمله ده!..

ابتسم ببهجة لم تفهمها، طوقها قسرًا:

- بحتفل..

دار بها رُغمًا عن تصلُب خطواتها، يجبرها على مجاراته، انحنى يدفن وجهه في منحنى عنقها بحثًا عن انتصار جديد، همسه يصلها صارمًا آمرًا إثر قبلة مخطوفة:

- ومراتي المفروض تحتفل معايا..

ابتعد ينظر بأعماق عينيها المشتعلتين، يبتسم ببساطة عجيبة ويمرر حكمته الذكورية:

- ده من واجبات الزوجة المثالية..

لفتْ يديها خلف ظهرها تحاول تفكيك سواره الخانق من حولها:

- أنت خيالك واسع قوي على فكرة..

لم يحررها ولم تتوقف بينما تردف:

- احتفالك ما يهمنيش، لا أنا بعتبر نفسي مراتك.. ولا يفرق معايا أفكارك عن الشكل المثالي اللي بتتكلم عنه..

رفع حاجبًا مستمتعًا بمناوشتها الهشة، خطوته الأخيرة كانت قرب الفراش.. أسقطها بين طياته، يتسلط عليها بهيمنة:

- القطة بتحاول تخربش..

سقطتهما أوقدتْ جنونها فدفعته بقوة:

- ابعد عني..

ثبتَ ساعديها حول رأسها واقترب لا يحفل بتمنعها:

- أنتِ محتاجة دروس مكثفة؛ إزاي ترضي جوزك وتسعديه!..

تلوتْ باحتجاج هائج لم يوقفه، تلكأ مقابل ثغرها:

- وأنا ماعنديش مانع أعلمك، خطوة.. خطوة..

أحجم صرخة كانت على وشك إطلاقها في وجهه، بدأ قبلة لا تشبه ما خاضته معه من قبل.. لينة، ناعمة، رقيقة، متأنية، تقترب وتبتعد وتخطف أنفاسها.. هو يحاول إغوائها!..

يتمهل في اللمسة، في الرفق، يعلن عن رغبته وقلبها نبضه يتسارع بلوثة، قلبها يوشك على تحطيم ضلوعها، الأبله الذي لم يطرده من جميع غرفاته بعد!..

همست باسمه في حشرجة ابتسم لها، جاهدت للتخلص من تأثيره وضعفها.. استدعتْ كل ذكرى..

كل ألم.. كل فقد..

هو قاتل أبيها.. هو سجانها..

هو معشوقها الذي ستكرهه ولو بعد حين..

لذا قبل أن ينزع عنها ستر نفسها التي تبغضها معه، بين يديه.. بادرتْ بما تعلم أهميته لديه:

- في حاجة لازم تعرفها عن نوَّار!..

تجمد جسده كله، تراجع ينهض دُفعة واحدة بنظرة مسيطرة، اعتدلتْ تهندم ثيابها، تساوي خصلاتها وتهرب بعينيها لثوانٍ بترها هو:

- انطقي..

شبه زاعقة اعتصرتْ لها جفنيها، التفتتْ إليه وأفرغتْ ما بجعبتها على مسامعه، وصدق حدسها.. هو لم يكن يعلم!..

أخيه الأصغر لم يكذب..

مع اندفاعه كإعصار خارج الغرفة تنفستْ براحة، وشيء من رضى عن نفسها..

على الأقل قامت بخطوة في صالح الصغير، وتخلصت من الكبير الذي لم تُشفَ من عشقه.. من جروحه بعد!..

أما هو فقد دخل لغرفة أخيه بلا استئذان، سمعه وقتما كان يجلس على أرضية الشرفة حيث ستبدأ دقائق تمرينه اليومي، اسشتعر حدة أنفاسه وغضبه الذي تصله حرارته بلا جهد، ابتسم بتهكم مستهين وبادر قبل صراخ يتوقعه:

- كنت عارف إنها هتقولك..

جثا "عمار" قربه وحروفه تنهرس بين أسنانه:

- الكلام ده حصل فعلا!..

مط الأصغر شفتيه بلا اكتراث، ونبرته الباردة تؤجج نيران الأكبر أكثر:

- حصل..

واستطرد قبل ردٍ لا يريده:

- مراتك لسه عندها شوية مبادئ..

استقر "عمار" في جلسته على الأرض، مسح وجهه بتعب، تلاه تنهيدة حانقة تنفلت من لجام سيطرته على هياجه:

- فيفيان مش كده!..

اتخذ "نوَّار" وضعيته استعدادًا لبدء جلسة التأمل خاصته مجيبًا بيسر مغيظ:

- good geuss..

أعلن الأخ عن غضبه بوضوح بينما يقبض على كفه:

- أنت عارف إن ده sexual abuse!..

هزأ الصغير بضحكة مبتورة وهو يسحب يده:

- من مين بالظبط!..

اقترب من الواجم إلى جواره، يبتسم بخبث ماكر.. ويعلن الحقيقة التي خطط لها ونفذها دون عقبات تُذكر:

- عمار.. أنا اللي أوحيت لها بالفكرة، وخليتها تصدق إنها من ابتكارها..

الوحش الصغير!..

لن يلوم نفسه، فهو ليس صنيعة يديه..

سيلومها هي..

هي التي حرمته بصره فعوضه بخبثه وجنونه واندفاعه..

- الموضوع ده مش هيتكرر تاني يا نوَّار..

هو لا يدري ما يمكن أن تسببه تلك العلاقات من أذى، لايزال صغيرًا ومحاولة استكشاف منطقة الرغبات بعالمه محفوفة بمخاطر لا حصر لها، لا يحيط بها.. لكنه الآن معه، لن يدعه يغيب عن بصره مرة أخرى..

نطقها بحزم صارم تجاهله المأمور به:

- هاكرره مع مين هنا!.. أكيد مش مع مراتك يعني..

- نوَّار!..

توسعتْ بسمته، نهره راعيه بإدعاء خضوع:

- خلاص ما تزعلش، بس قولي.. إيه موضوع عمي ده!..

زفر "عمار" بحرارة واعيًا لرغبة صغيره في تغيير فحوى الحوار المقبض:

- وسن لما قلت لها اسمك في البداية ما افتكرتش..

لاحظ الغيمة المظلمة التي أعتمت ملامح أخيه، أكمل إثرها بثبات:

- كنت معرفها إنك عايش مع عم لينا في جينيف..

- جينيف!..

دمدم بها "نوَّار" في سخرية جاوبها بسلاسة:

- غالبا خمنت إنك ديب زي أخوك..

ارتسمتْ بسمة على شفتي الأصغر.. بسمة مبهمة غريبة تفحصها الأكبر بشك، قبل أن ينهي الحديث ببتر:

- عاوز أبتدي جلستي..

تأمله "عمار" للحظة ربت عقبها على كتفه بحنو:

- هاسيبك..

ثم تبدلتْ الربتة لقبضة فظة آلم بها عظامه بلا اهتمام:

- بس مش هاسمح إن اللي حصل ده يتكرر..

تغضن جبين الجالس بمكانه مع رحيل الحامي.. حياته من اختياره بعدما فقد أول اختيار..

وذلك القرار لن يقف في وجهه أحد حتى ملاكه الحارس الذي يظنه عاجزًا عن رعاية نفسه رُغم كونه أدرى الناس به..

أما هي.. فلها عقاب مستحق!..

**

الخسارة دَرَج محطم، نهبط عليه بحذر ورغم ذلك يحدث السقوط..

نتعثر، نتدحرج، نندفع للأسفل ولا نجد ما نتشبث به فالسور هش، والقاع غير بعيد، القاع ينتظر لحظة الكسر..

لم تتهدم دنياها وحدها.. حياة زوجها، حبيبها.. أطفالها، عالمهم البرئ دنسه سواد عارها.. وشقيقتها الوحيدة!..

كانت تهاتف والدتها بين حين وآخر، تتهرب من أبيها وتخلو هي بنفسها في غرفتها بمنزل "نيروز".. نهاية يوم طويل من العناية بالصغير "آدم"..

ذلك الطفل الذكي الذي ملأ جزءًا من الفجوة المحفورة بداخلها، الفجوة التي تبتلعها في دوامة ألم بختام كل يوم..

الليلة أخبرتها بتفاصيل ما جرى مع أختها وزوجها من حبيب غدرتْ به وطعنته في ظهره.. في قلبه.. في شرفه..

سالت عبراتها بصمت حتى أنهتْ أمها الحديث بوجع حزين:

- دلوقتِ أختك مش قادرة تصدق، مصدومة في الكل، خدت الولاد وأجرت شقة مفروشة بعد ما وجيه خد الفيلا، وراجح طلقها من غير ما يعمل حساب لعشرة ولا ولاد..

شهقتْ تكبتها، تنتحب وتكتم النحيب بكفها، تغلق فمها كقضبان سجن على مشاعرٍ لا يحل لها الإفراج عنها أو التصريح بها..

تستمتع لحديث ينحرها مع أحرفه حرفًا حرفًا:

- وجيه ماحدش بقى عارفه، ماحدش قادر يقف في طريقه..

تستمتع وكل ما أمكنها الهمس به كان الاعتراف بجريرتها، خطأها الأول وإثمها الأعظم:

- أنا السبب..

لم يصلها جوابًا من الطرف الآخر فأيقنت أن الأم تحملها الذنب كما تفعل مع نفسها، تجلدها بعهرها وإن لم يتكرر كما تجلد ذاتها:

- أنا آذيتكم كلكم..

اختنقتْ بالكلمات لكنها استمرتْ في صفع روحها بالحقيقة:

- وجيه.. أنا عملت فيه إيه!..

نشجتْ بوهن بينما أناملها تمسح فيض الدموع بلا جدوى:

- حولته لوحش..

والدتها لم تطيب خاطرها.. سكنت تبيح لها إحراق كيانها في جحيم عِظم ما أجرمت، ثم تمت المهمة بقلب مطعون بالوجع:

- مش هاقولك لأ يا ليلى، أيوة أنتِ السبب.. أنتِ غلطتِ، وليه!.. عشان ولا حاجة..

تحشرج صوتها، نبرتها تصل لأمها متقطعة، باهتة، ميتة:

- أنا غلطت.. أنا دبحته، أنا.. أنا..

انهارتْ بعذاب تخبئ وجهها في وسادتها التي استقبلت برحابة سيلها المنهمر:

- أنا أستحق الموت، موتي كان أهون يا ماما..

- ما تقوليش كده..

لاحقتها بفؤادها المذبوح عليها رُغم ما فات..

هي ابنتها وستظل.. نطفة من رحمة الله أضاءتْ رحمها، ضمتها بأحضانها، قربها..

ستظل أول فرحة.. وأقسى ألم!..

انتهتْ المكالمة ولم ينتهِ الخوف والندم..

فتحت هاتفها تفتش في صور صغارها، تمررهم بتتابع بطئ.. تبكيهم وتبكي عظيم الفقد، تلعن روحها وفُحش ما جنت يداها..

يغرق بصرها في صورة أخيرة جمعتها بمالك القلب، ابتسامتها ونظرتها المتوهجة ناحية الكاميرا، عيناه هو اللتان تحطان عليها

بعشق كان لها الكون بمن فيه.. ذراعه تحتوي كتفيها فتهديها أمان العالم.. وقربه الذي لم تُرِد سواه..

هي تكره ما تبقى منها وتود لو تُجهز عليه..

تعلن الندم وتبتهل لأجل توبة..

تبتهل لأجل عودة..

تبتهل ولا تدري أهي من المقبولين أم أن ذنبها لا يُغتفر!..

تترك قلبها لخالقها؛ وحده يمكن أن يهديه راحته.. أو يخلده في جحيم احتراقه حتى الموت..

**

لا أحد يهرب من ماضيه، مهما جاهد وقاتل ودخل معه في صراع ظن بنهايته النصر.. لا أحد ينسى الأمس..

ما فات هو صانع اليوم، صانع ما هو آت.. تلك حقيقة..

حقيقة ألم وفقد وذنب يُجشم نفسه عناء ثقله، وكذلك أهلها.. أهل زوجته الراحلة وأم ولده..

"يا أمي ولزومه إيه!.. ما هو كل مرة باسافر مخصوص عشان يقضي معاهم يومين أو تلاتة!"..

كان يدور حول نفسه بغرفتهما، يعلم أنها تضع طفله بالفراش وستظل إلى جواره حتى يغرق في نومٍ مرتاح.. لذا أعلن عن غضبه وضيقه بأريحية تامة، لكن والدته عاندته ببديهية:

- وماشافهوش بقى لهم كتير يا عدي، نازلين القاهرة كام يوم زيارة لنيرة وهتيجي هي وجدته يشوفوه..

مضغ شفتيه بأسنانه بحركة حادة آلمته:

- وده قرار بيفاجئوني بيه مثلا!.. زيارة ما حصلتش قبل كده ودلوقتِ قرروها عشان اتجوزت!..

ردت أمه بحزم تخبره بما خفي عنه ويرفضه بمنطق رجل:

- مافيهاش حاجة برده.. حقهم يعرفوا حفيدهم بيتربى مع مين مكان أمه.. وأنا هاسبقهم، هاكون موجودة مع رهف..

كبت ضيقه مرغمًا وهمسه يتردد بقلق:

- ولو ضايقوها!..

- مش في وجودي..

كانت تقصد كل حرف منها..

تعلم كيف تفكر عائلة زوجة ابنها الراحلة!.. كيف يحملونه جُرم فقدانها!.. كيف يرون أن عشقها له أنهى حياتها!..

حتى أنه صدقه مع كثرة تكراره في كل لقاء..

أنهى المكالمة بحنق، يدرك أنهم يشتهون ملء رأسها بوساوسهم عنه.. يريدون إيلامها؛ وربما تحذيرها من السقوط في هواه..

هو رجل عشقه موت.. والهروب منه نجاة..

استدار ليجدها عند باب الغرفة، ترمقه باهتمام حائر، تنطق سؤالها بخفوت:

- خير يا عدي؟!..

خلل خصلاته بأصابعه في شيء من عنف، زفر بحرارة واقترب منها، أمسك بيدها يضغطها برفق:

- مامة نورا وأختها عاوزين يزورونا عشان يشوفوا واسل..

تأملته للحظات.. عيناه تخبرانها عن المغزى والمقصد، لكن شفاهه مغلقة تحجب تفسيرًا بغيضًا يكرهه..

تملصتْ من قبضته ودنتْ تعانقه، يدها على كتفه وكف الثانية تضم وجنته:

- قصدك يشوفوني ويعملوا لي دراسة جدوى!..

صححتْ له باستفهام ممازح عقد له حاجبيه بينما هي تبرر ببساطة استغربها:

- حقهم على فكرة، أنا عايشة مع حفيدهم وفي مكانة مامته الله يرحمها.. لازم يطمنوا عليه..

ابتعد عن عناقها بتبرم ساخط قبل أن يوليها ظهره في مكابرة:

- مش حقهم، أنتِ مراتي وده اختياري.. مش هيتدخلوا فيه..

خطتْ نحوه تعيد ضمه إليها:

- بس هاكون مامة واسل كمان، وده ليهم حق فيه..

استدار بين يديها يجهر بغيظه الذي أخرج منه انفعالًا غير معتاد:

- ما تبرريش..

ابتسمتْ بحنو وهي ترى ما به.. تتفهمه وتستوعبه، تدرك احتدام أفكاره الثائرة في فلك مخاوف واتهامات ظالمة تعلمها ولا تبالي بها..

انقبضتْ يداه بحركة قاسية رافضة:

- هيجرحوكِ..

تمتم بها بلا وعي.. أحرفها اخترقت قلبها كسهام عشق تتمناه رُغم أن الكلمة لا تقربه في شيء..

هو لا يخشى على نفسه وحسب، بل عليها معه!..

جذبتْ انتباهه إليها بلمسة لطيفة لفكه:

- هم مش وحشين قوي كده..

ازدرد لعابه بعُسر مختنق ونظرته تغيم بحزن لم يرحل عن قلبه بعد:

- بس شايفيني وحش.. شايفيني السبب في موت بنتهم يا رهف..

وكرر ابتعاده.. كرر هروبه من احتوائها واهتمامها.. تنهدتْ، هذه المرة ثبتتْ مكانها تهديه من قوتها ثقة به:

- الفقد مؤلم يا عدي، وأنا عارفة إنك مقدر ده..

شرد بصره في أمس لم ينسه، لن يفعل.. فالألم حي في كل لحظة ودقيقة ويوم.. والخسارة برهانها يقبع في غرفة مجاورة..

الخسارة برهانها يتيمه..

أفاق على قربها، انكماشها بأحضانه كأنها تخبره أن أمانها معه وملاذها بين ذراعيه:

- عشان كده باقولك ما تقلقش، أنا هاعرف أستقبلهم..

تردد لثوان طوقها بإثرهما برفق، حينها عادت لعينيه ببسمة مشاغبة:

- مراتك أسد على فكرة، ما يتخافش عليَّ..

نجحت في اقتناص بسمة باهتة من شفتيه، بادلها بعدها مشاكستها:

- فعلا!..

تحدته معاندة بلكمة رقيقة لكتفه:

- تحب أثبت لك!..

حملها فجأة فطوقته شاهقة بارتباك انتهى بهما إلى الفراش، همسه يصلها عابثًا.. يعزف على أوتار قلبها لحن غرام ناعم:

- اثبتي لي..

وتسقط.. في كل قرب، كل همسة ولمسة وامتلاك.. كل لحظة أمان وضمة استحواذ..

تسقط كلها له..

**

أقسى سقوط؛ أن تزل قدمك من حافة الجنة إلى قلب الجحيم..

أو ما كنت تظنه فردوس نعيمك الخالد..

تحترق في السعير، تُعذب.. تدفع ثمن شرورك وآثامك..

تكفر عن جبروتك وبطشك.. والعجز هو قيدك..

العجز لرجل مثله هو موت.. بل الموت أكثر هونًا على نفسه المكبلة بفراش المرض منذ عاد للمنزل قبل خمسة أيام..

منذ أفاق من غيبوبة سقوطه ليجد أنه سجين القهر..

قهر رجل مارس الاستبداد حتى تشبع به، حتى أدمنه.. حتى اعتنقه كمبدأ من مبادئ البشر.. قانون لا تحِل مخالفته..

عقله لا يزال متشبثًا ببقايا وعيه، وكل ما عداه مفقود..

نصف جسده الأيمن مصاب بشلل كلي..

فقد قدرته على النطق السليم، لسانه ثقيل، لا يستوعب مخارج الأحرف.. فاختار الصمت المطبق..

وحتى البلع، الماء.. الطعام، كلها الآن باتت رفاهية ضائعة، لقد عاد طفلًا يتعلم التقاط طعامه من ملعقة تُحشر بفمه حشرًا ليسقط أغلبه فوق ذقنه وصدره..

لا يعلم من يستحق اللوم في تلك المعضلة!..

هو!..

البذرة التي ترعرع منها نبت الشيطان، أم إبليس الذي وُلد في جهنم دون أن يعرف بوجود الجنة!..

هو من تغلغلت القسوة بذراته حد التشبع التام..

هو من خسر عاطفته في عشق بلا ثمن..

وها هو الآن يدرك أن العاطفة ما هي إلا حماقة..

للمرة الثانية!..

أخطأ عندما عشق امرأة..

أخطأ عندما تمسك بها وإن أجبروها عليه..

أخطأ عندما تحكم بحياة ابنه منها بعد رحيلها كسوط يجلد به عبيد السيطرة..

أخطأ عندما فر منه فلم يتعقبه ويعيده..

أخطأ عندما نبذ حفيدًا وأخاف آخر، أنشأه يكبر على الجُبن فخسر الولاء.. أخطأ في حق زوجته وابنه بعد وفاته..

وأخطأ عندما اكتفى بظاهر الصورة دون أن يرى الوحش الكامن تحت رتوشها الباهتة.. قائمة طويلة من الأخطاء..

قائمة لم يعد تصحيحها متاحًا!..

سمع طرقاتها على باب غرفته التي أُعدت لأجله بالطابق السفلي من المنزل، كان ممددًا بالفراش بعجز كلي إلا من حركة بؤبؤيه وأصابع كفه اليسرى.. فحتى ذلك الجانب ثقيل، والتحكم به مضنٍ..

تطرق مرتان حتى تفتح لها ممرضته النهارية، تقابلها ببسمة دافئة تمنحه مثلها وإن كانت أكثر دفئًا، تقترب لتضع وجبة غذائه التي تصر على إطعامه إياها بنفسها منذ عاد على طاولة تجاور باب الشرفة المقابل للحديقة..

تعطيه دواءً ما قبل الغذاء وتستأذن الممرضة لتظل معه وحدها..

تطعمه وجباته الثلاث وتهتم به كأنه طفلها..

"شمس"..

ذلك الدفء يطعنه بقلبه في كل مرة؛ هل جزاء القسوة حنو!.. مقابل الحرمان عطاء!.. ثمن القهر رأفة!..

هل هي ملاك ترك الجنة ليحيا بينهم على الأرض!..

تلك البسمة الدائمة فوق شفتيها تضاعف عذابه أضعافًا..

راقبها بذات الجمود تحضر وعاءً صغيرًا من ماء الصنبور، ترش به عطرًا ما وتمسح وجهه بكفيها الباردتين.. تجففه برفق، وتجلس في مواجهته.. تضع منشفة عريضة على صدره وتبدأ في إطعامه..

يتساقط الطعام المهروس من بين شفتيه، تلاحقه بطرف الملعقة كطفل.. تتوسع بسمتها الرؤوم وبمحرمة تنظف لحيته مما بللها..

تكررها بلا ملل.. بلا كلل، وجسده رغمًا عنه يرتجف..

أصابع يسراه تنقبض بوجع، عيناه تتابعانها كأمه.. يراقب التفافها حوله.. هدوءها.. رقة قلبها..

تعدل وسادته وتضع قرص دواء آخر بفمه وخلفه قشة من كوب به ماء.. تغلق فمه وترفع ذقنه لتساعده على البلع بصبر..

تنتهي الوجبة فتنظفه، لا ترحل مباشرة بل تقص عليه أخبار اليوم..

تبتسم باتساع رقيق وتشير من خلفها:

- غزل هتجيب ألف ليلة وليلة وتحكي لك منها زي ما وعدتك إمبارح..

ربتتْ على كفه برفق:

- مرتاح يا جدو؟!..

ارتجف فكه..

ارتعشتْ شفتاه..

كان يقاوم دموعًا لم تتحملها أجفانه بضعفها الحالي فسالتْ بهوان على وجنتيه..

لمحها تتجمد للحظات في ذهول ثم تندفع بعدها تمسحها بأناملها، تعاتبه بعينيها وتنحني لتهدي رأسه قبلة لا تدري ما تقول بعدها سوى دعاء وأمنية:

- إن شاء الله هترجع زي الأول وأحسن.. ربنا موجود..

عادتْ ليده تحتويها، تقبض عليها بأمان تجيد منحه رُغم الخوف.. تتمسك بها فتتعلق أصابعه بأصابعها في وهن..

انتفضتْ بغتة مع الصوت الساخر عند الباب:

- أنا جيت في وقت مش مناسب ولا إيه!..

استدارتْ بتحفز إلى الواقف هناك بحلة سوداء داكنة تشبه قتامة روحه ونبرته:

- عاوز إيه!..

زيارته الأولى لجده العزيز منذ عاد للبيت..

خلال الأيام الماضية كان أخيه يتحاشاه..

هي تتحاشاه..

زوجة الأخ تهرب من حضوره..

والآن ترفض وجوده كنمرة شرسة تدافع عن صغيرها!..

رمقها بنظرة مخيفة:

- اطلعي برا يا شمس..

أصابع الجد تتشبث بها.. تشعر، تستغرب، تلتفت إليه فترى توتر نظرته ورفضه لوجود زوجها، لتقرر العودة إليه بحزم:

- هافضل مع جدو.. تقدر تتكلم قدامي، ما أظنش وجودي هيفرق معاك..

كأنه سيفضي إليه باحتراقه أمامها!..

لم يأبه لعنادها، فقط خطا يقترب حتى أرهبها بسواد مقلتيه الأشبه بعتمة قبر:

- قلت برا..

القسوة التي تفيض من كل ما فيه كسيل لن يبقي أو يذر جعلتْ الجد يحررها، يبعد يده عنها فيثير دهشتها.. عيناه تخبرانها أن تطمئن.. أن تتركه وحده في مواجهة الشيطان، هو يستحق.. لكن هي!..

تنهدتْ، ربتتْ على كتفه بحنان واستدارت لشيطانها تهديه نظرة صامتة خائبة رحلت بعدها.. وقف هو جوار الفراش يتأمل الجسد المسجى أمامه بضعف..

يبتلع الهواء بجشع كأنما يشتهيه له وحده..

تظلم حدقتاه لحد مفزع وصوته لم يكن أقل ظلامًا:

- ساذجة شمس..

قرر باستخفاف ممتعض:

- ساذجة لدرجة الغباء والغفران من غير مقابل..

مالتْ عنقه فبدتْ عيناه كأنهما تتحسسان "يونس" دون لمس..

تستكشفان وهنه.. عجزه.. قرب نهايته:

- يا ترى إيه مذاق إحساس العجز!..

زفر بلهيب يوازي سعير نفسه:

- قهر!..

شعور قديم لم ينسَ فحواه المُر بعد:

- ذل!..

آخر تحكم به لعمر فوق عمر:

- خوف وضعف!..

يعدد ما عاناه..

والراقد أمامه يعي.. يستوعب.. يفهم، ويتألم؛ كله بغصة:

- بيوجع مش كده!..

انثنى فمه ببسمة هازئة غير مكتملة.. بسمة جمعت بين العذاب والنشوة في مزيج مختل:

- ولو أنه مش عجز كامل.. أنت عايش في قصرك وسط عيلتك وفلوسك وخدمة seven stars نهار وليل..

قلب كفيه بسلاسة كأنما ذاك غير كافٍ:

- مجرد أنك مش قادر تتحرك أو تتكلم، بسيطة..

همهم جده بلا كلمات واضحة، هل يعترض!..

أم يواسي!..

وضع يديه في جيبي سرواله ورمقه بتعالٍ غير مكترث بهمهمته المبهمة:

- تفتكر كنت هترتاح أكتر لو مُت؟!..

سخر بإثرها بلهجة مزدرية:

- شمس سألتني إذا كان هيفرق معايا موتك!..

مع الترقب في عيني "يونس" توسعتْ البسمة وشابها شراسة نابعة من غلظة قلب، مهمته الوحيدة في الحياة هي ضخ الدم..

مهمة كل ما عاداها مات.. رحل.. فُقد..

- قلت لها آه؛ الانتصار كان هيبقى مضاعف..

مع الألم الذي طاف بمقلتي العاجز انتشى هو أكثر، التمعتْ المسافة بين جفنيه ببريق يعمي الأبصار..

بريق غاضب.. عنيف.. شرس وذات البسمة تلتصق بثغره في ميل حاد:

- بس الحقيقة وضعك ده؛ ضاعف انتصاري عشر مرات..

زفر بحرارة وأفكاره تشرد للحظة:

- عارف النصر هيكتمل إمتى!..

مط شفتيه بلا اكتراث قدر بديهية الجواب:

- لما أقتل ابنك..

بعدها توحشتْ بسمته بانحناء جانبي مروِّع:

- وآجي قدامك هنا، في سرير مرضك.. بكاس من دمه أشربه قدام عينيك..

بتر كلماته عامدًا قبل أن يتلذذ بمخيلته ونبرته تنتشي بجذل دموي شيطاني مثير للرعب:

- قطرة قطرة..

"ابقى صُب لي كاس معاك!"..

كانت ساخرة بمرارة عبر باب الغرفة المفتوح.. بصوت أخيه الذي تحدث إليه أخيرًا!..

لف جسده نحوه في نصف التفاتة توازي سخريته:

- ما أظنش ليك في النوع ده من الخمور..

دلف "يزن" للداخل بخطوات هادئة حتى واجهه:

- مافيش مانع أجرب..

وأكمل دون انتظار:

- أنت بتعمل إيه هنا!..

- بطمن على جدي!..

جوابه أتى يسيرًا سريعًا بإدعاء دهشة:

- ولا خايف عليه مني!..

هنا حلت القسوة المغموسة بالتهكم؛ فحقه أن يخاف..

رمقه "يزن" بنظرة طويلة غامضة صامتة لم تعجبه على وقعها قرر المغادرة، سار بلا كلمة زائدة حتى استوقفه الأكبر:

- ما تمشيش.. عاوز أتكلم معاك..

سكنَ مكانه لثانية واحدة استأنف سيره بعدها، هو لا يهتم بما يدور في ذهن أخيه، لكنه فضولي وحسب..

فليرَ إلى أن ستنتهي تلك اللعبة!..

أما من تركه خلفه فقد رمق جده بنظرة حائرة.. نظرة لا تفهم سبب الصمت المطلق!..

هز كتفيه وضيقه ينقش حضوره بوضوح على وجهه:

- ليه مش عاوز تتكلم!.. الدكتور قال ممكن تحاول..

أبعد "يونس" عينيه عنه.. استطرد بشبه غضب:

- عارف إنك وثقت فيه وإنه خان وغدر، بس ما سألتش نفسك ليه!..

ارتد إليه الحوت المغدور بنظرة تائهة تفهمها:

- أنا مش عارف أعمل إيه معاه!..

دار حول نفسه يحاول استجماع أفكاره، مشاعره المختلطة.. يجاهد لاستحضار الهياج والمقت ولا يستطيع.. يتمنى اضطرام غضبه ولا فائدة..

كل ما يطغى عليه هذه الأيام ويسيطر على عقله وقلبه معًا هو الحيرة.. أسئلة كثيرة حول الخائن الصغير..

أسئلة جوابها عنده وحده، ولأنه لا يملك حتى أريحية طرح السؤال أو أحقيته فقد أكمل حديثه مع الصامت بشجن شارد:

- إيه اللي حصله يخليه يتصرف بالوحشية دي!..

نفى بحركة من رأسه:

- مش قصدي حرق الفلوس أو البيع، لأ.. نظرة عينيه لما وقعت قدامه..

زفر حين مرور المشهد بذهنه دون أن ينسى تفاصيله بعد:

- مر بإيه عشان يكون قاسي، قلبه حجر بالشكل ده!..

همهمة جديدة أتته من جده فنظر إليه بتيه، لمح بعض لعابه يسيل فوق لحيته الكثة؛ مد يده يجففه بمحرمة ورقية ويزفر بتعب..

الآن هو العمود القائم تحت ثُقل تلك العائلة المهدمة..

لو سقط ستسقط..

"مش هاعالج الكره بالحرمان يا جدي!"..

كانت كلماته الختامية تذكره بعقابه.. بنبذه في ماضٍ باتت ذكراه مقيتة، قبل أن تعود الممرضة للغرفة بتلك اللحظة فيوصيها به ويرحل لمن ينتظره..

الحرب لم تنتهِ بعد؛ أو ربما حتى لم تبدأ!..

.....

يقال أنه عند الشدائد تتكاتف الضواري، وتفر الفرائس متفرقة فيسهل اصطيادها..

منطق الخير وصراعه مع الشر في كل زمان ومع جُل فصيل حي.. حتى وإن انتصر الخير بنقائه، يظل الشر هو الأكثر قوة بثباته في مواجهة طويلة الأمد..

بحث عنه.. وجده يقف قرب سياج الشرفة الخارجية الأمامية للمنزل، يغوص ببصره في الأفق المجهول ويديه في جيبيه.. يقف بقامة مشدودة، رأس مرفوع وكتفين مرتاحين كأنما أنهى مرحلة قاسية من لعبة الحياة..

كأنما انتصر..

جاوره في وقفته بهدوء يغزو الأفق مثله وإن لم يكتفِ بالصمت، بل وبخه بلا انفعال:

- كنت فاكرك أذكى من كده!..

ظل المجاور له على سكونه وهو لم يتوقع منه ردًا، أتتْ استطرادته مباشرة تفسر:

- على الأقل هتاخد لنفسك..

وقع الصمت لم يتغير.. أدار له وجهه، يتأمل جمود ملامحه ونظرته، يتأمل قسوة حفرت أخاديدها حول عينيه فمنحت بسمته شراستها بلا جهد..

مط "يزن" شفتيه بتنهيدة خافتة سأله بعدها:

- ارتحت دلوقت!..

- هو أنا كنت تعبان؟..

باترة سريعة.. كان منصتًا وهو من ظنه ليس معه، أو على أفضل تقدير يتجاهل حديثه.. فسر ببديهية تشي بعاطفة تشبهه في زمان مضى:

- موجوع يمكن!..

وكما توقع، ضحك الأخ الأصغر ثم أنهى ضحكته بفحيح ساخر:

- محلل نفسي كمان!..

تغاضى "يزن" عن التهكم..

عن استخفاف لطالما اعتنق مذهبه ليخفي وجعه وضعفه واحتياجه:

- لأ.. أخوك.. الكبير..

نطقها متقطعة متمهلة كأنما يمضغ أحرفها في محاولة لتيسير بلع المضمون والمعنى، حاز على نظرة جانبية مستهجنة غير مصدقة:

- عارف إني مافرشتش الأرض ورد في استقبالك..

كانت لحظة صدق..

مع نفسه ومع أخيه الذي ظل دخيلًا على عائلته رُغم انتمائه لها.. دخيلًا برغبته وبرغبة من حوله..

دخيلًا فاقدًا للهوية والانتماء والروابط الأسرية في أبسط مظاهرها..

تنهد بعمق واستدار إليه بجسده يتطلع إليه:

- بس كل غلط ممكن يتصلح..

ظفر منه بنصف التفاتة بوجهه، عيناه كهاوية عذاب سرمدي.. لا بداية له ولا نهاية..

نظرته سعير وزمة شفاهه تشي باحتراق ربما لن ينطفئ أبد الدهر..

تشي برغبة في الابتعاد وإن كان مذاق النصر لم يغِب عن أطراف لسانه بعد:

- مش عاوزني أمشي من البيت يعني أو أرجع اليونان مثلا.. أختفي من حياتكم ولا حتى من على وش الأرض!..

صمتَ الأكبر لدقيقة كاملة.. صمت وترك حُلكة نظرته تتقابل مع نار أخيه..

أخيه!..

لقبًا لم يأبه له من قبل، كرهه، صب جام غضبه على صاحبه ونبذه، حتى أفاق على صوت النيران تأكل الكثير من الأخضر بلا رادع..

أخيرًا كرر تنهيدته وإن كانت أقرب لزفرة حارة بنبرة تفيض باليقين:

- ده بيتك، وهيفضل بيتك..

استند بكفه للسور.. قبض عليه مكملًا بتوضيح هو أهم ما في اللحظة:

- دي مجرد فلوس يا يعقوب..

ذكره بجبين معقود صارم يلائم كونه الأكبر بالفعل:

- وبمناسبة الفلوس؛ ما تفكرش تستخدم التوكيل اللي معاك في محاولة التأثير على الشركة.. دي أصول ثابتة ماحدش هيدخل في حرب عليها مع امبراطورية أبو الغار..

مع الابتسامة الساخرة التي واجهته أدرك أن الصراع ربما..

فقط ربما؛ قد هدأ حتى إشعار آخر..

أو حتى ظهور الأب المنتظر فينال ثمالته من دمائه..

اللعنة..

هو يدرك أن الشيطان هنا لا يهدد.. بل يتوعد، وسينفذ!..

- عاوز تفهمني أنك مش مهتم بالفلوس!..

كانت من "يعقوب" بإدعاء دهشة.. والجواب أتى بسيطًا مباشرًا قدر صدق وقفتهما معًا:

- أنا مهتم بالسيطرة..

وثنى عنقه يُعلمه أنه يفهمه.. يدرك ما يريد وإن اختلفت الوسيلة وتباينت الطرق والغايات:

- زيك بالظبط..

اعتدل في وقفته مضيقًا ما بين حاجبيه:

- الفرق!..

أشار لصدره بسبابته:

- إني عاوز أمتلك الجنة..

انتقلت الإشارة للجامد في مقابله بوجه مُصمت صلب خلا حتى من بسمته الساخرة أو شماتته التي ظللته طوال الأيام الفائتة:

- وأنت عاوز تحكم جهنم..

وغادره.. ترك رنين الكلمات يتصاعد لحد مزعج بأذنيه..

بالنبرة والصدى والمدلول..

الوحش انتصر.. أشعل النار وأباح لها السريان في الهشيم..

هدم المملكة..

والشيطان مكانه الأوحد.. الجحيم!..

**

مذاق النجاح له قيمته مهما تضاعف ما سبقه من مرار الهزيمة..

في كل يوم هناك خطوة جديدة مع الصغيرة التي عادتْ لها بسمتها وإن كانت مخطوفة، مسروقة من وجع وخوف وفقد..

لم تحادثها بشأن تفاصيل مخاوفها، لكنها تدرك وجودها وتود اقتناص فرصتها لتسرد عليها ما يؤلمها..

حينها ستجذب الخيط الرفيع، وتجذبها معه..

تعيدها حيث الأض الصلبة، حيث الحياة التي تترقب حضورها، والمستقبل الذي ينتظر امتلاكها لناصيته..

انتهتْ ساعات وجودها مع طفليه، باتتْ تهرب قبل عودته مؤخرًا، لن تسمح لنفسها بسقوط..

لن تحرر قلبها من قيد أمانه بين جدران الوحدة والصمت..

لم تعترف بنبضتها المنفلتة، لن تفعل.. هي هنا لخاطر الطفلين، سبب مجيئها منذ البداية، كان وسيظل الوحيد حتى نهاية مهمتها..

وقد بدأت في خطوات النهاية بالفعل!..

استعدتْ للرحيل، تأملتْ "ضي" الساكنة في مقعدها بوجوم جعلها تقترب منها، تنحني أمامها بحنو:

- مالك يا ضي؟!..

أبعدتْ الفتاة ناظريها عنها وتمردت برد رافض لامبالي:

- مافيش..

اعتدلتْ "رحيل" وهي تعلم أن الحديث ربما سيطول، اتخذت مقعدًا يواجهها وأصرتْ بنبرة هادئة عميقة تتسلل بها لدواخلها المسجونة خلف قضبان صلابة لا تناسب عمرها:

- أوقات الكلام عن اللي بيضايقنا بيريحنا..

ابتسمتْ برقة فتوهجت ملامحها الناعمة:

- ممكن نتكلم عن الخوف، الألم، الغضب حتى..

ولوحتْ بكفها قرب صدرها في إشارة للقلب..

موطن الوجع والتعلق والكسر، أكملتْ بيسر تدفعها نحو الجهر بما تكبته وينهش روحها البريئة:

- بس نخرج اللي جوانا عشان ما يوجعناش أكتر..

رمقتها الطفلة بنظرة عنيدة تمتلئ بغضب جامح.. يحرقها ولا تعترف.. لا تبالي:

- مين قال إني جوايا خوف أو ألم!..

حافظتْ "رحيل" على بسمتها الدافئة بسؤال متسلل:

- أمال جواكِ إيه يا ضي!..

استقامتْ الصغيرة تغادر مقعدها، تنهرها بعنف طفولي، تعلن نفورها من اهتمامها، وتفجر بوجهها ثورتها دون رادع بلهجة حادة تخطت حدود الاحترام:

- اللي جوايا مالكيش علاقة بيه، ومش عاوزة أتكلم مع حد..

عقبها ركضت خطواتها إلى أبعد نقطة عنها..

راقبتها في صمتها الانطوائي لكنها تعلم أنها وصلتْ معها لمنتصف دَرَج الأمل، ما فات كان هو الأكثر عُسرًا، ما هو آتٍ سيكون له أساسه الذي سيقام فوقه بناء كيانها ووجوده الشامخ..

انتبهتْ بعض الوقت لأخيها، ودعته واقتربتْ من الباب عندما تممت مهمتها لليوم، قبل أن تفتحه سمعت النداء الخجول المتردد:

- ميس رحيل!..

استدارتْ بشيء من لهفة، نظرتْ لطفلتها التي تعلق بصرها بها في ارتباك مشتت ما بين إحجام وإقدام..

أخذتْ هي خطوة القرب وجثتْ قبالتها، أمسكتْ بيدها تربت عليها بعاطفة:

- أيوة يا ضي..

تجاهد لانتزاع الكلمات من بين أنياب صمتها..

تختنق حروفها على عتبات الألم غير المحتمل، الخوف من الوحدة ومرارة الفقد.. أمها التي رحلت عنها بلا عودة.. ضياعها دونها..

تجاهد وتفشل، تخسر معركتها فتتراجع، تفر مهزومة وتغير فحوى الطلب:

- هو ممكن أنا وأنتِ نعمل شوبينج سوا!..

كل تلك المعارك لمحتها معلمتها، رأتها وتفهمتها ووعتْ لتناقضها، استوعبتْ رغبتها في الهروب فتبعتها إلى الوجهة التي تريدها حتى يمكنها بعدها العودة معها حيث كانت:

- ممكن جدا..

"هايل.. يلا يا ضي اطلعي البسي أنتِ وباهي وهاستناكم مع ميس رحيل في العربية!"..

أتى من خلفها بغتة، حضر آخر الكلمات وتمسك بها..

وهي الهاربة سقطتْ في فخ قربه..

التفتتْ إليه بينما تنهض بحيائها المألوف له، رفع رأسه يرمقها بنظرة غامضة أنهاها بمواجهة مباشرة:

- كنتِ بتمشي بدري الأيام اللي فاتت!..

ابتسمتْ بتوتر وعادتْ خطوة للخلف:

- كنت بآجي بدري..

سبر أغوارها لثوانٍ تحت وقع شفافية عينيه، ابتعدتْ ببصرها وتجاهل تباعدها.. تجاهل الموقف برمته، فما يهمه أن طفلته بخير، تقدمها أضحى ملموسًا وإن كان مذبذبًا بين صعود وهبوط..

لكنها تتقدم على أية حال..

عاد الصغيرين ببهجة متوقعة، قاد بهم إلى أقرب مركز تجاري وهناك ترك لهما وهي معهما لجام الإنفاق على الغارب.. أعلمها في بداية جولة الشراء أن تترك لابنته حريتها في انتقاء ما تريد، وهي كانت تنوي ذلك بالفعل..

ابتاعا الكثير من الألعاب، الثياب وملحقاتها.. اختيارات "ضي" الأنثوية ابتسمت لها بحنان.. وأفكار "باهي" الطفولية الخشنة انتزعت منها نظرة شقية..

انتهتْ جولة التسوق بملاهي المركز، وبعدها عشاء من أحد مطاعم المأكولات السريعة الشهيرة بصالة الطعام الضخمة..

خُتم اليوم به مسترخيًا، مستريحًا يقود السيارة بسلاسة دون سرعة، تجاوره هي بشرود هارب.. وصغاره نائمين بملائكية منهكة في المقعد الخلفي..

قرب منزلها توقف كما في المرة السابقة، استدار بجذعه نحوها وتحدث بجدية دون مناورات لا داعي لها:

- عندي ليكِ عرض!..

تسمرتْ في جلستها برجفة لم يلحظها، أكمل بذات النبرة وإن أضاف لها الاهتمام بعد نظرة ألقاها على الناعسين من ورائه:

- وظيفة.. مربية للولاد..

تجمدتْ قليلًا، رمشتْ لوقت أقل.. وفتشتْ عن جواب تعثر على حدود لسانها المنعقد، قبل أن تبصقه بشيء من حدة:

- حضرتك أنا مدرسة، مش دادة..

أشار بكفه ودهشته تملأ عينيه:

- أنا ما قلتش كده..

مسح وجهه بكفه إثر تنهيدة متعبة:

- كل اللي باقوله إني عاوزك تقضي أطول وقت ممكن مع الولاد، النجاح والتقدم اللي شفته مخليني أدور على أكتر..

تراجعت بنفي رافض بشدة لم يفطن لمغزاه، بل استغربه:

- آسفة يا وجيه بيه، أنا مدرسة وبس.. أي حاجة تانية باقوم بيها مع الولاد نتيجة لخبرة علمية محدودة، تحت نفس البند ده من غير زيادة..

تمسك بها وبرغبته في وجودها حولهم بأقرب وسيلة لمفهومه عن العمل والتجارة:

- هاديكِ المرتب اللي تطلبيه بدون شروط..

عقدتْ حاجبيها تستنكر عرضه، تتضايق وتصرح بضيقها باندفاع:

- أنا مابدورش على الفلوس يا فندم..

وفتحتْ الباب تهرب من محيطه بذعر تمكن منها رُغمًا عنها:

- آسفة.. العرض مرفوض..

تابعها بانشداه لا يدرك ما حدث، لا يعيه أو يعقل أسبابه، تكررت تنهيدته.. زفرة حارة وهزة رأس، ثم أدار محرك السيارة راحلًا عن المكان بتقطيبة حائرة.. حانقة..

أما هي فكانت تعيه تمامًا.. ترى كامل أبعاد الصورة وتفر منها، تركض في غابة وحدها فريسة بين صياديها..

أو صيادها الأوحد..

نبضتها اللعينة تُقر بها، تراها تتمرد فتكبلها، تحبسها، تستاء من ميلادها.. وتنأى بتعثُر لأقصى الأرض..

لقد بدأت بتنفيذ خطة تراجعها وابتعادها منذ أيام..

هي ليست أهلًا لحرب خلف قضبان قلب رجل عاشق لم ينسَ عشقه، ولا يبدو أنه سيفعل!..

**

الوطن!.. ليس هو الأرض وحسب..

ليس الانتماء وجنسية في بطاقة هوية..

الوطن هو أن تعود حيث تمتد جذورك التي دونها أنت نبتٌ بلا أصل..

الوطن.. حيث تكون هي..

العشق والألم، الخوف والفقد.. الأمنية، كل أمنية.. والأمل..

أنهى التزاماته بهامبورغ حيث قضى الخمس عشرة سنة الأخيرة من عمره.. ترك فرع مجموعتهم تحت إدارة أخيه الأصغر وزوجته..

وعاد..

حجته الظاهرة إدارة فرع المجموعة الرئيسي بمسقط رأسه..

وحجة القلب.. هي!..

هي الصحوة والغياب.. هي الفوز والهزيمة..

هي المخدر والنشوة.. هي العشق بتبعاته وأوجاعه..

هي القلب الموصوم بحضورها الخالد.. والخافق الخاسر بفقد مُر..

هي مالكة النبض في اختلاله وثباته.. والفكر في تعقله وجنونه..

هي.. "دُچى"..

**

الحضيض ليس هو الأسوأ..

الأسوأ ما يليه، ما انحشر هو فيه، ما خسره وما يعلم أنه لن يعود..

لفافة محشوة، شقة ضيقة قديمة كانت تخص ماضيه ولم يتخلص منها بعد.. وعاهرة بينهما سابق ذكرى تتراقص بفجور، تتلوى كأفعى أمامه..

تظن في نفسها قدرة حمقاء على إشعال شهوة بداخله، وهو أراد اختبار ذكورته المهانة على يد غريم لن يتركه..

لن يمرر له ما فعله به دون ثأر مستحق..

استقام بعدما سحق اللفافة فوق طاولة إلى جواره، جذبها إليه ومزَّق غلالتها الرخيصة..

خاض مع جسدها حربه الخاصة..

خاضها وانتصر..

ابتعد، نيران عينيه تغشي ظلمة الغرفة إلا من بصيص ضوء شاحب، تمسحتْ هي به، ضحكتْ بخلاعة تملأ الفراغ القاتم بحضورها الفاسق:

- سبع يا سيد الرجالة..

بفجاجة تلامس صدره الذي لم تبرأ رضوضه بعد، تغويه مجددًا.. يقبض على خصلاتها، يبعد وجهها عنه، يتأملها بنظرة أرجفتها..

نظرة كادت معها أن تهرب، لولا أن كبلها بقسوة ودفعها ثانيةً حيث كانت، يعيد انتصاره على أرضها في معركة تالية، ينفضها بإثرها.. يطردها بإشارة صامتة كما الليلة كلها.. ويقرر وجهته المنشودة..

تلك التي تخلتْ عنه وهربتْ منه..

تلك التي رفضتْ العودة إليه واختبأت في جُحر يناسبها مع صغاره..

زوجته السابقة..

والفعل امتلاك!..

اعترضتْ على ورقة عرفية، سينالها دونها إذًا.. وبعدها يحين دور من قذف به لنقطة الصفر، بل تحتها..

ارتدى ثيابه، استعار سيارة عتيقة تخص أحد رفقاء الأمس، صفَّها أسفل المبني الذي تسكنه.. ليس عسيرًا على رجل مثله عاش غالب عمره في القاع أن يصل إليها!..

طرق بابها عند منتصف الليل، حينما همستْ مرتجفة من خلفه تسأل -وكان يدرك أنها رأته من عدستها- جاوب بكلمة واحدة..

اسمه..

لم يكرر الطرق.. لم ينادِها..

كان يعلم أنها ستفتح له، وحينها لن يكفيها ما بقي من حياتها تعض فيه أصابع الندم..

دقيقة من سكون.. من وجوم، فتحتْ إثرها بمواربة ترمقه بتوتر مرتبك، نظرتها لا تخلو من عتابها، من خوفها، من وجعها..

وهو لا يكترث!..

"جاي دلوقتِ ليه يا راجح!"..

"جاي عاوز مراتي"..

دفع الباب دون رفق فأسقطها أرضًا، أغلقه من ورائه واستدار إليها..

إبليسها الملعون قد عاد..

وشهوة الإخضاع هي خطيئة اليوم!..

(23)

العشق كارثة القلوب..

طعنة في المنتصف، وجرح غائر ندوبه لا تزول..

**

هو ليس بعابر جحيم، هو أحد ساكنيه..

رجل وُلد في القاع، التصق الحضيض بخلاياه، تمرد وتسلق واستعلى وبغى وتجبر..

حتى عندما غادره حيث طبقة المخمل، لم يغادر قاعه دواخله، لم ترحل عنه روحه بل قبعت فيه حيث مسقط رأسها ومصيرها..

وُلد في القاع.. وعاد إليه بخديعة وثأر لا يراه حقًا لصاحبه!..

"جاي عاوز مراتي"..

أغلق الباب واستدار يرمقها من وقفته بطغيان، ساقطة تحت قدميه بهوان كما هي دومًا.. لم ترَ نفسها في مهانة كمثل تلك اللحظة، منذ

متى لم تكن طوع يمينه، لم تكن جاريته، ملكه، سبية في غرام إبليس وملعونة بعشقه المسموم!..

اعتدلتْ تنهض بانكسار، لا تخلو نظرتها من وجع.. عتاب.. لوم.. غضب.. رفض!..

رفض رآه وقرر وأده في مهده قبل أن تصرح به، لكنها لاحقت خطواته بابتعاد هارب:

- أنا ما بقيتش مراتك خلاص يا راجح ولا نسيت أنك طلقتني!..

أوقف هروبها بشبه قفزة، سحب ساعدها وقربها منه، انتوى العزف على وتر إدمانها له، رغبتها به التي تخضعها في كل مرة معه، لامس وجنتها بظاهر كفه في رفق:

- قلت لك ممكن نرجع..

تصلب جسدها بين يديه، تعلقتْ عيناها به في أمل ملهوف:

- هتردني!..

ابتسم وتلاعبت نبرته بعشقها، بقلبها، بخنوعها:

- أي ورقة وقلم وتبقي مراتي لآخر عمري..

انتفضتْ ترمقه بذهول مصدوم.. تنزع يدها منه، تعود للخلف خطوتين ووجهها يدور بإيقاع رافض رتيب.. حزين:

- أنا مش زي الستات اللي كنت بتخوني معاهم..

تحرك خطواتها مقتربًا في قنص، حاوطها يمنع انفلاتها وهمسه يتسلل خبيثًا.. ماكرًا:

- مافيش واحدة منهم عرضت عليها تكون مراتي..

تملصتْ منه دون جدوى:

- العرفي ده مش جواز..

وسوس إليها بخداع يبغي به ضلالها:

- مين قال مش جواز!..

ضمها بحنو تألفه منه:

- جواز والقانون معترف بيه..

احتوى عنقها بكفه، يراقب عبراتها المنسابة بلا شعور منها:

- ورقة هتخلينا مع بعض، وتحمينا من وجيه..

أظلمتْ نظرته بوحشية أفزعتها:

- لحد ما آخد حقي منه!..

جاهدتْ للخلاص وطوقه يضيق حولها أكثر، يخنقها، عيناها تتيهان تجاه غرفة جانبية خمن أن أولاده بها!..

فككتْ ذراعه عن خصرها فأحكمه بغلظة.. نأتْ بوجهها تنهره بصوت خفيض:

- امشي يا راجح، وجيه ممكن يكون عارف إنك هنا.. هيرجعك السجن تاني..

قستْ ملامحه، أعتمتْ بظلال مرعبة وأسنانه تصطك بمقت:

- أنتِ بتتخلي عني تاني يا هالة!..

نفتْ بهلع..

ذاك وجه تراه منه للمرة الأولى، وجه لا تتمنى تكرار رؤياه:

- أنت اتخليت عني لما طلقتني من غير تفكير، بعت حياتنا في لحظة، ولادنا..

كبَّل ذقنها.. أصابعه تكاد تنغرس في فكيها، تكاد تحطمها:

- أنتِ اللي اتخليتِ، وبتتخلي تاني أهو، مش عارفة إن وجيه ممكن يقتلني في السجن وهتتحسب قضاء وقدر..

تضاعف هلعها، ذعرها، وجومها يحسم الموقف جوار وهن روحها وجسدها:

- وجيه ما يعملش كده..

- أنتِ بتدافعي عنه!..

زعق بها فناشدته بتوسل:

- الولاد يا راجح من فضلك، ما تخليهمش يشوفوا أبوهم بالشكل ده!..

أعادتْ محاولات التخلص من قيده:

- سيبني، امشي.. أنت اخترت خلاص..

زم شفتيه بقرار.. نظرته الجنونية تقتحم دواخلها فتبعثر بقايا ثباتها:

- يعني مش هترجعي لي!..

لم تتوقف عن صراعها مع قوته:

- عرفي لأ، أنا مش عاهرة زي اللي...

هنا حدث البتر..

لم يكن بترًا عاديًا، كان فوضى!..

قبلة مزقت قلبها في طور صدمة..

دفعته تنجو بنفسها وحاصرها أكثر..

عنقها تتحكم بها كف يمناه، ذراعه اليسرى تلتف حولها، يرفعها باختناق ويمتلك منها ما لا يحق له..

بدمدمة أخيرة أقرب لفحيح نيران تشتهي كل ما في طريقها، نيران تطالب بكل مزيد ممكن:

- هاخليكي عاهرة يا هالة، لآخر مرة بينا..

طافتْ حدقتاه في المكان الصغير، التقط غرفة جانبية بابها مفتوح، بها ضوء شبه خافت، حملها بلا عسر وكفه تحجب صراخها، رماها داخلها وأحكم بابها عليهما..

استدارتْ برعب تهديه صدمتها.. ارتياعها:

- راجح.. أنت هتعمل إيه!..

دنا منها دون اعتبارات، بلا تفكير.. بوثبة أمسك بها:

- أنا أم ولادك يا راجح..

أخرسها بامتلاك سحج شفتيها، يكيل لروحها الصدمات واحدة تلو أخرى، لا يكترث إلا لتمزيقها بمخالب غضبه وانتقامه..

هي من تخلتْ.. وهي من ستدفع الثمن!..

- أنت ما تعرفيش عني حاجة يا هالة..

تفلتتْ تركض، تركها تفكر في كسر الباب الموصد بإحكام ومفتاحه بجيبه، رصد المكان بنظرة سريعة، برقتْ عيناه بانتصار حين رأى وشاحًا، جذبه وهرول إليها، باغتها به حول فمها..

صرختْ فخرجت صرختها مكتومة، لن يسمعها أحد..

أطفاله بغرفة غير بعيدة.. وهي هنا وحدها مع شيطانها الذي سيحرقها في ويله بلا ذرة مبالاة!..

دموعها كنهر، ترفض وتهرب ويمنعها..

تتوسله.. تستجديه..

كلماتها همهمات متحشرجة سجينة..

خطواتها في محيطه أشبه بسقوط..

خلع عنها مئزرها، سحبه دفعة واحدة.. ومن تحته شق ثوبها المنزلي بنظرة كسم زعاف يخترق أوردتها.. يقتلها..

تومئ بتضرع، تسترحمه.. نظرتها تذكره بما كان بينهما، يبتسم بشراسة ولا يكترث:

- ماتتخيليش أنا عملت إيه عشان أبقى راجح اللي تعرفيه!.. أنا سرقت وخدعت و...

برقتْ نظرته بسطوع مفزع:

- وقتلت..

تيبستْ برهبة مع كلماته!..

خطا يحاصرها، يده تحرق جسدها، تخرق حدودها، تتعدى على حرماتها التي كانت حرماته في زمن قريب.. تنفر من لمسته كما لم تفعل من قبل.. تقشعر وترتعد فتؤجج غضبه بمزيد..

يهشمها على الجدار ويهمس لها بخبال:

- دلوقتِ مش متحملة لمستي!..

تردعه، توقفه، تبعده بيديها فيتحكم بهما بقبضة واحدة قاسية، يذكرها بكل ما كان:

- نسيتِ ماكنتيش بتقدري تبعدي عني إزاي!..

يحني فمه قرب أذنها ويتنفس بلهاث حار كحمم ثائرة:

- فاكرة أول جوازنا؛ أنا وأنتِ في حمام بيت أبوك.. عشر دقايق دخلت أغسل إيدي فيهم بعد الغدا!..

اختلجتْ بقشعريرة كبرد قارص تنعي عشقها..

خسارتها لنفسها.. لأهلها.. أبيها وأمها وشقيقتها..

لكل شيء، وهو مستمر في تذكيرها بحقارة:

- طيب فاكرة لما ماقدرتيش تصبري نروح بيتنا وقضيناها على سرير أبوك، وهو بيشرب الشاي مع أمك قدام المسلسل التركي!..

ركلتْ ساقه فسحقها أكثر، آلمها، تمزقتْ أحبالها الصوتية بأنين محبوس خلف رباطه الخانق:

- استني.. في حمام الطيارة وإحنا مسافرين شهر العسل!..

تراجع قليلًا، يتأمل جسدها الظاهر من بين شقي الثوب بنظرة نهمة فجَّرت تقززها:

- كتير قوي يا هالة، بس شكلك نسيتِ.. ولازم أفكرك..

همهمتْ بعجز وركبتها ترتفع بيأس لتضرب أقرب ما طالته، فخذه.. لاحظ حركتها؛ حررها بتوتر خشية أن تصيبه ضربتها ومع تحريرها عادت للعدو العبثي في دائرتها المفرغة..

الغرفة التي لا مخرج منها سوى باب وحيد مفتاحه معه..

خطوة واحدة ابتعدتها، أصابعها تتجه إلى الرباط لتزيحه لكنه جذبها عنوة، تعثرتْ.. سقطتْ.. وسمعتْ قرقعة عظام معصمها الذي استندتْ إليه فأفلتَ تحت ثقلها، صرختْ بصوت شحيح..

انكفأتْ على وجهها فضغطها للأرض، انحنى يتمتم بأسى مفتعل:

- إيدك اتكسرت!.. مش لو كنتِ بتسمعي الكلام ماكانش حصل ده كله!..

نشواه في عبراتها.. في خوفها.. في امتناعها وإخضاعه لها!..

انتهك ما طاله منها، الألم يفترس كل ما فيها، الجسد والقلب والروح المنحورة بين يديه تنزف حياتها..

جثا من ورائها، مزَّع ما تبقى من ثيابها، وأتم مهمة ذبحها على أكمل وجه.. واقَعَها كالكلاب رُغمًا عنها..

كل قدرتها على المقاومة انتهتْ بامتلاكه..

قواها خائرة.. صراخها صامت..

ويدها مكسورة لا تتحملها، كنفسها التي دهسها بلا تردد..

انتهى واعتدل قليلًا، سقطتْ بأنين محتضر.. قبض على خصلاتها، أدار رأسها إليه بينما يجثم فوق ظهرها ويخبرها بسخرية:

- بقيتِ عاهرة يا هالة، كده ماحدش أحسن من حد..

ضرب وجهها بالأرضية.. استقام يعدل ثيابه، يتأملها باحتقار، نشيجها.. ضعفها.. ألمها.. بعدها رحل!..

فتح باب الغرفة، ألقى بنظرة تجاه الغرفة الثانية، تجاهلها تمامًا وخرج من المنزل دون تأخير..

الآن بقيت خطوة واحدة يشفي بها غليله..

خطوة لن يفكر فيها مرتين، فالقرار محسوم والخطة قيد التنفيذ..

لم يلتفتْ للمنهوبة التي تركها تموت بلا نجاة، سكونها في مكانها لدقائق تنشج بعذاب..

لم تفك قيد وشاحها الذي يكممها..

مستسلمة بالكلية كجثة على البساط الخشن، حيث رماها وانتهى منها.. تبكي.. تئن.. تتحسر.. تصل لحدود البقاء..

علا رنين هاتفها لوهلة، نفضها.. هي تحتاج لإنقاذ، تحتاج لغوث.. زحفت بعريها وجسدها المنتهك، تعتمد على ذراعها السليمة، تحرر قيدها وتجيب الهاتف بشهقة عسيرة:

- نزل بسرعة يعني!.. إيه رفضتِ ترجعي له!..

كان صوت غريمه، وجلادها.. "وجيه نصار"..

من بات وحشًا وحرر كل الوحوش في طريقه..

انتحبتْ فانعقد حاجباه، لم تستطع قول الكثير.. اكتفتْ بمنحه ما يشتهي علَّه يكفيه.. أو يكسره!..

- راجح اغتصبني يا وجيه..

هبَّ من جلسته المسترخية بمكتبه في منزله، انتفض واستقام بجسد مشدود ينصت لاستطرادتها الميتة:

- ياريت تكون شبعت كده!..

ثم سقطتْ سقوطها الختامي، تسدل ستار الخسارة الحاسمة وتنهي المشهد بقهر!..

الشيطان لا يعرف الرحمة..

الشيطان مخلوق من نار..

.....

"اغتصبني"..

"شبعت"..

"اغتصبني"..

"شبعت"..

"اغتصبني.. اغتصبني يا وجيه.. راجح اغتصبني يا وجيه"..

"يا ريت تكون شبعت كده!"..

"شبعت"..

صدى كلماتها كان يهدر بكيانه كله، يتردد، يمتد ويطول ثم ينقص في انحدار مباغت، تتلاصق الأحرف وتتباعد في فوضى..

داخله يثور، يحترق، يتأجج، يفور كألف بركان..

أما من سقف لحقارته!..

أم من حضيض لا يتخطاه!..

زوجته السابقة وأم أولاده!..

راقب هاتفه لثوانٍ بعد انقطاع الخط، اتصل برقم آخر وهتف بصرامة حازمة:

- اكسروا على العربية وهاتوا لي الكلب اللي فيها..

دقيقتين تاليتين وتعالى الرنين، جاوب رجاله فكانت الصدمة من نصيبه:

- ماطلعش هو اللي في العربية يا وجيه بيه!..

تجمد لحظة وغضبه يصل لأطراف مدينة الجنون:

- يعني إيه!.. يعني إيه مش هو!..

رد رجله بتوتر حانق:

- واحد لابس هدوم تشبهه هو اللي طلع بالعربية من تحت العمارة..

تجعدتْ خطوط جبينه.. تصارعتْ أفكاره في عراك دموي..

أنهاه بأمر مقتضب:

- هاتوه مكانه..

اطمأن على صغيريه بفُرشهما، ارتدى ثيابًا غير رسمية، وقاد سيارته بلا وعي إلى حيث مستودع ضخم يستخدم لتخزين مستلزمات فنادقه حين الحاجة..

هناك كان الرجل..

ضئيل الجسد، هش البنية، وضوح الفقر والإدمان على ملامحه لا يحتمل جدالًا فيمن هو..

يجلس على مقعدٍ خشبي وحيدًا بين خمسة من الرجال، يلتفون حوله في نصف دائرة هو مركزها، أما رأسها فكان ذلك الذي دلف للمكان بخطوات مهيبة، واسعة.. غاضبة!..

واجهه بسؤال لا يريد سواه:

- فين راجح!..

انهمرتْ الكلمات من فم الرجل بلا حساب، نبرته مذعورة كعينيه تمامًا:

- ما أعرفش يا بيه، راجح ده عشرة من زمان أيام الفقر قبل ما يقب على وش الدنيا، استلف مني العربية وبعد ساعة كلمني قال لي خدها من المكان الفلاني فرُحت جبتها..

اقترب "وجيه" خطوة زائدة، يسيطر برهبة على نظر المقيد:

- يعني ما قابلتوش!..

أقسم المرتعب بأغلظ الأيمان، لهاثه يخنقه، وهلع نظرته جلي:

- ما قابلتوش وشرفك يابيه، أنا لقيت المفتاح جوا العربية زي ما قال لي، خدتها وطلعت..

دار "وجيه" حول نفسه بعصبية، يتنفس بعنف والهواء يقبض رئتيه بقسوة، ابتعد لمسافة قصيرة..

مسح وجهه بكفه وفكر للحظات، أجرى بعدها مكالمة قصيرة مع محاميه:

- قدم الورق اللي عندك كله للنيابة، عاوزه يعفن ويموت في السجن..

بإثرها عاد لرجال شركة الأمن الخاصة الذين استأجر خدماتهم بشكل محدود:

- قدامكم لحد الضهر، تعرفوا لي اختفي فين!.. لو مات واندفن تجيبوا لي جثته..

تبخر من أمامهم بشبه عدو عائدًا لمكتبه الملحق به غرفة نوم أنيقة، استرخى فوق فراشها لبعض الوقت..

لا يصدق مدى خسة ذلك الوغد.. نذالته ووضاعته..

خائن، عديم الشرف.. ومغتصب!..

كيف تزوجتْ منه!..

بل كيف استمرتْ معه!..

هل يحق له السؤال عما حدث!.. الاطمئنان!.. إظهار بعض الدعم والاهتمام!..

هل تستحق هي وما حدث منذ البداية جناية يديها على شقيقتها ونفسها!..

انتصف النهار بالفعل، أيقظه الهاتف من غفوة قلقة فالتقطه بحركة خاطفة يجيب:

- أيوة يا مرتضى!..

- يعني إيه اختفى من على وش الأرض!..

- قلت لو مات...

بُترت كلماته ينصت لرجله الذي أنهى مهمة البحث ببساطة:

- وجيه بيه.. الراجل ده عارف هو بيعمل إيه، اختفى كأن لم يكن.. مافيش أثر ولا حد شافه في أي منطقة معروف إنه كان بيزورها، لا تذاكر سفر ولا أي كاميرا مراقبة رصدته في المناطق اللي محتمل ظهوره فيها..

وختم حديثه بحسم:

- اختفى، اتبخر..

ختامًا لا يناسب المشهد، لا يناسب الحبكة التي قررها له، لا يحق له الهروب.. فراره في الموت وهو لايزال حيًا بعدما قتل امرأتين في طريقه..

مرتْ عدة أيام لم يتوقف خلالها عن البحث، بكل مكان متوقع وغير متوقع.. أيام في نهايتها وقبل قليل وحسب؛ أتاه خبرًا أثلج صدره..

ستُعقد جلسة خاصة لمحاكمته وإصدار حكم غيابي عليه في عدة قضايا بنكية، قضايا ستنهي عمره حبيسًا خلف قضبان سجن؛ إن ظهر أو تم القبض عليه..

أما هي..

آخر ضحاياه؛ فلا يعلم عنها شيئًا مفصلًا، فقط والدتها تزورها لمامًا، تعتني بها.. وكل ما عدا ذلك مموه بعيد عن متناول يده..

عاد لمنزله وشيء من راحة يتسلل لنفسه، على الأقل قطع عليه طريق العودة..

سيظل فارًّا، فأرًا مختبئًا، وإن غرقت سفينته هذه المرة سيغرق معها..

ترجل من سيارته ليجدها في استقباله على غير عادتها مؤخرًا، كانت ترحل قبل حضوره، كأنما تهرب من لقائه ولا يدري لذلك سببًا.. هو حتى لم يكرر عرض العمل رُغم اهتمامه بوجودها مع صغاره لأطول وقت مباح..

أخبرته عن رغبتها في حديث هام، واستجاب.. بذات البقعة السابقة من حديقة المنزل، الجلسة والمقعدين المتواجهين.. استقرتْ بأحدهما بتوتر تساوي تنورتها الواسعة، تعدل وشاحها بارتباك هارب قبل أن تبادر كأنما حسمت قرارها:

- أنا كنت مقدمة الـ CV في كذا مكان من فترة.. ومن ضمنهم مدرسة انترناشيونال..

قطب باستفهام صامت، فركتْ أصابعها الصغيرة حتى كادت تكسرها حين أوضحت:

- عملت انترفيو واتقبلت لفترة تجريبية!..

اعتدل بغتة يرمقها بنظرة قلقة:

- يعني إيه!.. هتسيبي الولاد!..

نفتْ بعجالة في محاولة لتفسير أشمل:

- أكيد لأ.. بس الحقيقة دي وظيفة ثابتة مش هاقدر أتخلى عنها..

ثم شرحتْ بكفيها ملوحة بعاطفة صريحة:

- وفي نفس الوقت مش هاقدر أتخلى أو أبعد عن الولاد..

لاحظتْ تقطيبته التي تضاعفت، أكملت بشجاعة واهية..

شجاعة يكسرها حضوره.. قربه..

اعتراف نبضها بالخلل..

بالتيه..

بالغياب فيه..

غيابًا ترفضه، تتحداه، تعانده وتكابر مع الاستسلام له..

تحاربه بالبعد، وهي حرب فعالة للغاية في مواجهة الخوف:

- أنا باستأذن حضرتك.. هغير مواعيد وجودي معاهم وهاقلل وقت حضوري شوية..

تنفستْ ولاحقتْ جملتها الأخيرة -عند غضب ملامحه- بتعديل دافئ:

- بس مش هاسيبهم..

كان مشتتًا، عقله يدور في العديد من الدوامات المتتابعة، مشاعره مختلطة..

كثير من الغضب.. بعض الحزن.. ألم فاق الاحتمال..

وهياج من ضياع فأره واختفائه..

لذا استقام يخبرها بسلاسة باردة فاجأتها:

- تمام يا مدام رحيل، اللي تشوفيه..

رفضتْ عرضه، والآن تريد ترك الصغار..

رغم تحسن أحوالهم بصحبتها، لكنه لا يستطيع منعها من العمل كما تريد.. لذا فلتذهب إلى الجحيم بصحبة تعنتها وصلفها..

تعلق بصرها به يتركها بمكانها متجهًا إلى المنزل، نظرة عينيها خائبة!..

وبخها عقلها وقتما ادعى القلب عدم الانتباه..

هل كانت تريد منه تشبثًا!.. إصرارًا!.. ومن هي ليراها!..

مجرد صفر لا يحقق ناتجًا جيدًا في معادلته سوى مع صغاره..

ارحلي "رحيل"..

أتاها الأمر من داخلها فأطاعته بصمت..

الحياة أحيانًا تخبرنا أن الأمنية سيغتالها الواقع قبل أن تُحلق خارج سماء الأفكار..

لذا علينا وقتها أن ننصت بحذر، ونأتمر بخشوع..

**

هو رجل لا يبحث عن منطقية ثأره؛ بل يفتش عن الخلل!..

لا يزال في مرحلة النشوة..

الدوبامين يغزو دمه بعنف، يرفع من مزاجيته عنان السماء.. ويترك وحشيته الدائمة متوارية خلف جدار، أحجاره متبادلة بين مذاق الانتصار وشهوة المزيد..

لم يعد شيطانًا وحسب؛ لقد أصبح هو الجحيم بذاته.. مهما أكل يزداد اشتعالًا ويرغب فيما هو أكثر..

حتى هي!..

"الشمس"..

زوجته التي ترفضه منذ ذلك اليوم، وهو لا يحاول نيلها رغم أن نكهة الظفر معها ستكون مختلفة..

لذة السيطرة التي تصول وتجول بعقله وقلبه تكفيه حتى أنه تجاهلها بالكلية..

سقط بصره على غرفته المحترقة، تلك التي أراد أخيه إعادة بنائها ورفض.. لكن المدهش في الأمر استجابة الأخ لرفضه؛ كأنما يفهم رغبته في الاحتفاظ بها كنُصب مهدم يثبت انتصاره..

الغروب.. وقته المفضل، في المرتبة الثانية بعد الليل..

ربما لأنه بداية الظلام، موطنه ومأواه.. وربما لأنه نهاية أمل مات بروحه منذ زمن.. فناء النور وغياب الضياء..

حُلكة الليل تحكمتْ بالسماء ببطء تحت مراقبة عينيه، كان مستندًا لسور شرفة غرفة نومه والمساء يحل على عالمه بردائه الداكن..

رداء تخلله ثقب ضئيل الحجم مازال يحبو، ويقف بجسد صغير مدعومًا من الأثاث..

طفلها الذي بات يعرفه وينتبه لملامحه رغم أنه لا يقربه البتة..

أحنى عنقه مع لمسة قبضتيه المنمنمتين لبنطاله، تتشبثان به ليستقيم في تعثر، استدار برأسه يبحث عنها ولم تكن هناك.. لقد أتى الصغير للشرفة وحده!..

كان "يزيد" يرمقه من موقعه بمناغاة بريئة لم تَرِق لها ملامحه الجافة، لم يستطِع الحراك كذلك والفتى يعتمد في وقفته عليه..

زفر بحرارة، انحنى يرفعه فوق كتفه، استدار تجاه باب غرفة المعيشة وحينها تواجه معها..

مع وجهها المذعور وعينيها الفائضتين بالهلع:

- يزيد..

ترمقه بخوف حقيقي، خوف أغضبه.. هي تخشى منه على ابنها!..

حمقاء لا تفهمه..

كانت ملتفة بمنشفة عريضة بجسد نصف مبتل، كأنها أنهت حمامًا سريعًا للتو، مدتْ يديها تتناوله منه.. تضمه لصدرها بتنهيدة راحة، تكاد تعتصره في ضمتها:

- كنت باخد شاور وهو كان نايم..

مط شفتيه بلا اكتراث:

- دخل البلكونة..

ارتعبتْ بينما تتراجع وهو يتقدم نحوها:

- قلت لِك قبل كده ماتسيبيهوش لوحده..

ارتعشتْ لحظة مع برودة الخريف وأثر المياه التي جفتْ فوق بشرتها بفعل الهواء..

أومأتْ موافقة بصمت والتفتتْ عائدة لغرفتها بهمهمة تمازج بها شكر هو مرافق اللسان، وحروف مبهمة لم يفقه معناها ولم يأبه له..

تابعها ببصره للحظاتٍ قصار، خوفها منه بات إدمانه.. لا تعلم كم تبدو محفزة لخلاياه عندما تنظر له برهبة، أو ترمقه بذعر..

الخوف هو مذاق اللذة، هو فطرة الحياة ونشوة الضواري..

خطا عائدًا لغرفته عبر الشرفة، جلس على أريكة في الركن يعبث بهاتفه، يقرأ رسالة صديقته التي تخبره أنها تشتاقه.. وترثي نفسها وقسوته.. ابتسم وأرسل إليها وجهًا يغمز.. فقط!..

كأنما ينتشي بعشقها واشتياقها كما ينتشي بخوف الأخرى..

تشاغل بأحد الكتب التي استعارها من مكتبة جده لبعض الوقت، بعد ساعتين توجه للمطبخ وبذهنه قدح من القهوة الداكنة، وهي كانت هناك..

منشغلة بإعداد شيء ما مع اقترابه تبين كونه شطيرة بسيطة، أخذتْ منها قضمة بالفعل، رفعتْ وجهها لتراه يرمقها بحاجب مرفوع بشيء من عبث بدا غريبًا على تجهم ملامحه المألوف..

لاكتها ببطء، ازدردتها بغصة قبل أن تلوي عنقها هاربة بعينيها منه بتبرير خجول.. لا تدري لمَ أخجلها تحديقه بها:

- كنت جعانة!..

مط شفتيه واقترب يُعد قهوته بنفسه كعادته، تمتم بنبرة محايدة:

- I'm not judging..

تابعته لوهلة، فضولها يجذبها نحو سؤال.. ونفورها يبعدها لأقصى الأرض عنه..

تستغرب تباعده.. وترتاح له..

لا تفهم فيمَ نشواه لكنها تستوعب أن الشياطين تنتصر كلما احترق أتباعها في الجحيم!..

- ممكن أسألك سؤال!..

لم تدرك أنها نطقت بالكلمات بصوت مسموع إلا عندما التفتَ إليها بنصف وجهه.. نصف عينيه ونصف ظلامه!..

تأملته وتركتْ شطيرتها جانبًا بعدما فقدت شهيتها إلى حد ما، عاد إليها نُدفة من خوفها:

- ليه رفضت إن يزن يصلح الأوضة اللي في الجنينة!..

ثاب ببصره لقهوته التي انتهى من تحضيرها، صب منها في قدحه الخاص، حمله، استدار يواجهها بكامل جسده ورائحة البن القوية تنعش حواسه:

- أنتِ مش متعودة على الانتصارات يا شمس..

قطبتْ بضيق، تجاهله وابتسامته تنقش وحشيته عند طرف فمه:

- اعتبريه نصب تذكاري، لوعد وفيت بيه لنفسي..

انتابتها حيرة.. كلماته الغامضة تربكها كما في كل مرة، تشعر بين طيات حروفها بألم خفي، ترى الغضب.. تلمح الحزن، وترتعب من الظلمة المحيقة بروحه التي تعافر للنجاة بين أضلعه..

تهربتْ من أفكارها بقضمة من شطيرتها التي أمسكت بها مجددًا، دار هو يجلس على مقعد عالٍ يواجه السطح الرخامي، يرتشف من قهوته بتمهل..

يستمتع بالمذاق حتى ثمالة المرارة.. يهديها نظرة ثقيلة فرتْ منها، تبعد خصلة عن وجنتها وتبادر بسؤال مفاجئ:

- تفتكر لو أنا فقدت الذاكرة مثلا؛ هتعاملني بنفس الطريقة!..

كان سؤالًا عجيبًا لا مغزى له.. لم يفطن لمقصدها منه، ورُغم ذلك جاوبها بسلاسة سريعة:

- لأ.. غالبا هاطلقك..

رفعتْ حاجبيها بدهشة مستغربة:

- رد فعل غير متوقع..

تمهل في رشفتين متتاليتين، ولهجته تشوبها عنجهية واثقة:

- أنا راجل برا حدود التوقع..

تضاعف فضولها مجاورًا دهشتها بعقلها، التفتْ تجاوره على مقعد مشابه، يتغضن جبينها وتلتمع نظرتها باستغراب:

- بس كده هكون عجينة سهل تشكلها زي ما أنت عاوز..

مط شفتيه بملل من تقليدية ما يدور بذهنها:

- مين قال إني عاوز صفحة بيضا أملاها بأفكاري!..

استقام يترك مقعده، يدنو من جلستها، يجبرها على رفع وجهها وبصرها إليه ليحتل أفقها كما العادة، غازيًا كل جوارحها:

- أنا عاوزك زي ما أنتِ.. صفحة مليانة شخبطة وحروف مالهاش معنى..

حاصر وجنتها وجزءًا من عنقها بكفه فارتجفتْ للحظة، أحس بتوتر نبضها، ابتسم بسخرية لم تستنكرها.. هي اعتادتْ استخفافه بها وبالحب وأهله ومجاذيبه:

- صفحة بتصدق في الأساطير وعندها رغبة تعيش الوهم..

بعد السخرية حلتْ العتمة.. انحسرتْ البسمة وقستْ الشفاه بزمة حادة وأصابعه تتحكم بفكها:

- صفحة مليانة سواد..

- مافيش جوايا سواد!..

تملصتْ من قبضته، نفتْ بدفاع بريء فنده بفلسفته القادمة من أعماق السعير بينما يفلتها وبسمته تتسع:

- كلنا جوانا اللون الأسود ياشمس؛ زي ما الأبيض موجود.. الفرق مين فيهم بيسيطر ويعيش ويستمر..

تحدثْ ارتباكها، مخاوفها.. نهضتْ تواجهه بالمثل، تتسلل لعينيه.. تغرق في ليله الحالك، الخالي من كل بريق كأنما هو فضاء شاسع خاوٍ على عروشه، تهكمتْ بانهزام:

- جوزي فيلسوف!..

لم يكترث لتهكمها، ظل على جديته المخيفة:

- دي فلسفة الواقع اللي مش محتاجة عمق..

وهزأ بمقت صريح:

- فلسفة بتيجي بالتجربة العملية مش النظرية..

كلا.. لن تضعُف.. لن تُسلم لعاطفة الشفقة..

لن تستشعر ألمه وتبالي به!..

فردتْ راحتها فوق صدره المشدود بصلابة رافضة، كأنما يكره فحوى حوارهما الحالي، تستشعر غضب قلبه:

- يعني أنت جواك في لون أبيض!.. ولو نقطة!..

- أكيد في..

صوته بدأ يرعبها، عيناه.. يده التي صفدتْ معصمها فكادتْ تشعر بالاحتراق..

احتراقه!..

- نقطة مستنية اللحظة المناسبة عشان تتلون بالأحمر..

نظرتْ بتساؤل عن كنه اللون، فسَّر بانحناء قاسٍ مسَّ زاوية شفتيه:

- لون دم عبد الله أبو الغار..

وبتر شهقتها بقبلة قاتمة، فظة لا تقل قسوة عن كلماته، تدفع بالبغض لأعماقها..

تتسرب لنفسها بالظلام..

تحبسها معه بكهفه المعتم وتغلق مدخله للأبد..

ارتعدتْ.. هل يمكنه أن يقتل أبيه بالفعل، دون أن يسأل عن سبب رحيله!..

أما هو فقد نال ما يريد، رعشة فزعها ورعبها.. تراجع ينظر في عينيها بانتشاء:

- خوفك بقى أفيون يا شمس..

أجبرتْ نفسها على تمرير قبلته وتصريحه رُغم انقباضة روحها، تحدته بعناد ساخر وإن شابهُ وجع:

- مش خايف تدمن!..

فكر لهنيهة، ابتسم عقبها بجمود وإن كانت اللذة تطغى:

- ماعنديش مانع..

تأملته لحظة بسكينة عجيبة ووجهها بين كفيه..

سكينة لا تدري لها سببًا، ترى أنهما الآن خصمان فوق رقعة شطرنج.. يتنافر بياضها مع شدة سوادها، والامتزاج بينهما هو عين المُحال:

- للدرجة دي عاجباك!..

- أكيد..

لوتْ شفتيها، تتساءل وهو يحررها من قربه:

- أكيد!..

برر بتوضيح متمهل، وكفه تشير بأناقة:

- حلوة..

رفع حاجبه مكملًا بيسر، يُقر حقيقة مجردة وخبث نبرته يتضاعف:

- مطيعة..

هبط بحروفه قرب أذنها:

- وكسر لحظات تمردك؛ متعة!..

دفعته تبعده قليلًا.. تغوص في دُجنة مقلتيه، تقاوم الغرق وتعلم أنها لن تنجو إلا بالموت:

- شايفني جارية!..

توحشتْ بسمته بمكر لا يبالي سوى بالسيطرة.. بسطوة وجوده، بالاستحواذ حتى الرمق الأخير:

- عاوزك جارية..

لم تفكر قبل أن تسأل بمكابرة عنيدة، وذكرى غيابه فيها تعود:

- جارية الخضوع ولا جارية المتعة!..

لم يتردد قبل أن يجيب بلا مفاوضة، مستعيدًا ذات الذكرى:

- الاتنين..

ارتدتْ خطوتين للخلف، تنحني أمامه بتبجيل كملك على عرش الخوف، تهديه طاعتها بعلقم النبرة والمشاعر والرضوخ القسري:

- تحت أمر مولاي..

أحيانًا تضعك الحياة على الهامش، لتجد أنك فجأة بِتَ في قلب الحدث.. أنك سقطتَ بوسط المعمعة دون أن تدري..

دون أن تريد..

سقطتَ والنجاة تشبه المستحيل الذي لم يستطِع أحد كسره بعد!..

**

في الظلام كل الأمور تتشابه..

لا نتنبه للون، لجمال، لفتنة.. تتوسع مدارك بقية الحواس، وينمو منها الجديد..

في الظلام هي تتعثر..

وهو يسود!..

ليلة من أرق ضاقت به ذرعًا، تركتْ أريكتها، رمقتْ النائم في الفراش وحده براحة تامة بغِل، بنظرة حاقدة قاتلة.. ارتدتْ مئزرًا خفيفًا وتركت الغرفة تجاه المطبخ بالطابق السفلي..

كل سكان المنزل نيام، حتى أن حشرات الليل لا يُسمع لها صوتًا..

الهدوء غريب كأنما هو فراغ في كتلة من عدم..

لا يسمح سوى بالترقب، التوجس.. والتوتر..

أعدتْ كوبًا دافئًا من الحليب، حلَّته بملعقة من العسل وأمسكته بكلتا كفيها ترتشف منه بتمهل، ربما هذه هي خطوتها الأخيرة للنجاة من الحرب الدائرة بعقلها..

شيئًا لم تحبه كثيرًا لكنه في هذه اللحظة يحمل حنان العالم..

حنان أم حُرمت منها بفرمانه الصارم، برغبة حمايتها.. وبقايا ضمير لم يُبِح لها أن يتعرض بريئًا لأذى بسببها..

أنهتْ القدح، وضعته في المغسلة وتنهدتْ بتعب، ضمتْ المئزر حولها تحكمه وقشعريرة باردة تشعرها أنها مراقبة..

الضوء الخافت بالمكان يصطنع بأفكارها أشباحًا وهمية قررتْ الهروب منها، بالكاد ترى خطواتها.. صعدت الدرج عائدة للغرفة، حيث زنزاتها المشتركة بصحبته..

زنزانة غير مسموح لها بالفرار منها..

وصلتْ لأعلاه وقبل خطوة زائدة اصطدمت بجسد كان ينطوي في العتمة كأنه جزءٌ منها، كأنها ذاتها بعضٌ من تكوينه!..

اصطدمتْ، شهقتْ، وارتدتْ خطوة فقدتْ على أثرها توازنها، حينها ارتج صدرها بصرخة مكبوتة..

هي تسقط!..

ستدق عنقها ويتحطم جسدها عند قاع الدرج العالي..

لوحتْ بذراعيها في الهواء تفتش عن شيء ما يصلح للتشبث به، توسعتْ عيناها واستسلمتْ لمصيرها المحتوم لولا المفاجأة!..

قبضة حازمة أمسكت بساعدها قبل لحظة الحسم، وأعادتها لوضع آمن، سقطت على ركبتيها ويديها تلهث بهلع..

تحت قدميه!..

رفعتْ وجهها تحاول رؤيته ولم يمكنها، كان غارقًا في الظلمة، الضوء الشاحب الآتي من ورائها لا يهديها نعمة الرؤية..

شعرتْ لوهلة أنها سجينة في عالمه..

سجنًا خاليًا من الصوت، والضوء.. والراحة، سجنًا تخلله همسه المبالي ببراءة:

- أنتِ كويسة!..

اعتدلتْ تقف، تستدعي كل توازن ممكن.. تدقق في وجهه، ملامحه التي لم تطرق مرحلة الخشونة الذكورية بعد لكن عيناه بقاعهما

المظلم أشبه بكهف عمره آلاف السنين، كهف قديم ينتظر أول مستكشف لخباياه..

زفرتْ براحة مبتورة، تأملته دون رؤية واضحة.. خصلاته شبه الطويلة مشعثة كأنما نهض من رقاده للتو، تمتمتْ بوهن:

- أيوة.. متشكرة..

مط شفتيه بتلقائية مثيرة لكل شك:

- ابقي خدي بالك..

أبعدتْ شعرها عن وجنتها، أعادته خلف أذنها وتطلعتْ إليه بصمت خضع له.. وبسمته الداخلية تتسع..

يولد لها انعكاس طفيف فوق شفتيه مبررًا بسلاسة:

- أنا حافظ طريقي في البيت كويس، عارف كام خطوة من باب أوضتي لحد أول السلم، كام سلمة هانزلها، كام خطوة للمطبخ..

وأمال رأسه ناحية اليمين، ابتسامته تظهر أكثر بتعبير مبهم:

- أنتِ محتاجة تركزي أكتر..

صمتها استمر أطول من اللازم، كان يتوقعه لذا أباح لها حرية استيعاب ما جرى قبل أن يباغتها بسؤال يكسر به حدود سكونها ويشوش بها أفكارها:

- خُفتِ تقعي فتتعمي زيي!..

تلعثمتْ لوهلة، فكرتْ وردتْ بصراحة مرتجفة:

- خُفت أموت..

سكن لثوانٍ كأنما يعلمها أن ذاك جائز.. متوقع.. قابل للحدوث:

- ممكن.. السلم عالي..

ابتلعتْ لعابها بمشقة، قررتْ أخذ خطوتها التي تحثها عليها كل شكوكها.. كيف عرف طريق ساعِدها في الظلام!..

كيف ظهر من العدم بغتة!..

كيف أنقذها وهو قد جرح إصبعه قبل فترة ليست بالطويلة!..

الكثير من الكيف تحتاج لجواب، اختصرته بحركة واحدة، تقدمت خطوة بطيئة، ومدت كفها تلوح بها أمام عينيه!..

لم تتبدل نظرته الغائبة في ليلها القاتم، لم تهتز عضلة في وجهه..

لم يحدث أي شيء..

مرة، ثانية.. ثالثة..

بإثرها رفع أحد حاجبيه وابتسم بسخرية:

- اتأكدتِ خلاص!..

احتبستْ أنفاسها حتى اختنقتْ بها، تراجعتْ بحدة بينما تتوحش البسمة ويتغضن الجبين بمكر شرس لا يناسب فتى بعمره:

- أنا أعمى يا وسن، بس زي ما قلت لك.. عارف طريقي في الضلمة كويس..

تحشرجتْ نبرتها بفضول متهِم:

- وعرفت إني باحرك إيدي قدام وشك إزاي!..

مد يده دون تردد يستند لسور الدرج، يخطو تجاه النزول متغافلًا عن وجوم منحها إياه، مجيبًا ببديهية:

- الموضوع منطقي وبسيط، لما حاسة بتنتهي، بتموت.. باقي الحواس بتعلا عشان تساعد على التكيف.. إيدك كانت بتحرك الهوا، عملت خلخلة لمست وشي، وحسيت بالحركة..

خللتْ خصلاتها بضيق مع رده البسيط..

لا تفهمه، لا تفهم أي شيء في هذا المنزل!..

هو وحده يقيدها، لولاه لأحرقت البيت بساكنيه وأولهم زوجها.. أخيه الأكبر، الذئب الخبيث..

"دوق" الحروب وربما مُشعلها..

الصغير ذكي للغاية، بل خارق الذكاء وذاك مخيف مع عجزه.. يعوضه بعقله، وعقله ينقل إليها سواد روحه..

حزنه المسجون بصدره دون أن يفصح عنه..

غضبه الذي يحرره مرة ويكبته مرات..

وعيه بظلامه كخفاش، وسقطاته في قلب السواد كأنما وُلد بداخله للتو!..

كثير من المتناقضات تسببت لها بصداع فقررتْ تتبعه بحذر مهتم:

- رايح فين!..

رد بهدوء لا يناسب التوقيت ولا المشهد بأكمله:

- هاصحي خلود تعمل لي هوت شوكليت، مش جاي لي نوم..

جاورت خطواته الثابتة.. الواثقة بتأمل مشتت، أمسكت بذراعه تقوده وتتعلق به:

- هاعملها لك أنا، وأشرب معاك..

تعترف بأرقها مثله، في حربه معها يفوز.. تنهزم.. تتراجع..

تجاهد للعودة حيث أرض المعركة المشتعلة؛ لتجد أنها خسرتْ قبل أن تبدأ..

لتجد أنها أبدًا لن تمتلك خيط البداية!..

**

تريد إيذاء رجل!.. امرأته هي المفتاح؛ أَفقِده عشقها.. اجعله يخسر أمانها معه..

افضحه واجبره على تعرية وحشيته من ستر ورقة توت الغفلة الوردية التي تعمي عينيها عن حقارته..

امنحه بيده طرف الحبل ليلفه بنفسه حول عنقه ويختنق..

وصولي.. مستغل.. انتهازي.. أجاد استغفالها؛ والقائمة تطول..

ثم في نهاية الأمر باتت هي شرير حكاية ديزني الخاصة بالعاشقين اللطيفين!..

فليكن..

ستمارس الدور حتى النهاية..

الخسارة كانت حقًا عليه، هو خرج فائزًا من لعبة الحقارة.. وباتت هي الطرف الذي ارتكب الجرم..

بدأت بالغواية ربما..

لكنه من ظهر على عتبة بابها مرة وثانية، هو من أتاها وأراد.. وفي الخاتمة صارت الأفعى وأصبح هو الملاك..

حسنًا أيها الملاك؛ لنرى إلى متى ستتحمل قناع وداعتك المزيف!..

أعدتْ لحفلها المرتقب بسرعة الصاروخ، اختارتْ أن يكون حفلًا تنكريًا وكل من مدعويها يرتدي قناعًا غير جلده المعتاد..

تحب مشاهدة البشر في تلك اللعبة المخادعة التي تسمى حياة.. تحب رؤية حقيقتهم التي يظهرونها عندما يظنون ألا أحدًا يراهم.. لا أحد يراقب أو يتابع ما يفعلونه..

تؤمن أنه لو لم يكن هناك عقاب؛ لعمت الفوضى الأرض وغرقت في نزيف الدم والخطايا..

الخوف هو الجدار الناري الحائل بين البشر واعتناق الوحشية..

وهي لن تسقط بعيدًا عن شجرة الإثم!..

بثوب أسود حالك يصل لكاحليها وذيل طويل تجره من ورائها تحركت بسلطوية، زِي "ماليفسنت" الشريرة التي انتصر قلبها الطيب.. هي تمتلك واحدًا؛ لكنها لا تحبذ استخدامه!..

ابتسمتْ ساخرة بينما تتقدم لمنتصف ردهة الاستقبال حيث انتشر بعض الحضور، في حين اختار البقية حديقة المنزل لجلوسهم أو للرقص..

تتذكر عرضها على مربية صغيرها حضور الحفل أثناء وجوده مع جديه لأبيه في عطلة نهاية الأسبوع كما العادة.. تتذكر رفضها الحاد الباتر، هروبها.. وتفضيلها للبقاء معه..

رد فعلها كان مثيرًا للريبة لكنها لن تفكر به الآن، هي تنتظر قدوم طرف الخيط الذي ستُسقط به تلك البلهاء من علياء وهم العشق مع رجل تزوجها دون شرف، لأجل المال!..

وقد جاء، وللسخرية اختار "جعفر"، الوزير الشرير الذي كاد أن ينهي حكاية الأميرة ياسمين وعلاء الدين للأبد..

كان من الممكن أن يفعلها لولا وردية ديزني المعهودة..

دخل لمنزلها بزيه المميز، تابعته يتحرك تجاه "جمال" الصديق المشترك بينما عينه تستكشف الأجواء من حوله، توقفا أمامها ليعرفه على صاحبة الدعوة بعدما صافحها هو بحفاوة صديقين:

- نيروز رستم نجمة الحفلة..

ثم أشار إلى جواره والنبرة تقطر تفخيمًا:

- هشام الفايز..ابن حضرة معالي الوزير..

وغمز لها بمزح:

- أهم عضو في الشلة بتاعتنا..

ابتسم "هشام" برأس منتصب، يرى الناس من عليائه، ولكن مع جمالها الذي ظلمه الوصف مد يده ليصافحها بإعجاب واضح وبنظرة تغزوها لمحة وقاحة..

وقاحة التقطتها بزهو حينما مدتْ كفها إليه فقبَّل ظاهرها برقة أنيقة، تبتسم هي بمكرها المألوف وتميل بعنقها تنظر في عينيه:

- طبعا.. غني عن التعريف..

أهدته بسمة عابثة:

- سمعته سابقاه..

بإشارة خفية من يدها كان الصديق ينسل مبتعدًا ليختلط بالحضور وكلماته تخبر من تركه وراءه:

- كده أنت في إيد أمينة يا إتش.. أشوف أنا بقى أمينة نفسها..

شيعته "نيروز" بضحكة مرحة وعادت لضيفها المنتظر:

- هشام الفايز.. سمعت عنك كتير لدرجة شوقتني أشوفك..

تمتمت بها في خبث موحٍ، كأنما تخبره أن ذاك ذيل القصة والتفاصيل تُتبع إن أراد..

التقط الطعم بسهولة، تحركت مقلتاه باستفهام يسألها بابتسامة ذات مغزى:

- وسمعتِ إيه بقى عني شوقك كده!..

تناولتْ من خادم مار كأسين من البراندي ناولته أحدهما بتلكؤ كأنما تثير أعصابه وتشعل فضوله أكثر..

ارتشفتْ من كأسها، لعقتْ شفتيها باستمتاع قبل أن تميل نحوه بهمس:

- مش المفروض أقول على فكرة، بس هي حد تقدر تقول مهووس بيك..

عقد حاجبيه، وتوقفت ملامحه لوهلة تحاول الفهم والتخمين!..

مد يده خلفها بقرب متعمد ليضع كأسه على طاولة تستند إليها، سألها في شبه حصار:

- هي!.. هاكون مبسوط لو شاركتيني السر الخطير ده..

فتى لطيف.. يظنها ستهرب من حصاره!..

اقتربتْ أكثر تترك كأسها كذلك فوق الطاولة العالية وساعدها يرتكن لساعده، نبرتها تنغمس بغموض مقصود:

- واحدة كانت معاك ليلة.. مجرد ليلة، بس ما قدرتش تنساك..

غموض ممزوج بصراحتها الفجة التي لا تتخلى عنها البتة، مع انعقاد حاجبيه فضحتْ السر بلؤم جوار أذنه:

- ميرهان الجمال..

تراجعتْ ببسمة لعوب، منحته بعدها نظرة خبيثة وسبابتها تلامس فكه بمرور ناعم ينتفخ به غروره الذكوري:

- عملت فيها إيه يا شقي!..

شرد بتركيز، ذهب للبعيد عنها بأفكاره ولاحظتْ غيابه، تتنبأ بمسار عقله بهذه اللحظة..

- ميرهان!..

نطقها بذهول، ذهنه يعود لأمس غير بعيد، وهي توقن من وجهة شروده، لقد أخبرتها الصغيرة بعض التفاصيل..

عاد يسألها بعدم تصديق:

- أنتِ تعرفي ميرهان منين؟..

تأملتْ صمته بوعي كامل، لقد نثرتْ البذرة وآن أوان الإرواء..

بضع قطرات وسيتكفل هو بالباقي حتى يكتمل النبت الشيطاني في جحيم الزوج المخادع..

مدتْ يمناها تنفض عن كتفه ترابًا وهميًا، تجيبه بسلاسة عادية للغاية:

- ميرهان صاحبتي الأنتيم..

غمزته بمكر مبهم:

- كلمتني عنك كتير، وعن مشاعرها ناحيتك..

مطتْ شفتيها ببؤس مفتعل وازى اختناق نبرتها بحزن أجادت اصطناعه:

- عن تعاستها مع الراجل اللي أبوها رماها في حضنه عشان يخلص منها..

وتنهدت بفتور تتظاهر بالضيق الممزوج بالغضب.. غضب كان حقيقيًا رُغم بهتان الكلمات:

- راجل معيشها في جحيم، بيسكر ويخونها ولو اتكلمت يضربها لدرجة مرة فضلت معاها في البيت يومين ماكانتش قادرة تتحرك من السرير..

استعادتْ كأسها ترتشف منه بعجالة والرجفة بصوتها تعلن عن وجودها بوضوح:

- والحيوان اتحرش بيَّ، خلاني اضطريت أسيبها معاه لوحدها..

كادتْ تصفق لنفسها على أدائها الفخم..

هي نجمة العرض وخشبة المسرح لا تحتمل بطلًا يشاركها لحظة إسدال الستار.. هي وحدها تستحق انبهار الجمهور:

- ميرهان مش قادرة تنساك..

توهج عسل عينيها ونبرتها تخفت حد الهمس شبه المسموع:

- بتحبك.. وده السبب الوحيد اللي مخليها متمسكة بالحياة..

تراجعتْ بعد قنبلة المشاعر المكذوبة التي فجرتها بوجهه، تتفحصه للحظات، تخمن فيمَ شروده!..

لقد عاد إليها، لتلك الليلة.. تلك الأنثى، وتلك التفاصيل، بحدقتيه نُدفة من إنكار قررتْ سحقها باستطرداة عاطفية:

- كانت فاكراك بتحبها أنت كمان ومش هتتخلى عنها..

مع لقائها بعينيه لامته بنظرتها وهزة كتفيها القانطة:

- بس أنت...

هربتْ عقبها من ملاحقة بصره لشفتيها كأنما ينتظر أحرفها حرفًا حرفًا:

- استنتك كتير ولسه مستنياك على فكرة.. عايشة على الأمل ده..

عادتْ لتلاعبها الوقح، تترك حبل العاطفة وتلف حول عنقه حبال الشهوة.. الغرور.. الخطيئة العظمى:

- مش باقولك أنت مؤثر..

ربما هذا هو ما خرج به من كل ما سبق..

أنه مؤثر!..

قصدتها، سددتْ رميتها وأصابت الهدف.. انتشائه تبدى بعينيه، شروده في رغبة سوداء محرمة، في مغامرة مع امرأة متزوجة يظنها تحيا على عشقه.. على هوسها به:

- طيب هي ليه مكلمتنيش كل ده؟..

رفعتْ الكأس أمام وجهها ترمقه من فوق حافته بدهاء:

- إيه يا إتش!.. هتشككني في ذكائك، علاقتكم القديمة المفروض تجاوب على السؤال ده..

دارتْ بوسطاها حول الحافة الكريستالية في دوامة مفرغة:

- ميرهان مش خاينة ولا هتخون جوزها مهما كان حقير.. ومهما كانت بتحبك..

ابتسم بغرور يناسبه، وعينه أثقلتها نظرة تحدي سعتْ هي إليها، تناول من بين أناملها الكأس بخفة، شرع بتذوقه بتمهل:

- هنشوف!..

انتشتْ بظفر هلت بشائره، برقتْ مقلتاها بنصر قادم لا محالة..

وابتسامتها الأخيرة إليه كانت ناعمة كأفعى بثتْ السم وكل ما عليها هو انتظار سريانه في دم الفريسة حتى الموت!..

زوتْ ما بين حاجبيها تكمل حبكتها، تكتب الخاتمة وتضع كلمة النهاية بخط يدها:

- تقصد إيه بالظبط!.. ما تخلينيش أندم إني اتكلمت معاك..

قبل أن يجيبها أشارتْ من فوق كتفه لأحدهم، تحركتْ ترحب بمدعويها ويدها تلامس ذراعه تمنحه الثقة:

- مضطرة أسيبك.. الحفلة حفلتك يا إتش..

خطت مبتعدة على يقين أن خطوته الأولى بعد خروجه من هنا ستكون تجاه المغفلة الأخرى..

الخطوة الأولى نحو السقوط.. وخلع الأقنعة..

كل الأقنعة..

**

العشق لا يسبقه تمهيد، تحدث السقطة.. الارتطام.. نمتثل بالخضوع لقوانينه بغتة، دون مقدمات.. وبكل تعقيد ممكن..

القلب ينبض..

العقل يتيه..

الروح تهفو..

وكل دفاعات الكيان تُستنفر لحماية من نحب، للدفاع عنه!..

دفاعًا لم تظنه ضروريًا وهي تقنعه بموافقتها على زيارة والدة زوجته الراحلة وجدة ابنه، السيدة الوقور صاحبة الملامح الرهيفة.. والشقيقة التي تشبه صغيره وأمه كثيرًا..

استقبلتْ الاثنتين اللتين بكرتا عن موعدهما بساعة إثر اتصال هاتفي مباشر لها، كانت وحدها معهما والحفيد الذي عانقته جدته وقبَّلته خالته وضمته لصدرها طويلًا باشتياق..

استضافتهما ببساطتها ودفئها، تجاهلتْ النظرة المتفحصة بضيق في عيني الأم، والهاربة في عيني الأخت..

تحدثت معهما في أمور عدة، تحاول منحهما أمانًا وثقة كونها ستراعي قطعة منهما، ستكون بمنزلة الابنة التي رحلتْ عنه رضيعًا..

أمورًا انتهت بسؤال مباشر صدمها بقلبها قبل أن تمرر الصدمة حضورها فوق ملامحها:

- على كده اتجوزتِ أنتِ وعدي عن حب!..

السيدة التي يبدو أنها لا تتقبلها تمامًا، أو ربما لا تتقبل الزيجة كلها من الأساس!..

اختنقتْ بالجواب وعينها تلتقط نظرة عاتبة من ابنتها لها، في ذات اللحظة تقرر الجواب الصادق..

الجواب الذي لن يجرح أمًا فقدت ابنتها وترى أن من كان زوجها حقٌّ لها حتى بعد الممات:

- دي حاجة تخصنا حضرتك، ومادام بينا ود واحترام متبادل فده كفاية جدا لحياة ناجحة.. بالنسبة لي أكبر من الحب، كمان عدي واثق إني هاراعي واسل كأنه ابني..

مدتْ يدها للصغير فتخلى عن أحضان خالته وارتمى بين ذراعيها، ضمته بحنو أغاظ الجدة أكثر:

- من غير فلسفة، أنا قلت كده.. عدي ما بيعرفش يحب..

- ماما!..

ناهِرة من المجاورة لها، ومضاعِفة للصدمة التي احتلتْ وجه "رهف" بالكامل.. الغضب الذي أحرق مشاعرها..

حميتها تجاه معشوقها نهضتْ من سباتها لتذود عنه بكل عشق:

- مين قال كده حضرتك!..

وابتسمت بعُسر مردفة دون أن تمنح كلتيهما فرصة للرد:

- عدي أحن أب في الدنيا..

ربتتْ على خصلات الفتى الجالس باستكانة فوق ساقيها، قبلتْ رأسه وأكملتْ بحسم صارم لا يخلو من اللياقة:

- مشاعره اللي باشوفها ناحية واسل، بتحسسني إن حب العالم كله جواه..

رفعتْ ناظريها تجاه الاثنتين ببتر مستاء وإن كانت نبرتها غائبة فيه:

- أنا بحب عدي.. وعارفة إن قلبه حزين على أم واسل الله يرحمها، يمكن ده اللي مخليه مقفول.. بس أنا صبورة جدا، ومستنياه يعرف إن الحزن مش معناه الحياة تقف..

احتجتْ الجدة بتهكم ساخط:

- وهي كده حياته وقفت!.. ماهو عاش واتجوز أهو وبكرة يخلف..

"ده حقه على فكرة يا أميمة"..

أتى الصوت من خلفها غاضبًا، أمه أتت في موعدها لتجد أن السيدة الماكرة سبقتها عامدة لتنفرد بالفتاة الرقيقة، رقيقة لكنها

دافعتْ عن حبيبها كنمرة شرسة.. اقتربتْ تداهم الجلسة، تشير للصغير الذي ركض إليها فاستقبلته بتوق:

- ولا عاوزاه يموت مع اللي ماتت!..

تمخضتْ ملامح "أميمة" عن ألم دفين لم تسعَ لتوريته:

- مافيش راجل بيموت ورا ست يا راوية، بس في رجالة وفية.. بتحافظ على العهد مش بتجري تتجوز أول ما تلاقي فرصة..

اعتدلتْ "راوية" ترميها بنظرة كالشرر:

- الوفاء مش معناه إنه يندفن بالحياة مع اللي راحت، خصوصا إنه لسه شاب والعمر قدامه..

عاندتها الحماة بغيظ قاسٍ:

- أمه وطبيعي تدافعي عنه، لو كان هو اللي...

- بعد الشر!..

فصم عنق الحديث كان من العاشقة التي لم تتحمل نطق الكلمة..

لم يمكنها حتى التفكير في حدوثها..

أن يكون هو الراحل!..

على إثر البتر استقامتْ ترمق حرج وجه الشقيقة التي تكبت رد أمها بضغطة من قبضتها حول معصمها، تبتسم لوالدة زوجها وتطيب خاطرها برفق:

- ماما ما تقصدش يا طنط، حضرتك عارفة نورا كانت أول فرحتها.. ربنا يرحمها..

قبل الرد تدخلت "رهف" تنهي الصراع الدائر بعاطفة نقية نفضتْ قلبه عندما أتى دون أن تراه، ليشاهد قتالها على جبهة نار هواه:

- عدي يستاهل كل خير في الدنيا، مافيش راجل زيه ولا هيكون في.. بعد إذنكم، ميعاد غدا واسل..

واستدارتْ تنحنى لحمله، ترفعه بين يديها وتخطو للخارج فتصطدم به!.. بوجوده!.. بنظرته المبهمة نحوها كأنما يراها للمرة الأولى..

يرتجف قلبها ألمًا أن يكون قد سمع ما دار، تهديه بسمة حانية وتهمس له بسرور لرؤيته بعدها تتخطاه حيث وجهتها..

تتخطاه وكل خطوة تبتعدها تحفر بكيانه أثرًا..

أثرًا أخافه.. واستنكره!..

**

الحكاية دومًا ما تبدأ وتنتهي بقصة حب!..

معادلة تقليدية، معطياتها كلاسيكية، برهانها أعمى، ونتيجتها تتخطى حواجز التنبؤ..

هو.. هي.. بتر!..

"المشهد الأول"

"يزن أبو الغار"

عاشق أول موصوم بالفقد، متهم باختيار الخسارة..

رجل لا يجيد طمس مشاعره وإن أتقن القسوة أو بات ماهرًا في خوض متاهات الحياة..

يوم عمل مزدحم، يوم عمل قد يتعثر فيه بمالكة القلب دائمًا وأبدًا..

رجل سيء.. لا يستطيع أن ينفي مدى سوئِه، كما لا يمكنه تحويل مسار مشاعره لامرأة أخرى بطرقعة إصبعين مهما سقطتْ هي بغرامه..

رجل قاسٍ.. جشِع وطماع..

يريد من زوجته كل ما يمكنها منحه ويكتفي من نفسه بالفتات.. يبخل بالقلب، لا يربطه لماضٍ بل هو من سلسل نفسه بنفسه في قاع بئر العشق العميق..

تجول في قاعة المؤتمرات المصغرة بفندق "نايل بالاس".. حيث لقاء عمل حاسم مع مندوب الشركة الألمانية التي لايزال على اتفاقه معها لأجل شركات "الديب" وإن لم تعُد بعض أسهمها مملوكةً له..

شركته هي المسؤولة عن توريد كل احتياجات تلك الصفقة لها.. وذلك حدث جلل.. مر على صديقه الحانق منذ اختفاء غريمه، جالَسَه لدقائق معدودة وتوجه لعمله..

زوجته أخبرته أنها ستقضي النهار مع شقيقتها وزوجها وطفليها بالمكان حتى ينهي عمله ويذهب ليكمل اليوم بصحبتهم..

وعدها وكان ينوي الوفاء بالوعد؛ لكن عندما سقط بصره على معشوقة القلب والروح.. تعثر في الوفاء..

فقد تسابقت الخطوات للذهاب إليها دون إرادة.. بلا وعي!..

.....

"المشهد الثاني"

"منذر الإدريسي"

عاشق ثانٍ مجبر على الفقد، متهم بالعشق المبتور..

يقولون عنه رجل الصراط المستقيم.. دومًا ما ينتهج أقصر درب بين نقطتين، دومًا ما يباشر بالفعل..

لا يتأخر.. لا يلتف..

لا يواري ما يريد خلف قناع التمنع..

هو رجل صلب العريكة، لين القلب.. مغرم في حكاية لم تنتهِ بعد..

اليوم هو موعد إنهاء صفقة التوريدات التي يعمل فيها كوسيط بين المُصدر الألماني والمستورد المصري.. حدث هام بفندق فخم يليه غذاء عمل وحفل خفيف..

فندق تعمل به هي!..

الحبيبة الهاربة من طوق عشقه ضد إرادة الفؤاد..

حبيبة لمح إشرافها على سير العمل من بعيد، فتجمد بمكانه يحاوطها ببصره، كتائه في صحراء قاحلة وجد واحته بعدما أيقن من الموت..

تائه يحق له الآن سكرة الغياب في واحتها وإن كانت سرابًا!..

.....

"المشهد الثالث"

"دُچى نصر الدين"

عاشقة ضاعت في طرقات خرائط العشق غير المكتمل؛ ففقدت العاشق والمعشوق..

أبعدتْ الأول وهربتْ من الثاني حيث لكل منهما أذاه..

استمرتْ كأن الحياة تجبرها على الاستمرار بفعل القصور الذاتي لا بفعل رغبتها فيها..

استمرت لأن الطريق الوحيد المفتوح لخطواتها هو الأمام..

الخلف سقوط..

الخلف وجع..

الخلف خسارات..

تدفن نفسها بعملها يومًا بعد يوم، تنسى كل ما عداه عندما تخطو من بوابة الفندق..

تنسى أحلامها.. مشاعرها.. قلبها..

تنسى وسادتها التي تشربت من أسرارها ما يزيد عن طاقة احتمالها..

تنسى الأمل وتفكر في اللحظة، فالغد لم يعُد في الحسبان..

اليوم كلفها "وجيه" بتحضير القاعة الصغيرة لاجتماع عمل وحدث هام يتبعه حفل صغير لعلاقة بين شركتين إحداهما ألمانية..

وذكر الاسم..

"يزن أبو الغار"..

أعاد فتح الجرح وألقى في وجهها بمخاوف القرب.. بمخاوف النظرة الثانية، بمخاوف الضعف والانسياق وراء الخافق العاشق..

استجابت بعملية تامة..

هي تخطته، تخطت ماضيها معه وحاضرها المبتور..

تممتْ على كل شيء وقررت الرحيل قبل ظهوره؛ فقط القدر لم يخدمها.. عند دخوله لمحها ومن فوره توجه نحوها..

كادت تهرب لكن قدماها تيبستا بموضعها، لا تدري ما تفعل.. تحث جسدها على الفرار وكل ذرة فيها تتشبث به..

تعلم أن زوجها السابق سيكون هنا فهو وسيط إتمام الصفقة..

لا تريد أن تلتقيه كذلك، ليس بها طاقة لصِدام..

كلا.. الهروب هو الحل، الهروب هو رد الفعل المباح..

لذلك انتهجته وهرولتْ في اتجاه عكسي إلى أحد أبواب الشرفة الموصلة للحديقة الخلفية كأنها في سباق، علَّ في فوزها به نجاة..

.....

"المشهد الرابع"

"غزل درويش"

عاشقة تتنفس بالأمل، مغرمة تحيا بالأمنية..

محاربة على خط النار، تؤمن بالنصر.. تحمل في يدها سلاح الهجوم وفي الثانية غصن الزيتون كدعوة للسلام..

تهاجم القلب وتهدهد الروح..

تقتنص الفكر وتمنح الراحة..

تحبه ولا تبالي إن مر ألف عام قبل أن تنال نصيبها من قلبه..

ذلك هو المحك، ستمتلك كيانه عليه ولو بعد حين!..

ستحرقه فيها..

سيصلان بعد العشق لمرحلة التماهي؛ فلا يجد الناظر فارقًا بين ملامح وملامح.. بين نظرة ونظرة.. بين عشق وعشق..

كانت تجاور شقيقتها التي تنهر طفلتها لأنها سكبتْ مشروبها فوق ثياب أخيها الأصغر بعناد، تخبرها أنها تشبه خالتها في جنونها وستنتهي مثلها..

مجنونة ربما..

بعد زواجها بثلاثة أشهر لحقتْ أمها بأبيها في الدولة التي يعمل بها كمحاضر في علم النفس الجنائي، قبل سفرها جلستْ بصحبتها وأختها.. أملتْ عليهما الكثير من التعليمات قبل أن تختتم حديثها بأنها قد أدتْ رسالتها معهما..

أن لكل منهما الآن بيتها وزوجها وأطفالها وهي لن تحيا في وحدتها بعيدًا عن والديهما، لذا قررتْ أن تسافر إليه وتستأنف حياتها معه..

ورُغم اشتياقها إليها لكنها أيدتها في قرارها كما فعلتْ الأخت الكبرى تمامًا..

تلفتتْ حولها تتأمل الحديقة الواسعة، تراقب الجلوس في فضول كأنما تستنتج أفكار كل منهم حتى شعرتْ بالسأم..

استقامتْ بضيق تومئ إلى داخل الفندق:

- هاروح أشوف يزن قرب يخلص ولا إيه!.. زهقت..

غمزتها "نوف" بخبث والفكر إباحي صرف:

- يا بنتي في شغل، هتروحي تعملي إيه!.. الشوق الشوق..

رمقتها بنظرة متعالية وخطتْ تتركها لجدالها السفسطائي مع زوجها حول إمكانية خلط حلوى الخطمية بالجبن في كعكة خاصة..

زوجها صاحب الكرش الصغير والتي تتنبأ له بمستقبل مبهر ككرش يحترم نتوءه البارز فوق جسده..

وصلتْ للقاعة وخلجاتها تفتقده.. ربما هي لعبة من هرموناتها كعادتها، رأته يخطو تجاه الشرفة الخارجية، نادته لكن يبدو أنه لم يسمعها.. تبعته بخطوات راكضة..

قُرب الباب، حدث اللقاء.. لقاء من تخطيط القدر!..

حبيبها يلاحق أخرى، هشة البنية داكنة الخصلات قوية النظرة..

يقطع طريقها.. يمسك بذراعها..

يناديها بنبرة لم تعبر شفتيه لأجلها يومًا..

"دُچى"..

بلهاث.. بحدة وغضب.. بتشبُث!..

وتلك الأخرى جاهدتْ للفرار، نحته عن مسارها ترفضه بيأس استشعرتْ فيه العشق!..

- يزن من فضلك.. سيبني أمشي..

لكنه لم يكن كريمًا..

لم يمنحها الفضل بل وقف يواجهها وعيناه تغرقان فيها:

- عاوز أطمن عليكِ..

تراجعتْ "دُچى" خطوة بقنوط واهن:

- أنا كويسة، ممكن تبعد لو سمحت..

لم يتزحزح.. لم يمكنه..

لحظة القرب المسروقة بغير شرعية حتى من عشق سابق كانت أقوى منه فتجمد في وقفته..

ازدرد لعابه بعسر لم يملك بعده سوى الهجوم..

الهجوم خير وسيلة للدفاع عن القلب الخاسر، عن المشاعر المهضوم حقها.. عن الماضي بذكرى الحب والحاضر بمخاوف ذات الحب..

- مش هابعد يا دُچى، مش عاوز أبعد..

بدا لعينيها المتعبتين كأنه أسيرها، سجين غرام معتق قدر عمر ضاع مع الحرمان..

راقبتْ وهنها.. ضعفها.. ارتباكها..

نظرتها التي تتعلق به في احتياج، في عشق لم يكتمل، لم ينَل نصيبه من أنفاس الحياة..

سمعتها تذكره بنبرة مختنقة:

- مراتك!..

- ما حبيتهاش..

ينفي عنها بلا تردد سُكنى القلب..

- لا هي لها ذنب ولا أنا كمان..

تأملته يقترب أكثر، تدرك أنه يشتهي ضمة.. يبتغي احتواءها، ينشد امتلاكها:

- غصب عني.. ما عرفتش أحب من بعدك..

طعنة أخيرة..

لا.. كان مرورًا باردًا بطيئًا لسكين ثالم يذبح به عنقها..

عنق غرامها به.. يُقيمها من سقطتها في هواه، يصفعها ويخبرها أنها البلهاء في دنيا العشق، العمياء في عالم كله يُبصر فشلها..

يهدي أجفانها ثقلًا موجعًا من الدموع، لم تحتمله فتساقطت تحرق وجنتيها.. تغشي الرؤية أمامها في خطوات عدو غير متزن..

تصدمها بأحدهم فيدعمها من وقوع أشد مهانة، يسأل عن كونها بخير!.. تعتذر وتواصل الركض..

الهرب..

تمر بشقيقتها بلا تركيز، بلا شعور.. تجذب حقيبتها وتقود سيارتها برؤية مشوشة إلى البيت..

هي الآن خاسرة.. وعليه؛ فالانسحاب بات فرض عين!..

.....

"المشهد الأخير"

حين تكون المواجهة هي الحافة التي تهتز تحت أقدامنا في انتظار السقوط.. الحافة التي يقود إليها طريق باتجاه واحد لا عودة منه..

الوصول للمنزل كان محفوفًا بمخاطر عدة، أهونها على نفسها الموت.. والخطر الأعظم أنها لا تزال تتنفس.. تتوجع.. تحترق..

روحها، قلبها، كيانها كله يشتعل..

يشتعل بالغضب.. بالخيبة.. بلوم الذات ومقت ضعفها تجاه عشق منقوص..

عشق ليس له طرف ثانٍ، هي طرفه الوحيد..

جمدتْ في غرفتها كصخرة شاحبة، خالية من الحياة، قيد انتظار لحظات الختام.. البتر، إسدال الستار على مسرحيتها الهزلية والتي ظنت أن في حالميتها أمل..

رن هاتفها باسمه خمس مرات وتجاهلته..

عاد باكرًا عن موعده المتوقع يفتش عنها؛ وجدها قابعة في ظلام الغرفة فوق مقعد يقابل باب الشرفة، ترمق حُلكة الليل بضياع..

زفر بحرارة وقلقه يتبخر، يقترب منها، يجثو أمامها، يده تقبض على يدها بتنهيدة راحة:

- ما بترديش على تليفونك ليه!..

لم تتحرك مقلتاها إليه..

لم ترمش..

لم تتسارع أنفاسها أو يختل هدوئها، انعقد حاجباه ومد كفه الثانية يلامس بها وجنتها:

- غزل!.. لما روحت لك عند نوف بعد ما خلصت الإيفينت ومالقيتكيش قلقت..

أجبر وجهها على لقاء وجهه دون العينين:

- قالت لي أنك مشيتِ فجأة.. في حاجة ضايقتك!.. تعبانة!..

صوته الملهوف كان كلسعات قاسية بسوطٍ من نار، تحتدم لها نفسها والغضب يتأجج، تتعالى ألسنة لهبه أكثر فأكثر..

تنظر إليه بلا وهن.. تنظر بقسوة.. تنظر عبره، من خلاله كأنها لا تراه بالفعل..

تنهض، تتناءى عنه، عن لمسته، عن أنفاسه، عن اهتمامه المصطنع..

تشمخ برأسها، تشد قامتها وتقف، ترميه بنظرة جامدة صلبة من علو:

- طلقني..

دفعة خفية كادت تسقطه من جلسته على الأرض..

دفعة لم توقفه طويلًا بل تبدلتْ عقبها المفاجأة لهياج لم يحاول كبته، استقام يسطو على بصرها بهجوم حاد، في موقف آخر لربما أرعبها:

- نعم!.. أنتِ اتجننتِ ولا إيه!..

لم تهتز.. لم تلِن نبرتها.. لم تتوتر أو تتراجع ولمعة العين تشي ببكاء مضى، وبكاء مهين قادم:

- كنت مجنونة لما اتجوزتك يا يزن، أكيد مش هاكون مجنونة في الحالتين..

زم شفتيه بحنق ويده تقبض على مرفقها بغلظة:

- والطلب ده بقى بناءً على إيه!..

لم تحرر نفسها، دققت في عينيه تهديه وجعها مغموسًا بالحزن والدم:

- بناء على قصة حب؛ حرام أكون عقبة في طريقها..

قطب بلا فهم فأكملتْ بحزم:

- طلقني، واتجوز اللي بتحبها يا يزن.. إحنا ما ينفعش نكمل خلاص..

تصلب لحظة بينما عقله يربط الخيوط بسرعة.. يفكر، ويمنح نفسه الحق في السخط بالمقابل:

- ده أنتِ بتراقبيني بقى!..

ابتسمتْ بحسرة:

- سميها زي ما تسميها..

نفضها واستدار عنها.. ولاها ظهره وأصابعه تكاد تمزق خصلاته، يزفر باحتدام، يعتصر عينيه، قبضته تنضغط بعنف قبل أن يعود إليها بفظاظة:

- أنا قلت لك قبل كده يا غزل؛ ما تدوريش فيَّ على فارس الأحلام..

رمقته بنظرة لائمة مهزومة:

- ماكانش عندي فارس أحلام..

وهزتْ كتفيها بلا اكتراث:

- بس واضح إنك فارس واحدة تانية، وراضي بالدور ده..

اصطكتْ أسنانه بقوة:

- مش شايف إني رُحت اتجوزتها عليكِ..

- أنا مش هاستنى ده يحصل..

زعق بانفلات وأعصابه تشتعل:

- مش هيحصل..

تراجعتْ خطوة وجرح عينيها وقلبها غائر بنزفه:

- طلقني يا يزن..

الكلمة تطعنه.. تسقطه من عليائه إلى قاعه المظلم، تصليه سعير خوفه الأزلي.. الفقد!..

لكنه لم يعد يتشبث، هو ملك اللحظة، ولجام السيطرة بيده، واجهها بقسوة سوداء:

- حاضر يا غزل، هاطلقك.. بس بعد ما ابني يتولد..

تأملته لثوان دون استيعاب:

- يعني إيه!.. عاوز تاخده مني!..

- أنتِ اللي اخترتِ تسيبيه..

- أنا مش هاسيبه..

صاح بوجهها وأصابعه تنغرس في لحم ذراعها لحد مؤلم:

- ابني مش هيبعد عني يا غزل..

سحبها بغتة فاصطدمت بجسده ودموعها تبدأ في السيل:

- عاوزة تكملي معايا عشانه براحتك..

تملك من ذراعها الثاني يكبلها إليه بنظرة شيطانية لم ترها في حدقتيه من قبل:

- عاوزة تولدي وتمشي؛ برده براحتك..

دفعها بغتة فارتطمت بالجدار من خلفها وأنَّت بخفوت واجم:

- اختاري..

اقترب مجددًا يتسلط، يتجبر، يغزوها.. يغزو كل حاسة بحضور مختلف، بذكرى.. بعذاب.. بألم.. بخسارة.. بندم..

استند بكفه جوارها وملامحه التي تعشق تُغيم بشراسة:

- المرة اللي فاتت لما جيتِ لي وعشتِ دور مش بتاعك عشان تقولي لي على الحمل، قلت لك كل الحقيقة..

تحكم بذقنها يرفع وجهها إليه، يغوص بمقلتيها اللامعتين بالعبرات بعين جافة لامبالية:

- يمكن تفهمي إحنا وضعنا إيه!.. إن دي مجرد لعبة، مغامرة.. كل واحد مننا له دور فيها مش أكتر..

مال برأسه، يهمس بفحيح آثم:

- مش ذنبي إنك كل مرة بتختاري تعيشي الوهم، مش ذنبي إنك مدمنة خيال..

تعانق جفناها تحبس الدموع، لكنها فاضتْ رُغمًا عن إرادتها عندما حررها، سمعت وقع خطواته يبتعد، الباب ينغلق من خلفه، صوت سيارته تغادر..

انزلقتْ على الجدار لتستقبلها الأرض ببرودتها وصلابتها، ضمتْ ركبتيها إلى صدرها ودفنتْ رأسها بينهما، أفكارها في حالة استنفار لحرب.. هي ليست ضعيفة.. ليست خانعة..

لن يوهنها عشق، لن تدفع ثمنه من قلبها وروحها..

مرتْ نصف ساعة حسمتْ خلالها أمرها، نهضتْ من جلستها بآلية باردة.. تناولت حقيبة سفر متوسطة الحجم، رتبت فيها بعض ثيابها وجرتها خلفها حتى توقفت عند بداية الدرج..

لقد كان هناك!..

الآخر الذي ترتجف قسرًا في حضوره..

يتأملها بنظرة فاترة هي وحقيبتها ووجهها الحزين المبتل بأثر عبرة راحلة.. قطع طريقها لثوان تحرك بعدها يلتقط الحقيبة، ينزل بها الدرج ويتركها أسفله.. يرميها بعين لا مكترثة وتتوجه خطواته إلى المكتبة..

هبطت ببطء وفي كل خطوة كان هناك وداع..

تودع بسمة.. تودع عشقًا..

تودع راحة.. تودع أمنية وأملًا..

تودع الجدران والسقف والثريات الضخمة..

تزم شفتيها بحزم وتفتح باب غرفة الجد في الطابق السفلي، تدنو من فراشه بلمسة خافتة فوق كفه حين نومه:

- آسفة إني هاسيبك في وقت زي ده..

وصلها صوت زمور سيارة الأجرة التي طلبتها، فمضتْ إليها..

لن يعرف لها طريقًا..

حتى سيارتها ستتركها له..

سحبت حقيبتها وأغلقتْ الباب من خلفها، ألقتْ نظرة أخيرة على بيت ظنتْ فيه مملكتها ونعيمها؛ لتجد أن بعض الظن إثم!..

رحلتْ..

كلنا في العشق معطوبون..

مهما غنمنا من سعادة يظل ثمن القرب جرح..

مقابل الإفاقة طعنة..

لكن البُعد ذبح!..

(24)

الهروب خير وسيلة للنجاة، والموت غير بعيد!..

**

دعني أقترب..

أقترب كثيرًا؛ فربما حينها أجد سببًا يدفعني للابتعاد..

العشق مطاردة بدأها قلبها على أمل، تلاها هروب منه، هروبه الذي تستغربه وتحتار في تفسيره..

قبل يومين كان زيارة جدة صغيره وخالته، زيارة انتهتْ بكارثة إن جاز لها التعبير، يومها لمحتْ خلف أهدابه شبه المضمومة ما لم تفهمه، ما لم تسعَ لفهمه، خوفها تحكم وسيطر وطغى على المشهد فتجاهلته.. فرت من أمنية تتمناها، وتخشاها..

ترى انشغاله المفتعل، نومه على أريكة مكتبه بالليلة الأولى، لا يجاورها بالفراش، والحجة الحاضرة إنهماك في العمل حد الإجهاد وعدم الشعور بالوقت..

أما الليلة الثانية فجاور صغيره وعذره سقوطه في نعاس متعب دون وعي عندما كان يضعه بفراشه!..

لم تسأل..

حررته من أي ضغط قد تسببه أسئلتها المكبوتة بصدرها، اكتفتْ عيناها بتتبعه، بالاستفهام الصامت عما به!..

اكتفتْ بعتاب نظرتها، أوجعها جفاؤه، وتنائي نظرته عن لقائها..

حتى أن والدته انتبهت، تضايقتْ وأعلنتْ ضيقها بحزمها المعتاد حين نادته بغرفتها قبل موعد سفرها بساعتين:

- قدامي ساعتين يا عدي وأرجع المزرعة لجدك، ممكن أفهم في إيه!..

اصطنع الجهل بمغزى ما تسأل عنه، رفع حاجبًا ووضع كفيه بجيبي سرواله بهدوء:

- في إيه من ناحية إيه!..

اقتربتْ منه بحسم متضايق:

- ما تلفش وتدور عليَّ، أنت زعلان مع رهف!..

هذه المرة تظاهر بالدهشة، لوى شفتيه وجذ عنقَ حديثٍ يرفضه:

- أنا ورهف تمام يا أمي، مجرد شغل محتاج أركز فيه..

سبرتْ أغواره بنظرة أشاح بوجهه عنها فأعاته إليها بحنو:

- أنت بتهرب منها..

قررتها حقيقة، واقعًا ينفيه.. يحتج عليه ويشجبه، يأبى التسليم له حتى أن حنقه اتقدت شرارته بنبرته وهو رجل نادر الانفعال:

- أهرب من مراتي!..

لم ترتجع عما تنتويه، ربتتْ على ذراعه برفق وحافظت على العاطفة بصوتها:

- تهرب من مشاعر اتحركت جواك ناحيتها..

تصلبتْ عضلاته تحت لمستها واستشعرتها، تأكدت من صدق حدسها..

تلك النظرة بعينيه.. التيه.. الغياب..

الهروب والتباعد وشيء من غضب مفزوع كأنما يستكثر على قلبه نبض العشق..

كأنما يتمكن منه لأجله الهلع..

لكنها لم تتوقع ردة فعله على تخمينها.. ضحك!..

ضحك بقهقهة مستهجنة، حرر يديه من جيبيه ولوح بهما في غير تصديق:

- مشاعر!.. وباهرب منها!.. وفجأة!.. مش شايفة إن الموضوع كده خيالي شوية يا أمي؟..

نفت بثبات واثق:

- مش فجأة، رهف مراتك من شهور.. واللي يقرب من رهف لازم يحبها..

ثم تعمقتْ بالنظر داخل مقلتيه الداكنتين، تغوص فيما خفي عليه هو نفسه:

- أنت ما شفتش كنت بتبص لها إزاي اليومين اللي فاتوا!..

بعدها تنهدت بصبر مع انعقاد حاجبيه والاستياء الذي خط ملامحه بقسوة صريحة:

- أنت عارف إنها بتحبك..

قسوة اختار تحريرها أو تفجيرها، ولينل من شظايا انفجارها كل من حوله لن يبالي، تراجع عن مرمى يدها التي تلامس ساعده، أظلمتْ نظرته واحتدتْ لهجته بفظاظة:

- أنا ما أجبرتهاش تحبني..

تصلبتْ الكلمات على طرف لسان والدته للحظات، لقد ظنت أن قلبه قد مال لزوجته العاشقة.. لا، هي تدركها وتؤمن بها.. فلمَ الجدال والممانعة!..

شدت قامتها وأكسبتْ لهجتها هي حزمًا أموميًا:

- بس دخلتها حياتك..

- باختيارها..

- وباختيارك!..

أمالتْ رأسها تهديه نظرة حانقة:

- دخلتها حياتك ليه لما أنت مشاعرك مقفول عليها بقفل مالوش مفتاح!..

رد ببرود قارص قبض قلبها:

- كنت عاوز أم لابني..

وأردف بوقاحة كادت تصفعه عليها:

- وعاوز زوجة، ست.. زي أي راجل مش أكتر..

شعرتْ بحمرة غضب تكتنف وجهها وعينيه، عرق جبينه النابض وعقدته الساخطة، يكبت هياجًا وزعيقًا.. وألمًا!..

زمتْ شفتيها تأمره باستنكار:

- خد بالك من كلامك يا عدي..

طحن أسنانه بصرير وصلها مكتومًا، ضم قبضتيه حتى كاد جلد كفيه يتمزق، أهداها نظرة ناقمة واستدار خارجًا من الغرفة..

لكنه اصطدم بها..

الباب الموارب نقل ما لا يعلمه مما دار بينه وبين أمه لها!..

لمح صدمة نظرتها، اللمعة الدامعة التي برقت بين جفنيها، رجفة الشفاه والجسد، العتاب والوجع والحزن..

لمحه كله في ثلاث ثوان تخطاها عقبها بشبه ركض..

يلعنها ويلعن قلبه واختياره الذي أسقطه في لُجة بحر لم يخُض غياهب موجه من قبل.. لا يريد أن يفعل..

إن كانت تلك التي ماتت عنه لتهديه طفله، لتربط بين قلبها وقلبه بما ظنته رباطًا لا ينفصم، لتغدق عليه بسعادة أبوة..

إن كانت هي لم تحظَ بنبض فؤاده.. فلن تمتلكه أخرى!..

لا يحق له، أو لها..

هو الملوث بذنب لن يغفره لنفسه، لن يغفره له ولده، ذنب يشيع بضباب الوحدة والوحشة بروحه لتضل بين جنبات الاستسلام لها، والخضوع لقسوتها..

هو رجل العشق له رفاهية لا تحل لقلب، ولا تباح لعقل..

أغلق على تشوشه باب مكتبه، ارتمى فوق الأريكة بإرهاق، وذنب يحتله تجاه من تحمل له بقلبها الكثير ، ذنب ينهش داخله بعذاب..

هل كُتِب عليه أن يؤذي كل امرأة تمر بعتبات حياته!..

يوجعها!..

يذبحها!..

كُتب عليه أم كان اختياره!..

امرأة لم تمنحه وابنه سوى الدفء والحنان والعاطفة.. كل عاطفة!..

امرأة تجمدتْ بوقفتها حتى لمحتها أمه، تفاجئتْ وتأملتها بأسى، تأملتْ تشتتها، ضياعها، رحيلها خارج حدود الزمان والمكان كأنما احتجزتها غلظة ما نطق به في بُعد موازٍ وحدها دونه..

تحركتْ تسحبها من يدها، تعود بها لغرفتها، تربت على كفها بين يديها وتهديها رأفتها وتفهمها:

- ماكانش المفروض تسمعي كلام زي ده..

تراجعتْ عبراتها تجاور نزيف جرح العشق بالخافق الملعون بحبيب جامد المشاعر..

جامد معها، لا أحد سواها!..

تماسكتْ، فركتْ كفيها بتبرير واهٍ مرتجف النبرة والنظرة:

- هو معاه حق، أنا اخترت ولازم أتحمل نتيجة اختياري..

جذبتها لتجاورها على طرف الفراش، تحتوي ألم عينيها الواضح بعطف:

- هو كمان اختار يا رهف..

وابتسمت بشجن شارد غمر حروفها:

- عدي مختلف، قلبه دق ليكِ..

انتزعها التقرير بحديث والدته من ضياعها، من شرودها في حياة اختارتها والندم لن تضعه بحسبان امرأة مغرمة، بينما الأم تكمل بلين مشفق واثق:

- عدي عمره ما كان كلامه عنيف أو خارج أو صوته بيعلا عليَّ..

بإثرها رمقتها بلا شعور محدد، كانت غامضة كابنها تمامًا قبل أن تضيف بحزم:

- ابني متغير..

وتحشر بعقلها الحقيقة الوحيدة التي تراها، تصدق فيها وإن كان يعلن هو احتجاجه عليها:

- جواه مشاعر اتولدت ليكِ بس مش قادر يستوعبها..

ترقبت "رهف" تتمة كلماتها برعشة تتحكم بكيانها كله..

أتراها واثقة!..

أتراها تعي ما يخفيه صغيرها وإن كان هو لا يعيه!..

سمعتها تكمل برقة شاردة، حائرة:

- مرتبك، خايف منها.. حاسس بالذنب يمكن..

همست جملتها الأخيرة بخفوت لا يحتاج لتحليل أو شرح، تلو ذلك علا صوتها ببأس، يتخلل ضعفها فيعيد بناء أساسه متينًا قويًا، حصنًا منيعًا يليق بالعاشقة ومعشوقها:

- دورك يا رهف إنك تدي له الثقة في مشاعره، تتحملي تردده وخوفه وما تبخليش بمشاعرك لحد ما هو يكون شجاع كفاية ويصرح بيها..

تنهدتْ بعسر، بشبه اختناق وأنفاسها تتحرر من صدرها متقطعة، مجهدة..

تعترف، وتذعن لما تدركه بخافقها:

- أنا بحبه..

انحنى طرف ثغرها بقنوط، تاهتْ في مجهول تعلم عنه ما دون الصفر:

- وهافضل أحبه.. هاشيل مسؤولية اختياري له..

كادت والدته تجيبها عندما أوقفها رنين هاتف الزوجة، أبصرتْ الرقم بتوجس، استقامتْ بتوتر مهتم:

- غزل!..

.....

بعد نصف ساعة كان يتجه لغرفتها بخطوات مترددة، آذاها وأحزنها وهي من كانت في ظهره حامية تدافع عنه بشراسة..

لم يعتد مقابلة الإحسان بالإساءة، لذا عزم على الاعتذار.. فتح الباب ودلف للداخل فكانت الدهشة من نصيبه..

رآها تقف جوار الفراش، ترتب بعضًا من ثيابها بحقيبة سفر فجرتْ جنونه:

- أنتِ بتعملي إيه!..

انتفضت إثر زعقته..

رأت الغضب!..

غضبًا نقيًا خالصًا خصها به.. حاصرها بلهيبه..

نبض القلب بغتة بحماقته المعهودة، لكنها ألجمتْ دقاته العنيدة، استدعتْ كل ثبات ممكن واستمرت بعملها:

- هاسافر مع ماما راوية المزرعة عند جدو قاسم..

خطا إليها بهرولة، قبض على مرفقها وقربها منه بغلظة:

- ده كان اتفاقنا من الأول يا رهف، ما تطالبيش بحاجة أكتر من اللي وعدتك بيها..

أغمضتْ عينيها بصبر.. تفكر كيف يمكنها السكون بوجه عاصفته السوداء التي لا تلمح منها أي أمل!..

أمه ترى حبًا وليدًا، وهي تخشى على ما بقلبها هي..

حررتْ يدها منه، تباعدتْ واستدارتْ تنهي عملها بجمود بارد:

- أنا ما أخليتش باتفاقنا..

ضرب الحقيبة بيده فكاد يسقطها أرضًا، يبعثر ما بها ويبعثرها معه:

- أمال ده معناه إيه!..

توقفت لهنيهة عما تفعل، التفتت إليه وأخبرته باختصار عن مكالمة صديقتها، ابنة عمه.. عن رغبتها في الإقامة خلف أسوار مزرعة الجد لفترة حتى تقرر ما ستقدم عليه، وحاجتها إليها!..

ضغط شفتيه بين أسنانه، مسح وجهه بكفه وزفرة حارة بها شيء من راحة تحرق صدره:

- تمام، هاعدي على المصنع قبل ما نسافر أسيب ورق الـ....

- أنت مش مجبر تيجي معانا..

حجمتْ بها رغبته في قربها.. لا تريده حولها، لا تريد أن تشهد على ضعفها في أرض هواه، هي جندي مهزوم أمام مقاتل شجاع، رباطة جأشه من صلب لا يلين..

لم يكترث لاعتراضها، بل بدا أنه حتى لم يسمعه، استدار عائدًا من حيث أتى وآخر كلماته آمرة:

- حضري لي شنطتي معاكِ..

تابعت انصرافه بهزة شملت جسدها وقلبها..

عطره الذي تحفظ تفاصيله، وترك أثره بالمكان، نظرته المبهمة التي لم تُحِط بمقصدها علمًا.. قراره بالتواجد معها، قربها..

كل ما يمكن أن تخشاه امرأة عاشقة، وكل ما تتمناه!..

العشق ألم مكبوت.. حرب باردة..

ثورة منحورة في المهد..

**

هو منقوش فوق جبينه "خاسر" بأحرف كبيرة..

رجل يلعب على وتر الألم معزوفة شجن..

فطرته فقد..

حياته فقد..

وخوفه فقد..

هو رجل لم يكتمل انتصاره أبدًا..

رجل عالق في المنتصف؛ بين التشبث بلعنة الوحش والاستسلام لسحر العشق..

رجل يتلاشى مذاق نصره في علقم الهزيمة..

خسر كل حب مر به طوال عمره..

الحبيبة.. التوأم..

والزوجة التي تريد الفرار بما بقي في قلبها من نبض..

تريد الفرار بقطعة منه!..

أبدًا لن يسمح لها، لن تكون إلا له.. لن تنتهي سوى معه.. لن يكتمل سرده دون حروف حكايتها.. وإن أرادتها حربًا فمرحبًا بها فوق أرض معركة لن يفر منها مهزومًا..

قاد سيارته لأبعد مكان، عند بداية الطريق الصحراوي الموصل للأسكندرية أفلتَ المكابح وضغط دواسة الوقود بأقصى قوة متاحة..

فتح كل النوافذ وترك هواء الخريف البارد يلسعه.. يؤذي عينيه وبشرته.. يُصفر كرياح عاصفة بأذنيه..

كان يحتاج لغفوة بعيدة كل البعد عن ألم يطحن عظامه.. يهرس قلبه.. ذلك التشتت، تلك الحيرة.. الجنون والغضب..

حنظل خسارة مُعاد ومُعاد في ظاهرة ديجا فو مفزعة..

محشور هو بين مطرقة النار وسندان السيطرة على الحريق الوشيك..

زوجته تريد الفراق، تطالب به.. تظنه سيذعن!..

كلا.. سيلوي ذراعها بأحقر وسيلة لأهم غاية، بل سيكسره..

ابنها وهي..

هل تعتقد أنه سيخاف اسم عائلتها أو علاقته معهم بسوق العمل!..

كلا ثانيةً.. هي لم تتعامل مع رعونته وطيشه من قبل..

لم تقابل الوحش الكامن تحت جلده وإن أبرز لها مخالب قسوته مرتين.. لم تقرأ وثيقة تعاقده مع الشيطان إن لزم الأمر ولم تره وهو يلعب بقذارة!..

هي لا تعرفه.. لا تعرف عنه أي شيء..

ترى فيه فارسًا ولا تدرك أن زمن الفرسان قد ولَّى.. أن الفرسان لا يولدون بقعر الجحيم.. لا يحترقون في لظاه حتى الفناء..

أنهى سباقه مع نفسه وعاد للمنزل، الشمس أوشكت على الشروق والبيت هادئ كما هي العادة..

صعد لجناحه وفي نيته استعادة السيطرة..

سيعنفها قليلًا..

يدللها قليلًا..

ويقبلها كثيرًا ثم تنام بين ذراعيه وتنتهي تلك المهزلة العاطفية..

لكن المفاجأة كانت من نصيبه؛ حياته لم تكن هناك!..

فتش عنها في كل ركن، ناداها، زعق باسمها، سبَّها ولعنها، توعدها وأقسم أن يقتلها..

عند خزانة الثياب لمح الفراغ الذي تركته خلفها..

هربت منه!..

غادر الغرفة راكضًا يهبط الدرج وزعيقه لا يتوقف في وقت غفلة الجميع، ندائه الملهوف، لهفة شابتها رجفة خوف..

لقد منحته الخوف، وكرر يمينه بالقتل..

على صوته خرجت زوجة أخيه من غرفتها تهرول خلفه، تناديه بجزع وملامحه الشيطانية تدفعها للوراء مع نظرته الشرسة التي أرعبتها.. لم تره هكذا أبدًا!..

- فين غزل!..

هزتْ رأسها بحيرة نافية:

- ماعرفش، هي مش فوق!..

صياحه يكاد يصم أذنيها:

- لأ.. هربت وخدت شنطة هدومها..

رفع هاتفه يضغط اسمها، يأتيه الرنين فينبض خافقه بأمل..

أمل انكسر في اللحظة التالية حين انقطع بصوت انشغال الخط، وعند التكرار وصلته الرسالة التي أججتْ جنونه فبات هو المنبع والمصب..

"الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا، من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق"..

لا.. صرخ بها طويلة ممتدة، احتدمتْ بها أنفاسه قبل أن تحاول "شمس" تهدئته بعسر:

- يزن من فضلك اهدى، طيب هو حصل بينكم حاجة!..

رمقها بنظرة نارية اخترقتْ جسدها برعدة قبل أن تستفسر باهتمام حزين:

- أنت زعلتها!..

- ولو زعلتها!.. تهرب مني!..

يتردد صراخه، ترفع يديها في مواجهته بطمأنة:

- ما تسميهاش هروب.. يمكن راحت عند أختها ترتاح يومين، مستنياك تصالحها بعدين هترجع..

دار حول نفسه باختلال.. ثم توقف بغتة وسألها بعين جاحظة:

- ما شفتيهاش وهي ماشية!.. عربيتها برا..

نفتْ بصمت لكن الرد أتى من وراء ظهره.. بالتحديد من عند باب مكتب جده حيث وقف الأخ الأصغر بنظرة باردة:

- أنا شفتها..

استدار إليه بلهيب يندلع من مقلتيه:

- وما منعتهاش ليه!..

هز "يعقوب" كتفيه ببديهية لا مكترثة:

- أمنعها إزاي!.. أقفل الباب بالمفتاح مثلا!..

رمقه "يزن" بنظرة حاقدة كارهة.. فاقدة للأمل:

- مافيش فايدة..

بعدها انطلق كرصاصة عائدًا من حيث أتى..

سيجدها، لن تختفي من على وجه الأرض لذا فمحطته الأولى منزل شقيقتها والبقية تأتي.. أما من تركهما بعد رحيله فقد كان الوضع معهما مغايرًا..

عاتبته بعينيها ليجيبها هو.. بغمزة!..

غمزة ماكرة عابثة منتشية كأنما يسعده ألم أخيه وخسارته..

لقد تبدل تمامًا؛ يبدو وكأن أوجاع عائلته تمنحه مخدرًا عنيفًا يسري بدمه فيعيد إليه الحياة.. يمنحه النشوة مرة بعد مرة..

دلف للمكتبة من جديد فلم تتركه، تبعته وقلبها ينتفض بشجن:

- لسه ما شبعتش!..

استدار إليها باستفهام شبه مهتم؛ أوضحتْ بقنوط:

- من وجع عيلتك..

اقتربتْ تعتصر يديها كأنما تقبض على وجعها الخاص:

- من عقابك ليهم على ذنب مالهمش يد فيه!..

رفع حاجبًا ساخرًا، واستند للمكتب في استرخاء، بينما يعقد ذراعيه أمام صدره:

- أنا عملت إيه دلوقتِ!..

ثم لوح بكفه باستهجان:

- كنتِ عاوزاني أحبسها مثلا لحد ما هو يرجع!..

تلعثمتْ لوهلة قبل أن تفتش بقلبه عن نقطته البيضاء التي اعترف بوجودها:

- كنت تحاول تصلح الموقف..

جاور الاستهجان تهكمًا قاسيًا وهي تكمل بأسى:

- على الأقل تسأل مالها ورايحة فين!..

انحنى فمه ببسمة جليدية كصقيع وحدته التي لا يشاركه فيها أحد:

- ده مش اختصاصي يا شمس..

اعتدل يلتقط الكتاب الذي كان يقرأه، يغلقه ويعيده لرفه بالمكتبة الضخمة:

- بعد تفكير اكتشفت إني ماكنتش محتاج أشتت يزن وأبعده عن مراته..

ندتْ عنه ضحكة خافتة مبتورة تفيض بالسخرية:

- هو كان كفيل بالموضوع، وتممه على أكمل وجه..

تبعته تقف في ظهره، نبرتها تختنق.. تيأس.. تزفر معها بحرارة:

- أذاك في إيه أخوك كمان!..

التفتَ إليها بنظرة قاتمة لم تُخِفها كما اعتادت:

- يزن زيك اتحرم من أبوه، برده سابه هو ويامن وهما لسه مولودين عمرهم شهور..

مط شفتيه بلامبالاة:

- أنا ما قلتش إنه أذاني..

ثابت لطرف شفتيه تلك البسمة الوحشية التي تُرهبها قسرًا:

- وأكيد مش هاكون حاقد عليه عشان هو رغم الحرمان من الأب عاش في نعيم وأنا...

رُغم الرعشة التي مرت بجسدها اقتربتْ، تتحدى خوفها..

تتحدى جموده وقسوته..

تتحدى ثباتها في مواجهة عينيه..

تخوض معه ذات الحرب على نفس الجبهة المشتعلة كأتون مُهلك:

- أنت إيه!..

كما توقعتْ.. صمت، لم يجِبها..

غاص بعينيها بصلابة استشعرتها ظاهرية.. هي رأت ما خلف القشرة، رأت وتصر أن تكسرها.. مدت أناملها تلامس وجنته:

- مش ممكن يجي وقت تتكلم فيه عن كل اللي مسجون جواك!..

أبعد يدها بهدوء أقرب للبرود:

- لأ..

- ليه!..

مال يهيمن عليها كما يفعل كلما احتل أفق بصرها، كلماته تخرج محملة بأنفاسه المضطرمة كسعير هو ملكه المتوج:

- لأن الكلام عن الوجع بيخفف الألم، الكلام عن الحزن بيخليه باهت.. بيرميه في خانة الذكريات والحياة بعده بتستمر..

لم تبتعد.. قهرًا انتفض قلبها بصدى وجعه المكبوت:

- وأنت مش عاوز ده!..

استقام يشد قامته بحزم صارم لا يقبل الجدل أو المفاوضة:

- أنا هافضل عايش بالجرح لحد آخر لحظة في عمري يا شمس..

لم تبتعد.. لن تبتعد..

تحركت تضع كفها فوق صدره، تستشعر نبضه الخامد، نبضه الأقرب لرجل موشك على الموت:

- أنت كده مش عايش..

تحكم بكفها بقبضة فظة وازت غلظة نبرته:

- مش عاوز أعيش لو تمن الحياة دي نسيان..

دفعها عنه ورحل يهجرها وراءه، تتابع أثره كدخان لن تنطفئ نيرانه أبدًا:

- مافيش حاجة تستاهل التمن ده..

تتابعه بحيرة.. بتشتت..

بألم وليد روح نقية غرقتْ معه في محيط ألمه المدفون بمقبرة روحه هو.. تشتهي منه البوح، تدرك أن البوح هو بداية الشفاء!..

لكنه أدمن داءه حد الموت..

والميت لا يعود للحياة..

**

عالمه كله يحترق..

أجادت الهروب، لكنه سيجدها وإن دفنت نفسها حية بتابوت فوق سطح القمر.. هاتفها المغلق لن يوقفه..

كتب أحرفه الأخيرة في رسالة من قلب الجحيم..

"قسمًا بالله ما هارحمك يا غزل"..

لم تكن ببيت أختها، ولا تعلم تلك الأخيرة عنها شيئًا.. بل زادتْ الطين بللًا بأن عنفته وهلعتْ مع فرارها منه..

انتصف النهار.. اقترب الغروب..

لم يجلس للحظة، قبل ساعتين كان يقتحم المكتب الخاص بأمن المجمع السكني.. يوقف مديره بصرامة مخيفة:

- عاوز سجل كل العربيات اللي دخلت الكومباوند من إمبارح..

استقبله الرجل بحفاوة هادئة:

- يزن بيه.. ليه خير!.. في حاجة حصلت!..

- اخلص..

زاعقة وترت الرجل الذي يكبره بما لا يقل عن عشر سنوات..

استجاب له بصمت مع رؤية اشتعال ملامحه وعينيه، كان يبدو وكأنه على استعداد للقتل، وهو لا ينوي أن يكون الجثة الأولى في طريقه..

تفحص السجل الالكتروني، كاميرا المراقبة عند البوابة وانتهى إلى رقم سيارة "أوبر" التي أتى إذن دخولها باسم زوجته..

خرج من مكتب الأمن يرفع هاتفه لأذنه ولهجته المداهنة في المعتاد تحتد بلا إرادة:

- فارس باشا، معاك يزن أبو الغار...

صمت لثوان يستقبل ترحيب الرجل.. لم تكن به طاقة، والآخر في رتبة صديق لذا قاطع حديثه دون كياسة:

- معلش عارف إني هاتعبك، هابعت لك رقم عربية أوبر عاوز أعرف خط سيرها من إمبارح بالليل لحد دلوقت!..

حل السكون مجددًا وعصبيته بدأت تطفو للسطح:

- هاقولك بعدين يا فارس، بس ده محتاجه ضروري وحالا... ساعتين!.. كتير، حاجة زي دي تعملها في غمضة عين..

زم شفتيه وأصابعه تعتصر الهاتف:

- تمام.. ماشي، هاستنى..

أنهى المكالمة القصيرة وأرسل إليه رقم لوحات السيارة، عاد للمنزل يدور حول نفسه..

بل يتوه في نفسه، في دوامة مشاعره المستعرة..

سيعتصر عنقها حتى الموت ما إن يراها..

لا.. ستنجب صغيره أولًا بعدها يقتلها، ويحييها ثم يقتلها..

تبًا.. لقد أصابته لوثة بسببها..

هي ليست مجرد امرأة؛ هي زلزال.. عاصفة اقتلعته من جذره الثابت وألقت به في غياهب التيه..

تركته ضائعًا في "لابيرنث" أسطورية عتيقة لا نجاة من الموت في ممراتها..

مر الوقت ببطء، قاربتْ الساعتان على الانتهاء وفكرة ما تنبت بذهنه!.. "عدي درويش"..

ارتفع رنين هاتفه ففتح الخط دون نظر:

- فارس!..

وجم يستمع للطرف الآخر:

- معاك عدي درويش يا يزن..

ارتجفتْ يده بلا وعي.. هي عنده كما خمن قبل ثوان:

- أنا بس حبيت أطمنك على غزل، هي مع رهف دلوقتِ..

لم ينتظر مزيدًا من معلومات، أنهى الحديث بجملة قاطعة:

- مسافة السكة وأكون عندكم..

- إحنا في المزرعة!..

توقفت هرولته اللاهثة خلف ضياعها منه بوجوم مع البتر الذي أتاه من ابن عمها ونبرته الحازمة.. نبرة لم يستسِغها، لذا لم يعلن اهتمامه بما قال، بل عدل كلماته بينما يغلق الخط:

- عارف العنوان..

قبل أن يتوجه لسيارته ركضتْ خطواته لغرفة جده، واجه حيرة نظرته والسؤال الصامت بها بغضب مكبوت:

- غزل هربت بابني، سابت البيت..

تبدلت الحيرة في مقلتي "يونس" للوم لم يتحمله فجهر بصوت مشروخ زاعق:

- مش هارحمها، هارجعها ولو غصب عنها..

لم يتغير اللوم، بل زاد بهمهمة غير واضحة لم يهتم لها الحفيد الهائج:

- انا مش زيك ولا زي ابنك..

وخنقه بنظرة شرسة حاقدة مباغتة لم يفهم لها القعيد سببًا حاليًا:

- لا هاسقط على ابني عقدي ولا هارميه وأهرب..

ثم تراجع خارجًا باندفاع:

- هاجيبها..

كان يعرف عنوان مزرعة وجنائن الموالح بحكم تعاملهم السابق مع الفندق الذي اعتاد إدارته..

الطريق ما يقرب من ساعتين ونصف قطعه هو في ساعة وأربعين دقيقة.. خرق كل قوانين المرور المتاحة..

عندما حل الليل كان يقف بسيارته خارج البوابة المعدنية الضخمة في انتظار السماح له بالدخول.. ولم يأتِه الإذن!..

تأخر لعشر دقائق لمح في نهايتها "عدي" يتجه إلى سيارته بخطوات ثابتة، يجاور نافذته بوجه متجهم ونظرة باردة، يخبره بحزم:

- كان المفروض تديني فرصة أكمل كلامي قبل ما تسوق لحد هنا..

ترجل من السيارة يواجهه باندفاع:

- فين مراتي!..

أومأ "عدي" برأسه في إشارة مبهمة إلى ما خلف أسوار المزرعة:

- مع والدتي ورهف جوا..

- عاوز أشوفها..

زفر "عدي" والنقطة الفاصلة يحين أوانها، وإن كان لا يكترث له بعدما علم شيئًا مما حدث:

- هي رافضة يا يزن..

قبل رد منه رفع كفه في وجهه بثبات:

- أيًا كانت تفاصيل اللي حصل بينكم، هي محتاجة وقت.. اسمح لها بيه وبعدها هاحاول أقنعها إنك تقعد معاها وتتفاهموا..

سخر "يزن" بحنق محتد:

- تحاول!.. دي مراتي، ماحدش يقدر يمنعني عنها..

بادر "عدي" بنبرة جادة ونظرة صارمة شابها شيء من غضب، هو بهذا التوقيت لا يتحمل هروب عاشقة أخرى ومطاردة رجلها لها:

- مادام لجأت لي، ومادام هي حاليا في بيتي.. يبقى حدودك تقف عند الخط اللي أنا أحدده..

راقب انزعاجه.. زمة شفتيه، استعار عينيه، قبضتيه المضمومتين وتشنج جسده..

كان يفهم بحكم كونه رجلًا لن يكترث لعالم بأكمله يقف في طريق بينه وبين زوجته حتى هي نفسها، لكنه هنا حاميها.. المسؤول عنها؛ لذا المسألة لا تقبل النقاش أو التساهل..

ربتَ على كتفه بهدوء لامبالي:

- سيبها دلوقتِ وهابلغها إنك جيت..

بعدها ببساطة مثيرة للحنق أدار له ظهره وعاد يعبر البوابة..

شاهدها تُقفل بتلكؤ مغيظ كأنما تضغط أعصابه أكثر.. رأى جسده يختفي.. الحاجز يُبنى بينهما، يُشيَد بقسوة لن يتحملها..

عاد بغتة خلف مقود سيارته، وبلا مقدمات كان يقتحم البوابة التي لم تنغلق بالكلية بعد.. حينها حلت الفوضى..

شهقات رجال الحراسة واندفاعهم في تشتت..

مقدمة السيارة التي تحطمت تمامًا..

انفجار الكيس الهوائي بوجهه، اصطدام رأسه بالزجاج الجانبي عن يساره فزين جبينه بجرح شبه عميق..

وخطوات تسارعت عائدة من "عدي" حيث ذلك المجنون فاقد الأهلية والسيطرة..

خطوات تخرق الأرض عندما تحط فوقها، لقد وجد منفذًا جيدًا للغاية لتفجير المكبوت بصدره!..

راقب رجاله يتحكمون به رُغم هياجه وزعيقه، منعهم وواجهه بصرامة معنفة:

- أنت واعي للي عملته!..

أمسك "يزن" بقبة قميصه غير مكترث لدوار ألمّ به:

- ماحدش هيمنعني عن مراتي..

دفعه بكل ما بقي في جسده من قوة، تخطاه إلى ما خمن أنه المنزل رغم وجود عدة مبانٍ عن بُعد تتقدم الأشجار الكثيفة..

قبض "عدي" فوق كتفه بقسوة يجبره على التوقف:

- الزم حدودك يا يزن، أنت في بيتي واقتحمت المكان كأنك مجرد بلطجي.. ممكن أقتلك في مكانك وماحدش هيحاسبني..

استدار إليه "يزن" بلا كلمة، فقط لكمة استهل معها عراكًا ينشده..

لكمة عنيفة زين بها فكه واندفع لها الرجال يحاوطونه مجددًا، نهرهم سيدهم واتقدتْ عيناه بنيران اشتعلت قبل ساعات وحان وقتها لتجد ما تأكله:

- لأ..

وقف يشد قامته، يواجهه بصلابة في إعلان لمعركة على وشك البدء!..

صد لكمة ثانية تلقاها فوق ساعده ثم دفعه بقوة فتعثر "يزن" مع دواره ليسقط على ظهره، جاهد للنهوض لكن "عدي" بتر تلك الفرصة حين انكفأ فوقه يحجم جنونه المؤقت، يهدي وجهه لكمة قاسية.. يقلبه على بطنه بحركة حادة مفاجئة ويسيطر على عنقه بذراعه، يعتصره في شبه اختناق:

- اللي بتعمله ده مش هيوصلك لحاجة مادام قرارها إنها ما تقعدش معاك، وهابيتك في السجن الليلة دي يا ابن أبو الغار..

حرر شياطينه..

كانت أنفاسه تتحشرج بالفعل، الظلام يحاوطه في مقدمة لفقدان الوعي.. لكنه لم يستسلم، لم يكترث لتهديد، دفع برأسه للوراء بغتة في حركة عنيفة أصابت أنف "عدي" فتأوه بسباب مبهم بينما يطلق سراحه بعض الشيء وخيط رفيع من الدم يسيل منها تجاه شفته العليا..

رد الضربة بصدم جبهة الغاضب في الأرض ليضاعف من شعوره بالدوار.. همس في أذنه بانفعال شبه صارخ:

- اهدى يا يزن وإلا مش هتشوف طرفها..

أوقدت الكلمات جحيمه أكثر، لم يهدأ.. أنَّى له أن يهدأ..

تهرب منه، تحتمي برجل غيره.. يمنعها عنه، يطالبه بالتروي والهدوء وبذات الوقت يجثم فوقه كجبل!..

اللعنة عليهم أجمعين.. سيخنقها حتى تلفظ آخر أنفاسها بين يديه..

انقلب بغتة وطاقة الغضب تتجدد في خلاياه، تدفع بالأدرينالين في عروقه.. استقام واقفًا يحني جذعه، يسدد لـ "عدي" لكمتين متتابعتين بفكه وأنفه المكدوم..

يجذبه ليقيمه ويده تقبض على ياقته بقسوة ضاقت معها حول عنقه:

- عاوز مراتي..

يعيد.. يزيد.. يعلن الملكية والانتماء..

بأحرف مغموسة بالنار.. متقطعة.. شرسة، بل وحشية.. من بين أسنانه التي تكاد تحطم بعضها بعضًا..

ولم تتوقف الحرب..

خلَّص "عدي" قميصه منه ورد اللكمة بشبيهتها، لم يسقط تلك المرة.. تراجع خطوتين ثم كرر الهجوم..

يضرب صدره بعشوائية فتأتيه ركلة في معدته، ينثنى يحاوطها بساعديه وآهة ألم تخترق حواسه.. يكبتها بجلد ويعاود الوقوف..

كانت حربًا صغيرة بين الأجساد، ضروسًا بين القلوب.. ولكل قلب حجته وألمه..

في لحظة تباعُد دون اشتباك نهره "عدي" بحزم صارم:

- مش كفاية كده!..

ليأتيه الرد بتجدد القتال.. استمرت المعركة في نزال شبه متكافئ، حيث أن هياجه منحه اليد العليا عدة مرات ودواره مع صدمة رأسه أوهنته مرات تالية.. استمرت حتى انتهى الاثنان ممددان على الأرض، منهكان في انهزام بجروح وكدمات عدة.. الرجال من حولهم في حلقة واسعة تنتظر إشارة من السيد للتدخل..

مرتْ خمس دقائق وهما بذات الوضعية على مسافة غير بعيدة.. خمس انتهت باعتدال "عدي" في جلسة مترنحة وغشاوة سوداء تظلل الأفق أمام ناظريه وإن لم تتأثر بوهنها نبرته:

- ارتحت كده!.. خرجت كل الغضب اللي جواك!..

والسؤال كان لنفسه قبل الراقد قربه، لكن الآخر لم يكن قادرًا على الحراك.. بدا وكأن طاقته قد نضبت بغتة فسقط كقطعة من حجر أصم بمكانه..

عيناه شاخصتان نحو السماء المظلمة وقلبه ينبض بخبال، أنفاسه في صراع ومخاوفه كلها تصفع وجهه في لحظة.. مخاوفه التي دفنها منذ زمن سحيق وظن أن البعث لن يكون سوى يوم الحساب..

ربما هذا هو يوم حسابه!..

- لولا إنك جوز بنت عمي كان هيبقى لي تصرف تاني معاك يا يزن..

زحف إليه يقبض على كتفه بشيء من قواه الباقية:

- قوم روح.. ولا تحب تقضي الليلة متكلبش!..

لم تتبدل ملامح الراقد بمحله مقدار هفوة..

كان شاردًا ومزيج غريب من القسوة والضعف يختلطان في فؤاده..

يود لو قتلها، ويشتهي ضمتها..

يريد صب كل اللعنات فوق رأسها، ويهفو لطمأنة قلبها ومنحها أمانه..

اعتدل قليلًا يمسح خيطًا من الدماء جوار شفتيه، تحرك بلا وعي تجاه سيارته وهو على مشارف السقوط..

تابعه "عدي" لثوانٍ وشيء من مؤازرة ذكورية يتسلل إليه، شتاته، غضبه، ضعفه وجنونه.. كلها تشبه ما بنفسه!..

نادى أحد رجاله فأمره بدعمه حتى إحدى السيارات التابعة له، أجلسه في مقعدها الخلفي فبان لعينيه كجثة فاقدة للروح..

تأمله قليلًا بعدها أخبر رجله:

- وصله لحد بيته واطمن عليه..

وأشار نحو السيارة المحطمة مخاطبًا واحدًا آخر إلى جواره:

- شوف العربية دي؛ لو دارت اطلع بيها وراهم..

انتهى اليوم.. انتهت اللحظة بأسوأ بتر..

لقد فقدها!..

.....

"عدي.. إيه اللي حصل!"..

تعدو إليه، تحتويه بعينيها قبل أن تمد أناملها إلى وجهه النازف المكدوم، تتوقف قربه، تعاتبه بلوم حزين:

- قلت لك بلاش تقوله على مكانها..

الأمر برمته لا يعجبها، لا يريحها، كل مخاوفها وتوقعاتها وصلت لحدود الأسوأ بنظرها..

لم تعلما بالمعركة التي دار وغاها عند بوابة المزرعة نظرًا لبُعدها عن المنزل، لكن صوت اصطدام السيارة بالمعدن الصلب كان عاليًا أجفل الاثنتين، الأم والجد..

حتى أن "غزل" كادت تندفع خارجًا لولا أن أوقفتها "رهف" بحزم قلق، تتبادل نظرة متوترة مع أمه وتبتهل في صمت.. ثم تقرر هي الخروج، تفتح الباب فتجد أحد رجال أمن المزرعة بوجهها، يمنعها برسمية:

- عدي بيه منبه ما حدش يخرج من البيت حضرتك..

اشرأبت بعنقها تنظر من فوق كتفه، البوابة بعيدة، الظلمة تسبق النور، والرؤية عسيرة.. عادت تغلق بابها، تستدير بقلب منقبض، تجلس في انتظار حائر.. تنتبه لوالدته تربت على كفها برفق مطمئن، ترتفع عيناها لجده فترى صلابة ملامحه ونظرته كأنما يعلم تفاصيل ما يجري ويثق بحفيده..

تطوف بنظرها في البيت الأنيق، ترمق الطابق الثاني بنظرة قلقة على صغيره النائم بغرفته بعد إجهاد السفر، وتغمض عينيها برجفة..

كان قرار زوجها لا يعجبها، ولا تعجبها حتى تلك الساكنة بوجوم فوق أريكة جانبية بعدما استجابت لمنعها لها وقبعت جامدة بالمثل، بقلق ينهش روحها، تنطوي على نفسها في وضع بائس لا يشبه جنونها في شيء..

تدَّخل الجد بصرامة يهدم شرودها في لحظات مضت، يستفسر عما جرى!.. أخبره باختصار دون تفاصيل مؤذية لعاشقته، أو عاشقة ذلك المجنون الراحل..

انقبض قلب أمه فدنت منه تتفحص جروحه حين عاتبته زوجته بنبرة مرتجفة بها لمسة من غضب:

- عاجبك اللي حصل ده!..

مع جروحه وبقايا النزيف التي جفت فوق جبينه وقرب أنفه أصابها الفزع..

"عدي.. هو كويس!"..

"أنتِ فعلا لسه مهتمة بيه!"..

من العاشقة الخاسرة..

والعاشقة المتمردة الأشبه بلبؤة شرسة تدافع عن صغارها..

زجر "رهف" بنظرة حازمة، وتوجه إلى تلك التي نهضت تتأمل نزفه:

- أنا آسفة بجد..

فنَّد أسفها بعملية تامة وإن مسَّها شيء من توبيخ يناسب جمود مشاعره:

- ما تتأسفيش، ده بيتك، وأنتِ هنا في حماية جدك وحمايتي، ومادام مش عاوزة تشوفيه يبقى مش هتشوفيه..

أهدى الواقفة جوارها نظرة لائمة:

- كان لازم أطمنه على مراته وابنه، ده حقه..

أشارتْ "غزل" لوجهه بلمعة دامعة عابرة:

- بس أنت...

رسم بسمة باهتة فوق شفتيه، بسمة لم تمحُ حنقه الواضح:

- هو كمان..

وضعت أناملها فوق فمها تكبت شهقة جزع، أتى الرد المغتاظ من زوجته التي شدت قامتها، عقدت ذراعيها أمام صدرها تحجب شفقتها قسرًا:

- هتخاف عليه، ما تقولهاش كده..

- رهف!..

وبَّخها بنداء حاسم، كان هي تكتم خوفها، تداريه خلف واجهة الحزن والسخط..

تحركتْ الضيفة نحو الغرفة المعدة لأجلها باعتذار مكرر، وجدها يتابعها بنظرة مشفقة:

- أنا آسفة إني حطيتك.. حطيتكم في الموقف ده..

رفعت عينيها لصديقتها، تنتقل ببصرها بين الجد والأم وبينها:

- آسفة..

هرولت إلى غرفتها تغلق بابها وتستند إليه.. تختنق بحزن أقرب لطعنة تنغرس بأحشائها..

تحبه.. تكرهه..

تعشقه.. تبغضه..

لم تعُد تدري ما تريد منه أو من نفسها، لكنها اختارتْ الفراق وستتمسك به حتى الرمق الأخير..

لم تختر الهروب حيث لا يجد لها أثرًا، بل اختارتْ سدًا منيعًا بينها وبينه إن وجدها.. لا تريد من يبعده عنها وحسب؛ بل ترغب فيمن يمنعها هي عن العودة إن حكم القلب!..

خطتْ للفراش تنسل تحت أغطيته بضعف، تضم نفسها وتشتاق عبق أنفاسه ودفئه يحاوطها..

هي امرأة فاشلة في الحب، مهزومة في الحرب..

تلعنه بكل لغة..

وتهواه بكل حرف من تلك اللغات..

سمعتْ الطرقة الخافتة عند الباب، كانت تعلم أنها ستتبعها.. لم تأذن لها و"رهف" لم تنتظر.. فتحته ودخلت، جاورتها في الفراش تربت على كتفها بحنو ولو كان وقع الكلمات قاسيًا:

- الراجل اللي يجبرك تدخلي في حرب على قلبه ومشاعره؛ ما يستاهلكيش يا غزل..

تحادثها، تلومها وتلوم قلبها ونفسها معها.. مسحت "غزل" عبرة أحرقتْ وجنتها بأطراف أناملها:

- مافيش حرب من الأساس يا رهف، أنا خسرت من غير ما أعرف إن في خصم مارفعش حتى سلاحه..

اعتصرت جفنيها بإنهاك وقلبها يرتجف بين ضلوعها، بينما كفها تضم موطن جنينها كأنما تستمد منه ثباتها:

- هو اختار، وأنا مجرد عقبة..

عنفتها "رهف" بنبرة تمازجتْ فيها العاطفة بالصرامة:

- يبقى أنتِ خسارة فيه..

تنهدتْ بحزن تتذكر هروبها بالمثل:

- قلت لك من البداية، الجواز مش مغامرة والمشاعر مش مضمونة..

ليت الحب بضغطة زر..

نضغطه فنسقط.. نضغطه فننجو..

ليته..

.....

تركتها بعدما غفتْ، عادت للخارج حيث زوجها.. طعنة القلب، جرحه ودواءه.. الوجع والسكن..

لمحته يلمس فكه، يخفي ألمه، يواجه جده بضيق مندفع جديد عليه:

- لو عاوزة تطلق منه هاطلقها..

رمقه "قاسم" بنظرة ثابتة رصينة لا تخلو من توبيخ:

- الطلاق مش هين يا عدي، دي أم ابنه.. لما الأمور تهدى هنفهم حصل إيه، والأولى بيك تصلح ما بينهم مش العكس..

تأنيب الجد ضاعف من حنقه، استقام يغادر بتمتمة شبه مسموعة:

- مايستاهلش حبها، مادام ما بيحبهاش..

تمتمة لم تصلها، لكنه قالها لنفسه.. أعادها وكررها عليها..

دخل لغرفته فتبعته، هي وحدها تدرك بعض التفاصيل وتشتعل لخاطرها.. وجدته بالحمام الملحق يجاهد لنزع قميصه وكتفه يؤلمه، يزم شفتيه، يسحبه بعسر حين اقتحمت الصورة، ساعدته في خلعه لتلمح الرضوض المتفرقة ببطنه وصدره، رمشتْ بألم وجذبته للغرفة، دفعته للجلوس فوق طرف الفراش دون كلمة..

اختفتْ لدقيقة عادت بنهايتها تحمل عُدة إسعافات، بدأت في تطهير جروحه بعد أن ناولته كيسًا مملوءًا بالثلج ليمرره على كدماته..

ببطء مرتجف نظفت وجهه، جرح شفتيه، أسفل أنفه وخدشًا ممتدًا من خلف أذنه حتى منتصف عنقه..

لم يبعد عينيه عنها، كان يفتش عن لقاء عينيها.. وكانت هي من اختارتْ فراق النظرة، تعانق ببصرها آلامه، كرمشة ملامحه مع حرقة المطهر، تفر منه وتبتعد قدر ما أمكنها..

انتهتْ، أغلقت الصندوق واستدارتْ تعيده لمكانه، استدارة أوقفها بيده، حاوط معصمها واستقام يواجهها، رفعت وجهها إليه.. ازدردت لعابها بمشقة، فتح فمه في محاولة لنطق اعتذار، توضيح.. تفنيد أو حتى انفعالٍ ما..

فتحه وأغلقه عدة مرات بلا جدوى، وهي انتظرتْ.. انتظرتْ وانتظرتْ حتى ملتْ، رمقته بخيبة أمل ثم رحلت عنه..

تركته يعاند نفسه.. يعاند قلبه..

يعاند حقيقة أوضح من شمس ظهيرة صيف حار، ويشجبها..

يعاند، ينتصر وتعلن المشاعر هزيمتها في معركة القسوة، حيث قلبه ليس من أهل العشق.. ولن يكون!..

**

الليل انتصف.. بدونها..

دون أنفاسها حوله..

دون عطرها ودفئها وهمسها وضمتها..

الليل انتصف وهو وصل بسيارة المزرعة للمنزل شبه محطم..

بل محطم..

محطم الجسد خائر القوى فاقد للهمة وروحه تصارع سكرة موت الفقد..

كل أفكاره غاضبة.. كل خلاياه غاضبة..

كل قطرة من دمه، تجوب أوردته وشرايينه.. غاضبة..

يريد قتلها.. يشتهي أن يزهق أنفاسها بين أصابعه..

لقد فعلتها، هربت.. هجرته.. وسرقت ابنه معها!..

سرقتْ أغلى قطعة منه..

سرقتْ وجودها من عالمه الذى اختلت روتينية دورانه دونها..

لن يرحمها، فقط لتقع تحت يده؛ حينها ستتوسله الغفران ولن تناله..

أغلق باب المنزل من خلفه بوهن، ارتكن إليه بتعب وكل عظمة في جسده تؤلمه.. دماؤه جفتْ فوق وجهه وبعض القطرات التي

تناثرت على قميصه.. خصلاته مشعثة متربة وساقيه لا تكادان تحملانه..

زفر بإنهاك، دار بعينيه في المكان الصامت.. لا تنبعث منه أضواء كثيرة، أخيه ربما في المكتبة التي يقضي بها معظم وقته مؤخرًا، زوجة أخيه في الغالب نائمة مع طفلها.. بهجة في غرفتها وجده بالطبع لن يتحرك لاستقباله..

وحدها أرادها، ووحده تركته..

مذاق الفقدان صدئ كمذاق دمائه بحلقه، مُر كمرارة وِحدة ألفها مرة بعد مرة.. عقب نبذه، إثر موت توأمه..

لاذع كقسوة تشربها قلبه قطرة قطرة..

"يزن!"..

رمش في محاولة لاستعادة توازنه وصوت "شمس" يصله ملهوفًا قلقًا، كما أتاه صوت خطوات هرولتها إليه.. تدعم جسده المتهالك فيكاد يسقطها معه، تسحبه نحو الأريكة العريضة بغرفة المعيشة بالطابق السفلي وتمدده فوقها.. يقع بإعياء مُجهد..

تفحصتْ وجهه المكدوم النازف بخوف:

- أنت كويس!.. إيه اللي عمل فيك كده!..

خرجتْ همسته محملة بكل أنينه.. أنين الجسد والروح:

- ابن عمها..

- غزل!..

وافق برفرفة من أهدابه، حتى الكلمات ثقيلة على أطراف لسانه.. هزتْ رأسها بيأس واعتدلتْ تنهض متجهة إلى المطبخ، تغيب فيه لدقيقتين ثم تعود مع صندوق إسعافات..

تجثو على الأرض جوار الأريكة بأسى، تبدأ في تنظيف جروحه:

- ابن عمها شلفطك بالشكل ده!..

نطقتها بدهشة هامسة فتنهد ببطء:

- دخلت بالعربية في بوابة مزرعته..

توسعتْ عيناها بذهول لم تستطع بعده سوى لومه:

- لما أنت بتحبها ومجنون بيها كده؛ بتزعلها لدرجة تمشي وتسيب البيت ليه!..

فرق جفنيه وقد كان مستكينًا مع طوافها الحاني حول جرح جبينه:

- بحب مين!..

تراجعتْ لحظة للوراء تتأمله برفض أمومي كطفل عنيد:

- هيكون مين!.. غزل طبعا..

قستْ نبرته فجأة رُغم إجهاده:

- أنا مابحبش حد.. أنا رُحت عشان ابني..

تبدلتْ نظرتها هذه المرة للاستنكار المستهجن، قررت عدم الجدال في حاله هذه:

- أوك.. اللي تشوفه..

ضغطتْ المطهر فوق الجرح بشيء من قوة آلمته فأجفل تحت يدها:

- شمس!..

- إيه!.. بتوجع!..

كانت ساخرة.. رفع عينيه إليها باستغراب:

- لو زعلانة عشان صاحبتِك؛ سيبيني أنا هاتصرف..

اعتدل بعض الشيء في محاولة للنهوض بترتها هي بينما تضغط كتفيه لتعيده لنومته:

- اهدى يا يزن.. غزل مش فوق عشان تطهر الجروح دي كلها، هتتصرف لوحدك إزاي!..

كأنما تصب المطهر فوق جرح القلب أيضًا.. قاسية!..

كلا.. هي ليست كذلك، تأمل ملامحها الناعمة للحظات صامتًا، خاضعًا للمسات أناملها:

- اتغيرتِ يا شمس..

توقفتْ لحظة استأنفتْ إثرها ما تقوم به بلامبالاة:

- ماحدش بيفضل زي ما هو للأبد..

مالتْ قليلًا تنحني عند رأسه بضيق:

- وأول حاجة بتتغير القلوب..

كاد يعترض لكنها أردفت بلا إبطاء:

- الجرح اللي في جبينك ده محتاج يتخيط، مش هينفع تطهير بس..

- لأ..

رفعتْ حاجبيها بدهشة مفتعلة جاوبها هو بحسم:

- خليه يفكرها بعملتها السودا دي لآخر العمر..

- ده على أساس إنها هترجع وتكملوا العمر سوا!..

نهض ثانية يبعد يدها بزمجرة متذمرة ساخطة:

- والله ما ناقصك يا شمس..

سخطه انتقل بعدواه إليها وهي تغلق الصندوق وتستقيم واقفة بنبرة جامدة:

- ماكانش المفروض توجعها مادام بُعدها بيوجعك..

جَمَد يراقبها تزم شفتيها بحنق صريح:

- ليه ما بنحسش بقيمة اللي بنحبهم إلا لما نخسرهم!..

وتحشرج صوتها بدموع مكبوتة:

- لما يبقى خلاص ماينفعش تعويض!..

سكن للحظات، همس باسمها بحنو لا ترغبه، رفضته وهي تجذب يده لتدعمه:

- قوم، هاوصلك لأوضتك..

- أنا كويس..

عقدتْ ذراعيها قبالة صدرها مستهينة:

- فعلا!..

مع وقوفه عاوده الدوار فاقتربت بقنوط:

- ماتبقاش زي الأطفال.. مادام مش عاوز تعترف إنك غلطان على الأقل اعترف إنك تعبان..

أسند ذراعه حول كتفها وصعد معها الدرج على مهل متجاهلًا كلماتها الأخيرة..

لن يجادل، يحتاج لاستعادة قواه.. وبعدها سينال منها وإن غادرت المجرة بأكملها.. سيفعلها..

تركته عند باب جناحه ثم اتجهتْ لجناحها، فتح الباب وقبل أن يخطو داخله اندفع جسده بعنف نحو الجدار المواجه، اندفع بقسوة لا تراعي حالته الجسدية ووعيه الضائع..

ساعِد أخيه الأصغر يضغط عنقه، يحبس أنفاسه.. يده الثانية تكتف ذراعه وفحيح شيطاني يتردد بأذنه نافضًا وعيه بوحشيته:

- ابعد عن مراتي..

رُغم الاختناق وألم ظهره الذي اصطدم بالكثير على مدار اليوم..

رُغم الإجهاد والتعب ورغبة الغياب عن الوعي..

رُغم ألم القلب ويأس النفس فقد برقتْ مقلتاه بشماتة مقصودة..

يرد الصاع بالصاع، العين بالعين ويحول بطولة المشهد لاثنين من العُميان بتحدٍ سافر:

- ما ينفعش تقولي ابعد عن مرات توأمك؛ شمس هنا في حمايتي..

مع تقطيبة حاجبي "يعقوب" يطوقان نظرته القاتلة، أردف "يزن" بقسوة حقيقية:

- اللي يزعلها هزعله، واللي يأذيها هأذيه..

يمحيه من الصورة.. يلغي وجوده.. يعيده حيث العدم..

ضاعتْ محاولة القرب أدراج رياح الجبروت وغلظة القلوب، ضاعتْ بسخرية باردة لا تكترث بما سبقها من معلومات.. أو تتظاهر بعدم الاكتراث فحسب:

- ووظيفة الملاك الحارس دي بمناسبة إيه!..

- حاجة أنت ماتفهمهاش..

سدد الطعنة في عمق الهدف وأصاب..

لمح الرجفة.. هزة الحدقتين ولو لجزء مبتور من ثانية واحدة.. ضغط الذراع الذي خف عن عنقه بمقدار شبه محسوس..

رأى كل ذلك وجلده ضميره بسوط الذنب، تباعَد أخيه الأصغر خطوة وسبابته تشير في وجهه بصرامة وحشية:

- ابعد عنها لو مش عاوزني أأذيك..

عاد يشعل الجحيم..

هذا الرجل لا يدرك أنه يخسر ويفوز بذات المعركة مائة مرة بنفس الوقت.. فقط لو صمت!..

- ما بحبش حد يقرب من ممتلكاتي..

أكمل سنَّ قوانينه التي تهكم منها المواجه له جوار زمة شفاه تكبت أنة ألم:

- ممتلكاتك!..

اعتدل يدعم جسده فوق الجدار:

- أنت جاي من أي عصر!..

أظلمتْ عينا "يعقوب" أكثر فأكثر.. أظلمتْ حتى بانت دُجنة بؤبؤيه كثقبين أسودين على وشك ابتلاع الكون كاملًا:

- الشياطين مش مرتبطة بزمن يا بن أبو الغار..

- والملايكة ما ينفعش تعيش مع الشياطين..

يلاحقه بالكلمات..

يلاحقه بالحقائق التي لا تخفى على أحد..

حقائق أوضح من ضوء النهار حين يهزم حُلكة الليل، عقبها ينسبه للجحيم نفسه:

- يا بن أبو الغار..

تمم بسخرية أخيرة لم يأبه لها الأصغر، تراجع أكثر وخرجت حروفه محترقة حد الرماد.. صلبة حد المنع.. حادة حد القتل:

- شمس مراتي، وحدودك معاها تقف عند الخط اللي أنا أرسمه..

وغادره.. تركه لوحدته دون من رحلت عنه..

ذهب هو لتلك التي رآها تطبب جروحًا لا يبالي كيف حصل عليها أخيه.. تلامسه، تنحني فوقه وتحادثه بانفعالات جمة، نقشتْ حضورها بين تفاصيل ملامحها.. تدعم جسده في شبه احتضان وإن كان على وشك السقوط..

لا يكترث!..

وجدها بغرفتها تطمئن على صغيرها النائم، تجاوره في فراشها.. تتأمل ملامحه، تلامسه بأطراف أناملها كأنما تخشى إيقاظه.. تغرق فيه..

أو ربما تغرق في أفكارها مع من هو قطعة منه..

اللعنة عليها.. كيف يمتلكها!..

كيف يقطع ذلك الطرف الواهن الباقي!..

وقف ببابها يراقبها بلا صوت، يراقب شرودها.. حركة أصابعها الرتيبة، ضياعها.. يحترق في جحيم تخميناته لأفكارها..

ماذا فعلت به!..

كان يسأل نفسه، وللعجب لم يكن غاضبًا.. كان مستغربًا..

نقر بسبابته حلق الباب الذي لم يعُد يغلق بينهما إلا نادرًا، رفعتْ عينيها إليه بدهشة.. عندما تلاقتْ بنظرته أدركتْ ما يريد فتنهدتْ ببطء.. لقد طالتْ هدنتها كما لم تطُل من قبل، خطتْ تقترب منه، تواجهه، تغوص في قتامة ما بين جفنيه ويهديها هو مدخل التيه..

ذلك العالم اللامتناهي الغامض، هناك سيبتلعها ولن يهتم..

بعد ثوانٍ من تأمل داهمها بجذبة، بحصار قاسٍ.. بقبلات لم تختر مكانًا تهبط فوقه؛ كان يترك لنفسه حرية التجوال حول حناياها؛ يجوب بسُلطانه كل ما فيها بلا تمهيد.. بلا ترتيب.. بلا تحديد..

حملها وسقط معها على أريكة غرفة المعيشة، التي بالكاد استوعبت كليهما.. لم تكن واعية لما به؛ هل يشتهي جاريته أم يريدها هي!..

"شمس" زوجته!..

هل يحتفل بانتصار سابق، أم ينتصر عليها في حرب خاصة!..

كان غريبًا.. هو دومًا غريب، في كل مرة تلتقي مع وجه جديد منه.. وبكل لقاء تتضاعف مخاوفها.. تقترب أكثر..

تسقط خطوة في هاوية جحيمه.. تخشاه وتحترق!..

حتى امتلاكه أصبح مختلفًا.. ظل صامتًا، غارقًا، لكنه أجبرها على الهمس باسمه.. نبرتها تسللتْ لمسامعها من عالم آخرٍ موازٍ تحمل حروفه الخمس..

تخضع، تستسلم وتهرب من الاعتراف.. الآن باتت تخشاه أضعافًا مضاعفة.. ماذا يريد منها!.. ماذا يُغير فيها!..

في لحظةٍ كانا يسقطان على الأرض، وللغرابة التفَ بجسده ليحميها ألم السقطة!.. استقبلها فوق صدره فطوقتهما معًا خصلاتها الطويلة، أغمض عينيه وغاب في عبقها.. عبق الشمس؛ نارها التي تحرقه ولهيبها الذي بدأ يدمنه..

جاورته على الأرضية الباردة، سحب قميصه يغطيها به، يهديها راحتها في اختباءِ اعتادته بعد كل اقتراب، لكنها لم تكن معه، لم تكن تُعلل ضياعها فيه..

أفكارها المشوشة تركزتْ حول أمر واحد سرتْ له رعدة بكامل جسدها وروحها، تناديه فيهمهم بلا معنى.. تتأكد، تدور بوجهها إليه.. ترتجف:

- أنت مالبستش الـ...

- عارف..

لم يدعها تكمل كلماتها، نعم فعلها..

تخلى عن وسيلة الحماية التي اعتمدها معها منذ تزوجها.. وحيرته تنهشه؛ هل بات يرغب في طفل الآن!..

طفلها هي!..

هل يريد أن يكون أبًا!..

والأهم.. هل يصلح أن يكون أبًا!..

أن ينتمي إليه كائن صغير يعتمد عليه في كل شيء!..

أي شيء يمتلكه ويمكن منحه إياه!..

هل يقدر!..

بل.. هل يتحمل!..

صمتَ يجهل السبب، يشرد، يفكر ويحتار ويغضب لوهلة.. خطواته تجاهها باتت غير محسوبة..

لم يعُد يسير معها على خطة مرسومة بدقة.. لقد بدأ الارتجال!..

لكن ما لم يره قادمًا هو حسرة نبرتها وانكسارها بينما تلومه بوهن عقد له حاجبيه:

- ما تغيرش قوانين اللعبة..

همستها بحزن عجيب يشبه بحة صوتها الشجية بأذنيه:

- أنا ملك اللعبة.. أنا حطيت القوانين دي..

دمدم بكلماته حازمًا، مباشرًا، آمرًا.. اعتدل يشرف عليها، يثبتها بلا قدرة على الحراك:

- أقدر أغيرها، أو ألغيها وقت ما أحب..

صلابة الأرض وبرودتها من تحتها أوجعتْ عظامها لكنها لم تبالِ، سألته بحيرة متعبة، مجهدة:

- ليه!..

الصمت المطلق كان جوابها.. لم تيأس، همستْ تعدل صيغة السؤال كأنما تفتش عن دافع يمنحها شيئًا من سكينة:

- ليه دلوقتِ!..

لم يُجِب، حافظ على سكونه لوقت أطول، لا يعلم دافعًا محددًا ولن يفتش عنه..

هو رجل نجا من وحشية غابة الحياة عندما اختار دور المفترِس.. الصياد، ضارية تحركه غريزة البقاء.. الاستمرار.. التكيف..

والآن.. بقاؤه معها واستمراره بها!..

تزاحمتْ أفكاره برأسه فقرر التخلص منها كلها بجواب باتر، بنظرة وقرار:

- عشان عاوز كده..

والنية.. الفعل.. المبادرة والعزم؛ تكرار!..

**

الظلام مخيف.. حلكة تامة تحاوط حتى الأفكار والروح..

الظلام يقتل المنطق، ويفتح الباب أمام الخيال على مصراعيه..

يُظهر أشباح الهلع، ويترك الغارق فيه فريسة لها..

إلا ظلامه!..

ظلامه هو دنياه، هو مملكته، هو فيها الملك والسلطان والحاكم بأمره..

هو المسيطر، الآمر الناهي.. الذي يدرك موطئ قدميه بلا تردد أو شتات..

هو الذي يرى بعين الخيال، ويبصر كما لا يمكن لمخلوق أن يرى العالم مثله!..

موعد لقائهما المتفق عليه، جلسة الحديقة شبه اليومية.. ووعد منها بقراءة إحدى الروايات له.. طرقت باب غرفته، لم تسمع تصريحًا بالدخول فكررت الطرق، أتاها صمت أقلقها.. فتحتْ بهدوء، دلفتْ للداخل تتلفت حولها، تبحث عنه.. وكان بالشرفة!..

ساقطًا أرضًا على سجادة التأمل خاصته.. هرعت إليه لتجد أن وضعيته لم تكن سقوطًا، هي إحدى وضعيات اليوجا كما تظن!..

في وضع أقرب للسجود، بطنه تلامس ركبتيه المتباعدتين قليلًا، جبهته على الأرض، وذراعاه ممتدتان حول رأسه بينما كفاه مفتوحتان للأعلى..

سمعتْ زفرته، أنفاسه التي يسحبها بعمق متمهل، اعتداله ثم استقامته، وقف يواجهها.. يبتسم ببساطته المألوفة ويخبرها بمرح:

- في ميعادك تمام، خلصت جلسة النهاردة..

ساوى خصلاته واقتربت هي تتأبط ذراعه، تخطو معه للخارج ببسمة متسائلة:

- يوجا دي مش كده!..

مط شفتيه بجواب سلس:

- Yup.. Balasana..

هبطت الدرج جواره بتمهل حذِر:

- يعني إيه!..

رد بذات السلاسة اللامبالية:

- **Child's Pose**، وضعية الطفل..

كانت تخطو معه للحديقة، تقوده ولا تعلم أنه يرى طريقه أكثر مما تراه هي..

تجلس معه على أريكة أنيقة وتثرثر كعادتها بصحبته:

- ودي بتفيدك في إيه!..

قبل رده ظهر أخيه، زوجها اللدود وعدوها الحميم..

مالك القالب وكاسره وقاهره.. أشاحتْ بوجهها عنه وتجاهلها، اتجه للصغير يشعث خصلاته، ينحني بمداعبة، يعلمه بخبره السعيد:

- هديتك هتوصل خلال تلات أيام..

رفع "نوَّار" حاجبًا واحدًا غير مصدق:

- فعلا!..

ربت "عمار" على كتفه برفقٍ حانٍ علَّق عينيها بكفه في شرود:

- فعلا، سلسلة A Song of Ice and Fire.. كاملة مكتوبة بطريقة برايل..

انفرجتْ ملامح الأخ الأصغر ببهجة طفيفة:

- كاملة!..

زم الأكبر فمه بتراجع:

- ماعدا آخر جزء، لسه بيجهز..

تبادل معه بضع كلمات أخرى، خطا بعدها تجاهها، رمقته بنظرة زاجرة تمنعه.. تغافل عنها كما هي العادة، وقف قبالتها وأقامها عنوة، طوقها قسرًا فتملصتْ منه دون همسة.. تلتفتْ للجالس قربهما بوجه مصمت لا يدلل على شيء، تعود إليه لتوبخه بذات السكون لكن شفتيه احتجزتا كلماتها وأنفاسها في حصار خانق قاومته كثيرًا، حتى حررها منه ببسمة عابثة، مشاكسة عقدتْ لها حاجبيها..

داعب أنفها بسبابته، ودَّع أخيه وغادر تاركًا إياهما في جلستهما اليومية.. هندمتْ ثوبها، مسحتْ فمها بعنف متضايق وأعادتْ خصلاتها التي بعثرها خلف أذنها بحنق..

جلستْ بمكانها، استدارتْ إلى المجاور لها تستغرب هدوءه طوال اللحظات الفائتة.. لمحتْ بسمته الساخرة، قبل أن يعلق بتهكم:

- ما بحبش حد يستغفلني على فكرة..

توقف لعابها الذي كانت ترطب به حلقها قبل ابتلاعه، انحشر فاختنقتْ به، سعلتْ تدعي الجهل:

- مش فاهمة!..

مال برأسه إلى كتفه عابثًا، عابسًا:

- عمار كان بيبوسك..

تغضن جبينها، قطبتْ بحيرة خجول واعترفت بلا وعي:

- عرفت إزاي!..

دلل على وعيه وحماقتها أكثر بتوضيح:

- كنتِ بتقاوميه وكان مصمم..

طرفتْ بعينيها في توتر مرتبك، استرخى هو في المقعد أكثر، مدد ساقيه أمامه ومرر أصابعه في شعره براحة:

- صوتكم كان واضح جدا..

كلا لم يكن!..

نعم رفضتْ وعاندتْ، لكنها فعلتها دون صوت لأجله.. فكيف!..

هزتْ رأسها في محاولة لإفاقة، لاستيعاب:

- حاسة السمع عندك قوية للدرجة دي!..

مط شفتيه وقرر أن كشف الأوراق.. كل الأوراق قد حان:

- مش السمع بس..

تضاعفتْ حيرتها وتساؤلاتها حتى كاد يسمعها بعقله، التفت بغتة ينظر في عينيها حتى أنها أجفلتْ:

- هو الإنسان عنده كام حاسة يا وسن!..

رمشت بانزعاج مع اقتحام نظرته الميتة لدواخلها..

يراها.. لا يراها، تلك هي المسألة..

وجودية سؤال هاملت البائس الذي يرغب بالموت لتفادي الألم!..

تنحنحتْ بخفوت وجاوبت بعملية طبية:

- خمسة..

صمت..

صمت لوقت ليس بقصير قبل أن يعتدل، يطوي إحدى ساقيه تحت جسده ويستدير إليه بجذعه، يواجهها ويسرد عليها أسطورته التي باتت واقعه..

- غلط..

لوحتْ بكفيها في تفسير:

- الأساسية خمسة، في نظريات بتقول إنهم أكتر.. نظريات نفسية..

فرد سبابتيه متجاورتين لتشكلا رقمًا واضحًا:

- حداشر..

لم تقتنع بما يبدو أنه يصدقه، لكنها لم تجادله، أنصتت إليه بصبر بينما يشرح بيسر:

- السمع، اللمس، الشم، التذوق، و.. البصر!..

نطق الأخيرة بنبرة هازئة يشوبها مرارة حقيقية أوجعتْ قلبها، أكمل متخطيًا اللحظة والذكرى والحياة التي لا يملك سواها:

- الدراسات بتقول إن في ستة كمان، بنسيطر بيهم على حياتنا وبندرك بيهم كل حاجة حوالينا..

وعدد على أصابعه بهدوء:

- الحس العميق ودي بنحس فيها بالاتجاهات، التوازن وبيسموها النظام الدهليزي، اسم غريب مش كده!..

لم يكن ينتظر ردها، لذا استطرد دون توقف وهي تراقبه باهتمام، تنصت بفضول:

- حاسة الألم، مش بس الألم الخارجي.. الداخلي كمان، حاسة الشعور بالزمن وإدراك الوقت، حاسة إدراك الحركة وتحديدها..

طوى خمسة أصابع ثم فرد سادسًا من يسراه بحاجب مرفوع في ثقة تشوبها سخريته الدائمة:

- والحاسة السادسة، التنبؤ والاحساس بالخطر..

حديثه بدا علميًا إلا من نقطته الأخيرة، تدخلتْ بحسم عملي:

- مافيش حاجة اسمها حاسة سادسة..

انثنى قربها بجدية غريبة:

- في.. وكل الحواس دي بالتدريب ممكن ترتقي وتتطور لدرجة ما أظنش ممكن تيجي في خيالك..

تراجعت بدهشة متوترة..

لقد بدأ يخيفها!..

- إزاي!..

ثاب لاسترخائه وشرد للحظات، سألها عقبها:

- تسمعي طبعا عن رُهبان التبت!..

همهمتْ بموافقة وحاجبيها ينعقدان بتفكير حائر، مصدوم.. تحَدَث بانطلاق يحكي ما خفي عنها..

يحكي الصدق الذي يجُب كل ما سبقه من كذب:

- أنا عشت معاهم تلات سنين من عمري يا وسن..

كادت تشهق.. مفاجآته لا تنتهي، لا هو ولا أخيه الأكبر!..

إذًا.. لم يكن مقيمًا مع عمه بدولة أوروبية، لا.. كان هناك في أعماق آسيا، في عالم معزول عاليًا بين الجبال.. حيث كل شيء غريب، مثير للفزع.. وساحر بدرجة مخيفة!..

- بعد العملية ولمدة حوالي ست شهور كنت فيهم مع عمار ومراته، حياتي كانت بالنسبة لي منتهية.. طفل أعمى، نوبات غضب مالهاش عدد، تكسير، أذى لنفسي، كوابيس.. مرة وقعت من على السلم اللي جوا، دراعي ورجلي اتكسروا!..

هذه المرة لم تكبتْ شهقتها، أطلقتها خافتة متألمة تمتزج بها لعنة لنفسها وغرورها.. لم يكترث، أكمل سرده بلا اهتمام لانفعالاتها التي تأتيه كأنما يراها رأي العين:

- ست شهور حاولت أنتحر فيهم أكتر من مرة وعمار كان بيلحقني، لحد ما مراته طلبت إني أبعد فطلقها.. بعدها خالي رجع من السفر..

- خالك!..

تمتمتْ بها غير مسموعة، وصلت لأذنيه وتغاضى عنها:

- هو ممكن تسميه رحالة، لف كل دول العالم تقريبا وعارف أغلب أسرارهم.. اقترح موضوع الرهبان اللي هو نفسه قضى معاهم شهرين كانوا بالنسبة له حياة كاملة..

زم شفتيه لثوان ثم أردف بأريحية وكفه تشرح بالتناغم مع كلماته:

- عمار رفض في الأول، كان بيتصرف كأب.. لحد ما اضطر يوافق لأني كنت باموت قدامه كل لحظة، وسافرت مع خالي.. تلات سنين عشتهم هناك، اتعلمت فيهم أكتر مما تخيلت..

اعتدل ينزل ساقه للأرض، يشرد في ظلامه بعيدًا عنها:

- اتدربت إزاي أتحكم في غضبي، إزاي أقلل إحساسي بالألم، إزاي أستخدم كل حواسي عشان أعوض اللي خسرتها.. إزاي أحس بالخطر وأتوقع كل خطوة.. جربت التخاطر والـ Astral Projection، لكن للأسف فشلت فيه.. اتعلمت أكتر مما تتخيلي عشان أكون نوَّار اللي معاكِ دلوقتِ..

عاد إليها بوجهه مجددًا، كان يرى في ظلامه خوفها.. أفكارها التي تتصارع بجنون.. الكذبات التي التحفتْ بها، حتى منه هو:

- بس أهم حاجة اتعلمتها إزاي أسيطر على مراكز الطاقة السبعة في جسمي!..

نفضتْ ضياعها تنتبه له، كانت قد قرأت عن ذلك وإن لم تبحر في تفاصيل الأمر، لذا أعلنتْ دهشتها وانبهارها به بفطرة نقية:

- الـ chakras!..

ابتسم باتساع فخور مشيرًا إليها بحماس:

- برافو، مثقفة يا وسن..

جارته في بسمته وسعادة وجهه تسعدها تلقائيًا:

- قريت عنها أيام الجامعة من باب الفضول..

ظل على حماسه وفسَّر المزيد:

- سبع شاكرات، كل واحدة لها مكان وتدريب معين عشان تقدري تسيطري عليها وتفتحيها وتتحكمي بالقدرات اللي بتيجي من وراها..

استقام يدور براحة أمامها، يفرد ذراعيه بتوافق وتكيف، بتعايش تام مع كونه وحياته:

- إزاي تنسجمي مع الكون كله..

توقف في مواجهتها تمامًا وأضاف بحسم خاتمة حكايته:

- دوامات بتعبر عن الطاقة اللي في جسمك كلها، بس أهم شاكرا بالنسبة لي..

انحنى بجذعه كله، يباغتها بنظرة مباشرة في عينيها.. وهذه المرة شعرت كأنه ينظر لروحها بلا حجاب، تحركت سبابته لترسم مثلثًا مقلوبًا بين حاجبيه، قمته تنتهي عند طرف أنفه من الأعلى:

- الـ third eye chakra..

جمدتْ في مقابله بلا حراك.. أنفاسها شبه محسوسة وهو يسمعها بضجيج صاخب، لم يبتعد، لم يهتز أو يتحرك:

- وضع اليوجا اللي شفتيه، بيفتحها.. بتتحكم في الرؤية..

هنا توقف لحظة بالتواء مرير لطرف شفتيه:

- التركيز، الإدراك والحدس.. أو زي ما قلت من شوية، الحاسة السادسة.. في الضلمة اللي أنا عايش فيها؛ انعكاس عالمكم كله.. هو اللي باشوفه وأحس بيه، وأتعامل معاه..

اقترب بوجهه منها أكثر حتى لفحته أنفاسها على وضعها المتجمد:

- دي اللي باشوفك بيها..

تنفستْ ببطء وازى تراجعه، عودته لجلسته وحيرتها، نبرتها المرتعشة التي تستنكر عالمه، وبذات الوقت يبهرها.. يرعبها!..

يعيدها حيث اللقاء الأول، لحظات الألم والهلع والفزع عليه، جرح إصبعه.. نوبة غضبه التي حطم فيها غرفته، ارتطامها به قبل أيام حد فقدان التوازن وبداية السقوط..

هو يراها.. يرى كل شيء وإن كان ليس كما يرى البشر..

كل ذاك كان خداعًا، لعبة تشبه ألعاب أخيه الأكبر معها!..

الذئب الصغير رُغم عدم حمله للقب يتحكم بعالمه، يديره بشكل كلي.. لا يفقد للحظة سيطرته عليه..

مررتْ أفكارها بحذر:

- ذكائك يخوف يا نوَّار..

رفع حاجبه وعاد بوجهه إليها:

- خايفة مني!..

قطبتْ بوجوم، ترفض الاعتراف لفتى يوازي نصف عمرها تقريبًا.. وتخشاه كذلك، تهربتْ بنبرة صبغتها بعاطفة تريده أن يستشعرها ويدها تمتد لتربت على كفه:

- فخورة بيك، زي أخويا الصغير..

ارتسمتْ بسمته قاسية تحفر حضورها مظلمًا فوق ثغره:

- طيب حد يعمل في أخوه الصغير كده!..

شعر برعدة كفها التي تلامس كفه، مد يده الثانية يطبقها عليها ويميل مقتربًا بعتمة ابتلعتها بين جفنيه:

- أنا عارف أنتِ مين يا وسن..

لم تكتمل شهقتها المرتعبة حين قبض على فكها بغلظة مباغتة:

- عارف إن أنتِ السبب في عمايا..

أباح لها الخوف..

أباح لها الهروب..

وأغرقها في دوامة لا نهائية من ألم، وبعثرة!..

**

مرآة الحب عمياء.. قانون العشق القديم، حكمته المأثورة وقاعدته الأهم..

لكنه أبدًا لا يعمي عن أخرى أحق به منها!.. زوجته..

استندت لسور شرفة منزلها تطالع الشارع، السيارات المحدودة، المارة والشمس التي صعدت تتوسط السماء بدفء محبب وسط الجو الخريفي الذي تعشق..

هي امرأة خريفية المغزى والهدف..

ففي كل موسم لها ذبول، لها سقوط..

موسم الحب.. موسم الزواج.. وحتى العمل!..

لم تذهب منذ تلك الليلة، هاتفتْ رئيسها المباشر وطلبت أجازة تكرم بها عليها بعدما منحته سببًا وجيها..

المرض!..

كذبة.. فالسبب الحقيقي لا يباح ذكره، كان سببًا وحيدًا داخلها..

لقد عرف مكانها.. باتت تخشى لقائه وإن كانت تؤمن أنها بترت وقامت بكَيّ مكان البتر هذه المرة..

"ما تقفلش قلبك على حكايتنا يا يزن، حكايتنا مكتوب لها النهاية دي من زمان"..

دموعها تتسلل بلا إرادة.. تنعي قصتها الوردية، ترثي قصة الوجع والخوف والهروب.. قصة عاشق آخر علِق معها في ماضيها فلم يمتلك معها الحاضر وأضاع المستقبل..

"غصب عني يا دُچى"..

بصوته رعشة تفهمها..

كانت تصاحب نبرته كلما همس بعشقها..

توازي أحرف كلماته ولمسة يديه..

"يبقى تتحكم باللي في إيدك"..

مع نظرته المتسائلة.. المرتبكة.. المشتتة كما لم ترها من قبل أردفتْ بحزم نافِذ..

"طرقنا ما تتقاطعش تاني"..

رأتْ في عينيه اعتراضه.. غضبه.. ألمه.. تراجعتْ تلقي في وجهه بلغم منزوع الفتيل علَّه يتركها لحالها..

"منذر الإدريسي طليقي"..

شريكه!..

"وجه وراكِ مصر عشان يرجعك!"..

سأل مستنكرًا، غيورًا.. هل تكذب!..

لا.. لسانها لم ينطق يومًا سوى بصدق، هزتْ رأسها بحيرة نافية..

"مش عارفة.. بس هو دلوقتِ هنا، فأرجوك كفاية.. أنا مش هكون ليك"..

ابتسمتْ بمرارة ساخرة..

"وأكيد مش هكون زوجة تانية حتى لو فُزت بدور الحبيبة"..

ثم لامته بمناصرة أنثوية بحتة..

"مراتك أحق بيك، بقلبك ومشاعرك ووجودك"..

تطعن حيث مكمن الألم الأعنف..

"أنت عمرك ما كنت خاين يا يزن"..

كان هو من رسم بسمة ساخرة فوق شفتيه هاته المرة وإن شابتها قسوته الخالصة..

"لسه فاكراني يزن بتاع زمان"..

يقرر وتنفي، تفند وتدفعه بعيدًا حتى آخر حدود العالم..

"أنا عارفة إن اللي حبيته مابقاش موجود، ومش بدور عليه.. إحنا بكرة مش لينا"..

اقتربتْ تربت على كفه القابض على السور بعنف، تهديه راحته وهدوءه..

"بكرة بتاعك أنت ومراتك وولادك"..

رمق يده تحت كفها الصغيرة بحزن، بوادع.. بتشبث واهي..

باعتراف أنها على حق..

ما مات لن يعود للحياة، وما فات لا يمكن تعويضه، بعناق أجفان أخير سبقته نظرة لوم، خيبة وابتعاد، عادتْ خطواته للداخل بهرولة وكل ما فيه يلعنها..

هي الحب والموت والقسوة والدفء..

هي القلب والنبض والفقد..

هي العشق والخسارة وكل وجع..

راقبته حتى اختفى بعدها سمحت لنفسها بسكينة البكاء، بانهياره.. القوية التي لم تفُز في أي من معاركها حتى اليوم.. رفعتْ راية الهزيمة وأعلنتْ الاستسلام أمام جحافل جيوش الفشل..

بعد دقائق مسحتْ عبراتها.. رحلتْ عن المكان بأكمله، ومنذ يومها لم تعُد..

تركتْ كوب الشاي والنعناع الصباحي من يدها على طاولة ورائها وارتفعتْ ببصرها إلى السماء، تستقبل لمسة البرودة المنتشرة بالهواء بعينين مغمضتين.. تتنهد ثم تعيد التفريق بين أجفانها، تتلبس رداء الثبات والصلابة، لم تسقط من قبل وإن سقطتْ الروح في أعماق الجحيم، لذا لن تسقط الآن!..

سمعتْ خطوات أبيها من خلفها فاستدارتْ إليه ببسمة صادقة:

- إيه يا أبو علي!.. هتتغدى إيه النهاردة!..

جاورها والدها يتأملها بعاطفة حانية، يدقق فيها، في عينيها.. يفتش عما تخفيه تحت قناع القوة الذي يلمح ضعفها من بين شروخه:

- مافيش شغل النهاردة برده!..

حافظتْ على بسمتها الهادئة على جانب ثغرها وشاكسته:

- زهقت مني ولا إيه!..

لم يجِب، فقط ظلتْ نظرته المتفحصة توبخها على فرارها حتى منه.. زفرتْ وأخفتْ ناظريها عنه:

- مرهقة شوية يا بابا، استأذنت مديري في يومين أجازة..

صمت للحظات قرر عقبها طرق الحديد حال احتراقه:

- طيب.. شوفي منذر بيحب إيه واعمليه على الغدا..

صدمة ملامحها لم تمنعه من توبيخها:

- أيوة عرفت إنه رجع مصر واستقر هنا؛ مش عارف كنت ناوية تقولي لي إمتى!..

- استقر!..

تمتمتْ بها أبحة مستغربة، هي لم تكن تعلم!..

فطن والدها من نظرتها ونبرتها لجهلها فسأل بهدوء:

- ماكنتيش تعرفي؟..

نفتْ بتشتت قبل أن تبتسم مبررة:

- كان في meeting شغل عندنا في الفندق بس كنت معتقدة إنه هيسافر بعده..

ولاحقتْ أحرفها ببعضها البعض:

- ما شفتوش حتى يومها بس كنت عارفة المدعوين بالاسم طبعا..

شد أبيها قامته في مواجهتها وتجاهل كم المعلومات الأقرب لثرثرة فارغة بعقله:

- على العموم هو فعلا استقر، هيدير مقرهم الرئيسي هنا.. ولما كلمني يسأل عليَّ عزمته على الغدا..

رمقته بنظرة عاتبة دافع عن نفسه في مواجهتها:

- أنتِ عارفة منذر زي ابني، وعلاقتكم ببعض مالهاش دعوة بعلاقتي بيه.. أنتِ وهو أكبر وأعقل من مهاترات ما بعد الطلاق..

أبعدت خصلة شاردة خلف أذنها وابتسمت بتفهم، نعم تدرك وتعي أن أبيها يقصد كل حرف مما نطق..

بعد أربع ساعات كانت في استقباله بثوب خريفي يتأرجح لونه بين الوردي والخوخي بورود بيضاء.. كما هي دومًا، ناعمة وبذات اللحظة تسرق العين بلا تفاوض وتصيب نبضات القلب بالخبال..

معادلة لا تملك ناتجها سواها..

همس باسمها دون أن يغادر صوته شفتيه، رأتْ نظرته.. مررتها وهربتْ بترحاب عملي للغاية قادته بإثره إلى غرفة المعيشة حيث ينتظره والدها..

ساعة أخرى قضاها الرجلان في لعبة "الطاولة" ومعرفة أخبار من هو بمثابة ابن.. لم يتطرق الحوار بينهما للعامل المشترك الأول..

هي!..

تناولوا الطعام.. شاي أبيها وقهوة العاشق العائد معتدلة التحلية..

هو رجل متزن في كل شيء..

يفضل الألوان المحايدة، ليست قاتمة لدرجة مقبضة ولا فاتحة لدرجة تلامس وقاره..

قهوته بسكر مضبوط.. أكله خفيف الملح..

ونبرة صوته دومًا عميقة هادئة تتغلغل في الحواس جميعها لا تمر بالأذن وحسب..

لم يكن يختل ذاك الاتزان سوى معها وحدها..

هي كانت خلله.. ارتباكه.. هلوسته..

عشقه الذي فقد قلبه فداءً له..

وقت الغروب غادرهما والدها معًا بالشرفة، تتأمل حمرة الشفق بشرود.. وكان هو يتأملها، يقترب دون أن تشعر، هي أبدًا لا تشعر به.. يجاورها ويهمس بجدية:

- على فكرة ما قدرتش أقول لأ لعمي حسن لما قال لي نتغدى سوا..

أدارتْ وجهها إليه ببسمة ناعمة:

- ما تبررش يا منذر، أنا عارفاك كويس..

بادلها البسمة بأخرى لا تخلو من عشقه غير المباح:

- مش عاوزك تفتكري إني بضغط عليكِ بيه، أو بوجودي حواليكِ..

طمأنته أكثر دون أن تنحسر بسمتها:

- أنا عارفة ده..

بعدها لم تقاوم السؤال بفضول أنثى.. وربما بغباءٍ منها:

- رجعت مصر ليه!..

عيناه تخبرها بأريحية عن السبب؛ هي..

ولسانه ينكر، يمنحها راحة قربه دون حصار:

- الشغل هنا محتاجني أكتر، رائد مع رفيف هيديروا فرع هامبورغ..

أومأتْ بصمت توافقه، تدرك التفافه.. تخشاه، لكنها لا تملك حق منعه من العودة.. من صلته بوالدها الذي هو بمثابة أبيه..

"عندي عرض ليكِ!"..

فاءتْ ببصرها إليه لتجد بسمته الهادئة تحتل وجهه كما هي:

- عاوزِك تيجي تشتغلي معايا، مديرة أعمالي ودراعي اليمين..

قبل أن تعترض بتر بحزم:

- شغل وبس يا دُچى، من غير أي ضغوطات تانية أو توقعات..

وأكمل بجدية صادقة:

- كنا team محترف وممتاز مع بعض..

تنهد، شد قامته إيذانًا بالرحيل مخبرًا إياها برفق متفهم:

- قبل ما ترفضي أو توافقي، فكري كويس.. شغل وبس..

استدار عائدًا للمنزل، ودَّع الأب على وعد بتجدد اللقاء وتركها هي لحيرتها.. لفزع وليد من فكرة قرب آخر..

وهلع من فكرة لقاء مع ماضٍ لم يمُت بعد وإن أجادت إحاطته بسياج التناسي، رغبةً في التعافي من آثاره بروحها وقلبها..

تمازج الخوفان بلحظة يهبانها سقوطًا جديدًا..

سقوطًا في بئر الحيرة..

فلا هي تستطيع العودة، ولا يمكنها حتى البقاء حيث هي..

تحتاج لقفزة واسعة بعيدًا عن الأرض..

حينها ربما يمكنها الاختيار.. ربما يمكنها الاستمرار!..

**

عندما تصدمنا الحقيقة بمذاقها المر، تلسع الحلق وتجرح اللسان، تكسر القلب وتنهش الروح..

حينها نتمنى الخدعة..

الكذبة..

ظلًا آمنًا وإن كان محض وهم!..

وهمًا مهما تشبثت به، فكل عظمة في جسدها تخبرها أنه كذبة، سراب، خدعة من قلب يأبى التصديق أن مالكه ذبحها من الوريد إلى الوريد.. كم مر من وقت!..

أمها تقول عشرة أيام..

عشرة أيام منذ أتى الجدة اتصالًا من طفلها الأكبر "فراس".. الذي استيقظ ليلًا بحاجة للحمام، ووجد أمه ملقاة على الأرض كجثة، ممزقة الثياب.. مكدومة الجسد شبه العاري..

حينها لم تلتفت لغضب زوجها وركضت إليها، فتح لها الصغير الباب باكيًا، طمأنته وأسرعتْ لصغيرتها هي..

المشهد كان كارثيًا، مأسويًا بدرجة مظلمة..

النظرة الأولى أنبأتها عن انتهاك، ومع محاولة إفاقتها علمت بكسر يدها، لا تذكر كيف دعمتها حتى الحمام، كيف تعاملت مع ضياعها وغيابها في دنيا بعيدة عنها!..

أوقفتها تحت الماء المنهمر وحممتها كما كانت طفلة، أبصرت الرضوض التي تنبئ بشرتها عن زرقة آتية، دموعها التي اختلطت بمياه المرذاذ الدافئة..

ساعدتها على ارتداء ثياب نظيفة وخرجت لنصف ساعة عادت إثرها بخامات تمكنها من تجبير المعصم المكسور، ذلك الذي لا تكاد ابنتها تشعر بألمه.. استعادت كل خبراتها في عالم التمريض قبل سنين، هي تحتاج لأشعة، لطبيب.. لكنها جبيرة مؤقتة حتى تسترجع قواها، ثباتها.. حتى تفهم هي ما حدث!..

من يومها كانت صامتة، ساهمة، تائهة.. بعد يومين ولأن التحسن ظل صفرًا، هاتفتْ طبيبة تعرفها وجبرتْ هي يدها بشكل صحيح بعد فحص سريع أخبرها أن الكسر بسيط بعض الشيء..

كتبت لها عدة مسكنات وأدوية تريحها، مكثت معها رُغمًا عن أنف أبيها الذي هددها بانفصال عنها بعد ذاك العمر..

لا تعلم من أين أتى بقسوته!..

لكنها ستختار صغارها على العالم أجمع، حتى هو..

مع وجومها، سكونها لم تدرك ما يدور بذهنها، اكتفت بالتواجد حولها، قربها.. ضمها لصدرها كل ليلة، الاعتناء بأحفادها والكبير الذي لايزال مشهد والدته غير المفهوم له مرسومًا أمام ناظريه..

ابتسمتْ لها بحنو، حشرتْ بين شفتيها دواءها وهي تتوقع أن نومها الليلة سيكون كالليالي السابقة.. ملعونًا بكوابيس وحشية!..

أطفأتْ الأنوار وجاورتها في الفراش، تتخلل خصلاتها بأصابعها في حركة رتيبة اعتادتها منذ طفولتها.. حتى غرقت في النوم..

حين تعانق جفناها ظهر الوحش!..

هذه المرة لم ينتهكها وحسب، بل قيدها عنوة وترك فمها حرًا، تعالتْ صرخاتها، ظهر طفليها على باب الغرفة..

الرضيعة بقيت وحيدة لكن ابنها وابنتها وقفا جامدين يراقبان..

تأملهما أبوهما بنظرة شرسة، نزع ثيابه كلها بلا اهتمام، جردها من ثيابها متجاهلًا صراخها، توسلاتها، نهرها لصغيريها وأمرها لهما بالرحيل.. جثم فوقها كالموت..

انتهكها مرة بعد مرة، تحت سمع وبصر الأبناء..

ترفضه.. تمنعه.. مكبلة، عاجزة، مقهورة، مكسورة، مهانة.. وهو مستمر في امتلاكها، إخضاعها، إذلالها كأن صراخها في أذنيه سيمفونية عذبة..

استفاقتْ بهلع، ترتجف، تنتفض.. يعلو صياحها بخوف أيقظ أمها التي اقتربت تضمها، تطمئنها بلا أمل..

التفتتْ إليها، ولأول مرة نطقت برعشة:

- ما.. ماية..

مسحت والدتها عبراتها الحارقة عن وجنتيها واستجابتْ بخطوات متعجلة، خرجت من الغرفة تحضر لها زجاجة الماء، وهي راقبت

اختفائها من أمام بصرها.. انحنت لا تبالي بيدها المجبرة، فتحت جارورًا يجاور فراشها، أخرجت منه علبة دوائها الذي اعتادته بسبب خياناته..

ابتلعتْ قرصين بحلق جاف وأخفتْ البقية..

ارتشفتْ الماء بشهيق عندما عادت به الأم، انطوت على نفسها في وضع جنين مذعور، تشتهي الاختفاء داخل رحم ضيق ليس به سواها..

انتفاضتها خفتت ببطء، تدريجيًا حتى تحكم النعاس بعقلها، أما التي تجاورها فقد بكت..

عجزها الذي يغلها بقيود حسرة وحيرة وخوف أبكاها..

لا تعلم ما حدث مع ابنتها حقيقة وإن خمنته دون تفاصيل، تفاصيل لا تريد أن تعرفها.. الأمر لا يحتاج لذكاء خارق!..

كل ما تريده الآن ألا تخسرها كما خسرت شقيقتها..

حينها ستموت!..

**

عجلة الحياة تعود للدوران بروتينية قديمة..

فأره اختفى كأنما لم يولد..

طليقته التي انتهكها قبل اختفائه ترعاها أمها، ويتابع هو من بعيد..

معلمة أبنائه بات حضورها محدودًا لدرجة تثير غضبه وحنقه..

طفلته عادت لانطوائها بعض الشيء، ومرح ابنه بهت مع غيابها..

يكره تعلقهما بها، ويبغض تخليها عنهما!..

صرف أفراد شركة الأمن التي استخدم خدماتها، و...

عادت عجلة حياته للدوران بملل!..

قبل أيام وفي أثناء تواجده لعمل خاص بفندقه زاره صديقه، أنبه على غيابه ثم استقبله بحفاوة.. تبادلا الأخبار بعجالة قبل أن يسأل عن الصغار..

حين علم ما حدث، صمت الصديق لحظات فجر بعدها كل الألغام بوجهه دفعة واحدة:

- من غير ما تتعصب، عندي حل..

رمقه "وجيه" بنظرة متوجسة..

لا يريد التخمين، لا يريد السماع.. لكن "يزن" لم ينتظر رفضه أو هروبه، بادر بحزم جاد:

- اتجوزها..

لم تتبدل النظرة على وجهه، تصلبتْ أكثر.. تحجرتْ، ثم أشار بسبابته في جفاء:

- اطلع برا..

ابتسم "يزن" بتفهم دون ضيق، نهض يواجه الجدار الزجاجي للمكتب.. ينظر للأفق الأخضر، يشعل تبغه، يعود إليه بذات الجدية:

- اسمعني للآخر واحسبها معايا بعقلك، بلاش عواطف.. خرجها من المعادلة..

استقام يواجهه بانفعال حاد:

- دي حسبة عقلي يا يزن، أنا مش هادي اسمي لست تاني، مش هآمن واحدة على شرفي بعد اللي حصل..

جابهه بمنطقية لا يكترث لها في اختلال عالمه:

- مش كل الستات بتخون..

وقبل أن يبتر اعتراضه أردف:

- ولادك محتاجينها، رفضت الوظيفة الكاملة والمرتب الكبير وحاليا بتشوف شغل بعيد عنهم.. ده حل كويس..

نفى بهزة عنيفة من رأسه:

- مش هاتجوز تاني..

ربت "يزن" على كتفه بدعم صادق:

- عشان ولادك، احسبها صح..

قالها وتركه إلى عمله، والآن بعد مرور عدة أيام لا يزال على تعسفه وصلابته..

لن تدخل امرأة لحياته حتى وإن كانت لأجل أطفاله..

لن يكرر المخاطرة..

لن يدنس شرفه مع فاجرة قد تدهسه في لحظة شهوة..

ابتسم ساخرًا بينما يتجه لسيارته عائدًا للبيت..

لحظة ضعف!..

كما بررتْ حبيبته خيانتها بفراش أختها..

"وجيه نصار!"..

سؤال بصوت مجهول من خلفه، استدار وقد قبضت المباغتة قلبه في حيز الهدوء المحيط به، تأمل الواقف قبالته دون أن يراه بشكل جيد في ضوء المرآب الخافت من حوله:

- أنت مين!..

كان الرجل يقف في حماية ظل قاتم يأتي من ورائه، يخفيه بشكل مثير للريبة:

- أنا رسول يا باشا، واحد حبيبك باعت لك رسالة وقال لي أمانة أوصلها لك..

تلفت "وجيه" يدير عينيه في المكان بحذر وازى سؤاله الخافت:

- رسالة إيه!..

الجواب لم يسَعَه استيعابه!..

مدية حادة انفردت بوجهه.. وجهها المجهول إلى جسده، اتخذ رد فعلٍ دفاعي، رفع ذراعه يصد الطعنة فاستقرت بساعده..

شهق بألم والرجل يسحب مديته، يكرر الطعن..

هذه المرة لم يمكنه الدفاع.. هذه المرة انغرست المدية كاملة ببطنه، دفعها قاتله أكثر وأدارها، جسده ينحشر بينه وبين سيارته..

شهقته تكررت..

أظلم عالمه..

تراختْ ساقاه والموت غيم بحضوره على المشهد..

إلا من ضوء سطع بغتة!..

سيارة مارة، لمح قائدها الصورة فأوقفها صارخًا بالقاتل الذي سحب مطواته وهرب..

سقط على الأرض والدم يهجر جسده بلا حساب..

ينتفض برعشة النهاية، العتمة تجبره على الخضوع..

وكان آخر ما رآه أقدامًا رجالية أمام عينيه قبل أن تتعانق أجفانه..

ويحل الصمت!..

(25)

كل الحروب تنتهي بالسلام..

طرف مهزوم..

طرف منتصر..

وقانون يحق له سنه على رؤوس الخاسرين!..

**

قرب الموت نرى أكثر من نحب، أكثر من نخاف عليه، أكثر من كنا نحيا لأجله وبعده تهون الحياة..

قرب الموت ورُغم الظلام، يظل هناك نور مصدره القلب المتعلق بمن سيتركهم خلفه إن توقف عن النبض..

قرب الموت، معه، تحت سطوته.. الكل جبناء!..

لم يكن يريده، يخشاه، ليس مستعدًا للقائه.. هناك من يحتاجه، طفليه.. كيف سينجوان دونه!..

حالم-هن

الحياة غابة قاسية، لم يستطع ترويضها بشر، فقط نكتفي بالمرور بها بسلام قدر ما يُتاح لنا..

أغمض عينيه، تعانقت أجفانه قسرًا، تسارعت أنفاسه ثم تباطئت، الألم يحرق موطني الطعنة كأنما لايزال سلاحها هناك، يفقد وعيه ويقاوم.. يحارب، يجاهد كي يتعلق بخيط حياته الباقي..

يقاتل لالتقاط الأنفاس..

صراع البقاء الأزلي، بين روح مذعورة، وفناء هو سيف على رقبة كل العباد..

يسمع صوت رجل يطالبه بالتماسك..

يستشعر كفًا تضغط جرحه كأنما تحبس نزفه ولا فائدة، ينصت لصرخات عدة من بينها صوتين أو ثلاثة يعرفهما..

يفرج جفنيه بعسر..

يلمح المنكفئ فوقه ويده تسعى لإيقاف السيل بلا جدوى..

كان رجلًا يجهله..

يرمش بوهن يجبر جوارحه على الاستسلام، يستوعب الصورة من خلف ضباب..

الرجل يأمره بأن يفتح عينيه، أن ينظر إليه.. يراه بشيء من وضوح أكبر، رمادي الخصلات، وكذلك لحيته شبه الكثة، بذلته الأنيقة تلطخت بدمائه.. ووجهه هادئ مسيطر كأنما اعتاد مواطن الخطر!..

يتسلط الضعف على أركانه، يرفع فوق قلاع قواه رايته ويعلن خضوعه.. يتنفس بشهقة أخيرة ثم يفقد وعيه..

وهناك من عمق الظلام تظهر هي، الميتة في عرف العشق، الحية بعرف قلب لم ينسَها وربما لن يفعل مادام به نبض..

تظهر ببسمة لطالما غرق فيها، نظرة تعلق بها، بلمسة دفئُها كان ملاذَه..

تقترب، تمد يدها إليه ومن ورائها تنفتح دائرة من نور كأنما تعلن أنها هنا لاستقباله، يرمقها بلهفة عاشق، ثم يشيح بوجهه بغضب يليق بفؤاده المطعون، بغرامه المنحور..

تناديه بهمس..

"وجيه"..

النبرة التي اشتاقها، الصوت الذي تاق إليه، تُرغم عينيه على العودة لعينيها، تبتسم وتقترب أكثر فأكثر..

تضمه.. فيغيب!..

في عالمه كان معها، لكن خارج ظلامه المحدود كان الخبال حقيقة، منقذه يلحق بسيارة الإسعاف التي أتتْ في خلال ربع الساعة، وإن زادت لكان غادر الحياة..

جاهد المسعفان لإيقاف النزف بشكل مؤقت حتى يصل للمشفى، هناك ظهر في استقباله طاقم الحالات الحرجة وجراح الطوارئ استعدادًا لعملية عاجلة..

أُغلِق باب غرفة العمليات من ورائه، قبع تابعه في مقعد قريب يرمق ثيابه الملوثة بالحمرة القانية في ضيق، يزفر بحرارة وينتظر كأنما هو من أهله الذين لا يعلم أحدهم..

إلا واحدًا، ظهر عند بداية الممر بغتة!..

رجلًا طويل القامة، بشرته السمراء تشوهها كدمات واضحة عمرها أيام، يركض بقلق ملهوف وازى لهفة نظرته الداكنة، يسأل عن الراقد بالداخل، ويخطو إليه..

يواجهه بتوجس، بحدقتيه حالكتي السواد ريبة، يسأل بلا تورية:

- أنت اللي جبت وجيه المستشفى!..

استقام يقابله، يرى تأمله لثيابه، يلمح زمته لشفتيه بهياج أجاد سجنه بأعماقه، ثم يجيب برفق متفهم:

- أيوة.. أنا شفت اللي حصل، بس للأسف ما لحقتش اللي عمل كده، ماقدرتش أروح وراه، كان لازم أكلم الإسعاف وأحاول أوقف النزيف..

- دكتور!..

هز رأسه بنفي بسيط:

- لأ.. مجرد رد فعل تلقائي..

لم يختفِ الشك من النظرة وإن جاوره بعض من هدوء، ابتسم يطمئنه عندما قدم المواجه له نفسه:

- يزن أبو الغار، صديق وجيه..

قبل أن يعرفه بنفسه ظهر على عتبة العمليات طبيب، توجه للاثنين يسأل عن كونهما قريبان للحالة، يكتفي بجواب صديقه، ويبدأ الشرح بعملية:

- للأسف نزف كتير، إحنا عملنا اللي قدرنا عليه، وقفنا النزيف الداخلي، واستأصلنا الطحال كان متهتك.. مش هيفوق حاليا، هيكون في العناية لمدة 48 ساعة، بعدها نطمن بإذن الله..

شيء من تشوش أصاب "يزن".. هو لا يعلم ما حدث، لمَ تعرض صديقه الوحيد لمحاولة قتل!.. وممن!..

تابع خروجه من الغرفة، خطا خلفه ببطء حتى وصل للرعاية المركزة، وهناك عند نافذتها الزجاجية العريضة وقف واجمًا يراقبه، شاحب الوجه.. باهت الملامح، ضائع التفاصيل..

كأنما ليس على هذه الأرض.. كأنما رحل عن هذا العالم..

أوشكتْ الشمس على الشروق وهو بمكانه، لم يعلم إن كان ذلك الرجل الذي أنقذ صديقه لايزال هناك أم رحل!..

هو حتى لم يقدم له شكره، بادر بالشك وفي هذا المشهد هو الأحوط..

في الصباح ظهر ضابط شرطة علم أنه المسؤول عن التحقيق في الحادث، سأله إن كانت لديه أية معلومات ومحصلته صفر..

استفسر من طبيبه عن موعد إفاقته المجهول، ثم أخبره أنه سيعود للفندق لاستكمال التحقيق، اطمأن هو على صاحبه، تجاهل آلام جسده التي لم تبرأ بالكلية بعد، تناسى مخاوفه الخاصة وأوجاع روحه، قاد سيارته إلى الفندق وهناك بث شيئًا من طمأنينة في نفوس العاملين، أخبرهم أنه سيدير المكان للأيام القادمة حتى عودة مالكه.. واستقر بمكتبه ينشد هدنة..

هدنة ظنت هي أنها امتلكتها..

بل نجاة من حرب ضروس لم ترَ في نفسها قدرة على خوضها، ليستْ أهلًا لها..

حرب اشتعلت بغتة عندما أخبرها والدها عما حدث لذلك الذي اخترق دروع القلب فامتلك منه أول نبضة عشق!..

انتفضتْ من جلستها الهادئة تقف بشهقة ألم، تلامس شفتيها بأطراف أناملها، تهمس باسمه مجردًا كأنما ذاك لها هو كل حق..

"وجيه!"..

مع لمحة الدهشة التي أصابتْ والديها عدلت منطوقها:

- وجيه بيه، إيه اللي حصل!..

مسح أبيها وجهه بحزن، ضرب كفًا بكف ينعيه، ويستنكر أن يبغضه أحدهم حد القتل:

- واحد ابن حرام ضربه بسكينة لولا راجل الله يبارك له شاف اللي حصل ووقف بعربيته يلحقه..

ارتجفت.. كل ما فيها ارتجف..

الجسد والعقل والقلب والروح..

- هو عامل إيه يا بابا؟..

قلب الرجل كفيه باستسلام واجم:

- يزن بيه طمنا، قال إنه خرج من العمليات بس في العناية المركزة.. ربنا يقومه بالسلامة، عشان خاطر ولاده..

شردت فيه.. في عينيه..

في رفضها للقرب وخوفها الملعون..

ليتها حظيت معه بوقت أطول وإن لم يكن فعليًا لها!..

لم تعلم من ذكره والدها في حديثه، لكن ذِكر الأولاد هو ما نفضها، فكرت لثوانٍ بتشتت أعلنت عقبه بحزم:

- أنا هاروح للولاد..

الوقت لم يتخطَ السابعة صباحًا، لايزال باكرًا.. ووجودها غير مفهوم معهما، لذا بادر الأب بحنو مندهش:

- تروحي فين يا رحيل؟..

انعقد لسانها لحظة ألقتْ بعدها بأول ما طاف بذهنها:

- وجيه بيه كان عرض عليَّ من كام يوم أكون مربية للولاد..

وترددتْ في كذبة.. ترددتْ ترزح تحت ثقل خوف، عقدتْ بإثره العزم:

- وأنا وافقت، لازم أكون معاهم..

استدارتْ تنفذ قرارها، خطت خطوة واحدة منعها الوالد بحزم مستغرب:

- مربية إزاي يا رحيل؟.. أنتِ مدرسة ولسه يا دوب ما كملتيش شهر في المدرسة اللي اشتغلتِ فيها..

تصلبتْ في وقفتها بشتات، تعتصر أجفانها بحيرة، تلتفت إليه مجددًا وتلمح أمها في عينيها ما لم تره من قبل!..

- هاوفق بين الاتنين يا بابا ما تقلقش، بس لازم أكون مع الولاد دلوقتِ..

هربت بسرعة تفر من سؤال جديد..

سؤال أوقفته الأم عندما ضغطتْ ساعده برفقٍ حانٍ:

- سيبها يا مختار..

نظر إليها زوجها يستنكر رد فعلها، يحيره بالمثل.. ابتسمتْ هي:

- بنتك محتاجاهم زي ما هما محتاجينها..

لا يعلم أحدهما أنها تحتاجه هو..

تحتاج قربه وتخشاه وتهرب منه وتعود إليه في دائرة مغلقة تضيق حولها في كل دقيقة لتدفعها نحوه أكثر!..

تحتاجه حد أنها قبل الذهاب لبيته مرتْ بالمشفى الذي علمت أنه به، سألت وبعد تحقيق قصير عن هويتها اصطحبها أحد أفراد طاقم التمريض للنافذة التي تطل على مرقده، تأملها الجندي الذي يقف قرب باب الغرفة لحراسته بنظرة تقييمية انتهت بأن أشاح بوجهه عنها..

اقتربت من الزجاج بتعثر، استندت بيمناها إليه، من بين خصاص الستائر سقط بصرها عليه وسقط قلبها معه..

ركض إليه وضمه عنها بلهفة، بات المشهد مشوشًا بغتة حين حجبته عبرات سجينة ما بين أجفانها، ضغطتهما برعشة، عانقتهما سويًا وعادت تبتعد..

تؤنب نفسها؛ هي ليس لديها أي حق في الحضور لهذا المكان.. لا تمتلك دافعًا لقربه سوى ما خفي بالخافق الحزين..

وذاك الخفي بين جنباته محرم عليها.. وعليه!..

توجهتْ لمنزله، كان الطفلين مستيقظين، قلقين، الكبيرة ملامحها ضائعة تمامًا، والصغير باكٍ بدموع صامتة..

احتوتهما بعاطفة أم، تمنح بكامل كيانها ما افتقدته لمن لا تملك..

ضمتهما لصدرها، طمأنتهما أن والدهما بخير، مجرد مرض خفيف وسيعود إليهما.. جاهدت لشغلهما طوال اليوم، وأفكارها هي كانت معه..

تحاوطه، تتجول في عرينه بطيش، وتتيه فيه..

تستعيد صورته، ضعفه، شحوبه، وعيه المفقود.. وتفتعل بسمة مطمئنة لأجل صغاره، لأجله، هي معهما ليس لخاطرهما وحسب..

ليس لأن في وجودهما تعويض عما حُرمت منه..

بل له.. له أكثر من سواه..

تحميهما من رعب فقده، تعتني بهما حتى يعود..

انتهى اليوم الطويل للغاية، انتهى بقلق وتعب وحزن حاولت محوه قدر استطاعتها، ببداية الليل وضعت كلًا منهما بفراشه، انحنت تدثر "ضي".. تتردد للحظة قبل أن تزيد في الانحناء وتهدي جبينها قبلة دافئة، تبتسم لها وتؤكد عليها برفق واثق:

- إن شاء الله بابا هيكون كويس، ويرجع كمان يومين تلاتة بالكتير..

لا تعلم أذاك الزمان منطقي مقارنة بما حدث له أم لا!..

هي فقط تسعى لاحتواء الهلع بأعين الصغيرين، استدارت إلى الساكن بنومته في انتظارها لتفعل معه بالمثل، تساوي خصلاته البنية الفاتحة وتتخللها بأناملها برقة:

- وأنا هافضل معاكم لحد ما بابا يجي..

ابتسم الفتى بشيء من بهجة، النعاس يداعب جفنيه فيرفض أن يغمض عينيه لكن النوم له سطوته، تراقب شقيقته التي بدأت في

الاستسلام للغياب بالفعل، ليختم هو المشهد بنبرة ناعسة سبقها تثاؤب:

- خليكي معانا على طول..

النبرة والكلمات وتفاصيل الصورة كلها رجتْ قلبها، اضطربت دقاته ففقدت رتابتها الصحية، تسارعت وبسمة شجن تخط نفسها فوق شفتيها..

كأن تلك الأمنية يباح لها ميلاد!..

اعتدلت تترك جواره، تعدل من غطاء الصغيرة.. تستدير بخطوات وجهتها خروج، خطوات لم تكتمل حيث أتى البتر من صورة بسيطة مؤطرة بأناقة فوق الطاولة المنخفضة بين الفراشين..

امرأة فاتنة، شقراء الخصلات، نظرتها لامعة وبسمتها تأسر البصر..

أبعدت عينيها عنها، عادت للفتاة الراقدة بأنفاس منتظمة، كم تشبهها!.. أتراه يتذكرها عندما تكون قربه!..

أتراه قد يواري ذكراها في صندوق مغلق ويستمر!..

هزت رأسها تنفض أفكارها، تفر منها فرارها من أسد جائع لا يشتهي التهام أحد غيرها..

كلا.. ليست أهلًا للحب ولا لمتاهاته..

هي امرأة نالت من الكسور ما شوه داخلها، والتشوه لن يعيده شيئًا كما كان..

حتى لو غرق بعشق!..

**

شيطان عرشه على الجحيم..

رجل عرشه على الرماد..

وغريب عن نفسه عرشه على قلب امرأة رُغم أنه لا يفهم الحب، لا يدرك أبعاده.. لا يؤمن به وإن أدرك وجوده؛ بل كافر بشتى المشاعر..

عاد من العمل الذي استمر به مؤخرًا.. وقف ببابها يراقبها في صمت نذير حيرة، غيَّر القوانين وقلب القواعد..

اشتهى.. أراد.. خطا برعونة وخاطر..

ارتجل معها نشواه، متعته، سلامه في قتال، وحدها تقود طرفه المقابل.. قتال لا تليق به أخرى، ولن يسمح بأن تخوضه سواها..

هو "آريز" الإغريق و"مارس" الرومان..

"نركال" السومريين و"سِت" أجداده الفراعين..

هو الشر والبلاء والصراعات..

حاكم الظلام والفوضى والعبث..

هو رجل يجد السلام في قلب المعركة، في وغى الحروب وفوق أشلاء الخصوم..

رجل ارتجل معها الأبدية!..

كان يعلم عن عدم رضاها بخطته الجديدة.. بصك ملكية أجبرها على توقيعه بلا وعي منها..

على بذرة أراد زرعها برحمها ونفذ بلا تأجيل.. بلا تفكير أو تردد..

ستنجب طفلًا يشبهه، وليحترق إخلاصها للمقبور في سعيره هو..

امرأة منحت خياله فكرة.. عقله شرود.. ذراته لذة..

هي امرأته.. شمسه التي تشرق في كل صباح، وتغرب بين ذراعيه كل مساء..

شمسه التي تريد إحراقه ويحترق هو معها برضى..

بعد كثير من فقد اعتاد الامتلاك.. ثم أتتْ وحدها تكسر الدائرة، تسعى للخلاص من القيد.. وكلما جاهدت أكثر؛ كبَّلها بأغلاله أكثر فأكثر..

تأمل شرودها، دفترها بيدها وأناملها تخط في إحدى صفحاته رسمًا ما لم يتبين تفاصيله من زاوية نظره..

يقسم أنه بعقلها بهذه اللحظة..

يفطن لأفكارها.. وكان كما هو دومًا؛ على حق..

ليس بالعقل وحسب لكن بصورته التي تنتشر بين صفحات الدفتر بيديها.. إلهام ربما..

افتقاد لهواية طمسها الحاضر بعتمته وخساراته..

خسارة من ضمن خسارات لم تعُد تكترث لعددها..

وآخرها.. رحمها!..

بقرار عنتري قرر أن يغرس فيه وحشًا صغيرًا يشبهه لاغيًا رغبتها، ماحيًا إرادتها، متجاهلًا رفضها ومخاوفها..

شيطانًا من نسل إبليس ليخلق جحيمه الخاص داخلها..

بقرار وحده فكر فيه ونفذه جعلها وعاءً لبذرته.. وكل ما تملك بهذا الوقت هو التشتت المدفون بأعماق الخوف..

لقد كانت الأمور تسير على ما يرام عندما آمنتْ بأنها مجبرة.. أن خضوعها لا يصل لما هو أبعد من الجسد دون شعور، دون اقتراب فعلي..

بعدها تبدلت الأمور، فكلها الآن لم تعُد على ما يرام..

كسر القشرة، تخطى حواجزها ومتاريس أمانها..

مِتراس العاشق الراحل..

مِتراس طفلها..

مِتراس رواية هي بطلتها مع حبيب لايزال حيًا بقلبها..

مِتراس الصمت والسكون، الهروب والثبات الواهي..

"ملهم أنا.. مش كده!"..

أجفلتْ مع اختراق صوته لمحيطها الهادئ وغيابها عن الكون، طفلها بصحبة الجد كما هي العادة، عمه بجناحه لا يغادره إلا للعمل..

وهو.. هنا.. معها..

يرى نفسه بعينيها وينتزع دفترها على حين غرة من أمامها، يُقلب في صفحاته.. يتغضن جبينه..

يتأمل ابتسامته الباهتة..

نظرة الرغبة..

الغمزة قبل أيام..

ضحكته الوحشية التي تليق به..

ثم قسوة عينيه..

كلها صور تلاحقتْ في تمريره السريع للصفحات واحدة تلو الأخرى، قبل أن يغلبه عبثه وتنتصر نشواه معها وبها:

- ده فعلا إلهام!.. ولا..

سحب يدها يقيمها في مواجهته، يحاوط خصرها بتملك صريح:

- حب!..

قبل أن تمنحه جوابها مال للخلف، جذبها معه وسقط بالفراش على ظهره، حرر خصلاتها من ذيل الحصان بفوضوية فانسدلتْ بنعومة حول وجهها.. وحوله!..

ذلك المشهد الذي بات يشتهيه معها في كل اقتراب..

تستند هي بكفيها للحاشية، تتباعد، تجابه بعناد مستنكر:

- حب!.

يرفع حاجبًا مشاكسًا فتردف بحدة لا تنتبه لها:

- أكيد لأ طبعا..

تتبدل المشاكسة بنظرته لفضول؛ هو نال الحب من قبل..

صديقته تخبره أنها تحبه، هناك.. كانت لا تبتعد عنه ودافعها الوحيد لتحمُل فظاظته وسلوكه القاسي دائمًا.. الحب..

هنا تعلن الشوق والافتقاد.. ومسوغها أيضًا الحب..

فلمَ لا تحبه بالمثل!..

انثنى جانب فمه ببسمة غامضة جاورتْ غموض حدقتيه:

- أكيد لأ!..

جاوبتْ استفهامه كأنما تنفي عنها تهمة مشينة؛ سارعتْ باختناق:

- أيوة.. أنت عارف كويس إني بحب يامن ومش هحب بعده..

لم تكترث لظلمة عينيه.. بل لم تلحظها وهي تجاهد للخلاص من طوقه بينما تكمل بقسوة غافلة عن تأثيرها..

قسوة منبعها ومصبها قلبها وحده..

قلب لن يكون لغير مَن مات عنها وتركها تموت مِن بعده:

- ومن غير ما تغير قوانين اللعبة تاني..

استقامتْ ترتب شعرها برجفة حانقة، لا تفطن لمقصد الحنق أو هدفه:

- أنت ما تستاهلش الحب..

اتكأ لمرفقيه من وضعيته بلا كلمة.. يتأملها وتتنبه هي لفحوى ما نطقت به في جنون لحظي.. تبتلع لعابها، توقن من عقابه..

تنغلق ملامحه بقُفل مبهم مخيف رُغم الجمود..

تبهت نظرته..

تخلو من كل شيء حتى ظلامه.. وبريقه الداكن..

تفيض بالخواء الذي قبض فؤادها، ينهض.. يمط شفتيه بنبرة باردة جافة بعيدة عن الانفعالات جميعها:

- في دي؛ معاكِ حق..

وتحرك يرحل عن المكان بأكمله..

وجمتْ من خلفه تراقب خطواته، تكره نفسها وقسوتها غير المبررة، تلعن اندفاعها الغريب..

كانت تقسو على قلبها وروحها قبله، تُنكر، تستنكر ما يحيرها ويجهد كل أفكارها قبل أن تهديه ألمه..

هي لم تحبه، لكنه تسلل من ثقب بلاهتها العاطفية، من ثقب شفقتها وحنانها الفطري و.. تمَلّك!..

دلف هو لغرفته ومنها للشرفة، ينظر للصومعة المحترقة باشتعال؛ يقرر أنه يحتاجها.. النُصُب لم يعُد ذا أهمية..

ما يهمه الآن أن يمارس تمرينًا سريعًا لتحجيم غضبه، لإطفاء احتراقه.. وإلا سيفصم عنقها بلا وازع من ضمير..

هي امرأة عصية المنال، تحَدٍ لن يكتمل انتصاره إلا به..

هي حربه الخاصة جدًا، والفوز فيها محتم..

هي من حفزتْ في خلاياه غريزة القتل جوار أبيه..

هي السقوط!..

**

العشق اختبار ليس من السهل اجتيازه..

مهما سبقته من محاولات للنجاح، المذاكرة، الجد والاجتهاد.. هناك دومًا عقبة.. هناك دومًا فشل..

كم مر على رحيلها!..

يوم.. اثنان.. ثلاث.. أكثر..

أيام ثقيلة، بطيئة، مُرة.. متعبة..

شقيقتها اطمأنت عليها وزارتها، "رهف" الشاردة نصف الوقت، الحزينة نصفه الثاني.. تستمر في توبيخها بعدها تمنحها لمحة شفقة تشبه خاصة الواقفين عند حافة الهاوية على أولئك الذين سقطوا واحترقوا بجحيمها..

"عدي" لم يحادثها كثيرًا بعدما طلب منها بلوم طفيف أن تفتح هاتفها ليطمئن زوجها عليها وإن كان حانقًا عليه، قبل أن يعود للقاهرة حيث حاجة العمل لوجوده..

جدها الذي يتأملها بصمت واعٍ، يبدو عليه تفهم ما تمر به وينتظر منها أن تتخطى المرحلة الأكثر عسرًا ليبدأ حديثه معها!..

زوجة العم توزع عاطفتها بينها وبين زوجة ابنها الساكنة، صديقتها التي بهتت لمعة عينيها مؤخرًا بعد رحيل زوجها..

تأملتها من جلستها تتساءل عن وجهة أفكارها بهذه اللحظة.. شرودها الذي خمنته وإن لم تستوعب كامل أركانه..

فالمعشوق غادر.. تهرب منها لأيام مضت..

تباعد وانطوى وقلَّص وقت وجوده قربها، وبادلته هي كل ما يفعل بالمثل.. نأتْ عنه، تجاهلته وتظاهرتْ بالتغافل.. اكتفتْ بالعناية بصديقتها وطفله.. ومجالسة أمه وجده..

حتى أتاه العمل كغوث ركض إليه..

تلاقتْ نظرتها مع العاشقة المهزومة بتشتت، تفاجئتْ باللقاء فابتسمتْ لها، ادعتْ الثبات وافتعلتْ الجمود كما اصطنعتْ القوة لتقدم لها الدعم..

استقامتْ بدعوى العودة للمنزل لوضع الصغير بفراشه، وهجرتْ الجلسة الجماعية بشبه هرولة، تحتضن طفله بين ذراعيها، وتعوض به ومعه حرمانها منه..

بعد اختفائها تحت وقع نظرات الأم المشفقة والجد التي حطت على حفيدته، أشار هو لزوجة ابنه ففهمت مقصده..

نهضت تعود للداخل بحجة واهية وتركتها معه، اعتدل "قاسم" يشد جذعه قبل أن يربت على الأريكة جواره:

- تعالي يا غزل..

انتبهت من تيهها على ندائه، ابتسمت له واستجابت لإشارته، جاورته فأفسح لها موطنًا دافئًا فوق صدره دفنت نفسها فيه بتلقائية، حاوطها بذراعه وتمتم بأبوة:

- فاكرة لما زمان كنت تغلطي وتخافي من أحمد، بعدها تيجي تستخبي في حضني؟..

تبدلت البسمة الشاردة لحزن..

لفقد..

لزمن انتهى ولن يعود، فالبراءة دُنست بواقع القسوة..

اندستْ بأحضانه أكثر تهمهم بجواب موافق أكمل بإثره:

- أنتِ عارفة إن أنتِ أكتر واحدة بحبها في أحفادي التلاتة مش كده!..

رفعتْ وجهها إليه تشاكسه بوجه طفولي بائس:

- أنت بتقول كده لعدي برده..

ضحك بخفوت وربتَ على كتفها:

- عدي ده اللي شايل العيلة كلها، شايل الشغل.. المصنع والمزرعة، أبوكِ مشي في طريق بعيد وعمك الله يرحمه..

وشعث خصلاتها بحنان:

- بس أنتِ آخر العنقود، أنت الغالية..

لامس بسمتها رقة وأمل وبرقت مقلتاها بتشبث نقي يشبهها فيما فات:

- بجد يا جدو؟..

أمسك ذقنها بين سبابته وإبهامه وهز وجهها برفق:

- أنتِ مش مصدقة ولا إيه يا بنت أحمد!..

ضحكتْ بخفوت وضمته أقرب:

- مصدقة، بس عاوزة أسمعها منك..

أهداها بسمة مشفقة؛ كأنما أدرك حاجتها للحب!..

قبل رأسها وأعاد عليها مقدارها بقلبه:

- أنت الغالية يا غزل..

رمشتْ تكبت دموعها، تحني عنقها وتندس بوجهها في قميصه، تشتاق لأمها.. أبيها، تريد الهروب وتشتهي العودة..

- مش هتقولي لجدو زعلانة مع جوزك ليه؟..

قلبها كاد ينفجر بين ضلوعها..

هي غاضبة لأنها تحبه..

لا تزال تحبه.. ولا تعلم من ذاك الحب نجاةً، أو مهربًا!..

زمتْ شفتيها بألم والتزمت الصمت لدقيقة فطن منها لرغبتها في الكتمان، لم يتحرك أو يضغط، حافظ عليها بأحضانه وهمس لها:

- حتى لو مش هتقولي دلوقتِ لازم تقولي لي، لو زعلك هاجيب لك حقك منه.. ولو أنتِ اللي مزعلاه هاخد له حقه منك..

ابتسمتْ حد ضحكة خافتة غمر قلبه معها إشفاق:

- أيوة طبعا.. العدل..

وأي عدل في عشق مبتور!..

عادت لغرفتها، اندست بفراشها وحيدة، البرودة تنهش عظامها، تفترس روحها وقلبها.. هذه الصورة تنقصه، تحتاجه.. تنشد أحضانه.. هو وحده!..

الزوج الذي استقبل الهاتف منه مكالمات لا نهائية لم تُجِب إحداها..

ثم رسائل لا حصر لها..

رسائل تهديد.. وعيد.. غضب.. حتى أخافها، بل ظنت لوهلة أنه على وشك التمثيل بجسدها حية..

إلا قبل ساعة..

رسالته الأخيرة التي تخشاها بقدر الأمنية..

وتتمناها بقدر الخوف..

"وحشتيني"..

خائفة هي من تسلل مُكرر إلى قلبها ومشاعرها التي تجمدت في قبر رفضه الباتر..

خائفة وبحماقة عاشقة لاتزال تتعلق بخيبة في أذيال أمل راحل..

نهارها طويل وحيد وليلها أطول وأكثر وحشة دون دفء ضمته، أمان ذراعيه ونبض قلبه الغافية قربه..

موطنها وملاذها مهما أنكرت أو أرادت الإفلات من فخ عشقه..

تقلبت بتململ، رمشت بضيق وشبه صحوة تناوش عقلها حينما لمحته!..

على طرف الفراش جوارها قبع شبحٌ مبهم في الظلام، صراخها انحشر بحلقها.. وعندما تحررت بدايته وثب يجثم فوقها، يسجنه خلف شفتيها وكفه الضخمة تحبس أنفاسها، تخرس صوتها.. إلا من عبرة هلع تسللت تتعلق بأهدابها:

- شششششش، أنا يزن..

ورُغم أن الضوء الوحيد الذي اجترأ على اقتحام ظلمة الغرفة كان من القمر الشاحب خلف زجاج النافذة؛ فقد كان وهج مقلتيه أشد وقعًا على نفسها بينما تبرقان بوحشية لم ترها من قبل..

هي أيقظت الشيطان من غفوته!..

- جوزك حبيبك يا زلابيا..

اختنقت حقيقة.. ضاق صدرها وانطبقت ضلوعها حول خافقها النابض بجنون، لا تتخيل كيف وصل إليها!..

كيف غافل الحراسة وقفز الأسوار!..

بل كيف دخل للمنزل وصولًا لغرفتها وفراشها دون أن يشعر به أحد!..

مد أصابعه يقبض على خصلاتها المبعثرة بقسوة سوداء تشبه قتامة نبرته وإن لامستها سخرية:

- أنت متخيلة إن أي حد في الدنيا يقدر يمنعني عنك!..

أنفاسها في حرب، نظرتها في معركة ختامية تَتِمتها هزيمة، ودموعها انهمرت بعتاب، بعذاب.. لم تهتز له شعرة في بدنه، غلظة قلبه تمكنت منه، من اللحظة، من الخيار والقرار:

- ينفع واحدة تعمل في حبيبها كده برده!..

تنفست بعُسر أقرب لشهيق مسجون تسرب خلاله الهواء لرئتيها بمشقة، لكنه لم يكترث.. شراسة نظرته لم تتهاون في منحها الهلع الملائم لوجودها تحت تصرفه، طوع بنانه:

- ينفع تسيبه وتمشي وتهرب بابنه!..

تملصت بكل ما أوتيت من قوة.. ركلت بقدميها الفراغ ويديها تدفعان جسده بلا جدوى، ألقى بكامل ثقله يمنعها.. بصوت قادم من أعماق جهنم خاصته:

- على فين.. مش آخد حقي الأول!..

تباعد بعض الشيء ليشرف عليها بتسلط.. يستحوذ على معصميها فوق رأسها بيد واحدة والثانية تعتق فمها لتشق سترة منامتها بجذبة واحدة!..

إثبات ملكية.. انتهاك.. وصراخ تحرر أخيرًا..

كان حلمًا؛ بل كابوسًا.. وبطل العشق، فارس الحلم صار زائر ظلام الكوابيس.. ملك فوق عرش عتمة مخاوفها التي وُلدت على يديه..

اعتدلت تجلس عند طرف الفراش بأنفاس متقطعة، تضيء المصباح الجانبي وترمق الليل من وراء النافذة بحيرة..

تحرق وجنتيها عبرات لم تجف بعد، هو أبكاها حين نومها كأن عبرات الصحوة لا تشبع قساوته..

استقامتْ تقترب من نافذتها بضياع، ومن بين ساقيها عبر سروالها.. شعرت ببلل!..

لامسته بكفها ورأت الحُمرة تخضب أناملها..

الفقد.. دوار.. وغياب محتم سبقه سقوط بصرها على بقعة نزف تنبض كقلب يصل لآخر دقاته على الشرشف..

غياب حمل معه فكرة واحدة..

لقد خسرت جنينها!..

عقبها ارتطم جسدها بالأرض كجثة، لا ينقصها سوى نزع الروح وسكرة الموت..

لا ينقصها سوى الوداع..

**

يُختبر العشق بالألم..

بالخوف..

بالفقد..

بالذنب!..

عادت للعمل معه، عادت لفتنة القرب جواره بنارها الخامدة.. فعثرتها مع مالك القلب تؤجج بها نار الوجع وتعيد عذاب الخسارة مرة بعد مرة..

هربت كما لم تفعل بعمرها، لا تجيد الهروب لكنها تتقن النجاة..

ونجاتها قاصية عن طريق قد يتقاطع مع ماضٍ لاتزال به الروح حية..

هما بالفعل يشكلان ثنائيًا ماهرًا محترفًا، بعد عودتها وتوليها زمام أمور مساعدته الشخصية ومديرة مكتبه بدأت تسيطر على لجام حياتها مجددًا..

شعور الفقد تحالف مع التناسي في وثيقة غير رسمية لمنحها القدرة على الاستمرار، نعم.. هي استمرت..

استمرت بموازاة تعهده هو الذي طمأنها به عندما وافقت..

"كان يهمني ما أخسرش الدماغ اللي بتشاركني أنجح صفقاتي"..

ومع خجل ملامحها أردف بحزم جاد..

"شغل وبس يا دُچى"..

نعم.. تعلمه صادقًا، دومًا ما تثق به..

أخبرها عن كونه عملًا محضًا وأوفى بالعهد..

عملًا ناجحًا بكل المقاييس لولا عقبة اليوم والأمر لا يتعلق بها أو به..

كانت صفقة الفوز بها مضمونًا، نصرًا محققًا وفقط لم يكتمل!..

زعيقه جوارها بالهاتف لم يتوقف لحظة، في المكتب، بالممرات.. وحتى عندما انقطع الاتصال داخل المصعد استأنفه حال وصوله للطابق الأرضي..

بالسيارة، طوال الطريق إلى منزلها بعد إصراره على توصيلها لأنه كان السبب في تأخرها معه حتى تخطى الوقت منتصف الليل..

"دي غلطتك يا رائد، وهتصلحها.. خسارة صفقة زي دي مش هتعدي بالساهل"..

راقبته يقود بيسراه، يضرب المقود بيمناه وعيناه على الطريق الهادئ بينما يفرغ غضبه في أخيه عبر مسماع الأذن المتصل بهاتفه..

"أنت بتستهبل!.. يعني تبوظ الشروط اللي اتفقنا عليها مع العميل وجاي دلوقتِ تقولي مش مشكلتي"..

استمع للحظات وهمسها يتردد جواره في محاولة لتهدئته:

- منذر.. من فضلك اهدى وهنحاول نحلها بإذن الله..

لكن صوتها لم يعبر أذنيه..

غضبه كان يستعر أكثر مع عناد الأخ الأصغر فزم شفتيه بحنق..

"هتطلب اجتماع جديد، وهتتناقش معاهم في...."..

ضوء مفاجئ ضرب عينيه عن يمينه..

زمور عالٍ لحد مخيف..

وصرختها..

"منذر"..

فبوسط ضجيج العمل بعقله تخلى عن انتباهه للحظات..

لحظات غالية.. قاسية..

قطع إشارة كان ينبغي أن يتوقف قبلها، مع خلو الطرقات في ذلك الوقت المتأخر وجو الشتاء البارد الذي احتل الخريف، بالإضافة للغضب ضغطت قدمه دواسة الوقود، سرعته تزداد..

سرعة الآخرين تزداد..

سيارة عبرت التقاطع حين تخطاه هو برعونة حمقاء..

سيارة أجرة عالية صدمت سيارته بعنف من اليمين، أزاحتها أمامها بضعة أمتار وصوت احتكاكها بالأسفلت أشبه بصرخات ما قبل الموت.. حتى التوقف التام..

قبيل غفوته في غيبوبة قسرية انحفرت آخر صورة بين جفنيه..

صورتها هي..

هفوة القلب وزلته..

برأس نازف.. ودماء لا يعلم مصدرها تغرق صدرها، ثم تمتمة واهنة باسمها..

"دُچى!"..

**

أباح لها الهروب ولم تهرب..

حررها من قبضته التي خدشت بشرتها بخشونة لا تناسب عمره وإن كانت تليق بظلامه..

ولم تتحرر!..

تيبس جسدها كله إلى جواره، كرد الفعل المخيف الذي نقابل به الصدمات أحيانًا..

نتصلب، نتجمد.. ننتظر، ووقتها يأتي المصير ليدهسنا في طريقه..

كان يعلم أنها تتأمله بذهول، بخوف، برهبة وحزن..

وكل ذاك ناسب مزاجية اللحظة، ومذاق الظفر ما قبل الأخير، فهي على وشك نيل صفعتها الكبرى!..

"يعني كل اللي حصل، كل اللي فات كان تمثيل!.. مجرد لعبة زي ألعاب أخوك!"..

هتفت بكلماتها حادة، شبه زاعقة، غاضبة كأنها تملك حق الغضب أو الاعتراض، زم شفتيه.. مطهما ببرود، استدار إليها بوجهه ومال نحوها ببطء لا يكترث البتة بكل صراعاتها الداخلية التي أعلنت عنها نبرتها الفائضة بمشاعر شتى:

- بالنسبة لِك أنتِ لعبة!..

عقد حاجبيه بنظرة ميتة لا يمتلك سواها..

نظرة لا تعني شيئًا، ولا تقدم شعورًا، فكل مشاعره أجاد دفنها والنجاة من الموت معها:

- كل اللي عيشتيه معايا؛ حصل قبل كده..

ارتجفت كفه بلا وعي..

رجفة صادقة كذَّبتها فالحقيقة والوهم باتا محض لعبة لا تثق بقدرتها على مجاراة قوانينها:

- كسرت كوباية من غير قصد وجرحت صباعي جرح عميق احتاج خياطة..

قبض يديه فوق ساقيه..

غاب في عتمته بشرود كأن الذكرى تنبش في أعماقه..

تنقب عن الألم:

- نوبات غضب ماكانش حد بيتحملها إلا عمار..

ارتعشت شفتاها تحاوطه ببصرها كرادار يلتقط كل انفعال ممكن، مسبار عتيق لن يجيد عمله كما ينبغي لكنه فقط يحاول:

- كان بيدخل أوضتي يكتفني في حضنه، أصرخ وأبكي لحد ما أهدى.. بيقعد معايا على الأرض وسط التكسير، بيحاول يطمن طفل صغير دنيته كلها بقت ضلمة..

عاد يواجهها برأسه، يراها في خياله.. يقتلها.. يموت معها..

ينزف وتنزف والروح تنازع لحظات الرحيل وسكرة الفناء:

- حياته اتدمرت بسببي..

التوى فمه بسخرية طفيفة:

- طلق مراته، كان هيخسر شغله لما انشغل بيَّ..

أحنى عنقه قربها، يقتحم مساحتها الخاصة، يتنفس قبالة عينيها وأنفاسه باردة كقلبه تمامًا:

- حياته اتدمرت بسببك أنتِ..

نهض يغادرها.. بعدما أسدل ستاره الممزق على عرضه البائس، مسرحية لكاتب مبتدئ لم يتقن حبكتها فصب لعناته على بطلها المفقود بين صفحاته:

- كل اللي بتعيشيه بالنسبة لك جديد، لكن بالنسبة لي أنا...

ختم بمرارة، فلم يصفق الجمهور الحانق الباحث عن الوردية بين ثنايا الضباب:

- مجرد ديچا فو!..

تابعت خطواته بوجع..

وجعها بات وحشًا يتلذذ بالتهام دواخلها، يقضمها على مهل ويستنزف طاقتها قطرة قطرة.. يبتلعها في دوامته لحظة، يغرقها فيه ثم يحررها في التالية.. يلاعبها كما فعل كلاهما..

من عشقتْ.. ومن نال الشفقة والعطف والذنب..

احتجبتْ بعدها في غرفتها عدة أيام تجاهلت عددها، رُغم كلماته الأخيرة لها:

- على فكرة عمار مستنيكِ في مكتبه، موضوع يهمك..

كلمات مقتضبة لم تُثِر فضولها، كانت خاضعة لوحشها، مستكينة بين أنيابه، وقواها خائرة عن مقاومة لا تسمن ولا تغني من جوع..

أيحق لهما القصاص!..

أيحق له أن يحركها كدمية بخيوط وهمية لا تراها لكنها تذعن لها بلا إرادة!..

أيحق لها هي الاستياء، الغضب، الثأر!..

مَن منهم الثلاثة يملك الحق، وأي حق يملكه ليمارسه بتسلط!..

غادرت فراشها بإنهاك، منذ ذلك اليوم لم تنم بشكل جيد، كانت تتهرب من لقاء الاثنين، حتى زوجها يتصرف ويتحرك ويروح ويغدو كأنها شبح في حضرته..

أنهت حمامًا دافئًا يناسب ليلة بداية الشتاء، ارتدت سروالًا قماشيًا أسود اللون، تعلوه كنزة ثقيلة رمادية باهتة تشبه بهوت ملامحها وضياعها..

ليلة أرق لا تختلف عما سبقها من ليالٍ، لذا قررت استغلالها والذهاب إليه..

ربما يكون لديه الخلاص، أو معه الخاتمة التي تتوق إليها..

طرقت باب مكتبه، سمح لها بالدخول، خطت تقترب، تتأمله بنظرة تائهة، قميصه داكن الزرقة، سرواله الذي يقربه في اللون، خصلاته المبعثرة بعض الشيء، وتركيزه المنصب على عدة أوراق بين يديه نحاها مباشرة حال ظهورها..

ارتجفت نبرتها قسرًا وهي تدعي الثبات:

- نوَّار قال لي إن في موضوع مهم عاوز تكلمني فيه!..

ترك مقعده، نهض يخطو دانيًا بتلكؤ يضغط به على أعصابها أكثر، يواجهها بطول قامته، رفعت عينيها إليه فمنحها بسمة غامضة تشبه غموضه كله:

- اتأخرتِ..

صمت لثوانٍ.. الطريق المستقيم دومًا ما كان مسارها، لم تلجأ بعد للمنحنيات المعوجة التي توصل للغاية في النهاية دون اكتراث بالكيفية.. كان ولا يزال، انتهجته بألم صريح:

- ليه عملت فيه كده!..

رفع حاجبًا مندهشًا يستنكر به هجومها وإن أتاه مختنقًا لائمًا بعاطفة:

- ليه تملاه سواد!.. ليه توجعه وتعرفه هو عايش مع مين في بيت واحد!..

تراجعتْ خطوة تدور حول نفسها بقنوط:

- لسه طفل..

وضع يديه في جيبي سرواله ينتظر ختامها التمثيلي..

يرمقها بعين ناقد لم يعجبه الأداء، يراه زائدًا عن الحد، غير منطقي.. لا يناسب شيطان الحكاية الذي بدأ بالخطيئة ويرفض تقبل العقاب..

ابتسم بجمود، مجرد شق صغير تمخضت عنه شفتاه بينما البغض، المقت، العداء هو سيد اللحظة ورمح النظرة:

- أنتِ تعرفي إيه عنه أو عني عشان تتهميني باتهام زي ده!..

هاجمته دون اعتبارات، تخطت مخاوفها وإثمها والندم الذي يحرقها من كل زاوية:

- أمال عِرف أنا مين إزاي!..

صرخت في وجهه، اقتربت تقابله بخطوة حادة:

- عاوز تعرف أنا أعرف عنك إيه!..

وغاصت في عينيه، حيث لون كان عشقًا، ومُقل فازت منها بغرق:

- أعرف عنك كذب، خداع، غش.. كل اللي أنت قلتهولي، مجرد رتوش تسمح بيها اللعبة..

صفق ببرود كالصقيع:

- برافو.. وعشان ده بس اللي تعرفيه، مش من حقك تطلقي أحكام لا عليه ولا عليَّ..

ثم دون انفعال يذكر تحكم بمرفقها يسحبها إليه:

- أنا اتحرمت من نوَّار من أكتر من تلات سنين، زرته خلالهم مرتين والتالتة كانت قبل جوازنا بشهر.. وقتها عرف إني هاتجوز، ولما سألني مين ما حاولتش حتى أكدب عليه..

جاور قبضته راحة الثانية تحاوط عنقها، تضغطها دون رفق..

دون قسوة..

تضغط حتى حدود رعب الموت، لكنها لا تلامسه حقيقة:

- كان لازم يعرف إني هاجيب له حقه، هاقتص له من اللي حرمته من حياة سوية..

لم تبالِ بما يفعله، بمحاولة قتل نصف فاشلة فحياتها تحت جناح ظلمه أثمن:

- أنت بتحملني كل الذنوب، رغم إن الذنب الأكبر عليك.. الحياة السوية كان ممكن تديهاله لو راعيته واهتميت بيه، مش رميته بين الجبال عشان...

- عشان يعرف يعيش..

بتر زعيقها بصرامة، بنظرة قاتمة، وغيمة جافة تظلل صحراء روحيهما القاحلة:

- عشان يعرف يتكيف، عشان يتعلم إزاي إن الحياة ممكن تستمر مع العجز..

ونفضها بغضب تراه للمرة الأولى:

- عجز أنتِ السبب فيه..

ولَّاها ظهره يضغط أسنانه بسخط، يمزق خصلاته بجذبة عنيفة، يطحن الكلمات فيفتتها على أطراف شفتيه:

- أنتِ حرمتيه من تعليم عادي، من حياة عادية، من حب زي أي شاب في سنه..

بعدها استدار إليها بغتة بنظرة كالموت، أو أشد قسوة وإثارة للهلع:

- حرمتيه من إنه يشوف الحب في عيون بنت بيحبها.. نوَّار ما بقاش عارف يعني إيه حب، ولا مهتم يعرف..

وأوضح بثبات يراقب من خلف أجفانه شبه المغلقة اهتزازها..

رجفتها وأنينها المحبوس بصدرها:

- أنا حاولت أجنبه كل الوجع ده، سيبته يعيش بعيد عني عشان ما يحسش بألمي ولا السواد اللي ملا قلبي، أنا خسرت كتير بسببك يا وسن..

اقترب يطوقها بحضور يصرخ بالضغينة والكره والحقد:

- خسرت ابني، خسرت بيتي واستقراري، كنت هاخسر شغلي لولا شراكة اضطريت لها عشان ما أقعش..

ابتلع لعابه في انفعال إنساني لا يشبهه:

- كل ده عشان كنت بادور على حقه، باخده من اللي اتسبب في خسارته.. كنت باحاول أقف جنبه لحد ما في الآخر استسلمت لاقتراح خالي إنه يبعد عشان يقدر يعيش..

كلماته كانت تذبحها من الوريد إلى الوريد، ترميها أرضًا وتشاهد النزف بنشوة سادية، كلماته تقتلها لكن لم ينل منها الموت فعليًا لذا فالوجع فاق الاحتمال..

كل ما قاله لم يهمها في شيء، كان يمكن أن يجنبه الكثير من الألم فقط إن لم يخبره أنه يحيا مع من أجرمت في حقه تحت سقف واحد لكنه لم يفعل..

أخبره كل التفاصيل، وهي تلومه.. تلومه وتبغضه وتكره ضعفها معه ومع أخيه:

- كان ممكن ترحمه من وجوده معايا، كان ممكن تحميه..

- ده كان اختياره..

ضرب بقدمه الأرضية ضربتين متتابعتين:

- أنت في البيت ده كأنك في لعبة طويلة، مش حرب.. مجرد لعبة، لا أنتِ عارفة قوانينها ولا مسموح لك تلعبيها، مسموح بس تكوني طرف مستقبل..

عقبها دنا منها، يقبض على ذقنها بفظاظة حررت من حلقها شهقة نصف مكتملة:

- مسموح لك بالخوف والوجع والعذاب..

وانطلق دون مقدمات يسرد عليها البداية؛ كيف خطط لقربها، لنيل القلب والجسد.. وكل ما تملك!.. كيف تحالف مع جميع شياطين عالمها ليتقرب منها، ويسقطها في فخه بلا مقاومة!..

كل المشاكل التي صادفت مشفاها كانت من صنع يديه، انتهاءً بالأجهزة التي احترقتْ يوم تناول معها الغذاء بمنزلها..

يوم موافقتها على عرض زواجه!..

كانت قشته الأخيرة، وضربتها القاصمة..

ختم عرضه الختامي بشموخ نجم يعشقه الجمهور:

- أنتِ طروادة، إوعي تنسي ده..

قاومت العبرات التي تلسع ما بين جفنيها، قاومتها في قتال غير متكافئ فالهزيمة تلوح لبصرها في الأفق:

- أنت عمرك ما لعبت معايا بشرف..

تحركت هي ترد الهجوم دون أن تبيح لصدمتها من مفاجآته التي لا تنتهي ظهور:

- حربك دايما قذرة، بتعتمد على الغدر والطعن في الضهر..

ابتسم بأريحية..

باسترخاء.. براحة، ابتسم باتساع أنيق راقٍ يتماشى مع ذئب أنهى وجبة مشبعة للتو:

- كل واحد فينا حربه شريفة من وجهة نظره..

اقترب بعدها يتجبر في وقفته، في نظرته.. في قتامة ابتسامته والبغض الذي يفيض من عينيه:

- حتى لو طبق مبدأ اللا شرف..

ولوح بذراعه في شرح سلس:

- بيدافع عن حقه وبس..

تضاعفت القتامة فبات لون حدقتيه داكنًا كغيوم ليلة ماطرة:

- بينتقم من اللي كسره..

صمت لحظة ضحك إثرها بخفوت ماكر، ساخر، منتشٍ:

- كل شيء مباح في الحرب قبل الحب..

هزت رأسها بحزن، بأسى وحسرة وكراهية تتسلل إليها:

- حربك ماكانتش عليَّ لوحدي يا عمار، أخوك هو كمان كان ضحيتك..

ظلت ملامحه على استرخائها وخبثها:

- نوَّار اختار بنفسه يكون موجود لما عرف مين هتكون مراتي..

عقبها خطا نحوها، تباعدت بالمقابل حتى حاصر ظهرها في جدار لم تحاول معه الفرار، لن تفر من معاركه مرة أخرى:

- حقه.. ياخد قصاصه منك بطريقته..

ومد سبابته ووسطاه يلمس عينيها فأغمضتهما بتلقائية:

- العين بالعين..

- كان أهون..

همستها مختنقة فانتشرت بأوردته ثمالة النصر:

- ومين قال إنك تستحقي رحمة أو عدل!..

تراجع لمكتبه، جذب من فوقه ملفًا مد يده به إليها وأعلن ضربته الحاسمة التي ستنهي ما تبقى من عقلها وقواها وثباتها:

- الخبر اللي لازم تعرفيه، مستشفى السلامة..

انتبهت بتوجس، تخطو نحوه بتعثر، تمسك بالأوراق في قلق مرتعب بينما هو يكمل بنبرة ناعمة كمن وصل لنهاية حربه ونال الكمال:

- كل أسهمك فيها اتباعت، توكيل منك لجوزك حبيبك، مجموعة استثمارية اشترتها من كل الملاك، هتتهد لأن مكانها مناسب لحاجة قيمتها أعلى من مستشفى خسرانة.. وهتتنقل لمكان بعيد، وأكيد مش هتكون باسم دكتور سالم حجازي..

مال يهمس قرب أذنها وهي تقلب في الملف بهوس مختل:

- ولا وسن حجازي..

رمته من يدها فتطايرت محتوياته بعشوائية، لم تهتم بكونها تحت رحمته، بكونها الأضعف، الأكثر هوانًا.. جذبت قميصه بيديها تجاهد لهز ثباته:

- أنت بتقول إيه!.. أنت عملت إيه!.. أنا ما عملتش توكيل، ده تزوير.. أنا هاوديك في داهية..

قبض على كفيها الاثنتين بغلظة، اعتصرهما بأصابعه حد أنين انفلت منها وجمدها في مواجهته يهمس بمواجهة عينيها:

- أنت بالونة مليانة هوا يا وسن، لا عملتِ ولا هتعملي ولا في إيدك تعملي حاجة.. شكة دبوس تنهيكِ..

دفعها عنه باحتقار ممتعض:

- جربي الخضوع، يمكن تخرجي سليمة من اللعبة دي..

وبكل صفاقة تمم عملية النحر..

فتح لها الورق، شاهدتْ توقيعها الصحيح، أخبرها عن امتلاكه لإرادتها، لم يكترث لكذبة سابقة.. أو صدمة حالية..

راقب جمودها.. صمودها..

جفاف عبرة ولدت وماتت قبل أن تغادر مآقيها..

تيه النظرة وغيابها في مجهول..

التفاتتها المترنحة، خطواتها المتمايلة كمن تجرع زجاجة كاملة من خمر رديء وهو لم يذُق قطرة منه من قبل..

تابعها تصعد الدرج، تختفي من أمام ناظريه..

تمنى لو تموت!..

ثم يبتسم داخله، ويقرر أن موتها معه وأنفاسها تتردد هو الفوز.. هو النصر..

هو خاتمة حرب استباح في معاركها أراضيها وأعلن على تمردها وعصيانها كل قمع..

تنهد بعمق، زفر براحة.. وابتسمت الشفاه..

فاليوم يمكنه أن يرتاح، يمكنه أن يطمئن..

**

كارثتها أنها ذات ضمير حي، قلب هين وطبع لين..

كارثة وإن ظنتها في يوم ما مضى حيث سلامة النية ونقاء السريرة.. مَزِيَّة!..

منذ قست بالحروف وقذفتها بوجهه، منذ أخبرته أنه لا يستحق الحب، أنه ليس أهلًا له.. منذ ذلك اليوم وهي لا تكاد تراه..

عمل وغياب لوقت متأخر.. عند العودة متابعة لصومعته التي تتم إعادة بنائها وترميمها بعد الاحتراق..

في الليل يغيب فيها أو بغرفته فتلمحه بالكاد يمر هنا أو يرحل عن المكان بهدوء صامت..

وكعادة صمته وجموده.. يخيفانها!..

تدرك أنه ينوي عقابها، عقابًا سيكون أقسى مما قد يطوف بخيالها البريء الذي تلوث بوحشيته..

هذه المرة هي أوجعته!..

لم تهدِه الغضب وحسب بل نكَّهته بالألم..

بالرفض..

بالهروب من حصاره، من سيطرته التي يتنفسها..

بالأمس جربت قطع طريقه بحُجة..

أرادت الذهاب للسوق، بضع مشتروات هامة تخص احتياجات صغيرها؛ حين طلبت منه اصطحابها نظرًا لغياب السائق في ظرف ما ورحيل زوجة أخيه..

لحظتها رماها بنظرة باردة وأبلغها أن تذهب كما تشاء..

اعترضت تعلل بأوامر الجد السابقة، بعدم خروجها منفردة.. ليخبرها بنبرة أشد برودة من زمهرير شتاء قارص:

- دلوقتِ الأوامر أوامري أنا..

لذا أطاعت بلا جدال.. هي فاقدة لكل طاقتها معه مؤخرًا، لعبتها التي انقلبت عليها.. هدنتها المبتورة، وقسوتها والذنب الذي يجلدها..

كل ذاك جعلها تستجيب بسكون لن تحركه عواصف غضبه إن شاءت أو حاولت..

لم تعتد القسوة..

لم تألف جرح الآخرين..

لكنه فعلها، نجح في تبديلها، دنس نقاء فطرتها ولطَّخ دفء مشاعرها بشيء من غلظة قلب..

ارتدت ثيابها، استعدت للخروج، المركز التجاري ليس بعيدًا، ستذهب إليه وتعود منه سيرًا على الأقدام.. ربما حتى تشاهد المكان الذي تحيا به وتجهل تفاصيل طرقاته ومعالمه..

مرت على الجد تعلمه ببسمة عن ذهابها..

حالته الصحية باتت أفضل، همهمته صارت أكثر وضوحًا بحروف مبعثرة وإن لم تُفهم منها كلمات بعد.. نصفه الأيسر أصبح تحكمه فيه أكثر سلاسة خاصة مع اقتراحها الذي قبِله بنفس راضية..

مقعد متحرك!..

تصطحبه للحديقة، تجالسه.. تقرأ له كما كانت تفعل "غزل" قبل رحيلها.. وتترك الصغير بصحبته..

ذاك كان ملخص أيامها الفائتة..

فتحت باب المنزل ووجدته في مواجهتها.. بذات النظرة الباردة الخاوية، حلة قاتمة وملامح مصمتة..

مصمتة كتمثال صلب قُد من صخر لا حياة فيه..

تفحصها للحظات قصار أشار تلوها إليها لتتبعه كأنما ألغى قراره الأول فجأة، تبعته.. جاورته في سيارته وقاد بها بهدوء مغيرًا قوانينه، مرتجلًا من جديد.. سيصطحبها!..

جلست تفرك كفيها بتوتر حائر..

بحشرجة نالت من صوتها عندما حاولت الحديث فاختنقت باعتذار.. لا تدري لمَ النطق به ثقيل على لسانها!..

شجاعتها خانتها.. واستيقظ الضمير يجدد لومه وتوبيخه..

"على فكرة أنا آسفة"..

بصقتها بنبرة مرتعشة مندفعة لم تفُز منه بانفعال محدد، بل حتى لم يلتفت إليها.. مط شفتيه بجمود وازى سؤاله اللامبالي:

- على إيه!..

هو حقًا لا يهتم..

أو ربما يخفي وجعه بقناع التظاهر، كأن شيئًا لم يكن!..

بررت بخفوت نادم:

- ماكانش قصدي أجرحك أو أقول كلام يوجعك..

تأملت الطريق لحظة بضيق من نفسها، راقبت قطرات المطر الخافتة التي رسمت خريطتها على الزجاج أمامها وماسحاته تعمل تلقائيًا ببطء لتمحو أثرها:

- أي حد في الدنيا يستحق الحب، المهم يلاقيه...

- شمس أنتِ مكبرة الموضوع ليه!..

جذ عنق خيالاتها بغتة.. بقسوة..

بلهجة جليدية مظلمة تشبه ظلمة مقلتيه اللتين أهديتاها نصف نظرة لا مكترثة وازت بسمته الساخرة.. السوداء:

- أنتِ عندك حق..

توقف في تقاطع ضيق بوسط المجمع السكني الهادئ، نقر المقود بأنامله في إيقاع رتيب:

- أنا مابدورش على الحب..

أدار وجهه بالكامل نحوها، لتسقط في دوامة عينيه السرمدية كفراغ فضائي خالي من كل معالم الحياة:

- أنا بفتش عن الخوف..

رفع حاجبًا هازئًا بشكل مسرحي متهكم:

- باتغذى على المشاعر السلبية؛ هي اللي بتنعشني..

لم تصدقه!.. هو بشر مهما تلبس عباءة إبليس أو اعتنق مبادئه..

- مافيش حد كده..

- أنا كده..

هكذا ببساطة.. عاد يقود وقد اقتربا من المركز فدار يدخل إلى مرآبه الضخم:

- إحنا لسه على مسارنا ما تقلقيش، لسه في هدنة..

زمت شفتيها بشجن مسَّ نبرتها بلا إرادة:

- واضح إنها هدنة مؤقتة..

أوقف السيارة في مربع خاص واستدار إليها بجذعه:

- كل هدنة لازم تكون مؤقتة يا شمس..

اعتدل قليلًا يميل باقتراب لا يليق، تراجعتْ هي له في ارتباك:

- على العموم لو عاوزاني ممكن تطلبي عادي من غير لف ودوران أو محاولات صلح مالهاش سبب حقيقي..

تضاعف ارتباكها وزادت معه حمرة وجنتيها وحنق نظرتها:

- أنت عارف إني مش كده..

طاف فوق تفاصيلها بتأمل ماجن:

- للأسف لأ.. مش عارف..

تساءلت دون حديث وأردف هو مفتعلًا العجز الساخر:

- أنا كل يوم بكتشف فيكِ جديد..

تراجع لجلسته الأولى يطوقها بنظرة صماء لم تدرك لها معنى:

- غامضة..

في هذه كان صادقًا..

في كل لحظة معها اختلاف.. لها تفرد.. بها تميز..

رونق يشده، يحييه، يتجدد.. ويُجدد طاقته، ينشر بخلاياه نشوة الاكتمال والسيطرة..

- يلا وما تتأخريش..

أفاقت من شرودها المؤقت على أمره الفاتر:

- مش هتيجي معايا!..

تلك المرة نظرته كانت متعجبة، تتعجب من حماقتها ربما!..

ترجلتْ بشرود تتسوق ما تحتاج.. شرود فيه، دفعتْ عربتها حتى ملأتها.. عند الممر الأخير التقطت ثلاث علب من حليب طفلها وقبل وضعهم بالعربة أتاها النداء الذي تحفظ نبرته عن ظهر قلب:

- شمس..

نبرة مشتاقة، توق حاضر، لهفة صريحة وشغف لا يجوز إنكاره..

التفتتْ لصاحبه بقلب واجف:

- داوود!..

اقترب هو خطوته حد حصارها:

- وحشتيني..

**

الكذبات عمرها قصير مهما طال.. والأقنعة إلى زوال حتى وإن ظننتَ لعمر كامل أنها حقيقتك..

أنها أنت..

كذبتها كانت للنجاة، وقناعها كان للتعايش والاستمرار..

لكن في لحظة حدثت الفضيحة!..

تعرتْ الحقيقة، وتمزق قناع التماسك..

إحدى علاقات ماضٍ ليس ببعيد، حيث سطح المجتمع المخملي بصحبة زوج عاشق، وحفلات تدار في ظلالها أعمال وصفقات..

لقاءات الصفوة كما يسمونها..

لم تكن صديقة، لكنها تعرفها بشكل كافٍ لتتجمد في وقفتها عندما تراها بصحبة صغير تعلم أنه ابن مالكة النادي الصحي، تعتني به وتجالسه، تبتسم له بحنو ابتسامة تعرفها..

تصطدم بها، بحضورها..

بكونها على قيد الحياة!..

لا تبالي بصبغة باهتة لخصلات كانت في الأصل شقراء، أو وشاح ينسدل عنها بعشوائية..

لا تبالي بوجوم النظرة أو التيه والضياع المحاوطان بها..

شهقة، انفعال مبالغ فيه، نظرة مرتعبة كمن رأت شبحًا، وفي واقعها هي كذلك بالفعل!..

صرخة عالية وصلتْ بوضوح للآتية من خلفها لاستقبال طفلها ومربيته:

- ليلى!..

تتراجع خطوة، هلعها يتضاعف وتكرر السؤال في غير تصديق:

- ليلى شاكر!..

الأمس لا يموت..

الأمس حي مادمنا نحن أحياء..

والهروب من عوالقه هو عين المستحيل!..

**

1829

البعض يعدو هاربًا من ماضيه، فيأتي الماضي ركضًا من ورائه..

يلتفت كل فينة وتالية بخوف كطباع الفرائس، والنتيجة.. تعثُر!..

عادت بهرولة، تستدير عقب كل خطوتين، تفر من مجهول حتى استندت لمقدمة السيارة تلهث، مع لقائها بعينيه عاد إليها الثبات.. شدت قامتها وخطت تجاوره بهدوء لم يقنعه..

كان مصطنعًا وهناك شيء مبهم لا يفطن إليه بين جفنيها!..

- مالك!..

- مافيش..

جواب سريع مقتضب لم تصمت بعده:

- ممكن نروح!..

تفحصها بنظرة ثاقبة بعثت في جسدها.. في قلبها برعدة ثلجية:

- فين الحاجات اللي كنتِ بتشتريها!..

بادرت بأول جواب غير مقنع تبادر لذهنها:

- مالقيتش النوع اللي أنا عاوزاه..

لم يُعلق.. لم تتبدل نظرته، ولم تُضِف هي حرفًا زائدًا..

صمت تمامًا لثوانٍ، أدار محرك السيارة وتحرك بها جهة المخرج..

عينه تلتقط رجفتها، توترها، تشتتها.. هزة قدمها وشيء من خوف أثار حيرته وتساؤلاته..

توقف يخرج بطاقة انتظار السيارة للحارس خلف صف قصير من السيارات المغادرة، اعتدل يلقي نظرة على مرآته الجانبية..

وكان هو هناك!..

رجل..

نحيل بعض الشيء..

متوسط القامة، كثيف الخصلات بتصفيفة مشعثة..

هناك.. يلتقي بناظريه عبر المرآة، ويخبره ببساطة أنه المقصود!..

ربط الخيوط بلا جهد..

في لحظة كان يرجع للوراء بظهره وبسرعة لا تناسب المكان، قبل الواقف ببضعة أمتار يستدير بانحراف حاد فوق العجلات الخلفية بصرير مزعج.. ثم يتوقف قبل أن يدهسه بنصف متر..

لم يهتز..

والآخر كذلك، لم يرمش.. لم يتحرك قيد أنملة.. بل ثبت بصره عليه!..

أما عنها فقسماتها صارت حكاية لا يمكن سرد عبثيتها وفوضاها..

شحوب، ذعر تجاهد لسجنه لكنه أطل من مقلتيها يلوح بجنون في وجهه..

ورعشة بانت واضحة في نبرتها:

- يعقوب.. رجعت ليه!..

تجاهلها.. حصرها في هامش المشهد، فالبطولة الآن له ولذلك الذي واجهه بنظرة شامتة وبسمة غامضة..

ترجل يقابله بواجهة باردة:

- أنت مين!..

سأل باقتضاب حين غادرت هي السيارة، ترتكن إليها بضعف وكل ما فيها ينبض هلعًا..

تأمله ذلك المجهول بدايةً من خصلاته الداكنة حتى أخمص قدميه بنظرة متلكئة، تحدث بعدها بصوت ماكر:

- أنت بقى جوزها التاني أخو جوزها الأولاني!..

تفحصه من علو، كانت قامته تهيمن عليه بمسافة ليست بالضئيلة.. رمقه باحتقار امتزج بغضب هادر لم يخرج عن نطاق سيطرته:

- واضح إنك مذاكر..

لمعتْ عينا الغريب بنظرة مستخفة:

- وواضح أنك مختلف عنه..

- أنت مين!..

كرر السؤال ويده تقبض على ياقة الغريب، يقربه منه، يطغى عليه فيكاد ينطوي في ظلامه.. رآه يدور بوجهه إليها..

يعاتبها بصوت هازئ ويستنكر جهل الزوج به:

- تؤ تؤ.. عيب عليك يا شموسة، مش تعرفي جوزك بيَّ..

ضغط "يعقوب" ذقنه بأصابعه في غلظة مؤلمة، يعيد بصره نحوه:

- عينيك معايا أنا وترد على السؤال..

صمت الرجل لحظة، أهداها نظرة جانبية..

بسمته ترسم سخريته وتُشعل فتيل هياج الثعلب..

تخرجه من جُحره وتُبرز مخالبه، تَسن أنيابه وتغويه برائحة الدم في عروق المختنق بين يديه.. قبل أن يفجر لغم جواب غير متوقع بعقله:

- أنا عشيقها..

شهقتها..

حُلكة غطت عيني المطعون بغدر..

الهائج حد الحرق والشنق والموت..

وتوتر العشيق المجابه بشجاعة مزيفة؛ شجاعة اهتزت مع غيمة القسوة التي ظللت مقلتي من ظنه لا يختلف عمن مات في كثير وإن لاحظ الاختلاف..

توترًا واراه تحت رداء صفاقة وقحة:

- وشايف إنك تخليك راجل جنتل مان زي المرحوم، وتغمض عينيك عن العلاقة اللي بيننا..

خطأ.. خطأ قاتل ارتكبه هذا الأحمق معه..

يتهمها بعُهر..

يتهم أخيه بقِوادة..

ويريد منه المثل!..

بغتة تحرك، أداره فبات ظهره إليه، خطا يدفعه أمامه بعنف.. ذراعه تطوق عنقه والثانية تكبل يده..

يصدم وجهه بعمود خرساني يتوسط المرآب، يحشره بهجوم جسدي متسلط حد الاختناق:

- طيب في حاجتين لازم تعرفهم..

كاد العشيق المذعور يسبه، يهينه، يخبره أنه لا يدرك مع من يلعب في لعبة مخاطرة ليس بقدر تحملها..

لكن "يعقوب" لم يتوقف ليستمع، مال يهسهس في أذنه بفحيح شيطاني يخوض معه ويل جحيمه:

- لو اتعرضت لمراتي تاني؛ هاقتلك..

كأن العاشق العائد سيكترث بتهديد بعدما وجدها!..

ولأن "يعقوب" يفهم.. يقرأ البشر.. ويقرر بحسم باتر لا ينتظر إعمال العقل فقد أكمل بخشونة شرسة:

- والحاجة التانية عشان ما تنساش الكلمتين دول!..

أمسك بكفه دون مقدمات، بسطها على العمود الصلب بلا تردد، وبلا تأخير كان يضم قبضته.. يسدد لظاهر الكف المفرودة لكمة قوية، باطشة لم يدخر فيها نصيبًا من الغضب..

كمطرقة حديدية صلبة حطمها تمامًا..

تلاها الصراخ.. السقوط..

ونظرتها المرتعبة..

منذ البداية وقفت تراقب بوجوم.. بهلع.. بابتهال أن تنشق الأرض وتدفنها بباطنها رحمة بها!..

تجهل ما يمكن أن تفعله؛ فالتزمت بجانب العجز..

العشيق المزعوم جثا على ركبتيه، يمسك بكفه المهشمة، يولول كطفل يخشى إبرة دواء، يصرخ فيه بألم لا يحتمل:

- أنت مجنون!..

دفعه "يعقوب" بركلة في صدره أسقطته على ظهره، وتحت حذائه استأنف سحق يده المفتتة بقسوة وحشية:

- لأ..

تضاعف الصراخ فعلا بصوته أكثر ونظرته تقتل..

ربما بالفعل تقتل:

- أنا مجرم..

تركه ينطوي كجنين ويده في حضنه قبل أن يجذب صراخه أمن المكان..

تراجع عقبها يجرها، يعيدها لمقعدها.. يندفع لمكانه ويقود السيارة برؤية تحجبها ألسنة اللهب التي تحرقه..

كل ما أراده في هذه اللحظة أن تختفي من أمامه..

أن تتوقف عن نداءاتها..

دموعها..

أيمانها المغلظة وتوسلاتها بالشرح.. بالتفسير..

كبت كل ذلك باقتضاب جامد، حجري زاد من فزعها..

"كلمة زيادة وهادفِنِك حية"..

صمتت.. استكانت جوار الباب بدموع خائفة..

عند البيت قفز يسبقها، صعد للجناح وفور عبوره من بابه نزع سترته، أتبعها بقميصه.. توجه إلى الحمام يقف في حوض استحمامه بسرواله أسفل رذاذ الماء البارد..

بارد للغاية فالشتاء يطرق أبواب الخريف باقتحام، برودته كطلقات رصاص ثلجية يحتاجها لتطفئ ذلك الحريق الذي ينتشر في هشيم أفكاره بلا رادع..

وهي في كل خطوة كانت خلفه.. تتبعه..

تدور في مداره المستعر..

تستجدي صبره وتفهمه..

تراه يقف تحت المياه قارصة البرودة بنصف ثيابه فتناديه بحشرجة واهنة:

- يعقوب، كده تتعب.. أرجوك اسمعني..

لكنه لم يسمع..

لن يسمع..

سحبها معه يصدم رأسها بالجدار بقسوة، يعتصر ذقنها، يواجه أنفها وفمها بالماء قسرًا..

يظفر بشهقة غرق ورجفة صقيع..

يُكبلها بلا نجاة..

يرمقها من عليائه بخاتمة لم تكُن في الحسبان..

رحل الظلام..

حلَّ السعير..

ورأت في عينيه الموت..

موتها!..

(26)

في حبكة كاتب حزين يختم صفحات آخر رواياته قبل إعلان اعتزاله، سقطتَ كبطل لم ينل من البطولة سوى لقبها الرنان..

أما ما عداه، فقد كنتَ مغفل الحكاية الوحيد..

**

ها هنا، أغفل الكاتب مقدمته وبدأ بالذروة!..

أحيانًا تهون الحياة حد اللامبالاة، حتى نسقط بغتة بأعماق هاوية الموت.. في اختناق الأنفاس الأخيرة..

عندها فقط نتشبث بالجدران..

نقاتل للنجاة وإن كانت بين طيات الوهم، ننهار تحت ثقل الخوف..

أخذها حتى الحافة، بضع ثوانٍ أخرى تنتهي بالحسم..

أصابعه تحتجز ذقنها، ترفع وجهها نحو الماء الغزير البارد، تجاهد لبعض الهواء فتجد السائل يغمر أنفها وفمها، ثيابها وجسدها كله..

حلم-هن

شهقة مكتومة مبتورة..

زرقة تحتل الوجه والشفاه..

ويداها تصارعان لجذب ساعده الذي يكبلها مرسلًا بها إلى الفناء..

ترتعد.. ثم تخفت الرعدة..

يتراخى الجسد.. كفاها تضعفان.. تنقلب العيون باختناق..

وترى ختام تلك المسرحية الكئيبة المسماة حياتها..

بعدها يحررها..

بغتة يفعلها بجبين معقود ونظرة مبعوث من قلب الجحيم، أتى ليذيقها العذاب والويلات..

انزلقتْ بسقوط غير متزن تحت قدميه، تشهق، تعبُّ الهواء عبًا، ترتجف بردًا وهلعًا..

تراه يميل فوقها، يجذب خصلاتها فتتكرر شهقتها، يسحب رأسها بلا شفقة ليواجه وجهها، ذعر عينيها، ارتعاشها..

تنتفض في محاولة مفزوعة للابتعاد.. ترتعب منه..

هو بهذه اللحظة لم يكن بشرًا.. كان الشيطان!..

تلك النقطة البيضاء بداخله تلاشتْ في السواد القاتم..

لم يكترث كما العادة، تشددت قبضته حول شعرها المبتل إثر تأوه ألم، همس في مقابلها بهسيس اختلط زمهريره بسعيره:

- اتكلمي..

تصطك أسنانها، تلتهب المسافة الضئيلة ما بين أجفانها بدموع هوان مكبوتة، ترتجف حروفها فتخرج متقطعة يتخللها شهيق نجاة:

- أنا.. مش.. خاينة..

توحشتْ ملامحه أكثر، لم يغلق محبس المياه، كانت تضرب ظهره العاري كطلقات رصاص ثلجية بينما ينحني ليظللها كشبح الموت:

- انطقي..

باقتضاب قاتل..

كررتْ بنفي مفزوع، أتراه يصدق في خيانتها.. لا، هو لا يفعل:

- أنا مش خاينة؛ مستحيل أخون يامن..

تصب سائل الاحتراق فوق جحيمه لترتفع ألسنة لهبه بوجهها..

بلهاء حد رغبته في خنقها هذه المرة حتى تفارق الحياة، ودون أن يتوقف جسدها عن الارتعاش أكملتْ:

- وأكيد مش ها.. هاخونك.. أنا مش خا.. خاينة..

كانت كأنما هي حية في قبر من جليد دفنها به مختل وهرب..

لم ينطق بحرف، بررت بشجاعة واهية تتحداه:

- أنت عارف ومصدق.. مصدقني، وإلا كانت إيديك دلوقتِ غرقانة بدددمي..

اقترب من أذنها بفحيح أشبه بطقطقة النيران وهي تأكل في طريقها كل ما تقابله:

- أنت تعرفيه..

يقررها..

نعم تعرفه..

وتخشاه كذلك!..

حاولتْ التراجع، التخلص من الموقف الأشبه بجلسة إعدام سبق النطق بالحكم فيها، الحصول على شيء من دفء والصقيع يفترس عظامها بلا هوادة:

- ممكن... تســيبني... أغير و.. و نتكلللم..

كانت حروفها تتقطع، بعضها يعاد ملتصقًا في شبيهه، بشرتها مزرقة بالفعل وشفاهها فقدت ورديتها، صمتَ للحظات تلوها دفعها.. أغلق الصنبور وخطا يغادر المغطس، يجفف جسده بينما هي تتبعه في تعثر مميت..

ألقى إليها بذات المنشفة فالتحفتْ بها دون إرادة، عيناه تخبرانها ألا تهمل تفصيلًا واحدًا.. أن خروجها من تحت يديه هو أبعد أمنية وأقصى ما يمنح..

فلتنجو بنفسها.. فلتبدأ بالسرد..

والسرد عقيم، حزين كرواية خاتمتها لم تُرضِ القراء، السرد مبتور جوار عاشق مهووس رآها وأرادها بكل الطرق..

بأي وسيلة!..

.....

نحن هنا حيث البداية لم تكن أبدًا لطيفة؛ كانت مسروقة..

البداية لكاتب سقط في حيرة، كيف يبدأ روايته!..

هل يقتل البطل ثم يسرد حياته بماضيه اللعين في ومضات كئيبة، أم يبدأ اللعنة منذ الميلاد!..

البداية لكاتب نهجه بائس تراجيدي، فلسفته سوداء، كاتب لا يرحم أبطاله البتة..

البداية لقصة عشق كان ينبغي لها البتر بمقصلة الواقع قبل أن تولد.. مختلسة.. مخطوفة..

بأمس يحمل في غياهبه كل قسوة وفقد وضياع..

وكره!..

هي وهو وحكاية خطها الماضي بينهما دون أن يدركا كيف استهلها وبمَ تممها، حكاية بسيطة.. فتى وفتاة ومشاعر بِكر تليق برقتها وبساطته..

فقط الماضي كانت له السطوة، الماضي تدخل يحسم أسطورة العشق بقلبيهما، يخبرهما أن ما فات سد عالٍ بينهما، سد كاد هو يخضع له..

أما عنها!..

هي قفزت فوقه، تخطته وهربت إليه..

تزوجت من عاشقها ومعشوقها، نعمت معه بعام من خيال، من حلم تخشاه كما تتمناه، فالحقيقة أقرب للقسوة..

الحقيقة تنهش الأحلام..

راقصة باليه، ساحرة.. دافئة، حارة تلسع كشمس ظهيرة، تبهر نظرك وتوجع عينيك.. لكن عيني ثالث الحكاية لم تتوجعا!..

اكتفتا بالانبهار.. بالهوس.. بالجنون والشغف ورغبة الامتلاك..

"داوود خطاب"..

لا تعلم عنه سوى الاسم، لم تحاول التفتيش فيما هو أكثر.. بعد أول عرض منفرد لها برقصة خاصة ظهر خلف الكواليس كملك متوج ينحني الجميع في حضرته..

تقدم منها فأفسح له الكل موطئ خطواته، عرَّفها بنفسه.. قبَّل أناملها بأناقة، وبسلاسة أثنى على عرضها، على سحرها فوق خشبة مسرح كانت شمسه؛ فالنجوم في ضوئها تتلاشى..

تكررت تلو ذلك زياراته، متابعته لكل عرض كانت بطلته، أو حتى ظهرت فيه بشكل جانبي..

أعاد ثناءه..

حاصرها بكل وجود ممكن، وهي تملصت منه قدر استطاعتها..

قدم لها الهدايا التي رفضتها، نظرته حين لحظة الرفض الأولى أرعبتها، التمعت بلوثة لحظية، برقتْ وخفتتْ بغتة في ثانيتين، حتى أنها يومها تراجعت خطوة تبتعد عن محيطه..

لم يكترث كثيرًا للرفض، ظل على منواله، سياجه الخانق الذي طوقها به، رفعتْ في وجهه كل أسوارها الشائكة، تجاهلها ومزق جسده حتى يعبرها، حتى يراها..

لثلاثة أشهر حافظ على مراقبتها في كل عروضها، لم تعلم ما تفعل سوى أن تتجاهل وجوده المقبض، نظرته لها في كل مرة كانت

تخيفها.. وفكرة إخبار زوجها تفزعها، ماذا لو أخبرته وحدث ما لا تحمد عقباه!..

لذا في آخر مواجهة قريبة لهما نهرته، تلبست قناع الجمود وأمرته أن يبتعد عن طريقها، أنها زوجة لا تحبذ رؤياه في كل مرة وهي على خشبة مسرح ترقص، بينما عينيه تعلمانها أنها ترقص له وحده..

تلك الفكرة اقشعر لها بدنها مع نظراته المسلطة عليها، وهو بتر كل اعتراضاتها بقرار.. يشتهيها، وسينالها..

كادت تصفعه، قبض على معصمها بغلظة أوشكت أن تحطمه.. اقترب حد إثارة ذعرها، يعدل كلماته..

هو يريدها حتى النخاع، حتى الثمالة، حتى آخر رشفة من خمرها المسكر..

يريدها حتى الممات.. سيتزوجها!..

حينها توسعت النظرة بذهول، صرخت في وجهه بكونها زوجة.. وهو تعامل كأن الخبر عنده غير ذي قيمة:

- اطلبي الطلاق..

أمرها بها حادة باترة لا تحتمل رد فعل سوى ما يريد..

وما يريده أتبعه بإيضاح مختصر، لمعت مقلتاه بهوس غريب ضاعف من مخاوفها:

- اطلبي الطلاق وهاتجوزك..

ارتجفت في مواجهته، تباعدت، فرت بهلع حبسته خلف قناع صلب، كقطة صغيرة تناوش طفلًا مشاغبًا يصر على تعذيبها، تخمشه بلا فائدة.. بل يعذبها أكثر:

- أنا بحب جوزي، أنت مجنون.. مش عاوزة أشوفك تاني..

نظرته التي أعتمت في وقتها كثقب ينوي افتراسها لم تفطن لمغزاها، اختفى بالفعل.. تباعد أو هذا خُيل إليها، حتى عاد للظهور..

لكن هذه المرة طاردها دون رفق، دون إدعاء عشق، دون أي شيء سوى رغبة الإذلال والكسر والاستحواذ..

وبسيارته صدمها!..

أنهى شغفها بهوسه.. أضاعها بجنونه..

وأفقدها نصف حياتها التي لا تعرف سواها..

لم يمكنها إخبار العاشق كيف انتهى الأمر بها محطمة الجسد على قارعة طريق اليأس، كل ما قالته أنها سيارة مجهولة اختفت قبل أن تدرك تفاصيلها..

والزوج دعم، ساند، احتوى.. ضاعف من عشقه وقربه وتطييبه لألمها..

ثم من يومها لم تره.. لم تعلم عنه أي شيء..

عاقبها على رفضها له، ثأر لذكورته، لقلبه المدسوس عنوة في معادلة غير موزونة، انتصر بمعزوفته النشاز على أوتار فقدها.. اختفى!..

انتهى السرد..

أيها الكاتب المهووس، ماذا فعلت؟..

هل تدرك أنك لم تُنهِ القصة!..

أنت للتو بدأتها..

.....

النهايات..

النهاية ربما لم تأتِ بعد؛ وطريق الوصول إليها لا يشبه حتى تلك البداية التي اصطنعتها لنفسها..

لا يماثل نهج العشق، ولا يتوقف عند الألم لفقد المعشوق..

النهايات في الغالب؛ خسارة!..

ختمت قصتها، كقصص الخيال والأميرات والغابات المسحورة، كانت هي الواهنة في العشق، الخاسرة في متاهاته.. الجميلة التي أصابتها اللعنة ففقدت العاشق بمصير لا عودة منه..

وقفت واجمة بمكانها وشعور البرد لم يرحل عن أوصالها بعد، عن روحها وخلاياها المرتجفة تحت قطرات الماء الثلجية وثيابها المبتلة، تحت وقع نظرته التي جمدت دواخلها كلها..

لا يبدو أنه سيمرر الأمر..

لا تظن أنها ستنجو من مقصلة مخاوفها وغضبه هذه المرة..

راقبته يبدل ثيابه، يرتدي قميصه بينما يوليها ظهره في صمت مهيب، صمت مثير لكل هلع ومفجر لجُل فكرة محتملة..

اقتربت خطوتين تقف خلفه، تهمس بحشرجة مرتعشة:

- هتعمل إيه!..

انعقد حاجباه ونبرتها تحيره!..

استدار بتمهل يسقطها في تلك العتمة بين جفنيه، عتمة لم ترهبها أكثر من قبل كمثل هذه اللحظة، عتمة مقفرة إن جاز الوصف، تفتقد حتى بريق العين المعتاد..

فراغ أسود هائل سيبتلعها إن أراد..

هو لن يتنازل عن رد فعل لا تدرك أبعاده، هي تعرفه أو تظن أنها تفعل:

- اللي أعرفه إنه مش حد قليل، ممكن يأذيك..

تبخرت العتمة دون مقدمات ليحتل مكانها وهج ساخر، فمه ينحني بالتواء مستهين قبل أن يبتر مخاوفها غير المبررة بصرامة:

- شرير الحكاية آخر واحد بيموت يا شمس..

انقبض قلبها على ذكر الموت..

تراجعتْ خطوة تغطي فمها بأطراف أناملها ونظرتها تعاتبه في حين اقترب هو، اقترب حد التحام الأنفاس في عناق خانق، والنظرة في ضمة ودت لو تملصت منها لكنه لا يهديها راحة النجاة من سجن عينيه:

- أنا لما قلت له إني مجرم ماكنتش باهدد..

مع اعتلاء الدهشة لمقلتيها رُغم السكون والترقب والرعدة أردف بحزم معلنًا خبره القديم:

- أنا رجل عصابات..

وتخطاها كأن وجودها يوازي انعدامه، كأن حضورها أمامه الآن لا يعني شيئًا.. كأنها محض وهم، يعرف هو حقيقته ولا يكترث لسرابه الخادع..

هي الشمس.. وهو الظلام..

والنصر في حرب بينهما مستحيل!..

- أو كنت..

كلمة ختامية ألقاها على مسامعها ورحل..

رحل إلى حيث لا تعلم، بل وتخشى أن تفعل.. رحل إثر قنبلة جديدة فجرها فوق رأسها..

كان يا ما كان..

زوجها مجرم بحق!..

**

في حكاية واقعية؛ هي امرأة خائنة.. وفي رواية لكاتب يطعن أبطاله بعمق القلب دون أن يرف له جفن.. هي ميتة!..

ميتة بحق العشق والزلل والفُحش..

ميتة بحق انتهاك الشرف بإرادة حرة..

ماتت حين استجابت للشيطان والرغبة وسقطت بفراش عُهر..

في رواية؛ هي لا تزال على قيد الحياة، حتى وإن قرر بطلها أنها ليست سوى شبح سيهيم على وجه وحدته طوال الأحداث وصولًا إلى الخاتمة..

في رواية بائسة سيلحظها الأمس وإن لم تكتفِ بالمسير في ظل جدار؛ بل غاصت فيه حتى اختفت داخله..

شهقة المرأة جمدتها تمامًا، لم ينتج عنها أية رد فعل مناسبة أو غير مناسبة، رمقتها بعين منطفئة، نظرة جاحظة ثابتة حائرة، وانعقد اللسان عن صياغة الأحرف فساد الصمت بهيبة مقبضة..

صمت قطعته التي أتت من الخلف بحزم كأنها المشهد لا يناسبه سوى اللامبالاة، تعتذر للسيدة، تبعدها عنها وتهمس لها بكلمات تواترت لأذنها عمدًا:

- مدام جيلان، نورتِ السبا.. دي مربية آدم، اسمها عايدة..

سحبتها معها إلى غرفة خاصة رُغم ممانعتها، كانت تلتفت من فوق كتفها فتشغلها عنها، تخبرها بقصة ملفقة لو كانت تجيد قراءة حركات الشفاه من بعيد لبكت تأثرًا لأجل نفسها..

ما يهمها أن المشهد انتهت بطولتها له بلحظة..

لحظة لم تدُم، حيث عادت "نيروز" للمكتب، ترمقها من عليائها بصلابة غامضة، تشير لها وللصغير بأن موعد الرحيل قد آن، تصل بهم السيارة للمنزل.. ويتم اليوم على خير، الفتى في فراشه، وهي متوجهة لغرفتها تحمد الله أن الأمر مر!..

أو هكذا كانت تظن..

بعدما أغلقت بابه، استدارت لتجدها تقف بثبات بمنتصف الردهة، تعقد ذراعيها وتنتظر منها الاقتراب..

تنتظر منها بداية السرد!..

سرد غير متماسك لحبكة تعجُ بالثغرات، هي وحدها تحوز فيها دور البطولة..

هي المثالية والشريرة والضحية والظالمة..

هي ستؤدي كل الأدوار بلا استثناء وعلى المتضرر اللجوء لبتر عنقها بغلق صفحات الكتاب..

"التفاصيل يا ليلى وإلا مش هارحمك"..

المبادرة التي لم تمتلك زمامها، هل يجوز لها الالتفاف حول الحقيقة!..

هل يباح كذبة نجاة!..

أم أن الصدق هو الملاذ الوحيد حتى تستمر!..

اختارتْ الأخير عقب تردد، رجفة، حزن وعبرة حبستها بقلبها.. اختارته وبدأت القصة قبل ذروتها الحاسمة، العشق والشغف ومنتهاه، اللهفة والقرب والأسرة الصغيرة.. تاجها زوج عاشق، جوهرتاه طفليها..

تاج مُلك خلعته وتخلت عن العرش لأجل سقطة..

أنهت سردها المهلهل بدموع فقدت سيطرتها عليها، أنهته وانتظرت العقاب أو النفي..

دقيقة من سكون حلت على المكان، قطعتها "نيروز" بزمة شفاه، هزة رأس توحي بخيبة، وسبة تستحقها:

- غبية يا ليلى..

رمشت بوهن لم يهز شعرة بالجالسة في مقابلها، مسحت عبراتها بأطراف أناملها وكتمت نحيبها حتى شج حلقها، راقبت سيدتها تنهض، تدور حول نفسها بتفكير، تجذب من حقيبتها لفافة تبغ وتشعلها متجاهلة كل قوانينها التي استنتها لبيتها، أنهت نصفها تاركة مخدومتها تحترق بجلستها حتى ارتدت إليها بلهجة جامدة:

- شوفي؛ أولا.. أنت مرفودة..

انعصر فؤادها مع الخسارة الجديدة، خسارة استقرارها، حياة ألفتها، أحبتها.. الابن الذي ترى فيه ما فقدته وتستعيض بقربه عن صغيريها، شردت نظرتها تجاه غرفته فتبعتها "نيروز" ببصرها، تضيق عينيها ونبرتها تلومها:

- كنتِ بتعوضي خسارتك لولادك معاه!..

النظرة المشحونة بكل عاطفة داخلها جاوبتها، إجابة لا تكترث لها..

لا تكترث لتلك الكاذبة بالكلية..

فكذبتها تكفيها لتنحر عنقها بلا وازع من ضمير، لوت فمها بحركة حادة:

- أنتِ لما اخترتِ تخبي عليَّ؛ اخترتِ غلط..

عادت تجاورها، تنفث آخر دخانها كضباب خانق بينهما، وتعلن النهاية:

- هدبر لك شغل كويس بعيد هنا..

- بعيد!..

همستها المتحشرجة بالكاد عبرت شفتيها، ربما ماتت على حدود النطق قبل أن تصل لمسامع "نيروز".. لكنها سمعتها، رمقتها بقسوة تستحقها، بصفعة إفاقة لابد وأن تكون قاتلة:

- أيوة بعيد يا ليلى، لازم تبعدي.. تعيشي حياتك وتسيبي ولادك يعيشوا..

هرست اللفافة في مرمدة على الطاولة أمامها، تنهدت وشاب صوتها غلظة:

- أنت مش متخيلة لو شافوكِ صدفة هيحصلهم إيه!..

لمحت اعتراضها على وجهها..

الضعف والبكاء الذي لم يتوقف.. سيل حارق حفر أخاديد الوجع فوق وجنتيها.. لمحت كل ما بان منها وما خفي، بنظرها الحقيقة لا تقبل بالتلون.. ولا تغشاها الأمنيات:

- أبسط حاجة الصدمة العصبية، تفتكري لما يعرفوا إن مامتهم لسه عايشة وإن باباهم كدب هيتصرفوا إزاي؟!..

ثم مالت تخترق حواجز روحها بنظرة صارمة:

- ماجاش في بالك إن باباهم عشان يبرأ موقفه ممكن يقول الحقيقة!..

نفت برفض غير مصدق، ابتعدت بجذعها وإيقاع النفي يتعالى حد الصراخ داخلها وإن لم تعبر عنه كلماتها سوى بغمغمة باهتة:

- وجيه ما يعملش كده..

- هو عمل معاكِ أكتر من كده..

نطقتها "نيروز" باترة، ساخرة.. تعيد الصفعة، تجذبها من غرق محتم في خيالات لن ينالها من وهمها سوى الوجع.. سوى كسر تلو كسر:

- لمصلحتهم ولمصلحتك، اختاري نفسك وابعدي، عيشي..

بعدها ابتسمت بتهكم، أمسكت بذقن "ليلى" بين سبابتها وإبهامها تدقق في فتنة ملامحها التي نقش عليها الحزن تجاعيد قرون:

- أنا قلت الجمال ده مش جاي من حياة مطحونة لمجرد مربية، رغم الصبغة!..

ابتلعت الساكنة لعابها بمشقة.. كادت تغص به، اختنقت، سعلت بخفوت وكل ما فيها يصرخ بالعجز، حياة أخرى تهدمت على رأسها..

حياة الحاضر التي افترسها الأمس بين أنيابه..

تلك السقطة ستظل تدفع ثمنها أبد الدهر بأقساط متوالية من فقد وغربة ووحدة..

أتتها جملة الختام من ملقن المسرح، يخبرها أن وقت إسدال الستار قد أزِف، المسرحية مأساوية للغاية، ونصف الجمهور رحل بعد بدء العرض بدقائق، أنتِ هنا مؤدية نصف موهوبة لبطولة غير مستحقة:

- في ناس معارفي في الغردقة، هاكلمهم على شغل ليكِ، يليق بمؤهلك.. وهيكون معاكِ مبلغ مناسب تقدري تشوفي بيه مكان تعيشي فيه.. مكان يليق بليلى شاكر حرم وجيه نصار صاحب واحدة من أكبر سلاسل الفنادق في البلد، جهزي نفسك خلال يومين..

تشبثت بكفها قهرًا، ألمها ووحدتها وضياعها، تشتتها وخوفها وكل ما فات معها:

- خليني هنا..

انتزعت "نيروز" يدها منها بلا عاطفة، أهدتها نظرة أخيرة شبه مشفقة، قبل أن تعلن بقسوة باردة:

- sorry يا ليلى.. أنا مابحبش حد يستغفلني، وحقيقي المفروض تشكريني إني اكتفيت بطردك وكمان هاساعدك..

انتهى السرد..

هل أرضتَك الخاتمة أيها القارئ العجول؟..

لا سيدي الكاتب، أنا أريد المزيد..

إذًا.. لك ذاك!..

**

كان كاتبًا لا يتقن الحبكات الناعمة، حتى أنه عندما فكر في واحدة وبدأها.. قتل البطل!..

نحن لا نشعر بألم السقوط إلا لحظة الارتطام بالأرض الصلبة..

قبلها ونحن نحلق في الهواء نتمسك بالأمل، بالذكرى، بشريط حياة طويلة يمر في ثوان توازي سرعة عجلة الجاذبية التي ستطحن قلبك بعد هنيهة..

نتمسك بأن العودة ممكنة والمستحيل لم يُخلق بعد!..

كان يركض..

بجنون يركض..

أنفاسه بجواره تركض..

نبضه.. نظرات عينيه وعبرة مكبوتة تحجبها الجفون..

1864

كل ما فيه كان يعدو بلهفة على حافة الفقد، خشية السقوط نحو قاع النهاية..

منذ وصلته الرسالة قبل ساعتين..

"غزل في المستشفى.. أجهضت"..

رسالة قبضت روحه مع روح طفله، وتلك التي كادت تنتهي معه..

زوجته!..

هل وقت الخوف يباح الاعتراف بعشق!..

هل الخوف وحده زناد المشاعر..

مفجر اللغم.. مثير البركان!..

هل الخوف يزيل الغشاوة عن القلوب كما العيون!..

أم أنها فورة مؤقتة لفيض أحاسيس مختلطة ومشتتة!..

توقف بلهاث عند باب الغرفة، توقف وعينان من بعيد تراقبانه بقسوة لم تكن يومًا من طباع صاحبتهما لكنه يستحقها..

رفع قبضته يطرقه وتردد، أيحق له التواجد معها وهو من تسبب في أذى!..

لا.. هو ليس السبب، هي من رحلت، من غضبت، من اختارت الفراق والوحدة فسقطت بعيدًا عنه..

لم تكن بين ذراعيه ووقتها لربما بات الاثنين بأمان..

ربما كان عالمه كما هو؛ لم ينهد فوق عقله وقلبه..

تجاهل الطرق وأدار المقبض، تحرك للداخل بهدوء، يتأملها فوق فراش المشفى الأبيض الباهت، منطوية على نفسها في وضع ألم..

في وضع خسارة..

توليه ظهرها، ساكنة تمامًا كأنما فقدت روحها جوار طفلها، وازى فراشها في وقفة متصلبة حائرة.. غاضبة..

لا ينكر أنه غاضب منها، عليها.. على نفسه.. ساخط على حرمانه في كل مرة ممن يحب..

والسؤال.. هل يباح له ذاك!..

ألم يبدأ هو بتمزيق الخيط من طرفه!..

ألم يعترف بعشقه لأخرى!..

ألم يُسقطها من معادلة حساباته الفارغة!..

اعتصر جفنيه ودمعته تنحسر لتجاور نزف فؤاده المكسور بين ضلوعه، لم يحاول لمسها فقط همس..

همس باسمها ونبرته تختنق بكل حرف، بكل شهيق وزفير:

- غزل!..

- امشِ.. من فضلك امشِ..

همستها هي المبادرة..

لقد استشعرتْ قدومه حتى قبل أن يفتح الباب، تلك الدقة المغايرة لكل دقات القلب..

المكان كله يتغير بحضوره، الهواء يسكن ليمنحه فرصة المرور..

تحتجب الأصوات جميعها ولا يبقى سوى وقع خطواته، نبضاته، أنفاسه..

سمعتْ حركته البطيئة الخافتة، وقفته الصامتة.. لمستْ خوفه وقلقه على طفله.. هو أبدًا لن يهتم لأمرها..

هي الوعاء والرحم والأسيرة والعاشقة المغفلة..

هي...

- مستحيل أمشي..

بتر كل أفكارها ووجعها بتشبُث!..

تشبُث أسقط عبراتها بهوان فأغمضتْ عينيها بلا التفات:

- امشِ..

تأمره برجفة تغلف صوتها، ويتمسك أكثر بخوف صريح لا يخفي حضوره بين كلماته:

- عاوز أطمن عليكِ..

لم ترد.. كيف تطمئنه والوجع ينهشها!..

- طمنيني وخليني جنبك..

انسابت دموعها أكثر بينما يكمل بحزن مازج خوفه:

- دلوقتِ على الأقل وبعدها هاعملك اللي أنتِ عاوزاه..

هل سيتخلى!.. سيحررها!..

اللعنة عليه وعلى العشق والعشاق أجمعين..

- المهم تكوني كويسة، مش مهم حاجة تانية.. ابننا يتعوض..

تغضن جبينها بتشتت..

"يتعوض!"..

وجدته بغتة يجاورها دون اعتبارات، يضم ظهرها لصدره، يحاوطها رُغم التمنع ويتمتم في أذنها مباشرة بكل دفئه وقلقه وذعره..

بكل رهاب الفقد الذي يغرق فيه..

إن فقد طفله؛ لن يفقدها هي..

هي غزله وجنونه..

هي الحياة..

- المهم أنتِ تبقي بخير..

تملصتْ منه واستدارت إليه برفض مستغرب، يدها تحاوط بطنها المنتفخ بجنينها بوضوح جذب بصره المذهول:

- أنت بتقول إيه!..

اعتدلتْ جالسة تتباعد عنه بوهن:

- ابنك كويس الحمد لله يا يزن..

لم ينطق هو هذه المرة، كان حائرًا.. إذًا ما معنى الرسالة!..

لمَ أخافته الأخرى!..

سيقتلها..

أما هي فقد قستْ عيناها وتناءتْ بجسدها تأبى قربه:

- أظن دلوقتِ اطمنت على ابنك؛ تقدر تمشي..

جلس بالمثل، حيرته تسجنه خلف قضبانها، مخاوفه تلاعبه.. تطفو للسطح فتهديه حرية النجاة، ثم تسحبه معها إلى العمق فتغرقه، تجاهل الأمر بأكمله واستقر على رغبة واحدة..

طمأنتها..

- مش هامشي، هافضل جنبك.. جنبك أنتِ..

قبض على كفها يحتويها بين كلتا يديه رافضًا رفضها ومقاومتها، محاولتها الواهنة لانتزاعها من دفئه وإن كانت تتوق إليه.. تشتاقه:

- أنا جيت عشانِك..

جذبتها منه بعنف أكبر وانفعالها ينقلب للغضب:

- وأنا مش عاوزة أشوفك..

طعنته الكلمة، أوجفت فؤاده..

قسوته عادت للظهور، زم شفتيه يكبتها.. يُكممها، اعتصر قبضتيه وضغط أسنانه للحظات:

- أنا مقدر إحساسك دلوقتِ، بس...

- اطلع برا..

بترتْ محاولته للتماسك، اجتهاده في دعم لا يدري كيف يقدمه لكنه يسعى..

بترتْ كل قرب وأججت سخطه، فتح فمه يصرخ فيها.. فتصلبت الكلمات، رمقته هي بتحدٍ، بضيق..

بمشاعر لم يرها في عينيها من قبل، وذاك وحده أحزن قلبه..

الفتور بنظرتها، الرفض الصريح الذي لا يحتمل دلالًا أو يقبل بترضية، الشجن والقنوط!..

نظرتها وحدها حولت ناره لرماد، أخمدتها دفعة واحدة فاستكان بأسى، يهديها هو نظرة عاتبة، يعلن افتقاده وقلقه وألمه.. يرتجف فكه وترى الرجفة، بعدها يتراجع، يغادر الفراش.. يعانقها بتأمل أخير يرحل بإثره عن الغرفة بأكملها..

تتابع رحيله، تنتقل الرعشة لشفتيها كطفلة ضائعة، تعود عبراتها للانهمار، تحاوط طفلها بساعديها وتنطوي على نفسها بتعب..

تتذكر لحظات الهلع، كانت ستفقد جنينها والشكر له!..

تلك الضغوطات النفسية التي تعرضت لها خلال الأيام الماضية أنهكتْ جسدها كله، عندما سمعت صديقتها صرختها، سقوطها..

وهرولت إليها بظلام الليل أفاقتْ بأحضانها، شهقتْ بذعر، تتوسلها أن تغيثها.. أن تنقذ ثمرته برحمها..

نُقلت لأقرب مشفى، طمأنهم أحد أطبائها، الجنين بخير لكنها تحتاج للكثير من الراحة والبعد عن أي اضطرابات أو ضيق..

استرخت عقبها في فراشها، أناملها تداعب شاشة هاتفها، تريده معها.. تريد ضمته، تتلهف لأمانه، تحتاجه!..

ومن شرودها انتبهت وقتها أن رسالته التي ظنتها حقيقية، كانت جزءًا من الحلم.. من الكابوس..

"وحشتيني"..

كذبة أخرى اختلقها القلب لمعشوقه، ودهسها الواقع بلا اكتراث..

لذا تخلت عن رغبتها في وجوده، وتجاهلتْ كل نبض الفؤاد الحائر المشتاق، لكن كما يبدو أن الصديقة لم تفعل..

راسلته وأتت به راكضًا كمجنون بكذبة!..

أتراه حقًا أتى لأجلها وحدها!..

أم أتى ليعاقبها على خسارته لطفله، وبعدها يطالب بعودتها والتعويض!..

هي بحياته مجرد رحم، حل لأحجية ومفتاح الثروة..

لا قيمة لها بحساباته.. ومن عينيها هطلتْ دمعة أخرى تشاركها خيبتها في العشق، تنعي تعاستها في دروبه..

.....

الكاتب هنا فقد السيطرة، بطله بات هو المختل!..

خرج من الغرفة، وقف عند بابها يفتش عن تلك التي أحضرته بكذبة كأنه لن يأتي دونها.. كذبة قاتلة لا تعلم أنها فقط ذبحته بتأنٍ، بتمهل.. كوحش سادي يتلذذ بنزفه البطيء وألمه الخالد..

رآها مقبلة عند بداية الممر، خطا إليها وأوقفها بغضب:

- بتكدبي ليه!..

جابهته بعناد، تشد قامتها، تعقد ذراعيها وتواجهه بغلظة تراها تجدر به، تراه يستحقها:

- عشان أنت تستاهل الوجع ده..

أغلق يديه كأنما يمنع نفسه عن الإمساك بها، عن ضرب رأسها بالجدار الذي يقفان قربه، ينهرها بشبه زعيق:

- أنتِ بتتدخلي بأي حق من الأساس!..

رمقته بنظرة باردة لا تبالي بجنونه الملحوظ:

- بحق الحب، صاحبتي اللي بحبها وباهتم بيها، تعرف يعني إيه حب!.. ولا بتوفره لواحدة غير مراتك وبس!..

ألجمته للحظة؛ البلهاء أخبرتها بالقصة المنتهية..

لوح في وجهها بسبابته:

- ما تدخليش في حاجة ما تخصكيش..

ابتسمتْ.. بسمتها كانت تفيض بمشاعر سلبية خانقة:

- غزل تخصني، وهاحميها حتى من قلبها اللي أنت ما تستاهلوش..

برقتْ عيناه بخبال، كان على وشك تحطيمها حين بتره النداء الهاتف باسمها..

"رهف!"..

الزوج الذي أتى وسمع ونال حقه في الغضب..

تقدم يواجه "يزن".. يحجب زوجته خلف ظهره بحمائية ويسأل بمباشرة عنيفة:

- أنت تعرف واحدة على مراتك!..

كاد ينفي.. كاد يصرخ أنه لا يريد سواها وابنه بهذا العالم..

كاد.. لكن ذاك الذي يسأله لا يمتلك الحق بتوجيه السؤال، لذا تحداه بتجبر:

- ده برده ما يخصكش..

واجهه "عدي" بصرامة حادة:

- لا يا يزن، اسمح لي أصحح لك.. غزل بنت عمي، وأنا هنا أخوها.. لو عاوزة تسيبك عشان أنت راجل خاين؛ هاطلقها منك وأنت عارف إني أقدر أعملها..

للحظة بدا الأمر وكأن عراكًا ثانيًا على وشك البدء!..

جذبه "يزن" من سترته، دفع ظهره في الحائط وهتف بشراسة:

- نصيحة ليك يا بن درويش، ما تتدخلش بيني وبين مراتي.. أنت ما تعرفش عني حاجة، ولا تعرف أنا ممكن أعمل إيه!..

أمسك "عدي" بيديه يبعدهما عنه، يدفعه للوراء ويرمقه بنظرة حاسمة مسيطرًا على هدوئه بصلابة:

- ما يهمنيش أعرف.. عاوزك أنت بس اللي تعرف أنا ممكن أعمل إيه!..

كانت هي ترتعد في زاويتها الخاصة من المشهد..

لن تتحمل أن يتأذى مجددًا؛ ذلك خطأها.. لذا تدخلت كأم تؤنب طفليها المشاغبين:

- أنا مش فاهمة أنتوا الاتنين بتفكروا إزاي!..

استدارا إليها سويًا، أحدهما يرمقها بفظاظة حانقة والثاني يأمرها بالصمت، أمرًا تجاهلته بحزم:

- إحنا في مستشفى..

ورمقتْ "يزن" باستهجان:

- مراتك تعبانة ومحتاجة ترتاح، مش هتتحمل خناق تاني..

عادتْ بعدها لزوجها بعتاب صامت عقد له حاجبيه، تركتهما معًا يتحدى كل منهما الآخر بنظرة غامضة أشبه بحرب قصيرة، كجبلين على وشك الانهيار.. خطت تجاه غرفة صديقتها..

قبل أن تفتح الباب سمعت وقع قدمي "يزن" يكاد يخترق الأرض في ابتعاد مقنن.. بعد خمس خطوات توقف، التفت والتفتت.. تأملته يجلس في مقعد شبه بعيد، يميل برأسه، يخفي وجهه بين كفيه كأنما حان وقت الاستسلام للتعب!..

اقترب منها "عدي" ووقف يشرف عليها بلوم، عيناه تفيضان بضيق مبرر:

- مش من حقك يا رهف تكدبي على أب في موت ابنه..

تراجعتْ خطوة مبهوتة..

كانت تظنه سيساندها لكنه بدا مستاءً، ثائرًا وثورته جليد لا يذوب:

- رعب الموت مش لعبة، ولا عقاب..

تراجع عائدًا لمقعد يواجه الغرفة، يشيح بوجهه عنها، يعلن اعتراضه على موقفها.. ويوسع فجوة الضياع بينهما!..

ربما خدعها ذكاءها أو تحكمت مشاعرها، لكن الخائن المعشوق يستحق ولن تفكر فيها مرتين.. رمته بنظرة باهتة وخطت للداخل دون كلمة..

في هذه الحبكة أعلن الكاتب يأسه..

بطله المجنون يرفض الانصياع لقلمه، يطوف حائرًا بين الصفحات، سطوره وجع ومشاهده تتأرجح معلقة بحبال فقد وقسوة..

مزيج مشتت حائر ومزعج لعقل يسكن الخيال..

لذا كاتبه سيكون هو الشرير هنا!..

**

العشق معركة نصفها هزيمة، والنصف الآخر خديعة..

الحبكة كلها ساخرة؛ فالحب في حقيقته وهم..

الحب ألم، معاناة، الحب هو قاع الهاوية والسقوط إليه موت..

الحب خوف، مهما قست قلوبنا هزمها!..

غادر ظلامه بغتة.. فتح عينيه، تأوه بخفوت، أنَّة مكبوتة صدرت عنه وهو يجاهد لاستيعاب الضوء الأبيض المزعج من حوله، رائحة المطهرات وأصوات الأجهزة التي تتردد بتتابع رتيب مثير للحنق..

سمع لهفة صوت أخيه الأصغر تحاوطه، يناديه.. يسأله إن كان يسمعه، تنفس باختناق وهمس بالاسم الذي لم يكترث لسواه بهذا التوقيت..

"دُچى!"..

شعر بكف تربت على كتفه، تهديه راحة، تطمئن قلقه وذعره الذي بدأ يتملك منه:

- اهدى يا منذر، هتكون بخير إن شاء الله..

لمح من خلف غشاوة مشوشة وجه "رائد" يميل فوقه، بقربه ممرضة بزي مميز تحقن المحلول الموصل لأوردته بشيء ما..

حاول الجلوس فآلمه كتفه، سارع الأخ يمنعه باهتمام متوتر:

- ارتاح.. مش المفروض تتحرك دلوقتِ..

قاوم الدفعة، أصر على الاعتدال ونبرته ترتجف:

- فين دُچى يا رائد؟.. حصلها إيه!..

تلعثم شقيقه في الرد للحظات مات خلالها ألف مرة، وقبل أن يزعق بكل ما فيه من طاقة أتاه الجواب الذي شطر روحه:

- دُچى في غيبوبة يا منذر، الدكاترة مش قادرين يحددوا ممكن تفوق إمتى!..

حينها انتفض، حرك ساقيه ليغادر الفراش، منعته الممرضة، عارضه الشقيق، لكنه أصر على الذهاب إليها مهما كانت العواقب على جسده.. وقد كان..

لعنة العشق بقلبه مميتة حتى وإن لم تعُد له!..

في طريقه علم أن إصابة رأسها أتت قوية، ارتجاجًا عنيفًا حجب وعيها، وشظية من معدن السيارة بحجم إصبعين انغرست

بصدرها، تلك الشظية كادت تقتلها بسبب النزف لولا رحمة الخالق بها.. وبه!..

علم أنه ظل في غيبوبة طبية ليومين نتيجة إصابته وإن لم تقارب إصابتها، ارتجاج خفيف، خلع في الكتف الأيسر، وبضعة رضوض وجروح لا توازي ما حدث لها، هي من تلقت كامل الصدمة وكادت تفقد حياتها معها..

حضر أخيه على متن أول طائرة ليلة أمس بعد بتر محادثتهما بصوت الاصطدام والصراخ..

عند باب غرفتها تصلب كيانه، ذراته، خلاياه، أنفاسه.. ونظرته التي حطت عليها وضمتها بوجع..

وجهها الناعم كان مليئًا بالجروح الصغيرة نتيجة تهشم الزجاج المجاور لها، عيناها محجوبتان عنه بغياب قسري، بشرتها شاحبة وملامحها مصمتة كما لم يرها من قبل حتى حال نومها..

سمع من ركن الغرفة صوت والدها يناديه بدهشة:

- منذر!..

أدار عينيه إليه بصعوبة، لا يريد فراق تفاصيلها وإن كانت باهتة متعبة:

- عمي.. أنا..

تعثر في اعتذار، تبعثرتْ الكلمات وتشتتْ الحروف، كل ندم العالم لا يكفيه، والرجل فهم.. أدرك واستوعب نظرته وأسفه غير المنطوق، بادر برفق حانٍ:

- ده قدر يا بني..

ثاب بقلبه وروحه إليها:

- أنا كنت السبب فيه..

دعمه "رائد" حتى مقعد جوار فراش مرضها، تأملها من قرب.. ود لو كان مكانها، لو دفع بحياته فداءً لها.. لكنه الخاسر في هذا المشهد..

واساه الأب بعاطفة:

- هتبقى كويسة وتقوم لنا بالسلامة إن شاء الله..

تحشرجت نبرته في كلماته الأخيرة، فتضاعف لوم العاشق لنفسه، ظل واقفًا يراقبها.. يتابع أنفاسها بتشبث.. يمد يده فيحتوي كفها بما يعتمل في نفسه من أسى وحزن وخوف..

يجلس على المقعد كاتمًا تأوه ألم، يميل برأسه فيمس يدها بشفتيه في قبلة طويلة دافئة، ثم يهمس في أذنها بضياع:

- أنا آسف..

أرأيتم الحب!..

ماذا يفعل بأهله!..

كلا.. هي تلك الحبكة الفاشلة التي أراد كاتبها أن تكون رومانسية، لكنه لم يستطع فصب لعناته على أبطاله..

وأحرقهم بنار العشق..

**

عندما تكون كاتبًا، انسَ إنسانيتك، تغافل عن آرائِك الخاصة، وتجاهل انفعالاتك المؤقتة..

ادفن مشاعرك بقبر الجمود..

كُن قاسيًا حين الحاجة، وفي لحظات الحسم لا تتردد في السحق!..

بعض الأبطال قدرهم الألم..

بعض الأبطال قدرهم الغدر والطعن في الظهر، قدرهم أن يتأسى قارئ على حالهم، ويلعنهم آخر..

قدرهم التشتت والتعلق بخيطٍ واهٍ فقط لأنه يجب عليهم الاستمرار..

أفاق منذ بضع ساعات على وضع لم يستطع استيعابه، تعرض لمحاولة قتل وصاحبها معروف له، مجهول للجميع..

للصديق، الشرطة، القانون.. وسيظل!..

"راجح طولان"..

معرفته فضيحة.. ظهور اسمه على العلن كارثة، لو مات لأجل منعها لن يبالي.. فلِمَ يحاول زوج شقيقة زوجته الميتة السابق قتله!.. سبر أغوار تلك المعضلة كفيل بكشف كل الأوراق..

بل احتراقها واحتراق أسرته معها..

نفى أمام الضابط المحقق علمه بمن حاول التخلص منه، علم أن إحدى السيارات التي كانت بالمرآب ليلتها -والتي تم التقاطها تغادر بكاميرات المراقبة عقب إصابته- بلوحات مسروقة تخص قعيدًا بمحافظة أخرى..

نفى عندما سأله صديقه، نفى بحدة رافضة أقرب للزعيق:

- قلت لك ما أعرفش يا يزن..

لكن الساكت في مواجهته لم يقتنع، انفعاله وحده ينفي نفيه، ونفي النفي إثبات.. إثبات يستنكره، لِمَ يخفي حقيقة قاتله!..

- مش مصدقك يا وجيه، أنت عارف مين حاول يقتلك.. والله أعلم هيسكت ولا هيحاول تاني لما يعرف أنك لسه عايش، ما أعرفش مش عاوز تقول ليه!.. بس لازم تحمي نفسك..

تذمر ببرود، أشاح بوجهه وغمغم بحل مباشر:

- هاعين حراسة..

صمتَ "يزن" للحظات أقر بعدها بإذعان:

- تمام.. المهم تكون مقتنع باللي بتعمله..

تجاهل الأمر برمته، غير الموضوع لما يهمه منذ إفاقته:

- روحت للولاد!..

مسح الصديق وجهه بإجهاد، هو تقريبًا لم ينم بشكل مريح منذ ما يقرب من عشرة أيام..

رحلتْ عنه زوجته، طاردها ودخل في عراك لأجلها.. لم يتعافَ منه بشكل كامل حتى أتاه خبر تعرض الرفيق لمحاولة قتل والفاعل مجهول.. ثم تعرضها هي لبداية فقد، وقيادته المختلة حتى المشفى الذي نُقلت إليه بالإسماعيلية.. بعدها قبل يومين الخبر الذي قصم قلبه، وشقه لنصفين حائرين.. حبيبة الأمس كادت تموت!..

لم يمكنه زيارتها، كان يعلم أن زوجها السابق بصحبتها، وكان يدرك أن ذاك ليس حقًا له، لذا انتوى إرسال باقة من الورود كصديق قديم تفرقتْ بخطاهم السبل..

مع تتابع أفكاره ابتسم بسخرية؛ القدر لا يسمح.. والقلب ذاته لم يجد مستقرًا له بعد..

أو ربما وجده ويرفض الاعتراف به!..

تنفس بحرارة، جاوبه برفق:

- هاروح لهم النهاردة، المُدرسة بتاعتهم معاهم..

تغضن جبين "وجيه" بدهشة:

- رحيل!..

قبل رد ارتفعت طرقات خافتة عند الباب، سمح للطارق بالدخول وكانت هي!..

المذكور اسمها قبل ثوانٍ، ابتسمتْ بحياء، تقدمتْ ببطء، تكاد ترتجف والرجلين يتابعانها.. أحدهما باستغراب والثاني بفضول..

ابتسمتْ بارتباك:

- حمد الله على سلامتك يا وجيه بيه..

اعتدل قليلًا في جلسته، يخفف من استرخائه:

- الله يسلمك يا مدام رحيل..

لم تكن تمتلك مسوغًا لوجودها، دافعًا لزيارتها سوى رغبة خافق حزين، يطمح لما يعلم أنه لن يكون له في يوم ما..

لذا طرحت قصتها شبه الحقيقية، وإن نقصتْ أهم فصولها:

- كنت جاية أطمن حضرتك على الولاد وأطمنهم عليك لما أرجع لهم بإذن الله..

رسم بسمة هادئة فوق شفتيه متجاهلًا نظرة صديقه المتفحصة والتي تتنقل بينهما بحاجب مرفوع بصمت:

- أنا حقيقي مش عارف أشكرك إزاي!..

اعترضت برقة خجول، وتشبثت بجدية عملية:

- ده واجبي حضرتك، ربنا يتمم شفاك على خير..

ظلت لدقيقة أخرى علم منها أخبار أطفاله، رحلت بعدها.. لم ينطق "يزن" بحرف طوال وجودها، كان ساكنًا يتابع بتركيز مستفز حتى أغلقتْ الباب من خلفها فاستدار إليه بنبرة ماكرة:

- غريبة!..

التفت نحوه "وجيه" باستفهام، أوضح بإشارة لهيئتها:

- كنت فاكرها مختلفة..

مط شفتيه بتعبير مبهم:

- هي مختلفة، بس من زاوية تانية..

وغمزه بشقاوة مرحة:

- وحلوة..

زفر "وجيه" بضيق مختنق، يبتر ثرثرة لن يتحملها بهذا التوقيت:

- يا تقعد باحترامك، يا تمشي وتريحني..

رمقه "يزن" بخبث زم بإثره شفتيه، مشيرًا بسبابته وإبهامه كأنما يغلق فمه بسحاب وقُفل، حركته جعلت صديقه يعلن استياءه بدوران من عينيه، ينأى ببصره بعيدًا ويشرد في أفكاره الخاصة حتى انتزعه منها طرقات جديدة..

أكثر قوة وثباتًا وتتابعًا!..

أذن لصاحبها بالدخول، كان وجهًا لا يحفظه وإن أدرك أنه رآه من قبل، وجهًا وقورًا، مريحًا، باسمًا.. نظرته راقية مقتحمة بقدر كافٍ من هيبة تناسب ملامحه..

استقام "يزن" يستقبل القادم بهدوء..

رجل أربعيني، خصلاته الرمادية مصففة بعناية، خطواته متوازنة كما عينيه الداكنتين، بادر ببساطة لا تليق باللحظة:

- حمد الله على السلامة يا وجيه بيه..

قطب "وجيه" بحيرة وإن لم يتأخر في جواب ملائم:

- الله يسلمك..

هنا تدخل "يزن" بتعريف منقوص:

- اللي أنقذك وطلب الإسعاف يا وجيه..

حينها مد الضيف يده يصافح الاثنين بكياسة:

- آسف، ما قدمتش نفسي..

ثم رسم على ثغره بسمة أنيقة:

- مالك الرشيدي..

بعض الحبكات تدور في عقل كاتب ينتهج الحياد..

وبعضها تعج بالحيرة والشتات والغموض!..

**

الآن نحن نسقط بين ثنايا حبكة مختلفة..

حبكة تمتلئ بالشياطين!..

أما كاتبها؛ فقد فر ينجو بنفسه من فوضى أبطاله..

في الحروب، تلو الهزيمة.. لا يتبقى أمام المهزوم سوى اعتناق عقيدة الفاتحين..

تلك حقيقة تاريخية، سجلها الزمان على مر العصور.. ومن نجا من المعركة الحاسمة؛ احترق بعد الفتح..

"أخيل" لم يكن يعلم أن النصر؛ هو بداية الهزيمة!..

أن الحب قاتله، وأن السهم الطائش سينال من ثغرته الوحيدة بمعجزة مقصودة..

لكن هو ليس "أخيل".. وهي ليست "برسيس"..

هي المدينة التي تحطمت أسوارها، والتي سيتم حرقها بعد حين..

وهو رجل لا يستهويه الحطام..

سبعة أيام مرت، ست ليالٍ، اكتنفها صمت غريب كما نظرتها يوم هدَّ معبدها على رأسها، وهشَّم أوثان مثاليتها الحمقاء..

مثالية مدعاة، مفتعلة.. لا تليق بالمجرمين أمثالها..

شاردة على الدوام، وحيدة، منطوية..

لم تبكِ، لم تذرف دمعة واحدة.. على الأقل أمامه!..

أفكارها في كون مواز، في زمان آخر..

صمتها ليس انكسارًا وهو يعلم، ليست امرأة سهلة الكسر..

لا..

هي ليست قابلة للكسر وهو خير من يدرك، يحفظها.. يفهمها.. ولا يأمن لسكونها، لكنه يفطن جيدًا أن المرحلة القادمة من لعبته ستكون أكثر لذة..

لم تعُد تقترب من أخيه، ذاك متوقع وإن كان غير مقبول، أباح لها أيام الانفراد حتى تبتلع مرارة فعلته، لأن ساحة المعركة القادمة.. رقعة اللعب ستكون هي..

روحها.. قلبها.. جسدها..

حتى آخر قطرة سيستنزفها، أمهلها ما يكفي، والآن انتهت المهلة.. انتهتْ بقرارها عندما وقفت قرب الفراش بغتة بينما يستعد للنوم، بوجه مصمت زاده الحزن سحرًا، بنظرة فاترة خاوية، وهمسة مختنقة بالكاد سمعها:

- عاوزة ماما زهرة..

اعتدل قليلًا يتأملها، يتفحص خباياها التي تحجبها عنه بغموض لا يعجبه، يضيق عينيه وينهض ليواجهها:

- وده بناءً على إيه!..

حاوطتْ جسدها بذراعيها في رجفة لاحظها بسلاسة:

- أي مسجون من حقه زيارات..

ثم رفعت عينيها إليه بإنهاك.. كأنما فقدت كل طاقتها وتود لو تنتهي، ترتاح.. تموت:

- على الأقل عشان هي ما تشكش إن في حاجة مش طبيعية، أنا ما كلمتهاش ولا مرة من شهور..

رفع حاجبًا مستخفًا:

- لأنِك مش أهل للثقة..

اتشحتْ ملامحها بالألم.. بالوهن والهوان:

- أنت عارف إني مش هادخلها في حربك، مش هاتسبب في أي أذى ليها..

أحنى رأسه بعض الشيء لا يصدقها:

- ولما أنتِ عارفة إني ممكن أأذيها؛ بتطلبي الطلب ده ليه!..

باغتته دمعة لمعت بين أجفانها:

- عشان محتاجة أمي.. محتاجة حضنها، بس..

تغافل عن عبرتها ووجعها ورعشة صوتها بجمود:

- هو احتياجك ده المفروض يفرق معايا!..

كادت تنتحب..

الدمعة باتت دموعًا، لم تعد سجينة وراء قضبان أهدابها الكثيفة، تحررت تحرق وجنتيها بتعب:

- قولي أعمل إيه بس خليني أشوفها..

واهتزتْ نظرتها بحيرة ضائعة، تائهة:

- أرجوك يا عمار..

لم يعجبه أداءها، يرى فيه الزيف.. زوجته التي درسها لسنوات لن تنهار وتطالب بأمها كطفلة صغيرة!..

لكنه جاراها في لعبتها بكلمة واحدة، علَّه يرفع من درجة المخاطرة الشهية:

- ارضيني..

اختلجتْ حدقتاها ببعثرة غير واعية، تصمت، تفكر وتسأل بهمس شاحب:

- يعني إيه!..

هز كتفيه بلا توضيح، عاد للفراش يستلقي فوقه، جذب الغطاء يطوق جسده ثم غمزها بمكر متلاعب:

- أنتِ وشطارتك..

وخطوة البداية جاءت بعد ساعة ونصف من صراع عقل وروح وقلب.. خطوة البداية كانت جسدها الذي اندس قربه بفراشه، في إعلان خضوع أول!..

في الليلة التالية أتتْ محاولتها نصف الفاشلة لتنال حاجتها من ضمة أمها الروحية، عاد للمنزل وهي مختفية.. لم يسأل عنها، أنهى عملًا عالقًا بمكتبه، اطمأن على أخيه بعده دلف لغرفتهما لتفاجئه بوقفتها بمنتصفها..

ترتدي أحد قمصانه!..

كان لونه زيتونيًا داكنًا تألق مع حنطية بشرتها بفتنة اختطفتْ بصره، أنوثتها لا جدال في توهجها..

هو رجل لا يُفتتن، لكنه هنا يمكنه أن يترك نفسه لتيار المتعة معها..

وقف يواجهها، نظرتها تهرب منه وتعود إليه في ومضات متسارعة مرتبكة، أعلن بسخرية مستهينة:

- هو ده طموحك!..

ازدردتْ ريقها بعناء، نفتْ بحركة بطيئة وجاهدت لتبدو بمظهر اللعوب المغوية:

- لسه.. هنلعب لعبة..

رفع أحد حاجبيه بدهشة مصطنعة، يتابع خطواتها تجاهه حتى بات الفاصل أنفاسهما المختلطة:

- لو جاوبت صح تكسب، لو جاوبت غلط أنا أكسب..

وضع كفيه بجيبي سرواله يساومها بشموخ:

- أنا اللي هاجاوب!..

أومأت بموافقة ونظرتها تتأرجح بين الترغيب والإثارة:

- حروف اسمك الخمسة..

- خمسة!..

لمست شفتيه بسبابتها تمنعه الحديث قسرًا، تستفيض بالشرح والإغراء سيد الموقف.. سيد اللعبة:

- بالإنجلش.. وزعتهم على جسمي..

وأشارت للمختبئ منها أسفل قميصه:

- لو خمنت مكان الحرف صح، هاقلع حاجة..

لمعتْ مقلتاه باستمتاع مباغت بينما تكمل:

- ولو خمنت غلط، هتقلع أنت حاجة..

انحنى ثغره ببسمة خبيثة؛ لقد أجادتْ تقديم نفسها على طبق انتقامه.. وإن كان سيبدأ لعبته دون أن ينهيها!..

- موافق..

تراجعتْ خطوتين، تطلق لبصره السراح، تهديه مساحة الطواف حولها، حول أنوثتها المملوكة له ولو لم ينهل منها الكثير..

- حرف العين، أو A..

جال بنظرة على كلها في ثانيتين قبل أن يهديها الجواب القاطع:

- فوق قلبك..

صمتتْ لحظة ابتسمتْ إثرها باستسلام، مدت أناملها تفكك أزرار القميص، تخلعه وترميه أرضًا ليجد من تحته منامة حريرية قصيرة للغاية، رمقها بتلاعب محتج:

- ده غش..

بررت ببساطة هادئة:

- حروف اسمك خمسة..

تجاهل دافعها وعينه تسقط على الحرف اللامع الملتصق فوق نابضها، يتأمله دون انفعال واضح ويخطو خطوته التالية:

- حرف M الأول.. نهاية ضهرك!..

نفت ببسمة منتصرة:

- غلط..

وازى بسمتها بمكر، خلع سترة حلته.. قرر الحسم بفتور:

- اللعبة مملة يا وسن..

اعترضتْ بتعثر مرتبك:

- كنت فاكرة إنك هتحبها..

أنكر بفظاظة:

- مش عاجباني..

اقترب بمفاجأة يطوقها، يبدأ القبلة ويبتلعها في دوامته..

ثوان وابتعد، رمقها من عليائه بتجبر أربكها أكثر، لم تكن تعلم أن مذاق ملوحة دموعها بفمه.. لم تكن تعلم أنها فاشلة في اللعب!..

تراجع يحررها بلا جهد:

- أنا مش هاجبرك..

استدار يغادر الغرفة دون مزيد:

- أنا حاولت أعملك اللي أنتِ عاوزاه، بس مافيش حاجة من غير مقابل!..

لحقت به، تعدو خلفه، تتمسك بكفه وتتوسله بأنين:

- أنا بحاول يا عمار..

التفتَ إليها بوجهه من فوق كتفه:

- محاولتِك مش كفاية..

استجدته بإجهاد مبعثر:

- ساعدني..

- آسف..

دارتْ حوله لتواجهه بتبرير:

- أنا ماعنديش خبرة إزاي أرضيك!.. علاقتنا عمرها أيام..

أمال رأسه يأسر عينيها بنظرة قاتمة:

- كفاية..

اعترضتْ بخجل غريب:

- أنت كنت بتمثل، ماكانش حقيقة.. أنا ماعرفش عنك حاجة..

لامس وجنتها الدافئة بظاهر كفه برفق مرواغ:

- لأ.. وقتها كنت باعيش اللحظة..

احتارتْ فيه، في ضعف موقفها..

في وحدتها وخسارتها لكل شيء إلا أمها التي لن تتنازل عن قربها..

مدتْ ذراعيها بتردد.. تعانقه، تقف على أطراف أصابع قدميها لتلثمه، تتخلل خصلاته وتجذبه إليها، تبدأ الرحلة..

وتترك له هو نهايتها!..

كانت بداية باهتة مخيبة للآمال لكنه اكتفى بها، أكمل السرد وأنهى حبكته بيده..

هو بطل قرر أن يعزل كاتبه عن مهمته ويتمم روايته بنفسه..

بطل مخيف، والحكاية هنا بها الكثير من النهش!..

**

حبكتها ببطولة نسائية، كاتبها لا يسير معها على خط مستقيم..

يترك لها حبل التصرف على الغارب، لكنه سيضم كل خيوط اللعبة في قبضته قرب النهاية!..

لم تكن أبدًا امرأة عادية..

حتى في طفولتها لم تهوَ الدُمى أو تحلم بفارس مرتقب..

لم يحركها سوى دور القائد في كل لعبة خاضتها، ومن بعدها في كل معارك الحياة..

تقود.. تنتصر.. تمتلك..

سيدة أعمال من الطراز الأول.. قوية، شرسة.. سوداء القلب والمشاعر.. لم تسقط في فخ الغرام من قبل..

ربما مال الفؤاد، ميلًا طفيفًا وحينها انكسر..

بعدها جبرته، أقامته، أعادته لوضعه الصلب.. أحكمتْ عليه مزلاج القسوة وسجنته بلا مهرب..

كانت تمارس عملها المحدود في شركات "الرشيدي" كوصية على أموال صغيرها "آدم" وميراثه من والده..

تمارسه بملل فشغفها هناك في مركزها الصحي، حيث السلطة المطلقة وعمل ما تحب..

أنهتْ اتصالًا روتينيًا مع جدة ابنها التي لم يعجبها أنها صرفت المربية دون سبب واضح!..

أتبعته بآخر قصير لطفلها ومربيته الجديدة، أكدتْ عليه تناول غذاءه على وعد بلقاء في وقت العشاء وعادت تركز بملف حسابات ضخم يخص الشهر كله..

تركز بنصف عقل نسفه الماضي بغتة عندما اقتحم حاضرها..

اقتحمه بصفاقة ليخبرها أن النسيان والمرور فوق جثمانه الهامد أمرٌ يقارب المستحيل..

مساعدتها وبطاقة تخصه..

- مدام نيروز.. الأستاذ برا وعاوز يقابل حضرتك..

تناولتها منها بهدوء تبعثر في ثوانٍ بلا عدل..

كان العائد بعد غياب..

العائد الذي علمت بوجوده من ابنها بمصادفة غير سارة..

"مالك الرشيدي"..

صاحب الميل الأول..

سيد الكسر!..

(27)

ترى ماذا حدث في الليلة الثانية بعد الألف!..

ماذا لو كانت شهرزاد مجرد خدعة!..

ماذا لو كانت وهمًا اصطنعه خيال شهريار الذي مل ذبح النساء!..

**

شهرزاد كانت ثورة ساكنة..

حتى شهريار بذاته لم يعلم أنه سقط بفخها إلا بعد نهاية الألفية بليلتين..

تلك الليلة التي أعلمته أن كل ما سبقها من ليالٍ هو مكيدة متقنة وحسب، أن امرأة واحدة قد هزمته.. وثأرتْ لكل النساء بمجرد ثرثرة!..

امرأة لا تشبه سواها، متفردة، استثنائية.. شرسة حين الحاجة، مغوية وقتما تريد.. وأنثى ساحرة في كل لحظة..

امرأة كانت العشق في ماضٍ بعيد، لكن القلب لا يعترف بالزمن، القلب عنيد، صلب، حبس نفسه ببوتقة تخصها متعنتًا بالرفض لغيرها، مقسمًا ألا يسلم نبضاته لأخرى..

امرأة تبدو كما لو أن العمر لم يمر، كما لو أن الأمس لا يزال حيًا بينهما، ترمقه بنظرة غامضة، بها قساوة مبررة.. ويتأملها هو بتوق واشتياق عاشق.. مهزوم!..

نعم، هو هُزم في حرب كانت هي غنيمتها، وبعدما وضعت الحرب أوزارها وتراجع للخطوط الخلفية معلنًا استسلامه والتخلي.. علم أنها لا يباح تسميتها بغنيمة، أدرك أنها توقن من خسارته قبل بدء القتال..

وهو كان الأجبن، رمى سلاحه وهرب لأحضان أول واحدة قابلها.. تزوجتْ ابن العم الأكبر، رأس العائلة وعمادها.. فهاجر نائيًا عن كل ما يمت لها بقرب، وتزوج بالمثل!..

نهضتْ بأناقة تغادر خلف مكتبها، تدور حوله، تدنو من وقفته الثابتة بمنتصف الغرفة، تواجهه تمامًا.. عطرها يغزو حواسه كلها،

عيناها كقدح قهوة فائرة، ثائرة والصمت هو رداء تلتزمه حتى وإن أعتمتْ النظرة بصراخ الاحتجاج..

هي امرأة هرب منها الزمان، خشي أن يصيبها بعلاماته، أو ربما ظن أنها لا يليق بها حضوره.. هيبة فتنتها منعته عن احتلالها بتجاعيده.. فظلت آسرة، خلابة، تحبس أنفاسه كأنما لم يمر أكثر من عشرين عامًا على لقائهما الأخير..

ليلة زفافها!..

همس ونبرته الرخيمة لا تتخلى عن ثباتها، هو لم يعد العشريني الذي سقط في غرامها، نعم لم يرحل الغرام عن فؤاده بعد..

لكنه تبدل، تغير كما فعلت هي:

- دافني..

همسها وتنهد، راقب ابتسامتها الوليدة، الذكرى التي لمعت بين أجفانها والنظرة شبه المتهكمة المناسبة لها أكثر:

- لسه فاكر!..

نطقتها باستخفاف، كان يعلم أنه المخطئ في حكايتهما، وكان يفطن أنها لن تقبل اعتذارًا اليوم كما لم تقبله من قبل، لكنه هنا الآن لمحاولة جديدة.. لمحاولات..

لأمنية أمس التي اقتحمت الحاضر بخيط من أمل، بادلها البسمة برفق، وتمتم بصدق:

- مافيش حاجة تخصك قدرت أنساها..

مطتْ شفتيها وتراجعتْ خطوتين، استندتْ لسطح المكتب في اتكاءٍ مسترخٍ، ثم باشرت الهجوم البارد بأناقة أفعى مثلها:

- بس أنت ماكُنتش أبوللو..

جذبتْ علبة التبغ تستخرج منها واحدة، تدسها بين شفتيها بحركة فاتنة، تشعلها وتنفث لهبها بلا انفعال:

- زاهر هو اللي حارب عشان أكون ليه..

بعدها سخرتْ منه بنظرة تمازجت فيها مشاعر شتى، الغضب، الكره، شيء من ميل خضع به خافقها الغر يومًا ما:

- أنت مش بطل في الأسطورة دي يا مالك..

لوح بكفه دون استنكار لدخانها، هي تغيرت كثيرًا وإن لم يتقابلا طوال سنوات، فر من اللقاء وعندما تبدلت الأحوال عاد، تحرك خطوة يقترب منها:

- كل يوم ممكن تتكتب أسطورة جديدة..

ناوشته بفلسفة امرأة قاسية:

- هوميروس كان وهم..

رفع حاجبًا مكابرًا:

- الدراسات الحديثة بتقول العكس..

رمقته بنظرة قوية، تفحصته كأنما عينيها مجهر حديث يسبر كل أغوار روحه وكيانه:

- حتى لو كان حقيقي، خلاص مات.. مابقاش يقدر يألف ملاحم أو يكتب أساطير..

ابتسم بسلاسة تشبهه فيما مضى..

حيث كان الشاعر العاشق، وكانت هي ملهمته..

"دافني"..

حورية الأساطير النارية، حمراء الشعر..

ابتسم وأغرقها في نظرة تعرفها حق المعرفة، نظرة ماضٍ تذكرها بضعف أذعنت له فطعنها بالغدر:

- مش محتاجين هوميروس..

خطوة تالية ونظرة أكثر عنفوانًا، أكثر إصرارًا:

- وأنا مصمم على دور أبوللو المرة دي..

لم يهتز بجسدها شعرة لاقتحامه، هو تغير.. لكنها كذلك انقلبت من حال إلى حال، لا تهتم بأين دُفن الشاعر خلف واجهة المحامي الدولي صاحب الصيت!.. لا تبالي إن كان يفتش بين جنبات الحاضر عما فات.. فما فات قد مات وقُبر وتحلل منذ دهر..

هاجمته بنبرة جليدية لا مكترثة:

- بس أنا مابقيتش دافني..

استدارت تعود لما خلف مكتبها.. استدارة لم تكتمل حين منعتها يده التي تحكمت بمعصمها، أطبق عليه بلمسة تجهلها، ليست الرفيقة التي تألفها، ليست العاطفية التي اعتادتها كلما نثر عليها بحور شعره، وليست حتى التائقة التي تتلهف لما هو محروم منه..

كانت مختلفة!..

مسيطرة، متسلطة، تجبرها على الوقوف، الثبات، العودة إليه:

- أنتِ مين!..

لم تحاول تحرير يدها من سطوته، عادتْ لها بسمتها الساخرة وإن شابتها غلظة:

- ما أظنش هتكون سعيد لو اتعرفت عليَّ..

هز كتفيه ببساطة أغاظتها:

- سيبي لي القرار ده..

عقدتْ حاجبيها فأفلتَ رسغها بتلكؤ:

- نتعشى سوا!..

وقبل رفض رآه بحدقتيها سارع يثير فضولها:

- في موضوع مهم عاوز أتكلم معاكِ فيه!..

عقدتْ ذراعيها بعدما هرست لفافتها في مرمدة خلفها:

- اتكلم دلوقتِ..

أنبها بلوم، يخبرها أنها تخشاه وهو يعلم:

- في الشركة!.. ما ينفعش، ما يخصش الشغل..

تهكمتْ تستنكر ظنه الواضح على وجهه بحجة مباغتة:

- ومراتك مش هتتضايق!..

زفر بلا شعور صريح، أجاب عقبه دون تمهيد:

- إحنا اتطلقنا..

افتعلتْ دهشة.. دهشة بعضها حقيقي أجادتْ مواراته تحت سِتر الاصطناع:

- wow.. so sorry for you..

أمالتْ رأسها بسؤال خالط فيه الفضول بعض اللامبالاة:

- لكن ليه!..

طاف حولها بنظرة لم تنسَها لليوم..

نظرة عشق خالص كان ضعيفًا في مواجهة رياح الولاء!..

عشق رغم ما إدعاه فيه من أبدية، مات فَتيًا..

تنهد بخفوت ورد مباشرة متخليًا عن التورية:

- ماقِدرِتش تكمل لما عِرفت إن الحاجز بيني وبينها واحدة تانية..

واستحوذ على بصرها بدُجنة عينيه:

- إني بحب غيرها..

فاجأته بضحكة عالية، ضحكة تشوبها السخرية ويسيطر عليها عدم التصديق:

- همَّ في باريس بيفرق معاهم الكلام ده!..

شاكسها بشيء من مكر لم تعتده معه كذلك:

- كل ستات الكرة الأرضية بيفرق معاها الكلام ده..

هذه المرة خطوته كادت تلصقه بها إلا من مسافة احتدم فيها اشتعال الأنفاس:

- قلتِ إيه!..

- موافقة..

رمتها بوجهه وتحررتْ من قربه، من رجفة لا يزال يبثها في جسدها، وخلخلة لا تعجبها تشاغب دواخلها الجامدة:

- بس مش النهاردة..

استقرتْ بمقعدها مجددًا وأنهتْ المشهد بما يناسبها، تضع الشروط وتقرر قوانين اللعبة القادمة:

- النهاردة يومي أنا وآدم بس..

جذبتْ منظارًا طبيًا وضعته فوق عينيها، ثابت لأوراقها تندمج فيها بتركيز:

- هاكلمك أحدد معاك ميعاد..

هل كانت شهرزاد قاسية!..

أم أن شهريار هو من علَّمها القسوة!..

كلا..

هي كانت فتاة حالمة، وبالتأكيد لم يكن طموحها أن تقص على رجل ما ألف حكاية وحكاية لتمنع عن عنقها سيف الموت..

**

شهريار كان مجرد رجل أبله، يمتلك الكثير من أوقات الفراغ..

من يُسلم عقله وأذنيه لامرأة طيلة ألف ليلة!..

ألم يكن لديه شيئًا أفضل ليقوم به؟..

ولِمَ يتزوج من الأساس إن كانت جواريه لا تحصى ولا تُعد!.. هو حتى لم يمتلك وليَّ عهد..

شهريار لا يستحق بطولة الأسطورة، وشهرزاد امرأة ثرثارة بها لمحة من ذكاء مكنتها من استخدام ثرثرتها في شيء نافع سوى السفسطة.. على الأقل عاشت لعامين وبضعة أشهر أطول..

شهرزاد هذه الحكاية، تخون في كل لحظة.. تخون في الحقيقة والحلم والغفلة والمرض!..

راقصة الباليه المكسورة أصابتها حمى.. لم تتحمل برودة المياه مثله، هو اعتادها، جسده يألفها، يتحملها ولا يشعر معها بتغير مقلق، هي لا تشبهه.. لكن ربما ستفعل قريبًا!..

في الصباح بدأت أعراض برد عادية، تطورت خلال أربع وعشرين ساعة إلى حمى.. تتهرب منه، تخشاه، ترتعد كلما سمعت صوت خطواته أو لمحته ويدرك السبب..

لقد رأت الموت بعينيه..

لكنها عندما سقطت فاقدة لوعيها، سقطت بين ذراعيه..

حملها لفراشه، أرسل في طلب مربية العائلة لتعتني بصغيرها، واكتشف هو أن حرارة جسدها عالية بصورة مريعة..

لم يهتم بإعلام أحد من سكان المنزل الذي بات شبهَ مهجور، جده قابع بمكانه لا يتحرك، أخيه شبح صامت، بالكاد يراه..

هو وهي.. الصمت عم أرجاء المكان برحيل زوجة الأخ التي كانت تخلق فيه البهجة والصخب.. فقط من يبالي!..

أحضر طبيبًا من المشفى القريب، فحصها، وصف لها دواءً وأوصى بالراحة وكمادات الماء حين الحاجة..

أعطاها من الدواء الموصوف لمرة، تركها نائمة ترتجف، تهمس بضياع، تحلم بغريمه في كيانها، الغريم الميت الذي يعلن انتصاره مع كل نزال بينهما..

انشغل بهاتفه لبعض الوقت، ببحث سريع عن عائلة ذلك الوغد الذي هاجمها علم عنه الكثير، عائلته ليست بالهينة كما كان يصرخ.. معظمها من الدبلوماسيين، بعضها في السلك القضائي.. ووالده نفسه، دبلوماسي سابق وسياسي حالي..

أثرياء للغاية، يديرون أعمالًا متعددة، وهو كان غائبًا عن ساحة العالم لعام ونصف مضيا!..

كل حساباته متوقفة، لم يُضِف صورة أو ظهورًا إلا قبل أسبوع.. بدأ بجملة واحدة كتبها على صفحة حسابه بالفيس بوك..

"I'm back"..

ترى أين كان!..

بعقله حرب أفكار، إن كان قد عشقها حد الهوس وكسرها حد فقدان السيطرة والجنون.. ماذا عن حادثة أخيه!..

هل يا ترى له دخلٌ بها!..

بتفكير إجرامي محض أجاب بنعم.. وبتفكير عقلاني يجيد جمع الخيوط وتفنيدها، هاتف ذلك المحامي الذي تعرفه وقت إتمام صفقة البيع بينه وبين "عمار الديب" وطلب منه بعض المعلومات عن ملف ذلك الحادث لدى الجهات المختصة..

سيستغرق الأمر يومين أو ثلاثة كما أخبره.. والصبر عنده أهون الأمور، فكر لثوانٍ بسؤال "يزن" عن تلك العائلة؛ لكنه عدل عن الفكرة في الحال.. لن يتحمل فضولًا أو استفسارات يرفض الإجابة عنها..

تمدد باسترخاء، قدمه تعلو المسند والثانية مثنية تستقر على الأرض، الصراع بين جنباته لا يتوقف، ولأول مرة تصيبه حيرة..

لِم يهتم!..

رمش ثم فرك عينيه بتعب، سكن بجمود حتى استرعي انتباهه صوتها..

هي تسكن فراشه، وهو مضطجع فوق الأريكة شاردًا في السقف، يرى تقلبها، يسمع همهماتها، يلمح تيهها وشتاتها حال غيابها..

أدار وجهه ليتأملها، نهض.. دقق فيها عن قرب، جسدها المتعرق رُغم برودة الجو، خصلاتها الملتصقة بجبينها، وجهها المحمر من أثر الحمى، وأجفانها ترتجف في نوم مضطرب.. تهمس باسم الراحل، تناديه، تناشده قربه..

لا تدرك أن الشيطان إليها أقرب!..

مد يده يتحسس وجنتها، حرارتها عادت للارتفاع، فض قرصًا ثانيًا من شريط الدواء، رفعها فوق ذراعه وحشره بفمها عنوة، همس باسمها بنبرة آمرة علَّها تستوعب ما يريد منها فعله، دفع بكوب الماء على أطراف شفتيها وتمتم بحزم:

- اشربي..

استجابتْ بلا وعي..

بعدها وجدها تقترب منه، تتشبث به، تتكوم على صدره، تطالبه باحتوائها وتتوسله بألم:

- يامن.. ما تبعدش، خليني في حضنك..

بكلمة واحدة تفجر كل ألغامه القديمة المعطلة..

زم شفتيه وأمسك بذراعيها يعيدها للفراش لكنها لم تبتعد، تعلقتْ به أكثر، حاوطتْ عنقه واستجدته:

- لأ.. عشان خاطري..

وقتها لامستْ أنفاسها الملتهبة عنقه، شفتاها كانتا كقطعتين من جمر.. لعنها في سره، فيبدو أن المرض قد تمكن منها بقسوة..

سكن للحظات، حملها بإثرها، لم تُفكك طوقها المعانق له، توجه بها لحمامه وقرب المغطس أجلسها على ركبتيها، عاندت ورفضت تحريره فغمغم بصرامة:

- أنا مش هابعد، اهدي..

جذب ذراع المرذاذ، دفع رأسها إلى داخل حوض الاستحمام، انسدلتْ خصلاتها تحتك بأرضيته، فتح الماء ووازن برودته ثم أغرقها به.. شهقت تجاهد للتراجع والهروب، ثبتها بيده آمرًا:

- ما تتحركيش.. هتغرقي، عشان الحرارة..

لكنها ظلت تقاومه بلا وعي، بللت ثيابها بالفعل فزفر بحنق، أوقف الصنبور وجذب منشفة متجاهلًا شهقاتها، جفف شعرها وأقامها بين يديه يمسح وجهها وعنقها، حملها فعادت لعناقه، وضعها على طرف الفراش مستمرًا بأوامره:

- استني لحظة..

أمسكتْ بكفه، استدار إليها، وجدها تبتسم كثملة.. ترمش بوهن وتخاطبه من عالمها مع سواه:

- رايح فين!..

سحب يده بجواب مقتضب:

- هاشوف لك حاجة تلبسيها..

لم يذهب لغرفتها التي تستقر بها المربية مع الصغير، توجه لخزانته وفتش فيها، جذب سترة منامة ثقيلة وعاد، أوقفها يخلصها من ثوبها المبتل، ثم أسدل سترته حول جسدها، كانت طويلة تصل لمنتصف ساقيها، اكتفى بها ودفعها بين طيات الغطاء الثقيل، أحكمه حولها وكاد يرجع لأريكته..

لكن الفرصة بترتها هي، تعلقتْ به هاتفة بحزن وضعف:

- خليني في حضنك يا يامن..

ولم تحرره، تحركت لتضع رأسها على ساقه، تجذب كفه فتقبل باطنها بتوق، تفردها تحت وجنتها وتغرق في النوم..

تهرب للوهم في أحلامها.. لكن الواقع هو الحقيقة مهما بلغت قسوتها..

حقيقة يحياها وحده بهذا التوقيت، حقيقة ستعود إليها حتى لو طال الغياب في غياهب السراب..

ارتسمت على شفتيه بسمة ساخرة يشوبها شيء من مرارة اعتاد كبتها، حرر نفسه من قربها بضيق، توجه للغرفة الثانية وأمر المربية

أن تعتني بها بدلًا عنه، غادر المنزل بأكمله لمعتزله حيث راحته التي يحتاجها..

المشهد السابق يماثل ذكرى يبغضها.. يشبه قصة قديمة عاشها بكل تفاصيل الوجع والفقد والخسارة والوحدة..

وفي كل مرة، لم يكن البطل المنشود..

لم يكن شهريار الحلم.. ولن يكون في أي زمان..

هو لا يريد مملكة يذبح إحدى نسائها كل ليلة، لقد أراد عرش الجحيم وظفر به.. وما بقي مجرد خطوة من لعبة الحياة التي تجيد زرع الخيبة بين ثنايا الفوز..

فمع كل امرأة اختارها؛ كان هو الطرف المهزوم!..

**

شهريار كان...

عفوًا..

من شهريار!..

1925

نحن هنا في حضرة أخطبوط الظلام..

لا مجال للحكايا القديمة، ولا قصص الخيال، حيث أميرة وشاطر حسن ووحوش برية..

هنا.. هو وحش عالمه، هو صانعه، هو حاكمه.. وكل ما عداه وهمٌ بحت.. هو الملول في مُتسع فارغ من لون واحد، لا تشوبه تقلبات، ولا يهتم بصراعاته..

انتهت لعبته معها بشكل ما، باتت دمية أخيه وحده فمنطقة اللعب لم تعُد تخصه، نعم سيناوشها بين حين وآخر، لكن صافرة انتهاء المباراة قريبة.. لذا هو يحتاج لتسلية جديدة!..

تسلية ربما تتطور لمتعة لو أجاد استغلالها، أو استغفالها.. والتخفي عن نظر الذئب المراقب بحمائية وحذر خانق..

"خلود"..

الخادمة الصغيرة التي تعتني بأمور المنزل، تشارك في إعداد الطعام مع الطاهي، ترتب الغرف وتنظفها، تكبره في العمر بعامين أو ثلاثة كما خمن!..

خطط بسلاسة لأن تكون بغرفته في توقيت ملائم، أخيه بالعمل لوقت متأخر، الزوجة تعتزل الجميع وتنتظر زيارة والدتها الروحية خلال يومين مثلما علِم.. وهو وحده، يشعر بالضجر..

السيدة "وسيلة" تدير المنزل كضابط جيش صارم، يشاغبها بتمرد بعض الأوقات، ويخضع لأوامرها بسأم البعض الآخر..

والفتاة التي حزر طول قامتها، تخيل ملامحها، استمع لنبرتها الناعمة مرات ومرات، واقتنص الوقت المثالي لبدء اللعبة معها..

رفض النزول لتناول وجبة الغذاء، طلب أن تأتيه بغرفته، حملتها هي إليه، وضعتها على مائدة منخفضة تجاور أريكة مريحة بأحد الأركان، وقفت قربها عاجزة لا تدري ما تفعل..

هل تساعده في تناول طعامه أم ترحل وحسب!..

ازدردتْ ريقها ووصله الصوت الخافت، ابتسم من جلسته بخبث واراه بمهارة، استقام يخطو إليها، يفتعل الحيرة ويتمتم بسؤال تائه:

- الغدا إيه النهاردة!..

تلعثمتْ بارتباك، من المفترض أنه يعلم أية وجبة سيتناولها بشكل يومي، تماسكتْ بعسر وردت بعجالة:

- اللي حضرتك طلبته، لحمة مشوية وبطاطس مسلوقة و...

- مسلوقة!..

رفع حاجبًا مندهشًا ونبرته تستنكر، جاوبت بتشتت:

- أيوة.. ومهروسة بالزبدة..

ضحك بخفوت ماكر، أشار بتوضيح هادئ:

- mashed potatoes قصدك!..

- ها!..

وتخيلها تفتح فمها بذهول، لكن الخيال لا يكفيه بهذه اللحظة..

لذا بادر بالخطوة الأولى:

- طيب أكليني يلا..

تكررتْ حركة ابتلاعها للعابها، سكنتْ واجمة بمكانها..

وهو ظل على وقفته لدقيقة كاملة، خطا عقبها ليسترخي فوق الأريكة، يشير لفمه بمشاكسة:

- جعان على فكرة، ومش هاعرف أقطع الستيك..

لم تتحرك، لم تتنفس حتى.. فقط يدها امتدت تحجب صوتها المكبوت دون جهد، لا تدري ما يمكن عمله..

هي تراه يأكل ببساطة في كثير من الأحيان فماذا الآن!..

راقبته يربت جواره مشيرًا إليها بأمر حازم أجفلها:

- يلا يا خلود..

اندفعتْ تتعثر حتى كادت تسقط، جاورته وإن ابتعدت قدر ما أمكنها وبدأت في إطعامه بتردد..

كان يلتقم الطعام من يدها، يمضغه بتلكؤ، يلعب على أعصابها المشدودة نغمة هادئة وترتها أكثر، يطالبها بقطعة خبز عندما وضعتها بفمه احتوى أصابعها بشفتيه فسحبتها مرتجفة..

أنهى وجبته باستمتاع كلي، استراح مسترخيًا وقرر مد بساط الود:

- عندك كام سنة يا خلود؟..

اعتدلت تعود لوقفتها المتصلبة، شعر بها وتجاهل رد الفعل:

- 19..

مط شفتيه وعلق ببديهية تناسبه:

- زي ما خمنت..

نهض فجأة فانتفضت، استشعر انتفاضتها ولم يكترث.. هي تجفل كلما تنفس على ما يبدو..

فأرة صغيرة، وهو يكره الفئران لكنها المتاحة!..

تحرك خطوة نحوها، انحنى طرف ثغره ببسمة لم تفسر مغزاها، بها مشاعر مشتتة والبؤس هو المسيطر:

- اوصفي لي شكلك..

همس بها متسللة، مترددة.. يتخللها شيء من افتعال شجن شارد أربكها، يضغط بالحزن لينال اللذة.. ابتلعت لعابها للمرة الثالثة بمشقة، تنحنحت بتعثر فوق صراط كلمات معوج يليق به، لمست

وجنتها المرتفعة بتردد.. خصلاتها المعقوصة في دائرة تحجبها عن الانسياب كما يباح لطولها الساحر..

نعم شعرها الطويل ربما هو تاجها وزينة أنوثتها الوحيدة..

شفتيها المتقابلتين بانفراجة لاهثة، السفلى ممتلئة تقضمها كلما ارتبكتْ فتثير بها حمرة دماء مغوية، والعليا دقيقة التكوين مرسومة كقلب أسفل أنف صغير يتلاءم مع بقية ملامحها السمراء واتساع عينيها الشرقي:

- خلود!..

سمعت همسته باسمها، نداءه.. النبرة المتشبثة التي ارتجف لها جسدها كله، بعدها لمحته يتحرك.. يقترب، يواجه قامتها المرتعدة باضطراب بعثرها:

- ينفع أشوفك بطريقتي!..

توسعت حدقتاها البنيتين بانشداه.. عبر كل فيلم قديم وحديث مر على ذهنها؛ هي تعلم طريقة العُميان في معرفة تفاصيل الآخرين..

هل سيتحسس وجهها الآن!..

تلعثمت بحشرجة:

- نوَّار بيه.. أنا...

مسَّت سبابته ثغرها دون تشوش، يضغطه بدفء كأنما يدرك مكانه بلا التباس:

- نوَّار بس، إحنا سننا قريب من بعض..

مال يهمس قربها دون مقدمات وإبهامه ينزلق لذقنها:

- إيه رأيك نبقى أصحاب!..

تجمدت وأنامله تجوب ملامحها، لا تلامسها بشكل منفر، ولا تترك لها حرية التملص بذات الوقت..

يستكشف دون خجل، ويتردد عند الأنف والشفاه.. تمتد أصابعه لعنقها فتتراجع، يتمتم هو بجدية مستغربة:

- أنتِ جميلة..

بتقرير صريح رمشت له، ابتسمت بحياء وتبعثرت مع حروفه حرفًا حرفًا، لم تعلم بمَ ترد فصمتت بينما هو يكمل بتفكير:

- وقصيرة!..

عقدتْ حاجبيها بضيق.. قصر قامتها لطالما ضايقها، تعلقت بحبال الصمت أكثر.. شاكسها بغزل وقح وإشارة أكثر وقاحة من كفيه:

- بيقولوا إن كل قصيرة عبارة عن أنوثة مركزة..

شهقت بخجل متوتر وانتهى المشهد بركض هارب متعثر..

ليست شهرزاد..

هي جارية يمكنها أن تملأ لحظات متعة خفية..

وهو أخطبوط يمد أذرعه في ليله الحالك بمَلَكية لا تناسب سواه..

**

شهرزاد امرأة غبية ككل النساء العاشقات..

فعلى ما يبدو؛ شهريار ذبحها في الليلة رقم ألف واثنين..

مل الحكايا، حفظها، أو حتى وجد عشقه القديم.. من يأبه سوى المغبونة بدنيا العشق، المنحورة بمخدع الغدر!..

شهريار وضع عنقها تحت رحمة سيف "مسرور" فبترها أسوأ بتر..

تركها معلقة فوق صدرها، لا هي بالميتة ولا هي بالحية.. لاتزال العاشقة التي تحاول الفرار، تجاهد للكره.. لكنه جهاد واهن بلا جدوى، الهزيمة فيه نكراء والعدو حي بقلب المعشوق حتى وإن ادعى الختام الحاسم، وأسدل الستار..

غادرتْ المشفى قبل أيام، عادتْ للمزرعة بصحبة ابن العم والصديقة، لا تفطن لما بينهما لكنهما بالكاد يتبادلان كلمة!..

استقبلها جدها بضمة منحتها جرعة حنان مركزة تتوق إليها، اطمأنتْ عليها زوجة العم وبدأتْ عجلة الحياة في الدوران بروتينية، رسائله تتواصل.. هادئة بسيطة، يرغب فقط بالاطمئنان، يهديها اهتمامه، ويسألها الجواب الذي تبخل به حتى اللحظة..

رُغم البرودة التي تحتل الهواء، الأمطار الطفيفة التي هطلت في الصباح، والغيوم الداكنة التي حجبت الشمس قبل غروبها الفعلي،

قبعتْ بمقعد الحديقة وحيدة.. تتباعد عن كل ثرثرة مباحة، تفرد ساقيها براحة، وتميل.. تستند لذراعها بوجنتها في شرود..

تشتاقه لن تنكر..

لن تنكر معلومًا من العشق بالضرورة وإلا عليها لعنة جحيمه الذي تصلاه بلا هوادة منذ فارقته..

شعرتْ بمن يضع على كتفيها وشاحًا صوفيًا ثقيلًا، يضمه حولها برفق، حينما رفعتْ رأسها وجدتْ "عدي" يدور حول الأريكة، يقابل جلستها ويتفحصها بنظرة مدققة ضايقتها..

نظرة لم يكتفِ بها بل بادر بمباشرة تشبهه على الدوام:

- خانك!..

توسعتْ عيناها باستنكار، دارتْ بهما تجاه المنزل ثم عادتْ إليه، وجدته يبرر بلا انفعال:

- رهف ما قالتش، كانت بتتخانق مع جوزك وسمعت الكلام ما بينهم..

نفتْ بهزة واجمة، تهرب ببصرها بعيدًا عنه:

- مش خيانة..

- أمال إيه!..

حروفه أسرع من جوابها، وصلابة نبرته تفتش بلا مفاوضة عن بتر، سأل بحزم وانتظر الجواب القاطع:

- عدي.. من فضلك مش عاوزة أتكلم..

اعتدل يشد جذعه بجدية:

- انا سيبتك ترتاحي طول الأيام اللي فاتت، ما حاولتش أكلمك أو أضغط عليكِ، بس لو ده حصل قولي لي..

نظرتْ في عينيه بتعب:

- ليه!..

ضيق ما بين جفنيه بنظرة صارمة:

- عشان أطلقك منه..

انتفض قلبها يطرق ضلوعها بجنون، اهتزتْ حدقتاها بهلع التقطه بسلاسة، لم يعجبه ففنده:

- إيه!.. مش ده الطبيعي!..

ثم مال بعنقه يكرر استفساره:

- عاوزة تعملي إيه يا غزل؟..

جذبت الوشاح تحاوط به جسدها في إشارة لبرودة اجتاحتها بغتة:

- مش عاوزة.. مش عارفة..

- خانك!..

- لأ..

نفتها بحدة سريعة، تتشبث به ولا تدري ما تفعل سوى النفي، هي لا تملك زمام الخافق العاشق، لكن حتى زمام العقل معه يفقد سيطرته..

لمحته يقف من خلف أهدابها المتعانقة بانغلاقة مجهدة، يشد قامته وينبئها بصرامة:

- خدي وقتك في التفكير، واللي أنتِ عاوزاه هانفذهولك..

تحرك عائدًا إلى الداخل إثر أمر مهتم:

- وقومي ادخلي جوا، الجو برد..

لحقت به تقطع طريقه، تناشده صبرًا على حيرتها وضياعها:

- عدي..

توقف يواجهها، ابتسمت بمرارة تائهة:

- ممكن ما تتكلمش مع جدو في الموضوع ده لحد ما أعرف أنا هاعمل إيه!..

أهداها بسمة مطمئنة بعد ثوانٍ من صمت:

- حاضر..

تبعته بتمهل، تتلكأ في خطواتها التي ثقلتْ بعض الشيء كأنما لا تريد الالتقاء بأحد، ولحسن حظها لم تفعل.. الصديقة بصحبة والدة زوجها بالمطبخ، والجد بمكتبه.. صعدت الدرج إلى غرفتها، انسلت تحت الغطاء تتكوم ببراءة طفولية لا تماثل جنونها فيما سبق..

تفتقده، بصرها الزائغ يفتش عنه في كل الوجوه، على الجدران وحتى في طبق الطعام الذي تعبث بمحتواه دون أن تتناول منه سوى بضع لقيمات لأجل جنينها..

لم تكن تعلم أنه يشتاقها بالمثل.. أو ربما أكثر..

شهريار حكايتها أدرك بعد الفراق أن رَاوِية الحكايا هي مليكته التي يريد أن يقضي ما بقي من عمر معها..

ليست أم ولي العهد.. لا تحمل مفتاح الملك والمملكة..

هي المرأة التي تمنحه بوجودها الحياة، وهل هناك ما هو أغلى وأثمن!..

طيلة الأيام الماضية حافظ على رسائله، يسأل عنها، يطلب منها ردًا، طمأنة يحتاجها.. رؤيتها لرسائله وإن جاوبتْ بالصمت كانت تريحه.. إلى اليوم، قرر أن يتقرب إليها بشكل مختلف..

في حروب العشق كل وسيلة مباحة حتى وإن كانت ورقة ضغط على القلب والمشاعر، حتى وإن كانت استغلالًا لفؤاد عاشقة ضل طريقه إليها بغباء ذكوري معتاد..

دخل لغرفة صغيره باعتبار ما سيكون، تأملها بعين فاحصة، أنصتَ للخطوات من خلفه فتحدث دون التفات:

- عم عبد الحميد، فضي لي الأوضة وهات الحاجات اللي خزنتها عندك تحت..

سمع الرد المطيع فتوجه لغرفته، بعد ساعة ونصف كان المكان عاريًا من كل محتوياته، ابتسم بحنين لمن سيسكنه.. لمن ستطوف فيه تحمل طفله..

تخيلها تتحرك بأرجائه تهدهد الرضيع الباكي وتوسعت البسمة..

بدأ بخلط الألوان، كشط مساحة من الجدار، ثم قرر مشاركتها العمل وإن لم تكن حاضرة..

بعث بأول رسالة، وروحه تتمنى الاستجابة..

على الطرف الآخر اهتز هاتفها معلنًا وصولها، تناولته بفتور، فتحتها وكانت..

"هابتدي شغل أهو في أوضة أبو سِريع"..

استغربتْ رسالته، استنكرتها.. كادت تلقي بالهاتف بعيدًا لولا أن وصلتها الثانية..

"على فكرة لو الألوان ما عجبتكيش بعد كده مش هاغير حاجة"..

زمت شفيتها بضيق، تبغض تلاعبه بمشاعرها، بقلبها المدله بغرامه بحماقة.. تغضبها ثقته في عودتها إليه، تسخط على روحها التي لا تشعر بالانتماء إلا لعالمه، وجسدها الذي يجد موطنه ومسكنه بين ذراعيه..

كل ما فيها يشتاقه؛ لكن نار الشوق أكثر بردًا وسلامًا من نار القرب وقلبه تستحوذ عليه أخرى!..

من نار أن تكون بأحضانه وعقله مع سواها.. عشقه لسواها..

"هاعمل كل الشغل لوحدي، يرضيك يا واد يا صنفرة!"..

قهرًا خرجت منها ضحكة مبتورة انتهتْ بعبرة..

لا يرضيها الابتعاد لكن يريحها، يرحمها من قسوة الدوران بفلك رجل لا يدرك كم هو معشوق في قلب امرأة وحيدة دونه..

"هاعلق على الباب يافطة مكتوب عليها أوضة عبد الجبار.. ممنوع الدخول لغير العاملين"..

ارتجفتْ شفتاها والبسمة تصارع الدموع..

تداهم كل منهما الثانية للحظات..

تنهزم وتتوجع وتنتصر وتتيه..

والرنين الأخير كان يحمل صورته، يرتدي قميصًا قطنيًا لا يناسب برودة الأجواء، فوقه "سالوبيت" من الجينز الباهت، وقبعة صيفية ملتفة للخلف، حجبت خصلاته الطويلة.. يبتسم بيأس ويشير بأصابعه بعلامة النصر بينما الجدار من خلفه مكشوط بعض الشيء!..

اللعنة عليه..

يتلاعب بها بيسر، يحركها عند أطراف أصابعه طيعة لينة هينة.. يستغل ضعف القلب، ويغازل الأنثى..

لا.. هو يستحق مائة لعنة..

امتدتْ أناملها تدحر كل رفض، تلامس ملامحه على شاشتها، ترفعها لشفتيها، تترك فوق وجهه قبلة وتستمر في بكائها الساكن..

شهرزاد العاشقة ساذجة..

وشهريار الخائن بحكم القلب يجيد اقتناص الفرص!..

**

شهرزاد العاشقة غاضبة، وشهريار لا يرى أن الأسطورة تليق به..

خُتم اليوم، في الصباح سيعود للقاهرة حيث العمل يحتاج لوجوده، وهي هنا ترفض العودة معه بحجة صديقتها، دلف لغرفتهما يفتش عنها..

يود إنهاء تلك اللعبة التي يناوران فيها بعضهما البعض..

يهرب فتهرب.. يبتعد فتبتعد، وعندما يقترب، تتجاهل وترفض..

كانت قد أنهت حمامًا دافئًا، ارتدت ثوبَ نومٍ ثقيل وجلست تصفف خصلاتها ببطء شارد قطعه ظهوره من خلفها على سطح المرآة بنظرة مقتحمة لم تفهم سببها..

سببًا أوضحه في اللحظة التالية مع بداية حديثه:

- وبعدين يا رهف!..

قطبتْ بحيرة لا تستوعب سؤاله بالكلية:

- خير يا عدي؟..

فطن لاستمرار شرودها، هي لم تدرك مقصده بصدق، عانق ذراعيه وتبدلت نبرته للجدية الحازمة:

- هنفضل على الحال ده لحد إمتى!..

وقتها انتبهت لمغزى كلماته، وقفته، حدته الخفية التي يداريها وتراها رُغمًا عنه، استقامتْ تترك الفرشاة على الطاولة، تستدير إليه بنظرة عاتبة وصوتها يتمم اللوم:

- أنت اللي اخترت الوضع ده..

هاجمها ببرود غضبه مكبوت:

- وأنتِ كبرتِ كل المواضيع..

سخرت ببسمة هزيلة:

- تفتكر!..

- متأكد..

لاحق بها أحرفها، اقترب خطوتين يواجهها، يصارع نفسه.. يمنعها عن هزها حتى تفيق.. ويلمح بعينيها حزنها وتأنيبها:

- ده كان اتفاقنا من الأول وأنتِ عارفة، أنا ماكدبتش، ولا خدعتك..

تراجعتْ تبتعد عن مرماه، عن قرب يوهن عزيمتها في رفضه:

- صح..

هتفتْ بها صريحة مباشرة:

- أنت صح..

نبرتها تعلو أكثر، ثم تخفت في التالي:

- أنت قلت لي معادلة مافيش فيها مشاعر، 1+1..

لوحتْ بيديها في شرح مستسلم خانع:

- وأنا وافقت..

بعدها عادت خطواتها، تسطو على عينيه بنظرة موبخة بها من الشجن ما أوجع قلبه وإن رفض الاعتراف:

- بس اللي ما وافقتش عليه إنك تقول الكلام ده لمامتك يا عدي..

تقطعت كلماتها وتحشرج صوتها بغصة منهكة:

- للدرجة دي بتقلل من احترامك ليَّ قدامها!..

- ما تحسبيهاش كده..

سارع بتبرير شبه غاضب.. هي تلوي ذراع الحكاية لتناسب حبكة العشق، وهو هنا ليس بعاشق..

سوغ دفاعه بحروف منتقاة بعناية، أشرف على تفنيدها العقل وتوارى القلب مهزومًا:

- أنا اخترتِك أنتِ بالذات، عشان تكوني مراتي وأم ابني..

هاجمته بحدة واهنة:

- وأنا اخترتك أنت عشان....

هنا تذكرت القسم..

الوعد القديم..

لن تنطق بلفظة هوى دونه، فعلتها مرة.. والثانية قدر عليه، بدلتْ حديثها بحقيقة أخرى:

- عشان أنت عدي..

وتهكمت بمرارة:

- مش لأني عاوزة أي راجل في حياتي..

عقبها أمالتْ رأسها وأعلنتْ ضيقها وألمها سافرًا:

- تخيل لو سمعتني بتكلم مع مامتي باقولها: أهو راجل والسلام..

- رهف!..

نهرها بحنق ذكوري تفهمته ببساطة:

- كلام يضايق صح!..

مسح وجهه بكفه، تنهد بحرارة وضغط حروفه:

- أنا راجع القاهرة الصبح..

تأملته بنظرة فاترة؛ يريد منها العودة، لكنه لا ينطقها..

يمرر رغبته في الخفاء، وهي لن تعود معه..

تحتاج بعض الوقت لنفسها بعيدًا عنه، عادتْ تصفف خصلاتها بجمود:

- قلت لي، توصل بالسلامة..

وقف خلفها يحاوط كتفيها بكفيه، يمسدهما برفق، يستنشق عبقها الذي يشتاقه:

- ارجعي معايا، ما بقيتش عارف أعيش لوحدي..

أزاح خصلة ندية عن عنقها، أحنى وجهه يتنفسها متعبًا، مكملًا بهمس:

- اتعودت على وجودك حواليا..

تماسكتْ بمشقة والقلب يصرخ، يشجب محتجًا، معترضًا، غاضبًا..
نأتْ عنه دون غلظة، قسرًا تترفق به:

- آسفة يا عدى.. غزل محتاجاني جنبها..

ضم قبضتيه مع ابتعادها، زم شفتيه وزفر بسخط..

أغمض عينيه للحظات وتحكم بانفعالاته كعادته، توجه إلى الفراش بخطوات واسعة خاضعًا لرغبتها ببرود:

- تمام يا رهف، اللي تشوفيه..

شهريار يمكنه الهجر وقتما يريد، وشهرزاد حينها ستحرمه الحكايا..

فربما تطول الليالي بينهما إلى أجل غير مسمى!..

**

شهرزاد لم تكن مسكينة البتة..

هي جيدة في الكذب، كل حكاية تحمل بين طياتها كذبة..

كخيال الراوي الذي يتقن الارتجال!..

كما وعد أوفى، والدتها الروحية تهبط من سيارته بصحبته، تركض هي على الدرج، تأكله بنهم حتى وصلتْ إليهما.. فتح الباب وبلحظة كانت بين ذراعيها..

1949

ضمة قوية تخبر عن شوق..

لا دموع!..

ترمقه من فوق كتفها بنظرة مبهمة، استقبلها بعين راضية قبل أن يبتسم ويشاغب بشقاوة غريبة:

- وفري شوية من الحضن ده عشاني..

نهرته بعينيها والسيدة تحتويها بحنو، تبعدها وتربت على كتفها ببسمة تشع سعادة:

- أنت أخدتها من حضني..

تُقرب رأسها منها، تهدي جبينها قبلة أمومية مشتاقة:

- حقي أحضنها من دلوقتِ ولحد ما أمشى..

رفع كفيه بإذعان وتراجع خطوة:

- حقك يا ماما زهرة..

ينتزع اللقب بأحقية قبضت قلبها، تهرب منه ومن كل شيء بابتعاد مبتهج:

- وحشتيني قوي..

تسحبها تجاه غرفتها لكن قبل أول درجة تتوقف، تعود إليه وتخبره ببساطة:

- هاديها رقم موبايلك تطمن عليَّ منه..

رفع حاجبًا معترضًا كأنما يعلمها أن رغباتها كثرت، أنها ليست كلها مجابة ففندتْ بعجالة:

- هي هتسأل، كفاية إن مافيش رقم يخصني..

ابتعدتْ بلا انتظار لرده.. كانت تدرك أنه لن يرفض، هي على حق.. وكأسيرته لها بعض الحقوق الإنسانية حتى وإن كرهها..

جلستْ مع السيدة فوق فراشها، تضع رأسها على ساقيها وتطالبها ببراءة تفتقدها في نفسها:

- العبي في شعري زي ما كنت بتعملي كل يوم قبل ما أنام..

استجابتْ المرأة العطوف برفق، تتخلل خصلاتها الطويلة بأصابعها برتابة رقيقة، تعاتبها بقلب أم:

- كده ما تسأليش عليَّ كل ده!..

تلعثمتْ في رد لا تحوزه؛ ماذا ستخبرها!..

الحقيقة محجوبة خلف قضبان الخوف، فبطرقعة إصبع يمكنه أن يؤذيها، أن يكسرها بها.. وذاك ما لن تتحمله..

عانقتْ خصرها وارتفعت قليلًا تضم نفسها لصدرها:

- انشغلت قوي، ما تزعليش مني.. أوعدك خلاص مش هاعملها تاني..

تحادثها كما كانت وهي طفلة صغيرة، بنبرة اعتادتها حين الندم وخشية العقاب..

أو حين الألم!..

حركتْ وجهها لتنظر بعينيها باهتمام قلق:

- مالك يا وسن؟..

ابتسمت باتساع وقبلت وجنتها بمرح، تداري كل مشاعرها وتحيا اللحظة التي تتوق إليها:

- أنا زي الفل يا ست الكل مادام شفتك..

واعتصرتها في ضمة تفيض بالحنين:

- النهاردة كله بتاعنا، هنتغدى سوا، ننزل المطبخ نطردهم منه ونطبخ مع بعض زي زمان.. وتعملي لي اللبن بالعسل..

تأملتها "زهرة" بحيرة متوجسة.. صغيرتها ليست على طبيعتها!..

- دلوقتِ هتشربي اللبن؟..

اعتدلتْ "وسن" في جلستها، تفتعل الطاعة والأدب بطفولية:

- على فكرة باشربه كل يوم زي ما وصيتيني..

قلب الأم لم يطمئن رُغم البسمات والضحكات ومتعة اللقيا.. كانت تراقبها بتدقيق، لا تعلم كيف تسأل أو عمَ تسأل!..

لكن حين اجتمعت مع كليهما على مائدة الغذاء ولاحظت كيف يعاملها..

كيف ينظر إليها كملكة متوجة بمملكته..

وكيف تتهرب هي منه بخجل ويشاكسها بمكر!..

1953

شعرتْ بشيء من هدوء يتسلل لنفسها، هدوءٍ تضاعف مع نهاية اليوم وهي تودعها، تترك معها رقم هاتف جديد وتخبرها أنها ستحادثها منه بانتظام..

أوصلها لإحدى السيارات التابعة له، أوصى رجله بالعناية بها وعاد لزوجته التي استقبلته بنظرة مختلفة، وكلمة مختصرة:

- شكرا..

اقترب حد حصارها فلم تمانع، بل خضعت للحصار دون شكوى:

- حاف كده!..

ترددتْ لوقت قصير، عانقته بإثره، طوقته ورفعتْ وجهها تلامس شفتيه بقبلة خاطفة:

- شكرا..

خطا بها يحتجزها على الجدار ويده تمتد لتغلق باب غرفتهما، يعيد إليها قبلتها وإن كانت أكثر عمقًا، تملكًا وسيطرة:

- اشكريني صح..

تراجعتْ تساوي خصلة تناوش وجنتها:

- عاوز إيه!..

خنوعها يريبه، يفجر شكوكه ويثير طغيان أفكاره..

بها شيء لا يريحه، لكنه لا يستطيع القبض عليه بأنامله، لذا كان صريحًا في رده:

- دماغك فيها إيه يا وسن؟..

صمتتْ قليلًا ثم فاجأته ببسمة ماكرة، متلاعبة:

- خايف مني!..

ندتْ عنه ضحكة خافتة مخطوفة، يده تحاوط عنقها، تنسل وصولًا لمفرق الترقوة، يدور في فراغه بعبث:

- تعرفي!..

تأملته بنظرة ساكنة، مستفسرة.. أناملها بالمثل تغوص في خصلاته وتتخللها برتابة:

- زمان لما كنت بخاف؛ كنت باهرب..

1955

لوتْ شفتيها ببسمة فضولية:

- ودلوقتِ!..

تحركت سبابته تنقش اسمه على بشرة جيدها:

- دلوقتِ بهاجم خوفي، لو خد خطوة ناحيتي باخد ناحيته عشرة.. لحد ما أوصل لمصدره..

استندتْ للجدار ولم تحرره أو تتباعد، استكانتْ خاضعة لقربه، تسأل باهتمام:

- وبعدين!..

ارتفع إصبعه عائدًا لذقنها، دفعها لتنظر بعينيه، يتنفس فتتلحف بأنفاسه، وكلماته تشوش أفكارها:

- بأنهيه..

قطبتْ بحيرة أجابها بحزم مباغت مفزع وقبضته تنغرس في لحم ظهرها بلا رحمة:

- باقتله في مكانه قبل ما يفكر يأذيني..

1956

تشنجتْ مع لمسته القاسية، لكنها لم تتراجع.. ظلتْ على ثباتها ومراوغتها:

- عاوز تقتلني!..

ابتسم قرب ثغرها بخبث:

- ومين قال إني خايف منك!..

والتهم الرد والاعتراض والأنفاس..

حكايا هذه الشهرزاد مختلفة.. وهذا الشهريار ليس غرًا كالآخر..

الأمر هنا خارج عن السيطرة، ممتع حد الخبال.. مخيف حد الهروب!..

**

شهريار كان رجلًا أحمقًا..

القتل رحمة..

الحياة أكثر عذابًا لامرأة خائنة!..

وأكثر قسوة وجهامة على رجل تجرع كأس الغدر حتى الثمالة، حد الاختناق..

كان من المفترض أن يعود لمنزله خلال يومين على الأكثر، لكنه سئِم المشفى.. سئِم التحقيقات الفارغة التي لن تصل لنتيجة حاسمة مادام لن يعترف بشيء.. وافتقد طفليه، لذا أصر على الخروج قبل موعده والعودة لمنزله..

عودة جلبت معها مصادفة أو قدرًا اختار الإنصات إليه بفضول..

هي والصغيرين بغرفتهما، يستعدان للنوم، الباب موارب لكنه لا يظهر ما خلفه، يصدر عبره صوت حديثها معهما وحسب..

كانت قد وضعت "باهي" بفراشه أولًا كما اعتادت، دثرته بعناية واستدارتْ تجاور شقيقته، تندس معها أسفل الغطاء وتسحب كتابًا ملونًا، تسألها عنه بحماس:

- نقرا النهاردة سنو وايت!..

مطت "ضي" شفتيها بتذمر معترض:

- لأ.. ما بحبهاش..

- أنا بحبها..

هتف بها "باهي" من مكانه، أدارتْ وجهها إليه ببسمة ناعمة قبل أن تعود للفتاة بسؤال مهتم:

- ليه يا ضي؟.. كل البنات بتحب الأميرات..

احتجتْ بتبرم منزعج:

- أنا مش زي كل البنات..

ابتسمت "رحيل" بحنو..

في كل يوم يزداد تعلقها بهما، لا تعلم كيف سيمر وقتها بعد رجوعه!.. حيث يحين ذهابها، ابتعادها عنهما وعودة الحياة لمسارها التقليدي الباهت..

شعثتْ خصلاتها وانحنتْ تقبل جبينها بحب:

- أنت أحلى princess..

أصرتْ "ضي" على عنادها المستاء:

- بس مش زي disney princesses..

عقدت "رحيل" حاجبيها بتساؤل مداعب:

- ليه طيب!..

جلستْ الفتاة بعدما أزاحت الغطاء عن جسدها، تفند أسبابها بنسوية بحتة:

- عشان أنا مش مستنية prince charming يجي ينقذني من الساحرة الشريرة..

كان ذاك رقم واحد، طوتْ سبابتها داخل قبضة يدها الثانية وعددتْ مجددًا:

- ومش غبية باروح المكان اللي المفروض ما أروحوش..

تألقتْ بسمة "رحيل" بإعجاب وهي تكمل بجدية تامة:

- وكمان مش باكل حاجة من أي stranger زي سنو وايت ما عملت..

بعدها بادلتْ معلمتها البسمة برقة:

- مامي علمتني كده..

غُصت "رحيل" بابتسامتها.. هي دخيلة على تلك الصورة مهما جاهدت لأن تندمج في ألوانها..

ستظل رتوشًا تشوه كمالها وجمالها..

فرشاة عصية والرسام يسيطر عليها لكنها بعاطفية تتمرد..

وتنكسر!..

- ميس رحيل، تفتكري بابي ممكن يموت زي مامي ويسيبنا لوحدنا؟..

"بعد الشر"..

صدحتْ بها متحشرجة قبل أن يكتمل سؤال الفتى مرتجف النبرة..

صدحتْ بها لتصل للواقف خارج الباب ببسمة فخور بابنيه، تصله فيستغرب رد الفعل واللهجة واختناق الصوت!..

بتر أفكاره دفعة واحدة يجذ عنق احتلالها لعقله..

تنحنح ينبهها لوجوده، لم يرَ ارتباكها، انتفاضتها، نبضة القلب الملهوفة ولا أناملها التي سارعت تجذب وشاحها لتغطي به رأسها بحرص..

استقامتْ تقابله عندما قفز طفليه يرحبان به.. يعانقانه ويتشبثان بحضوره، ابتسامتهما تولد حقيقية بمذاق قربه، وأعينهما تشع بفرح، بأمان، براحة وطمأنينة وجوده..

رفع بصره إليها بشكر صامت أومأتْ له بخجل، اندمج مع الصغيرين لدقائق انتابه بإثرها شيء من إرهاق انتبهت هي له..

حادثتهما برفق:

- طيب إحنا ميعاد نومنا فات، نسيب بابا يرتاح وننام إحنا كمان..

تعلقا بأبيهما برفض وابنته تقرر بحسم:

- هينام معانا..

نظر هو للفراشين الضيقين مقارنة بحجمه واعترض:

- مش هاعرف أنام هنا..

دحضتْ "ضي" حجته بتفنيد مباشر:

- هننام إحنا معاك في سريرك الكبير..

وقد كان.. هرولا يسبقانه لغرفته، يتنافسان سويًا ويختار كل منهما جانبًا ليستقر به..

وقفتْ بمنتصف ممر الغرف حائرة، هل ترحل الآن أم...

- لو بتفكري تمشي دلوقتِ؛ انسي..

رفعتْ وجهها إليه فرأت بعينيه امتنانه:

- أنا عارف إنك فضلتِ معاهم عشان أنا مش موجود، وما يكونوش لوحدهم..

لوح بكفه مع مرآه لرغبتها في الاعتراض على محاولته شكرها:

- مافيش شكر كفاية.. بس مش معنى كده أول ما أرجع البيت تمشي..

نفتْ بهدوء ونبرتها تدعي ثباتًا لا يقارب هزتها الداخلية في شيء:

- ده اللي المفروض يحصل..

تقدم خطوة يمط شفتيه باستسلام:

- على الأقل استني للصبح..

وتظاهر بتعب لم يكن كله مفتعلًا:

- مش هاقدر أوصلك دلوقتِ..

شعرتْ بالحرج، كأنها تضغط على أخلاقه ورجولته، تباعدتْ وخضعتْ بلعثمة:

- لأ طبعا.. مش قصدي..

- كده يبقى خلاص..

قاطعها بحسم نهائي.. رمقته بحيرة قابلها ببسمة خافتة:

- تصبحي على خير..

استدار متوجهًا لغرفته، تابعته بناظريها للحظات قبل أن تنتبه، تتذكر وتوقفه بحياء:

- وجيه بيه!..

التفت بتساؤل لوت على إثره أصابعها سويًا بتشتت:

- حمد الله على سلامتك..

أومأ يتقبل ترحيبها ودلف للغرفة، تركها دون علم أن الخافق كان يطرق ضلوعها حد التحطيم والخوف والألم والعشق..

انتبه لصغيريه ليجد أنهما أفسحا له مكانه بمنتصف الفراش، ينتظرانه بترقب لم يتأخر حتى لباه..

بدل ثيابه وتوسطهما، مد ذراعيه فتوسدهما الطفلين، ضمهما إليه وتعانقت أجفانه يحرق كل أفكاره في جحيم الشك..

لن تختلف عن سواها حتى وإن أظهرت العكس..

شهريار رجل مغفل..

شهرزاد في يوم ما ستصبح مثلها مثل كل نسائه الخائنات..

هي فقط أجادت اللعبة، واختارت المخدر المناسب لتهزم به غروره..

لكنها كانت هزيمة واحدة لن تتكرر!..

1965

**

ربما شهريار لم يكن رجلًا خاوي العقل، فارغ الوقت على أية حال!..

ربما سقط في غرام شهرزاده لحظة أول لقاء..

وما كانت حكايا الليالي الألف وواحدة إلا حُجة يفوز معها بقربها.. يطيل أمده، ويماطل الزمن لتكون له..

أو أصابته الحماقة بعد لعنة العشق، تلك اللعنة التي أُبتلي بها وحده دونها، هو عشق.. وهي كانت تفر من موت محتم حكم به على كل النساء؛ بقصص..

تحبسه أسير سحرها، وتكرهه لأنها نفسها أسيرته..

هو عاشق.. هي خائفة..

وتلك حكاية لا يمكن أن تنجح أو تدوم!..

هي التي رغبتْ بالفراق فسوَّفه، أرجأه قدر استطاعته، حتى خنع في النهاية لرغبتها واستجاب..

1966

بعد الفراق لم يتحمل البُعد، عاد، اقترب، تحايل..

والآن هي فاقدة لوعيها منذ عشرة أيام، غائبة، بعيدة عنه.. لأنه فقد أعصابه للحظات تشتتَ معها تركيزه وتبعثرتْ أفكاره فلم يستفِق إلا ودمائها الثمن..

أجبر أبيها على الرحيل لتلك الليلة، وكعادته منذ تحسنت حالته وسمح له طبيبه بالخروج من المشفى، يأتيها ويظل بصحبتها طيلة الليل، يذهب لعمله في الصباح، يرجع منه لمنزله، يتناول وجبة خفيفة وينهي حمامًا منعشًا بإثره يطير إليها..

يقبع بمقعد شبه مريح قرب فراشها، كفها الناعمة بيده، ملامحها الشاحبة مسقط عينيه، وأنفاسها محط أذانه المصغية..

يتابعها بكل خلية في جسده كأنما يخشى أن يغيب فتغيب عنه للأبد.. مد أنامله يبعد خصلة شاردة عن جبينها، يحاوطها بنظرة دافئة تفيض بالألم، بالندم والذنب والتشبث..

يهمس باسمها ويحني رأسه ليلثم باطن يدها:

- دُچى..

1967

لا يأتيه جواب.. يريح جبهته على كفيهما المتعانقتين معًا ويغرق في شبه نوم مُجهد..

نوم تتخلله أحلامه بها..

بالبداية، اللقاء، النظرة، العشق الوليد..

"بحبك"

"تتجوزيني"

رفض مبتور تبعته موافقة.. وامتلاك..

زفافًا أسطوريًا لا يناسب مليكته سواه، بداية أيام العسل بكوخ أنيق على خليج "فلام" بالنرويج إثر رحلة امتدت لأكثر من خمس ساعات، بعدها وبداخل الكوخ الأحمر كانت تراقب قمم الثلوج على الجانب البعيد للخليج بافتتان تام..

تنكمش على نفسها وسترتها الثقيلة بالكاد تمنحها الدفء، تتجمد أنفاسها عقب خروجها من صدرها، تفرك ذراعيها برجفة خافتة لاحظها بينما ينقل الحقائب داخل المكان الأنيق المنعزل..

ضغط بضعة أزرار في جدار مجاور فوصلها هدير خفيض استدارت تستفسر عنه، لمحته يجثو على ركبة واحدة قرب مدفأة بمظهر كلاسيكي عتيق، يعبث بلوحة إلى جوارها فتشتعل بها نيران أو هكذا خيل إليها..

يرفع وجهه نحوها ويبتسم بحنو:

- هي تعتبر ديكور، بس الإيحاء فعال..

بادلته بسمته بشيء من خجل وهربت من نظرته التي حاصرتها، كان يدرك هروبها.. هروبًا لم يعُد يجدي معه..

لقد باتت زوجته الآن، وكل تلك الأفكار والخيالات والأحلام التي راودته عنها مباح تنفيذها في التو واللحظة..

وقف خلفها يخلع عنها السترة كما خلع خاصته، يحاوط خصرها بذراعيه ويضمها إليه فترتعش، يهمس بأذنها ويراقب معها المشهد من خلف النافذة المنخفضة:

- بردانة!..

أومأتْ بصمت جعله يحكم طوقه حولها، يمنحها دفئه وحرارة نبضه، يخبرها باهتمام:

- دقايق والجو هيبقى أدفى..

كان القرب الحميمي الثاني بينهما، فالأول سبقه بدقائق حين حملها يعبر بها عتبة الكوخ كتقليد متبع لعروسين..

يستشعر غربة جسدها بين ذراعيه، رغبتها التي تكبتها في فرار، حيائها وتباعدها وحيرتها في رد فعل..

أنثاه ذات العنفوان والصرامة الجادة على الدوام، بين يديه كقطعة حلوى هشة ناعمة، تشتهي الانفلات من قربه..

لذا حررها يمنحها حريتها وينتهج الصبر.. هو حتى لم ينل من شفتيها قبلة للآن، وذاك كثير.. يثقل قلبه العاشق..

تراجع يسألها في التفاف، يهديها راحتها حال وجوده:

- إيه رأيك في المكان!..

حماسها باغته، بل ملأ روحه ببهجة لسعادة ملامحها:

- تحفة يا منذر بجد، اخترته إزاي!..

سؤالها الفضولي قابله بخبث لطيف:

- لأ.. ده سر المهنة..

لامته بعينيها.. تلك السماء الصافية وقت الهدوء، البحر العاصف وقت الغضب.. يحلق معها، ويغرق فيه بأريحية..

أشار بكفه في استسلام:

- الوكالة عندنا كانت ماسكة حملتهم الدعائية في ألمانيا كلها من سنتين..

عقدت ذراعيها تستفهم بتركيز:

- يعني جيت هنا قبل كده!..

هي تعلم أنه لا يقدم على عمل دون دراسة وافية ومعاينة خاصة، رد بيسر:

- طبعا..

- لوحدك!..

نبرتها تشير لغيرة..

وكلمتها تعني صراحة أن المكان مخصص للثنائيات!..

اقترب يداعب أرنبة أنفها بطرف سبابته:

- دي غيرة!..

تراجعتْ بارتباك متعثر لم يفهمه في وقتها:

- لأ.. أكيد لأ مش غيرة..

رفع أحد حاجبيه ببسمة مشاغبة:

- المهم إنه عاجبك..

تهربت منه باستدارة، تطالع الجبال واللون الأبيض الذي يغمرها بصفائه:

- جدا..

وقف في ظهرها يتشممها بلمسات مبتورة، يبتعد ويقترب ويتنفس بين خصلاتها دون أن يحتضنها فعليًا:

- ده اللي يهمني..

تصلبتْ في وقفتها بتوتر.. بادرتْ بأول ما جال في خاطرها:

- بس مش غالي قوي هنا!..

تمتم بعشق صُراح:

- الكون كله ما يغلاش عليكِ..

رمشت بوهن.. لمح انعكاس وجهها على الزجاج، رأى رفة أجفانها وضعفها الذي لا يفطن لسببه، وإن عزاه لكونها عروس..

تلك أول لحظاتهما معًا، وحدهما..

أدارها إليه يقوض مخاوفها، توترها وقلقها:

- أنتِ عارفة إني بحبك!..

كررتْ إيماءتها بسكون فلامس وجنتها بسبابته برقة:

- يبقى أنا كلي ملكك..

- منذر!..

1973

همست اسمه بتشتت مبعثر، تشتتًا لم يقاوم أن يبتلعه وشفتيها في قبلة أولى اختطفت أنفاسها وزلزلت أنفاسه..

عندما تراجع أسند جبينه لجبينها، يتنفس ببطء ويسرد اعترافه ثانيةً:

- بحبِك يا دُچى..

كان الدفء قد عم المكان بالفعل، تملصت منه برفق وجواب كلماته عندها همهمة ضائعة يدرك أنه لن يفوز بسواها..

منذ علمت بما في قلبه، منذ صدح به وطلبها للزواج وهي تخبره أن نبضها خارج المعادلة، هي تحترمه، تقدره.. تراه رجلًا يصلح لأحلام كل النساء..

وهو لم يرِد إلاها.. كانت حلمه..

لذا وافق على الصفقة غير المعلنة، ستكون له.. ولن يطالب بمشاعر إلا حينما تجهر هي بها..

غمغمت بحجة واهية:

- هو فين أوضة النوم؟..

قبل أن تدور أفكاره في فلك رجل مألوف أردفت بعجالة:

- عاوزة أغير هدومي وآخد شاور بعد السفر الطويل ده..

أفسح لها الطريق مشيرًا لغرفة جانبية ببسمة هادئة، تقدمت تجاهها فتبعها يحمل لها الحقيبة، وضعها عند الباب وغادر يغلقه من خلفه.. عاد يقف قبالة النافذة، يتأمل الأفق بتنهيدة راحة..

لقد أصبحتْ زوجته، وكل ما عدا ذلك، مجرد كماليات لا يبالي بها..

تخلص من سترة حلته وبدل ثيابه في حمام آخر عقب اغتسال دافئ، عندما خرج وجدها تعبث في المبرد فخطا إليها:

- بتعملي إيه!..

التفتتْ لتجده بجوارها، أسقطتْ علبة من الجبن عندما اصطدمتْ به، تلقفها مستغربًا فزعها المباغت، طمأنها بعاطفة ممازحًا:

- مافيش هنا غيري على فكرة..

وضع العلبة على السطح الرخامي ولم يبتعد عنها، سألها باهتمام يتمنى النفي:

- جعانة!..

هزت كتفيها بحرج وحاولت التحرك لولا أنه كان يحتجزها تمامًا، جسده يقابلها، على يسارها المبرد وفي ظهرها الخزائن، ابتلعت ريقها بعسر لم يرحمه..

هو يشتاقها.. يريدها..

وبتلك اللحظة حلمه بين يديه قد تحقق، بقيت فقط خطوة أخيرة.. لم يتردد فيها، أخذها فتيبست بوقفتها، لم يكن أبدًا رجلًا عجولًا..

حركاته متأنية، رصينة، هادئة.. نظرته لا تغلب عليها الانفعالات الصاخبة، اتزانه لا يختل.. ثباته لا يهتز..

هي، حطمتْ ذاك كله وخلقت منه آخرَ يخفى عليه.. يجهله..

لكنه ينوي أن يقابله ويتعرفه معها، أن يتعايش بصحبته مادام قد خُلق بداخله لأجلها..

تحشرج صوتها باسمه وقوتها تتداعى بحصاره، وجنتاها المحمرتان كانتا فتنة، شفتاها اللتان تقضمهما باضطراب هما السحر..

وهو بعالمها مسحور.. ملعون..

خاضع للعنة والسحر بلا أمل..

أفاق من حلمه بانتفاضة عندما أحس بيدها تتحرك بيده، تنقبض لتضم أصابعه كأنما تعلمه بوجودها..

رفع رأسه يرمقها برهبة، وأتت عيناها المفتوحتان لتبث بروحه الحياة..

لقد عادت!..

شهرزاد فرتْ من العشق..

لكن شهريار هو من سقط، ولا عزاء للسيف وصاحبه..

**

هذه الشهرزاد سقوطها كان مروعًا..

سقوطها أسقط معها كامل المملكة..

نحرت قلب شهريار العاشق، وأُجبرت بعد النحر على التخلي والهروب..

1977

أُجبرت على نصف موت، وعذاب خالد..

هذه هي شهرزاد بعد الألف ليلة وليلة حين لم تنفعها الحكايا..

كانت غبية بما يكفي، ضعيفة بما يكفي لتخضع للشيطان.. ودومًا في الاستجابة للغواية ندم.. دومًا لها ثمن..

رُتبت كل الأمور كما أخبرتها "نيروز".. تسلمت أوراقها التي يمكن أن تفيدها في عملها، ودعتها، ودعت ابنها الذي شعرت مع فقدانه أنها تفقد روحها للمرة الثانية..

لمحت طفليها لدقيقة أو أقل بصحبة أبيهم، رأته هو واطمأنت عليه بعد زيارتها المسروقة له عندما كان بالمشفى..

توشك على القسم أنها طرفٌ فيما جرى له، لم يكن له عداوة في يوم يمكن أن تصل للقتل.. لكنها وضعتها في طريقه بخطيئتها..

كادت تنهي حياته كما انتهت حياتها معه.. تنهدت ولملمت شتات نفسها ثم غادرت، والآن هي على بُعد ساعات من بدء حياتها الجديدة في مكان غريب تجهل به الجميع ويجهلها الجميع!..

1978

جلست تحادث والدتها التي تشبثت بها حتى مع إيمانها بأن ذاك هو الأفضل، تكبت دموعها وترسم فوق شفتيها بسمة مختنقة تطمئنها به رُغم أنها لا تراها:

- أنا كويسة والله يا ماما، هابتدي شغل كمان يومين أهو والأمور هتستقر..

تمسكت الأم بكلماتها كحقيقة تريحها، كانت في زيارة مختلسة لشقيقتها التي لم يتبدل حالها منذ ما حدث، كل يوم هناك ضعف أكبر.. هوان أكثر، كل يوم هناك أسوأ.. أخفضت صوتها تجيبها بحنو:

- المهم تكوني مرتاحة، خدي بالك من نفسك وعيشي حياتك..

تحشرجت نبرة "ليلى" بسخرية كبتتها:

- هاحاول..

وبدلتْ فحوى الحديث لسواها باهتمام:

- هالة عاملة إيه؟..

صمتت أمها للحظات وهي تراقب ابنتها تتحرك في المنزل بعشوائية تائهة، ترتب أريكة.. ترفع أكوابًا وتسير بها تجاه المطبخ الصغير، تعود لترتب ذات الأريكة بشكل مختلف.. ترمق صغيريها بتشتت..

الفتى يلعب بجهاز لوحي باندماج كلي، والفتاة تعبث بقطع من البازل..

الرضيعة نائمة بفراشها، وهي تتجول بلا اتجاه واضح، همهمتْ بعطف مشفق تخفي عنها ما حدث.. هي لن تتحمل ذنبًا إضافيًا يثقل قلبها:

- كويسة الحمد له، هترجع شغلها كمان أهي..

تمتمت "ليلى" بحنين حزين:

- خلي بالك منها يا ماما، أنتِ عارفة هالة ما بتعرفش تتصرف تحت ضغط..

طمأنتها والدتها بدفء:

- ما تقلقيش.. خلي بالك أنتِ على نفسك..

1980

ودعتها بخوف لا ينتهي..

وانتبهت للأخرى التي أقبلت عليها بسؤال مضطرب:

- كنتِ بتكلمي مين يا ماما؟..

أجابتها دون تردد، لا تذكر اسم أختها أمامها أبدًا:

- أبوكِ، بطمن عليه..

ثم نهضتْ من جلستها، ترمق الصغار بتدقيق، تطمئن على حالهم واحدًا واحدًا، تخبرها بتنهيدة متعبة:

- هاروح أنا بقى، وهاجيلك كمان يومين، خدي بالك من الولاد ومن نفسك..

ضمتها بحنان تستشعر رجفة جسدها شبه الدائمة..

ربتت على كتفها وقبلت الطفلين، ألقت نظرة أخيرة على أصغرهم بمهدها وغادرت..

من خلفها راقبت "هالة" المشهد بجمود لبعض الوقت، عقبه أمرت ابنها:

- فراس.. سيب التاب يلا وادخل نام، في مدرسة الصبح..

هتف الفتى بتعلق طفولي:

- شوية كمان يا مامي.. please..

نهرته بحدة مباغتة:

- لأ كفاية.. قوم يلا على الحمام اغسل أسنانك وادخل السرير..

عاندها ببداهة عمره:

- لأ.. هاقعد شوية..

هاجمته بعنف مفاجئ، تنتزع منه الجهاز، تلقيه بعيدًا بلا تركيز فيصطدم بالجدار ويسقط محطمًا، تصرخ في وجهه بهستيرية:

- قلت لك قوم نام.. حالا..

انكمش على نفسه بخوف، انهمرتْ دموعه وعينه ترمق جهازه بأسى نبهها لما فعلت، التفتتْ تتأمل صنيع يديها قبل أن تزفر بألم..

تعود للصغير، تجاوره على الأريكة وتشير لشقيقته التي ارتعبتْ بالمثل، تراها تتردد للحظة، تندفع لأحضانها، تعتذر لهما بإنهاك:

1982

- أنا آسفة.. أنا آسفة..

تبكي بينما تمسح عبرات كليهما، تعتصرهما في ضمة وتعدهما بعدم التكرار.. تضعهما بفراشيهما، تتجه لغرفتها، بتلقائية تمتد يدها لأقراصها المهدئة، تبتلع واحدًا وتختنق بأنفاسها..

ترمق شريط الدواء بفتور، تبتلع قرصًا ثانيًا مع شربة ماء.. تندس بفراشها، تجذب الغطاء فوق رأسها وتغمض عينيها بهروب..

لم تعُد تعلم ما قيمة أن تحيا!..

هي تتمنى الموت وحسب..

خسرت كل شيء، وتمَّم إبليسها الملعون خسارتها..

تبًا لك شهرزاد..

لِمَ لم تقتلي شهريار وقتما نام بعد نهاية حكايتك الأولى، وتريحي من شروره نساء العالم أجمع!..

(28)

الحياة لوحة فارغة..

ألوانها بيد القدر..

فرشاتها بين أصابع البشر..

اختر لونك بحذر، فإما أن تنتهي إلى النعيم.. وإما أن تُخلد في الجحيم!..

**

هي لوحة خطوطها بسيطة، أشبه برسومات طفل بريء.. العالم كله له شمس وسحابة ناعمة، موجة بحر، ومركب صغير يمخر عباب اللون الأزرق..

لوحة مهدها العاشق بلون النقاء، ثم أتى الشيطان ليعكر صفوه بالرماد.. يسطو عليه بالسواد..

بلهيب النار..

1984

يحرقها دون أن يحترق، يقتلها وينتظر منها أن تعود للحياة إثر كل موت..

لكن كيف تعود وهي بين أحضان الحلم!..

هنا مع الحبيب والزوج، يدعمها، يحملها ويعبر بها عتبة عشهما الصغير، يخطو تجاه غرفة نومهما، يريحها بالفراش، ينحني بقبلة دافئة فوق جبينها.. يلمح عبراتها التي تترقرق خلف أهدابها بأسى، يمد إبهامه ليتلقفها قبل السقوط..

يتنهد ويعتدل ليجاورها، يضم كتفيها بذراعه ويهمس لها بأمان العالم:

- هترجعي يا شمس، هترجعي.. أنا عارف ومتأكد من ده..

ارتجفتْ فوق صدره بأنين مختنق، بحة صوتها تدلل على كبت لصراخ تود لو أحرقت به ومعه الأرض بمن عليها:

- أنت ما سمعتش كلام الدكتور يا يامن؟.. خلاص.. مافيش باليه، قدامي لسه شهور على ما أقدر أمشي كويس، وبعدها...

- بعدها هترجعي جنية الخيال على خشبة المسرح..

قاطعها بحزم مطمئن، تحشرج صوتها ودموعها تنهمر لتبلل قميصه:

- جناحات الجنية اتقصت..

أبعدها وانحنى يواجه عينيها بنظرة داعمة تحتويها كملاذ من كل الشرور:

- جنيتي قوية، زي الشمس.. كل يوم لها قوة جديدة، كل يوم بتنور الدنيا حتى لو الليل هزمها كام ساعة..

وعاد يمحو العبرات بإبهاميه هذه المرة عن وجنتيها:

- إوعي تفقدي الأمل أبدا، أنا جنبك وهافضل جنبك..

انغرستْ بطوقه الحاني، تتمنى لو سجنها بين ضلوعه وعاشت هناك حيث مسكنها وموطنها، لو أغمضت عينيها وعادت بالزمن.. أو أوقفت الحدث عند الأمس:

- خليني في حضنك يا يامن.. ما تبعدش عني..

1986

استجاب لها بلا تردد، يعتصرها في ضمة مغرم لا يباح له فرار من أسر الغرام:

- مستحيل أبعد عنك..

ربما كان أجمل حلم..

أسعد لحظات من هلوسة..

ربما هو التيه..

هو اللون الذي كانت عليه قبل أن يستحوذ على لوحتها الضباب..

ربما تمنت لو لم تفِق من مرضها، لو طالت الحمى قليلًا بعد.. ربما لو ظلت مع من غاب عنها لساعات أطول!..

لكن السراب كلما اقتربتَ استشفيتَ حقيقته..

محض سراب..

في اليوم التالي عندما أفاقت مجهدة، وجدت نفسها وحيدة بفراشه، غارقة في العرق، خصلاتها مشعثة شبه مبتلة وملتصقة ببعضها البعض..

1987

الوسادة تحت رأسها كذلك طالها بلل زائد، وترتدي إحدى سترات مناماته!..

انتفضت وقتها تعتدل بشبه خوف، أصابها دوار طفيف أغمضت عينيها على إثره وتنفست ببطء عميق تستعيد توازنها وهدوء نبضها، بعدها تأملت الغرفة الخالية منه.. الهاتف الذي يشير إلى ما بعد الظهر بساعة وأكثر.. لقد فقدت وعيها لما يقرب من يوم كامل!..

استقامت بتمهل تقف جوار الفراش، تفتش عنه بتعثر.. تخطو للحمام وتقابل الفراغ، تعود للغرفة وترى ثوبها الذي خلعه عنها عندما أصابته المياه بسبب تذمرها ولاوعيها..

لا تصدق أنه قد يعتني بها، أو يمنحها شيئًا من اهتمامه..

ألم يتركها على حدود النهاية قبلها بساعات!..

أي كم من التناقضات يحملها ذلك الرجل!..

أم ربما باتت دميته الأثيرة، لذا عليه العناية بها حتى تعود لها قواها وتستمر الحرب بين نورها وظلامه..

1988

سمعت طرقة على الباب فكادت تركض عائدة إلى الفراش، تخفي ساقيها تحت الغطاء، تستقبل السيدة التي ابتسمت برفق حانٍ:

- صباح الخير يا ست شمس، وشك زي القمر النهاردة أهو الحمد لله..

ساوتْ شعرها بحرج، استرختْ في جلستها بعض الشيء:

- هو أنا نمت كتير يا دادة بهجة؟..

وضعت قربها صينية إفطار صحي وكوبًا ضخمًا من عصير البرتقال الطازج:

- يوووه.. من إمبارح العصر وأنتِ نايمة وبتهلوسي كمان..

وأخفتْ وجهها بارتباك متلعثم:

- باسم حبيبي الله يرحمه..

لامست "شمس" ثغرها بتوتر مصدوم خجول:

- يامن!..

ربتت المرأة على كفها بتفهم أمومي:

1989

- الله يرحمه ويبارك في يزيد..

نهضت تتركها على راحتها:

- هاسيبك تفطري، اشربي البرتقان عشان البرد يطلع من جسمك.. وارتاحي، ما تقلقيش على يزيد، في حضني..

توقن أن صغيرها بأمان، لكن حينما كادت ترحل أوقفتها "شمس" بتردد:

- هو يعقوب فين!..

استدارت إليها "بهجة" تجيبها ببساطة كأنما تدرك مدلول السؤال وأهمية الجواب:

- البيه نزل أوضة الجنينة على الساعة اتنين قبل الفجر كده، والصبح بدري رجع.. بعدها بشوية شفته رايح الشغل زي كل يوم..

أومأتْ لها بتفهم مشتت، ارتكنت بظهرها للوسادة من ورائها، زمت شفتيها تفكر بما جرى ليلة أمس.. تقسم أنه سمع نداءاتها، أن الأمر لن يمر عليها بسلام..

1990

لكن أي أمورها معه تمر بسلام!..

قبل يومين كادت تموت تحت جبروت يديه، لا شيء يخيف أكثر من الموت.. من الوقوف بوهن على حافته، أن تنظر للقاع تترقب السقوط..

توقن منه.. تتوقعه وتنتظر لحظة الارتطام القاتل..

لتجد أن قاتلك سحبك للخلف فجأة، اختار السماح لك بمزيد من الأنفاس.. بمزيد من الألم والفزع..

مضغت قطعة من الخبز فاستشعرت مرارتها، حلقها الجاف لا يساعد، تناولت كوب العصير ترتشف منه بتمهل، تشرد في حلمها، في كابوسها..

الحلم الذي انتهى ولن يعود..

والكابوس الذي لا تلمح له خاتمة..

كابوسًا كلما حاولت التكيف معه.. كلما ارتقتْ درجة بظلامه؛ وجدت أنها لا تزال تحبو داخل القبو المغلق عليها..

1991

لم تصعد خطوة واحدة، لم تقف على قدميها، هي تتخبط بعشوائية موجعة في ثنايا عتمته..

أنهتْ بضع لقيمات أخرى بعسر، تجبر معدتها المتقلبة على تقبلها، تبتلعها بغصة، وتستقيم لتعود لغرفتها، أمسكت بثوبها تتفحصه، جف إلى حد ما، خلعت سترته عنها وأعادته حول جسدها، توجهت لغرفتها تضم طفلها، تقبل رأسه وجسده الضئيل، تتركه بعناية المربية وتحمل بعض ثيابها في حاجة ماسة لحمام دافئ..

كعادتها جلست على أرضية غرفة الاستحمام والماء يضرب ظهرها، تضم ركبتيها لصدرها وتشرد في المحال..

في كشفها الجديد عن زوجها الذي عليها أن تحيا معه ما بقي لها من عمر.. المجرم المعترف بإجرامه، الفخور به..

رجل العصابات!..

لم تجسر على السؤال يومها، أهي المافيا!..

تلك التي لم تسمع عنها سوى في عدة أفلام وتقرأ بعض مقتطفات تخصها بصفحات رواية ما..

1992

أم عصابات أخرى!..

هل يداه ملوثتان بدماء الأبرياء!..

أخبرها أنه ينتظر ظهور أبيه ليقتله، ربما اعتاد نزع الأرواح إذًا..

ارتعدتْ في جلستها بذعر، ما الذي قد يمنعه عن قتلها إن أراد!..
إن وصل لحافة الجنون ولم يعُد!.. إن تخطت هي حدوده الحمراء!..

نهضت تقفل المحبس، تخطو خارج الغرفة الزجاجية، تجفف جسدها بتشتت مختل، ترتدي ثيابها وتخرج..

لم تعلم كم من مر من وقت؛ لكنه كان يعبر باب الجناح إلى الداخل حين تجمدت خطوات الاثنين في شبه لقاء محتوم..

هي برعشة تدلل على خوف..

وهو بثبات خالٍ من الانفعالات والمشاعر وحتى الأنفاس..

عشر ثوانٍ مرت، تحرك عقبها متجهًا لغرفته، متجاهلًا وجودها بالكلية، ومستعيدًا أنفاسه التي حبسها دون سبب محدد..

كما حبست هي أنفاسها حتى انغلق بابه..

1993

ساعات أخرى تلت اللقاء، تقابلت معه على مائدة غذاء ساكنة كسكون القبور..

قبع لساعة بمكتبة الجد، تلو ذلك قرب الغروب كان بالجناح يحضر لنفسه قدح قهوة بسلاسة، لا يأبه بحضورها البتة!..

صمته كما العادة يخيفها أكثر، لكنها مع الصمت دومًا تجهل رد الفعل الملائم، هل تقتحم عزلته أم تنتظر وتأمل أن تمر فترة سباته في سلام!..

وتكرر الاستفسار بعقلها يهزأ منها..

أي سلام!..

اتجهت تقف خلف حاجز المطبخ، تتسارع نبضاتها لحد مقلق، تتنهد.. تكثر بداخلها الأسئلة ولا تعلم بأيها تبدأ!..

تزفر بحرارة ويحافظ هو على وضعه الجامد..

نادته بهمس التفت على إثره نحوها، نظرته خاوية، وجهه مصمت، وكل ما يمكن أن يمنحها طمأنة خفيٌّ عليها..

استندت للرخام البارد في حاجة للدعم:

- عملت إيه في موضوع داوود!..

أحمقُ سؤال يمكن أن تتلفظ به بهذا التوقيت، لكنها فاشلة على الدوام في البدايات التي تنقذ عنقها من خناق الموت ولو تحت وقع عينيه:

- هو الموضوع ده مهم بالنسبة لك!..

جواب بسؤال مقابل، أقرب لفخ..

نطقه بنبرة كالجليد، وعاد ينظر للماكينة التي تملأ قدحه بالسائل الساخن، ازدردت لعابها وهمهمت ببعثرة:

- ما يهمنيش إلا لو أنت قررت تاخد رد فعل..

استدار بغتة يضع القدح على السطح الرخامي بحركة أصدرت صوتًا عاليًا بعض الشيء..

صوتًا نفضها فرمقته برهبة رفع لها حاجبه باستنكار مندهش، تبدل في الثانية التالية لسخرية مستهجنة بينما يقتضب في كلماته:

- حتى لو هاخد رد فعل؛ ما تتدخليش..

التفَ حول الحاجز ليواجهها، تراجعت خطوتها الوحيدة المتاحة فانغرس السطح في ظهرها، قابلها يتفحصها ببصره بغموض وتَّرها أكثر، صمتَ لثوان معدودة أقرب لعمر بأكمله..

عمر من موت..

يلتوي جانب فمه بنصف بسمة هازئة تمخضت حروفه عن مدلولها بوضوح:

- أنتِ خايفة مني تاني..

همهم بتقرير مستغرب، بلهجة تفيض بإدعاء الصدمة..

ظن أنهما تخطيا تلك المرحلة..

أن الحرب تستوجب قوة، خصومة مناسبة، وثبات كل طرف في دفاعه عن نفسه..

التهكم الصريح، والاستهانة المقيتة التي تبغضها، تمتمتْ دون مواراة لا تستوعب ما حدث أو حتى ما هو آت.. هي معه في حلقة

مفرغة، يدوران بلا نقطة وصول، تلك الأبدية المرهِقة التي تكرهها وتنشد الفرار منها:

- أنتَ حاولت تقتلني..

تكررت رفعته لحاجبه جادًا، قاطعًا هذه المرة:

- لأ..

توسعت أجفانها، تفرقت تظهر عسل حدقتيها المذهول والبريق المرتعد بمقلتيها، تكذبه وتستنكر بالمثل بتصميم:

- كنت عاوز تموتني..

يُكذبها عقلها مع تتمة أحرفها، هي أخبرته بثقة لحظتها أنه لن يقتلها.. أنه يثق ويعلم ويدرك ويؤمن ببرائتها..

لكن القرب من الموت له مذاق مختلف..

مذاق مر، مقبض، سيظل يغمر روحها طوال رحلة الحياة.. نفى بحركة متلكئة من رأسه ونظرته تخنقها فعليًا لا مجازًا، لا تفهمه.. لن تفعل حتى وإن تاهت في هوامشه وأضاعت التفاصيل..

1997

حتى لو غرقت في الحواشي وتجاهلت أصل الحكاية:

- شمس.. لو عاوزك ميتة؛ ماكنتيش هتبقي واقفة بتتنفسي قدامي دلوقتِ..

ارتجفت بلا شعور، تلومه وتتساءل لا تصدق ما يجهر به:

- للدرجة دي القتل سهل عندك!..

سكنَ مع سؤالها..

سكتَ طويلًا حد أنها تجمدتْ تحت حصاره لا تكاد تتنفس..

بغتة طرقع بأصابعه جوار أذنها فأجفلها، انتفضت مجددًا تنكمش على نفسها وتبغض ضعفها بمشهد لا تريد بطولته، تتباعد عنه دون نجاة.. وهو مال قليلًا بوجهه، يلصق شفتيه بأذنها الأخرى، يُسِر إليها بكلمة واحدة خفيضة:

- كده..

القتل كطرقعة إصبعين.. الموت هين، والحياة رخيصة..

من تزوجت!..

1998

مجرم، قاتل.. سارق، غادِر وخائن..

دموعها أحرقت عينيها فطرفت بهما، تعتصرهما لتحجبها بألم.. بمقت.. برفض وحنق ورغبة في الهروب لا يبيحها لها، تتحشرج بمزيد من الأسئلة وتفزع مع الجواب:

- أنت قتلت فعلا!..

تبتهل أن ينفي..

تدعو الله أن يحررها وينطق بـ لا..

لكنه تراجع يتأملها بنظرته الجوفاء الجافة، يحدق فيها بلا انفعال.. يرمق عبراتها المكبوتة بثبات لا مكترث كان يمنحها به الرد الذي تنتظره.. الذي تتوقعه منه، وتترقبه كأنما لا بديل عنه!..

نعم.. حتى ولو لم يفعلها، يكفي أن تصلها وإن كان كذبًا..

من يبالي!..

لا هي.. لا هو.. لا أحد..

تراه شيطانًا، وهو الملعون.. كان، وسيظل..

1999

شهقتْ وكممت فمها تُحجم الشهقة، تسعى للفكاك وتخشى الحراك من طوقه الذي يحتجزها قربه.. تنقلب معدتها في اختلاج مؤلم، وهو يقترب أكثر..

يلامس جانب وجهها بأطراف أنامله، يبعد خصلة مبتلة عن وجنتها، يدقق فيها بصلابة أوجفتْ قلبها..

ينحنى فيحاوطها وتدفعه بانتفاضة ثالثة، برعشة تتغلغل في جسدها كله حتى روحها، لكنه تراجع وحده بعدما التقط هاتفه من ورائها، يجيب مكالمة صامتة ويشير إليها ببتر:

- أستاذ ناصر!... تمام... نص ساعة وأكون عندك..

ينهي الحديث ويلتقط معطفه الشتوي، يرتديه على عجالة ثم يرحل عن المكان دون أن يتذوق قهوته.. أو يكمل حواره المثير لكل خلل وهلع ممكن..

آلمتها معدتها عقب رحيله، أسرعت للحمام تفرغ ما بجوفها بوجع.. يبدو أن الخوف هو نديم القادم من عمرها معه؛ وذاك على كل حالٍ ليس بجديد..

2000

ثلاثة أيام مرت على تلك الحادثة.. الحال على ما هو عليه أو ربما أسوأ!..

كأنه لا يراها، لا يحيا معها تحت سقف منزل واحد، وجناح واحد.. تلتقيه فيكمل أيًا كان ما يفعله بلا اكتراث لظهورها..

ورغم الشتات والحيرة؛ فقد ملأها ذلك بشيء من راحة وإن لم تتخلَ مخاوفها عنها كلما تقابلا..

حتى عطره الذي يغمر المكان بحضور مظلم يشبهه أضحى يثير غثيانها فتبتعد عن محيطه بهرولة..

أفاقتْ من شرودها على يد الجد تلامس كفها، صوته يتقطع بحنو لم تألفه بعد:

- مااا..ماالك يا شممس؟..

ربتتْ على كتفه برفق، عدلت وسادته وجاورته لتبدأ في إطعامه وجبة غذائه:

- مافيش يا جدو، أنا كويسة الحمد لله.. المهم أنت..

2001

ابتسم "يونس" بتفهم، بسمته سجينة عجزه كجسده الذي لم يتعافَ بالكلية وإن بدأ في الشفاء:

- يعققوو..وب مزعلل..لك؟..

رفعت بصرها إليه بدهشة قبل أن تتهرب من جواب ثقيل كثقل مرضه:

- لا.. إحنا كويسين والله ما تقلقش..

كاذبة.. نظراتها الزائغة التي تضطرب مع كل صوت تفضح كذبها..

يود لو يهديها شيئًا من راحة ولا يدري كيف!..

يفكر أن يمنحها التسجيل الخاص بزوجها الراحل؛ فربما ترتاح، تهدأ وتستكين.. عندها يصيبه شفقة على الزوج الحي، الذي يوقن أنه لن يمتلك رقعة من قلبها، أو حتى ربع ذلك العشق الذي منحته لأخيه.. يؤمن أنه هو ذاته لا يهتم!..

كانت لوحة بسيطة، وتلك الشخبطة السوداء حورتْ نقائها..

غيرتْ بساطتها للأبد..

2002

**

كانت لوحة تفيض بالانفعالات العشوائية، رسمها فنان مبتدئ، مغمور.. ظنًا منه أن الحياة تمتلئ بالأماني، بالبهجة..

الحياة كلها أمل وحلم..

حتى ارتطم بصخرة الواقعية، تحطم، تناثرت أشلاؤه.. أيقن أنه لايزال جاهلًا، ساذجًا لا يفهم كيف يبعثر ألوانه؛ حينها ألقى بفرشاته وتركها كرسم نصف متكمل..

لم تنل منه قصة الحب.. ولم تفُز معه بهروب تام..

هي عالقة كمن عشقتْ.. عالقة كمن عشقها، عالقة كأن الزمان توقف عند لحظة الفقد الأولى..

عالقة رُغم نظرة القلق والخوف والتتيم بعين الجالس إلى جوارها، يعتني بها، يسألها كل بضع دقائق عن حالها وراحتها..

لا يوجد رجل مثله، رجل يصلح لدنيا الحلم.. لم تُشوِه قسوة الحقيقة قلبه أو مبادئه..

2003

رجل لو تمتلك من أمر قلبها شيئًا لأسقطته قسرًا في هواه، لكن اللعنة تربطها حيث الماضي بوجعه وخساراته..

ابتسمتْ له بوهن مازال يتمكن منها، وبادلها البسمة باحتواءٍ حانٍ:

- ما تتعبش نفسك يا منذر، أنا بقيت كويسة والله..

لم يغادر مقعده الذي يجاور فراشها، كانا وحدهما، والدها رحل قبل دقائق كما تقتضي قوانين المشفى، وبقي هو لوقت أطول.. عيناه تخبرانها أن الغياب قاسٍ، طويل.. مكروه..

ربتَ على كفها وأنامله تلامس أطراف أناملها برفق:

- عمري ما أتعب وأنا معاكِ..

همسها بغرام خالص أرجفها.. أخلف وعد الحياد والرسمية، لكن من منا يملك زمام أمور الهوى!..

- منذر!..

عاتبته بضعف محتج، فنده بذات العاطفة:

- حتى لو مجبر إني أخبي مشاعري يا دُچى؛ دلوقتِ غصب عني..

2004

عانق أصابعها بتردد:

- وقت الخوف كلنا بنضعف..

أبعدتْ يدها بتمهل لا تريد إيلامه:

- ما تخافش عليَّ..

تشتت ابتسامته ونظرته تخبر عن الكثير.. عن أكبر هلع مرَّ به منذ وُلد، عن أقسى وأعنف ألم.. عن أمَّر لحظات..

حتى ملامحه المجهدة وذقنه غير الحليقة وتشعُث ثيابه، نبرته الصلبة التي تناوشها رجفة طفيفة متجاهلًا تباعدها:

- أنا بخاف عليكِ أكتر من نفسي..

ثم زفر بحرارة غاضبة.. كحمم بركان ثائر تصب بنيرانها في أوردته لتحرق روحه:

- أنا السبب في اللي أنتِ فيه..

نهض يدور حول نفسه بضيق، يخلل خصلاته بجذبة حادة:

- كان ممكن.. كان ممكن...

2005

- منذر!..

لعثمته أجبرتها على إيقافه، اعتدلتْ في محاولة للاسترخاء ببسمة مطمئنة:

- بطل تلوم نفسك من فضلك، ده قدر..

عاد يرمقها بحزن:

- قدر كنت أنا السبب فيه..

نفتْ بتفهم رقيق:

- لأ.. إحنا كنا مع بعض، وده وارد.. أنا مش بلومك..

رمش هو يلقي بالإثم على ذاته.. فقدانه لتركيزه.. غضبه الذي أفقده السيطرة:

- أنا كنت السبب..

تمتم بها بخفوت.. بإصرار جعلها تتأمله بنظرة غريبة عليه، عليها.. على ما بينهما..

في كل لحظة تعلم كم هو رجل رائع!..

2006

كم أنها لا تستحقه..

كم أنه لا يستأهل منها عذاب العشق..

أشارت إليه تطالبه بالعودة لمقعده:

- طيب لو وافقتك وقلت لك أنك السبب؛ بس أنا مسامحاك.. هيفرق!..

وجم لثوانٍ بمكانه يحدق فيها بشرود.. ينتبه لإشارتها ويرتعش فكه بضغط أسنانه، يستجيب ببطء، يجاور الفراش ويضم يدها عنوة بين كفيه:

- مسامحاني بجد!..

أومأت وأكدت بلهجة ناعمة:

- بجد..

غاص بزرقة عينيها المائلة للدُجنة في ضوء الغرفة:

- عارفة إني مستحيل أأذيكِ!..

ارتجفت كفها، اهتزت مقلتاها فتراجعت تسحبها منه بارتباك:

2007

- عارفة..

جاهد نفسه للتوقف عن حصارها المُرغَم عليه..

العشق هنا ساحة حرب هُزم فيها ألف مرة ولم يقاتل للنصر أو يسعَ للفرار..

هو مفتون بالهزيمة، مكلل بعار الاستسلام ولا يضره الاعتراف..

اعتدل يحررها من احتلاله، يفتح جاروزًا قربها، يتناول منه بضع بطاقات أنيقة يتركها بيدها:

- دي الكروت اللي كانت مع الورد اللي اتبعت..

أمسكتْ بها تنشغل معها عنه.. عن عينيه، ابتسامته، لطفه ورقته وثباته الذي تدرك اختلاله حولها..

لا تعلم لمَ تغزوها تفاصيله كما لم تفعل من قبل!..

تلك الخطوط التي تظهر جوار جفنيه وقت البسمة.. أحد جانبي فمه يرتفع بمقدار ضئيل عن الآخر ليمنح بسمته نثرة من عبث.. دفء نظرته وضمة نبرته وإن كان يبعد عنها بأمتار..

2008

قرأت بعضها وابتسمت، زميلات العمل، أخيه نفسه.. و...

بطاقة لا تحمل اسمًا، فقط بضع كلمات دفعت بنبض الفؤاد للركض بجنون..

"أتمنى تكوني دايما بخير"..

لا تحمل اسمًا لكن الخط وصاحبه منقوشان في العقل والروح بحضور أبدي..

"يزن"..

اضطربتْ نظرتها، اختلجتْ ملامحها، ارتعشتْ أصابعها فكادت تسقطها، لاحظ هو توترها فاستفسر باهتمام:

- في حاجة!..

انتبهتْ له ليتضاعف ارتباكها، ترددت قبل جواب مختنق:

- لأ..

لم يحاول النظر للبطاقة، فقط سأل أكثر:

- في حاجة في الكارت ضايقتك؟..

2009

بررت بعجالة هاربة:

- لا خالص.. حتى مش مكتوب اسم..

عقد حاجبيه فأردفت تدعي التفكير:

- يمكن من زمايلي في الفندق لما كنت بشتغل مع وجيه..

صمت يتأملها ولم تفهم المغزى!..

عادت لمحاولة الفرار الفاشلة بتعثر:

- هو أنا المفروض أخرج من المستشفى إمتى!..

ظل على سكونه لثوانٍ تالية قبل أن يرد بهدوء:

- الدكتور قال يمكن بكرة أو بعده بالكتير..

هزت رأسها بإيجاب والبطاقة بيدها لا تتخلى عنها.. لا تدري ما تفعل بها!.. خطوط قديمة من زمن مر، ماضٍ فات وانتهى، نسيه الرسام وبهتت ألوانه على اللوحة..

لكنه يصر على اجتياح الحاضر بظهور مشوش..

2010

بلون لا يسهل محوه..

وأثر لا يزول..

**

هو لوحة لفنان تشكيلي خبير..

لم يرسم حقيقته، خطوطه بدأها كما تصورها.. كما أرادها، أعاد صياغتها وغير فيها..

لكن عندما أنهاها، وجد نفسه تائهًا حائرًا بين الألوان..

فلا الأسود يستسيغه حد الاعتناق، ولا الأبيض يليق بدنس روحه، حتى الرمادي.. لون محايد باهت، لا يشبه جنونه وغضبه..

هو محتجز في أسر خليط غير متجانس، مزعج للعين، منفر للقلب..

ضائع تحت ضربات فرشاة لم تتركه لحاله، لا نقلته دون رتوش، ولا نقشته بشكل مقبول حتى وإن خالف الحقيقة..

يفتقدها حد الأحلام..

2011

كان رجلًا لم تزُر أحلامه امرأة من قبل، حتى معشوقة الأمس.. اقتحمتها هي، الزوجة الهاربة.. من تمسك بيدها الفرشاة في محاولة لترميم صدوع نفسه، وخدوش لوحته..

من آلمها، أضاعها.. وبحماقة الرجال الأزلية أنكر العشق وأهانه..

يحافظ بثبات متوازن على رسائله، صوره للغرفة التي يعمل عليها منذ أكثر من أسبوع، طلى جدارين ونصف، عبث بالنقوش، وتخيل طفله يمرح.. يتعثر في خطواته الأولى وهي تدعمه داخلها، ثم في ختام كل الصور يبعث لها بصورته، بهيئته عقب انتهاء العمل..

الدهان يلطخ ثيابه ويديه بنقاط متناثرة، ابتسامته تتسع كل يوم عن سابقه كأنما يشعر بالإنجاز.. بالأمل والتشبث.. بالحب!..

يواظب على رسالة أخيرة قبل موعد نومها المعتاد، يعلن الافتقاد.. ويسألها أن تسمح له برؤياها، فيأتيه الرد بلا رد..

صمت تام بدأ معه بالغضب.. تبعه الضيق، تلاه الحزن، وصولًا للألم والشوق والتوق..

2012

كل الطعام فقد مذاقه، سجائره بات يحرقها أكثر فأكثر، حنايا المنزل أضحت خالية.. ميتة بلا روح..

هي كانت الروح.. كانت البسمة والضحكة والضوء الناعم الذي أخل بظلام قلبه..

الذي أوجع عينيه فغض الطرف عنه وهرب، حتى ارتطم بقاع هاوية الوحدة والضياع دونها..

خصلة بشرية لا تفنى؛ كل البشر لا يشعرون بقيمة ما يمتلكون إلا عقب الخسارة.. والخسارة تفوق حد الاحتمال والصبر والقوة..

عاد من العمل محبطًا، الفراغ من حوله ينتظرها لتملأه، الهواء يترقب عطرها ليحمله تجاه أنفاسه، وأذنيه تتوقان لضحكتها التي تجبره على الابتسام بتلقائية.. دون تعقيدات..

ظل يطوف بناظريه حوله متوقعًا ركضها إليه.. ضمتها، وقبلتها على وجنته..

زفر بحرارة والخيبة تخنقه، توجه لغرفة جده الوحيد، استقبله بابتسامة رسم مثلها فوق شفتيه وإن شابها شجن..

2013

يده بدأت تتحرك بشكل أفضل، ونصف جسده تبعها ببطء لكنه تقدم مقبول، جلس على طرف الفراش يحدثه عن العمل، يخبره عن آخر التفاصيل ويتمم حديثه بشرود لم يغِب عن عيني الجد.. تمتم "يونس" بحروفه المتكسرة:

- رووح..هاا..اااات.. مرات..تتك..

رفع بصره إليه بنظرة أسى تسيطر على ملامحه، هز رأسه بنفي هادئ أوضحه بنبرة تائهة:

- مش هاضغط عليها يا جدي، ولا هاجيبها غصب عنها..

رمقه جده باهتمام متفكر للحظات:

- بتتتحبيها..

قررها بلا مقدمات، ولم يمتلك هو زمام الاحتجاج..

العشق بعينيه أبلج، وحقيقته أوضح من شمس ظهيرة..

مسح وجهه بكفه في إنهاك:

- مش هيفرق معاها..

2014

اعتصر جفنيه يلوم غضبه وقسوته وسواد نفسه الذي أبعدها عنه:

- أنا كسرتها..

اعترض "يونس" بحزم يناسبه وكلماته تتضح:

- قول.. قولها..

رفع نظره له فأكد الجد على كلماته بإصرار:

- بتحببهاا.. قول.. قولهاا.. بتحببك..

فكر لدقيقة يغيب فيها.. في عشق لم تجهر به الحروف وإن أفشتْ العيون سره في كل لحظة بينهما..

في كل منح.. في كل دعم وقرب وضمة ونظرة..

تنهد والنار تشتعل بخافقه، تعلن تمرد النبض على سياق الكتمان وروتين الماضي البعيد..

تعلن التمرد على احتلاله لحاضر.. لغد، لمحاولة العبث في لون يتمناه، لمحاولة تشويهه..

انتبه للجد يخبره بعد تردد عن شيء ما!..

2015

استقام يتبع أوامره، يفتح صوان الثياب الضخم، يضغط الأرقام السرية لخزانته الخاصة التي يمليها عليه، ومن داخلها يلتقط ذاكرة رقمية صغيرة تأملها بدهشة بترها "يونس" بكلمة..

باسم فجر كل الوجع دفعة واحدة، وأحيا ذكرى لا يباح لها موت..

- يااااامن..

أخبره أن يشاهد محتواها، بعدها يضعها بين يدي زوجة الراحل وأم ابنه، ذاك لها حق..

بقي معه لوقت قصير، سأله عن أخيه وأحواله.. عن روتينه هو الآخر الذي لم يتغير، تباعده عن الجميع، صمته وخواء عينيه..

عندما ذهب لغرفته؛ احتار لساعة كاملة قبل أن يدس الذاكرة بحاسوبه ويفتح الملف الوحيد الذي تحويه، جلس يحدق في الشاشة بجمود، حشرجة غص بها حلقه في كبت لألم خانق..

أنفاسه بطيئة، سجينة صدره، بصره لا يحيد عن شبيه ملامحه، نبرته، نظرته، كلماته..

2016

اسمه الذي نطقه.. لومه لجده وحصاره وإرهابه.. الحبيبة التي مات عنها، طفله الذي لم يره..

ومع لحظة النهاية كانت عبرة مريرة تتسلل بخبث من جانب جفنيه..

عبرة قتلها بإبهامه بحركة حادة وخلاياه يعتصرها عذاب قاتل، تصرخ بحاجتها إليها، إلى ضمتها، إلى حنوها.. إلى عشقها، إلى قربها ووجودها معه..

لقد اكتفى من الفقد..

أرسل رسالته الملهوفة:

"عاوز أشوفك"..

ولأول مرة يصله ردًا فاترًا تكاد أحرفه تنطق بالرفض والغربة:

"مش هاقدر"..

كلا.. تلك اللوحة للرسام المخبول الذي ظن نفسه فنانًا حقيقيًا؛ سيمزقها إربًا..

2017

سيختار ألوانه بقراره، سيبعثرها كيفما شاء..

سيذهب إليها!..

هي امرأة تحتله؛ ورحيل احتلالها اختلال..

**

بعض اللوحات تمثل أسطورة..

فنانها رسم فيها الخيال، وحيه كان مخالفًا للمنطق، وإلهامه ملحمة تستحق الخلود..

بعض اللوحات سحرها باقٍ أبد الزمان..

وافقتْ على دعوة العشاء، حددتْ الموعد بنفسها واستجاب بسلاسة أثارت ريبتها، قررت التجاهل حتى الرمق الأخير.. خرجتْ إليه بثوب كريمي تناقضه صارخ مع نارية خصلاتها المصففة بأناقة، تركت لمعظمها حرية الاسترسال فوق كتفيها وظهرها..

شلال يتوهج من ألسنة اللهب الفاتن يحيط بسحر وجهها..

2018

نظرتها المغلفة بجمود مفهوم، وابتسامتها شبه الساخرة والماكرة بالكلية..

في مصافحة راقية قبَّل ظاهر كفها، فتح لها باب سيارته وقادها بنفسه تجاه المطعم المنشود.. الخالي عما سواهما!..

استنكرتْ الفكرة برومانسيتها، ومحاولة الإبهار الفاشلة..

دلفت معه للداخل، طاولة لفردين تتوسط المكان، موسيقى كلاسيكية يعلم بعشقها لها.. إحدى مقطوعات "إلياس رحباني"..

رُغمًا عنها شردت في ذكرى تلك الألحان، العهد القديم وكلمات العشق التي اعتادت أن تنصت إليها من بين شفتيه دون أن تردها ولو بحرف واحد.. أيظنها تلك التي عرفها من قبل!..

ألا يعلم أن الحياة، تركت بلوحتها أقبح لون.. وأعمق خدوش!..

أنها امرأة نُحتت من قسوة، من رغبة، من جحيم شيطان اعتلت هي عرشه ثم طردته!..

ألا يعلم أن معشوقة الأمس لم تعُد تؤمن بالحب، أو تصدق فيه!..

2019

كل الرجال سيئون..

أما عنها!..

فهي الأسوأ..

هي لم تغوِه ليعاقَب بالإقصاء من الفردوس؛ بل ركلته خارجه وأغلقت الباب بأريحية تامة..

هي الخطيئة..

هي الطغيان..

وهي التي تمسك بخيوط اللعبة منذ اللحظة الأولى..

جذب لها مقعدًا فاستوتْ فوقه بسمو ملكي يليق بها، ابتسمت تسبر أغواره بنظرة غامضة:

- حتى الميوزيك فاكرها!..

قابلها في جلسته وصرح بلا التباس أو تردد:

- قلت لك مافيش حاجة تخصك قدرت أنساها..

2020

وأحنى جانب فمه ببسمة لطيفة:

- أو في الحقيقة؛ أنا ما حاولتش.. ماكنتش عاوز أنسى..

جاورهما نادل يضع أمام كل منهما كأسًا من عصير طازج، انتظرت حتى انتهى وارتشفت من كوبها بتلذذ مستمتع:

- ليه يا مالك؟..

تريد التلاعب لكن الفضول هو سمة الأنثى..

تشتهي الفهم، وهو لم يتأخر:

- اللي بيحب بجد مستحيل يفكر ينسى..

سخرت منه بنبرة كالجليد:

- وأنت بقى حبيت بجد!..

مال يقترب بوجهه عبر الطاولة، يمد يده فيحاوط يدها بتملك:

- أنتِ عارفة إجابة السؤال ده يا نيروز..

تركتها له.. الانسحاب هروب..

2021

وهي لم تعتد الفرار من معاركها حتى وإن كان الموت على مرمى البصر، شمخت بذقنها تجاريه بثبات:

- الحب مش كلام..

- صح..

بادر بها سريعًا، فرد كفه تحت كفها يداعب باطنها بلمسات مخطوفة تذكرها بما فات:

- الحب فعل، وأنا معترف إني مذنب..

قست نظرته وتعانقت أجفانه عقبها للحظات:

- بحاول أكفر عن ذنبي..

هذه المرة انتزعت يدها منه بغضب أجادت تحجيمه:

- مش كل الذنوب قابلة للغفران..

وشردتْ في قصة لم يُكتب لها اكتمال:

- أنت اخترت الولاء..

2022

سيجت عينيه بنظرة كفخ مميت:

- كنت بالنسبة لك أنت وزاهر مجرد trophy هو يستحقه لأنه شايل العيلة وتعب عشانها كتير، وأنت قررت إن المركز الأخير يناسبك ومن غير جوايز..

لامها بضيق ظاهر:

- زاهر حبك..

- وأنت حبيتني..

تراجعت بإثرها بإشارة من سبابتها كأنها تنفي ما قالته:

- أو على الأقل قلت كده..

تنهد بيأس من توبيخ يدرك أنه يستوجب ما هو أكثر منه، يتذكر وتتذكر..

ابن العم الأكبر الذي ما إن رآها حتى سقط في هواها، يكبرها بما يقرب من خمسة عشر عامًا.. هي تخطو في بداية عشريناتها وهو تخطي الخامسة والثلاثين.. أما العاشق الذي قدمها لعائلته على أنها

في يوم قريب ستكون الزوجة كما هي الحبيبة خضع دون مقاومة مع اللقاء..

انسحب للخطوط الخلفية وتركها وحدها على الجبهة حيث الحرب في أوجها.. تركها بلا قتال، لأن ابن عمه الأكبر يستحق راحة.. يستحق استقرارًا.. يستحق بعد تعب أن يحظى بأسرة وأطفال وامرأة يعشقها..

ابن العم الذي ينظر إليه كقدوة، كمثال أعلى.. الذي يحمل ثقل العائلة على كتفيه وحده بعد رحيل والدي "مالك" عن الحياة.. ليكون هو الأخ الأكبر المراعي..

الأخ الذي لم يبخل عليه بمعشوقته..

كرر التنهيدة والإغماضة والاعتراف:

- أنا لسه بحبِك..

ثابت لشفتيها تلك البسمة المختلطة، المزيج المقنن من التهكم والاستهانة، الاستنكار وعدم التصديق.. والشراسة!..

2024

مالت هي نحوه وأصابعها تلوي خصلة من شعرها بإغواء:

- فعلا!..

تجاهل سابق الانفعالات المطروحة فوق شفتيها وابتسم بجاذبية آسرة:

- أنتِ عارفة الإجابة..

يردد ذات الكلمات..

يسلط عليها سهام نظراته..

تلك النظرة التي لم تتغير حتى لو زادت عزمًا وصلابة..

مع الموسيقى التي ما إن تنتهي حتى تبدأ من جديد استقامت، تأملته من وقفتها وهمست بنعومة:

- ممكن نرقص!..

واجهها يشد قامته، يمد كفه فتستقر بقبضته يدها، يفردها على خصرها ويخطو معها بتمهل على اللحن الهادئ..

2025

أربع دقائق من صمت، انتهت المعزوفة وبدأت مرة.. بعد مرة، في منتصف الثالثة وبينما هو غارق فيها وهي تفك شيفرته ببساطة تناسبها، همستْ بسؤال مقتضب:

- رجعت ليه يا مالك؟..

تباطئت خطواته مع استفسارها المباشر، توقف تمامًا وإن لم يفلتها، احتفظ بها بين ذراعيه وهمس بوضوح:

- رجعت أصلح غلطة إمبارح..

لم تُعِد محاولة الفهم، ظلت على صمتها بينما هو يفسر باقتحام:

- عاوز أتجوزك..

بعض اللوحات أسطورة تستحق التمزيق..

الرسام العابث أخطأ خلط الألوان؛ وأطلق مع فرشاته لعنة امرأة لا تخشى الخطيئة..

ولا تُقر بالغفران..

**

2026

هذه اللوحة تصرخ بالفوضى..

تجريدية تختزل الفكرة في دُجنة، ولا تصل بك لواقعية تفهمها..

يسيطر عليها الأسود، يغزوها الظلام.. في الركن بقعة صغيرة من لون ضبابي مبهم تجاهد للظهور، للسيطرة..

هذه اللوحة لا تصف لك الشجر والثمر والنهر والدفء..

هذه اللوحة تهديك كل ارتباك ممكن، وكل شعور مقبض..

هنا.. أنت أسير الفرشاة بلا نجاة..

حتى وإن كان بطل الحكاية يتحكم بفرشاته، ويختار ألوانه بحرية.. يظل للقدر خيوطه الخفية، ولمزج الألوان رأي آخر، فعلى الرغم من الاستحواذ التام؛ هناك تمرد.. هناك جنوح وجموح واختلال..

هناك هي!..

حيث لأول مرة تلتقي الفتى اليافع بعد المواجهة الحاسمة التي أطارت كل النقاط من الحروف، أو وضعتها.. لا فارق، الصورة كلها لم تعُد تهم أحدًا..

2027

وصلت للقاع ومكثت بحيز الارتطام الختامي..

لم تفكر بالنظر للأعلى، لا تلمس الجدران في محاولة للتسلق.. ظلت ساكنة بمكانها وأجفانها مغلقة في عتمة خاصة..

ابتسم حين شعر بها، وابتسمت بالمثل..

جاورته صامتة فاكتنفه صمت مشابه، اللعبة معها صارت مملة.. ليست لعبة حتى، بل شيء مموه باهت لا يحبه.. ولا يثير في نفسه ذرة فضول..

"اختفيتِ"..

حتى مع الملل يأخذ هو خطوته الأولى، تسترخي إلى جواره بمقعد الحديقة.. تفكر لحظة ثم تجيبه بنبرة محايدة:

- كنت باعيد حساباتي..

لوى فمه بسخرية:

- ووصلتِ لنتيجة جديدة!..

نفت بحركة من رأسها دون كلمات..

2028

سأل بلامبالاة:

- طيب ناوية على إيه!..

جاوبته بسؤال بارد:

- تفتكر ممكن أكون طرف في اللعبة دي!..

رفع كفيه باستسلام مشاكس:

- أنا مابقيتش لاعب..

- ليه!..

لهجتها تستفهم بحيرة صادقة استشفتها أذنيه، وقبل رد بادرت بتفسير:

- ما بتحبش اللعب بأوراق مكشوفة!..

مط شفتيه ولم يتردد في جواب صريح مباشر:

- لأ..

- ليه!..

ثانيةً تفتش عن سبب، وهو لا يبالي سوى بمنحها فلسفته القاتمة دون اكتراث فعلي:

- زمان كنت باروح مع عمار عروض السحر في كل دولة كان بيسافر لها..

لم تربط سؤالها بحديثه، اعتدلت تلتفت إليه بدهشة بينما يردف ببساطة:

- من كل الخدع، كنت باكتشف الفكرة لـ 90% منهم..

رفعت حاجبيها تقر بذكائه حين أكمل:

- وقتها ماكنتش باكرر زيارة العرض ولا الساحر نفسه..

استدار تجاهها يباشر النظر إلى عينيها بلا تشوش:

- إيه الممتع وكل الخدع مكشوفة!..

استقام يغادرها بضجر جلي لا يخفيه ولا يريد:

- سحر اللعبة ومتعتها في.. الجهل..

تابعته ببصرها بسكون، تستوعب كلماته دون ارتباك..

2030

ربما ما يقوله حقيقي، شرط ألا يكون هو الطرف القابع بالظل..

الشرف مصطلح خارج قاموس تلك العائلة، والأمر هنا ليس سحرًا.. الحكاية كلها لعنة!..

ليلًا.. كانت تتجه للفراش وهو جالس فيه، ممدد وحاسوبه يعلو ساقيه، ينهي بعض العمل، بالتناوب مع هاتفه..

راقبها بطرف عينه تبتلع قرصها، تخلع مئزرها الثقيل، تندس تحت الغطاء وتوليه ظهرها دون كلمة..

اللعبة بينهما باتت مختلفة..

تظنها انقلبت مائة وثمانين درجة، وهو يعلم أنها ثلاثمائة وستين..

عودة لنقطة الانطلاق..

نقطة الصفر..

هي غارقة في العشق، وهو.. يتلاعب بدميته التي امتص كامل طاقتها، والآن وقت الحسم..

انشغل بالعمل حتى وجدها تسأله بغتة بلا التفات:

- آخرة اللي بينا إيه يا عمار!..

توقفت أنامله عن النقر على أزرار لوحة المفاتيح، زم شفتيه لثانيتين، تهكمت نظرته باستهانة، عاد للنقر مجددًا بموازاة رد مقتضب:

- مالوش آخر..

انقلبتْ على ظهرها ترمقه من وضعها بنظرة مبهمة:

- يعني هفضل معاك لحد ما أموت!..

أكمل عمله بسلاسة، هي تفتش عن مخرج والفنان يحاوطها بريشته السوداء:

- مش شرط..

اعتدلتْ تتأمله بسكون جعله يستطرد بقسوة أعنف من برد الشتاء الذي تمرره النافذة غير محكمة الإغلاق:

- هتفضلي تحت رحمتي لحد ما أزهق..

ندت عنها ضحكة مخطوفة ساخرة:

- لسه ما زهقتش!.. المفروض خلاص وصلت للي أنت عاوزه..

2032

أهداها نظرة جانبية تشبه سخريتها:

- لأ..

أغلق شاشة الحاسوب وتركه على طاولة جوار الفراش، استدار يواجهها بجذعه، يحتلها بعينيه في تسلط خارج حدود المنطق والمعقول.. والمقبول:

- أنتِ لسه عايشة..

تراجعتْ وضحكتها تظهر بوضوح أكبر:

- عاوزني أموت!..

ابتسم يمد سبابته، يداعب أنفها بملاطفة لا تتلاءم مع الحوار بينهما:

- مش كل الموت معناه طلوع الروح..

فطنت لمقصده فأظلمت نظرتها تجابه ظلامه..

تبدأ بين الأعين حرب.. كر وفر..

أسلحة ودماء وأشلاء..

تعود لها بسمتها وتغير موضوع الحديث بيُسر غريب:

- لو قلت لك عاوزة أبقى معاك لوحدنا؛ ينفع!..

قطب يكبت دهشته، شكوكه.. يتفحصها بصرامة لم تُثِر في جسدها نُدفة من خوف.. لكن افتعاله واجب!..

ترددتْ، ارتبكتْ.. هربتْ ببصرها من حصاره كما يحتم رد الفعل، همستْ بوهن شارد:

- باحاول أتكيف يا عمار..

فاءت تلاقي بصره بنظرة حائرة، ضائعة:

- أنا ما بقاش ليَّ حد غيرك..

لامست وجنته بكفها في رجفة:

- مادام هنكمل لحد ما أنت تقول كفاية، يبقى على الأقل أعيش..

قبض على يدها، اعتصر أصابعها دون رفق حتى أنَّت في محاولة انتزاع خاسرة، مال يقترب من وجهها.. يتنفس فتحترق، ويعود إليه الحريق بلهيب متقد:

- أنا مش عارف لعبتك يا وسن..

كادت تبتعد فثبتها بإحكام:

- لكن ماعنديش مشكلة نلعبها سوا..

وأكمل بذات الكلمات التي مرت على مسامعها قبل ساعات:

- الجهل نص المتعة..

لم تنفِ.. لم تعترض أو تجاهد لإثبات صدقها فهو لن يقبله..

واجهته بالمقابل وابتسمتْ بخضوع:

- والنص التاني!..

نقشت بسمة منتشية حضورها فوق شفتيه.. بسمة وحشية تشبه شراسة الذئب وسحره، تضاهي مكره في اجتذاب فرائسه:

- النصر..

هرب الكاتب..

فر الرسام..

وتمزقت اللوحة مع ضربات فرشاة فقدت اتزان لمستها، وركنت للجنون..

**

هناك لوحات لا ينبغي أن تمر بفكر الرسام، لا تصلح للإلهام ولا تستحق أن تعبر عنها فرشاة..

لوحات لو خضع لوحيها الفنان لنقشها بأبشع لون، وأعنف خطوط..

الصباح الاعتيادي لم يعُد اعتياديًا؛ تنقصه هي!..

أحجم صغيره عن فطوره، وتذمرت طفلته من مذاق البيض المقلي لينتهي الوضع إلى طلب أقرب لأمر..

"كلم ميس رحيل يا بابي"..

تفرقت أجفانه بنظرة مشدوهة والحرج يعتلي ملامحه:

- أكلمها دلوقتِ عشان أسألها كانت بتعملكم البيض إزاي!..

عبث..

2036

في عقله الفكرة عبث، مأزق مثير للحنق، لكن ابنيه يريان أن السلاسة هي الحل كما نُطق الكلمات:

- أيوة..

الساعة لم تتخطَ التاسعة، بالتأكيد هي بعملها.. وهو جلس يتناول قهوته استعدادًا للعودة لفندقه الذي كان تحت إدارة صديقه الأيام الفائتة..

رفض برفق، يدرك كم يتعلقان بها خاصة حين غاب عنهما:

- لا.. مش هينفع..

- ليه!..

بادر الفتى، تدخلت "ضي" بإصرار:

- مش هتتضايق، خليها تقول لأنكل صالح بتعمله إزاي..

و"صالح" هو الطاهي الجديد الذي استقدمه مؤخرًا، ابتسم الرجل من خلفه يؤكد على حديث الطفلين:

- مدام رحيل كانت بتهتم بوجباتهم بنفسها لما كانت هنا..

فكر ناظرًا خارج المطبخ الذي اجتمعا حول طاولة قرب جداره المطل على الحديقة الخلفية:

- طيب الناني مش عارفة!..

سارع ابنه بالرد القاطع بالنفي:

- لأ.. ميس رحيل ماكانتش بتخليها تتدخل في الأكل..

مسح وجهه بيأس وأفكاره تتعثر بين القبول والرفض..

الإحراج في مقابل بديهية رغبة طفليه وبساطتها.. النظرة البريئة بالعينين الزرقاوين، والمتوسلة بالمقلتين العسليتين الشبيهتين بمقلتي أمه..

أخيرًا زفر باستسلام بائس، رفع هاتفه وضرب رقمها، ثوان لم تطُل كثيرًا حتى أتاه صوتها القلق، طمأنها بنبرة ثابتة في محاولة لمداراة ضيقه من المشهد بأكمله.. بعدها ابتسم بتردد وغمغم:

- كنت عاوز منك خدمة..

- أكيد حضرتك، اتفضل..

جاوبت بلا تأخير، ثم تراجعت بخجل مع لهفة نبرتها واهتمامها الظاهر، لذا لاحقته قبل الرد:

- المهم الولاد كويسين..

اعتدل يترك مقعده، يشير لطاهيه بالاقتراب ويخبرها بجدية استغربتها:

- الولاد كويسين الحمد لله، لدرجة إنهم مش راضيين يفطروا غير بيض بطريقتك!..

نطقها يضفي على لهجته شيئًا من تعجب أجبرها على ابتسامة حانية، بينما نبضها يعلن العصيان على مساره الهادئ:

- طيب حضرتك ممكن تديني عم صالح وأنا هاقوله كنت بعمله إزاي..

باغتها بكلمة مقتضبة:

- أوك..

لحظات تالية من صمت وصلها بإثرها صوت الرجل المراعي..

حادثته تعلمه بتفاصيل الوجبة، وقبل إغلاق الخط معه لإدراكها أن الوالد لن يعاود الحديث إليها سمعت "باهي" يهتف بعناد طفولي:

- عاوز أكلم ميس رحيل..

رمقه أبيه بنظرة شاردة، راقبه يركض للطاهي، يختطف منه الهاتف ويضعه على أذنه بافتقاد:

- وحشتيني..

انتفض قلبها..

ليس للكلمة، لكن للمشاعر التي فاضت من أحرفها فأغرقتها..

المشاعر التي حُرمت منها قهرًا وتشتاقها حد الموت، اختنقت بها فوصله صوتها شاحبًا وإن لم يخلُ من عاطفته ودفئه المعتاد:

- أنت كمان وحشتني يا باهي.. هاشوفكم بكرة..

تقافز الصغير فرحًا بلا مقدمات:

- هتيجي بكرة!..

أجابته بحنو:

- طبعا، ده ميعادنا..

عاد لمقعده دون أن يتوقف عن الثرثرة الجوفاء بنظر الأب..

والتي يدرك أن الأخرى تنصت إليها بصبر وحب فطري صادق..

سقط بصره على ابنته العنيدة، لمح على وجهها التردد.. الرغبة والكبت.. اللهفة والخوف.. التعلق والاعتراض..

بعثر خصلاتها برفق مشفق:

- عاوزة تكلمي ميس رحيل؟..

رفعت ناظريها إليه وبعينيها لمح اختلاط المشاعر وتنافرها المزعج، حينها أخذ عنها القرار بحسم:

- كلميها.. أكيد وحشتيها..

برقت مقلتاها بسعادة أحزنت قلبه..

طلب من أخيها أن ينهى حواره مع معلمته وناولها الهاتف.. تركه لها وترك المكان بأكمله حائرًا، تائهًا..

اللوحة لا تناسبه.. لا يريد بهجة الألوان..

2041

اكتفى منها وغرق في الرمادي برغبته دون فرض..

فكيف يسمح لفرشاة مكسورة أن ترسم خطوطها فوق حياده المختار!..

**

هنا لا توجد لوحات..

هنا هو الرسام..

بيده أقلام الفحم، فهو فنان غيَّر منهاجه بما يتناسب مع خططه..

رمى بألوانه المائية عرض الحائط، راقبها تتكسر.. دهسها وتأملها تنعصر تحت قدميه، تختلط في عشوائية قبيحة..

دلف لمقر الشركة التي تقوم شركته الصغيرة المبتدئة بإجراءات التخليص الجمركي لأجلها، استقبلته المساعدة ببسمة ترحيب تلقائية، أخبرها باسمه فأدخلته لمالكة المكان..

بالداخل كانت المرأة الثلاثينية تجلس بفخامة على مقعد جلدي ضخم، أبيض اللون يشبه الجدران والأثاث كله..

اقترب منها بخطوات واسعة ثابتة، استقامتْ ترحب به في مصافحة ودود:

- مستر أيمن مجاهد!..

احتوى كفها بخشونة يدرك تأثيرها على كل نسائه.. خشونة تجبرها على الإحساس بنعومتها قربه.. ضعفها وسيطرته..

ونظرته تتمم الغرض بإعجاب ذكوري صريح:

- مدام حسناء عاشور..

تلو ذلك أكمل خطوته الحاسمة بنبرة ثقيلة، وإطراء مباشر جرئ:

- ماكنتش أعرف إن الاسم على مسمى للدرجة دي!..

ابتسمتْ بتلاعب، سحبتْ يدها واستقرت بجلستها مسترخية.. تتأمل وسامته، قامته الطويلة المشدودة وبنيانه القوي، تتخذ الطريق المستقيم كدرب ممهد:

- على فكرة الغزل مش هيفتح الطريق للبيزنس..

- على فكرة..

وتقدم يرتاح في مقعد مواجه باقتحام:

- برا إطار البيزنس؛ الجمال ده لازم يجبر على الغزل..

أعلنتْ عيناها عن إعجاب مماثل، لم يظهر على أي من خلجاتها عدا النظرة التي طافت حوله بوقاحة..

يمكنك أن تضمن ولاء الكلاب بقطعة لحم..

يمكنك شراء الضمائر ببضعة قروش، فكل شيء في هذه الحياة بات سلعة قابلة للعرض والطلب.. للبيع والشراء..

لذا ما دمت تمتلك الثمن؛ ابتع ما اشتهيت..

وهو ابتاع حياة جديدة بما تبقى مما امتلك، عازمًا على إعادة امتلاكه حتى وإن كان العدو مازال على قيد الحياة..

أمسك بالألوان..

خط قدره بيديه..

هو "أيمن مجاهد"..

الوجه الجديد، الاسم الجديد.. والحياة الجديدة..

2044

رجل الأعمال المغمور في شراكة سينهيها بافتراس يليق بوحشيته وقتما يحين الأوان..

أو من كان في زمنٍ مضى قريبًا..

"راجح طولان!"..

(29)

العشق ملحمة..

البُغض ملحمة..

الخوف ملحمة..

والشك ملحمة!..

شاهدوا معي كيف تنهزم الملاحم وتتحطم الأساطير..

**

العشق وحده أسطورة، يكسرها الخوف وينهيها الرفض أو الهروب..

القلوب أبدًا ليست طوع اليمين، النبض المتمرد الجانح، الدقات المتفلتة عن السيطرة، أو الميتة في قصة طرفها الآخر غارق حتى النخاع..

لا ينكر، لا يواري، لا يبتعد.. ويحاصر!..

2046

وهي لأول مرة لا يضايقها حصاره، لا تفر من غرام عينيه.. وتنتشي أنوثتها باهتمامه وقربه ولهفته..

طيلة أسبوع قبل أن يصرَح لها بالخروج من المشفى كان معها، حتى أبيها يذهله عنايته بها، وتلمح في نظرته عتابه.. كأنما يخبرها..

"أهذا عشق تباح خسارته!"..

لكنها لا تملك من أمرها شيئًا سوى التغافل، والاستمرار..

عقب عودتها لمنزلها بيوم واحد، في صباح التالي كانت تدلف لمكتبه بالشركة في اندماج طبيعي بعملها الذي تعشق..

عندما رآها استقام يستقبلها بدهشة:

- معقول يا دُچى!.. طيب ارتاحي يومين كمان..

تركت حقيبة حاسوبها على طاولة منخفضة أمام المكتب، استقرت بمقعد يواجهها فعاد لجلسته بالمثل:

- أنت عارف إني مش برتاح إلا في الشغل، بقى لي أكتر من تلات أسابيع في السرير..

مال يتفحصها بقلب مهتم:

- متأكدة أنك كويسة!..

تهربتْ ببصرها من احتوائه، تتشاغل ببضعة أوراق أخرجتها من حقيبتها:

- جدا.. الحمد لله..

ارتفع رنين الهاتف الداخلي بتلك اللحظة، ابتسم لها وأجابه.. أنصت لمساعدته قبل أن يخبرها بحزم:

- خليه يتفضل..

غادر مقعده مجددًا، دار حول المكتب وأعلمها بحرفية جادة:

- عميل مهم يا دُچى، المفروض تحضري الاجتماع ده لأنك أنتِ اللي بدأتِ الصفقة رغم إنك ماكملتيهاش..

تبعته بحيرة فضولية:

- أي صفقة!..

توجه للباب بخطوات واسعة:

- اللي بين مجموعة الحسيني في هامبورغ ومجموعة أبو الغار المستورد في مصر..

انتفض قلبها بقسوة آلمت ضلوعها..

لا.. هي لن تراه ثانيةً!..

قدرها أرحم بها من تلك المواجهة!..

لكن الرحمة ليست بقاموس تلك الملحمة الفوضوية.. في العشق لا توجد مفاوضات، الأمر كله يقبع في حيز الاختلال وفقدان القلب عنوة..

لمحتْ خطوات الماضي إلى الداخل، رفعتْ عينيها تلتقي بعينيه.. لم ترَ فيهما سوى لمعة خافتة مخطوفة.. بدأت وانتهت في ثانيتين لا أكثر، بعدها تدخل "منذر" بترحيب لائق وقدمها لمالك الفؤاد السابق، المالك الذي لم يرحل عنه بالكلية بعد..

ارتباكها حجبته خلف غيمة من صمت لم تطُل عندما أشركها رئيسها بالحديث، شروط وتعديلات وعقود..

حينها أفاقت المرأة العملية بداخلها، اندمجت بتدخل ذكي يشبه شغفها بعملها، مرت ساعة انتهت باستراحة قصيرة أصر خلالها "منذر" على دعوة غذاء بسيطة بغرفة الاجتماعات..

دعوة أباحت لهما الانفراد!..

راقبه "يزن" يغلق الباب من خلفه، ليجدها ترحل.. تتبع خطواته وإن كانت عائدة للمكتب.. تجاهد لتجاهل وجوده، تناسي حضوره..

لكنه لم يمهلها الفرصة.. هي تحتاج لخاتمة مثله تمامًا..

تحتاج لبدء طريق جديد مبتور عنه الماضي المؤلم، والفقد الموجع..

تبعها، وقف يجاور وقفتها قرب النافذة الضخمة، يهمس باسمها فتناشده الابتعاد:

- يزن.. من فضلك، ارجع مكانك..

تنهد بضيق، يتفهم رفضها وهروبها:

- هارجع، بس عاوز أطمن عليكِ..

أبعدتْ ناظريها عنه بإصرار:

- أنا كويسة..

صمتَ للحظات يحاول انتقاء كلماته، بعدها تمتم بخفوت:

- مراتي عرفت بوجودك..

لم تقاوم الالتفات، النظرة المشدوهة المطعونة، الحزن والأسى والاعتذار:

- أنت عملت إيه!..

تراجع يبرر، ينفي عن نفسه التهمة والتلبس كان سيد الموقف وقتها:

- ماعملتش.. شافتنا يوم الإيفينت..

استدارت إليه بكامل جسدها، نظرتها مختنقة ونبرتها محتقنة بالغضب:

- عملت معاها إيه!..

لا.. نبرتها مُتهِمة؛ كأنها تدرك ما يفعله حينما يسقط بفخ الذنب..

حينما يشعر بالحصار، وقسوته التي لم يتعمدها معها وهي تعلم بها..

- وجعتها!..

لامته بيأس:

- ليه!.. إحنا حدوتة وخلصت..

رفع عينيه يقابل نظرتها العاتبة:

- عارف..

قطبت بحيرة فأكمل موضحًا:

- بعد ماعرفت سابتني.. ولما بعدت عني...

سكن يفكر.. يتذكر..

يسقط في عشقها مرة بعد مرة.. عمرًا بعد عمر..

يخبر مسكنها بقلبه ألا امرأة أخرى تعادل الحياة مثلها، يشرد ويبتسم بضعف عاشق:

- لما بعدِت؛ عرفت الحدوتة المفروض تكون مع مين..

رمشتْ بارتباك، لم يُصبها عذاب، لكنها لا تستسيغ المشهد بأكمله..

كانت تعلم، لذا الحكاية منتهية قبل قراره، لا تحتمل التأويل أو التعديل:

- روح لها..

ابتسم بعشق غريب.. عشق غائب في الغائبة عنه:

- هاخلص الاجتماع فعلا وأروح لها..

ابتلعت غصة مُرة بعسر:

- ربنا يسعدكم.. أنت تستاهل تعيش سعيد يا يزن..

تحرك خطوة يجبرها على مواجهته:

- وأنتِ كمان تستحقي تكوني سعيدة..

رسمتْ بسمة باهتة فوق شفتيها:

- مش كل السعادة في الحب..

- عارف..

يكرر معرفته، وضوحه وصراحته التي توترها:

- بس عشان نلاقي سعادة جديدة، محتاجين نقفل أبواب إمبارح..

رفعت وجهها إليه بتيه، تتأمل ابتسامته التي تشوبها راحة وتتلحف بالهدوء:

- محتاجة خاتمة يا دچى، محتاجة تنسي اللي فات وتفكري في بكرة..

ثم زفر بحرارة وعقله يسافر للبعيد حيث معشوقة لن يعود دونها:

- ماتخليش الماضي يشوه النهاردة ويخبي عنك اللي جاي..

شردتْ في ملامحه التي تحفظ تفاصيلها رُغمًا عنها، عادتْ لها البسمة وإن مررتْ انكسارًا ضائعًا:

- ما تقلقش عليَّ، أنا بعرف أتعايش وأكمل..

- أنا عاوزِك تعيشي، مش تتعايشي..

- إزاي!..

مط شفتيه وفنَّد برفق:

- التكيف مش حياة..

تغضن جبينها باستفهام أجابه بلا تأخير:

- اطوي الصفحة بجد، وافتحي صفحة جديدة..

- مش سهل..

طمأنها ببسمة داعمة:

- ومش مستحيل..

بتر اللحظة عودة عاشقها، الباب الذي انفتح والخطوة التي تراجعها كل منهما مبتعدًا عن الآخر، التساؤل الذي علا نظرته وردده لسانه مع وقفتهما المتقاربة قبل ثوانٍ:

- دُچى.. تعبتِ!..

تباعدتْ أكثر وولته كامل انتباهها:

- لأ.. أنا كويسة صدقني..

لهفته أخبرت المجاور لها عن مدى عشقه، عن خوفه ورغبته في قربها..

حتى أنه لم ينتبه تمامًا للسؤال التالي منه إلا حينما ردت هي بحزم قاطع:

- أنتوا تعرفوا بعض قبل كده!..

- لأ..

عقبها سوغت قربهما بتعثر:

- كنا بنتناقش في آخر شرط في العقد..

رمقها "منذر" بنظرة طويلة لم تفهمها فابتسمتْ له، أهداها بسمة مشابهة وعادوا للعمل، ساعة أخرى مرت.. انتهى الاجتماع وأُقفلت الصفقة كما انطوتْ صفحة الأمس..

لكن الحبيب القديم لم يُنهِها إلا بعد نصيحة أخيرة همس بها إليها قبل رحيله في غفلة من الآخر:

- إديله فرصة..

في الملاحم لابد من صدامات..

صراعات وحروب وقتال ونزف..

القلوب العاشقة، لا تنزف دمًا..

بل تنزف ألمًا.. وخسارة!..

**

العشق الخالد معجون بالوجيعة، مفطور على العذاب، مصنوع من خوف..

لم نسمع عن قصة كانت نهايتها مغلفة بسعادة، إما فراق وإما موت.. إما فقد وإما فاجعة..

تلك الملاحم التي تغنى بها الشعراء، وبجَّلتها قصائدهم؛ ختامها تعِس، بائس.. حزين..

حتى قصته؛ تمكن منه شيطانه أثناء سردها، مزَّق حواره وبعثر الصفحات.. أبعدها عنه، هربتْ منه، وبات هو شرير حكايتها التي بدأها بنفسه..

لكنه لم يكن ليخضع..

ذلك المصير لا يعجبه.. المنتهى اختاره بنفسه، وسيطبقه بيديه..

سافر إليها كما قرر، قطع خيطًا باقيًا، وربط كل خيوطه بها.. بقلبها وعشقها والقادم من أيامه معها، وحدها لا أحد سواها..

هي الحياة..

والحياة لا تحلو بلا وجودها..

الحياة لا تستمر دونها..

أفاقت من نومها قرب الغروب، جسدها ثقيل متعب، حملها في منتصف شهرها السابع، وبطنها انتفخ بطريقة أساءت لجسدها المنحوت كل إساءة ممكنة لكنها راضية..

مبتهجة، ومرآتها التي تتأمل على سطحها انتفاخها كل يوم تشهد وتُقر ببهجتها..

حتى وإن كانت بعيدة عنه!..

فتحت عينيها بتعب، تمطت في الفراش تؤنب نفسها على نعاسها الذي أضحى كثيرًا بشكل لم تعتده، ولا تطيقه.. لكن وجود ذلك الشبح غامض المعالم إلى جوارها بتر كل فكرة وحركة..

انتفضت شاهقة وهي تعود لذات الكابوس.. كابوسًا كادت تفقد على أثره طفلها!..

طوقتْ بطنها بكلتا كفيها حين أتاها صوته الهادئ:

- اهدي يا غزل، أنا يزن..

كأن المشهد يعاد.. الخوف يتضاعف، والرفض يحفز جسدها على القفز نائية عنه، لولا أن أشعل مصباحًا خافتًا على طاولة مجاورة فمنحت ضوء الغروب مزيدًا من نور ألقى على وجهه وعينيه ببصمتِه:

- ما تخافيش..

تراجعتْ أكثر ترمقه بذعر صامت استنكره:

- أنتِ خايفة مني!..

الرعب في مقلتيها رآه يخصه هو، مد يده إليها، نفرتْ منها وابتعدت تغادر الفراش، استقام يدور حوله ليقابلها، ركضتْ هاربة تهز رأسها بألم.. تعارض قربه، لمسته، كونه هنا:

- كابوس تاني.. لأ..

تجمد في مكانه بأسى:

- كابوس!..

لامس صوته حزنه فأوجع خافقها بلا إرادة منها:

- وجودي بالنسبة لك كابوس!..

حاوطته ببصرها.. تتأكد من حقيقته، هو ليس وهمًا اصطنعه القلب الملهوف، ليس حلمًا ولَّدته قسوته من لاوعيها.. هو هنا!..

خطتْ إليه بتردد:

- يزن!..

ابتسم يهز كتفيه باستسلام منهك:

- أيوة..

تحسستْ وجهه بأناملها.. خشونة ذقنه، فكه المشدود برجفة استشعرها، لم يكن يدرك كم اشتاق قربها، أنفاسها، لمسة يدها حتى الآن!..

تنهد براحة وهي تطوف حول ملامحه بتوق:

- أنتَ هنا..

تأملها بنظرة عاشقة ارتعشتْ لها دواخلها، يؤكد على تقريرها:

- أنا هنا..

يستبقي ذراعيه جوار جسده، يمنعهما عنها.. يشتهي ضمتها، ويخشى أن يتعجلها فيفوز بالإحباط والخيبة..

وجدها ترتد للوراء، تحرك رأسها باحتجاج، باستياء.. تنهره وتأبى أن يكون معها:

- إيه اللي جابك!..

فتح فمه يجيبها، لكنها قاطعتْ رده بدهشة حائرة:

- وإزاي طلعت أوضتي؟!..

زفر ببطء يستعذب أنفاسه التي تحمل عبقها، عطرها الناعم الذي لا يشبه جنونها لكنه يلائمها تمامًا:

- ابن عمك مش هنا، جدي قاسم قابلني.. قرص ودني وهددني بعدين قال لي اطلع لها..

ودنا خطوة واحدة يضمها بين جفنيه:

- قال لي هي محتاجة لك..

تقهقرت خطوته باثنتين منها، أصرتْ على رحيله بهمس شاحب:

- أنا مش محتاجة لك، امشِ..

شاغبها ببسمة تعيسة:

- هتعرفي أكتر من جدك!..

تقطعت أنفاسها بلهاث مجهد، تنطوي على نفسها وتوليه ظهرها بممانعة قاسية:

- مش عاوزة أشوفك..

ضغط شفتيه بين أسنانه واعتصر جفنيه بغضب لا يباح ظهوره:

- اسمعيني وقرري..

استدارتْ إليه بحركة حادة ساخطة:

- أسمع إيه! خدعة جديدة!.. ولا خطة ترجعني بيها لحد ما تاخد ابني مني!..

بادر بحسم باتر وإن أوجعته اتهاماتها التي لم تكن مجحفة بالكلية، هو من هدد من قبل.. من نثر الخوف في أرجاء روحها وملأها بالشكوك والخذلان:

- أنا مش هاحرمك منه يا غزل، ولا هاقدر أحرم ابني من أمه..

صدق نبرته أربكها فتأملته بتشتت تعلق به مقتربًا:

- خليني أقفل صفحة إمبارح، وأبتدي معاك صفحة بتاعتنا وبس..

تنهد وأردف بحنو محب مشتاق:

- صفحتنا أنا وأنتِ وولادنا..

- ولادنا!..

تمتمتْ بها مستغربة بخفوت ابتسم له بعبثه وإن كان به بعض حزن:

- طبعا.. أومال زين مش هيبقى له إخوات!..

خطوة ثانية وازت حروفه التي تترفق بقلبها:

- لسه اسمه من حروف اسمي ولا غيرتيه!..

خطت لليمين ودارت حوله تتباعد عنه، تتجنب حصاره الذي تتوقعه وتفر من قربٍ يوهن عزيمتها وثباتها:

- جاي ليه يا يزن!..

لم يتبعها، لم يستدِر إليها، توجه لباب الشرفة ووقف يقابله، ينظر عبر زجاجه تجاه الشمس التي غاصت بالأفق وحمرة الشفق من خلفها تلون السماء بفتنة:

- جاي أحكي لك الحكاية من البداية..

أذن لها بالصمت، وصمتها كان تصريحه لمستهل الحديث..

مستهل عن طفل عندما أدركه الوعي علم أنه يتيم الأم والأب رُغم كون الوالد حيًا يرزق.. جده لأبيه هو مربيه، جديه لأمه رحلا عن دنياه قبل مجيئه.. لا يمتلك من رابطة والدته سوى خال واحد، له ابنتين، إحداهما تصغره بعام والثانية بسِت..

خال خسر مع الجد الأكبر لعائلته كل أموالهم في مضاربة فاشلة غير محسوبة العواقب بالبورصة، فقد على إثرها ذلك الجد آخر أنفاسه فلم يبقَ سوى الخال وحفنة من أموال لا تصلح لوصية منسية..

مستهل عن شاب أكمل السابعة عشر من عمره، عن تمرده وجموحه ورعونته.. عن طيشه وحدة انفعالاته التي يكرهها جده المسيطر، الحاكم بأمره على حياته وحياة توأمه..

كان يريد أن يصبح قبطانًا يجوب البحار السبع على ظهر سفينة هو قائدها، كسندباد لا يمس اليابسة إلا للضرورة..

لكن ذلك الحلم وُئد في المهد!..

مالكه أصدر فرمان الحكم، هو سيدرس تجارة الأعمال بصحبة أخيه ليديرا شئون العائلة معه ومن بعده..

خضع لذلك الأمر ككل ما سبقه، خضع بعنف بعد رفض لم يكن ذي قيمة، لكن لقاؤه بها منح نفسه الهدنة..

الحبيبة التي لم يدرك معنى العشق إلا معها..

مر عام، ثانٍ وثالث.. أراد الزواج، وتدخلت إرادة الجد لتعلو إرادته من جديد، تحرمه منها بتهديد.. بوعيد، بقسوة وتجبر..

وخضع، ليس ككل خضوع مضى.. بل رد الصاع بضربة قاصمة، مع امرأة اشتهت خيانة رجلها واشتهته، استجاب ونال ما تمنى..

لم يحذر الأمنية فأتى مصيره بالنبذ والطرد..

باللفظِ من جنته التي لا يستوعب حياته خارجها..

ضربته صاعقة الإقصاء واقتلعته من جذوره، شردته عن توأمه وعن رغد العيش الذي يألفه..

ببيت خاله مكث لعام، أتم خلاله دراسته حتى تدخل القدر ثانيةً!..

الصغيرة التي جهرت له بحب لا تفهم معناه، والخال الذي فطن للمشهد لكن الاستمرار غير مباح..

جالسه ليلتها، أعلمه أنه لا يسيء الظن به، لكن وجوده بهذا المنزل لم يعد صحيحًا، سيجد له مكانًا سواه، وعملًا يبدأ به ما هو آت..

كان نفيًا لم يبتلعه، كل جذوره اُجتثت من الأرض، بات وحيدًا فقرر أن يستغني بوحدته عن الجميع، حتى توأمه تباعد عنه لشهور طويلة قبل أن يدفعه الحنين عائدًا إليه..

هجر الحبيبة التي أرادتْ الدعم، هجر العالم كله.. ترك المنزل، لم يحمل معه مالًا، لم يستجِب لرغبة الخال في مساعدته، أخذ حقيبة صغيرة.. ورحل!..

لخمسة أعوام تالية ذاق مرار العيش، تنقل بين مهن عدة صقلت خشونته، علمته القسوة، كما لقنته غابة الحياة دروس الوحشية وكيفية النجاة..

بعد تلك السنون وجده خاله، تمسك به.. أخبره أنه ظل يبحث عنه، أنه لن يتخلى كما ظن.. وأوجد له عملًا..

عملًا هو الخطوة الأولى على طريق النجاح..

وطريق الصديق الحالي والوحيد "وجيه نصار"..

أتقن وتعلم، درس وترقى حتى أتتْ ضربته القاصمة التي رمته من قمة الاستمرار، إلى حضيض اليأس والفقد والخسارة..

مات توأمه وحده..

هنا فارتْ دماؤه واحترقتْ روحه..

هنا قرر الثأر، وهي كانت فتيل الانفجار!..

إلى أن وصل للحظة نهاية، قطْع آخر خيط من ماضٍ بمذاق العلقم وسقطتْ هي بمنتصفها، بصدفة.. أو بقدر..

أنهى روايته البائسة بنبرة شاردة لا تخلو من غلظة.. من قتامة، من مقت لم يرحل عن كيانه كاملًا بعد:

- جدي كان عاوزني أنا ولي العهد، كان شايف إني الصياد اللي يقدر يكمل مشواره، إن يامن المطيع والمدلل، بس في السوق هيدهسوه.. ورجعت..

بتلك اللحظة التفتَ إليها، يتأمل جسدها الساكن على طرف الفراش، رأسها المنكس وخصلاتها التي تخفي وجهها عنه:

- رجعت وأنا ما بحبش يزن الحالي رغم إني عارف إن هو اللي يستحق يعيش..

ضم قبضتيه يستند بيمناه لإطار الباب بثبات، نظرته تتوحش، تظلم، ونبرته تقسو:

- يزن اللي بيعرف ياخد حقه من الدنيا بعد ما ظلمته زمان..

ثم لانت ملامحه بإرهاق، بذكرى واشتياق وفقد:

- بس يزن بتاع زمان.. وحشني..

لم تنظر إليه، ولم يخمن السبب.. تعانقتْ أجفانه بأنفاس مثقلة بهموم نفسه:

- أوقات بفكر ليه أنا أعيش وهو يموت!..

رفعتْ عينيها إليه بغتة فلمح نظرتها المصدومة، المتألمة.. ابتسم بشجن ومقصده يصلها؛ هو يتحدث عن نصفه الراحل، نصفه الذي برحيله مات فيه شيء لن يُبعث بعد الموت أبدًا:

- هو كان يستحق الحياة أكتر مني..

يتذكر الحقيقة التي بزغت عقب رحيله، يفند ويعدد الدوافع التي استوجب معها استحقاق الاستمرار لكنه لم ينله:

- حبيبة.. ابن وحياة دافية..

نفض رأسه كأنما ينفض عن عقله أفكاره، قنوطه وانهزامه.. تحرك يجثو أمامها، يقف على إحدى ركبتيه وذراعيه يستندان على الفراش حولها دون أن يمسها:

- ما اتصالحتش مع يزن الجديد إلا معاكِ يا غزل..

غاص بعينيها فتقبلتْ غوصه باستسلام.. بسلام:

- مش هاقول من يوم ما قابلتك..

ونفى بحزم صادق، لهجته البسيطة المباشرة تؤكد على إخلاصه:

- لأ.. وقتها كنتِ مجرد طرف خيط، سلمة في خطة أوصل بيها للعرش..

لامته بنظرة مخطوفة أغلقت بإثرها عينيها، رفع كفه قرب وجنتها، توقف قبل لمسها:

- اتجوزنا..

تمتم بهمس خفيض يتسلل به لروحها التائهة في غربتها عنه:

- قربنا من بعض..

عادتْ تفرق أجفانها، ترمقه بوهن.. بغموض أرجفه، فلم يدرك أيبتعد أم يقترب أكثر!..

أعاد يده لموضعها الأول مستطردًا بعاطفة:

- قابلت غزل اللي حضنتني وأنا حزين..

احتواها خلف أهدابه الكثيفة فشعرت كأنما ظله يقيها كل شرور الكون:

- اللي اتحملت غضبي وقسوتي..

ابتسم بحنين وبصره يعود لأمس ليس ببعيد:

- اللي رجعت من الشغل في يوم لقيتها بترقص ومصممة أرقص معاها..

نقشت بسمة وجودها على أطراف ثغرها فنبض فؤاده مهللًا:

- اللي قعدت بكل بساطة على الأرض في البلكونة تاكل مانجا وتغرق بُقها وإيديها..

رمشتْ بخجل وضحكتها تتمازج بعبرة ارتحلتْ تسير في طريق وحيد فوق وجنتيها:

- اللي كانت بتعاقبني بالشيكولاتة بالنعناع وتحرمني منها..

جملته الأخيرة كانت بنبرة مشاكسة ختمها بعشق كاد يذيبها بين يديه:

- غزل أم ابني..

لم تتحرك ولم يفعل بالمثل، ظل على جلسته يواجهها، يحتجزها، يحاصرها بكل جوارحه ولم تسعَ هي لفكاك من حصاره:

- وقتها اتصالحت مع يزن، حبيته في عيونك..

تردد لحظة أمسك بكفها يضغطها بيده عقبها، يقلبها ويداعب باطنها بإبهامه في دوامة ناعمة:

- حبيت يزن اللي اتولد على إيديكِ..

ابتسم بعد تنهيدة راحة..

هي الراحة..

وجودها، قربها، يقينه بأنها له.. راحة لا يشتهي بعدها شيئًا:

- قابلته في نص الطريق، وقلت له ممكن نتفاهم..

سحبتْ يدها منه، تباعدتْ ونهضت تهجر جواره، نبرتها تتشبث بالقسوة.. قلبها يخشى التصديق، يرتعب من تكرار الغفلة والسقوط، يسيء الظن فهو العصمة من كل وجع..

تلوم وتحتج وتبوح باليأس والغربة:

- يعني بتحب نفسك في الحدوتة دي كلها..

تقرر عنه ما لم ينطق به..

مسح وجهه بصبر، تنفس بتمهل واستقام يتبعها، يقف في ظهرها، يهمس لها برفق مهتم:

- هو إيه الحب يا غزل!..

- الحب!..

غمغمت باستفهام حائر، جاوبت تلوه بمرارة تغمر كل ما فيها.. تغرقها حد الموت:

- الحب إني آخد قرار الفراق والبعد لحد ما أموت.. فتظهر أنت وقلبي المهزق يبقى عاوز يرجعني ليك غصب عني، يبقى عاوزني أترمي في حضنك ومش مهم أي حاجة تانية..

ارتجف قلبه بين ضلوعه بأمل.. ابتسم وجهر بها قوية، ثابتة، حاسمة..

جهر بكلمة العشق وصدح بمشاعره:

- لو ده الحب؛ يبقى أنا بحبِك..

اتسعتْ عيناها وجسدها يلتف بسرعة ليواجهه، رأسها ترتفع فتلاقي عينيه، أذنيها تنصت لكل حرف ينطقه وبريق نظرته يضيء درب عشقها المهجور:

- لو الحب إني أكون تايه من غيرك؛ بحبِك..

ازدردتْ لعابها ترطب حلقها الجاف، اختنقتْ فتنحنحتْ تتنفس بمشقة وهو يسطو على نبضاتها نبضة نبضة..

يحتل كيانها ويسلب منها تعقلها وكبريائها وأفكارها:

- لو الحب إني أحس بوحدة عمري ما حسيت بيها؛ بحبِك..

دنا خطوة لم تتراجعها هذه المرة وبسمته تشيع بالسعادة في روحه وروحها:

- لو الحب إن كل حاجة تفقد طعمها ولونها وتبقى من غيرك تحصيل حاصل؛ بحبِك..

مد يديه يحاوط كتفيها، يثبتها قربه، يسقط عينيها بفخ عينيه ويطبق عليها بسياج الهوى:

- لو الحب إن كل حاجة لو أنتِ مش معايا تبقى شبه بعضها، الليل زي النهار.. الجوع زي الشبع.. الراحة زي التعب.. النوم زي السهر؛ بحبِك..

سكن للحظات ترقبتْ فيها حركة شفتيه مجددًا، كأنما تتمنى منه نطقها مرة أخرى.. بل ألف مرة، تجرأ بخطوة تالية وحاوطها بين ذراعيه.. ضمها فوق صدره فاستكانت وتنفس..

أغلق أجفانه، دفن أنفه في خصلاتها وقد وجد أخيرًا ملاذه وملجأه.. سكنه وسكينته:

- لو الحب إني دلوقتِ أكون عاوز أشكر قلبك المهزق اللي خلاكِ في حضني؛ أبقى بحبِك..

ارتج جسده بضحكة صغيرة:

- بحبك يا غزل، اكتشاف مذهل مش كده!..

ضحكتْ بالمثل، سالتْ عبراتها حارة وسعيدة، خائفة، غير مصدقة، أبعدها عنه، مسح دموعها بأنامله، أمسك بذقنها يجبر بصرها على الالتحام ببصره تائهًا في حنايا نظرتها:

- عارفة؛ أنا برده مش قادر أسميه حب..

رمقته بدهشة مشتتة فأوضح بتفكير شارد:

- الحب مفهوم قاصر قوي ما يكفيش إحساسي بيكِ..

فرد راحته فوق موطن نابضه، يستشعر جنون دقاته وهديرها العنيف:

- الفراغ اللي كان هنا لحد من دقايق بس؛ مش مجرد حب..

ارتجفتْ باستفسار صامت بينما هو يتمم كلماته بغياب:

- حاجة أكبر..

يعقد حاجبيه ويسافر بأفكاره حيث حقيقة لم يعُد يجدي معها إخفاء أو ينفيها كتمان أو يحجبها نكران:

- حاجة تخوف..

- تخوف!..

أومأ بموافقة وبسمته تعود لشفتيه بإدراك:

- أنا ما بحبكيش..

قطبتْ واحتدتْ ملامحها، توسعتْ بسمته وهمس بصدق صراح:

- أنا عايش بيكِ..

تأملته بصدمة.. بارتياح.. بعشق لن تنفيه أو تعانده بعد اليوم:

- غزل حياة..

وختام المشهد..

قبلته تحط فوق جبينها، أنفاسه تحتلها.. ضمته تعتصرها بلهفة..

والسلام يعلن لروحه هدنته..

عليه الآن أن يعترف بالهزيمة.. أن يقبلها..

هي امرأة هزيمته لأجلها انتصار..

هي امرأة بمذاق الحياة والنجاة..

هذه ليست نهاية ملحمة عشق، لكن العشق يمكنه أن يسود لرَدَح من زمان الحكاية..

**

كل عشق يساوي ملحمة، وكل ملحمة تتوازى طرديًا مع الألم..

ألم الوحدة في دروبه المتشابكة، الضياع دون نديم بلا خريطة أو دليل في متاهته المعقدة.. ألَّا يبحث العاشق عن مخرج، لكن برغبة واهنة في الهرب يتمناه علَّه ينجو من مأساته التي تأسره وحده..

فالمعشوق لا يعترف بالعشق، يرفضه، يشجبه.. ويستنكر وجوده..

المعشوق يفر من أسر الغرام كفراره من ضارية ستنهشه، تنهش روحه وقلبه..

حجتها في الافتراق عنه انتهت..

الصديقة عادت مع زوجها في الصباح إلى بيتها، ولم يعُد بين يديها من سبب لتبقى خلف أسوار المزرعة هاربة منه، ومن قربه الموهن لجوارحها.. لذا في الليل كان يقود سيارته وإياها أخيرًا متوجهين لمنزلهما، صغيره نائم في المقعد الخلفي، وهي تنظر عبر النافذة تراقب الطريق بصمت..

حين وصولهما حمل ابنه ووضعه بفراشه، خلع عنه حذاءه وقبَّل جبينه بحنو بعدها ذهب إليها يتلحف باللهفة والتوق..

في هذه اللحظة لن يجحد بافتقاده لها، هو اعتراف سيسره بأذنها وعقبه سيعوض احتياجه وشوقه..

عندما فتح باب الغرفة وجدها تبدل ثيابها بملامح خاوية، راقبها تستعد للنوم كأن شيئًا لم يكن، كأنه ليس معها.. كأنما لم تغِب عنه، انتوى تغيير خططها وكسر عنادها باقترابه..

قبل أن تصل للفراش أوقفها.. ضمها يتشمم عبقها، يهمس لها بخفوت دافئ:

- وحشتيني..

تصلب جسدها بين ذراعيه، أباحتْ له نثر أنفاسه على جيدها، يزيح خصلاتها ويكمل همسه الأبح:

- وحشتِ حتى حيطان البيت..

ارتجفتْ تستند إليه بضعف مستسلم، روحها استوحشتْ وحدتها الخالية منه، تشتاقه كما اشتاقها وأكثر..

لكنها تشتاق كعاشقة، وهو يشتاق كرجل.. وشتان بين الاثنين!..

لامتْ نفسها، وبختها على توقع أكثر مما يمكنه أن يمنح، عنفتها فهي من قبلتْ الصفقة بجميع شروطها ولا يجوز لها أن تخِل بها..

تركته يلقنها مبادئ الشوق والشغف، يبعثرها كما في كل مرة تكون بأحضانه.. تجهر تفاصيلها وتصدح خلجاتها ونظرة عينيها بكل عشق، وينسى هو مرارة وحدته التي مضتْ دونها..

استلقى على ظهره براحة، لا يحررها، يجذبها فوق صدره وترضخ هي لدقائق من سكون.. يستغرب سكونها منذ عادا.. يقلقه..

لا.. سكونها يخيفه، رُغم ضياعها معها..

تمتم باسمها فأغمضت عينيها بتعب، ثوانٍ تالية من ذات الصمت وابتعدتْ عنه، غادرتْ الفراش تستتر بمئزر ثقيل، تتجه خطواتها إلى الحمام وبصره يتبعها بحيرة، حيرة لم يخضع لها، كرر النداء بلهجة أكثر حزمًا أوقفتها، توليه ظهرها وأجفانها في عناق حزين..

استقام يقف من ورائها، يزفر بلا فهم، يتحكم بكتفيها ويديرها نحوه عنوة.. يرفع وجهها الخالي من الانفعالات إليه ثم يتردد في سؤال انقبض له قلبه قبل نطقه مجبرًا:

- رهف.. أنتِ ندمانة أنك وافقتِ على جوازنا!..

رأتْ في عينيه شيئًا من ألم.. من رهبة تنتظر الجواب!..

تراجعتْ عن مرمى يديه ومرتْ بروحها رعدة باردة أرغمتها على محاوطة ذراعيها بكفيها، تمسدهما بقنوط..

جدد النداء فجددتْ النظر إليه، تأملتْ نظرته ولمحتْ التعلق يجاور الخوف، ربما وجودها بات يشكل فارقًا لكن أي نوعٍ من الوجود!..

مجرد امرأة يحتاجها.. اعتادها.. ألفها..

بماذا ستطالبه وهي من وافقتْ على معادلته الجافة!..

هو لم يخدع أو يكذب أو يُجمل، كان صريحًا حد الوجع وقت عرض زواجه الذي لم يُكرهها أحد على قبوله..

الصمت طال لحد عقد له حاجبيه، لحد أغضبه فأتى نداءه الثالث حانقًا:

- رهف.. جاوبيني!..

- مش عارفة يا عدي..

باغته الرد.. كان يتوقع الإنكار، الاستنكار من مجرد الفكرة..

كان يريد!..

وباغتته بحيرتها وتشتتها.. فضاعفت غضبه:

- يعني إيه مش عارفة!..

علو نبرته جمع شتاتها، أثار سخطها بالمثل، احتدتْ بضيق:

- يعني مش عارفة..

تخطته عائدة لمنتصف الغرفة، تتأملها شبرًا شبرًا، تستعيد ذكرى كل ركن كانت فيه معه:

- لما وافقت أتجوزك كان بشروطك، اتعاملت مع الجواز كأنه صفقة، وقعت عقد رسمي من غير شرط جزائي..

التفتتْ تواجهه..

هي امرأة متعبة تود لو تنال بطولة ملحمة عشق مفقود..

امرأة كل ما تشتهيه من رجلها أن تسكن قلبه!..

- مش عاوزة أخِل ببنود الصفقة يا عدي، مش عاوزة أحط شروط جديدة برا الاتفاق..

ولوحتْ بذراعها في توضيح مبتور:

- بس أنا تعبت..

اقترب يشرف عليها بنظرة قاتمة:

- أنتِ بتتكلمي عن حياتنا مع بعض بالشكل البارد ده ليه!..

خطتْ تحتل أفق بصره بنظرة قاسية:

- ده الشكل اللي أنت حددته في العقد..

وكزتْ صدره بسبابتها بقوة:

- وكل مرة بتفكرني بشروطه..

زم شفتيه، ضغطهما بين أسنانه بينما يرمقها بثبات، يكبت الانفعال ورغبة الصراخ، رغبة هزها حتى تفيق..

أو ربما هو من يحتاج لإفاقة لكنه لا يرغبها حقيقةً..

قبض على يدها وجذبها نحوه ماحيًا المسافة بينهما:

- أنا لما طلبت أتجوزِك جايز قلت مافيش حب، بس الاتفاق اللي بتتكلمي عنه كان فيه احترام متبادل، كان فيه ود.. اخترت انسانة دافية عارف إنها...

- بتحبَك..

صرختْ في وجهه بها فتجمد..

رفع حاجبيه مستنكرًا صياحها، انتزاعها ليدها منه وابتعادها الحاد:

- اخترت صح يا عدي، ما تقلقش.. أنا باقية على العهد، مش هاهرب منك في نص الطريق، ولا هاطالبك باللي أنت مش قادر تديهولي..

كان ألمها يقطر مع حروفها، المرارة تشيع بين ثنايا الكلمات، والوجع يطعنها في كل موطن قاتل بكيانها.. تأملها بنظرة متوجسة، كأنما يخشى بترًا يقصيه.. لكنها بادرتْ بمنحه راحته دون راحتها:

- مش هالغي الصفقة..

- رهف!..

رفع يده يمدها إليها علَّها تتشبث بها، تعود إليه.. تباعدتْ تهديه نظرة تموج بالخيبة، تنغمس بالعتاب وتحبسه داخل سجن الضلوع:

- اطمن يا عدي، أنا مراتك لحد ما أموت..

بلا وعي كان يندفع نحوها، يلامس ثغرها بأصابعه، يكمم كلمة تخلق بنفسه كل هلع ممكن:

- ما تقوليش كده..

أغمضتْ عينيها تهرب من نظرته، حاوط رأسها بكفه وجذبها لصدره يضمها بشيء من غلظة:

- أنا عاوز أسعدك..

أعادها يدقق في حدقتيها المهزوزتين بضياع:

- كنت فاكر إني أقدر..

آلمها اعتقاده.. خوفه.. آلمها ذنبه الذي يكبله لكنها لا تملك من حكاية ألمها الخاص شيئًا، تجاهلتْ اللحظة والحدث وتهربتْ من قربه بشجن:

- مش هتقدر يا عدي..

توجهتْ للحمام بخطوات غير متوازنة، توقفتْ قبل بابه مردفة بحسم مغلوب على أمره:

- مش هتقدر تسعدني بالطريقة اللي أنا عاوزاها، ما تتعبش نفسك في مجهود مالوش لزوم..

وغادرته تغلق الباب من خلفها..

تنشئ بينهما حاجزًا صلبًا، تمنعه عنها بجدار يعلم أنه لن يمكنه تخطيه..

مادام الثمن في تلك الملحمة الخاسرة؛ عشق!..

**

ملاحم الخوف لا تنتهي بالنصر.. الخوف هو وقود النجاة، محرك غريزة البقاء.. وأحيانًا دافع الاستسلام بلا أمل!..

في كل خطوة لابد من خسارة وإن كانت محدودة..

وهي خسرتْ طوال الطريق؛ خسرتْ الأهل عند المفترق الأول، خسرتْ الحبيب بفقد باتر، خسرتْ نفسها.. لم يبقَ سوى صغير هو مصدر ما تمتلك من فتات قوة تمنحها قدرة الاستمرار، الجهاد في حرب مع المستحيل، الصراع مع نهاية محتومة..

نهاية على يديه!..

الزوج الذي لا تفهمه البتة، وكلما ظنتْ أنها ارتقت تجاريه درجة من وعي.. انقلبتْ على عقبيها وسقطتْ محطمة عند قاع الجهل..

صمته طال أكثر مما يجب.. أكثر من اعتيادها عليه، وترقبها لعقابه على شيء لا تدركه.. لا تستوعب ما به، وتخشى السؤال.. ترتاح في تجاهله لها، والتوقعات تشطح بخيالها بجموح نحو الهلع..

بكل يوم ومع تباعده تدرك أنه لم يكذب عليها في مرة، لكن إدعاء القتل كان كذبته الأولى.. كان انعكاسًا لرغبتها في تشويهه أكثر بعينيها.. مجرد تصديق على وحشيته التي تؤمن بها ولا يكترث هو لها..

هو الشرير في حكايتها، الشيطان في حكايته.. والملحمة تبدأ من عنده وتنتهي إليه!..

في تلك الليلة رأته يعود متأخرًا، راقبته من الشرفة يتوجه لصومعته متجاهلًا الصعود للجناح، يحمل حقيبة صغيرة غامضة ويختفي بلا تفاصيل..

عقبها بيومين وجدت أخيه يسلمها حاسوبه المحمول، وجهه جامد حزين.. يخبرها عن ذاكرة بداخله، وشيء يخصها..

يهمها أن تراه وتستمع إليه..

وحتى اللحظة الحاضرة سقطتْ بوسط حرب يائسة، بين الفضول والتوجس.. غريزتها الأنثوية الفطرية، وقلبها الواجف..

ثم استسلمت أخيرًا!..

استقرتْ بشبه راحة على فراشها، بأحضانها طفلها.. وأمامها الحاسوب، تنقر بأصابعها الملف المنشود.. تفتحه وتنتظر..

ثوانٍ معدودة مرت قبل بداية الصدمة..

ملامح المعشوق التي حُرمت رؤياها، نظرته الهادئة المطمئنة، نبرته القوية تبث بين جنباتها الأمان، تزرعها بأحضانه وإن كان عبر شاشة جامدة..

لم تشعر بعبراتها التي انسابتْ على وجنتيها، بأنفاسها المحبوسة البطيئة رُغمًا عنها، بطفلها الذي تأمل وجه أبيه وناغاه بصوت لطيف جعلها تخبره بحنو:

- بابا..

رفع الصغير عينيه إليها فكررتها ببسمة من بين دموعها:

- بابا يا يزيد.. بابا..

أعادتها على مسامعه مرة تلو مرة، أصابعها تشير للشاشة، ولسانها لا يتوقف عن منحه لقبًا لن ينطقه؛ لقد حُرم صاحبه قبل ميلاده..

انتهى العرض، ضمته لصدرها فتملص منها ينشد اللعب، مد كفه المكتنزة يلامس وجهها البائس المبتل.. يستغرب ملامحها التائهة، يبتعد ببصره بغتة لما فوق كتفها..

يبتسم ويرفرف بيديه.. ينطق بتقطع:

- با.. با..

انتفض قلبها مع أولى كلماته.. اعتدلتْ تضحك، تحاول إجباره على تكرارها لكنها لمحت تعلق نظرته بما خلفها!..

استدارتْ بتعثر وكان هو هناك عند باب الغرفة المفتوح، عاد في توقيت مبكر يتماشى وسوء حظها معه، يعقد ذراعيه في وقفة صارمة، حدقتاه معلقتان بملامح أخيه ويبدو أنه استمع لبعض حديثه كذلك.. كل ذلك تغاضتْ عنه، لم تكترث له..

فقط نهش قلبها الوجع حين ناداه طفلها بكلمة ليست من حقه، وجدتْ نفسها تقهر خوفها وعجزها.. تدير وجهه إلى شاشتها، تشير إلى تفاصيل الحبيب وتصر بحزم:

- ده بابا..

بإثرها عادت بعينيها تقابل عينيه، تتحداه.. تواجه رعبها منه بعناد مكابر وإن أصابه وهن الوحدة والاستضعاف..

تهمسها له هو هذه المرة:

- بابا يامن..

لم ينفعل.. وجهه الجامد لم يهتز أو يتأثر.. لا بتحديها، ولا بالنداء الفائض بالمشاعر من طفل لا يعلم من هو في حقيقته!..

رمق الحاسوب بنظرة أخيرة وغادر إلى غرفته دون كلمة واحدة..

حينها انتابها ندم!..

هل كانت قاسية!..

هل يستحق!..

عاندها عقلها ينهر ضميرها الأبله، السؤال هل هي تستحق كل ذلك العذاب معه!..

مسحتْ وجهها بعنف، هبطتْ بالصغير إلى جده، تركته بصحبته مع مربيته وعادتْ إليه، طرقتْ بابه وفتحته لا تنتظر تصريحه..

كان شاردًا..

هو رجل كل الطرق التي تؤدي إليه مغلقة..

لم تدرك أنه لم يسمع طرقتها.. كان سجينًا في عالمه الخاص، في كهفه المعتم الذي ينشد العودة إليه وحده..

نعم يريدها، هي خصمه الذي سيحيا معه في ملحمة خالدة إلى نهاية العمر..

هي ليست السكن بل هي العاصفة..

ليست السلام، هي الحرب..

وهو رجل قتال خبير، لا يلجأ للهدنة أبدًا..

لكنه لا يدري ما به!..

فتور مبهم أصابه جعله يشتهي الابتعاد عن الأرض بمن عليها، حتى بحثه في حادثة أخيه الميت لم يسفر عن شيء، كل الأوراق تقود لنهاية واحدة حاسمة..

مجرد حادث.. قضاء وقدر.. خاتمة غير مفتعلة!..

انتهتْ بتعرفه عليه عبر تسجيل قصير لم يمس به شيء..

"يعقوب"..

حرك رأسه إثر ندائها، التفتَ بجانب وجهه نصف التفاتة من فوق كتفه جعلتها تقترب أكثر لتواجهه بنظرة تمتلئ بالتصميم:

- أنا عاوزة الذاكرة اللي عليها صور يامن الله يرحمه..

مرعب..

ذلك الصمت يقبض قلبها، ولو طال أكثر سيقبض روحها كملاك موت ينتظر لحظة الحسم..

عاد بوجهه ينظر خارج النافذة، يتأمل الليل يسدل أستار ظلامه بتلكؤ، يغرق الأفق في عتمته الخالية من فضية القمر:

- لأ..

توترتْ لحظة ثم أصرت باختناق:

- لأ ليه!.. يهمك في إيه تكون صوره معايا ولا لأ!.. ده حق يزيد...

قبض على فكها بغتة فأجفلتْ بشهقة مكتومة، أحنى وجهه ينفث لهيب جحيمه فوق بشرتها:

- قلت لأ..

لم يحررها، جاهدت للتملص من قبضته ونظرته تشنقها كأنشوطة إعدام:

- ما تجادليش..

دفعها بيده، ينفضها بقتامة تظلل كل ملامحه في ظُلمة الغرفة، وظُلمة عينيه..

اعتصرتْ أجفانها تحجب دمعة عجز تحرق دواخلها:

- أنت بتعمل كده ليه!..

هزتْ رأسها برفض، تزفر بإنهاك.. برغبة في تتمة لتلك المسرحية البائسة، في مخرج من متاهة ويله المعذبة بلظاه قسرًا:

- كفاية بقى، جدك وانتقمت منه، أخوك وبعيد.. أنا عاوز مني إيه!..

وبلحظة شجاعة مغلفة بشيء من يأس أخذتْ خطوة تجبره على النظر إليها:

- أنا بالنسبة لك ولا حاجة، ارحمني بقى.. اعتقني لوجه الله..

عندما أخذ هو خطوته وجدت نفسها تتراجع، تصطدم بزجاج النافذة، يقابلها بوقفة صارمة تليق بوحشيته الكامنة والظاهرة:

- مين قال ولا حاجة!.. بالعكس..

استند بذراعيه حولها يطوقها، يحني عنقه فيحيق ببصرها، يحجم أفقها عند محيط عينيه:

- أنا حربي دلوقتِ معاكِ أنتِ يا شمس..

لم تتحرك، لم تتنفس حتى، وجمتْ باستسلام متعب:

- عاوز تهزمني!..

توهجتْ مقلتاه كبرق ضرب سماء ليلة عاصفة مكفهرة:

- عندك استعداد للهزيمة!..

- لأ..

بادرتْ بها وإن لم تكن تعلم إمكانية وقوعها..

ترفض الخسارة، وتنالها في كل مرة..

تستمر مع الضعف في نزال أبدي، تهزمه وتنهزم.. يسود وتطغى، تهرب ويلاحقها، تواجه فينحسر..

كتلة من التناقضات المجهِدة..

أنهى شرودها بلمسة من كفه، تحاوط وجنتها بتملك، يبتسم كشيطان ويتمتم كوحش ضارٍ:

- وده أكتر جزء ممتع في الحرب دي..

كادتْ تبعد يده فكتف ذراعها بقبضته الأخرى، تحكم بها لحد مؤلم مردفًا بنشوة غريبة:

- مالهاش نهاية..

لفتْ وجهها تنأى عنه، أجبرها على العودة إليه بقسوة:

- لا أنتِ هتستسلمي للخسارة، ولا أنا..

تفرقت أجفانها بنظرة مبعثرة كنفسها معه..

نظرة تمازج فيها الذعر بالتحدي..

القتال بالخضوع.. الصبر بالوجع..

نظرة توسعتْ لها بسمته فمال أكثر يستمتع بتأثيره المقبض على روحها التي فقدتْ هشاشتها، روحها المحطمة والمنثورة تحت قدميه..

روحها التي تلملم شظاياها وتصلبها في حربها معه بعد كل هزيمة:

- حربي معاكِ بمذاق الخلود، هي اللي بتحرك الدم في شرايييني..

انتصب واقفًا دون أن يطلق سراحها، يتنفس بعمق، يرخي رأسه للخلف، يترك لسحر اللحظة قيده.. يهديها قدرتها في الاستحواذ عليه:

- هي اللي بتحسسني بالحياة..

ظلت ساكنة في مواجهته.. تتأرجح معلقة بحبال المشاعر الضالة كضلال أفكارها معه..

راقبته يعتدل، يسيج بصرها ببصره فقبلتْ التحدي..

لم تعُد تنتظر لتلك الحرب نهاية، حتى وإن تمنتها وابتهلتْ لأجلها..

كان لا يبالي.. ونقطة.

كانت لا تهتم.. ونقطة.

انتهى السطر.. قلبنا الصفحة..

نحن هنا في بداية جديدة..

صفحة فارغة خالية من السطور مليئة بالفوضى والجنون..

صفحة في قلب جحيم رجل..

وملحمة شيطان ينتصر بالخوف، ويختال الألم..

**

2098

هناك لعبة ملتوية الطابع، يليق بها سرد ملحمة..

خصمان يركضان نحو خط نهاية في مارثوان فوضوي، تتعثر بخديعته، ويتقهقر بجهله معها..

أسطورة خاتمتها لن ترضي الأبطال وإن انتشى بها قارئها حتى النخاع..

أرادت أن تكون بصحبته وحدهما، وجاراها في رغبتها، عندما فكر في رحلة بالقارب كأيام العسل الأولى رفضت، وتدللت تطالب بمكان آخر.. معزول، لا تحيطه المياه من كل جانب مع برودة الشتاء التي تحاصر الجميع..

تذكر منزلًا قديمًا يخص عائلته بمرسى مطروح، يبعد عنها بعدة كيلومترات.. قائم بذاته وسط منازل تشبهه وإن كانت على مسافات غير قريبة تمنحه الخصوصية والهدوء..

أخبرها عنه فاعترضتْ مجددًا لوجود البحر، حينها همس لها بخبث ساخر:

- مش هاجبرك تنزلي الماية..

اقشعرتْ للفكرة وحسب، رمقته بنظرة حانقة ابتسم لها وحسم قراره.. في خلال أربعة أيام أنهى بضعة أعمال عالقة، بعث بعامليَن لتنظيف وتجهيز المكان، أخبرها أن تحضر نفسها وحان وقت السفر..

سبقته للسيارة بحماس استغربه، ذهب هو لوداع أخيه الأصغر الذي رسم بسمة لئيمة فوق شفتيه وتمتم له بتهكم:

- خد بالك من نفسك..

ضحك "عمار" باستمتاع رائق:

- تفتكر هنروح سوا وترجع لوحدها!..

حافظ "نوَّار" على ابتسامته وإن شابها استخفاف:

- لا مش للدرجة دي، بس وسن بدأت تركز مع اللعبة.. وبتفكر تحرك القطع..

ربت الأكبر على كتفه مستوعبًا لتصريحه، ومصدقًا عليه:

- دي متعتي الجديدة على فكرة، وداعا للملل..

خطا خارجًا تصاحبه كلمات الصغير الأخيرة:

- إوعى بس تهزمك..

أشار بيده من فوق كتفه كأنما يراه..

هو لا تستحيل هزيمته.. لكنه يحتاط لكل خطوة فلا يجعلها سهلة لخصمه، السبيل إليها معوج، مليء بالمنحنيات التي يتيه من لا يحفظ خريطته بها.. يُصعبها حد استسلام الطرف الآخر والخضوع!..

كان الطريق طويلًا بعض الشيء، نامت خلاله مرتين، وتأملته بقية الوقت حتى وصلا بسلام..

منزل يطل على البحر، الشاطئ هادئ لحد قد يكون مخيفًا، أقرب سوق مأهول على بُعد كيلومترين، وأقرب منزل يبدو مهجورًا..

دخل معها يجر الحقيبة الضخمة، تركها عند باب غرفة النوم وتأملها بينما تتفحص هي المكان من حولها..

عتيق الطراز بلا تكلف، دافئ وعائلي بامتياز، طابق واحد تحيط به حديقة جافة، جدرانه نالت منها شقوق الزمن، مطبخ صغير في

ركن مفتوح.. خزائنه الخشبية شبه بالية، والأرض مفروشة بسجاد شرقي بدوي جنح بخيالها نحو الصحراء ولا تدري لمَ!..

معيشة بسيطة، وتلفاز حديث يبدو أنه جديد..

اقترب من خلفها، طوقها بتملك لم تمانعه.. انحنى يهمس لها موضحًا:

- للأسف المكان كان محتاج تعديلات، بس السفرية جت مفاجأة.. فظبطته على قد الوقت..

هزتْ رأسها فضربتْ خصلاتها وجهه، أغمض عينيه يستمتع باللحظة وهي تجيبه:

- مش مشكلة، كان عندنا زمان شاليه زيه..

أدارها بين يديه..

دقق فيها لثوانٍ بادلته خلالها صمته حتى تمتم بتلاعب:

- هتخفي الجثة فين!..

رمقته بدهشة غير مستوعبة قبل أن تدرك مقصده!..

تضحك بانطلاق رسم بسمة على جانب فمه، تحاوط عنقه بكفيها وتتظاهر بالتفكير:

- لو رميتها في البحر الموج هيرجعها..

وافقها ببساطة مشاغبة:

- فعلا..

طرقتْ طرف ثغرها بسبابتها تهمهم بطريقة علمية:

- إمممم.. أدوبها في البانيو مع مقدار كبير من الصودا الكاوية!..

ضحك هو هذه المرة رافضًا:

- لأ.. شوفي حاجة أشيك من كده..

عاودتْ عناقه وأناملها تتخلل أطراف خصلاته:

- تعرف؛ لو سيبت الجثة في المكان هنا هتتحلل من غير ما حد ياخد باله..

نفى يستنكر هازئًا من سخافة أفكارها:

- نوَّار عارف إني مسافر معاكِ، لو ما رجعتش هيبلغ ويلاقوا الجثة ويعرفوا..

غمزته بشقاوة وتهربتْ من حصاره تتمهل في خطواتها، تدور في الغرفة وتكمل تأملها:

- هاكون هربت ساعتها بقى..

لاحقها، كبلها وأعادها لأحضانه، لمسته تقسو ونبرته تتخطى حاجز الدعابة:

- وقتها هاطاردك في كوابيسك..

لم يقُل أحلامها..

نطقها كوابيسًا لأنها بحضوره ستتحول لأسوأ وهم وأقبح خيال..

دفعها تجاه غرفة النوم، يتخلص من معطفه و ينزع عنها خاصتها، يحكم سيطرته ويحرك قطعته الأولى فوق الرقعة بامتلاك، يخبرها معه أنها ستظل دميته حتى وإن حاربت لتمزيق الخيوط..

بل حتى وإن مزقت بعضها بالفعل!..

استلقى باسترخاء هادئ، كانت قربه تتطلع للسقف، الغرفة تشبه بقية المكان.. قديمة، شبه مهترئة تم تعديلها بعجالة لاستقبالهما..

وجدها تعتدل، ترتكن لمرفقها، ترمقه بنظرة غامضة ضيق عينيه يستفسر عنها، أزاحتْ خصلة من شعرها وسألته بفضول:

- لو كنت لسه مخطوبة ومكملة معاه؛ كنت هتخليني أتجوزك إزاي!..

عقد ذراعيه متعانقين أسفل رأسه، مط شفتيه ورمقها بكسل:

- نضال الزيات، طبيب أمراض ذكورة وعقم..

صمتَ لثلاث ثوانٍ عدَّها واحدة واحدة ثم أكمل بتصريح صادم:

- طبيب فاسد..

ارتدتْ بانتفاضة، نظرتْ إليه بحدة وازتْ نبرتها المتضايقة:

- إيه!.. تهمة جديدة زي تجارة الأعضاء كده!..

جذبها على حين غرة يعيدها حيث كانت، يعتصر ذراعها بقبضته ويدمدم بشراسة:

- كنتِ بتحبيه ولا إيه!..

تملصتْ من يده التي آلمتها، تجاهل صراعها، وتضاعف حزم خناقه حول مرفقها، جاوبت بحقيقة وقبضتها تجاهد لتفكيك أصابعه:

- حتى لو ما بحبوش، ده ما يديكش الحق إنك تتهمه زور زي ما عملت مع بابا..

أجبرها على النظر إليه فتلاقتْ مع تهكم نظرته:

- مين قال زور!..

قطبتْ بحيرة قرر منحها على إثرها كامل التفاصيل بسخاء:

- خطيبك السابق المبجل بيتاجر في السوق السودا، بس مش أعضاء بقى.. أوسخ..

ابتلعتْ لعابها بغصة، احتقن وجهها ورمشت ترفض كسرًا غفلت عنه من قبل، خيبة مهد لها طريقها إليها:

- بيتاجر في الـsperm..

تخلصتْ من أسره عنوة، تباعدتْ تجلس بانشداه لا تريد التصديق:

- لأ..

وازاها في جلستها يهدم معبد قدسيتها ومثاليتها الجوفاء على روحها:

- أيوة.. وعندي الدليل اللي كنت هاوديه بيه ورا الشمس، لولا إنه باعك عند أول مطب..

تراجع عقب طعنته يرتكز على ظهر الفراش بأريحية:

- متخيلة كم اختلاط الأنساب اللي اتسبب فيه!..

ادعى التفكير باستهجان:

- لو حبيتِ؛ لما نروح تشوفي بنفسك..

ارتجفتْ شفتاها وغامتْ عيناها بنظرة خاوية..

دقيقة أو أكثر كان يعاينها فيها، يتفحصها كخلية ميتة تحت مجهر دقيق حتى سألته بلوم:

- وليه ما قدمتش الدليل ده للنيابة في جميع الأحوال!..

هز كتفيه بلا اكتراث بارد:

- وسن.. أنا مش مصلح اجتماعي..

وغمزها بوقاحة بينما يحاصرها، يتسلط بطغيانه ويختم أفكاره كذئب قدير:

- غير كده؛ دي ورقة ضغط تنفع وقت الحاجة..

استقبلتْ غارته باستكانة..

الجسد طوع أمره، والعقل شارد فيما خفي عليه لكنه ورقة كما قال..

ورقة تصلح لصفحة من ملحمة البغض الفاشلة تلك، والأقرب لمهزلة..

صفحة ستكون بخط يدها وحروفها..

وبطولتها!..

**

هناك ملاحم لا تحمل عنوانًا يسرد تفاصيل حكاياها..

هذه الملحمة تحمل اسم البطلة دون سواها، فلا يوجد اسم يصلح ليجاورها أو يتمم معها الأسطورة المبتورة..

نهاية الأسبوع، كما هي العادة بمنزل عائلة رجلها الصغير، الجد منشغل بحديقته التي يرعاها بنفسه..

الجدة تجالسها بصحبة حفيدها وبعض اللمز المقصود:

- قابلتِ مالك!..

أبعدتْ عينيها عن هاتفها لثوانٍ ثم عادتْ إليه بلا اهتمام، نبرتها الباردة تصدم العجوز بجرأتها وصفاقتها:

- جالي الشركة..

ربتتْ السيدة على رأس الفتى، تتأمل اندماجه التام في لغز جديد وتفتعل اللامبالاة:

- كان عاوز إيه!..

مطتْ "نيروز" شفتيها وجاوبتْ ببساطة مغيظة:

- عاوز يتعشى معايا..

- وبعدين يا نيروز!.. اتكلمتوا في إيه!..

خرجتْ عن طور أرستقراطيتها المتعالي، واحتدتْ بفضول.. رمقتها بنظرة جانبية ساخرة وازتْ بسمتها المشابهة وإن طالتها استهانة:

- اتكلمنا في مواضيع كتير، طلاقه، قصة الحب القديمة، وعرض عليَّ الجواز..

اعتدلتْ العجوز في مقعدها، ترمق حفيدها المنشغل حد الغياب بما بين يديه، أهدتها تطلعًا ساخطًا، تتوعدها كأنما سترهبها:

- أنتِ رفضتِ طبعا!..

هنا تخلتْ "نيروز" عن الهاتف، أقفلته ووضعته على الأريكة، اعتدلتْ تشد جذعها، تواجه والدة زوجها الراحل بصرامة شرسة:

- هو المفروض أرفض!..

انفعلتْ السيدة بخشونة فظة:

- أمال عاوزة تتجوزي في السن ده بعد المرحوم؟..

وأشارتْ بنظرة مخطوفة لابنها:

- فكري كويس قبل أي قرار..

ضغطتْ شفتيها وأصابعها تنقر ركبتيها بتتابع غاضب أجادت تحييده وكبته:

- والله يا جيهان يا هانم، حياتي تخصني.. أتجوز ما أتجوزش، أنا حرة..

مالتْ بغتة تنظر في عينيها بمباشرة وحشية تليق بأفعى:

- وعلى فكرة؛ ما بحبش التهديد..

أحنت عنقها تتأمل تغضن ملامح الشمطاء باحتجاج:

- بيكون رد فعلي عنيف، ومش متوقع..

تراجعتْ الحماة بوجوم، تدرك أي نوع من النساء تلك التي عشقها ابنها ورحل معها مهاجرًا لأقصى بقاع الأرض بعيدًا عن عائلته وأهله..

"مساء الخير.. عمي قال لي إن آدم هنا"..

صوته.. حزم نبرته وهدوئها، نغمتها الرخيمة التي بدأت تحفز كل مثيرات عصبيتها وحنقها بعد عرضه المفاجئ..

تحرك صغيرها يستقبله، وهو ثنى جذعه يضمه بأبوة حانية، يداعب خصلاته ويخبره بهمس خفيض متآمر:

- عندي ليك بازل جديد، لو كنت أعرف إنك هنا النهاردة كنت جبته..

تدخلتْ زوجة عمه باستهجان متهكم:

- كنت هاته يا مالك، ما أنت عارف إن نيروز وآدم بيكونوا عندنا في الويك إند..

حك عنقه بنظرة محرجة قبل أن يرفع وجهه إليها، يقابل عينيها، غضبها.. مشاعرها المختلطة التي تكاد تخنقه بها..

ابتسم لها فأهدته بسمة جليدية ونادتْ طفلها:

- يلا يا آدم، اتأخرنا وبكرة هنصحى بدري..

استقام واقفًا يخاطبها هاربًا من عيني السيدة المراقبة:

- هو إذا حضرت الشياطين ولا إيه!..

هزأت بنصف نظرة ساخرة وتخطته تجاه باب المنزل:

- اعكسها عشان تبقى صح..

في ملحمتها هي الشيطان.. وهو ليس بملاك، لكنه البشري الطامع الذي أضاع الجنة بثمرة معطوبة..

قادتْ سيارتها عائدة لبيتها، سلمتْ الصغير لمربيته تعتني به، وقررتْ الاسترخاء في حوض استحمامها وسط عطورها الخاصة..

تستدعي ليلة العشاء الملعون، حديثه، نظراته، محاولته للسيطرة.. اقتحامه وغزله وقصته الباهتة التي لم تصدق حرفًا منها..

الرقصة والضمة والختام الملحمي البائس..

"عاوز أتجوزك"..

كانت تدرك أنه يريدها، لكن مباشرته بصك امتلاك دائم باغتتها ولن تنكر..

تراجعتْ تفلت من ضمته، ترمقه بهياج مكبوت.. وتنهي المشهد بكلمة واحدة..

"لأ"..

عادتْ للطاولة تتناول حقيبتها، تعدو للخارج في خطوات واسعة، وهو يهرول خلفها بحيرة حقيقية:

- نيروز.. استني من فضلك..

قبض على مرفقها يوقفها، أدارها إليه فقذفته بنظرة كسهم قاتل:

- ليه لأ!..

وكزتْ صدره بسبابتها دون اهتمام بوقفتهما خارج المطعم:

- عشان أنت ما تستاهلنيش..

ودفعته ساخطة بكفها فتراجع خطوة:

- نيروز بتاعة زمان اللي جاي تدور عليها ماتت، وأنا.. مش عاوزاك..

لم يفهم سر هياجها، سأل عنه بضيق مندهش:

- ممكن تهدي!.. أنا قلت لك مش عاوز أعيد التاريخ، أنا عاوز أبتدي معاك صفحة جديدة..

قهقهتْ بعصبية، تتهكم من وردية أفكار الشاعر المخضرم:

- سوري يا مالك، قفلنا الكتاب..

وغادرته..

الأحمق الذي باع قلبها فيما مضى، أنهى أموره العالقة وعاد إليها بعد وفاة العائق بينها وبينه..

عاد يفتش عن قصة انتهت قبل أن تُكتب..

عاد ينبش عن ملحمته القديمة..

لا يستوعب أن أسطورتها ما عادت تشتهيه، وأن المحارب الشجاع لم يحارب من الأساس..

تحول لجندي فارٍ يستحق أن يُطعن في ظهره بحربة غدر!..

**

ملحمة الشك قتل فيها البطل خائنته، خنقها بفراشهما نتاج حيلة كاذبة حتى لفظت أنفاسها الأخيرة..

لكنه لم يقتل الخائنة، فقط يلهث بالريبة حول كل من تشبهها، كل من عداها..

هو ليس "عطيل" المدفوع بالغرام والخديعة، والغائبة التي يشتاقها أطفاله قد تكون "ديدمونة" التي سينهي حياتها لأن أخرى جعلت من الشك عقيدته، وسوء الظن مذهبه..

أيام كثيرة مرتْ، يفكر..

يستنكر.. يرفض، يعارض الفكرة ويبترها من حزام أفكاره، يغلق عقله عنها، ثم تعود لتطرق بابه بخفوت..

يقتنع.. يتراجع، يُقدم.. يولي الدُبر، يحتار، حتى يأتيه صديق الأمس زائرًا مهتمًا ومعتذرًا:

- اعذرني ماعرفتش أزورك، أنا نفسي كنت عامل حادثة ودُچى كانت في غيبوبة..

استقبله "وجيه"، يصافحه برفق.. يتقبل دافعه واعتذاره:

- أكيد طبعا يا منذر، المهم أنت عامل إيه وهي كمان!..

أومأ الصديق ببسمة باهتة:

- الحمد لله.. أنت والولاد كويسين!..

طمأنه عليهم بهدوء، تسامر معه لبعض الوقت يستعيد ذكرى ما فات بينهما، يضحكان ويحزنان، تتابع المشاعر في فوضى محببة تليق بالمشهد إلى أن سأله "وجيه" بمراعاة:

- لسه بتحبها!..

شرد "منذر" بشجن وملامحها تتجسد أمام عينيه، برقتها وسحرها ونعومتها:

- هي ما حبتنيش..

- يبقى ما تضيعش وقتك معاها..

حسم بها "وجيه" كل الخيارات بقرار صارم، التفتَ إليه صديقه بدهشة حائرة:

- هو ده الحل!..

ربت على كتفه، وشرد يفكر في قضيته الخاصة:

- ده البتر اللي أنت محتاجه..

وربما البتر الذي يحتاجه هو كذلك..

بتر الماضي بمن كان فيه..

وما كان فيه..

بأوجاعه وظلامه وعواطفه منتهية الصلاحية..

بمعادلة محسوبة وبسيطة، طفليه والغد يحتاجونها، هما حتى تعويض جيد عن فقدها..

هو خارج تلك المعادلة، وما يهم.. حشره بها معها..

بعد يومين تاليين من تفكير عسير شاق على نفسه وروحه وقلبه.. وندبة رجولته.. أخبرها أنه يريد التحدث إليها بعد انتهاء عملها بصحبة صغيريه..

لمكتبه تبعته، وقفتْ قرب باب الغرفة مشتتة، متوترة.. تلوي ذراع حقيبتها بخجل حتى تحدث بجدية عملية للغاية:

- مدام رحيل.. في موضوع مهم عاوز أكلمك فيه..

رمقته بنظرة سريعة ومنحته إذن الحديث بهزة رأس صامتة، أشار إليها لتجلس وواجهها على مقعد مقابل..

سحب دفقة من الهواء يملأ بها صدره المختنق.. يحبس معها تردده ويبادر بمفاجأة:

- تقبلي تتجوزيني!..

تفهم صدمتها..

ارتباك عينيها واهتزاز حدقتيها الهاربتين من نظرته.. عناق أهدابها المتتابع بانفلات عن السيطرة..

ربما كذلك استشعر جنون نبضها وتجاهله مردفًا بذات النبرة بعد إغماضة قصيرة:

- الولاد بيحبوكِ، محتاجين لك.. وأنا مش هالاقي أحن منك عليهم..

اقتص وجوده من العرض وترك لها خشبة المسرح، يعلنها في دور البطولة وينهي سرد الملحمة بثبات:

- خدي وقتك في التفكير، هاكون منتظر ردك..

هذه الملحمة منتهية..

تلك الأسطورة محطمة مع أول حرف..

فلا البطلة ترى نفسها في الدور، ولا البطل يريد الظهور بين السطور!..

ملحمة لأجل المجهول..

(30)

الجميلة والوحش..

نعلم أنه لم يكن وحشًا على حقيقته..

وهي لم تكن جميلة وحسب..

هو كان أميرًا وسيمًا ملعونًا..

وهي كانت امرأة ذكية تفيض بالسحر!..

**

في سطور الحكاية كانت جميلة، وكان أميرًا.. حتى سقطت بين مخالب الشيطان فطالتها اللعنة..

أصبحت ملعونة، منفية، ميتة في عرف المجتمع والعشق والأهل..

قبل أيام استفتتْ في حالها، أفتوها أن السِتر كان بها أولى؛ وهي لم تستسغ مذاق الخدعة حتى ولو كانت التورية لها حق.. جهرتْ بالذنب.. كما جهرتْ بالندم، وأعلنتْ العزم على عدم العودة..

بكتْ كثيرًا.. خسرتْ كل ما لها ومن لها، خسرتْ نفسها.. وتلك التي لملمتها من أشلاء المفقودة بالكاد تحيا..

بالكاد تتنفس، تتعايش.. وتستمر لأن عجلة الحياة تدور في اتجاه واحد.. الأمام..

لو توقفت لن تلتفت إليها، ستكمل دورانها دونها، هي حتى لا تمتلك رفاهية التوقف رُغم محاولة وضع بصمتها بحماقة على النهاية.. كما أخبرها عاشقها القديم يومًا..

تلطختْ بعُهر، وماتتْ بكُفر..

شهر وخمسة أيام مروا على وجودها بموطنها الجديد البعيد عن كل من تحب وتحتاج، بدأتْ عملها مع بدايته.. استقرتْ فيه، مهندسة طموحة مجتهدة، ومنغلقة على وحدتها..

تقطن ببيت صغير في ضاحية هادئة، مسارها اليومي محدد روتيني لا يتبدل، العمل، المنزل.. وحاجتها من الطعام والشراب التي تتسوقها كل أسبوع من مركز تجاري قريب..

تقضي وقت فراغها بصحبة صغيريها، صورهما، مقاطعهما المضحكة.. لمعة أعينهما التي تشتاقها وعوقبت بالحرمان منها..

عوقبت وتستحق العقاب..

تؤمن بكونها تستحقه، تستوجبه حتى أنها تكيفت معه وتقبلته قسرًا وإن كان لروحها وصبًا ولقلبها عذابًا..

هي من باعت الجسد للشيطان فسطا على حياتها بيُسر، وأحرقها في جحيم الغدر والإثم..

وهل بعد الخطيئة من نقاء!..

هي الساقطة التي ستدنس طفليها إن بقيت معهما، وهما أولى منها بالطُهر..

لذا فالأمام هو الوجهة الوحيدة والخاتمة التي لا تحوز سواها..

روتين آخر شبه يومي، مكالمة هاتفية لوالدتها قبل خلودها للنوم، تطمئن على أحوالهم جميعًا وتطمئنها عليها في غربتها، كلمات محدودة، مقتضبة تفي بالغرض منها لكنها لا تشبعه..

لا تشبع افتقادها لضمة، لوجبة من يدي أمها، لحديث شغوف في السياسة والهندسة مع أبيها.. وعلى ذكره وُلدت دمعة بين أجفانها فعانقتهما تحجبها..

كان أكثر من أحب ومنح، وأقسى من أبعد وأنكر..

دومًا ما كانت مفضلته، مدللته، بكرية قلبه وحياته.. حتى طعنته في القلب الذي وهبها ملاذها بنبضه؛ حينها منع عنها النبض والقرب والملاذ..

جلستْ على طرف فراشها بجسد مشدود، تستدعي هدوئها، تتعمق أنفاسها ببطء كما في كل مرة تحادث أمها، النبرة المطمئنة التي تفتش عنها، والبسمة التي تتسلل إليها عبر الصوت.. انتظرتْ الرنين لثوانٍ حتى أتاها الرد، نداء الأمل الملهوف المفتقد:

- كده!.. أربع أيام ما تتصليش يا ليلى!..

هادنتها بهمس يترفق بها:

- معلش يا ماما، انشغلت وأنتِ عارفة لما بركز في الشغل بانسى نفسي..

عاتبها والدتها بحزم:

- برده.. مواعيد مكالماتنا ما تهمليش فيها تاني، أنتِ في غربة ولوحدك.. أطمن عليكِ إزاي وأنتِ موبايلك غير متاح أو يرن وما ترديش، وفي الآخر تبعتي لي رسالة كام كلمة وخلاص!..

انزلقتْ بالفراش في وضع جنين، الهاتف على أذنها وتماسكها يشتهي أن ينغرس جسدها كنطفة برحم أمها فلا تغادره حتى الممات:

- اعذريني يا حبيبتي.. انشغلت والله، المهم طمنيني عليكِ أنتِ وبابا وهالة والـ.. الولاد..

نطقتْ كلمتها الأخيرة مبتورة، مخطوفة.. هي تقصد طفليها اللذين تزورهما الجدة على فترات متباعدة قدر استطاعتها، وهي لم ترهما منذ أكثر من أسبوعين، صمتتْ تفكر قبل أن تهديها راحتها ولو بكذبة:

- اطمني عليهم يا ليلى، في حضن أبوهم..

انتبهتْ لكلماتها.. أدركتْ أن ابنتها تتوق لذلك الحضن، تموت إليه شوقًا فعدلتْ بسرعة:

- المهم أنتِ.. قولي لي أخبارك!.. اتعرفتِ على حد ولا صاحبتِ حد!..

ابتسمتْ "ليلى" بأسى مجهد:

- صعب تكوين صداقات في السن ده يا ماما، ما بقاش سهل أتفاهم مع البشر..

واستها أمها بحنو:

- طول عمرك كنتِ اجتماعية وبتحبي الناس..

- كنت...

وتلك الـ "كنت" ربما لا تشمله..

هو لم ينتظر منها خطوة، بل بادر بكل الخطوات.. باقتحام وجرأة لم تعتد التعامل مع مثلها..

"إياد كساب"..

الثلاثيني الوسيم، ساحر النساء، وفي رواية رومانسية تقليدية "دون جوان"..

المهندس الناجح في زي رجل الأعمال، مالك الشركة الهندسية التي تعمل بها، الصديق الموصى من قبل "نيروز رستم" للعناية بأمورها.. خارج دائرة نسائه!..

لكن يبدو أنه ليس فتى مطيعًا في كل الأحوال.. فمنذ اليوم الأول الذي ظهرتْ به بشركته وهو يتابعها، يهتم، يتأمل.. ينشغل بها ويشاغلها..

كانت لونًا مختلفًا لم يألفه من قبل، وحدها على الدوام، ابتساماتها المجاملة محدودة ورسمية، متباعدة عن الجميع.. وهادئة، هادئة للغاية حد أن كلماتها يحصيها في كل لقاء، ومع كل مشروع تعرضه عليه.. تابعها لأسبوعين، في الثالث بدأ يغير فحوى الحوار، يبعد العمل ويتحدث عن نفسه.. وفي الرابع أراد الحديث عنها..

هو الخبير في دنيا نون النسوة، تحيره تاء مربوطة منزوية في ركن قصي.. تشده، تمتلك عليه أفكاره بغموضها، وفرارها المتكرر من محاولات انفراده بها، راجع سيرتها الذاتية خمس مرات، وفي كل مرة يتوقف عند حالتها الاجتماعية..

"مطلقة"..

أتراها عاشقة!..

نظرتها الشاردة، هاتفها الذي تتصفحه عند خلو سطح مكتبها مما يشغله، ابتسامتها الحزينة وهي ترمق شاشته..

تبدو له وكأنها بلورة سحرية، وهو ليس الساحر هنا.. هو المشعوذ الذي سيكسر تعويذتها، ويمتلكها..

استغل استراحة الغذاء، انشغال بعض موظفيه بوجبات خفيفة، أما هي فاكتفت كعادتها التي حفظها بكوب من العصير البارد، تتبعه بقهوة منكهة بالكراميل، كذهب خصلاتها..

طلبها بمكتبه، هناك أخرج عدة شطائر من مطعم شهير للوجبات السريعة، فردها على طاولة جانبية أنيقة وأشار إليها لتجاوره:

- بصي.. هو كده كده الدايت هيبوظ..

ورمقها بنظرة ماكرة لا تخلو من جرأته:

- ولو إني ما أظنش إنك بتعملي دايت..

ظلتْ على وقفتها المستغربة فترك هو جلسته واستقام يقترب منها، يمد يده بشطيرة دسمة ويبتسم باهتمام:

- ملاحظ أنك ما بتاكليش كويس..

تباعدتْ خطوة قبل أن تهز رأسها برفض:

- هو حضرتك بتلاحظ كل الموظفين عادي!..

نفى بثبات مباشر:

- لأ..

ونظر في عينيها دون مواراة:

- مركز معاكِ أنت وبس..

ألجمها.. ضايقها، تراجعت أكثر بينما تتأهب لاستدارة ورحيل:

- آسفة.. مش متعودة آكل في الشغل..

- ليلى..

لم يتحرك، لم يتبعها، لم يحاول لمسها..

فقط ناداها بلهجة حازمة أجبرتها على التوقف، تخطاها، أغلق باب المكتب فرمته بنظرة حذرة ابتسم لها ببساطة لا تناسب المشهد:

- خايفة مني؟..

عقدتْ حاجبيها بضيق تستعيد عنفوانها السابق، عمليتها وجديتها:

- العفو حضرتك.. أكيد لأ..

وأردفتْ بعد لحظة سكون بنبرة بها شيء من توجس:

- إيه اللي ممكن يخليني أخاف!..

هز كتفية بأريحية غريبة استغربتها:

- بيقولوا إني بتاع ستات..

كأن المعلومة تنقصها..

نعم يشاع عنه ذلك، وما خفي ربما كان أعظم.. لكنها لا تكترث، هي هنا للعمل فما يهمها إن كان رب عملها يقضي لياليه بين أحضان النساء..

تنهدتْ تظهر لامبالاتها:

- دي حياة حضرتك الخاصة، ماليش علاقة بيها..

اقترب خطوة، يكسب نبرته عمقًا دافئًا، يمرر فوق أحرفه وقعًا ثقيلًا مؤثرًا:

- بس أنا مش عاوزك تصدقي الكلام ده..

ارتدتْ خطوة مقابلة حائرة، رفعتْ وجهها إليه لا تدري مقصده حتى أوضحه:

- يهمني ما تصدقيهوش.. على الأقل من وقت ما عرفتك..

ارتجفتْ بارتباك..

عندما هجرت موطنها وقرب أولادها، حينما أتت إلى هنا.. كانت تريد العمل وحسب، أن تدور مع عجلة الحياة بنمطية باهتة حتى الموت..

نسيت أنها امرأة.. نسيت أنها أنثى خلابة..

نسيت أنها تحيا بالفعل!..

لم ترغب أن تحيا من الأساس..

ثم أتى ذلك الرجل الذي يخيفها، يربكها، يحيرها.. واقتحم خلوة روحها، في كل مرة بتقارب مختلف.. والآن اقتحامه أكثر جرأة وصراحة..

وجدته يتحرك ذات الخطوة نحوها ثانية، يهمس بمشاكسة:

- كل راجل بيكون بتاع ستات..

تنقل بين حنايا ملامحها بتأمل مفتون، عسل مقلتيها.. خصلاتها التي عادت لها ذهبيتها.. وردية شفتيها، ونعومتها.. يغازلها بنظرة والبسمة تعلن العبث وإن كان لطيفًا محببًا يشبه خجل عينيها، وهروبها:

- لحد ما يقابل الست اللي بتموت في عينيه كل النساء..

جاهدتْ لتمنع ضحكة خافتة لكنه التقطها، أمال رأسه ووجهه وتوسعت البسمة بجاذبية تناسبه تمامًا:

- حد قالك قبل كده إن ضحكتك تخطف!..

اعترضتْ تنشد الخروج من هذا المكان:

- إياد بيه!..

- بتوقف القلب لتلات ثواني..

لم يأبه لاحتجاجها، أكمل طريقه كأنما يعلم جيدًا ما يمكنه فعله:

- طيب يرضي مين ده!..

أظهرتْ استيائها وأكسبتْ لهجتها شيئًا من حدة تمنعه:

- إياد بيه من فضلك..

زفر يستمتع بلعثمتها في نطق حروف اسمه، يهمس بانفعال رجولي يهاجم به نقاط ضعف أنوثتها:

- إياد.. إياد بس يا ليلى..

- عن إذنك..

همهمتْ بها في عجالة قبل أن تدور حوله، تفتح الباب وتنطلق عبره كرصاصة تائهة أطلقها سلاح فاسد..

تابعها لوهلة بنظرة مبهمة بإثرها ابتسم..

تلك الجميلة ملعونة..

وهذا البطل الجديد، مجهول..

أتراه أمير يليق بحالمية حكاية خيالية؛ أم وحش مستقره جحيم الشياطين!..

**

هنا الجميلة كانت ذكية..

سقطت في غرام أمير..

لكن يبدو أنها لم تكن بالذكاء الكافي لتدرك؛ أنه في حقيقته كان الوحش!..

والوحش لم تحجب اللعنة وسامته، لا.. هو وسيم، أنيق، راقي.. استطاع غرس أنيابه بقلبها في لحظة غفلة، في لحظة سقوط..

أفاقتْ والليل يسدل أستاره على السماء، المنزل مظلم، هدير البحر يأتي من خلف النافذة المغلقة بإيقاع ثابت دومًا ما يخيفها..

استيقظتْ قربه وذراعه يطوق خصرها بتملك متجبر..

أبعدته برفق، اعتدلتْ تجلس على طرف الفراش تفتش عن سِتر، الحقيبة عند باب الغرفة لا تزال مغلقة، لمحتْ قربها معطفها الثقيل، تناولته وحاوطت به جسدها، ربطتْ حزامه بعناية وخطتْ خارجة تفتش عن طعام..

عقب خروجها بدقيقة فتح عينيه، الدفء الذي غاب مع غيابها ونسمات الهواء الباردة عندما لامسته أعلمته أنه وحده..

رُغم أن الذئب يغمض عينًا واحدة حال نومه إلا أنه هنا استغرق في نوم مرتاح خالٍ من القلق، كأنما يدرك أن طريدته لن تفكر في هروب..

أو أذى!..

هي تسن قوانين لعبتها الخاصة، والهروب من شيم الضعفاء.. زوجته التي درسها لسنوات، وعاشرها لأشهر لا يمكن أن توصف بالضعف..

اغتسل ينعش جسده بالماء الدافئ، فتح الحقيبة التي اندهش من وضعها المغلق، ارتدى ثيابًا ملائمة وذهب يبحث عنها..

وجدها خلف حاجز المطبخ، تقضم ثمرة برتقال بجوع ظاهر، تتلذذ بها وبالسائل الشهي، ترفع عينيها إليه مع مكر نظرته التي درستْ تفاصيلها في ثوانٍ، وذهنه يستنتج أبعاد الصورة الكاملة..

معطفها، وقفتها، ارتباكها مع ظهوره، وتبريرها المبادر:

- جُعت، قمت أشوف حاجة آكلها..

اقترب يقف على الجانب الآخر من الحاجز، يلتقط بعضًا من الثمرة ويمضغها:

- بالبالطو!..

هزتْ كتفيها بسلاسة بدتْ عادية، بريئة:

- كسلت أفتح الشنطة..

مط عنقه يتأمل الظاهر من بشرتها خلف طرفي المعطف بنظرة عابثة:

- واضح..

قطبتْ بضيق وغيرت الحوار تعلن غيظها:

- هنتغدى إيه!..

فكر لهنيهة قبل أن يسألها بسخرية طفيفة:

- بتعرفي تطبخي!..

عاندته بتحدٍ:

- أيوة..

ثم تراجعت بتردد حانق:

- يعني.. شوية..

التف يدلف للمطبخ الصغير، يفتح إحدى الخزائن ليتفحص محتواها:

- نطبخ سوا..

لاحظ صمتها الطويل عقب جملته فاستدار إليها، وجدها ترمقه بدهشة غير مصدقة رسمت بسمة رائقة فوق ثغره:

- مستغربة ليه!..

بدلت نظرتها لاستهجان مكابر:

- عمار الديب هيقف في المطبخ مع المدام ويطبخ!..

ضحك باستمتاع واعتدل في وقفته قبل أن ينحني نصف انحناءة مسرحية:

- مواهب متعددة..

تناول شيئًا لم تميزه إلا عندما رفعه في مواجهة بصرها:

- مكرونة وبانيه!..

ظلت تناظره بدهشتها قليلًا، بعدها ابتسمت وخطتْ تجاه الغرفة:

- ماشي، هاخد شاور وآجي أساعدك..

بعد عشر دقائق عادتْ إليه، خصلاتها المبتلة شبه مصففة، بكنزة صوفية تماثل لون عينيه، وسروال قطني يناسبها، وجدته يقف عند النافذة المفتوحة على مصراعيها في مواجهة البحر، يستوعب ظلام الأفق، هدير الموج العنيف، ويتلقى ضربات سياط الهواء البارد باستغراق كامل..

ظلت خلفه تراقبه بشرود انتزعها منه بسؤال غامض:

- لسه بتخافي من البحر!..

تحركتْ تجاوره، تضم كتفيها بكفيها وتمسدهما برجفة تناسب برودة الطقس وحمامها الذي لم يمر عليه وقت كافٍ.. تطلعتْ للأفق بالمثل، غابتْ فيه وأجابتْ دون التفاف:

- وأكتر..

أضافتْ بلهجة جامدة لا تنذر بانفعالاتها:

- خصوصا بالليل..

أدار وجهه إليها يتأمل جانب وجهها بصمت:

- مش عارفة آخره إيه..

قررها كما أخبرته مسبقًا فصدقتْ على تقريره بيسر:

- عمره ماكان واضح، موجة ورا موجة، بتكسر الشط وتتكسر عليه، تغير ملامحه وينهي هو حياتها..

رفع حاجبًا معجبًا بتفنيدها الحقيقي والبسيط بذات الوقت، جذبها إليه يطوقها، تميل رأسه وبصره يحاوطها باستحواذ:

- دي فلسفة الخوف ولا الحب!..

نفتْ دون تزمت:

- ما بحبش البحر..

عقد حاجبيه وداهمها بنبرة قاسية:

- والخوف منه مش هيفيدك ولا يفيده، إيه يعني بني آدم ضعيف خايف من موجه.. مجرد بشري ممكن يغرق في قاعه من غير مقاومة أو محاولة نجاة!..

تأملته تفكر في إسقاطه المختبئ بين حروفه، ظلتْ على سكونها حتى تغضن جبينه بتمعن، رفعتْ كفها تتحسس خشونة وجنته، تفردها فوقها وتهمس بتفكير:

- إيه يعني!..

ابتسمتْ بغتة تهديه جوابًا اهتدتْ إليه للتو:

- تقدر تقول فلسفة الانبهار..

رفع حاجبيه بإعجاب وعادتْ لجانب فمه بسمته المراوغة:

- الانبهار بالبحر مباح..

أفلتها وارتد لمسافة قصيرة، مد يده في دعوة لمصافحة:

- هدنة!..

تأملتْ يده بدهشة مفتعلة ولهجتها تفلت رُغما عنها متهكمة:

- هو إحنا كنا في حرب!..

قابل عينيها بجمود وواجهته هي بالبرود:

- أنت ناسي إني عمري ما كنت خصم!..

وهزتْ كتفيها بلا اكتراث خامد كمشاعرها معه:

- كنت طروادة المنهوبة..

بإثرها تممت الحكاية الخيالية بنهاية واقعية تاريخية لا مناص عنها:

- والمنتصر عمره ما بيعقد هدنة مع المهزوم، خلاص احتل الأرض ودمرها..

أنهتْ حديثها وغادرته عائدة للمطبخ، تتطلع للقدر باهتمام..

تفتعل اللامبالاة أو تعتنقها لا فارق، تقلب المكرونة بعناية، تبدأ في تحمير قطع الدجاج بخبرة أدرك من النظرة الأولى تواضعها.. تبعها متجاهلًا ما دار بينهما، ساعدها في طهي الصلصة الخاصة، وانتهى المشهد بهما يتناولان الطعام متجاورين على أريكة واسعة بمواجهة فيلم أمريكي قديم..

"الأب الروحي"..

تابعته بتركيز إلى قرب نهايته، متغافلة عن سكونه ومتجاهل هو لوجودها حتى همستْ ببسمة لا تفسير لها:

- تعرف إنك كنت تنفع God father للمافيا!..

سكن يتذوق تصريحها بامتعاض:

- شايفاني زعيم عصابة!..

ضحكتْ تعانده بتلذذ:

- I'm going to make him an offer he can't refuse..

الجملة تشبهك جدا، ودي مش أي عصابة..

نهض يرمقها من وقفته بغضب مصطنع:

- بمناسبة العرض بقى..

ناولها طبقه، أقامها ودفعها تجاه المطبخ:

- اغسلي الأطباق..

استجابتْ ببسمة سهلة، هادئة تليق بهدوء الموقف، تلك الهدنة التي قررها الفاتح العظيم مع أرض فتوحاته بعدما حلَّ فيها الخراب باستعماره..

تبعها يتناول منها ما تغسله، يجففه ويرصه بحامل إلى جواره، تتأمله وتتابع خطواته، خاصة حينما وقف يصنع قدحين من الشاي المنكه بالقرنفل..

المشهد لعين بعيدة عن بؤرة الأحداث المشتعلة دافئ بلا تكهنات، عاطفي.. بل وحالم، رجل يساعد زوجته في جلي أطباق وجبة طهتها بمساعدته، وعقب ذلك يقدم لها كوبًا من الشاي ببساطة أسرة عادية..

تفاصيل ربما تمنتها معه؛ إن لم يكن هو وحش الحكاية.. وحشها حتى النخاع ودون رتوش أو لعنات!..

تفاصيل عشق أجاد نحره بسكين الغدر الثالم، وطعنه بخنجر الخديعة والحيلة والبُغض..

عندما نظر إليها والتقى بشرودها فيه، أحنى شفتيه ببسمة جذابة بترتْ غيابها فبادلته إياها وإن كانت تسخر من نفسها ومما يحدث.. من الأمر برمته:

- المشهد اللي إحنا فيه ده؛ رومانسي قوي.. وكوميدي قوي قوي..

توسعتْ بسمته، دنا يحاوطها بذراعيه برفق، يقربها منه ويهمس لها بخبث:

- طيب ما تعيشي اللحظة!..

تساءلتْ عن هدفه بينما تضيق أجفانها، حط فوق شفتيها بقبلة تعلن الشغف:

- كده كملنا الرومانسية..

ضغط فكها بإبهامه غامزًا:

- اضحكي بقى عشان اللقطة الكوميدي..

استجابتْ بضحكة بالفعل..

ضحكة حزينة، مكسورة، مبتورة.. ومبهمة!..

هذه الجميلة لم تفُز بالأمير، هي محتجزة بعرين الوحش، قيْدُها مخالبه التي تنهشها في كل حين.. بلا رحمة..

هذه الجميلة لن تجدي معها نهاية وردية، ولن تخضع لنهاية حزينة خاسرة.. هذه الجميلة ستصنع خاتمتها الوحشية بيديها..

**

هنا سطور حكاية خيالية كما يجب أن يكون الخيال..

كلا، هو لم يكن فارس الحلم.. وهي ليست الغائبة عن الوعي في انتظار قبلة حب وإفاقة..

لقد كان وحشًا ملعونًا، وكانت الجميلة التي أهدته بقلبها حياة، وبحضورها أمل..

الجميلة الدافئة التي لم تفارق أحضانه منذ عادت لمملكتها معه قبل أسبوع..

العشق أزمة ذويه وناسه..

أحجية القلب ولغز العقل ومنفى الروح، بل متاهتها..

ينبض به الفؤاد في لحظة غفلة، يعلن الاستسلام وتُفَتَّح له الأبواب الموصدة، تستقبله استقبال الفاتحين وهو من الغزاة..

العشق احتلال..

العشق أن تكون له بكل ما فيها، وأن تمتلكه حتى النخاع، أن تستحوذ على ذراته وكيانه وأفكاره وهوسه واختلاله..

العشق جنون..

والجنون حياة..

"غزل" حياة..

فتح عينيه ليقابل نظرتها المغموسة في هواه، حد الغرق والتيه والنشوة، ابتسم بمكره الذي تذوب له وسحبها إليه:

– You were watching me sleeping..

همس بها باستمتاع يذكرها بكلماتها قبل شهور عندما أفاقتْ لتجده يتأملها حال نومها، تعانق جفناها وأراحت رأسها عند نابضه:

– Yes..

خلل خصلاتها بمشاغبة:

– بربع جنيه إنكار طيب!..

اعتدلتْ تعتمد عليه بساعدها في استفهام ناعم:

– وأنكر ليه!.. دي الحقيقة..

تأملها للحظات سكنتْ خلالها كأنما تدرك أفكاره.. تهديه الفرصة ليسقط في هواها..

ببطء.. بجنون.. بتريث.. بهوس..

تهديه الضد والضد وتسقط معه في كل نظرة تراها بعينيه، حاوط وجنتها بكفه فاستسلمتْ إليها تتمسح فيها كقطيطة صغيرة، تمتم بضياع وجد مستقره بقلبها.. بعشقها:

- تعرفي إني كنت تايه!..

لم تستوعب تصريحه.. قطبتْ تنظر إليه بتساؤل عاد معه لشقاوته:

- لحد ما قابلت النداهة..

فهمتْ مقصده فشاب وجهها عبوس رقيق.. ضربتْ كتفه، تحكم بكفها يدفن بباطنها فمه، يلثمها دون شبع بينما هي تحتج:

- وليه ما تقولش mermaid؟!..

رفع حاجبًا ساخرًا يعاندها بعمد:

- عروسة بحر من اللي بيغووا البحارة، بعدين يغرقوهم وياكلوهم وكده!..

كررتْ ضربتها فسيطر عليها يقربها منه، يطوقها وخبثه يتضاعف، نيته تتضح في لغة جسده ونظرته:

- بصي.. هو في جميع الأحوال أنا قابلت الوحش..

بترتْ مبادرته توقفه قبل الاقتراب، تعلن خوفها الذي لا تعلم له نهاية.. تعلنه بكلمات تشبهها:

– I'm not dreaming, right!..

أبعدها عنه قليلًا وابتسم بعبث:

– تحبي أعضِك!..

وكزتْ جانبه الذي تضمه وهي تزوم بحنق لطيف:

– أنت سافل..

اعتدل جالسًا في وضع اتكاء مرتاح، ظهره لظهر الفراش.. جذبها بين ذراعيه، قرب وجهها منه وأصابعه تحتل خصلاتها كما أنفاسه وهمسه الشغوف:

– وعشان أنا سافل؛ عندي حل ألذ..

توقف لحظة.. غمرها بين جفنيه بنظرة أرجفتها، أسقطتها في هواه مرة بعد مرة.. نظرة تخبرها ببساطة أنها امرأته، عالمه، معشوقته وزوجته ومركز مداره..

داعبتْ أنامله فكها برفق والنظرة لا تتبدل، رُغم انتفاخ بطنها الذي يعوق اقترابها منه حد ضمة تشتاقها فقد تمتم بصدق:

– You may dream and it's my job to make it come true..

أراحتْ كفيها حول كتفيه واستهلتْ هي القبلة:

– It already did..

العشق!..

العشق هو حوريته التي روضتْ الضارية.. وأهدتْ وحشيتها السلام..

العشق هو جميلة أنهتْ اللعنة وبدأت السحر..

**

هذه السطور سنمحوها، سنبدأ تلاوة الحكاية دون خيال، فمقصلة الواقع بترت عنقه..

صفحة بيضاء..

رجل عاشر الشياطين حتى صار سيدهم..

ليس وحش الجميلة، وهي ليست أي جميلة..

هي الشمس!..

صفحة بيضاء ملطخة ببشاعة البشر، مرسومة بحرفية الوجع، وخبرة القسوة.. صفحة تبدلت للسواد عندما أدركتْ أن الأبيض لون فارغ، غير حقيقي، وبلا معنى..

الوقت يمر دونه، هو محتجز في أسر أمسٍ شاغرٍ من كل شعور سوى الألم.. ألم اعتاده، استأنس إليه، طوعه، وتمم علاقته به بأن استعذبه..

لا ينسى.. لن ينسى.. ولن يحاول..

الوحشية هي سمة البشر العظمى، لكي تحيا في غابتهم المزدانة بأناقة مزيفة؛ عليك أن تصير وحشًا..

ولأنه كان يجب أن يكون؛ استجاب لبذرة الشيطان وأنبتها بقلبه وروحه..

خلال الأيام الماضية اكتسب عادة جديدة، خمسة عشر دقيقة يقضيها بصحبة جده عقب وجبة الغذاء، لا يتحادثان بكلمة، لا ينطقان بحرف..

كل ما يمكنك سماعه بالغرفة هو تتابع أنفاس الاثنين الرتيب، وصليل السيوف في المعركة المحتدمة بين أعين كليهما..

الحفيد يحمله كل إثم، يثقل كاهله بجميع الذنوب.. يظهر المقت والحقد والرفض.. الجد يتلقى ضرباته بجلد، بثبات.. ويقر بما كان منه حزينًا، بينما كلمات حفيده الأكبر تتردد..

"مش هاعاقب الكره بالحرمان يا جدي"..

كم من تمرُد عاقبه بالحرمان!..

والحقبة الزمنية لا تتوقف عند الصغير، بل قبله بكثير..

في زمان أبيه..

أنهى دقائقه المعدودة مع جده واستقام يرحل عنه لكنه ناداه بهمس متقطع، تصلبتْ خطواته دون استدارة حتى أتاه السؤال:

- لسه عاوز..عاوز تكمل!..

حديثه بات أكثر وضوحًا وإن لم يعُد بكامل قواه بعد، رمقه بنظرة باردة من فوق كتفه وجاوبه باقتضاب جليدي:

- دم ابنك هو حد الكفاية..

غادر، صعد الدرج بتلكؤ والكلمات تجلد نفسه كسوط من نار..

لن يحدث اكتفاء، ما مر من عمر لا يكفيه ثمن..

مر على غرفة الصغير التي يعمل بها أخيه وزوجته حتى شارفت على الانتهاء، الجدران أصبحتْ جاهزة بالفعل، لكنهما على ما يبدو يتعثران في تركيب المهد!..

تباطئتْ خطواته يتأمل بهجتهما معًا، يصله الحديث وتقتحم مسامعه الضحكات:

- أنت شايف إنه كده متركب صح!..

ينصت لرد "يزن" المشاكس بزفرة مغتاظة:

- أنتِ اللي ضيعت الـ manual..

لمحها تتحرك بشيء من ثقل مع انتفاخ بطنها الذي استحوذ على بصره، تخرج من الباب الآخر الذي يفتح على جناحهما الخاص، تزجره بعاطفة هرمونية بحتة:

- مش المفروض تحتاجه على فكرة..

تابعها تختفي وعاد لأخيه المرتبك، الأخ الذي رفع ناظريه ليلتقيه!..

امتد عمر الصمت.. هو على وقفته، كفيه في جيبي سرواله، و"يزن" يجثو على الأرض بإحدى ركبتيه في محاولة لفك ما ركبه بطريقة خاطئة..

تلاقتْ النظرات ونشأ بينها حديث فضولي، طرف يرفضه.. وطرف تغلبتْ عليه شفقته فأشار إليه برأسه:

- ممكن تساعدني!..

تراجع "يعقوب" خطوة واحدة كأنما أجفله العرض، حافظ على حيادية نبرته وإن أراد لها الغلظة:

- أنت مش محتاج مساعدتي..

ينفي أن يحتاجه أحدهم حتى وإن كان في تركيب مهد خشبي لرضيع.. نهض "يزن" يدعوه بإصرار:

- بالعكس، أنا غرقان في شبر ماية..

عندما لاحظ تقطيبته غير المدركة فطن لكونه لم يستوعب مقصده بشكل كامل، تذكر أنه تعلم العربية ليصبح من لم يكُنه في يوم.. ابتسم بتفهم وشرح بسلاسة:

- يعني مش عارف ومحتاج مساعدة..

التفتَ يتأمل الغرفة بعين ناقدة:

- على الأقل تقولي رأيك في آخر إبداعاتي!..

حك مؤخرة عنقه بتفكير وهو يمط شفتيه:

- تعالى شوف الأوضة، قولي ينفع أبقى فنان ولا الدنيا باظت!..

تأمله "يعقوب" بسكون قصير.. مشاعره المكبوتة بسجنه الصارم تجاهد للطفو على سطح ملامحه وينحرها بسكين الفظاظة عامدًا، رُغم الألم المنقوش بين ثنايا الكلمات:

- مش مهم تكون فنان، المهم إنك عملتها بإيديك عشان ابنك..

نطق بها باترة ورحل لجناحه، لم يرَ نظرة الإحباط المستغربة بعيني أخيه الذي عادتْ إليه زوجته بدليل التركيب..

ولم يعِ أنها كانت هناك في ظل لا يلمحها بين طياته!..

كانت هناك تفكر بمقدار العذاب الذي ينازع روحه ويبدو ألا نجاة منه..

الأب الغائب.. هو مفتاح ذلك اللغز، وحله الحاسم..

عندما دلفتْ للجناح تحمل صغيرها رأته بالشرفة، يراقب الشفق بنظرة جوفاء ووجه خاوٍ، رمقته بفتور وأغلقت بابها عليها..

يريدها خصمًا في حرب، وهي دومًا ما كانت مبعوثَ سلامٍ، يبادر بغصن الزيتون..

ليست امرأة تصلح لأرض المعارك، ومعركة الشيطان مخيفة.. هو وحش حكايتها الأصيل، وشريرها حتى الموت..

حبستْ نفسها بغرفتها بصحبة طفلها، الهدوء خيم على المنزل والكل نيام.. سواها!..

أصابها أرق حاد ضايقها، انقلبتْ على جانبها تراقب الصغير النائم، تمرر أناملها حول تفاصيله المقتصة من معشوقها الراحل.. تتخلل

خصلاته وتتنهد بشوق حزين، تتابع أنفاسه.. تستشعر نبضه وتتعلق به..

هو وتدها الثابت، جذر بقائها ولولاه لما كانت هنا.. لما ظلت حية تُرزق..

أنارت شاشة هاتفها تنظر للوقت، الساعة تخطت الثانية بعد منتصف الليل والنوم جافاها بعناد.. أزاحت الغطاء والتقطت زجاجة ابنها، تسللتْ خارج الغرفة بهدوء شديد بعدما واربت الباب من خلفها.. حينها وقع بصرها عليه!..

يقف بالمطبخ دون سترة منامته، خصلاته الحالكة مشعثة، والضوء الخافت يلقي على وجوده بظلال أرسلتْ لجسدها رعدة غير ملحوظة.. تنفستْ بعمق، تستلهم الصبر والتماسك، تجاوره بينما تعقم الزجاجة، وتحضر رضعة مشبعة لتملأها بها..

رأته يصنع كوبًا من مشروب عشبي لم تخمن ما هو، بشرته شاحبة وبرودة الجو تنخر عظامها خارج تدفئة غرفة النوم، لكنه يقف هكذا بلامبالاة مثيرة للغيظ.. والقلق!..

يتجاهلها تمامًا، وتتجاهله في محاولة نصف ناجحة، لأنها لم تكملها، فشلتْ فيها عندما أعلنتْ بهمس متوتر:

- الجو برد..

ظل على تجاهله لها حتى أصابها غضب، كبتته وحضرت الزجاجة، كادت تعود إلى النوم لكنه بتر الفكرة بسؤال:

- خايفة عليَّ!..

همس بها على حين غرة.. خافتة، ساخرة في كل حرف منها ونقطة وتعجب.. مستهينة بجواب متوقع..

جواب فكرتْ فيه لثوانٍ، حاولتْ هضمه وابتلاعه بعسر كغصة تجبرها عاطفتها عليه، كخوفها منه ونقاء فطرتها الذي تشوه بسواده، بعدها أهدته إياه بذات الهمس، خفيض.. حائر، ومكترث كما طبيعة الشمس في كل لحظة منح:

- لو قلت لك أيوة؛ هيفرق معاك!..

قطب بجمود، جميع ما فيه جامد.. جسده، ملامحه، عينيه!..

انفعالاته خابية، منطفئة، مكبوتة بأسر صلب لا ينال منه صدأ المشاعر، أو يبلى مع مرور موجات اضطراب عابرة..

ربما سيعلن غضبه من محاولة اقترابها!..

كلا.. لم يفعل مع طول الترقب، أحبط تخمينها.. فقط سكَنَ كتمثال قُد من صخر.. سيرحل صامتًا دون رد، كعادته كلما غاصتْ في منطقة دافئة لا تشبه صقيع نفسه..

لكنه باغتها!..

حاصرها بحضور مهيمن، ضغطها للسطح الرخامي العالي فأوجع ظهرها، طوق وجهها ونصف عنقها بكفيه وكتم أنينها عندما أسقط فوق ثغرها قبلة كألف انفجار مشاعري يموج بالفوضى..

تيبستْ تحت وقع شفتيه، في جهاد مبعثر لاستيعاب فوضاه..

قبلة انفعالية باقتدار..

غاضبة.. حزينة.. معذبة.. مشتاقة.. باردة.. محترقة..

كالجليد والنار.. كالنعيم والجحيم.. قاسية حد الألم..

تغرق في عتمة روحه وتجذبها معه، حيث لا نجاة من الارتطام بالقاع، من الدفن، من الظلام، شتتها ونفضها في الهواء كهباء منثور فلم تعُد تدرك ما يريد حقيقةً!..

وتلك أبديتها معه..

لمسته لم تكن موجعة من قبل، كانت جافة.. آلية، كانت في سياق امتلاك روتيني حتى تغير، والآن هو يمر بتغيير جديد لا تفهمه.. وتخشاه..

كان يبحث عن مخدر بأحضانها، برائحتها العطرة الناعمة، يبتغي النوم، يشتهيه وأجفانه تصارعه.. تهزمه، أراد منها أن تهديه راحته بحرب لكنها جندي هلوع، رعديد دومًا ما يفر من القتال..

حملها وذهب لغرفة نومه، سقط معها وفيها، نهل من مخدره كيفما شاء.. كان مختلفًا، وكانت حائرة..

حائرة تتساءل بتيه عن عدد الأوجه التي يمتلكها ذلك الرجل، عدد الأرواح، عدد الشخصيات، عدد الأقنعة التي تخفي دواخله باحتراف!..

حائرة في دافعٍ لما نطقته لأجله قبل قليل..

حائرة تستنكر، تكره.. حنوًا عجيبًا اجتاحها لخاطره..

بعد دقائق من غياب، انسلخ عنها بعسر كأنما لا يرغب، جاورها بلا كلمة، واستترتْ هي بغطائه.. لم ترحل، مكثت ترمق المجهول بشرود.. أي عاطفة منحتها له كلماتها ليجد سلواه في امتلاكها!..

امتلاكًا مغايرًا لكل ما سبقه؛ لا يخلو من الرغبة، لكنه يموج بأمنية النسيان.. بالضياع والتشتت، وشيء من غلظة تُعنون غضبًا غير مفهوم أو مسبب.. تمتمتْ دون أن تنظر إليه:

- أنت متغير!..

النبرة تستفهم، وفضول الأنثى لا يخفى عليه..

فضولها.. لا اهتمامها الذي لن يفتش عنه وإن ظهر سيبغضه.. ظل على جموده وكل جوارحه تجيب..

نعم به شيء ما تغير، شيء يجهله.. يريبه.. يؤجج استياءه ومقته لضعف أمسٍ يعكر بشظاياه حاضره..

منذ ظنتْ أنها يمكن تجاريه في سطوته..

منذ ظهر ذلك الكاذب المختل..

منذ أرعبها بشبه موت..

منذ مرضتْ بسببه..

منذ لحظات هذيانها بأحضان أخيه في دنيا الوهم..

منذ أعلن أنها امرأته، ورفضته!..

عند هذه النقطة من أفكاره تضاعفتْ نيرانه، اتقدتْ ألسنة لهبها فطغتْ على الصورة قبالة ناظريه، أصدر لها أمرًا حازمًا مقتضبًا:

- ارجعي أوضتك..

عقدتْ حاجبيها بحنق.. لعنتْ نفسها على شذرات اهتمام لا يستحقه.. ولا يبتغيه، اعتدلتْ تستجيب برحيل، تتركه لوحدته بلا نظرة أو كلمة زائدة..

أغمض عينيه يفكر برد فعلها، برودها، لامبالاتها التي باتت تتقنها وقت الحاجة.. وابتسم شاردًا..

بسمة باهتة لم تعنِ الكثير سوى أنه أجاد اختيار أنثاه..

تعانقت أجفانه في بدايات نعاس كأنما كان قربها مخدرًا بالفعل، أطفأ المصباح المجاور له واتخذ وضعية أكثر راحة..

راحة لم تكتمل ولا يبدو أنها ستفعل في القريب، فقد أضاء هاتفه برسالة حماسية..

"لقد هبطت طائرتي للتو بأرض مصر.. أفتقدُك كثيرًا"..

هذا الوحش تعشقه جميلة..

وهو يشتهي أخرى..

والحكاية لفظها عالم الخيال بعنف..

**

عندما تتخلى السطور عن استقامتها في قلب عاشق ينبض بالجنون، يسلم مقاليد أمره لجميلة لا تراه أميرها..

وتعلم كذلك أنه ليس الوحش..

هو هامش في قصة خيالية لم تكن من بطولته..

قلب عاشق لم يستسلم للفقد، لم يخنع للخسارة أو يخضع للفراق.. قلب يريد، يطارد، يتمنى..

قلب يشتهي الخلاص، لكنه مكبل إليها بحماقة غرام منحور..

والخلاص بالقرب وحده، بالنجاة جوار قلبها..

لثلث ساعة كان يتتبعها في ركضها الصباحي، يبطئ من خطواته ليحافظ على مسافة ثابتة بينهما، بعد انتهاء فترة نقاهتها من الحادث بدأت تزاول عادتها اليومية التي كان يمارسها معها وقت زواجهما..

حقيبة رياضية صغيرة، حلة مناسبة للجو البارد، خصلاتها معقوصة في ذيل حصان، تخفيها قبعة شتوية تلائمها، بأذنيها مسماع الهاتف، وبنادٍ قريب تمارس العدو..

يلمحها تغادر مضمار الركض إلى حيث ملاعب الجولف، اللون الأخضر على مرمى البصر.. راحتها والمفضل عندها..

راقبها تتوقف لاهثة، تنحني لتستند بكفيها إلى ركبتيها، تعُب الأنفاس بعمق وتعتدل لتستأنف نشاطها.. لكنه قرر التدخل وبتر اللحظة بقرب يشتاقه:

- صباح الخير..

أجفلتْ مع تحيته واستدارتْ إليه بدهشة:

- منذر!..

ناولها زجاجة ماء بارد قبل أن يبتسم ويعلن جنونه:

- مش بطاردك، بس وحشني عادتنا اللي كنا بنعملها سوا..

تراجعتْ خطوة تلومه بعينيها فزفر يجهر باستسلامه:

- مش هينفع أبطل أحاول نكون مع بعض يا دُچى..

وقلب كفيه متمتمًا بقنوط:

- حاولت وما قدرتش أكمل..

فاجأته ببسمة خافتة، كانت له كسطوع شمس دافئة من خلف غيمات الشتاء القارص، أشارتْ إليه ليجاورها في مسير هادئ:

- ما تبقاش منذر اللي أعرفه لو يئست واستسلمت..

ابتسم بشجن وعيناه تراقبان الأفق جوار خطواتها:

- شايف إن الحب اللي جوايا يستاهل يعيش، شايف إن مالوش إلا قلبك وطن ينتمي له..

عضتْ شفتها السفلى، أدارتْ وجهها تهرب بتأمل البعيد:

- أنا كمان شايفة إن حبك يستحق يعيش، بس مع اللي يبادلك المشاعر دي..

توقف وأوقفها، أدارها لتواجهه، رفعتْ بصرها إليه لتغوص بحزن نظرته.. ينفطر قلبها لأجله ويُعجزها أمسها الذي لم تطِب جروحه بعد..

همس لها يتساءل مُشككًا في السبيل الذي ابتغاه إليها:

- يمكن أنا قربت منك بطريقة غلط!..

تغضن جبينها بحيرة جاوبها موضحًا:

- كان المفروض أقرب من قلبك الأول، أدور عليه قبل ما أفكر إنك تكوني ليَّ..

خلل شعره بأصابعه بتنهيدة مشتتة:

- أعرفه عليَّ وأطمنه..

وسخر بنصف بسمة مبهمة:

- مش أول كلمة بعد اعترافي بمشاعري تكون عرض جواز..

رمقته بتقدير لم يلمحه، كان غائبًا في أمسه هو الآخر.. في لحظة إقرار بالعشق، لا تناسب رومانسية الفكرة أو رقة صاحبتها، طمأنته تعيده من غيابه:

- بالعكس.. أنت عملت التصرف الوحيد الصح، أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم المباشر..

نفى بنظرة منطفئة:

- بس أنا هدفي ماكانش امتلاكك، هدفي كان قلبك..

رمشتْ بخجل وأبعدتْ ناظريها عنه حين أردف بنبرة صلبة:

- الطريق المباشر مش دايما بيوصل للقلوب..

ثابتْ إليه تهديه نظرة غامضة، نظرة لم يستوعب خباياها، ولا هي نفسها كانت تفعل.. فقط تفتش فيه عما لم تره في المرة الأولى!..

عن العاشق الحنون، عن الرجل الراقي، عن المشاعر الصاخبة التي اعتاد كبتها ليخفف من ضيق خناقها حول عنق خافقها.. تنقب عن تفاصيله التي أغفلتها..

لا يزال فارسًا يصلح لأحلام جميع النساء..

وهي تخطتْ مرحلة الحلم، هي تحيا واقعها بأسوأ ما فيه وأكثره ألمًا وخسارة.. هي التي تجاهد لتجاوز ما فات بينما قدمها منغرسة بفخ الماضي.. تنزف وتئن وتراقب الغد بحسرة..

- إيه الحاجز اللي بين مشاعري وبين قلبك يا دُچى!..

طرفتْ بعينيها في ارتباك، فتحتْ زجاجة الماء تتجرع منها بضع رشفات بتمهل، تهرب من السؤال وتعلم أنه يستحق إجابة تريحه..

تمنحه خاتمة.. أو ربما تمنحها بداية!..

لكن كيف تخبره عن غرامها القديم!..

كيف تؤذيه بحضور آخر بفؤادها الذي حارب هو.. فقط ليتسلل إليه، وكل حروبه باءت بالهزيمة النكراء!..

ابتسمتْ ببساطتها التي تتألق أمام بصره كنجوم الليل وسط مخمله الأسود:

- مافيش حواجز يا منذر، يمكن بس...

بترتْ كلماتها ومعها أنفاسه التي تجمدت على حدود رئتيه تنتظر تتمتها:

- يمكن الخوف..

ضايقه ما نطقت، استنكره بشيء من غضب:

- خايفة مني!..

نفت بهدوء تتفهم فيم استياؤه، تهديه بسمة ناعمة وشيئًا من أمان:

- خايفة من الحب..

فالطعنة إن تكررت لن تتحملها.. الموت سيكون لها أقرب!..

- هو يخوف..

تأملته ببعثرة أجاد بثها في نفسها:

- الحب مرعب، مش أي حد بيقدر يطمن له.. ولا أي حد بيشوف إن الاستسلام هو الحل الصح..

- دايما بكره الاستسلام..

- وأنا في كل معاركي كنت بحارب لآخر نفس..

ثم اقترب خطوة أغرقته في موج مقلتيها:

- إلا معركتي مع حبك؛ استسلمت قبل ما أرفع سلاح..

رجفة قوية مرتْ بكامل جسدها، أصابتْ خلاياها في نقطة ضعف دفينة فنثرتها.. بدَّدَتها، تركتها على أعتاب الشتات والتيه..

رجفة جمدتها في حصار لا خلاص منه بين جفنيه، همسه، نبرته، اعترافه الذي لم يتأثر..

تتيمه الذي تنطق به كل خلجاته وسكناته..

همستْ باسمه مذعورة مما مرتْ به للتو، فطمأنها باحتوائه، برفقه وابتسامته، بالابتعاد بها عن مواطن الخطر قرب ألغام المشاعر:

- إيه رأيك نتغدى سوا!..

أفاقتْ بتراجع متوتر:

- متعودة أتغدى مع أبو علي يوم الجمعة..

شاب بسمته نذر يسير من مرح:

- خلاص اعزميني، متأكد إنه مش هيتضايق..

أنكرتْ بهزة طفيفة من رأسها:

- أنت عارف إنه بيحبك..

عيناه أخبرتاها بلا تكلف أو حواجز، أنه يتمنى حبها هي..

استدارتْ عائدة نحو مضمار الركض وسؤالها يبهج روحه:

- تحب تتغدى إيه!..

هي جميلة.. بل أجمل الجميلات بعيني العشق..

حكايتها خالية من الوحوش واللعنات..

حكايتها تشبهها.. وتشبهه..

**

في حكايتها؛ هو قام بدور جميع الوحوش..

وفي حكايته.. في حكاياه لم تكن الجميلة، لم تكن كافية، لم تكن امرأة كاملة تغنيه عمن سواها..

هو الوحش الذي رأته في كل يوم، وغضتْ الطرف عنه..

أرادت أن تصدق في لعنته، أن في حبها شفاءه.. أرادت أن تعيد قصتها لدنيا الخيال، فقام هو بفصم عنق الأمل.. وترك نزفه يغرقها بحقيقة واحدة..

هو ليس ملعونًا.. هو اختار!..

وهي تسعى لاختيار جديد، اجتهاد، عودة لعمل باتت تكرهه، ومربية استقدمتها بدوام مؤقت للعناية بصغارها حتى عودتها..

في البداية كانت ترتجف كلما مر أحدهم في محيطها، ذكرًا أو أنثى.. كل صوت ينتفض له جسدها بلا وعي، بعدها تأقلمتْ..

تكيفتْ مع كونها بين جموع البشر، أن الاحتكاك ضروري.. والنجاة لن تكون في الوحدة..

أما الليلة فقد خاطرتْ بالتحضير لأحد حفلات جمع التبرعات الخاصة بالجمعية التابعة لها، لدعم النساء اللواتي تعرضن للتعنيف والضرب من أزواجهن..

الحفل بدأ جيدًا، لكن في منتصفه ظهرت بعض المشاكل، خلل ما وثغرات في التنظيم جاهدت لملئها وحلها قدر استطاعتها..

مع نهايته أدركتْ ببساطة أنها فقدتْ نفسها أكثر، فقدتْ مهارتها الاجتماعية، خسرتْ خبرتها المكتسبة لسنوات بغمضة عين..

بطعنة قلب..

بانتهاك لم تزُل أثاره عن روحها ولن تزول..

وقفتْ بركن تراقب رحيل المدعوين عن الحفل، لم تلحظ اقتراب رئيسة الجمعية منها، مجاورتها لها إلا عندما نطقتْ بتوبيخ صارم:

- الحفلة زي الزفت يا هالة..

استدارتْ إليها، أبعدتْ خصلة نافرة عن وجهها وابتسمتْ بتعب مرتبك:

- أنا آسفة يا مدام مارية، حقيقي مش عارفة اللخبطة دي حصلت إزاي!..

عقدتْ السيدة الخمسينة ساعديها بحزم:

- أنا عارفة..

فردتْ أحدهما تربت به على كتفها بشيء من تفهم:

- الطلاق مش سهل يا هالة خصوصا بعد العشرة دي كلها..

مالتْ تضع حقيقة وحيدة تؤمن بها نُصب أعينها:

- ومادام هو باع؛ يبقى أنت تاخدي حقك من الحياة وتعيشي..

بعدها أفندت بنسوية لا تخلو من صدق:

- ماتزعليش إنك اخترتِ غلط، أنا عملت زيك.. واتطلقت بعد خمستاشر سنة جواز، بس أهو.. المرة التانية عرفت أنا غلطت في إيه وتجنبته..

ثم غادرتها بنصيحة تتمم المشهد الذي ترسمه في مخيلتها، ولا تدري عنه سوى رتوش باهتة معلنة:

- مش لازم نكون دايما بنختار صح؛ المهم نتعلم من اختياراتنا الغلط..

إثر بضع خطوات توقفتْ، أدارت وجهها نحوها، لامتها بقسوة مقصودة:

- آخر مرة هاسمح بالأخطاء دي يا هالة، ركزي في شغلك زي ما أنا متعودة منك..

شاهدتها ترحل مع الراحلين.. حفل مفتوح بحديقة أحد الفنادق الفخمة، بدأ قرب الغروب وانتهى في الحادية عشر مساءً، حفل اعتادت تنظيم مثيله ألف مرة لكن هذه المرة تختلف..

هذه المرة هي لا تشعر بنفسها..

تبغضها..

تُحرقها وترى فيها الدنس والإثم..

هي التي فتحت بابها للشيطان، فتجاهله وحطمه فوق رأسها مقتحمًا كل خباياها..

ذلك الانتهاك لم يكن لجسدها الذي امتلكه في ماضٍ قريب؛ بل كان لقلبها الذي عشقه.. وروحها التي ظنتْ فيه ملاذها ومستقرها..

ارتدتْ معطفها الثقيل فوق ثوبها الطويل المحتشم، تناولتْ حقيبتها واتجهت إلى المرآب الضخم حيث تقبع سيارتها..

ثوانٍ وسمعت حفيف أقدام من خلفها..

ارتفع هدير نبضها لحد موجع، شعرتْ به يطرق ضلوعها في محاولة لكسرها وتمزيق صدرها..

هرولتْ في خطواتها فوازتها خطوات الآتي يتبعها..

تعثرتْ، لهثتْ، لم تلتفت.. كل كيانها يصرخ فيها بألا تلتفت وإلا ستسقط..

الفرائس دومًا تسقط بين مخالب الضواري عندما تنظر إلى الوراء..

عقبها ركضت، قرب باب السيارة أخرجت المفتاح، انزلق من بين أصابعها المرتعدة المذعورة.. انحنتْ تلتقطه وجاهدت لتضغط زر أمانه حين سمعتْ النداء الذكوري المستغرب:

- مدام هالة!..

انتفضتْ.. شهقت، أوشكتْ على صرخة حجبتها بكفها وانكمش جسدها بينما يدها تفتش عن مقبض الباب بجنون..

- مدام هالة، حضرتك نسيتِ موبايلك جوا..

تنهدت بأنفاس متتابعة مبتورة، لا تشبه الراحة ولا تنالها، استدارتْ بحذر، رأتْ أحد العاملين بالمكان يمد يده بهاتفها إليها:

- أنا آسف.. ما قصدتش أخوف حضرتك..

أمسكتْ به وهزت رأسها تتقبل اعتذاره بلعثمة:

- لا ما حصلش حاجة، بس المكان ضلمة شوية..

ابتسم الشاب العشريني الأسمر بطمأنة:

- وأفلام الرعب كلها بتحصل في الجراج..

بادلته بسمة متوترة، أومأتْ له ممتنة ودخلتْ لسيارتها بعجالة..

استكانت بمقعدها تتشبث بالمقود بكلتا كفيها، تكابد هلعها في إعياء، تخضع للخوف وتبكي..

تنهمر دموعها بفيض مرتعب، تأسى لحالها وتنعيه..

تفتح درج السيارة وبحلق جاف تبتلع ثلاثة أقراص من مهدئها الذي باتت تحمله معها على الدوام..

هذه الجميلة هي من أصابتها اللعنة..

فقد نجا الوحش وفر من حكايتها، ليبدأ حكاية أخرى!..

**

بين هذه السطور، هي ليست الجميلة.. وهو ليس مجرد وحش!..

هي امرأة تعثرت بعشقه، وهو أمير مزقته اللعنة، هتكتْ فؤاده فلم تُبقِ منه سوى مخالب القسوة وأنياب الغلظة..

شيطانًا يستحق الحياة وتستحقه، حتى وإن امتلك نقاط ضعف أو سيطرتْ مثالية مندثرة على أفعاله بين حين وآخر..

عرض الزواج وبعد تفكير وافقتْ..

وافقتْ لأجل هواه بقلبها..

وافقتْ لخاطر طفليه اللذَين منحاها تعويض الفقد والألم..

وافقتْ لأنها تحتاجه، وتوقن من احتياجه لها حتى وإن لم يصرح به، حتى وإن علمت أن معشوقته الراحلة تمتلك عليه كيانه كله.. يكفيها فقط زاوية قصية من قربه..

جادلها والدها في الأمر، أصرت وأصابه خوف عليها، على ضعفها المكشوف له، على كسرها الذي لم يلتئم بعد ولو جبرته واستمرت..

أصابه قلق من رجل يعرفه.. يحترمه، ويخشاه!..

أخبرها بفكر أب مهموم:

- كل اللي اشتغلوا معاه عارفين كان بيحب مراته قد إيه..

جاوبت بهروب لم يخفَ عليه:

- أنا مش بدور على حبه يا بابا، أنا وافقت عشان هو راجل كويس.. مش هيهينني، وعشان ولاده اللي حسسوني إني ممكن في يوم أكون أم..

استغلتْ نقطة ضعفه نحوها وضغطتها، ضغطتها بوجعها ونقصانها الذي ينهرها كلما أشارت إليه:

- أنا خايف عليكِ..

ضمته واستكانت فوق صدره تتعلق به، بينما أمها تراقب من طرف خفي:

- وأنا بحس بالأمان طول ما أنت بتحميني وبتخاف عليَّ، بس اطمن..

أغمضت عينيها وقلبها ينبض بتيه:

- وجيه راجل ما يتخافش منه..

وقد كان.. كان الخيار والقرار والتوثيق..

عدة أيام تالية.. استعد كلاهما لعقد القران الذي أصر والدها أن يكون بمنزله المتواضع، وقبل "وجيه" دون تردد..

عانق يده بكفه..

ترك لعينيه الوصاية، وكلماته تملكه منها..

"زوجتك ابنتي"..

قرة عيني ووحيدتي ونديمة روحي..

وهو استقبل الوصاية والملكية بثبات:

- قبلتُ زواجها..

خالية من المشاعر والتكهنات، لا تفي بالغرض منها وإن كان طمأنة..

رحلت معه لمنزله بحقيبة ضخمة تحوي ثيابها وما يهمها، رحلت معه وساد صمت ثقيل طوال الطريق.. عندما وصلا كان طفليه في استقبالهما..

الفتى ركض لأحضانها بلهفة:

- هتخليكي معانا!..

انحنتْ تجلس القرفصاء لتناسب قامته، تشعث خصلاته وتهدي جبينه قبلة دافئة:

- أيوة يا باهي.. مبسوط!..

هز رأسه بإيقاع سريع مبتهج:

- مبسوط قوي..

اقترب يهمس في أذنها بصوت مسموع:

- هتخليني أنام في حضنك زي مامي ما كانت بتعمل!..

"مش هتاخدي مكان مامي"..

خرجت عنيفة، حادة من الصغيرة التي وقفت تراقب المشهد بعين تحترق بالغضب، تتأمل سكون أخيها بين ذراعي غريبة، تشاهده يستكين لها ويفتش فيها عن أم رحلت.. لذا قررت بتر اللحظة قبل جواب لا تريد سماعه..

نهرها والدها بشيء من ضيق:

- ضي!..

أدارتْ إليه عينيها الخاليتين من العبرات بنظرة شرسة:

- مش أنت اتجوزتها!..

تنهد وأومأ موافقًا، تلقتْ رده كصفعة على وجهها الصغير رُغم سكونها، سالت دموعها مع إقراره وركضتْ هاربة إلى غرفتها:

- أنت وعدتني إن ماحدش هياخد مكان مامي..

تابعها ببصره وهي معه، استقامتْ واقفة تستند لكتفي ابنه، تلتقي بعينيه.. تبادر بذهاب خلفها فيمنعها بحسم:

- هاشوفها أنا.. تعالى يا باهي..

أطاع الفتى والده الذي حمله، رمقها من فوق كتف أبيه ببسمة متسائلًا و"وجيه" يصعد به الدرج:

- هنفطر مع بعض!..

ودعته ببسمة حانية ودموع قلبها تستهل النزف:

- هاعملك الفطار اللي بتحبه..

اختفى الاثنان، ظلتْ جامدة بمكانها لا تدري إلى أين تذهب!..

ذلك الشوط الطويل الذي قطعته مع ابنته، عادتْ فيه خطوات كثيرة إلى الوراء.. خطوات جاهدتْ ألا تفكر فيها، فهزيمة جديدة تلوح بالأفق..

بعد ربع ساعة رأته يعود، يهبط بتمهل، يقترب ويتأملها بنظرة لم تفهمها، يهمس بلا معنى:

- لسه واقفة في مكانك!..

هزتْ كتفيها بخجل وأخفضتْ وجهها:

- ما عرفتش أروح فين!..

مط شفتيه وسخرية الموقف تثير ضجره..

حمل حقيبتها، أشار إليها، في الطابق العلوي وقرب غرفة تجاور غرفة صغيريه توقف، فتح بابها وتراجع يفسح لها طريق الدخول.. خطتْ للداخل بارتباك، سمعته يتبعها.. يترك الحقيبة من يده ويصمت تمامًا إثر جملة مقتضبة:

- دي هتكون أوضتك..

التفتتْ إليه بحياء شاع في وجنتيها بحمرة رقيقة عقد لها حاجبيه، عقلها يدور في دوامة مهلكة.. لا تدرك مقصده، ولا تستوعب كونه تزوجها لكنها لن تكون زوجة!..

بزفرة قصيرة ويديه تنسلان إلى جيبي سرواله بادر بجدية:

- في كام نقطة محتاجة تتحط على الحروف..

رمقته بحيرة متسائلة لم يتوقف عندها:

- أنا اتجوزتك عشان الولاد؛ مش عشاني..

ارتجفتْ شفتاها بشتات جواب لا تملكه، أكمل هو بآلية:

- أنا مش عاوز زوجة، ولا محتاج ست في حياتي..

ابتلعتْ لعابها، أبعدتْ ناظريها عنه بحرج وأفكارها تتطاير بأرجاء الغرفة كرماد نثره الريح:

- كل اللي يهمني ولادي، وأعتقد إنهم كمان يهموك، ووجودهم تعويض مناسب ليكِ..

كان جافًا للغاية، باردًا، يعرض صفقة منتهية..

جفافًا تعرفه، برودًا لاقته من قبل.. لكنه لا يشبه من نفض تراب الأسى عن روحه بضع مرات معها..

- كل علاقتك هتكون مع ضي وباهي..

ساكنة، واجمة.. وهو مستمر بتعليماته كآلة عليها أن تنهي عملًا ما دون أية اعتبارات:

- أنا اعتبريني ضيف في حياتك، مجرد أبو الولاد اللي هيكونوا من اللحظة دي ولادك..

كرر زفرته وإن كانت أكثر عمقًا وحرارة:

- بس كده..

تراجع يغادر، يغلق الباب ويتركها لوحدتها بكلمات تقليدية لا تناسب ليلة عرس:

- تصبحي على خير..

أكان وحشًا!..

أهو أمير ملعون!..

هل ستكون الجميلة التي تعيد لروحه الحياة بسحر!..

أم أن تلك الحالمية لا تناسب واقعية الحكاية!..

(31)

لكل شاعر تحفته الأنيقة..

ولكل رجل امرأة هي كبوته..

سقطته.. زلته..

عشقه.. ألمه..

خسارته.. نهايته..

**

في لغة الشعراء..

هي شطر بيت لن يكتمل أبدًا، كاتبه تذوقه في البداية بتلذذ تام ثم أسقطه من قصيدته عمدًا، أهمله كأنها لا يستحق..

وهو!..

هو ليس بشاعر يتذوق أوزانه بتقدير..

بل فقط يريد ابتلاع الشطر المنسي وتلك مزاجيته الخاصة..

أن يلتهم حروفه بتمهل، ويمضغها بتأن فينال كمال اللذة..

ينالها بخياله، بيديه، يقتنصها ويظفر بها كمغامر عاشق للخطر، والقفز من فوق جبال السكون..

ربما كان سيفعلها، يمتلكها كما يخطط.. يكسر لعبته أو يمارس معها ألاعيبه مثلما يشتهي؛ لكن القدر عانده، ببساطة.. سافرت!..

مع رحلة أخيه وزوجته وغيابهما عن المنزل، استأذنت اللواء الشرفي للبيت.. السيدة "وسيلة" وذهبتْ في زيارة لأهلها بقريتها البعيدة..

فأرته هربت دون هروب فعلي، انفلتت من بين مخالبه ولا تعلم أنها نجت بقدر..

اليوم صباحًا عادت، قبل وصول أخيه بساعتين، حملت له إفطاره بغرفته ولم يحادثها بكلمة، لم يلتفت لها أو يولِها شيئًا من انتباهه، قواعد اللعبة تقتضي شعور الفأر بالأمان والفضول.. وكليهما تحققا مع صمته وتباعده..

لم يتناول طعامه، عندما عادت إليه وسألته عن السبب اكتفى بصمت شارد وملامحه ترسم بعض ألم مباح.. ومفترض..

والآن.. ليكمل خطته!..

يعلم موقع غرفتها، كم خطوة ليصل إلى بابها دون تعثر في ظلام الكون وظلامه الخاص.. فتحه بهدوء، دلف إليها وواربه.. تركه مشرعًا بعض الشيء ليهديها أمانًا يعلم أنه أول ما ستفتش عنه..

خطا للفراش بثبات، أنصت لأنفاسها المنتظمة لدقيقة، بإثرها همس باسمها، همسًا خافتًا مقصودًا ألا يوقظها.. كرر النداء، مد أصابعه يضغط كتفها برفق انتفضتْ معه..

اعتدلت شاهقة تتراجع حتى الجدار الذي يجاور فراشها بفرار غير متقن، فهي الآن تقبع في زاوية يسهل نهشها منها..

لكنه ليس هنا لينهشها، هو يريد التهامها بمذاق راغب..

الخوف ليس شهيًا عندما تنبض به أوردتها بين يديه..

مد كفيه بطمأنة متلعثمة معتذرة:

- ده أنا يا خلود ما تخافيش..

ظلت على صمتها، وخياله يبيح له رسم وجهها بهذه اللحظة..

أعين متسعة بذعر، كفها الضئيلة تغطي فمها لتمنع الصرخة، تضم ركبتيها لجسدها في حمائية فاشلة ويدها الثانية تبحث عن وسيلة دفاع!..

أكمل اعتذاره ببؤس:

- آسف إني جيت لك هنا أو خضيتك..

سمع صوت ابتلاعها للعابها فأيقن من صحوها، لقد بدأتْ تستوعب وجوده.. تأنس له وتطمئن، اختنقتْ بكلمات مشتتة:

- خير يا بيه!..

بلا تمهيد جلس على طرف الفراش، أخفض وجهه للأرض وزفر بحيرة:

- مش جاي لي نوم..

هي تخشاه ويحتاج لبثها أمانًا وهميًا يجبرها على الوثوق به!..

انتقلت حيرته إليها فتمتمت بتردد مرتجف:

- جعان!.. أعملك أكل!..

بسمة جانبية ناوشت ثغره، هز رأسه بنفي بسيط:

- مش جعان..

شعر بحركة طفيفة منها فخمن محاولتها الابتعاد حتى الطرف الآخر، ربما لتهرب من الغرفة.. كاد يبتسم لكنه كبت البسمة..

بسمته كانت لتخيفها، وهو يريد تمزيق ستار الخوف ولو بلعبة مسلية، افتعل حزنًا لامس نبرته بشيء من شجن قانط:

- ليه سافرتِ وسيبتيني لوحدي!..

رمقته بذهول غير مصدق.. تتذكر محاولاته خلال الفترة الماضية لمصادقتها، نكاته اللطيفة وابتساماته التي لا تغمر وجهه إلا بصحبتها..

هل شعر بالوحدة مع غيابها!..

هل عرض صداقته حقيقي!..

حركتْ رأسها كأنما تخضخض أفكارها المتصارعة بعقلها، تنفضها وتتخلص منها في تكذيب منطقي:

- كانت فرصة والهانم مش هنا أزور أهلي..

ظل على تظاهره بالقنوط البائس:

- طيب وأنا!..

ولم يترك لها منحة مجانية تحتاجها لتبرير، بل استمر بهجومه العاطفي المغتم:

- كنت حاسس بالوحدة من غيرك..

ثم أردف ووجهه يستدير لجهة لا تراها، نبرته تتحشرج وضيقه يعلن عن وجوده صريحًا ببعض من غضب:

- أنا ما بحبش أحتاج لحد..

يضرب بيمناه، واليسرى تتلقاها لتعيدها قربه..

ينشد قصيدته السوداء على جمهور مشاعرها، وبين الأبيات يدس الحاجة.. الضعف.. رغبة القرب..

- ماكُنتش أعرف..

فندتْ بخفوت مستسلم، أعاد وجهه إليها بحدة متضايقة:

- ولا ما كُنتيش مهتمة!..

تأملته للحظة والضوء الخافت بالغرفة لا يسعفها لتفحصه بشكل واضح.. لكنها لمحت أنامله تقترب من وجنتيه، تمر فوقها بعنف مكبوت كأنما تمسح دمعة، تعود بإثرها لتختفي إلى جواره فيخفي معها ألمه..

بادرتْ بقرب غير متزن:

- لا والله، ما تزعلش مني..

وربتتْ على كتفه بعد تردد:

- أهلي وحشوني بس..

واجهها وعقله يدرك المسافة بينهما، يقدرها، يقيس وجهة عينيها ويبعد عنهما بدقة محسوبة:

- وأنتِ وحشتيني..

شعرت بسخونة تغمر جسدها كله.. رعشة ناوشت شفتيها، وهواء صدرها يخنقها لا يريحها، جوار غزل سيد المنزل الذي هي خادمته..

لم تجد ردًا فتناثرت حروفها بحماقة:

- طيب إيه رأيك أعملك اللبن بالشوكولاتة اللي بتحبه؟..

لم تكن تتهرب هذه المرة.. لم تكن تريد التخلص منه..

بل أدرك مع اختلاج أنفاسها رغبتها في مصالحته، أهداها بسمة مغموسة بالصدق والبراءة:

- أنا بحب حاجات كتير..

- أعملك أي حاجة، لو حتى هاطبخ في الساعة دي..

رفع حاجبه وقد كان الطريق إليها ممهدًا أكثر مما ينبغي..

ممهدًا لحد أفقده متعة الصيد فقرر المناورة!..

حافظ على ابتسامته وصوته يخفت برقة عاطفية، كلاسيكية عتيقة كأفلام خالية من الألوان شاهدها طفلًا:

- أنتِ طيبة وحنينة قوي يا خلود..

اكتنفها خجل رهيف، أبعدتْ يدها وصوتها يصله بعسر:

- أنت تستاهل كل خير يا سي نوَّار..

رفع حاجبيه، يكرر اسمه مسبوقًا بلقب سيد على طريقتها، يغمغم به مفتعلًا التعجب:

- سي نوَّار!..

صمتها الخجول أنبأه عن عدم وجود رد فأكمل يمط شفتيه:

- غريب شوية..

تراجعت ولاحظ تراجعها، تسأله بتشتت حائر:

- أمال أناديلك بإيه!..

أحنى عنقه جهة كتفه مبتسمًا بأريحية:

- نوَّار بس، قلت لك إحنا أصحاب..

- المقامات محفوظة يا بيه..

مد يده يبحث عن يدها فتجمدت بلا رد فعل حتى وجدته يربت عليها ويعيد كلماته بتأكيد:

- إحنا أصحاااب..

خوفها ثاب لقلبها النابض بتوجس، استقامت تغادر الفراش، تقف في مواجهته وتتهرب عائدة لنقطة البداية:

- أعملك اللبن؟..

اعتدل بالمثل مستجيبًا لهروبها.. كقط يهدي فأرًا مسحة اطمئنان تتماشى مع اللعبة شبه الممتعة:

- اعملي لي..

ومد ذراعه إليها في تلميح لمعاونته والسير معه:

- هاجي معاكِ..

عقب تردد قصير أمسكتْ بكفه، نهض يتشبث بها في ضغط متزن يُشعرها بحاجته إليها..

يقف قبالتها وتمتلئ أنفاسه برائحة نفاذة هي خليط غير متناسق من عدة روائح أخرى، نطق بمباشرة:

- ريحة شعرك غريبة..

أهداها ارتباكًا جديدًا منذ أتاها، يخيفها.. يوترها ولا تصل لحدود ما يجول في أفكاره عنها..

لكن وجودها بأفكاره بحد ذاته يرعبها!..

تصلبتْ في وقفتها أمامه، وهو مال بأنفه أكثر يتشمم خصلاتها:

- غريبة بس حلوة..

تلعثمتْ في توضيح واهن بأول ما طاف بذهنها:

- ده زيت أمي بتعملهولي..

- زيت!..

تمتم بها مندهشًا بإخلاص، بريئًا للغاية.. عفويًا للغاية، اختنقت بثرثرة فوضوية:

- آه.. زيت لوز أمي بتجيبه من العطار، وزيت خروع بيتقل الشعر وتحطهم على بعض وأدهن شعري بيه كل يوم..

تفوهتْ تلك الفأرة بالعديد من الترهات، لكن هذه هي أعظمها!..

لقد أخبرته بمكونات روتين شعرها اليومي المصنوع بيد أمها الخبيرة والمنتقى من خيرات الطبيعة..

ترددتْ الكلمات بأذنيه بصوت إعلاني مثير للسخرية، ابتسم وتنفسها أكثر بتمتمة خفيضة:

- إممم.. لوز!..

- آه..

ضياع وتوجس وبعثرة، تغافل عن كل تلك العلامات التي تصله عبر ذرات الهواء المحصورة بينهما:

- وعلى كده شعرك حلو؟..

أجابتْ بعد تفكير مبتور بشبه شجاعة:

- أمي بتقول إنه أحلى حاجة فيَّ..

تبدلت بسمته لمكر غامض، يستعيد في خياله نعومة بشرتها، أنفها الدقيق واكتناز شفتيها تحت وقع أنامله قبل أسابيع:

- ما أظنش إنه أحلى حاجة..

استعصى عليها الرد فركنت للصمت، لم تفهم مقصده ويصيبها ذعر من أن تفعل، تجاهل صمتها واستفسر بفضول خبيث:

- طويل؟..

- آه..

تضطرب حروفها في اثنين كجواب مخطوف، ويقتحم هو بسؤال أكثر جرأة:

- لحد فين؟..

رفرفت بأهدابها وأنفاسها مسجونة بصدرها، تشعر بأنه يحتل منطقة لا يجوز له الوجود بمحيطها، تخاف الهروب وترتعب من البقاء.. همهم يحثها على إجابة نفضتْ رأسها تمنحه إياها:

- واصل لآخر ضهري..

تحشرجتْ بها نبرتها بحياء، بموازاة خطوة تتباعد بها عنه.. خطوة شعر بها وتغاضى عنها عامدًا:

- ناعم؟..

أنصت للهاثها المتقطع فتوسعت بسمته، لا يفهم لمَ تخشاه وهو لم يقدم معها على شيء!..

بعد!..

همس باسمها، وجمت قليلًا ثم ردت بشرود:

- يعني.. آه..

تظاهر بالتفكير بينما يزم شفتيه:

- هو مربوط دلوقت؟..

ردها كان سريعًا هاته المرة كأنما تسعى لإنهاء اللحظة والهروب من المشهد بأكمله:

- لا.. أمي بتقولي قبل ما تنامي تفكي شعرك عشان يتنفس..

عادت له بسمته التي تنتشي ببساطتها.. فأرة..

المسمى يليق بها، وبات لا يمانع من العبث معها واحتوائها بأعماق كهف ظلامه..

افتعل التردد.. تظاهر باللعثمة..

فتح فمه وأغلقه مرتين متتاليتين بينهما خمس ثوان من سكون..

في النهاية وبعد أدائه التمثيلي المميز همس باستفهام مشتت:

- ممكن ألمسه!..

نطق سؤاله فبعثرها..

تركها تتأمل ملامحه، تفاصيل وجهه الذي جعل منه لوحة احترافية متقنة لكل المشاعر التي تجبرها على الموافقة..

حزن.. أسى.. لهفة.. براءة.. فضول..

تردُد أخير انتهى بها تمسك بكفه، تضعها على مقدمة رأسها وتهديه الإذن بالتجوال بين خصلاتها المسدلة بلا اعتراض..

وفعلها..

ظل وجهه كما هو، وفمه يرسم صورة ملائمة للفكرة التي يباح أن تتكون بعقلها..

يرتجف، ينحني طرفه ببداية بسمة سارحة، يتنفس بعمق بطيء.. وأصابعه تغوص في شعرها حتى نهايته..

بل تنسل لتلامس نهاية ظهرها بقصد ظاهره غير متعمد في تناقض أجفلها، انتفضت تنأى عنه فبادر باعتذار سريع مرتبك:

- آسف، ما قصدتش..

وخلل خصلاته هو بأنامله يهديها الغزل المناسب:

- فعلا طويل، وناعم..

ثم ابتسامة شقية مدروسة بدقة:

- وريحته حلوة..

بعدها يستكين للصمت، يهبها الشتات الذي تستحقه اللحظة، يجمد المشهد عند لقطة يشتهيها ليجبرها هي على خطوة زلقة تُوقعها حيث يشاء:

- أعملك اللبن!..

حرك كفه ووجهته مرفقها دون لبس.. بثبات صلب، أمسك به وعانق ذراعها بذراعه في مبادرة لطيفة:

- اعملي لي اللبن..

خضعت للمسته المسيطرة وكل حولها وقوتها يتخليان عنها.. تخشى الرفض، وتتوجس قبول القرب منه..

سارتْ معه ببطء إلى خارج غرفتها الصغيرة، بمنتصف المكان زلت قدمه بغتة فتعلق بها، جاهدتْ لدعمه لكن ما أراده.. تم..

لا تعلم كيف تعثر، كيف لاحقت تعثره لتمنعه السقوط، وكيف سقطت معه.. بل أسفل ثقله!..

شهقتْ بهلع، استند هو بمرفقيه حول رأسها متقنًا لكل لمحة فزع لابد وأن تظهر عليه:

- أنا اتكعبلت في إيه!..

حلقها اللعين قاحل كصحراء أفريقية..

ريقها لا يسعفها بشيء من رطوبة تنشدها، وقلبها ينبض بحد لا يجوز له، أجابته بحشرجة بينما كفيها تدفعان صدره:

- مش عارفة..

اقترب منها بوجهه فتضاعف هلعها:

- أنتِ كويسة!..

- كويسة، قوم يا بيه الله يخليك..

تجاهلها بالكلية، هي حيث أرادها..

والبداية على بُعد حركة واحدة لم يتأخر فيها، بسط كفه قرب وجهها، جال فوقه بأنامله برقة، رعدة جسدها لم تشكل فارقًا وهو يجوب حنايا ملامحها على مهل..

حتى لامس عبرة حارة غادرت أجفانها!..

- قوم يا نوَّار بيه أنا.. أنا...

همس بصوت لين، متسلل، ساكن كسكونها:

- تعرفي إن حرف الراء عندك مكسور شوية!..

أصابها التشوش الذي يرغبه بينما تكرر:

- مكسور!..

- أيوة.. لدغة بس مش أي ودن تلاحظها..

جاوبها بهزة موافقة من رأسه، رمشتْ بشتات:

- عمر ما حد قال لي قبل كده..

انحدر بأصابعه إلى فكها، ضغطه بإبهامه:

- ما قلت لك، مش أي حد يلاحظها..

وأمر بهدوء لا يخلو من حزم:

- انطقي اسمي كده، من غير ألقاب..

تلعثمتْ.. دفعته بضعف، واللسان يذعن لأمره بلا عناد:

- نوَّار..

لاحظتْ ابتسامته.. كانت مختلفة.. ملامحه نفسها تبدلت..

شابها عبث لم تدرك مسماه إلا عندما تحكم بوجهها بكفه.. وامتلك أنفاسها!..

تيبستْ كجثة فاقدة للحياة، يديها ماتتا على صدره، شعرها الطويل يفترش الأرضية تحتها، وكل ما يجري كانت تناظره من علو كأنما ليست هي بطلة المشهد غير المنطقي..

استشعر كل ما مرت به، لن يجحف بحق لذة المذاق.. لكن القبلة لا تطيب إن لم تكن متبادلة!.. تراجع باعتذار ثالث، يستند لكفيه ويستقيم واقفًا في ثوانٍ، يتناول يدها ويجذبها معه رُغمًا عن جمودها:

- خلود.. حقيقي أنا آسف، بس...

يمسح وجهه، يديره إلى ناحية مغايرة، يزفر بضيق حار ويفند بتدليل لأنوثتها التي امتلك منها نذرًا يسيرًا قبل ثوانٍ:

- أنتِ جميلة بجد، ما قدرتش أقاوم..

عاد يقترب، يلحظ تراجعها، يرسم حزنه منطقيًا ومناسبًا:

- مش عاوز صداقتنا تتأثر!..

يتمتم بتشبث، يخبرها أن في قربها راحته، أن خسارتها أمر يبغضه:

- سامحيني..

الأسى الذي تلفظ به اعتذاره، ارتباكه، تعثره في خطوة منقوصة نحوها وحرارة أنفاسه التي تيقن من أن يصلها احتراقها أعادت إليها حيرتها..

كانت خائفة.. لكن أيضًا؛ فضولها تحرك!..

السيد قبَّل خادمته، منح شفتيها قبلتهما الأولى.. وهي وإن لم تعِ ما جرى أو تتجاوب معه فقد مرتْ بفيض من مشاعر مبهمة متمازجة في تركيبة مذهلة..

صمتها كان يفهمه، لغة جسدها التي استشعرها مع لمسته لها أعلمته أنها تائهة، تفكر بما حدث.. بل ربما تعيد تلمس ثغرها الذي يحمل أثره!..

وكانت تفعلها.. أناملها تتحسس فمها بضياع، تبتسم في سذاجة وتهمس له، تقبل اعتذاره:

- مش زعلانة..

- بجد!..

نطقها بلهفة مقننة، جاوبته برفق:

- بجد..

طوى ذراعه في إشارة لها لتتأبطه:

- طيب يلا بينا على المطبخ، وجودنا هنا خطر..

شهقتها أضحكته بخفوت، شاغبها بمكر:

- أول بوسة مش كده!..

أومأتْ بوجوم وعينيها تعانقان الأرض، وحين انتبهت أن ردها الصامت لن يصله تمتمت بحشرجة:

- آه..

تقدمتْ تجذب يده، تخرج معه من الغرفة ثم تتصلب خطواتها بعد ثلاث وحسب!..

وهو دون توضيح أدرك السبب وابتسم بسخرية مقيتة بينما يعلو صوته بتهكم:

- مش جاي لك نوم برده؟..

لم تندهش تلك التي رأت الاثنين يخرجان متعانقي الأيدي من غرفة الخادمة الصغيرة، لكن الدهشة أصابت "خلود" جوار الرعب

وهي تتطلع لزوجة السيد الأكبر التي وقفتْ تتأملهما باستهجان مدرك..

راقبتها تدنو منهما، تنتزع ذراعه عنوة وتتأبطها هي، تجبره على السير معها تجاه المطبخ وتأمرها:

- ارجعي نامي يا خلود..

هرولت عائدة لغرفتها بينما تقوده "وسن" فيتبعها بتراخٍ مستهتر:

- تؤ تؤ تؤ.. الشغالة يا نوَّار!..

ابتسم باستهانة غير متضايقة من بترها للحدث:

- عندك مقترحات غيرها!..

وأكمل بعجالة قبل أن تجيبه:

- كده مافيش في البيت غير كابتن الكوماندوز وسيلة..

توقف يواجهها ساخرًا:

- وأنتِ!..

رفعتْ حاجبًا توازيه في استخفافه:

- أنا تقريبا ضعف عمرك يا نوَّار..

كأن ذاك هو المانع الوحيد!.. بضحكة رائقة أجابها:

- لا.. أنا ما يفرقش معايا السن..

لامس طرف أنفها بسبابته كأنما يراها:

- ومتأكد إنك زي القمر..

- ولد!..

نهرته باصطناع فكرر ضحكته:

- تليقي بعمار والله..

بعدها استدار تجاه الدرج مردفًا وقد مسَّ تعليقه قلبها بلا إرادة منها.. مسَّه حد العشق والبغض والمقت والقسوة والمبادئ المفقودة في بيعة خاسرة:

- لو ما كانش بينا دم؛ كان ممكن نبقى أصحاب..

مكثتْ بمكانها تتابع رحيله مع تذكيره لها بالدم.. بمن مات، بما أفقدته إياه.. قبل أن تناديه:

- والهوت شوكليت!..

مع سؤالها علم أنها شاهدت أكثر مما يجب فمط شفتيه بامتعاض:

- نفسي اتسدت..

أهدته ضحكتها هي هذه المرة، تجاهلت متابعته والتفتت تجاه الغرفة الجانبية بتفكير..

فربما تقرر هي إكمال هذه القصيدة!..

**

هو رجل لا يجيد نظم الشعر، لا يتلذذ بمذاقه الموزون وأبياته المقفَّاة..

قرأ منه الكثير، قديم وحديث وجاهلي..

رأى أن العربي متين ومسجوع بطريقة مبهرة كما لغته الأصلية لكنه ظل يمتعض منه..

من الغزل والعشق والرثاء والحزن..

كأن كل رجل يجد سلواه بين لحن الكلمات لم يعثر على ما هو أفضل ليفعله، لأنه لو وجد لما بات لياليه يكتبه ويرثي معه ذاته..

أو حتى وطنه!..

هو رجل لا يعترف بالوطن وقد مضى عمره مشتتًا بين أركان الأرض التي تتلقفه بكرًا، وتلفظه من رحمها مدنسًا موصومًا بالقسوة منزوعَ البراءة..

لا يعترف بالعائلة بينما مضى غالب حياته وحيدًا..

لا يؤمن بالحب وإن لم ينكر وجوده، هو ما نال منه سوى الفتات متأخرًا، كطعام بارد فاقد للنكهة وكابح لشهوة التذوق..

ها هي المرأة التي عرضتْ عليه القلب والعشق والجسد وملكته طوعًا من ثلاثتهم، تأتيه بمفاجأة وتعلم أنه يكره المفاجآت.. لكنه وللغرابة لم يغضب، استقبل رسالتها ببرود، وفي مساء اليوم التالي ذهب للفندق الذي أخبرته باسمه..

انتظر خروجها إليه في ركن هادئ، أتتْ تهرول بفتنتها التي لم تنقص مثقال ذرة، راقبها دون أن يتحرك من مكمنه شبه المظلم، وقفتْ تدور حول نفسها، خصلاتها العسلية المموجة تتطاير مع دوران وجهها، أنفاسها لاهثة وبصرها يكاد يُجن لهفة لمرآه..

منحها دقيقة ذهب نحوها بنهايتها حينما وجدها تتجه لموظف الاستقبال، ناداها بنبرة ثقيلة:

- كالي..

استدارتْ إليه، لمحته وهدأت نفسها التي تفتش عنه..

لم تكترث لشيء سواه، سوى صدره الذي تفتقد ضمته.. ركضتْ بلا إرادة لتسقط بين ذراعيه، تطوق عنقه، وتهمس بشوق:

- يا إلهي.. افتقدتك بحجم السماء..

لمح أحد المارين يتطلع لوضعهما شبه الحميمي بردهة الفندق، ربت على ظهرها برفق وهي تراجعتْ تغوص في ليل عينيه بحنين:

- أنت قاسٍ كالعادة..

ابتسم بمكر مستسلم:

- وأنتِ متهورة.. كالعادة..

ولتثبت له تهورها.. وربما عشقها الذي يوجع قلبها، ضمته أقرب واعترفتْ فوق شفتيه:

- أحبُك.. ولا يهمني إن دُرتُ حول العالم لألقاك..

أبعد وجهه فتصلبت بنظرة مندهشة غير واعية، ضغط أسنانه بجدية وبإشارة من عينيه أوضح:

- نحن بردهة الفندق عزيزتي..

تراجعتْ تتلفت من حولها لترى نظرات البعض المسروقة تجاههما، ابتسمت له وهي تدرك مدى تزمته في تلك النقطة منذ كانا معًا، يكره علانية المشاعر والتوق والرغبات..

عانقت أصابعه بأصابعها وجدَّت السير ببسمة ناعمة:

- لنذهب لغرفتي إذًا..

تجاوب معها بسلاسة، تأملها وهي تفتح الباب..

حدقتيها معلقتان به.. أهداها بسمة يشوبها شيء من غرور ورفعة حاجبه كانت خبيثة، ابتسمتْ، حاوطت خصره بالممر الهادئ، خطت للخلف داخل الغرفة وسحبته معها، من وراء ظهره أغلقت بابها ودفعته ليستند إليه وهي تعانقه هامسة بإغواء متلاعب:

- الآن سألتهمُك قطعة قطعة..

كررتْ الاقتراب، رغبة أن تكون بين يديه ومُلكه، عناق الشفاه الذي هي عطشى إليه.. وكرر هو ذات رد الفعل!..

أدار وجهه قبل أن تمسَّه، تنفس وتحكم بكتفيها يبعدها، يتخطاها، يترك لها ثوانٍ تناظره بلا فهم قبل أن يعود إليها ويفجر قنبلته بقلبها وروحها بلا تمهيد أو مقدمات:

- لقد تزوجت..

تلك الثواني الجديدة التي أهداها إياها لتستوعب الخبر، أو تهضم السم في كلماته.. تموت به؛ كانت أطول من عمرها كله..

جسده لم يتزحزح.. عينيه لم تطرفان..

كل ما فعله أن خلع معطفه الشتوي لتظهر من تحته كنزة شتوية سوداء وسروال من الجينز الرمادي، ثياب لم تألف رؤياه بها حيث أنه يدمن ارتداء الحُلات الرسمية بنصف رسميتها..

بصره يحط عليها، كفيه تنحشران بجيبي سرواله، يرمقها بغموض وكيانها يتهدم بسرعة البرق في مواجهته، همسها يأتيه بعد دقيقتين كاملتين تخشبتْ فيهما كهيكل غير متقنٍ من رمال مبتلة، يلهو به طفلين وتحطمه موجة عابرة:

- تزوجتَ امرأة سواي!..

نبرته كانت جامدة وهو يجيب بكلمة واحدة:

- نعم..

ارتجفتْ شفتاها بعذاب:

- لماذا؟..

لم يتبدل حاله، لم تطفُ انفعالاته للسطح.. ظلت خامدة، باردة، غارقة في قاع جحيمه المعتم:

- القدر ربما..

سالتْ عبرة محترقة من بين أهدابها التي رمشتْ بتسارع متألم:

- هي قدرك!..

نفى ببساطة حازمة:

- أنا قدرها..

دنتْ منه، رفعت وجهها إليه، تركت لعينيه حرية اختراق روحها ليرى أي وجع هي فيه:

- وماذا عني!..

أقفل فمه دون رد ففردت كفها فوق صدره وصوتها يعلو:

- أحببتَها!..

زفر يربت على كفها ثم يقر بحقيقته خالية من الرتوش أو التزيين:

- أنا لا أعرف الحب كالي..

صياحها كان يعنفه، كان غاضبًا مجروحًا مذبوحًا:

- أنا أعرفه، أؤمن به، منحتك إياه يومًا بعد يوم رُغم قسوتك وتباعدك وتوحدك مع ذاتك..

ضربته بقبضتها ثلاث مرات بانكسار:

- ما الذي منحتْك إياه لتفضلها عليَّ إذًا!..

تحكم بيدها يعتصرها بأصابعه بلا شفقة:

- لم تمنحني أي شيء..

أنَّت بألم.. ألم الجسد والقلب المطعون على قارعة طريق الغدر:

- أنا أكرهك..

دمدمتْ بها ودموعها التي توازيها تثبت العكس، حتى أنه ابتسم وافتعل التصديق.. بل وزاد:

- وكذلك هي..

تأملته بحيرة عندما حرر يدها، ساوى خصلاته بأنامله وزفر مقتضبًا حتى في أنفاسه:

- أرملة أخي الميت..

لم تدرك مقصده، مسحتْ وجهها بيدها بحزن مكسور:

- ماذا يعني ذلك؟..

دار بمقلتيه بين أجفانه بسخرية:

- أمور عائلية عربية لن تفهميها عزيزتي..

ابتعدتْ عنه، تجولتْ في الغرفة تائهة للحظات قبل أن تفتح المبرد الصغير، تسحب منه زجاجة من "البراندي".. تتجرع منها نصفها دفعة واحدة، عقد حاجبيه، استدارت إليه كأنما تتحداه، لمحت تقطيبته الصارمة فابتسمتْ كذبيحة على وشك الموت:

- أعلم أنك تكره كل الخمور، وكنتُ أكرهها لأجلك.. لكننا من الآن سنصبح أصدقاءً، عدو عدوي صديقي.. صحيح!..

سحبها من يدها قسرًا، وغضبه يصلها صريحًا:

- أنتِ لستِ بهذا الغباء كالي..

مال يغوص بعينيها:

- أو الضعف..

تعلقتْ بعنقه بلا إرادة:

- كنتُ معك أنت بهذا الضعف، بهذا الحب..

بعدها انتحبت بغتة باختناق:

- لكنك لا تحيد عن مسارك القاسي الفظ أبدًا جايكوب..

أبعد بسبابته خصلة متمردة عن جبينها، أهداها نظرة غامضة لم تدرك مقصدها:

- هذا هو أنا..

- نعم.. أنت الذي غرقت في هواه ولم يكترث للحظة..

محا عبرتها بإبهامه وابتسم بشرود:

- لم أجمل حقيقتي في يوم..

ارتجفت شفتاها وكفها تطوف على ملامحه باشتياق معذب:

- شيطاني الوسيم..

تهكمت بسمته وفمه ينحرف باستهانة شرسة:

- مازلتُ الشيطان عزيزتي..

- أنا أحببتُك كما أنت..

- أعلم..

- هي لا تحبك!..

- لا..

- حمقاء..

- بل ذكية..

- وأنا كنتُ الغبية..

- لا تنكري أن عواطفك لم تتخير وجهتها الصحيحة كالي..

اقتربتْ تقف على أطراف أصابع قدميها، تتمتم بأنفاس دافئة:

- عواطفي البلهاء لا تزال تتوق إليك..

لم يهتز.. لم يتأثر أو يكترث، قستْ بسمته وأظلمتْ نظرته أكثر:

- أنا لستُ رجلًا خائنًا كالي..

تهدل كتفاها بإحباط يائس، تراجعتْ ترمقه بشجن، تحني رأسها وتوليه ظهرها:

- أعلم..

التف حولها يعيد ناظريها إليه:

- ستكونين كاليوبي القوية التي أعرفها..

ابتسمتْ بأسى وكفيها تضم يديه التي تمسك بذقنها:

- سأحاول..

تمتمتْ بها بمرارة، بإثرها تجمدت نظرتها على حين غرة، كانت تنظر إليه ويبدو أنها لا تراه!.. توشحتْ بسمتها بفضول غريب به شيء من غيرة:

- ما رأيك لو تعرفني بها!..

كاد يرفض رفضًا حادًا قاطعًا لولا أن برقتْ الفكرة بعقله وحركت فضوله، فكر لهنيهة رفع حاجبيه عقبها وغمغم بيسر:

- لمَ لا!..

ليس الشاعر..

لكنه قرأ القصيدة من بيتها الأول حتى الأخير ولم يستسِغ الوزن والقافية، فمزق صفحتها وأحرق الكتاب..

**

في لغة شاعر هي ديوان كامل..

قصائده رباعية الأبيات، تهديك كامل الفكرة في كلمات محدودة..

تهبك خلاصة العشق في رشفة..

في لغة شاعر هي حديث البداية والنهاية وبحر الشعر الذي اشتهى الغرق فيه.. فقفز دون تردد وفعل!..

لم يتوقع المفاجأة..

استقبلته إثر عودته من العمل، عند بداية الدرج عصبت عينيه بوشاح وقادته للأعلى، تهمس له سرًا بأنها تَعُد له حُلمًا خاصًا..

وصدقت!..

شعر بها تضع قبعة ما على رأسه، منعته من تحسسها في محاولة لتخمين نوعها، ثم ناولته بيديه مظروفًا متوسط الحجم، منتفخًا بعض الشيء، لثمتْ فكه وتراجعتْ تتأمله بحالمية قبل أن تمنحه الإذن في إزالة الوشاح..

أبعده وطرف مع الضوء لثانيتين، لمح نفسه بالمرآة التي أوقفته يواجهها، يرى القبعة.. كانت تشبه قبعة قبطان حقيقية، إن لم تكن بالفعل.. اقترب من السطح العاكس خطوتين ينظر لوجهه، لخصلاته المختبئة تحتها إلا من واحدة تمردت على يمين جبينه، يبتسم بشرود فيشعر بضمتها لظهره:

– My handsome captain..

رمق انعكاسهما، استقر بعينيها بهمس شاحب:

– قبطان!..

– Yup..

دفعت يده بحماس شغوف:

- افتح الظرف..

رفع حاجبًا مشاغبًا في محاولة لمحو أثر الأمس الذي اقتحم الحاضر بظهور محفز للألم، تريد إسعاده وهو لن يقابل رغبتها بالنكران..

فضه باهتمام، جذب ما بداخله وتضاعفت دهشته.. بل نبض قلبه بحبها أكثر وأكثر وهو يرمق تذاكر الرحلة البحرية بتشوش:

- cruise!..

ابتسمتْ واقتربتْ تحاوط عنقه بدفء:

- آها..

مالتْ برأسها تستريح على كتفه، طوقها بتلقائية:

- It was your dream to be a captain..

همهم بصوت غامض فأكملت بغرام حانٍ:

- and my job to make your dreams come true..

حرك وجهها ليقابله، يهمس لشفتيها بلثمة مخطوفة:

- كنت فاكر إن دي مهمتي أنا!..

ردت لثمته إليه برقة:

- مادام إحنا مع بعض، يبقى أحلامنا لازم نحققها سوا..

أعادها لصدره وكفه تظلل وجهها، تغوص بكثافة خصلاتها تائهًا فيها:

- هو أنا عملتْ إيه عشان أستاهل حبك ده!..

ضحكتْ بمشاكسة ونظرت إليه من موضعها كقطة شقية:

- كنت وغد..

غمزها، تراجع معها ليجلس على طرف الفراش ويوقفها بأحضانه:

- الأوغاد دايما بيكسبوا..

هزتْ كتفيها باستسلام:

- قانون الحياة..

ضحك بمرح وعيناه تتوهجان ببريق نابض:

- إيه الظلم ده!..

مطتْ شفتيها بأسى:

- life ain't fair..

افتعل الأسى مثلها للحظة، عقبها بدل الحوار بدهشة جادة:

- بس رحلة بحرية في البرد ده!..

داعبتْ خصلاته وعدلتْ من وضعية القبعة بانتباه:

- مافيش أجمل من الشتا..

شابها حماس مباغت حين بدأتْ تعدد على أصابعها:

- الرحلة هتطلع من مصر، وهتلف على خمس مواني في البحر المتوسط.. أسبانيا، إيطاليا، مالطا، تركيا، ونختم بتونس..

داعب بطنها المنتفخ مفجرًا غيظها:

- بالبطيخة دي!..

تراجعتْ تتخصر وقد نجح في مسعاه:

- Why not؟..

أعادها يطوقها معاندًا، لكن قلقه كان حقيقيًا:

- أنت في الشهر السابع يا زلابيا..

هزتْ كتفيها بلامبالاة:

- عادي على فكرة، لسه قدامي أكتر من شهرين والكروز أسبوعين بس..

ضم خصرها وأجلسها بأحضانه:

- خلاص يا وحش؛ اللي تشوفه..

وما تراه وأرادته حدث دون نقصان..

في خلال يومين كانت كل الأمور معدة للسفر، حقيبتين من الثياب لها وحدها حتى أنه سخر منها ووقتها قذفته بثمرة موز كانت تتلذذ بها، وحقيبة مسكينة تخصه كما تهكم.. أخبرتْ "شمس" عن الرحلة فابتهجتْ لأجلهما معًا.. طلبت منها أن تتمتع بكل لحظة معه، بكل نبضة عشق.. أن تستغلها للحد الأقصى..

وهي تنوي أن تفعل..

سبقته للسيارة حين ذهب هو ليلقي التحية على جده، يتركه بجملة أخيرة أودع بها عاطفته المدفونة منذ أعوام:

- يمكن كنت محتاج أودع يامن عشان أقدر أعيش النهاردة وبكرة..

ربتَ على كف الجد بشبه بسمة لم تخلُ من المرارة:

- شكرا على الفرصة..

لحق بها بشبه هرولة، في خلال سبع ساعات كانت السفينة السياحية "Mediterranean horizon".. تنطلق في رحلتها الموعودة من ميناء الإسكندرية..

مر أربعة أيام كانت له كالجنة، البحر الذي يطوقه من كل جهة، شعر وكأنه على متن جزيرة عائمة هو حاكمها..

لكم ود لو كان القائد بالفعل، سعادة لم تطرق أبواب قلبه منذ دهر.. يراه هو دهرًا..

هي السعادة..

هي البهجة والغزل والحرية والجنون..

هي الحياة..

تبعها حيث تقف ككل ليلة عند مقدمة السفينة، تستند للسور وتتطلع لسماء الليل بصفحتها الداكنة، النجوم التي تظهر بها واضحة على عكس المدن.. والقمر شبه المكتمل يعاند لينشر ضوئه الفضي من خلف الضباب، خلع سترته الثقيلة ووضعها حول كتفيها حين بدأت قطرات المطر تضرب كليهما برفق:

- الدنيا برد يا مجنونة..

اندست بين ذراعيه توليه ظهرها، تريح رأسها على كتفه وترمق الأفق المظلم باستمتاع:

- حضنك مدفيني..

ضحك بخفوت مشاغب:

- إيه الجو ده!..

ضربته بمرفقها في بطنه فتأوه عاقدًا حاجبيه:

- رومانسية يا يزن، عشان بحبك وكده..

ألصقها به أكثر.. أحنى وجهه يدفن أنفاسه بين خصلاتها:

- طيب ما أنا عارف..

كررتْ الضربة فشهق هذه المرة وكبلها يتحكم بها:

- ما بحبش العنف..

- خلاص اعمل اللي باقولك عليك، be a good boy واسمع الكلام..

- تحت أمر معاليك يا باشا..

بنهاية كلماته تضاعف سقوط الأمطار فجذبها عائدًا للقمرة:

- كفاية كده بجد هتبردي..

تحسستْ وجنته بكفها وخطواتها مع ثقلها تسبقه بضحكة مغوية:

- دفيني..

ركض خلفها مستجيبًا لرغبتها:

- من عيوني والله..

يجاريها في التوق واللهفة والصَبَا والعشق..

يجاريها ويتخطاها، يسابقها، يغرق فيها.. يصل لقاع الهوى ويرمق من ضاع دونه بأسى لحاله، هو هنا الناجي من مقصلة القلوب بكمال.. وبجمال القصيدة..

اعتدل يشعل لفافة تبغ نزعتها من فمه بوجه غاضب ابتسم له:

- إيه!..

- كفاية تدخين..

- مش هابطل أنا..

- أنا حامل وغلط عليَّ..

ثم تجاهلت الحديث وحاوطت خصره بذراعها، استكانت فوق صدره.. تتنصت على ضربات قلبه، تصيخ السمع باهتمام كأنما كل نبضة تخبرها حكاية..

تهديها قصة عشق.. ترتاح..

أنفاسها معه دومًا في ركض حائر..

حائر بين الشغف والهدوء..

بين السكون والجنون..

أصابعه تشاغل خصلاتها بغزل شارد وهي تشاكسه بدلالها:

- تعرف؛ من فترة قريت سؤال على الفيس بوك..

رفعتْ وجهها إليه بينما أخفض هو خاصته ليلتقي ببصرها في استفهام:

- بيقول يا ترى طرزان حب جين لأنها جين ولا لأنه ما عرفش ستات غيرها!..

مط شفتيه وجاوب ببديهية مطلقة:

- لأنها جين طبعا..

ابتسمتْ باتساع مبتهج:

- قلت كده.. جين قدمت له كتير، عرفته إنه إنسان.. جين الحب..

ابتسم هو الآخر وإن شاب بسمته عبث خبيث ناوش نبرته كذلك:

- بس ده مش قصدي..

قطبتْ بضيق متوجس حين أردف هو بمكر:

- أصل طرزان مش راجل مصري..

توسعتْ عيناها بإدراك وغمغمتْ بسماجة:

- تصدق معاك حق، الراجل المصري معروف...

- بجبروته وقوته!..

وكزتْ كتفه مغتاظة معاندة، حانقة:

- بعينه الزايغة..

تحرك يضمها بغمزة وقحة:

- خلينا في قوته دلوقتِ..

وغرق فيها، قاومته للحظات انتهتْ بها سريعًا ذائبة بين يديه..

لكن تلك الدقائق لم تكتمل بنهايتها المتوقعة، أنَّت دون مقدمات، اعتصرتْ كتفيه فغرست فيهما أظافرها والألم ينتشر عبر ظهرها كطعنة ألف سكين:

- يززززن..

انتفض مبتعدًا بقلق:

- مالك!..

تشبثتْ به والهلع يغمر ملامحها:

- أنا.. أنا تقريبًا باولد!..

لم يكن شاعرًا رُغم سابق قصيدة..

لكن قبل هذا الديوان أيقن أنه أبدًا لم ينظم الشعر سوى معها..

شعرًا استهله الحب، وسار بدروبه يصاحبه الخوف..

**

هنا كان الشاعر متيمًا في قصيدة امرأة أخرى حتى بترت نظمه، تتيمه، وأخبرته بفظاظة أنها تكره الشعر..

في نثر العشق هو متفانٍ، مغرم حتى النخاع، هائم على وجه اللوعة والألم..

وفي واقع متاح، هو المطعون المُخان الذي نالت منه خديعة الهوى..

لكن إن كانت قصيدته التي أنشد أبياتها على قلبه لم تنتهِ كما يليق، فهو لن يكتب بعدها أبدًا وحتى الممات..

الحياة تمنحنا دروسنا بالوجع.. بالقسوة.. بالخسارة والفقد، أحمق مَن أهمل ولم يتعلم، وناجٍ من أدرك أن الدرس لو تكرر؛ فيه ومعه النهاية، لذا يستوعبه بعد اللدغة الأولى.. لدغة الغدر..

أسبوع من الزواج غير تام الأركان، فقد ركنًا أصيلًا منه بقراره، وموافقتها حتى وإن أتت متأخرة..

ليلة عرس لم تكتمل، تركها وحيدة بغرفة شاحبة الألوان والمحتوى، خالية من الروح والمشاعر..

سقطتْ على الفراش الواسع بها ولم تحرر دموعها، ذاك كان اختيارها.. تعلم بعشقه لزوجته الراحلة، حدثها والدها عنه.. كل الطرق التي تؤدي لقلبه يبدو أنه ردمها وتخلى عن النبض..

لذا فالمحصلة التي تنشدها هي الصغيرين..

بدلتْ ثيابها بفتور، لم تنم إلى الشروق، تعانقتْ أجفانها بتعب مع أول شعاع دافئ من شمس الشتاء، بعدها بساعتين استيقظتْ أكثر إرهاقًا، وتصميمًا..

لا يريد زوجة؛ حسنا لن تريده كزوج.. هي تفتش عن أمومتها المحرومة منها، وذاك يكفيها بالوقت الحالي حتى وإن تمنتْ بأعماقها عشقًا كعشقه..

لا.. حتى وإن تمنتْ عشقه هو..

"وجيه نصار".. رجل الفقد والوفاء..

طيلة الأسبوع التزمتْ بقاعدة الزوجة السعيدة، قابلتْ والديها ببسمة واسعة، طمأنتهما عليها.. احتضنتْ الصغير وجاهدت لتشد إليها الصغيرة..

الأمر عاد شاقًا كما البداية لكنها تعدها بكل لحظة أنها لن تكون مكان أمها، أمها لا تعوض.. وهي لا تحاول سرقتها، فقط كل ما ترغب به أن تصبحا صديقتين..

"ضي" عنيدة، حادة.. جافة كأبيها، كل ما تثق به أنها مخلصة للراحلة مثله كذلك، وهي لن تسعى لاحتلال موقعٍ لا يمكنها ملء فراغه..

انتهى الأسبوع، قررت أن تعود لروتينها الخاص.. عملها بالمدرسة!..

لكنه باغتها ورفض بصرامة لا تقبل حتى محاولة الفهم، اعترضتْ بضيق وبدأت الجدال:

- يعني إيه مش هاروح شغلي!..

شد قامته في مواجهتها بحزم باتر:

- المعنى واضح يا رحيل، مافيش شغل..

استنكرتْ بحنق:

- بس أنت اتجوزتني وأنا باشتغل، وما كانش في شرط إني أسيب الشغل..

لم يكترث لانفعالها، ظل على ثباته وجموده:

- في شروط كتير ما اتفقناش عليها، ده واحد منها..

ثبتت للحظات تتأمله، تستغرب ما تكتشفه فيه.. هو ليس الرجل الذي غير إيقاع نبضاتها، بات قاسيًا، غليظًا، مخادعًا.. نظرته تشوبها وحشية غير مبررة، ونبرته باردة بها مقت لا تستوعبه..

تراجعتْ ترمقه بفتور حزين:

- ويا ترى في شروط تانية لسه هاتفاجئ بيها!..

لم يضطرب أو ينزعج، رد بثبات جليدي:

- في الوقت الحالي لأ..

جابهته بعناد رافضة الخضوع.. هي امرأة تكره الاستسلام ولو بحق عشق، تبغض الضعف والهوان والخنوع.. لذا أصرتْ:

- ولو قلت إني مش موافقة أسيب شغلي!..

مط شفتيه بلهجة خاوية وإن حافظ على صرامتها:

- الموضوع مش محل نقاش؛ ده قراري وهتنفذيه..

باغتها مجددًا.. أغضبها..

نجح في إشعال ذهولها واستيائها:

- أنا مش مصدقة اللي باسمعه، مش مصدقة الطريقة اللي بتكلمني بيها..

قستْ نظرته لحد أجفلها:

- حاولي تتعودي عليها لأن دي طريقتي..

ثم تخطاها لغرفة نومه..

لم تستسغ الموقف برمته..

لم تعتَد تلك المعاملة حتى مع زوج سابق تخلتْ عنه حين تخلى..

تبعته ودفعتْ الباب قبل أن يغلقه فأدهشته:

- ولو مش عاوزة أتعود!..

أحنى رأسه يغزو عينيها بنظرة كالجحيم:

- مش بإرادتك يا رحيل..

بعدها اعتدل يشرف عليها بصلابة:

- أي قرار في البيت ده هيكون قراري، الخروج معايا وبس.. زيارات منك أو ليكِ مرفوضة إلا والدك ووالدتك، كل المطلوب منك تعمليه إنك تهتمي بالبيت والولاد..

وانكمشتْ ملامحه بضجر ممتعض:

- ما أظنش إنها وظيفة مجهدة للدرجة دي!..

الصدمة احتلتْ وجهها وأفكارها فعجزتْ عن الرد سوى بلعثمة مبتورة:

- أنت.. أنت..

- أنا إيه!..

الوصف عسير، المشهد بغيض.. وقلبها ينعي دقاته التي أجبرتها على صب لعناتها عليه..

هو الدافع والمسوغ الأول..

دومًا ما كان سببًا في الانكسار.. وهي لن تكرر الهوان!..

لكن كيف تهرب منه بعد أيام!..

كيف ترحل عنه وهي من اختارته!..

وكيف تداوي وجع روحه وهو يرفض الدواء!..

صمتها أمامه ترك له حرية تخمين أفكارها، أدرك أنه على طريقه الصحيح؛ سينزع المشاعر من تلك المعادلة، سيكسرها وحين تُقوِم الكسر لن تفكر به..

لا يمكنه أن يمنحها الثقة مادامت تحمل اسمه؛ لذلك فسجنه الأبدي هو مصيرها ومثواها الأخير..

راقبها تغمض عينيها، تكبت دموعها، تهز رأسها في غير تصديق وتخطو بعيدًا عنه بشتات..

لقد أجاد الاختيار هذه المرة، كل ما عليه فعله أن يستمر..

الشاعر ما عاد شاعرًا..

وقصيدته الوحيدة أحرق أبياتها إلا شطرًا أخيرًا منقوصًا لا يصلح لبداية جديدة..

**

بعض القصائد يبدأها شاعر ويموت قبل نهايتها، فتظل معلقة بين سماء الاكتمال وأرض الاندثار..

كلمات مبعثرة استحقت عنوانًا يخلدها لكن أصابها الفناء بعنفوانه..

لم تصدق أنه أتى بعشيقته لمصر.. للبيت، في غياب أخيه ومرض جده!..

بيُسر تام يعلمها بزيارتها، يود منها الترحيب بها ومقابلتها، بل استقبالها بما يليق بكونها زوجته وسيدة منزل آل "أبو الغار" الوحيدة في الوقت الحالي..

عشاء أنيق يلائم معدتها الأجنبية، خالي من الدهون والدسم الذي تكرهه هي نفسها.. مشروبها المفضل، وابتسامة مرسومة بدقة واتساع مقنن لم ترحل عن فمها الذي تصلب على وضعه ذاك بلا شعور منها..

مستنكرة تفحص الأخرى لها بتدقيق مغيظ كأنما تعقد مقارنة بينهما بذهنها.. كأنها تهتم، فلتأخذه وترحل..

بعد انتهاء العشاء وحوار مقتضب دار بين المرأتين تحت سمعه وبصره حمل معها قدح قهوته واتجها للشرفة الأمامية، استند للسياج وابتسم باهتمام:

- ما رأيك!..

ابتسمتْ بالمثل وكانت صادقة كعادتها:

- جميلة..

قطب يوبخها دون كلمة فأردفتْ باستسلام:

- حسنًا.. بها شيء ما يجبرك على رغبة القرب منها جايكوب..

عادتْ له بسمته يشوبها قسوة طفيفة:

- تصلح زوجة للشيطان إذًا!..

رفعتْ كفها تلامس وجنته بحنو عاشقة:

- أنت لستَ شيطانًا..

بطرف عينه لمحها.. تقف خلف الباب الزجاجي الضخم، تختفي بين الستائر الناعمة كأنها توقن من خيانته وتنتظرها..

تتوقع منه السيء كما المعتاد.. وفي الحقيقة هو لا يمتلك سواه، أهداها ما توقعتْ بلا تكلف!..

مد يده يحاوط كف صديقته، يضغطها لوجهه أكثر، بينما الثانية تترك القدح على السور العريض، تجذب خصرها.. ويبدأ قبلة لم تتردد في الاستجابة لها بشغف..

قبلة طالتْ حتى شاهد هروبها، ابتعاد خطواتها فتراجع دفعة واحدة أفقدتْ الغائبة فيه اتزانها.. تأملته بإدراك متأخر وانحنتْ شفتاها بقوس حزين:

- كانت تراقبنا!..

أومأ بإيجاب صامت، عاندته تحرر غضبه بقصد:

- أنت تحاول إثارة غيرتها..

- أعاقبها..

صحح بصرامة، ثم أكمل بتفنيد:

- تسترق السمع؛ فلترَ ما يؤذيها إذًا..

ارتجفتْ بألم.. تأملت ملامحه المرتاحة، عينيه والنظرة السوداء التي لا تتغير، زمة فمه الحادة المتضايقة وإن أنكر:

- أنت أحببتها!..

رمقها بنظرة هازئة، وازتْ استهانة كلماته:

- يا إلهي كالي.. توقفي عن خيالاتك العاطفية..

ولأنها بدأت طريق العناد والتحدي، فقد سارت فيه بلا رجعة:

- أراها تستحق حبك..

- حقًا!..

هزتْ كتفيها وأمسكتْ بقدحه، تتحرى موضع شفتيه على حرفه، ترتشف منه وعيناها تخبرانه عن تلاعبها:

- أنا أحببتها منذ وقعت عيناي عليها، رغم علمي بأنها هي زوجتك..

ضحك بخفوت، استند للسور بظهره ومرفقيه، يتطلع لداخل المنزل:

- سأبدأ بالشك في ميولك كالي..

- توقف..

دمدمت بها بينما تلكم كتفه، توازيه في وقفته وإن خالفته فكانت تراقب الحديقة المضاءة بأناقة بتيه..

تتذكر ملامح زوجته.. ابتسامتها المصطنعة المجبرة عليها، هي تعلم مدى قسوته حين يتعلق الأمر بما يرغب..

رغبتها في الهروب من اللقاء وثباتها بوسطه عنوة.. امرأة بريئة، نقية، ساطعة كاسمها الذي عرفت معناه منه..

هي لا تستحق الشيطان، لكن الشيطان يستحقها..

يحتاجها مهما عاند وجحد واستنكر..

أخرجتْ نفسها من دائرة أفكارها الشاردة، عادتْ إليه تنطق حروفها بدقة:

- أنا أعني تلك الهالة من حولها، هالة نور آسرة، ما إن تقترب حتى تسحبك في دوامتها للأبد..

سخر منها بغلظته المعهودة:

- رومانسيتك قاتلة..

مالتْ تحتك بذراعه، تحنى رأسها لترتكن إليه وتكابر معه برفق:

- توقف أنت عن قسوتك، امنح نورها الفرصة لإضاءة ظلامك..

أصابها حماس مفاجئ، تراجعتْ تنظر إليه بتحفز:

- أتعلم شيئا!..

صمت ينتظر تتمتها بلا فضول، لكنها أكملت قسرًا تحشر معتقداتها بعقله:

- لم ألتقِ باثنين يليقان ببعضهما إلى هذه الدرجة مثلكما..

بعدها خطت تواجهه، تعدل ياقة قميصه وتريح كفيها فوق صدره:

- عندما تخبو هي؛ تذوب فيك..

ابتسمتْ بوجع، تعانقتْ أجفانها في خضوع لما رأت وإن لم يرَه هو:

- وعندما تتألق؛ تذوب أنت فيها..

عقد حاجبيه وكاد ينهرها على أفكارها الحالمة.. أفكارًا لا تناسبه وهي خير من يدرك، وضعتْ سبابتها تضغط شفتيه، تمنعه بدفء:

- ربما ما يملأك نحوها لا تستطيع تسميته لأنك فقط تجهل كنه تلك المشاعر، لا تعلم كيف يكون الحب!..

تحركتْ كفها تهبط لموطن قلبه، تستشعر نبضه الرتيب وتهمس بأسى:

- لكن ما تشعر به هنا حين غيابها، وقت حزنها أو غضبها، وهي بين ذراعيك.. تلك الرفرفة والانقباضة والألم الذي يعتصر قلبك..

تنهدتْ بحرارة يغزوها اليأس:

- اسمه حب..

- هذا لا يمكن تسميته بالحب أبدًا كالي..

بادر بنبرة قاسية، عتمته تسيطر عليها وعلى نظرته بلا ثغرة تسمح بمرور النور:

- ماذا تسمي ذلك التكامل إذًا!..

اعتدل في وقفته يبعدها عنه:

- كما قلتِ تمامًا.. تكامل..

أدار ظهره إليها يناظر اللاشيء، تناوشه حيرة يبغضها..

ذلك الارتجال الذي لم يحسب خطواته فبات يتخبط بمتاهته ثائرًا هائجًا.. معاقبًا:

- بها شيء أريده.. شيء ينقصني، وبي شيء يغيرها..

جاورته تستند للسور، تتطلع للبعيد.. أذنيها معه، قلبها تحت قدميه، وبصرها ضل طريقه خارج حدود المجرة:

- أنا لا يمكنني منح المشاعر..

ذاك توقن منه..

كم حاولتْ معه، منحته ومنحته، أغدقتْ عليه، أغرقته!.. لكنه جاحد، جامد كحجر لا يصلح للتشكيل أو تغيير صلابته، خالد في هيئته العبثية الأولى:

- بل حتى لا أستسيغ مذاقها عندما تُمنح لي..

تذكرتْ رد فعله عندما أخبرته لأول مرة عن حبها.. تصلبه، غضبه المباغت، انتهاء اللحظة بأسوأ صدمة:

- أنتشي بها نعم، لكنني أفضل السلبي منها.. الخوف، الكره.. أمنح القسوة وذاك كل ما أملك..

مرتْ بكفها على ساعده بدعم:

- لم تكن قاسيًا على الدوام..

سخر بحقيقة لا مناص عنها:

- ليس معكِ..

- معها!..

وافق بإيماءة طفيفة شاردة:

- معها أحرر كل غضبي كالي، أفجر حممه الخامدة كلها بوجهها..

راقبتْ شروده بحيرة وخافقها رُغمًا عنها تتسارع نبضاته بوجع.. وفقد على مرمى البصر مهما أنكرته هو واقع ملموس:

- وماذا تفعل هي!..

مط شفتيه ببسمة غامضة، منتشية:

- تحترق..

- ثم!..

تأجج فضولها بمزيد من نار تنهشها وتواريها واجهة الكتمان:

- في الصباح التالي...

بتر استطرادته لحظات، يلف وجهه إليها، يتأمل لهفتها بمكر:

- تشرق..

كلماته اخترقتها كطعنة موت، نحرت عنق العشق بسكين ثالم، في كل ثانية تتألم ولا تنتهي.. حبه بداخلها لا يفنى:

- لمَ لا تشرق معها!..

همستها بحشرجة تغافل عنها بكامل رغبته، بينما قسوته تتلبس نبرته بتلقائية:

- أنا الظلام عزيزتي..

أرجفها ما عرَّف به نفسه وإن كانت لا تنكره، عاندته بلهجة لطيفة:

- تهزمك صباحًا إذًا..

ابتسم بغياب في الهاربة قبل دقائق..

هي حربه التي تمنحه السلام كلما تبادلا إطلاق النيران..

ابتسم ونشواه تظهر في قتامة عينيه كليل بلا قمر، ليل ينتشر فوق صفحة دُجنته وهج نجمات متفرقة تخص زوجته:

- وأمحو سطوعها في عتمتي ليلًا..

ندتْ عنها ضحكة خافتة مبتورة.. سعيدة لأجله، حزينة لأجل نفسها:

- علاقة لطيفة كما يبدو..

أعلن بوضوح وبقايا ابتسامته تنحسر:

- تعجبني علاقتي بها لا أنكر..

تلبستْ نبرته جدية.. شاب نظرته حزم، وأكمل كأنما يعيد كل الحسابات الممكنة بعقله في هذه اللحظة:

- هي امرأة قوية رغم كل العقبات، تتحمل أسوأ ما فيَّ ولا تنهار..

ثابت البسمة لشفتيه وبريق مقلتيه يتصاعد فيكاد يضئ ظلمة المكان:

- تنهض أكثر قوة وشموخًا بعد كل سقوط..

يفكر بها، تحلق أفكاره في سماء تخميناته لما تفعله الآن بعد المشهد اللطيف الذي أهداها إياه عامدًا:

- قوتها هي مصدر قوتي..

غمزها بتلذذ كأنما وجد إبليس نشواه أخيرًا في الاستحواذ عليها.. بالسيطرة، بالوسوسة، بالنار:

- وهي دائمًا متجددة..

سيبعثر القصيدة.. ينثر أحرفها في الهواء كرماد، سيترك نظم الكلمات لشاعر يتقن الشعر.. ويرويه..

أما هو!..

فجحيمه أولى به.. وبها..

**

هو شاعر عاشق، سخَّر شعره لقصيدة امرأة واحدة..

في المدح والهجاء، الغزل والحب والفقد والرثاء والاشتياق..

حروفه منغومة باسمها، كما نبض قلبه الموشوم بها.. حتى وإن أزال الوشم يظل الأثر يثبت أنه كان هنا.. بل سيظل..

العشق له، هو كل التناقضات الممكنة..

القرب والتنائي..

الحنين والتناسي..

التوق واللهفة، والهروب..

العشق له أسر لن يتحرر منه بعدما اختار الخضوع..

وقد بدأ يرى صداه بعينيها!..

في نبرتها، فرارها منه، رجفة يدها حين مصافحة، وشرودها الذي اقتنصه عدة مرات..

حاول دفعها للاعتراف، للتصريح.. أو ربما حتى لزلة اللسان بكلمة، بنظرة يريدها أن تعلن تسلله للقلب رُغمًا عنها، وهي على عنادها وكبريائها.. تكابر وتفر وتجبن..

كانا في اجتماع مغلق مع مندوبة إحدى الشركات للاتفاق على صفقة محدودة، امرأة ذكية، سمراء جذابة، أنيقة فازت بمعظم شروطها التي وضعتها بلباقة وعملية تحسد عليهما..

امرأة كما يبدو أثارت غيرتها وهي تتآلف معه بشكل سلس وبسيط أشعل شرارة استيائها وحنقها الذي أنكرته فافتعلتْ التجاهل وتظاهرتْ بالغفلة..

في وقت مستقطع قرب نهاية الاجتماع نهض يعيد بعض الأوراق فوق مكتبه، تبعته السمراء الجميلة تثرثر معه فيما لم تسمعه، صوتها كان هادئًا لكنها راقبته بتدقيق..

يبتسم لها بوسامة، يرفع حاجبيه دهشة ثم يخفضهما بقبول ما، يومئ برأسه في تقدير، يعقد ساعديه أمام صدره، يفكهما، يلوح بكفه ليشرح شيئًا..

تضحك المرأة.. ويضحك!..

يضحك حتى أن صوت ضحكته وصلها فضمتْ قبضتيها بضيق حانق أسفل طاولة الاجتماعات، وغادرتْ الغرفة من بابها البعيد بخطوات واسعة غاضبة..

أما هو فتفاجأ بالأخرى تميل نحوه ببسمة ماكرة:

- اتنرفزت ومشيت..

استدار للخلف يدرك مقصدها، وجد مقعدها فارغًا لكن هالتها المغتاظة تركت أثرًا رسم بسمة شاردة فوق شفتيه:

- عاوزها تغير، ولا بتعرفها إنك مكمل من غيرها!..

عاد إليها بدهشة مستغربة:

- هو للدرجة دي أنا كنت مكشوف!..

هزت كتفيها محافظة على بسمتها:

- عينيك صافية قوي، كل أفكارك تقريبًا مرسومة فيها..

حك مؤخرة عنقه بحرج واستند بكتفه لجدار يجاوره:

- دُچى كانت مراتي..

نقرت فكها بسبابتها في تخمين صحيح:

- إمممم، عاوزها ترجع!..

اعترف بلا التفاف:

- باتمنى..

لملمتْ أوراقها وبدأتْ في الاستعداد للرحيل، أهدته خاتمة ربما لم يرها بعد بكلمات محدودة:

- جرب تسألها..

عندما صمت مستنكرًا، متوجسًا أردفت برقة:

- نظرتها النهاردة بتقول ممكن تفكر..

تابع خطواتها بحيرة، مسح وجهه وأغمض عينيه بتنهيدة قبل أن تعلو شفتيه بسمة مبهمة، ينشغل بعمله حتى نهاية اليوم، بعدها يذهب لمكتبها القريب من مكتبه، يقف وراء بابه المشرع بعض الشيء، يتأملها..

انشغالها، تركيزها، تقطيبتها التي أنبأه حدسه بسببها فنبض قلبه..

نقر الباب برفق، رفعتْ وجهها للطارق ورأته، تضاعفت التقطيبة واستقامتْ في إشارة لمغادرتها عقب انتهاء الدوام:

- خير يا منذر!..

دلف للداخل بخطوتين ثابتتين، وقف يواجهها ومقلتاه تلمعان بما لم تفهمه:

- إيه رأيك نتعشى سوا قبل ما تروحي!..

أولته ظهرها تغلق حقيبة حاسوبها المحمول، تتناول هاتفها وترتب مكتبها:

- معلش مش هينفع، بابا بيعمل عشا كل يوم وبيستناني..

خلل خصلاته ببطء هادئ، نبرته تسللتْ إليها شقية مداعبة:

- طبعا لو قلت لك اعزميني زي المرة اللي فاتت أبقى زودتها مش كده!..

اعتدلتْ تحافظ على صمت قصير..

التفتتْ بإثره نحوه، ترمقه بنظرة فيها شيء من عتاب وضيق:

- أكيد لأ.. أنت عارف إنه...

- بيحبني!..

بتر كلماتها بتتمة يدركها.. لكن الإيحاء المقصود وصلها..

يُعلمها أن ما بقلبها إليه قد بدأ يطفو لسطح العين والنظرة واللهفة و.. الغيرة!..

ما شعرت به قبل ساعات لم تمر بمثله من قبل..

كان يبتسم لسواها، يضحك فتزداد ملامحه الرجولية وسامة.. تدقق في تفاصيله وتلاحظ سحرها.. تنجذب وتخشى السقوط..

السقوط مؤلم، مخيف.. يكسر!..

لكن عجلة جاذبية العشق تُخضعنا قهرًا، تجبرنا على الاستسلام لها، نهبط بسرعة ألف نبضة في الدقيقة، وينال القلب ما يناله من وجع..

من شوق وتوق..

من جنون ووجد..

أرجعتْ خصلاتها وراء أذنها بخجل وأهدته بسمة غريبة عليه..

بسمة تخصه.. تخص اللحظة:

- أيوة..

توهجتْ عيناه باستيعاب فابتعدتْ بهروب:

- هتيجي!..

اقترب خطوة مدفوعًا بالغرام والتشبث:

- عاوزاني آجي!..

هزتْ كتفيها وحملتْ حقيبتها، تخطته للباب وقبله توقفتْ دون استدارة بنبرة مشاغبة:

- مافيش مانع..

يبدو أن القصيدة ستغير مسارها..

ستسلك درب الهوى، وتجبر الشاعر على الركض معها..

علَّ التيه يكون من نصيب أهل العشق..

**

هي ليست القصيدة رُغم كونه شاعرًا، في زمان ما احترف الكلمة ونظم القوافي والسقوط بين أوزانه..

احترف الغرق في بحوره وأهداها وحدها ديوانه الأول، والأخير..

فبعد الفراق لم ينظم بيتًا واحدًا كأنما سحبت ببعدها كل ما غزله القلب من حروف في أنشودة مبتورة..

والآن بعد اعتناق الحرية، بعد عودة الطائر الشريد رفضته، وكلما تقابلا رمقته بقسوة ورحلت عنه.. لكنه اليوم قرر أن يقتحم عقر دارها!..

أو بالأحرى ناديها الصحي..

بزي رياضي نصفه رمادي والنصف الثاني داكن الزرقة دخل للمكان، للمصادفة وجدها تمارس العدو فوق أحد أجهزة السير، تعقص خصلاتها النارية في ذيل حصان يتطاير مع ركضها كألسنة لهب تخلفها خطواتها..

لمحته فأخفضتْ بصرها تتابع جهازها، تزيد من سرعته وتتجاهله بالكلية مستمرة فيما تفعل كأنما لم يطرأ على المشهد تغيير يذكر..

استغل الجهاز المجاور لها، بدأ في السير بهدوء، أسرع قليلًا وعيناه تختلسان النظر إليها بين كل فينة وأخرى حتى تفاجأ بها تغمغم بسخرية:

- هتقع..

ابتسم وركز في خطواته:

- وقعت من زمان..

رفعتْ حاجبًا متهكمًا..

توقفتْ بتدرج قبل أن تهبط من فوقه، تتجرع بعض الماء البارد وتترك عامدة بعض القطرات تسيل حول شفتيها، وتنسل إلى عنقها العاجي بإغواء مقنن:

- مش لايق عليك الدور ده على فكرة، وكمان cliche..

تابعت نظرته القطرات مستجيبًا لما تدفعه إليه..

تفهمه ويفهمها واللعبة بينهما أحيانًا تتخذ مسار المتعة، تأملها بتقدير لفتنتها التي انهزم أمامها العمر في حربه:

- نجرب دور غيره..

اتجهتْ لمكتبها فتبعها، لم يحتج لدعوة.. كان يدرك أنها تتوقع ذهابه، والموقف لا يستدعي رد فعل مخالف..

أغلق الباب من خلفهما، راقبها تتوجه لحمامها الخاص، تقف أمام المرآة، تحرر شعرها من ربطته وتحركه بأنوثة هي بارعة في استغلالها حد الجحيم، تمد يديها إلى طرف سترتها في استعداد لخلعها، تسأله من فوق كتفها بنظرة جانبية مستهينة:

- هاخد شاور، تحب تشاركني!..

ابتسم، تحرك نحو أقرب مقعد وأشار إليها بسبابته ووسطاه في تحية عابثة:

- المرة الجاية، ومش هاستنى دعوة..

ضحكتْ بنعومة مغوية وواربتْ الباب دون أن تحكمه عامدة:

- Ok.. suit yourself..

سمع صوت جريان الماء وترك لخياله العنان كما أرادتْ منه تمامًا، يسعده أنهما دومًا على ذات المسار حتى وإن تباينت المقاصد!..

بعد ربع ساعة خرجت بثياب عملية مناسبة، تساوي خصلاتها بأصابعها وتقف قبالته:

- ممكن أفهم سبب الزيارة دي!..

استقام يواجهها، يسيطر بطول قامته فيجبرها على رفع عينيها إلى عينيه:

- كنت قريب من النادي فقلت....

- تؤ..

ودنت منه، تداعب ياقة قميصه القطني بأناملها:

- لما تكدب، اكدب كدبة مقنعة.. بلاش استغفال..

أمسك بكفها، قبض عليها برفق وهمس بنبرة رخيمة:

- ومين قال إني عاوزها مقنعة!..

فردها، أحنى رأسه يلثم ظاهرها بتلكؤ:

- أنا عاوزها كدبة مفضوحة وساذجة..

قلبها ودفن شفتيه فوق خطوطها بتتابع:

- عشان السبب الحقيقي يكون واضح زي الشمس..

سحبتها منه بغتة وأدارتْ له ظهرها بضيق لم تفهم سببه..

اللعبة لا تعجبها بهذه اللحظة.. لا تحبذ حضوره، وجوده حولها، سعيه في قرب شُفيت منه بالألم والوحدة والخسارة:

- اللي هو!..

خطوة أخيرة جعلتْ همسته تلامس أذنها:

- وحشتيني..

سكنتْ لدقيقة كاملة لم تتزحزح خلالها وكذلك هو..

بنهايتها ابتسمت بتهكم طفيف سرعان ما وارته بقناع جدية بينما تلتفت إليه:

- وبعدين!..

شاكس أطراف خصلاتها قرب عنقها بإصبعه:

- ولا قبلين..

هزتْ رأسها بمكابرة غاضبة:

- عاوز توصل لإيه يا مالك؟..

- عاوز أوصل لقلبك يا نيروز..

كادت تضحك.. تهديه ضحكة مجلجلة ربما لا تتوقف إلا بالموت، لكن جديته التي نطق بها الكلمات منعتها..

تأملته بغموض، أفكارها تتقاتل في صراع حاسم مشتت بين سماء وأرض..

بين مشاعر يعرضها لم تعد تلائمها، وسخط تركه بروحها وعقلها عندما رحل في المرة الأولى..

ابتسمتْ بقسوة ونظرتها تغيم ببرود:

- مش سهل..

ابتسم هو برقة وأجاب بثقة:

- كل اللي محتاجه فرصة..

امتد لقاء النظرات لدقيقتين طويلتين انتهتا بقبولها، ترمش بلطف وتوقع العقد ببسمة دافئة:

- فرصة واحدة..

صافحها واحتفظ بيدها بين يديه:

- اتفقنا..

لكن الاتفاق لم يعُد بين الشاعر ووحي إلهامه الحي..

بل بات بين النار، والحطب التي تشتهي هي تحويله لرماد محترق!..

**

كانت وجبة شعرية أراد التهامها دون مقبلات، وكان في ظنها شاعرًا يمكنه أن يتلو على قلبها قصائده فقط لو استجاب وكتبها..

الآن أبياتها باتت ثقيلة، حروفها مبعثرة، استحال عليه تركيبها اللغوي في كلمات، اعتزل الشعر كما اعتزل العشق واختار الهجر..

يعيشان معًا دون أن يكونا معًا..

حياة مملة، باختيارها واستمراره.. عمل، وجبات روتينية، فيلم ينشغل عنه بأوراق مبهمة، أو بحاسوبه، والصغير الذي يمثل بهجة المنزل الوحيدة..

وصلتْ معه لحدود الاعتياد، وهو قبع عند أطراف مدينة الخوف والعناد، وكبرياء الرجل الغاضب بداخله..

تفتش فيه عن عاشق ويرفض الخضوع لدور لا يليق به، لا يشبهه..

في حياة ماضية لم ينبض قلبه، وفي الحالية شُق عليه النبض، يشعر بالحصار والضيق والحزن والشوق..

يرغب بالهروب كما ينشد طمأنتها بما تستحق..

وكل الأمور بين يديه عسيرة.. مستحيلة..

عاد من العمل متأخرًا بقصد، كان يظنها ربما استسلمتْ للنوم تتهرب منه مثل الأيام الفائتة لكنه تعثر بها في استقباله.. بملامح مصمتة وإن كانت العيون تصرخ به..

تصرخ بالحب، باللوم، بالعتاب، بالحزن والهزيمة..

منحها بسمة باهتة وازتْ بهوت نبرته:

- مساء الخير..

لم ترد التحية أو تكترث بما نطق، هي لديها خبرًا تخشى مردوده، وكل ما تملكه هو التصريح به، وقفتْ تواجهه بنظرة تخلت عن جميع انفعالاتها السابقة واستقرت بمرحلة الجمود.. الفتور والاستسلام:

- أنا حامل..

ربما لو هوت فوق رأسه ألف قنبلة لما كان الفزع استوطن ملامحه لهذه الدرجة!..

اضطربتْ عيناه، اختلجتْ حدقتاه برعدة أشبه بزلزال، والهلع أقرب لخبر سقوط جبل.. والجبال لا تسقط، الجبال شامخة، أوتاد قوية تتوازن بها الأرض..

لكن الجبل سقط على قلبه وروحه في وقت واحد مع كلمتيها اللتين نطقتْ بهما دون مقدمات كأنها تعاقبه..

ما فعله بعدها هو أن تراجع خطوة، تصلب لحظة، اقتربها مجددًا، قبض على مرفقيها يهزها برفض باتر:

- لأ..

تجمدتْ بين يديه بذهول..

يرفض الحب؛ وذاك تعرفه..

لكن يرفض طفله الذي تحمله!..

- يعني إيه لأ!..

ثم تملصت منه تكررها بزعيق:

- يعني إيه لأ يا عدي!..

زعق في المقابل وإن كانت نبرته قد تخطت حدود التعقل إلى هوامش الجنون والهياج:

- يعني لأ يا رهف، أنا مش عاوز ولاد..

لم تصدق ما قاله..

رمشتْ ترمقه بصدمة جلية ترسم وجهها:

- عاوزني أنزله!.. أموت ابنك!..

ارتبك لثانية.. تيبس يفكر والثانية لم تزِد:

- أيوة..

تحكم بمرفقها يعتصره بغلظة:

- أيوة نزليه..

ورجَّها بلا اكتراث للخبر والحالة والوجع الذي ينهش البادي منها والمختبئ بين جدران الروح:

- ده مش التمن..

عقبها نفضها عنه وتحرك بعشوائية في المكان:

- ده مش التمن اللي هتشتري حبي بيه..

لم يلحظ تجدد صدمتها، انشداهها، الاستنكار والرفض.. لم ينتبه للألم ولا الطعنة التي سددها بدقة لعمق قلبها النازف أمام ناظريه دون أن يراه أو يشعر به:

- مش طفل اللي هيخليني أحبك يا رهف، ما تكرريش الغلطة..

اقتنص مابينهما من مسافة بوثبتين واسعتين مقررًا بحسم قاطع:

- هتنزليه..

بعدها تراجع.. لم يحِد ببصره عنها، عيناه معلقتان بعينيها، مكث للحظات على ذات الوضع بإثرها هرب..

ترك البيت بأكمله وظل يدور بسيارته بلا هدف أو وعي..

لم يكن يعلم أين يسير!.. كل الطرق تتشابه، وكل الشوارع فارغة كروحه الغارقة في الخسارة.. والجزع..

هو رجل ثمن عشقه موت، والقلب ليس باهظًا ليستحق..

أشرقت الشمس فأيقظته من غيبوبة ضياعه، أخذ قرار العودة واختياره لم يتزعزع.. سيصطفي هذه النهاية بيده، سيحدد المصير ويقطع قبل الوصال..

وجدها تنتظره قرب باب المدخل، جالسة على مقعدها بتحفز.. إلى جوارها حقيبة ثيابها، وفي قلبها وقر الحزن والأسى..

أما بين جفنيها فقد رأى الوداع!..

استقامتْ تواجهه بجمود سقيم ولوعة الفؤاد تسحقها بلا رحمة..

كانت نظرته تتشبث:

- طلقني..

لكن نظرتها تتخلى..

بترت هي القصيدة..

رفضت الشاعر..

واشتهت الفراق..

(32)

تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن..

أو لا تأتي، فسفننا الآن باتت تنشد الغرق!..

**

نحن ما زلنا على أعتاب البدايات، حتى وإن تخبطنا بين متاهات الذروة..

في هذه الرواية ورُغم أن الكاتب يمتلك ناصية أبطاله؛ فقد ترك لهم دفة القيادة، يبحثون بعشوائية عن مرسى.. عن نجاة، لكن المرساة تسقط في غفلة منهم بمنتصف المحيط، تخبرهم أن النهاية لم تحِن بعد!..

الهدنة ليست سلامًا، التراجع ليس إعلانَ هزيمة، كما أن الدفاع ليس ضعفًا أو الهجوم قوة.. الحرب لاتزال في أوجها بين أطراف الصراع..

بين الأبيض والأسود..

بين الخوف والأمان..

بين الامتلاك والفقد..

بين العشق والبغض..

بين الثقة والخديعة..

بين الإثم والغفران..

بين الأمس.. واليوم..

بين ماضٍ دنسه خانق، وحاضر يشقى بندوب ذاك الدنس..

تلك حرب سرمدية، لم يدرك أحدهم كيف بدأت أو إن كان لها من نهاية محتمة!..

كما نهاية لحظات لم تدُم بكمال مرتقب، بين ذراعيه صرختْ.. تألمتْ، وصدحتْ بخبر أرعبه.. هي تلد!..

بأعماق البحر، في ظلام الليل، وبشهرها السابع..

أول ما بدر عنه حين أخبرته بتخمينها كان انتفاضة، تراجعًا مذعورًا وتوبيخًا نطقه لا إراديًا:

- قلت لك أنتِ في السابع، هنعمل إيه دلوقتِ!..

اعتدلتْ تتشبث بساعده، تضغطه وتعض شفتيها بأنين مكبوت:

- Are you serious؟..

استقامتْ تعتمد عليه، حاوط خصرها ببديهية:

- أنا باولد وأنت بتقول لي: I told you so!..

سار معها بضع خطوات بلا وجهة محددة.. كل الانفعالات تغمره دفعة واحدة:

- ما هو مش عارف أعمل إيه!..

استندتْ لجدار القمرة تطوق بطنها وتنثني بألم:

- أكيد في دكتور هنا، كلمهم..

مسح وجهه وأذعن مندفعًا للخارج، ظلتْ تتأوه بصوت مكتوم حتى عاد إليها بعد خمس دقائق بصحبة رجل أربعيني يبدو أنه قد استيقظ من نومه للتو، يحمل حقيبة مجهولة دخل بها للغرفة وفي ذيله

امرأة خمنت أنهما الطبيب وممرضته، أعادها "يزن" للفراش والآخر يفتح حقيبته، يسألها باهتمام:

- حاسة بإيه بالظبط!..

جلستْ بعسر على الطرف، تزم فمها وتجيبه بحروف متقطعة:

- ألم فظيع، تقلصات.. مش عارفة..

فحص نبضها بتركيز:

- بينها قد إيه!..

ردتْ بشهقة مبتورة والألم يعتصرها بغتة:

- مش عارفة بس هي مرة واحدة من حوالي ربع ساعة..

خلل شعره بتوتر ملتفتًا لزوجها وتابِعته:

- حالة ولادة..

اقترب منها "يزن" يجاورها، يضم كتفيها ويعانق أصابعها بأصابعه في طمأنة يحتاجها ربما أكثر منها:

- القبطان بيقول قدامنا ساعتين على ما نوصل مينا باليرمو..

رفع وجهه للطبيب باستفسار يائس:

- ممكن ما تحصلش الولادة لحد ما نوصل مستشفى!..

ابتسم الرجل يهديه الأمان بتأكيد:

- ممكن جدا، قدامنا حوالي تلات ساعات على ما الوضع يسمح بولادة..

بإشارة منه هرولت الممرضة تحضر محقنًا ما، تناوله منها بهزة رأس:

- الحقنة دي هتخفف الألم شوية وعليكِ تتحملي الباقي..

لكن الألم لم يخفُت.. الخوف لم يرحل..

لازمها، بينما تتمدد في فراشهما وهو إلى جوارها يحتضنها بدعم، يمسح على شعرها، يقبل جبينها، يمنحها الملاذ الذي تحتاجه فوق صدره وبحديثه الهامس..

يستشعر كبتها للوجع، للصرخات المتوقعة في مشهد كهذا ببسالة غريبة، اعتصارها لقميصه، وعبراتها التي بللته..

يبتسم ويغازلها، يمسد ظهرها، يشاكسها فيضحكها وتنتهي الضحكة بآهة وضربة واهنة لكتفه منها..

كان مرتعبًا أكثر منها، عليها وعلى طفله.. على حياة بدأت ولم يخطُ نحوها إلا بضع خطوات معدودة.. محدودة، حياة لم يتشبع بها أو يشبع، لم ينهل منها ما يكفي بعد..

صغيره عنيد مثله، متمرد على مسكنه برحمها، يريد الخروج للعالم قبل موعده..

بعد أربع ساعات، وفي مشفى قريب من الميناء أتى لدنياه..

"زين"..

زينة حياته وحياتها، والرابط الأبدي بينهما..

لم يمكنه حمله، تم نقله لحاضنة الأطفال للعناية به، راقبه من خلف الزجاج، ضئيل الحجم للغاية يكاد يزيد عن كفه بمقدار طفيف، خصلاته داكنة، بشرته محمرة وعيناه مغلقتان.. بكاؤه صارخ لا يتناسب مع ضعفه وجسده الهزيل..

أخبروه أنه بخير، فقط سيمكث ليومين بالحاضنة وبعدها يمكنه حمله، عندما عاد إليها كانت قد استقرت بغرفتها، غائبة عن الوعي بتعب، وملامحها يغزوها الإنهاك..

جلس قرب الفراش إثر قبلة طبعها فوق جبينها، ضم يدها بين كفيه مبتسمًا بخفوت حانٍ:

- زين نور دنيتنا يا زلابيا..

نام على وضعه حتى الصباح.. أفاق على ندائها الخافت باسمه، فتح عينيه لتقابله ضمة عينيها وخوفها المرتبك:

- فين زين!..

نهض يكرر قبلته لرأسها، يبتسم بطمأنة مشيرًا بلا معنى:

- في الحضانة..

- هو كويس!..

نطقتها بذعر وليد بتره في مهده، جاورها فأفسحت له قليلًا، أغمض عينيه ودفن وجهه في عنقها يتنفسها.. يحيا بها ومعها ولها:

- الحمد لله، صغير قوي، قالوا هيفضل هناك يومين بس وبعدها هنقدر نشيله..

تمسكتْ به بلهفة:

- عاوزة أشوفه..

عقب فحص الطبيب لها، وبعد انتهائها من وجبة إفطار مناسبة تأبطتْ ذراعه وسارت بصحبته ليسقط بصرها على طفلها للمرة الأولى بعد تنظيفه، فما سبقها كان ملطخًا بسائل الرحم وقد خرج من ظلمته قبل ثوانٍ.. ويسقط في القلب حبه بلا مقدمات..

ارتكنتْ للزجاج بكفيها، دنتْ منه بوجهها تتأمل ملامحه المنمنمة، تبتسم وتبكي وترتبك وترتجف، يحتضن هو ظهرها، يهبها راحة وجوده بهمس دافئ:

- زين..

سالتْ عبراتها بلا وعي، لامستْ واحدة ظاهر كفه فأحنى عنقه يشاكسها، يبدل مزاج اللحظة والعاطفة الحزينة التي تلبستها:

- شبهي..

نفتْ بعناد طفولي:

- لأ.. شبهي أنا..

- زي القمر..

أرختْ رأسها على كتفه بتنهيدة راحة.. واستكانتْ في صبر تترقب مرور اليومين الموعودين، خلالهما هاتف جده وأعلمه بالنبأ.. رحلتْ السفينة عن المرفأ دونهما وقد بُترت رحلتهما.. اطمأنتْ عليها شقيقتها، ووالديها باقٍ على وصولهما إليها ما يقرب من نصف يوم..

تعثرتْ في خطواتها والطبيب قد سمح لها أخيرًا بأن تحمله، تمنحه غذاءه من صدرها المنتفخ لحد مؤلم كأنما يشتاقه، جلست على مقعد قرب فراشه الزجاجي، حملته الممرضة برفق ودعمت جسده بعناية.. تحركت تدنو منها، تعلمها كيف تحمله، تحاوطه بيديها، ساعدها يحتوي كامل الجسد الهش ويلصقه بها..

تراه يمد شفتيه تجاهها بفطرته، تبكي مجددًا وهو يراقب بذهول كأنما المشهد الذي يدور أمام عينيه هو معجزة تقارب الخيال..

عاونتها الفتاة الشابة فألقمته ثديها، شرحت لها كيف ينبغي أن ترضعه، حاولت ودموعها لا تتوقف جوار ابتسامتها المشدوهة بالمثل كزوجها.. وأبيه تمامًا، لم ينجح الأمر.. بكى الصغير هو الآخر، بل صرخ احتجاجًا فهتفتْ بأسى:

- مش عارفة أعمل إيه!.. يزن!..

كأنما تناشده المساعدة وهو أجهل منها..

رفع حاجبيه وقلب كفيه بتوتر حائر:

- يزن هيعمل إيه يعني مش فاهم!..

انحنتْ الممرضة بابتسامة متفهمة، تدفع رضيعها قرب جسدها أكثر، تخبرها بانجليزية ركيكة:

- لا تقلقي.. المرة الأولى هي الأصعب، بعدها ستعتادين الأمر وهو سيصبح أكثر خبرة..

كان يقف خلفها فتمتم بالعربية عند أذنها بجرأة وقحة:

- من ناحية الخبرة مش قلقان..

زمت شفتيها وسبَّته بخفوت حانق ابتسم له بعبث جذاب، شعرتْ بوليدها يسحب منها غذاءه لأول مرة فانتبهتْ له..

أصابها ذهول..

كل ما يحدث جديد عليها، غريب، دافئ ومخيف لكنها تحبه..

كأنما دمائها تنسحب مع حليبه، شهقتْ باستغراب ووخزات من ألم تصاحب ضغطات الفم المنمنم، انتهت بها باكية..

في كل لحظة تبكي، هي عجزتْ عن التعبير سوى بالدموع..

دموع السعادة.. الحزن.. الخوف.. الرهبة.. والأمل..

ربما هذه ليست النهاية، ربما لم تضع الحرب أوزارها.. لكن هذه السفينة وجدتْ مرفأ أمان ترسو عليه..

هنا نحن في هدنة قد تسبق السلام..

**

هذه السفينة أبحرتْ وهي مثقوبة..

ربانها كان على علم بثقب القاع الذي لن تأتي معه نجاة، لكنه أبحر بها معاندًا الموت محترقًا في جحيمه بنشوة الثأر..

أما راكبها الوحيد فقد صعد على متنها مُرغمًا، وهو موقن من قُرب الغرق..

يعلم أن النهاية حتمية، نهاية مغمورة بالخسارة مغموسة بالألم والظلم، يدرك أن قوارب الإنقاذ معدومة.. أن البوصلة معطلة والقائد نفسه لا ينتظر المرسى..

القائد يفتش عن تيه في غياهب العتمة، بين الموج الهادر، عن حرب لا تنقطع بهدنة وإن كانت مطلوبة..

لا يرغب بالسلام، لأن المعارك الخالدة هي الملحمية.. هي الحياة التي تجاور الدم في عروقه وتمنحه كمال النبض واللذة، لأن ساحاتها التي تتأجج باللهب هي موطنه ومستقره..

حرب لم تعُد تملك القدرة على خوضها..

الآن أضحت متعبة.. تعترف وتقر وتسقط، تحتج وترفض، تهرب وتتباعد.. تكره وتغضب.. هي مزيج محترق حد الرماد، وهو نار لا تهدأ أبدًا..

يا تُرى هل ستغرب الشمس!..

يوم، ثانٍ وثالث..

تختفي في حضوره، تفكر ألف مرة، في ألف فكرة.. تشتعل بجنون، وتخبو بوهن.. تتضارب روحها بين سجال مشاعر متناقضة ككرة ركلتها أقدام كل البشر..

وهو ارتجاله الجديد معها.. فضول..

يفكر بها، يترقب رد فعلها على قبلته لصديقته التي سافرتْ صباح أمس، يراها ولا يراها.. وتراه وتعبر من خلاله كأنها بات اللاشيء..

يعاقبها.. يحرقها في جحيمه..

يحترق معها..

والتكهنات هي مالكة الموقف..

قبلة لأجل العقاب والفضول، وانتظار طال لكنه لا يريد أن يكون البادئ، الصبر لعبته، وكلما احتدم سعيرها كانت الحرب أشهى..

علم أن زوجة أخيه أنجبتْ صغيرها، رأى بهجة ملامحها وإن شابها حزن منطقي، ظلتْ منطفئة منذ تلك الليلة.. وهو يفتش فيها عن الوهج!..

وهجًا سيوقد له بنفسه عود الثقاب كما اعتاد، جنَّ الليل، طفلها نائم براحة.. وهي ساهرة خاضعة لأرق مجهد، تقلبت في فراشها بتعب، لا تدري ما يمكنها فعله..

كل الحلول التي فكرت بها غير ممكنة..

كل الطرق في وجهها معبدة بالفقد والوجع والسواد..

لا تبالي إن عاشر كل نساء الأرض، فقط تريده أن يتركها.. يحررها أولًا، لا يفعلها وهي الزوجة المكبلة، المأسورة عند أطراف أصابعه بعقد شرعي..

ناوش أجفانها نعاس فتعانقتْ بتعب، التفتْ على جانبها ولمحت شبحه قرب الباب، لم تسمع صوته ينفتح، لم يصل لأذنيها وقع

خطواته، فقط وبغتة كان هناك وضوء خافت من المعيشة يحاوطه فيمنحه هيبته ورهبته..

اعتدلتْ بقلب مرتجف، ضاعفت من ارتجافه نبرته الجافة وإن التزمت بالخفوت:

- تعالي..

تبعته دون حرف، حتى أنفاسها التي اعتادت لهاث الخوف في حضوره؛ بطيئة منهكة وثقيلة..

بغرفته جذبها إليه بحركة مباغتة ألجمتها، تراجع بها خطوتين فوجدتْ الجدار البارد يسجنها في حصاره، استند بيسراه جوار رأسها وطافت أنامل اليمنى على وجهها بتلكؤ.. جبينها.. حول عينيها.. وجنتها.. فكها.. حتى استقر إبهامه فوق شفتيها، يسير على السفلى منهما بلا معنى، وهي صامتة.. جامدة..

تجاهد في نزال مع عينيه، تعاند الهروب، وتكابر مع الهزيمة..

تسقط حتى الحضيض دون نصر..

أحنى رأسه وقبَّلها، برفق غريب.. بتمهل أكثر غرابة كأنما يتذوق بتأنٍ تمنُعها، احتجاجها.. وبرودها..

هو يألف عدم استجابتها، بُغضها، يستوعبه ويشعر به حين يظهر..

لكن الآن الأمر مختلف!..

البرود أصبح جليدًا، والرفض تبدل للامبالاة..

هي لا تكترث إن نالها، حتى وإن كرهتْ امتلاكه.. تراجع لمسافة لم تمنع أنفاسه من لفحها، غاص بأعماق موجات العسل الثائرة بصمت خلف أهدابها شبه المتعانقة..

جسدها متراخٍ، يستند للجدار بلا رد فعل..

بركانها خامد وهو يشتهي الاحتراق بحممه:

- ده استسلام ولا إعلان هزيمة!..

تقوستْ شفتاها ببسمة باهتة شبه ساخرة:

- هتفرق!..

رفع حاجبًا متباهيًا، مختالًا بشيطانه الذي حول نعيمها لجحيم:

- طبعا..

اقترب أكثر، يرتكن بساعده ومرفقه للحائط، احتلاله خانق، يقبض قلبها.. يحجب أنفاسها ويسلسلها بأغلال من نار:

- الاستسلام مجرد فقدان القدرة على المقاومة، يعني لو القدرة رجعت هتستمر الحرب..

رمقته بنظرة لا مكترثة، خابية، خالية من كل انفعال مباح:

- إنما إعلان الهزيمة معناه إن الخصم انتصر، خلاص الحرب انتهت..

هزأتْ بنبرة تشوبها مرارة:

- المفروض إننا متجوزين، الجواز مش حرب وأنا مراتك.. مش عدو..

هز كتفيه غير آبه لما نطقت به كأنما فطرته صراع دائم، بل كأنه ولد في أرض معركة لا تنتهي، بين الجرحى والموتى ونزيف الدم:

- العلاقة اللي بينا مش عادية يا شمس..

أزاح خصلة شاردة خلف أذنها، رفع ذقنها إليه ليداهم حدقتيها الهامدتين بسعير عينيه:

- الشمس والظلام؛ لازم تكون حرب..

عاندته بمنطقية الكون:

- عمرهم ما بيتلاقوا..

ابتسم بانتشاء عجيب:

- نور الشمس بيبدد الظلام، والعتمة بتطفيه بجبروتها..

بادلته البسمة بخمود:

- والحل!..

مط شفتيه بمعنى أنه لا توجد حلول، مد سبابته جوار عنقها يرسم دائرة مغلقة على الجدار:

- دايرة مقفولة، مافيش منها مخرج.. ومالهاش نهاية..

أخفضتْ رأسها وتهدل كتفيها بإحباط..

هي أخفقتْ في انتشاله من جهنم التي تربع على عرشها كشيطان مريد، فشلت في مد يد العون له.. بل الأدهى والأمَّر أنه نجح في تلويث نقاء روحها..

تريد الهروب.. تريد المخرج..

- أنا تعبت..

أعادها إليه بسطوة وحشية:

- مش مسموح لك تتعبي..

قستْ نظرتها بالمثل في مقابله فأدرك أنه أشعل شرارتها التي يتوق إليها، امتلك شفتيها مجددًا وفاز برد الفعل الذي نبش عنه بنفسها المكسورة..

أبعدته بعنف رافض تضاعفتْ له النشوة بدمه، ارتد للوراء وهمسها يطعنه بفظاظة:

- بكرهك..

- عارف..

داعب أرنبة أنفها بطرف إصبعه، نحَّت يده بغلظة:

- لو حريتي منك تمنها الموت؛ باتمنى موتَك..

رفع حاجبيه بدهشة مفتعلة فاعتدلتْ تحتل عينيه، تردف بلا رحمة:

- أنا عندي حد أتمسك بالحياة عشانه..

صمتَ ودهشته تتبدل لحقيقية..

يتأملها بغموض جابهته بشراسة لا يدري لمَ أعجبته!..

- اتغيرتِ يا شمس..

همس بها في تقرير وبسمته مستمتعة، بريق حدقتيه الداكنتين يتمازج بين طياته الاستغراب بالجذل في ألق دوامي جذاب، دفعته عنها بحدة فحررها بسلاسة، تخلصت من حصاره بتمتمة باردة استقبلها بتلذذ:

- الشكر ليك..

هل يبقى أحدهم وسط الدنس دون أن تلطخه شوائبه!..

هل يسقط بقلب الظلام دون أن تمس روحه بقع معتمة!..

الجواب الحتمي: لا..

جوابها هي: لا..

هي الجميلة التي اختطفها الوحش، حبسها بعرينه، فباتت وحشًا مثله.. حتى وإن لم ترتقِ لدرجة وحشيته..

ولته ظهرها لدقيقة خلع خلالها سترته وفتح زر قميصه باسترخاء، بترته عندما استدارتْ إليه بسؤال مستاء، تعود للدائرة المسجونة معه بداخلها:

- لما أنت مكمل معاها اتجوزتني ليه!..

عاد إليها بنظرة مسالمة للغاية كأنما الحديث لا يدور حول خيانته التي رأتها بعينيها:

- قلت لك قبل كده؛ جدي عرض علي أتجوزك..

اقتربتْ منه خطوة تتحداه، تجاهر بحق الغضب:

- كان ممكن ترفض..

ثم تهكمتْ باستهانة:

- ماظنش كان يقدر يجبرك!..

زاد على خطوتها خطوته هو، أشرف عليها وسأل ببديهية:

- أرفض ليه!..

أمسك بخصلة من شعرها فأدارتْ وجهها عنه، ابتسم وقبض على ذقنها يجبرها على الغرق في قتامة مقلتيه:

- أرفض الفرصة.. السلطة، وست ملك يميني حتى لو مجرد درجة في سلم!.. وكل ده على طبق من دهب!..

وقلب بؤبؤيه بنظرة ساخرة:

- أبقى غبي..

- أحسن من إنك تكون...

قطعتْ حديثها، فالكلمة تظهر اهتمامًا ترفضه..

الكلمة تفصح عن كونها تكترث، وهو سيفند ذلك الاكتراث بما يناسب أهوائه حتى وإن خالف حقيقته..

لا يلتزم درب الإخلاص.. ولا يعفيها من مهام ثأره فوق ما تبقى منها، رفع حاجبًا واحدًا يستفسر:

- أكون إيه!..

- خاين..

بصقتها في وجهه، راقبتْ التقطيبة التي اعتلتْ ملامحه، أكملتْ بعناد وقد سبق السيف العذل:

- خاين للست اللي عاوزها، وخاين للي اتجوزتها..

ضحك بخفوت فتغضن جبينها بغضب، يستهين بها، بما تمر به.. بالمشهد كله..

هي حرب.. أو لعبة.. وهو لا يكترث مادام القتال مستمرًا..

لذا سددتْ الطعنة التي تظنها مميتة:

- طلقني..

بروده كان هو المميت بينما يجيبها بكلمة واحدة:

- لأ..

- ليه!..

كانت أسرع منه، أردفتْ بسخط:

- أنت في جميع الأحوال كسبان..

كبَّل مرفقيها وسحب جسدها المتيبس يقربه منه، يحتل عالمها كله:

- أنا اتجوزتك بمزاجي ولمزاجي..

مال بفحيح كزمهرير شتاء أبدي، يحرقها بنظرة كالجحيم المضطرم.. والتناقض مفزع:

- ولما أطلق هيبقى بمزاجي..

دفعها بعدها يبعدها عنه، سكنتْ تتأمله من وقفتها بعين خابية، نظرة فارغة، وكل ما فيها يصرخ بالمقاومة.. بالعودة لحرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، لكنها حُشرت حشرًا كطرف لا يجوز له أن ينكص على عقبيه هاربًا كجندي مذعور..

هو نجح باقتدار في هزيمة مشاعرها..

اقتنص منها الخواء وأغرقها فيه..

امرأة العاطفة باتت جليدية القلب والروح..

جليدية كتحديقه فيها بهذه اللحظة ونبرته تحاوطها بعذاب مُهلِك لا مناص عنه:

- أو ما أطلقش خالص؛ ده قراري أنا..

حاصر وجهها بين كفيه باستحواذ تام..

تملك وامتلاك..

سيطرة وتسلط يجبرها على الخضوع:

- مش هتتحرري مني إلا بالموت..

وأنهى كلماته بهمس شيطاني:

- موتي أو.. موتك..

تلك السفينة لا نجاة لها..

خرق القاع عميق، معالجته ثمنها باهظ..

والغرق هو المصير..

**

بحر العشق غادر، يبتلع كل السفن التي تجرأتْ لتمخر عبابه، يخفيها في ضبابه حتى تصبح نسيًا منسيًا..

يغرقها بمن عليها بقسوة، يخنق معهم الأمل.. وينهي النبض..

وهي تجاسرتْ باندفاع ورعونة، بطيش عاشقة جنتْ على نفسها بجنون هواه، من طرفها وحده..

هي من غرقتْ دونه، وهو ربان السفينة الذي لم ينتبه لمن سقطت عن السطح في لحظة غفلة..

رحل وتركها خلفه، فاستسلمت للغرق..

لكنها حين حاولت النجاة، حين ظنته أفاق وعلم أنه أضاعها؛ وجدته يعود، يغير وجهته، يدير الدفة ليعبر فوق جثمانها..

في هذه القصة، قتل القبطان راكبه، ورمى أطواق النجاة جميعها بعيدًا عن متناول يديه..

لم تملك من حل سوى الفراق..

طالبتْ به، صدمته أثلجتْ صدرها، غضبه الذي تبعها أوجف قلبها، حزنها تصدر الصورة.. والقنوط نقش حروفها حتى وإن رفض بجمود فاتر:

- مافيش طلاق يا رهف..

ثلاث كلمات، تجاوزها بإثرها إلى غرفة نوم صغيره، أغلق الباب وهجرها..

ليلتها أغمضت عينيها وأنين الخافق المهموم مكبوت.. مختنق بصدرها بين قضبان الضلوع، سجين العشق والحرية..

والنقيضان أمر مستحيل..

أربعة أيام مرتْ، رحلتْ عن المنزل، استيقظ في الصباح والبيت لا يضم أنفاسها معه، حضورها.. دفء وجودها..

البيت جدرانه الباردة تشتاقها وهو يعاند كما عنادها..

أمه تنهره.. أمها تطيب خاطرها..

غاضب من الجميع، يقفل على روحه بقفل صدئ..

وبائسة هي بحق الغرام..

فكرتْ وفكر، قررتْ وقرر.. وحدث اللقاء، ذهب إليها.. خرجتْ إليه، تقابلا في وقفة مهتزة.. كليهما يخضع لزلزال من مشاعر متخبطة..

مشاعره ملعونة..

ومشاعرها مطعونة..

زم شفتيه بحزم موجوع:

- مش عاوز ولاد يا رهف..

حافظتْ على ثباتها وتماسُك كيانها المنهار أمامه:

- مش هاقتل ابني..

وصححتْ بعتاب يفيض باليأس:

- ابنك..

احتوى كفها بين كفيه بتشبث:

- مش ده التمن..

انتزعتها منه بسخط.. بمَ يفكر!..

من يظن نفسه!..

هي تعشقه وتُقر، لكنها لن تدفع حياتها ثمنًا لذاك العشق كما يتوارد لخياله الموهوم بمن سبقتها:

- ما تديش نفسك أكبر من حجمك..

بهتتْ ملامحه، أكملت هي الطعن دون هوادة:

- حتى لو بحبـ... بحبك؛ مش هادفع حياتي تمن للحب ده خصوصا وهو بالنسبة لك ولا حاجة..

ثم فندتْ بمنطقية الحدث والحياة:

- لما اتجوزنا ما اتفقناش نمنع الحمل؛ يعني طبيعي يحصل..

ارتبك للحظة بادر عقبها بالهجوم:

- كنت فاكر الموضوع بديهي..

زعقتْ تداهمه بالمثل:

- بديهي إنك تحرمني من أمومتي!..

- واسل موجود..

- واسل ابنك أنتَ..

صياح بصياح.. حزن بحزن.. ألم بألم..

والبادئ كما في كل مرة هو الأظلم، هو الأقسى، هو الأكثر كبرياءً وتجبرًا:

- هتنزليه يا رهف..

عضتْ شفتيها بين أسنانها حتى أنَّت:

- ولو مت وأنا باجهض!..

ارتجفتْ حدقتاه، تراجع خطوة، أخذتها هي نحوه بحصار:

- المرة دي موتي هيكون ذنبك بجد، مش مجرد وهم في خيالك..

حرك رأسه بعنف رافض:

- هناخد كل الاحتياطات..

رمقته بانشداه!.. يقتل طفله.. يقتلها، والعقدة لن تنفك، الذنب لن ينحل، هو فقد عقله، وهي لن تفقد جنينها لأنه مهووس بإثم دنس بنفسه يديه به عنوة:

- مش هانزل ابني يا عدي..

أشرف عليها بنظرة سوداء شرسة لم ترها في عينيه من قبل..

نظرة أخافتها..

نظرة ارتعد لها الفؤاد الساقط في هواه بلا مظلة تقيه عنف السقوط:

- ده آخر كلام عندِك!..

تحدته بصلابة هشة:

- أيوة..

تراجع خطوة جديدة.. لامها بعينيه.. وبَّخها، واستقرتْ القسوة بمنتصف مقلتيه حين نطق بلا شعور:

- أنتِ طالق..

عندما أتى.. كان بحدقتيه أمل..

وحين رحل؛ استبدله بالخواء..

طلبتْ الفراق لتؤكد له أنها لم تتعمد حملها بطفله كضريبة عشق..

وفارقها لينبئها أن أي ثمن تفكر به؛ بخس!..

الربان أغرق السفينة بنفسه..

وغرق معها..

**

هذه سفينة شراعية، بسيطة كلاسيكية ومختلفة، لكن لم يكن ينبغي لها أن تغادر الميناء!..

رفعتْ مرساتها وأبحرتْ بجهل.. لا تدرك أن الجهل مع البحر حماقة.. أن النجاة من ظلماته مستحيلة، أن أمان الوصول معدوم..

أضاعتْ الدفة وجهتها، تمزق الشراع، وفُقدت دون خريطة.. تشق سطح الموج الرمادي كضبابية السماء بلا هدف، تخضع للتيار، وتذهب معه حيث يأخذها..

تأمل أن ترسو على بر أمان، والأفق الفارغ من حولها ينحر عنق الأمل في المهد..

أنتِ تائهة اخترتِ سبيل الضلال، والعشق بوصلة معطلة على متن جروح الأمس..

أسبوعين من الزواج، وهما كالغرباء..

الغريب الذي بالكاد تلتقي به في المنزل، تعتني بالصغار كما اعتادتْ، وتنسحب حين يظهر.. وهو لا يكترث، لقد فاز بها أمًا لأطفاله، حتى وإن لازم وجودها أفاعي الشك التي تنهش عقله وتسمم أفكاره عنها في كل لحظة..

ابنته بدأت تهدأ قليلًا بعدما لاحظت تباعدهما، رُغم غضبها الذي لم ينطفئ.. وابنه مبتهج بها، يعوض معها الأم التي فقد..

حتى أنه في هذا الصباح عندما مر بغرفة طفليه لم يجده بفراشه!..

أيقظ صغيرته يسألها عن أخيها، بتر السؤال وقتما طرقت ذهنه فكرة كتمها عنها، قبَّل رأسها ودفعها تجاه الحمام لتكتمل إفاقتها، ثم ذهب لغرفة.. زوجته!..

اللقب وصاحبته غير ذي معنى لديه، لكنه مجبر على تحمل الاثنين..

طرق الباب برفق، لم يأتِه جواب فكرر الطرق، سمع همسها من الداخل تطالب الطارق بالصبر، ثوانٍ وفتحته، تغلق مئزرًا حول جسدها وخصلاتها البنية التي يراها للمرة الأولى منسدلة بعشوائية فوق كتفيها..

نظرها كان للأسفل ظنًا منها بأنها الصغيرة لكنها تفاجئتْ به!..

رفعتْ عينيها إليه بارتباك لم يره بالمرة، عقد حاجبيه بسؤال مقتضب:

- باهي معاكِ!..

تراجعتْ تفسح له بخفوت متمهل، وإشارة من سبابتها فوق شفتيها تأمر بالصمت، مط عنقه عبر الباب ليرى ابنه متكومًا بمنتصف الفراش الواسع كأنما كان بأحضانها، عقد حاجبيه وعاد للخلف بنظرة صارمة أجبرتها على الخروج إليه:

- جالي من حوالي ساعتين، كان خايف وعاوز ينام في حضني..

نظرته الجامدة لم تتبدل، بل قستْ أكثر:

- مش المفروض إنه يتعود على كده..

أومأتْ توافقه بهدوء، تناضل لأجل استحضاره معه:

- عارفة.. بس دي أول مرة، كان لازم أطمنه..

سكَنَ قليلًا ثم لوح بكفه بلا هدف:

- ضي لو عرفت هتضايق..

كررتْ الإيماءة وعادتْ للداخل ترمق النائم بحنو:

- هاصحيه عشان يفطر معانا..

تجاهل التعبير..

تجاهل جمعها له معهم بصورة واحدة..

هو هنا خارج الإطار، إلا مع طفليه.. بخلاف ذلك فليس من شيء بينهما، ولن يكون..

هز رأسه وهبط للطابق السفلي، فتح هاتفه يتصفح بريده وآخر أخبار العالم، يلهي ذهنه عنها وعن كونها باتت زوجة بعدما استوطن المقت قلبه تجاه كل النساء..

سمع وقع أقدامهم، عندما كانت الخادمة تضع الأطباق على مائدة الطعام، جلست "ضي" عن يمين أبيها بكبرياء يليق بها وبه، وهي عن يساره في حين اتخذ "باهي" مقعده إلى جوارها، بعد دقائق من صمت خاضه الكل مجبرًا حتى الشقي الأصغر، نطقتْ ابنته ببرود:

- بابي.. المفروض تيجي معايا المدرسة النهاردة..

التفتَ إليها بدهشة وازت دهشة "رحيل" التي التزمتْ السكون بترقب:

- ليه يا ضي!..

مطتْ شفتيها وهزتْ كتفيها بلامبالاة:

- I don't Know.. بيقولوا استدعاء ولي أمر..

تغضن جبينه باستيعاب به شيء من غضب:

- عملتِ إيه!..

جمودها كان عجيبًا لا يناسب عمرها، ولا حتى يناسب فعلتها غير المقبولة:

– I broke a pen..

زوى ما بين حاجبيه بتساؤل، أوضحت على إثره بلا اكتراث:

– بتاع واحدة زميلتي، حطيته على الأرض ودوست عليه.. اتكسر..

اتقدتْ نظرته بانفجار على وشك نثر شظاياه بوجهها لولا أن أحس بلمسة زوجته المخطوفة لساعده القريب منها فوق المائدة..

لمسة مسروقة..

لم يكَد يشعر بها، ولم يرها أي من صغيريه، أدار وجهه إليها بينما يسحب يده بعيدًا كأنما لدغته أفعى!..

تغافلتْ عن ردة فعله، همستْ برفق:

– هاروح أنا مع ضي..

– أنتِ مش مامي..

هادرة، حادة، هجومية من الفتاة التي أرْدَتها بعين قاتلة، ابتسمتْ لها وترقب هو ردها:

- طبعا أنا مش مامي يا ضي، بس إحنا أصحاب.. ومادام أصحاب لازم أكون جنبك لما تحتاجيني..

اصطكتْ أسنان "ضي" بصرير وصل لأذانهم صوته:

- مش محتاجة لك..

آزرتها في عنادها، تؤكد على قوتها:

- أنا عارفة أنك كبيرة، بس المدرسة طلبت...

- طلبت بابي..

تدخل هو في هذه اللحظة يترك لها زمام المشهد عامدًا، نهض يمسح فمه، نبرته يتلبسها الحزم:

- أنا مش فاضي يا ضي، رحيل هتيجي معاكِ المرة دي..

كادتْ تتمرد من جديد لولا أن رحل ببساطة كابتًا نيران حنقه عليها، سيترك لها العقاب والنصيحة..

هذه هي مهمتها هنا..

وإن لم تؤدِها على أكمل وجه، فلمَ ستحيا تحت سقف بيته!..

"وجيه..."

وجدها تتبعه، تناديه بتردد وخفوت..

كأنها ستُلحق اللقب الرسمي باسمه، لا ترى في نفسها زوجة.. ولا يحق لها أن تكسر الحدود، حتى وإن سبق وكسرها..

توقف يستدير نحوها بعدما فتح باب سيارته، خطتْ إليه بأنفاس متلاحقة كأنها ركضتْ لتتعقبه:

- ضي مش محتاجة لي، بس محتاجة لك..

قطب باستفهام مهتم:

- بمعني!..

بررتْ بعملية جادة:

- اللي عملته مجرد لفت انتباه، بتثبت لنفسها وليك إن أنا ماليش وجود، أو ماكانش يفترض أكون موجودة في بيتها، بحاول أسرق مكان مامتها..

استند بكفه لباب السيارة المفتوح، لهجته جافة ونظرته مظلمة:

- والحل إيه!..

الحل كان عسيرًا..

الحل مؤلم لها لكنها لا تبالي، الحياة بينهما بات لها روتينها، وهي لم تعُد تفتش عن انقلاب بين ليلة وضحاها:

- لازم تحس إنها أهم حد في حياتك..

- دي حقيقة..

لفظها بعجالة، وأتبعها بتفسير صارم:

- ضي وباهي أهم حد في حياتي..

رمشتْ تتقبل تصريحه بجلد:

- أنا عارفة ده، هي محتاجة تتأكد منه..

لم يكترث برجفة لمحها بين جفنيها، استفهم أكثر:

- إزاي!..

شدتْ قامتها تواجهه بثبات مفتعل..

هي تدرك.. هو يدرك..

والاثنان يسلكان درب الغفلة بقصد:

- ما تعتمدش على وجودي، قرب منهم.. منها تحديدًا، أنا بس اتدخلت النهاردة لأني محتاجة أقابل المدرسين بتوعها..

زمتْ شفتيها تكبت وجعها، تعود للداخل بتوضيح أخير:

- أنا بالنسبة لهم مجرد مربية مش أكتر، لازم ضي تتأكد من ده..

تنفس بعمق.. يرى الوجع ويتعامى عنه، يوافقها بتفكير، يهمهم بلا مغزى ويرحل..

راقبته يقود سيارته مبتعدًا، والأمنية التي ناوشت القلب في يوم ما تضمر.. تتلاشى ببطء، ترحل عن سماء الخيال لأن الواقع هو الحد الذي لن تتجاوزه أبدًا..

بعد ربع ساعة كانت تجاور الفتاة في إحدى سياراته، يقودها سائق عجوز طيب الملامح هادئ النظرة.. حادثتْ معلمتها، فهمتْ المشهد وأدركتْ أن الصغيرة فعلتها عامدة، مكابرة بنزق ورعونة..

رفضت الاعتذار لزميلتها، عنفتها المعلمة والتقطتْ هي طرف الخيط، عند انتهاء اليوم الدراسي وجدتها بانتظارها في السيارة، استقبلتها بخطوة أولى من خطة طويلة المدى تعيدها بها قربها:

- هنتغدى سوا في ماك عشان بتحبيه، بعدين هنشوف فيلم مولان الجديد..

لم تُحِر جوابًا، اكتنفهما الصمت وكانت تتوقعه..

في ختام يوم غالبه السكون والجمود والمشاعر المتنافرة، وضعتها بفراشها.. ربتتْ على خصلاتها ودثرتها بعناية قبل أن تهمس لها:

- من الشجاعة إننا لما نغلط نعتذر يا ضي..

كادتْ تعترض فأسكتتها بلمسة دافئة من يدها:

- إنما لما نعاند، ده معناه إننا خايفين.. سواء من العقاب، أو إن شكلنا يبقى وحش..

انزلقتْ قليلًا ليخفتْ صوتها أكثر:

- ضي اللي أعرفها قوية وشجاعة، وبتتحمل نتيجة أفعالها..

أدارتْ لها الطفلة ظهرها، انطوتْ في وضع بائس عصر قلبها:

- أنتِ مش هتكوني مامي..

حاوطتها بذراعها بعاطفة أمومية حُرمت منها، لكنها تشتاقها حد التضحية بالقلب والروح وبعض الكرامة وكبرياء الأنثى المنحورة بداخلها:

- مستحيل أكون ماما، بس أنا بحبك.. وعارفة إنك بتحبيني، كل اللي باتمناه إننا نرجع أصحاب..

سؤالها الخائف وصلها ببداية نعاس:

- وبابا!..

أغمضتْ "رحيل" عينيها.. تنهدتْ تسحب الهواء بتمهل كأنما تتذوق حروفها، تمضغها، تتيقن من نضجها قبل النطق بها..

حتى وإن استهانتْ بالقلب وأخضعته عنوة..

حتى وإن ألجمتْ المشاعر، وردمتْ عليها في قبر الكتمان:

- أنا هنا عشانك أنتِ وباهي وبس..

شعرتْ بانتظام أنفاسها فانسلتْ من جوارها، عادتْ لغرفتها تستلقي بفراشها في تعب.. في خواء..

تلك الفجوة التي خلَّفها بروحها لن يملأها أحد..

هي ما عادتْ تشتهي سوى قرب الطفلين..

سفينتها التي أبحرت بحمق؛ حددت وجهتها التي لن تحيد عنها..

وليجد لنفسه مرفأً سواها..

هذا إن كان يريد!..

**

هي ناجية من سفينة غارقة، ثقبت قاعها بيديها..

حملها الموج، سمح لها بالطفو على سطحه العاتي، نبذها مهملة على شاطئ مهجور، ستحيا.. لكن شرطه الأقسى ألا تعود للإبحار مرة ثانية..

لم يكن هناك بُدا من الاستسلام، فلو عاندتْ وقررت خوض لُجته لتتحداه؛ مصيرها الغرق..

منذ أبدى اهتمامه بها صراحة وهي تفر منه كفرارها من ضارية مسعور، سُمعته التي تسبقه في عالم النساء، حصاره، ونظرة عابثة تتحول للجرأة حين يرغب.. ثم الابتسامة التي لا تنكر جاذبيتها..

تفر.. وتلاحظ.. وتخاف..

وتنتهي دقائق الخوف بخجل التقطته زميلتها المقربة منها، وقتها تدخلتْ.. كانتا واقفتين أمام مقر الشركة، الصديقة الجديدة تنتظر مرور زوجها ليقلها، وهي تؤنس وقت انتظارها:

- ليلى.. أنا عندي نصيحة، ومش عاوزاكِ تزعلي مني أو تتضايقي وتفتكريه تدخل في حاجة تخصك..

التفتتْ لها بدهشة متوجسة، ابتسمتْ بترقب حائر:

- أكيد مافيش زعل يا أميمة، خير!..

قضمتْ صديقتها شفتيها بتردد قصير صرحتْ بعده بحذر:

- الباشمهندس إياد..

مع تقطيبة "ليلى" المتسائلة أردفتْ بقلق مهتم:

- كلنا واخدين بالنا إنه مركز معاكِ، وكلنا عارفين تاريخه.. حتى هو ما بيخبيش..

اقتربتْ منها تتشبث بذراع حقيبتها في ارتباك:

- خلي بالك على نفسك منه..

لم يكتمل الحديث، قطعه وصول الزوج فعرضتْ عليها توصيلها، رفضتْ بحرج، وانتظرتْ سيارة أجرة بينما النصيحة الغامضة تخترقها.. تخيفها أكثر، كأنما ذاك ما كان ينقصها..

تراجعتْ خطوة عندما توقفتْ إلى جوارها سيارته!..

غادرها يلتف حولها، يفتح لها الباب المجاور له، يبتسم بوسامة يدرك مقدار تأثيرها:

- اركبي أوصلك..

تراجعتْ أكثر بتوتر تعجب له:

- لأ..

برهن على أسبابه ببساطة:

- ليلى الوقت اتأخر، مافيش داعي تركبي تاكسي لوحدك دلوقتِ..

هزتْ كتفيها برفض قاطع:

- مش هينفع يا باشمهندس..

وقف يقابلها ببسمة هادئة:

- خايفة مني!..

انتهجت صراط الصراحة المستقيم علَّها تنجو من سقوط متوقع:

- كل حاجة بتقولي أخاف..

حافظ على ابتسامته وإن بث فيها شيئًا من طمأنة يراها تحتاجها..

يريد هو منحها إياها:

- بس أنا باقولك ما تخافيش..

تعلقتْ نظرتها بنظرته للحظة أخفضتْ عينيها عقبها:

- الخوف أمان..

هربتْ.. ركضتْ.. كادتْ تتعثر وبصره يركض خلفها..

راقبها توقف سيارة، تقفز داخلها، وتختفي عن ناظريه.. ضاقتْ عيناه وانحسرتْ بسمته وصولًا لضيق شبه غاضب..

لا يدري ما بها يختلف عن سواها!..

لو كانت واحدة غيرها لأسقطها في حبائله بلا جهد يُذكر، أما هي.. فمعها يشعر بعجز سحره المعتاد، معها يود المنح أكثر من الأخذ..

تلك الرجفة التي تهتز بها حدقتيها..

الانكماش.. الوحدة.. السكون..

كلها أمور تشعره برغبة القرب.. والحماية!..

زفر بحنق متجاهلًا أفكاره، عاد لمنزله ووجد آخر غزواته بانتظاره في مفاجأة غير متوقعة، عندما أغلق الباب هرولت إليه، عانقته بلهفة وهمست بأذنه:

- وحشتني قوي..

أبعدها يتأملها باستغراب:

- رجعتِ من شرم إمتى يا سلاف!..

جذبته تكرر العناق بشوق:

- من ساعة واحدة، يادوب رميت الشنطة في شقتي وجيت على هنا..

وتقوس فمها بأسى مغوٍ:

- مالقيتكش..

فكك ذراعيها عن عنقه، تحرك يخلع معطفه، يحرر رابطة عنقه ويفتش عن كوب من الماء البارد:

- كان عندي شغل متأخر..

تتبعته بناظريها في تدقيق، كأنما تنقب بخباياه عن امرأة أطفأتْ لهفته المألوفة نحوها، جلس باسترخاء على الأريكة فسقطتْ بأحضانه، داعبتْ خصلاته بسؤال ناعم:

- ما وحشتكش!..

ابتسم لها بلا شعور:

- وحشتيني طبعا..

مطتْ شفتيها قرب شفتيه:

- مش باين..

أرخى رأسه على ظهر أريكته، مسح وجهه بزفرة حارة:

- مرهق بس شوية..

استقامتْ تشد يده، تسحبه تجاه غرفة النوم، تدفعه إلى الفراش:

- هاعملك مساچ..

انتهتْ بها الليلة كما تمنتْ، نائمة بين ذراعيه.. وبه شارد في أرقٍ خانقٍ.. فوقتما أرادته وامتلكها، تبدلتْ بخياله لأخرى!..

شقراء، حزينة، باهتة النظرة، سقيمة البسمة.. وحيدة..

ويريدها..

يريدها حد رغبته في الإبحار إليها ولو عبر محيطات الأرض جميعها للوصول..

**

بعض سفن العشق تتحدى غدر البحر، تقامر مع الموج فتنهزم..

تغامر.. تخاطر.. تنتصر..

يُسمح لها بالإبحار في سلام حتى حين..

سلام لا يراه قلبه العاشق سوى بين يديها، في نعيم قربها، في جنة امتلاكها.. هي حواء السكن واللهفة.. امرأة الهوى دون حروب، وأنثى لن يقربها رجل سواه..

ما يراه بعينيها مؤخرًا هو انتصاره الذي طال صبره عليه، تبقتْ خطوة حاسمة وحسب!..

خطوة عزم عليها الليلة، إثر انتهاء حفل عشاء العمل المقام على شرف آخِر صفقاته الناجحة، أخبرها أنهما سيذهبان معًا من مقر الشركة.. عندما احتجتْ واعترضتْ بكون ثيابها الرسمية لا تتلاءم مع المناسبة ابتسم لها بسلاسة وطلب منها أن تُحضِّر ما سترتديه وتجلبه معها..

هكذا فقط..

عقب انتهاء الدوام، سحبها من يدها التي استقرت بسكينة بين أصابعه، فتح بابًا شبه خفي في جدار مكتبه فكشف عن غرفة لتبديل الثياب.. بها الكثير مما يخصه..

حلات، أحذية، ربطات عنق.. عطور!..

علتْ الدهشة وجهها ببسمة مستغربة:

- إيه ده!..

ارتكن بكتفه للجدار، عقد ساعديه في استرخاء:

- مش كتير بروح البيت، تقدري تقولي المكتب غرفة عمليات.. فلازم يكون جاهز لوقت اللزوم..

ثم توجه بخطوات واسعة خارج المكان مشيرًا إليها:

- خدي راحتك، وأنا برا..

تابعته ببصرها والبسمة لا تفارق شفتيها..

تفاصيله التي كانت تجهلها لا تدري بما تصفها؛ لكنها فقط تفتنها!..

أصابها ذهول من اعترافها المباغت لنفسها، تهربتْ من أفكارها، صفدتها قيد سجن عقلها الحائر.. تناستها وبدأتْ الاستعداد للعشاء.. تنهدتْ، زمتْ شفتيها ودلفتْ للحمام، غسلتْ وجهها وارتدتْ ثوبها..

ربع ساعة ونادته، عندما عاد للغرفة وبعد خطوتين توقف يتأملها..

نظرته تتفحصها.. تغرق فيها..

قلبه ينبض بقسوة وحسنها يأسره، ثوب أسود طويل محتشم كما هي عادتها، خصلاتها مصففة ببساطة، مسدلة حول وجهها الناعم..

تنفس ببطء بينما خجلها ينبهه لوقفته المتجمدة أمامها، اقترب يفسر دون مواراة:

- هتفضلي أجمل ست في عينيا..

أبعدتْ خصلة عن وجنتها واستدارت للمرآة الطولية تنشغل عنه.. تهرب منه.. تعاتبه وتشتهي المزيد:

- منذر!..

وقف خلفها فتلاقت الأعين في انعكاس لامع، مال برأسه قليلًا وهمس متغافلًا عن عتابها:

- فاضل لمسة أخيرة..

تفاجئتْ به يحاوطها بذراعيه، تصلب جسدها لتجده يطوق عنقها بقلادة لم تلمح تفاصيلها وهي منشغلة بقربه الشديد منها..

أبعد شعرها بيده، أحنى عنقه أكثر يدقق في القفل حتى أحكم إغلاقه.. أنفاسه لامستها فارتعشتْ، رمشت تتأمل الماسة الزرقاء المتدلية منها لتتوسط تجويف الترقوة باستنكار:

- منذر.. كده كتير..

ابتعد بعض الشيء وعينه تحتلها.. لا تحرر عينيها، بل تأسرها إليه:

- مافيش حاجة كتير عليكِ أبدًا..

ابتسم بعشقه الخالص الذي لم ينقص في يوم:

- الماس الأزرق نادر قوي، والدرجة دي.. تشبه لون عينيكِ في ضوء النهار..

اختنقتْ بهمس مبهم تجاهله، التقط سترته من مشجب قريب، ارتداها وأشار إليها لتتقدمه فخضعتْ كالمنومة..

لم تعلم أتريد لتلك الليلة نهاية.. أم تتمنى لو طالتْ حد الخلود!..

انتهى الحفل، أوصلها لمنزلها.. أسفله فتح لها باب السيارة، أمسك بكفها يساعدها في النزول، أغلقه ولم يبتعد..

وقف يواجهها بصمت لم تُحِط بأبعاده، بادرتْ بأول فكرة طافتْ بذهنها:

- ممكن أفهم الهدية دي ليه!..

غاص بأعماق زرقة مقلتيها الداكنتين في ظلمة الليل:

- أنا متعود أجيبلك أي حاجة بحسها ماتناسبش حد غيرك..

- أيوة بس...

أوقفها بحسم قاطع:

- مش هاغير عادتي..

تلو ذلك ابتسم بخبث لطيف يناسبه:

- وعلى الرغم من كده؛ في سبب..

رمقته بتساؤل تنهد معه.. سحب دفقة من الهواء بعمق، زفرها بتلكؤ كأنما يفكر في كل حرف سينطق به، قبل أن تتلبس لهجته جدية حازمة:

- أنا عاوز نرجع لبعض..

ثوانٍ من صدمة هي كل ما امتلكتْ، لأنها عندما حاولتْ الرد أسكتها:

- خدي وقتك قبل ما تقرري يا دُچى..

فاض العشق من نظرته بلا حاجز أو حجاب:

- أنا عندي استعداد أستنى عمري كله..

حينها تفرقتْ أجفانها باتساع، بحياء مذهول.. ركضتْ تفر منه وقلبها ينبض بقسوة، يطرق ضلوعها بانتفاضة عشق..

يخبرها أنها تسقط..

تغرق.. ولا يهم..

ما يهم أنها وقبيل استسلامها للنوم بثوانٍ بعثتْ لهاتفه برسالة..

كلمة واحدة..

"موافقة"..

ربما البحر سيسمح لتلك السفينة بالنجاة..

فبعد كل شيء، الموج العارم قد سئِم حماقة ضحاياه من أهل الهوى المخبولين..

**

هذه سفينة قائدها جنح بها عمدًا..

سار بها وراكبها غافل عن نواياه، بقلب دوامة التيه فجَّر الجدران، تركها للغرق بعدما قفز منها.. وقف على بُعد يراقبها تنقسم، تدور بعشوائية، تسقط نحو القاع، تستقر به..

حتى وإن قاتل الراكب للنجاة.. ونجا!..

عاد من العمل، شاهدها تصفف شعرها أمام المرآة بشرود، وقف قربها ولم تلمحه.. لم تلحظ حضوره..

كانت غارقة تمامًا في أفكارها الخاصة..

في طوف الإنقاذ الذي تجاهد لجمعه والهروب به من وجار الذئب..

غارقة فيما حدث منذ أيام، في رؤيتها لأخيه الأصغر يتلاعب بالخادمة الحمقاء..

هذه ثغرة إن لم تتسلل منها لن تجد سواها..

أفاقتْ من غيابها على كفيه تحاوطان عنقها، الوضع خنق.. واللمسة هادئة، المشهد مثير للريبة، وعينيه تخبرانها أنه لو أراد لقتلها!..

لكنه يتسلى، فاللعبة ممتعة رُغم جهله بقواعدها المسنونة..

انثنى بجذعه يطبع شفتيه فوق وجنتها بقبلة متملكة، همس بعدها بأذنها بمكر:

– A penny for your thoughts..

"قرش لأجل أفكارك"

ابتسمتْ بمكر مماثل وأدارت وجهها تبادله الهمس بأذنه:

– Not even a million..

"ولا حتى مليون"

تقطيبة خفيفة ناوشتْ جبينه، تراجع وأقامها بين ذراعيه:

- قتل برده، ولا حاجة أعنف!..

عانقته دون تأخير.. بيسر تام، داعبتْ أنفه بأنفها بنعومة:

- ما تستعجلش..

عادتْ إليه بسمته، لكنها ازدانتْ بالقسوة، بالقتامة، والغيمة الداكنة تظلل نظرته رُغم ثبات النبرة وهدوئها:

- أنا راجل صبور لأقصى حد..

وبدأ قبلة تركتها مختنقة بأنفاسه محرومة من أنفاسها:

- عارفة..

ثم غمزته بخبث مرح:

- المهم تكون عارف إنه من يضحك أخيرًا؛ يضحك كثيرًا يا عمار..

ضحك بالفعل وباستمتاع كلي:

- المهم أنتِ تكوني متأكدة أنك هتضحكي من الأساس!..

بعدها تمم المشهد كما رآه.. بامتلاك، بوصمة أضافها لروحها كما في كل مرة يقربها..

عندما حلَّ الليل وانتصف، راقبتْ عمق نومه لبضع دقائق، غادرتْ جواره، خطواتها ثابتة.. نظرتها جامدة.. نبضها هادئ، والبرود سيد اللحظة..

وقفتْ تواجه الخادمة الصغيرة بغرفتها، تتأملها بشراسة، تضيق عينيها بنظرة وحشية غريبة تغزو عينيها للمرة الأولى، تأمرها بحزم لا يقبل التفنيد أو العناد أو التبرير:

- تبعدي عن نوَّار، وده لمصلحتك أنتِ.. لو قربتِ منه، هابلغ عمار بيه.. ووقتها؛ رد فعله هيكون أعنف مما تتخيلي..

ارتعدتْ الفتاة بعنف واضح، شدتْ قامتها معه بفوز منتشٍ، مدتْ كفها إليها بصرامة حاسمة:

- هاتي موبايلك، من النهاردة تنسيه.. لو مش عاوزة خبر علاقتك بنوَّار يوصل للبيه، أو لأهلك..

تضاعفتْ الرعدة حتى بانتْ في شبه سقوط، تلقفها منه فراشها:

- بس يا هانم.. مافيش والله حاجة من اللي في دماغك.. وكمان أهلي بيكلموني عليه، هاعمل إيه من غيره!..

- هاديك تمنه وتتصرفي..

تجاهلتْ نصف حديثها، واهتمتْ بالباقي، انحنتْ تجتاح بصرها، تداهمه بهجوم أسود:

- واللي حصل دلوقتِ تنسيه، مش مسموح لك تطلعي الدور التاني غير للتنضيف وبس، ومدام وسيلة هتتكفل بالباقي.. فاهمة!..

أومأتْ الفتاة المذعورة بموافقة صامتة مغمورة بالهلع..

هذه امرأة لا تعرفها..

لم تقابلها مسبقًا..

فالسيدة التي رأتها باكية مكسورة منذ شهور؛ انتهتْ!..

بمكتبه، وبرقم هاتف لم تنسه بعد بدأتْ اتصالًا ملعونًا.. أتاها الرد بصوتٍ ناعسٍ ابتسمتْ له بظفر:

- إزيك يا نضال؟..

صوت طار النعاس منه بغتة مع السؤال المصدوم:

- وسن!..

عندما تصل للقاع، فتش في دفاترك القديمة.. دومًا ستجد صفحة أهملتها حين القراءة الأولى!..

يبدو أن الطوف يمكنه العودة للأرض الثابتة..

هذه الدوامة لم تبتلع الراكب، قائد السفينة غفل عن نجاته..

وعن ثأره الذي يطمح إليه!..

**

ماذا لو كان الربان قرصانًا مهووسًا!..

يدور في البحار بجنونه، يسرق.. ينهب، يسلب ما ليس له.. لكنه يقرر امتلاكه رُغمًا عن أنف الجميع..

في سابقة تتوق إليها غادرتْ المنزل بعد الغروب بدقائق، الحجة الظاهرة شراء بعض احتياجات صغيرها، والرغبة الحقيقية..

ضياع..

النبأ الذي علمته للتو أوقف عقلها تمامًا عن العمل.. متوقع، ذاك مفهوم.. لكنها لا تريده..

تخشاه!..

وينتفض قلبها من فكرة الرفض والبغض، ثم يكرر الانتفاضة بحب فطري تملكه..

أخبرتْ السائق أنها ستذهب سيرًا على الأقدام حتى المركز التجاري، تنشد تلك الهدنة الصامتة الخالية من شيطان جحيمها..

دلفتْ للمصعد شاردة، غير واعية لمن أو ما حولها..

ذلك الصراع في صدرها.. في روحها يخنقها، يعذبها، يزهق أنفاسها..

لم تنتبه للرجل الذي تبعها، جاورها في وقفتها.. بل خطا خلفها!..

انغلق الباب وانحبس معه الهواء عن صدرها، شهقة كبتتها كف غليظة هي آخر ما وصلتها، ومحقن مجهول ينغرس بعنقها..

وازى رعبها همسًا بصوت تعرفه:

- شششش.. شششش.. شششش، أنا داوود حبيبك..

انغلقتْ أجفانها وجسدها يتهاوى بين ذراعيه، طوقها بعناية، جذبها بأحضانه وتنهيدة راحة تغمر كيانه:

- ماتخافيش طول ما أنتِ في حضني يا شمس..

فقدتْ الوعي..

وآخر فكرة تحتلها، تسيطر على كيانها وتفجر ألغام مخاوفها جميعها..

جنينها!..

جنينها الذي علمتْ بوجوده قبل ساعة واحدة، ساعة لم تكُن كافية لتعترف بحبه حتى وإن كان ابن الشيطان..

اختطف القرصان الراكب، سطا على السفينة..

ثم أغرقها..

(33)

الحياة لعبة لا يتقن قواعدها أحد..

ففي جميع الأحوال؛ أنت خاسر!..

**

الحياة قاسية؛ إن لم تختطف ما هو لك ستفقده إلى الأبد!..

حكايا العشق الخالد، لم تكن هادئة، خاملة بالمرة.. كانت كالنار، تحرق في طريقها الأخضر واليابس، ككل عاشق مجنون حفر اسمه بين جنبات التاريخ..

هو اختطف سعادته، نظرته تلتمتع في هذه اللحظة كوميض برق خاطف، ضرب الأرض فحولها لجحيم كان له بمثابة جنته الخاصة..

يقود بها نحو عشهما الصغير، البعيد والآمن.. بين كل فينة وأخرى، يدير وجهه إليها، يتأملها، يذوب فيها.. في ملامحها الناعمة الغائبة..

هي جماله النائم، الذي سيمنحه قبلة الحب والحياة ويحيا معها سعادته حتى يفرق بينهما الموت، حتى هناك سيتبعها.. سيكون معها في الجنة أو الجحيم لا فارق..

خطته الكاملة حدثتْ كما أراد وأجرى حساباته تمامًا، هو يعد العدة منذ عاد.. وكانت هي خطوته الخاتمة، سرقها.. وبعد أن تعلم مقدار عشقها بقلبه، ستدرك إلى أي عاشق تنتمي حقيقة!..

تململتْ في نومتها بالمقعد المجاور له، ابتسم بحنو، مد ظاهر كفه يلامس به وجنتها، قبل أن يغرس بعنقها محقنًا ثانيًا يعيدها لغيبوبتها المؤقتة حتى يطوي الطريق إلى نعيمه معها..

عدل لها الوشاح الذي وضعه حول رأسها، طوق به عنقها مبتسمًا برقة:

- عشان ما تبرديش، الجو برد..

مع لمسته لها استعاد نهاية خطته الحاسمة..

سيكون ملعونًا لو علموا من أخذها، أو إلى أين!.. ابتسم شيطانه بظفر الفاتحين، فهو أغلق كل الثغرات وفاز بأثمن غنيمة..

كل ما سبق تلك الخطوة معدٌّ بإحكام دقيق، متقن، خالٍ من الهفوات التي قد تدل إليه، حتى تبقتْ هي.. مليكته وملكته ومعشوقته، لم تكن تخرج وحيدة، إما مع زوجة أخي زوجها، أو بصبحة سائق.. حتى الزوج الذي سبق وكسر يده لم يرها معه بعدها..

تأمل كفه التي خاض الكثير من الألم وتحمل أكثر كي تتعافى، كي يمكنه تنفيذ ما خطط له.. إلى اليوم!..

خرجت تسير في الطرقات، تائهة، عيناها غائبتان عن الواقع.. لم تكن ترى ما يدور حولها، استغرب حزنها، ضياعها، زم شفتيه بوجع لوجعها، وتبعها..

ما إن انفرد بها في مكان من أحد الأماكن العديدة التي حددها كأرض صالحة للتنفيذ حتى نفذ بلا تردد أو انتظار..

لم يكن يتخيل أن وجودها بين ذراعيه سينفض جسده وروحه كانتفاضة انفجار قاتل..

دافئة، رقيقة، فاقدة للوعي..

بعدها أوقف المصعد، أعاده لطابق المرآب الخاص بالمركز التجاري الصغير، لف رأسها ونصف وجهها بوشاح يحتفظ به على الدوام، وحملها قرب صدره يركض بها في لهفة لم تكن كلها مفتعلة..

صادفه أحد رجال الأمن فصرخ به يُربك أفكاره عن المشهد:

- من فضلك، فين أقرب مستشفى هنا!.. المدام أغمي عليها وإحنا كنا بنزور قرايبنا في الكومباوند وما أعرفش حد في المكان..

اقترب منه الشاب البسيط بهرولة:

- المستشفى قريبة من بوابة الكومباوند، خير يافندم!..

انطلق في مسار حدده مسبقًا بدقة، الرجل يتبعه بينما يجيبه:

- هي ضغطها فيه مشكلة ودلوقتِ تعبت..

توقف جوار سيارة دفع رباعي سوداء بزجاج داكن:

- معلش ممكن تطلع المفتاح من جيبي وتفتح لي الباب!..

ساعده الشاب بفطرة طيبة مستجيبًا لرغبته..

بعدها ناوله المفتاح فدار حول السيارة، استقر بمقعد السائق ونقده منحة مالية مناسبة غير مثيرة للشك:

- متشكر قوي بجد..

انطلق..

في اللحظة المناسبة، يمكنك الاعتماد على فطرة البشر، ومشاعرهم حين الصدمة أو الدهشة.. ردود الفعل وقتها لا تأخذ حيز المنطق، فقط تناسب الحدث..

وها هو.. بمنتصف الطريق نحو المجهول الذي سيجمعهما حتى تؤمن بعشقه.. وتطمئن له!..

بعد ساعتين أخريين وصل.. "الفيوم".. أرض جرداء مخطط لها أن تكون مزرعة جديدة، مُسورة بسياج يحمل اسمًا لا يقارب اسمه، حتى السيارة ليست باسمه.. ومنزل صغير معد خصيصًا لأجل أميرته النائمة..

توقف قرب بابه، ترجل يحملها بعدما فتحه، يتشممها.. يضمها إليه بعناية ورفق، خطا بثبات تجاه غرفتها التي انتقاها بدقة..

ألوانها تشبه غرفة نومها بشقتها مع زوجها الأول، وإن غير ديكور المحتوى حتى لا يعيد الذكرى..

فراش ملكي واسع بأعمدة نحاسية، تحفه ستائر شفافة عندما أرقدها فوقه وتراجع خطوة كان المشهد بديعًا كما بخياله عنها..

أزاح الوشاح، خلع المعطف.. أشعل جهازًا خاصًا بالتدفئة، وتركها بسروالها وكنزتها اللتين خرجت بهما..

تخلل خصلاتها الطويلة بتنهيدة ارتياح حارة انطبق صدره عليها منذ دهر..

أدار بصره لجدار مقابل، بدا وكأنه محضرٌ لسجنها كأنما يتوقع مقاومتها، غضبها أو خوفها ومحاولات الهرب..

برقتْ عيناه بشهوة خيالاته، استقام يتأكد من متانة الأغلال، عاد إليها، رفعها فوق كتفه، قرب الجدار المنشود أوقفها يدعمها بجسده.. رفع ذراعيها يحاوط معصميها بالقيود.. تركها ببطء فتهاوى جسدها معلقًا..

انحنى قرب قدميها يكبلهما منفردتين بالمثل إلى الجدار، اعتدل يواجهها، رأسها منكس ووجهها مخفي بين خصلاتها الحرة التي تحاوطه في مشهد مثير أجج كل رغباته دفعة واحدة..

انثنى يقف على ركبتيه، يحني عنقه كي ينظر لها من زاوية سفلية، يتيه في ملامحها.. أهدابها البنية المتعانقة، أنفاسها التي اقترب حتى لفحته.. شعرها يلامسه، يغوص فيه بوجهه..

يغمض عينيه.. يغرق.. ينتشى ويتأوه، يهمس بهوس:

- أخيييييرا يا شمس..

الحياة لا تجيد المنح، لكنه بارع في السرقة..

والمرء لا يوصف بسارق إن سلب منها عنوة ما خُلق ليكون له!..

**

الحياة خبيثة.. تداهنك.. تمنحُك ما منعَتْك لوقت طويل..

تذهب بك للحافة، تقف معك، تدور حولك، تُخبِرُك أنك امتلكت ما حُرمت منه عمرًا كاملًا..

أنك الآن بِتَ ما اشتهتْ نفسك بل وأكثر.. أنت الشيطان، العرش مُلكك.. الجحيم مملكتك، والبشر طوع يمينك..

توسوس في أذنك بأنك صِرتَ منيعًا، صلبًا، جافًا، لا قلب لك..

تدفعك للإغراق في القسوة، في الامتلاك، في السيطرة.. تهديك شذرات من زينتها وبهجتها، تُدخِلُك قسرًا في غيبوبة النشوة.. ثمالة النصر..

وتظن أنك ما عُدتَ تريد سوى الاستمرار على المنوال نفسه..

بعدها وبينما أنت هناك بالأعلى ترمق القاع بظفر، لقد تسلقت، عبرت، مررت بالأعنف والأسوأ والأكثر ظلامًا؛ تدفعك بقوة..

تضرب ظهرك بغدر، تسقطك حيث قعرها الخادع، تقف هناك على حافتك حيث كنتَ قبل ثوانٍ.. ترمقك بنظرة ساخرة..

بضحكة ساخرة..

وانفعال ساخر..

أيها البشري الأحمق المسكين؛ لقد صدَّقتَ أنك نجوت!..

غربت الشمس..

خرجت هي مع غروبها ولم تعُد، الساعة تخطت الثامنة.. التاسعة.. صغيرها لا يتوقف عن البكاء، كأنما يدرك مصابًا يجهله الجميع سواها.. تحتضنه "بهجة" بتوتر قلق فلا يسكن، ويقبع هو بمكتبة الجد، لا مباليًا مستنكرًا القلق!..

حتى وصلتْ للعاشرة، حينها اتصل بها..

يدرك أنها تحتاج لخلوة، لابتعاد، لتلك الهدنة التي يعوزها كل المهزومين بالحروب على مر الزمان.. لراحة قبل استئناف المعركة..

لكن هاتِفها بعث بالرد الهادر بالصمت، كان مغلقًا!..

غادر جلسته، دار حول نفسه بشيء من توجس، أعاد الاتصال.. مرة ومرة وعشر مرات، بذات النتيجة.. سأل عن وجهتها، خطا راكضًا إلى حيث يفترض أن تكون.. ولم تكن هناك..

دار في شوارع التجمع السكني جميعها، بعضها بالسيارة والبقية الضيقة سيرًا على الأقدام، هاتَفَها ألف مرة..

والنتيجة، قدره يخبره أنه أبله إن ظن كونه قد نجا!..

عاد للبيت على أمل أنها عادت، وكذلك لم تعُد.. ذهب لغرفة جده، وقف يواجهه بنظرة بها شتات يطرق حدقتيه بهزة طفيفة لاحظها العجوز فهتف بدعم صارم:

- يمكن موبايلها فصل شحن، تاهت، هترجع..

كرر الاتصال.. والهاتف مغلق..

بل الحياة كلها أغلقتْ أبوابها بوجهه.. الحياة دفعته وهو الآن يسقط ببطء، كأنما تُعرضه لمزيد ومزيد من الألم..

تذيقه مرارة الفقد بتمهل؛ تترك لها فرصة الالتحام بخلاياه حتى لا ينسى المذاق بعدها أبدًا..

انتصف الليل.. هاتف الجد الشرطة، وبصلة خاصة استطاع أن يستنفر بعض القوات للبحث عنها..

فلم تمر بعد أكثر من خمس ساعات على غيابها..

الصغير يبكي..

نام لدقائق معدودة، واستيقظ صارخًا، محتجًا يشتاق ضمتها، يفتش في كل الوجوه من حوله عن وجهها.. حتى استقر على وجهه هو..

وجهه الغاضب، الثائر.. الحائر!..

رفع يديه إليه كأنما يناشده أمانه..

شتته.. لا يفهم ذلك الضئيل الواهن، لا يدرك كيف يراه!..

لم يقربه، لا يكترث له، في كل فرصة وضعه القدر خلالها بطريقه تباعد عنه.. ولايزال بفطرة نقية يتعلق به..

حتى أنه لمرة ناداه أبي..

اللعنة عليه وعلى أمه.. هل هربتْ!.. تخلتْ!..

اختارتْ جحيمها الخاص وحيدة دون طفلها، على جحيمها معه هو.. شيطانها المريد!..

كان بغرفته، يرمق ملامحه الوحشية فوق سطح مرآة بنظرة ضبابية، عيناه محمرتان تتوهجان بلهيب سعيره، لا يرى نفسه..

يرى ضارية بوغت في هدنته بطعنة خائنة من مجهول..

دمه ينزف.. روحه تنزف.. والويل لمن يقف في طريقه..

اندفعتْ قبضته بلا مقدمات تلكم الزجاج، تهشمه وتهشم معه أغلال العقل والهدوء..

انغرستْ القطع بيده، تأملها بلا شعور، تحول نزيفه لحقيقة لم يكترث لها أو لوجعها، تأمل وجهه المشوه بين القطع المشروخة، اتقدتْ نيرانه أكثر وضم قبضتيه، اعتصرهما دون أن يلحظ تضاعف حدة النزف بإحداهما..

يصرخ في صمت وشعور القيد يخنقه..

لا.. هو هنا الوحيد.. العجز يملأ كفيه ويفيض..

في أرض غريبة لا يعي أبعادها، أرض لم تكُن له وطنًا، ولن تكون..

حتى الحياة لفظته منهكًا، خاسرًا على قارعة طريق الفقد..

بلحظة قرر أن الجنون هو الدرب المثالي، فدونه سيصبح هالكًا وهلاكه لن يتم سوى معها..

**

مع نعمة المنح، ننسى الحرمان..

حتى أننا في الجنة سنقسم أننا ما رأينا بؤسًا قط..

والحياة عندما تجود في العطاء؛ تجبرك على التمسك بالهبة التي رمتها بين يديك، تجبرك على الخوف.. فقد تخسر ما امتلكت..

لا تصدقها..

لا تأمن لها..

لكن عِش لحظتك كما ينبغي أن تحياها..

كانت نائمة، وفي عقله وبعد ما حدث عقب ولادتها وإمكانية كون الصغير قربهما همس في سره..

"نوم الظالم عبادة"..

لا يفهم ما بها!..

باكية على الدوام، عاجزة، وخائفة.. لا هي مرتعبة، تخشى حمله، تقربه بحذر، لا تنفرد به أبدًا.. وكلما أرضعته فاضتْ من عينيها العبرات بطريقة مثيرة للغيظ!..

حجز جناحًا بفندق قريب من المشفى، استقر به والديها، بعد خروجها ستكون معهما حتى يجيز لها طبيبها السفر.. أمها تدعمها وتشرح لها الكثير من أسرار الرُضع الخفية، وهي...

تبكي!..

تتمتم من بين دموعها بترهات محبطة، يسمعها ويساند رغم عجزه عن الفهم:

"أنا أم فاشلة أصلا"..

" ياربي.. زين please don't cry, I'm sorry"..

"يزن.. شيله عشان مش راضي يسكت"..

"ماما.. أعمل إيه!.. بيوجعني ومش راضي يرضع"..

"أنا أصلا ما ينفعش أكون مامي"..

"يزن.. أعمل إيه!"..

"يزن.. أنا مش عارفة أكون أم"..

"يزن.. مش هنخلف تاني خلاص"..

"يزن.. أنا أم فاشلة"..

وتبكي..

راقب ملامحها الساكنة بنظرة حانية، تشبه طفلة.. روحها طفلة، تروض الجنون لتليق بحمل اللقب الأثير، وتخشى أنها لا تقدم ما يكفي..

والدتها ذهبتْ لترتاح مع أبيها، بقي هو بصحبتها حتى عودتهما، يأخذ نصيبًا مسروقًا من الراحة في مقعد طويل حُضر لأجل وجوده الدائم معها..

ترفض رحيله، لا تشعر بالأمان سوى معه.. وتعلقها به يعلق قلبه هو بها أكثر..

طُرق الباب فنهض بوثبة واسعة يفتحه بهدوء، يرمق الممرضة من خلفه بتساؤل وقد أتتْ بالصغير لموعد تناول رضعته، همس لها بالانجليزية مشفقًا:

- هي نائمة، لم تنم بشكل جيد ليلة أمس..

ابتسمتْ الفتاة العشرينية ونظرتها تبجل عنايته بزوجته.. الحب الذي ينضح من عينيه، تتوق لمثله.. أخبرته برقة:

- يمكننا الاستفادة من إفاقة الصغير معك أنت إذًا..

قطب بدهشة حائرة، أفسح لها فدلفتْ للغرفة بتمهل، تدفع فراش الرضيع وتقف جواره بذات البسمة:

- سنعمل على إنشاء رابطة بينكما، لمعاونته على التكيف مع خروجه من رحم والدته..

سأل باستغراب، عن كونه يصلح لتكوين رابطة معه في هذا العمر:

- كيف!..

ردتْ بعملية وإن لم تختفِ ابتسامتها تمامًا:

- اخلع قميصك..

- ماذا!..

انحنتْ فوق الفراش تتجاهل استنكاره، تخلع عن طفله ثيابه إلا حفاضه، تحمله بحرص وتكرر:

- سنجري تواصلًا عبر البشرة..

تطلع إليها مشتتًا، قلقًا على ابنه العاري.. فرُغم التدفئة المركزية انتابه شيء من توتر مع برودة الجو في الخارج وإن كانت نهايات الشتاء..

استجاب بفضول للتجربة.. خلع كنزته الصوفية، تبعها بقميصه القطني، ووقف أمامها بجذعه المكشوف، ينتظر تنفيذ ما تقصده.. اقتربت تشير إليه باهتمام:

- اجلس على المقعد وتمدد من فضلك..

نفذ الأمر بلا إبطاء، توجهت إليه تضع صغيره بأحضانه، تجبره على ضم جسده الهش برفق، تعود لها بسمتها وتغادر الغرفة:

- سأكون في الخارج، وهو سيكون بخير.. لا تقلق..

كاد يناديها، يمنعها من الذهاب..

يطلب منها أن تبقى فقد يحتاجها، هو.. الرجل الكبير الناضج، الفظ أحيانًا.. والقاسي في أحايين أخرى.. يشعر بالرعب!..

الآن أدرك ما تقصده زوجته..

تلك القطعة الواهنة، المتكومة بين يديه من اللحم الطري والجلد والعظم اللين، يمثل هو له العالم..

شعر به يتململ، يتحرك.. يحتك بصدره، ابتسم بعاطفة أبوية فاضت بها جوارحه، فتح عينيه.. استقبل نظرته اللامعة بنظرة فضولية..

حرك سبابته يناوش بها وجنته الناعمة ففغر فمه يبحث عن غذائه..

ارتبك بعض الشيء خاصة عندما بدأ نوبة بكاء خافتة، ترك جلسته واستقام يسير به، يحادثه بكلمات مبعثرة، مشوشة كأفكاره ومشاعره:

- باقولك إيه!.. إحنا اتنين رجالة زي بعض، يعني نتفاهم، ما تعملش معايا الشويتين اللي بتعملهم مع زلابيا..

يهدأ قليلًا، يشعر "يزن" بالإنجاز.. يبتسم بفخر:

- أيوة كده.. كنت عارف إننا هنتفق..

تثاءب الابن ببراءة بين يدي أبيه..

كل ما فيه لطيف، يسرق القلب ويخطف العقل في رحلة حب لا تنتهي.. تأمله يحاوطه ببصره، يضمه إليه، يشعره بوجوده:

- هتاكل بعقلي حلاوة من وأنت في اللفة ولا إيه!..

تمطى بذراعيه المنمنمتين، ضمه والده إليه أقرب:

- خلبوص.. ابن أبوك صحيح..

"هتبوظ أخلاقه من دلوقتِ!"..

رفع رأسه يستدير إلى تلك التي استيقظتْ على همسه لطفلهما، لم تسمع ما يقوله بشكل كلي، لكن المشهد لم يعجبها ولا تدري لمَ أثار حنقها وضيقها!..

أشارتْ إليه تطالبه بأخذه:

- Why are you shirtless؟..

ناوله لها فضمته بتلقائية، جاورها على الفراش مشيرًا بلا معنى:

- Skin to skin contact.. اقتراح الممرضة..

ابتسمتْ ببرود استغربه:

- كنت فاكرة ده المامیز اللي بتعمله..

شد خصله نافرة من شعرها بمشاكسة:

- غيرانة عليه ولا عليَّ!..

حدجته بنظرة ساخطة:

- put your shirt on..

استقام بغتة يرفع وجهها إليه، يلثم شفتيها بقبلة مشتاقة، ثم يهمس بأذنها:

- يبقى عليَّ..

سخرتْ منه وهي تجاهد لإرضاع الصغير الذي بدأ في وصلته المعتادة من البكاء الجائع:

- لأ..

توقف عن إكمال ارتداء القميص، عاد يجلس في مواجهتها:

- طيب عيني في عينك كده..

غاصتْ بحُلكة عينيه بنظرة سمجة:

- أهو..

- قمر..

- يزن!..

- قلب يزن..

رمشتْ فضحك بعبث وكرر القبلة، حتى بترها رنين هاتفه.. ابتعد يتذمر باستياء:

- إيه الفصلان ده!..

ضحكتْ هي واسترخت بينما تتمكن أخيرًا من منح طفلها طعامه..

راقبته يخطو في الغرفة بعشوائية، يحادث على ما يبدو أنه جده، يتجمد بمنتصف المكان وهتافه الحاد يجفلها:

- إيه!.. إزاي ده حصل!.. وما حدش كلمني ليه!..

صمت! للحظات ينصت بنفاذ صبر، ملامحه تتوحش لحد مخيف أوجف قلبها، يجذب خصلاته بعنف كاد ينتزعها من منبتها:

- من إمبارح وأنا آخر من يعلم!.. أنا جاي على أول طيارة..

أغلق الخط ورمى قميصه فوق جسده، أتبعه بالكنزة الثقيلة وهي تسأله بلوعة مذعورة:

- خير يا يزن!..

التقط كل متعلقاته ووقف قربها يحسم الأمر:

- شمس مختفية من إمبارح المغرب..

شهقتْ بهلع لم يمنحها الفرصة لتعبر عنه، أردف بصرامة:

- هاشوف مواعيد الطيران إيه وهاسافر، أنتِ هتخليكي هنا مع مامتك وباباك لحد ما الدكتور يسمح بالسفر وتقدري ترجعي..

تمم حديثه وكاد يرحل..

ذلك الرحيل الذي لن تراه بعده، تمسكتْ بكفه تمنعه:

- هتسيبني لوحدي!.. هاجي معاك..

توقف، عاد إليها.. ضغط يدها برفق قدر ما أمكنه:

- الدكتور ما سمحش بخروج زين من المستشفى لسه، ولا خروجك، فما بالك بالسفر يا غزل!..

انحنى يقبِّل جبينها مطمئنًا:

- هاطمنك لما أوصل وهافضل على اتصال بيكِ..

- بس شمس!..

ضم رأسها لصدره يعتصره عند نبضه الراكض بخبال:

- هتكون بخير.. هتكون بخير إن شاء الله..

الحياة لا تمنحك الكثير من الخيارات.. إن كنت شجاعًا بما يكفي؛ ستقتنص منها قدر ما أمكنك..

وتهرب!..

**

الحياة تحتاج لقناص، الفرص ما هي إلا طرائد لا تنتظر صيادها، تركض.. تفر منه، وقليل مِن الصيادين مَن يجيد نصب الفخاخ!..

قليل مَن يتقن الظفر بطريدة اشتهاها لسنوات حتى تمكن أخيرًا من امتلاكها، وبقي فقط التلذذ بمذاقها حتى الثمالة..

ولأن المذاق ليس بقريب، فقد اكتفى بتأملها من جلسة مسترخية على مقعد مريح يواجه قيدها إلى الجدار، لا تزال غائبة عن الوعي، جسدها مرتخٍ، معلقٌ من معصميها لأصفاد ثبتها خصيصًا لأجل ذاك المشهد الذي هو بطله الآن..

ستفيق خلال وقت قصير، وهو يرغب في أن يكون أول من يقع عليه بصرها.. يريد اختبار رد الفعل!..

مرتْ ربع ساعة تالية، بدأت بإثرها العودة لأرض الواقع، أنَّت بألم.. وأنينها فجَّر كوامن اشتياقه كأنما تئن بين يديه..

رفعتْ رأسها الثقيل بمشقة، همهمتْ بلا معنى واعتدلتْ بعسر في محاولة للاعتماد على قدميها المكبلتين..

استندتْ بظهرها للجدار تستشعر موقفها، وقفتها، أسرها.. تطوف بناظريها في المكان الغريب عليها، غرفة نوم واسعة.. أنيقة، بلونها المفضل، فراش ملكي، طاولة زينة تليق به..

مقعد يتوسطها، يقابلها..

وهو!..

كابوسها المرعب، وواقعها الأكثر إثارة للفزع..

"داوود خطاب"..

وبرواية العاشق المهووس الذي حطمها في يوم ما..

انتفضتْ بهلع، تجاهد للخلاص من أغلالها، تتملص بعنف، صوتها مكتوم، صراخها حبيس خلف لاصق عريض كمم به فمها.. الوقوف ذاته مرهق، ظلت تقاتل لثلاث دقائق استسلمتْ بنهايتها بإجهاد، في حين ظل هو على حاله من الصمت المراقب، المستمتع..

سالتْ عبراتها بصمت كسير مقهور عاجز، تأملته من بين خصلاتها التي تشعثتْ وطوقتْ وجهها، حركتْ عينيها ترمق قيدها بدهشة خائفة..

أغلال حديدية صلبة، مثبتة قرب السقف على جدار بارد، تتدلى حتى يديها، لتحاوطهما فوق رأسها على امتداد ذراعيها..

وضع مؤلم ومخيف.. قدميها منفرجتين بعض الشيء، ومقيدتين من الكاحل للجدار نفسه، صوتها مسجون بقصد، لكن دموعها حرة.. تنهال على وجنتيها بوجع.. بهلع..

ماذا يريد منها!..

أين هي!..

لماذا أتى بها إلى هنا!..

وطفلها!..

لو علم بوجوده لقتله، ما الذي يمكنها فعله لتفر من جنونه!..

مائة سؤال وسؤال أنهك عقلها أكثر حتى وجدته يستقيم بتلكؤ، يسير نحوها، يقف في مواجهتها، يحاوط وجهها بكفيه فتنتفض.. تتباعد.. تديره نائية عنه ويعيده إليه قسرًا..

ترق لمسته فترتجف قهرًا، يمسح عبراتها الحارقة بإبهاميه بنظرة عاتبة:

- دموع عشان بقيتِ معايا يا شمس!..

صدر عنها همهمة مبهمة جعلته يمرر إبهامه هذه المرة فوق شفتيها عبر اللاصق مضاعفًا من ارتجافها:

- ما أنا لو شيلته هتصرخي، هتتعبي.. مش عاوزك تتعبي..

ثم تنهد بحرارة، تراجع خطوة واحدة فاصلة، فرد ذراعيه على أقصى اتساع بنبرة مشاغبة:

- أنا عامل حسابي لو صرختِ، مافيش حد هيسمع.. بس صدقيني خايف عليكِ وعلى تعبك..

بعدها اقترب مجددًا، احتوى وجهها كما في السابق، تحكم برفضها واعتراضها، انحنى يواجه عينيها برفق عجيب:

- المكان ده جنتي أنا وأنتِ وبس..

أبعد خصلاتها عن جبينها، تملك من ذقنها وسيطر بهمس مختل:

- زي آدم وحوا.. مافيش غيري أنا وأنتِ على الأرض، هنعمرها سوا..

ازداد انهمار دموعها فهز رأسه بأسى:

- للدرجة دي خايفة مني يا شمس!..

مال يستقر بفمه فوق جبينها فتعانقت أجفانها برعدة:

- إوعي تخافي مني أبدًا، أنا أمانك.. حبيبك، وأنتِ حبيبتي.. ماحدش ممكن يأذيكِ وأنتِ معايا..

تبدلتْ نظرته لعاطفة شغوف، لعشق غريب..بل مثير للرعب:

- وأنا مستحيل أأذيكِ..

هزتْ رأسها باحتجاج، تتراجع بها حتى صدمتها في الجدار، تبكي بمزيد من الدموع التي أغضبته..

ضغط أسنانه بسخط، قبض يديه وأبعد بصره عنها لثوانٍ يزفر بضيق واضح، عقبها التفتَ إليها.. سحب نفسًا عميقًا وأكسب صوته أكبر قدر من الهدوء:

- شمس.. عشان خاطري، صدقيني.. كل اللي عاوزه إننا نكون مع بعض..

ابتسم بوله أجفلها:

- أنتِ ما تعرفيش السنتين اللي فاتوا من غيرك أنا كنت عايش إزاي!..

نفى بعدها بحدة صادقة لحد مفزع:

- لأ.. أنا ماكنتش عايش..

تكررتْ همهماتها الغامضة، صمت لدقيقة استأنف حديثه مع اكتمالها:

- لو شيلت اللزق، توعديني مش هتصرخي!..

أومأتْ بموافقة مهزومة، وجسدها ينكمش على نفسه بعيدًا عنه، دنا منها يمسك بوجهها، يجذب طرف اللاصق برفق:

- هاشيله بالراحة عشان ما يوجعكيش..

خضعتْ ليده التي تحرر أنفاسها حتى أتم مهمته، ارتعشتْ وتراجعتْ للوراء كأنما ستغوص في الحائط، أو تتحد مع ذراته.. تهمس بألم:

- أنت عاوز مني إيه!..

رفع حاجبيه يفتعل دهشة غير مصدقة.. مصدومة:

- يااااه.. بعد كل ده ولسه مش عارفة!..

وضع كفيه بجيبي سرواله، دار في الغرفة مفكرًا، ثبت أمامها يعلمها بالحقيقة التي يراها جلية كضوء نهار وتتعامى هي عنها:

- عاوزك تبقي مراتي يا شمس، مراتي وأم ولادي..

رمقته كمجنون هارب من مشفى للأمراض العقلية:

- أنا متجوزة..

مط شفتيه بسلاسة عادية للغاية:

- عارف.. للمرة التانية، كأني بالنسبة لك ولا حاجة..

استنفرت كل جهدها للثبات، التماسك.. محاولة الفهم وربما الهروب بشكل أو بآخر:

- مش هينفع نتجوز..

ابتسم مفندًا دون تعقيدات:

- ينفع عادي، هنخلص منه ونتجوز..

كأن الخلاص من الشيطان أمر سهل..

ولو كان سهلًا؛ أيهما أفضل!..

شرير حكايتها، أم المختل الهائم على وجهه بين السطور!..

- أنتَ خطفتني..

توسعتْ ابتسامته ليفيض منها غرامه بها:

- عشان بحبِك..

- وهو اللي بيحب بيخطف!..

صرختْ بها مختنقة، توشحتْ نبرتها بالاستنكار الرافض:

- ده مش حب، ده جنون..

استند على الجدار حولها، يطوقها بذراعيه، يلامسها بحذر فتنكمش أكثر:

- ومين قال إني عاقل!..

أجبر وجهها الملتف هروبًا منه على العودة إليه بكفه:

- أنا مجنون بيكِ يا شمس..

انتحبتْ بهدير مكبوت.. كأن الحياة تقتلها لتحييها وتحييها لتقتلها، تنال منها الفتات.. تخنقها بالألم..

تُقطَّر السعادة كماء عذب ببحور الوجع المالحة، المُرة..

تأمرها أن تفتش عن القطرة، لكنها لا تجدها.. تغرق في أوجاعها، تصارع الموت وتنهزم.. فتموت في كل لحظة ألف مرة..

هي طرف في حرب..

هي سبية.. هي غنيمة.. هي طريدة..

هي ملهمة جنون عاشق مخبول..

هي الفراشة التي أحرقها اللهب وإن لم تقترب..

هي مسلوبة الإرادة كأنها لم تُخلق أبدًا لتختار..

الحياة تلقنها دروسها بأقسى طريقة، وهي الفاشلة التي لا تحفظ الدروس دون ضربات قاصمة.. مميتة، تنزع عنها برائتها.. نقائها..

تزهق روحها..

تسلمها لمصيرها المحتوم بلا ذرة من ندم، أو وازع من ضمير..

هي المهشمة بين شقي رحى الزمن.. والمحطمة تحت عجلات مروره دونها مهما تعلقتْ بأذيال الأمل أو تشبثتْ بآخر طرف من خيوط الأمنية..

الواقع يربطها لأرضه الصلبة منحورة، مهزومة، فاقدة ومفقودة..

الواقع هو الحقيقة الوحيدة التي ينبغي أن تسلم بها ولها..

حياتها حروفها منقوشة من وجع، محفورة على صفحاتها المهترئة بالخسارة..

وليتها تنجو!..

**

عندما تقف بك الحياة على حافة الجنون لا تتردد.. اقفز!..

حين تصل للقاع صامدًا، قويًا.. ثابتًا؛ اسخر منها، وابدأ التسلق..

لنر من منكما سيعلن هزيمته أولًا!..

بين سقوط وصعود، تحدث الدوامة التي تجذبنا نحو التيه، ووقت التيه لا نفكر في الغد.. بل نفكر كيف نمرر الحاضر بأقل خسارة..

من يأبه لما هو آت إن كنت على وشك فقدانه!..

مر على غيابها أربع وعشرون ساعة، الشرطة لم تتوصل لشيء.. كل التحقيقات نتيجتها صفر، كحماقة من يجريها..

روحه الثائرة كانت تهيم على وجهها بين الطرقات تبحث عنها، عقله مكبلٌ بعجز، ويحتاج لأحدهم، يحتاج لمجهول يخبره أن الأمور ستصبح بخير.. هي ستكون بخير!..

ثم يمقت ذلك الاحتياج..

وضعته بخانة الضعف، لم تستطع فعلها وهي معه ففعلتها بغيابها.. سيعيدها، يحاسبها، يعاقبها.. ويمنحها درسًا جديدًا عن كيف تكون القسوة الحقيقية..

طفلها لم يتوقف عن البكاء إلا حينما حمله لبضع دقائق استغرق في النوم خلالها، لا يدرك كيف فعلها!.. ولمَ استجاب لتوسل مربيته العجوز من الأساس!..

فقط خضع.. حاجة الصغير إليه، ضعفه بين يديه جعلته يستكين.. يستجيب.. يطمئنه حتى تعود ملاذه الآمن..

بعدها أتاه اتصال من أخيه الأكبر، أخبره فيه بحزم:

- أنا طيارتي فاضل عليها ساعة، هاوصل على نص الليل بالكتير.. في ظابط صاحبي اسمه فارس الهواري هيجيلك ويكون معاك، شوف أنت عاوز تعمل إيه وهو هينفذ..

ولم يكن يدري ما يمكنه فعله.. فعقب انتهاء التحقيق رُغم عدم توقف البحث عنها شعر بأن جميع الثغرات مسدودة أمامه..

ارتفع رنين هاتفه يسحبه من سعير أفكاره، أجابه وكان الضابط المنشود.. خرج إليه، صافحه بدعم هادئ:

- إن شاء الله هنلاقيها..

أشار إليه ليتقدمه نحو سيارته:

- هناخد الطريق خطوة خطوة، بس عاوز أسألك على شوية حاجات الأول..

جاوره بصمت مقبض رُغم خواء ملامحه:

- هي ممكن تكون سابت البيت بقصد!..

- لأ..

رده باتر، مقتضب وسريع لحد أثار دهشة المجاور له، ناظره بتعجب بينما يقود السيارة تجاه مكان بعينه:

- بتقولها بثقة!..

لم يتردد في جواب قاطع كسابقه:

- مش هتسيب ابنها لو قررت تسيب البيت وتهرب..

عقد "فارس" حاجبيه باستغراب.. هو لديه علم طفيف بملابسات تلك العلاقة، بكون الأخ ذاك هو الزوج الثاني بعد رحيل توأم صديقه.. حتى أنه شك للحظة في محاولة قتل ناجحة!..

لكن لمَ يقتل زوجته!..

جمود وجهه، صلابة نظرته وجفائها.. برود انفعالاته.. رباطة جأشه وهدوئه.. لا يبدو كرجل خائف أو قلق على زوجة مختفية!..

ألقى نظرة خاطفة على كفه المضمدة:

- إيدك مالها!..

ناوشتْ فمه بسمة جانبية ساخرة، واعية تمامًا بما يجول في أفكار الضابط الهمام.. وازت جوابه المختصر:

- جرح إزاز..

مط "فارس" شفتيه بلا معنى.. توقف بمرآب المركز التجاري، بمكتب الأمن الخاص به أمر بإحضار كل أسطوانات كاميرات المراقبة لليوم السابق، أخبره أحد العاملين بالمكان أن التسجيل يجري على أقراص ثابتة يتم محوها كل ثمانٍ وأربعين ساعة، وتم بالفعل توفير لقطات الوقت المطلوب..

لقطات عادية، بها بعض قاطني المجمع السكني، وهي!..

ظهرت تدلف من المدخل الرئيسي للمركز، تخطو مباشرة لأحد المصاعد، تختفي بداخله.. ولا تظهر بعدها في أي مكان..

انتهت التسجيلات ولم تكن هناك..

حتى اليوم التالي، حتى الآن.. اللحظة الحالية، تحرك يجاوره، يتجهان سويًا إلى المرآب.. بدأ "فارس" في استجواب الحارس، أبلغهما أنه لم يلمحها بالمرة.. قابلا حارس المناوبة الليلية، والذي كرر ذات الرد.. لم يرها!..

"مش لازم تكون شفت وشها؛ ما شفتش راجل معاه واحدة غايبة عن الوعي!"..

أتتْ منه تقاطع الحديث الفاتر الدائر بين الجمع من حوله، ارتبك الشاب على إثر السؤال وقد ظن أنه تورط في أمر أكبر منه..

في كارثة ربما..

ازدرد لعابه بصعوبة وجاوب بتردد مرتبك:

- ده حصل فعلا..

عقبها قص عليهما باختصار المشهد الذي تعرض له.. الرجل، المرأة الفاقدة لوعيها، السيارة رباعية الدفع السوداء.. بل حتى المنحة المالية التي نقده إياها..

قادهم للمربع الذي كانت السيارة مصفوفة به، تأمل الاثنان المكان بعين متفحصة، عادا بعدها لمكتب الأمن لمراجعة تسجيلات الكاميرات الخاصة بالمرآب في ذلك التوقيت..

ورُغم كونهما قد فعلاها من قبل، فقد أعادا النظر ودققا بلا فائدة..

لم يكن هناك رجلًا يحمل امرأة..

السيارة نفسها لا تظهر إلا قرب المدخل بعض ثوانٍ، وعند خروجها.. لكنها بالداخل كأنما تحولت لعربة خفية لا تراها الأعين..

قطب "يعقوب" بينما يضغط أسنانه بغضب تطويعه بات شاقًا:

- استغل الـ blind spots للكاميرات..

استدار إليه "فارس" بتفكير:

- على كده دارس المكان كويس..

شرد الآخر فيمن يظنه فعلها..

ذلك المهووس الذي سبق وحطم يده..

هو محور شكه منذ اللحظة الأولى، والآن لا يظن أنه أحد سواه!..

نظر في عينيه بحزم صارم:

- وعارف هو بيعمل إيه!..

تلو ذلك صمتَ يهضم فكرة جديدة، نطق بها آمرًا:

- محتاجين نعرف سجل المستأجرين الجداد، وناخد رقم العربية من الكاميرات..

قالها وخطا للخارج بخطوات شبه راكضة، تبعه "فارس" ملوحًا بهاتفه:

- سبقتك، خلال دقايق هنعرف مكان العربية دي..

والدقائق لم تطُل، فقبل وصولهما لمكتب أمن المجمع السكني الخاص كان الرد يأتيه من شرطة المرور:

- العربية مركونة بعد بوابة الكومباوند باتنين كيلو..

مسح "يعقوب" وجهه بيده..

لا يوجد من هو أذكى من مختل، وإن أراد مجاراة ذكائه فعليه أن يكون أكثر اختلالًا..

بالمكتب لم يكن الاسم محور شكوكه موجودًا، حتى أنه ولأول مرة يفقد ثباته، يخضع لهياج دواخله ويتزلزل اتزانه، ضرب شاشة الحاسوب الذي يستكشفان عبره أسماء السكان الجدد خلال الشهرين الماضيين بيده فأسقطها أرضًا دون أن ينبس بكلمة..

وازاه "فارس" في وقفته داعمًا:

- من فضلك اهدى، هنلاقيها..

أدار وجهه إليه بعينين تشتعلان كألف جحيم على وشك إحراق العالم بمن فيه:

- هتلاقيها إزاي!.. كل الطرق مسدودة قدامك..

تأمله للحظات سأله بعدها دون مواراة:

- أنت شاكك في مين!..

.....

"داوود خطاب!"..

نطق "يزن" بالاسم في استنكار قبل أن يردف:

- ابن سعيد خطاب!..

- أيوة..

واجهه أخيه الأكبر بغضب:

- وإيه علاقته بشمس!..

ابتسم "يعقوب" بتهكم مرير:

- بيحبها..

ارتد "يزن" خطوة مصدومة:

- أنت بتقول إيه!..

زعق الأصغر في وجهه باحتدام مشتعل، كفيه تقبضان على الهواء فتكادان تخنقانه لو كان حيًا:

- مهووس بيها، بيحبها.. متأكد إن هو اللي خطفها..

سكن "يزن" لدقيقة كاملة بوجوم مشدوه، سأل بعدها:

- أنت عرفت الكلام ده منين!..

أغمض "يعقوب" عينيه يزفر باحتراق:

- من حوالي شهر طاردها في المول..

- وعملت إيه!..

أظلمتْ نظرته وهو يجيب بوحشية:

- كسرت له إيده، وقلت له لو اتعرض لها تاني هاقتله..

صرح بها صادقًا لا تحتمل ذرة من كذب أو التفاف..

صفق "يزن" بغتة، يسخر بلا رحمة:

- وما فكرتش تعرفني!.. لأ برافو..

- أعرفك ليه!..

دفعه في كتفه بقسوة حانقة:

- عشان أحميها، أنت مش عارف دول مين!..

قبض "يعقوب" على يده ولوى ذراعه بعنف، أداره فبات ظهره في صدره، طوق عنقه حد الاختناق.. يفجر بوجهه طاقة غضبه المكبوت:

- شمس مراتي أنا؛ يعني حمايتها مسؤوليتي..

تملص منه "يزن" واستدار يلكمه بسخط هائج:

- وما طلعتش قد المسؤولية..

تفادى اللكمة، تراجع خطوة يسلسل كل مشاعره بقيد الجمود.. يسكن، يحترق.. يُخمد ناره عنوة دفعة واحدة فيستحيل لرماد:

- معاك حق..

أعتمتْ ملامحه.. توحشت بشراسة تليق به، اشتد سواد نفسه وعينيه:

- أنا اللي هارجعها..

وهرول يغادر المنزل بلا انتظار، متجاهلًا نداء أخيه.. يصفع الباب من خلفه بحدة هشمتْ زجاجه بصوت مريع..

الحياة تدفعه للقفز، وسيقفز..

سيقفز من فوق الحافة، حتى وإن أسفر السقوط عن ارتطام النهاية..

**

الحياة تصبح كريمة أحيانًا..

تسرق منك ما كان لك، تحرمك منه.. ثم تعيده إليك، فتنحني عند قدميها مبجلًا، ممتنًا، شاكرًا ومقسمًا أنك ستحافظ عليه مهما غلا الثمن.. تعلمتَ درسك، وبقي فقط أن تنجح في اختبارها لتنجو..

لكن الاختبار وعلى مدار دهور؛ لم ينجح فيه أحد!..

عليكَ فقط أن تحاول، بل يكفيك شرف المحاولة.. أما النجاح فمتروك بين يدي القدر..

قطرات السعادة محسوبة بدقة، لا يمكنك أن تنهل منها، تبتلع قطرتك وتبتهل للتالية.. تجاهد للتشبع بها، تسعى للاكتفاء.. لكن الاكتفاء من السعادة أمر مستحيل..

هي.. هو..

سعادته معها، التي حارب نفسه وحاربها لينالها..

فتح باب المنزل الصغير الذي اعتاد الإقامة به، انحنى يحملها بين ذراعيه فعانقته بخجل، أراحتْ رأسها على كتفه وانطوتْ فيه بينما يعبر بها عتبة حياتهما الجديدة معًا..

جديدة.. قديمة.. حديثة.. نسخة معدلة ربما..

ما يهمه أنه قد فاز بها، وافقتْ على العودة إليه ولم يمهلها بعدها وقتًا لتفكر أو تحضر حالها.. في خلال ثلاثة أيام كان يعقد قرانه عليها للمرة الثانية، يربطها به.. ونبضات قلبيهما تعلن ارتباطهما بالمثل..

أنزلها بمنتصف غرفة النوم التي توجه إليها مباشرة، خفضتْ وجهها وهربتْ بعينيها من نظرته الشرهة نحوها..

نظرة لم ترها في عينيه من قبل!..

همستْ باسمه فاحتواها بين ذراعيه، ارتجفتْ قليلًا، ابتسم وداعب ذقنها يجبرها على النظر إليه:

- أول مرة أشوف النظرة دي في عينيك!..

قالتها دون تورية.. توسعتْ بسمته في المقابل، مرر أنامله على وجنتها، فكها.. هامسًا بنبرة ثقيلة متخمة بالعاطفة:

- الحرمان يمكن..

ضحكتْ بخفوت والحياء يغمرها، حررتْ نفسها منه، استجاب لها مقدرًا ارتباكها، يهديها راحتها بحوار مغاير:

- أنا عارف إني استعجلت، كان المفروض أجهز بيت يليق بيكِ، وأحجز شهر عسل في المكان اللي تختاريه.. بس...

مستْ شفتيه بسبابتها تمنعه الاستطراد، تحتوي وجهه بكفها وتغمغم بعشق لم يعُد خافيًا عليه أو عليها:

- المهم إننا مع بعض، وأي مكان معاك جنة..

التمعتْ مقلتاه بذات النظرة الجائعة إليها، كأنما يريد التهامها في قضمة واحدة، مرات ومرات.. أمسك بكفها يقبل باطنها بدفء شغوف:

- البيت ده مؤقتًا، مش هنعيش فيه على طول..

- مش هتفرق صدقني..

همستها نافية بإخلاص جعله يعيدها بين أحضانه، يطوقها بلهفة وينهي حروفه بين شفتيها بتوق:

- هتفرق معايا..

احترقتْ أنفاسها بنيران أنفاسه، استكانتْ خاضعة لحرب امتلاكه القصيرة حتى ابتعد بعض الشيء، يستند بجبينه لجبينها، يستقبل زفيرها بشهيق عميق:

- دُچى..

حركتْ رأسها لتسقط بين أجفانه، تصارع موجات نظرته الهادرة، تخضع للغرق قبل انتهاء الحرب، أكمل بتشبث:

- أنا عاوز ولاد المرة دي..

رمشتْ بخجل مرتبك، استكانتْ فوق صدره، تتعلق به:

- وأنا عاوزة أكون أم ولادك يا منذر..

استشعرتْ تنهيدته الحارة التي بعثرتْ خصلاتها، نثر حضوره حول ملامحها بتمهل تاركًا للحلم احتلال الواقع بسحره وروعته..

ببهائه الذي اكتمل مع كلمة واحدة تمتمتْ بها في أذنه وهو يستحوذ على حواسها.. جوارحها وكيانها كله..

"بحبَك"..

الحياة يمكنها أن تكون لطيفة معك..

لكن نصيحتي إليك؛ لا تأمن لغدرها.. فحماقتك وغفلتك لن يدفع ثمنهما سواك!..

**

الحياة حتى في عطاياها لا تهب الكمال، ولا تخلو من الألم..

تمنح بعضهم أقل القليل، وتغدق على غيره بالكثير.. هو رزق، هو قدر، لكننا في جميع الأحوال لا نملك سوى مسايرتها والقبول بما تجود به..

أو الاعتياد والصبر، استنادًا للرضى..

بعد أيام من ذهابها معها للمدرسة، عادتْ الألفة تظلل علاقتها بالصغيرة بقدر جيد لحد كبير، خلقتْ من حديقة المنزل الخلفية أرضًا للعب، تخصها مع طفليه..

منعتْ ذهاب العاملين إلى هناك وقت وجودها بها، وتحررتْ من قيودها لتنطلق مع الاثنين كثالثتهما، سروال رمادي بسيط، وكنزة صوفية سوداء.. خصلاتها معقوصة في ذيل حصان طويل، تجري معهما، منهما، خلفهما.. في لعب عشوائي بدا ممتعًا، عفويًا للحظات من مراقبته لهم عبر النافذة العريضة بغرفة مكتبه..

استغرب انتقائها لألوان ثيابها، باهتة، داكنة وكئيبة، ابتسم بسخرية، فربما ترجع كآبتها إليه.. لكن من يهتم!..

ليس هو على أية حال..

انتبه لانتهائهم، وقوفها تعاونهم على جمع بعض اللعب، في طريقهم إلى المنزل التقى بصرها به، أبعدتْ عينيها بعد وهلة وحافظ هو على متابعتهم، خرج يستقبلهم، يداعب صغيريه لدقيقة سلمهمها عقبها لمربيتهما التي أصر على الاحتفاظ بها لتساعدها في العمل..

أشار إليها بلا كلمة وخطا عائدًا حيث كان، تبعته بزفرة قصيرة ضائقة..

هي تتجاهل وجوده تمامًا كما يفعل معها.. بالكاد يتحادثان، وذاك يريحها.. ويوجعها!..

وقفتْ خلفه تنتظر أن يفصح عما يريد، ظل صامتًا حتى تنحنحتْ بخفوت، استدار إليها بنبرة جادة، بها شيء من امتنان:

- ملاحظ إن ضي بقت أهدى..

هزتْ كتفيها تصدق على حديثه بلا رد محدد، أظهر امتنانه بنظرته مصدقًا عليه:

- متشكر..

أكسبتْ لهجتها ثباتًا جامدًا خاليًا من كل المشاعر التي قد يستوجبها المشهد:

- مافيش داعي للشكر دي وظيفتي..

ثم بررتْ بعملية غريبة:

- وهي عرفت حدود الوظيفة دي؛ عشان كده تقبلت وجودي..

سكن يلتقي بعينيها بلا جواب، عجز عنه كما اختنقتْ هي بوجودها معه، تحت بصره ونظرته المتفحصة غير المفهومة..

رسمتْ فوق شفتيها نصف بسمة وقررتْ اللحاق بالصغيرين.. بعد خطوة غير مكتملة توقفت!..

هو يناديها، وهي تبادر بما ترغب في معرفته وتكبت تلك الرغبة منذ زواجهما، منذ ترتيبه لقواعده التي استنها وأجبرها على السير وفقًا لها:

- رحيل...

- ممكن أسألك سؤال!..

ابتلع نداءه الذي لا سبب له، أومأ لها فبادرتْ بوضوح صريح:

- ليه ماوضحتش كل شروطك لما عرضت عليَّ الجواز؟..

فنَّد دون تعقيدات، وبصوت بارد باتتْ تبغضه:

- أنا قلت لك بوضوح إنه عشان الولاد..

سخرتْ بمرارة حانقة:

- وده ضمنيا معناه إنه مجرد عقد يربطني بيك!..

عددتْ على أصابعها بغضب وشيك:

- معناه إني أسيب شغلي وأتمنع من الخروج كأني عايشة في سجن!..

اعتصرتْ أصابعها في عناق متوتر، والعصبية تتسلل لصوتها:

- يمكن أنا انطوائية وماعنديش أصدقاء بس لو كان في؛ فشرطك إن علاقتي تتقطع بيهم..

وفردتْ كفيها تتهمه، تظهر انزعاجها، احتجاجها على قوانينه غير العقلانية:

- ليه ماوضحتش كل ده!..

رمقها بنظرة فاترة طالتْ حتى تململتْ باستياء، بادر بعدها بحزم:

- كنت هتوافقي لو وضحته!..

- أوافق أو ما أوافقش ده قراري واختياري..

لاحقته برد سريع قاطع عقد له حاجبيه، أردفتْ بإثره ولهجتها تفيض بالاتهام:

- بس قرار مبني على أسس سليمة.. مش كدبة وخداع..

- رحيل!..

نهرها بحدة لم توقفها، تحدته بحقيقة ينكرها:

- ده اللي حصل ومش هاجمله..

تراجعتْ خطوة، تتجاهل ألم روحها، طعنة قلبها الذي سقط في هواه بحماقة أنثوية سخيفة، تتغافل عن وجود أخرى بينهما حتى وإن كانت.. ميتة:

- كان ممكن تفهمني إنك وفي لمراتك الله يرحمها وكنت هاقدر ده، لكن اللي حصل إنك استدرجتني لموافقة على حياة مبنية على كدبة..

جابهته بنظرة صلبة تكبت فيها شعور الإهانة الذي يغمرها:

- أنا لسه زي ما أنا؛ مجرد موظفة عندك سواء في نظرك أو نظر الولاد..

وحركتْ رأسها باستسلام يشوبه حزن لم يلمحه:

- الفرق.. إن اللقب اختلف بس والمهام زادت..

كان يزم شفتيه طوال حديثها، يتركها لتفرغ كل ما خفي في جعبتها، تحرر أثقال أفكارها ونفسها.. ينتظر انتهائها ليخنق الحروف ويدهسها بنقاطها التي تغض الطرف عنها:

- خلصتِ؟..

ارتبكتْ لكنها لم تتراجع، أصرتْ بهدوء خافت:

- أنا آسفة؛ بس دي حقيقة الموقف..

وافقها بلا تجميل.. بل اتخذ من القسوة مسارًا، يناسب ما يريده.. ما سيفعله ويستمر معه:

- تمام، أنا فاهم ده.. بس كل اللي عاوزك تعرفيه إني ممكن أعمل أي حاجة عشان ولادي..

ولوح بسبابته في وجهها مستطردًا دون انفعالات جلية:

- أيا كانت المبادئ اللي ممكن أدوس عليها أو أكسرها..

لم تصدق ما يقوله.. لم ترغب..

هو يكذب، يظهر السيء وتراه لم يصل لتلك الدرجة من غلظة القلب أو اللا أخلاق، قستْ بسخرية مقصودة:

- وده اللي المفروض يتعلموه منك!..

ارتد خطوة، أصابته الكلمات في مقتل..

العاشق.. الرجل المثالي..

الأب الرؤوف.. الزوج المخلص..

الزوج المُخان!..

وهي لم تتوقف، استمرتْ تطعنه، تتعمد انتقاء مواطن الضعف:

- آخر حاجة كان ممكن أتصورها إنك تكون راجل من النوع ده..

قطب بهمسة يشوبها سخط:

- تقصدي إيه؟..

جابهته بكبرياء لم يعلمه فيها.. فاجئه وأشعل سعير غضبه:

- فاقد الثقة في نفسك واللي حواليك فبتعوض ده بالكدب وفرض السيطرة..

- خدي بالك من كلامك يا رحيل..

خرجتْ منه زاعقة، أجفلتها..

لم تتراجع عن رأيها، أصرتْ عليه رغم نبضها المتسارع رهبة من نظرة عينيه المهتاجة:

- باعتذر يا وجيه بيه..

وذاك التهكم ضاعف من حنقه، استبدله باستهزاء مستهين.. منها ومن أفكارها وحتى فرضيتها:

- وده بقى اتهام زوجة ولا تحليل نفسي!..

استعارتْ استهانته برد بتر كل حروفه وبعثر نقاطه بينما تغادره بخطوات واسعة:

- أنا مش زوجة؛ ده مجرد افتراض مبني على تصرفاتك..

راقبها تختفي عن ناظريه..

خلل خصلاته بأصابعه وزفر باحتراق؛ فآخر ما كان ينقصه امرأة تستوعب جحيمه دون أن تدرك التفاصيل..

الجهل معه هبة، منحة مجانية لا تقدرها..

يبدو أنها تريد دفع الثمن، والحياة لن تتأخر في تكليفها به وإن كان باهظًا.. شاقًا، ومؤلمًا..

انتهك شرود أفكاره اتصالًا هاتفيًا، تأمل الرقم ورفع وجهه للسماء كأنما يبتهل، ينشد صبرًا أو راحة..

كانت جدة أولاده!..

الحياة، لا تتركك تعيش على الحياد..

لن تطيل الوقوف على الحافة يا عزيزي، اقفز.. اسقط.. اركض هاربًا..

خُذ قرارًا حاسمًا ونفذه، وإلا ستأخذه هي عنك.. حينها ستعض أصابع الندم، ولن تنجو..

**

البعض تمنحه الحياة دون بخل، فيمد يديه ويغترف منها رُغمًا عنها..

تقسو عليه في مرة، ليتقن هو القسوة بعدها في كل حين!..

بينما يفتش عن ثغرة يعبر منها لقلبها الذي كان له منذ ماضٍ بعيد، ظلت هي تضحك من حربه الخاسرة، لقد سدتْ كل ثغرات النفس والقلب حتى وإن تظاهرت بالعكس..

تركتْ له طرف خيط صغير، وتسلتْ بمراقبته يجذبه ظنًا منه بأن محاولاته مجدية، أن الأمل في النجاة بالعشق ومعه ممكنة..

طلب فرصة، تكرمتْ بها.. ومن يومها وهو يحاصرها، تتدلل أحيانًا.. تفتعل الغضب في أخرى، وتسخر في الثالثة..

لكن مفاجأته اليوم لم تكن متوقعة!..

لقد قرر أن يعزف على أوتار الحنين معزوفة ناعمة تذكرها بما كان بينهما..

عندما أنهت عملها بالنادي الصحي خاصتها، خرجتْ تتوجه لسيارتها عائدة لبيتها لكن خطواتها توقفت مع رؤياها له يرتكن

لسيارته قرب المدخل، ينتظرها بثياب بسيطة.. وسامته لا تزال تخطف بصرها، وابتسامته تزيد من فاعليتها..

هو يدرك وهي تندمج معه في المشهد بسهولة كما يريد..

اعتدل يستقبلها باقتراحه المباغت:

- هنتعشى في أبو قير..

أهدته نصف ضحكة مستنكرة:

- أنت أكيد اتجننت يا مالك، أبو قير في الشتا ودلوقتِ!..

تأمل السماء التي حل عليها الظلام ببطء، عاد إليها بناظريه مشاغبًا:

- أنتِ بتحبي البحر في الشتا، وآدم عند عمي عشان الويك إند؛ مالكيش حجة..

- بس...

- ما بسش..

سحبها من ذراعها يسير بها متمهلًا، مراعيًا لحذائها شاهق الارتفاع، فتح لها الباب المجاور للسائق ودفعها برفق:

- اركبي..

رفعتْ عينيها إليه في نظرة حائرة التقطها وابتسم، أومأ لها برأسه محفزًا، استجابتْ ببساطة فاستدار يتخذ مقعده، يبدأ في القيادة مطمئنًا:

- الطريق كله ساعتين رايح وساعتين جاي، هنتعشى سوا على البحر عند عم جلال زي زمان، بعدين نرجع.. هتكوني في البيت الصبح بدري.. ما تقلقيش..

رمته بنظرة مبهمة ابتسمتْ معها:

- مش قلقانة..

التزمتْ الصمت طوال الطريق، بل أسدلتْ أجفانها وأسندتْ جبينها للزجاج تفتعل نعاسًا، تترك له حرية تأملها كما يشتهي..

حينما وصلا للمكان المنشود، ترجل يعاونها، همس لها بعبث عن الحذاء غير المناسب، فانحنت ببساطة وخلعته، حملته بيدها وسارت تجاوره على الرمال الناعمة، تخضع للفح الهواء البارد بانتعاش.. بانسجام يليق بحوريته النارية، يبعثر خصلاتها، يطيرها بجنون مثير

سلبه لُبه رغم الضوء الخافت المتناثر من ممر قريب موصل للشاطئ..

استقبلهما رجل عجوز بترحاب شديد، تعرفه.. وتعرفها، حتى أنه غازلها بتباسط ودود:

- القمر بيفضل قمر طول عمره..

ضحكت بعذوبة وربتتْ على كتفه بذات الود:

- أنت اللي قمر يا جلجل..

لدهشته اكتنف الرجل خجلًا طفيفًا داراه بأن تقدمهما ناحية طاولة معدة قرب البحر، المكان هادئ للغاية.. يناسب رغبته في الانفراد بها، ما استغربه كان إعلانها رغبتها في الجلوس على الرمال!..

فرش لهما العجوز الطيب مفرشًا مناسبًا، وضع بمنتصفه مائدة منخفضة، رص فوقها أطباق الطعام التي أعادت لها رائحتها ذكريات تحبها وتمقتها وتحترق بها في آن واحد..

انتهيا بعد ساعة من تناول العشاء..

كان الصمت يلازمهما، يجثم بحضوره على المشهد في ثقل خانق ضايقه وتلذذتْ هي به..

استقامتْ تسير حافية حتى لامست المياه أصابع قدميها، ارتجفت لكنها لم تتراجع، ضمتْ جسدها بذراعيها وولت البحر جُل اهتمامها حتى شعرتْ به يضع وشاحًا صوفيًا حول كتفيها، لفتْ به نفسها ولم تلتفتْ إليه.. فقط سألته ونظرها مسلط على الأفق المظلم بهديره المخيف:

- فاكر آخر مرة كنا فيها هنا!..

بدا كأنها تتعمد إيلامه، تذكيره بخطئه في حقها، في حق نفسه والعشق المسمى بينهما.. عقد ساعديه وغاب بصره في البعيد على غرارها:

- استنيتِ لحد ما وصلنا، واتعشينا بعدين قلتِ لي...

- زاهر طلب إيدي من بابا..

كررتها بنفس نغمة الصوت واللهجة والألم، أدارتْ وجهها إليه بجمود:

- وأنا وافقت..

تأملها بشبه بسمة ساخرة:

- كنتِ بتكدبي..

- كنت باعاقبك..

تنهدتْ بلا معنى، نبرتها خاوية كأن الحديث عن اثنين لا تعرفهما:

- نظرتك وقتها قالت لي أنت اخترت مين..

- نيروز...

- ما تبررش يا مالك..

كررتْ تنهيدتها بعمق أكبر، تجاهلتْ ما فات فهو لن يعود، بدلتْ الحوار بأقرب مهرب:

- تعرف إني لسه بعشق البحر في كل حالاته!..

ابتسم يستدير إليها بكامل جسده، يغمرها بين جفنيه بنظرة عاشقة:

- عشان بيشبهك..

ابتسمتْ تهز كتفيها باستمتاع شارد:

- موجه عالي؛ لو ما بتعرفش تعوم تياره هيسحبك..

والتفتتْ إليه كما فعل، تواجهه.. تُسقطه في عينيها.. في حبها.. في فخها:

- هتغرق..

اقترب خطوة موافقًا بلا خضوع لتحذيرات أو مخاوف:

- ماعنديش مانع..

راقبتْ خطوته بلا اكتراث، نفتْ باستهانة وارتها خلف قناع العناد:

- البحر بيحب اللي يتحداه يا مالك..

ثم تخطته عائدة حيث جلستهما:

- وأنت انتحاري..

تبعها يجاورها، يراها تتمدد، تراقب السماء وتنشغل بها فيفعل مثلها..

بعد نصف ساعة من كلمتها الأخيرة يعود إليها، يهمس بأذنها متحديًا:

- في حاجات تستاهل ندفع حياتنا تمن لها..

تلك حقيقة..

والحياة نفسها، لن تتأخر عن قبض الثمن!..

**

الحياة كأس عاشق سكير، يتجرعه حتى الثمالة.. ويموت من نشوة خمره راضيًا..

الحياة معادلة طرفها الأول حب والثاني جنون، أما الناتج فهو خارج حدود المعقول..

كيف نجمع بين الاثنين وننتظر النجاة!..

لليوم الثاني على التوالي وهي على وقفتها، معلقة من معصميها لأغلال تكبلها للجدار، سمح لها بالذهاب للمرحاض ثلاثًا، في كل

مرة صفد يديها بأصفاد حديدية تشبه خاصة الشرطة، وربط قدمها بقيد ممتد للخارج يسلسلها لجدار آخر قريب..

تعود إليه فيعيدها لقيودها..

امتنعتْ عن الطعام، بالكاد لفظتْ بعض الماء عندما قتلها العطش، تحتاج لكليهما لكن نفسها تعاف كل شيء..

"وبعدين يا شمس، تفتكري ده الحل يعني؟.. أنك ما تاكليش!"

نطق بها متضايقًا بينما يقف في مواجهتها، يتأمل ملامحها بجوع دائم وشغف لا ينطفئ، يمد يده فتدير وجهها.. يلامسها رُغم رد الفعل:

- هتتعبي، أنا خايف عليكِ..

رعدتها أغضبته خاصة حين ردتْ بإنهاك:

- أنا مش عارفة أنت عاوز توصل لإيه!.. وضعنا ده مستحيل يستمر..

ثم فاءت إليه بنظرة باهتة خابية:

- أنا واحدة متجوزة، عندي ابني.. وأنت واحد مجنون ومعترف، خطفتني ورابطني كأني أسيرة عندك..

تأملها لبعض الوقت صامتًا، ما قالته كأنها لم تقُله..

هو لا يرى في الطريق بينها وبينه إلا مسافة سيقطعها ركضًا ليمتلكها، لا حواجز.. لا عثرات.. لا جسور، فقط طريق ممهد ومن زاوية نظره قصير جدًا..

خطا للخلف يتناول علبة طعام لمطعم شهير تعرفه، فتحها أمامها وسحب ملعقة يبادر لإطعامها:

- جبت لك الأكل اللي بتحبيه..

رمته بنظرة حائرة واجفة:

- أنت....

- عرفت إزاي!..

بتر حديثها وأكمله بنفسه، اقترب أكثر.. يبتسم بوله، بتتيم بازغ كبزوغ شمس ظهيرة حارقة:

- أنا أعرف عنك كل حاجة يا شمس، دي أبسط معلومة..

ولمس وجنتها برقة أرجفتها:

- ده الحب، إني أكون عارفك وحافظك وفاهمك من غير ما تتكلمي.. أكون مهتم بيكِ وبخاف عليكِ وعاوزِك دايما جنبي وفي حضني..

ظهرتْ رجفتها أوضح مع ختامه لكلماته، تجاهلها ورفع ملعقة الحساء قرب فمها:

- كلي يلا عشان خاطري..

أبعدتْ رأسها بعنف رافض وصراخها يرتج به كيانها كله:

- مش هاكل حاجة.. ومادام بتحبني؛ اتفرج عليَّ وأنا باموت قدامك..

أغضبته، حماقة أن تفعلها..

هو يعشقها نعم، لكن لكل علاقة قوانين وهي هنا تخالف أولها..

الطاعة!..

ترك العلبة على مقعد شده قربه، كبَّل مؤخرة عنقها بقسوة، أجبرها على مواجهته وحشر الملعقة بفمها عنوة..

اختنقتْ بها خاصة مع مذاق الطعام الذي قلب معدتها رُغم حبها السابق له..

تقيأتْ بأنين يصاحبه الماء الذي كان غذائها الوحيد على مدار يومين، تلوثتْ ثيابها بعض الشيء وتراجع هو خطوة معلنًا حنقه:

- شمس أنتِ بتدلعي عشان عارفة إني مش هاقدر أضايقك..

رمى العلبة من يده بعنف دون اكتراث، عاد إليها يجذب خصلاتها بغلظة، يلفها على قبضته، يجبرها على رفع وجهها إليه هاتفًا أمام عينيها وأنفاسه تلسعها:

- بس على فكرة أنا ممكن عشان مصلحتك أعمل أي حاجة حتى لو ضد إرادتك..

رمشتْ مرتعبة بلا قدرة على تحرير نفسها من قيده:

- قصدك إيه!..

غاص بضعف مقلتيها لثوانٍ كدهر، فطن لما مر بذهنها.. ابتسم له بخبث وحررها، يمرر أنامله في شعرها بتمهل مستمتع:

- مش اللي جه في بالك أكيد..

احتوى وجهها بين كفيه، يرنو إليها بعين العشق، يتأمل تفاصيل ملامحها بهوس:

- لما ده يحصل بينا هيكون برضاك، مستحيل يكون غصب عنك..

ابتعد بعدها يخرج من الغرفة، عقب ثلاث دقائق عاد.. يحمل عدة حقائب لماركات شهيرة، يضعها قرب الفراش.. من إحداها يلتقط زجاجة نبيذ رفعها قبالة بصرها مبتسمًا:

- عارف إنك ما بتشربيش، بس لو دُقتِ ده هتدمنيه..

فتحها تحت مراقبتها المذهولة المصدومة، تشممها بعناية وتلذذ.. صب لنفسه كأسًا كان بيده الثانية، قربه من أنفه وأعاد الغياب في عبقه:

- إمممم.. شاتو ماوتون روتشيلد من 1982..

ارتشف منها رشفة واحدة، تذوقها بتأن.. بأنين كأنما هي نفسها بين أحضانه:

- متعة..

أنهى الكأس بتمهل رائق، تركه على مائدة صغيرة واتجه إليها مجددًا، أمعن النظر في ثيابها الملوثة، مط شفتيه وافتعل الحيرة المستسلمة:

- هنعمل إيه في هدومك دي بقى!..

ارتعشتْ بهلع مما تظنه يجول بأفكاره، توسلته بنبرة أكسبتها أكبر قدر من الهدوء والثبات:

- ممكن تفكني!.. هاروح الحمام وأغير هدومي..

حرك رأسه نافيًا كمُعلم أدرك خدعة طالبه الكسول:

- مكارة يا شمس.. هتلبسي إزاي ورجلك وإيديك مربوطين!..

ابتسمتْ بوهن واستجدته:

- ما تربطهمش..

كرر حركته بذات اللهجة:

- مش هينفع..

حاصرها بين جسده والجدار، يطوقها بذراعيه، يده تنسل إلى عنقها بلا وعي منها:

- عندي حل أحسن..

غرس محقن المخدر..

لحظات وتهاوت فاقدة لوعيها قبل حتى أن تستوعب مقصده..

فكها بحرص، سقطتْ بأحضانه فضمها، حملها برفق وأرقدها فوق الفراش، سحب نفسًا عميقًا يستدعي به ثباته..

لو ترك نفسه لرغباته لامتلكها الآن!..

خلع عنها كنزتها، دفن أنفه.. بل وجهه كله فيها، يتنشق عبير صاحبتها في خيوطها، يرمق جسدها القشدي الناعم في ثيابها الداخلية بنظرة نهمة..

يجردها منها على مهل كأنما يغازل أنثاه، يتلمسها بيد مرتعشة..

يطوف فوق حناياها بتبجيل، برغبة، باشتهاء فقد السيطرة عليه..

يزدرد لعابه وهيئتها العارية مدفونة بين طيات الفراش الوثير، خصلاتها الطويلة مفرودة كإلهة جمال إغريقية، هبطت من عليائها تهديه إغواءً قاتلًا لقلبه المدله في هواها..

الستائر من حولها تتطاير مع نسمات خفيفة تسللتْ من النافذة..

وهو كل ما فيه ثائر، مستعر، يشتعل في جحيم توقه لها..

مسح وجهه وأبعد عينيه عنها، ثانيتين كانتا هما كل ما امتلك من وقت قبل أن يندفع نحو زجاجة نبيذه، يفتحها ويتجرع منها مباشرة، يجفف فمه ويلتفتْ إليها بوضع سكونها..

يخضع لغواية الشيطان.. أو ربما يمتلك الشجاعة لينالها..

هي أميرته النائمة التي لا يليق بها سوى الشجعان، أقوياء الشكيمة، قساة القلوب..

نزع قميصه وجثا يحاوطها بيديه وركبتيه.. أحنى رأسه يغرق في منحنى عنقها، يتنفسها، يحتفظ بشذاها في صدره، يزفره حارًا يحرق به بشرتها ويكررها.. يدرك أنه كان وحيدًا، خاسرًا، تائهًا حتى التقاها..

يريدها بشدة.. لحد موجع..

ارتحل بشفتيه حتى وصل لشفتيها، وهناك أضاع نفسه من جديد..

الحياة لا تمنحنا رفاهية الاختيار عندما تسلسلنا لأرض الحقيقة..

والحقيقة عذاب..

جحيم..

الحقيقة أننا كلنا بلهاء، إن ظننا بأنفسنا القدرة على هزيمة القدر في لعبة الحياة!..

(34)

جميعنا لدينا مخاوفنا الخاصة، لكن أعظمها.. تلك التي نهرب منها..

لأننا أجبن من المواجهة!..

**

في عالمها، الخوف أصبح رفاهية لا تتطلع إليها.. إثر الانكسار؛ مات كل شعور..

أي قلب مهشم سيستجمع حطامه فقط ليخاف، أو يتألم!..

نفت عن نفسها الحياة والنبض والرغبة..

بعد أن سرق رجل جسدها وتسلل لروحها فأغرقها بظلامه والمسمى زوج؛ أتى المختل العاشق لينتهك.. يسلب منها ما لا يحق له رُغمًا عن إرادتها..

يمنحها أفولها الختامي.. الشمس ما عادت تريد البزوغ..

هي تموت.. وبموتها سيفنى العالم، أو لا يفنى، من يهتم!..

فقط صغيرها، جنينها.. هما كل ما تبقى، هما كل ما تتمسك بالأنفاس لأجلهما، هما غصن النجاة الذي تتعلق به قبل سقوط قاتل، ومحتم.. هذا إن عاش ساكن رحمها عقب كل ما مرت به..

جمدتْ كقطعة باردة من حجر، لا تتحرك، لا ترتجف، لا تشعر.. كل ما يدل على أن حياة تسري في ذاك الجسد الخامد هي أنفاس بطيئة، تسحبها رئتاها بآلية استمرار..

تعلم أنه قريب وإن لم تلتفت إليه، يجلس بهدوء ونظره مسلطٌ عليها.. يخط ملامحه الندم، الحزن.. الأسى لحالها..

يرغب في الاعتذار، والأسف لا يكفي..

هو يدرك وهي تعلم..

عندما أتى بها إلى منتصف اللامكان حيث المجهول لم يكن بنيته انتهاكها!..

كل ما أراده أن يبثها حبه وغرامه بها، أن يطمئنها إليه، يمنحها ما يعجز البشر جميعهم عن توفيره.. قلبه وعشقه..

لم ينتوِ أن يبدأ معها الامتلاك الأول على فراش خطيئة..

يفهمها أكثر مما تفعل.. وكل ما قرره كان لخاطرها وحدها مهما اشتعل جسده رغبة بها، مهما احترقت روحه اشتياقًا لها.. ومهما تمزع فؤاده بنبض ثائر في قربها..

سيمنحها كل ما تحتاج فقط لتطمئن..

أغمض عينيه بزفرة مختنقة، فتحهما يحاوطها ببصره في وَلَه خالص، يزم شفتيه.. يتمزق ألمًا لرؤية ألمها، يترك جلسته ويدنو من جلستها..

تظل على ثباتها.. يدرك أنه أطفأ نارها، يسب نفسه ثم يتوقف، يعود إلى المقعد، يتأملها ويتذكر...

شمس السماء أشرقت قبل ساعة، وشمسه هو لاتزال كاسفة، تحل على قلبه وحياته بظلمتها..

كان يتوق للاستحواذ الكامل عليها، أن يوشمها باسمه كما يقولون في الروايات الرخيصة.. يدمغ كل بوصة من جسدها بشفتيه، بلمسته، بتوقيعه..

بدأ بالفعل.. نزع عنها سِترها، تحسس نعومتها بلهفة عاشق، أكل شفتيها بنهم غارق، مر فوق عنقها بضياع تام، لكن قبل أن يذهب لما هو أكثر تجمد.. توقف، انتفض المحب بقلبه ينهره.. يعاتبه.. يوبخه.. يأمر بحزم صارم..

قدسية هذا الجسد لا ينبغي أن تُمس..

لن يدنسها مادامت لم تصبح زوجته!..

لن يكسر روحها بامتلاك ليس من حقه بعد، حتى وإن عاندته ورفضته.. سيعلمها حبه.. سيدرِّسها الغرام الحقيقي..

سيسقيها عذوبة ولعه بها قطرة قطرة..

إنما بحق، كما تريد هي.. ليس دون رضاها، ليس بسرقة، ليس على غفلة منها.. كيف ستدرك إلى أي درجة يعشقها إن لم تشعر كيف هو بين يديها!..

كيف يهيم!.. كيف يتيه!..

كيف يضيع!.. كيف يضل والمنتهى إليها!..

كيف يمكنه بجذوة واحدة أن يحرق العالم بأكمله لو منعه عنها!..

ابتعد، ارتمى يجاورها لاهثًا كأنما ركض بين ذراعيها لأميال وأميال، لم يعُد بعينيه لعريها، جذب غطاءً ثقيلًا ودثرها به حتى العنق..

راقب الستائر الشفافة تتحرك من حولهما برهافة تناسب مشهد عشق..

مشهدًا لم يكتمل لكن بمخيلته معها يمكنه أن ينال الكمال..

ترك جوارها إلى الحمام، أنهى اغتسالًا باردًا طويلًا يطفئ به لهيب شوقه، ارتدى ثيابه ولم يدرِ كيف يمكنه أن يسدل فوقها ثوبًا دون نظر!..

ابتعد عائدًا للحمام، بلل منشفة صغيرة بماء دافئ معطر، خطا يقترب منها، أزاح الغطاء قليلًا، مسح بها وجهها، جبينها، حول شفتيها.. تناول ثوبًا شتويًا من أحد الحقائب، مرر رأسها من فتحته الواسعة بعدما فتح أزراره، سحبه بتمهل حول كتفيها، صعد خلفها، رفعها بأحضانه غاضًا بصره، أدخل ذراعيها من الأكمام وأحكمه مسدلًا ساترًا بما يكفي..

تشممها بغياب، بلوثة تمكنت من عقله المدله بها كما قلبه تمامًا..

سحبها حتى قرب طرف الفراش، صفد يسراها لقائمه، وظل عن يمينها يراقبها.. ينسى نفسه في متاهة تفاصيلها..

الأنف الشامخ..

الشفاه المكتنزة المغرية بالالتهام..

الخصلات الكثيفة التي تتناغم مع بشرتها بسحر يأسره..

لمس وجنتها بظاهر يده ثم أبعدها وقد تذكر وعده الصامت لها، تمدد قربها، على جانبه يحاصر ملامحها النائمة ببصره حتى راح في النوم..

والتقاها بأحلامه.. هناك كانت تبادله عشقًا بعشق..

تحمل طفلهما وتدلـله، يعلن هو الغيرة ويربت على بطنها المنتفخ بابنتهما، يخبرها أنها عندما تأتي لدنياهما ستكون مدللته وسنده في مواجهتها مع الصغير المتشبث بها..

تضحك فيضيء عالمه كله..

وفي أعماق الحلم تناوش شفتيه بسمة!..

بسمة لمحتها عندما أفاقت والشمس تسطع على استحياء من خلف زجاج النافذة، بسمة ذبحتها حين وجدت نفسها معه بفراش واحد.. دون ثيابها التي أتت بها..

بل بثوب اختاره هو، يغطي وحده عريًا كابدته على يديه!..

انتفضت، أجفلت، جلست وبادرت بهروب بتره معصمها المأسور، بأعنف خيالاتها وأقساها، بأكثرها ألمًا؛ لم يمر انتهاك..

تصلب كيانها، أفكارها، ماتت روحها.. انكمشت في وضع مشتت ضائع، ماذا تبقى لها لتفقده!..

بكت.. لم تتعمد البكاء.. هي حتى لم تدرك علامَ تبكي!..

على نفسها.. على خطيئة تنجس بها جسدها عنوة..

على فقد جديد.. على رهبة مما هو قادم..

على طفل مر يومين بعمره دونها.. على ثمرة شيطان منغرسة بجدار رحمها، لا تأمل لها في ميلاد وهي أرض منهوبة..

كانت ساهمة، واجمة.. دموعها تهطل بسكون.. شاردة، عيناها خابيتان، أنفاسها ميتة.. الصقيع اكتنف كل ما فيها حتى أن أطرافها قد طالتها زُرقة غريبة لا تلائم الأجواء..

تناسب دواخلها المذبوحة..

مذبوحة ومن امتلك السكين لم يكن رحيمًا، بتر العنق بقطع جهول، لم يسبب الوفاة الحتمية المباشرة.. وحين رآها لا تزال على قيد الحياة ترتجف كطير ضعيف، طعن القلب.. طعنة غير نافذة..

لم يشتهِ موتها، يبدو أنه يستعذب عذابها، يتلذذ به.. يُمتع ساديته..

وها هي.. تنتفض انتفاضتها الأخيرة، يهمد جسدها بوضع موت.. ينتظره، يريده، يترقبه، يراه حتميًا بعدما نالها ما نالها من قسوة الحياة..

تسمع حفيف خطواته ولا ترتعش..

ثقله يهبط بالطرف البعيد عنها ولا ترتعد.. أنفاسه تصلها مرتبكة متوترة، ولا تمتلك حتى القدرة على الاستنكار أو الفرار..

كلماته تصلها مبررة، مبالية، بعاطفة مثيرة للجنون:

- شمس أنا ماقدرتش أأذيكِ..

يتغضن جبينها بحيرة.. بتشتت وإن لم يرف لها جفن، أو تهتز بها عضلة، يردف هو بأسف صادق مخيف لكنها لم تعُد تخاف:

- أرجوك سامحيني..

ظلت على حالها من الصمت، من الضعف، من الهوان والانكسار..

منطوية في ركن الفراش المكبل إليه معصمها، تضم ركبتيها لصدرها، تدفن وجهها بينهما بسكون هامد..

هي ولأول مرة منذ فقدت من تحب؛ تتمنى الموت!..

- كل حاجة فيَّ كانت بتقولي خُدها، هي بتاعتك.. من حقك.. حبيبتك اللي هتكون مراتك..

مد يده يربت عليها وتوقف قبل أن يمسها، كأنما يخبرها أنه لن يؤذيها.. لن يتعمد كسر حدودها ثانيةً وإن حطمها جميعها قبل ساعات:

- بس ما قدرتش..

السخرية السوداء الفائضة من ألوان اللوحة العشوائية المشوهة لا تنجح في رسم انحنائها على فمها المزموم بخبو، كشمسها التي عزفتْ عن الارتفاع لكبد السماء منذ أسرها..

لم يفعلها، لم يعاشرها دون إرادتها.. اكتفى بتعريتها!..

ياله من كرم.. لكن كيف تصدقه!..

جسدها الضعيف لا تستوعب ما مر به حال غيابها عن الوعي:

- وعدتك مش هاعمل حاجة غصب عنك..

يستمر في حديثه، بذات النبرة المعتذرة الهادئة المتضايقة، كما لو أنه غاضب من نفسه.. من ضعفه، حانق عليها لأجلها..

يصدح باعتراف مباشر كمائة مرة من قبل:

- أنا بحبك..

ثم يتحرك، يقترب، يشوب لهجته الأسى والندم والقنوط:

- صدقيني.. أنتِ أهم وأغلى حد عندي في الدنيا..

لم ينفلت منها انفعال قد تبيحه اللحظة، أو يستوجبه المشهد العجيب..

صمتها يقتله.. يخيفه.. يخبره أنها تكرهه ولو كرهته سيموت!..

يكرر بإخلاص حازم:

- أغلى من روحي..

يترك مكانه ويلتف حول الفراش، يجلس القرفصاء على الأرض في مواجهتها، لا تزال تبعد بصرها عنه.. تتخطاه لمجهول يرعبه..

هل أضاعها!..

لا.. ستسامحه، سيقدم لها الكون بأكمله هدية وتسامحه، يتوسلها برفق حانٍ:

- طيب أعمل إيه عشان تسامحيني!.. أنا كنت باساعدك، خايف تهربي مني وأنا ما صدقت بقينا لبعض..

هو مخبول..

وهي حليلة الشيطان المسلوبة..

مسلوبه منه، مسلوبة الإرادة وحق الاختيار.. مسلوبة بكل خوف انزرع بكيانها طوال عمر..

اختلجت جوارحها بوهن، قذفته بنظرة مهشمة ونبرتها أشد وهنًا:

- أنت مجنون!..

سؤالها رُغم خفوته برقتْ له عيناه، نعم تهينه لكنها نطقتْ.. تحركتْ.. همستْ، وتلك بادرة تعلق بها بأمل بينما صوتها يعلو بعض الشيء:

- بقينا لبعض إزاي!..

اعتصرتْ أجفانها، عبراتها جفت فصنعتْ خطوطَ ألمٍ واضحة فوق وجنتيها، وهج نظرتها خفت.. لا، انطفأ..

الأمل كلما فكرت فيه، امتلكها خوف أكبر لا تعرف إن كان يحق لها الشعور به!..

- أنا متجوزة.. عندي ابن أنت خطفتني وهو ربنا العالم بيه دلوقتِ..

تعدد بأنين لم يمكنها حجبه عن حروفها، وأفكارها تحلق نحو صغيرها الوحيد:

- اللي بتعمله مستحيل يكون حب..

كاد ينطق.. يمنعها من الاستمرار..

يقسم بأغلظ الأيمان أن عشقه لن تجد مثله على مر تاريخ العشاق..

لكنها هي استمرتْ بوجع، بعذاب.. بانتهاء يعلن عن نفسه بين كلماتها، يأسها، استسلامها فربما الموت أكثر رحمة:

- أنت مش بس خطفت وسرقت، ومعيشني في خوف..

لامته كأنما يحق لها اللوم، ويباح لها العتاب:

- أنت كسرتني..

- لأ يا شمس..

اعتدل يصيح بها حادة.. حارة.. منفعلة، جادة لحد غير مسبوق:

- عشان خاطري ما تقوليش كده..

صمتت.. جهرت مقلتاها بما عجزت عن التعبير عنه..

خوفها منه، رفضها له.. رحلا..

واحتل عينيها حزن.. قهر.. انكسار!..

مد يديه يقبض على يدها الحرة، سحبتها منه بعنف، بسط كفيه بطمأنة:

- ما أقدرش صدقيني..

ارتجفتْ نبرته، جسده تهدل جالسًا على الأرض في وضعية انهزام:

- أنا آسف.. آسف، أرجوكِ سامحيني..

وتشبث بالشرشف أسفلها كأنما يتشبث بها هي:

- أوعدك.. بعد كده مش هاعمل حاجة وأنتِ مش واعية..

ابتسم بخبال مؤكدًا على عزمه، شارحًا صدق نواياه:

- أنا حتى فكيتك أهو، وهتكوني براحتك..

جذبت يدها المكبلة لقائم الفراش الصلب، تسخر بتعب:

- براحتي!..

رمش بتردد..

يعشقها نعم.. يخشى انفلاتها من بين أصابعه كماء عذب في صحراء قلبه الجافة.. نعم!..

وهي لن تفكر مرتين..

لامس الأصفاد بأطراف أنامله مشتتًا:

- مش هاقدر أعمل أكتر من كده يا حبيبتي، مش هاتحمل تضيعي مني تاني..

وهي لا تدرك متى كانت المرة الأولى!..

لا تبالي.. أين المجرم، رجل العصابات الذي كسر يده في طرفة عين من قبل!..

أين شيطانها!..

أين شرير حكايتها!..

أين.. والد طفلها!..

كالمستجير من الرمضاء بالنار، باتت تترقب مجيئه..

تأمل أن يظهر كوحش خرافي ينهش ذاك السارق المنتهك، ينقذها، يعيدها حيث الأمان في كنفه وإن بغضته..

فمهما بلغ خوفها منه؛ أتقنت احتماله وأجادت تخطيه..

أما هذا الخوف؛ فهو يفوق كل احتمال.. يستهلك طاقتها.. يدفنها بعتمة قبر وهي على قيد الحياة..

لم تصدق أنها تأمل فيه!..

لم تتوقع أن تتمنى ظهوره!..

لكن أي نجاة من الجحيم إن لم يظهر المتربع على عرشه بكامل رضاه!..

الأبالسة تتآلف، والملك هنا يمكنه أن يحرق من يكسر حدًا أو يتخطى قانونًا.. سيفتش عنها، سيجدها.. ليس لأنها تهمه؛ لكن لأنها مُلكه.. وما يملكه لا يحل لغيره السطو عليه، وإلا فالويل له..

الآن باتت ترجو ذاك الويل..

هي لا تعلم.. لا تفهم..

فقط تترقب وصول الشيطان الأعظم، لربما تنجو..

**

في حروبنا مع مخاوفنا، علينا أن نتسلح بالقوة..

الضعف في مواجهة الخوف نهاية مبكرة، خاتمة كارثية لا نريدها..

ولأنها لاتزال ترغب في السلامة، في العودة لطفلها، في الحفاظ على جنينها؛ أخذت خطوتها الأولى لامتلاك قواها..

همستْ له بتردد مرتبك ضعيف:

- أنا جعانة..

لكي يمكنها التفكير تحتاج لبعض الطاقة، منذ يومين لم تأكل، انتصف النهار.. الشمس مررت دفئها بتحبب من بين غيوم الشتاء شبه المنتهي، هي بجلستها لم تتزحزح..

وهو قربها على الأرض لم يغير مكانه..

حتى طالبته ببعض الطعام!..

حينها انتفض، اعتدل يرمقها بلهفة، استقام ولسانه يسبقه بالسؤال:

- عاوزة تاكلي إيه!..

رمشت بإعياء، أنزلتْ ساقيها من فوق الفراش وهزت رأسها بلا معنى:

- أي حاجة..

هرول للخارج بينما يخبرها:

- هنا كل الأكل اللي بتحبيه، جبته عشانك..

خمس دقائق مرت، تجولت ببصرها خلالها بالغرفة تدرسها، تلملم خصلاتها المشعثة على أحد كتفيها، وتطوف بعينيها فيما حولها..

الغرفة لها منفذين، أحدهما النافذة التي من نظرة واحدة أدركت أنها بطابق أرضي، والباب الذي عبره هو للتو..

قرب النافذة الفراش المكبلة إليه..

على جدار يواجهه طاولة زينة أنيقة، من الجهة الأخرى المقعد الطويل الذي يستغله للجلوس.. ومقابله جدار الأغلال خاصتها..

لن يمكنها القفز عبر النافذة مهما كانت منخفضة، جسدها لن يتحمل، خوفها كله تجسد في المستوطن ظلمة رحمها..

لذا ملاذها الوحيد هو الباب.. ستتقوتْ أولًا، وبعدها تأخذ خطوة.. ربما مفتاح سيارة، تضربه بشيء على رأسه وتهرب..

الخطة بعقلها بدت ساذجة، عفوية، عشوائية.. لكنها كل ما تملك..

عاد يحمل صينية ضخمة، تراصت عليها عدة أطباق، بدءًا من الزبادي والحليب، وصولًا للفاكهة التي تحب..

وضعها أمامها وحثها باهتمام:

- كل اللي بتحبيه، زبادي سادة.. لبن من غير سكر، وفراولة.. والغدا، سباجيتي بولونيز من غير فلفل..

رمقته بذهول.. ذهول انقلب لخوف، ثوانٍ ووارتْ خوفها خلف قناع الدهشة، تتلحف بتماسُك هش، وتركن للصمت.. رأى دهشتها، ذهولها، فطن للمغزى فابتسم بعشق:

- ما تستغربيش يا شمس..

ظلتْ تتأمله للحظات وهو خاضع لنظرتها ببسمة غارقة في الأمل، مغموسة بدنيا أمنية لطالما تمناها..

أن ترى غرامه.. تثق به، تصدقه.. وتقترب..

التقطت ثمرة "فراولة" حمراء، شهية، قضمتها تلوكها بتمهل وكل حواسها لا تكاد تتقبل المذاق، ابتلعتها.. بعدها لم تقاوم السؤال:

- بتحبني للدرجة دي!..

تربع في جلسته قربها، ابتسم بتنهيدة عميقة تشع بحرارة العشق:

- تفاصيلك الصغيرة دي مجرد حاجة بسيطة..

أمسكتْ بطبق المعكرونة الساخن، بدأت في الأكل متجاهلة المشهد المقلوب رأسًا على عقب:

- حافظني!..

حاوطها بعينيه بنظرة تليق بهوسه:

- طبعا..

كانت تدرك أنه سيكمل وحده، دفنت بصرها في طبقها وسرد هو على مسامعها جنون هواه:

- يعني مثلا عارف إنك بتحبي الخريف، ما بتحبيش برد الشتا ولا حر الصيف ولا تراب الربيع..

قطبت بتوجس لم ينتبه له.. أردف:

- أكتر أيس كريم بتحبيه هو الليمون، بتاكلي بيتزا بالفراخ من غير فلفل، زي البولونيز عشان ما بتحبيهوش..

اهتزتْ حدقتاها بتلك الصغائر التي لا تباح إلا لقريب.. قريب جدًا، كعاشق راحل..

حتى زوجها الحالي لا يعلم عنها تلك الأشياء!..

اكتسبتْ نبرته هيامًا غريبًا بينما يستطرد:

- مالكيش في الحلويات الشرقية، لكن بتضعفي قدام بلح الشام..

تباطئت حركة يدها التي تحشر الطعام بفمها حشرًا، رفعتْ عينيها إليه بانشداه به شيء من فزع تفَهَمَه..

- أنتَ عرفت كل ده إزاي!..

تحرك يدنو منها، يبتهل في محرابها بنظرة خاشعة:

- عشان بحبك اهتميت أعرف كل صغيرة وكبيرة تخصك..

- كنت بتراقبني!..

- لشهور..

ازدردتْ لعابها باختناق:

- ولما أنت بتحبني وبتراقبني، ليه ما عرضتش عليَّ الجواز!..

عاتبها بألم طبيعي للغاية:

- أنتِ ناسية إنك رفضتِ!..

تنفست بمشقة:

- أقصد بعد ما يامن الله يرحمه.. مات..

أبعد ناظريه عنها، نهض يتطلع للخارج عبر النافذة بضيق بيِّن، ثاب عقبه إليها بجواب مبهم:

- ماكُنتش في مصر الفترة اللي فاتت..

اقترب بغتة حد أنه أجفلها، جثا عند قدميها، ابتسم بتعلق:

- لو كنت موجود وطلبت نتجوز كنتِ هتوافقي!..

لامته كأن جنون المشهد ينقصه لومها:

- أنت ناسي أنك خبطتي بعربيتك، حرمتني من شغلي، الحاجة الوحيدة اللي بحبها!..

نفى بحركة حادة من رأسه ويده تمتد تلقائيًا، تفتش عن كفها:

- لأ.. لأ.. دي كانت حادثة، أنا مستحيل أأذيكِ، ماكانش قصدي، كنت عاوز أبقى قريب منك، ماكُنتش في وعيي والعربية فلتت مني..

هزتْ كتفيها باستسلام يائس:

- خلاص.. ما بقيتش تفرق..

ضم يدها بين كفيه آملًا:

- لما نتجوز، هنسافر وندور على أحسن دكاترة ومستشفيات في العالم، هترجعي للباليه تاني..

سحبتها منه دون عنف، تمهد طريق فرارها بهدوء وثبات:

- بجد!..

- بجد..

تركها لها، وافقها بحماس بدا عجيبًا؛ كأنما فتحت له باب الفردوس، وطلبت منه الدخول متى شاء..

هي فردوسه.. نعيمه الخالد..

هي التي لو أمكنه، سيختطفها ويفر بها من الكوكب بأكمله..

- داوود..

همست باسمه.. الهمسة قتلته وأحيته بكل حرف مرة..

خافقه ينبض بقسوة بين ضلوعه، يرتج ويختض بخبال، منحته حبل الأمان حد طرفه بثقة ينشدها:

- ابني!..

- هاجبيه، وهيكون ابني، هنربيه سوا لحد ما يبقى له أخوات..

برقتْ عيناه بوميض كالنار، يسبح مع خيالاته التي أدمنها:

- عاوز بنت، لازم يكون عندنا بنت.. شبهك، عشان أحبها زي ما بحبك..

مجنون.. مخبول.. مهووس.. ومخيف..

نحتْ الصينية جانبًا، رسمت فوق شفتيها بسمة باهتة:

- ممكن أروح الحمام!..

- طبعا..

قفز من مكانه يعاونها، لم يتخلَ عن فرض سيطرته، عن شكه.. صفد معصميها، وعندما توسلته بنظرة لامعة ترك -بعد تردد- لها حرية قدمها..

غادرت الغرفة وهو في ظهرها كعادته..

خطوة.. ثانية، في الثالثة دفعته تعيده للداخل، تسقطه أرضًا، تغلق الباب وتركض للخارج بلا هدف..

ربما تتعثر بأحدهم فيغيثها..

"شمس"..

صرخ يناديها.. صوته آتٍ من أعماق الجحيم كشيطان يحترق..

كان باب المنزل الخارجي غير محكم، استغربت ذلك لكنها شكرتْ الله عليه، تسارعتْ خطواتها تتفحص الجوار..

تبحث عن سيارة.. عن بشر..

عبرتْ الشرفة، هبطتْ وكل ما رأته كان فراغًا!..

المنزل يحيط به فراغ كبير، أضفى عليه الغروب طابعًا مهيبًا، مروعًا بعض الشيء، لا سيارة بالقرب.. لا أحد..

وعلى بُعد، هناك سور يطوق ذلك الفراغ المبهم..

توقفت ومعصميها المصفدين يؤلمانها، دارت حول نفسها بقنوط، لمحته يتبعها بتراخٍ.. كان يدرك أنها لن تذهب بعيدًا، سيارته بمرآب خاص على الجهة الأخرى من المنزل، السور محكم ببوابة حديدية

مغلقة.. وكل ما يمكنها فعلها أن تعدو بلا مكان تقصده، حتى ينال منها التعب..

وقف يجاورها بحزن حقيقي كعاشق مغدور:

- عاوزة تهربي مني!.. بعد كل اللي قلتهولك واللي عاوز أعمله عشانك!..

لم تمتلك القدرة على الحديث.. كانت مكبلة، حروفها مكممة وإن لم يحجب فمها شريط كما الأمس..

عاجزة، وحيدة.. خائفة، تلك الرفاهية عادت لتقتحمها، تجبرها على الشعور..

الأمل خوف..

وهي عندما تمسكت به، وجدت المخاوف ثغرتها للعبور منها إليها..

- قلت لك هاحقق لك كل اللي بتتمنيه، هاصلح غلطة زمان، هاجيب ابنك ونربيه سوا.. هنعيش في جنة بتاعتنا لوحدنا..

تشتد وتيرة نبرته، يخطو نحوها، يواجهها بغضب أرجفها:

- ليه يا شمس!..

زعق بوجهها، تراجعتْ خطوة ضاعفت من هياجه.. مازالت تخافه.. وخوفها يفجر سخطه وحنقه، أفسح أمامها الطريق، صوته يتوشح بالأسى.. بالقسوة.. بالشجن في مزيج غير منطقي:

- عاوزة تمشي وتسيبيني!.. عاوزة تهربي!..

فرد ذراعيه على اتساعهما هازئًا بوجع، يهديها حريتها رُغم آلامه:

- اهربي، أهو الطريق.. وهافتح لك البوابة..

اختنق إثرها بحروف متحشرجة، عاتبة:

- بس هتخرجي تروحي فين وإزاي!.. إحنا في وسط المجهول، مافيش بشر.. هتموتي قبل ما توصلي لحد..

ومال يصيح بها مهتاجًا:

- عاوزة تموتي يا شمس!..

ابتعد أكثر.. أشار بكفه يدعوها للرحيل أو الموت:

- اتفضلي..

مع صياحه ارتعشتْ.. رمقته بحذر، بتوجس.. بهلع أن تحاول الفرار فيحقنها بالمخدر من جديد، وهي تخشى على جنينها الناجي حتى الآن بمعجزة، كأنما يبثها بوجوده أملًا..

خوفًا.. مثابرة..

سارت بشبه عدو.. ببصر مشتت.. بارتجاف وجسد مضطرب..

خطواتها تترنح في غير اتزان، بارتباك يشوبه تردد، رهبة.. لكن الطريق المباح اللجوء إليه هو طريق الابتعاد قدر ما تستطيع..

الأمان في الفرار.. عليها أن تحاول حتى وإن خشيتْ الضياع..

راقبها للحظات، لم يكن يصدق أنها سترمي بنفسها للهلاك لتتخلص منه!..

لقد تخطته بالفعل نحو المجهول..

زفر بخيبة وعذاب، تبعها، قبض على خصرها من ورائها يعتصره.. صرخت، ركلتْ الهواء عندما ضمها لصدره ورفعها يلصقها بجسده، قاومته وخطته لا تُحتم مقاومة..

بإبهامه ووسطاه طوق عنقها يضغط شريانها السباتي من الجانبين، أظلم عالمها، ظلتْ تقاوم.. تجاهد.. تحارب، ثم خفتتْ مقاومتها حتى الذبول التام..

انطفأتْ بين يديه..

حملها عائدًا بها إلى المنزل، وضعها برفق فوق الفراش، أحكم القيد واسترخى بمقعده بوجه مظلم..

لقد فضلت الموت عليه!..

**

عندما تحكم به الخوف في يوم ما؛ قهره..

أفلتَ لجام مخاوفه، تركها ترتع دون رادع بعقله وأفكاره ثم نفى القلب خارج المعادلة..

القلب مصدر كل الشرور..

القلب معقل الضعف ومسكنه..

بعدها نحر تلك المخاوف، واحدةً تلو أخرى حتى أفناها..

خوف الوحدة..

خوف الفقد..

خوف الهوان..

خوف الخسارة..

خوف الخضوع..

خوف الأمل!..

نعم يا سادة، ولا تدعوا الأمر يباغتكم، الأمل هو مجرد خوف.. نخشى الاستسلام للهزيمة فنأمل بالنصر..

نرتعب من الموت، فنتعلق بأمل أن الحياة طويلة..

نفزع من الغرق، ونتشبث بأمل النجاة..

كل أمل؛ هو في الأصل شيء نخاف مواجهته، هربنا.. عاندنا.. وتجاهلنا، حتى أن مخاوفنا استنزفتنا، امتلكتْ علينا أرواحنا واستحوذتْ على ثباتنا..

الهروب جبن..

والمواجهة ألم..

ترى أيهما أسهل!..

لا شيء سهل، بحياته كلها لم يكن هناك أمر هين، كلها عسيرة.. شاقة، مستحيلة، كسر المستحيل وذلل الصعاب وانتصر..

لذا فسعي الخوف للدخول لعقر داره هو محاولة فاشلة، سيهزمه فيها ويدحره منبوذًا خائبًا..

سيجدها..

يوم ثانٍ مر وانتهى أو قارب، الليل أسدل ستاره الداكن، نهايات الشتاء تمنحه هيبته وبرودته كما ينبغي له.. بعض قطرات طفيفة من مطر خجول ناوشت الأرض بهطول ناعم، وهو لا يزال يفتش بين الأوراق والسجلات الالكترونية لبوابة المجمع السكني، سكانه ومستأجريه حتى ثلاثة أشهر مضت..

هاتفها المغلق بلا فائدة، فحتى لو أدركوا مكانه بمساعدة شركة المحمول؛ يوقن من كونه في أقرب قمامة للبوابة..

قبل لحظات أصابه قنوط، خاصة مع ملامح أخيه الأكبر الشاردة، الحائرة في مخرج.. الشرطة لم تجد دليلًا واحدًا، والاتهام الذي صدح به قُتل في مهده..

من هو كي يهتم رجلًا ذو حصانة باختطاف امرأته!..

بل من هي!..

كان ينهي مراجعة سجل الإيجار للشهر الماضي، ووجد ضالته التي قرر أن ينحر معها خوفه..

منزل مستأجر، قريب من منزلهم، حجمه أصغر يناسب أسرة محدودة، وتلك السيارة التي رحلت بزوجته ليهجرها خاطفها بعد دقائق زارته!..

سجلتْ دخولها لرقم ذاك المنزل، والشكر للبيروقراطية..

الاسمين مختلفين، فالمنزل ملك لعجوز ستينية وحيدة تربي حيواناتها الأليفة لتؤنس وحدتها.. والسيارة ملك لشاب عابث ابن أحد الأثرياء والذي ربما لم يطأ عتبات المكان البتة..

والاسمين بداية جيدة للبحث، هذا إن لم يكن هناك ثالث قد شارك في جريمة لا يعلم عنها شيئًا!..

قاطع سيل أفكاره سؤال أخيه المشتت:

- ليه متأكد أنه كان ساكن أو مستأجر!..

انحنى يجاوره في جلسته المنتبهة أمام شاشة الحاسوب:

- ليه ما يكونش دخل نفذ خطته وخرج فورا!..

ثم أصر بسؤال بديهي:

- ليه أصلا رابط الفيلا والعربية بيه!.. مش يمكن سارقها!..

لم يرفع وجهه إليه، سحب ورقة صغيرة دون بها رقم السيارة، عنوان المنزل مفصلًا وبعض التفاصيل التي علقت بذهنه:

- السرقة هتلفت النظر ليه، هتكون حاجات تحت إيده وفي نفس الوقت صعب تثبت إنها ملكه..

استقام يغادر جلسته، يجلب سترته التي خلعها، ينطلق خارجًا و"يزن" يلاحق خطوات هرولته:

- غير كده اللي نفذ دارس المكان كويس قوي، أخد وقته فيه.. عرف مداخله ومخارجه لدرجة إنه حافظ النقط العميا لكاميرات المراقبة في الجراج واستغلها..

اتخذ مقعده خلف المقود مردفًا بينما أخيرًا يلقي للأخ الأكبر الذي جاوره بنظرة حازمة:

- لازم يكون ساكن، ومش من زمان لأنه كان مختفي بقى له أكتر من سنة ونص..

أدار المحرك وانطلق، صمت "يزن" كي يهضم المعلومات البسيطة والمنطقية ببطء:

- احتمال من قبل ظهوره لما اتعرض لها في المول..

قاد للمنزل المنشود في استقامة لن يحيد عنها:

- شهر ونص شهرين بالكتير..

خمس دقائق وكانا أمامه، ترجل الاثنان، اقترب "يعقوب" من البوابة الأنيقة يراقب الحديقة..

كانت مضاءة في تسلسل تابع للمجمع ككل.. تفحصها باهتمام ودقة، لا يلمح أي أثر لحياة.. أو حتى حارس!..

قبض على القضبان الحديدية وقفز يعتليها بغتة جعلت "يزن" يركض إليه باستنكار:

- أنت هتعمل إيه!..

وثب يعبرها بسلاسة، جاوبه غير مكترث بكونه يتعدى على الممتلكات، وأقرب وصف له هو سارق:

- أراهنك إن الفيلا فاضية..

أوقفه أخيه بقلق:

- يعقوب اعقل، الست ممكن تكون جوا.. ولو شافتك هتبقى مشكلة كبيرة، نجيب إذن نيابة ونفتش..

سخر منه متجهًا إلى الداخل بلامبالاة:

- إذن نيابة!.. على أساس إيه!..

لم يجد "يزن" بدًا من القفز وراءه، وهو سمعه.. ابتسم بتهكم وأكمل حديثه مفندًا الموقف:

- الفيلا دي متأجرة جديد، ولغرض معين تم خلاص.. صاحبتها قعدت فيها كواجهة بس عشان تظهر للسكان، لكن في الحقيقة كان هو الساكن..

المنزل بالفعل كان مطفأً، دار حوله يتفحصه.. عند الباب الخلفي الموصل للمطبخ جثا على ركبة واحدة، وبمدية صغيرة فتحه في بضع ثوانٍ!..

رفع "يزن" حاجبيه بدهشة مستغربة:

- أنت كنت حرامي قبل كده!..

اتسعت بسمته المتهكمة وجاوب بصدق لم ينتبه إليه الآخر:

- آه..

على ضوء الهاتف المحمول جال كليهما بالمكان، كان "يزن" حذرًا للغاية، يخطو بتأنٍ ويتفحص ما حوله بتشوش، حتى أنه لم يتخطَ

ردهة الاستقبال حين أشعل "يعقوب" الأنوار ببساطة مغيظة جعلته يجفل في وقفته، وقبل أن يعترض وجده يهز رأسه بغضب ساخر:

- قلت لك البيت فاضي..

طاف المتوجس بعينيه في الغرفة سريعًا حتى عاد إليه متعجبًا:

- لحقت تفتشه كله!..

ضرب "يعقوب" الجدار بقبضته، يفتت مع ألم جسده بعض من احتراقه:

- باب مقفول تاني..

واساه الأكبر بطمأنة لا يمتلك منها سوى ذرات مبعثرة:

- فارس لسه معاه طرف خيط..

رماه بنظرة مستهينة:

- مش بالسهولة اللي أنت متصورها، مادام كان بالذكاء ده لحد دلوقت؛ يبقى مش هنقدر نعرف..

ارتفع رنين هاتف "يزن" فانتفض في مكانه بعصبية، لمح اسم صديقه.. مسح وجهه بحنق ودمدم ضائقًا:

- أقول لفارس إيه دلوقتِ!.. معلش كنا بننط من فوق السور ونفتش بيوت الناس ولا الحرامية!..

تجاهله "يعقوب".. مر به وتخطاه نحو الخارج، تبعه وهو يجيب صديقه..

يعلم منه أنه أرسل إليه على بريده الالكتروني بشكل غير رسمي قائمة بعناوين العقارات الخاصة والمملوكة لعائلة "خطاب" علَّ أحدًا منهم يمكنه أن يلتقط طرفَ خيط.. أو دليلًا كخطوة لصالحهم..

جلسا يتحققان من القائمة بغرفة مكتب الجد، الذي غادر فراشه وبات معظم وقته يقضيه بمقعده المتحرك كأنما يود البحث عنها معهما.. يحمل الصغير، يطمئنه لكنه يشتاق ضمة أمه الغائبة..

بنهاية الأمر نهض "يعقوب" وغضبه ينفلت منه..

منذ اختفت وقدرته على تحجيم هياجه، السيطرة على أعصابه تضعف، تخفت.. يشعر بكيانه يتفكك، يخنق الإحساس بالخوف، يرفض أن يوليه انتباهه..

يقتله، يغرقه في فوضى البحث عنها..

يضيع نفسه حتى أنه لم ينم من يومها..

أظلمتْ عيناه وقبضتاه تتشددان لحد ربما لو زاد قليلًا لتمزق جلده:

- مافيش مكان ينفع، فلل في الساحل والسخنة وشرم.. بيت قديم مش مسكون في المنيب، وبيتهم الحالي!..

لكم الجدار الزجاجي فارتج بصوت مفزع:

- مافيش مكان ينفع ياخدها فيه..

وازاه "يزن" يحجم تهوره.. يستدعي كل ثبات متاح متخطيًا خوفه المشابه..

يفكر بالمثل ويجاهد لوضع كل النقاط على الحروف، يحل شفرة لغز اختفائها.. أو اختطافها:

- يعقوب اهدى، العصبية مش هتخلينا نفكر صح، والموضوع محتاج تركيز..

لم يجبه.. أغمض عينيه وزفر بسعيره الذي تنبض به أوردته وتتأجج معه خلاياه، شعر بكف أخيه تقبض على كتفه بعد ربتة داعمة بكلمات مقصودة:

- أنا معاك، أنت مش لوحدك.. هنلاقيها إن شاء الله..

ابتعد عنه متغاضيًا عن العاطفة في حديثه، تناول هاتفه من فوق المكتب، طلب رقمًا دوليًا وانتظر رنين الطرف الآخر باحتراق..

جحيمه كله يشتعل، يحتدم لهيبه فيصليه رهبة!..

وهو لم يمس قلبه ارتباكًا منذ دهر..

لا.. هو حتى ليس له قلب..

أتته الإجابة بترحيب بتره بصرامة قاسية تناسب وحشية أفكاره وشراسة انفعالاته بهذه اللحظة..

شيطانه سيمتلك المشهد دون محاولات سيطرة أو رتوش تزيين:

- ديمتري.. أحتاج لخدمة من رجالك بمصر..

صديق المراهقة، رجل العصابات العتيد.. المعلومات التي يريدها لن تطفو على السطح الأنيق؛ لا.. ستنغمس هناك في ضحالة القاع العفن!..

وفي القاع سيغرق لو اقتضى الأمر..

أنهى المكالمة واستدار لأخيه الواجم، برقتْ عيناه باختلال مستحق:

- عاوز تهزم مختل، جاريه في اختلاله..

هو رجل اعتاد سحق مخاوفه فوق كل أراضي المعارك التي تلاقى فيها معها.. وما هذا الخوف إلا معركة كمثيلاتها، معركة لن يفر من أرضها مهزومًا..

**

هو رجل يحترف ترويض الخوف..

خاف مرة.. ثانية..

ثم أقسم أنه لن تكون هناك ثالثة..

لن يعقبها فقد جديد، أو تتبعها خسارة تالية..

ولم يحنث بقسمه منذ ذلك الحين..

سلك كل الطرق، اعتنق كل مبدأ، كسر كل حد.. فقط ليبسر الحفاظ على عهد أمانه لنفسه..

أما هي فقررتْ أن تسلك دربًا مغايرًا..

لم تتحدَ خوفها أو تهرب منه.. لم تحاربه، وتسعى لفنائه؛ بل صادقته.. آمنتْ به، أقرتْ بوجوده، ثم هزمته على أرضه حتى خضع لها ونشأتْ بينهما علاقة سلسة تريحها..

لذا اللقاء بينهما ملحمي.. الخوف في حضرتهما هباء..

الأمور مستقرة، الأيام تمر عليهما بتلكؤ كأنما تسخر من استمرارهما معًا، أخيه على ما يرام.. وهناك هدوء يشيع في أجواء المنزل بشكل مريب لكنه مقبول..

لم تكن تتوقع أن طلبها سيعكر صفو تلك الغيمة الناعمة التي تظللهما، يبدلها لضباب يعمي الأبصار..

"عاوزة أشوف ماما زهرة"..

"لأ"..

طلبها الذي رفضه بكلمة واحدة، مقتضبة، عجولة وغادر لعمله..

منسوب غضبها المرتفع بدمها وصل لدرجة الغليان حين عودته، استقبلته تراقبه ينزع معطفه، سترته.. يخلع ساعته ويرمقها عبر المرآة بنظرة فاترة:

- إيه!.. تم تفعيل موود النكد!..

كانت واقفة تستند لجدار قريب من باب الغرفة، تعقد ذراعيها وتتأمله بعين موشكة على القتل، تجاهلتْ مزاحه الساخر وتحركت تقترب:

- ليه كل ما بنتقدم خطوة بترجعنا عشرة لورا!..

رفع حاجبًا يدعي الدهشة وعدم الفهم:

- كنت فاكرة إننا خلاص...

- خلاص إيه يا وسن!..

استدار إليها يرميها من عليائه بسهام نظراته المؤلمة المزدرية:

- ماتقوليش إن دي كانت خطتك!..

تهكم واستهان وخطا يقترب بالمثل، يميل أمام بصرها باستنكار مستهزئ:

- مش معقول كنتِ معتقدة إننا في حدوتة خيالية، وأنتِ الجميلة اللي هتفك لعنة الوحش والحكاية تنتهي بـhappily ever after..

زمتْ شفتيها برجفة غاضبة تجاهلها، ابتعد عنها مجددًا، خلع قميصه واتجه للحمام في إشارة لانتهاء الحديث لولا أنها أوقفته بنبرة باردة:

- حقيقي برافو يا عمار.. keep going..

ظل بمكانه فدارتْ حوله تقتحم عينيه بنظرة كالرصاص:

- أنت على المسار الصح..

أحنتْ رأسها تهديه بسمة جليدية كصوتها تمامًا:

- كل يوم باكرهك نقطة زيادة..

ثم ضمت قبضتها فوق موطن النبض الخامل:

- وقت ما الحب القديم يجف، والكره يغرق قلبي..

أظلمتْ حدقتاها بعتمة لم يعتدها معها بينما ينصت بسكون:

- ساعتها هتتمنى وسن المغفلة ترجع، بس للأسف مش هتقدر تحقق الأمنية..

جذبها على حين غرة يطوق خصرها، يضغطها إليه ويحاصرها بأحضانه..

الغريب أنها لم تقاوم.. لم تبتعد.. لم تدفعه أو ترفض!..

قبعت هادئة بين ذراعيه وهو على منوال استهانته مستمر:

- كره!..

مرر أنامله برفق فوق عمودها الفقري حتى وصل لعنقها، داعبها برقة:

- الكره مشاعر سلبية مجهدة، زيها زي الحب بالظبط..

انحنى قرب أذنها يهمس بتمهل ممررًا أنفاسه قبل أحرفه:

- مافيهوش راحة..

تراجع.. حاوط جانب وجهها بكامل كفه، فردها تحتويه.. إبهامه يمسد وجنتها بربتات خاطفة، همسه يتواصل بمكر مقيت..

يعلن البُغض والتسلية بذات اللحظة!..

- الراحة في اللامبالاة يا وسن، ودي مستحيلة بالنسبة لك..

كل لمسة منه لم تثِر فيها شيئًا..

جسدها كقطعة من صخر بين يديه..

مشاعرها من نار وجليد..

وقلبها يفيض بسواد لو علم بوجوده، لربما أخذ حذره!..

رفعت ذراعيها تريحهما فوق كتفيه، تجابهه بالنبرة نفسها.. بالنظرة والهمس:

- مين قال إني عاوزة أرتاح!..

انسلتْ أصابعها تتخلل خصلاته مكملة:

- أنا عاوزة أكرهك لآخر يوم في عمري..

التوتْ شفتاها ببسمة ساخرة تشبه خاصته:

- اللامبالاة هتخليني عاوزة أهرب، عاوزة أبعد وأكسب نفسي..

وتجاهلت تقطيبته عندما جذبته ليخفض رأسه إليها:

- لكن أنا مش عاوزة ده..

لامستْ أنفاسها أذنه كما فعل معها، لكنها كانت كصقيع لهجتها:

- عاوزة أأذيك؛ ولما أأذيك ماحسش بندم أو تأنيب ضمير..

تراجعتْ تجابه عينيه..

ترى الدهشة المتوارية خلف إدعاء الثبات..

لقد أثارتْ قلقه وفي ذاك نشوة..

نشوة جعلتها تقربه منها أكثر، تتمم كلماتها المسمومة فوق شفتيه كأنما تقتله بسم زعاف أماتها من قبل:

- حتى لو خسرت مبادئي في نص الطريق..

وكانت هي المبادِرة!..

مبادَرة أحجم عنها، منعها وأبعد نفسه يناظرها بتفحص ضاعف من نشواها، هزتْ كتفيها بلا اكتراث وتركت له الغرفة..

هبطتْ الدرج تدندن بلحن رومانسي قديم، تبتسم.. تلمح الخادمة الصغيرة تفر من طريقها.. تتعثر بالذئب الآخر وإن لم يحمل اللقب، تسأله بغمغمة متلاعبة:

- هاعمل سحلب، تشرب معايا!..

تلاعبها وصل لأذنيه، أدركه فعقد حاجبيه ونفى دون حرف..

خوف جديد ستصادقه، تعاقره حتى الثمالة، حتى يكتسب جسدها مناعته، وحينها.. ستدمره!..

اجتمع ثلاثتهم بعد ساعة على مائدة العشاء في صمت، صمت انتهى بها نائمة كملاك برئ إلى جواره، وببصره لا يغيب عنها..

في هذه الليلة..

وربما للمرة الأولى منذ دهر؛ نام ذئبها الشرس يغمض عينًا واحدة!..

هي تضمر شيئًا، وهو لن يحنث بقسمه حتى وإن دهسها..

مع الصباح التالي ذهب لعمله وأفكاره تتصارع في احتدام، التخمين غير مجدٍ، وانتظار خطوتها ضعف ممقوت لن يقبل به..

دلف شاردًا للمصعد المخصص له كمالك الشركة، قبل أن تنغلق أبوابه سمع الهتاف الناعم:

- لحظة من فضلك..

خطوات سريعة وفتاة تركض بلهاث، تدخل لمصعده، تبتسم فتتبدى فتنتها لعينيه، تزيح خصلاتها العسلية الطويلة عن وجهها، تحادث نفسها بحيوية بينما ترمق الأرقام:

- كويس.. طالعة الدور التالت برده..

تأملها بجمود..

كانت ترتدي سترة جلدية سوداء، تتوقف عند حافة سروالها من الجينز الأزرق، وتحتها قميصًا شتويًا بذات الزرقة..

ثياب عادية، عملية للغاية..

لم يفهم من هي!..

وبالتأكيد لم تعرفه، فلو كانت تفعل؛ لما ركضتْ إلى مصعده، تجاوره فيه بلا سبب كأنه حافلة عامة!..

وصلا لطابقه، أهدته بسمة وغادرت تسبقه، تبعها فوجدها تتجه لمكتبه، استقبلتها مساعدته التي لم تره بعد لتبادر هي:

- صباح الخير، عندي ميعاد مع عمار بيه الساعة 8 ونص..

رفع معصمه ينظر لساعته، تبقت دقيقتان على ذاك الموعد، جاوبتها وهي تراه يأتي من خلفها متجهًا لغرفته:

- صباح النور.. عمار بيه وصل أهو!..

استدارتْ تلتقي ببصره.. زمتْ شفتيها بحرج لكن ابتسامة مقلتيها لم تتلاشَ، تخطاها كأنما لم يرَها ورافقتْ خطواته مساعدته..

استقر بمقعده، تناول ملف البريد وأشار للفتاة:

- دخليها..

تقدمتْ منه بخطوات واسعة تليق بعفويتها التي أزعجته لوهلة:

- صباح الخير يا عمار بيه، لينا الجيار.. مندوبة شركة ميد جنرال العالمية للأجهزة الطبية..

بسط يده في إشارة للجلوس، اتخذتْ مقعدًا يواجه مكتبه، فتحتْ حقيبتها وبدأت بحماس في محاولة إغوائه للتعامل مع شركتها.. كان الوقت المحدد للقاء نصف ساعة لم تتوقف خلالها عن الثرثرة والشرح المستفيض، عندما انتهى أعلن رفضه بلباقة:

- للأسف يا آنسة لينا، شركتي بتتعامل مع مجموعة شركات عالمية لها اسمها ومركزها في أسواق أوروبا والعالم ككل.. مش هاقدر أغامر مع شركة جديدة، بملايين..

لملمت أوراقها وعروضها دون أن يبدو عليها الاهتمام برفضه:

- حضرتك محتاج فرصة تجرب أجهزتنا، إحنا معانا تلات شهادات جودة، بنسيطر على السوق يمكن ببطء بس بثبات، وحضرتك كل اللي محتاجه مجازفة بتجربة وقتها هيكون بيننا عقود إن شاء الله..

مط شفتيه باستهجان:

- المجازفة اللي بتتكلمي عنها تمنها ملايين..

استقامت تمد يدها لمصافحته بعناد لحوح:

- وأنا أقدر أقنع حضرتك تاخدها، لو إديتني فرصة..

تطلع ليدها الممدودة إليه بفتور، نهض يصافحها مصرًا بحزم:

- محاولة إقناعي بمغامرة من غير ضمانات مستحيلة..

ابتسمتْ بجدية يشوبها شقاوة مرحة:

- متعودة أكسر المستحيل، أنا لحوحة جدا على فكرة..

زوى ما بين حاجبيه، سخر بصراحة:

- واضح..

لم تتخلَ عن ابتسامتها، خطتْ راحلة وكلماتها تثير غيظه.. وفضوله:

- هاعتبر إنك تقصد قدرتي على كسر المستحيل..

في حديثها إشارة للقاء تنوي تكراره، وهو لا يبالي به أو بها..

لكن القدر له تدخلاته، أوامره التي تجبرنا على الخضوع..

على الخوف!..

**

الخوف هو عدوها الأول في قلبه..

وحليفه الوحيد على مدار عمر..

تحدتْ خوفه، دخلتْ معه في حرب لم تدرك أنها في نهايتها ستُمنى بهزيمة نكراء.. أخذتْ على عاتقها محاولة شفائه منه، رأتْ في نفسها القدرة على الغوص بأعماقه المعتمة، فغرقتْ بين موجة وأخرى..

القاع كان بعيدًا، ودوامة الألم سحبتها حد الموت..

البداية كانت باتفاق، معادلة حسابية تسير بمنطقه الخاص، لم ترفض أو تعارض، وافقته.. باتت زوجته.. لكنه مع حملها تخطى كل حدود المعقول والمقبول!..

اتهمها.. آلمها..

أعلنته مركز مدارها، فظن أنه سيكونه في الحياة والموت..

حتى أنه أمر بقتل طفله!..

طفلهما.. حماقة وغرور وجبن..

صفات لم ترها فيه من قبل، لكن أعظم مخاوفنا هي تلك التي نهرب منها.. الهروب سهل، مريح، آمن..

الهروب رفاهية نسلك دربها لأننا لسنا أهلًا لصراع مع أكثر ما يرعبنا.. وهو رعبه الفقد، ذنبه الذي دنس به يديه بنفسه، وباختياره كان الموت..

مزَّق الرباط بينهما، رمى بيمين الطلاق وعيناه بعينيها، لم يطرف.. لم يُبعد ناظريه، فعلها وغادر شامخًا ثابتًا كطود يحمل هم اتزان الأرض فوق ظهره..

ومن يومها وهي لا تدري ما بها!..

تبكي بصمت، لا تريد البكاء لكن دموعها لا تتوقف، تمسحها، تنهر قلبها، تغضب، تلعنه.. والعبرات آخذة في السيل بلا فائدة..

رفضتْ الحديث مع أبيها الحاني..

تباعدتْ عن أمها التي تؤمن أنها ستوبخها..

احتجبتْ بغرفتها القديمة تعيد على عقلها كل ذكرى.. كل قرب..

كل لمسة وقبلة وهمسة ونظرة، كل اهتمام ظنته طرف خيط.. وكل هروب!..

تجاهلتْ طرق الباب، تعلم أنها والدتها، لا ترغب بذكر الأمر..

من منا يريد الحديث عن هزائمه!..

سمعت الباب يفتح، الأم تعبره، تغلقه من خلفها.. تقترب من الفراش، تجلس على طرفه وتواجهها في صمت أشعل أعصابها، استهلتْ انفجارها بنبرة متهكمة:

- قوليها يا ماما..

ابتسمتْ الصامتة بحنو هادئ وسألتها:

- أقول إيه!..

اعتدلتْ "رهف" تحرر جسدها المضموم بين ذراعيها، تشيح بكلتا يديها في أسى:

- إنك قلتِ لي إنه ما بيحبنيش، إني هاندم..

غادرتْ والدتها موقعها، جاورتها، ضمتها فوق صدرها فلم تمانع.. هي تشتاق موطن سكينتها وتترفع عن طلبه:

- أنا مش عاوزة أقول كده..

- بجد!..

خللتْ أمها خصلاتها برفق:

- أيوة.. أنا جاية أطمن عليكِ، وأشوف هتتغدي إيه النهاردة عشان لازم تتغذي كويس..

فاضتْ دموعها أكثر.. اختلجتْ نبرتها واهتزت حدقتيها:

- طلقني يا ماما، ببساطة.. كأن ماكانش بينا حاجة، ولا كأني حامل في ابنه..

مسحتْ الأم وجهها بأناملها، أبعدتها تنظر بأعماق عينيها:

- هو عمل كل ده مش لأنه ما بيحبكيش..

ابتسمتْ "رهف" بشجن، أحنتْ رأسها بقنوط:

- دي الحقيقة، هو عمره ما حبني ولا هيحبني..

ربتت "ماجدة" على كفها، مدت أصابعها ترفع وجهها إليها:

- بس ده مش سبب الطلاق..

وأهدتها بسمة تشبه بسمتها كثيرًا، بسمة واعية، متفهمة.. تدرك ما بها وترى أبعد من زاوية العاشقة التي تنظر منها ابنتها:

- هو طلقك عشان خايف، خوفه اتحكم بيه، وهو ما قدرش يقاومه.. يمكن ضعف منه، أيوة هو استسلم.. غلط، لكن مش هالومه..

ثم كستْ لهجتها بجدية حازمة، عادلة:

- أنتِ كمان غلطانة أنك طلبتِ الطلاق، مش كل الأمور حلها الفراق..

دافعتْ عن موقفها بما تراه حقًا:

- كان عاوزني أنزله يا ماما، أقتل ابني.. أنا طلبت الطلاق عشان أعرفه إن الحمل عمره ما كان مقصود مني عشان باتمنى حبه..

محتْ عبراتها بعنف حزين، تصرح بتمرد حانق:

- هو فاكر نفسه مين!..

تجاهلتْ أمها آخر كلماتها وركزت مع ما سبقها:

- مادام خوفه خلاه يطلب حاجة زي دي، يبقى تلجأي لأهلك.. الناس العاقلة بتعمل كده، أهلك وأهله.. نقعد مع بعض ونتفاهم، مش مع أي مشكلة طلقني..

ارتمتْ بأحضانها ساخطة عليه وعلى قلبها الغارق فيه رُغمًا عن كل شيء:

- وهو وافق ببساطة، عادي يعني..

حاوطتها "ماجدة" بعاطفة دافئة، تقر وقائع وتسرد حقائق تراها بعين البعيد عن المشهد:

- هيرجع، محتاج وقت يستوعب ويفهم.. محتاج يواجه خوفه، ومحتاجك..

نفتْ بطفولية غريبة عليها:

- مش عاوزاه يرجع خلاص..

تراجعتْ ثانيَة بضيق، تسحب محرمة ورقية تجفف بها وجهها البائس:

- ماما أنا مش عاوزة أعيط، ليه الدموع دي كلها!..

ضحكتْ والدتها واستقامت تعلمها بحالها:

- أنتِ حامل يا رهف، كل عواطفك هتلاقيها مش منطقية ومتقلبة..

وتقلبها الملعون في هذه اللحظة.. يشتاقه!..

.....

عندما نقضي زمانًا طويلًا في خضوع، لا يسهل علينا المقاومة.. لا نفكر في الحرب، ولا نبدأ معركة..

نستسلم للخسارة حتى وإن خسرنا أنفسنا..

وأكثر من نحتاج.. من نحب!..

فارقها، أثبتَ لها أن الطفل لن يربطه بها، لن يفتح أبواب قلبه لها..

فارقها وكل ما فيه وحيد دونها!..

والدته لم تتوقف عن الاتصال به، وبخته مرتين فأغلق هاتفه في الثالثة.. نقلت مكالماتها لهاتف المنزل، رفع سماعته وتجاهله.. جده حدثه مرة واحدة ثم تركه لشأنه..

لتحمل نتيجة خياره وتبعات قراره..

لكن أمه لم تفعل، تفاجأ بها في بيته، فوق رأسه.. تلومه بخيبة:

- وصل معاك خوفك للدرجة دي يا عدي؟..

كان نائمًا، فتح عينيه يرمقها بنظرة خاملة، فاترة.. غادر الفراش، غسل وجهه.. وهي تحاصره بلا رحمة:

- أنت فاكر إنك بتعلمها درس مش هتنساه!..

بحث عن ثيابه في الخزانة، ونيته الذهاب لعمله:

- هتخسرها يا عدي، أنت كسرت فرحتها، واتخليت عنها في أكتر وقت أي ست بتكون محتاجة فيه جوزها..

تصلب جسده للحظة لم تدُم كثيرًا، توجه للحمام فاعترضتْ طريقة بصرامة:

- أنت مش حاسس بحجم الكارثة اللي عملتها!..

ابتسم ببرود، نبرته كصقيع شتاء، نظرته مثل رماد ما بعد ألف حريق:

- هي اللي اختارت، هي اللي قررت، هي اللي طلبت.. أنا كنت مجرد رد فعل، حاسبيها هي..

وتخطاها إلى حيث أراد خامدًا كبركان لن يثور أبدًا:

- مافيش حب يستاهل نموت عشانه..

- أنت غبي..

توقف مبهوتًا عندما ضربته الكلمة، زم شفتيه بغضب مكتوم بينما تكمل:

- ضيعت حب مش هتقدر تعوضه، ولا حتى هتلاقي زيه..

سخر بمرارة سوداء:

- مابقيتش عاوز حاجة خلاص..

وأغلق الباب على وحدته متغاضيًا عن صدمة أمه..

وقف أسفل الماء بجمود واجم.. أفكاره تنسلخ عن عقله كجلد ينزع عن اللحم، بأقسى وأعنف ألم..

هي اختارت.. أقنع بها ضميره..

هي حددت المسار.. حسم بها قراره..

هي من أرادت الفراق.. لبى بها رغبتها..

لا لوم عليه..

عندما يتحكم بنا الخوف، نجابه وجوده بالإنكار، نذعن لأوامره، ونراها بحماقة.. عين الصواب..

**

هو رجل اعتاد تطويع مخاوفه..

خاف الظلام فمكث به يومًا كاملًا حتى فقد بعينيه رهبته، تمازج معه.. تآلف وإياه..

عندما خرج منه ضايقه النور فابتسم ساخرًا واستمر..

بعد كل خوف، يخطو فوق جثمانه المذبوح على يديه ويمضي..

هي امرأة خوفها ليس حاضرًا وحسب، بل ماضٍ كان هو نقطة ضعفها التي رآها، أجاد الضغط عليها، برع في استغلالها..

حتى تحول قرب النهاية لأعظم خوف يمكن أن تمر به..

بدل أحلامها لكوابيس تخصه..

دمر كيانها الذي ظنته مستقلًا قائمًا بذاته في يوم ما، ترفعتْ به عن الاحتياج فأسقطها من علياء أوهامها لحضيض الحقيقة..

هي الصغيرة.. التابعة.. المنبوذة من الأب لأن الكبرى مفضلته، صديقته، ورفيقة الكتب والحكايا..

ومن الأم التي تعاملها دومًا على أنها فاشلة، لا يمكن الاعتماد عليها.. وهي صدقت..

اعتمدتْ على شقيقتها الكبرى في الكثير من الأمور، افتقدت العاطفة وعوضتها مع شيطان بجناحي ملاك..

تاقتْ للحب وسقطتْ فيه مع وحش أخفى أنيابه حتى نهشها على غفلة منها..

أبيها الصارم لطالما منعها كل ما تريد، ومنحه لأختها، اتخذ من الكبرى مثالًا يحتذى به، أشار إليها بالبنان ودهسها هي تحت وقع نظرته الخائبة فيها..

والدتها عاملتها بحمائية، كأنما تصدق على رؤية والدها، شقيقتها تصرفتْ بالمثل..

بادرتْ في كل احتياج.. دعمتْ إثر كل سقوط..

حتى سقطتْ مع زوجها بفراشها، وانهار عالمها كله بعدها..

كوابيسها لا تنتهي، جميع لياليها هو بطلها، يطاردها، يكسرها، يحطمها، ينتهكها مرارًا وتكرارًا..

ترى نفسها تسمح وتستجيب كثيرًا..

وتمتنع في مرة فينالها عنوة.. يقضي على ما تبقى حيًا فيها..

انتفضتْ من نومها هاربة من حضوره الجاثم على صدرها وأنفاسها كالموت، دموعها تغرق وجهها والوسادة حتى وهي نائمة.. تنتحب، تشهق بعسر، تبتهل للنسيان ولا تطاله..

ساعتين فقط مرتا منذ أوت للفراش، ساعتين كانتا كالجحيم..

الألم يكاد يفجر رأسها، الوجع يخترق قلبها كطعنة سكين ثالم، ببطء وبرود.. وأقراصها باتت هي صديقتها الوحيدة في لحظات الخوف..

تدرك أنها أدمنتها، لكن من يبالي!..

أمها حتى لم تنتبه..

وصغارها؛ مصب جنونها وعصبيتها وغضبها المكبوت، لا توقن من قدرتها على احتوائهم، تربيتهم والعناية بهم..

عادت تستكين، تتمنى أن تكون نومتها هذه هي الخاتمة.. الحاسمة، تتوسل موتًا رحيمًا، فالحياة أصبحت دار عذاب مقيم..

تسمع بكاء رضيعتها، تنهض إليها بوهن، تحملها.. تضمها بقسوة، تهدهدها بشيء من حدة، تغفل عن حالها وتعود للفراش..

تنام.. تضيع.. تغيب..

وتود لو كان ذاك هو غيابها الأخير..

غيابًا هو له النشوة واللذة ومذاق النصر!..

تمازج مع ما خسر، عبر فوقه، خلق لنفسه حياة.. اصطنعها كما يرغب، واستمر..

غيابًا يناسبه، بين ذراعي امرأة فاتنة تسلل لها من كل ثغرة وجدها، لكن ثغرتها الأهم هي وحدتها..

ابتعد عنها، جاورها وسحبها فوق صدره.. أراحتْ رأسها هناك تنصت لنبضه الهادر، تسعد بفقدانه لاتزانه معها..

"أيمن"..

همهم دون رد واضح، رفعتْ رأسها تستند إليه.. تبتسم بفضول حائر، وإن كانت لا تمانع ما تمر به:

- أنت عملت فيَّ إيه!..

ضحك بخفوت، غمزها بعبث وقح واعتدل يشرف عليها:

- زلزلت كيانك..

ضربتْ كتفه تفتعل الغيظ الممزوج بالدلال:

- باتكلم بجد..

مرر أنامله على تفاصيل ملامحها بتمهل:

- أنا وأنتِ كنا محتاجين بعض يا حسناء..

ارتبكتْ بتردد وأفكارها تشرد في وضعهما:

- عمري ما سيبت احتياجي يتحكم فيَّ..

أبعدته، استندت لمرفقها ووجنتها تستريح على كفها المفرودة:

- ولادي وشغلي كانوا كل حياتي..

جذب يدها الثانية، قبلها واحتفظ بها عند قلبه:

- وأنا كنت وحيد بعد ما خسرت كل حاجة..

مال يسرق من شفتيها قبلة مشاغبة:

- لحد ما لقيتك..

جلس بعدها يرتكن بظهره للفراش، يشعل لفافة تبغ وينفثها عائدًا لأمس غير بعيد..

يغرق في صمت قصير، قررتْ اختراقه، اعتدلتْ تستكين بأحضانه:

- أنا خالفت كل مبادئي عشان أكون معاك..

- تولع المبادئ..

همسها على حاله من الغياب، وكزته فوق ضلوعه برفق:

- مش لدرجة جواز عرفي مع فرق السن اللي بينا ومن ورا ولادي..

انتبه لحديثها، رفع وجهها ليقابل وجهه بدهشة ساخرة:

- دول خمس سنين يا حسناء، بعدين العرفي ده كان رغبتك..

أزاحتْ خصلة خلف أذنها بتبرير تصدق عليه:

- ابني الكبير في ثانوي يا أيمن، هاقوله إيه!.. ماما عاوزة تتجوز!..

- ليه لأ!..

هزتْ رأسها بنفي، تعتنق نهج أفكارها ولا تحيد عنه:

- مش هيوافق، هيكرهني ويمكن يسيبني ويروح لأهل المرحوم أبوه..

أطفأ تبغه وتحرك يطوق وجهها بيديه، يغرق عينيها بعينيه، يُحمِّل على كتفيها مسؤولية الخيار:

- أنا وافقت على كل شروطك، المهم نكون مع بعض..

وأعادها يكرر اجتياحه، يدفع بمخدر حضوره في عروقها حد الإدمان..

هو رجل الصفقات الرابحة حتى مع.. الخوف!..

**

بعضنا لم يتعامل مع الخوف كثيرًا، مجرد مرور عابر لم يكن مؤلمًا أو مفزعًا كما ينبغي أن يكون..

وهو واحد من هؤلاء القلة الناجية..

قلة عندما يقرر الخوف حضورًا حقيقيًا بعالمه؛ يجتاحه!..

يسقطه.. ينهيه..

يحول دنياه المثالية لقلب بركان محترق، ثار.. تأجج حد الخمود، وتناثر رماده أدراج رياح الخيبة والخسارة والوجع..

جدة أولاده أخبرته عن رغبتها في رؤية أحفادها، وذكرتْ الزوجة الجديدة بنبرة شبه ساخرة، ثم أنهتْ المكالمة تُعلمه بالموعد وبكونها تريد الحديث معه في أمر هام!..

أقلقه ما قد يجول بذهنها لكنه وافق، لن يحرمها منهما لأنه مرتاب حول نواياها..

ثمة قواعد لا يجوز كسرها، والجدة هي القاعدة الأهم، أعلم "رحيل" بقدومها، لم يكترث لارتباكها، نبأها عن لقاء سيتم ونصحها فيه بالإيجاز.. هو تعارف مطلوب ومتوقع..

أتتْ في موعدها، تحمل هدايا للصغيرين القابعين بغرفتهما بانتظارها، استقبلها هو وزوجته، منحها بعض الوقت لتتكيف مع المشهد الثقيل عليها، ترك لها حريتها لتظهر وقتما تستطيع:

- إزيك يا وجيه!..

رد باقتضاب روتيني يحمد الله، اقتادها لغرفة مكتبه، هناك بادر بجدية:

- كنتِ بتقولي عاوزاني في موضوع مهم!..

تسلحتْ بجدية مماثلة وإن أضافتْ لها الصرامة والحدة:

- أيوة.. أنا عاوزة الولاد يقضوا معايا يومين كل أسبوع..

لم يستوعب.. أو بدا كذلك..

وجم لثوانٍ، يتأملها بدهشة مستنكرة صامتة قبل أن تتهكم نبرته بفظاظة:

- يومين كل أسبوع!..

ثم يتعنت برفض غليظ قاسٍ:

- آسف، الولاد عاوزة تشوفيهم هتشوفيهم هنا.. غير كده لأ..

رمقته بصدمة غاضبة:

- أنت عاوز تحرمني من أحفادي يا وجيه!..

تلحف صوته ببرود قارص:

- أنا ماقلتش كده..

وتقدم خطوة نحوها يسخر من محاولة استغفاله:

- أنتِ فعلا شايفاني مغفل للدرجة دي!..

تساءلت بحيرة صادقة:

- قصدك إيه؟..

هاجم بلا مقدمات:

- قصدي واضح، عاوزة الولاد عشان بنتك تشوفهم..

تجمدتْ تتلقى اتهامه بحنق ظاهر:

- بنتي مش هنا من الأساس، ولا نسيت أنك قتلتها بالحياة، ونفيتها بعيد عننا!..

تشددتْ قبضتاه، انضغطتْ أسنانه ودمدم بقسوة مظلمة:

- أكيد ما نسيتش.. بس الظاهر إنك أنتِ اللي نسيتِ إنها خانتني، ومع جوز أختها..

كادتْ تجيبه.. تصرخ فيه..

تخبره أن حفيديها من حقها ومن حق أمهما..

أنه ظالم، متجبر لا يمتلك من الرحمة ذرة..

كادت.. ولم تفعل..

بُتر الرد بشهقة خافتة، برجفة، بضجيج أكواب زجاجية تقرع بعضها البعض في اهتزاز..

فهناك.. عند الباب كانت تقف زوجته!..

(35)

كلنا غرباء..

أقلنا درجة من نزح عن وطنه مهاجرًا..

والأقسى؛ ذاك الذي سقطت روحه عنوة في بؤرة الاغتراب..

**

هل نغترب عمرًا ثم نجد السكن والوطن في الحب!..

نعم.. ذاك يحدث أحيانًا..

هناك قصص عشاق من الخيال، وهي تحيا معه قصتها الواقعية الخاصة رُغم أنه هو ذاته بطلها الخيالي الذي قفز من عالم الوهم لأرض الحقيقة وتجسد بين يديها.. بل تجسد بقلبها كما لم تظن أنه قد يفعل في يوم!..

قصة نقشها عشق، فوق سطور الهوى وبحروف من غرام.. قصة دفعتْ بالنشوة لعروقها، خضعت له حد الثمالة، وغابت معه بعدما

تجرعت خمر هيامه المسكرة كأسًا وراء كأس دون أن ينتهي مخزونه منه..

في رواية رومانسية هو بطل مثالي..

بعد عودتها إليه منذ ثلاثة أيام ولم يبارح جوارها، أخبرها أنه مادام لن يكون هناك شهر عسل يقضيانه في مكان ما، فسيمنح نفسه راحة قربها لسبعة أيام على الأقل.. يتلو عليها في كل يوم منها أناشيد هواه..

يعيد على أسماعها بداية السقوط، يعلمها كيف تخطو دون حذر في دروب عشقه..

يسحبها معه ويركض، تركض بالمثل وتضحك.. تتبعه مغمضة العينين وتسلمه زمام القلب بلا خوف..

أفاقتْ والشمس تتوسط السماء بدفء محبب لطيف، الساعة تخطت الواحدة ظهرًا، يضمها إليه كأنما ستتلاشى لو أفلتها، ابتسمت بحنو.. لامست وجنته بكفها في مرور ناعم، طبعت فوقها قبلة خافتة وحررت جسدها من طوقه برفق..

أنهتْ حمامًا دافئًا خرجتْ بعده لتعد الإفطار، هي جائعة للغاية وهو نهمه إليها يكفيه كما يبدو!..

ابتسمتْ بحياء وحمرة ساخنة تحتل وجنتيها، تستغربه ولن تنكر..

شغفه، تملكه، لهفته.. توقه الدائم..

هما حتى لم يتناولا وجبة مشبعة منذ تزوجا، كلها وجبات من مطاعم المأكولات السريعة لا تكتمل منها واحدة إلا وبترها بغرامه في المنتصف.. كما أنها امرأة تفضل طهي يديها!..

انتوتْ أن يكون اليوم مختلفًا، ستصنع إفطارًا خفيفًا، تتبعه بقدحين من القهوة التي يفضلانها بالحليب، بمزاج متشابه، ثم تستعد لتحضير وجبة غذاء دسمة معه..

كذلك هو يحب الطهي، ويبرع في بعض الوصفات التي يحبها، ستختار إحداها وتجذبه بصحبتها رُغم إرادته ليقوما بطهيها سويًا..

انسجمتْ تدندن بنغمة كلاسيكية هادئة، تقطع ثمرة خيار بشكل أنيق، ترصها في طبق صغير.. تعود قرب الموقد، تضرب البيض بعد تنكيهه بالملح والفلفل.. تصبه في مقلاة مع قطعة من الزبد، تتشممه

وتقلبه حتى ينضج.. تفرغه في طبق ثانٍ، وتقرر أن تضيف على الوجه بعض الجبن المبشور مستغلة سخونته..

قبل أن تفتح المبرد لتبحث عما تريد كان هو معها، يحاصرها، يضم خصرها ويزرعها بأحضانه.. يديرها إليه ليستند ظهرها للمبرد، فتلمح أنه يقف معها بالمطبخ لا يستره سوى منشفة عريضة شهقت على إثرها:

- صباح الخير..

أراحتْ كفيها على صدره، عاتبته بعينيها:

- هتبرد ده أولًا، ثانيًا البس لو سمحت لأني هاموت من الجوع وعملت لنا فطار خفيف لحد ما نشوف هنتغدى إيه النهاردة عشان أنا....

أنهى ثرثرتها بشفتيه، يلتهم طعامه المفضل بمذاق أشهى فاكهة.. بل بمذاق الجنة، هامسًا بمشاكسة:

- رغي.. رغي كتير..

أبعدته بدهشة باسمة وأجفانها تحاوطه، تدثره بالأهداب وتدفئه بسماء المُقل، نظرتها مبتهجة لا تخلو من حيرة:

- منذر!.. أنا عاوزة أفطر..

لم تشعر به إلا وهو يطوق خصرها أكثر، يرفعها بين ذراعيه ويتجه بها إلى أريكة المعيشة العريضة، يسقط معها ويسقطها معه..

يذيب اعتراضاتها بين يديه.. يمنحها وينهل منها كما لم يفعل طوال ثلاث سنوات ماضية كانت خلالها زوجته..

يجبرها بشغفه على الاستسلام.. على الخضوع، على الاستجابة لعشق يصبه بخلاياها صبًا في كل حين غاضًا الطرف عن زمن الفراق والحزن..

حينما انتهى استرخى يجاورها، لا يرحم أنفاسها الراكضة بصحبة أنفاسه، سحبتْ نفسها قليلًا، تسترد بعضًا من وعيها الذي غاب في عالمه، تفكر فيه ببعثرة وتعلن دهشتها صريحة.. ترفع ناظريها إليه مشتتة:

- فين منذر اللي أنا أعرفه!..

أحرفها تتأرجح بين الجدية والمزاح، يكتنفها تشوش، يناوشها تعجب.. داعب ذقنها بسبابته ونطق ببساطة عابثة:

- أنتِ في حضنه..

نفت ببسمة تائهة:

- لأ.. انت متغير..

جذبها قليلًا لتواجهه، احتوى وجهها بكفه وإبهامه يطوف حول تفاصيلها بتبتُّل خاشع:

- قلت لك قبل كده..

تغضن جبينها في تساؤل جاوبه بمكر جريء، بحروف بطيئة متقطعة، وشقاوة لم يمتلكها في يوم:

- الـ..حـــ..ـــر..مـا..ن..

أضاع أنفاسها، امتلكها، حجبها في رئتيه يتنشق معها عبير روحها.. يستخلص منها رحيق الهوى، يغمرها بحضوره فيتمكن الدفء من كل ما فيها، ينشد على جسدها قصائده، يسرد حكاياه.. يعلن

بطولته.. تتيه معه.. تلاحق خطوات عدوه وتخشى الزلل، تسأله التمهل، فيحملها ويطير.. تمتلك السعادة وتخاف..

البشر لم يخلقوا بأجنحة، حتى وإن أهداهم الحب رغبة الطيران!..

حتى وإن كان الحب هو المستقر والمصير وخاتمة الرواية..

**

هل نغترب عن الحب!..

ربما الجواب يكون بنعم؛ لأننا في يوم ما اعتنقنا عقيدة العشق وآمنا به، خضعنا لسلطانه واتخذنا من أرضه وطنًا، صنعنا من قوانينه حُرُمات لا يباح معها إثم..

نعم لأننا صدقنا فيه، ولم نكن نعلم أنه سيوردنا جحيم التهلكة، أنه سيردينا حتى قاع هاوية اليأس والوجع والخسارة..

أحبته..

وأحب زوجته التي في ظنها ميتة، وفي عرفه؛ هو قتلها..

لكنها وللمفاجأة لا تزال حية ترزق!..

حية وهو كاذب..

حية وهو مخادع..

حية وهو في عذابها ينتهج درب الثأر، بينما يضيعها في متاهات تجاهله وقسوته.. خدعة أخرى علمتها بمصادفة.. بقدر، لا تهم الطريقة، ما يهم أنها تعلم.. وعقلها يعمل بسرعة البرق ليحلل، يفهم، يستوعب.. يُمنطق..

عقلها لا يسعفها للوقوف جامدة بينه وبين جدة أولاده، أم المعشوقة الخائنة التي ترمقها بنظرة ثابتة، باردة، قاسية كأنما سرقت من ابنتها حياتها.. لا تدرك أنها هي مسلوبة الخيار هنا..

جوارحها تصلبت كلها للحظات، ثم تشبثت بنجاة محتملة في هروب، خاصة بعدما مرت بها المرأة كأنما هي طيف غير مرئي لا يستحق الحياة..

مرت ساعات تعتزل فيها عنهم جميعًا، عنه وعن الصغيرين.. جنَّ الليل بظلامه، وتشتتها يمنعها خطوة واحدة تراها الوحيدة البديهية بتلك المسرحية المضحكة المبكية..

ستذهب إليه.. ستحاول الفهم..

غاضبة، حانقة.. لكنها الآن تدرك لمَ هو بعيد!..

لم لا يريد زوجة!..

لمَ ترهبن في محراب الألم والشك وفرض السيطرة!..

هو لا يحب زوجته الراحلة؛ بل يكره جميع النساء..

والسبب خيانتها..

خيانة..

الكلمة مخيفة، عظيمة المعنى والحدث والنار التي قد تشتعل بقلب رجل عاشق لأجلها، النار التي تحرقه، والسكين التي تذبح شرفه وكينونته..

الآن تفهم بعض الشيء..

قتلها بنظره، بنظر ولديه.. ثم ترك لهما صورتها على طاولة تجاور فراشيهما حتى لا يدمر ما تبقى لهما منها..

هو نفسيًا مهلهل، مدمر، حزين، يُسقط عليها آثام امرأة سواها، تدرك أنه تمنى تلويث يديه بدمها!..

لم تستطع التفكير لوقت أطول، ستواجهه، تفتح النار عليه، تطلق رصاصة الرحمة على قلبه وروحه، وقلبها..

قلبها يستحق خاتمة.. يستحق نجاة..

حب أو لا حب..

طرقتْ باب غرفته، لم يكن هناك.. هرولتْ خطواتها درجات السُلم، مع الضوء الخافت المتسلل في ظلمة المنزل من أسفل باب مكتبه أدركتْ كونه ساهرًا بين جدرانه، لن تحاول التخمين.. ستفتش في صفحات كتابه رُغمًا عنه..

ذاك حقها.. وإن منعها إياه ستأخذه قسرًا..

طرقة خافتة لم تنتظر بعدها ردًا، فتحت ودخلت باندفاع، وقتما رفع وجهه إليها تيبس جسدها إثر خطوتين قطعتهما بعد أن أغلقت الباب، ضمت قبضتيها بتردد، ارتجفتْ مع وقع عتمة عينيه..

تلك الزرقة التي سقطت في موجها العميق مرة بعد مرة، ترعبها..

نظرته تخيفها..

حتى عندما نهض من رقاده المستريح فوق الأريكة بثياب مشعثة كأنما أفاق من غفوة قصيرة بسبب دخولها، نهوضه أربكها..

ساوى خصلاته وبدأ دون التفاف:

- اتأخرتِ..

يقررها بحسم، يعلم أنها ستأتيه.. إذًا ربما ستكون الأمور يسيرة!..

خطت تقترب بتمهل، تفرك أصابع كفيها والتوتر يكتنفها بلا داعٍ:

- لازم نتكلم..

أشار بيده دون تكلف:

- سامعك..

يمنحها الإذن بكلمة، ويبتره بالنظرة والوقفة ولغة الجسد والأنفاس التي تصلها ثقيلة صارمة كأنما تحذرها من النطق.. من التدخل.. من الفضول..

لكنه ليس فضولًا، هو حق.. دخلتْ المتاهة بإرادتها، بخدعته، وهو وحده يمتلك خريطة الخروج.. هي تنشد النجاة..

هزتْ كتفيها بأسى، بشجن وعينيها تواجهان عينيه دون فرار:

- مراتك لسه عايشة!..

مط شفتيه برد مقتضب بارد:

- أيوة..

احتقن وجهها مع جوابه، هو يعاملها ككم مهمل.. كخادمة، وهي لم توقع عقد الخدمة في هذا المنزل.. هي زوجته!..

واللقب له تبعاته، عليها وعليه..

ارتفعت وتيرة أنفاسها بحدة مع عصبية بدأت تتسلل لصوتها:

- ليه ما قلتليش؟..

برر بأريحية كصقيع القطبين:

- لأن ده موضوع ما يخصكيش..

مزق وتر الهدوء الأخير بداخلها بعنف..

الآن الرعونة هي درب الخلاص، ركضت فيه بدهشة ساخرة تغطي بها على مرارة الهوان:

- مايخصنيش أعرف إن أم ولادك لسه عايشة!.. بيتهيألي أنا مراتك، ولا دي فعلا مجرد تهيؤات!..

تجاهل سخريتها وحدتها مستمرًا على صلابته وجموده:

- أيوة يا رحيل، ما يخصكيش.. وآه أنتِ مراتي، بحدود معينة مفروضة بينا لحد دلوقتِ، اللي بتحاولي تعرفيه حد مش مسموح لك تخطيه..

الصدمة أجبرتها على صمت لم يدُم طويلًا وهي تندفع نحوه:

- أنا مش عاوزة أعرف حاجة، ولا بادور في تفاصيل تخص علاقتك بيها.. أنا بادور على اللي يهمني أنا..

وضربتْ صدرها بقبضتها تحطم ألمها دون أن يراه أو يشعر به، تكبته وتعانيه وحدها:

- من حقي أعرف أنك مخلص لزوجة عايشة مش ميتة، من حقي أعرف عشان أقدر أتعامل معاك ومع الولاد..

- الولاد عارفين إن والدتهم ماتت، وده اللي يهمك في البيت ده من الأساس..

مال يغزو عينيها بحضور قاتم فظ:

- الولاد وبس..

تراجع مع بريق العبرات الذي تألق بين جفنيها، لكن كرامتها تمنعها الهطول:

- غير كده، أنا مش من ضمن مسؤولياتك..

ابتعدتْ بهمسة شاحبة:

- فهمت..

تنفست باختناق، انتوتْ الرحيل واستدارتْ بالفعل لولا أن ما بقلبها إليه فصم عنق القرار.. ظلتْ واقفة، توليه ظهرها، يدها تحاوط مقبض الباب..

دقيقة كاملة لم يهتم بقطعها، فقط ظل على سكونه حتى عادت إليه:

- اللي عملته ده مش من حقك..

رمقها بتساؤل شبه مكترث:

- مش هتكلم عن الخدعة الكبيرة اللي اسمها جوازنا، وأيوة هاسميه خدعة.. لأنه من أوله لآخره مجرد كدبة..

اقتصتْ من المسافة بينهما خطوتين واسعتين تجابه بصره ببصرها في قتال عنيد:

- مش من حقك تحرم ولادك من أمهم، ولا تحرمهم منها..

قطب ونظرته تتوحش، تجاهلتْ الرعدة التي أوجفتْ خافقها وأكملت بإصرار:

- لو أنت اللي خُنتها ماكانش حد هيحاسبك، لا هي ولا المجتمع..

- بس أنا ماخُنتهاش..

زعق بها في هدير خافت أجفلها..

كانت صراخًا مدويًا، شبه مسموع..

ولا تدري كيف أخرج تلك النبرة من بين شفتيه!.. قبض على ذراعها، انغرستْ أصابعه في لحمها فتأوهتْ دون أن يراها أو يشعر بها:

- أنا.. ماخُنتش..

دمدم بها محترقة.. ملامحه كلها تبدلت من الهدوء الجليدي، إلى جحيم شيطاني لا تعلمه.. لم تره معه من قبل..

- ولو خُنت حقها تحاسبني زي ما تحب..

هزأت متغافلة عن تحكمه بها:

- ده مجرد كلام إنشا، وقت الجد كل المجتمع هيقولها معلش نزوة.. سامحيه، ما تخربيش بيتك وشوفي قصرتِ في إيه!..

اقتحمته بنظرة لم يدرك أبعادها..

نظرة تمازج فيها الاحتقار، بالوجع، بالقسوة، بالخوف، بالعتاب..

- أنت نفسك مش هتسمح إنها تحرمك من ولادك وتقتلك في نظرهم، هتأذيها بكل الطرق، هتمنعها مهما كان التمن..

انفرجتْ أصابعه بلا وعي عن ذراعها، مسدتها ونظرتها تسجنه في عمق مقلتيها الهائجتين:

- بس طبعا لأنك الراجل، الزوج، المتحكم في كل حاجة.. قتلتها وهي عايشة، وكملت حياتك عادي..

وجهه المتجهم الكتوم لم يُفِدها بشيء..

فهمها توقف مع كلماتها.. لم ينبس بحرف، تباطئت أنفاسه، شردت عيناه، تصلب جسده..

تمثال من صخر انهالت عليه ضربات الحقيقة حتى هشمته..

"أنا ما كملتش حياتي عادي"..

تمتم بها بثبات غريب، لوهلة ظنت أنه تأثر!..

لكن غلظة قلبه يبدو أنها ستنتصر حتى النهاية:

- حياتي وقفت معاها، انتهت.. أنا عايش بس عشان ولادي..

ثم صرح بغياب في أمس غير بعيد، أمس يفيض بالألم وطعنة الخيانة لا تزال تنزف بظهره وروحه:

- كان نفسي أقتلها بجد، كل يوم بحلم إن دمها على إيديا، بحلم إني طهرت شرفي من نجاستها.. بحلم إني مش قادر أمحي الذنب ولا أغسل الدم..

استدار يتوجه للنافذة، يتأمل صفحة السماء الداكنة ويتمنى لو يلتحم بها في قتامتها وينسى:

- كان نفسي أنتقم لحب وإخلاص أكتر من عشر سنين، ده كان حقي..

صمت لحظة يتذكر..

يستعيد لحظة الجهر بالخطيئة، موتها وموته معها..

يعتصر أجفانه كأنما الصورة تتجسد أمام ناظريه ويمقت رؤياها:

- لكن ماكانش ينفع..

لاحظت عودته للأمس..

جسده معها بذات الغرفة، بنفس الزمان.. لكن عقله، قلبه، كيانه كله ليس هنا.. في مكان آخر بزمان آخر..

خضعتْ مُكرهة لذكراه المرسومة على كل خلجاته وإن لم ترَ ملامحه، تستعيد معه العذاب، الفقد وأنين الطعنة يمزق أحشائها دون مجاز:

- ولادي.. هيكون مصيرهم إيه!.. أبوهم اتسجن أو اتعدم بعد ما قتل أمهم لما اكتشف خيانتها!..

اقتربت توازيه، لا تنظر إليه ولا ينظر إليها.. تتطلع لليل مثله، تغوص في حُلكته وتتساءل عن قمره الغائب خلف ضباب اليأس، تلومه وتلوم نفسها وعشقها فاقد الهوية، منحور العنق، مجهول النسب والوطن والمستقر:

- فكان أبسط حل إنك تقتلها في خيالك وخيالهم، تحرمهم منها..

رماها بنظرة جانبية حارقة:

- تفتكري هي دي اللي هاكون مطمن وهي بتربي ولادي!..

تنهدتْ بضيق ساخط..

لا تفهم لمَ تجادل في حقوق امرأة غيرها!..

استدارتْ بجسدها نصف دورة، تعلن عليه الحرب:

- كام راجل خاين عايش في بيته، بيكسر مراته كل مرة بيخونها.. وعادي هو اللي بيربي ولاده!..

ابتسم بسخرية ناقمة:

- والمفروض بقى إني أحاسب على أخطاء المجتمع!..

بعدها أحنى رأسه يسطو على عينيها، يمنعها فرارًا مفزوعًا تستدعيه النظرة:

- المفروض نتساوى في الجرم والعقاب، مش حرية الخطيئة..

هزأتْ بوهن.. بتعب، بوجيعة تنخر أساسات روحها:

- عشان كده كدبت عليَّ، بتعاقبني العقاب اللي كنت شايفها تستحقه.. إنها تفضل معاك وتأذيها في كل لحظة..

برر وهو يكره حشره في موقف دفاع:

- أنا وضحت لك سبب جوازنا من وقت ما عرضته عليكِ..

تبدل ضعفها لحريق اشتعل وتأجج بصدرها..

الآن يكذب من جديد!..

دارت حوله تواجهه بكبرياء:

- ماحصلش يا وجيه بيه.. كان ممكن تكمل معاها على فكرة، بس أنت خُفت، خُفت تضعف وتسامح.. شايف إن كرامتك وشرفك ورجولتك ما يسمحوش حتى لو الحب إداك الإذن..

ارتد خطوة.. خطوة أخبرته أن الحقيقة التي كذَّبها، الحقيقة التي خدع نفسه بعدم مصداقيتها، الحقيقة التي يرفضها ويبغضها..

رأتها هي في بضع ثوانٍ!..

وهي لمحتْ اعترافه بعينيه، لمحته وأصابتها الطعنة هذه المرة بأعماق خافقها المغرم به:

- كنت عاوزها جنبك، تعذبها، تأذيها، تكسرها، تهينها وتجرحها.. لكن خوفك من حبها جواك خد الطريق السهل والأقصر.. الموت دايما سهل، نهاية مريحة وقاطعة، مافيش بعدها احتمال لقاء..

لعنها وجبينه يتغضن بحزنه، بغضبه.. بكراهية أعلنت عن ظهورها فوق خطوط وجهه، ظلتْ تضرب بلا رحمة:

- ما تنتقمش من الماضي فيَّ لأنك ما قدرتش تاخد حقك منها، أنا ماليش ذنب أتعذب عشان أنت كنت...

بترتْ الوصف العالق بذهنها، تفكر في مردوده عليه وعليها.. حين سأل يتحداها أن تكمل، أن تخطو خطوة لا رجعة فيها:

- كنت إيه!..

- كنت جبان..

والرد.. كان صفعة!..

صدمة.. قهر..

وهن على وهن..

هياج منه ووجهها الملتف إثر لطمته لم يعُد إليه، خصلاتها تحجب عينيها.. الدمعة.. عدم التصديق..

هو نفسه لا يصدق، لكن التمادي في الغي بات سبيل الضلال الوحيد..

السبيل الذي لن يحيد عنه، زعق فيها:

- اللي بتتكلمي عنها دي تبقى أم ولادي، وأي حاجة تخصها مالكيش دخل بيها..

هنا عادتْ إليه، وجنتها تنبض بألم، البريق اللامع دهسه هو مع كرامتها وقلبها، تهتف به في حشرجة يشوبها نحيب البكاء:

- وأنا إيه!.. اتجوزتني ليه!..

زم شفتيه يعزم على التنكيل بها متخطيًا كل حدود الرأفة، كاسرًا لكل قوانين الرحمة:

- أنتِ ولا حاجة، وهتفضلي ولا حاجة..

عقبها مر يتجاوزها بلا اكتراث..

النقص انكسار، وهي ناقصة مكسورة أجاد هو تفتيتها..

كأنما لم تكتفِ الحياة من أوجاعها بعد، تزيدها حرمانًا تلو حرمان..

تهديها الغربة والوحدة، بين جنبات حب بلا وطن..

**

الغربة في مفهومها الأساسي هي عدم الانتماء..

2510

لا تشعر بانتمائك لأرض، لعائلة، أو حتى للنفس..

نفسك ذاتها تغترب عنك، فتصبح وحيدًا بائسًا، يائسًا حانقًا على العالم أجمع..

لكن ماذا لو كان العالم كله لك سكنًا!..

عالمك المظلم..

تلك الإمبراطورية الشاسعة، مترامية الأطراف، التي لا يصل إليها أفق بصر، ولا تخطر على قلب بشر..

ماذا لو كانت العتمة هي موطنك!..

هنا هنيئًا لك.. أنت أجدتَ العزف على أوتار السواد، وأنتجتَ أجمل معزوفة خوف..

فأرته خائفة، تتحاشاه، وتخمينه الأول توجه لصاحبة السمو الملكي بالمنزل "وسن".. زوجة أخيه، منذ رأتهما معًا يغادران غرفتها وهي تخضعه لمراقبة يتسلى بالسماح لها بها.. بعدها منعتها من الصعود للطابق الثاني إلا من أجل التنظيف، في حال غيابه عنه..

الوجبات تقدمها له اللواء "وسيلة".. وحتى مشروبه المفضل، البارد منه والساخن لم تعُد تحمله إليه المرتعبة الصغيرة..

انتبه بغتة على صوت خطوات، تتسلل، تقترب.. هو مسترخٍ بالحديقة، الوقت منتصف الظهيرة، الجو دافئ ملائم لجلسة في الهواء النقي.. كانت خطواتها..

فأرته!..

انحنى فمه ببسمة ساخرة، بينما تحاول أن تحمل الكوب الفارغ من جواره دون أن يشعر بها.. إلى أي حد تلك الفتاة بلهاء!..

عندما انثنى جذعها قليلًا لتلتقطه، حاوطته بكفها بالفعل وفي نيتها -كما يوقن- الركض عائدة للداخل؛ قبض على معصمها..

قبض عليه بمفاجأة شهقت لها، كأنه يراها.. وهي من لا تراه!..

أفلتته فسقط برنين خافت، توسعت بسمته وبادر بلا مقدمات:

- تعرفي إن أي حاجة بتشوفها عينيكِ هي مجرد تشويش!..

- ها!..

استفهمتْ بغبائها المعهود.. يدها ارتجفتْ بين أصابعه، استقام يواجهها، لم يحررها.. همس لها بجدية غريبة:

- أنا سامع خطواتك من قبل ما تخرجي من باب الفيلا، الارتباك.. بتقدمي خطوة وتقفي، عاوزة ترجعي بس كنتِ شجاعة وقربتِ..

سحبتْ يدها منه لا تفهم ما يقوله.. بل لا تريد، تبغي الهروب وحسب:

- سيب إيدي يا بيه الله يخليك..

مال نحوها ونظرته الميتة تقتحم عينيها فتفزعها:

- دي أوامر الهانم مش كده!..

لم تُحِر جوابًا، حافظتْ على صمتها المرتعش وذاك هو ما أراد واستوعب منه رد سؤاله.. جذبها يجبرها على مسايرة خطواته:

- اتمشي معايا..

- يا بيه....

- مش هاكلك يا خلود..

نطقها متهكمة.. كاذبة، لا يشتهي التهامها، لكنه لا يمانع التذوق.. قضمة واحدة بين حين وآخر، ماذا لو انتهى منها ولم يجد ما يُمتعه بهذا المكان الممل!..

تحركتْ معه مجبرة، رسغها في قبضته دون ضغط.. لكنه يتحكم به وبها تمامًا، ابتعد عن مقدمة المنزل المراقبة من قبل حارستها الخاصة زوجة الأخ الأكبر، سار حتى المنطقة المزروعة بالأشجار، التي تحجب المسبح عن أعين المتلصصين، ولجذع أقدم شجرة أسندها.. حاصرها.. احتجزها، لم يلمسها سوى بكفه التي لم تطلق سراحها بعد..

وقف في مقابلها، يقطر لها فلسفة ظلامه قطرة قطرة:

- كل المثيرات البصرية اللي حوالينا بتضيع أكتر من نص تركيزك يا خلود..

يدرك جيدًا أنها لم تفهم حرفًا مما يقول، ذاك أمر مغيظ لكنه سيمنحها الخلاصة بتفصيل:

- لون الشجر، عينك بتلمح منه كذا درجة.. الورقة اللي لسه مولودة، الورقة اللي بتموت.. العشب اللي في الأرض، الماية في الـ pool.. لون الكرسي اللي كنت قاعد عليه، بقايا العصير في الكوباية، باب الفيلا.. السلم، لون السويت شيرت اللي أنا لابسه.. صوت الهوا والعصافير وأي عربية معدية..

كان ينطق كلماته المفصلة ويده تلوح من حوله في إشارات متتابعة، يدور بوجهه وعينيه كأنما يرى ما لا يمكنها في يوم أن تراه وسط عتمته:

- كل ده تشويش على حواسك، وعيك بيتوه في وسطه، بتتشتتي..

حرر يدها أخيرًا، انكمشتْ على نفسها، تحديدًا عندما انحنى يرتكن بذراعه للجذع الضخم، كفه الثانية ترتفع تجاه وجنتها الباردة..

انفعالها الذي جهرت به هو الخوف..

انفعال سخيف لا يناسب ما في نيته نحوها..

حاوط وجهها وشعر بأجفانها تتعانق في اعتصار مرتعب:

- أنا بقى اتخلصت من كل التشويش ده..

دنا أكثر فضربت أنفاسها اللاهثة بغير انتظام ذقنه:

- عشان كده عارف إنك خايفة مني، عارف إنك مش قادرة تتنفسي كويس.. لو أنفاسك هديت ممكن أسمع ضربات قلبك يا خلود..

ثم امتدت يده تفك ربطة خصلاتها الطويلة، تطلقها على كتفها، يغوص فيها بأنامله مستمتعًا:

- مش عاوزك تخافي مني، أنا مش هأذيكِ.. إحنا أصحاب..

همس لها بخفوت، تسلل بنبرة ناعمة يطمئن مخاوفها، تسرب لعقلها برفق هادئ ويده ترفع وجهها إليه:

- الخوف هيبوظ المذاق..

- ها!..

تغرق في حماقتها وجهلها بحرفين ضائعين.. بشفاه منفرجة تغري بقبلة يخطط لها منذ البداية..

لكنه لن يقدم عليها وهي ترتجف بين يديه كريشة مذعورة..

ابتعد خطوة يهديها بها شيء من راحة.. من أمان مقصود:

- تعرفي في الدبح؛ بيقولوا دايما لازم يكون الحيوان مش خايف، الخوف بيخرب اللحمة، وبيخلي طعمها حامض.. ممكن كمان ما تكونش صحية..

رمشتْ بحيرة، وجسدها يرتخي في محاولة للهروب من حضوره المقبض:

- أنا مش فاهمة حاجة..

اقترب مجددًا يعاود تطويقها خلف قضبان سجن ظلامه:

- ومش هتفهمي، نصيحة ما تحاوليش، ماتجهديش عقلك في حاجة أكبر منه..

مسَّ عنقها بسبابته، يمررها فوقه بتأن.. يستشعر جمودها، يدرك رغبتها في الفرار لكن شيء ما يثبت قدميها خاضعة تحت سلطان وجوده..

- أنت عاوز مني إيه يا بيه!..

مط شفتيه برد سريع، سلس، منطقي، ببسمة مشاغبة اعتلتْ ثغره:

- عاوزك ما تخافيش مني..

أحنى رأسه متممًا كلماته قرب شفتيها، تاركًا لأنفاسه عنان ملامسة بشرتها:

- أنا مش هأذيكِ أبدا يا خلود..

يكرر نطقه لاسمها مرابطًا حول مفهوم الصداقة.. يقتحم كل مساحتها، يكسر حدودها بامتلاك.. يخالف ذاك الذي سبقه..

هذه المرة لم يكن يجرب أو يستكشف، كان يتذوق بمزاجية، يتأنى باستمتاع، وينصت لأنفاسها المختنقة تحت وقع قربه..

كفه تنسل دون وعي منها لتفتش عن نبض قلبها الهادر..

دواخله تبتسم، تنتشي، تلك الدقات العنيفة ليست خائفة، هي فقط رهبة الشعور بالاستسلام للمتعة..

في المرة القادمة، ستجاريه في اللعبة!..

"نوَّار!"..

يبدو أن لقدره رأي مغاير، أو لأخيه الذي زعق باسمه فوجدها تنتفض بين يديه، تبعده.. يستجيب لدفعتها بتلكؤ مثير للحنق، تهرب لكن الأخ الأكبر يوقفها:

- مش عاوز أشوف وشك في البيت بعد النهاردة..

يسمع أنين بكائها وخطوات ركضها المتعثر، تثوب له الابتسامة الهازئة المستهينة التي وازت استخفاف نبرته:

- buzz killer..

- أنت اتجننت أكيد..

زعيق آخر تجاهله عائدًا إلى حيث كان:

- باتسلى يا عمار عادي، ما تكبرش المواضيع..

أوقفه "عمار" وأعصابه تشتعل كأنها بقلب بركان ثائر:

- بتتسلى!.. مع الشغالة!.. أنت فاكر نفسك فين!..

ضغط أسنانه بينما يحرك رأسه بعصبية غير مصدقة:

- لا لا.. أنت فاكر ممكن توصل معاها لإيه يا نوَّار!..

هز الأصغر كتفيه ببساطة ضاعفتْ من غضب الواقف في طريقه:

- كنت لسه باستكشف، وأنت اتدخلت أهو..

رفع عينيه يقابل بصره ببرود:

- مراتك طبعا اللي قالت لك!..

اعتقل "عمار" كتفه بقبضته وأصر على البتر:

- مش ده المهم، المهم والواضح إني اتهاونت معاك.. وأنك محتاج تدريب إزاي تتحكم في رغباتك..

فاجأته ضحكة الصغير المستهينة:

- أنت شايفها منفلتة!.. It's just for fun..

زم أخيه فمه بصرامة قاطعة لا تحتمل التأويل أو الجدل، وجوده قربه يشتته.. لا يجيد رعايته بما يكفي، لقد فوَّت بالفعل الكثير من تدريباته التي تعاونه على النجاة في مستنقع وحدته وليله الأبدي..

زفر بحرارة قبل أن يحسم الأمر بقرار لا رجعة فيه:

- أنت محتاج تكمل تدريباتك اللي قطعتها عشان تكون في استقبال وسن..

عقد "نوَّار" حاجبيه بضيق، لقد فهم مقصده قبل أن يكمل:

- هترجع تعيش مع الرهبان..

ولأنه لا يغترب في أي مكان، ظلامه واحد.. عالمه كله مهما تشعب واحد، فقد استقبل القرار ببسمته المعتادة وتخطاه..

ماذا لو كان عقلك يساوي سرعة دوران الكرة الأرضية عشر مرات!..

في العموم؛ هو لا يجد الراحة بين البشر العاديين..

يشعر أنه يمر بمشهد يتم تصويره ببطء قاتل، البرق يضرب دواخله.. والمحيط من حوله يتحرك كما لو كان سلحفاة معمرة على وشك الموت..

أنهى دراسته الثانوية حين أتم الرابعة عشر، التحق بالجامعة بعدها بستة أشهر، تعليمه كله عن بُعد بالطبع؛ كونه أعمى لا يختلط بأحد،

لا يشبه أحدًا.. يحيا على قمة جبل ساحر وسط السحب والضباب، يقترب من السماء.. يسمو بروحه وعقله نائيًا عن شوائب البشرية..

يقرأ أكثر مما يجب لفتى بعمره، بل لمن يزيد عنه الضعف، في كل مجال متاح، ولو تعسر وجود كتاب ما؛ طبعه أخيه لأجله بلا تردد..

نعم.. هو بالفعل يحتاج للعودة، لا يزال هناك المزيد والمزيد مما يريد أن يتقنه ويتعلمه، وسواه ليبدأ فيه..

حيث عند كل نهاية، هناك بداية أخرى تستحق المعرفة..

**

نحن لا نولد غرباء.. تستقبلنا أحضان العائلة، نتمرغ في تراب وطن، نتشبث بصداقات.. بحب..

وكل ذاك، هو في النهاية ما يزرع الغربة بنفوسنا رُغم أننا لم نبرح قرب من ننتمي إليهم..

الهروب غربة نركن إليها عندما نفتقد الأمان في كنف من يفترض بهم حمايتنا..

وهي هربت بغياب طيلة الليل، أعادها للغرفة، كبَّل يسراها للفراش، تمدد بمقعده وأفكاره كلها مستعرة كجحيم قلبه الذي دهسته بمحاولة رحيلها عنه..

ذاك الحب الذي يصليه ناره، لا تشعر هي بشرارة منه.. لكنه صبور، سيعلمها، ستعشقه ولو بعد حين، سيمتلكها.. هي امتلكته بالفعل، وبقي أن تتبادل الأدوار معه..

فقط لو تدرك أنها لن تجد عشقًا كعشقه..

قلبًا تسكنه كقلبه..

عالمًا لو تمنته ملك يمينها لقدمه إليها على طبق من ذهب..

لو تبادله حبًا بحب..

أتى الصباح، تسلل ضوءه بجرأة عبر النافذة الزجاجية، أفاق وهي على حالها، تحرك يجلس إلى جوارها بالفراش، وجهها شاحب.. تبدو منهكة، متعبة، وذاك يوخز خافقه بوخزات متتالية من الألم والحزن..

مر ببصره فوق حناياها، ملامحها، خصلاتها، يديها وأثر القيد حول معصميها!..

حمرة مخدوشة تتناقض مع عاجية بشرتها، تأفف بضيق مما هو مجبر على القيام به معها.. لو فقط تستكين إليه.. تتوقف عن الخوف.. تصدق في حبه؛ لحررها تجوب منزلها كما تشاء..

نهض يفتش في أحد أدراج طاولة الزينة، تناول من أحدها كريمًا مرطبًا عاد به إليها، أمسك بيدها يدلكها برفق، يمسح عليها بالكريم ويهمس لها باعتذار خافت..

استيقظتْ مع لمساته المتتابعة، انتفضت بغتة.. نأت عنه بانسحاب كلي ونظرتها تتوهج بهلع:

- بتعمل إيه!..

بسط كفيه أمامها يطمئنها:

- ما تخافيش، إيدك بس اتخدشت من الكلابشات، كنت بحاول أعالجها..

ألقت بنظرة خاطفة على يدها ولم تأبه.. ثابَت إليه بعينين منطفئتين، صامتتين.. ابتسم هو محاولًا افتعال المرح.. أو ربما الغزل:

- بشرتك ناعمة ورقيقة، ما اتحملتش..

هزتْ رأسها بإيقاع رتيب شبه ثابت أقلقه، تمتماتها تصله مرتعبة، رافضة، مجهدة:

- كفاية بقى.. كفاية بقى..

كررتها كثيرًا حتى قبض على ذراعها يمنعها بحنق:

- كفاية أنتِ يا شمس..

زعق بوجهها دون أن يلمح نفورها ورهبتها:

- أعمل إيه أكتر من كده عشان تصدقي إني بحبك!..

دار حول الفراش، انحنى يجبرها على الوقوف ويدها معلقة بالقائم النحاسي، يطوق كتفيها بيديه:

- أنا تعبت، حاولي أنتِ تاخدي خطوة ناحيتي..

ضمها فقاومته بذراعها الحرة:

- حاولي تفتحي قلبك ليَّ..

- سيبني..

صرخ فيها معنفًا محتدًا:

- ولو ما سيبتكيش هتعملي إيه!.. هتهربي مني تاني!..

لم تشعر بنفسها إلا حينما تعالى صوت الصفعة!..

صفعته بقدر القوة المتبقية بجسدها، ارتدتْ شاهقة تكتم شهقتها بكفها الحرة، ترى اشتعال النار بحدقتيه، تعلم أنها ستحترق بها ولن ينقذها منها أحد..

نارًا تمثلت في أصابعه التي تحكمت بفكها تعتصره بقسوة، نبرته تعلو بزعيق هادر معلق بخيط رفيع على حافة فاصلة بين الجليد والسعير:

- مايصحش واحدة تضرب جوزها بالقلم يا شمس..

تملصتْ منه بلا جدوى، خائفة نعم.. لكنها تقاتل للنجاة بنفسها وجنينها:

- كفاية جنان..

همستْ بها متحشرجة، يخنقها حضوره، أكملتْ تقذف الحقيقة بوجهه صريحة مباشرة، فربما يدرك أبعاد أي موقف حشرها به وحُشر معها:

- أنت مش جوزي..

أفلتها فابتعدت، كان الفراش خلفها، أعاق حركتها لتنهار جالسة فوقه بينما تنهي الحريق، أو تؤججه بمزيد من الحطب:

- وأنا مستحيل هاكون مراتك..

انتهتْ فقبعت واجمة بمكانها، أنفاسها في لهاث منقبض، وذعرها بلغ أوجه..

هي بحماقة فجرت بركان غضبه، حممه ستحرقها ولا مفر..

اختلستْ نظرة إليه، رأتْ وجهه المظلم، نظرته الوحشية وتشدد قبضتيه، سمعت صرير أسنانه، وكبته لانفعالاته..

كبتًا لم ينجح لأنه في اللحظة التالية.. صفعها!..

لطمة رمتْ بها على جانبها، أدارتْ رأسها، مزقتْ طرف شفتيها فتذوقتْ الدم بحلقها..

لطمة أجبرتها على صرخة ألم وفزع قبل أن يجذب شعرها، يرفعها إليه، يحتل عينيها بجنونه واختلاله:

- عاجبك كده!..

هديره الهامس قبالة وجهها، أنفاسه تلفحها باضطرام نيران قلبه:

- شايفة وصلتيني لإيه!..

وجدته يفك القيد، يسحبها من خصلاتها، تأوهتْ وكادتْ تسقط أرضًا، تعثرت بوهنها فدعم خصرها وأعادها للجدار، ثبتها على وقفتها شبه المصلوبة، ربط معصميها، قدميها.. وواجهها بشراسة:

- ده عقاب، وكل ما تعصبيني هاعاقبك يا شمس.. مش هتستغلي حبي وضعفي قدامك بعد كده..

أنهى حكمه الصادر عليها، نفذه وغادر الغرفة.. بل المنزل، سمعت صوت الباب الخارجي ينغلق من بعده..

استسلمتْ للبكاء.. خضعتْ لنهاية تراها قريبة..

ومذاق نزفها الصدئ بفمها يجاور ملوحة دموعها..

أنت لستَ غريبًا؛ لكن الحياة ستجعل منك واحدًا..

**

أحيانًا تصبح غربتنا اختيارية؛ لأن الحياة بمن فيها لا تليق بنا..

حتى وإن اقتنصنا منها كل شهواتنا، حظينا برغباتنا المباحة أو غير المباحة.. حتى وإن امتلكنا ما نريد، نظل نرى أننا أفضل من تلك الملذات المؤقتة، مهما تربعنا على عرش المتعة..

الشاعر المخضرم امتزج مع المحامي الذكي.. كتبا مذكرة دفاع في شكل قصيدة غزل تناسب حورية الأساطير النارية..

كل بيت منها يصيب أنوثتها بغرور مستحق.. ولا يقترب من عقلها الذي ينتشي بمحاولات الاثنين للفوز بها.. في جميع الأحوال باتت تستمتع بصحبته، تراقبه يحارب لنيل رضاها، ببسمة ساخرة داخلية تتوسع مع كل لقاء..

تنصت لحديثه.. تهديه راحة مقننة، فكرة تتعاظم بقدر ما تجود به عليه من ظفر.. تيسر له سبُل الوصول لقلبها، حتى ما إن يصل لخط النهاية؛ فيرى أنها لا قلب لها!..

باب موصد، من خلفه فراغ واسع ابتلع مشاعرها، ترك لها ما يحوزه صغيرها وحسب..

ولأن حضوره ممتع، ومراقبته حينما يبذل الجهد لامتلاكها مسلية؛ فقد مدت له طرف خيط جديد.. دعوة عشاء بمنزلها!..

فتحتْ له الباب بعدما أنهتْ تحضير الطعام، صرفت المربية والطاهي نصف المقيم لتشرف على كل شيء بنفسها، ناولها باقة من زهور الليلك الأرجوانية التي كانت تفضلها في ماضيهما معًا، أمسكت بها تتأملها.. تستنشقها ثم تخطو وتشير إليه ليتبعها:

- بطلت أحب الليلك..

حاوطها بنظرة يعجبها ما تراه، كانت ترتدي ثوبًا شتويًا من الصوف الناعم، يتأرجح لونه بين حمرة القرفة وبنية بودرة الشيكولاتة، يطوق جسدها في إغواء صريح.. يلتف حول خصرها

بحزام من ذات الخامة، وفتحة صدر مثلثة شبه متحفظة لكنها لا تحرمه متعة النظر كاملة.. تجيد ما تنتقيه عندما تلتقيه..

كأنما توارب الباب بحذر، أو تتعمد النيل من ثباته..

لكنه لا يمانع..

متعته في قربها حتى وإن كان يدرك تلاعبها، يمكنه أن يجدد الحب القديم.. يمكنه أن ينالها..

تبعها يسأل بشيء من اهتمام:

- فعلا!.. بتحبي إيه حاليًا!..

وضعتْ الباقة على طاولة قربها، استدارتْ إليه، رأته يخلع معطفه.. يعلقه على مشجب بمنتصف المدخل الراقي، ابتسمت تتطلع لوسامته التي زادها العمر بلمسته الرمادية خشونة جذابة:

- النرجس، الأستر، السوسن الأصفر..

حك ذقنه بتفكير بينما يدنو منها، يتأمل خصلاتها المصففة بجموح يناسبها.. بدت كشعلة من نار تتأجج ألسنة لهبها في نية إحراقه..

ابتسم بالمثل وهمس لها مداعبًا:

- كده محتاج أقرا في لغة الزهور..

هزتْ كتفيها بلامبالاة واتجهتْ للمطبخ:

- اقرا.. آدم في الليفينج، جايب بازل جديد، سفينة وبحر وصعب عليه.. جرب تساعده..

توحي بأنها تريد التخلص منه.. ويفهم إيحاءها كهروب..

لكنها في الحقيقة لا تكترث، ستكمل اللعبة حتى النهاية ولترَ من يستحق الفوز!..

والعم "مالك" هو الصديق الذي يحبه ابنها فلا مانع..

رصتْ الأطباق على المائدة، دعتْ الاثنين لتناول الطعام، عدلت من مقعد صغيرها عن يمينها، وتركت له مقعد اليسار.. جلست بمقعدها متغاضية عن وجوده بعمد..

في البداية فقط أخبرته بلطف:

- طبعا مش محتاج عزومة يا مالك..

وولت جُل انتباهها لطفلها.. عندما انتهوا حمل معها الأطباق إلى المطبخ، عقبها همستْ له برقة:

- ميعاد نوم آدم، دقايق وراجعة..

تركها تتوجه معه لغرفة نومه، اتخذ من أريكة المعيشة مجلسًا، استرخى فيها بأريحية، يتفحص المكان، ثم يعجبه ذوقها كما العادة..

الرقي والبساطة، لكنها لا تتخلى أبدًا عن الفخامة، تفضل العصرية، ولا تهمل الكلاسيكية في لمسات طفيفة هنا وهناك..

عادتْ إليه فاعتدل يشد جذعه، لم تجاوره، سألته قبلها:

- تحب تشرب حاجة!..

أشار بكفه بمعنى لتفعل ما تريده..

تجاوزته نحو غرفتها، من المبرد الصغير بها عادت بزجاجة خمر، صبت لهما كأسين بالمطبخ، جاورته تضع بيده خاصته، تشممه بتساؤل:

- إيه ده!..

ردتْ بسلاسة هادئة:

- Gin..

رفع حاجبه مدعيًا الدهشة بابتسامة مرحة:

- واااو.. مش خايفة أسكر!..

تهكمتْ بلا تورية، استراحتْ في جلستها ترفع ساقًا فوق الثانية، ارتشفت من كأسها وتلذذت بالمذاق الحاد القوي:

- هتعمل إيه يعني!..

رمقته بنظرة ساخرة من فوق حافة الكأس، تمط شفتيها بإغراء، تتوهج مقلتاها بمشاغبة جريئة:

- هتغتصبني مثلا!..

قهقهه باستمتاع..

عليها أن تقر؛ ضحكته آسرة، رجولية حد إثارة إعجابها.. أخذ رشفتين متتابعتين من كأسه، وتركه على منضدة منخفضة أمامه..

تحرك يدنو منها، يفرد ذراعه على ظهر الأريكة من خلفها، يحاصرها بعينيه وجسده وكلماته:

- ياريت..

انطلقت ضحكتها عالية، رنانة.. تأسره بسحرها فيخضع كموهوم ملعون بها.. قبل أن تميل، تنفث حرارة أنفاسها بوجهه، تدلل وجنته بلمسة حسية من أناملها:

- ليه العنف ده طيب!..

أمسك بكفها، حركها لتوازي شفتيه، دفنهما بباطنها يقبلها:

- عشان أجبرك تتجوزيني..

تكررتْ ضحكتها، سحبت يدها منه، تركت كأسها بالمثل وتبدلت نبرتها لجدية مباغتة:

- عاوز تتجوزني ليه يا مالك!..

عقد حاجبيه واصطنع الاستغراب كأن جواب السؤال أمر بديهي، مفروغ منه منذ دهر:

- إيه السؤال الغريب ده!..

هزت كتفيها ببرود:

- غريب ليه!.. مش مفروض يكون صعب حتى..

تراجع بعض الشيء، تنفس بعمق، ارتكن بظهره للمسند الجانبي يتطلع إليها:

- عشان بحبك يا نيروز، عشان عاوز نعوض اللي فاتنا ونقضي اللي جاي من عمرنا مع بعض.. عشان نفسي في طفل منك..

رمته بنظرة امتزج فيها الاستنكار بالتعجب والحيرة..

نظرتها أقلقته، قطب متسائلًا.. انتبهتْ له فضحكت بخفوت:

- طفل كمان!.. وسعت منك قوي كده..

تساءل بيسر منطقي:

- ليه لأ!.. لسه في فرصة..

نفتْ بحدة ووجهها الفاتن يحتقن بحمرة غضب مفاجئة:

- كان في فرص كتير وأنت ضيعتها، ولا نسيت!.. الفرصة الأولى كانت ملكك..

احتضن يدها بين كفيه، يجبرها على الإنصات لكلماته:

- الحياة إديتني فرصة أخيرة كمان، وأنا مصر أتمسك بيها..

نظرت لأيديهما بجمود شارد..

اللعبة تتطلب عاطفة.. تتطلب المنح والمنع..

الشد والجذب.. الغضب واللين..

الدلال والتمنع.. الكر والفر..

وأحيانًا.. الهروب!..

استقامتْ تبتعد عنه، تفرك يديها بارتباك مشتت.. مقنن:

- اتأخرت قوي يا مالك..

تبعها، وقف في ظهرها، تنفسها واحتفظ بعبقها في صدره.. حاوط كتفيها وأدارها لتواجهه قسرًا:

- بس لحقت آخر طرف من خيط الأمل..

همس بها وبعينيه خوف!..

كأنما يسأل ويريد التقرير بذات الوقت، لكنه لا يعلم إمكانية حدوثه من عدمها..

- مالك..

تلك همستها هي..

بنبرتها الناعمة التي تتسلل لحواسه كلها فتخدرها.. رفعتْ وجهها إليه.. بحدقتيها ضعف، بجسدها رجفة، وعند شفتيها رعشة، انفراجة.. نداء!..

نداءً يشتهي تلبيته، ثم يخشى تبعات الخضوع له..

لكنها لم تحرره، لم تتكرم عليه بالعفو، أو تهبه الخلاص..

كان اختبارًا.. ونجح فيه بجدارة؛ امتلكهما بلهفة مكبوتة..

فخًا وسقط فيه، يجاهد رغبته في الاستحواذ عليها حتى النهاية، في الاستسلام لتوق يوقد النار بعروقه.. في الاكتمال بها ومعها..

يكافح ليحتفظ ببقايا ثبات كادتْ تذوب مع دفء أنفاسها التي استقبلتْ غارته باحتدام أحرقه..

يمنع نفسه، يرتد للوراء دون أن يفلتها، يفتش عن رد فعلها.. يرى عناق أجفانها، غيابها، يمرر إبهامه فوق وجنتها الحريرية، تُباعد بين أهدابها بتمهل مقصود..

تجود عليه بنظرة حائرة.. واهنة.. تناشده النجاة، يتمتم بكلمات مبتورة:

- نيروز.. أنا...

- تصبح على خير يا مالك..

تمتمتها هي المختنقة، الرافضة لوجوده.. الهاربة منه، تتوجه دون أن تنظر إليه نحو الباب، تقف عنده، تفر من بصره بقصد..

يرتدي معطفه ويواجهها لا يعي ما يمكن فعله..

هذه هي قبلتهما الأولى!..

فحتى في زمان العشق لم يطمح لما هو أكثر من يدها بضمة يديه..

فتح فمه ليقول شيئًا وعجز، ثوانٍ أبعدت خلالها ناظريها عنه حتى أذعن لمرادها ورحل..

رحل ومذاقها بات ذكرى لن تُمحى.. لن تُنسى..

وابتسامتها التي أعقبت رحيله تبرق بها عيناها قبل فمها..

بداية السقوط.. بداية اغترابه.. بداية الخسارة..

وبداية النهاية..

**

هناك غربة تنزرع في القلب عنوة..

ترتوي بالفراق، تُنبت الجفاء والقنوط، ثمارها بمرارة الحنظل، كالحجارة أو أشد قسوة..

لأننا قبلها، بأسوأ توقيت وبأغبى اختيار سقطنا في بئر الخطيئة..

ربما جاهدنا للتسلق والصعود، حفرنا بأظافرنا في الجدران الزلقة، ارتفعنا خطوة وثانية، ربما انتوينا استمرارًا تحتمه الطبيعة ويصدق عليه الزمان..

ربما كنا نستحق!..

نستحق التيه..

نستحق الفرصة.. نستحق العودة..

ربما فقط يجب علينا أن نمضي، لأن الطريق خلفنا مغلق بمتاريس الإثم والوجع والكره..

لكن العشق بقلبها مازال ينبض، يقهر كل ما عداه، حتى الخوف.. حتى وإن تركته جانبًا لتحيا، مهما ابتعدتْ.. هاجرتْ.. أو تصنعتْ النسيان..

هو.. طفليها.. وذنبها العظيم..

تكرر توبتها في كل ليلة، تفكر بهم، تعلم أنه تزوج واستمر.. ما بيدها حيلة، يوم علمتْ بكتْ.. لم تدرِ بأي حق ولأي سبب!.. هي انكسرتْ وحسب..

توقن من انقطاع كل الخيوط بينهما، ورُغمًا عنها لفَّت حول عنقها خيط العشق الأخير..

ظنته لن يفلته بقلبه وإن أُغلقت كل الدروب التي توصلها إليه.. ففعل!..

مضى.. تخطى.. عاش..

كسرته وتعترف، حطمت فؤاده المغرم وحقَّرت من وفائه وإخلاصه بجرمها، فكيف تأمل!..

كيف يحق لها الأمنية!..

كيف تعتقد في الوهم أو تؤمن بالخيال!..

غابتْ يوم عرفت عن العمل، إجازة عارضة مفاجئة أقلقته، عندما عادتْ كانت مختلفة، جامدة.. ثابتة.. بعينين خاويتين وبسمة ميتة..

حاول الفهم وصدَّته، ليلتها عاد لمنزله يحمل ملامحها بين أجفانه، استقبلته امرأته فكان الرفض من نصيبها، أخبرها بأمر حازم أن تعود لشقتها وتتركه.. أغضبها فحزمت متاعها ورحلت تظنه سيعدو خلفها.. تجاهلها وفكره كله منحصر بسواها..

"ليلى!"..

انتبهتْ من تركيزها في شاشة حاسوبها على ندائه، يوم طويل وجزء كبير مقتطع من ليلته لإنهاء مشروع برمجي هام لأحد الشركات الكبرى، تعمل عليه بصحبته واثنين من زملائها والساعة تخطت الحادية عشر..

وضع أمامها كوبًا ورقيًا فاحت منه رائحة القهوة المنعشة، ابتسم لها برفق:

- قهوتك..

هزتْ رأسها بهمهمة غامضة، عادتْ ببصرها لعملها حتى أوقفها:

- تعبتِ!..

لم تنظر إليه، جاوبته بهدوء وانشغالها هو دواؤها الوحيد:

- لأ.. قربت أخلص كمان الجزء الخاص بالحماية..

حافظ على ابتسامته وغادرها مشجعًا:

- هايل..

ساعة تالية مرتْ..

غائبة بكامل وعيها وتركيزها فيما بين يديها، وشارد هو فيها من وراء زجاج مكتبه.. انتهتْ فاستقام يسبق خطوات رحيلها، يمنعها بلطف:

- هتروحي إزاي!..

أغلقت الحاسوب، جمعتْ أوراقها وهاتفها في حقيبتها حينما جاوبته بجفاء:

- معتز هيوصلني أنا ويارا..

أدار عينيه في المكان بتدقيق وازى بسمة جانبية زينت ثغره:

- بس معتز مشي فعلا من نص ساعة..

أخيرًا وعتْ لكونها معه هي وزميلتها بلا ثالث، بحثتْ عنه ولم تجده.. لوت ذراع الحقيبة بعصبية لم تطفُ للسطح سوى بحركة يدها قبل أن تتحرك بنية الرحيل وليكن ما يكون:

- مش مشكلة، هاتصرف أنا ويارا..

- هاوصلكم أنا..

- لأ..

تبع خطواتها المهرولة، قطع هروبها بجبين مقطب ونظرة غاضبة:

- ليه!..

لم تبالِ بجواب سؤاله، فتشت عن الغائبة:

- فين يارا!..

رد هو دون أن يكبت غيظه، بل أعلنه صريحًا بوجهها:

- بتودي الشغل على مكتب عماد عشان يكمله الصبح..

كادتْ تلتف عن يمينه، تتجاوزه حتى لو ستخرج وحدها، خطا بالمثل يعترض طريقها بجسده:

- ليلى.. ممكن أفهم في إيه!.. إيه الفرق بيني وبين معتز!..

علتْ نبرتها بشيء من حدة:

- مافيش فرق..

- خلاص هاوصلكم..

لم تشعر بالزميلة التي عادتْ لتلمحها على تلك الوقفة المتحفزة، تستمع لعرضه وتستجيب بيسر:

- مش عاوزين نتعبك يا باشمهندس إياد..

ولاها انتباهه.. أهداها إحدى بسماته الجذابة وتجاهل الطرف المقابل في حربه الصغيرة:

- مافيش تعب يا يارا، ثواني هاجيب مفاتيحي..

تشعر بأنها محاصرة.. مجبرة ومُسيرة..

تود الفرار والدرب المعوج يعيدها لنقطة الصفر في كل مرة..

تخافه، تخاف اهتمامه، لا تريده أن يقتحم حياتها التي أوصدتها على نفسها ووحدتها..

كل ما فيه يدفعها للركض في الاتجاه المعاكس، لكنه يعيقها، يعرقلها.. يدفعها نحو سقوط مشاعري لم تتخلص من سابقه بعد..

قبعتْ صامتة في المقعد الخلفي حتى أوصل الأخرى التي ودعتها ببسمة فضولية، أشار إليها لتجاوره.. ترددتْ ثم خضعتْ بصمتْ،

صمت لم تتخلَ عنه طوال الطريق حتى منزلها، توقف أسفله، مدت يدها لتفتح الباب، ناداها بهمس خفيض، همْس شوش أفكارها فأغمضت عينيها وتنهدت تستدعي الصبر:

- على فكرة أنتِ اللي هتشرفي على التركيب في شركة الحديدي..

أومأت موافقة بلا حرف، سكونها أثار حنقه، خوفها منه.. رغبتها الدائمة في الفرار حال حضوره..

لم تشتته امرأة من قبل، لكنها فعلتها!.. عجز عن الحديث لعدة ثوانٍ ختمها باسمها، برغبة في البوح بحيرته، بسخط من مجهول تمر به مشاعره التي لم تكن في يوم ضمن معادلة المتعة أو الملذات..

- ليه خايفة مني!..

زفرتْ ببطء، تبتهل أن تستلهم الجواب المناسب لتقطع كل خيوط الأمل التي يظنها تربطه بها:

- أنا مش خايفة من حضرتك، كل اللي بيننا شغل.. غير كده مافيش..

ابتسم وعينيه تلتمعان بنظرة غامضة:

- ولو قلت لك إني عاوز اللي بيننا يكون أكتر من الشغل!..

ضغطتْ شفتيها بين أسنانها رافضة:

- لأ..

- ليه يا ليلى!..

فتحتْ الباب قبل أن يمنعها، ختمتْ الحديث أو بترته لا يهم:

- عشان أنا أخدت نصيبي من الدنيا خلاص..

لم يشعر إلا وهو يتعقبها، يوقفها قرب مدخل المنزل، يعلن الاستياء صريحًا محتجًا:

- الطلاق مش آخر العالم..

نهرته باعتراض حاد:

- مش عاوزة أكرر التجربة، مش هادخل حياتي راجل تاني..

لم يعجبه ما هذرتْ به..

أمسك يدها يجبرها على النظر إليه، شدتها بقوة.. تراجعتْ خطوتين تطالبه بالرحيل:

- كفاية كده، امشِ من فضلك..

- هامشي..

نطق باقتضاب بارد، أتبعه بشرط لن يفاوض فيه:

- بس هاقول اللي جوايا الأول..

رمته بنظرة باهتة، واهنة، حزينة.. تفيض بعتاب متألم، تناشده التوقف، تتوسله الابتعاد..

ولم يكترث!..

تحرك يقترب، ينبئها عن حيرته.. عما يدور بداخله ولا يمكنه فهمه أو استيعابه:

- أنا بفكر فيكِ كتير قوي، باشوفك بخيالي وعقلي، أيوة أنا عرفت ستات كتير وفي منهم يمكن لسه في حياتي..

استنكرتْ كلماته، امتعضتْ ملامحها فتغافل عنها مردفًا:

- بس أنتِ؛ بحزن عينيكِ، بابتسامتك اللي تقريبا بالمحها صدفة، بضحكتك اللي سرقتها منك مرة واحدة.. بنيتِ جوايا حاجز بيني وبينهم..

تراجعتْ أكثر، تألقتْ دمعة وسالتْ تتعلق بأطراف أهدابها:

- أنت عاوز مني إيه!..

ابتسم بشرود وصدح بمكنون صدره دون تزيين أو تورية:

- مش عارف..

ضايقته عبرتها، لكنه أكمل بعاطفة هو ذاته يجهلها:

- بس اللي متأكد منه؛ إني ما بقيتش عاوز غيرك..

بعثرها مع بعثرة حروفه وأطلق سراحها حرة..

ركضت تختفي عن ناظريه، تأنس بوجودها آمنة بين جدران منزلها، في أبعد مكان عنه.. تكتفي بغربتها عن عاشق خانته فتخلى..

تسكن بين حنايا غربة ثانية عن عاشق تخشاه، أو ربما هو فقط مدعٍ للعشق!..

غربة باتت هي الأمان الذي لا تبتغي سواه..

**

من اعتاد الاغتراب لن يكترث بالبحث عن وطن..

ومن أدمن الصقيع، لن يفتش عن دفء الشمس!..

هو رجل صنيعة الغربة والهجر والفقد..

تغلغلتْ في مسامه، تشبعتْ بها خلاياه، استأنس إليها فبات نقيضها موحشًا، مرفوضًا..

وهي، الغائبة.. الضائعة، غرستْ بروحه رغبة امتلاك.. رغبة انتماء، اختفتْ بعدها وتركته يلعن نفسه يوم فكر في وطن..

قبل ساعة أتته المعلومات التي طلبها من صديقه القديم، كما خمن.. المال والقوة وحدهما يمكنهما شراء الضمائر، أو سحقها..

بالتفافة واسعة وصل لهدفه من بين ثلاثة عناوين أرسلها إليه "ديمتري".. راجع الأماكن، دقق في كل منها، نقر واحدًا واعتدل بتقرير حازم:

- هنا..

قرأ "يزن" وصف المكان، عنوانه البعيد، عقد حاجبيه مفكرًا:

- احتمال كبير، بس الأماكن التانية محتملة، هابعت لفارس العناوين دي وهو هيتصرف..

استقام "يعقوب" يغادر المقعد، تهرول خطواته فيتبعه أخيه بلا تردد:

- مش هاستنى، هاروح بنفسي وهو يبقى يحصلنا..

نطق كلمته الأخيرة ساخرًا كأنما ذاك عمل الشرطة، أن تأتي متأخرة بعد فوات الأوان..

لاحقه "يزن" برفض قلق:

- هتلف على التلات أماكن إزاي!..

توقف يستدير إليه، يزم شفتيه وتظلم نظرته بغيمة شرسة:

- هاروح المكان اللي اخترته، الباقي هو يتصرف فيهم..

حاول الأكبر منعه من مخاطرة غير محسوبة:

- مستحيل، أنت مش عارف إيه اللي ممكن يقابلك هناك!..

- مش مهم..

صعد للطابق العلوي غير عابئ بالنداء، دقائق وكان يهبط مجددًا، يتوجه للخارج بعدو، "يزن" يتبعه إثر إخباره لجده بالمستجدات، يوازي خطوات أخيه باهتمام:

- بعت لفارس العناوين، هيتصرف، بس هنعدي عليه عشان هيطلع معانا على الفيوم..

اتخذ "يعقوب" مكانه بمقعد السائق متجاهلًا كل ما قيل:

- أنا مش هاستنى حد..

وقبل اعتراضه، بتر كل حديث وهو يقود في طريقه المحدد بالفعل..

كانت هذه هي أقرب مسافة وصل إليها منذ اختفائها، وجهته منزل حديث نسبيًا، لم يكُن موجودًا قبل ثلاثة أشهر، أرض منفصلة عن المزارع المحيطة بها، جديدة ومُسيجة بسور عالٍ يمكن أن يخفي خلفه الكثير..

لا تحمل اسم عائلة "خطاب".. لكنها على صلة بأحد أفراد عائلة "الغرباوي".. وذاك هو لقب والدته!..

طوال الطريق حاول "يزن" إثناؤه عن التدخل، إقناعه ببعض الانتظار، غضبه كعادته كان سجين دواخله، عالجه بالصمت حتى وصلا..

بوابة حديدية عالية محكمة الإغلاق، السور لا يسهل تخطيه، لكنه سيفعلها دون دعم.. أوقف السيارة قربه، خرج منها بعدما حشر أخيه داخلها لأن بابه كان ناحية الجدار، غادرها وقفز فوق مقدمتها، صعد للسطح ومنه تشبث بالسور، وثب للناحية الأخرى وقبع بمكانه للحظات يراقب المحيط بحذر..

المنزل من بعيد على مسافة أكثر من مائتي متر.. مُضاء!..

هناك أحدهم بالفعل..

سمع قفزة "يزن" من ورائه، همسه المحتد:

- مش هندخل يا يعقوب، هنستنى فارس ده لو هما فعلا هنا..

تجاهله كما يفعل منذ بداية الليلة، ركض بسرعة متجهًا نحو المنزل:

- مش هاستنى..

- قدامه أقل من نص ساعة ويوصل، مافيش داعي للمخاطرة..

عم الصمت بصحبة الأنفاس العالية لدقيقة أو أقل، وصلا خلالها قرب الجدار الخلفي، دار حوله بحرص، يخفض رأسه عند كل نافذة.. ولم يرَ شيئًا!..

كل النوافذ من زجاج عاكس لا يسمح برؤية مَن بالداخل..

زم شفتيه.. ذاك وحده يؤكد على وجودها، خطا إلى الباب الأمامي، انحنى يحاول فتحه حين أوقفه المتوجس بخفوت هامس:

- يعقوب فكر بهدوء شوية، لو هو فعلا جوا هيسمعك..

تراجع يرفع هاتفه لأذنه:

- هاشوف فارس فين، ما تتحركش من هنا..

استدار يهاتف صديقه، انشغل معه يصف له العنوان بدقة.. عندما التفت كان وحده بالشرفة وباب المنزل مغلقٌ كما كان!..

لم يصل لسمعه خطوات الشيطان الصغير، لقد تسلل دون أن يشعر.. ولا يدري أيتبعه دون مهارة فيعلم أحدهم بوجودهما، أم ينتظر بعض الوقت ليمنحه فرصة!..

عض شفتيه بحنق مشتت لاعنًا ذاك الذي رماه بقاع تلك الحيرة الخائفة عليه.. وعليها..

لكن الشيطان لا يخاف.. لا يتردد..

سار على أطراف أصابعه، ينصت بانتباه.. يأتيه صوت حديث!..

صوته.. ووهن صوتها!..

ارتحلتْ خارج صدره تنهيدة ارتياح عميقة.. لقد وجدها..

اقترب من الغرفة المقصودة، بابها المفتوح سمح له بالالتصاق بالجدار، بالنظر إليها.. برؤيتها معلقة في وضع قاسٍ مؤلم يناسب تطلعات رجل مهووس..

المشهد ذكَّى نيران روحه..

يصغي إليها تستجديه:

- كل اللي بتعمله مش هيوصلك لحاجة، لا إنك تخطفني، ولا إنك تحبسني هنا غصب عني بعيد عن ابني.. فكفاية، ارحمني وسيبني أمشي..

لمح ذاك الميت في حكمه يقترب منها، يبتسم بسخرية فاقدة لكل اتزان:

- مين قال مش هاوصل!.. بالعكس..

فرد ذراعيه على اتساعهما يشرح بدرامية:

- كونك هنا معايا، معناه خطوة لقدام.. معناه إن مافيش حاجة هتقف في طريقي ليكِ مهما كانت..

تمتمت بضعف، تصفع عقله الغائب بحقيقة:

- أنا متجوزة..

هزأ بحاجب مرفوع:

- مش أول مرة..

مال يخبرها ببرود مخيف:

- وقدرت أتصرف، مش هيكون أصعب من اللي قبله..

انعقد حاجبا "يعقوب" والتخمينات تنهش أفكاره كما تنهش قلبها المنقبض:

- تقصد إيه!..

راقبته يتراجع، يؤدي دور المختل على أكمل وجه فوق خشبة مسرح الجنون، يعتليه بتسلط وسيطرة، يطرد الملقن ويصيغ حبكته الخاصة بلوثة تلون نبرته:

- أقصد إني قتلت عشان تكوني ليَّ، ولو جوزك حاجز في طريقي...

صمتَ لحظة يتأمل اتساع عينيها المرتعب بانتشاء ظافر:

- هدمره..

- تقصد إيـــــه!..

كررتْ سؤالها بصراخ أشعره بنصر..

ذلك الألم الذي يمزقها هو درس جديد، ستتعلم معه أنه يمكنه إحراق العالم بحق لو وقف حائلًا بينه وبينها:

- أقصد المرحوم يامن..

انتفاضة جسدها وبريق الدمع الذي ظلل عينيها لم يمنعه عن استطرادة خاتمة.. قاصمة:

- أنا قتلته..

غلالة من العبرات حجبتْ عنها الرؤية.. شهقة كطعنة سكين حاد انغرستْ بقلبها، خرجتْ وعادتْ مائة مرة، تذيقها الوجع كما لم يحدث من قبل.. همستْ باسم المعشوق الراحل كأنما تتعلق به..

لا تصدق أنها السبب.. أنه مات في حرب لخاطرها كضرر جانبي لا قيمة له!..

تسمعه من بعيد كأنما يبعد عنها مسافة أميال:

- كان لازم أخلص منه، كسرت على عربيته وخليته يفقد السيطرة.. فضلت واقف أتفرج عليها وهي بتغرق، لحد ما الناس نزلت تدور عليه.. ولو كان فضل عايش كنت هاحاول تاني وتالت لحد ما أقتله..

يحكي لها أكثر حكاية مرعبة يمكن أن تمر بخيالها..

هو من حرمها حبيبها.. من يتَّم طفلها..

هو البتر في حكايتها غير المكتملة..

وهي!..

الدافع..

هي حاملة شعلة الذنب، من أوقدتْ الشرارة وبدأتْ الجحيم..

غابتْ في دنيا الأسى غير واعية للواقف بالخارج، يتلقى كل حرف وسعيره يتأجج.. يصله نداء أخيه الأكبر الخافت فيتجاهله..

يميل بعنقه قليلًا، يتفحص الغرفة.. ذاك الذي يوليه ظهره ويكمل تلاوة أنشودة الموت بوحشية عاشق مخبول:

- جوزك اللي أنتِ بتتحججي بيه دلوقتِ؛ ممكن أخلص منه هو كمان..

ثم أضاف بغضب يستعيد ذكرى ضياعها، خسارته لها بعدما أزاح غريمه من طريق الوصول إليها:

- والمرة دي سعيد بيه خطاب مش هيقدر يسفرني ويرميني في مصحة زي المجانين، هاخدك ونهرب..

لم تنتبه له.. ضلت كلماته دروبها لوعيها..

لم تستوعب سوى أن بنيته القتل!..

دم آخر سيلوث يديها، غمغمتْ بتيه:

- لأ.. مافيش موت تاني بسببي..

- لو وقف في طريقي هاقتله..

قالها يمط شفتيه ببديهية، تشبه خلل منطقه كله.. ابتسمت بشحوب كأنها استسلمت للنهاية الحتمية، النهاية التي لا ترى في ظلامها بصيص أمل أو نجاة:

- مش هيقف..

توسلته بما تبقى في روحها وجوارحها من طاقة:

- سيبني أروح، هاجيب ابني وهاطلب الطلاق..

توسعتْ بسمتها بجنون يقارب جنونه:

- وهو هيطلقني، ما بيحبنيش.. ولا أنا بحبه، هارجع لك..

تقطع صوتها قهرًا ودموعها تتوقف عن السيل بغرابة:

- صدقني هارجع لك.. بس ماحدش يموت تاني بسببي..

اخترقتْ ضحكته فراغ الغرفة، ضحكة هازئة، غير مصدقة:

- أنتِ فعلا مقتنعة إني ممكن أسيبك!..

رفعتْ عينيها إليه لتجيبه.. رفعتها والتقى بصرها ببصر شيطانها الذى تجاوز الباب بخطوة واحدة!..

وضع سبابته فوق شفتيه يأمرها بالصمت، لكن انفعالها كاد يفضح وجوده لولا أن تحدثتْ بمناشدة:

- هاجيب ابني، هاطلق.. وأكون ليك، هنكون مع بعض للأبد..

هز رأسه بنفي عاطفي، أشرف عليها يلامس خصلاتها برفق عجيب:

- لأ يا شمس.. أنا هاخلص منه بطريقتي، ونكون مع بعض زي ما قلتِ.. للأ....

هنا حدث البتر..

الصراع والمعركة الحتمية..

قبة قميصه كانت في قبضة زوجها مع اللحظة التالية، أزاحه يبعده عنها.. يكيل له اللكمات دون بخل.. بكل جسده، بوجهه، معدته.. يرميه أرضًا ويجثو فوقه.. يحطم أسنانه، أنفه.. يبدل معالم ملامحه.. يمحوها ويشكلها محطمة مشوهة تليق بغضبه.. باحتراقه..

ينهض عنه.. يركله باتزان مفقود.. وينهي المشهد بسلاح لا تدري من أين أتى به!.. سحبه من حزامه، حرر صمام أمانه، ووجهه لرأسه بلا كلمة واحدة..

"لأ.. لأ يا يعقوب ما تقتلوش"..

الصرخة كانت منها، تجمدتْ يده لثوانٍ يراقب ذاك القابع تحت قدميه، يرفع كفيه قبالة وجهه الدامي كأنما يحميه من رصاصة قادمة لا محالة..

"كفاية موت.. كفاية موت بسببي"..

ظلتْ تهذي بها حتى خضع.. أراد قتله، لكنه خضع لرغبتها.. لانكسارها.. لضعفها..

انحنى يسدد ضربة أخيرة لرأس ذاك المختل بقبضة مسدسه، استدار إليها.. وتنفس..

كأن تلك الأيام الماضية مرت به دون أنفاس..

قطع الخطوات التي تفصله عنها بوثبتين واسعتين، رفع وجهها يتفحصه بعناية، غضب صوته لا يذوب حتى وإن طفا معه للسطح بعض قلق:

- أذاكِ؟..

لم تستطع الجواب.. نعم فعل..

هي ليست بخير..

لا الجسد.. لا القلب.. لا الروح..

هي قاتلة وإن لم تتعمد، يدها مدنسة بدماء من أحبتْ، هي غنيمة حرب لم تعلم بوجودها حتى!..

راقبته ينحني عند قدميها.. يترك السلاح على الأرض، يفك قيودها تباعًا، ينهض ويحرر يديها فتسقط بأحضانه.. يطوقها، يدعمها ويضمها برفق.. لا يكثر من حديث، وهي لا تحتاج لكلمات..

- عاوزة أمشي من هنا..

تتمتم بها فوق كتفه.. يومئ بموافقة، يسندها وجسدها واهٍ بين يديه.. ينسل وعيها منها ببطء..

ترفع بصرها في نظرة وداع على مكان تود لو احترق بمن فيه..

وتراه!..

يستند بوجهه المكدوم المدمم لمرفقه، يرفع بيده الثانية سلاحًا ناريًا، يصوبه لزوجها.. يرسله للموت مادام عائقًا بينهما..

الخيار لحظة..

النية لحظة..

الخسارة لحظة..

والفداء لحظة لا تحتمل التفكير أو التردد..

رصاصة واحدة..

هدف محدد..

هدف تبدل في اللحظة الأخيرة!..

التفتْ به، دارتْ معه.. تتلقى الطلقة الغادرة عنه، تندفع بعنف انطلاقها وانغراسها بظهرها..

تَسقُط وتُسقِط شيطانها من فوق عرشه بسقوطها..

يغرب نورها نازفة بين ذراعيه، يده تفتش عن المسدس الذي تركه قرب قدمها قبل ثوانٍ، يرفعه بجنون.. يطلق منه رصاصة تحفظ طريقها..

يرى الوحش تهمد حركته ونزيفه يعلن عن النهاية..

يستوعب ما جرى، يقلبها بين يديه، يرمقها بصدمة:

- شمس!..

تتأوه.. لكن بضعف.. تئن بضعف..

تطرف عيناها ويبهت بريقهما في إغماضة ضعف:

- مش عاوزة أموت..

بحث عن هاتفه بجيبه وصوت أخيه يكسر باب المنزل، يصيح باسمه.. يقترب من ذاك الجحيم الذي يستعر بجهل من حوله:

- مش هتموتي..

ينطقها بثبات حاسم، ارتجاف نبرته يراودها رُغمًا عنه، يتطلع للهاتف الذي تلوث من كفه بدمائها..

يمسحه بسترته، يرمش في محاولة للاتصال بالنجدة..

يكرر وعده الحازم الصارم.. الغاضب، الخائف:

- مش هتموتي..

انفلتت ذراعها من احتوائه، ارتمت إلى جوارها وتمسكها بالحياة يخبو كلحظات ما قبل الغروب:

- مش عشاني..

لم يدرك ما تعنيه، ظن أنه لأجل طفلها.. تفهم ولم يكترث سوى بأن تكون بخير.. أن تعود لخاطر صغيرها..

لكنها قصمتْ روحه بضربة ختامية من معول القسوة والفقد:

- أنا حامل..

"شمس!"..

نداء "يزن".. تأمله لها.. نظرته الخاطفة للرجل الغارق في دمائه بركن آخر، صدمته التي امتزجتْ بفوضوية المشهد..

بتصريحها الذي خفتتْ أنفاسها وهمدتْ نبضاتها قرب يده؛ بعده!..

بوطن سيظل فيه غريبًا حتى وإن تربع على عرشه..

حتى وإن مد جذوره بأرضه فكان أول ما فعلته، أن لفِظَته..

(36)

البشر مجرد مجموعة من القرارات المصيرية..

نهايات تبدؤها لحظة..

يحسمها اختيار!..

**

الإنسان مُسير أم مُخير!..

سؤال وجودي طفق يصول بعقول بني آدم منذ الميلاد وحتى الفناء..

إن كان مسيرًا فلمَ الحساب!..

وإن كان مخيرًا فأين القدر!..

والحقيقة دون فلسفة فارغة، أو ثرثرة سفسطائية.. أننا خلاف ما يخضع لإرادة الخالق سبحانه؛ نختار أقدارنا، نصنعها، نسير معها بكامل وعينا دون إجبار..

حتى الموت يمكننا أن نختاره..

سقط الشيطان عن عرش الجحيم، لم يتنازل، لم يتنحَ، لم يولِ بديلًا.. فقط سقط..

سقط مع سقوطها بين يديه مضرجة بدمائها، تهديه الحياة بحياتها..

تعيده من الموت..

لكن.. هل يعود الميت للحياة بعد موته!..

إن أجبت بنعم؛ أخبرني كيف!..

سمعتُك.. حياة في مقابل حياة.. ذاك هو الثمن..

ثمنًا لا يريده، لن يتحمله.. فقدًا حاسمًا، خاتمًا.. ينهي به أسوأ رواية مرت بقراءاته، ويتمم به عمرًا لم يكن ينبغي له أن يكتمل بما بقي في عمرها هي..

هذه المرة؛ اختارته!..

سقط يضمها بين يديه، يثبت بصره عليها وقد وصل نبضها للحضيض، تقصم قلبه بخبر طفله برحمها، تعيده حيًا بانتفاضة..

وتقتله بخوف يمس روحه لأول مرة منذ دهر..

أحيته وأماتته في ثانيتين متتاليتين بلا فارق أنفاس..

بلا هدنة من حروبه التي لا تنتهي، أو تخبو نيرانها طوال ما مضى من زمانه، بلا تمهيد كان المشهد يحتاجه..

تجمدتْ يده التي تجاهد لطلب الغوث، وتصلب جسد أخيه قربه مع الخبر، مع غيابها، مع النزف الذي يراه يلوث ثيابه وقد تسللتْ قطراته في خط رفيع على الأرض..

السلاح إلى جواره، المهووس الذي اختطفها غارق في دمه، ونذر طفيف منه يغادر فمه، الصورة لم تعُد تتحرك.. توقفت الكاميرات عن الدوران وأعلن الأبطال تمردهم على الحبكة.. أعلنوا العصيان وقرروا الهروب من لعنة مخرج ينتشي بالموت..

استعاد ثباته بعد لحظة، اتصل بالإسعاف، كان يعلم أن صديقه سيأتي بصحبة قوة من الشرطة المحلية للمحافظة خلال دقيقة أو أقل، رمق أخيه الصغير بيأس..

جسده متجمد وهي بأحضانه تكاد تفارق الحياة..

انحنى بلا مزيد من تفكير يمسك بالسلاح، يحتويه بقبضته، يترك أثره عليه عامدًا، يجثو بعجالة ويده تنبه الشارد في ملامح زوجته بنظرة غير مفهومة:

- يعقوب.. الإسعاف في الطريق، فارس كمان خلال ثواني هيكون هنا.. أنا اللي ضربت النار على داوود، ده اللي هتقوله.. أنت سامعني!..

كان يسمعه من وراء حجاب.. هناك ضباب عجيب يخيم على الأفق والمحيط ككل، عتمة.. تشوش، ضياع لم يشعر به من قبل..

تيه اكتنفه، فرأى نفسه يطفو بعيدًا خارج حدود المجرة.. نحو الشمس!..

"يعقوب.. فوق، أنا اللي ضربت النار، ده اللي هاقوله وأنت هتقوله.. ركز معايا"..

صوت "يزن" يأتيه مضطربًا، يأمره بصحوة مستحقة، يجذبه من هوة ضياع في أمس ارتسم قبالة عينيه بكل تفاصيله المقبضة..

الدماء.. الجسد الهامد..

النداء الذي لم يعبر حلقه..

الموت.. الفقد..

كل ما فات يتجدد، يثُب من بين ركام القسوة والنسيان، يبرز من تحت جلده الثاني الذي.. تمزق!..

لقدره اليوم تصريف آخر يصفعه به، يصفع عقله، روحه، فؤاده.. يصفع غروره، ويلطم وحشيته التي ظن فيها عقيدته ومذهبه..

يهديه ضعفًا يليق ببشر، هو ليس الشيطان وإن تمنى وأراد واشتهى!

"أنا اللي ضربت داوود بالرصاص، شمس هتحتاجك جنبها، مش هينفع تسيبها لوحدها"..

يعود لواقعه، يفيق من سباته المباغت، يرى في عيني أخيه نظرة مهتمة.. مبالية.. خائفة..

هل يخاف عليه!..

يفتديه بالمثل!..

كما حماقتها في تلقي الرصاصة عنه!..

"أنا معاك، وهافضل جنبك، أنت مش لوحدك"..

رفع ناظريه إليه، يلمح تنهيدته مع انتباهه لفحوى حديثه، يطمئن قلبه ويمنحه أمانه كأخ أكبر.. يقبض على كتفه ويده الثانية لا تفلت السلاح:

- شمس هتبقى كويسة إن شاء الله، وأنا معاك..

مع نهاية كلماته حدثت الفوضى..

ظهر "فارس" يشهر سلاحه، وقف أمام صديقه يتأمله بصدمة، يراقب المسدس بيده، يسحبه أحدهم منه بحرص مهددًا.. يتبعه عدد من الجنود، ضابط ثانٍ لا يعرفه.. صوت سيارة الإسعاف يدوي مقتربًا..

كان الضارية الذي يرفض التخلي عن وحشيته يراقب، يتراجع ويتأمل المشهد من مسافة لا تمنحه اكتمال الرؤية.. ينتزعونها منه.. يتفحصونها، أخيه يقف مجبرًا عند جدار، يداه مصفدتان بالأغلال، الصديق يتفحص نبض "داوود".. يعقد حاجبيه بأسف، ينظر تجاه "يزن" بتوتر خائب..

يعلن أحد المسعفين أن الخاطف المختل قد فارق الحياة بلا عودة..

تُحمل هي إلى سيارة الإسعاف، يدفعه الأخ الأكبر للذهاب معها أو تتبعها بسيارته حتى أقرب مشفى، يستجيب بشبه يقظة..

لا يدري ما به!..

لمَ هو محشور في صورة بائدة باهتة لا تشبه الحاضرة في شيء!..

الأخرى هجرته، وهذه هجرت الحياة ليحيا..

لا يصح عقد مقارنات، التشتت غير مقبول، الضياع خسارة وخاصة مع اختيار أخيه أن يفتديه مكررًا صفعة الإفاقة..

قاد السيارة خلفها، عيناه مثبتتان على أضوائها المتتابعة، صوتها الذي يشق سكون الليل كعواء وحش جريح.. وفي الخلفية ظل الصديق يناظر صديقه بشك، يسأله مطالبًا بالصدق:

- أنت اللي ضربت الرصاصة فعلا يا يزن!..

ابتسم "يزن" بلا معنى، رفع يديه المكبلتين أمام وجهه وأجاب بجمود:

- أيوة..

قطع "فارس" طريقه وقد كان أحد الجنود يقوده إلى الخارج حيث عربة الشرطة، أشار للجندي بالتنحي قليلًا وواجهه:

- الموضوع مش سهل زي ما أنت فاكر، فيه قضية وتحقيقات وحبس..

صمت "يزن" لثوانٍ تمتم عقبها بهدوء:

- عارف..

- طيب فاكر إن عندك ابن لسه عمره أيام!..

زفر المكبل بحرارة وجبينه يتغضن بألم حائر.. لكن لا تراجع، لا فائدة.. ربما منذ موت توأمه لم يفكر أن يضع أحدهم في مقام يسبقه.. الآن يفعل!..

الصغير الغريب..

الزوجة التي تحمل طفله، وتحمل لقب أم لقطعة من نصف روحه الراحل..

رد ببسالة وخطواته تعود للحركة تجاه الخارج:

- هو كمان مراته محتاجاه، ابنه محتاجه.. هو محتاجهم..

عاد "فارس" يوقفه بحدة غاضبة:

- يعني مش أنت!..

حافظ "يزن" على ثباته بجواب باتر:

- أنا ماقلتش كده..

تلاقتْ الأبصار في حديث صامت لم يطُل كثيرًا، على عهده لن يغير ما أقر به على نفسه، مهما جادله.. أذعن لرغبته، سحبه معه متوجهًا للضابط الآخر:

- نبيل باشا، معلش هاستأذنك، نفك الكلابشات وهاوصله بنفسي للقسم..

إثر نظرة مدققة وتفكير قصير وافق كخدمة لزميل قديم، انتهت الليلة به ممددًا على أريكة بغرفة الضابط، وصديقه لا يفارق جواره حتى بدء التحقيقيات..

لكنها عند أخيه لم تنتهِ بعد!..

وصل خلفها لأقرب مشفى، ركض بها فريق من الأطباء إلى غرفة العمليات، وهناك قرب بابها مكث بانتظار مقيت..

جسده كمنحوتة باردة، عقله في فجوة دوامية واسعة، وروحه وحيدة في مدينة خاوية على عروشها..

حتى كل أفكاره السابقة تلاشت، تبعثرت كهباء نثرته ريح عاصفة في أرجاء عالمه الذي ابتلعه ثقب أسود كفاتح لشهيته، ممهدًا طريقه لابتلاع الكون عن آخره..

نظره مثبت على باب الغرفة، ثيابه لا يزال بها شيء من بلل النزف، لم تجف تمامًا بعد والحمرة التي تغمرها مقبضة..

حتى كفيه ملوثتين بدمائها، أخفض عينيه نحوهما، فردهما، قلبهما ليشاهد الأثر على كلتا الجهتين.. وفي لحظة ضعف غير منطقية للساقط عن العرش اعترف.. هو قتلها!..

مرتْ اللحظة وأتتْ التالية، تفيض بالغضب، بالجنون.. بالشراسة..

لا.. هي الرعناء التي قتلتْ نفسها.. وطفله؛ حتى وإن افتدته، حتى وإن اختارته!..

مرتْ ساعة.. نصف تبعها ببطء، لم يتحرك من مقعده، لم يبدل وضعية جسده.. لم يبتعد بصره عن الباب حتى غادره طبيب متوسط العمر، حينها استقام يلاقيه.. يرى نظرته لثيابه الملوثة، يعرفه بنفسه ويلمحه يبتسم بشيء من طمأنة ملتزمًا بعملية اللهجة:

- الحمد لله وقفنا النزيف.. خرجنا الرصاصة وعملنا نقل دم، الرصاصة ما أصابتش أعضاء حيوية، بس هتفضل في العناية 48 ساعة لحد ما تفوق، وتعوض سوائل جسمها اللي كان في حالة إجهاد واضح..

ابتلع الهواء ببعض من راحة.. عبَّه في صدره بتأن كأنما لو تنفس دفعة واحدة سيختنق، أراد السؤال عن طفله الذي اختار أن يزرعه برحمها.. ثم تناساه عامدًا، ظانًا أن تلك الحياة لا تناسب من هو مثله.. أو ربما هو من لا يناسبها..

انتبه للطبيب يكمل بذات البسمة:

- كمان التوأم بخير.. ودي معجزة من عند ربنا!..

أهداه نظرة حائرة بشبه صدمة جعلتْ الرجل يناظره بتساؤل:

- المدام حامل، ماكانش عند حضرتك علم!..

ازدرد لعابه بغصة مُرة ورد بكلمة واحدة تخفي كل انفعالاته:

- عارف..

عقب إجراءات محددة تم نقلها لغرفة الرعاية المركزة، على بابها ربض جندي حراسة تابع للشرطة.. بينما وقف هو يراقب جسدها الهامد ووجهها الشاحب من خلف زجاج نافذة عريضة كحاجز جديد بينها وبينه..

قدره كله يبدو أنه بُني كسد يفصله عن عالمها ويُحرِّمه عليه..

ليس طفلًا واحدًا بل اثنين، هي، أخيه الأكبر!..

لمَ تنهال الضربات فوق رأسه بلا توقف!..

لمَ على بشريته المفقودة أن تعود دفعة واحدة!..

تلك الإنسانية التي تقاتل للطفو، لاحتلال سطح مشاعره، لامتلاك جوارحه عليه، للحكم، للسيطرة والاستحواذ على روحه، لترويض الضارية؛ يبغضها..

كلا.. لن تعود، هو لن يعود ودنياه كلها رماد..

يتحداها أن تفكر بالظهور وقد أفنى ما فات من عمره في غابة برية افترستْ منه فطرته، نهشتْ نفسه فتاه عنها..

يعاندها، يحاربها.. الموتى لا يعودون.. وإن عادوا لن يكونوا إلا وهمًا غير صالح للعيش أو التعايش..

تعلم بالقهر، بالعجز، بالاستضعاف.. وأتقن ما تعلمه، اعتنقه.. آمن به وصدَّق عليه، الآن هو مختلف..

هو رجل يصنع قدره، إن كانت الوحشية قد اختارته من قبل؛ فهو من سيقرر الخيار هذه المرة..

سيختار اللعنة..

كان الشيطان المنبوذ، المطرود من الفردوس، الملعون في كل لغة..

وسيظل!..

سيظل ملعونًا إلى الأبد..

**

بعض الخيارات يلزمها منهاج القسوة..

نقسو بالرحيل مهما تمسكت قلوبنا بالبقاء!..

نستعذب ألمًا، لأن المقابل ألم أكثر عنفًا، ألم لن نتحمله.. مهما قدمنا، مهما بذلنا من عطاء وحاربنا أقدارنا، مهما تحايلنا عليها؛ لن نصل إلا لما هو مكتوب في اللوح المحفوظ..

لم تكن أمًا ولن تكون..

ذاك هو قدرها..

اختارت الرحيل عندما أصر الزوج الأول على أبوة هي من حقه مع غيرها..

والآن بعد التفافة ترى فيها العوض، عليها أن تخسر الكثير لتحقق ما تصبو إليه!..

وركض الوحوش في البرية لن يزيد من رزقها مثقال ذرة..

حسمتْ أمرها، أهانها مرة واثنتين وثلاث، منعها حقها في حياة خطتها الطبيعة ونشأت من فطرة، تزوجها بكذبة، وليلة العرس هدم حلمها بالحقيقة بكل غلظة..

ثم قبل دقائق أكمل الذبح..

صفعها حرفيًا ومجازًا..

وجنتها لا تزال تنبض بأثر لطمته، وقلبها ينزف مع تصريحه الباتر..

هي لا شيء، وستظل لا شيء..

كل ما مرت به معه مبني على خدعة، وهم، سراب لن تفتش عنه بعد الآن.. قلبها في لحظة هفا إليه، رأى فيه أبًا صالحًا، عاشقًا مخلصًا لزوجة راحلة..

رأى فيه رجلًا يستحق نبضته الأولى بالعشق..

وكان هو مغفل الحكاية الوحيد..

فالمعشوقة لم ترحل، والعاشق يتقن الكذب بلا جهد..

مسحتْ عبراتها ببطء، تنهدتْ تحبس أنفاسها في صدرها لثوانٍ، تعقص خصلاتها بربطة عشوائية، وتنهض بقرار..

باختيار ختامي لرواية لم تبدأ بعد..

هي الجريحة التي لا تمتلك القدرة على مداواة جراحه..

ولأنه كوحش أطبق فخ صياد على ساقه فانطلق ينهش كل ما في طريقه، انتوتْ ألا تكون في ذلك الطريق..

لن تعرض نفسها وقلبها للنهش..

مررتْ الماء البارد على وجهها، رمقتْ وجنتها بالمرآة، تزفر مع رؤياها للحمرة التي تركها خلفه، أعادت تحرير شعرها ووارتها بثبات، خطتْ تجاه غرفته بكبرياء.. عند الباب تصلب جسدها لدقيقة، طرقته وفتحته بلا اكتراث لرد فعله..

كانت الغرفة شبه مظلمة إلا من ضوء خافت لمصباح جانبي جوار الفراش، لمحته يقف قرب نافذة طولية تطل على الحديقة، يطالع حُلكة السماء بعين شاردة وقد خلع سترته وحرر أزرار قميصه موحيًا باختناق..

سمع دخولها، خطواتها، وقوفها من ورائه، صمتها، وأخيرًا حسمها لأمرها بطلب حازم:

- طلقني..

التوت شفتاه ببسمة ساخرة..

هي امرأة متوقعة..

سهلة بسيطة ضمن حدود يديه، لا تغادر تلك التفاصيل الدقيقة الفارقة بين أنامله..

من وقفته لم يتحرك أو يهتم، سخريته لامستْ صوته عندما جاوب وذاك كان انفعاله الأول:

- الطلاق سهل بالنسبة لك للدرجة دي!..

بعدها التفتَ إليها بتمهل، يطوقها بنظرة مستهينة ضاعفت من نزف روحها:

- لما حاجة ما تعجبكيش في حياتك الزوجية تهربي بالطلاق!..

شدت قامتها تواجهه باعتداد..

هي المكسورة، المهانة، الضعيفة في عالمه.. لكنها ستلفظه خارج عالمها الصغير بطرفة عين، وإن ظن نفسه سلطانه..

زمت فمها تجاوبه بجدية ولو أوحتْ النبرة بما خفي في دروب القلب من وجيعة.. من شعور بالامتهان:

- ده قراري واختياري، مش مطلوب مني أبرر أو أشرح لك أسبابي..

اقترب خطوة يشرف عليها بتسلط:

- أنا جوزك..

كان هنا دورها لتسلك نهج الاستخفاف، تلتمع مقلتاها به، تجبر شفتيها على ابتسامة مقتضبة متهكمة، والصوت يعلن البرود بتحدٍ:

- على الورق وبس..

رفع أحد حاجبيه مفتعلًا دهشة مستهجنة:

- آه.. هي دي المشكلة بقى!..

ومال يلفح وجهها بأنفاسه عامدًا:

- إنه على الورق وبس..

تراجعت خطوة تبتعد عنه.. تدرك نيته.. لعبته النفسية التي يظنها ستضعفها، تكاد تقسم أنه يوقن بمشاعرها نحوه.. يؤذيها ليقتلها في المهد، وهي لا تبالي.. لن تتشبث..

هو يجهل من تكون، ولن تمنحه المعرفة أبدًا..

أردف متأملًا خطوتها باستهزاء:

- كنتِ فاكرة إني هاتجوزك وتعيشي معايا في تبات ونبات مش كده!..

تماسكت قدر ما أمكنها.. هذه المواجهة صعبة عليها من كل الجهات، لكنها ستتحملها حتى النهاية.. حتى تجد المخرج وتنجو بفؤادها الحزين، جابهته بمنطقية:

- كنت فاكرة إني هاعيش حياة سوية..

ثم عادت تقترب.. تتحدى.. تصارعه على جبهة قتال مشتعل:

- مش مجرد شماعة مناسبة ليك، تسقط عليها عقدك..

أشهر سبابته في وجهها يوقفها بصرامة:

- ما تتخطيش حدودك..

توهجت عيناها بغضب ناري، مكابر:

- ولو اتخطيتها!.. هتضربني تاني!..

هدر بنبرة شبه زاعقة، لائمة.. كأنما يبغض فعلته ويترفع عن الاعتراف:

- أنتِ اللي وصلتيني لكده..

ربما.. قد يكون على حق..

هي دفعته حتى الحافة، أو.. لا، لم تكتفِ بدفعه ومشاهدته يرمق القاع من علٍ، أكملتْ دفعه حتى سقط..

ومع ألم السقوط كان رد الفعل هجوم يلائم قدر الوجع..

أوجعته فأوجعها..

خاضت في مستنقع قلبه العطن، فأغرقها..

ارتدت للوراء بعض الشيء، رمقته بنظرة باهتة وشاب صوتها صدق:

- جايز.. معاك حق، على العموم أنا بعتذر عن الكلام اللي قلته..

وزفرتْ باحتدام تكبت مشاعرها التي تقاتل معه على ذات الجبهة ضدها:

- مش من حقي أتدخل ولا أحاسبك على ماضيك أو طريقتك..

أربكته!..

نالت منه ولم تدرك..

ارتجفتْ حدقتاه فأغمض عينيه يستدعي جموده السابق، يحدق فيها بغموض، وتستقبل هي غموضه بقوة:

- طلقني من فضلك، وعيش حياتك بالطريقة اللي تريحك..

قرارها الذي لن تتنازل عنه مهما كان الثمن، مهما كان الوجع..

أكدتْ عليه واستدارتْ عائدة من حيث أتت، تاركة له وحدته ينغمس فيها.. يموت أو يحيا، لن تبالي بعد اليوم..

قرب الباب توقفت.. صمتت تفكر ثم استدارت إليه بشبه جرأة تصرح بما ينبغي أن يكون لها:

- على فكرة.. حتى لو طلبت الطلاق لأن جوازنا مش طبيعي؛ ده حقي..

عادت إليه، تعلو بكتفيها.. تغوص بزرقة عينيه وتتفادى الغرق:

- لو أنت مكاني أبسط رد فعل هتجبرني، أو تهددني بواحدة تانية.. أو حتى تنفذ التهديد ببساطة بدون إشعار مسبق..

وتبدل جزءٌ ما في نبرتها لإزدراء لم تسعَ لإخفائه:

- مش معنى إن مجتمعنا بيجرم الست اللي تتكلم في حقوقها الشرعية وبيشوفها منحلة، إن ده صح وإننا كلنا لازم نخضع..

لاحقها برد سريع صادق انتصرت به مثالية سالفة، هزأ منها الدهر وأكل عليها وشرب:

- أنا ما قلتش كده..

حركتْ رأسها بلا معنى، أصرت بحقيقة واقع لا يمكن أن ينفيه:

- مش لازم تقوله بشكل مباشر، كل نظرة منك وكل رد فعل بيقوله..

عقبها ابتسمت.. واحدة من تلك البسمات التي تكبت ما في النفس من آلام، ومع قساوة ما نعانيه نجهر بها رُغمًا عنا:

- وعلى فكرة أنا مش عاوزة ده ولا يهمني، بس على الأقل تكون عارف إنك اخترت شريكة حياة مش مربية، المربيات كتير.. ولا لقيت إن كده العرض مضمون ومجاني!..

- أنا عرضت عليكِ الشغل ورفضتِ..

نطق مفندًا يدلل على براءة، فأقر بالذنب.. تهكمتْ بمرارة يائسة:

- صح.. وده كان الحل الأسهل، خدعة بسيطة تضمن بيها مربية مدى الحياة، وكيس ملاكمة ينفع وقت الغضب والحزن..

مسح وجهه فاقدًا لراحته.. دنا هو منها، تأمل ملامحها بتركيز هذه المرة، رأى أثر أصابعه فوق وجنتها.. تعانقتْ أجفانه وخرجتْ زفرته بحرارة سعير دواخله المحترقة:

- رحيل.. أنا مش كده..

لامته بنظرة.. لامت على الكثير..

على الخدعة، الكذبة، الامتهان..

لامت على الحب وإن لم يكن له يدًا فيه..

سمعته يبرر بحرج استغربته:

- أنا عمري ما مديت إيدي على واحدة ست ولا قللت من احترامها.. بس.. أنتِ..

صمت.. صمت فترقبت التوبيخ منه، سيقلب الطاولة على رأسها ككل ذكر.. لكنه باغتها بما لم تتوقع!..

باعتذار!..

صوته خفيض، نادم.. ضائق بفعلته المنفلتة عن زمام أخلاقه ورجولته:

- أنا آسف..

رمشت بتشتت.. لا، الطريق الذي سلكته لا يسمح بالعودة..

هي لن تعود، هذا قرارها حتى وإن رأت في طفليه احتياجها.. أو عوضت هي احتياجهما..

عقدت عزمها دون التفاف:

- وأنا مصرة على الطلاق..

رأت قبضتيه تنضمان بخشونة، تغافلت عنه مردفة بعقلانية تتمسك بها كواجهة تحمي كرامتها وأنوثتها هوانًا جديدًا:

- مش هيكون مفاجئ بس عشان الولاد، مش معقول أمهم تموت والمربية اللي حبوها تختفي من حياتهم فجأة..

كاد يجيبها بمجهول لم يكمله..

وهي لم تنتظر منه أي حديث، كل كلمات العالم لن تغني أو تشفع.. أو تُخضع:

- وعلى فكرة.. مش عارفة إيه اللي وصلك من كلامي؛ بس أنا ماطالبتش أبدا إن رد فعلك يكون عادي على خيانة الست اللي بتحبها، ولا قلت إيه يعني ما أنت لو خُنت هتسامح وتتعايش!..

تغضن جبينه ونظرته تظلم مع كلماتها..

تلك الطعنة التي تتجدد في كل مرة تذكر.. هي!..

معشوقته، وخائنته..

سمعها توضح بمزيد انفلتتْ فيه مشاعرها من أسرها.. انفلتَ الوجع والخوف والفقد والخسارة والانكسار..

كل ذاك تحسسه بين حروفها:

- كل اللي قلته؛ إن العقاب المفروض يكون مساوي لعقوبتك لو الموقف معكوس..

تحشرج صوتها، ارتعش، خرج مختنقًا متعثرًا بلهاث الشجن:

- مستحيل أي حد كان يحرمك من ولادك أو يحرمهم منك حتى لو هيعيشوا بعيد عنك..

هنا وازاه بريق دامع بين جفنيها، بريق لم تمنحه حرية الهطول بصلابة حتى وإن غرقتْ فيه بكل كيانها:

- أنت مش متخيل إزاي بيكون شعور أم تتحرم من ولادها، من أمومتها!..

غافلتها عبرة تسللت تخالف إرادتها، تتعلق بجانب أهدابها عنوة.. تمسحها بحدة، وتخرج بختام لا يفهم لمَ وتَّره!..

ختام أشبه بلغم قديم داسه بحماقة دون أن يدرك وجوده، والخطوة الخاطئة التالية معناها انفجار.. شظايا.. أشلاء:

- خد وقتك في التفكير، عشان نشوف هنمهد خبر الطلاق للولاد إزاي!..

اختارتْ بقسوة.. اختارتْ بعذاب..

اختارتْ الرحيل، حيث طوف النجاة لن يسع بشرًا سواها..

**

هناك خيارات لا تحتمل التفكير أو التأجيل، نقررها بعجالة في صراع مع الزمن.. مع القلب.. مع الفقد..

نقدم ما يمكننا تقديمه، ولا ننتظر مقابلًا سوى نجاة من نحب..

اختاره على نفسه، لا ينكر دهشته من تلك الفعلة.. اللحظة كانت عفوية باقتدار، بدأت من أعماق فؤاده، وانتهت عند أطراف لسانه الذي نطق مقرًا بذنب لم يرتكبه..

وبالمنتصف يده امتدت لتحمل السلاح، تترك عليه الأثر بقصد، وتتشبث به حتى وصول الشرطة لينتزعه ضابط ما من بين أصابعه..

اختاره لأنه ربما ولأول مرى يرى ضعفه.. يلمح خوفه بحدقتيه..

يؤمن أن إبليس الذي أتى من النصف الآخر للكرة الأرضية ليهدم جنته، يبدلها لجحيم.. لم يكن شيطانًا بالسليقة، الحياة أجبرته وهو انصاع بإرادته..

كما فعل بالمثل من قبل وإن لم يصل للحدود البعيدة من القسوة كالمغترب الصغير..

تذكره قابعًا في جلسة أقرب لسقطة، هي بأحضانه، دمها يغمره، بصره متجمد.. ضائع، تائه في غربته.. في وحدته، بلا عائلة.. بلا وطن.. المشهد لم يستدعِ سوى خيار واحد، اصطفاه على الفور..

حتى مع سؤال "فارس" عن كونه من أطلق النار، لم يمكنه إلا تأكيد الجواب وتكرار الاعتراف مهما كانت نجاته صعبة المنال..

في يوم ما مضى فقد توأمه لموت محقق، خسر قربه حينها، لم يجُد عليه بوداع مستحق يهب روحه خاتمة الخلاص.. والقدر يمنحه الفرصة، التعويض مع الآخر الأصغر العائد من أعماق عذابه الخاص..

سيكون هنا من أجله، على الأرجح كما لم يفعل أحدهم معه من قبل..

أتى الصباح محملًا بالغيوم التي لا تليق بربيع أوشك على الحضور، محملًا بالهموم.. بالمخاوف، بداية من تحقيقات كان فيها الجاني.. وانتهاءً بمكالمة منها!..

هاتفها وقلبه يشتاقها، يتوق لسماع صوتها، يتلهف للاطمئنان عليها وعلى طفله، هاتفها ولم يتوقع الجنون.. كانت تسبه ببكاء كعادتها مؤخرًا، تلومه وتعود لتتشبث به..

تعلن الغضب وتصرح بنية القتل حين رؤياه، وهو أخبرها بنبرة حانية وازت نبضه العاشق:

- لو هتكوني آخر حد أشوفه قبل ما أموت موافق..

- ما تقولش كده..

صرختْ بالكلمات حانقة، أراد بث الراحة بقلبها فتنهد ببسمة باهتة:

- ما تقلقيش عليَّ، التحقيقات هتثبت إنه دفاع عن النفس وهاخرج..

زمت شفتيها تكبت عبراتها بأنين العجز:

- بس مش أنت اللي ضربته..

شاب بسمته رفق متفهم:

- مين قال كده!..

كاد يقسم أنها تلكم صدرها بقبضتها في إشارة واثقة:

- أنا قلت.. مستحيل تقتل يا يزن..

وأردفت بمكابرة بديهية هو ذاته لا يملك جوابها:

- ثم جبت المسدس منين بقى!..

مرر أنامله في خصلاته حائرًا، تمدد على الأريكة بغرفة الضابط التي يقضي بها ليلته للمرة الثانية، فكر من أين أتى به أخيه ولم يصل لهدف!.. جاوبها بصدق:

- المسدس بتاع يعقوب، وأنا أخدته منه عشان ما يتهورش.. بعدين أكيد ماكانش قصدي أقتله، بس الرصاصة جت كده..

- كداب..

تنهد مجددًا وعاتبها بإرهاق:

- عيب تشتمي أبو ابنك يا زلابيا..

عاندته بوهن وقلبها يلعنه معها:

- أبو ابني بيكدب..

صمت.. لم يمتلك شيئًا عدا الصمت، اكتنفها صمت مماثل، تفكر وتدور بعجز في دائرة بُعدها عنه حين حاجته إليها، تلك المسافة الشاسعة بينهما تقبض خافقها بين ضلوعها:

- أنا متفهمة يا يزن، بس مش قادرة أمنع نفسي من الخوف.. عليك..

واستكانت لحظة بزفرة حارة، خافقها ينقبض بين ضلوعها يعتصره الألم:

- على زين..

صاحت به فجأة ودموعها تعود لتحتل صوتها:

- وأنا.. ما فكرتش أنا من غيرك هاعمل إيه!..

التزم نهج الصبر بما يفوق احتماله..

هو متعب.. حائر.. وحيد..

ولن يتنصل من كونه خائفًا بدوره، لكن ما بالقلب حيلة!..

سحب نفسًا عميقًا يرحم به روحها وروحه:

- ما تخافيش عليَّ، الموضوع هيتحل.. لازم يتحل، لا جدي هيقبل إنه يكبر ولا حتى أبو داوود هيسمح إن الفضيحة تتنشر وتضر بسمعته وسمعة عيلته..

اعتدل يعاود الجلوس، يرفع بصره للسقف ويشرد في المصباح الكلاسيكي عقيم الإضاءة:

- بس لحد ما يتحل هياخد وقت، والوقت ده شمس ويعقوب أولى بيه..

تلبست رداء السكون..

ثلاث دقائق مرت استمع لأنفاسها خلالها، يترك لها منحة الوقت لتبتلع تبريره بغصة يدركها..

في نهايتها أتته همستها محملة بكل مشاعرها، بكل شجن.. رعب.. عشق:

- بحبَك..

ابتسم براحة حقيقية أخيرًا:

- عارف..

- أنت رخم على فكرة..

- عارف برده..

غمغم بها عابثًا، تجاهلته وسألت عن صديقتها التي تاهت من أفكارها في غمرة هلعها عليه:

- اطمنت على شمس!..

استجاب بهدوء يعلم أنها تحتاجه:

- الحمد لله، هي دلوقتِ في العناية لحد ما تفوق..

وفكر في الغد وما يليه:

- المفروض بكرة يعقوب هيجي عشان تتاخد أقواله..

- تفتكر هيسمع كلامك!..

الشيطان سيسمع.. يستغل، أما ذاك الآخر الذي قابله لوقت قصير بالأمس؛ لا يعلم!..

رد بأمل بسيط:

- أتمنى..

رمقت طفلها النائم بحنو، عدلت من دثاره وانزلقت تجاوره بينما تخبره:

- زين بيدور عليك..

نبض قلبه بأبوة وتمتمته تداعبها:

- بجد!..

- آه بجد..

- وأم زين!..

- وحشتها قوي..

مال يستلقي، يرفع قدميه فوق المسند مجيبًا بحب:

- وهي وحشتني قوي..

تدللت بشقاوتها التي تفتنه، تعيد اتهامها له:

- كداب..

خفتت نبرته، قرر العبث بوقاحة تشبهه:

- أثبت لك!..

قطبت ببراءة وإن كانت تشك في سوء نواياه كعادته:

- تثبت لي إزاي!..

ابتسم بظفر وتواقح أكثر:

- اقلعي..

شهقت وانهالت عليه بسباب كان آخره حانقًا:

- أنت قليل الأدب وسافل..

كرر هو رده وقد اطمئن فؤاده عليها بنبرة راضية، مسترخية:

- عارف..

عاندته بتحدٍ، تتخذ القرار الحاسم علَّها تغيظه بالمثل:

- أنا جاية مصر كمان يومين، أول حجز لقيته..

لم تدرك أن ذاك هو أكثر ما يتمناه:

- زلابيا..

انطلق ردها حادًا بكلمة ساخطة:

- نعم..

توسعتْ ابتسامته وأغمض عينيه يعانقها في خياله:

- بحبِك يا أم زين..

هناك قرارات حتمية نفقد معها سلطة الاختيار..

أهمها..

خيارات القلب!..

**

أحيانًا نتشبث بخيار القسوة في مقابل العذاب..

الفراق في مواجهة حب مصيره ضياع..

الألم الأخف وطأة على القلب لأن القرب يعتصره بغلظة مع كل نظرة، وقت كل عناق، بكل لمسة اختلف معناها بين طرفي نزاع العشق..

معشوق ليس بعاشق..

وعاشقة ابتعدتْ حينما أدركت أن الطريق أمام عشقها مغلق بلافتة احذر.. هاوية سحيقة لا نجاة منها..

هاوية تعلقت بحافتها قبل لحظة الارتطام المميت، طالبت بالبُعد ولم يتأخر في تلبية الطلب، بعدها لم تره، لم يسأل.. لم يهتم، لم يتراجع أو يعلن الندم.. امتطى خيول التجاهل التام، وركض بها لأقصى الأرض، لأبعد مسافة تفرق بينها وبينه..

تفتقده.. تفتقد طفله، حتى أمه تفتقدها..

أمه التي هاتفتها ليلة أمس، بدعوة ثرثرة انتهت منها بخبر.. هي ذاهبة لطبيبتها اليوم، تطمئن على جنينها.. والأم عزمت على الحضور معها..

لم تكن تعلم أنها تخطط لجمعهما سويًا إلا عندما رأته يدلف من باب عيادة الطبيبة، يتأمل المكان بدهشة كأنما يفتش عن شخص ما.. يسقط بصره على والدته.. وهي إلى جوارها، يتجمد، ينعقد حاجباه بعقدة لطالما جذبت عينيها وزادت وجهه وسامة وجدية، يزم شفتيه ثم يتجه نحوهما بضيق..

يبعد بصره عنها، يخاطب الأم بشيء من حنق مكبوت:

- هي دي الدكتورة اللي بتتابعي معاها علاج معدتك يا أمي!..

كذبة بيضاء.. هكذا ترى "راوية" المشهد الذي أخرجته بنفسها.. ابنها العنيد وزوجته الأكثر عنادًا، وجهًا لوجه.. في أكثر مكان لن يمكنه الهروب منه..

توقيت رؤية صغيره برحمها..

خطة تهنئ ذكاءها عليها.. ابتسمت له وادعت البراءة:

- أنا قلت معدتي؟.. أنت ما سمعتش كويس بقى..

عض على نواجذه حتى كاد الصرير يصل لأسماعها وهي تطوف حول كل ركن في صالة الانتظار عدا موضع وقوفه، بينما أمه تردف بحزم جاد:

- اقعد يا عدي، المفروض تشوف ابنك وتكون جنب مراتك في وقت زي ده..

"مش مراته"..

"مش مراتي"..

نطقها الاثنين.. هي بغيظ، هو بجمود..

وتلاقت الأبصار بمرور خاطف انفلت منه كليهما عقبها، نالا التوبيخ سويًا:

- بلاش لعب عيال أنت وهي، ده ابنك ولازم زي أي راجل وأب تطمن عليه..

نفخ بصبر وقد وصله مقصدها..

تهين رجولته ليثبتها، وهو ليس بقادر على الهدهدة أو الدلال..

لم يكن يريد ذلك الطفل، وهي تحدته.. لذا عليها تحمل مسؤوليته وحدها ولتحترق كل المبادئ والأخلاق بصحبة روحه في جحيم الفقد والخوف..

كاد يغادر عندما نهرته والدته توقفه بغضب، بصوت هادر خافت قدر ما أمكنها:

- اقعد يا عدي لحد ما تدخل تطمن على ابنك..

تدخلت "رهف" بحجة مناسبة تلائم عدم رغبتها في وجوده.. حزنها منه.. انكسارها على يديه:

- ما ينفعش يدخل، أنا ما بقيتش مراته خلاص يا ماما راوية..

قطب بسخط والكلمة منها تخنقه بواقعيتها وصراحتها..

لكن "راوية" اعترضت بسلاسة قاطعة:

- حبيبتي أنتِ لسه في العدة، وقدامك أكتر من ست شهور ونص لحد ما تخلص..

كأنما تنبهه هو الآخر بأن المهلة الممنوحة له ليست مديدة بما يكفي..

إن انتهت؛ فتلك نهاية قصتهما بحق!..

بعد دقائق نودي اسمها، استقامت ترفض النظر إليه، تتقدم نحو غرفة الطبيبة بخطوات ثابتة.. هاربة، وينهض ليلحق بها مجبرًا حين تعللت "راوية" وهي تمسد ساقها بتأوه:

- رجلي نملت.. مش قادرة أقوم، ادخل أنت معاها وأنا دقيقة وهاحصلكم..

رمقها بذهول غير مصدق لتلك الخدعة الساذجة، قابلته بنظرة صارمة زفر على إثرها واستسلم بصمت..

دخل للمكتب، استقبلته الطبيبة ببسمة مرحبة:

- حضرتك الأب!..

أومأ بسكون موافق توسعت له بسمتها..

سألت "رهف" بضع أسئلة للاطمئنان، أشارت إليها لتتمدد على فراش الكشف خلف الحاجز، نادته برفق:

- اتفضل يا بابا لو تحب تشوف البيبي..

دهنت بطنها المسطح بالسائل اللزج المخصص للكشف، مررت ذراع جهاز الموجات فوق الصوتية عليها، ضغطته بشيء من قوة لتظهر تفاصيل النطفة الصغيرة المحمية وراء ظلمات ثلاث، مع جوابه:

- لا.. مافيش داعي..

تجاهلت السيدة رده كأنها اعتادت كل أنواع الأزواج، تغافلت عن نظرة مريضتها التي انخفضت نحو الشاشة تفر من وجع رفضه، دققت فيها والطبيبة تخبرها:

- لا ده إحنا تمام قوي، الحجم والوزن مناسبين للأسبوع العاشر..

ضغطت زرًا جانبيًا، أوضحت مع الصوت الذي صدر من الجهاز بعده:

- ده نبض القلب..

والنبضات وصلت لمسامعه..

سحبته رُغمًا عنه تجاه طفله الكائن بأحشائها، تحرك ينأى بعينيه عنها.. يتأمل الشاشة، تلك البقعة الضئيلة الواهنة الملتصقة بجدار رحمها.. تخط بسمة حضورها الباهت على أطراف شفتيه..

ينبض قلبه في المقابل مع الدقات التي تُثبت الحياة..

وتراه هي.. يولد بداخلها أمل، ثم يعود الألم فيمحوه.. يقسو عليها مذكرًا بكل ما فات، نافيًا عن عقلها الوهم أو محاولة التصديق..

ذاك ليس إلا خسارة، لن تتحملها..

انتهى الكشف وخرج يسبقها، تبعته بخطوات بطيئة تريد الفرار من حضوره.. والمفاجأة الجديدة، أمه لم تكن هناك!..

تركت له ورقة مع المساعدة، فضها ليجد الكلمات الخبيثة:

- اضطريت أمشي وأخدت عم كرم بالعربية، وصل رهف لأنها جت معايا..

تقربهما.. تحبسهما معًا.. تورطه وتثير غضبه..

لم يشعر أنها قرأت الكلمات بيده إلا وقتما تخطته هامسة وهي تتناول هاتفها بحسم:

- هاطلب أوبر..

رد فعلها أغاظه أكثر، هرول ورائها حتى مدخل المكان، أوقفها بالردهة الخارجية معنفًا:

- ما ينفعش كده يا رهف، هاوصلك..

وجدها تنهي المكالمة، تناظره بثبات محتج، واستيائها من الخدعة التي ربما يظنها ضالعة فيها مع أمه يفجر سخطها:

- ينفع عادي، أنا مش هاروح معاك.. الكابتن قدامه خمس دقايق ويكون هنا، تقدر تمشي.. هاستنى جوا..

راقبها تتجاوزه، تعود أدراجها للداخل..

تسقطه في خانة التجاهل والنسيان عامدة!..

تبني بينهما الحدود والحواجز بصلابة..

وجد نفسه يقبض على معصمها، يثبتها ويلتف ليواجهها بنبرة صارمة:

- إلغي الطلب، هاوصلك..

- لأ..

عاندت بلهجة باردة، سحبت يدها فلم يفلتها:

- رهف.. مين دلوقتِ اللي بيتصرف زي الأطفال!..

جذبتها منه بعنف أكبر أجبره على التخلي عنها وهي تجابهه بحدة:

- ما تجيش تاني يا عدي، ما بقيتش عاوزة أشوفك..

ارتد خطوة بصدمة، بهتت فوق ملامحه بتدرج وصولًا للحزن:

- للدرجة دي يا رهف!..

تماسكت تحجم دموعها التي تصر على احتلال عينيها بغزو قاسٍ:

- للدرجة دي يا عدي.. من فضلك امشِ..

تشددتْ قبضتاه وتنفس بعصبية.. مرر أصابعه في شعره وأنهى التمريرة بجذبة عنيفة، أهداها نظرة خائبة استسلم بعدها لرغبتها ورحل:

- تمام..

هي اختارت الألم بعد عشق.. هو اختار الألم دونه..

وبين خياره وخيارها، قلوب دهستها قسوة القرار..

**

بعض الخيارات لا تقبل مساومة؛ هو رجل اعتاد أن يختار نفسه أولًا!..

علمته الحياة بدروسها الصعبة كيف يعبر متاهاتها التي يضل فيها الكثيرون، احترف المسير واختار المسار.. انتهج القسوة حين الحاجة، وأجاد التلاعب وقتما شاء..

ببساطة وكما قالها من قبل.. هو يحيا اللحظة كما ينبغي أن تكون!..

دون منغصات.. دون الكثير من الأفكار التي تقتل المتعة..

بمزاج رائق، وصبر بلا حد..

قبل ساعات سافر أخيه الأصغر إلى خاله الذي ينتظره في "نيو دلهي".. منها سيغادر بعد فترة قصيرة إلى "نيبال" متجهًا لوجهته النهائية.. "التبت"..

اطمئن عليه، حان وقت التفرغ للعبته التي تظن في نفسها القدرة على اللعب، أن بإمكانها مجاراته في منافسة حامية..

دلف لغرفتهما بتمهل، تتبعه السيدة "وسيلة" مدبرة المنزل، تحمل بيديها علبة أنيقة.. أشار إليها فوضعتها على الفراش قربها حيث كانت جالسة باندماج كلي مع أحد الكتب الطبية..

حتى وإن لم تعد تمارس، لا تريد أن تنسى..

اعتدلتْ ترمق العلبة بتوجس، تنتظر منه إيضاحًا تجاهله بأمر هادئ:

- افتحيها..

لم تستجب، فقط سألته بلا اكتراث:

- إيه ده!..

اقترب من جلستها، جذبها يوقفها، تأملها بنظرة راضية تخبرها أنها تعجبه في جميع حالاتها حتى وإن كانت بمنامة ثقيلة وخصلات معقوصة بصرامة، حررها من ربطتها فأهدته نظرة مبهمة بها شيء من حيرة، كرر أمره بحزم:

- افتحيها..

استدارت باستسلام غير مبالٍ، أزاحت الغطاء، ورمقت الثوب الراقي القابع داخلها..

ثوب يوحي بالاحتشام، ويتمسك بدرجة معينة من الإغواء المثير..

أمسكته، فردته أمام بصرها تتأمله، كان ملكيًا بلون فيروزي، من قماش ناعم.. تركته على الفراش وعادتْ إليه بدهشة متسائلة، ابتسم.. داعب خصلة من شعرها بتملك:

- عندنا حفلة مهمة الليلة، زبدة المجتمع الطبي، أطباء، شركات أدوية.. وشركات مستلزمات طبعا..

سخرتْ باستخفاف متعجب:

- وعاوزني آجي معاك!..

عانقها بتسلط، بسيطرة لن يتخلى عنها:

- لأ.. أنتِ فعلا هتيجي معايا، الدكتورة وسن حجازي، مرات عمار الديب صاحب أكبر شركة في السوق..

أراحت كفيها فوق صدره بمعاندة، متجاهلة تعريفه بها:

- مش خايف أبعت SOS لأي حد من الحفلة، وأقوله إنقذني أنا أسيرة!..

ضحك بخفوت مرح، همسه يتسلل لأذنها مهيمنًا:

- مستعد أخاطر..

تراجع يمرر سبابته على فكها، يسير بها حتى ذقنها، يجذبها لتغوص بعينيه..

ترى نظرته الداكنة، اللون الأخضر الذي انعكس عليه ضوء الغرفة فمنحه درجة جذابة من رمادية آسرة:

- بس اللي متأكد منه؛ أنك أنتِ اللي مش هتخاطري..

ابتسمت بخبث ماكر دون تعليق.. بعد ساعات كانت جاهزة بالفعل، تنهي زينتها أمام المرآة وقد أعجبها مظهرها، الثوب يليق بها تمامًا.. أجاد اختياره كما العادة..

تسترق النظر إليه من خلفها، يزرر قميصه، يتناول رابطة عنقه ويتقدم منها.. يطالبها بعقدها له بصمت، التفتت إليه.. عانقت عينيه بعينيها ويديها تعملان على الرابطة حتى انتهت..

نثر بعضًا من العطر فوق ثيابه، تناول سترته وارتداها..

كان وسيمًا بدرجة خاطفة، تحبس أنفاس أي امرأة..

وهي نالتْ نصيبها من حبس الأنفاس، الآن وسامته هي مجرد ستار لقبح روحه.. هذا إن كان يملك روحًا بالفعل ولم يبِعها للشيطان بلا مقابل!..

رأته يأتي عن يمينها، يناولها قلادة تعرفتها على الفور.. تلك التي سبق واستيقظت من نومها في صباح ما لتجدها تطوق عنقها، تخنقها.. تلك التي مزقتها وأصلحها كما يبدو..

مد يده بها إليها آمرًا:

- آخر لمسة..

التقطتها منه بطاعة لا تزال تريبه في كل مرة، لفتها حول جيدها تقفلها، تدخل يساعدها عامدًا، أنامله تحتك ببشرتها، يغلقها.. ينحني ليطبع شفتيه بقبلة جمعت بين مذاقها وقيده.. ثم سحبها وانطلق للحفل..

كان الحفل راقيًا، فخمًا بكل ما في الكلمة من معنى، بقاعة واسعة بأحد الفنادق، والحضور من طبقة ما فوق المخملية بدرجات ربما..

قدمها لبعضهم.. شاركهم أحاديثهم، وقفت تجاوره ويدها بقبضته.. يتحكم بها، يتملك منها بأصابعه.. حتى انشغل بحديث هام مع أحدهم وانفصل عنها..

وقفت بأحد الأركان تتابع الحفل بملل، لم تكن يومًا من محبي الصخب، وتلك الليلة لا فارق بينها وبين سواها إلا مغادرة جدران سجنها للمرة الثانية منذ سفرتها لمطروح قبل شهرين..

انهمك مع آخر، ثالث ورابع.. لم تغادر مجال بصره، كان يراقبها بنظره بين فينة وأخرى.. يلمح وحدتها، شرودها، حتى قرر أن يعود إليها.. توجه لطاولة الطعام، تناول كوبًا من العصير.. هنا أتاه الصوت المشاكس:

- مش حلو العصير ده على فكرة، طعمه كأنه خيار مخلوط بمانجا..

والتخيل كان مقززًا بعقله..

تعرف صاحبته قبل أن يستدير إليها، يتأملها بنظرة متفحصة، الثوب الحريري بلونه الأحمر الناري، محاوطته لحنايا أنوثتها في إغراء صريح ومباشر دون تورية.. عري كتفيه وإن التف حول أحدهما.. بادر بجمود رافعًا أحد حاجبيه:

- أنتِ بتعملي إيه هنا!..

تناولت بعض أصابع البطاطس المحمرة تمضغها بتلذذ طفولي:

- الحفلة دي منجم..

ترك الكوب ورمقها باستهجان:

- بس مش لمندوبين المبيعات..

غمزته بشقاوة مرحة:

- ليَّ طريقتي..

ومالت بهمس متآمر:

- أنا جاية مع صديق، صاحب شركة مبتدئة في السوق..

مط شفتيه وكاد يغادرها:

- Enjoy..

بترت رحيله تعلن بصدق:

- بس أنا هنا عشانك..

قطب يستفسر بصمت عن مغزى كلماتها، أوضحت وهي تدعوه للرقص:

- ممكن ترقص معايا، ونتكلم!..

هز رأسه باستخفاف رافض:

- آنسة لينا...

- لينا بس، وأنا مش هازهق.. هاطاردك في كل مكان لحد ما تقرر تغامر بالشغل معانا..

كررت غمزتها بعبث:

- ممكن أنزل لك من الحنفية على فكرة..

ظل على وقفته لثوانٍ، تطلع بطرف عينه لزوجته التي وقفت تتابعه بضيق واضح، تلك الفتاة جميلة.. تصلح كبيدق في لعبته، فكر للحظات ثم همس لنفسه: لم لا!..

تراجع يمنحها الفرصة لتتقدمه، بمنتصف منطقة الرقص حاوط خصرها بلياقة تشبهه، احتوى كفها بيده ودار معها بخطوات خبيرة..

ظلت تثرثر، تعدد له مميزات التعامل مع شركتهم، تخبره بعملية:

- تعرف إن أكتر من ألفين مستشفى وعيادة على مستوى العالم بتستخدم معداتنا!..

رفع حاجبيه وأخفضهما بسرعة مستهينًا:

- رقم مش مشجع..

جادلته بمنطقية:

- بالنسبة لشركة تعتبر حديثة ده نجاح مش بسيط، إحنا قدرنا نثبت وجودنا في السوق، ودلوقتِ في أماكن بتطلبنا بالاسم..

وعددت تنقر كتفه بسبابتها في تتابع:

- جودة عالية.. إتقان في الصنع.. ضمان طويل، وسعر مناسب جدا أكتر من معظم الشركات التانية اللي بقت بتعتمد على شهرتها أكتر من جودتها..

كانت مقنعة لحد ما..

وهو يستمع إليها بنصف أذن ونصف عقل.. البقية كانت معلقة بزوجته التي ابتعدت تجاه الشرفة بملامح منقبضة..

اعتذر من فتاته فوعدته بلقاء آخر مباغت هز له رأسه بتعجب، تبع "وسن"، وجدها تستند للسور بفكر شارد.. جاورها معربًا عن رغبته في الرحيل:

- زهقت، يلا نروح..

اعتدلت ترميه بنظرة غامضة رأى فيها بعض ألم.. تغافل عنه وقاد السيارة بسكون حتى المنزل، هناك بغرفتهما جذبها بين يديه..

استسلمت بإجهاد لم تحاول إخفاءه.. بحزن.. بغضب..

تمتم بخفوت هامس يشعل نارها:

- غيرانة!..

تهكمتْ بمرارة وحاولت التملص من طوقه:

- بتدي نفسك أكبر من حجمك جوايا..

اعتصرها فوق صدره بقسوة أنَّت لها:

- بتنكري ليه!..

هربت بعينيها متعبة.. ضائعة.. مستنزفة:

- كفاية يا عمار، بجد كفاية..

حرك يمناه يثبت بها وجهها قبالة وجهه:

- أنا بس اللي أحدد إمتى يكون كفاية..

وأنهى المشهد باختياره.. بامتلاكه..

بسطوته التي تمكنه من إخضاعها دون مقاومة تُذكر..

في لعبته، هي لا خيار لها..

قدرها أن تكون دميته حتى يمل!..

**

أحيانًا نمر بخيارات دربها محتم، بيد قدر مهما عاندنا لن نحيد عنه، لا نملك معه سوى الخضوع؛ لأن الفراق خيار غير مطروح على طاولة مفاوضات القلب..

تعلقها به بات نعيمها الذي لا تريد مفارقته، وجودها بين ذراعيه جنتها.. قربها منه هو العالم بمن فيه..

في كل لحظة يزداد العشق، كل ذرة فيه تخلق أخرى.. يتضاعف لحد يخيفها، لكنها معه لا تخاف.. هو أمانها وملاذ روحها..

في كل لحظة حتى لحظات الغضب!..

كاللحظة الحالية بينما تقف معه بمكتبه وهو ينهي مكالمة لأخيه بحنق:

- أنت زودتها يا رائد، الصفقة دي ما ينفعش تضيع مننا..

أغلق الخط بوجهه، اعتصر جسر أنفه بإنهاك ودفن بصره في ملف بين يديه يدقق فيه، أتت من خلفه تهديه راحة بوجودها، تعيد كتفيه ليسترخي على ظهر مقعده قسرًا، تمسدهما بيديها.. ترخى رأسه بالمثل لتدلك جانبيها بأناملها في ضغطات خفيفة مريحة أنهتها بقبلة على جبينه:

- عصبيتك مش هتحل الموقف وأنت عارف..

كان مستكينًا للمساتها.. هدوءها يتسلل إليه رُغمًا عنه بحضورها، أجاب بضيق مكبوت:

- رائد مش مقدر حجم المشكلة، دي تالت صفقة يضيعها من وقت ما مسك إدارة الشركة في هامبورج.. ولو فعلا خسرناها هنخسر معاها كتير جدا..

نهض يغادر مقعده، يقترب من نافذة عريضة في جدار عن يساره، يتأمل الخارج بشرود:

- هتبقى ضربة قاضية يا دُچى..

تبعته تقف في ظهره، تدعمه بكل ما يمكنها، تربت على كتفه بتفهم:

- إن شاء المشكلة هتتحل، رائد مش جديد في مجال شغلنا، هو بس محتاج شوية دبلوماسية..

التفت إليها يتأملها قليلًا، يفكر ويغيب بصره في مجهول أقلقها..

همست باسمه باهتمام حانٍ جعله يحاوط خصرها، يتردد للحظة.. يخبرها عقبها بأفكاره التي تنم عن قرار لم يعُد منه رجعة:

- أنا لازم أسافر، أنقذ ما يمكن إنقاذه..

ربتت على صدره برفق.. ستشتاقه، لكنها ستدعمه على أية حال:

- اعمل اللي تقدر عليه..

أراحت رأسها قرب نبضه بتنهيدة:

- هتوحشني..

تغضن جبينه بدهشة متسائلة، أبعدها يرفع وجهها إليه، يغوص في عينيها بنظرة مستغربة:

- دُچى.. أنا مش هاسافر لوحدي!..

انفلتت من عناقه بحيرة شبه رافضة:

- أنت عارف إني ما ينفعش أسيب بابا لوحده يا منذر..

أعادها بأحضانه مطمئنًا، يغدق عليه بغرامه.. يشعرها بحاجته إليه.. بكرهه لفكرة الابتعاد حتى وإن كان قصيرًا مؤقتًا كما تظن:

- يبقى نقنع أبو علي يجي معانا..

وصرح بما خفي عليها، وعلى ما يبدو أنه لا مناص عنه:

- عشان إحنا غالبا هنستقر هناك!..

استنكرت تصريحه، لامته باستياء وهي تتباعد أكثر:

- وكنت هتشاركني القرار ده إمتى!..

أمسك بمرفقها يرفض ابتعادها:

- ده مش قرار، أنا لسه بفكر معاكِ دلوقتِ..

عاتبته بعينيها كأنها لا تصدق ما يقوله:

- أنت واضح إنك فكرت فعلا يا منذر..

أظهر ضيقًا طفيفًا لرفضها، ما ينتظره منها أن تكون معه.. قربه.. في ظهره بكل مساندة متاحة..

لأنها هي.. حبيبته وزوجته، وذراعه الأيمن كذلك..

ولَّاها ظهره ينظر للأفق عبر الزجاج، تلمح هي انعكاس وجهه.. عقدة حاجبيه، الغضب المكتوم والصمت الموحي بالانزعاج..

شعرت بالأسف، عادت إليه، طوقته تريح وجنتها على ظهره برقة:

- حبيبي أنا ما أقصدش إنك مش من حقك تراعي شغلك، بس بابا.. بخاف عليه من الوحدة، مالوش غيري..

استدار بين يديها، يحتوي وجهها بكفيه متفهمًا، واعيًا لما تمر به:

- أنا عارف ومقدر، بس حقي مراتي تكون جنبي..

أسند جبينه لجبينها.. يتنفسها ويهديها دفء أنفاسه:

- حبيبتي تكون دايما معايا..

ابتسمتْ بضعف عاشقة، بادلها البسمة بتوسل لطيف:

- خلاص.. هتتفاهم أنت معاه وتقنعه..

اتسعت ابتسامته براحة وصدقها القول..

بعد حديث مطول مع والدها بصحبتها أصر على الرفض.. لن يغادر وطنه، لن يبتعد عن منزل حبيبته.. تلك التي يصلها بوجوده بين جدرانه.. ثم أنهى الأمر ببتر موبخ:

- جرى إيه يا واد أنت وهي!..

ابتسم كلاهما بتعب.. خاصة وقلبها ينقبض من فكرة وحدته:

- خد مراتك يا منذر وشوف شغلك، أنا مش هاعرف آخد بالي من نفسي ولا إيه!..

قرص أذن ابنته برفق:

- أنا اللي ربيتِك وكبرتِك، أمك ما كانتش بتعرف تتصرف لما تفضلي تزني من غير سبب..

- بس...

- خلاص يا دُچى.. اسمعي الكلام، مكانك جنب جوزك، وأنا هازوركم وأنتوا تزوروني، وهافضل معاكِ على طول..

استكانت بخضوع حزين.. ارتمت بحضنه تضمه، تنشد أمانه..

تدرك حاجته إليها، ولا تنكر حاجتها إليه:

- قبل كده كانت وصال معاك..

احتواها يربت على ظهرها بحنو:

- ولما سابتني الله يرحمها قدرت أعيش لوحدي، لحد ما رجعتِ من السفر.. ما تخافيش على أبو على يا حبيبة أبو علي..

صمت تتوقف عن الجدال..

الحياة أحيانًا تجبرنا على مسار محدد لا يمكن أن نزيغ عنه..

مسار قلب اختار العشق، آمن به.. وصدَّق عليه، مُوقعًا صك الامتلاك حتى النهاية..

**

الاختيار لحظة..

ذاك أدركه..

كما الفداء..

الغياب.. العودة..

والموت!..

الشمس اختارتْ المغيب بإرادتها..

أسبوع مر ولم تفتح عينيها، لم تفِق رُغم أنها بخير.. أخبره الطبيب بحيادية عملية:

- مافيش أي سبب عضوي لاستمرارها في الغيبوبة..

ثم وازى رحيل خطواته سببها الحقيقي بتخمين بغيض:

- السبب في الغالب نفسي، الغيبوبة من اختيارها..

ويتجدد الاختيار..

لكنها هذه المرة لم تختره، اختارت الفرار منه.. من شرير حكايتها الذي رسمته كوحش مخلوق من نار..

فضَّلت ظلام وحدتها ووحشتها على قربه..

أو ربما هي ليست في عتمة موحشة، هي مع معشوقها.. لم تتخلَ عنه يومًا في صحو أو منام، فلمَ لن تكون معه!..

صغيرها الضائع من دونها..

توأميها وإياه..

هو.. هي..

مشاهد متتابعة تلاحمت أمام بصره، تزاحمت بخياله، تصارعت بعقله المجهد.. قلبه النابض بمباغتة كأنما يُعلمه بقسوة أنه لا يزال بشرًا؛ متعب..

في كل سقوط تسحبه معها أكثر، وحتى الآن لم يصل للقاع بعد!..

تجبره على الاستسلام لجاذبية عالمها..

توهن دواخله، تسبب الاضطراب لحواسه وأفكاره..

تخضعه بشراسة كما أخضعها في سالف زمان ليس ببعيد..

وخضع.. أذعن فقط لأن ذاك مساره الوحيد المتاح!..

نقلها بسيارة إسعاف مجهزة لمشفى خاص بالقاهرة حتى تصبح أقرب إليه..

الأيام تمر ببطء مرير.. بطء قاتل كأنما تتلاعب به..

بثباته.. بوحشيته..

تناوشه، كمن يغرس عصى مدببة في قلب وحش جريح سجين فخ مطبق عليه، وكل حركة منه.. كل محاولة للنجاة.. للتملص، لا تزيده إلا ألمًا فوق ألم..

أنينه يكبته ككل شعور..

كخوف باهت انتابه مع تجدد حبس الأخ الأكبر على ذمة تحقيق رصاصة أطلقها هو..

كارتباك أصابه مع نظرة الزوجة العائدة بطفلها الرضيع، تلومه لتصديقه على اعتراف زوجها.. تقولها دون حروف..

"أنت السبب"..

كجمود يصيبه بصحبة جده مع معرفته بفداء أخيه.. بفدائها، بعينين تنظران إليه ولا ترياه على حقيقته.. ورفق يراه ولا يريده.. يرفضه..

يكره ضعفه..

يكره كل شيء..

يكره العالم بأكمله.. بمن فيه، حتى هي..

يمقت عجزه..

يود لو يقتلها.. لقد قتل قبلها ولم يطرف له جفن!..

ثم يرمق بطنها، يتخيل طفليه برحمها..

يشتهي الصراخ.. يريد النار..

يرغب في نجاة من دوامة مشاعر تصر على ابتلاعه بلا رحمة..

الشيطان لا يتأثر.. لا قلب له.. لا هفوات أو زلات..

الشيطان جحيم مروع لا مهرب منه..

لكنها باختيار الغياب على العودة إليه حتى وإن كان طفلها عالقٌ بالمنتصف؛ أطفأته!..

ذاك الجحيم الذي هو موطنه، مسكنه، أمانه، مملكته..

بات رمادًا يخترق روحه..

روحه المتعبة على الدوام..

روحه التي أتت هي ونبشت قبرها بحضور غامض، انتزعت التابوت ونثرت عنه التراب.. فتحته وحررتها..

ثم تركتها خارجه على قيد شبه حياة!..

(37)

الحياة مسلسل درامي ممل..

أبطاله في خروج دائم عن النص!..

**

البعض منا يراهن على أسوأ ما فيه لينجو..

يتشبث بجانبه المظلم، حيث جحيمه أكثر أمانًا من جنة لم يصبُ إليها في يوم، جاهد ليتخطى عتباتها لمرة فكان النبذ من نصيبه..

بعدها اجتبى السعير على كل فردوس..

ورُغم أن الشيطان أول العصاة؛ إلا أنه مازال يأمل في النعيم.. حتى وإن وسوس لكل البشر ممنيًا شهواتهم بإشباع تتبعه مغفرة..

يخطئ الإنسان ويهمسها بقلبه وعقله، الله غفور رحيم.. كأنما عفوه ورحمته ليسا فضلًا من خالقه، بل هما له حق، حق يتجاهل السعي إليه، فيسلك أقصر الطرق وأسهلها نحو عذاب لا مفر منه..

لكن الحقيقة صديقي البشري؛ أنت لستَ سوى خُلاصة، حاصل جمع أو طرح لمعادلة مباشرة للغاية..

الخير.. الشر.. والناتج أنت!..

ناتجًا ظنه قد علمه منذ دهر، استقر عليه وتواصل معه.. تشبث به، تجاهل ما سواه، رأى أن الشيطان يعمل بنصف دوام فاحتل عرشه وقام بمهامه..

بات حليفه، أهداه روحه كعربون سلام، دُفعة مقدمة تُملكه من الجحيم.. وتحترق فيه بذات الوقت، بزمن الخلود..

مهما تعاقب على بشريته من ضغوط لم تتحرر من سواد قلبه، من عتمة نفسه وظلمة خياراته.. إلى ما حدث قبل أيام!..

زوجته افتدته.. أخيه فعل بالمثل..

والقدر يمنحه هدية!..

توأميه..

هل نُختبر بالنعم كما الابتلاءات!..

ربما نعم، فالقلب يرِق بالرغبة كما يرتجف بالرهبة..

انهارت وحشيته فوق رأسه، تعلنها له صريحة.. أنت يا عزيزي الشيطان؛ مازال بقلبك نبض..

بروحك وحشة تنشد السكن..

بداخلك غربة تستجدي الوطن..

مهما عاندتَ، اعترضتَ واستنكرتَ.. غضبتَ واهتجتَ ورفضتَ؛ أنت تحتاج أن تنتمي لأحدهم؛ أو.. أن ينتمي أحدهم إليك..

مازلتَ تطمح للجنة وإن أنكرت!..

تأمل القابع أمامه بسكون يوازي سكونه وتأمله، لقاء العينين ثابت، لا يهتز أو يتهرب، خمس دقائق انتهت بلا كلمة واحدة إلا من السلام والاطمئنان على الزوجة في غيبوبتها الاختيارية..

ابتسم "يزن" كمحاولة لتلطيف المشهد الواجم:

- أنا مش عاوز شكر على فكرة..

لم يبتعد "يعقوب" بعينيه.. لم تتبدل فيه هفوة أو تهتز ببدنه المتصلب شعرة، حتى خلاياه بدت وكأنها توقفت عن الحياة احترامًا لصورة لم تطُف بخيال صاحبها البتة:

- وأنا مش جاي أشكرك..

- أمال جاي ليه!..

سارع بها أسير خطئه هو..

خطأ تعمده.. لقد أراد قتل ذلك الوغد وفعلها!..

غامتْ نظرته مع الذكرى، غرقت في ظلامها متخلية عن التشبث بنظرة أخيه:

- ليه عملت كده!..

السؤال غير هين وإن كان الجواب فطرة!..

لمَ افتداه؟..

كل الأفكار التي تناسب التحليل، السعي للتفتيش عن دافع.. عن سبب يتماشى مع علاقتهما التي لا تزال على حالها من التباعد

والجمود.. كلها غير منطقية، المنطق بعقله استقر في أحرف محدودة كونت كلماته التي أتت من قلبه مباشرة دون أن تمر بتنقية العقل وتشذيبه:

- عشان أنت أخويا الصغير، وواجبي أحميك..

اهتزتْ حدقتاه، رجفة غير مرئية بدأتْ وانتهتْ في أقل من لحظة.. بعدها قست عيناه، قست بتعنت.. بصرامة فظة:

- الشيطان مش محتاج حماية..

مط "يزن" شفتيه ببديهية هادئة، يصر على إيقاظ إنسانيته من غفوتها:

- البشر بيحتاجوها..

لكنه لا يعلم أن الغفوة لم تكن سوى موت لن تعود بإثره أنفاس حياة..

تجاهل الأكبر حديثًا يوقن من كونه يضغط كل أوتار غضب الأصغر، يريد أن يشعره باهتمامه.. بوجوده.. بدعمه.. بأخوته!..

ولا يريد أن يلقي ذاك كله بوجهه دفعة واحدة فيجبره الخوف، على الرفض.. سأله باهتمام حقيقي ونبرة مهادنة:

- جبت المسدس منين!..

ارتسمت بسمة ساخرة عند طرف فم "يعقوب" بينما يتذكر ويجيب بثبات بارد:

- مرخص.. باسمي..

عقد "يزن" حاجبيه مندهشًا، مرتابًا، تلك النقطة لم يعلمها مع التحقيقات رُغم أن أخيه أدلى بأقواله بالفعل!.. ريبته دفعت أخيه لإيضاح مقتضب، متهكم مكررًا كلمات جده منذ ما يقرب من عام:

- اسم أبو الغار بيفتح أبواب كتير..

اعتدل "يزن" في جلسته متحفزًا:

- ورخصته ليه!..

رد "يعقوب" باستهانة تشبهه:

- حماية..

جوابه دفع بالاستغراب لعقل الأخ الأكبر أكثر فأكثر..

لمَ يحتاج لحماية، وممن!..

وإن كان يريدها حقًا، فاستئجار خدمات شركات الأمن أمر سهل:

- بتحمي نفسك من مين!..

استهجن الأصغر رد فعله بأكمله، استقام بنية الرحيل:

- مجرد عادة يا يزن..

واجهه يحسم مخاوفه، يوقفه قبل أن يشبع قلقه بطمأنة:

- كان ممكن نستخدم حراسة..

رفع "يعقوب" حاجبيه بافتعال دهشة هازئة:

- مش للدرجة دي، أنا متعود أحمي نفسي بنفسي..

كلماته تؤكد على وحدته، تباعده عن الجميع..رغبته في عزلة فرضها عليه قدره، ألفها، تعايش معها.. وبات يبغض كل ما هو سواها..

اختارها بإرادته الحرة واستمر معها..

تساءل لوهلة بفضول، كيف أجاد إطلاق الرصاص لهذه الدرجة!

حول سؤاله لمنطوق جاءه الجواب عنه صادمًا:

- مش هتفرق، المهم إنه مات..

اقترب منه "يزن" خطوة، نبرته تحتد بتوجس:

- أنت قصدت تقتله!..

غاص "يعقوب" بعينيه التي تشبه خاصته.. ذات اللون، البريق القاتم.. والقسوة!..

ماذا لو علم أنه من قتل توأمه؛ أكان ليقتله مائة مرة بنفسه!..

لم يُجِبه، ترك الحقيقة معلقة بين سماء الفضول وأرض الكذب..

تعمد قتله برصاصة حاسمة.. ولو عاد للمشهد مرارًا وتكرارًا؛ لفعلها.. ضيَّق ما بين جفنيه ونظرته تتماهى في غموض مثير للحنق:

- مش لازم تعرف..

كأنما نطق بـ"نعم".. ربما لم يكن عليه أن يسأل!..

خلل "يزن" خصلاته بأصابعه وإرهاقه يسيطر عليه.. منذ حبسه على ذمة التحقيقات ورُغم ثقته في نجاته قريبًا إلا أنه لا يرتاح، حتى وإن بقي بغرفة أحد الضباط ولم تحتجزه قضبان المجرمين..

هاتفه جده عدة مرات، طمأنه أنه من يسيطر الآن.. سيحرره مهما كان الثمن، عادت زوجته من السفر، تزوره كل يومين، لكن الراحة بعيدة عن متناول يديه..

رمق ملامح أخيه الصلبة بعاطفة تناوش قلبه نحوه ولا يدري لمَ!..

منذ رأى ضعفه.. خوفه.. ارتباكه، شعر به إنسانًا..

- تفتكر ممكن في يوم تحكي عن اللي مريت بيه!.. نبقى إخوات عاديين!..

أصاب منه وترًا ثانيًا.. شده ولو ضغط أكثر سينقطع..

بهتت نظرته القاتمة، احتلها فضول مباغت لم يدُم لثوانٍ كأنما تخيل وقتل الخيال في المهد:

- تفتكر أنت!..

اقترب "يزن" يوازيه ببسمة حانية:

- باتمنى..

شتته أكثر.. راقب جبينه يتغضن.. بغضب، بألم، باحتجاج منزعج..

راقبه يخطو للخلف، يدور على عقبيه ويمد يده نحو مقبض الباب، ناداه بمشاكسة غريبة:

- يعقوب..

تجمدت قبضته دون أن تدير المقبض، لم يستدِر، ظل على وقفته حتى أردف أخيه بنفس اللهجة:

- لو حكموا عليَّ بالإعدام إوعى تسيب رقبة أخوك الكبير لحبل المشنقة..

كثير من الانفعالات اقتحمته..

مشوشة، فوضوية، عبثية.. مقيتة..

لكن آخرها كان بسمة!..

بسمة خالية من المنغصات ارتسمت على شفتيه قبل أن يفتح الباب ويصطدم بها..

الزوجة التي أتت تزور زوجها في محبسه..

تصلب وجهها وهي تراه، رمته بنظرة فاترة بها شيء من غضب، يخالطه مواساة وتفهم.. هي مثله، تترك لعاطفتها اللجام أحيانًا..

أفسح لها فتخطته بلا اكتراث، أغلق الباب من ورائه وارتمت هي بأحضان حبيبها، تضمه بتعلق.. بقوة واشتياق:

- وحشتني..

ربت على ظهرها برفق وشفتيه تلامسان خصلاتها، يتمتم في أذنها:

- لو فضلتِ في حضني خمس ثواني كمان هتبقى فضيحة..

لكمت كتفه دون أن تتخلى عن ضمته:

- ما تقدرش، وما باتهددش..

أبعدها عنوة، غرق بإثرها وأغرقها معه في قبلة انقطعت لها أنفاسها قبل أن تتملص منه:

- يا مجنون..

ارتكن بجبينه لجبينها يخبرها بشقاوة وقحة:

- فعل فاضح في مكتب سيادة المقدم عادل وهدان..

وكزت صدره بيدها في رقة:

- قليل الأدب..

أمسك بيدها يلثم باطنها:

- وفي قسم الشرطة..

تراجعتْ تبتعد عنه، على ما يبدو أنه لن يتوقف عن التحرش بها مادامت بين ذراعيه، أشارت للحقائب التي أتت بها:

- ده الأكل اللي بتحبه.. دادة بهجة عملتهولك بنفسها..

جذبته تجاوره على أريكة جلدية في ركن الغرفة:

- أولا زين بيسلم عليك.. ثانيا جدو يونس قال لي أبلغك إن أستاذ كامل بيقول خلاص، ممكن خلال أيام الموضوع يتقفل لأن عيلة داوود بتحاول تلم الفضيحة..

ومالتْ نحوه تهمس له بخفوت كأنما تخبره سرًا حربيًا:

- بيقولوا الصحافة وصلت لتسريب إن داوود ده كان محجوز في مصحة برا أكتر من سنة ونص، والموضوع لو اتفتح هتبقى كارثة..

كانت جميلة.. دافئة.. لطيفة.. كهرة ناعمة تداعبه ويداعبها..

لم ينصت لكلماتها وإن استوعبها، كل ما أراده أن يعيدها لأحضانه..

فقط ليطمئن قلبه..

استجاب لرغبته بلا إبطاء، جرها بغتة فسقطت فوق صدره، ضمها وتنهد بهمس تائق:

- خليكي في حضني..

استكانت للحظات تدرك احتياجه الذي يشبه ما بقلبها، ابتعدت بعدها بألم:

- هتخرج قريب ونبقى مع بعض..

تقوس فمه بحزن مداعب يشوبه مكره الذي تحبه:

- طيب تصبيرة لحد ما أخرج..

توسعت عيناها تنهره بخجل وبصرها يتجول في المكان بقلق:

- يزن!..

- بوسة واحدة..

عادتْ إليه ترمقه بنظرة مغتاظة:

- ارحم نفسك..

غمزها بعبثه مخففًا من حدة الموقف كما يفعل في كل مرة:

- لما أخرج من هنا مش هارحمك..

وأعادها قرب قلبه متجاهلًا همستها الحانقة:

- سافل..

بعض الألم يزول بشيء من حب..

يداويه القرب، وإن مزَّقه الشوق..

ترياقه أمل، حتى وإن بَعُد.. والشفاء منه أمنية رُغم الخوف..

**

بعض الحكايا يليق بها الخيال دون سواه..

حكايا الغرام خاصة، لا تنشق عن دروبه حتى وإن كانت في وقت ما حقيقية..

كالأساطير تمامًا؛ اكتسبت ملحمية خلودها من دماء عشاقها، من سعيهم الوجودي الحثيث خلف وهم الكينونة والذات والوطن..

حتى أنه في الأساطير قامت الحروب لأجل امرأة..

لأجل عشق!..

سيمفونية بإيقاع جذاب، مثير للفضول، عاطفي بامتياز، يعلو وينخفض كنبض القلب بين يدي عاشق..

مسرح أنيق، مزين بأشجار ليلة الميلاد، جليد يتساقط فيغمره بنعومة، و... هي..

تركض بين الأشجار، تدور، تقفز، تهبط، وأطراف أصابعها لا تكاد تلامس الأرض..

ترقص على عزف قوي مشتعل يهدي روحها الحياة..

وكأن أوركسترا العازفين تتكون من اختلاجات كيانها، من دقات خافقها الذي نسي كيف كانت هي الجنية في ليلة حلم!..

يغدو اللحن برفق نحو رقة، تقف بثبات.. تتهادى ببطء.. تلتف حول نفسها، أقصى يمين وتحلق نحو السماء..

ترفع وجهها للجليد، تستقبله بابتسامة، تعدو نحو اليسار، وذراعيها تنفردان مع وثبة أقرب لفراشة..

لطير حر، أخيرًا عادت له قدرته على الطيران.. فحلَّق وابتعد قدر ما أمكنه.. مع انخفاض الإيقاع، سكونه.. سكن جسدها في وقفة ثابتة، سقط بصرها على مقاعد جمهورها المراقب..

كانت كلها خالية!..

الضوء يغمرها دون سواها، لكن في الظلام البعيد كان هناك مُشاهدًا، انتقى مقعدًا عاليًا لا يصله بصيص نور، يشبه عتمة تعرفها ولا تدري من أين!..

كأنما كل ذاكرتها مُحيت قبل هذه اللحظة.. لكن من يهتم!..

هي جنية فوق مسرح استحوذت وحدها على بطولته..

وهو كيان غائب في ظل لا يظهر تفاصيله..

كيان راقبته بخوف.. بتردد، كان وحده يحتل منصب جمهور العرض.. يتأملها تنهي رقصتها بدوران طويل واسع، تسقط.. تنطوي وتضم جسدها كبتلات زهرة حين الغروب في استسلام للراحة..

ينهض من مقعده.. يصفق بإيقاع بطيء مفتون، أجبرها على اقتراب كمسحورة، خائفة مما خلف الظل الغامض!..

تتساءل أين هي!..

من هو!..

كيف أتت إلى مسرح رقصاتها القديم!..

بل كيف ترقص كما لم تفعل من قبل!..

خطوة..

دقات قلبها تتصاعد كأنما تأمرها بركض في اتجاه مخالف..

ثانية..

أنفاسها يضيق بها صدرها، تبتلعها في شهيق مختنق وتزفرها بعسر..

ثالثة..

شيء من نور مسلطٌ عليها، دائرة تتبعها أينما حلت..

رابعة..

دخل معها في دائرة الضوء!..

"يامن!"..

صرخ بها القلب، هتفتْ بها النبرة، ناجته بها الدموع.. ابتسم وتحرك يهديها سلام روحها بقربه، يضم كفيها بين يديه، يقبل كليهما ويجيبها بعشق:

- جنية الخيال..

لم تصدق أنه هنا.. معها.. تلمسه، تستشعر دفء ضمة أصابعه وخشونتها حول معصميها.. جذبها لصدره، التصقتْ به ببديهية، رفعتْ وجهها إليه، تسأل بدهشة حالمة:

- إحنا فين!..

بهمس ناعم قرب أذنها داعب الأمنية المستحيلة:

- في الجنة..

وجنة عالمها التي لا تشتهي سواها تكمن هنا، معه، بين ذراعيه، بملاذ ضمته الآمن، وبملجأ عشقه الذي يحميها من جُل خوف ويقيها من كل سوء..

سحبته لغرفة تبديل الثياب، جرَّته للداخل ووقفت أمامه تلهث.. نبضها يتسارع في حرب جنونية، يعلو بصليل سيوف الهوى ويذبح كل شعور يغايره.. يذبح الرفض والهلع والحزن..

بدلتْ ثوبها سريعًا وعادتْ إليه، سألته بانفعال طفولي عجيب كأنما امتلكتْ بهجة الدنيا بلا موعد محدد أو سابق إشعار:

- هنروح فين دلوقتِ!..

بسمته لم تفارق شفتيه منذ رآها، دنا منها يلثم جبينها، يطويها تحت ذراعه ويسير معها:

- هنروح بيتنا..

في ومضة خاطفة وجدت نفسها معه بعشهما الصغير، رمشت بحيرة تجاهلها وهو يخبرها:

- كنت فوت رقصة الجنية الصولو أول مرة، فكان لازم أشوفها..

حاوطتْ وجهه بكفيها، تغوص في حلكة عينيه، تطوف حول ملامحه باشتياق.. بتوق.. بلهفة عاشقة يائسة، وحيدة..

تتلمس خشونة ذقنه، ترجع بأصابعها نحو خصلاته الطويلة، ترتبها في غير تصديق:

- أنت حقيقة!..

طوق خصرها وشدها إليه أقرب:

- لو أنتِ عاوزاني حقيقة؛ هاكون..

غرقت فيه بعاطفة:

- إزاي!..

حرر إحدى يديه، غطى بها كفها التي لاتزال عند وجنته، ضغطها فشعرت بذقنه توخز بشرتها، ابتسمتْ بحب، قربها ليغوص بشفتيه في باطنها، يتتبع خطوطها، يقبلها بتملك دمعتْ له عيناها:

- خليكي معايا.. للأبد..

ترددتْ لحظة.. كانت لحظة رهبة غريبة، شيء من خوف..

لحظة استنكرتها؛ كيف تخاف وهي في حضرة من تحب!..

انطوتْ اللحظة كما يناسبها من الزمن، انتهتْ.. وأتت التالية بها تعانقه، تشب لتلتحم به، تطوقه باطمئنان مفقود منذ عمر مرَّ دونه:

- هافضل معاك.. للأبد..

وتنفست براحة.. ارتفع صدرها وانخفض بنفس عميق لمحه هو!..

الجالس جوار فراشها بلا ملمح من حياة يتحتم ظهوره عليه..

يتأملها بعين صخرية، بملامح حجرية، ببرود قطبي.. كل ما يبدو عليه هو الجمود.. لكن الجحيم بداخله مستعر لا تطفو منه شرارة واحدة إلى السطح..

تسعة عشر يومًا ولم تستفِق، لم تعُد.. يوقن بلا شك أنها ترفض العودة.. يفند رفضها، يحلل اختيارها..

كرهها له.. رغبتها في الهروب منه، الابتعاد عنه..

قرب حبيب متوقع في أحلام لن تهجر دنيا الوهم، وهي الحمقاء التي تصدق فيها وتتشبث بها..

والذنب!..

الشمس لن تتحمل إثم موت، إثم دمار كوكب كان في مدارها يومًا.. كل وعي منه بما قد يجول في منامها يحرقه، في هروبها منه تركتْ طفلها؛ كان ثمنًا قبلت دفعه بصدر رحب علَّها تستريح من وجوده.. وذاك يؤجج غضبه.. يثير جنونه ويكبته..

الثمن باهظ.. لكنها قدمته على أن تكون معه، حتى وهي تعلم بحملها لثمرته..

مع مرور الفكرة بعقله أبعد عينيه عن وجهها، أسقط بصره على بطنها، بدأت شهرها الثالث قبل خمسة أيام كما أخبره الطبيب.. دقق النظر كأنما لو أطاله لشهد نطفته تنمو بأحشائها..

أكد طبيبها أن التوأم اثنين، لم يحدد جنسهما بعد لكن ربما خلال شهر سيمكنه ذلك..

ترك له خيالاته.. احتراقه.. وأفكاره التي تدور حولهما، يحجمها، يخشاها.. يجبُن في يوم كأنما يرتعب من مستقبل سيكون فيه أبًا..

ويشتعل في ثانٍ، لكونها تخلت عن أمومتها فرارًا منه!..

ابتسم بقسوة عائدًا بناظريه لوجهها، تمهل حول ملامحها.. تجول بينها بتأنٍ، جبينها، أنفها المستقيم بشموخ يليق بشمس السماء، وجنتيها وذقنها الصغير.. ثم استقر عند شفتيها..

مسح وجهه بزفرة متقطعة، استقام يغادر.. انقضتْ الثلاثون دقيقة التي يقضيها معها كل يوم، مد يده يساوي خصلة عند جبهتها، يرميها بنظرة محتدمة يود لو يحرقها بها.. ويرحل..

يعود للمنزل، يلمح جده الذي بدأ في تدريبات علاجه الفيزيائي قبل أيام، يرتكن لمشى صنع خصيصًا لأجله بصحبة مدربه، تتلاقى الأعين بلا عازل أو حجاب..

يدور بينها حديث بات يمقته..

"هترجع"..

"مش مهم"..

"ماتضحكش على نفسك، أنت عاوزها ترجع"..

"التخلي أحسن من التمسك"..

وكان على حق، فكل أمل وهمي ما هو إلا خديعة الأمنيات لعقولنا، خديعة تدفعنا نحو الاستمرار والتعايش فقط لأنه سنة الكون..

"الشيطان بيهرب لأنه خايف!"..

"الشيطان بيختار القسوة والجحود في كل مرة"..

"أنت بشر، مهما قسيت هيكون لك نقطة ضعف"..

"أنا سيطرت على ضعفي من زمان"..

هنا ارتسمت بسمة باهتة بنظرة الجد الذي خبر من الحياة ثلاثة أضعاف عمر حفيده..

"ميزة الخوف، إنه دايما بيلاقي ثغرة يرجع منها؛ ساعتها لازم تستسلم"..

"أستسلم للخوف!"..

ونظرة الحفيد تسخر.. تتهكم.. تتوحش بظلام مستحق..

"أيوة.. عشان وقتها تقدر تواجه، الشجاعة مش في الرفض، الشجاعة في الاعتراف بوجوده ومواجهته"..

دقيقتين، ختامهما يتناسب مع الحوت العجوز الذي عادتْ إليه سطوته، والثعلب المتأصل فيه مكره ووحدته..

توجهتْ خطواته لمعتزله، خلع سترته والجو تناوشه حرارة ربيعية يشوبها بعض من تراب بغيض، استقر بمقعده.. على طاولته تناول أدواته وبدأ العمل..

كانت هي تحتل خياله وأفكاره..

نحتها بلا توقف..

حزينة.. نائمة.. بعيدة..

بعيدة للغاية كبُعد الشمس عن كل كوكب، لو اقتربتْ منه لاحترق!..

**

الرحيل قرار لا يسهل تنفيذه..

نكابر مع أنفسنا، نعاند مع قلوبنا.. نتحدى أهواءنا، ونختار الفراق لأن المعادلة اكتملتْ دوننا..

معادلته لا تشملها، هو وعشق قديم..

هو وطعنة ظهر..

هو وخديعة، خيانة، غدر، ألم..

هو ومن رحَّلها عن دنياه وإن لم يُرحِّلها عن قلبه..

بعضنا يتشبث بواجهته الصلبة لأن ما وراءها هش.. سبق وتهشم، شروخه جلية لا تخطئها عين.. خادشة لا تجرح سوى صاحبها..

ما وراءها انكسر في سالف عهد برواية لم تكتمل..

أحيانًا تفكر، يبدو أن كل رواياتها بلا خواتيم، تنتهي من المنتصف ببتر يشبه انكسارها.. حتى وإن كان انفصام عقدة السرد من اختيارها، تظل الحبكة بيد القدر..

قدر حرمها أمومتها..

رضيت وعاشت بنصف روح، عوضها بطفلين من نعيم الجنة..

ثم كتب عليها الحرمان مرة ثانية، داهسًا في طريقه النصف الآخر..

داهسًا فؤادها الذي سقط وتحطم تحت قدمي رجل لا يكترث.. لا يشعر به.. لا يراه من الأساس..

أعلنت له رغبتها ومرت الأيام بها تائهة، تدور في دوامة عملها الذي وضعته في نصابه الصحيح.. حياتها في هذا البيت مجرد عمل، تعتني بالصغيرين، تتلاشى في حضوره، وتنطوي وحيدة كل ليلة حتى في أحلامها..

توقن من كونه يماطل، وتستجيب لمماطلته بلا وعي حتى تبقى قربهما..

لكن بعد ثلاثة أيام هناك تاريخ مميز.. ربما سيكون الأول من نوعه والأخير، ويمكن أن تقضيه معهما..

ذكرى ميلاد الفتي الجميل الذي تعلق بها وتعلقتْ به..

كانت جالسة على الأرض تجاور شقيقته، تفتشان معًا عن هدية مناسبة لم يحصل عليها بعد خاصة وأبيه لا يبخل على كليهما بشيء..

رمقت الصغيرة المحبطة بتفكير قبل أن تسألها:

- كل الألعاب عنده يا ضي..

عقدتْ الفتاة ذراعيها ببؤس غاضب:

- أيوة كلها، مش عارفة أجيب له إيه!..

حاولتْ دفع الفكرة بعقلها لتظهر وكأنها منها:

- طيب الكتب، باهي بيحب القصص..

صمتت الطفلة للحظات برقت عقبها عيناها بوهج آسر شاب زرقتها بسحر يشبه موجات مقلتي والدها..

نفضت رأسها تنهر عقلها، توبخه على الشرود فيه بينما تستمع إليها:

- عندي فكرة.. باهي بيحب batman، هاجيب له المجموعة بتاعته كلها..

رفعت "رحيل" حاجبيها بدهشة حقيقية:

- كلها!..

- Yes..

ركضتْ تجاه غرفة مكتب والدها الذي كان قد عاد قبل نصف ساعة من الخارج، تجاهلتْ "رحيل" دهشتها وهي تتابعها ببصرها حتى غابت عنها؛ لقد نسيت للحظة من هو والدها..

"وجيه نصار"..

الرجل الذي بإمكانه أن يأتي لطفليه بنجمة من عقر السماء إن أراداها..

كان منكبًا على عمل ما عبر مكالمة هاتفية دولية، وقد قابل صديقه السجين بتهمة قتل يعلم أنه لم يرتكبها حتى وإن كانت دفاعًا عن النفس والشرف.. لمح ابنته فأشار إليها ببسمة، اقتربتْ تخبره بحسم لا يناسب عمرها:

- عرفت هاجيب إيه لباهي!..

أنهى المكالمة بعد دقيقة تالية ثم أنصت إليها..

وكما توقعت الزوجة المنسية، عقب يومين وقبل بداية الثالث الذي هو اليوم المنشود كانت الهدية حاضرة.. كاملة.. مغلفة بعناية أنيقة..

تشاغلت هي عنهما بتحضيرات الحفل، دعت كل أصدقاء الصغير.. اختارت موضوع حفل ميلاده كما ثيابه من عالم القصص المصورة وبطله المفضل "Batman"..

كعكة ضخمة كاملة من الشيكولاتة التي يحبها..

وهديتها كانت مصباحًا جانبيًا للفراش بشكل بطله الأوحد..

انتهى اليوم بمرحه وصخبه، تخطت الساعة العاشرة مساءً، ومع لعبه وإجهاده لساعات طويلة نام الفتى على ساقيها بغرفة المعيشة..

نهضت تحمله بأحضانها، تريح رأسه على كتفها وتشير لشقيقته أن تتبعها، صعدت للطابق الثاني حين غادر هو مكتبه ولمحها..

راقب خطواتها.. حنوها.. دفئها، عنايتها بابنيه.. كان قاسيًا معها في كل مرة، أذاها، آذى روحها.. وهي التي بذلت الكثير لتعوض طفليه عما فقداه، فلم تجد منه سوى النكران والجحود..

تبعها، ظل واقفًا في الممر الواسع بين الغرف حتى أنهتْ مهمتها وخرجتْ تغلق الباب خلفها برفق، وجدته ينتظرها.. ولم تقاوم دقة قلب مازال يتعافى من عشقه الأحمق..

وقفت تواجهه، يضع كفيه بجيبي سرواله ويبتسم بجاذبية أبعدتْ عينيها عنها:

- أنا فعلا مش عارف أشكرك إزاي يا رحيل!..

همهمتْ بلا معنى واضح، أكمل هو متجاهلًا صمتها ورغبتها الجلية في الإختفاء من أمامه:

- يمكن أكون ظلمتك بجوازنا لما خبيت عنك حقيقة الوضع بينا، بس وجودك في حياة الولاد فرق معاهم..

وصمت لحظة استأنف بعدها بخفوت:

- ومعايا..

استقبلتْ امتنانه وعرفانه بجميل حضورها بصمت.. برسمية أتقنتها مع مرور الأيام بصحبته:

- العفو.. دي وظيفتي..

زم شفتيه بضيق غاضب:

- رحيل!..

تراجعت خطوة حازمة ونبرتها تنتهج ذات الدرب الباتر:

- اليوم ده رغم كل المشاعر اللي فيه؛ ما غيرش قراري..

تجاوزته تجاه غرفتها، تُسقط مقصلة الرفض تجذ عنق كل قرب يظنه سيجبرها على البقاء:

- من فضلك؛ بلاش الضغط على حاجة أنت معتقد إنها نقطة ضعفي..

تجاوزته تتهمه بالاستغلال.. باللعب دون شرف..

تجاوزته كما تجاوزت كل ألم فات..

كل فقد.. كل خسارة.. كل حرمان..

**

في كل حكاية تخصك لن ينال شرف البطولة سواك..

أنت الضحية، المجني عليه، المظلوم.. المقتص بحق لن يتنازل عنه مهما قسا وتجبر وطغى..

مبدؤك الأوحد؛ لا مبدأ.. واللعبة لا يناسبها الشرف مهما طالت، أو مللتَ أنت.. لكنه لم يمل بعد ولا يدري لمَ!..

الوقت يمر، معها، خلالها، دونها.. علاقتهما لا ينكر غرابتها، تفردها.. استمتاعه بها، مناوشاتهما التي تناسب لاعبين محترفين، وحماقتها التي تظهر أحيانًا فتدلل على أنثى لم تَسلم من قيود العاطفة وإن سعت لذلك..

يقال أن الكره مجرد وجه آخر للحب، هي لفظتها صريحة قبل يومين، أحبته.. كرهته، وتلك المشاعر تضعفها بإيجابيتها وسلبيتها..

تدعي القوة، وتنسجم معه في قرب شغوف يستغربه..

تضعُف بأحضانه، ثم بعد كل لقاء تنهض هاربة كأنما تمقت ضعفها ذاك.. وهو متلذذ بتتابع انفعالاتها، بتوالي انكساراتها، ببهوت لمعة عينيها في حضرته..

قبل أسبوع سافر لعمل ما، غاب لخمسة أيام، عندما عاد كان يعلم أن استقبالها سيكون حافلًا.. وكان!..

ليلة طويلة لم تنتهِ حتى الصباح الباكر، استيقظ قبلها، غادر الفراش يتأملها.. يبتسم بثبات وتملُك، يذهب لعمله دون وداعها أو محاولة إفاقتها..

يخبرها أنها ببساطة محض أداة لمتعته، ومتى ما انتهى منها سيرحل عنها بلا اكتراث..

كعاهرة بورقة شرعية حسب ما تتطلب مزاجيته!..

أما هي فتتجاهل، تستجيب، تقترب كلما اقترب، تتباعد عندما يبتعد.. وتترك له زمام السيطرة بأريحية تريبه منذ بدأتْ عهدها معها..

يشك.. يحتاط، لا يعلم من أين ستأتي الضربة لكنها آتية لا محالة، يمر بصحبتها في دروب المتعة كما تشاء ويشتهي.. تاركًا الغد للغد..

حتى وإن ظل الأمس عائقًا بينهما، سدًا حصينًا عاليًا لن يباح تخطيه في يوم..

نهاية الأسبوع، يختار تمضيتها في النادي حيث ملعب الإسكواش وصديق متمرس في اللعبة، يجاريه، يهزمه.. ولا يسمح له بهزيمته..

لكن هذا الأسبوع الصديق اعتذر، فقرر بعنجهية أن يتحدى نفسه!..

يضرب كرته، وبرشاقة يركض للجهة المعاكسة، يتلقاها، يرسلها بعنف وقوة للجدار.. فترتد لأبعد مسافة عنه، وعدوه لا يتوقف.. لياقته ساعدته لإنهاء مباراة قصيرة كان فيها خصمًا لذاته..

توقف يتجرع بعض الماء، يجفف عرقه ويستعد لضربة إرسال جديدة كانت هي حاضرة لتقطعها وتقطع تواصله مع لعبته:

- ممكن أشاركك اللعب!..

لم يلتفت إليها وقد عرفها مع أول كلماتها، مط شفتيه بزفرة ضائقة:

- آنسة لينا.. واضح إنك هتنزلي من الحنفية فعلا..

ضحكتْ بخفة، وازته بثوب قصير يكشف أكثر مما يجب، تعقص خصلاتها الكثيفة في ذيل حصان وترمقه بتحدٍ..

ابتسمتْ بشقاوتها المعتادة:

- أنا مش متمرسة، بس ممكن أجرب..

أرسل كرته بغتة فارتدتْ نحوها، كادت تصطدم بوجهها لولا أن تفادتها ولاحقتها بمضربها في عجالة..

بعدها بدأتْ مباراة ناله بنهايتها هزيمة!..

وقف يواجهها، يرمق خطوات اقترابها منه بمرح مستفز:

- كان المفروض أعمل رهان قبل ما أبدأ اللعب..

وأدارت المضرب في يدها بحركة بارعة:

- لو كسبتك تعمل صفقة مع شركتنا..

خرج من الملعب الزجاجي متوجهًا نحو مقعد قريب ترك فوقه حقيبته، سحب منها منشفة مسح بها وجهه وعنقه، فك عصابة رأسه فانسابت خصلة مبللة بعرقه تلتصق بجبينه وهو يرمقها شذرًا:

- بالغش!..

هزت كتفيها مبررة دون ندم:

- الغاية تبرر الوسيلة..

منطق مقبول لا تعترض عليه بالمرة..

تلك شريعتها، عقيدتها.. ومذهبها الذي تعتنقه بقلب صادق وعزيمة لا تلين..

مدتْ أصابعها تزيح خصلته بجرأة عقد لها حاجبيه:

- المهم الوصول للهدف أيا كانت الطريقة..

قبض على كفها بمفاجأة أفزعتها، اعتصرها، بدا الألم على ملامحها، أبعد يدها عن وجهه لكنه لم يحررها..

سحبها قربه.. واجهها حتى تنفست عبقه الخاص المختلط بعطره الشتوي كأنما لا يتنازل عن برودة الشتاء مهما حل الربيع، اضطربتْ دواخلها مع همسه قرب أذنها ورأسه تميل.. تصبغ الأفق أمام بصرها بحضوره المهيب:

- لو شفت وشك تاني مش هارحمك..

ازدردتْ لعابها بعسر مرتجف، كبتت رجفتها ولم تحرر يدها من غلظة يده، رفعتْ وجهها تجابهه بعناد سخيف:

- ممكن ما تشوفوش لو وافقت على الصفقة..

انحنى فمه بسخرية فظة، قاسية.. وازت خشونة نبرته:

- ممكن بمكالمة واحدة أريحك من شغلك اللي مخليكِ تلفي ورايا في كل مكان طول الشهر اللي فات..

زمت شفتيها بضيق خاصة مع استطرادته الوقحة.. المهينة بينما يتأمل جسدها في ثوبها المغوي بنظرة مزدرية:

- ولا العرض فيه جزء خاص، بعيد عن صفقة الشركة!..

جذبتْ معصمها منه بحدة، دلكته بأنين وابتسمتْ بعصبية:

- مالوش لزوم على فكرة تهينني بالشكل ده..

وضع منشفته فوق كتفيه، حمل حقيبته وختم المشهد بوعيد:

- دي مجرد بداية، لو لمحتك مرة تانية...

ولم يتمم كلماته..

ترك لها استنباط البقية السيئة التي تليق بالذئب الشرس..

قاد سيارته عائدًا للمنزل قبل موعد رجوعه المعتاد، صعد لغرفته مباشرة، رمى حقيبته بشيء من ضيق قرب بابها، توجه للحمام وهو يخلع قميصه الخفيف، فتح بابه فكانت امرأته هناك..

مسترخية بالمغطس براحة، وسط فقاعات سائل الاستحمام، عيناها مغمضتان وخصلاتها حرة غارقة معها في الماء البارد.. سمعت صوت دخوله، خطواته ووقوفه على رأسها، فرقتْ أجفانها تتأمله بدهشة، لا تغير من وضعيتها، فقط اكتفت بإعلان استغرابها:

- رجعت بدري!..

صمت للحظات رد بإثرها وهو يعود نحو المغسلة، يحرر ماكينة حلاقته من شاحنها الكهربي، يمررها فوق ذقنه بعناية وازت كلمة مقتضبة:

- زهقت..

زوتْ ما بين حاجبيها بلا شعور، أسدلتْ أهدابها من جديد وتركتْ لجسدها حرية نيل قسطه من الاسترخاء كما تريد..

أنهى تشذيب لحيته الخفيفة، وتجاهلها كما تتجاهله..

دلف لغرفة الاستحمام الزجاجية، أخذ حمامًا باردًا سريعًا، لف حول خصره منشفة وخرج، أنصت إليها تعتدل قليلًا في مكانها، تهمس باسمه بنعومة:

- عمار!..

توقف، استدار إليها فلمحها تشير بيدها إليه..

اقترب يجلس على حافة الحوض، اعتدلتْ أكثر تستند لذات الحافة، تناشده بنبرة مزجتْ فيها البراءة بالإغواء، التوسل بالرقة:

- ممكن نسافر مطروح ولو يومين!..

تغضن جبينه بتساؤل جاوبته بسرعة:

- زهقانة جدا، والجو دلوقت مناسب لنزول البحر..

ابتسم بتهكم باهت:

- هتنزلي البحر!..

أمسكتْ بكفه تداعب باطنها بسبابتها:

- لو هتاخد بالك مني، وتكون معايا؛ ممكن أجرب..

أحنى جذعه يواجهها تمامًا، تضرب أنفاسه صفحة وجهها وتستقبل بشرته دفء أنفاسها، طوق وجنتها بكفه وغموض عينيها يصارع فضول عينيه:

- بتخططي لإيه!..

رفعتْ نفسها لتمس شفتيه بقبلة مخطوفة:

- باخطط أواجه خوفي معاك..

رد لها قبلتها بما يناسب سيطرته واستحواذه، حررها لاهثة وتراجع يتركها كما هي برد مختصر:

- موافق.. عندي شغل هاخلصه ونسافر..

راقبته يخرج من المكان.. تابعته بلمعة مقلتين تعكسان جحيم روحها.. جحيمًا لن تحترق معه فيه هذه المرة، وحده ستتمكن منه ألسنة اللهب حتى تُفنيه..

وحده سيدفع الثمن!..

**

بعض الانتصارات الصغيرة ليست سيئة المذاق على الإطلاق..

خاصة وأنك تتطلع لغنيمتك الكبرى على مرمى يديك!..

إن كنتَ شرير بعض الروايات، الوغد في أخرى.. حينها سترى النصر قريبٌ، يمكن أن يأتيك بكل الطرق، وبأي وسيلة..

باستطاعتك عبور الجحيم لتظفر بما تريد..

يمكنك أن تدهس الإنسانية في خطوتين، تنحر الأخلاق في ثالثة، وتُبرز أكثر صفاتك الوحشية، أنيابك ومخالبك مع الرابعة..

أنتَ وحشٌ لا يبالي بفرائسه الضعيفة، مادامت لم تمتلك القدرة على الركض.. مادامت قد سقطت بسذاجة في فخه..

على أية حال؛ ما ذنب الضواري إن كانت طرائدها خُلقت لتُنهش!..

حورية الأساطير النارية ليست ملائكية الطباع، لم تشهد لنفسها في يوم بكونها مستأنسة، لطيفة أو رقيقة القلب..

في الواقع؛ هي رمت قلبها بأعماق التيه، وتركته وحده ليضل الطريق، لن تترك مضغة واهنة تضعفها أو تجبرها على خضوع لا تريده.. حتى وإن كان لماضٍ أجادتْ التخلص من آثاره، وجمَّلتْ ندوبه..

هربتْ من ذنوبه بالتناسي، وتجاهلتْ التكفير عن آثامه بجحود..

عاشتْ ألف عام في عمر لم يصل لمنتصفه بعد، أجادتْ السرقة من ملذات الدنيا كما تشتهي، أتقنتْ اقتناص الفرص، ومدتْ كلتا يديها تغترف من متعها دون أن تسقط عن الحافة.. برعتْ في حساب خطواتها، فلم تزل بلا وعي..

كلها مدروسة، مرغوبة، تناسب أفكارها ورغباتها..

مر شهر على آخر لقاء، طرف الخيط الذي ألقته بطريقه ليتعثر به سحبه بحماقة، وانفرطت العقدة، المثالي القديم، الشاعر الأفلاطوني في عشقه؛ ترك لحواسه بعضًا من سيطرة!..

تنحى القلب في مشهد غواية، وانهزمتْ البراءة أمام ثمرة الخطيئة..

قضمها، فكان نيل المذاق أول سقطة..

تغاضت عن اتصالاته المتكررة منذ ذلك الحين، رسائله الصوتية، اعتذار مطمور أسفل رغبة اطمئنان، أسف متوارٍ خلف دعوة غذاء، لهفة لمستها صريحة وإن استترتْ برداء حديث عمل هام..

ابتسمت بتلذذ، الصيد يستلزم الصبر، الدهاء وشيء من حيطة حتى لا تفلت سمكتها من شباكها في غفلة منها..

أخذت جولة في مواقع التواصل الاجتماعي، رفعتْ صورة لها مع رجلها الصغير على موقع "انستجرام".. أضافت تحديثًا للحالة على "فيس بوك".. كون مزاجها يحتاج لبعض التسوق باريسي النكهة..

طافت ببعض الصفحات الشهيرة حتى تعثرت به!..

أو للدقة، صورة هويته، اسمه، ونداء استغاثة بطلب مساعدة إنسانية..

عقدت حاجبيها وثغرها ينحني بدهشة، الحدث يعود بالزمن في عقلها بتذكر؛ لقد نسيته هو وزوجته والفخ الذي نصبته له لتظهر لها حقيقته.. نسيتْ كل ما يتعلق به في خضم انشغالها بعودة الماضي..

"موسى سليمان".. الوسيم المستغل وزوجته الساذجة..

ترى أين وصل به الحال!..

إلى الحاجة للتبرع بالدم كما يبدو..

هل وصل الأمر لمحاولة قتل!.. وممن!..

من الأبله ابن الفايز الذي وضعته بمصيدتها كطعم!..

في لحظة هاتفتْ أحد أصدقائها المقربين، هو طبيب يعمل بالمشفى الخاص بالمجمع السكني، مشهد سيارتي الإسعاف اللتين مرتا قرب ناديها الصحي قبل أيام يستيقظ بذاكرتها، كانتا قادمتين من الطريق المؤدي لمنزلهما!..

بعد دقائق من حديث ودود تجيده، حشرتْ سؤالها بلطف وسط الكلمات وعلمت الحقيقة، أنها هي بالفعل..

وفي الأمر مفاجأة جديدة لها.. علموا أنها تحمل طفله!..

الوغد المحظوظ.. كان عليه أن يتعلم درسه دون عنف، لكن البعض لا يستوعب دروسه بلا قسوة.. أن يدرك حجمه، ألا يطيل قامته للأعلى ويتطلع خارج حدود قدراته..

ألا يدخل مع وحش في صراع لإثبات قوة بينما يجرب قنص غنائمه للمرة الأولى..

ببساطة.. كان عليه ألا يستغفلها، ألا يحاول استغلالها بالتواء لسد احتياج خياله عن أخرى!..

مطتْ شفتيها وبعد تفكير قصير قررت زيارته في الصباح التالي دون انتظار، خطت داخل المشفى بأناقتها، بخطوات مهيبة ومنظار شمسي داكن كبير يأكل غالب ملامحها، خصلاتها حرة فوق كتفيها، وكعب حذائها يدق الأرض كأنما سيخرقها..

شيمة المنتصرين بعض الغرور، وهي يليق بها أن تستحوذ عليه بالكلية!..

استعلمت عن مكان وجوده، المشفى كله لا يناسب رجلًا في قدرته المادية حتى وإن لم تكن بكاملها من عرق جبينه.. أو أي عرق!..

ابتسمت متهكمة بمجون، تحركتْ في الاتجاه المشار إليه.. والمعروف بمسمى "عنبر".. حيث هو، وعشرون غيره ربما..

دلفتْ للمكان بثبات، وقفتْ على بابه، تطوف ببصرها في أرجائه، تفتش عنه.. وجدته من بين كثيرين، فراشه في آخر الممر بجوار الحائط العفن الذي يلوث عينيها، تحركت وصوت قرقعة كعبها الشاهق يثير انتباه البعض.. تدور الرؤوس لتطالع تلك الساحرة التي تبدو بهيئتها الأنيقة كنقطة بيضاء نقية، فوق سطح أسود رث..

تصل لجواره، تتفحصه فوق فراشه.. يشبه جثة تقيدها الجَبَائرُ ككفن، عيناه شاردتان في سقف الغرفة بلا معنى؛ هو مستيقظ إذًا!..

أجفانه متفرقة لكن تفاصيل النظرة ميتة، لا تدل على عودة للحياة بالمرة كما يتحدث الأطباء عن كونها معجزة..

ذراعيه ووجهه يغطيهم الكدمات الزرقاء بوحشية، هناك واحدة قريبة من عينه اليمنى بشكل مقبض أفسد وسامته.. بالإضافة للتورم الناتج عن العديد من اللكمات القاسية كما تخمن!..

انحنى فمها بأسى مفتعل، لطالما فتنتها هاتان المقلتان العالقتان بين موج بحر شتوي هائج..

أقدامه مجبرة بالكامل.. تم وضعه بهذا الشكل، غير مسموح له بأي حركة مهما بلغت بساطتها؛ حيث تكمن معها خطورة..

يأخذ جرعات عالية من المسكنات القوية وربما هي التي جعلته في حالة الاستسلام تلك!..

"موسى!"..

نادته بنبرة فاترة لا تخلو من ظفر أجادتْ اقتناصه.. لم تستطع الجلوس، لا مقعد يلائم فخامة ثوبها، وجواره بالفراش كارثة أخرى.. تأملته أكثر واقتربت، خاطرت بالاستناد إلى الوسادة، تقتحم مجال بصره التائه في اللامكان، تتصنع الحزن والبؤس:

- تؤ تؤ تؤ.. الموضوع طلع كبير قوي!..

بمزيد من ميل همست بفحيح شامت:

- أكبر منك، زي ما هو متوقع..

حرك عينيه ناحيتها، يشهد وجودها وكأنهما أصبحا في عالمين مختلفين.. لم يخرج منه رد فعل ولا حتى إبداء أي دهشة لما قالت..

لمحتْ استسلامه، خضوعه، لم تستغرب كثيرًا؛ لقد اعتاد أن يسلك الدرب الأقصر والأسهل دومًا.. حتى في تعاسته، اختار الخنوع تحت وطأتها..

اعتدلت تعقد ذراعيها، ترمقه من علو بازدراء يشوبه شيء من مقت غاضب:

- عرفت حجمك دلوقت؟..

عصرت قبضتها قبالة ناظريه بقسوة مباغتة:

- مجرد حشرة، وقت اللزوم هتتهرس من غير تمن..

ثم سخرت منه.. من ماضيه وحاضره، ما فات وما قد يأتي:

- حتى التمن اللي قبضته مقدمًا، مش كفاية..

مطت شفتيها بينما سبابتها تمر فوق وجهه الجامد وبرود النبرة يخالف رقة اللمسة:

- عمرك ما هتحس إنك كفاية ليها يا موسى، هتحبها، بس غصب عنك هتشك فيها.. هتكدبها، وتأذيها..

عقدتْ حاجبيها مع تذكرها لأمر بقائها بالمشفى، انحنت نحوه مجددًا:

- إوعى تكون أذيتها فعلا!..

شبه حركة مالت بها شفتيه، ضعيفة كحال كل جسده، تعلن تأثره النسبي.. تكونت في مقلتيه نظرة عميقة غلفها الشرود..

نظرة تصرخ كونه يعشقها بجنون، أنها باتت نفسه.. أن ما بينه وبين حبيبته كان أعمق من الحب.. لن يدافع، لا يملك تلك الرغبة...

لم يعُد يشتهي الحياة برمتها.. ما بين البريق اللامع كبرق خاطف، والانطفاء الذي أماته في المهد استقرتْ هي.. رأتْ، فهمتْ، و...

لا.. لن تدعي تأثرًا، لنقل فقط أن الأنثى بداخلها اهتزتْ، هو رجل سيء ولو أنكر سيكون كاذبًا، لكنه رُغم ذلك.. رجل عاشق!..

رجل لن يؤذي معشوقته، حاول خيانتها من قبل ولم يستطع، بل استغفلها بخيالات الحبيبة.. البريئة لا تستحق خيانة، أما هو فقد كسر حدًا من حدودها التي يمكنها أن تكسر عنقه لأجلها..

شدتْ قامتها تتأمله لثوانٍ، بإثرها ومع صمته المستمر هزت كتفيها بلا معنى، ختمتْ المشهد بدرامية تناسبها:

- الأذى مش جسدي بس يا موسى، لو فاكر أنك ما أذيتهاش فعلا تبقى غلطان..

وخطت مبتعدة بثبات.. الصغيرة كثيرة عليه، مهما يفعل لن يطالها.. كنجمة براقة في سماء صافية، لن ينالها بشري مثله يظن أن بإمكانه التحليق دون أجنحة..

تباطئتْ خطواتها مع فكرة طرقت أبواب قلبها، انغرست بغريزة أمومتها..

لن يطالها ربما.. فقط النجمة بنفسها تركت عليائها وهبطت لتستقر بين كفيه، لذا هي تستحق معاملة النجمات حتى وإن كانت تسكن بقلب عاشق أحمق بدأ قصة عشقه بأجر مدفوع!..

توقفتْ، استدارتْ ترمق سكونه من وقفتها، دقيقة وتراجعت عائدة إليه.. صمته لم يتبدل، نظرته في غيابها ضالة كضلال فاقد الأمل..

ذلك الانكسار يثير أعصابها.. لم تستطع..

بفطرة أم خاطرتْ وجلستْ على طرف الفراش، أحنتْ رأسها تقابل بصره.. وبدأتْ حكاية أمس لا يعلم عنها حتى الفتات..

كل ما يدركه من تفاصيلها، هو كذبة مشوهة لن تلومه على تصديقها.. هي خير من يدرك وحوش عالمها!..

- لو عاوز تعيش بكرة معاها صح، لازم تعرف إيه اللي حصل إمبارح..

ثم استهلتْ سرد قصة وجع..

عن طفلة، فتاة، أنثى.. امرأة.. عن خدعة، سقوط، براءة منهوبة..

عن معشوقة ضلت طريقها وهي تستجدي رضى أب..

في النهاية أصبحت المذنبة الوحيدة لأن الجاني صاحب السلطة، ولأن الأب حقير بالفطرة..

لم تتوقف عند الماضي والبداية بل شرحتْ له انتقامها الخاص، كيف أنها ذللت كل العقبات لهذا المدلل كي يطاردها!..

أن زوجته قد تكون حمقاء سقطت بالفخ كي تحميه من تهوره إلا أنها بريئة.. لم تخُن!..

مع ما كانت تروي.. رُغم الصمت، الاستسلام.. الجمود، إلا أنها أصبحتْ ترى معالم صدمة تستطيع أن تستكشفها بين ملامحه المدماة الكسيرة.. الندم.. الحزن.. الاختناق بحبال الحقيقة..

على أثر ما اختار لن تكافئه الحياة بالشهد بل ستذيقه العلقم!..

لمحتْ تخبطه في حدقتيه، أدركتْ أنها أتمتْ مهمتها..

كلتا المهمتين، السيئة منهما والطيبة..

هي امرأة لا يمكن اتهامها بالسعي في الخير، هذه مرتها الأولى والأخيرة لحسن حظه!..

اعتدلتْ ترميه بنظرة ختامية تغلق بها كل الثغرات المؤدية لحكايته، تتجاهل تجاهله وخموده، تقف، تهندم ثوبها، قرب أذنه تتمتم بتوصية لا يحتاجها:

- خلِ بالك من جنتك يا موسى..

نعم.. الجنة امرأة.. النعيم أنثى..

الزينة والسكن والراحة والاطمئنان عاشقة، تظن أنها أعادتها لدروب قلبه قبل لحظات..

لأجلها، لا لأجله هو!..

مازالت تراها كثيرة، بعيدة، مستحيلة.. حتى وإن اختارته..

خرجتْ من المشفى بخطوات واسعة، صفحة لم تفكر في طيها، بل مزقتها بلا عناية وألقتها لأبعد مسافة.. قادتْ سيارتها عائدة لمنزلها، هناك قابلتْ صغيرها بصحبة مربيته عقب عودته من مدرسته، جالسته قليلًا وقررت ألا تذهب للنادي اليوم..

بغرفتها فتحت الماء البارد ليبدأ في ملء المغطس، بعض الصابون المنكه بعطر الفواكه الاستوائية، رجعت للداخل تتأمل فتنتها في المرآة..

مررتْ أناملها على أطراف ذقنها، عنقها، وحتى نهاية فتحة قميصها الربيعي.. فككت أزراره ببطء وعادت أدراجها نحو الحمام بينما تتخلص من ثيابها قطعة قطعة..

غمرتْ جسدها بالماء في استرخاء كسول وأغمضتْ عينيها تستمتع بالرائحة.. برعشة طفيفة اكتنفتْ جسدها مع ملامسته لجلدها.. وبنعومة صابون الاستحمام فوق بشرتها..

ساعة ونصف نالت فيهما غفوة مخطوفة، جففتْ بعدها جسدها ولفته بمنشفة عريضة، تناولت هاتفها بقرار حاسم.. لقد تجاهلتْ ماضيها أكثر من اللازم..

أو ربما منحته من حاضرها أكثر مما يستحق!..

هاتفتْ "مالك"..

انتظرت حتى جاوبها بنبرة تتلحف بهدوء مصطنع التقطته مع أول حروفه، تجاهلتْ أنفاسه التي تصلها ملهوفة وإن جاهد لكبت لهفته، بترتْ اعتذارًا تعلم أنه سينطق به عن قبلة خططت لها..

يظنها العاشق فتاته التي عرفها في زمن البساطة..

أغوته ببراءة، باحتياج يناسب الشاعر، فزلت معها خطواته..

الآن هي تريد الحسم.. تريد الثأر..

كامل السقوط!..

ابتسمتْ وتمددتْ على طرف فراشها بمنشفتها، فكت طرفها وتلاعبت به بخبث:

- إيه رأيك في سفرية لسهل حشيش!.. الجو بقى دافي ومناسب للبحر!..

حيث الربيع فصل البدايات الجديدة بلا شك..

سيوافق وتعلم أنه سيفعل دون تردد..

مع ساحرة عشقه القديم، الماء والخضرة وحسنها؛ ستكلل انتصاراتها بختام أنيق، ختام ملحمي لا يناسب سوى أسطورتها.. الحورية التي فتنتْ "أبوللو" حد الهزيمة والتيه والغرق..

ستقذفه من أطراف حافة جنونه إلى قاع غضبها المظلم، وتغلق عليه فوهة بركانها الثائر فيحترق وحيدًا بحممه حتى يلفظ أنفاس عشقه -الوهمي- الأخيرة..

**

يقال أن الحب اكتمال.. أن العشق حياة..

أن الغرام أسر.. أن الهوى سقوط..

لكن ذاك كله في حقيقته الأصلية، ومجموع أفعاله؛ ما هو إلا نعيم.. دنيا زينتها مشاعر تنمو بين قلبين، تهفو من أحدهما للآخر.. تشتاق.. تقترب.. تتوجع.. تتمنى..

الحب هو كل التناقضات التي من الممكن أن تجتمع في فؤاد واحد..

وكل ضد يجذب ضده..

قطبين مختلفين يعيشان بين موجات النبض..

الحب هو شريعة أهله، الجاحد به مهدور عمره، والمؤمن قد يجد في اعتناقه سلامه..

الحب عقيدة القلوب، ومنهاج الأرواح..

الحب هو قطعة السكر التي تحلو بها مرارة الحياة..

هو رشفة الثمالة لمدمن خمره، وجرعة الإدمان لمن يعاقره للمرة الأولى..

وهذه لم تكن مرتها الأولى، لكن الفؤاد أقسم أنها الأخيرة!..

استقرتْ معه بمنزلهما القديم منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع، لم يغير فيه شيئًا البتة.. عندما استغربتْ وسألته، ضمها لصدره وأخبرها بصدق بديهي للغاية:

- ماكنتش عاوز أمحي أي ذكرى بينا، البيت ده كل ركن فيه بيفكرني بيكِ..

حتى بعد عودتها معه ظل كل شيء كما كان على عهدها به..

هاتفها قبل نصف ساعة يعلمها بعودته، حل مشكلته التي رجع لأجلها، فاز بصفقته كما هو متوقع منه، تأخر في العمل ينهي كل أموره العالقة فقررتْ أن تفاجئه بعشاء رومانسي لم تقدم على مثله من قبل.. وجبة مطهوة بعناية.. موسيقى ناعمة.. شموع عطرية..

ثوب كريمي أنيق يليق بها، وزينة بسيطة زادتها فتنة..

استقبلته قرب باب المنزل المكون من طابق واحد وحديقة واسعة بنظام معماري موحد يشمل كامل المنطقة التي يسكنان بها، ابتسم لها فور رؤيتها، أدارها حول نفسها يتأملها بعين عاشق:

- كل الجمال ده عشاني!..

بصره يسبقه، يطوف في أرجاء المكان بدهشة، اقتربتْ تعانقه، تهديه عشقها في كل ملمح منها، بكل نظرة ولمسة ولغة جسد..

سحبته من يده، ساعدته على خلع سترته، قادته لغرفة الطعام فتطلع للمائدة ببسمة مبتهجة بينما تخبره بهمس خافت:

- أنا هنا عشانَك وبس..

كانت خلفه، التفتَ يحاوطها بذراعيه، يضمها لصدره ويتمايل معها على اللحن الهادئ في رقصة غرام:

- أنا أكتر راجل محظوظ في الدنيا..

طوقتْ عنقه وتمتمتْ لعينيه:

- بحبَك يا منذر..

أراحتْ رأسها على كتفه، تخطو تبعًا لخطواته، تترك له دفة القيادة والأمان يغمرها.. هي معه لا تخاف..

معه تُسقط كل دروع حمايتها.. هو وحده ملاذها، وملجأها..

بعد دقائق تناولا خلالها الطعام، تلذذ بكل قضمة منه، مسح فمه وأهدى كلتا يديها قبلتين متتاليتين مغمغمًا بامتنان:

- تسلم إيدك..

قدمتْ له مشروبه البارد المفضل، جاورته على أريكة غرفة المعيشة، تركتْ له انتقاء فيلم ما يشاهداه معًا ولم يفاجئها اختياره..

كان فيلمًا يجمع بين قصة الحب، والخيال العلمي..

مجموعة من البشر في سبات اصطناعي على متن سفينة فضاء تحلق بهم نحو كوكب جديد معد لإقامتهم، الرحلة طويلة تستغرق ما يزيد على التسعين عامًا.. لكن المؤسف؛ البطل استيقظ بعد عامين من بداية الرحلة!..

ظل وحيدًا لعام جُن فيه جنونه، حتى رآها.. بطلته!..

تلاعبتْ به أمنيته، وحدته.. ومبادئه، لكنه في النهاية استجاب لنداء القلب وأيقظها..

بمنتصف الأحداث ناداها بهمس خفيض:

- دُچى!..

كان مضطجعًا على الأريكة، رأسه فوق ساقيها، وأناملها تتخلل خصلاته برتابة ثابتة دون ملل، همهمتْ بجواب غامض وهي تحني وجهها إليه، رفع بصره يسألها بتردد:

- إيه رأيك لو رحنا لدكتور نطمن على...

صمت لحظة بوجوم حثته بنهايتها على تتمة، اعتدل يواجهها في جلسته، يحتوي يديها بين قبضتيه، يفركهما برقة والحيرة تشتته قبل أن يكمل بنبرة يشوبها بعض من ارتباك تعجبتْ له:

- نطمن على إمكانية الحمل!..

تضاعف تعجبها، ظهر بعينيها.. لاحظتْ توتره وقلقه، لم تفهم أسبابه لكنها رغبت في طمأنته فردتْ ببساطة:

- إحنا بقى لنا أقل من شهر ونص متجوزين يا منذر!..

لاحقها بجواب سريع مهتم:

- عارف طبعا، بس.. مجرد اطمئنان مش أكتر..

اقترب بجسده منها، يحتوي وجنتها بيمناه، ينطق بمشاعر مختنقة:

- نفسي أكون أب يا دُچى..

مالتْ بوجهها ترتاح على باطن كفه، تتمسح بها برقة، تبتسم له بعشق وتستجيب بلا اعتراض، فقط لتهديه راحته:

- لو ده هيطمنك؛ نروح..

- بجد!..

أومأتْ بنعم تشبع بها لهفته، لهفة تراجعتْ ليحتل صدارة انفعالاته توجس:

- مش متضايقة إني طلبت ده!..

استقامتْ تجثو بركبتها قربه، تضمه لصدرها بحنو أمومي، تعاتبه على ظنونه وتهمس برقة عطوف:

- أنا عاوزة أكون أم ولادك يا منذر..

شعرتْ بابتسامته، بذراعيه تطوقانها، وجسده ينثني للخلف بمباغتة فيسقطها معه، ينسى كل مخاوفه بأحضانها:

- بحبِك..

الحب هو السفينة الوحيدة التي تحمل الناجين من ظلمات الحياة إلى شاطئ النجاة..

إلى ميناء السلام..

**

بعض البشر كالنعام؛ يتعامون عن الحقيقة خوفًا من مواجهتها بدفن رؤوسهم في الرمال..

كأن عدم رؤياها سيغير من كونها.. حقيقة!..

كأن التغافل عنها سيمررها بعيدًا دون ضرر..

لكن ذاك لم يحدث أبدًا..

حقيقته اختارتْ التعامي مع واقعيتها، تجاهلها، السير في خطها المستقيم بلا اعوجاج، تحبه، ستكون معه.. هو وحده يحبها بصدق مهما خان وغدر وأوجع قلبها..

وحده يريد أن يكون معها، وتريد أن تكون معه..

ظلتْ تلوم نفسها على تتبعه، تخبرها أنه رجل ككل الرجال.. ولكل بشر نواقصه، هفواته وزلاته..

أنه زوجها.. والد أطفالها وكل امرأة سواها هي محض متعة لحظية تشبعه وتنتهي بنهاية اللحظة.. اعترفتْ لروحها أنها لا تكفيه، تنازلتْ، غضتْ الطرف عن خياناته، عن بشاعته، عن استغلاله لها.. آمنتْ به وكفرتْ بمن عداه..

لم تستفق من سلطانه عليها، من كونه مذهبًا لا يجوز تصديقه إلا عندما فارقها دون أن يرف له جفن..

وانتهكها حينما رفضتْ العودة إليه بصك عهر..

كانت إفاقة متأخرة لم تعُد بعدها كما كانت، ولن تعود..

حبوبها المهدئة باتتْ إدمانًا تخفيه عن أمها، لكن طفلها الأكبر لمحها أكثر من مرة تبتلعها بهوس ولم يدرك عقله الصغير ما يعنيه المشهد، طمأنته وأخبرته أنها مريضة وذاك دواء وصفه لها الطبيب..

عصبيتها وصلتْ حد الجنون.. مخاوفها تتضاعف مع كل صوت يحدث قربها..

تركتْ كل عمل تمسكتْ به في زمن مضى، وقلما تغادر عتبة المنزل.. أمها هي من تزورها، تُحضر لها ما تحتاج من طعام وشراب..

تعتني بها كما كانت طفلة وبصغارها..

لكنها غائبة عنها منذ أكثر من أسبوع..

وهي مذعورة، تفزع مع كل طارق يطرق بابها حتى لو كان محصل الكهرباء.. ترتعد من كل خطوة، وتبكي طوال الليل الذي يتخلل ساعاته الطويلة مقتطفات من نعاس متقطع مجهد..

ملامحها باتت باهتة، بشرتها شاحبة، السواد يطوق أجفانها، والحمرة تغزو عينيها..

منهكة.. مرهقة.. ضائعة..

غارقة في بحر من خوف، موجه يعلو بها ويغرقها في الثانية الواحدة مائة مرة..

هي امرأة فاشلة في كل شيء كما كانت طوال عمرها، ويبدو أنها ستظل تتجرع فشلها حتى الموت مهما حاربتْ أو أرادتْ النجاة..

شاردة في عالم مخاوفها، تتخيل صورته، وحشيته التي يزور بها كوابيسها الليلية، حقده والغل بنظرته المظلمة القاسية..

كان يكرهها.. وكانت ساذجة فصدقتْ في مشاعره الحب..

تأملتْ رضيعتها التي أتمتْ العام قبل أيام، تحممها في المغطس.. تصب الماء على جسدها الضئيل، تدلك بشرتها الناعمة وتدعم ظهرها بكفها..

تضيع في أمسها.. في نهش افترسها، قضى على بقاياها..

تتذكر مشهده، هيئته، غضبه وناره التي استعرتْ تحاوطها بلهبها حتى أتتْ عليها كهشيم مبعثر..

تغيب، تتيه..

ترمق طفلتها بشرود.. تُرى لو ماتت من سيهتم بها!..

ألن تكون الحياة أسهل دونها!..

ستكبر بلا أب، تحيا بلا سند..

تسحب من طاقتها التي وصلت للعدم..

بلا وعي وهي على حالها من الضلال، توهمت كفها تدفع الصغيرة للأمام من جلستها، تغمر وجهها بالماء.. الجسد الضعيف يقاوم بلا أمل.. تُغرقها وتنتظر الرحيل المستحق..

تتأمل يديها تضربان المحيط من حولها بغريزة بقاء داخل كل كائن حي..

"ماما!"..

انتبهتْ على صراخ ابنها..

انتبهتْ أن ما توهمته لم يكن سوى؛ حقيقة..

طفلتها تغرق!..

انتشلتها بجنون.. لمحت زرقة وجهها، برودتها، شيء من رجفة تحتلها.. أنفاسها لم تنتهِ بالكامل بعد لكن ربما ستفعل بعد ثوان..

جلستْ على الأرض تصيح بالفتى الذي لا يستوعب ما يجري:

- هات الفوطة بسرعة يا فراس..

ناولها إياها ودموعه تحتل عينيه بفزع!..

استندتْ بظهرها للمغطس، ولفتْ بها ابنتها، دثرتها واحتوتها بأحضانها، تنحني بأذنها عند فمها.. تتأكد من وجود أنفاسها..

تبكي بعبرات كالجمر، تحرق وجهها وروحها..

تستشعر فيها الحياة فتتنفس بشيء من راحة، تتطلع لفتاها الذي يتأملها بخوف، تُفند الصورة وتبرر بحجة بالية:

- نمت على طرف البانيو وماحسيتش بيها، كانت بتلعب..

شغلته بتبديل فحوى الحديث:

- كنت عاوز إيه يا حبيبي!..

أجابها من بين دموعه بصوت مختنق:

- نانا اتصلت بيكِ..

نهضتْ تحمل الرضيعة، تضمها قرب صدرها، تحاوط كتفيه بذراعها وتخرج معه عائدة لغرفتها، تطمئنه.. تعتني بها، ثم تهاتف والدتها..

تسمع اعتذارها عن الغياب..

مرض أبيها الذي منعها عنها لتهتم به وتراعيه..

رفضه الدائم لرؤيتها..

وعدها بزيارة خلال يومين، وتنهي المكالمة.. تتركها لوحدتها..

لعجلة زمانها التي تدور وتهرسها تحتها في كل لحظة..

لأمس يرفض المرور، وغَدٍ يستعصي على الحضور..

بينهما يوم كادت تقتل فيه طفلتها بدنيا الوهم!..

ليتها تنجو..

ليتها ترتاح..

ليتها تموت..

لكن حقائق الحياة ليست بالتمني، الدنيا تُقتنَص عنوة.. تؤخذ غلابًا.. ومادامت قد أعلنت هزيمتها في جبهة تلك الحرب، فلن يدافع عنها جندي سواها..

هي المحاربة الوحيدة.. والخاسرة الأولى..

هي النعامة التي تركتْ جسدها في العراء وأخفت رأسها علَّها لا ترى وحشها الضاري، ليأتي ويقضي عليها تاركًا ما تبقى منها ينعي ما فُقِد..

هي الجبانة.. المرتعبة..

المتعايشة، المستمرة بالقصور الذاتي، دون أمل!..

**

بعضنا لا يجيد الهروب؛ أينما حل لاحقته أوجاعه، ترصدته مخاوفه ووجده جحيمه..

ربما لأنهم جميعًا يحتلون روحه ويسكنون دواخله؛ فمهما ابتعد وفر وظن أنه نجا.. باغتته بحضور مقبض..

بأسر لا نهاية له..

أسر أجبرها على الخضوع والاستسلام، على الاستمرار بقوة دفع طفيفة من مشاعر أم.. من انطفاء عاشقة..

من إثم تتوب عنه في كل لحظة وتخشى ألا تكون من المقبولين..

حتى أنها تهرب من غد جديد، تحبس نفسها في الأمس، ترى أن الأمل ليس في متناول القلب، والأمنية لا يباح عبورها بدروب الروح..

تهرب منه.. من اهتمامه على مدار أشهر قضتها في عملها معه..

من تغيره الذي لمسه الجميع، نظرته إليها، الإشاعات التي تدور حول نبذه لكل نسائه.. أو ربما سقوطه في حب واحدة لا يملك قدرة امتلاكها فحجبت كل امرأة سواها عن بصره وقلبه..

كانت تقف أمامه بمكتبه، يتطلع إليها بصمت وتقابل تطلعه بصمت مماثل، وإن أبعدت ناظريها عنه.. لا يدري كيف تسللتْ بداخله!.. كيف بات يفكر فيها كل ليلة.. كل ساعة.. كل دقيقة!..

كيف أصبح لا يشتهي إلاها!..

وكيف تنأى عنه في كل لقاء، ومع أية فرصة قد تقربه منها!..

غادر مقعده يقف بمواجهتها، مد يده إليها فلمحتْ بها ورقة خمنت ماهيتها مع توضيحه:

- ده شيك بمكافأة بعد ما خلصنا مشروع الحديدي جروب..

تناولته منه بأطراف أصابعها لكنه تعمد لمسها.. انتفضتْ تبتعد، ترمقه بنظرة زاجرة متضايقة جعلته يبتسم بهدوء:

- للدرجة دي خايفة مني يا ليلى!..

اعتدلتْ تشد قامتها بصلابة، تدعي القوة وتخوض حربًا هو لا يدري عنها شيئًا مع نفسها التي ألفتْ الوحدة واعتادتْ الغربة والخسارة والألم:

- باشمهندس إياد؛ أظن كفاية لحد كده..

تقدم خطوة مكابرة، تأملتها بحدة.. تجاهلها:

- ولو قلت إني عاوز أكتر!..

حدجته باستياء حانق:

- عاوز إيه بالظبط!.. ومن فضلك خليك صريح ومباشر..

توسعتْ ابتسامته بثبات بينما عينيه تلمعان بنظرة لم تفهمها:

- عاوزاني صريح!..

ردها كان صامتًا موافقًا، أردف على إثره بلهجة جادة حازمة لم تتوقعها:

- اتجوزيني!..

وسدد ضربته القاصمة في عمق الخوف..

(38)

مرحبًا بك في الجحيم..

حيث الجميع مذنبون بلا استثناء!..

**

ماذا عن البداية!..

البداية كانت رجلًا، خُلقت من ضلعه امرأة لتكون له سكنًا..

وماذا حدث بعدها!..

ما حدث!..

سقطا من الجنة إلى الأرض..

هكذا وحسب..

سقطا بالإثم، بالخطيئة، بالاستسلام..

البداية هي ثمرة غواية، وسوسة شيطان، وشهوة محرمة..

البداية أن تمد يدك لما مُنع عنك، تشرئب بعنقك نحو ما هو غير مباح، تستطيل قامتك لتصل إلى ما تظنه نعيمك.. لا تدرك يا مسكين أن النعيم أحيانًا هو الحافة التي ستزل عنها إلى جهنم..

كل غواية وراءها ممنوع، وكل ممنوع مرغوب، وكل مرغوب مشتهى.. كلما كانت صعوبة الوصول إليه أكبر؛ تضاعفت الشهوة حد الموت..

أو حد الخيانة والسقوط في بئر الخطايا السبع بظلمته وظلمه..

هي عاشقة.. هي خائنة.. هي غادرة..

هي منحورة بسكين الفقد والخسارة والانهزام، تنزف وتنزف دون نهاية، هي التي قاومت الغرق للحظات، ثم وجدت المحيط يبتلعها فتركت جسدها له..

لم تطفُ.. لم تنجُ.. غرقت وانتهت، حوسبت، عوقبت، ماتت..

لكن لأنها مازالت تتنفس.. تضربها الحياة مرة بعد مرة، لا تترك لها سياجًا آمنًا تحتمي خلفه، تفر بنفسها من الضربات القاصمة..

المخيفة.. وما أكثر إخافة من عرض زواج!..

من رجل يعشق صنوف النساء بأكملها.. يخبر الأنثى البلهاء التي تسكنها كما تسكن كل امرأة؛ أن على يديها توبته، أنه يريدها وحدها دون سواها.. أنها سكنه، وهو رجلها..

"اتجوزيني!"..

عرض في صيغة أمر.. يحاول معه إنهاء الخوف فإذا به يضاعفه..

نظرته تجبرها على قبول.. وقلبها يصرخ بها يحثها على هروب..

الصدمة شلت جوارحها، أفقدتها حواسها فتجمدتْ، خطوة واحدة تراجعتها، أثبتتْ أن بالجسد حياة، توقفتْ ترمقه باستنكار استغربه:

- عرضي غريب للدرجة دي!..

هزت رأسها بحركة حادة، لا تكاد تفقه ما قاله للتو، لا تستوعب رغبته، ترفضها وتخشاها:

- عاوز تتجوزني!..

ابتسم برفق في محاولة لاحتواء شتاتها:

- أيوة..

رمشتْ بغضب ووجهها يحتقن بحمرته:

- ليه!..

ابتعد يهديها مساحة أمان خالية من طغيان حضوره، أشار لأريكة تجاور أحد الجدران بهدوء:

- ممكن تقعدي ونتكلم!..

لم توافقه، ظلت على وقفتها تنتظر جوابه..

تنهد بصبر وكسا نبرته بأكبر قدر من اللين والرقة:

- هو أي راجل بيطلب أي ست للجواز ليه يا ليلى!..

واجهته بمكابرة فظة لم تتخيلها في نفسها المرتعبة من تفاصيل المشهد.. من رجل جديد يريدها.. يشتهيها..

يلتف حول العوائق، يحفر خندقًا أسفل الحواجز.. ولو بشرعية مؤقتة:

- عشان ما قدرش يوصلها بطريقة تانية!..

ارتفع حاجباه في دهشة نصفها حقيقي، والنصف الآخر كان يتوقع الرد.. انحنى فمه بابتسامة تدرك ما بها وتقدره:

- بتحصل مش هانكر..

أظلمتْ نظرتها بضيق بادر يصلحه بعجالة:

- بس مش ده السبب..

زفر بعمق، فك رابطة عنقه بعض الشيء وفتح زرين أسفلها، خطا يستقر بمقعد أمام مكتبه، يكرر الزفرة ويجيب بصدق مباشر ألجمها:

- عشان بحبِك..

ارتدتْ خطوة ثانية.. رمته بنظرة مستهجنة متعجبة، تتعنتْ بالرفض والانزعاج كأنما لفظته إباحية في مضمونها..

لا تتضمن مشاعرًا حالمية، أو رومانسية أفلاطونية تليق بها..

رفع كفه يخرس سبابها ربما، أكمل بجدية حازمة:

- عارف إنك مستغربة، وعارف إنه غريب أكتر بالنسبة لي.. بس أنا ماتعودتش أهرب من نفسي..

عاد يقف، يقترب منها، بذات اللهجة يردف بينما عيناه تحتلان اهتزاز عينيها، تسيطران عليه، تهدهدان هلعها الجلي فيهما:

- طول الفترة اللي اشتغلنا فيها سوا لفتِ نظري، في الأول كنت باقول ست حلوة وممكن يبقى بيننا علاقة ممتعة لوقت محدد..

تراجعتْ أمام صراحته الفجة، الوقحة.. أمام اقترابه الذي استمر فيه حتى قابلها بكامل جسده في سطوة:

- بعدها بدأت أغرق في عينيك، حزنها، ضياعها.. بدأت أحس بخوفك، وأكره هروبك المستمر..

وامتلأت نظرته بإخلاص ما يهمس به:

- بدأت أفكر فيكِ بشكل مختلف، ما بقيتش عاوز أقرب من ست غيرك.. حسيت إن مهمتي إني أمحي الخوف اللي باشوفه في نظراتك التايهة..

ثم ابتسم ببساطة كما نُطق حروفه مكررًا اعترافه:

- ماكانش في مفر من إني أعترف إن في مشاعر مختلفة اتولدت جوايا ليكِ.. مشاعر حب، حاجة عمري ما مريت بيها، وما أظنش إنها ممكن تتكرر..

- والكلام ده بقى نجح مع كام واحدة استعصت عليك قبل كده!..

نطقتها ساخرة، كارهة، غاضبة..

توسعتْ لها ابتسامته بشيء من عبث:

- طبعا لو قلت لك إنك الوحيدة اللي سمعته مني يبقى جزء من الاسطوانة المشروخة!..

احتدتْ نبرتها وصوتها يختنق مثل روحها المذعورة بين جنباتها:

- طبعا..

أمال رأسه قليلًا محافظًا على ثباته وهدوئه:

- أنا راجل صادق جدا مع نفسي يا ليلى، لو كل اللي جوايا مجرد رغبة ناحية ست عاجباني وشايف إن الطريق الوحيد اللي هيوصلني ليها هو عقد جواز هاعترف بكده لنفسي.. هاكون صريح معاها..

التقط تيه بصرها بأعماق مقلتيه الداكنتين، يهديها مرفأ أمان ترسو عليه باحتياج:

- مشاعري حقيقية، حتى لو كنت قبلها مجرد راجل بتاع ستات زي ما بيقولوا عني..

ابتلعتْ ريقها يعسر..

غُصتْ به فسعلتْ بخفوت متحشرج:

- ليه أنا!..

- وليه مش أنتِ!..

رفعتْ عينيها إليه وعبرة تلتمع بين أجفانها:

- أنا مش عاوزة أتجوز تاني..

ترفق بمخاوفها، يجاهد لهدم حواجزًا اختبأت خلفها طيلة أشهر مضت:

- فشل التجربة الأولى مش معناه إن التجربة في العموم فاشلة..

مد أنامله يلمس خصلة شاردة قرب وجنتها:

- يمكن اخترتِ الشخص الغلط اللي تخوضيها معاه..

ابتعدت مجددًا وغيم الحزن على نظرتها.. سلسل روحها لأرضه وأخبرها أنه قص أجنحتها..

الخائنة غير مسموح لها بالطيران..

الإثم لا نجاة منه..

تمتمتْ بوهن قبل أن تسلك درب الهروب:

- ويمكن أنا اللي كنت الشخص الغلط!..

أهدته ألف علامة استفهام وركضتْ..

لاحقها ببصره، وقلبه ينبض.. في العشق، هناك ضريبة كلنا مجبرون على دفعها..

قرابين قد تُقبل، وقد يكون مصيرها كما القلوب الخانعة لخاتمتها بين يديه.. هلاك!..

**

الخوف هو مُربي البشرية ومهذبها الأول، دافع بقائها الأقسى..

نخاف الوحدة فنحيا في جموع..

نخاف الظلمة فنكتشف النار..

نخاف الأقوى فنخضع بضعف..

نخاف العقاب فنلتزم بالطاعة..

نخاف الفقد فنتشبث بمن نمتلك من الدنيا..

ولو أن الرغبة توازيه لكانت حياتنا أيسر!..

الخوف هو مفتاح السِلم، هو اختيار الظل، هو الاستكانة جوار جدار آمن لأن المتاهة متشعبة قد نضل في دروبها بلا نجاة..

الخوف الذي لم يمنعه عن تضحية، عن فداء، حيث تكمن الشجاعة في مواجهته، تحديه، والانتصار عليه..

أسبوعين آخرين اكتملا، انتهت القضية.. أُغلقت الصفحات، مُنع فيها النشر، وعاد للبيت..

زوجته متعلقة بذراعه لا تكاد تفارقه، أخيه الأصغر يتبع خطواته، وجده في استقباله واقفًا بشموخ يليق بالحوت العجوز..

لقد عاد يمتلك المحيط كما كان..

العاطفة تُغرق المشهد، خاصة من مربيته التي هرولت إليه تحتضنه بلهفة أم، احتواها برفق وربت على ظهرها كابنٍ بار..

داعبها وابتسم لها بعبثه المألوف، حتى ظهر من خلفها صغيره بأحضان جدته وقد عادتْ بصحبة ابنتها بشكل مؤقت..

تلقفه منها بحرص، ضمه لصدره، داعب وجنته الناعمة بسبابته واعتذر منها على دلال طفلتها التي أجبرتها على السفر..

واسته بتفهم وتقبلت اعتذاره بينما يلتقي بصرها بزوجته في لمحة خاطفة لم يدرك مغزاها!..

يقابل هو نظرة أخيه الذي يوشك على نيل شرف الأبوة مثله..

يرى شتاته، حيرته التي تمثلتْ في رمشتين سريعتين متتابعتين حينما وقف يتأمله بينما يحمل ابنه..

كاد يقترب منه، يعرض عليه حمله.. هو العم على أية حال، لولا لقاء النظرة الذي جعله يخطو للخلف، يدور على عقبيه ويبتعد بلا تردد كأنما قرأ أفكاره وآثر السلامة..

مائدة الغذاء كانت عامرة بكل ما لذ وطاب واشتهاه في يوم، الأخ يقابله في مقعده بهدوء معتاد، ملامحه لا تخبر عن شيء وإن اكتفى بلمعة مرت بسواد مقلتيه حال خروجه من قسم الشرطة بصحبته، الجد يرأس الطاولة وكليهما من حوله.. زوجته تجاوره، وأمها تجاورها..

بعد انتهاء الوجبة بدأتْ التحلية، المشروبات الباردة والساخنة..

كانت "بهجة" تدور في المكان كنحلة نشطة، تعتني بقفيرها.. تدفع بكل ما تظنه حُرم منه لحلقه رُغمًا عنه حتى ضحك وغُص بقطعة من الكنافة بالقشدة:

- كفاية يا دادة، هاموت مش قادر..

هنا وكزت كتفه، شدتْ أذنه ووبخته بجدية:

- بعد الشر، إوعى تقول كده.. عاوز تكسر قلبي!..

دغدغها بشقاوة مرحة فانتفضت تنهره:

- سلامة قلبك يا جميل..

في الختام كانا معًا بجناحهما، وحدهما أخيرًا وإن قبع العصفور الصغير بأحضانه، تأمله باشتياق، همس لها:

- لسه فاكرني!..

تأملته بحيرة وحب وخوف:

- مالحقش يعرفك أصلا..

رفع حاجبًا مغتاظًا وناولها إياه:

- طيب خدي، محتاج حمام طويل ونوم لسنة قدام..

ثم غمزها بمكر وقح:

- هاستناكِ جوا، لو فضل نايم حصليني..

ارتدتْ خطوة للخلف، استغربها وأعاد طفله قربه، رمقها بتساؤل هزتْ رأسها على أثره بشتات.. زفرتْ باختناق.. هربتْ بعينيها قبل أن يعيدها إليه بنداء متعجب، أزاحتْ خصلاتها خلف أذنها وتململتْ في وقفتها.. تخلصتْ من حيرتها برد باكٍ لم يتوقعه:

- ماما هي اللي كانت بتاخد بالها منه..

دهشته كادتْ تُلصق حاجبيه بمنابت شعره وهي تردف بنحيب باغته، بل صدمه:

- أنا مش عارفة أتصرف معاه من بعد ما سافرت وسيبتني، وهي جت معايا أصلا عشانه.. أنا كنت قاعدة معاها في البيت مش هنا..

تتوالى تصريحاتها لتفاجئه مرة تلو مرة:

- لسه راجعة النهاردة عشان أنت جيت..

حدق فيها للحظات بغير استيعاب، عقد حاجبيه وتنهد.. تحرك تجاه غرفة ابنه، هناك وضعه بمهده برفق حانٍ، تأكد من ثبات وضعه.. خرج يوارب الباب، يقف أمامها في محاولة للفهم:

- أنا مش فاهم حاجة، مالك!..

بكتْ أكثر، اقترب يضمها فوق صدره، تعلقتْ بقميصه بأصابعها بطفولية، مبررة بنبرة مذنبة كأنها تشعر بإثم لم تتعمده:

- مش عارفة أحبه يا يزن، مش عارفة أقرب منه ولا أهتم بيه..

رفعتْ وجهها إليها فلمح دموعها تغرق وجهها، دموعًا أحرقت قلبه عليها:

- أنا أم فاشلة، حتى ما بقيتش أديله Breastfeeding..

تصلب جسده بضيق لاحظته فتضاعفتْ نهنتها غير المفهومة:

- ليه يا غزل!.. أنا مش فاهم!..

أبعدها يحتوي وجهها بيديه بتشوش:

- أنتِ كنتِ كويسة وإحنا هناك، حتى طول الفترة اللي فاتت ما قلتيش حاجة..

مسحتْ عبراتها بأصابعها وتباعدتْ عنه بجسد متشنج.. تكشف نُصب عينيه حقيقة ما تمر به:

- عشان أنت كنت معايا في الأول، ولما رجعت بعد اللي حصل ماكنتش عاوزة أضغط عليك بمشاعري وأنت مسجون..

عانقها مجددًا وضرب كتفها بلين مشفق:

- مسجون يا زلابيا!..

- آه..

ردتْ بعناد بريء ابتسم له، مسد خصلاتها بكفه مترفقًا بها وإن لم يفهم ما تخبره عنه بشكل كامل:

- طيب ده حصل ليه!.. وهتفضلي كده على طول ولا إيه!..

وهمس بأذنها مشاكسًا:

- لو كده ممكن أتجوز واحدة تدلعني وتاخد بالها من ابني..

- عشان أقتلك أنت وهي..

ضحك بخفوت بينما تلكم خصره الذي تحاوطه وتتعلق به، تتمتم بين ضلوعه:

- ماما أصرت أروح للدكتورة، بتقولي اكتئاب ما بعد الولادة..

قبَّل رأسها وهو يفطن أخيرًا لكل تلك الفوضى والبلبلة:

- وده علاجه إيه بقى!..

كل ما يعرفه عنه هو الاسم كمعلومة لم يهتم بها مسبقًا..

لا يعلم أنه يصيب الأمهات الجدد بعد الإنجاب، أنه قد يصل لمرحلة خطرة.. وقد يتوقف عند تقلبات مزاجية معتدلة.. نوبات بكاء متكررة، رفض للرضيع ربما يصل للأذى، أرق، وصولًا لمشاكل في الشهية وتناول الطعام..

هزتْ كتفيها وعدلتْ من مسكنها بين ذراعيه لتنظر إليه:

- بتقول بياخد وقت ويروح، المهم الاهتمام..

تراجعت قليلًا تملي شروطها بجدية حازمة:

- يعني لازم تاخد بالك مني، تدعمني وتقف معايا أنا وزين.. كل حاجة أطلبها تيجي فورًا بدون نقاش، ما تزعلنيش ولا تقسى عليَّ... كل اللي...

- إيـــــه!.. بس يا بنتي..

أجفلها.. بكت ثانيةً وغمغمت من بين نشيجها:

- يزن.. أنا بقيت باعيط كتير قوي قوي، أنا بس كنت متماسكة في الكام دقيقة اللي باقضيهم معاك عشانك..

سحبتْ عدة محارم ورقية من علبة قريبة، مسحتْ وجهها وتمخطتْ بصوت عالٍ جعله ينظر إليها بابتسامة مكبوتة، لحسن حظه لم تلمحها:

- وبقيت كمان...

سكنتْ بحرج استغربه، سألها برفق تاركًا لها حريتها في سكب دموعها إن كان ذاك يريحها:

- بقيتِ إيه!..

- بقيت باكل كتير قوي..

زعقتْ بها في انهيار كاد يضحكه، كتم ضحكته بصعوبة ودار حولها يتأملها بتدقيق.. يداعبها بعبث:

- الأكل مفيد أحيانًا..

مشيرًا بخبث لامتلاء أصاب منحنيات أنوثتها.. لكمتْ ذراعه بخجل حانق فمنعها ببسمة عاشقة..

حرك ذقنها لتواجه عينيه، مقسمًا أن يعانقها حتى تزهق أنفاسها أو أنفاسه، كانت رُغم احمرار أنفها، بلل وجنتيها، بريق عينيها الدامع؛ تبدو كقطعة حلوى لذيذة، مثيرة للحواس.. قابلة للأكل بلا ندم..

كل ما يهمه أن جميع ما تقوله هو بديهية العشق..

وهو رجل في العشق يمنح حتى الثمالة، دون بخل..

طوق خصرها وسحبها معه تجاه غرفة النوم، توقف بمنتصفها:

- أول حاجة في الدلع..

جذبها يسقطها بين يديه، يهمس لها قبل أن ينسى كل ما فات قرب شفتيها:

- طول ما أنا معاكِ؛ ما تخافيش..

وأخبرها بحكاية..

عن الحب وتفاصيله.. عن الخوف وتبعاته..

عن الفقد وتعويذته التي كسرتها هي.. ساحرته الطيبة، بقلبها، بطفله.. بالعشق..

**

الحب مثل زهرة..

تبدأ ببذرة نغرسها في تربة صالحة للنماء، نرويها، نعتني بها، نراقبها كل يوم..

نختار لها موقعًا يناسبها، يهديها ضوء الشمس، ويحميها حرارتها..

تنمو.. تكبر.. تزهر.. تتفتح بتلاتها لتستقبل ربيع العشق..

تنثر عبيرها الفواح في قلوب سكنتها..

تغدق عليهم بالسلام وتؤنس بوجودها وحشة أرواحهم..

الحب هو الاختيار الأول دومًا كلما حُشرت بين مطرقة الخضوع وسندان الخوف..

الهروب للحب هو النجاة من بين شقي رحى الذنب الذي نسيته في غمرة وجودها معه، قربه، بأحضانه..

لم تشعر باقترابه وهي منهمكة في غرس فسيلة بحديقة منزلها الصغيرة، استغربتْ المشهد، بدايته التي استهلتها ومضة حضورها، ثم تسلله من خلفها وهي تعلم بعد خطوتين وحسب أنه هنا..

كان المشهد سينمائيًا عجيبًا كأنما تطالعه بعين مشاهد، وبذات الوقت تؤدي فيه دور البطولة!..

بظهر كفها الملوثة بالتربة المبتلة أبعدت خصلة عن جبينها وهي منحنية على ركبتيها أرضًا، أنهتْ الغرس، اعتدلتْ لتجده يرفعها بين يديه، يزيح خصلتها العنيدة، يقبل جبينها ويهمس لها بتوق:

- وحشتيني..

فرقتْ ذراعيها تبعد كفيها عنه حتى لا تُلطخ ثيابه، لثمتْ فكه بنعومة تشبهها، ابتسمتْ له بحبور امتزج بعتاب عاشقة:

- مادام باوحشك؛ ماتغيبش عني..

كان الهواء يداعب شعرها.. يحرر بعضه من طوق ربطتها بعناد، يمنحها مظهرًا فوضويًا محببًا متيم هو به..

يتمنى لو يأتى لها بالعالم كله ملكًا لها..

يأمل في حياة معها بلا قلق من نبذ أو ترقب لحرمان..

وهي تدرك!..

تقرأ أفكاره على صفحة وجهه، بعينيه، بشروده.. تسقط بوجنتها على صدره، تمنحه بضمتها أمان قلبه، وتريحه بتفهم:

- أنا عارفة إنه غصب عنك..

أسند ذقنه لرأسها، أغلق أجفانه بتنهيدة متعبة معترفًا بأحقيتها فيه:

- وأنا عارف إن ده أبسط حقوقك، بس...

ابتعدتْ حينها تسكته برفق:

- ما تبررش، المهم إننا دلوقتِ مع بعض..

التفتْ بين ذراعيه تنظر للأرض التي كانت تزرعها:

- والأهم.. إن في مفاجأة..

تابع نظرتها باهتمام.. لم يفقه شيئًا للوهلة الأولى..

بين زهرتين ناميتين بجمال آخاذ؛ زرعت فسيلة خضراء ضئيلة الحجم.. استندت إليه بجسدها كله وتنهيدتها هي تشع بالأمل والحب والفرحة:

- فهمت!..

شعرت برجفته.. بتوتره..

عادت تنظر إليه، تحتويه أسفل أهدابها الكثيفة، تبتسم بحنو بينما يسأل في غير تصديق:

- حامل!..

أومأتْ بموافقة جعلته يحلق في سماء أحلامه بحُرية.. بجناحين من سعادة، يحملها، يدور بها.. لا يأبه ليديها اللتين اعتمدتا على كتفيه وتشبثت به في بهجة تشبه بهجته..

تدور معه.. تغرق فيه..

أنزلها وتنفسها بشهيق لا يريد أن يزفره أبدًا..

يحبسها في صدره، برئتيه، قرب قلبه..

يعانق معها الأمنيات، ويحارب خوفه.. يهزمه..

احتوى وجهها بكفيه وقرر بحزم:

- لازم أقول لجدي..

ارتبكتْ بلا قصد، رمشتْ حائرة متوترة والحقيقة تمتزج بالوهم في غيابها المختار:

- يامن.. خايفة عليك..

- ابني من حقه يعرف أهله، من حقه جده يعترف بيه يا شمس..

استكانتْ لصرامته التي أشعرتها بالسكينة، استبقتْ نفسها داخل ضمته وهمستْ بلهفة، هاربة من مستنقع هلعها من القادم:

- أنا عاوزة ولد.. شبهك..

احتواها برقة وتمتم بصدق مغرم في دنيا الهوى، ضالٍ في دروب التيه:

- أي حاجة تربطني بيكِ للأبد؛ أنا راضي..

كان الحلم أجمل من دوامه..

كمستحيل لابد أن يأتي عليه يوم وينكسر..

انتهى الحلم، أظلمت الأضواء وتوقف التصوير..

ذاك المشهد اكتمل، اختلط حابله بنابله، حقيقته بوهمه.. وواقعه بأمنياته.. لا تعلم أنها في متاهتها وحيدة، وأن التائه دونها ومعها قربها يجاهد للصبر!..

شهر آخر مر..

ظلت بغيبوبتها واحدًا وخمسين يومًا طويلًا..

لا تفيق، لا تبدي أي ملمح من حياة..

طبيبها بالأمس عاودها، أوصى طاقم تمريضه على العناية بها، وأجرى معه حديثًا أحرقه.. أشعل غضبه..

وترك بين نيران الغضب شرارة من حزن.. من يأس!..

"رافضة ترجع باختيارها.. كأن مافيش حاجة تستحق تعيش عشانها"..

أراد منحه شيئًا من طمأنة، من أمل:

- لو في حد هي متعلقة بيه، بتحبه.. ممكن يزورها، يتكلم معاها، جايز يفرق..

لحظتها استدار إليه يرمقه بنظرة غامضة:

- هي ممكن تسمع أي حد بيكلمها في الغيبوبة!..

مط الطبيب شفتيه متخليًا عن عمليته للحظات ولا يدري لمَ!..

المرأة رُغم تعدد زوارها، فزوجها.. الأقرب إليها كما يفترض، جامد الملامح على الدوام.. صلب النظرة.. لا يطيل البقاء، يقبع صامتًا في مقعد يواجه فراشها.. عيناه عليها لا تحيدان عنها.. وجسده ثابت لا يهتز حتى بإيقاع ابتلاع الأنفاس..

- مش لازم تسمع، بس تحس.. أي لمسة منكم، الاهتمام والمشاعر.. حسسوها باحتياجكم لوجودها..

الاحتياج!..

لعنته التي كسرها، قتل مشعوذها، ودفنه بأعمق نقطة في محيط وحشيته.. فكيف يخرجه من قبره!..

كيف يعود ملعونًا بالعوز والحاجة والضعف!..

ولأجل من!..

مسح وجهه بكفه، غادرها.. وكما عادته منذ غابت توجه مباشرة لصومعته، تأمل الأرفف التي تكدستْ فوقها منحوتاته مبعثرة بلا تنسيق.. ثم بدأ واحدة جديدة..

هذه المرة بدقة، بعناية، بكامل تركيز نحت رضيعين، ملفوفين بحرص، متلاصقين.. عندما أنهاها؛ رسم بقلم خاص نقطتين تشيران للمقلتين.. سوداوين كعينيه..

تركها أمامه يحدق بها في وجوم، بإثره مد أطراف أنامله يلامسها برفق، يطوف فوقها بتشتت.. لقد تغير!..

اختلف..

سيصبح أبًا لطفلين، صبي وفتاة كما علم قبل يومين وقد انتصف شهرها الخامس.. بطنها لم تبرز بعد، وإن كان يلمح انتفاخًا طفيفًا يخفيه ثوب المشفى والغطاء..

إن لم تعُد لأجل طفلها؛ لمن ستعود!..

لخاطره هو!..

شيطانها، وحشها الذي نهشها مرة بعد مرة!..

لخاطر طفليه برحمها!..

ترى هل تمنت موتهما!..

تمنت ألا تحمل ثمرة إبليس!..

نفض رأسه بعنف، يتخلص من سواد أفكاره في بالوعة غضبه..

الغضب أمان.. الغضب قوة..

الغضب سطوة وسلطة وسيطرة واحتلال..

الغضب هو استمراره.. هو نجاة رجل مثله، لن يخضع للحظة ضعف..

رجل تربة قلبه جافة، غير صالحة لاستنبات الحب أو الإنسانية..

ميتة لا تقبل الارتواء، لا ينمو بها زهر ولا يطرح منها ثمر..

**

الأمل مصيدة الحب.. فخه الناعم..

طرف الخيط الذي يُلقى في طريق العشاق، فيتعلقون به، يسحبونه، يسيرون بأمره، يسقطون معه عن الحافة، يتحطمون عند قاع العشق بلا ثمن..

الأمل كان مماطلته، تسويفه لرغبتها في الطلاق، شهر بعد شهر.. ثم نصف تالٍ..

الأمل هو مراقبتها له عن قرب أكبر، بتأنٍ، بهدوء.. تأمله مع صغيريه يتعامل بكل حنو وعفوية، حتى أنه تخلى عن وقاره يوم اصطحبهما في رحلة لإحدى قرى الألعاب المائية وبعد انتهائه من إحدى الألعاب؛ جاورها على مقعد عريض رافضًا العودة، غارقًا في البلل..

في ابتسامة صادقة، نقية زينت ثغره.. لمعة عينين تشي بحياة!..

الأمل كان في تفنيدها للكثير..

هي زوجته التي يثق بها لرعاية طفليه، التي منحها اسمه ويباعد بينه وبين رحيلها عنه رُغم سوء ووجع البدايات..

زوجته وإن لم تُفضِ إليه ويُفضِ إليها..

وإن لم يُغلظ بينهما الميثاق..

الأمل هو الفتاة التي نضجت قبل العمر بعمر، والفتى الذي يتعلق بأذيالها في كل مكان.. فيهدي قلبها نبضه، ويشبع حرمان أمومتها ببنوته.. فخ ناعم سقطتْ فيه، استجابتْ له، واستسلمتْ..

لم تُدرك أن الأمل في أساسه وهم، أن الحقيقة هي تلك التي نلمسها بأيدينا لا التي نطمح إليها، أن الواقع هو ما نحياه لا خيالًا نتمناه..

لم تدركه وهي تقف مع مدرب السباحة الخاص بالصغيرين في النادي، يحادثها بوجه بشوش عنهما.. عن الطفلة التي أتقنت تدريباتها، والطفل الذي يتعلم دروسه بسرعة وذكاء..

الطفل الذي كان يشير إليها من موقعه بالمسبح خلف مدربه، فابتسمتْ له باتساع وعادتْ ببصرها للرجل الواقف أمامها..

عادتْ وبُتر المشهد بحضور ظل!..

حجب عنها حمرة شمس المغيب التي كانت تهدي نهايات الربيع نسمة لُطف وتبعده عن قيظ الصيف الوشيك..

استقبلته ببسمة خافتة، تركته مع الرجل وذهبتْ تجاه الصغير تعاونه، كان من المفترض أنهم سيقضون بعض الوقت هناك سويًا، ثم يتناولون غذاءً متأخرًا بأحد مطاعم المأكولات السريعة التي يعشقها الطفلين.. لكن كل ما هو مفترض لم يحدث!..

أمسك بيد الاثنين، أشار إليها لتتقدم خطواتهم.. وتبعها معهما، استقر الجميع بالسيارة، عقبها انطلق بها إلى البيت متعللًا بألم في رأسه أنهى اليوم باكرًا..

أشفقتْ عليه رُغم جمود ملامحه، وشرود نظرته..

اعتنتْ بابنيه، وذاك لقب لم تتخلَ عنه.. لم تنادِهما ابنيها ولو في خيالها..

أغلقتْ عليها باب غرفتها، وقررتْ أن تسترخي بحمام دافئ وفقاعات عطرة، لم تكمل الساعة كعادتها، جففتْ جسدها

وارتدت فوقه مئزر استحمام، خرجتْ تجفف خصلاتها بعناية حتى انتهت.. أبعدت المنشفة عن رأسها..

ورأته!..

ممدد على فراشها بسطوة شهريار..

بجبروت قيصر..

وخبال نيرون..

كل النهايات تواترت لذهنها، بداية من جذ العنق وصولًا للحرق كما فعل المهووس بروما.. لم تفهم فيمَ وجوده بغرفتها!..

كل ما أدركته ولم تمتلك الوقت لاستيعابه هو نظرته..

تفترسها.. تبغضها.. تخنقها..

تُفند أبجدية النهش؛ وألف النهش انقضاض.. باءه حصار.. تاءه إحاطة لا خلاص منها..

أما بقية الأحرف إلى الياء فمضغها، تلوها بصقها والتعبير يملأ عينيه!..

بسروال بيتي أسود، يعلوه قميص قطني صيفي رمادي انعكس على زرقة مقلتيه بقتامة وازت عتمة النظرة..

عينيه والنظرة والجحيم..

عينيه والنظرة والموت..

عينيه والنظرة والذكرى..

عينيه والنظرة والخوف!..

خافتْ منه.. تقهقرتْ وتقدم، احتجز ظهرها جدار، جسده مثَّل حائطًا آخر في متاهة الاختناق، همست بلا صوت:

- أنت بتعمل إيه هنا!..

همس بصراخ جهير، نبرته تأتيها من أعمق نقطة في قلب جهنم خاصته:

- سؤال غريب من مراتي..

توترتْ، تمازجتْ المشاعر بلا تمييز..

الخوف جاور الخجل..

الحب الذي لم يمتلك وقتًا ليرحل عن قلبها بأمان..

وشراسة لغة جسده بأكملها..

- إحنا متفقين على الطلاق، وأنا مربية الولاد.. دي وظيفتي.. أنا مش...

- شششششش..

سبابته فوق شفتيها، تضغطهما دون رفق.. تقسو كما عينيه..

قرب أذنها تمتم بخفوت كنار تأكل الهشيم في صمت، لا تُحدث جلبة تليق بوحشيتها.. ناتج الاحتراق يكفيها:

- أنتِ مراتي، ولا عاوزة إثبات!..

نطقها بسخرية.. تراجعتْ أكثر فاصطدم رأسها بصلابة الجدار، لا تريد أن تفهم ما ينتويه.. لا تريد أن تخمن!..

لكنها تتوقع الأسوأ، والأسوأ قربه المهين..

ليس اقتراب رجل، زوج، عاشق.. بل الفعل امتلاك ينفي قدرة الفرار!..

استحواذ.. سيطرة بدائية محتقرة ترى أن الجسد -وسيلة رجل الكهف- للإخضاع.. وهو لن يتورع عن الرجوع للعصر الحجري فقط.. ليكسرها!..

لا يمكنها الانفلات من حصاره، ذراعيه تطوقانها وإن كان لا يلامس منها شيئًا، تماسكتْ قدر استطاعتها.. قدر مخاوفها التي تتردد بالطرق الخلفية لعقلها..

هو لن يسقط لذاك الحضيض!..

افتعلتْ الثبات واستنزفتْ قواها حتى الثمالة:

- ممكن أفهم في إيه!..

أظلمتْ حدقتاه أكثر.. أظلمتْ ودارت كدوامة تهدد بابتلاع كل ما ستجده في طريقها، أو ما لن تجده..

هي ستلتهم كل شيء بنهم وحسب، تلتهمه وتزدرده بقرف..

مال يواجهها، ينفث لهيب أنفاسه المحترقة، يلسع به جلدها فيكاد يذيبه:

- قولي لي يا رحيل..

شعرت بيده تتسلل لوجهها، تجذب إحدى خصلاتها المبتلة، يلفها حول سبابته بتجبر، بتلاعب لا يشبهه.. يشتتها:

- يا ترى لو ماادكتيش حقك الشرعي هتخونيني!..

تفرقتْ أجفانها بصدمة مستحقة.. والمشهد تحول لفوضى صامتة، قتال.. حرب منهِكة تدور داخلها وحدها..

حتى خيانة الأخرى سيُسقط عليها تبعاتها!..

لم تشعر إلا وهو يقتحم سِترها، حلَّ حزام مئزرها دون أن تنتبه، يده تدنسها، تنفضها.. تُشعرها بالتقزز الذي وازى تقززه وهو يكمل بازدراء:

- على العموم؛ أنا ممكن أرضيكِ من غير ما أوسخ نفسي..

هل يبيح المشهد الآن انهيارًا!..

ربما نعم، فقط تلك رفاهية لا تمتلك ربعها.. هل تصرخ بوجهه!..

تدفع يده عنها!.. تبكي كأنثى منتهكة!..

لا.. فعلتْ ما شعرتْ به قد يطفئ غضبها، تخلتْ عن الخوف وتمسكتْ بالاهتياج.. بانفعال تستوجبه اللحظة..

رفعتْ يدها تسدد لوجهه صفعة..

أوقف هو بأصابعه اكتمالها كأنما كان ينتظرها.. يتوقعها، أو حتى يفتش عنها!..

اعتصر كفها بغلظة عنيفة، كادتْ تسمع قرقعة عظامها، هي أنثى مستضعفة في موقف افتراس مع رجل ارتبطت كل عقد رجولته.. قلبه.. شرفه.. نفسه؛ بامرأة!..

انتزعتْ يدها التي تكبت أنين ألمها عنه منه، وتحكم بها.. لم يحررها، تمخضتْ نظرته عن نار بينما النبرة تنطق باحتدام:

- لو فكرتِ تكرريها تاني، هاكسرها يا رحيل..

لن تبكي.. اللعنة عليه وعلى قلبها وعلى كل شيء..

لن تبكي.. تبًا للعشق وأهله..

لن تبكي، فلتذرو الرياح بقايا أمل أحرقه الوهم، ونحرته الحقيقة..

لن تبكي.. كررتْ سحبها، تركها تنسل من قبضته كما لو كانت تتخلص من مخالب وحش لا يرحم..

هربتْ تغادر طوقه، أعادت إحكام المئزر تستر جسدها، ولته ظهرها لثوانٍ فتأمله باستهزاء حاقد..

لم يلمح الرجفة، لم يشهد دمعة خانتْ تماسكها.. لم يكترث للوجع..

بنهاية ثوانيها استدارتْ إليه، شدتْ قامتها وشمخت برأسها:

- طلقني..

مع يائِها انقض، اقتنص خصرها فدفعتْ صدره لا تصدق جنونه..

ثبَّت وجهها بيسراه واليمنى لا تطلق سراحها:

- مافيش طلاق يا رحيل..

لم ينهِ المشهد بامتلاك رخيص يناسب رواية هابطة، تركها بغتة، فقدتْ اتزانها.. دفعها عنه بنفور، اعتدلتْ تحاول الثبات..

لا تفهمه..

لا تفهم ما به..

لا تفهم كيف كان يراها أمام عينيه عاهرة أخرى، تشبه من سبقتها بقلبه فهشمته لألف قطعة وبعدها دهسته..

تتباسط.. تبتسم.. يلاطفها غريب وتقبل الملاطفة..

لم تدرك.. ولم يعِ هو أن ابتسامتها كانت لصغيره..

أنها تختلف..

أنها لا تصلح كوسادة يفرغ فيها أحزانه وغضبه ومخاوفه..

هي هشة للغاية.. لن تتحمل.. لن تبقى!..

- لو ما طلقتنيش هـــ...

- هـــ إيه!..

أظلم المكان كله بغتة والضوء يملأه، أظلم بظلام عينيه:

- هاخلعك يا وجيه بيه يا نصار..

صاحتْ بها فاقدة للرشد.. فاقدة للأمل..

فاقدة للكرامة والشعور، كارهة للعشق..

ولم تصدق رد فعله!..

قهقه باستمتاع غريب كأنما ما فقده هو كان عقله..

دنا منها بخطوة واسعة كادتْ تبتعدها، حبسها قربه وجدد امتهانه:

- أعلى ما في خيلك اركبيه..

انحنى طرف شفتيه ببسمة فظة.. قاسية.. تستهين بها، بكل ما تملك ولا يساوي لديه ذرة:

- يا بنت عم مختار، السايس العجوز في جراج فندق.. واحد.. ملكي..

ارتعشتْ بوجيعة الطعنة.. انكسار جديد.. ضربة مفاجئة..

الآن تفطن لمَ اختارها هي!..

ضعفها، نقصانها، فقر عائلتها وتحكمه بأبيها..

هو لا يُسقط عليها ذنوب أنثى كانت له العشق..

بل يكسرها فيها لأنها أفلتتْ منه..

لمح عبرتها تغادر مآقيها.. تنسال على وجنتها بهوان، بصرها يعانق الأرض تحت قدميه.. شعر بجسدها يرتعد، بروحها تذوي في ركن وحيدة، خائفة، محطمة..

لم ينتشِ.. لم يكن فخورًا بما فعل!..

تراجع خطوة وتوقف.. تأملها من موضعه بحنقٍ عليها وعلى نفسه، بإثرها غادر الغرفة يصفق بابها وراءه بقوة رجتْ الجدران من حوله..

ياء أبجديته عذاب..

دوامة ابتلعته وأسقطها معه قسرًا بين دوائرها التي لا تتوقف..

ربما لأنه يخشى وحدته بأعماقها، وربما لأنها يمكنها أن تنجو.. أن تتحمل!..

**

خُلقت حواء من ضلع آدم الأعوج..

ذاك الذي ينثني فيحاوط القلب بأمانه وحمايته..

ثم ظل بعدها وحتى نهاية الدهر، يتجاهل كونها من ضلعه، يحاسبها على اعوجاج أُنتزعت منه..

يراها عاطفية، ناقصة عقل..

يراها تراجيدية بائسة تفتعل الخناق وتجيد اختلاق المشاكل من العدم..

يراها تغويه.. يراها تبغضه..

يراها في كل شيء..

ولا يدرك بعد ذاك كله أنه دونها سراب..

فما آدم بلا حواء إلا رجل وحيد، مهما كان في نعيم؛ سيفتقد كمال لذة مذاقه معها..

هي التي تمنح كل نكهة أصالتها..

كل لوحة ألوانها..

وكل حياة بهجتها..

هي الزينة والبراءة والغواية والإثم..

هي الأم والابنة، الزوجة والمعشوقة..

هي الكثير مهما قل، والقليل الذي دونه لن يكتمل أبدًا..

هي الخوف في ثوبه الجديد، وانقباضة القلب الذي يستنكر النبض باسمها في لحظة اشتياق.. في ليالي حنين..

ودفء قربها يرحل عنه، يتركه لطريق فقده البارد، المقفر فيفترسه بتلذذ..

دكتورة "إيمان المسلماني"..

طبيبة نفسية، واستشارية علاقات زوجية.. متخصصة في إصلاح عيوبها، وإعادتها لطريقها القويم كما يبدو..

انتظر دوره والذي اختار أن يكون الأخير، في ثلث الليل الأول حيث الساعة تشير عقاربها للتاسعة.. بعد انتظار عقيم تململ، تسرب شيء من صبره بعيدًا، بدأ ينقر ركبته بأطراف أصابعه في رتابة سقيمة حتى حان دوره..

"أستاذ عدي، اتفضل.. دكتورة إيمان في انتظار حضرتك"..

نطقت مساعدتها بالكلمات السحرية، انتفض مسحوبًا من شروده ومقعده بحركة واحدة، تبعها إلى الغرفة المنشودة.. خطا داخلها ووقف عند بابها يتأملها..

الإضائة الهادئة بزرقة مريحة..

الرائحة العطرية المتسللة من مكان مبهم..

والسيمفونية الهادئة الخافتة بشكل غير مزعج لكنه ملحوظ..

رحبت به الطبيبة الأربعينية، كانت هادئة الملامح ناعمة القسمات، بتصفيفة كلاسيكية تجمع بين الصرامة والعصرية، انتهاءً بفم رفيع وأنف مستقيم يحمل منظارًا طبيًا فضيًا أنيقًا، استقبلته بابتسامة متجاهلة تفحصه.. دعته للجلوس فاستجاب، مكث على هيئته الجامدة، الواجمة صامتًا لثلاث دقائق كاملة حائرًا في بداية!..

بداية استلهمها من اختياره لها، كونها أنثى!..

استرخى في جلسته وبدا أنه على وشك الحديث، استرعى انتباهها، اعتدلتْ تنتظر ما سيقوله بتركيز:

- هي الستات عاوزة إيه!..

لن تنكر دهشتها.. العقدة هنا امرأة!..

تركتْ مجلسها كعادتها واستقرتْ فوق مقعد يجاوره، بيدها دفتر صغير وقلم بسيط..

ترمقه بنظرة أكثر بساطة، وانحناء هادئ عند جانب فمها ينبئ عن فهمها لما يدور بذهنه..

جاوبته بأريحية وسلاسة، تذهب به ومعه إلى حيث يريد:

- رغبة الست بتختلف عن احتياجها، والاتنين مُتغيرين.. من ست للتانية، ومن زمن لزمن..

قطب باستيعاب متضايق كأنما لم يأتِ ليفتش عن فلسفة، بل يريد حقيقة واقعية يمكنه القبض عليها بيديه كرجل عملي مباشر، زم شفتيه وصرح بذكورية خالصة:

- مافيش رد أبسط من كده!..

ابتسمت تهز كتفيها بتعليل بديهي:

- الستات كائنات معقدة، ما ينفعش تتعامل معاهم بالبساطة اللي بتتعامل بيها مع أي راجل زيك..

أوضحتْ بجدية علمية:

- ما ينفعش تعامل الست اللي في حياتك على إنها شيء مضمون، هيفضل بين إيديك للأبد..

ظلتْ تقطيبته كما هي، لم تنفك وإن شاب نبرته شيء من حيرة حادة:

- طيب ليه الستات ما بتلتزمش بالقواعد!.. ليه سهل يكسروا أي اتفاق سبق ووافقوا عليه!..

دققتْ فيه لثوانٍ، خطتْ شيئًا في أوراقها بعده رجعتْ إليه:

- أي ست ممكن تلتزم جدا بالقواعد مادام بعيد عن منطقة العاطفة، وأحيانا فيهم اللي بتقدر تتحكم في ده كمان..

ثم اعتدلتْ بعض الشيء تغير وضعيتها:

- بس في حاجة مهمة لازم تكون في الاعتبار!..

تغضن جبينه بتساؤل كان ردها عليها حازمًا:

- المتغيرات..

- بمعنى!..

تركتْ القلم من يدها، شرحتْ بإشارة منها تبين له بيسر:

- بمعنى إن الحياة دايما في تغير مستمر، كلنا بنمر بتقلبات، بظروف، بضغوطات.. بتأثر على قراراتنا واختياراتنا..

وضعتْ الدفتر على ساقيها وبدأت تلوح بكلتا يديها بحركات راقية متتابعة:

- يعني قرارات ووعود إمبارح ممكن وعادي جدا تتعرض لضغوطات النهاردة فيلزمها التغيير..

اعترض باستياء شبه حانق:

- بس كده في العموم أي وعود مالهاش قيمة!..

علقتْ بذات السلاسة:

- كل الوعود مادام خرجت عن حيز التحمل، مباح كسرها..

وهزتْ كتفيها باستطرادة هادئة:

- مش هتقدر تستمر في تنفيذ حاجة فوق طاقتك، حاجة مش قادر تتحملها..

عادتْ له تقطيبته بضيق غاضب:

- يبقى المفروض أعرف حدودي من البداية، ما أوعدش بحاجة عارف إنها فوق طاقتي..

- ولو ما كنتش عارف!..

بهتَ للحظة متفاجئًا بالسؤال الذي أكملتْ عقبه:

- التجربة وحدها بتثبت قدرتك.. فهنرجع تاني لنقطة المتغيرات؛ اللي تقدر عليه النهاردة ممكن جدا يجي بكرة ويكون مستحيل بالنسبة لك..

تراجع في مقعده بقنوط..

لقد أتى يبحث عن إجابات.. عن دوافع.. عن نجاة..

فإذا به يغرق تحت السطح، يجاهد لبضع أنفاس ويشهق باختناق..

مسح وجهه وعنقه بكفه، زفر بحرارة وقرر التصريح بحقيقة ما يريد:

- بيقولوا إن الشجاعة مش إنك ما تكونش خايف، الشجاعة إنك تنتصر على خوفك..

وافقته بإيماءة رصينة:

- ده حقيقي..

هز كتفيه باستسلام بائس:

- طيب لو كنت جبان؛ مش قادر تواجهه.. إيه الحل!..

كررتْ تأملها له.. هنا بداية العقدة الفعلية إذًا!..

خوف مرتبط بامرأة..

كررتْ التدوين بدفترها، بإثره ثابت نحوه ببصرها، توليه كامل اهتمامها، جاوبته بقناعة تامة:

- ماحدش بيواجه خوفه من أول لحظة، ولا حد بينتصر عليه من أول معركة في حربه معاه..

مالتْ تقترب بوجهها منه، تقتحم حدقتيه المرتجفتين، تنقب عن ذعره الدفين تحت قشرة هشة من صلابة.. يخفتْ صوتها ونبرتها العميقة تحاوطه:

- أنت خايف من إيه!..

أغمض عينيه، اعتصر أجفانه، تمثلتْ صورتها هناك في ظلامه..

باسمة.. حزينة.. عاشقة.. مستاءة.. ساخطة.. رافضة.. وبعيدة!..

أحكم قبضتيه على الهواء بقسوة، همس بحشرجة وجوابه صريح.. مباشر.. مفزع حد كل ألم ينهشه:

- خايف عليها؛ خايف تموت!..

وكانت تلك البداية.. أن يكتشف داءه ليعرف دواءه..

عليه أن يعترف بالمرض، تلك خطوته الأولى نحو الترياق من سموم مخاوفه..

مكث لخمس وأربعين دقيقة تالية انتهتْ بنهايتها جلسته، حدد موعد التالية واستقام ليرحل بأمل..

هناك في عتمة روحه الموحشة، قد يجد ثقبًا يعبر منه النور..

قبل أن يغلق الباب نادته، توقف، التفتَ إليها ليجد بسمتها المطمئنة:

- افتكر كمان لما قالوا إن الخوف ما بيمنعش الموت؛ بس بيمنع الحياة!..

وكم كانت حقيقية تلك الكلمات على محدوديتها..

هو لم يحيَ منذ ماتت زوجته التي عشقته ولم تنَل من قلبه الفتات..

حتى عندما تزوج ثانيةً، قرر الاستمرار، تعايش مع الفقد، تكيف مع الذنب.. حمَّله لنفسه واحتمله؛ أتاه عذاب قلبه وروحه وإثم ماضيه ليعيد عليه الكرة.. يقسو عليه بالوجع..

ويغلظ من عقوبته لأنه يدرك أعمق وأكثر مخاوفه ظلامًا.. الموت!..

**

الحب هو التفصيلة الصغيرة، المتوارية بين الضلوع والتي تحلو بها الحياة..

هو قارب النجاة في بحر عاصف، من فيضان لا يبقي ولا يذر..

الحب هو الأمان..

الحب هو السكن..

الحب هو الاكتمال..

يتنوع، يُفرز.. يحمل تصنيفات عدة، لكن في الأساس تبقى اللفظة.. "حب"..

الحب هو رجل تأخرت في عشقه.. في السقوط بهواه..

ولأنه يختلف؛ فسقوطها معه ناعم.. هادئ.. يتلقفها القاع اللين، يغرقها فيه فترضخ بسلام..

يعلن العشق، يغزو كل مدن قلبها، يحتلها.. ولأول مرة؛ تسلم لعقيدة محتل حتى وإن سبقه محارب قديم!..

حددتْ موعدًا مع طبيبة نسائية كما أراد، ورُغم أنه انشغل بعمله الذي انتهى بسفرة طالت لسبعة أيام ببرلين اصطحبها معه خلالها إلا أنها حافظتْ على وعدها له..

عاد في منتصف اليوم ليذهبا سويًا كما اتفقا، أسفل المشفى لم يترجل من السيارة مباشرة، أطفأ المحرك ومد يده يحتوي يدها، يضغطها برفق مرر إليها قلقه، ابتسمتْ برقة داعمة ختمتها بنبرة واثقة، صادقة:

- هتبقى أحسن بابا في الدنيا..

ربتتْ على كفه بيدها الأخرى، تتفهم توتره وإن كانت تراه مبالغًا فيه بعض الشيء:

- إحنا بقى لنا شهرين ونص بس؛ مش كتير يا منذر للقلق ده كله!..

شرد في ماضٍ ليس ببعيد..

لما يقرب من أربع سنوات مضتْ.. ظلتْ خلالها زوجته التي ترك لها خيار الإنجاب، وحرم نفسه منه لخاطر عشق..

ماذا لو حرمه قدره عنوة هذه المرة!..

انشق ثغره عن بسمة باهتة:

- نفسي أكون أب يا دُچى..

كررتْ الربتة والاحتواء والرفق:

- هتكون بإذن الله..

ترجلا سويًا، عانقتْ يده أثناء دخولهما للمكان.. أثناء انتظارهما.. وحتى ختمتْ حديثها مع الطبيبة التي دونت تاريخها كله، وآخر عادة شهرية زارتها..

لم تنفصل عن عناق أصابعه إلا عندما صعدت تتمدد فوق فراش الكشف، تترك جسدها لطبيبتها التي تفحصت رحمها بتركيز، بإثره ابتسمت بابتهاج مرح:

- سيدة إدريسي؛ أنت تحملين جنينًا بالفعل..

نطقتها بالألمانية التي يجيدها كلاهما.. وتجمد الاثنان!..

كانا ذاهبين لبدء محاولة جادة، ترضية له، فإذا بقدره يعطيه الهدية الأعظم، هتف هو بتشبث وعيناه تتوهجان بأمل:

- حقًا!..

أجابته الطبيبة بعملية حازمة بينما تواصل تفحص رحمها، عمر الجنين وحجمه وكل ما يخصه:

- نعم، في بداية أسبوعه الخامس فحسب.. ويبدو بصحة جيدة..

سمعتْ تنهيدته.. رأتْ إغماضته المرتاحة.. شاهدتْ تصلب جسده يسترخي ببطء، مدت يدها تلامس كفه فطوقها بقبضته بلا تردد..

خرجا من عندها بمشاعر مختلطة، لكنها ميزتْ سعادته دون تكلف أو تورية، ما كان يتمناه حدث.. لا تأخير.. لا تعب أو مشقة أو انتظار..

فقط لو صبر لربما علمت قبل تلك الزيارة..

دعاها لتناول طعام الغذاء بمطعم تحبه، تجولا لبعض الوقت في أحد المراكز التجارية.. كان يقف أمام واجهات المحلات التي تبيع مستسلزمات الأطفال، يتأمل حاجيات حديثي الولادة حتى أنه في نهاية الجولة لم يقاوم شراء مهد أبيض اللون، بستائر ناعمة تظلله..

عندما عادا للمنزل؛ سبقته تختفي بغرفة النوم.. تمنعه من تتبعها، تهمس له بغنج عن مفاجأة!..

وهو لم يفعل، توجه لمكتبه ينهي عملًا عالقًا حتى أتته تتهادى في غلالة حريرية طويلة أقرب لثوب سهرة أنيق، تجذبه من جلسته.. توقفه، تحل رابطة عنقه، تتركها فوق كتفيه ثم تجذب طرفيها لتقربه منها، تقف على أطراف أصابعها وتبدأ قبلة ناعمة تشبهها.. قبلة تعلم أنه ينتظرها بشغف ليتممها، ويلتهمها بعدها..

لم تنتبه إلا متأخرًا أنه لم يبادلها قبلتها!..

تصلبتْ شفتاه تحت وقع شفتيها، لم تدرك أنه حتى لم ينظر إليها معجبًا، مغرمًا كما يفعل على الدوام.. لم يُبدِ لهفته، أو توقه..

تراجعتْ ترمقه بدهشة حائرة، تسأله باستغراب دون فهم:

- مالك يا منذر!..

وجدته يرميها بنظرة باردة لم تقابلها في عينيه من قبل!..

يحرر رابطته من قبضتيها، يتراجع خطوتين، يفرد ذراعيه على اتساعهما.. يزفر بحرارة كأنما فاز بجائزته الكبرى، ظفر بعد شقاء بما اشتهى:

- بسيطة جدا؛ mission accomplished..

ارتد جسدها كأنما ضربتها صدمة خفية لم ترها.. لم تفطن إليها أو تستوعبها.. شيء ما فيه، تغير..

شيء تفتش عنه ولا يدركه عقلها، أو تتسع له أسوأ خيالاتها!..

حاوطتْ صدرها بذراعيها، كأنما شعرتْ أن عريها أمامه في هذه اللحظة العدمية عار:

- مش فاهمة..

اقترب بغتة يشرف عليها.. تقسو عيناه.. تُظلم..

تُظهر الغضب والرفض و.. المقت!..

- أفهمِك..

وكما اقترب ابتعد، جلس في مقعده يسترخي بسطوة.. يتطلع إليها بازدراء طعنها بأعماق قلبها، يمدد قدميه وذراعه يستند لمكتبه.. بصره يطوقها، يخنقها، يخيفها:

- الموضوع سهل قوي يا دُچى..

أشار بكفه بحركة مسرحية درامية تليق بعبثية الحدث:

- أنتِ مديونة لي بطفل..

ضربة ثانية، قاصمة سددها لكل ثوابتها في أرض العشق والكبرياء والأمان..

تنهد.. تنفس.. سلط نظرته القاتمة عليها بلا رحمة مردفًا بصرامة بترت كل فكرة عن مزاح سخيف، أو دعابة غير مضحكة:

- ودلوقتِ أخيرا؛ جه وقت تسديد الدين..

الحب تفصيلة صغيرة تعمي عينيك عن الكثير، تحجب عن قلبك ما هو أكثر وإن ظل نافذة روحك.. نعم أعمى..

حتى وإن كنت مبصرًا ستزل عن الحافة، ستسقط.. والقاع الذي ظننته لينًا.. سيحطمك!..

**

على أرض الواقع هناك مرادف آخر للحياة بها.. الأذى!..

ما عليك فعله أن تختار؛ تتأذى.. أو تؤذي..

تختار أي طرفٍ ستكون أنت!..

كانت الطرف الأول بخديعة، واختارت أن تصبح الثاني بقرار..

أليست هذه هي فلسفة الغاب!..

فريسة سهلة، انكسرتْ بعشق، تحطمتْ بحقيقته، تهشمتْ مع آخر خساراتها..

كانت فريسة انتوت افتراس الصياد..

مر شهر على اتفاقهما، حتى أنه عندما أخبرها قبل ساعات عن موعد السفر سخرت باستخفاف:

- ممكن أستنى شهر كمان لو تحب!..

لكنه لم يبادلها سخريتها، أهداها نظرة باردة ورد بعملية جادة:

- شغلي يا وسن..

انحنتْ بطاعة مفتعلة وتبدلت البسمة للاستهانة:

- طبعا..

حضرتْ حقيبة ضخمة، بثياب تناسب ثلاثة أيام كما حدد لها وقت بقائهما هناك، وجدته يضع على الفراش ثوب سباحة أزرق اللون، من قطعتين تتماسكان حول الجسد بأربطة بسيطة، الصورة جعلتها تتأمله بصدمة.. تغاضى عنها بصرامة:

- حطيه في الشنطة..

- أنا مستحيل ألبس الشيء ده..

حاوطها بنظرة هازئة قاتمة وغادر إلى مكتبه:

- هتلبسيه..

بأمر قاطع يضع السيف على عنقها..

من يظنها!..

حتى وإن صدَّق بكونه الحاكم بأمره في كل ما يخصها، هي لاتزال تملك إرادتها الخاصة.. وتلك الإرادة لا يعلم ما تخفيه عنه حتى الآن..

الذئب آن أوان سقوطه!..

وضعته كما أمر، ابتسمتْ بوحشية لا تليق برقة ملامحها، أغلقتْ الحقيبة وانتظرتْ حتى حلَّ الصباح..

سبقها للسيارة، انتظرها حتى جاورته، ما إن أدار المحرك وخرج بها من بوابة المنزل حتى أوقفته وهي تتحسس عنقها:

- عمار.. نسيت السلسلة في الحمام!..

تغضن جبينه وهو يصفها جوار إفريز جانبي:

- أي سلسلة!..

ردتْ ببرود ساخر:

- رمز الأسر..

بعدها همست بخفوت مناشد وهي تلمح انعقاد حاجبيه:

- ممكن نرجع نجيبها!..

كاد يرفض بحسم لولا أن استطردتْ بعجالة:

- محضرة لك مفاجأة هناك، وهي مهمة جدا..

فكر لثوانٍ، قرر أن يمارس لعبتها معها..

ينتهج درب التسلية، ولن ينكر.. أثارت فضوله!..

ترجل من السيارة، قطع الخطوات التي تفصله عن المنزل سيرًا، عشر دقائق وعاد يحملها داخل قبضته المضمومة، جاورها.. أشار إليها لتقترب وطوق بها عنقها..

خضعتْ بسلاسة مازالت تريبه في كل مرة.. بعد ما يقرب من ست ساعات وصلا للمكان الذي تغير تمامًا عن آخر زيارة!..

بُني سور يسيجه؛ زُرعت بمقدمته حديقة عشبية أنيقة، تبدلت واجهة المنزل لتصبح من الزجاج بالكامل.. والجزء الخلفي منه احتله مسبح متوسط الحجم يناسب اتساع الأرض من حوله..

توقفت بدهشة تتطلع لكل تلك التفاصيل، حائرة في ذاك التجديد المباغت والذي لم يخبرها عنه:

- جددت المكان!..

أهدته نظرة غامضة بها شيء من تهكم:

- حولته لقصر صغير على البحر..

تجاهل حديثها بعدما التقى ببصرها، دلف للداخل الذي بات حديثًا، فخمًا بشكل لا تصدقه!..

متى فعل كل ذلك!..

المطبخ، الجدران، المعيشة، الأجهزة المنزلية، غرفة النوم.. حتى الكهرباء والإضاءة ونظام الصوت المركزي..

تجمدتْ خطواتها تطوف بناظريها في كل أرجائه بتعجب، ترفع حاجبًا لوهلة، تخفضه وتتوجه من فورها إلى غرفة النوم بتجاهل يشبهه.. استمعتْ لخطواته تتبعها، يقف من وراء ظهرها، يهمس بأذنها باستمتاع:

- البسي المايوه بقى..

استدارتْ إليه وفطنتْ لمقصده:

- عشان في حمام سباحة وسور، مش كده!..

أمال رأسه لليمين بنظرة مستهجنة:

- أمال كنتِ فاكراني هاعمل عرض خاص لرواد الشاطئ بجسم مراتي!..

ارتجف جسدها للحظة بترتها بحسم..

رفعتْ ذراعيها تعانقه، تطوق بكفيها عنقه.. تشرد فيه، في سحر عينيه الذي أسرها من قبل..

تفكر.. تغيب.. تتمنى وتعود حيث ذبحتْ الحقيقة كل أمنية بقلبها:

- تفتكر لو ماكانش بينا الماضي ده؛ كان ممكن...

صمتتْ لا تستطيع نطق الكلمة ولو بخيال محض، أكملها عنها بنبرة جافة، خاوية:

- أحبِك!..

ارتجفتْ مقلتاها في محاولة للثبات، محاولة دعمها بقسوة مباشرة، صريحة، فجة حد الألم:

- أنا مش بتاع حب يا وسن..

حررها ملتفتًا تجاه الخارج، عقب ثلاث خطوات أعلنتْ بقرار باتر:

- عاوزة أنزل البحر..

تغضن جبينه ورمقها من فوق كتفه بصرامة:

- لأ..

هزأتْ ببسمة جانبية طفيفة:

- مش بالمايوه ما تقلقش..

صمتَ ينتظر خطوتها التالية.. تلك اللعبة لا تعجبه، يريد أن يكون طرفًا فيها، لكن الجهل بقواعدها كارثة!..

فتش عن هاتفه ليطمئن من محاميه على عمل تركه عالقًا، لم يجده.. بحث في كل مكان، ثيابه.. المنزل.. السيارة، لم يكن هناك، حتى سألها عنه فهزتْ كتفيها بلا..

عادتْ إليه بسروال قطني يقف على حدود ركبتيها، وقميص خفيف بحمالات عريضة يحاوط جسدها مبرزًا بعضًا من مفاتنها، جال بناظريه فوقها فدارتْ حول نفسها:

- أكتر احتشام ممكن تقابله..

بتر كل أفكارها دفعة واحدة بحزم جليدي:

- هنأجل موضوع البحر، إلا لو قررتِ تنزلي لوحدك..

تساءلتْ دون حديث، وجاوب بينما يلتقط مفاتيح سيارته ويرحل:

- محتاج أشتري موبايل، في شغل مهم متعلق لازم أطمن عليه..

ركضتْ خلفه..

بكل حرفية الكلمة، ركضتْ وتعلقتْ بذراعه توقفه، نظر نحوها مستنكرًا ففندتْ باستجداء:

- يوم واحد بس يا عمار..

حرك حاجبه متعجبًا، أردفتْ إثر تنهيدة مستسلمة:

- يوم واحد نكون فيه سوا، بعيد عن العالم.. من غير شغل، من غير أي حد..

لا يدري لمَ فكر!.. لمَ وافق!..

لمَ بقي!..

بل اصطحبها بين موج البحر العالي، وهي تبعته بشجاعة أعجبته.. شجاعة أدهشته فضاعفتْ الدهشة بتبرير يلائمها:

- ماعدتش عاوزة أخاف من حاجة، أي خوف جوايا قررت أتحداه..

وتلك الليلة حضرت له المفاجأة التي أخبرته عنها.. ثوب السباحة الذي لا يكاد يستر شيئًا..

قلادته.. ثورة خصلاتها، وحمرة شفتيها الصارخة..

ليلة أفاق من آثارها قرب الظهيرة، فوجدها كما هي تسكن صدره..

تحيره.. تفجر ألغام شكوكه فتحولها لأشلاء مبعثرة..

كانت مختلفة طيلة اليومين التاليين، حتى في طريق العودة ظلتْ ساكنة.. تراقب الطريق عبر النافذة بشرود..

عندما وصلا للمنزل وقبل أن يغلق بابه من خلفهما أتاه أحد رجاله يعدو بلهاث:

- عمار بيه، البوليس هنا وعاوزين يقابلوا سعادتك..

حيرة أصابته، شعر بها تقترب منه.. ترمقه بقلق..

لكن إن كانت حيرته تناسب الخبر، فالسبب كان صادمًا!..

- عمار الديب!..

أومأ بإيجاب، ناوله ضابط برتبة رائد ورقة رسمية:

- معانا أمر ضبط وإحضار..

دون أن يسأل قرأ التهمة الموجهة إليه..

تهمة جعلته يود أن يحرق تلك اللعينة حية، وسيفعلها لو طالها..

الذئب متهم بالنهش!..

باغتصاب امرأة!..

امرأة تحمل اسمًا يعرفه!..

"لينا الجيار"..

(39)

مرحبًا بك في الجحيم..

حيث الاحتراق هو البداية!..

**

ماذا تعلمون عن الزلازل!..

هزة أرضية..

عنف، قسوة.. اختلال، تصدع..

فقدان سيطرة.. فوضى..

موت!..

تقاس قوة الزلازل بمقياس شهير اسمه "ريختر".. مصنف من واحد لعشر درجات، وكلما زادت الدرجة بات تأثير الهزة أكثر وحشية على رؤوس ساكني سطح الأرض..

يقال أن هذا المقياس لم يسجل حتى الآن الرقم "عشرة"..

ذلك هو الدمار الشامل الذي لن تبقى بعده حياة..

ذاك هو مقياس تلك اللحظة التي فُصمت عنق سعادتها بأسوأ بتر، المقصلة لم تسقط لتفصل رأس الجنة عن جسد الجحيم..

المقصلة تعلقت بالهواء، وتركتها تحتها في شبه أمل واهٍ..

تخشى الموت، تتوقعه، تترقبه، تنتظره.. ولا تناله..

المقصلة هي حروفه التي تشكلتْ من نار، أحرقتها بلهيبها وتشتهي منها المزيد.. مزيدًا لم تحتمله ساقاها، لم يستسغ حضوره قلبها، لم تُلِم به عيناها، أظلمتْ دنياها بغتة وسقطت!..

لم ترَ لهفته.. لم تشعر بضعفه.. بخوفه.. بلومه لذاته وإن اسود عالمه وقرر بلا عدل أن يقوم بدور القاضي والجلاد..

سيحكم وسينفذ الحكم..

سيشنق كل مشاعره بأنشوطة الكبرياء والحب والألم، سينفذ فيها قرار الإعدام بلا شفقة أو رحمة، هي التي خانت القلب منذ اللحظة الأولى..

وثب يتلقف سقوطها فوق صدره، يحملها للأريكة بمكتبه، يمددها بهدوء، يلتقط سترته ويلقيها حول كتفيها ثم يبتعد ببصره عنها..

يشرد في أمس غير بعيد..

حين تختلت، اختارت الفراق، وقبله الحرمان..

حين اختار هو الصبر، العودة، تكرار المحاولة..

حين رآها معه!..

تبكيه.. تتشبث به.. تلامسه ويهرب هو منها..

حين اصطدمتْ به زوجة الآخر الباكية فحماها من سقوط مهين..

حين كان عاشقًا، وهي...

خائنة!..

قلبها معلقٌ بماضيها، وهو.. ماذا كان هو!..

مرحلة..

وسيلة شبه جيدة لتمضية الوقت دون المعشوق..

المعشوق الذي ما إن ظهر في الصورة حتى ركضتْ إليه، المعشوق الذي أوقفتْ حياتها معه على قصته القديمة بقلبها..

المعشوق الذي حرمته طفله لأجله!..

مرر أصابعه في خصلاته واستدار يرمقها من وقفته بنظرة قاتمة، يلعنها ويعشقها ويقسم على الثأر لفؤاده الممزق منها..

ضاقت عيناه مع مرآه لاهتزازة أجفانها، يبدو أنها ستعود لوعيها.. التفت بكامل حضوره موليًا انتباهه لها، كفيه بجيبي سرواله.. جامد الملامح، صلب النظرات، فاتر الشعور..

المشهد بأكمله باهت.. فارغ، بلا معنى..

راقبها تباعد بين أهدابها، تدور برأسها في المكان، تلتقي ببصره.. تشحب، تنتفض من مكانها، تعتدل لتجلس وكفيها تنقلان السترة لتحاوط بها كتفيها في شبه ارتداء..

تخفي جسدها عنه.. تواري روحها بعيدًا عن اقتحامه وتسلطه..

تواسي قلبها المنتهك باسم عشق ظنته فردوس الخلود..

تزم شفتيها وتتذكر، تتجمد.. كلماته تُعاد بعقلها، تلسعها كألف سوط من وهج محترق، تترك بكيانها ندوبًا لن تُمحى..

"أنتِ مديونة لي بطفل"..

"ودلوقتِ أخيرا؛ جه وقت تسديد الدين"..

بعض الكلمات كالعناق تهديك بين حروفها راحة، سلام.. سكينة..

وبعضها كخناجر مسمومة؛ تقتلك مرتين.. مرة بالطعنة، ومرة بالسم..

ظلتْ حروفه تتردد بذهنها مرات ومرات، تستعيد النبرة، النظرة، الحركة.. يتكرر الحدث بتفاصيله بين ثنايا التيه، يجبرها على الوعي وكل ما تنشده هو الغياب..

تتحرك بأنفاس متعثرة، تضم السترة أمام صدرها بأصابع مرتجفة، تنهض من جلستها وتقترب.. تواجه.. تحتل بسمائها الغائمة بالحزن حلكة سمائه:

- ممكن تفهمني معنى الكلام اللي قلته؟..

انزوى جانب فمه بسخرية مريرة.. رمقها من موضعه بشموخ بارد:

- الموضوع مش محتاج شرح..

التزمت درب الهدوء لأنها لا تملك سواه..

تشعر وكأن أحدهم منع عنها كل الطاقة الممكنة، تتحرك ببقايا، تقف ببقايا.. وتجاهد للفهم في محاولة لتكذيب ما مرت به..

الكذب هنا نجاة.. والحقيقة خوف قاتل..

لم تلُمه، لم تستطع حتى الغضب.. هي لحظة مهترئة من زمان موصوم بعار العشق، فاقدة ومفقودة.. ضالة.. مشتتة، تائهة في جنبات سراب كان أملًا قبل دقائق..

ارتعشتْ رُغمًا عنها، ضمتْ قبضتيها تتمسك بأطراف سترته التي تغطيها، ترتعد كأنما الصقيع ينتشر بكيانها بسرعة حد الانهيار التام:

- يعني إيه يا منذر!..

همستها بشحوب واهن..

تعلق ناظريها به في ضعف غريب أضعف قلبه، فزجره بحدة، نبرته أتتها خشنة، صلبة تناسب انفجار دواخله المكتوم:

- يعني دي الحقيقة اللي لازم تعرفيها، وتنفذيها..

- حقيقة إيه!..

ربما حان وقت الصراخ.. إعلان الغضب بوسط معركة هُزمت في ساحتها دون أن تدرك كيف تدار الحروب..

بل دون أن تعلم بوجود الحرب!..

صراخها أجج شرارته، أشعل سعيره واحتدم بحدقتيه، انقض يقبض على مرفقها بغلظة آلمتها، يهزها بلا انتباه.. يُسقط السِتر عنها ويعلن هياجه الذي طال دفنه له تحت سطح عشق في يوم ما كان حقيقة.. كان.. مازال..

جذبها نحوه بلا رفق، امتدتْ يده الأخرى تتحكم بذراعها، توقف دوران عالمها بسيطرته ولهجته تحتد بفظاظة صريحة، مباشرة.. متهمة:

- أنتِ فاكراني مش عارف وافقتِ ترجعي لي ليه!..

بعدها دفعها عنه، تماسكتْ بعسر، تصارع سقوطًا جديدًا.. بعثرةً.. هوانًا، بينما هو يأخذ دور بطولة مسرحيتها البائسة قسرًا، يحتل خشبة المسرح بعناد.. يغزو مدارها ويجتاح شتاتها كريح عاصف، يتلو كلماته كأنما يترنم على قلبها بتعويذة شيطان تمَلَّك منه دون أن تدرك متى أو أين أو لماذا!..

تلمحه من وراء ضباب أغار على الأفق يشيح بذراعه، يفرده بتهكم، ويشرح لها درسها بلا رأفة:

- لتاني مرة يزن أبو الغار يرميكي بطول دراعه عشان تقعي في حضني أنا..

توسعت عيناها مع حديثه.. هو يعلم!..

كان جاهلًا لكن مع أول وجع المعرفة نقب عن الأمس ووجد ما فاته من حواشي الحكاية..

يعلم عن قصتها المنقوصة، تلك التي فاتتها الخاتمة، وبخل عليها كاتبها بسرد فمزق صفحاتها من كتابه في المنتصف، تسمعه يكمل

والقسوة تحفر جذورها بصوته.. في اختلاج أنفاسه.. في اضطراب جسده.. وسواد مقلتيه:

- بس المرة دي بقى؛ أنا عارف الحدوتة القديمة..

لا يهديها الفرصة لتدافع.. لتشرح.. لتبرر، يعيدها قربه بذات القبضة الغليظة، لا يكترث إن مزق لحمها بأصابعه، ينهش الحروف كما ينهش روحها، يحطمها بأسنانه ويزدردها من أحشائه الدامية:

- عارف إنه رفضك عشان متجوز ودلوقتِ عنده ابن.. عارف إنك حرمتيني أكون أب عشانه، عارف إنك طلبتِ الطلاق بعد تلات سنين كنت فيهم زوج مؤقت عشان ترجعي له..

ثم ضحك وصورتها تتجسد إزاء عينيه دامعة، تحتوي كف رجل سواه، تتعلق به، تناشده عودة..

ضحك بسخرية خفتتْ بالتدريج وصولًا للوجع:

- بس المفاجأة إنه كان متجوز؛ يا ترى بقى كنت هتاخديه من مراته ولا كنتِ هتبقي زوجة تانية!..

الرجفة هذه المرة طالت حتى أطراف أناملها، تراجعت تبتعد فتركها بامتعاض.. ارتطم ظهرها بالجدار، أوقف تراجعها، انكمشتْ على نفسها كأنما تتمنى الغوص في ذراته وهو مستمر في عرضه التراجيدي، مستمر في قذف التهم على مثاليتها.. على أخلاقها ومبادئها، وحتى أنوثتها:

- ما هو الحب بيخلي الواحد أعمى..

غمغم بها هازئة، مستفزة، حانقة.. أخذته العزة بالإثم مسيئًا كل ظن، مباح أو غير مباح:

- بيخليه ممكن يعمل أي حاجة حتى لو رخيصة، عشان يفضل مع اللي بيحبه..

لم يلاحظ تصلبها، بهوتها، ساقاها اللتان بالكاد تحملانها.. لم ينتبه لما تمر به وهو يجهز عليها بطعنات متوالية لا تتوقف:

- حتى لو داس على كرامته وأبوته..

يتحدث عن نفسه، عما ضحى به وقرره لخاطر قربها.. يعود إليها، يراها ولا يراها، يحاوط كيانها بعتمة كارهة تستجدي البغض..

الخلاص، ولا تحظى به، يحاصرها في موضعها، يضغط كل أوجاعها دفعة واحدة:

- أنا ليَّ هدف واحد من رجوعك؛ ابني..

مال يتمم همسه الحارق قبالة وجهها:

- تحققيه وبعدها...

ما بعدها معلق في الهواء.. ما بعدها مبتور.. ما بعدها مجهول..

أو ربما معلوم!..

سيأخذ طفلها ويطردها من حياته، وتلك هي صفعة الإفاقة، دفعته تبعده عنها بحدة.. حدة باغتته فتراجع خطوة مع دفعتها، اقتربتْ هي تحتله واحتلالها دومًا ما أفقده توازنه واتزانه..

دومًا ما أسقطه بين موجات بحرها..

دومًا ما أغرقه:

- دي أنا يا منذر!.. هي دي الصورة اللي رسمتها ليَّ!.. بعد كل السنين اللي بينا خلاص بقيت خاينة في عينيك!..

عيناه غيمتْ عليهما سحابة رمادية حجبتْ كل بصيص ضوء، وهو يجيب بجمود بعث في نفسها رهبة غير مفهومة:

- تخيلي لما تعيشي مخدوعة سنين، بتدي بكل ما فيكِ، وفي الآخر تكتشفي إنك كنتِ مجرد سلمة.. وسيلة لتمضية الوقت!..

استمرأ مجددًا بطولة العرض، ففي الجحيم وحدهم الشياطين يتألقون وإن احترقوا:

- زعلانة إني خدعتك كام شهر!..

لم تصدق.. وكيف عساها تصدق وعشقه كان حقيقتها الوحيدة في غابة الكذب!..

مررت كل اتهاماته وتشبثت بالهوى.. بالقلب.. بسكناه:

- أنت بتكذب..

اقتربت تحاوط عينيه بعينيها، ترفع يدها قربه دون أن تلامسه، تتعلق بخيط وحيد هو الباقي..

خيط العشق.. خيط الامتلاك..

طلسم السحر وتميمة الغرام:

- أنت جيت ورايا ونقلت شغلك مصر ورجعتني عشان لسه بتحبني..

بسمته الباردة هزت ثقتها الواهية، خاصة عندما تمم برود المشهد بجواب جليدي:

- جزء من كلامك حقيقة..

خالف الرد توقعها.. وإن وافق الأمنية:

- أنا فعلا لسه بحبك..

هلل القلب بظفر، انتشتْ أنوثتها بانتصار بترته نبرته الشرسة:

- وعشان كده هتفضلي جنبي لحد ما أزهق وأزهدك..

عادتْ لنقطة الصفر، للمربع واحد في لعبة، فؤادها والهوى فيها مجرد بيادق مقبول التضحية بها وقت الحاجة، ارتدتْ بأنين مكبوت لم يكترث له وبأسه يهاجمها بصلابة:

- لحد ما أخف من حبك..

انتبهت لآخر كلمة..

العبرات كان تراود ثباتها عن نفسه، تجبرها على الانصياع لكل وجيعة مرت بها.. تحييها بداخلها، تعيد فتح جميع الجروح الماضية.. تضغطها حد النزف:

- تخف!..

ابتسم فبدا أشبه بوحش بري ينوي التهام فريسة سقطتْ في فخه، قطعة قطعة على مهل:

- أيوة أخف.. حبك ده مرض، وقربك هو الطعم اللي هيدي قلبي مناعة منه..

عقبها شرح بنبرة كالحنظل.. مرة، مقبضة، باعثة على الاختناق:

- زي تطعيمات الأطفال الصغيرة، بنديهم الميكروب أو الفيروس بجرعات مقننة عشان الجسم يكون مناعة تحميهم من المرض..

ولم تصدق لمسته التي طافت حول وجهها بتبتل لا يخلو من الشغف:

- أنتِ الطعم اللي هيحميني من مرضي بيكِ يا دُچى..

ثم أجفلها وقتما اعتقل ذقنها بخشونة جافة، هامسًا أمام شفتيها يصليها سعيره، وهواء صدره يرتطم بها حال ارتحاله خارج رئتيه:

- وما تطمعيش في أكتر من كده..

الآن أنهى الزلزال عمله..

تلك الأنقاض بكاملها صنيعة يديه، وهي ضحيته التي ستموت تحتها في كل لحظة لأنه عاشق..

عاشق مذبوح، قرر أن يتخذ الذبح بيديه منهاجًا..

**

العلم لا يتوقف عند حد، ولأن الزلازل تمثل خطرًا يمكن تفاديه إن امتلكنا الوسائل المناسبة، فقد بات هناك قدرة على توقعها!..

كان يتوقع زلزالًا، على المقياس درجته ضعيفة إلى متوسطة.. على أية حال هي لا تملك الموارد الكافية لتهدم عالمه حد التدمير الشامل،

خطتها مهما بلغت قوتها سيدهسها تحت قدميه دون أن يطرف له جفن.. لكنها باغتته!..

غياب مؤقت مقصود.. عودة في توقيت ملائم..

شرطة، تهمة ظالمة.. وفضيحة!..

حيث خرج من منزله تحيط بمعصميه الأصفاد، والصحافة كانت حاضرة لتلتقط الصور..

"رجل الأعمال الشهير، هو ذئب مغتصب للنساء"..

أخفى وجهه متجاهلًا طوفان الأسئلة والهجوم المتوقع، استقل سيارته بصحبة سائقه وأحد الجنود، وبالنيابة التي استقبلته للتحقيق معه على الفور كان بانتظاره محاميه..

"لينا الجيار"..

الطعم.. المصيدة.. الفخ..

تتهمه بانتهاكها رُغم إرادتها، بمطاردتها، والشهود أثبتوا وجودهما معًا بأماكن مختلفة..

الحفل، ملعب الاسكواش، الشركة..

أقوالها تثبت أنه زارها بمنزلها بخدعة ساذجة، خدرها، اغتصب جسدها.. وغادر تاركًا لها الخسارة والكسر..

تهمة ليست هينة، وتحتاج لدليل دامغ..

لكنها لم تقدم واحدًا بل زادتْ عنه بما لا يقبل الشك..

تقرير الطبيب الشرعي وبين قوسين "المزيف" الذي يثبت حدوث علاقة، أثر أحد الأدوية المخدرة بدمها.. وهاتفه!..

هاتفه المسروق، والمفترض أنه سقط منه بشقتها الصغيرة حال وجوده معها دون أن يشعر..

أجادتْ اللعبة ولن ينكر، لولا ما حدث.. لولا أن الخبر يغرق مواقع التواصل والفضيحة عنونتْ الجرائد الصفراء؛ لصفق لها منبهرًا..

كاد لوهلة مع مرآه لرعبها عليه حين أخذته الشرطة من المنزل أن يصدق في برائتها، فقط اليوم التالي أثبتَ له الحقيقة..

أثبتها عندما راقبها تقف على باب غرفة وكيل النيابة بكبرياء، تهديه قبل الدخول نظرة جانبية ساخرة وقد استدعيتْ للشهادة..

يعلم من محاميه أنها دعمت أقواله بوجوده معها.. لكن!..

هو تأخر عنها.. تحجج بعمل جعلها تسبقه ثم تبعها متأخرًا..

بكتْ بدموع حقيقية، انهارتْ بإخلاص وتفانٍ، دافعتْ عنه.. هو لن يفعل أمرًا مشابهًا.. ورمت وسط العسل سُمها..

استأذنتْ المحقق في الالتقاء به وقد تم حبسه على ذمة القضية، حينها آن أوان اللعب بأوراق مكشوفة وإعلان الخدعة، الحيلة التي أجادتها بلا هفوة..

اللعب ممتع، المكيدة متقنة، القرائن تشهد ضده على بساطتها، والتهمة حتى لو نجا منها فيكفي كارثة انتشار الخبر عن الذئب الغادر..

استقامتْ تقابله بملامح ثابتة، لا تعلن انتشاءها بما جرى وإن كانت النشوة تفيض بعروقها، تبتسم ببساطة وتصرح دون تورية:

- فعلا معاك حق..

لم تنتظر تساؤله عن مغزى كلماتها، اقتربت خطوة تردف معها وبسمتها تتسع:

- الجهل نص المتعة..

ربتتْ على كتفه، تتظاهر بمحوها لذرات تراب علقتْ هناك، غير مكترثة لجموده وصلابة وجهه وعينيه:

- والنصر النص التاني..

تحجرتْ فوق ثغره بسمة قاسية متجاهلًا فضول البحث عن التفاصيل:

- ما تعلنيش النصر بعد أول معركة..

مطتْ شفتيها بتنهيدة حارة:

- أول معركة هي الأخيرة يا عمار..

لا تدرك هي أن معارك الذئاب دومًا ما تنتهي بالنهش..

أنها هنا الفريسة..

أن النهاية ستكون بيديه كما البداية..

اتقدتْ نظرته بلهيب جهنمي:

- التسرع في الحكم غلط يا وسن، هيعرضك للخسارة..

لم تكترث بحديثه..

هي أتمت حربها معه، حتى وإن لم يعلم ببقية الخطوات.. بعد!..

مدتْ أصابعها تداعب خشونة ذقنه برقة عجيبة، رقة لم تشكل فارقًا على المشهد السوداوي باقتدار:

- مشكلتك يا عمار إنك مستهين بيَّ..

اقتربتْ تهمس قرب أذنه بخبث ماكر:

- ما تعرفش إني عاملة حساب لكل خطواتك اللي جاية، وسابقاك بألف خطوة..

وتراجعتْ تغوص بمقلتيه.. تتشبث بالبرود.. بالجمود.. بامرأة ولدتْ على يديه من رحم الغدر والكذب والتلفيق المسموم:

- اتعلمت من الديب.. من الأستاذ الخبير..

لم تأبه لصمته المنصت بعناية، كأنما يفتش عن ثغرة يعلم بوجودها وإن جحدت بها:

- حتى لو خرجت من التهمة دي وماخدتش فيها إعدام ولا مؤبد..

عادت تهمس بخفوت شديد، عابث:

- التهمة الزور طبعا..

التمعتْ عيناها ببريق حاقد، تجهر بالنفور وتبدي العداوة، تصدح بالمقت والكره ورغبة القتل:

- الفضيحة كفاية إنها تدمر سمعتك للأبد..

عقبها قست نبرتها بعنف مبرَر:

- باتمنى تموت زي بابا ما مات بسبب كذبك..

ثم غامتْ نظرتها بضباب داكن، احتل حدقتيها ظلام مستحق.. وامتعضتْ بتهكم مرير:

- بس للأسف، اللي زيك بيعيشوا كتير قوي..

استحوذ على معصمها وسحبها لترتطم بصدره، صنعتْ حاجزًا بينهما بساعدها تقاوم سيطرته المقبضة.. تبغض قربه..

ترتجف رُغمًا عنها بينما يجبرها على الإصغاء لحروفه المغموسة بالغل والنار والثورة:

- غلطانة يا وسن وهتدفعي تمن غلطتك غالي..

جاهدتْ لتفلت من حصاره، تتملص من طوقه الخانق، تصلها كلماته كجليد مهما مر عليه من حرائق لن يذوب:

- لازم تفهمي إن الحياة مزاد؛ بيكسبه اللي يدفع أكتر.. وفي نفس الوقت يكون عارف إنه هيكسب من وراه الضعف..

انتشى صوته دون سبب محدد، فقط هو يعلم حدودها مهما عاندتْ أو ادعتْ تخليها عن المثالية والمبادئ الإنسانية البالية:

- مزاد أنتِ أول مرة تدخليه، يعني مبتدئة.. ماتعرفيش التاجر الشاطر بيعمل إيه عشان يفوز!..

ونفضها عنه، حررها وتركها تتعثر في خطواتها هاربة من حضوره..

أفكاره في صراع حاسم لابد وأن تتبعه نجاة.. وكما هي قوانين المزيادات؛ عليه فقط أن يجد الصفقة المناسبة ويدفع أكثر!..

تلك الحياة ليستْ الجنة.. لا تسكنها ملائكة لكن تستحقها الشياطين.. أو تتسيدها!..

حقيقة بائسة، مخيفة لا نملك إلا التسليم لها..

الواقع يخبرنا في كل يوم عنها.. يثبتها لنا، يدحض بها أوهامنا وينحر معها أمانينا، يرميها في وجوهنا كبصقة احتقار لبرائتنا وسلامنا، بل حتى أحلامنا..

حقيقة أن الغابة تحكمها الضواري، وتُفترس فيها الغزلان..

وهي مهما تلبست جلد الوحوش؛ ستظل طريدة يمكنه قنصها.. نهشها.. إنهاءها متى ما أراد أو اشتهى..

**

البعض لا يشعرون بالزلازل حتى وإن كان بها الكثير من قوة..

لا يهتز عالمهم.. لا يكترثون..

يأتي ويذهب وهم على لامبالاتهم، لا تتغير فيهم هفوة، ولا تتبدل أحوالهم بأقل مقدار..

تستمر حياتهم في مسارها، كونهم واسع يحاوطهم بأمانه، أرضهم تتبع مدارها، وشمسهم على ديدنها؛ تشرق كل صباح من المشرق.. وتغفو كل مساء إلى المغرب.. لا شيء!..

كما عالمه تمامًا، زوجة أخيه لا تزال في غيبوبتها، عاد للعمل واستقرتْ أمور الشركة العالقة، وزوجته ضائعة في دوامة اكتئابها..

تارة تبتهج وتمرح معه، تلتهم الطعام بنهم لا يبدو أثره عليها بطريقة عجيبة..

وتارة تبتئس، تبكي طويلًا، تتباعد عنه وعن الصغير.. لحد يؤلم قلبه، نفسها تعاف الطعام والشراب وتنطوي على وحدتها بغرفتها..

وهو مشتت بين الجميع..

الجد الذي بات يمكنه السير بعصا يتوكأ عليها..

الأخ.. الزوجة.. الابن.. وابن توأمه الراحل!..

متنفسه الوحيد كان بالعمل، هو الأقل ضغطًا من حيث ينظر، ينهي ساعاته بشبه راحة يعود بعدها ليغرق في باقي مسؤولياته..

متنفسًا تعرض لبتر حاسم حين كان يصف سيارته بمرآب الشركة المفتوح، يترجل منها ويتجه إلى الداخل بخطوات ثابتة.. لم تكتمل!..

أتتْ من خلفه نحنحة بصوت رجولي مجهول، كأنما هناك شخص ما يناديه ولا يعرف اسمه!..

توقف بهدوء واستدار منتبهًا..

استدار ليتوقف الزمن للحظة واحدة وحسب، داوم استمراريته عقبها في دربه المرسوم..

على بُعد مسافة قصيرة كان يقف رجلًا رمادي الخصلات، تحمل ملامحه بقايا وسامة لم تتأثر بعمر، بلحية كثة وابتسامة حائرة بين الثقة والارتباك..

تعرفه على الفور رُغم السنوات التي احتلتْ وجهه بتجاعيدها..

تعرفه ونفر منه..

تراجع خطوة وجبينه يتغضن بصرامة رافضة جعلت الآخر يقترب بلا وعي، بسؤال لا يباح استغرابه.. هو حقيقة شاء أم أبى:

- يامن مش كده!..

لم يحتج لأكثر من تلك اللحظة الفائتة ليستوعب حضوره.. مواجهته.. الزلزال الذي لم يشعر به، ولن يشعر..

التوى جانب فمه ببسمة جامدة تشوبها سخرية قاسية:

- لأ..

تهللتْ أسارير الدخيل قليلًا متجاهلًا الجمود والنفور الواضح:

- تبقى يزن..

رفع حاجبيه مجيبًا وقساوته تتضاعف بنبرته الباردة:

- أيوة يزن، يامن.. الله يرحمه..

نطقها بقصد وراقب الصدمة.. الألم.. الارتدادة المختنقة، وبهوت النظرة كأنما يبالي!..

لا.. هو لا يفعل، وسيهاجم دون إبطاء.. بلا تورية:

- إيه اللي رجعك!..

لمح توتره، ارتباكه يعود.. حزن عينيه يسطو على كامل تفاصيله، لعثمته في جواب كما يبدو غير مُرضٍ:

- رجعت عشانكم..

مد "يزن" كفيه في جيبي سرواله بفتور:

- هاسألك تاني؛ إيه اللي رجعك!..

- يزن...

ناداه وتوقف.. جاهد للشرح، للتبرير، لاستيفاء شروط التوبة والعودة.. إعلان الندم والبكاء على ما مضى..

جاهد، حارب، تعانقتْ أجفانه بوجع لا يمكنه حجبه فهو ينقش أثره على كل ما فيه.. قبض يديه وبدأ بتشتت:

- أنا كنت مضطر، جدك كان...

- لأ..

نطقها "يزن" بفظاظة شرسة وقد وازتها إشارة يده الحادة تخرسه، تلجم حروفه وتشنق كلماته واعتذاراته ومسوغات رحيله، أكمل بثبات بعدها:

- مش عاوز أعرف ولا مهتم..

شاهده يقترب ثانيةً، خطوتين مترددتين بانكسار:

- خليني أشرح لك، متأكد إنك هتفهم..

اقترب هو خطوته بعزم لا يلين، قاسٍ، غليظٍ، وقلبٍ مقفلٍ بلا أمل:

- خليني أنا أشرح لك!..

قطب الغريب بحيرة ضائعة لم تهتز لها شعرة بجسده:

- أنت بالنسبة لي ميت، وجودك زي عدمه، مجرد صفر على الشمال مالوش قيمة..

وخطوة تالية زادها جعلته يواجهه تمامًا..

تتوازى القامات.. تتقابل الأعين..

القسوة في مقابل التشبث..

البُغض في مقابل التوسل..

الرفض في مقابل الأمل..

- أيا كان السبب اللي رجعت عشانه بعد تلاتين سنة؛ ما يهمنيش.. ما تحاولش تبرر، ما تحاولش تقرب، ما تحاولش تحشر نفسك في حياتي أو تخلق مكان مش من حقك..

كاد جلد أصابعه يتمزق مع الانقباضة العنيفة، وقلبه يضخ الدم بأوردته فيوشك على الفتك بها وبه:

- ماتحاولش تدور على مسؤولية اتخليت عنها زمان..

انشقت شفتاه عن بسمة وحشية يمكنها أن تقتل:

- أنت مالكش مكان هنا..

وهو كان يتفهم.. يشعر..

يئن، كل خلاياه تئن.. قلبه.. روحه.. ضميره.. عقله.. اضطراب نبضه واختلاجات حواسه..

من تخلى لعمر، لا يستحق ضمة ترحاب بعودة.. لا يستحق عودة..

- أنا فاهم يا يزن كل ده، عارف خسرت إيه.. كفاية يامن!..

فقد جديد يخطه قدره بسجل خساراته..

خسارات قريبة متتالية ناء بحملها ظهره حتى انكسر..

فاجئته الضحكة الخافتة، باغتته فرمق المواجه له بدهشة كأنما أصابه مس من جنون، أدرك مغزاه حينما تمتم بتهكم:

- لو كنت قلت لك إني يامن، ماكنتش هتحس بفرق.. بلاش دراما..

مال نحوه بوجهه مستهينًا:

- مش لايق عليك الدور..

اعتدل في وقفته يشد جسده بتجبر مقصود:

- أظن لازم تجاوب دلوقتِ على السؤال؛ رجعت ليه!..

نعم حان الوقت.. آن أوان الصدق والصراحة حتى وإن كانت شبه قاسية، تهرب بناظريه نحو أفق وهمي.. همهم بتعب جلي:

- عشان محتاجكم..

لم يعلق الأصغر، ظل على صرامته الجافة منتظرًا تتمة لم تتأخر:

- مش عارف عنوان البيت، اضطريت آجي على الشركة، كان أسهل ألاقي عنوانها..

- عاوز فلوس!..

كان سؤالًا مباشرًا وقحًا غير مهتم، تغضن له الجبين بتفهم حزين:

- لأ يا يزن.. مش عاوز فلوس..

تردد لثوانٍ حسم خلالها أمره:

- عاوز عيلة..

- عيلتك مش عاوزاك، مش عارفاك..

- يزن!..

يعاتبه بعذاب تعجب له، كيف يملك صفاقة العتاب!..

كيف يأتي ويواجه ويسأل وهو حتى لا يعلم من هو!..

- رجعت ليه!..

دمدم بها الحانق من بين فكيه المطحونين معًا، كانت هامسة تتحسس الأحرف وتمضغها، تهرسها، تبصقها حتى أنه ابتعد يوليه ظهره بانحناءة استسلام:

- عاوز أقابل جدك، مش هاقدر أقول أسباب دلوقتِ.. بس لازم أشوفه..

جده!.. أخيه!..

أتراه لا يعلم بوجوده!..

وتذكر رغبة القتل..

وجيعة سيوقظها ظهوره من غفوتها، وهو به ما يكفيه ويفيض..

- لأ..

نافية، حازمة لا تتحمل الجدل، عاد إليه الآخر بنظرة مذهولة:

- يعني إيه لأ!..

هاجمه دون حذر:

- يعني لو عاوز فلوس هاديك اللي أنت عاوزه وتختفي تماما من على وش الأرض، زي ما كنت..

زعق به محتدًا بأحقية يراها له:

- الزم حدودك يا يزن، أنت بتتكلم مع أبوك..

رأى ارتفاع حاجبيه المستهجن الساخر، فأردف ممررًا أصابعه فوق صفحة وجهه:

- قلت لك مش محتاج فلوس، محتاج عيلتي..

وصمت لحظة اتخذ بنهايتها القرار:

- شوف هتخلص شغلك إمتى وتاخدني معاك البيت!..

لقاء واحد.. ماذا لو!..

سيقابل جده، يطرده الجد كما يتيقن، يرحل بلا رجوع هذه المرة.. وينتهي الحدث المختل قبل ظهور الأخ الأصغر..

تقدم نحو سيارته بهرولة:

- دلوقتِ..

استقر بمقعد السائق، لم ينتبه لشرود مر طيفه على وجه الواقف بالخارج، توتره الذي عاوده بينما يجاوره بكلمات خافتة:

- هنعدي على الفندق الأول، في حاجة مهمة لازم أجيبها معايا..

لم يعلق، لم يكترث.. تبع إرشاداته حتى الفندق الفخم، ابتسم للمهزلة فكما يرى هو لا يحتاج للمال بالفعل!..

غادر السيارة يرتكن إلى مقدمتها، يشعل لفافة تبغ يحترق معها ويحرق بها أنفاسه، يرمق مدخل المكان الأنيق بعين غائبة وعقل تائه.. حائر هو، كاره، يتمنى لو لم يعُد..

التوقيت لا يحتمل عودته.. لا أحد يريد عودته..

لا...

انحشرت أفكاره بتلافيف مخه مع ظهوره!..

يسير تجاهه بهدوء، يده تحاوط يد طفلة بالكاد تبلغ الثانية عشر أو الثالثة عشر من عمرها.. يقربها منه، يضم كتفيها بحمائية، يقابله، يقدمها بصوت حانٍ ونبرة دافئة:

- توليب عبد الله أبو الغار..

عندما تلاقى بصره ببصر والده سمعه يستطرد باحتياج:

- أختك يا يزن..

ربما الآن عليه أن يشعر بالهزة الأرضية تقلب عالمه رأسًا على عقب..

تهدمه، تعيد بنائه، تشكله، تجدد فوضاه وتبعثره، تجبره على ابتسامة مهزومة تفيض بمرارة العلقم، على إغماضة يائسة والقنوط يحتله..

يراها تراقبه بتأمل فضولي، بها عنفوان لم يستغربه.. تابعها تجلس في المقعد الخلفي، لمحه يعود إليه، يجاهد لرسم بسمة فاشلة فوق شفتيه، يزفر بحرارة من قلب جحيمه الخاص:

- رجعت عشانها، أختك محتاجة عيلتها يا يزن..

بالطبع..

لا يبحث عن عائلة تحتاجه؛ بل يفتش عن عائلة يحتاجها..

هز رأسه ينفض أفكاره عنه، يستقر بمركز دائرة صخرية، يراقب ذراتها الحجرية تطوف من حوله بلا شعور.. يتابعها بعين مشاهد

بعيد عن الحدث، لا أحد أبطاله الذين قرر الكاتب سحقهم بلا ذرة من شفقة.. لا يريد أن يعلم ما فاته، ما مضى دونه..

استقبل الخبر دون رد فعل، قاد به السيارة تجاه المنزل والذي يدرك غياب "يعقوب" عنه في تلك الساعات من بداية اليوم، دلف عبر بوابته الخارجية بسيارته.. فتح بابه، وبخطوات مباشرة توجه نحو غرفة جده يتبعه.. أبيه!..

المتمرد الأول قد عاد..

"اطلع برا"..

صياح "يونس" الذي كاد يحطم جدران المكان ما إن رآه.. كيف يمتلك الجرأة ليمثُل أمامه بوقاحة!..

يتعلق بيده رُغمًا عنه، يدافع برواية خيالية.. يحكي عن أمس سحيق وقريب، قصة هروب، تحدٍ، عناد، عبثية تليق به..

كيف فرَّ بعد وفاة زوجته التي أنجبتْ توأميه، عن حياته الباردة معها فقط لأنها ناسبتْ تطلعات الجد الاقتصادية وشراكته مع أبيها، كيف أفرغ حسابه ورحل لا ينوي عودة..

عن سنوات مرت عليه شاردًا بين البلدان حتى التقاها!..

امرأة العشق والقلب والعمر.. تزوجها، استقر معها بمدينتها الفرنسية الريفية، أنجب منها فتياته الثلاث!..

ثلاث غاب عن عالمه منهما اثنتين بصحبة أمهما في حادث مروع، خسارة لا مثيل لها وفقد لا يعوض..

بقيت ابنته الصغرى وهو وحدهما..

ابنته التي ليس لها سواه، فلو رحل لظلت وحيدة بغابة البشر..

فتاته التي عاد لأجل أن تبقى مع أخويها!..

فيضحك منه القدر، يباغته الموت بسرقة ابنه الأكبر.. إضافة لجروحه النازفة، وثقل يقصم روحه..

يقر بذنوبه جميعها، يعترف بتوبة ويأمل في غفران..

ليس الشرير.. هو فقط المتمرد الأكبر!..

هو الزلزال الذي غير وجه حياة كل من شعر به، أو حتى لم يشعر..

**

2814

ماذا لو أن عالمك يخلو من الكوارث الطبيعية!..

الزلازل، الفيضانات، البراكين الثائرة..

تسألني لمَ!..

لأنك لا تمتلك عالمًا من الأساس..

أنتَ جُرم صغير مشتت، ضائع، وحيد، يحلق بلا جاذبية، بلا مدار ثابت..

لا يتبع كوكبًا ولا يضيئه بريق نجم لامع، بعيد عن كل مسارات البشر.. ساقط من ملكوت الإنسانية لحضيض الوحشية بسلام ورضى..

قدرك اختار لك السقوط، وعندما قررتَ المكابرة، التحدي.. حينما أعلنتَ عليه الحرب؛ كسرك!..

ثلاثة أشهر كاملة تممها اليوم، لم تفِق بعد، لا تريد.. وهو لأول مرة منذ سنوات فقد عددها لا يملك ما يفعله، يعود لخانة الاستضعاف والعجز..

يتابعها، يتابع حملها بطفليه، بطنها التي انتفخت بوضوح يأسر بصره في كل زيارة، ملامحها الشاحبة، غيابها المرتاح..

هي استوطنتْ جنتها الخالية من الشيطان.. منه..

زياراته أصبحت وكأنها مُجدولة، زوجة أخيه مع زوجها، حتى طفلها لم يؤثر حضوره بها.. كأنما استغنتْ بالوهم عن الحقيقة..

بالخيال عن واقع الألم..

بالهروب عن مواجهة الذنب، ذنب لا يد لها فيه وإن تحملته، تقهر قلبها به..

وهو.. السابح بضياع في فراغه الخاص، لا حياة.. لا نبض.. لا أفكار.. لا مشاعر.. يمرر وقته بروتين بطيء باهت، أيامه تتابع بلا معنى أو هدف، حتى الانتظار أصبح كنهر راكد لا تعكر صفو وجمود سطحه موجة عابرة..

لكنه لم يعلم أن الموجة لن تمر من هنا، هنا سيقذف بأعماقه حجر صلد، هائل الحجم، يبعثره، يشتت قطراته، يشعل بقاعه النار، يبخره.. يقتله!..

أنهى العمل الذي يشغل عقله به وتوجه للبيت كما هي العادة، ليجد أن ذروة الحبكة كانت تترصده هناك..

السقطة التالية التي تضرب بها روحه، وتكسر معها صلابته..

بمنتصف ردهة المنزل كان يقف بصحبة جده وأخيه، لقد عاد!..

تلك اللحظة.. عندما لا تُلقي بالًا لعالمك بأكلمه؛ فتجده هو يشعل شرارة احتراقك..

لحظة خاطئة انتقاها قدره من بين آلاف ليضعه في مواجهة رجل منحه نصف جيناته.. ملامحه.. قامته الطويلة..

فحمية خصلاته وإن شابتها لديه رمادية ضاعفت من جاذبيته..

مواجهة كانت الأعين فيها على الجانبين خاوية..

خالية..

جوفاء..

حتى طال الصمت فسأله أبيه:

- أنت مين!..

السؤال.. اللقب..

لا يحق له أي منها، هو حتى لا يعرفه.. لم يميز التشابه، لم يتأثر الفؤاد..

يتفحصه بدهشة مستغربة؛ فالهيئة والتفاصيل ليست بعيدة..

لكنه لا يتذكر أين رآها من قبل!..

لم يدرك عقله أنه يطل عليها في مرآته كل صباح..

والأصغر لم يهمس بحرف.. كل حروفه مغلولة، مخنوقة.. ميتة على حدود لسانه، معدومة بحكم ظالم عند أطراف شفتيه..

كل ما فيه رحل.. ينظر نحوه ولا يراه، كان شبحًا في مقابله..

بعدها تحرك خطوة قصيرة لليسار، ثم بخطوات واسعة تخطاه..

لا.. بل عبر من خلاله كأن وجوده العدم..

لم يكترث بجواب لسؤال..

لم يكترث بدماء اشتهى إراقتها، تلهف لمذاقها..

لم يكترث بحرب فكل حروبه خبتْ نيرانها بقلبه..

بات رجل الرماد..

جحيمه انطفأ..

صعد الدرج بجمود ومن خلفه سأل الأب ابنه الأكبر:

- مين ده يا يزن!..

ابنه الذي يدرك ما يحدث وينعصر فؤاده، يهدي والده نظرة تحمل ذات الخواء وإن لامسها بعض قسوة.. بعض مقت.. بعض رفض:

- يعقوب..

الاسم يحمل دلالته!..

كما يبدو لا، فالوالد العزيز قطب بحيرة لا يتذكر.. أكمل والبرود ينتشر في خلاياه، يفيض من نبرته:

- يعقوب عبد الله يونس أبو الغار..

تبدلتْ الحيرة بعيني الوالد لذكرى نبتتْ فجأة من فراغ النسيان بينما هو يردف ببغض:

- أخويا الصغير..

يبتسم في سخرية سوداء تليق بتراجيدية الحدث الكئيب:

- ابنك..

الابن الذي استقر بغرفته لدقيقتين وسعيره يحتدم بداخله، يطغى على خموده، يفترس ما تبقى منه دون هوادة، يأكله بلا إمهال أو فرصة نجاة.. جنونه يطفو بانفجار..

وحشيته تتمرد على عقال البؤس والحزن والقنوط..

ينهض الضارية من سُباته ليحتل المشهد.. بسلاح يشبه قرينًا سبق واستخدمه في القتل، بركض، بدَرَج اختطفه وثبًا.. ويده تقبض على سترة "عبد الله".. يدفعه إلى أقرب جدار، يلصقه به ويغرس الفوهة التائقة لحرارة رصاصة بعنقه جوار ساعده الذي يخنقه..

لا كلمة.. لا حرف..

حتى الأنفاس توقفت وإن رأى هلع النظرة بعينيه!..

"يعقوب!"..

صرخة انطلقت تحمل صوت اثنين..

الأخ والجد..

دنا منه "يزن" بذعر، يمد ذراعيه أمامه، لا يلامسه كأنما يخشى انفعالًا منفلتًا يليه موت، ينهض "يونس" من مقعده بحركة واهنة في محاولة للمنع..

"غزل" التي كانت تراقب بتوتر حرِج من بعيد تشهق برعب..

وطفلة!..

وحدها اقتربتْ أكثر من اللازم، انحشرتْ قرب ذاك الذي على وشك مغادرة الحياة، بكتْ وتعلقتْ به بخوف.. برجفة.. بضياع:

- بابا!..

أخته!..

اللقب الذي حُرم نطقه عمره كله منحه لها هي..

سحب صمام الأمان، وأعلنتْ عيناه عن النهاية..

"يعقوب!.. ما يستاهلش"..

أتتْ ملهوفة، مبادرة، مبالية من أخيه، سمع خطواته، دورانه حوله، رآه يسعى لنيل بقعة من عتمة أفقه، ركنًا من محيط بصره يهبه به أمانَ دعمه ووجوده..

"ما يستاهلش تضيع نفسك عشانه"..

"اعتبره ميت، هو ميت فعلا"..

"ولادك يا يعقوب!"..

مع انعقاد الحاجبين، الرعشة التي وأدتْ ظلمة وقسوة حدقتيه أكمل "يزن" بأمل:

"عاوزهم يتيتموا!"..

"يتربوا من غير أب، زيك.. وزيي!"..

"هتهرب من مسؤوليتك أنت كمان!"..

عاد الظلام مع كلماته الأخيرة، أدرك الأخ أنه داس لغمًا والفتيل اشتعل، وقف بمحله ينتقي كل حرف يهمس به:

"فكر فيهم، فكر في شمس"..

"الموت خسارة فيه، أنت خسارة فيه"..

"مش هاقولك اختار نفسك؛ لأ.. اختار ولادك"..

ثم كانت القاصمة.. الحاسمة:

"عاوز تبقى زيه!.. تفضل نفسك وتضيع ولادك من غيرك!"..

مثله..

لا.. ولو انطبقت سماء الكون على كواكب مجراته بأكملها..

مثله..

لا.. وإن تخلى عن ثأره بإرادة حرة..

مثله!..

تكررت الكلمة تنتزعه من غيابه، من حمرة دماء تزين الصورة أمام ناظريه.. تزينها نعم، تضفي عليها رونق النصر ونشوة الاكتمال..

تعيده لواقعه، لملجأ آمن بين جفني أخيه..

لأنفاس تصله ممن حوله، يغلب عليها الفزع والاهتمام..

يرتجف.. كل ما فيه يرتجف..

يتنفس باختناق والهواء يتعثر في مروره لصدره..

يرى الصغيرة ترمقه بكُره مبرر..

يتسلل لمسامعه همس "يونس" باسمه..

توسُل "يزن" بهمهمة شفاه غير مكتملة وحروف مبتورة..

والشمس تحتل أفق خياله، بآخر مشهد لها.. باحتواء رحمها لطفليه..

يفقد كل شعور، تنطفئ كل نار.. إلا نار الوجع!..

تعلو ألسنتها وصولًا لفضاء فارغ، موحش وتتأجج مخالفة لكل قوانين الفيزياء والطبيعة..

يسحب "يزن" السلاح من قبضته، لا يصدق أنه يلمح بمقلتي والده شيء من ندم، بعض من ذنب، ذرة غير مباحة من استجداء الغفران!..

يدور على عقبيه ويركض كما لم يركض من قبل، يود لو ترك الحياة بالكلية من ورائه، يصل لأذنيه لهفة الجد بأمر حازم يشوبه قلق:

- ما تسيبوش لوحده يا يزن..

كأنه سينتظر!..

بلا تردد كان يتبعه.. لا يبلغه في الوقت المناسب، لكنه لا يتوقف.. يلاحقه بسيارته التي انطلقت في الطريق الهادئ الموصل لخارج المدينة، يزيد عليه.. يضاعف من سرعته حتى تخطاه، وتوقف يعترض مساره بحزم..

أطلقت إطارات سيارة "يعقوب" صوتَ احتكاكٍ عالٍ مخيفٍ وهي تزحف قبل التوقف التام قرب سيارة "يزن" الذي ترجل منها وهرول نحو الأخ الأصغر..

يصيح من الخارج خلف الزجاج المغلق:

- افتح يا يعقوب..

لا جواب.. فقط صمت مقفر يشبه قبره الذي ابتلعه حيًا..

نظره مسلط على المجهول، قبضتيه تعتصران المقود، جسده متصلب خامد ككل ما فيه..

دار "يزن" حول سيارته بحذر، فتح بابها وأدهشه أن يستجيب له!..

جاوره بسكون دام لخمس دقائق كأنما يحترم سكونه وجموده وغيابه، بختامها زفر بتعب، مد يده يربت على كف "يعقوب".. يمنحه بوجوده جذرًا يثبته لأرضه.. لوطنه..

- أنا هنا..

لا يلتفت.. لا ينتبه.. لا يشعر:

- أنت ما بقيتش لوحدك، ومش هتكون بعد كده خلاص..

كأن ذلك يهم!..

ماذا لو اختفى، تلاشى، تسامى، تبعثر، تبخر!..

ماذا لو توقف خافقه عن النبض وارتاح!..

- ومش أنا بس، أهم حد.. ولادك..

هنا عادت إليه الرعشة..

مفتاح كل ألغازه، والحل لمعضلات نفسه..

الغد والحياة والأمل والنجاة.. والخوف..

دقيقتين تاليتين ولم ينبس بحرف، لم يتبدل معدل تنفسه، لم يطرأ أي تغيير على المشهد المتجمد، حتى أدار "يزن" وجهه إليه قسرًا وهاله ما ارتسم على حناياه..

بين أجفانه!..

قطرة واحدة.. تتألق بلمعة مرتعشة وسط المقل..

تمنعها القسوة عن الهطول، تحجبها بصرامة.. بقوة وصلابة.. برفض مستعر، محترق..

وتفتح الطريق أمامها، تدفعها عن أطراف الحافة بإصرار.. أوجاع كل أمس مر عليه، كل أمس كان فيه وحيدًا، منبوذًا، ضعيفًا، مستضعفًا، مكسورًا، فاقدًا ومفقودًا..

تبيح لها سيلًا تبتره الكرامة، تظلله الغلظة، يبخره لظى جحيم شيطانه، تشتته عواصف وحشيته.. تذروه -مثلما انتهى من ماضٍ- أدراج رياح الهزيمة والعذاب والعجز..

عجزه في هذه اللحظة، قيده الذي يكبل عنقه، يغل يديه؛ لا يشبه سواه..

لا يشبه أي عجز كان، على مدار ما فات من سنوات عمره..

"يعقوب!"..

همسة مشفقة أتت فيها الإفاقة..

غادر السيارة، خطا للأمام يعي تتبع الأخ الأكبر، قرب السيارة الأخرى توقف.. دار حول نفسه يضل عنها وتضل عنه، رأى انعكاس وجهه في زجاجها..

لم يعرف ذاك الذي يطل عليه هناك، كان غريبًا.. هو دومًا غريب..

كان طفلًا مشتتًا بلا مأوى أو أهل..

عاد بالزمن وتقلصتْ أحشاؤه، توالتْ صور البارحة تلاحق عينيه، تجبره على الرؤية.. تهزمه، تميته..

تسارعتْ خطواته حائرة، هنا وهناك.. حتى نظر لنفسه ثانيّة، وتوحشتْ النظرة.. اسود العالم، أظلم بعتمة حالكة لا حياة فيها..

ضم قبضته ولكم الزجاج، مرة وثانية وثالثة حتى وجد "يزن" يكبله.. يحاوط جسده بذراعيه ويمنعه بعدما تحطمت النافذة وانغرستْ شظاياها بلحمه، تهديه نزفًا لم ينتبه له..

يبعده ويصرخ به حانقًا:

- أنت بتعمل في نفسك كده ليه وعشان مين!..

يديره لمواجهته رُغمًا عن أنف هروبه، يمسك بيده الدامية، يتفحصها بغضب:

- عبد الله ولا حاجة، ميت.. وهيفضل بالنسبة لنا ميت..

يتركه على وقفته، يذهب لسيارته فيتناول مفتاحها، يغلقها ويجبره على مجاورته بخاصته، ينطلق للمشفى المقيمة به زوجته.. يسلمه لأحد الأطباء لمعالجة جروح كفه، يقف قربه، لا يتخلى، لا يغيب عن نظره ولا يُغيبه عنه..

ظل مستسلمًا، خابيًا بعدما مرت موجة هياجه المنقوصة.. عقب انتهاء الطبيب من استخراج الشظايا وتضميد جروحه؛ صحبه "يزن" إلى حيث المكان الأمثل لاحتواء ما يمر به..

غرفة "شمس"..

هناك تركه يجلس على مقعد بموازاة فراشها، يسقط بصره عليها ويسقط بكيانه معها مرة إثر مرة..

يسقط حتى القاع، يرتطم به، يتهشم لألف قطعة.. يغمض عينيه ويستسلم..

الآن فقط يريدها أن تعود بحق..

الآن أضحى يبغض الانتظار..

الآن يغرق بوحدة لم يضاهِها شبيهٌ من قبل..

الآن بات يشتهي الرحيل..

غلبه نعاس ضعيف حين ضياعه، نعاس رآه المراقب له من خلف الباب الموارب.. تنهد بعاطفة تملكته بلا قدرة على مقاومة، زم شفتيه، أغلقه برفق.. وذهب..

هو الآن.. بأمان!..

**

هل تعلمون أنه يمكن اصطناع الزلازل!..

هي امرأة حضورها بحد ذاته بركان، إعصار، طوفان..

امرأة تفترس في طريقها الأخضر واليابس ثم تتجرعه بمياه البحار والأنهار وغيث السماء ولا تكتفي..

معظمنا نحن البشر بداخله صراع أزلي، بين الخير والشر..

بين الأبيض والأسود..

بين الظُلمة والنور..

بين البراءة والخبث..

بين الطُهر والدنس..

بين الإثم والتوبة..

لكن فينا هؤلاء المتشبثون ببداية الخلق، بخيرهم ونقاء فطرتهم وحسن سريرتهم..

كما أنه فينا كذلك المتصالحون مع شياطينهم، العاقدون معها معاهدة سلام، والحرب بينهم لم تدُر رحاها لمرة..

يتبادلون اللقاءات في المحافل الجحيمية، ويتعايشون سويًا في تناغم هادئ..

وسط الصراع يسقط كثيرون..

بالاستسلام للفطرة يُدهس أكثر..

حينها تنتهي اللعبة بانتصار الأبالسة وإن كان لعرض زائل، وعمر قصير نهايته الجحيم الحقيقي..

هي تحالفتْ مع شيطانها، بدأ الأمر بفضول تطور لصداقة، طالبة نجيبة باتت الأستاذة بدرجة قدير، انصاع قلبها لنبضه بجمال بداية، فكسرته بعدها مع النهاية.. احتجزته خلف قضبان القسوة والبرود والجحود، منعته الحضور والظهور والحياة..

وها هي، في روايتها وكل رواية مرت بين سطورها تلعب دور الشرير الحقير، الفاسد الطالح، المقتص مهما كانت الوسيلة، المنتصر ولو بغدر..

أكثر من شهر مر على دعوتها له للسفر إلى منزلها الخاص بـ"سهل حشيش".. حيث الماء والخضرة وهي.. الوجه الحسن..

سوفتْ كثيرًا، تحججتْ باختبارات صغيرها التي شارفت على الانتهاء، بعدها ظهر عمل ما يحتاجها بناديها الصحي الذي يتم تطوير بعض أجزائه، حتى نضج تمامًا..

حتى احترق!..

وها هي اليوم.. تستيقظ باكرة للغاية قرب الشروق، حقيبة ثيابها تنتظرها مغلقة، وهاتفها يضيء باتصال منه..

ردتْ مكالمته ببساطة سلسة، أعلمته أن أمامها أقل من ساعة وستكون عند بيته، أصرتْ على السفر بسيارتها وليصحبها إن شاء أو يتبعها بخاصته، وهو قرر أن يظل بصحبتها على الطريق، أن يكون قربها لأطول وقت ممكن..

كان ذاك خيار القلب الغافل، التائه في هواها مهما قستْ وتهربتْ وعاندت..

صدقته في موعدها، عقب ستون دقيقة كانت توقف السيارة قرب منزله، تلمحه يقترب منها بحقيبة خفيفة يحملها على كتفه، يرميها على المقعد الخلفي ويستقر إلى جوارها ببسمة مشتاقة:

- صباح الخير..

مطتْ شفتيها وضغطت دواسة الوقود لتنطلق بلا تأخير:

- صباح النور..

نظر وراءه بنصف عين مستغربة:

- كنت فاكر إن آدم هيكون معانا!..

نظرتها هي كانت جانبية شبه ساخرة:

- آدم سافر سويسرا، عنده معسكر هيفضل هناك طول الصيف تقريبا..

رفع حاجبيه مندهشًا من تخليها عنه، عن قربه ووحدتها دونه:

- هتسيبيه كل ده!..

زفرت بجواب مقتضب:

- لأ طبعا..

وبدلت فحوى الحديث بتلاعب مغوي:

- خايف تكون لوحدك معايا ولا إيه!..

اعتدل قليلًا يتأمل فتنتها..

نارية خصلاتها التي تنسدل حول وجهها العاجي كلقاء ألسنة النار بنعيم الجنة..

شفتيها.. عنقها الطويل، أصابعها الرقيقة التي تتحكم بالمقود بسيطرة أنيقة تشبهها، تنهد وأبعد بصره الغائب فيها عنوة:

- حقي أخاف يا دافني..

ضحكتْ بخفوت مرح، وعبثها يحتل اللحظة بوقاحة:

- الشيطان مش هيكون تالتنا؛ ما تقلقش..

لأنها في كل مرة، تمارس هذا الدور وبجدارة..

هي شيطان المشهد وحواء الغواية الآثمة..

بادلها ضحكتها وشرد فيها.. لا يدري ما تفعل به!..

ماذا تريد منه!..

تقربه، وتبعده.. تمنحه وتمنعه.. ترضى عنه وتنبذه..

تُناقض الفعل بفعل، وتحرك بداخله كل جنون مستحق لا يجوز مع سواها..

عرض الزواج ورفضته، طلب الفرصة فوافقت.. وها هي توارب له الباب، لكنه لا يعلم هل يباح له اقتحامه وتكرار العرض؛ أم أن ذاك قد يدفعها لغلقه بوجهه!..

تبادلا ساعات القيادة حتى وصلا للمنزل المعد لاستقبالهما، كانت شمس الظهيرة ترتفع بحرارة صيفية هادئة مع بدايات يونيو، رتبا أمورهما، تناولا طعامًا خفيفًا وسبقته تغادر المكان متجاهلة المسبح إلى البحر القريب.. ارتدتْ ثوب سباحة مثير كما كل ما فيها، فوقه مئزر خفيف شبه شفاف، وقبعة صيفية.. تمددتْ على مقعد طويل، وتركتْ جسدها للشمس تهديه شيئًا من ذهبية أشعتها..

الشاطئ كان هادئًا كعادة ذلك التوقيت، بعض رواده لمحتهم على مسافة بعيدة دون وضوح.. إثر دقائق قصيرة سمعته يجاورها في مقعده، يهمس لها بمشاغبة:

- ليه البحر!..

أخفضت منظارها الشمسي الضخم عن عينيها لترمقه من فوقه بنظرة غامضة:

- أنا جاية عشان البحر، الـ pool عندي في البيت..

أعادته لمكمنه تخفي به نظرتها المستخفة، المستهينة بمحاولاته الأفلاطونية للقرب.. للتسلل لقلبها المتحجر.. تعانقتْ أجفانها في سلام اللحظة وتركته لمعاركه الخاصة..

رُغم الحب القديم، القرب وفكرة زواج لم تكتمل هو لم يرها على هذه الصورة من قبل!..

ما يختفي من جسدها تحت الدثار كأنما يتوسله أن يمد يده لينزعه عنها.. ذلك الإغراء المقنن.. فلا يصدم بتعرية كاملة، ولا يواري حد الستر.. هو حرمان مطلوب، ونار تجيد إشعالها فيه بقصد..

ساعة من ملل مرتْ، تلذذتْ خلالها بعصير بارد تحت المظلة الضخمة، بدأتْ الشمس تهبط من السماء نحو الغروب المريح، حينها استقامت تخلع عنها مئزرها، ترمقه كيف أبعد ناظريه بعسر..

تبتسم بسخرية لم تصل لنبرتها الناعمة وهي تجبره على النظر إليها باقتراب متعمد، تلامس لحيته الكثيفة بعض الشئ، تنحني لتواجهه بأنفاس دافئة:

- هانزل البحر، مش هتيجي معايا!..

لاحظتْ مشقة ابتلاعه لريقه، تراجعتْ بتلكؤ وخطت بظهرها تجاه البحر بشبه ركض ضاحكة بشقاوة أجبرته على بسمة عاشقة..

نهض يتبعها بالفعل، نزع قميصه القطني ولحق بها، بين الموجات الزرقاء سقط في غرامها من جديد..

كانت تبدو لعينيه كحورية حقيقية، رحلت تفر من الأسطورة، تخلتْ عنها وتمسكتْ بواقعه هو، لهيب خصلاتها تبلل فبدا أكثر دُكنة حتى أنه تناغم مع بشرتها بفتنة أكبر..

اقترب منها وبين الموج، وسط المشاكسة والضحكات لم يقاوم القبلة!..

مذاق ساحرته المخلوط بملوحة مياه البحر..

بعنجهية ذكورية كان يدرك أنها لن تمانع، لم تكُن الأولى.. ولا يريدها أن تصبح الأخيرة، يشتهيها.. يشتهي امتلاكها حتى النخاع.. يريدها في عالمه حتى يفرق بينهما الموت، يريدها بكاملها له..

عندما تراجع لم يحررها كما في المرة السابقة، تمسك بها، غاص بمقلتيها، احتوى وجنتها والمد يرتفع ليضربهما معًا، يهمس هو بشتات رجل لم يعُد يتلو بيوت الشاعر، ولا يحميه قانون المحامي المخضرم:

- بحبِك يا روزا..

يناديها بدلال فتاة العشرين!..

مع كل ما فات تركت له الخيط ليسحبه.. يلفه حول عنقه، والطرف الآخر بيدها؛ في الوقت المناسب وبعد أن ينطبق على عنقه فخ عقابها ستشده بقسوة..

ستخنقه، ستحرق دنياه، ستدمر مبادئه ومثالياته فوق رأسه وقلبه..

ستقتله كما قتل وتخلى وباع ذات أمس!..

**

الحب زلزال القلوب، ومقياس درجاته بلا حد..

هو الهادئ.. الناعم..

المتسلل.. الخاطف..

الخافت.. العميق..

القوي.. المدمر..

هو نهاية النبض بها ما إن تفتح له أبوابها، وهو بدايته إن أجادت الاختيار..

لم يرها منذ أكثر من شهرين ولا يدري كيف تحمل!..

تكررتْ زياراته لطبيبته النفسية، شاب روحه شيئًا من هدوء وراحة.. استكانة ينشدها، لم ترسُ سفنيته التائهة على ميناء سلام للآن لكنه مازال يبحر بها محاولًا الوصول، والدته التقطت صورتها تحتضن صغيره الذي تصحبه معها في زياراتها لها، بطنها بدأت تتكور بسحر لا يدركه سوى أب مشتاق.. خائف..

أحوالها جيدة.. لا تسأل عنه البتة!..

تتعايش دونه، ويضيع دونها والأمر خارج نطاق الحب..

خارج نطاق القياس..

يريدها وكفى، ولا يعلم كيف يمكن أن يعود وتعود!..

كان يجالس جده، يتحدث معه في بعض أمور العمل.. يعرض عليه ملف آخر صفقات المصنع ويأخذ مشورته في قراراته التي أصبح وحده يتحكم بها مؤخرًا..

انتهيا من الملف، أتت خادمة تحمل قدحين من القهوة المضبوطة، تناول الجد قدحه وارتشف منه ببطء قبل أن يتأمل ملامح حفيده الوحيد بعاطفة مهتمة:

- أخبار مراتك إيه!..

ابتسم "عدي" وهو يفهم ما يرمي إليه جده، لا يتخلى أبدًا عن الصفة واللقب مهما أعلمه بنبأ الانفصال، لملم الأوراق يودعها في حقيبته مجيبًا ببساطة هادئة:

- رهف ما بقيتش مراتي يا جدي، وعلى حسب أقوال أمي فهي بخير الحمد لله..

- أمك!..

كان كسُبة نطق بها لسان العجوز ساخرًا، ارتفع حاجبي "عدي" على إثرها بدهشة دون أن يتنازل عن ابتسامته:

- إيه يا حاج!..

لامه "قاسم" بتوبيخ كأنما ينهر طفلًا كسر لعبته:

- مش شايف إن الحكاية بقت ماسخة ومالهاش طعم!..

استدار إليه حفيده في تساؤل متعجب لم يرضَ عنه:

- سايب مراتك كل ده وهي حامل في ابنك ليه يا عمود العيلة من بعدي!..

مرر "عدي" أصابعه في خصلاته وزفر بحرارة، اعتدل في جلسته قليلًا وبادر بمحاولة صلح عسى أن يتخلص من الموقف الحرج الضاغط على كل خلاياه وأفكاره:

- بعد الشر يا جدي، ربنا يبارك لنا في عمرك..

- ما تاكلش بعقلي حلاوة يا حبيب جدك..

توسعتْ بسمته وكرر الزفرة، يبدو أنه لا مهرب من جواب لا يقنعه هو ذاته:

- أعمل إيه طيب!..

أعاد "قاسم" القدح فوق الطاولة قربهما، ربت على ركبته بشيء من حزم:

- روح لها، صالحها واستسمحها ورجعها واعترف إنك غلطت في حقها..

أدار "عدي" وجهه بعيدًا باختناق:

- الموضوع مش سهل للدرجة دي..

أصر الجد بصرامة جادة هذه المرة:

- لأ سهل، بس أنت اللي بتكابر..

وأجبره على النظر إليه بوجل.. بقلق عندما أردف:

- الحقها قبل ما تضيع مكانك في قلبها وتخسرها..

تشتت للحظات.. ألم يفقدها بالفعل!..

ألم يؤلم الفؤاد ويهزم الحب!..

ألم يضيعها، ويجبرها على الابتعاد لأنه.. رعديد جبان!..

سمع جده يكمل بحكمة عمر مديد:

- الستات عاوزين الكلمة الحلوة، اللينة، عاوزين اللي يطيب خاطرهم ويشيلهم في قلبه وفوق راسه..

رمقه بنظرة حائرة مفادها تيه، حينما استفاض بالشرح لعقل حفيده المغلق بقفل صدئ..

لقلبه المشوش ومشاعره المغمورة تحت تراب الذنب والخوف..

- الست لو حبتك هتديك عمرها مش بس قلبها، هتسامحك مرة واتنين.. بس في كسور ما بتنجبرش يا عدي..

كرر الربتة فوق ركبته بدعم:

- ما تسيبش الشرخ اللي بينكم يوسع؛ وإلا مش هتقدر تصلح اللي انكسر!..

بعثتْ الكلمات برهبة في نفسه..

هو على عتبات خسارتها الحاسمة، بضعة أشهر وتنتهي عدتها.. ينقطع الخيط الهزيل الذي مازال يربط بينه وبينها..

نعم مازال يداوم على زيارات الطبيبة، لكنه لم يُشفَ تمامًا بعد!..

كاد يجيبه عندما تعالى رنين هاتفه يبتر احتجاجه.. كانت والدته، رد يرحب بها قبل أن تقاطع حروفه.. تخنقه فيغص بها بجملة مقتضبة أوقفت نبضه:

- رهف في المستشفى، تعبت..

كذبها، لا.. هي بخير..

ما هذه إلا محاولة جديدة للتوفيق بينهما..

لكنها في اللحظة التالية أملته العنوان الذي عليه التوجه إليه..

وكان مشفى!..

هذا الزلزال عتيق.. قديم كقِدم أيامه بالحياة، توابعه تلاحقه بلا فواصل من راحة..

تدمر القلب وتدحر الروح في عقر الجسد..

**

هناك زلازل لا تبقي ولا تذر..

زلزالها حطم المقياس، تخطاه.. دمر عالمها ودمرها، دفنها تحت ركامه وتركها لتموت ببطء وبأبشع وسيلة..

هجرها في ظلام الوحشة.. الخلل.. الخسارة..

تخلى عنها ورماها بمجاهل غابة وحدتها لتفترسها ضواريها واحدًا تلو آخر بلامبالاة.. الضعف.. الخوف.. الهوان..

لم تنتبه لزعيق أمها التي توبخها على إهمالها، على منعها لطفلها من الذهاب لمدرسته عدة مرات ففاته عامه الدراسي، اختبائها وراء جدران منزلها الصغير، وانتهاءً بالرضيعة التي أوشكتْ على الموت..

لم تنتبه لكنها صرخت بانهيار:

- يا ماما كانت بتلعب في الماية ولحقتها، أنتِ مكبرة الموضوع ليه!.

جذبتْ والدتها ذراعها بقسوة كأنما تجبرها على الإحساس.. تعيد إليها وعيها المفقود:

- وفراس اللي ضيعتِ عليه السنة!..

انهارتْ أكثر، سقطتْ فوق الأريكة تدفن رأسها بين كفيها بنشيج مختنق:

- خايفة عليه..

رفعت إليها وجهها الغارق بالعبرات، ترمقها بعينيها المحمرتين بإنهاك وصل لأقصاه:

- لو حد أذاه مين هيحميه ويدافع عنه!..

- أنتِ يا هالة..

ثم جلست تجاورها بإرهاق رسم ملامحها التي تمكن منها الزمان بخطوط ألمه، الزمان الذي مر فوقها بكل غلظته وعنفه:

- أنتِ اللي تاخدي بالك من ولادك وتحميهم؛ لازم تكوني قوية عشانهم..

ابتسمتْ بمرارة ساخرة، تسخر من نفسها.. من حياتها.. من أبويها:

- أنا عمري ما كنت قوية..

وزفرتْ بينما تتحشرج نبرتها بلوم:

- طول عمري فاشلة..

تضاعف اللوم والعتاب والبغض بصوتها وهي تكمل باتهام، ترمي كل ذنوبها على أمها.. أبيها.. شقيقتها..

العالم بأكمله:

- مش ده اللي كنتم بتقولوه لدرجة إن ليلى هي اللي اتحملت معظم مسؤولياتي!..

قستْ عيناها وتهكمت بوقاحة لامبالية:

- حتى مسؤولية إنها تبسط جوزي في السرير..

- اخرسي..

صاحت بها والدتها، نهضت ترمقها من وقفتها بضيق حانق..

الزمام أفلت واللجام تمزق.. ابنتها الصغرى فقدت السيطرة وهي لا تملك قدرة على تقويمها.. ما الحل!..

ضمتها لأحضانها فانكمشتْ قرب رحمها كأنما تنشد العودة إليه، حيث الأمان والراحة والنجاة من وحشية البشر..

ربتت على رأسها بحنو لا يخلو من حزم صارم:

- أنتِ لازم تشوفي دكتور نفسي يا هالة..

تجمدت "هالة" للحظات وعيناها تتوسعان بخبال..

أهذا ما ينقصها!..

انتفضت تنأى عن ضمة أمها، تنهض وترميها بنظرة حاقدة:

- إيه!..

تتباعد، تتراجع بظهرها، تطوف ببصرها في الغرفة.. تلمح ابنها يختبئ بركن شبه قريب، يراقبها منه بحذر قلق، أخته تجاوره في غياب يناسب عمرها لكنه هو لا يغيب..

هو يرى.. يلاحظ.. يخاف!..

استدارت لوالدتها بهياج:

- أنتِ شايفاني مجنونة يا ماما!..

خطت إليها تحاول تهدئتها، تجاهد لاحتواء انهيارها وغضبها بقلب مفطور ودعم أصبح شاقًا عليها:

- يا هالة أنتِ محتاجة تتكلمي، تتعالجي من اللي حصل، تحكي عن اللي حاسة بيه..

ضمت كتفيها إليها برفق، تمنحها عاطفة تحتاجها:

- ماكانش سهل، محتاجة حد متخصص يساعدك..

سمعتها تهذي بهمهمات عشوائية غير واضحة، لم تفهم منها حرفًا فتوترتْ خاصة مع تواصل رنين هاتفها برقم الأب المريض..

أجابته، طمأنته على عودتها وواست ابنتها قدر ما استطاعت..

ستقنعها في الزيارة القادمة، لكنها مجبرة على الرحيل في هذه اللحظة..

اعتنت بالصغار، وضعت الرضيعة بمهدها، أوصت الفتى على أمه وغادرتْ.. غادرتْ لتلتفت هي لطفليها، تأمرهما بالاستعداد للنوم..

تخضع الفتاة برهبة.. ويعاند الصبي بخشونة ذكورية وليدة..

صرخت في وجهه، عنفته، حبسته بغرفة جانبية فارغة من الأثاث كعقاب، وتوعدته بحرمانه من جهازه اللوحي الجديد بديل ذاك الذي هشمته قبل أشهر..

بعد ساعة فتحت عليه الباب، وجدته ممددًا على الأرضية الجافة نائمًا ببؤس مستسلم، رق قلبها.. جثت قربه ورفعته بين ذراعيها تضمه بدموع لا تنضب.. عليها أن تكون أقوى..

عليها أن تعود لذاتها الأولى حتى لو لم تكن رائعة بما يكفي..

ربما عليها أن تستجيب لرغبة أمها بالذهاب لطبيب، أتراها تنجو!..

تحيا وتبدأ بناء روحها ونفسها وكيانها من جديد، بعدما هدمها زلزال قسوة المعشوق وتوابعه..

حملت صغيرها ووضعته بفراشه، دثرته وانزلقت إلى جواره تتشبث به، تقبل كلتا يديه ووجهه وتبكي..

هذا غير مجدٍ..

عليها أن تعود..

عليها أن تعود..

ظلت الكلمات تتردد بذهنها حتى غفت بنوم متقطع زارها فيه وحشها، يحيل ساعات راحتها المسروقة لكوابيس مظلمة تناسبه..

يخبرها ببساطة..

عليها أن تموت!..

**

هناك زلازل لا تكتفي بهدم عالم واحد.. حياة واحدة؛ بل تهدم عالمين، حياتين..

تحطم عدة قلوب، وتميت بعض الأرواح..

قلب عاشق.. روح امرأة تعثر بها في طريقه..

وطفلين لم يجنيا جريرة سوى كونهما رابطًا بينهما..

في هذا المنزل صارت الوحشة نديمها مع الصغيرين، هما مصدر إلهائها على مدار اليوم.. وفي الليل وحدتها أمست مثواها..

منذ أكثر من شهر وإثر تهديده.. تحقيره وإذلاله لها، ظلت تتحاشاه بكل وسيلة ممكنة، لا ترفع عينيها إلى عينيه.. لا تراه.. لا تجتمع معه سوى مجبرة لأجل ابنيه..

لم توجه له حديثًا إلا بحد مبتور..

حتى مشاعرها التي وُلدت لأجله بخافقها ضمرت، بهتت، تكومت بالقاع في انتظار التلاشي، التماهي مع واقعها المرير..

تمارس مهام وظيفتها بإخلاص، تتقوقع على ذاتها بنهاية مهماتها الروتينية، وكان هو يفعل بالمثل..

نادم.. متضايق.. غاضب، من نفسه ومنها ومن الصورة التي حشرها بعقلها عنه.. بقلبها!..

لكنها حقيقته الوحيدة الآن..

ذاك الذي كان يعرفه طوال عمر قد رحل..

ولو كان خيرًا لبقى!..

مغفل، مستغفل، لا يستحق نجاة في غابة برية..

أنهى عمله الذي يدفن نفسه به بالمنزل كذلك وصعد لغرفته، أعلى الدرج لمح طفليه يتوجهان لغرفتها، يدخلان بهدوء ويتركان الباب دون إحكام..

بلا وعي أو تردد تبعهما!..

قرب الجدار جمد ينصت، يلقي بنظرة مخطوفة.. رآها تجلس بمنتصف فراشها، هما يحاوطانها.. يسألانها عما بها، ابنه الحنون يمسك بكفها برقته المعهودة:

- مين زعلك!..

تربت هي على خصلاته الناعمة، تبتسم له بصدق قدر ما أمكنها وتكذب حروفها:

- طول ما أنا معاكم مافيش حاجة ممكن تزعلني..

تدخلت الابنة بعنادها وعنفوانها:

- لأ.. أنتِ زعلانة من زمان، بس أنا مش عارفة أصالحك إزاي!..

ضمتها لصدرها تتنفسها بأمومة مطلقة:

- حبيبتي يا ضي، كفاية إنك في حضني..

عقد حاجبيه بلا معنى والمشهد يدور أمامه كمشاهد خارج الحدث حتى وإن حاز على دور البطولة بروحها..

"هو ممكن أقولك يا مامي!"..

"لأ"..

سؤال الابن والرد من أخته الكبرى التي تلفظت به بحدة زاعقة..

حدة قطب لها منتظرًا رد فعلها الذي لم يتأخر وهي تجمع الاثنين بأحضانها:

- أنا مش هينفع أكون ماما يا باهي، بس بحبك زيها تمام..

ولثمت رأس الصغيرة بقبلة متفهمة:

- مستحيل آخد مكانها يا ضي..

رفعتْ ابنته وجهها إليها بعبرة مكبوتة، استشعرها من نبرتها المتحشرجة:

- بس بابا اتجوزك.. هيحبك وينساها، وتجيبي لنا إخوات يحبهم أكتر مننا..

تأملتها مثله للحظات طويلة بحنو حزين..

هي لن تصبح أمًا مهما تمنت..

ولن تطمح لمكانة الأخرى بقلبه وإن توهمت..

هي لم تعُد تأمل أو حتى تفكر!..

خللت خصلاتها برقة، ابتسمت بانكسار صريح لا يمكن إخفاؤه أو تجاهله:

- بابا مش هيحب حد تاني غير ماما، ومش هيحب حد قدكم في الدنيا كلها..

إلى هنا ولم يستطع التحمل..

هرول لغرفته، بداخله نيران تنهشه ولا يدري لها سببًا منطقيًا..

هذه المثالية، ذاك الحنان، تلك الرقة.. لا أحد كذلك..

لقد تعلم درسه السابق حد الإجادة التامة، والاستسلام لحياة طبيعية محض عبث لا يستسيغ مذاقه على أطراف لسانه..

بعض الشياطين ينالون القدسية فقط لأنهم يجيدون ارتداء أقنعة الملائكة..

وهو خُدع مرة.. لُدغ مرة.. عار عليه أن يسقط مرتين!..

نزع ثيابه وأنهى حمامًا باردًا، تمدد في فراشه بسروال منامته فقط.. حرارة الجو تثقل أنفاسه، لم يجد بنفسه رغبة لتشغيل مكيف الهواء أو طاقة للنهوض بحثًا عن جهاز التحكم به..

شرد ببصره في ملكوته الخاص لدقائق..

تناهى لمسامعه صوت طرقات خافتة على بابه، ظنها طفله الذي ينتظره كل ليلة ليكون جواره بفراشه إلى أن يستغرق في النوم، استقام يفتح وكانت هي..

أبصرته عاري الجذع فتراجعت، هربتْ بعينيها وتمتمتْ بنبرة باهتة متلعثمة:

- الولاد.. مستنيينك في أوضتهم عشان...

ولم تكمل.. بغتة سحبها للداخل وأغلق الباب!..

يقال أن بعض توابع الزلازل يمكن أن تكون أكثر عنفًا وتدميرًا..

تلك حقيقة..

احذر منها..

وقتها يصبح ذاك التابع هو الزلزال الرئيسي وما سبقه مجرد بداية!..

(40)

مرحبًا بك في الجحيم..

حيث لا تكتفي منك النيران أبدًا، بل تقول هل من مزيد!..

**

هو رجل كل الطرق إليه تقود للمجهول؛ حتى عينيه..

عيناه خريطة أوهمتها بالنجاة، تتبعتها فكانت سرابًا..

وهي امرأة تهرب بنفسها كلما أعلن ربان السفينة عن ثقب بالقاع يُحتم الغرق.. تهرب لأنها لا تتحمل، لا تتقن الصمت والخنوع، فكان كل ما هي مجبرة عليه بين يدي القدر دون سواه..

قدرها اختار لها نقصانًا صادقته، تعايشت بصحبته، عالجت جرحه بقُطب عشوائية، لم يتوقف النزف.. لم يلتئم بشكل صحيح.. ظل يبعث في كيانها كله بالعذاب..

لكنها ألفت عذاباته، فلم تعُد تمنعها من الاستمرار..

يقال أن اعتياد الوجع يعلو بقدرة مستقبلاتنا الحسية لاحتماله، تتكيف الحواس، ويستجيب المخ ببرمجة مسبقة تتناسب طرديًا معه؛ حينها لا نشعر بالألم إلا مع جرح عظيم!..

وسواء تلك حقيقة أم لا؛ هي طبقتها على كيانها وقلبها وجوارحها، استجابت لها دواخلها، واستندت إليها في درب التيه وحدها..

وحدها لأنها تجيد النجاة وقتما يطرق الفناء أبواب الروح..

وحدها لأن الثمن باهظ حتى وإن تاقت له بكل خلية فيها..

لا تفهمه!.. وعندما سعت للفهم كسرها، تراه هو المكسور بمطرقة الخيانة.. هو الجارح بخناجر القسوة.. هو المشوه بندوب الخوف..

لا تفهمه!.. وعندها اختارت التجاهل، الفراق.. فتمسَّك..

تمسَّك ثم عاود الإهانة وذرَّ الملح على كل جرح رآه أو لم يفعل..

والآن يسحبها لغرفته، يغلق بابها.. يدفع بظهرها ليلتحم بصلابته، ويواجهها بنظرة بها جميع أسرار الكون التي لم يكتشفها بشر.. أما ما اكتشفه منها على قصوره فلم يستوعبه..

نظرة كمتاهة بلا مخرج..

يده تكتف مرفقها، يقابلها بهيمنة حضوره، قامته التي تفوقها بالكثير، ضآلتها أمامه.. وعينيه!..

لا ترى الجحيم.. لا تلمح الرهبة.. لا تستعيد معه الذكرى.. لكنها مازالت تخشى الموت وإن ظل القلب على مساره من النبض.. واستمرت الأنفاس في دورتها من شهيق وزفير..

أنفاس انحبست بصدرها بترقب، تجهل ما ينتويه، وتتغاضى عن شيء من ذعر تملك الأنثى بداخلها!..

ازدردت لعابها ورفعت رأسها تتحداه، تحديها مقابل صمته.. تأمله.. ثباته بلا حراك حتى طال المشهد لحد مغيظ جعلها تتنفس بغضب، قبل أن تسأل عما يريد أو لِمَ يحتجزها هنا بادر هو بسؤال استنكرته:

- أنتِ عاوزة توصلي لإيه؟..

ينطق بجهل حقيقي، وتجيب بحيرة صادقة:

- مش فاهمة!..

أمال عنقه يرمقها بغموض.. أفكاره حولها مشوشة بهذه اللحظة، مشتتة بين التصديق والتكذيب..

بين الثقة والخيانة..

لذا كان خياره هو الأكثر أمانًا، ربما هو السيء لكنه يعفيه تبعات الغدر:

- فعلا!..

انقبضتْ أصابعه حول ذراعها بقوة أكبر، آلمتها فتعانقت أجفانها متعبة.. مرهقة.. منهكة من صراعاته التي تخوضها معه رُغمًا عنها ولا تعلم لها نهاية أو منها مهربًا:

- بتقربي من الولاد، بتخليهم يحبوكِ ويتعلقوا بيكِ بطريقة ملتوية ليه!..

لو صفعته بهذه اللحظة أوليس ذاك حق لها!..

لكنه يكبلها، وتدرك أنه سيوقفها، سيقسو، ويهين:

- لو فاكرة إن ده مدخل ليَّ تبقي فاهمة غلط..

كان هذا حد الكفاية، تصاعد سخطها فأحرق جمودها وخنق تماسكها.. انتزعتْ ذراعها منه، ظلت على وقفتها تحت حصاره، تجابه.. تعاند.. تقاتل، تتلوى حناياها بمخاض حزن وتكبت كل أنين، تختار الحسم والحرب:

- أنت اللي عاوز توصل لإيه!..

راقبت عقدة جبينه مع زعقتها شبه الخافتة بلا اكتراث:

- اتجوزتني بكدبة، معيشني في كدبة، وبعد ما اتفقنا على الطلاق رجعت في كلامك وقلت مش هاطلق!..

شدت قامتها، علت برأسها واحتدت بانفلات؛ فكل ما فيها خرج عن السيطرة:

- قول لي أنت عاوز إيه!..

اعتدل قليلًا ولم يبتعد، رد ببرود مثير للحنق:

- أنا ما اتفقتش معاكِ على طلاق، أنت طلبتِ وأنا ما وافقتش..

- وما اعترضتش، سكت.. وده معناه إنك...

- موافق!..

تقوستْ شفتاه ببسمة ساخرة، قاتمة، مقبضة:

- السكوت مش علامة الرضى يا رحيل..

أحنى جذعه مقتربًا فتباعدت بوجهها كأنما ستغوص بخشب الباب:

- كنت بأديكِ وقت ترتبي أوراقك وتتكيفي مع الوضع، مش أكتر..

تكورتْ قبضتاها تحشرهما بينهما، تريد دفعه، تتحاشى لمسه والموقف مستحيل.. ضغطت أسنانها بشيء من قوة، أدارت بصرها تنأى عنه وهو لا يرحم.. لا يحررها، لا يبتعد.. لا يقترب..

هو وهي معلقان بخيط واهٍ بين حقيقة ملموسة، وخديعة وهمية..

تنهدت بتراخٍ، بتمهل عجيب تتجرع الأكسجين بخشونة كغصة تسد حلقها، تخنقها:

- وإيه الوضع!.. إنك اتجوزتني مربية للولاد!.. إنك تهيني بسبب ومن غير سبب!.. إنك تحتقرني وتهددني بأبويا!..

فعَّلت فتيل الانفجار بلا رحمة..

بلا اهتمام لتأثير أو شظايا.. بلا قلق من موجات ضاغطة ستدفعها وتحطم جسدها على قارعة طريق الامتهان والضعف..

ارتد للخلف بغتة بحركة واحدة حادة أجفلتها، رمقها بقسوة:

- مافيش حاجة من غير سبب..

قطبت بتشتت لملمه بجملة واحدة:

- مش هاسمح إن غلطة زمان تتكرر..

استوعبت المقصد وإن لم تصل للهدف..

هو يقصد الخيانة، لكن لمَ يتهمها بها جزافًا!..

أتاها صوته بحروف مفتتة كأنما هشمها الوجع:

- عشان ولادي وبس يا رحيل، أنا نفسي عايش بس عشانهم..

تهشم قلبها مثل حروفه، ابتلعتْ كلماته بالمعنى والمغزى دون شربة ماء:

- خرجني من المعادلة دي وعيش زي ما أنت عاوز..

أسدل ستار أهدابه يخفي ارتعاشة حدقتيه عنها.. ليته يستطيع!..

طفليه بحاجة إليها، وفراقها كسر لن يمكنه إصلاحه بقلبيهما..

سحب دفقة هواء يبرد بها لهيب نيران صدره، غمغم بتسليم لواقع لا مناص عنه:

- يا ريت كان ممكن..

- ليه مش ممكن!..

- عشانهم.. عشان محتاجينك، حاولي تقدَّري ده..

اقتربتْ خطوته السالف ابتعادها، أشارتْ بسبابتها لنفسها المتعبة في معمعة حروبه التي لا تخصها:

- وأنا!..

هاجمته دون تورية، ببساطة الكلمات والوجع، ببديهية الأولوية:

- أنا فين من حساباتك!..

هاجم بالمقابل متشبثًا بنقطة انكسارها.. بنقصانها:

- أنتِ ممكن تكوني أمهم، تعوضي حرمانك معاهم...

- اسكت..

صرختْ في وجهه بلا تكلف تبتر سرده لوجيعتها..

لقد حطم كل حد..

تخطى كل مباح..

- أنت مش عارف أنت بتقول إيه!.. مش حاسس..

صوتها متحشرج، نبرتها دامعة.. ومآقيها الجافة تعلن صلابة هشة:

- كفاية ضغط على نقطة ضعفي، ده قدري.. اختيار ربنا ليَّ، مش هتمسكني من إيدي اللي بتوجعني عشان تجبرني أعيش معاك..

ارتبك لحظة وقد استشعر عِظم الألم بروحها:

- رحيل.. أنا ما أقصدش، كل اللي...

- المرة دي ما تقصدش، المرة الجاية هتقصد، ومع كل موقف مش مفهوم بالنسبة لي هتألف حكاية تناسبك، مش هتبطل توجعني.. وأنا مش مجبرة أتحمل..

تنهد بضيق والحقيقة تصفعه رُغمًا عن أنف تجاوزه وتجاهله لها:

- أنا بقى مجبر..

رمته بنظرة غير مصدقة بينما يردف بلا انفعال:

- عشان ولادي مجبر أعمل أي حاجة..

تخطاها يلقي فوق جذعه بقميص قطني، يفتح الباب وبذات اللهجة يكتب خاتمة الحكاية بتجبر راوي مخبول:

- مافيش طلاق يا رحيل..

تابعته يخطو تجاه غرفة صغيريه بهدوء كأنه لم يرمِ بها لأعماق جحيمه ويشاهد احتراقها بتلذذ..

هو رجل عقد مع شيطانه هدنة، فأهداه بها سلام الضمير حين الظلم..

وهي امرأة تدفع ثمن العشق بأنوثتها، من كبريائها، من كرامتها..

من أغلى وبكل ما تملك..

**

هو رجل في العشق تخلى عن دور البطولة، هزم الكاتب، أحرق خشبة المسرح، هدد جمهور العرض بعدها طرده.. ومزق كل صفحة ذُكر فيها اسمه..

وهي امرأة قررت أن تمسك بالقلم، أن تخط معه حكايتها بحيثيات الغرام، بالخضوع لدقاته الغازية بخافقها، حتى وإن هرب منه ومنها ومن حبر الرواية..

يقال أن الخوف هو عدو البشر الأول، حقيقة يذعن لها البعض، يمنحها دفة القيادة فتتحكم به، تسيطر عليه.. تقتله في اليوم مائة مرة، وتجبره على العيش بهوة هلع دائم، تمضغه وتبصقه بكل لحظة..

الخوف هو غريم الإيمان بالأفئدة..

والإيمان يثبت بالاستسلام للقدر..

ماذا إذًا لو كان القدر.. عشقًا!..

هل يمكن الهروب منه!.. هل نستطيع معه أن نصنع مصائرنا بأيدينا!.. هل نختار طريق العودة من متاهته بإرادة حرة وكل ما ينشده منا هو التيه!..

هل يتحدى الهوى كل مخاوفه فيصرعها.. يهزمها بروحه!..

لا يعلم، ولم يكن السؤال محل تفكير أو تفتيش عن جواب وهو يقود سيارته بنصف وعي عبر الطريق الموصل لها، كل ما فعله عندما تلقى المكالمة هو أن ركض!..

توقف بعد بضع خطوات يطمئن جده، ثم هرول إليها، بأقل من ثلاث ساعات لم يتوقف خلالها كان على باب الغرفة، يطرقه بلهفة.. يسمع إذن الدخول.. يفتحه..

ويراها..

ممددة في وضع جلوس مرتاح بالفراش الأبيض، حولها والدته ووالدتها، بطنها منتفخ بشكل ملحوظ سرق نبضه وبصره واستحوذ على كل حواسه، حتى رفع عينيه لعينيها، وهدأ..

تباطأ لهاثه ببعض استرخاء بينما يقترب منها، ترمش هي بعصبية استوعبها، تراقب شيئًا مجهولًا يبدو أنه يحدث لكنه لا يراه..

حيث كانت المرأتان تنسحبان من الغرفة عقب إشارة مبهمة..

يطل عليها بوقفته قربها، يطوف بناظريه فوق تفاصيلها، يتشبع منها.. من افتقاد ووحشة آنستْ بوجودها معه طيفها بروحه..

يزفر وتنغلق أجفانه بإرهاق جليٍّ كاد يدفع بقلبها ليسقط بين كفيه:

- أنتِ كويسة!..

همس بسؤاله متلهفًا، مهتمًا، قلقًا.. أدارت وجهها تتطلع خارج نافذة الغرفة، تراقب زوال الشمس حين المغيب بتباعد:

- الحمد لله..

بإثرها عادت إليه ترمقه بضيق:

- ماكانش لازم تتعب نفسك وتيجي..

يقدر ويتفهم ويغضب، لكن المشهد لا ينقصه غضبه.. ألجمه بزمام الصبر، استقر بمقعد إلى جوارها ورد بحزم جاد:

- لأ.. لازم..

استهجنت بنبرة حزينة:

- ليه!..

تنفس باختناق ومخاوفه تطفو لسطح ثباته:

- عشان أطمن على مراتي وابني..

غيمت نظرتها بقسوة حانقة، رافضة:

- أنا مش مراتك..

هبط ببصره لبطنها المنتفخ، تعلق به ولم يتراجع عنه:

- طول ما أنتِ حامل في ابني هتفضلي مراتي..

- بنت!..

رفع ناظريه إليها بحيرة التقطته من تشوشها بتصريح مباشر:

- أنا حامل في بنت..

تشتت شفتاه بين بسمة وفقد..

مبعثر هو، محطم هو، ضائع هو.. على حدود درب السعادة، وأطراف طريق الألم..

أخيرًا استسلم لبسمة البهجة التي غمرت قلبه وكيانه كله:

- هتكون أحن عليَّ منك..

يعاتبها رُغمًا عنه..

هو من قسا وابتعد وخيرها فهجرته، تطلعت إليه بسخرية مريرة:

- أنت ناوي تقرب منها بعد ما كنت عاوز تقتلها!..

ذبحته الكلمة بغلظتها، وبخها بضعف:

- رهف!..

- إيه اللي جابك يا عدي!..

اصطفت الهجوم على الدفاع..

اختارت الحرب على السلام..

تبغض ما يفعله.. يقترب في لحظة.. يختفي في التالية..

والحكاية باتت لا تساوي ثمن الحبر المكتوبة به، أصبحت باهظة على حروف أجهدتها في سردها ففر هو بكل جحود من بين السطور..

- قلت لك؛ جيت أطمن عليكِ..

- وأديك اطمنت تقدر تمشي..

مسح وجهه بجَلَد زافرًا بحرارة:

- أنا سايق تلات ساعات من المزرعة لحد هنا يا رهف، مش جاي عشان تطرديني..

ارتبكت لوهلة.. ماذا لو حدث له مكروه حال قيادته برعونة مذعورة!.. التفتتْ نحوه بعاطفة مشفقة لم تتسلل لنبرتها الجامدة، كبتتها كما كبتت العشق والاحتياج ورغبة القرب:

- أنا كويسة..

لفظتها بعجالة تريد إنهاء الموقف، تريد رحيله، غيابه كما غاب لأشهر مستجيبًا لإرادتها في الفراق:

- مافيش حاجة، مجرد تقلصات بسيطة والدكتور طمنا، ماما راوية قلقت بزيادة بس..

وأهدته نظرة فاترة بها شيء من تهكم بائس:

- تقريبا اتعدت منك..

فكر لثوانٍ ابتسم بنهايتها محللًا خطة والدته كما العادة في كل محاولة منها للجمع بينهما:

- غالبا كانت بتعلمنا إحنا الاتنين درس!..

احتارت في مقصده فأوضح:

- بتقولي إن محتاج أسيطر على خوفي، وبتقولك..

صمت قليلًا مثيرًا لفضولها ونجح عندما تعلق بصرها به في تساؤل:

- اتحمليني..

تلك اللعبة القديمة التي يجيدها كل ذكر، يُجيد بها مشاعر أنثاه فيتملك منها ويعيدها لطوقه.. متلاعبًا بعواطفها.. بقلبها الأحمق المدله فيه..

زمت شفتيها بجدية مباغتة:

- أنا مش مجبرة أتحمل حاجة فوق طاقتي يا عدي..

واعتدلتْ تستند للوسادة براحة أكبر، تقسو بعمد.. تتهرب من ضعفها معه:

- أنت طلقتني من غير تردد، اخترت.. وأنا كمان، كانت حدوتة وفشلت.. ما ينفعش معاها نهاية سعيدة..

- أنتِ اللي طلبتِ الطلاق..

- لما خيرتني بينك وبين بنتي..

زعق وزعقت والحدة سيطرت على المشهد، سيطرت وانفلتت من عقالها مع عصبيتها:

- امشِ يا عدي، كفاية بجد لحد كده..

استقام بحركة ساخطة، تأملها بنيران تحتدم بمقلتيه.. ضغط أسنانه واستدار على عقبيه مغادرًا كعاصفة..

لم ينتبه للمرأتين المذهولتين بالخارج..

لم يحترس من جدار اصطدم به فكاد يخلع كتفه..

وجد المصعد متأخرًا فركض يأكل الدرج بهياج..

للمرة الثانية تعارض وجوده، تحتج على رؤياه، تضع الحواجز وتقيم السدود، تبني العوائق وتقيم بينه وبينها متاريس الرفض..

متعب هو ومجهد.. مكبل بقيود ماضيه الآثم..

بحكاية وذنب لم يجف حبره بعد..

فكيف يبدأ صفحات جديدة، والقديمة لم تتمزق حتى اللحظة!..

هاتف مكتب طبيبته، حجز موعدًا خاصًا وقاد سيارته تجاه مبناها..

هو رجل في العشق فاقد ومفقود..

وهي طوق النجاة!..

**

هو ذئب، يتناول فرائسه على طاولة عشاء أنيقة، بشوكة وسكين.. بقضمات متأنية تتلذذ بالمذاق مع كل واحدة.. بابتلاع متلكئ كأنما يتفحص الطعم لمرة أخيرة قبل استقراره بمعدته.. قبل تمام الشبع..

وهي فريسة التهمها على مهل، ولفظها باختناق..

فريسة أجادت نصب الفخ لصيادها، لكنها لا تدرك أن اللعبة لن تنتهي إلا بقراره هو.. بأمره وحده!..

فريسة هربت وخلَّفت طبقه فارغًا.. تركته من ورائها جائعًا، وعيب جوع الضواري؛ قسوة النهش وعنف الافتراس..

تكرر حبسه على ذمة التحقيقات الفارغة، اللعبة المتقنة لا تخلو من ثغرة.. ثغرة لا يسهل إيجادها، لذا فالوجهة التالية كانت الثغرة الأكبر.. ضحيته المزعومة..

"لينا الجيار"..

أرسل لها محاميه، وكما أخبر زوجته بدأ المزاد برقم عالٍ، وانتظر فوزه بالغنيمة.. في اليوم التالي أتاه المحامي بنظرة أثارت ريبته وشكوكه، جالسه وحده بمكتب الضابط، وهناك طرح كل الأوراق ببساطة:

- قابلتها!..

رد الرجل بثبات شبه مندهش استغربه:

- أيوة..

وتوقف لهنيهة أردف بعدها بتوجس:

- هي قابلتني..

اعتدل "عمار" في جلسته بانتباه بينما يكمل وكفيه تشرحان معه الموقف العجيب:

- جات لي المكتب، وعرضت عليَّ نفس الصفقة..

تراجع الذئب يستند بظهره للمقعد مسترخيًا.. سكن لخمس دقائق أو أكثر مفكرًا بعمق، يجري حساباته بعقله والغابة تتحكم بأرقامه.. الغابة تسطر قوانين السيطرة والملك..

حك ذقنه ورمق الجالس أمامه بحذر بديهي:

- قول لي التفاصيل..

بدأ بسردها بالفعل، زارته متأخرة بمكتبه.. عرضت عليه صفقة بسيطة للغاية كان هو سيبادر بها، ستخرجه من تلك الكارثة مقابل مبلغ ذي خمسة أصفار..

هي ليست جشعة، تدرك حدودها.. وتجيد استغلالها..

تطعن شريكتها في الجرم بظهرها؛ لكن من يكترث!..

لم يقنعه عرضها، بقوة موقفها يمكنها أن تنال ما تريد، فكيف تطمح لمبلغ لا يساوي في خزائنه شيئًا!..

استقام يقف قرب النافذة، يتأمل الليل بسكونه وهيبته التي حلت على الأرض بظلامها، القمر هلال واهن مختفٍ خلف سحب صيفية حمراء تناسب سماء المدينة.. والنجوم لا تظهر بالمرة..

ليلة قاتمة تتماشى مع مزاجه المعتم..

لأكثر من خمس عشرة دقيقة ظل يجري حساباته، يبدل طرفًا مكان آخر.. يخطط لفوز مستحق.. لتمزيق سيشفي وحده غليل ثأره.. لوحشية لن ينجو منها أحد..

استدار للرجل المنتظر بصبر، بادر بالسؤال الأهم:

- هتخرجني منها إزاي!..

تقدم نحوه خطوة واسعة مبادرة مستشعرًا توتره وارتباكه:

- ما هي أكيد مش هترمي نفسها في نار تهمة التلفيق والبلاغ الكاذب على الأقل!..

نهض يواجه الآخر باحترام مدعيًا الثبات.. يعلم أن العرض سيفجر جنون غضبه ولن يستطيع كبح جماحه بيسر:

- عقد جواز عرفي بينكم بتاريخ قديم!..

كان على حق.. ثورة ملامحه الصامتة باتت أكثر من كافية ليتراجع المحامي خطوة متصلبة مرتعبة بلا رتوش..

لم ينبس بحرف.. اكتفت عيناه بتعبير جهنمي حارق..

وشفتيه أكملت الصورة بزمة باردة تقابل السعير بالجليد في مزيج مفزع..

انتهاءً بقهقهة عالية، ساخرة، ختمها بكلمتين مقتضبتين نطقهما بانزعاج:

- لا.. ملعوبة..

هادنه الرجل بمنطقية العرض:

- ده الحل الوحيد، حتى لو اتنازلت هتفضل الفضيحة.. لكن فكرة جواز في السر هتلم الموضوع..

أشار "عمار" بيده في استهانة حانقة:

- تلمه بفضيحة تانية..

فند محاميه بتبرير واقعي:

- مش فضيحة تهز مركزك، يعني احسبها معايا..

ومال نحوه بنظرة ثعبانية خبيثة تليق بسمعته في أرض القانون، حيث يجيد ليّ عنق الحقائق حد الكسر:

- نسوانجي وبتاع ستات حتى لو بعقد عرفي ولا.. مغتصب!..

فصَّل أكثر شارحًا باستفاضة:

- مراتك اللي زهقت من جواز الضل وعاوزة تعرَّف العالم إنك جوزها، عرضت عليك تعلن جوازهم ورفضت، عملت اللعبة دي عشان تجبرك ونجحت..

راقب صمته كأنما يهرس حديثه بعقله..

يطحنه بين ثنايا مخه محاولًا استخلاص ما خفي منه وراء السطور.. أكمل مشيرًا لبديهية النهاية:

- بعدها سهل أخرجها منها باسم عمار الديب، اللي هتكون مراته..

- قدام القانون والناس كلها..

سخر بها الذئب ليجد معارضة المحامي فظة تشبهه:

- هتفرق معاك!..

وطرقع بأصابعه دونما اهتمام:

- في لحظة تقدر تخلص منها..

غادر إثر حديثه معه مفاضلًا بين مساوئ الخطة وفوائدها، تركه لأفكاره تتصارع ذهابًا وإيابًا في دروب معادلة ناتجها محسوم..

الطريدة أجادت اللعبة، لكنها لم تنتقِ الطعم المناسب.. ومزاد الحياة ترجح كفته تجاه يديه مادام يعلم كيف يزايد.. في اليوم التالي وافق وتم التنفيذ، أتت هي لتغير أقوالها، ترمقه بمرواغة ماكرة قابلها بنظرة شرسة، برية.. تليق بذئب غير قابل للترويض..

نظرة أدارت وجهها عنها ورحلت..

بعد انتهاء التحقيق، نجاتها من مقصلة التلفيق على يد محاميه.. ونجاته من فخ زوجته؛ خرج يتنشق نسائم حريته بجشع..

ستدفع الثمن.. كلتاهما ستدفعانه!..

ثمنًا بلا صفة، حيث يكفي أنه من سيحصِّله، يستخلصه حتى آخر قطرة..

استقبله محاميه بسيارته وسائقه خارج قسم الشرطة، جاوره في مقعدها الخلفي فكان أول ما قاله بجمود بارد:

- عاوز عنوان لينا..

ناوله الرجل ورقة مطوية بعناية، مبتسمًا بلؤم متملق:

- كنت متوقع إنك هتطلبه!..

لم يعلق.. لم يبالِ.. غاص بصره في أفق حالك يشبه حلكة أفكاره..

دقائق ووصل للبيت، دقائق وسيبتر عنق فريسته بقضمة واحدة سريعة قاتلة..

دقائق.. ولم تكن هناك!..

علم أنها منذ رحلت للشهادة في قضيته لم تعُد..

وتلك كانت خطوتها الثانية..

هي الفريسة التي داهنت الصياد حتى نجت بنفسها من بين مخالبه..

وهو الذئب الذي لا يترك فريسته على قيد الحياة أبدًا!..

**

هي وهو ثرثرة بلا معنى..

هي الهاربة.. وهو الباحث عن نفسه بين جفنيها..

على خلاف ما كان؛ أتت واختطفته!..

امتلكت قلبه وقد ظنه عصيًا على الامتلاك.. شغلت عقله والذي لم يألف سوى وجهة واحدة بدنيا النساء.. الفراش!..

بدلت فيه شيئًا، خلقت آخر.. وقتلت ثالث..

"إياد كساب" لم يعُد يعرف من هو إلا معها..

وعلى خلاف دروب العشق المحفوظة والمكررة، بين الزهور والكلمات المعسولة والغزل البريء كان هو يقف مهاجمًا بعنفوان رجل خبير بأعماق الأنثى..

تلك المنطقة المطمورة تحت تراب المجتمع، عاداته ومبادئه التي تدفنها قسرًا سحيقًا داخل كل واحدة منهن..

الرغبة.. الشغف.. اللطف..

جوار ما سبق من أفلاطونية مستساغة ومطلوبة..

وبعض من مطاردة لن يضر!..

نهاية الأسبوع، يدرك عادتها التي تمارسها في ذاك اليوم منذ أشهر.. صباح ناعم يشبهها، تسير فيه بموازة البحر حتى مطعم للمأكولات البحرية، تتناول هناك وجبة غذائها، وتنهي اليوم بقهوة وقطعة من كعكة الشيكولاتة بمقهى قريب من بيتها..

لاحظها.. تابعها.. رصدها، وقرر أنه ذات نهار سيقتحم عزلتها بحضور لا يُنسى، إثر اعترافه بالسقوط في هواها قبل ما يقرب من شهرين.. عرض الزواج ومحاولة إقناعها بالموافقة..

تتهرب منه.. تكتفي بعلاقة العمل دون حديث، يداهم قلبها في لحظات مسروقة بين الكلمات العملية، يحاصرها.. يباغتها ويعلم أنه سيصل..

هو يريدها، وستكون له مهما لاذت بالفرار بعيدًا عن دربه..

تأملها على طاولتها المعتادة، خارج مبنى المطعم قرب السور، تشاهد البحر بزرقته الفاتنة بشرود، تداعب ذهبية خصلاتها نسماته العنيفة فتضايقها وتضرب بها صفحة وجهها بلا هوادة.. ولا تمل..

تبتسم غائبة في مجهول، حتى عادت لأرض الواقع مع حركة النادل وهو يرص أطباق وجبتها أمامها، أهدته إيماءة شاكرة وبدأت في التلذذ بطعامها بتمهل رقيق..

هنا دخل مجال بصرها بطلة صيفية بسيطة تخالف كلاسيكية رجل الأعمال، سروال من الجينز الرمادي الخفيف، وقميص قطني قصير الأكمام بلون السماء، سحب المقعد المقابل واحتله بسيطرة.. ابتسم بجاذبية ولم يسأل الإذن، فقط غمغم بمكر كأنما كانا معًا:

- باموت في السي فوود على فكرة..

مال يترك مفاتيحه قربه، يخلع منظاره الشمسي الأنيق، والبسمة تملأ مقلتيه:

- زيك بالظبط..

بعدها استرخى بجلسته متجاهلًا دهشة ملامحها وضيقها الصريح:

- إيه رأيك تعزميني على الغدا!..

ابتلعت ما كانت تمضغه بتأنٍ، أظهرت كل علامات الرفض بجمود مباشر:

- دي صدفة ولا...

- مش صدفة..

بتر السؤال.. دون تلاعب أو تورية، قطبت بشيء من غضب:

- عرفت إني هنا إزاي!..

أشار للنادل فأتاه بقائمة الطعام، متغاضيًا عن تعنتها وانزعاجها من حضوره.. فتحها يتفحصها منشغلًا بقصد بينما يجيبها بسلاسة استفزتها:

- عارف إنك بتتغدي هنا كل جمعة، بعدين تطلعي على سويت أند ساور تاخدي قهوة مظبوطة مع براونيز بالأيس كريم.. وتروحي برده زي ما جيتِ، تمشية على البحر..

احتقن وجهها مع تساقط المعلومات منه، تركت شوكتها، وأهدته نظرة حارقة:

- أنت بتراقبني!..

التوي جانب فمه ببسمة عابثة، بها شيء من مرح شقي كأنما يتعمد إشعال أعصابها:

- آه..

كادت تصرخ في وجهه..

تتسبب في فضيحة أو حتى تقذفه بكوب الماء المجاور ليدها.. لكنه لاحقها يمنعها بصدق ألجمها:

- باحاول أحفظ كل حاجة فيكِ يا ليلى..

عدَّد بلا إمهال، لم يترك لها الفرصة لتعنفه أو تزعق به:

- عاداتك، اللي بتحبيه واللي بتكرهيه، اللي بيضايقك واللي بيسعدك.. عارفة ليه!..

ضغطت أسنانها وأهدابها تحجب نارية حدقتيها عنه:

- عشان بعد الجواز نعمل كل ده سوا..

اختنقت بكلماته.. شعرت وكأن رأسها ستنفجر دون مقدمات..

صداع عجيب باغتها فمسدتْ جبينها بملامح منقبضة أقلقته:

- مالك!.. حاسة بإيه!..

تجاهلت سؤاله وتشبثت بنجاتها في الهروب منه:

- أنت عاوز مني إيه!.. بتعمل كده ليه!..

ولو تعلم ما يريده منه.. ما يريد أن يكون بينه وبينها..

الأمر تخطى مجرد امرأة يشتهيها، لامرأة يود أن يكون عالمه كله ملك يمينها..

الأمر كسر حدود عبثه، كبَّل حريته.. ومنحها بلا اعتراضات قيد قلبه..

تنهد يستدعي كل ما أمكنه من صدق فغلف به نبرته.. نظرته.. لغة جسده:

- عاوزك تبقي مراتي يا ليلى..

ضرب وتر الضعف، بدأ العزف عليه بنغمة هادئة لا تستدعي خوفها.. أو تنشط دفاعاتها الفطرية:

- عاوز اللي باقي من عمري يكون معاكِ..

عضت نواجذها بعذاب..

هي مدنسة بخطيئة كبرى.. هي ميتة في عرف معشوق سابق.. هي خاسرة لحياتها وحياة طفليها..

هي أضاعت الكثير ولا تستحق أن تنال العوض عنه..

التمعتْ عبرة حزينة تضفي على شجن عينيها سحر أسطورة قديمة غامضة تليق بها بطولتها:

- أنا ما أنفعكش..

عقد حاجبيه بغضب حقيقي:

- ده قراري أنا مش قرارك..

انسالت عبرتها فوخزت خافقه من وراء ضلوعه:

- أنت تستحق واحدة أحسن مني..

كرر بحزم صارم وهو ينهض ليجاورها في الأريكة الصغيرة:

- برده قراري أنا..

تراجعت تنأى عنه.. تفتح حقيبتها وتخرج منها بعض المال، تلقيه على المائدة وتنهض راحلة بخطوات راكضة دون حرف..

تابعها بيأس للحظات قبل أن يلحق بها، يجذب ذراعها، يقربها منه على الإفريز الخارجي والهواء البارد يغزو المشهد بفظاظة حضوره..

تملصت منه فتشبث أكثر:

- ماتهربيش مني..

- سيبني..

- إوعديني إنك ما تهربيش..

ارتجفت قربه بضعف بائس، بقنوط واليأس يخنقها بعقال الخضوع لمساره حيث حياة ولا حياة.. موت ولا موت:

- مش هاهرب..

حرر يدها، استدارت توليه ظهرها، تضم جسدها إليها، تسير ببطء ووجهتها موج البحر المحتد على الشاطئ في سجال الطبيعة اليومي وقت أزوف الغروب.. خطا جوارها بهدوء، مضى معها لبعض الوقت.. خمس دقائق.. عشر..

بعدها أوقفها، سعى لطمأنتها، احتواء ذلك الهلع العجيب غير المفهوم بعينيها:

- أنا بحبك يا ليلى، صدقيني مش هأذيكِ..

مد يده بتردد يحاوط كفها، يربت عليها برفق مشفق وقد خفتت أعاصير قلبه مع مرآه لدموعها الصامتة:

- إديني فرصة، خلينا نجرب.. قربي مني، وجودنا مع بعض يستحق..

أخرج من جيبه علبة مخملية، فتحها وواجهها بها مبتسمًا بحنو:

- تتجوزيني!..

كان خاتمًا راقيًا توهجت ماسته مع انعكاس حمرة الشفق فوقها..

تطلعت إليه بشتات ارتدت على أثره لعينيه.. لأمان يجاهد لزرعه بنفسها.. لصدق يرسم تفاصيله..

وحب يقسم هو على إخلاصه وتخشى هي أن تؤمن به!..

تخشى تكرار السقوط..

**

هو بين الخضوع والتمرد وُلد.. عاش.. ولم يستمر..

انتهج دربه الخاص بعدما أجاد دوره حد الإتقان، الحياة لعبة.. لا يريد أن يلعبها، كل ما يشتهيه منها هو نفسه أولًا!..

أجبره والده على الزواج من فتاة باردة تصغره بعامين وهو بالكاد أتم عامه الثالث والعشرين، بضعة ليالٍ تماثل برودها بينهما، كأنما كانت تنقصه هي ليفقد روحه أكثر.. حملت بطفليه..

لامته على حملها بهما في ذاك العمر وقبل أن تحظى من العالم بمقعد متفرج من الدرجة الأولى..

وضعتهما وبعد ليالٍ تالية رحلت بحمى مباغتة لم تنجُ منها..

سطرت النهاية بموتها، لكنها كانت بدايته!..

والده الأرمل الأربعيني الذي عافت نفسه النساء عقب رحيل أمه، رجل المال والجاه وبقايا السلطة.. رجل القانون الصارم الذي ألزمه بعدم كسر قواعده وإلا نال عقابه..

كان غاضبًا.. ساخطًا عليه وعلى الدنيا بأكملها..

حانقًا، هائجًا، راغبًا في الابتعاد لأقصى الأرض.. وفعلها!..

أمَّن حسابه البنكي بدولة أوروبية، لأشهر طويلة قضى الوقت في جمع المال بشكل لا يلفت انتباه الحوت الكبير إليه.. اطمأن على طفليه بأحضان والده الذي لن يفرط فيهما مادام في قلبه نبض..

وتبخر.. طاف بين العديد من الدول، لكن بداية جموحه كانت هناك بالقارة الجنوبية..

"فنزويلا"..

"كاميللا"..

مخملية البشرة، داكنة الخصلات، بريئة المحيا، فاتنة الملامح..

فتاة صغيرة تعلقت به ووجد في تعلقها دواءً لجرح امرأة سبقتها!..

أرادها، والخطيئة لم تكن في عرفه هينة لذا أتقن الاحتيال وأجاد الخدعة..

تزوجها ورأى أن شريعته تبيح حتى وإن خالف القانون، نهل منها كما شاء وكانت هي تمنح كما لا تفعل سواها..

حتى باغتته بخبر حملها لثمرته!..

أغلقتْ باب راحته بوجهه، وقطعت الخيط الأخير بينهما، تعارك معها.. أنبَّها.. عاقبها.. هددها ولم ترتجع.. كان يريد قتله!..

لكنها تمسكت به، حينها اتخذ قراره بلا ندم..

انتظر حتى وضعته، أضاف له اسمه بوثيقة ميلاده، ترك لها بعض المال الذي يكفيها حتى العودة لأهلها.. واختفى بلا عودة..

نسيها ونسي أنه أنجبه، ارتحل من مشارق الأرض لمغاربها، سقط في آثامه وخضع لشهواته..

كان يتزوج كل أنثى تعجبه ولو لليلة واحدة بعدها يمنحها الثمن ويهجرها..

حتى قابلها، معلمة فرنسية أتت في رحلة إلى ولاية "كاليفورنيا" حيث مقر إقامته المؤقت بمدينة "لوس أنجلوس"..

شاهدها بمصادفة، لكنه علم بعد ذلك أنه تخطيط القدر..

تتبع طلابها في عناية أمومية لا تليق بعمرها العشريني.. شقراء بعينين كسماء صيف رائقة، ضئيلة الجسد هشة كبتلة وردة ندية..

معها وحدها وجد ذلك التائه منه..

وجد كل ما فقد في يوم..

قضى بصحبتها بقية أيام رحلتها، تقرب منها، لاحقها.. وعندما عادت لبلدتها الريفية الفرنسية تبعها.. تودد إليها، طلب الزواج ولم يكن يعلم إن كان سيمل أم سيكمل.. لكنه أرادها..

مر عام، ثانٍ وثالث.. خمسة عشر، عاشا سويًا بهجة العشق واكتماله بمزرعة أطلق عليها اسمها..

"جولييت"..

ولم يكن هو بطل الأسطورة، فقط صنع خاصته معها حتى انقلبت بها سيارتها بصحبة ابنتيه الكبرى والصغرى في نهر "السين" أثناء عطلتهم الصيفية بالعاصمة "باريس"..

رحلت وتركته وحده هو وطفلته "توليب".. التي اختار اسمها يجمع بين عربيته وفرنسيتها الأنيقة، فكانت تنطقه ساحرًا آسرًا..

وحده دون عائلة.. بلا مستقر حتى وإن امتلك أحد أكبر المزارع مترامية الأطراف بقريته، حتى وإن حاز على ثروة لا يمكنه إحصاؤها.. فكان قرار الرجوع..

اللقاء والصدمة والفقد، الحزن الذي يعاقبه بخسارة ابنه الأكبر كأنما يخبره أنه لم يكتفِ منه بعد..

والغريب!..

ذاك الذي تخلى عنه في يوم وأسقطه عامدًا من حسابات القلب والفكر.. ذاك الذي سبقه بحضور وطغيان..

ذاك الذي حاول قتله ومن زاوية ما؛ يحق له!..

"قررت هتعمل إيه!"..

بتر سؤال أبيه سفره في فضاء شروده، أعاده حيث الواقع والحقيقة التي لا مهرب منها.. حيث كل من في البيت يرفضه..

رفع وجهه وتطلع إليه بينما يتخذ من المقعد المقابل له بحديقة المنزل مجلسًا:

- سيبها وارجع مكان ما كنت..

قست نبرته بقتامة حلقت فوق رأسيهما كضباب خانق:

- مش جديد عليك، أنت متعود ترمي ولادك وتهرب..

اعتدل بزفرة من قلب جحيم قلبه، تأمله بهم ومسح وجهه متعبًا.. منهكًا، يستجدي الراحة ولا يستحق منها الفتات:

- عاوزني أسيب بنتي يا بابا!..

- ما أنت سيبت إخواتها..

ثم هاجم بغلظة مبررة:

- سيبت يعقوب اللي لحد دلوقتِ ماحدش فينا عارف هو عاش حياته إزاي!..

وجد طرف الخيط الذي يفتش عنه منذ أيام، تمسك به وبادر باهتمام أبوي بدا مستغربًا عليه:

- ما اتكلمش مع أخوه أو معاك عن نفسه.. مامته!..

- لأ..

مال والده يقترب منه بصرامة قاطعة:

- ونصيحة ما تحاولش تعترض طريقه..

عقبها اعتدل يشد جذعه بحسم:

- سيبها وسافر..

نفى بهدوء ومشاعره كلها فاترة.. مدفونة بمنطقة الحياد رُغم سابق الحزن:

- مش هينفع أسيبها، ولا أسيب يزن و.. يعقوب..

أغمص عينيه مستهلكًا ما تبقى من أنفاسه بحشرجة:

- خليني أعوض ولادي..

- ولادك مش عاوزينك..

وقبل اعتراض جديد منه أردف بصلابة جامدة:

- ولا عارفينك.. ولا محتاجينك..

- يعني إيه يا بابا!..

- يعني ارجع بلدك، أنت هنا مالكش مكان..

- وبنتي!..

- سيبها تتربى في وسط أخواتها..

- مش هينفع..

أتاه البتر كما يحتم الواقع والخيال والوجع:

- خلاص.. خدها معاك!..

ترك "يونس" مقعده بحركة حادة.. رمقه من وقفته بخيبة طغت عليها مشاعره، وغادره..

غادره دون أن يعلم بوجود الابنة التي تسللت في منتصف الحديث، تنصت لبعضه دون فهم، تقترب من والدها بعد رحيله.. تجالسه بوجه قانط وإن كانت النظرة تشتعل بنيران التمرد كما كان هو في زمان مضى، تسأله بلا تمهيد:

- ليه بيكرهونا!..

وعقلها يستعيد جفاف أخويها معها.. أحدهما لا يراها بالمرة..

والثاني يراها ويتجاهلها بعد لحظات كأنما يغالب ما في قلبه نحوها..

سحبها "عبد الله" لتستقر فوق قدميه، احتوى كتفيها بذراعه وربت عليها بحنان:

- لأ.. هم مش بيكرهونا..

قبَّل رأسها واستقر بأنفه هناك يتنفسها، يتشبع برائحة برائتها:

- هم بس زعلانين مني شوية..

رفعت وجهها إليه بحنق حاد:

- بس هو كان عاوز يموتك..

داعب وجنتها وابتسم بأسى:

- عشان سيبته لوحده ومشيت..

بعدها ضمها إليه بقوة، يتعلق بها ويبثها أمانًا بوجوده:

- لو سيبتك لوحدك، مش هتزعلي مني!..

هزت كتفيها بين ذراعيه ببديهية تشبه ردها الدافئ المهدهد لقلبه:

- هازعل قوي؛ بس مش هاكون عاوزاك تموت..

شرد بصره بحيرة.. ماذا يخبرها!..

هو حتى لا يعلم أي شيء عن ابنه الذي غرس فوهة سلاحه بعنقه وكاد أن يطلق الرصاص..

لمَ يحمل سلاحًا من الأساس!..

لمح زوجة الأكبر تسير بالحديقة، تحمل رضيعها.. حفيده، تبتسم له من بعيد بتحية فأومأ إليها لتقترب.. استجابت بتردد، سارت نحوهما حتى اقتربت، حينها بادر برفق أبوي:

- زين عامل إيه!..

جاوبت "غزل" متجاهلة كل مشاعرها السلبية عن طفلها ونفسها وأمومتها الوليدة:

- كويس الحمد لله..

أزاح ابنته برفق واستقام يوازيها بارتباك:

- ممكن.. ممكن أشيله!..

ارتباكه وصلها فأربكها.. شعرت بحرج من سؤاله، فحمل الجد لأحفاده من بديهيات العلاقات الأسرية، لكنه مختلف.. والأمر كله معقد، مقلق..

ناولته إياه فاحتضنه بعاطفة، رمق ملامحه المنمنمة التي تشبه والده كثيرًا ببسمة رؤوف:

- شبه يزن..

تدخلت طفلته تدقق فيه باعتراض معاند:

- لا.. شبه زولي..

وذاك ربما لأن "زولي" هي الصديقة الوحيدة بهذا المنزل البائس.. شعثت "غزل" خصلاتها الناعمة بأصابعها وقبل أن ترد ظهر هو..

زوجها، ملامحه مبهمة، نظرته غامضة، حضوره جاف خشن، يحمل ابنه من بين يدي أبيه.. يبتعد به دون كلمة واحدة..

شعرت زوجته بحرج مضاعف خلصها منه الأب عندما هز رأسه وأغمض عينيه بتفهم، تبعته بهرولة لا تكاد تسعفها قدماها لتجاري تسارع خطواته..

أغلقت باب الجناح عليهما وابتدرته بضيق:

- على فكرة اللي عملته ده ما يصحش، ده باباك يا يزن..

تغاضى عن احتجاجها واتجه لغرفة النوم، وضع وليده بمهده وربت على بطنه برقة، بإثرها استدار إليها ساخطًا:

- غزل.. اسمعي الكلام اللي هاقوله ونفذيه من أول مرة لأني مش هاكرره..

اقترب يشرف عليها بقامته الطويلة، يحتل أفقها ومسامعها بفظاظة أخافتها:

- ابعدي عنه، ابعدي ابني عنه.. ما تتكلميش معاه، ولا عاوز يكون لك علاقة بيه، مفهوم!..

رمشت بحيرة متوترة:

- باباك!..

- مش أبويا..

هدر بها في زعيق مكبوت خشية إخافة الرضيع، أعادها بحزم باتر:

- مش أبويا..

تراجع يرمي بجسده فوق الفراش تاركًا قدميه تتدليان على الأرض، عيناه تلتصقان بالسقف في جمود.. وقلبه يبغض مجرد ذكر اسمه..

جاورته ترتكن لمرفقها، تمرر أناملها حول حنايا وجهه، تجبره على الغرق في عينيها، تهمس بشفقة مدركة:

- وبعدين!..

قطب بتساؤل واعيًا لكونها تغوص بمستنقع أفكاره الآسن..

وذاك يحتم الغرق..

- هتتهرب منه، مش هترضى يكون بينك وبينه علاقة.. مش عاوز تسمعه، حتى أختك ما بتقربش منها..

أدار رأسه فأعادته إليها رُغمًا عنه، تهدي جبينه قبلة دافئة وتستوعب صراعات روحه:

- ما تكررش غلطتك مع يعقوب، اسمع منه.. قرب من تولي، أنت أخوها الكبير..

- تولي!..

دمدم بها متهكمًا فقرصت وجنته بمشاغبة:

- أيوة.. أنا وهي بقينا أصحاب خلاص..

اعتدل يستند على كوعه في مقابلها، يحتويها بنظرة تائهة لم تصل لكامل أبعادها.. يشرد فيها، في تفاصيلها.. يهبط بناظريه لصدرها وكفه تمتد ليفردها فوق هدير نبضها:

- أنا محظوظ إني ساكن في قلبك..

شاكسته بشقاوة محببة:

- أكتر راجل محظوظ في الدنيا أصلا..

قلبها على ظهرها، اقترب ووجهته شفتيها، يدفن في دنياها ثورته.. ألمه.. حزنه، ولم يلمسها.. علا بكاء الصغير فجلجل يصدح بأركان الحجرة كأنما سيهدم الجدران..

ابتعد بزفرة غاضبة:

- ابنِك مستقصدني..

ضحكت بمكر ودفعته لينهض:

- طيب قوم روح له..

استجاب بتلكؤ مغتاظ، حينما سألها وسوء ظنه يحاصرها:

- إحنا مش هنخلص من الاكتئاب ده بقى!..

استقامت تتوسط الفراش، تعقد ساقيها في راحة وتراقبه يحمل الرضيع، يتشممه ويكرمش أنفه بتقزز.. تكبت بسمتها بينما يمارس مهمته في تنظيفه وتبديل حفاضه المتسخ بأبوة مثالية، ينهي الأمر فيناولها إياه مغادرًا إلى الحمام:

- هاروح أنقع نفسي في ديتول..

سمع ضحكتها من وراء ظهره فتوعدها بجدية عجيبة:

- وهاجي آخد حقي منك..

ربما الحياة لا تترك لنا مقاليد كل الأمور، لكن ما نختاره منها يقع علينا دون سوانا تبعاته..

اخترنا التمرد أو الخضوع..

الحب أو اللا حب.. النجاة أو الموت..

نحن مجموعة من الخيارات التي لا حصر لها، ولا تحسمها نهاية إلا مع خروج آخر الأنفاس..

تمرد من قبل، وسبقه والده بالتمرد..

عاد، وأهداه قدره فرصته فاقتنصها..

مرر الأمس بما فيه ومن فيه.. ثم قرر أن يسطر صفحة جديدة من دفتره بحبر العشق، وذاك هو كل ما يملك..

كل ما يريد ويحتاج..

**

هو شرير حكايتها، وهي بطلتها التي أغلقت الكتاب وركضت لا تريد عودة..

هو الشيطان المنبوذ، المطرود من نعيم كل جنان الأرض، وهي البشرية بطباع ملائكية.. لا تستحق الاحتراق في جحيمه..

هي الهاربة.. الطريدة..

وهو الثعلب.. الضارية..

هو وحشها، لكنها ليست جميلته..

ولن تكون!..

في غيابها تمر الأيام بلا مذاق، بلا انفعال.. حتى الغضب الذي فاض من خلاياه، السعير الذي اصطلت به روحه مع رجوع أبيه.. تبخر قربها..

تلاشى للعدم، وظل على واجهته الجامدة التي تقيه عنف المشاعر وقسوتها والضياع بمتاهاتها..

ليلتها مكث إلى جوارها حتى الصباح، كانت نومة عجيبة لم يحظَ بمثلها منذ عمر، هادئة، طويلة، مرتاحة..

كأنما هرب من عالمه كله إليها..

حين استيقظ في اليوم التالي كان أول ما سقط بصره عليه حركة طفيفة شبه ملحوظة ببطنها، ركلة أحد طفليه ربما.. لم تتكرر رغم أنه راقبها بفضول لربع ساعة أو أكثر..

وانتهى أسبوع جديد..

بدأت شهرها السادس، على حالها من فقدان الوعي، لا شيء يتبدل.. لا شيء يردها إليه؛ حتى طفلها..

طفلها الذي لمحه مصادفة بأحضان من منحه نصف جيناته فاتقدت نيرانه.. يريده أن يختفي من الصورة، ألا يلمس ما أو من يخصه.. وطفلها مثلها تمامًا مع كونه ابن أخيه؛ له!..

تجاهل حينها المشهد برمته ورحل، يرى في عيني العائد رغبة في وصال.. اعتذار.. ندم.. كلمات مصفوفة بعناية لتطيب جرحًا لا يعلم هو أنه كواه منذ زمن وتناسى ندبته..

يغادر للعمل بعد الشروق بساعة ونصف، ينهي قبلها روتين ركضه، ينتهي من الشركة فيذهب للمشفى.. الوقت الذي كان يقضيه بصحبتها تضاعف خمس مرات..

يراقبها بصمت.. لا ينبس بحرف، ولا يجد ما يمكنه قوله..

يعود للمنزل، من بوابته لمعتزله، ساعتين أخريين يقبع خلالهما بين جدرانه هادئًا، بعيدًا عن البشر.. يصعد لغرفته.. ينام بلا عمق، يستيقظ قبل الشروق.. يكرر روتينه، ويغادر للعمل!..

يوم آخر.. ساعات أخرى.. تكرار، استعادة.. ملل..

أتى موعد رحيله، استقام يتأملها بخواء وإن تفلتت من عقال سيطرته شذرات غضب..

غاضب منها، حانق عليها.. وساخط على عالمه بأكمله..

اقترب من الفراش يجول ببصره حولها، خصلاتها، وجهها الشاحب.. شفتيها الباهتتين، أجفانها المتعانقة في سلام.. جسدها الهامد وانتفاخ بطنها..

انشغلت به عيناه للحظات طوال، مد كفه إليه.. تردد قربه، يريد ولا يريد، يخشى القرب ويتمناه، تثار بقلبه زوابع الحيرة والتشتت..

في النهاية تراجع دون لمس، استند للفراش بيده جوار رأسها، انحنى يهمس بأذنها بقسوة باردة:

- جبانة يا شمس، وهتفضلي جبانة..

أغمض عينيه.. زفر أنفاسه فلامست شعرها، حركته قليلًا وشفتيه تكادان تلتحمان بمسامعها:

- في كل حروبك ما تعرفيش معنى المواجهة..

ارتد للخلف مسافة قصيرة، دقق في تفاصيلها.. انحناءات وجهها، ارتفاع وجنتيها، ذقنها الصغير وأنفها المستقيم، ابتسم بشراسة قاتمة، مظلمة كظلمة نفسه:

- حتى حربك مع نفسك..

أطلق غضبه مع هواء صدره وخفوت نبرته حد الاختناق:

- بتستسهلي الهروب أو الاستسلام..

تباعد أكثر يرمقها بنظرة صلبة داكنة:

- كنت فاكر أنك اتغيرتِ..

شد قامته بنية الذهاب خاضعًا لروتين بات مألوفًا بينهما، مستهينًا.. محبطًا:

- بس مافيش فايدة..

تسابقت خطواته ينشد اختفائها من أفقه..

لا يعلم أنها بأفقها كانت هي تستقر في جنتها بسلام..

ليست ملاكًا، مجرد بشر اختار نعيم الغياب على جحيم الحياة..

تصرخ بألم وأمل.. عاشقها يمسك بيدها، طبيبتها تحثها على الدفع والتنفس.. يأتي وليدها لدنياها فيغير معالمها بالكلية..

تحمله ملوثًا بسائل مسكنه، تبكي، تقبله، تلمح عبرة والده الذي يميل قربهما بلا تصديق، يتمم باسمه متعجبًا من معجزة الميلاد..

"يزيد"..

ويظلم المشهد!..

لينير من جديد، هي وطفلها وحبيبها، الصغير يخطو باندفاع ليسقط بين ذراعيها، تستغرب كيف مر الوقت!.. متى نما!.. متى كانت خطوته الأولى!.. ما هو طعامه المفضل!..

كل ذلك غريب، بلا معنى، لكنه يلامس قلبها بدفئه ويطمئنه..

شعرت بزوجها يحيط كتفيها بذراعه، يهمس لها بجدية حزينة:

- جه وقت رجوعك يا شمس؛ يزيد محتاجك..

قطبت حائرة، لا تستوعب مقصده.. استدارت بأحضانه تتأمله بعشق:

- أرجع فين يا يامن!..

قبَّلت الصغير قبل أن تدفعه لصدر أبيه برفق:

- يزيد معايا، أنت معايا.. مش عاوزة حاجة تاني من الدنيا كلها..

لم يأخذه منها، تركه بين يديها ولثم رأسها بحنو:

- الحياة مش جنة يا شمس..

تشتت أكثر، استدارت إليه بتساؤل مرتبك يشوبه خوف:

- طول ما أنا معاك؛ الحياة هتفضل جنة..

خلل خصلاته بأنامله، يضمها بعينيه ونبرته وحروفه، يهدهد مخاوفها بحضوره ودفئه:

- بس أنتِ مش معايا.. أنا في مكان، وأنتِ في مكان تاني، مكان يزيد محتاجك فيه..

توترت، ارتجفت.. تشبثت به وهي ترى صورته تتماهى في عشوائية قبضت قلبها:

- يامن، ما تسيبنيش..

- مش هاسيبك أبدًا، وعد مني..

همسه خفت.. تلاشى ببطء حتى اختفى تمامًا وهي تصرخ باسمه..

يظلم المشهد مجددًا إلا من بقعة ضوء مسرحية مسلطة عليها هي وابنها.. تدور حول نفسها بضياع، بهوس، بصياح يمزق أحبالها الصوتية ثم يموت على حدود شفتيها..

ترتطم في العتمة بجسد مبهم!..

تلتفت بلهفة، لقد عاد الحبيب..

لكنه لم يكن هو..

كان آخر تعرفه، ملامح نسيتها.. وتتمنى لو لم ترها من جديد..

شيطانها..

إبليس اللي دنس فردوسها بحضور جهنمي يليق به..

استعادت ذاكرتها بغتة، كلها، كل العبث والفوضى والألم.. كل ما هربت منه، لاحقها وأسقطها متعثرة في هاويته..

ارتعد جسدها بحسرة، بتعب، برغبة في الفرار حتى الموت، ولاحق هو رغبتها بحصار، بصوت رخيم عميق وحروف ثقيلة الوقع:

- الجنة في خيالك، مجرد وهم يا شمس..

وتحكم بكتفيها، قربها منه، أحرقها بأنفاسه متممًا الحكاية بواقعية لا تشبه وردية الحلم:

- والوهم مهما طال؛ عمره ما هيتحول لحقيقة..

حقيقة تملصت من براثنها لتخضع لدنيا الأمنية..

حقيقة لا تريدها.. حقيقة تخشاها.. حقيقة تبغضها!..

حقيقة.. يحتاجها فيها طفلها!..

عندها.. فتحت عينيها..

يقال أن العودة من الموت تغير طبيعة البشر، تفند كل نظرياتهم السابقة.. تقلبها رأسًا على عقب، تهدمها وتبنيها وتحطمها بلا هوادة.. دون توقف..

لم تكن ميتة وإن تمنت الموت..

لم تكن مذنبة لكنها أقرت بالجرم..

لم تكن تعلم أن الحقيقة ستطاردها حتى في لا وعيها، وتنتزعها منه قسرًا..

حقيقة أتاه بها اتصال وهو في منتصف الطريق للمنزل؛ زوجته استفاقت!..

بربع الوقت الذي تعوزه المسافة عاد..

بعد دقيقتين أخريين كان يقف على باب غرفتها..

يسقط بين جفنيها، ويسقطها في ثقب عينيه الدوامي الأسود..

ثقبًا ابتلعها وإن لاحظت بلا رغبة، أن هناك ما تغير!..

هناك ما فاتها..

حدث أن جرى جدال، طال بين الأعين.. ويبدو أنه سيصبح أكثر حسمًا بصحبة الكلمات!..

هي الشمس التي أشرقت في عتمة ليله..

وهو الليل الذي غلف نورها بظلامه..

لكننا نرى أنه في تلك الحكاية، بين هي وهو.. لا يجوز أن تُكتب أسطورة..

لا يباح سوى خاتمة..

بتر!..

**

هي وهو في هُوة..

هي وهو في فجوة..

هي وهو في بُعد آخر بزمان قديم، وأسطورة كانت تستحق الكمال!..

هي وهو في أمس يصر على طبع الحاضر والغد ببصمته..

العشق قنبلة موقوتة منزوعة الفتيل، تنتظر اللحظة المناسبة للانفجار..

العشق هو كارثة قلبيهما معًا، حين تمسك فتخلت، وحين عشقت فكسر..

لم تصدقه عندما صرح بما يريد، حتى بعدما فتح كل الدفاتر القديمة، مزقها ونثرها فوق رأسها؛ لم يمكنها الإيمان بما يقول..

هو رجل عقيدته صدق، مذهبه نُبل، قانونه استقامة، مساره وفاء ومراعاة؛ فكيف تحول لذلك الفظ المتجاهل الخاوي من كل انفعال أو شعور ظنته امتلكه نحوها في يوم ما!..

لم تصدق ومع مرور الأيام على صمته، جفائه، تباعده؛ لم تعُد تتحمل..

أجبرها على البقاء بالمنزل؛ لا عمل.. لا خروج من الأساس، يخبرها أن رؤياها تزعجه.. وما يرغبه منها سينتهي بأجل محدد يتمنى لو كان قبل سنوات لا بختام بضعة أشهر..

تهاتف أبيها وتبتسم.. تصبغ على صوتها سعادة، تحدثه عن حفيده برحمها.. تكبت الألم وانكسار الروح.. تهادنه فربما يفهم..

لكنه لا يفعل، ولا يبدو أنه ينوي!..

جلست على أريكتها الناعمة بشرفة المنزل، تضم ركبتيها لصدرها وبين كفيها قدح من مشروب النعناع الدافئ لأجل تقلص معدتها

منذ البارحة، شاردة في وهم كان حقيقتها الوحيدة حتى أيقظها منه على الواقع الأقرب للحدوث..

تتنشق رائحته وتغمض عينيها باستسلام.. لن تفقده، يحبها.. تحبه، والقصة لا يجب أن تكون إلا وردية بنهاية سعيدة يستحقها كلاهما.. يستحقها حبهما..

تهديه الوقت فقط.. تراقبه، تضيع فيه وتعشقه، تعلم بعذابه الذي يفوق عذابها، افتراقه عنها ولهفة روحه إليها، تنتظر التوقيت الصحيح لتقترب.. تعيده لقلبها..

لمحت سيارته تدخل من باب المنزل الخارجي، يصفها قرب الإفريز الداخلي، يترجل منها ويلمحها.. يتغاضى عن وجودها ويخطو للبيت بلا اكتراث..

تركت القدح وتبعته، نادته بهمس منهك أرجف حواسه:

- ماجاش الوقت اللي لازم نتكلم فيه يا منذر!..

توقف يوليها ظهره، اقتربتْ وظلتْ خلفه تتطلع لثباته، لتشدد جسده وتصلب كتفيه:

- أنا نفذت كل اللي أنت عاوزه، عشانك.. حقي تسمعني..

خاطبها من وقفته بلا اهتمام.. بلا التفات، بجمود غلف نبرته الميتة:

- أنا كمان نفذت اللي أنا عاوزه، فاضل آخر خطوة.. ومش من حقك أي حاجة يا دُچى..

دارت حوله تجبره على مواجهة.. على ضعف تعلمه في كيانه بين جفنيها:

- يعني إيه!.. كل حاجة كانت خدعة من وقت ما رجعت!..

زم شفتيه وتذكر..

أغمض عينيه وكبت كل حزن، أظهر القسوة والبرود واللامبالاة:

- لأ يا دُچى مش كل حاجة..

أبان صدقًا لا يتخلى عنه حتى وإن كان بقلب خدعة..

حيلة إعادتها والثأر منها لكل دقيقة من غفلة كانا فيها معًا..

- أنا رجعت لأن كان من حقي محاولة أخيرة، حبي ليكِ يستاهل المحاولة..

تهكم بسخرية كالحنظل:

- كنت شايفك تستحقي محاولة..

اقترب منها خطوة واحدة كانت تفصل بينهما..

اقترب يغرق فيها كما أرادت، لكنه هذه المرة اختار الشاطئ عوضًا عن نهر هواها الأجاج:

- رجعت وجوايا أمل، حتى لو كان ضعيف..

ثم ابتسم بقسوة مباغتة ولهجته تتبدل دون مقدمات:

- بس بعد يومين من رجوعي، شفتك مع واحد تاني بيني وبينه شغل.. بتبكي، بتتمسكي بيه، بتبصي له بنظرة عمري ما شفتها في عيونك..

رمشتْ بوهن تتذكر اللحظة والمشهد والعبثية اللامنطقية، قبض على مرفقها ومال يردف بحزم:

- كان لازم أفهم، أدور.. أعرف التفاصيل..

عقبها أكمل نهج استهانته البائس بزعيق مختنق:

- رجعت بالزمن، عرفت الحدوتة القديمة، عرفت إنه متجوز وإن مراته أنا شفتها فعلا وهي كمان شافتكم..

نفضها.. دفعها يبعدها من طريقه، يلتف حول نفسه بغضب:

- عرفت إني كنت مجرد مرحلة بدأتيها وقت ما حبيتِ، ونهيتيها وقت ما قررتِ ترجعي له..

بتر هياج دواخله بحركة أجفلتها عندما عاد يتشبث بها، يقربها منه ويطعن نفسه في موطن طعنتها ذاته..

لا يريد للنزف أن يتوقف..

لا يريد أن ينسى أو يمرر وجيعة الفؤاد:

- عرفت إني حبيت بكل ما فيَّ، ضحيت بأبوتي، كملت معاك تلات سنين عشان ولا حاجة، أنا بالنسبة لك ولا حاجة!..

التمعت مقلتاه بوهج أثار فزعها..

وهج كنيران ألف جحيم:

- كنت فاكر إنك جنتي..

بإثرها حررها.. تراجع، واستهزأ بحاله.. بهزيمته على يديها:

- بس اكتشفت إن اللي عشته معاكِ مجرد وهم..

تعانقت أجفانه يهرب من النظر إليها.. من رؤية ضعفها وصدق عينيها..

التصديق هنا تخاذل.. الإيمان هنا حماقة:

- أنا كنت في جهنم..

سمعتْ كل حرف، ابتلعتْ كل كلمة وامتهان وتكذيب..

غصتْ بها، اختنقتْ وتحشرجتْ حروفها بعتاب:

- خلاص كده قلت كل اللي عندك!.. اتهمتني وحاكمتني ونفذت الحكم!..

اقتربت هي.. حاصرت..

رفعت كفها تريحها فوق نابضه، تناشده التصديق.. العودة..

تسأله عشقًا أقسم به في يوم ما فات، ثم هشمه في مهده بقلبها حينما بادلته غرامًا بغرام:

- المفروض تسمعني.. ما تحكمش عليَّ من وجهة نظرك وبس؛ أنا مسموح لي أدافع عن نفسي..

تجمد تحت وقع لمستها، لم يتحرك.. لم يبتعد أو يقترب أو حتى يتنفس:

- أنفي التهمة اللي بترميني بيها..

لم يتجلَ بنبرته شعورًا أو يغزُ عينيه انفعالًا.. كان محطمًا على عتبات الحب، مكسورًا في الدرك الأسفل من هاويته:

- أنتِ عارفة أنا إديتك كام فرصة تصارحيني إن الحاجز اللي بيني وبين قلبك راجل تاني!..

مد يده يحاوط بها كفها دون ضغط أو غلظة:

- عارفة إن بعد الحادثة؛ الندم والذنب كانوا بياكلوني لدرجة إن كل اللي كنت بفكر فيه إنك تكوني بخير حتى لو هاخرج من حياتك!..

أغلق أصابعه حول أصابعها، لم يُزِحها عنه، تركها هناك عند خافقه وظل معها:

- عارفة إني عرفت الورد اللي بعته عشانك، وأنتِ كمان عرفتيه، وأنكرتِ!..

واستمر بتعداد ما قدم من مِنح دهستها هي دون أن تدري:

- عارفة إني عملت الاجتماع بينكم فرصة أخيرة تفتحي لي قلبك، وتقطعي الخيط اللي رابطك بالماضي، بس برده أصريتِ على الكتمان والكدب!..

تصلبت حروفه بحلقه مع نهاية حديثه.. أبعدها بلا رفق، بحدة كارهة، بحنق وسخط على نفسه أكثر منها..

قلبه المتيم بها.. وروحه التي تناشده الصفح والسكن بين ذراعيها:

- كفاية كدب لحد كده..

تعلقت به، لم تترك له مساحة ابتعاد كان يفتش عنها.. كفه التي حررتها احتوتها بكلتا يديها..

تفند.. تبرر.. تسوغ، تعلم ألمه وتتمنى له الشفاء، توقن أن معها الترياق:

- أنا عمري ما كدبت عليك يا منذر..

انسابت دمعة تحرق وجنتها.. دمعة مخلصة في الهوى ورغبة القرب:

- لا وإحنا متجوزين أول مرة، ولا بعد ما رجعنا..

تسللت بباطن يدها تضم خشونة فكه المزموم، كأنما يحبس اختلاجاته بكل قواه:

- اسمعني..

- للأسف.. استنفذتِ كل فرصك، وما بقاش عندي قدرة إني أسمح بفرصة جديدة..

وتخطاها بلا صبر.. بلا نبض..

باختلال مباح وضعف ممقوت..

أسطورة العشق تعوز قربانًا، لم يعُد بإمكانه تقديمه وهو في دنياه قد فُقِد..

ضاع إلى الأبد!..

**

في حكايته هي تجسيد الإثم.. هي الخطيئة.. هي الغواية والذنب والعذاب الخالد..

وفي حكايتها هو العاشق مبتور العشق، شاعر الأمس الذي تخلى عن شعره لأجل قصيدة عشقها، منقوصة الأبيات، مبعثرة الشطور، فاقدة للوزن والقافية والنغم..

المثالية وهم كما يوتوبيا أفلاطون، أسطورة مستحيلة كالغول والعنقاء والخل الوفي.. وهو المثالي بكذبة، الغادر بتخلي..

أما هي؛ فستكون المطرقة التي تحطم مثاليته المدعاة فوق رأسه.. ستفيقه من أوهامه المكذوبة بدنس مستحق وغرض سيقضيه فتنتهي منه..

موعد عودتهما المقرر بعد يومين، وخلال أسبوع مر كانت تحضره للحظة التي تعد لها منذ أتيا..

لحظة السقوط..

الليلة الموعودة.. عشاء شهي.. نبيذ أحمر.. طاولة قرب مسبح الفيلا.. وثوب بلون نبيذ كأسها، عاري الكتفين، يكشف نصف

ظهرها ونصف ساقها، يتضاد مع بشرتها بنارية تناسبها، ويتضامن مع خصلاتها لإحراقه.. موسيقى كلاسيكية راقية، هي.. وهو!..

يتشاركان رقصة هادئة، يده تلامسها فتلمح تأثره.. توقه.. لهفته التي يكبحها لجام مثاليته المصطنعة.. تعانقه برقة، تجذبه إليها، تسقطه عن جرف ثباته بلا جهد..

تدرك تأثيرها عليه فتنتشي، وتدفعه أكثر نحو حافة الزلل..

أراحت رأسها على صدره، تنصت لهدير نبضه ببسمة هادئة.. تترقب، تتنظر كلماته وتعلم أنه لن يتأخر.. سمعت تنهيدته، شعرت بذقنه تستقر قرب جبينها، وصوته يأتيها مفعمًا بشتات مشاعره ورغباته المحرمة.. رغباته التي يقاومها ببسالة تسخر منها في كل حين:

- لسه باب قلبك مقفول قدامي يا روزا!..

ولأنها تحثه ليسلك درب خطيئتها.. تنهدت مثله، بحرارة أجادت افتعالها، تراجعت تنظر في عينيه بحيرة متعبة تستحق تصفيقًا مدويًا من جمهور العرض المبتذل:

- أنت اللي قفلته بإيدك زمان يا مالك، ورميت مفتاحه كمان..

توقف عن خطواته التي تتابعها معه، رفع وجهها إليه مدافعًا بحيثيات المحامي المخضرم:

- كلنا بنغلط، إديني فرصة أعوضك.. نعوض اللي ضاع من عمرنا..

طوى أصابعه يلامس بظاهرها نعومة وجنتها مردفًا بصدق:

- أنا معترف إني غلطت، ومافيش حاجة في الدنيا تقول إنك تنسي غلطي..

ابتسم بجاذبيته المعهودة:

- فأنا باقدم التماس لعدالة المحكمة، معترف بالذنب ومستعد أتعاقب، بس بشرط..

غمرها بنظرة تدلل على وفائه، إخلاصه وحقيقة استعداده وخضوعه لتلقي الجزاء:

- عاقبيني وإحنا مع بعض..

نظرته.. نبرته.. حقيقة ما ينطق به، كل ذاك أزعجها فتهربت منه، تغاضت عنه تقسم على إكمال خطتها وصولًا لخط النهاية..

عليه منها ما يستحق من لعنات وغضب ونار..

ابتعدتْ عنه لخطوات مدروسة، تتلعثم حروفها بشتات يناسب المشهد:

- هاشيل الأطباق..

هرولت بتعثر تفلت من بين يديه، تلقي بالطعم وتتأكد من ابتلاعه له..

لاحقها بهجوم ذكوري ظنه ذا تأثير مطلوب..

جاورها بالمطبخ بعدما تخلصت من حذائها شاهق الارتفاع وحررت ألسنة لهب شعرها من تصفيفتها الأنيقة فضاعفت من غوايتها بقصد..

وقفت تدعي رجفة يديها وجسدها بينما تفرغ الأطباق من بقايا الطعام، تغسلها بشيء من حدة فتهديه إيحاء البعثرة المنشود..

أتى من خلفها يساعدها، يتشدق ببسمة تناسب عنجهية رجل يظن أنه على وشك الفوز بغنيمته ..

تعمدت إسقاط طبق صغير، سمعت تهشمه تحت قدميها العاريتين، لمحت قلقه وأنصتت لأمره المهتم:

- استني ما تتحركيش..

بعجالة لملم القطع، تأكد من جمع كل الشظايا، ألقاه بالقمامة وعاد إليها.. إلى وقفتها المرتبكة المهتزة قرب المغسلة، زمة شفتيها وفرار عينيها من حصار عينيه.. حاوط وجهها بكفيه، أسند جبينه لرأسها يتشبع بعطرها المثير.. يهمس لها بحرارة.. باشتياق:

- إديني فرصة يا نيروز..

لم تتباعد أو تهرب، اكتفت بتحريك وجهها بين يديه، رفعته نحوه فباتت الشفاه قرب الشفاه، لفحته أنفاسها باشتعال مقصود:

- خايفة أكرر التجربة يا مالك..

فقد مقاومته وكلماته تتبعثر على حدود ثغرها الفاتن:

- ما تخافيش..

وغرق في قبلة بمذاق الجنة، بسحر الأسطورة، بأسر حورية النار..

تراجع بأنفاس ضائعة ونظرة غائبة بحواشي عالمها، يكرر عرضه وكل ما فيه يفقد السيطرة:

- نتجوز، دلوقتِ..

كان قرارًا يظنها ستستجيب له..

قرارًا لم يعلم أنه خطوته الأخيرة قبل التحطم عند القاع..

انفلتت منه، تباعدت ترفض برجفة كأنما يقتلها صقيع فراقه:

- لأ..

اقترب هو يعيدها لأحضانه، شاعرًا بانغماسه فيها كما لم يحدث من قبل:

- ما تبعديش عني، وافقي..

وطوق عنقها يثبتها بين ذراعيه:

– ما بقيتش عاوز ولا قادر أبعد..

رعشة جديدة..

نظرة ضعف..

تشبث.. نداء..

غواية..

ثم منه رغبة..

اشتهاء..

سقوط!..

ولا عزاء لمثالية بائدة، وأفلاطونية شاعر معتزل..

شاعر مطرود من فردوس إلهامه بلا عودة..

(41)

مرحبًا بك في الجحيم..

أنت هنا في القاع..

أنت الآن من أهل الدار!..

**

يقول الرجال عن الأنثى؛ أنها أفعى..

متلونة.. متسللة.. ماكرة.. سامة!..

يخشونها ويرغبون فيها، يقاومون ويسقطون، يعاندون ويتجبرون ثم يخضعون للحظة شهوة..

عندها تنتصر الخطيئة وتُنحر كل فضيلة تحت أقدام الغواني..

الإثم محفوف باللهفة، بالتوق والشغف، بالنار ونزعة الاستسلام للاحتراق..

والمقاومة محاطة بالعذاب، بالمنع والتماسك المبتور..

حلم-هن

مع أنثى فاتنة، الشهوة تفوز..

الرغبة تهزم الثبات، والحب يطرق أبواب القلب الخلفية فيدفعه عن الهاوية.. القاع لم يكن بعيدًا بما يكفي ليطول وقت السقوط، أو يتأخر الارتطام العنيف..

القاع كان قريبًا، صلبًا، مسننًا حادًا يترقب عنده سعير محتدم..

القاع جحيم..

الأنثى جحيم..

والشهوة جحيم لم يطفئه الامتلاك..

الشهوة صحراء ليس بها واحة خضراء، ولا يكفيها أنهار الأرض للارتواء..

كما لم يمكنه الشبع من غانيته التي استحوذ عليها مثلما تمنى على مدار عشرين عامًا، سقط بين ذراعيها غائبًا عن كل وعي.. ضالًا عن كل رشد..

كان مع حوريته..

ولم يدرك أنها تلبست جلد الشيطان، سلخت جلد البشر بقرار صارم، واتخذت من دروب الخطايا مسارًا..

لا تكترث.. لكنها تعلم أنه يفعل!..

هو شاعر العشق الأول الذي أقصى ما طمح إليه معها كان احتواء كفيه لكفها وبينهما قصيدة هوى أقسم على صدقه وإخلاصه..

لم يتخطَ تلك اللمسة.. لم يحاول وهي لم تكن لتسمح في حينها..

بإثرها باع القصة بثمن الفداء المبتذل، جعل منها غنيمة.. وتنحى عن عرش المُلك رُغم كونه المَلِك!..

سحب جيشه، تراجع، رفع راية الهزيمة دون قتال.. وتركها لقمة سائغة بين أنياب رجل لم يستوعب جموح الحورية أو جنونها..

ولم يتحمل سم الأفعى.. أفعى وُلدت في بيته، نمت على يديه، تعلمت القنص والصيد والافتراس نكاية فيه..

والآن يأتيها الشاعر بقصائده المشنوقة بأنشوطة الماضي، يقرر أن الهدنة حق.. وأن مدينتها المحتلة آن أوان تحريرها على يديه..

لم يدرك أنه في الأساطير تسيطر الجواري..

وأن السبايا يمكنها أن تنال المُلك بطعنة غدر!..

سقط في شرك مثاليته، شتات القبلة الأولى.. الضمة الأولى.. والمذاق الساحر..

سقط ولا عزاء لنسق انتهجه معها بُغية شرعية الحدث..

لم تنم.. ظلت مستيقظة حتى الفجر وذراعه تحاوطها، تهديه بوجودها فردوس أحلامه، رشفته الأخيرة من كأس الغواية.. ثمالته حد فقدان العقل..

تراقب ملامحه الساكنة بارتياح كأنما أفكاره تحلق مع سحب العشق الرومانسية، أجفانه التي ترتجف بحركة سريعة تبعًا لحركة عينيه كما يحدث عندما نحلم بالفعل..

هو في مرحلة نوم عميق، هادئ.. سعيد!..

لن يسهل إيقاظه منه، وهي لا تريد أن تفعل.. تريده أن يدمن الصورة والحلم والقرب، لأنه ناله لمرة واحدة لن تليها أخرى..

توقن أنه بعد إفاقته ستنهشه مثاليته البغيضة.. ستفترسه بقايا أخلاقه التي فتتها فوق جسدها بأثر سينمحي عقب عدة أيام..

بعد استغراقه في النوم ابتلعت من جارور إلى جوارها قرصًا يقي رحمها بذوره، لم تغادر ضمته.. تركت نفسها لاحتوائه لينعم بها حتى القاع.. كما السقوط والاصطدام المُحطِّم..

تخمن سيناريو ممل سيحدث خلال ساعات، يفتح عينيه.. يستغرب نومته، يفتش عنها، يركض إليها..

ويعتذر!..

ثم يكرر عرض الزواج بكرم حاتمي وتنازل ذكوري تفهمه..

ابتسمت ساخرة تهزأ من سهولة قرائتها له، أزاحت ذراعه، نهضت تلف جسدها الناعم بالشرشف، تراقبه من وقفتها بنظرة كغيمة جافة.. نظرة صلبة كماسة لم تتشكل بعد.. نظرة باترة كحد سيف مسنون..

تهادت تجاه الحمام، ملأت المغطس كأنما لا يهمها العالم بأسره، استرخت فيه وأغمضت عينيها تنتشي بالرائحة..

تنتشي بانتصار الشيطان على فضيلة آدم..

تدلك ذراعيها، تستمتع بالفقاعات العطرة، على شفتيها بسمة لا يسهل التخلص منها..

تنهي متعتها الصباحية، ترتدي مئزرًا نبيذيًا مسكرًا كلقائه مع بشرتها، تصفف خصلاتها، تجففها بلا مبالاة فيستيقظ هو على صوت المجفف العالي..

ويحدث المشهد المنشود كما رسمته بخيالها..

تتشكل عقدة جبينه محتدة، مرتبكة، يعتدل والغرفة تخبره عن تفاصيل هو نفسه لن ينساها..

المشهد كله فوضى.. هو.. قلبه.. شتات ذهنه، فوضى..

لقد نالها دون وجه حق!..

اعتدل يمسح وجهه، يلمحها من خلف باب الحمام المشرع، تتمايل بأنوثة قاتلة لرجل فاز بامرأته ولم يكتفِ، خط حضوره ونقشت حضورها؛ بل حفرته بخلاياه..

بخطيئة!..

جلس على طرف الفراش، استقام يخطو نحوها ببطء غير مفهوم.. يشعر بنفسه حقيرًا، خسيسًا، مستغلًا..

يرى نفسه بعينيه وضيعًا.. ترى كيف تشعر!..

توقف قرب الباب، مد يده ليطرقه وتجمد.. تشتت، احتار ودار على عقبيه في غير راحة.. أفكاره المشوشة تنعكس على لغة جسده، يزفر باشتعال والنار تسري في عروقه..

اعتصر أجفانه، فركهما بسبابته وإبهامه، مسد المنتصف ما بينهما، والتفت عائدًا إليها حين التقى ببصرها..

ترمقه بنظرة مبهمة لم يستطع تفسيرها!..

لم يلمح غضبًا.. حزنًا.. انكسارًا..

أو حتى كرهًا..

كانت نظرة خاوية يلوح على أطرافها سخرية، وترفرف في سمائها أعلام انتصار!..

نظرة لا عمق لها..

نظرة بُترت حين أسدلت أهدابها برمشة خاطفة وتخطته تفتش في الخزانة عن ثوب ملائم، انتقت سروالًا قماشيًا أبيض اللون، وقميصًا داكن الخضرة عاري الكتفين..

عادت للحمام تغلق بابه عليها كأنما تخبره أنه وصل لما تمنى وانتهى..

عندما يُستغل جسد المرأة في إشباع شهوة غير مستحقة، تشعر بالامتهان.. بالسرقة.. بالانتهاك.. ترى إذًا بمَ يشعر الرجل!..

هل يتهشم غروره!..

تُذبح رجولته!.. تُدهس كبرياؤه!..

خرجت إليه، فاتنة، أنيقة، بزينة نهارية زادتها سحرًا، لهيب خصلاتها يتقد بجنون يليق بها.. ويبعثر كوامنه..

استقبلها بصمت، قطع طريقها وظل يواجهها بأحرف مغلولة، لا تصلح كدفاع لمحامٍ خبيرٍ أمام قاضٍ صارم لا يقبل بالقرائن الصغيرة..

ازدرد لعابًا وحلقه جاف خشن، تنفس بإيقاع غير منتظم، وقف بقفص الاتهام كمذنب معترف، ينتظر العقاب الذي سينزل عليه وإن كان غير رحيم.. وهي لم تعاونه..

حافظت على صمتها، نظرتها الجوفاء الباردة، لم تغدق عليه بطرف خيط يُسهل عليه مهمته، تسلت بمراقبته يأكل نفسه باختناق باحثًا عن بداية!..

لا يعجبه المذاق فيلفظه بغصة ويبادر بأول ما طاف بحروفه من بعثرة:

- نيروز.. أنا...

وجوم جديد.. اختناق آخر..

عسر ميلاد، واعتذار بعينيها مبتذل:

- أنا آسف..

لم ينتظر منها غفرانًا، لم يتوقع ردًا.. كان سيردف بمحاولة إصلاح لما اهترأ بينهما؛ لكنها مزَّعته أكثر بسؤال فاتر:

- على إيه!..

قطب مرتابًا، يمرر لها كل مشاعره بالتباسها وارتباكها بنظرة مهتزة:

- على...

احتار في وصف.. على ماذا!..

استغلاله للحظة ضعف منها!..

لعشق قديم يعلم أنه بقلبها نحوه وإن أنكرته وكفرت به!..

أعفته من حيرته وزادت الجحيم استعارًا:

- آسف إنك كنت معايا يا مالك!..

قلبت الطاولة بمزيد من استهانة، في الحقيقة كانت لتصفق لبراعة أدائها التمثيلي المتقن.. رأته يسارع بتبرير.. بتفنيد وتصحيح لسواد معتقدها عما جرى بينهما:

- أكيد لأ.. بس...

وزفر باحتدام يغلي به صدره:

- ماكانش المفروض أستغل وجودنا مع بعض، أو لحظة ضعفك عشان...

انفصم عنق اللحظة بضحكتها!..

بُترت الكلمات ووئد الأسف في مهده مع تلك القهقهة المتهكمة..

اقتربت منه تتخطى حدودًا سابقة، اقترابًا يناسب ليلة أمس، تطوق فكه المشدود بباطن كفها، يدها الثانية تلامس عنقه وبصرها يحاصر بصره:

- تستغل!..

ارتفعت على أطراف أصابع قدميها العاريتين، تدنو من أذنه، تهمس بأنفاس دافئة مشاغبة خبيثة:

- أنت فاهم الموضوع غلط خالص..

سحبته من معصمه بعدما تراجعت، أجبرته ليجلس على طرف الفراش، وقفت قبالته بشموخ ولفتت انتباهه بقنبلة:

- أنا اللي استغيلتك هنا..

تقطيبته تضاعفت.. تشدُد فكه ازداد، مختلطًا بظلمة ظللت نظرته غير الفاهمة وإن أساء كل ظن..

خطت إليه، استندت بكفيها لكتفيه.. انحنت تواجه وجهه، تبتسم بصلابة باردة يشوبها استخفاف:

- اسمح لي أشرحك.. أبوللو ملعون، وخسر لأن اللعنة كانت أكبر منه..

رعشة شفتيه أخبرتها أنه يكبت هياجًا يواريه تحت ستار الرجل الأرستقراطي، تحت ستار المحامي جليدي الانفعالات، تحت ستار عاشق مهزوم كان عشقه سقطته..

خللت خصلاته عند عنقه بأنامل ماكرة:

- لو فاكر إن نيروز دلوقتِ هي دافني، هي روزا بتاعة البحر وأكلة السمك والقصايد الناعمة؛ تبقى مغفل!..

قبض على كفها يبعدها عنه.. يعتصرها بغلظة لم تأبه لها، ألم الجسد تسكنه نشوة مخدر الظفر.. طغيان أفعى بثت سُمها بأحقر وسيلة؛ ولا يهم ما دامت قد أوصلتها للغاية المنشودة..

انتفض واقفًا لا يحرر يدها، يجذبها نحوه ونظرته تقسو برجفة غضب:

- قصدك إيه!..

تحدته بتجبر.. لا تسعى لانفلات، وتحرقه بالقرب:

- يعني اللي حصل بينا هو اللي أنا كنت عاوزاه من البداية..

وارتفعت تلاقي وجهه دون أن تمسه:

- ليلة واحدة تخسر فيها مالك الرشيدي، الجبان مدعي المثالية..

تغير وجهتها لمسامعه، تحقنه بالسم الزعاف في وريده بمباشرة فجة:

- اللي سلم حبيبته لراجل تاني من غير حتى محاولة.. من غير ما يعترف إنه ندل وخسيس..

دفعها وحروفه تصفعها:

- اخرسي..

زمت فمها تستجيب لأمره بطاعة هازئة، دار حول نفسه بسخط تمزق لجامه:

- يعني كل اللي فات كان مجرد خطة حقيرة عشان...

- عشان ليلة..

أكملت حروفه بكلمتين مهينتين..

تهين رجولته.. كرامته.. عنجهيته وغروره و...

عشقه!..

احتقن وجهه بحمرة تخبرها أن الانفجار وشيك، انفجارًا لن تنتظره.. ستقتله قبل أن ينزع فتيله حتى وإن أشعلت هي الشرارة وتركته يحترق داخليًا بلا نجاة:

- أنت زعلان إنها مجرد ليلة واحدة!.. كنت عاوز أكتر!..

رُغمًا عنه اكتنفه حزن..

هذه امرأة لا يعرفها.. لا يريدها..

امرأة كانت إلهام أبياته المنظومة، والآن قاتلته بسهم الخديعة..

سهمها الرخيص الفاسق..

- تخيل!.. هو ده كل اللي أنا كنت عاوزاه.. ليلة..

شد قامته يرمقها بنظرة مبهمة أثارت فضولها:

- أنا كنت عاوز عمر معاكِ، من غير القرف اللي حصل.. بس واضح إنك ما بقيتيش البنت اللي حبيتها زمان..

هزت كتفيها تتجاهل تشبيهه المحتقر:

- قلت لك وما صدقتنيش، صممت تعترض طريقي..

قست نظرتها في المقابل تعلمه درسه الحاسم:

- كان لازم تدفع التمن.. بطريقة تليق بقرف إمبارح اللي حصل بينا..

ثم قست نبرتها بالمثل.. تبدلت لعتمة حالكة تماشت مع ظلام مقلتيها رُغم شمس الشروق التي اقتحمت الغرفة بضوء ذهبي رقيق:

- تعرف أنت ضيعت إيه من إيديك يوم ما سلمتني لراجل تاني وهربت..

اقتنصت منه قربًا تهشم معتقداته وتحيي ما فات قسرًا، بحزم صارم.. حاقد:

- أرجع لك خيالاتك عني.. وأنا في حضنه، في سريره.. بس المرة دي كنت أنت بطل المشهد، اللي مش هيكون له شرف بطولة غيره..

وسيطرت بحضور قاتم على كيانه كله:

- لأنه ما يستحقش، للأسف طلع ماعندوش شرف..

تحكم بها بغتة فكاد ينال منها انتفاضة، حجَّمتها بثبات.. أقر ببغض:

- بقايا الشرف اللي عنده، تمنعه يكون مع عاهرة من الأساس..

ورماها من بين يديه بازدراء..

تناول ثيابه يرتديها، يهرول للخارج، يصفع كل الأبواب من خلفه.. لا ينظر للوراء..

اكتنفها غيظ.. غيظ امرأة كانت تنتظر ختام المسرحية على يديها، تنتظر تصفيق الجمهور.. أن تكون لها الكلمة الأخيرة فاقتنصها منها بسرقة.. بنهب..

جمعت كل ما له وألقته بقمامة المنزل الخارجية، رتبت ثيابها في حقيبتها وعادت من حيث أتت.. هي فازت بما أرادت..

لن تترك لكلماته البلهاء تعكير صفو انتصارها..

بعد يومين أتاه الخبر.. لقد سافرت تتبع ابنها!..

استمرت على تجاهلها وهو في ويلاته يحترق..

أنت مثالي ما لم تُختبر..

وهو رجل رسب في كل اختبار!..

**

في يوم ما كان هناك نهر راكد لا يقدر على زعزعة سطحه ريح، قاعه مظلم سحيق غير مرئي، وماؤه عكِر كمستنقع كدِر إن حاولت اجتيازه انغرست.. غرقت..

في يوم ما كان هناك ثمة بحر عاتٍ، ملحه أُجاج، موجه عارم، مده دائم وجزره يسحب كل من تعدى على شطآنه نحو الغرق..

في يوم ما كانت هناك أسطورة عن شيطان منبوذ، بُترت من المنتصف، فقدت الخاتمة.. وماتت على حدود الحياة..

في يوم ما كان هو.. وهي.. وصمت..

عادت ولم تعُد، أفاقت قبل ستة أيام، لم تنبس بحرف، وهو لم يفعل بالمقابل، ظل السكون عنوان الحديث.. تفاصيله وهوامشه وحواشيه وعبثيته..

العين في العين وذاك كافٍ..

في عينيه ظلت تفتش عن نهاية..

وفي عينيها اكتفى بالتشبث..

عندما رآها كل ما همست به هو اسم ابنها، هاتف أخيه فأتاها به بصحبة زوجته، تلقفته بلهفة محروم طال ضياعه في صحراء قاحلة حتى سقط أخيرًا على شربة ماء تقيه الموت.. ضمته تتأمل ملامحه، تستغرب نموه وتحزن لفوات أيامها معه..

أما هو فلم يبالِ بسواها..

سوى بوجومها وهروبها منه..

بصغيرها وتوأميه اللذين احتضنت انتفاخ بطنها بهما بيسراها بينما اليمنى تضم الجسد الضئيل قربهما..

الصورة كاملة دونه، لكنه لن يتخلى عن مكانه فيها..

هو رجل لم تتوقف حروبه؛ فكيف يستسلم بأهم حرب!..

ستة أيام غادرت الفراش، بدأت سيرًا بطيئًا منهكًا وجسدها يستجيب بتأنٍ، انطوت على نفسها في عالمها الفارغ بلا أفكار أو مشاعر..

وحافظ هو على مسافة آمنة تهديها راحتها رُغم استعار روحه.. واشتعال غضبه..

افتدته.. غابت عنه.. اختارت سواه..هربت.. عادت..

ومازالت تهرب، تفكر، تشرد.. كأنما تفكر في بداية للنهاية..

اليوم موعد عودتها للمنزل، تخطو بتعثر لكنها لا تتحمل المشفى، ملَّت ورفضت البقاء أكثر، استجاب لرغبتها، وعندما أتى الصباح

وصل لغرفتها، يتأمل نومتها بفراش المرض.. لم تستيقظ بعد فاكتفى بالمكوث بمواجهتها..

كان يريد أن تفتح عينيها لتراه..

هو الأفق الضيق والبعيد على مد البصر..

هو الجحيم لو أرادت..

هو الشيطان الذي لا يكتفي بالوسوسة، بل يجذبها عنوة لتتلوى بين ألسنة نيرانه..

هو شرير حكايتها ولا يمانع أن يظل..

كل ما يراه منها هو النفور، التباعد، رغبة الهجر.. لكنها لن تتحرر منه، ليس وبأحشائها طفليه!..

استفاقت ترمش ببعثرة.. بشتات، تظن أنها لا تزال داخل كابوسها الأزلي معه لكنه هنا، في الحلم والحقيقة وينوي تدمير الخيال..

كانت كلمته المقتضبة هي ضربة الإفاقة:

- جاهزة!..

أزاحت خصلاتها عن وجهها بكفها، اعتدلت بشيء من جهد تخلى فيه عن مساعدتها، استوعبت وجوده.. وجودها معه، تنفست باختناق بات ملازمًا لحضوره من حولها:

- عاوزة أتكلم معاك قبل ما نروح..

قالتها بحزم جاد قدر استطاعة روحها المفتتة، وهو تلقى رغبتها بنظرة غامضة.. نظرة أخافتها..

والخوف هنا لا يبني حياة..

ستظل تخافه حتى الأبد، وهو لن يتوقف عن منحها كل فزع ممكن كلما أراد.. ووقتما اشتهى..

لن يتغير..

وإن تغير؛ فليتغير لنفسه لا لأجلها.. ليس معها!..

صمته كمقبرة لم تُكتشف، ترك لها خيط استهلال بطولتها في حبكة تراجيدية لم ترغب يومًا في لعب دورٍ بها..

نظرته فقط هي علامة موافقته.. رفضه.. غضبه.. عقابه..

هي علامة تسمح لها بالاستطراد، وإن كانت حروفها محطمة يشق عليها تكوين الكلمات..

استندت بظهرها لوسادة، احتوت انتفاخ بطنها بكلتا كفيها ترمقه بلا حول منها أو قوة، تحب ساكني رحمها بعدما علمت عن كونهما فتى وفتاة..

وتخشى أنه الرباط الخالد الذي يخلد مثواها في عذاب امتلاكه..

تعانقت أجفانها مرهقة.. متعبة.. مستنزفة، تنهدت وبصقتها كلمة واحدة تقص بها جناحي طيرها الجارح..

وتمزق أجنحة الفراشة التي أحرقها اللهب:

- طلقني..

لم يتبدل فيه شيء.. يتوقعها ولا يترقب سواها.. تريد الخلاص وبينهما ما لا خلاص منه!..

لم تهتز عضلة في جسده، لم يتغير معدل أنفاسه، لم يرمش أو يختل فيه اتزان.. وكما طلبت أعلن بصرامة مخيفة لطالما أرجفتها:

- لأ..

دائرة التوقع تضم كليهما..

كانت تعلم برَدِّه، لذا تراجعت برأسها تريحها للوراء، تسحب الهواء بمزيد من الضعف والهوان ورغبة الاختفاء من على وجه الأرض..

تلومه، تلوم خضوعها وطغيانه:

- لسه برده ما شبعتش!..

ابتسم بقسوة لا تنضب من عروقه مهما نزفت انسانيته على قارعة طريق قلبه:

- أنتِ حامل في ولادي يا شمس..

ثم تحرك..

استقام يغادر مقعده، يقف عند طرف الفراش، يتسلط على عالمها كله بتجبر يليق به كما لا يمكن أن يليق برجل سواه..

بشيطان سواه..

بضارية سواه..

- وأنا مش هاتخلى عن ولادي، طول ما أنا حي..

ابتسمت ساخرة بمرارة والشقاء يغلف نبرتها:

- يعني موتك هو نجاتي من سجنك..

قررتها ببهوت لم يكترث له..

نعم.. في موته خلاصها، وهي اختارت له الحياة!..

لم يعلق فأكملت بتسليم لحقيقة سبق وفندتها.. كسرتها.. ودفعت الثمن من دمائها:

- كان المفروض أسيبك تموت..

اسودت نظرته بعتمة ليل حالك.. بظلمة قاع مستنقع عفن..

بدُهمة كهف مخرجه الوحيد مردوم..

لامت نفسها، وبختها، ولامته علَّ روحه تمسها صحوة من ضمير:

- بس أنا اخترتَك..

- اخترتِ غلط..

عاجلها بالرد..

ببرود قطبي لا يذوب، بلا انفعال يحتمه المشهد أو شعور يصرخ به فؤاد طُعن من قبل ألف مرة..

ومال يوازيها، يسيطر.. يجور.. يهيمن.. يقهر ويكسر:

- اتحملي نتيجة اختيارك..

تمخضت شفتاها عن بسمتها المسروقة من عمر ضائع.. المُرة بمذاق العلقم.. المبتورة بحكم جلادها الظالم:

- أنت إيه!..

همهمت بها مستنكرة، فحروفها كلَّت عن كل تعبير مباح:

- مافيش حاجة بتأثر فيك!..

سألته تبحث عن نبض..

عن بشرية يفترض أنه ينتمي إليها..

عن مقابل للثمن الباهظ الذي دفعته مقدمًا:

- مافيش حاجة بتكسرك!..

أجبرت عبرة أجفانها على رجفة بثقلها.. لم تتحملها، هطلت تتلاشى على حدود فمها:

- ولادك كان ممكن يموتوا..

تضرب بوهن لا تعلم أن كل ضربة منها تقصم بنفسه جدارًا نصفه متهدم قبل عمر.. تُغِير على روحه التي تنتظر بتوق وتخشى بهلع..

تسعى لخلاص، بينما خلاصه هو معها، لا منها..

عبرتها جاهد ألا تؤثر به فأصبحت أقرب لسوط من نار لسع ظهره كمائة جلدة اجترحها مذنب مظلوم كان ذنبه أنه وُلِد..

لا تتوقف عن اللوم.. تلومه على اختيارها، على حياته التي منحته إياها..

بفداء.. بوجود..

بثمرة لا تجوز أن تنبت برحم ملاك والبذور لشيطان!..

تحتد لهجتها وتتحشرج بأثر الدموع:

- أنا كنت بموت..

- برده ده كان اختيارك..

اعتدل يشد قامته، يحتل دُجنة مقلتيه عزم:

- أنتِ اخترت إن شرير الحكاية يعيش، ما بقاش ينفع ندم..

استكانت بخذلان كأنما الأخلاق هي كل عيب..

كل نقيصة وضعف لا يصلح لغابة الدنيا:

- شرير الحكاية مش لازم تكون نهايته موت..

توحشت بسمته وجانب ثغره يلتوي بها فيوازي وحشية النظرة، وهي تكمل بألم.. بأمل:

- ممكن يتغير، يحاول يعيش.. يتمسك بالخيط اللي قدره رماه بين إيديه..

تصلبت حروفه بنبرة كالصخور.. كالحمم.. كالثلج..

نبرة تتنافر فيها كل الأضداد وتجتمع بمزيج مصهور:

- شرير الواقع يختلف، أنتِ مش في حدوتة أطفال يا شمس..

عاندته تنقب عن مهرب.. فتحة تعبر منها نحو حريتها المغلولة إليه:

- وهو الخيال إيه غير واقع مخلوط بالأمل!..

- أنا قتلت الأمل..

عاد يميل، يقسو ويبغض تسللها لدواخله ببقايا إنسانية مسحوقة بين شقي رحى الأمس واليوم:

- لقيته مدبوح، بينزف بين إيديا، بيموت قدامي كل يوم.. فريحته من عذابه..

تراجع وجملته تقف على حدود عقلها، تستوعبها.. تقتلها.. توجعها، تحارب لفهم، لمنح ما لا تملك من دفء فالشمس أفلت حتى حين، راقبت ظهره بينما يواجه النافذة، ينظر عبرها للمجهول ويسطر بحروف من عتمة، يسطر ماضيه ويمنحها عنوان كتابه:

- اللي أنتِ شايفاه قدامك ده اتكسر مليون مرة..

تحجرت نبرته وتهشمت بذات اللحظة دون أن يشعر:

- أنا مجرد هيكل متكون من ناتج الكسور دي..

ثم أقر بحقيقة لا مناص عنها، هو لا يحاول ولا يريدها أن تحاول الدوران حول ماهيته بأفكار ملائكية:

- والمكسور لازم يأذي، ومهما اتكرر الكسر هيجمع نفسه ويأذي أكتر..

استدار إليها من موضعه مكملًا باستهانة جامدة:

- إيه يعني مجرد كسر جديد زي اللي سبقوه!..

اقترب منها ثانيةً، يتمسك بالغلظة وينجو بالقسوة:

- كسر اتعودت أتعايش معاه، وما أحسش بألمه..

وأقامها بين يديه، حملها يوقفها على قدميها، يطوق كتفيها بقبضتيه دون رفق، يسحبها قربه وأنفاسه تحاوطها كحضوره المقبض:

- خلصت الحدوتة..

ارتعشت ورعشتها لم توقفه، أصر على جواب يريده منذ غابت:

- ليه!..

تباعدت عنه فحررها ببساطة، استكانت على طرف فراشها ترمقه بنظرة خائبة، محبطة، حائرة جعلته يفسر:

- اخترتيني ليه!..

هزأت من مبادئها وقلبها وذنبها الأعظم الذي سيثقل كاهلها وروحها مادامت حية..

هزأت من الشمس التي لا تتوقف عن العطاء وإن كانت تحترق..

من الغروب المحتم الذي تختفي فيه عن نصف الأرض، لتضيء النصف الآخر بلا راحة.. بلا هدنة.. بلا انقطاع..

جاوبته بصوت مشروخ بوِزر لم تزِره بيديها:

- تفتكر هاسمح إن حد تاني يموت بسببي حتى لو كان التمن حياتي!..

- ماكانتش حياتك لوحدك..

- لو مُت ماكنتش هاحس بالذنب..

سخر ببسمة متهكمة غاضبة:

- برده بتهربي..

كما خمن، بات يقرؤها كخطوط يده.. سالت منها دمعة ثانية ألهبت وجنتها:

- عشان المواجهة فوق احتمالي..

وضربت صدرها بقبضتها، تلعن العشق والقرب والهروب لدروبه الممسوسة بشرارة من أعماق السعير:

- عشان الراجل الوحيد اللي حبيته وهربت من الدنيا كلها لحضنه، اتقتل لأنه كان عقبة في طريق واحد مهووس بيَّ..

تبكي بانتحاب يلائم ثوب العشق، ولا ترى مَن عرت روحه أمامها مِن كل سِتر:

- اتقتل والتمن رخيص قوي..

تدفع بيدها لجرح فتحته باليد الأخرى..

تزيد من النزف ولا ترى.. هي لا تراه ولن تفعل..

أبدًا لن تفعل وإن أجبرها على النظر إليه طوال دهر!..

اختار بتر مرثيتها لحبيب راحل بسلطة زوج حاضر، أوقفها يعيدها إليه.. بالجسد والعقل والنظر، يمنح القسوة فهي كل ما يملك:

- لأن قدرك معايا أنا يا شمس..

بعدها جذبها يسير بها نحو حمام الغرفة، يدفعها لتبدل ثيابها استعدادًا للمغادرة، يقف عند بابه بتحفز خاتمًا الحكاية بما يناسب رجلًا ملعونًا كان مصيره الموت:

- قدرك تكوني مع الشيطان..

وتركها تبتلع قدرها فتغص به.. تختنق.. تموت..

من يهتم!..

هو لا يهتم.. لن يهتم..

رمقته بانهزام قانط والدموع تتبخر على أطراف أهدابها.. بدلت ثيابها بآلية متعبة، لا طاقة بها لمزيد من جدال.. من احتراق..

هي تتوسل نهاية، وربما تنالها إن ابتهلت وتمنت!..

**

يقال أن الحب أعمى..

ماذا إذًا لو فقد حواسه الخمس!..

ماذا يحدث عندما تتحطم القلوب على بوابات الهوى دون وصول لغاية من عشق!..

ماذا يمكن أن نقابل حينما تنعدم الوسائل التي تبرر الغرام!..

كيف سنمنحه الصك ونسقط بكامل إرادة، إن كان السقوط يقتلنا!..

كيف ندرك أننا نستطيع النجاة به ومعه، وهو يعتصر أرواحنا بلا ذرة من شفقة!..

كيف نؤمن والجحود به فرض عين!..

هو عقيدة المذنبين في أرض الهوى..

هو مذهب الزاهدين فيه مهما هربوا منه..

هو الضربة القاصمة لكل فؤاد، والنبضة المتمردة على السياق..

هو العاشق المقتص من معشوقته بعد طعنة غدر..

قتالها لأجله يرهقها، يتجاهلها حينًا، ويتصارع مع تمسكها به في حين آخر، يتعبها.. يؤلمها أن تحبه ولا يرى حقيقة الحب بعينيها..

يتباعد عنها ونظرته إليها يشوبها حسرة.. شجن.. ما إن تلحظها حتى تتحول لغضب، لرفض، ثم يخفي مقلتيه عن ناظريها بأجفانه التي شابها سواد الأرق..

كلاهما عاشق..

كلاهما متعب..

كلاهما لا يريد التخلي، لكنه أفلت طرفه وهي تمسكت بكلا الطرفين لخاطره..

لا يتناول معها طعامًا، لا يجاورها بفراش وهجر الغرفة بأكملها، لا يطلب منها حاجة ولا يجيب حاجتها.. بل وكَّل أمورها لشقيقه، وزوجة الشقيق التي اصطحبتها قبل ساعات في زيارة طبيبتها ومنها لجولة تسوق، حيث أثار جنونها ولهفتها أغراض الصغير القادم فنسيت لوقت مستقطع همومها مع أبيه..

حينما عادت للمنزل وجدته هناك، يجلس على أريكة بغرفة المعيشة، يحمل حاسوبه فوق ساقيه ويندمج في عمل ما منعها عنه.. منعها عن كل ما تشاركاه من قبل..

وتدرك أنها ستناله باللين لا بالقسوة..

ببرهان الحب لا التمرد والعناد..

بمعاهدة سلام فالعشق أمان، سكن.. لا حرب..

اغتسلت سريعًا تزيل عن جسدها عناء جولة التسوق الطويلة، ارتدت ثيابًا بيتية مريحة وربتت على بطنها المسطح تطمئن جنينها بحنو هامس:

- ما تخافش، هنرجعه لينا..

قوتها كانت دومًا في قدرتها على الثبات بينما الكل من حولها ينهار..

حتى في أحلك ظروفها وأوجع أوقاتها؛ استمرت.. أكملت مسيرها بدروب الحياة بإرادة صلبة، تعلم أنها ستصل لقلبه في وقت ما..

هي بالفعل تسكنه!..

لكنه حزين، مكسور.. وواجبها تطييب الحزن، وجبر الكسر..

واجهته على مقعد عريض، غاصت بين وسائده تراقبه، تتابع اندماجه في شاشته كأنما لا يشعر بها.. لا يراها، لكنها توقن من تغافله عن وجودها عامدًا وحسب..

تنحنحت تتمتم باسمه، يرق قلبها لإجهاده الواضح.. لقلة نومه التي تعلمها من خروجه المبكر وعودته المتأخرة، وخطواته بالمنزل كل ليلة..

من تلصصه عليها بفراشها من فرجة باب غرفتها كأنما يملأ بصره واشتياقه منها..

لا تفهم لمَ يعاند، لمَ يقاتل في حرب عشق خاسرة!..

هي سلمت وأعلنت هزيمتها، تراه يستحق.. تعلم أنه رجل صالح، تدرك أن وجيعة قلب المحب تفوق الاحتمال؛ لذا تتحمل هي عنه..

رفع عينيه إليها بنظرة مخطوفة لم تكد تكتمل إلا وانتهت، زم شفتيه وحافظ على صمته.. بادرت بما أتت لأجله:

- ماكنتش عاوز تشوف البيبي!..

أكمل نقره على مفاتيح لوحة الحاسوب بلامبالاة:

- رفيف كانت معاكِ..

عاتبته بدفء صادق:

- كنت عاوزاك أنت..

حرك وجهه يرمقها بدهشة مستنكرة..

هي تتعامل كأن شيئًا لم يكن، لكن كل شيء كان واحترق..

تغاضى عن الحديث برمته، نهض يلملم أوراقه، يتوجه لغرفته ببرود أنَّ له خافقها، وجدت نفسها تقف.. تمنعه، تخبره بحقيقة ما مضى:

- ماكنتش عاوزة أجرحك..

تصلب جسده قبل باب الغرفة بثلاث خطوات، اقتربت منه.. لم تدُر حوله، ظلت من ورائه تقر بالذي كان دون ديباجات مستهلكة:

- أنا لما وافقت أتجوزك كان لأن خلاص أنا وهو انتهينا من زمان، قلت هادي لنفسي وقلبي فرصة يعيش ويكمل مع راجل مثالي..

لاحظت تشدد عضلاته، جموده.. لكنها أصرت على كشف كل الأوراق، على تمزيقها وبدء حكايتها بصفحات جديدة معه:

- كنت باشوف حبك في عينك كل لحظة، وجعك اللي بتخبيه لأن قلبي مقفول..

التفت تواجهه.. تلمح الغيمة الداكنة التي حجبت بريق مقلتيه:

- حاولت تلات سنين أحبك وأنا عارفة أنك تستاهل الحب، تستاهل أحسن ست في الدنيا تديك قلبها وعمرها..

لامست موطن نبضه الهادئ بكفها فاستشعرت رتابته، أحست باحتقان صدره بانفعالات جمة مكبوتة أخافتها:

- وفشلت المحاولة، وقتها عرفت إن كفاية.. ما ينفعش أظلمك أكتر من كده، طلبت الفراق..

ثم فسرت تتابع الأحداث الذي خفي عليه من ناحيتها هي:

- بعدت، ولما بعدت الحبال اللي كانت مكتفاني للماضي اتقطعت..

ارتعشت نبرتها بحيرة.. بألم دفين.. بأمسٍ لا يسهل محوه، ولا تريد.. فهو دعامة اليوم والغد:

- الحب لعنة يا منذر مش سهل نتخلص منها..

تنهدت بإقرار صحيح وإن عاندته من قبل:

- لازم بتر نضيف..

لم يبعدها..

بدا وكأنه يسمعها من بُعدٍ موازٍ.. من كون آخر، من مجرة بعيدة..

يشرد فيها ولا يراها..

يخترقها بناظريه نحو غياب عما تصرح به ويبغضه، عما تصر عليه في محاولة لتنظيف الجرح وتطهيره.. لتقطيبه وتضميده ثم تجاهل الندبة:

- لما رجعت ورايا، قلبي كان في مرحلة نقاهة، بيخف من أثر حب قديم فضل بغباء متمسك بيه من غير سبب..

حاوطت خصره بذراعيها، هو كما هو.. لا يلين.. لا يسترخي، لا يحلق بسماء عينيها كما اعتاد، أراحت رأسها على صدره تتنفسه:

- قربت مني، بدأ يحس بيك.. يفكر فيك، سكنته لأنك تستحق..

ورفعت وجهها من مكمنها بين ضلوعه إليه:

- لما وافقت نرجع لبعض؛ وافقت عشان حبيتك..

هنا أخفض رأسه نحوها، انغمس بين موجها الهادئ الذي يهدهد روحه وقلبه وكيانه..

طفا فوقه وغاص معه..

سبح تبعًا لتياره، للحظات قصيرة كانت له جنة طُرد منها منبوذًا:

- أنا بحبك يا منذر..

كررتها وهي تلمح اهتزازه..

هل سيعود!..

تتحقق الأمنية ويقع الحلم، تنال السعادة باكتمال!..

هل ســـ...

- ليه!..

أوقف تساؤلات عقلها ودوران أفكارها في فلكه بكلمة واحدة، بسؤال حاد انطلق كرصاصة حددت هدفها بنسبة خطأ شبه معدومة:

- ليه دلوقتِ حبيتيني!..

عقبها أكمل إطلاق النار، لا يرحم.. لا يستجيب.. لا يرتاح أو يهدأ:

- منذر النهاردة؛ إيه الفرق بينه وبين منذر من أربع سنين!..

تتأرجح نبرته بين القسوة والأسى.. بين الجمود والشتات..

بين الفضول والتجاوز كما مر فوق رفات جسد العشق الفاني من قبل، لم يبعدها أو يتباعد.. فتصلبه الرافض بين يديها يحدث الأثر المطلوب، تشبثت به بحثًا عن سكينة:

- ليه بتدور على أسباب!..

حركت كفها تمسد فكه المشدود بحزم وشيء من نفور آلمها:

- الحب عمره ماكان مرتبط بشروط.. كده ما يبقاش حب، كده ممكن ينتهي لو الأسباب انتهت..

ابتسم ساخرًا وتراجع ينفلت من ضمتها، يسلخ جلده وهي كانت ذاك الجلد الملتصق بكل ما فيه:

- أنتِ عارفة أنا كنت إيه بالنسبة لك طول الوقت ده يا دُچى!..

قلب كفيه شارحًا بتسليم:

- مجرد درجة في سلم.. هتدوسيها وتعديها بكل الحلو والمر اللي فيها، عشان في حاجة أحلى مستنياكِ ترجعي لها..

أسبل أهدابه مغمغًا بمرارة تكسر الفؤاد بعلقمها:

- الحب الحقيقي اللي قلبك اتولد على إيديه.. حبك الأول، القديم قوي..

تخطاها تجاه غرفته بتغافل، تخطى يأسها وضعفها، إنهاك ملامحها وتعلقها به..

وقف على بابها قبل أن يغلقه ممزقًا صفحتها من كتابه هو، يهز كتفيه بخضوع لواقع لا مفر منه:

- بس لما يئستِ من النهاية السعيدة معاه، دورتِ في دفاترك القديمة ولقيتِ العاشق المغفل لسه بيجري وراكِ وبيدور على قلبك بكل طاقته..

وأغلقه في وجهها..

أقام بينهما ألف سد وسد..

أهداها شيئًا من يأس، بعضًا من خيبة..

طعن قلبها كما طعنت قلبه.. وفي العشق؛ الروح بالروح، القلب بالقلب والبادئ أظلم!..

**

العشق يمنحك مشروعية الحياة..

يبدل المذاق، يحليه..

يعطر النكهة ويشدو بأعذب سيمفونية توازي دقات القلب..

يترتل بترانيم السكينة، ويحاوط مكمنه بسياج الأمان..

العشق امرأته التي باتت كل مباهج الكون، كل النبض.. كل ما تريد عيناه أن تراه..

تأملها في جلستها المتربعة على الفراش، خصلاتها الكثيفة مرفوعة بربطة فوضوية، صغيره أمامها تراقبه بحذر وهو يقف قربهما رافعًا حاجبه بانتظار..

قبل يومين غادر والده البيت بصحبة أخته، واللقبين أثارا بنفسه امتعاضًا حانقًا، تجاهله يتذكر شرائه لمنزل قريب، استقراره به وعزمه على عدم هجر الوطن مجددًا..

كأنما هنا وطنه!..

يحيا بعيدًا وقريبًا بذات الوقت، وهو لا يكترث..

مرر أفكاره مركزًا في المشهد اللطيف في مقابله، فحيث تكون هي لا ينبغي أن يشاركها فيه أحد، حتى العائد رُغمًا عن أنوف الجميع!..

ابتسم بمشاغبة وأمرها محذرًا:

- يلا يا غزل..

لمحها تمط شفتيها، تعلن ضيقها وتحتج باستياء حقيقي تكاد تتسلل إليه عبرة:

- مش عاوزة..

جلس يواجهها على طرف الفراش، يرفع ابنه ويضعه قسرًا بين يديها، يفتح زر قميصها ويجبرها بحسم:

- الدكتورة بتقول إن كده هيتعود على بعدك، ارتباطه بيكِ هيقل مع الوقت؛ أنت عاوزة ده يحصل!..

رفعت إليه نظرة طفولية بريئة، حزينة:

- لأ..

أومأ إليها برأسه حازمًا:

- خلاص، رضعيه.. زي ما اتفقنا، مرتين في اليوم..

تذمرت بحنق، زفرت بحرارة وطوقت طفلها برفق.. قبل أن تأمره هو:

- طيب لف وشك بقى لو سمحت..

انحنى جانب فمه بالتواء ساخر، متهكم، شبه مندهش:

- نعم!..

- إيه!..

- هو إيه اللي إيه!..

ووكز ركبتها بكفه متبجحًا بجرأة:

- هاشوف إيه جديد ما شفتوش قبل كده!..

شهقت تنهره، تقطب وتعقد جبينها بصرامة زادت من لطافتها بنظره، وبخته وطردته بجدية رافضة:

- اطلع برا يا يزن..

كان لا يريد إضافة المزيد من الأثقال لحمولة نفسها الهشة مؤخرًا، ابتسم برفق واستقام يقبل رأسها، يتجه نحو الشرفة بنية حرق بضعة أنفاس:

- هادخن سيجارة على ما تخلصي..

- No..

توقف يلتفت نحوها باستغراب، اعتدلت تضم الصغير لصدرها، تهديه نظرة تجمع بين التمنى والتوسل، الحاجة والرفض:

- كفاية تدخين..

تضاعف استغرابه..

هل باتت تقرأ الأفكار الآن!..

كان يريد، يفكر ولم يقرر بعد.. يرى الأمر صعبًا فيسوف ويماطل ويؤجل، يتحجج بحقائق أو يختلق الحجج الفارغة، حك مؤخرة عنقه وقرر المشاكسة رُغم موافقته:

- ده أمر ولا إيه يا زلابيا!..

رفرفت بأهدابها تتدلل عليه وتدلـله:

- ده طلب وأمنية..

استدار تجاه الشرفة ثانية يريد إثارة غيظها:

- أفكر، بس مش النهاردة..

- يززززن..

زعقت بنبرة ساخطة رسمت بسمة خبيثة على ثغره، رماها بنظرة مشاغبة ضايقتها أكثر فأضفت على لهجتها هالة الأمر:

- اقعد خلاص ما تمشيش..

خطا بوثبتين واسعتين ليعود للفراش مبتسمًا بعبث:

- ما قلنا كده من الأول..

لم تكد تكتمل كلماته حتى داهمته بأمر ثالث:

- Close your eyes..

توسعت عيناه وانقض عليها باترًا شهقتها في المهد، تناول طفله ووضعه عند الطرف الآخر، دفعها وجثم يشرف عليها، يكبل معصميها بتسلط:

- أنتِ مش هتجيبيها لبر، باقولك إيه؛ ما تيجي نخاوي عبد الجبار!..

هنا فتحت فمها وكان يعلم أنه سينال سبابًا قد يصل لأجداده من الفراعين، لذا كتم أنفاسها بشفتيه والبسمة تقاطع إتمام القبلة رُغمًا عنه، مع مقاومتها وساقيها اللتين تهددان بإضاعة مستقبله كما سبق وتوعدته..

تراجع فتنفست ونظرتها تقوم بمهمة خنقه، بادر مستغلًا لحظة ابتلاعها للهواء قبل الانفجار المحتوم:

- بصي يا زلابيا، أنا هابطل تدخين بس مش عشان أنا مؤدب وبسمع الكلام..

توجست صامتة تنتظر منه التتمة، انحنى يهمسها بأذنهاماكرًا، لئيمًا.. يغيظها عامدًا ويعلم أنها ستفعل مع إدراكها لتعمده:

- عشان ألاقي صحة للجوازة التانية..

عادت لمحاولات التملص منه، تدمدم بكلمات غير مفهومة أدرك معها أن السباب وصل لعصور الكهف ربما.. فكرر القبلة واختطف أنفاسها معه بعشق حتى النخاع.. عشق تغلغل في ذرات كل منهما حتى امتلكها واحدة تلو واحدة:

- بحبِك يا مجنونة..

- هاقتلك يا يزن..

ابتسم دون أن يحررها مستغلًا سطوته عليها:

- موافق.. بعدين أنتِ فاكرة اللي يتجوز مرة يبقى عبيط ويتجوز تاني، هو العمر بعزقة!..

قبل رد منها وقع بصره على الرضيع المجاور لهما..

كان يتأملهما بحيرة، يحاوطهما بعينيه وابتسامة ناعمة تظلل شفتيه، ابتسامة غير مبررة عقد لها الأب حاجبيه مشيرًا لأمه باستنكار:

- ابنِك بيتفرج علينا..

رمتها عليه في الحال بلا إبطاء:

- ابنَك أنتَ..

ضيق أجفانه بنظرة محذرة:

- قصدِك إيه!..

رسمت بسمة سمجة فوق ثغرها واسترخت على وضعها المقيد بيديه، تمنحه هزة كتف لامبالية، تعيد إليه غيظه الذي دفعه بحلقها عنوة:

- قصدي إنه قليل الأدب زي بابي يزن..

عاندها بوقاحة والنية التهام:

- ماشي يا زلابيا..

بنصف نظرة جانبية أمر ابنه بحزم جاد عجيب:

- لف وشك ياض..

حقق نيته، لا يترك لها فرصة الابتعاد عنه حتى همست في هروب مسروق من بين معارك هجومه:

- يزن.. ما ينفعش قدامه بجد..

هنا أدركته قبل تمام الغياب فيها، تماسك بعسر وأخبرها مشهرًا سبابته بمواجهة ناظريها:

- رضعيه ونيميه، بدل ما أنزله لجده وأرجع لك..

فاز بضحكتها.. تلك الضحكة التي يضحك عالمه بأكمله معها..

كل دنياه تحلو بها..

هي العشق ومنتهاه..

القلب وكبوته..

الروح ومنارتها في ظلمة بحر الحياة..

كل دنياه هي!..

**

بين الجحيم والنعيم لا توجد منطقة وسطى..

لا يوجد مخرج آمن..

بين الانسان والضارية لم يولد توازن..

لم تُبعث حياة..

بين ذئب بات جريحًا، وامرأته التي طعنته برمح الخديعة قاصدة؛ حرب طاحنة لن تُخلف من وراءها جرحى أو أسرى..

الكل فيها مقتول..

امرأته!..

اللقب الذي تحمله مهما هربت.. حتى وإن انشق باطن الأرض وابتلعها، حتى وإن اختفت عبر النصف البعيد للعالم.. وإن احتضنتها أقاصيه؛ ستظل امرأته..

امرأة هي كل التناقضات الممكنة والمستحيلة..

تضرب كإعصار، وتداعب كنسمة..

هي العذاب والراحة..

هي الزُلَّة والظهيرة..

هي الشمس والغيم والمطر..

هي الرؤية والضباب..

هي الغضب والسرور..

هي الألم واللذة..

هي الرحيل والبقاء..

هي الجنة وجهنم!..

تلاشت بالفعل، طيلة عشر أيام فتش عنها في كل مكان يُحتمل أن تختفي به عن ناظريه ولم تكن هناك.. كلف شركة أمن وتحقيقات خاصة، استأجر خدمات أحد عتاة القرصنة على الانترنت، لم تترك خلفها خيطًا واحدًا يقوده إليها..

حتى مربيتها اختفت بالمثل!..

وابن أخيها الذي كان يعمل بشركته تبخر!..

حسبت لكل خطوة حسابها كما أخبرته، صدقت وسبقته بالعديد منها لكنه لن يتوقف حتى يجدها؛ وحينها ستدفع الثمن فادحًا.. كما لا يمكن أن يطوف بخيالها المثالي السابق..

كان بمكتبه يجاهد لدرء أثر الفضيحة عن أعماله، وأسهم شركته بالبورصة.. الأمر ليس هينًا، بل سيطول حتى يصل لمرحلة مستقرة تمنحه وقتًا يتفرغ معه لها..

الهاربة التي لن ينجيها منه سوى القبر!..

أنهى مكالمة هاتفية دولية طويلة، أرسل بعض رسائل البريد الالكتروني للعديد من الموردين الذين يتعامل معهم، كانت مساعدته تركض خلفه وهو يتحرك بالغرفة دون سترة حلته، مشمرًا عن ساعديه وربطة عنقه المحلولة تهديه مظهرًا فوضويًا زاده وسامة..

يقابل أحد العملاء، يعتذر عن لقاء آخر..

يتتبع كل مسارات العمل بدقة وإتقان، ثم يصيح في الفتاة المرهقة بكتابة بريد ينقص ملفًا هامًا..

سحبته داومته حتى قرب الغروب، وصله أخبار أخيه المعزول بقمة "التبت".. اطمأن عليه وقرر العودة للمنزل، ففي الغد يوم جديد أكثر إنهاكًا..

دلفت المساعدة للمكان بمظروف متوسط الحجم، ناولته إياه برسمية مترددة:

- الظرف ده عليه اسم حضرتك وتنبيه إن ماحدش يفتحه..

التقطه منها وقرأ الكلمات المكتوبة بحبرٍ أحمرٍ دامٍ، تعرف خط يدها وقطب حينما احتلت العتمة ملامحه وتسلطت على تفاصيله، حد أنها ركضت تفر من أمامه موقنة من سوء العاقبة..

فضَّ الخطاب بعجالة فوجد بداخله ثلاثة وريقات كلها بخطها، ضيق عينيه وتغضن جبينه بينما يبدأ القراءة..

"زوجي العزيز..

أولا اسمح لي أضحك، اللقب مضحك بصراحة.. مضحك لدرجة إني كنت هكتبها الحبيب بعدين افتكرت إنك قتلت الحب في قلبي بعد جوازنا بأربع أيام، أهنيك..

ثانيا بقى وده المهم؛ إيه رأيك في تلميذتك!..

يا ترى قدرت تتفوق على الأستاذ، ولا الأستاذ عاوز إثبات أخير!..

على العموم ما تقلقش، أنا وأنت لسه ما خلصناش.. لسه في بينا تار، أنا مش هامني الفلوس، عندي منها كتير على فكرة.. والغريبة إنك بذكائك ده كله ما خمنتش حاجة زي دي!..

أنا هامني أفضحك.. أشوه سمعتك.. أوجعك وأكسر قلبك زي ما كسرت قلبي، ده لو كان عندك قلب!..

قبل ما أحكي لك التفاصيل عاوزة أقولك للمرة التانية: أنت صح يا عمار، زي ما كنت دايما في كل حاجة بينا.. الحياة مزاد، عشان بس تدخله لازم توسخ نفسك.. لازم to get your hands dirty.. فتخيل بقى لو عاوز تكسبه هتعمل إيه!.. ولا ليه تتخيل؟.. أنت مجرب فعلا وعارف بتوصل لفين عشان تحقق اللي أنت عاوزه..

الحقيقة مش عارفة أشكرك لأنك علمتني إزاي أعيش في الغابة وآخد حقي من ضواريها بإيدي، ولا ألعنك لأني في الطريق لده خسرت وسن اللي عشت معاها أكتر من ٣٠ سنة، بقيت فاقدة للهوية والروح.. خسرت مبادئي وأخلاقي وعندي استعداد أدوس أكتر عشان أكسرك وأنت لسه عايش أكتر وأكتر"..

وبدأت بسرد تفاصيل حبكتها الرخيصة..

كلمة سر البداية حملت هاتف خادمة صغيرة طردها من منزله بعدها بأيام..

و... "نضال الزيات"..

الخاطب السابق، الطبيب المتلاعب والنصاب الكبير عديم الشرف..

هددت الفتاة، ستفشي سر علاقتها بالأخ الأصغر لتسلب هاتفها، وأجرت مكاملة النصر الأولى..

تذكير.. تهديد.. ودليل تملكه ضده على تجارته السوداء!..

استعاد تصريحه المتهور، غير الحذر لها عن حقيقته، ماهية الدليل المذكور والذي سرقته من خزانته..

خضوع لص الأنساب، عرضه لخطة أكثر حقارة رفضتها..

حيث أخبرها أنها إن أتته بسائله المنوي، سيخصب به امرأة ويجعلها تحمل طفله بالفعل..

"طبعا كان مستحيل أوافق على حاجة زي دي، طفل ابن حرام.. أنت أبوه وأمه باعت شرفها بالفلوس.. مالوش ذنب يجي الدنيا بكدبة، ويعيشها مكسور..

بعدها عرضت عليه خطتي، أمرته ينفذها، وعدته بفلوس كتير والتسجيل الوحيد اللي بيدينه، قلت له إني مش هابلغ عنه ويقدر يكمل طريقه القذر.. ومن هنا ظهرت لينا.. بنت من معارف نضال، عندها استعداد تعمل كتير عشان الفلوس، حتى لو فضيحة مقننة هتقوم فيها بدور الضحية..

مطاردة واحتكاك بيك، كام صورة مناسبة وكملت الخطة..

بس عارف!..

كنت متوقعة اللي هي هتعمله، هتيجيلك بعد ما توفي بمهمتها معايا لحد الفضيحة الكبيرة.. وكله بتمنه، عمار الديب مغتصب، ياه.. مبهر مش كده!..

عشان كده أنا مايهمنيش أنك خرجت.. كل اللي كنت عاوزاه حصل، خسرت كتير وأهم حاجة خسرتها سمعتك، صعب تبني سمعة نضيفة في تجارة زي تجارتنا.. عشان كده اللي أنا شوهته مش هتقدر ترجعه نضيف زي ما كان أبدا..

الشوشرة هي الهدف، وهي الوسيلة.. هي اللي خرجتني من بيتك وحررتني من سجنك"..

بعد ذلك لم تكن بقية الخطوات عسيرة، تقرير طبيب شرعي مزور، صديق قديم ومبلغ من المال يوازي ثمن شرفه البخس..

هاتفه الذي ألقت به من نافذة السيارة صباح السفر حينما أوقفته، وأعادته للمنزل ليحضر قلادة أسرها..

الترتيب لكل شيء حتى العودة وإلقاء القبض عليه، خروجه مكللًا بالعار في مواجهة عدسات الكاميرات، تلتقط له الصور مصفدًا، ذليلًا..

عناوين الجرائد التي تشبه خاصته عن أبيها في أمسٍ مضى..

والنهاية تركتها لخياله عندما ختمت كلماتها بسخرية..

"فاضل خطوة أخيرة يا عمار، خطوة مستحيل تكون عامل حسابها أو حتى مرت بأفكارك.. خطوة بحكم مؤبد المرة دي، ومش هتقدر تهرب منها أو تزايد عليَّ فيها..

الوداع يا زوجي العزيز..

ما تحاولش تدور عليَّ لأني بالنسبة لك بقيت خلاص.. ميتة!..

أشوفك في جهنم"..

كل انفعالاته التي يتطلبها المشهد بُترت..

تفجرت بداخله، وجسده احتوى الانفجار حتى أكله وحده، قتله ومزع بقاياه وحده..

سيجدها، سيعيدها لسجنه أسيرة ثم يقتلها في كل لحظة دون موت حقيقي..

سحق الأوراق بقبضتيه، مزقها وبعثرها، استقام يريد تحطيم المكان واستجاب لرغبة كمده بلا جهد، قلب مكتبه الثقيل بدفعة أدرينالين الغضب الهائل..

ركضت مساعدته مذعورة على أثر الصوت، رمقت الفوضى بهلع وتراجعت مع نظرته التي اخترقتها كسهم طائش مسموم..

سحب سترته وغادر بصمت، وجهته واحدة..

إن فرت سمكته الكبيرة من شباكه، فهناك طعمها الصغير مازال هناك، طعمًا سيهرسه بين أنيابه ومخالبه دون رحمة..

قرأ العنوان بالورقة التي لم تفارق جيبه منذ يوم حريته، توجه إليه وغليانه وصل لأعلى درجة.. صعد للطابق الثالث من البيت القديم، طرق الباب وانتظر بنظرة كالموت..

هو نفسه الموت..

حضوره موت..

والفرار منه محال..

فتحت هي ولمحته، عيناه غامضتان.. خاويتان.. تحلقان في العدم، ابتسمت بتهكم وأفسحت له طريق الدخول:

- كنت عارفة إنك هتشرفني بزيارتك.. اتفضل يا عمار بيه!..

استجاب ولم يتأخر..

توقف بمنتصف ردهة بيتها الصغير وبصره يحاوطها بخناق، أخفت توترها من جموده ببسمة مفتعلة وأصرت على إشعال الفتيل:

- تحب تشرب إيه!..

دمها سيكون المذاق الأشهى..

دمها وحده يكفيه..

دمها وبأقسى وأعنف وسيلة لم تطُف ببالها يومًا..

على الذئب أن يعتنق عقيدة القطيع، أن يقود، أن يُظهر شراسته التي ينجو بها وسط الضواري..

على الذئب أن يمارس النهش!..

**

أحيانًا يجبرنا الخوف على اختيار النهاية بأيدينا..

يكسرنا.. يجعلنا نفكر أن الموت أرحم بنا من الحياة..

أنه الخيار الأسهل للنجاة من ظلمات أرواحنا الهشة، من ضعف قوانا في مواجهته..

خيارًا نظنه رحيمًا غاضين الطرف عن تبعاته..

يجتاح قلوبنا بفطاحل جيوشه، يداهم دواخلنا، يحتل أنفاسنا، يغزو خلايانا.. يغرس بنا بذوره ويترك للأيام مهمة إروائها، تكبر.. تنمو.. تتعاظم مثله، تسيطر وتمحو بضبابها دفء الشمس ونورها..

نستسلم لأن القتال مرهق..

نخضع لأن الحرب دامية..

نعلنه سلطانًا متوجًا على عروشنا لأن الصراع كاسر..

لأننا لم نعُد نقدر..

فقدنا كل ما يمكننا منحه، كل ما يمكننا التشبث به، خسرنا ذواتنا.. أحبائنا.. ثقتنا بالنفس وبالبشر والحياة بأكملها..

الآن أيها الخوف أنت الملك..

احكم.. تجبر..

كُن طاغية لأننا اعتدنا الانحناء للطغاة..

وكأنك تنتظر منا التصريح، أنت تفعلها في كل وقت وحين..

أنت تقرر متى نحيا، ومتى نموت!..

3000

أنت تختار عنا، ولا تترك لنا سوى السير في ظلالك مهما جاهدنا للمقاومة، أو اعتقدنا أن منك مفر..

أنت أيها الملك، قل كلمتك..

قلها واقطع الوريد..

قلها وسنعلن السمع والطاعة..

قلها..

قلتها!..

حسنًا؛ لك ذاك..

لك وهنها، لك ضياعها بحثًا عن وهم، لك ضلالها في مطاردة سراب..

لك منها الحياة والروح وبيدك خاتمة الحكاية!..

لك منها كل ما تملك..

اتخذت القرار بنصف وعي.. بنصف إدراك.. بنصف جنون..

اصطفت الموت كما اصطفاها..

بخبال محقق خططت، تحضرت، تزينت!..

فتحت باب المتاهة ودخلت، أغلقته من خلفها وجلست قرب أول جدار.. لن تسير للأمام والباب من خلفها تلاشى بما يناسب حبكة التيه..

كل شيء في مكانه، وهي حاضرة للقاء تتمة روايتها البائسة..

مهدئ؛ الكثير منه..

كوبين من حليب محلى بالعسل للتغطية على مرارة الدواء المخدر..

مثله في زجاجة الرضيعة..

قبلت صغارها بدموع لا تنضب..

ضمتهم بين ضلوعها، تشتتْ بينهم، خافت عليهم فكان القرار أن تصحبهم معها أينما رحلت!..

أنهت فتاتها قدحها بتلذذ، واعترض الفتى العنيد:

- ما بحبش اللبن..

ربتت على خصلاته بحنو، انحنت تعانقه، تهمس بأذنه أنها ستكون المرة التي لا تليها أخرى، المرة التي تجبره فيها على تناوله وبعدها لن تفعل، بكت كما لو أن البكاء سيتم منعه بقانون صارم صباح الغد..

تهديه طمأنينة لا تمتلك منها ذرة وتعده بالسكينة والراحة:

- آخر مرة يا فراس، مش هاخليك تشربه تاني..

تطلع الصبي لعبراتها بدهشة حائرة تناسب عمره، بقلق ضاعف من ذاك العمر ثلاث مرات.. لقد بات يستوعب شططها، يخشاه ويبغضه..

كاد يعاند أكثر، لكنه توجس من عقاب متوقع تنزله عليه كما اعتاد مؤخرًا، تراجع واشترط بطفولية:

- طيب هاتي لي معاه تشوكليت وهاشربه..

كانت أمنيته الأخيرة، أمنية استجابت لها باستسلام.. ببسمة كأنما منحه ما يشتهي يعينها على مهمتها، تركت الغرفة لتحضر له قالبًا من الشيكولاتة التي يفضلها..

نهض هو بعجالة يفتح نافذته، يراقب أخته التي غرقت في سبات سريع عجيب، يسكب القدح عبره ويرجع لفراشه..

يتمدد فيه باستكانة ويتركه إلى جواره على الطاولة الجانبية، يراها تعود.. تبتسم بانشراح لطاعته، تمنحه حلواه وتربت على وجنته.. يخبرها هو ببسمة بريئة:

- هاخليها هنا عشان الصبح ناكلها أنا وكادي مع بعض..

تخللت خصلاته الناعمة بأصابعها، ساعدته ليتمدد بالفراش، دثرته بغطاء خفيف ومالت تهدي جبينه قبلة، راقبته يغمض عينيه.. يخضع لحكم النوم الآمر، وقفت على باب الغرفة تتأمل ثلاثتهم..

تلقي بخطبة وداع صامتة لم تغادر أحرفها ثنايا عقلها..

تبكي وتبكي وتبكي وتكاد تنهار بصراخ..

تكبته بعزم اللاعودة، فمن حيث تنظر ليس هناك ما ينتظرها لتثوب إليه كما رشدها الغائب..

خرجت، حملت وعاءً محكمًا مليئًا بالبنزين، فتحته وبدأت في توزيع محتواه بأركان البيت الصغير، خطت لغرفتها ومن ورائها كانت تترك خيطًا من السائل نفاذ الرائحة..

قرب المرآة توقفت، ترمق ملامحها المتعبة الشاحبة بابتسامة مختلة غير مفهومة، تساوي شعرها بأنوثة، تطلي شفتيها بحمرة داكنة، تتأمل فتنة جسدها في ثوبها الأنيق..

تتوجه لفراشها، من أقراصها التي أدمنتها تبتلع شريطًا كاملًا، حبة تلو حبة.. تنهيه بشربة ماء بارد، تشعل لهب شمعة نصف محترقة.. نصف منتهية كما النهاية التي تركض نحوها..

تضعها على طرف الفراش قرب قدميها، تتمدد كملكة فرعونية مدفونة بتابوت البعث..

تضم كفيها فوق صدرها، ترمق السقف حتى يجبرها الدواء على غفوة مستحقة..

ينتهي فتيل الشمعة..

وتنفجر ألسنة النيران تأكل في طريقها بعنفوان ونهم كل ما يمكنها نهشه..

تتوهج لتوقد سعيرًا لن ينجو منه أحد!..

(42)

مرحبًا بك في الجحيم..

أنت لم يمكنك العبور؛ لقد سقطت!..

**

بلا مقدمات مكررة، أو فذلكة لغوية أهلًا بكم يا سادة..

أهلًا بكم في قلب النيران..

الأمر يصعب وصفه، ماذا لو تركته لخيالكم وكلي ثقة من غوصكم في سرمدية الحدث والألم والنهاية!..

لا!..

صدقوني.. لا أحد يريد أن يصف بكل سادية ممكنة كيف تنهش أنياب الحريق الأرضية المفروشة ببُسُط كانت أنيقة، تهرول ركضًا على الجدران فتغرس مخالبها في ألوانها، تتبع خيط السائل المسكوب

كضارية جائع يطارد فريسة سهلة، جريحة، تفر بوهن من تتمة حتمية..

تُمزق.. تُحطم..

تُحيل الكون لرماد..

لا أحد سيخبرك عن الدخان الأسود الذي تصاعد بعنفوان إعصار وقسوة هياج بركان، ليحول الصورة لعتمة من عمق ظلام أعمى، عتمة تتخللها حمم ثائرة..

لا أحد سيحدثك عن الأجساد التي افترسها الجحيم!..

حيث البداية هي..

المنتهية قبل استهلال حياة.. الميتة في عرف الروح..

كلا.. كلا..

لن يثرثر عن رائحة اللحم المحترق.. الجلد الذائب.. وصوت صراخ مفترض، لا يظهر من بين ضلوع جسد مات قبل الموت بزمان..

عن صغير أسير الهلع!..

سبع سنوات..

ما ذنب هاته السبعة!..

أن يستفيق مختنقًا، أنفاسه تتلاحق والعالم من حوله يشتعل!..

العالم كله، تفاصيله لهب النار..

صرخ بكل قواه، نادى أمه، هرول لفراش شقيقته.. هزها بكل عنف توفر في جسده، لم تصحُ..

جاهد لحملها وقدرته خذلته..

سحبها من ذراعها، أسقطها أرضًا وجرها بمشقة.. توجه لفراش الرضيعة، حملها وفقد وجهته..

انهارت قواه وضاعت أنفاسه..

العالم خلا من الملامح.. من الخرائط.. من الطرقات والمعالم والاتجاهات..

صرخ بروحه.. صرخ بقلبه..

صرخ وصوته سجين اختناقه..

النار تزدرد بنهم دون مضغ ما تجده في طريقها، وتمتد بجنون بحثًا عن مزيد..

تحسس طريقه يحمل الصغرى بعدما حرر ذراع أخته، يقاتل في صرع بقاء محسوم.. يفتش عن الباب، والنار تدُله.. النار تقتحم عقِبه، يفتحه ويركض لأمه، مصدر أمانه وسط ذاك الويل.. لكن السعير المحاوط به، المحدق به يمنعه..

غرفة الأم منتهية..

وهو منتهي..

جاهد للعودة، لإنقاذ شقيقته، قطع دربه عليه لسان لهيب انفجر بغتة، أسقطه وأسقط حمل يديه فتدحرج على مسافة منه، أمسك به وبها..

أمسك بثيابه وعينه ترمق الجسد الضئيل يتفحم في ثوانٍ، ثم صوت غوث من بعيد يأتيه..

غريزة البقاء تحارب مع الفطرة، تدفع نحو النجاة.. زحف بعسر لا يناسب عمر رجل بالغ..

فكيف بطفل شاخ في لحظة!..

أحدهم يستخدم مطفأة حريق، اثنان، ثلاث.. تجمع سكان المبنى الذي يكاد يحترق بالكامل، حتى وصول المطافئ..

وبعد نصف ساعة خرج أحد رجال النجدة يحمل طفلًا بين ذراعيه..

طفلًا نهشت النار نصفه..

والنصف الباقي نهشه الموت..

موت حلق فوق رؤوس الجميع دون تفرقة..

موت وصلت رسالته للأم.. للأب..

ولولوت هي، وسقط هو!..

موت لم يرحم أحدًا، إلاه.. الوحيد الذي نجا ولم ينجُ..

"فراس طولان"..

كان طفلًا قبل ساعات.. والآن، هو الناجي من المحرقة، هو القلب العجوز في جسد صبي، والروح الخاضعة للنزع الأخير فلا خير في الحياة..

بجسد مرمم، تشوه منه ما لا يمكن إصلاحه.. اهترأ منه ما لن يستطيع أحد رتقه..

عاش والموت أحق به.. مات، والحياة لم تنتهِ منه بعد!..

حي.. وقد خسر أمه، أختيه.. وأبيه الذي غاب في ماضٍ منسي..

حي واللفظ يشمل الأنفاس والنبض وحسب، فما عداهما قد رحل..

**

البعض يتشبث بالمنتصف ظنًا بأن فيه الراحة، أنه الملاذ الآمن الذي يقي ضربات اختيار وجهة محددة.. أو اتخاذ قرار..

يرى أنه هناك اهتدى لمسيرة الظل، لا ينتبه إليه أحد ولا يريد لفت الانتباه..

لكنه يجهل أن المنتصف شاق..

المنتصف أمر مجهد.. محير..

أنت معلق بين السماء والأرض..

بين الحقيقة والوهم..

بين الهروب والبقاء..

المنتصف قبر تدفن فيه كل ما تحتاج، لأجل حاجة واحدة.. الاستمرار!..

رُغم تطرفه معها قبعت هي في ركن قصي بالمنتصف.. عندما سعت لنهاية، بتر مسعاها، قطع عليها طريقها وحسم الدرب بقراره..

هزمها دون حرب..

وكسرها بلا جريرة..

تباعدت، تهربت، انطوت على ذاتها.. حزنها بات هو تفاصيل اللحظة، وألمها هو هوامش صفحات روايتها البائسة، منقوصة الخاتمة..

أما النَص فمجهول.. حذفه أحدهم قبل اكتمال الحبكة فترك فيها فجوة لا يمكن سدها أو ترقيعها..

تعلم أنها أسيرته، ترفض الأسر، تحتج على السجن، هي ليست سبية.. لكن من يعارض المختل في متاهة الخيانة!..

جربتها فنالت الأذى، وتكراره مضنٍ..

أيامها تتشابه، تبدأ وتنتهي وهي بالمنتصف، عالقة معه دون رغبة أو إرادة.. سلواها الوحيدة هما طفليه، قربها منهما يكفيها ويفيض وإن كانت بالقلب غصة تكبت نبضه حد اشتهاء التوقف التام..

يبادلاها الكثير من الحكايا، لكن أكثرها وجعًا تلك التي تخص أمهما، الراحلة في عُرف برائتهما.. الميتة قسرًا في عُرف عشقه.. والحية رُغمًا عن أنف جبروته بعُرف الحياة نفسها..

بعُرفها هي، العاشقة منحورة العشق والروح والكبرياء على عتبات قلبه..

لم تكُن تعلم أنه يراقبها من شرفة غرفته، جالسة في وحدة باهتة تشبه بهوت ملامحها وشجن عينيها ببيته.. انطفائها وذبولها، تجاهلها له..

تجاور المسبح، تدلي ساقيها بمياهه شبه الباردة في هذه الساعة من الليل الذي شارف على منتصفه..

منتصف آخر اختارته..

شاردة في مجرة أخرى، والسماء هي فضائها المريح..

يتأملها بتعب مماثل، مثقل هو بهموم فؤاده وروحه.. محمل بذنوب الفقد والخسارة والخديعة.. مغفل في حكاية امرأة عَشِقَها..

وعِشْقَها كان هزيمته..

كان نهايته..

كيف يصدق بعدها في عشق!..

كيف يؤمن به وقد تهشمت أصنامه بعينيه بفأس الحقيقة، فأفاقته من ثمالته بضربة فوق رأسه.. شجته.. نزف.. أفاق ومات بذات اللحظة..

كيف يخضع والخضوع انكسار!..

كيف يستسلم للتكرار وعار اللدغة الثانية عليه دون سواه!..

كيف يدخل جحر الأفاعي بقدميه مجددًا!..

وكيف يحررها وهي طوفه المهلهل الذي هرب به من سفينة أوجاعه الغارقة!..

ليس ظالمًا لكن الحياة أجبرته ليكون واحدًا..

تخلى عن مبادئه، مثاليته، أخلاقه.. تخلى عن نفسه، أو ربما فقدها عند منحنى الحقيقة المُرة..

مسح وجهه بكلتا كفيه وقرر أن يقتحم عزلتها، جاورها بخطوات شبه مسموعة.. عندما انتبهت لوجوده كان يشمر سرواله ويوازيها في جلستها، يضع قدميه بالماء ويغيب في الأفق كما تفعل هي..

ربما عليه أن يفتش عن بداية!..

بداية لحياة، أم بداية لحديث!..

لا يعلم، فقط عليه أن يستهل حروفه بشيء ما يجهله، عندما سحب نفسًا طويلًا رأى أجفانها تتعانق بتعب.. بخذلان، كأنما تنتظر منه هجومًا جديدًا..

3016

تتوقع طعنة تالية..

توقف، استند بيديه لجدار المسبح، غرق فيه ببصره يراقب أضواء القاع تتألق بجمال وحركة أقدامهما تصنع معها تموجات ناعمة..

"أنا ما باحاولش أكون الشيطان المؤذي معاكِ يا رحيل"..

همس بغمغمة بالكاد وصلتها..

غمغمة أقرب لاعتذار مبتور، غير صريح، غير واضح، غير مرغوب فيه منه أو منها..

ليس عليه أن يصارع وحشيته وليدة الغدر لأجلها، هي فقط تحتاج حريتها، ولا تريد إلاها..

لم تعُد تريده هو..

لم تعُد تتمنى أن يحتجزها بسجن ضلوعه..

هذه القضبان أضحت تخنقها!..

"عارف إن صعب تقبلي بفتات إنسان، بس البقايا هي المتاحة"..

كادت توقفه..

لا تفهم ما يسعى إليه ولا تجاهد لمحاولة فهم..

لن ينال شفقتها، لن يفوز بعاطفتها، وبعدها يدهسها.. يهشمها.. يشعل فيها نيران خيباته وانكساراته.. يكفيه ويكفيها ما حدث، لا ترغب في ديجا فو يدلل على غبائها..

"يمكن البقايا دي أقل من اللي تستحقيه، بس لو في أكتر أقدمه؛ ما كنتش هاتأخر"..

ألا يدرك!..

ألا يرى!..

ألا يستوعب!..

هذه الكلمات تاقت إليها منه قبل شهور عندما تزوجها، حينها لربما ضمته لصدرها بحنو أم وعشق زوجة وأخبرته أنه العالم..

أنه يكفيها ويزيد..

الآن هو.. تأخر..

حافظت على صمت فاتر، فارغ من المشاعر، خاوي حتى من صوت الأنفاس.. كانت تملأ رئتيها بالهواء بتمهل وتزفره بتلكؤ.. تتأنى في الالتفاتة، في النظرة، في الكلمة.. ورد الفعل..

تتأنى حتى في الرحيل، لكنه هو الختام ولا شك..

"للأسف، اتقابلنا في وقت غلط.. ومين عارف!.. يمكن حتى لو اتقابلنا في الوقت الصح؛ كنت برده هاحبها هي.. مش هاشوف غيرها هي"..

يطعن بجهل.. بحماقة.. وتسبه بقلبها، تعتدل في محاولة للنهوض، لا تجيبه بحرف، لا تمتلك القدرة أو الطاقة.. ويمنعها..

يكبل معصمها فيجبرها على البقاء حيث هي..

لا يطلق سراحها، يغوص في عينيها وتغرق في عينيه دون رغبة..

"إدينا فرصة، إديني أنا فرصة"..

الفرار هو الحل..

الفرار هو النجاة..

3019

لكن قيود الفؤاد الخانع تغُّلها إليه بلا رحمة أو شفقة، ترتجف..

تسحب يدها ويعتقلها..

تهمس بإنهاك امرأة وصلت لحدود أرض الهوى فوجدت أبواب مُدنِها مغلقة بأقفال صدئة في وجهها..

"سيبني من فضلك"..

يتشبث هو أكثر..

لا يبتعد..

لا يقترب..

لا تتبدل نظرته إلا لتوسل استغربته..

"رحيل"..

تمتمته باسمها فيها كل شيء..

فيها السحر والأسر والخوف والألم والرهبة والجنون والهروب والفراق.. والعناق..

3020

حروفه كانت تعانقها!..

تمتمته أجفلتها أكثر من صراخه فسألته مُجهدة.. منتهية، هامدة على قارعة طريق اليأس والفشل:

- أنت عاوز مني إيه!..

زم شفتيه وجاوب بما ظل لوقت غير محسوب حبيس دواخله، لا ينبش عن غيره في أبدية الزمان الآتي..

الغد..

سيحرق الماضي ويراقب تناثر رماده مع رياح الحاضر، والقادم:

- عاوز فرصة..

تشتت نظرتها حتى تلاقت بنظرته الأشبه بوتد يتمسك بالحياة رُغم رغبة البتر:

- مش هاقدر أوعدك بجنة، بس هاحاول إنه ما يكونش جحيم..

وقلب كفها يحتويها بين راحتيه، علا نبضها لحد وتَّرها.. أربكها، حتى أنها ظنته قد سمعه وابتسم!:

- جايز وجيه المثالي مات، بس أنتِ المرساة اللي هتثبت وجيه اللي عايش لأرض السلام اللي هو محتاجها..

جسدها المتيبس في مواجهته جعله يكمل براحة.. بهدنة مؤقتة ينشدها من حروبه:

- خليكي جنبي، يمكن في يوم حياتنا دي تستاهل تتعاش..

ثم أكمل بكلمة واحدة تركتها مزعزعة، مهتزة، واجفة ومرتجفة:

- صح..

تركها تتابع خطواته المبتعدة بأثر البلل، ترمق ظهره بذهول..

فاقدة للنطق والرشد والاستيعاب..

أهذه لعبة يجبرها بها على البقاء راغبة!..

هل يخشى منها على صغاره فاختار المسار الآمن!..

هل هو كاذب ككل كذباته السالفة!..

أم أنه هذه المرة يتحرى الصدق!..

3022

تبًا له وتبًا لقلبها وللرواية التي لم تنتهِ بعد..

تشتت أفكارها في دوامة سوداء وأسوأها يعتصر مخها دون هوادة، لم تسمع رنين هاتفه.. لم ترَ تصلبه على بداية الدرج والخبر يعصف بكيانه كله..

النيران التي أكلت كل شيء؛ ما عدا نصف طفل صغير بشبه نجاة..

استعاد بغتة قسوته..

صلفه..

عقابه وإن كان مستحقًا..

سؤال صغيريه عن أبناء الخالة وكذبته بفكرة سفر لخارج البلاد..

بعد عدة أيام علم أن الحريق مدبر!..

أنه في الغالب انتحار..

هنا أدرك أن له سهم شارك به في هذه المحرقة.. أنه أشعل عود الثقاب حتى وإن لم يوقد السعير بيديه..

اللعنة عليه..

3023

عليها..

على الجميع..

على زوج خائن وأب قاتل، على أم مهزومة، مفقودة في وهم..

ليلتها بمكتبه بعد وصول نتيجة التحقيقات والطب الشرعي إليه؛ أدرك أن البداية التي يفتش عنها ليست من نصيبه..

هو رجلٌ كُتبت خاتمته أراد أم لم يُرِد..

والتغاضي عنها لن يمحوها، كما التنقيب عن مستهل يتمناه هو محض سراب!..

المنتصف جيد إلى حد ما..

المنتصف آمن مهما كان شاقًا..

المنتصف لعنة، لا نجاة له منها..

**

لم يحب الحياد في يوم، يكره الرمادي، والتطرف هو شعاره..

3024

الأبيض.. الأسود..

وما بينهما مهاترات فارغة..

لم يعتد المزج، فاختلط حابل قلبه بنابله واسود حد القسوة والبغض والثأر..

ثم أتت هي، تتهادى في دروب روحه غير المعبدة، المظلمة، كخريطة نحو التيه.. تمهدها، تنيرها، تبعثها، تعيدها على قيد الحياة.. تدله على مخرج..

تقود سفينته المبحرة منذ الأبد نحو مرسى كمنارة الهداية..

تغدق على حياته بحياة، بوجودها، بقلبها، بعشقها، وطفلهما الذي أكمل سحر الصورة..

لو كان الأمر بيده لكتب في آخر روايته تمت، أنهى الصفحات وطوى دفتي الكتاب على من فيه، ركض من رَاوِيه المختل، وأصر على هروب بلا عودة..

لو كان!..

3025

وقف بشرفة المنزل يراقبها بالحديقة الأمامية، تحتضن ابنهما وتجلس فوق أرجوحة تجاور زوجة أخيه الصامتة منذ عودتها من المشفى، الزوجة التي تكتفي بحمل ابنها بتوق.. بلهفة الغائب المشتاق، خطواتها ثقيلة بحملها، وجهها باهت وملامحها شاردة.. شاحبة من أثر ما جرى..

ابتسم بحنو للمشهد الماثل أمامه، تبادلا الطفلين، حملت "شمس" صغيره فسكن بأحضانها، لكن ابن توأمه هو مَن تمرد!..

بكى وتملص من ذراعي زوجته عائدًا لأمه، والمفاجأة أنه جذب الرضيع بشيء من عنف أبكاه..

يغار..

أغمض عينيه بتنهيدة والشجن يملؤه، ليت الراحل كان هنا ليرى ما يجري بين الصغار!..

فقط ليت لا تعيد الأمس، ليت لا تخلق الأمنية، ليت لا تأتي بها لأرض الواقع.. والموت وحده الحقيقة القاصمة بلا مفر..

الموت أخذ والقدر منح..

سمع وقع خطوات جده البطيئة من خلفه وعصاه تدق الأرض بتتابع ثابت، وازاه في وقفته يتأمل ذات المشهد ماسحًا به عناء السنين وظلام كل بارحة مرت بوعثاء الألم..

ماذا يريد أكثر!..

هذا هو ميراثه..

حفيده العائد لطريق الصواب، حفيده الآخر وإن كان يوقن أن خاتمته لا تشبه ما يتمنى..

زوجتين وأطفال..

البيت ينبض.. روحه عادت لجسده الهامد..

لمح ابتسامة "يزن" فتمتم بشيء من شرود:

- تعرف إنك دايما كنت بتفكرني بيه!..

تغضن جبين المجاور له وقد أدرك مقصده..

أدركه وغضب..

استحالت لحظة العاطفة لحنق، استدار إليه بنظرة جانبية مستاءة:

- أنا مش زيه..

ربت جده على كتفه برفق متفهم:

- عارف.. بس اكتشفت ده متأخر..

عاد يوجه بصره للصورة الأكثر لطفًا ودفئًا بنظرة متشبثة، توقن أن النهاية أقرب مما يظن:

- كنت متمرد دايما، بترفض وتعاند لدرجة استعدادك للخسارة مهما كان حجمها..

زم الحفيد شفتيه بضيق والماضي يقفز على الحاضر فيحفره بحنايا ذاكرته عنوة..

زفر "يونس" وغاب فيما فات:

- ماكنتش بابقى عارف أتعامل معاك إزاي!..

قطب "يزن" بحيرة فنَّدها جده ببساطة.. بمشاعر يراها للمرة الأولى على وجهه وبعينيه:

- أكون حنين معاك عشان ما أكررش غلطتي معاه، ولا أعاقبك وأقسى عشان ما تتمردش زيه..

كرر الزفرة بإجهاد، تراجع يجلس على مقعد أنيق جوار جدار المنزل مردفًا بمرارة:

- أعاقبك لأني ما قدرتش أعاقبه، هرب مني!..

التفت الواقف ليواجهه، يستند لسور الشرفة، يعقد ذراعيه ونظرته تظلم.. نبرته يصيبها جفاء وفتور وعتاب مقررًا بجمود:

- واخترت العقاب..

رفع الجد ناظريه إليه دون هروب، فالحقيقة لا مناص عنها:

- كنت غلط..

تقوس فمه بأسى وعقله يستعيد لحظات نهاية توأمه، يسرد التفاصيل المجهولة بعذاب:

- وقت ما يامن كان في الغيبوبة، والدكاترة قالوا خلاص مافيش أمل؛ حاولت أوصلك..

تغضن جبين "يزن" وانفعالاته كلها تطفو للسطح رُغمًا عنه، ينصت والقلب يئن بسجن صدره، يتذكر الفقد.. القبر.. أظافره تنبشه، يدمي يديه وصراخه يعلو بنداء لا جواب له..

يلعن من مات.. ومن بقيَّ، ونفسه..

تتشقق صخرة الصبر بروحه، تتفتت تحت وطأة لحظة الانفصال، الوحدة، القصاص والحق..

يستمع بفؤاد مكلوم وكيان متعب:

- قلت أنت الأمل الوحيد، هيسمع صوتك ويستجيب.. أنت نص روحه..

- بس ما كانش عندك رقم تليفوني، وما حاولتش تطلبه من وجيه عشان كبرياء الحوت.. مش كده!..

تمتم بها هازئة، يستحل الغلظة والقنوط، يرفض التعاطف والرحمة..

هذه لحظة قسوة مستحقة..

- كنت أستاهل منك ده!..

واقترب يشرف عليه، يجبره على الاعتدال أكثر حتى يلاقي بصره:

- كان هو يستاهل منك ده!..

ربت "يونس" على المقعد يشير له بمجاورته، تصلب حفيده لثوان استجاب بإثرها، جلس بجسد متحفز وأوتار مشدودة.. أعصابه في مرحلة الغليان، ونبضه في حالة حمى.. فوضى.. ألم:

- عمري ما كنت عاوز غير مصلحتكم يا يزن، ما كانش عندي غيركم.. ما بفكرش غير فيكم وفي مستقبلكم وكيان أبو الغار اللي بدأته من الصفر وكنت متوقع إن ابني الوحيد هيشيله ويكبره من بعدي..

مسح الأصغر وجهه بكفه مبتسمًا بسخرية:

- وأهو ابنك رجع، عالج اللي كسرته زمان..

بادله الجد بسمته، وإن شاب خاصته مرارة:

- أنا اخترتك أنت وأخوك..

رمقه بدهشة حائرة، تحولت معها بسمته للحنان.. للمودة:

- عبد الله اختار نفسه زمان، وبيختار نفسه دلوقتِ، مش هاقدر أحرمه من وجوده حوالينا، بنته.. أختك محتاجة وجودك أنت ويعقوب، بس مش هاجبركم تتحملوا الوجود ده..

وضغط كفه المستريحة على ركبته بدعم.. بشيء من قوة:

- أنت ويعقوب القرار في إيديكم..

استقام يغادر جواره بشرود..

الخيار بيده هاته المرة..

لكن ماذا عليه أن يختار!..

أب لم يعرف من هو!..

لم يعرف إن كان الحي أم الميت!..

هو حتى لم يعلم بموت ابنه، وعاد لأجل صغيرة لا يريد تركها وحيدة في عالم من دونه..

من يختار!..

الفكرة ساخرة والمشهد مضحك، مبكٍ في آن واحد..

تجاهل، مرر، تغافل، واختار التناسي.. التعافي.. البعد، فاء يرمق جده بصلابة، بجدية، يلقي بقراره متغاضيًا عن سابق الحوار:

- أنا هارجع لك تلت الميراث اللي أخدته لما اتجوزت غزل..

رماه "يونس" بتطلع مندهش، مستغرب.. تلك النقلة من أقصى اليسار لأقصى اليمين، وهو سوغ رغبته باقتضاب:

- دلوقتِ ابنك عايش، وفي أحفاد.. مش من حقي آخد حاجة..

- لأ يا يزن..

تعجب من الرفض فصمت بلا رد، يستمع بتشوش:

- أنت تعبت في الثروة دي، تعبت أكتر من أبوك وده حقك.. مني أنا، حق ولادك..

قبل رد منه أومأ "يونس" لما وراءه:

- يعقوب جه..

لم يعلم كلاهما أين كان!.. لكنه يختفي كثيرًا كأنما يتواصل مع وحدته أكثر من البشر.. حتى صومعته توقف عن زيارتها منذ زمن!..

راقب أخيه يقترب من كليهما، يصعد الدرجات القصيرة، يواجههما بنظرة مصمتة.. جوفاء، والنبرة تقرر بصرامة حاسمة بلا تمهيد:

- أنا هارجع اليونان..

يتخلى عن الوطن.. العائلة.. رابطة الدم!..

انتفض قلب جده بين ضلوعه، اعتدل بنظرة أصابتها شيخوخة ما قبل النهاية، نظرة تمَّلك منها كرب.. غم.. هم فراق، وقد نال راحته بقرب صغاره من حوله قبل موت لن يكون ببعيد..

أما الأخ الأكبر فاجتبى الصمت.. التفحص والتدقيق ولحظات الفهم التي لم تتأخر!..

رُغم كونه في جحيمه إبليس، ورُغم أنه اشتهى الفردوس؛ فهو يفهمه.. يغوص بداخله وإن لم يرغب.. يستوعب نكبات روحه، يرى بوضوح ما لا يظهره على السطح البتة..

يراه ويتألم..

"هترجع تعيش وحيد وعيلتك موجودة يا يعقوب!"..

عبر السؤال شفتي "يونس" الذي استقام يقترب من وقفته المتحجرة نائيًا عن الاثنين بالجسد وإن أعتمت سماء الحدث بقتامة النظرة:

- شمس والولاد هيكونوا معايا..

- كلمتها!..

أتاه التعقيب من أخيه الهادئ برتبة مُقدر، واعي، متفهم ومترفق.. رمقه يستهدف عمق عينيه بفتور:

- لسه..

تدخل الجد بحزم يشوبه افتقاد سابق لأوانه:

- يا ترى ممكن حد مننا يقنعك ترجع في قرارك؟..

والجواب لم يكن بكلمة..

لقاء الأعين كان كافيًا ليحظى برد باتر، تخللته زفرة "يزن".. خطوته تجاه "يعقوب".. قبضته فوق كتفه بمساندة ومواجهته بدفء:

- المهم تكون مرتاح..

هو يدرك السبب الأول..

يدرك أن القرب موجع في كل لحظة ممن أوجده ونبذه..

يدرك أنه رجل تكيف مع الغربة والوحدة؛ لذا غرقه بتبعات العائلة وصخبها يثقله..

أكمل بشيء من تسلط لا يخلو من المشاعر المكبوتة بقلوب الثلاث:

- اليونان مش آخر الدنيا، كام ساعة بالطيارة وتكون عندي أو أكون عندك..

سكون الأصغر لم يوقفه، استمر وهذه المرة الجدية عنونت لهجته:

- المهم ولادنا يكبروا وهم عارفين بعض، عارفين معنى العيلة..

لمح تشتت مقلتيه..

تباعده بكل ما فيه وحاصره هو بكل ما يحوز ويعلم أنه يعوزه..

لن يتركه يعاني نبذًا نال كليهما في أمسٍ مضى..

لن يهجره يتسكع في أزقة الفقد الخسارة غاضبًا، حانقًا كما كان..

سيكون هنا، هناك.. معه، سيكونان معًا..

ذاك هو اختياره..

خلط الأبيض بالأسود ثم أضاف المزيد من الألوان، استدارته حلقت به نحو أسرته الصغيرة..

هذه لوحة مزج فيها كل لون، كل شعور وعاطفة، بكل أمل..

**

هل من جرب الحب مرة، سيسقط في بركانه أو يخضع لأسره مرتين!.. هل يمكن أن يتكرر العشق من الأساس!..

أم أن القلوب تعتاد وحسب!..

تعتاد القرب والألفة والود، فتسمي ما يحدث غرامًا.. هوى، حتى يمكنها النبض لغاية، لهدف وحياة..

أخبرها عن حب، عن رغبة في إكمال دربه معها، وهي تهربت منه كثيرًا.. تفلتت، تباعدت حتى أنها فكرت في ترك العمل، لكن كيف ستجد غيره!..

تملصت من مشاعره.. من تقربه.. من رغبته فيها والزواج والأسرة، لقد أضاعت واحدة فلمَ عليها أن تحلم بسواها!..

أن تفكر ببناء أخرى!..

لكنه حاصر بجموح.. بجنون.. بلهفة، وحقيقة أنها ستكون له وإن انتظر أعوامًا.. كان غريبًا، وكانت حائرة.. خائفة.. ترتجف الأنثى لإصراره، وتخشى الآثمة حقيقة إثمها..

جلست تجاوره بمكتبه، تعرض عليه مخطط عمل جديد من تصميمها، تشرح بعملية خبيرة، وهو لا يرى إلاها.. يتأمل جانب وجهها، يشرد فيها، ثم يقاطع اندماجها ويده تقبض على كفها تمنعها التباعد:

- مش عاوزة تشوفي شقة الزوجية!..

سحبتها منه، حررها بلطف بينما هي ترفع ناظريها إليه مستمرة على جديتها:

- أنا ما وافقتش أتجوزك..

- أنا موافق..

تمتم بها عابثة، زفرت ولملمت أوراقها وحاسوبها بتعنت:

- هاروح أكمل شغل في مكتبي..

استقامت واستقام يقطع طريقها، ينطق اسمها بصرامة:

- ليلى..

وقفت ترمق الجدار هاربة من عينيه، تدخل في الأفق بينها وبين جدارها:

- أظن كفاية هروب..

تحدته بعناد فطري:

- أنا ما بهربش، أنا رفضت وأنت اللي...

- مصمم!..

تهدل كتفيها برضوخ متعب:

- وبعدين!..

ابتسم بمكر مصرحًا بما يظنه الخاتمة:

- هتستسلمي وتوافقي..

توسعت بسمته بمرح ودود هادئ:

- على الأقل عشان تخلصي من كلمة تتجوزيني..

واجهت ناظريه بتردد مرتبك، حائر:

- ليه أنا!.. الدنيا مليانة غيري، حياتك نفسها فيها غيري كتير..

اقترب خطوة وصدق نبرته يعلن عن وجوده بوضوح:

- بس أنا عاوزك أنتِ..

تأملته..

حدقتيه البنيتين اللامعتين بذكاء، ابتسامته الملتوية المزينة بعبث لا يفنى، خصلاته الناعمة والنظرة..

النظرة التي تحاوطها بأمان عجيب، تمسكه بها يسعدها ويخيفها..

هل يمكنها خوض التجربة!..

هل لديها القدرة على التكرار!..

هل يمكنها أن تقول: نعم، سأتزوجك!..

لمح ضعفها بمقلتيها، سكونها، شرودها كأنما تخوض غمار فكرة القبول بتردد..

دنا خطوة تالية، أمسك بيدها وعانقها بكفيه، أقر بالوعد:

- يمكن أنا مش الراجل اللي أي ست بتدور على البيت والأمان هتقرب منه، هتخاف وتفكر ألف مرة.. بس أنتِ يا ليلى؛ اللي كسرتِ كل قوانين إياد كساب..

وضغط كفها برفق:

- أنتِ اللي عاوزها تكون مراتي..

استشعر رجفتها.. لمس حيرتها، تقدمها بجواب، تراجعها عنه.. شتاتها، رأى الموافقة معلقة على أطراف أهدابها، محفورة بين ثنايا ابتسامة مشتتة.. متأرجحة بين الاستسلام الفعلي لسعادة يتمنى أن يهديها إياها، وبين الخوف المتأصل فيها..

كاد يكمل حصاره عندما قطع حديثه رنين هاتف مكتبه الداخلي، تراجع بزمة شفاه حانقة يجيبه.. يتذكر اللقاء مع أحد مندوبي شركة مبتدئة للعمل على نظام أمني كامل لها.. أخبر مساعدته أن تسمح له بالدخول واعتدل يرمقها بإحباط:

- شغل..

تحرك تجاهها بتأكيد:

- نكمل كلامنا وأنا بوصلك النهاردة..

أوشكت على الاعتراض لولا أن فُتِح الباب من خلفها، استدارت تغادر وخطوات الآتي تدنو منها، تلمح ابتسامة "إياد" المرحبة بكياسة:

- أيمن بيه!..

- باشمهندس إياد..

خطوات تجاوزتها وظهر صاحبها يسقط بمنتصف حدقتيها كرصاصة..

كانفجار لغم قديم منسي من حروب خاسرة..

يرفع ذاك بصره إليها، يتأملها بدهشة.. لا يكبت انفعالًا تعوزه اللحظة، يصرح بكل صفاقة:

- ليلى!.. معقول!..

ثم تضيق أجفانه بنظرة مفترسة أجفلتها:

- دي صدفة ولا قدر!..

لم تكن تمتلك جوابًا.. لا تمتلك طاقة أو قدرة على البقاء..

لم تستطع.. هربت..

ركضت تحمل أوراقها، تتجاهل ما تبعثر منها ورائها.. لا تعلم ما قد يتبادر لذهن الرجلين ولا تكترث.. فقط تريد الإختفاء من على ظهر البسيطة..

لم تلمح كيف رمقها "إياد" باستنكار!..

كيف تصافح الاثنان!..

وكيف وُلدت بسمة ثعبانية على شفتي الوافد من الماضي!..

لم تستطع إكمال يوم العمل، حملت حقيبتها وغادرت بلا إشعار، تاهت خطواتها في شوارع المدينة.. في دروب الخسارة والضياع.. في ضلال المصير ووهم السعادة وسراب الحقيقة..

تاهت حتى وصلت لمنزلها متأخرة، محملة بتراب الهموم والخوف والفزع والهزيمة المرتقبة.. حائرة فيما قد حدث، أو سيحدث..

مقرة أنه لا مناص عن الخضوع، الخطيئة لن تنمحي.. والأمنية مفقودة..

صعدت بجسد منهك لطابقها، فتحت الباب ودلفت بتعثر اكتمل مع الدفعة شبه القوية التي نفضتها، انغلق بابها.. اشتعل الضوء ورأت مهاجمها يتأملها بنظرة غامضة لم تفهمها..

لم تفهم فعلته ذاتها فهاجمته بنبرة محتدة يشوبها إرهاق بيِّن:

- أنت اتجننت يا إياد!..

اقترب.. بصمت..

واقترابه أصابها برعدة، تراجعت تتشبث بحقيبتها كأنما فيها أمانها، لا تدري أن الدنيا خلت من كل أمانٍ قد ينقصها، الحياة الآن توقفت عن المنح!..

واجهها، انتزع منها الحقيبة ورماها بعنف، كبَّل مرفقيها وجذبها يتجبر على بصرها بنظرة سوداء:

- مشيتِ من غير ما نكمل كلامنا..

ازدردت لعابها وهي تخشى القادم..

تخشى أن سِتر الماضى قد تعرى، وانكشفت الفضيحة.. لكن ذاك الذي غير اسمه؛ هل سيفعلها مع ما يمكن أن يخسره!..

الهارب ممن كان زوجها، من أختها التي بُترت علاقتها بها تمامًا.. وحتى أمها الغائبة عن اتصالاتها منذ أكثر من أسبوع وهاتفها مغلق!..

جاهدت للثبات، للتخلص من قبضتيه الغليظتين المخيفتين:

- تعبت، إياد من فضلك سيبني وامشِ، مش المفروض تكون هنا..

رفع حاجبًا مستهينًا متهكمًا:

- ليه!..

ومال ينفث لهيب أنفاسه بوجهها متجاهلًا تراجعها وارتعاشها:

- مستنية حد تاني!..

توسعت عيناها بصدمة، توقن أن الأمس الذي تركته لم يتركها.. بل اقتحم حاضرها ليهدمه على رأسها، يدفنها تحت ركامه، يقتلها.. هي لا تستحق الحياة.. أو النجاة:

- قصدك إيه!..

توحشت ابتسامته والشراسة تظلل ملامحه الوسيمة بظلمتها:

- أيمن مجاهد مثلا!..

للحظة لم تستوعب عمن يتحدث، تمتمت بشتات وصراعها مع قوته التي تقيدها لا يتوقف:

- أيمن مين!.. أنت بتقول إيه!..

زعق بوجهها وهو يدفعها لأقرب جدار، يضرب به ظهرها، يطوقها ويعلن بفجاجة:

- طليق أختك، مش معقول نسيتِ اللي بينك وبينه!..

لم تجد وقتًا لتفنيد أو رد..

قست أصابعه حول فكها، يعتصره دون رأفة حتى أوشك على تحطيمه:

- بقى أنا.. إياد كساب، واحدة زيك تعمل فيَّ كده!..

هطلت عبراتها مالحة.. مُرة.. مهانة، وهي تفكك قبضته بأنين:

- أنا مش فاهمة حاجة.. ابعد عني..

قهقه بسخرية ويده تضرب رأسها بالجدار بينما جسده يتسلط على جسدها:

- تفتكري فعلا ده قدر ولا صدفة!..

ثم همس بأذنها بهياج بارد أرهبها:

- عشيقك، جوز أختك اللي غويتيه وخنتِ جوزك معاه وهديتِ بيته وحياته، يظهر في مكتب الراجل اللي وقعتيه فيكِ من غير ميعاد!..

لامست شفتاه وجنتها وهسيسه يتحول لفحيح من نار:

- يا ترى أنا اللي حظي حلو إني كشفتك قبل ما ألبس فيكِ، ولا أنتِ اللي حظك وحش؛ قبل ما أتجوزك أعرف حقيقتك الوسخة!..

لم تستطع التحرر.. ظلت تبكي..

تنهار بين يديه وتود الهروب ولا يهديها الفرصة..

همست بكل ما كان في صوتها وروحها من بقايا:

- كدب..

أبعد رأسه ينظر في عينيها بازدراء:

- أمال تعرفيه منين!..

تلعثمت في جواب..

كيف تكذب نصف ما قال وتصدق على الباقي!..

كيف تعري ما وُوري تحت تراب الألم!..

بررت بحقيقة لا يمكنه إنكارها:

- أنا ما وافقتش أتجوزك..

ابتسم فبدا كشيطان على وشك نيل غنيمته دون وسوسة:

- ودي اللعبة، تخلي الدون جوان هو اللي يجري وراك..

دفعته.. لم يتزحزح، بكت أكثر وهددته بصراخ بتره بحقد.. بمقت.. بغضب ورغبة في الثأر:

- اخلعي قناع البراءة، خلاص عرفت حقيقتك المقرفة..

بتره بقبلة انتهكت شفتيها، لم يكن بها اشتهاء.. كانت ثورة..

كانت جحيمًا يود أن يحرقها فيه وفيما ينتويه..

تباعد لحظة ومقاومتها لا توازي عنف امتلاكه:

- ليه جواز، لما ممكن آخد اللي أنا عاوزه من غير تمن!.. أكيد مش جديد عليكِ..

وكرر القبلة..يده تتعدى على كل ما هو محرم..

تجتاح مفاتنها بفجور وهمسه البذيء يقتحم أذنها، تركل.. تلكم.. تبعده وتصرخ، تنهار.. تتوسله، تفلت منه فيتبعها.. يجذبها ويعيدها بين ذراعيه، تضربه بركبتها بين ساقيه فيطلق سراحها عنوة..

ينثني بشهقة عذاب وسبابه يلاحقها:

- يا بنت الـ***..

تصرخ به وبيدها سكين كانت بطبق فوق مائدة الطعام الصغيرة:

- اطلع برا، هاقتلك.. والله العظيم هاقتلك..

اعتدل بعسر يرميها بنظرة ساخطة محتقرة، يشد قامته ويلتفت مغادرًا بالفعل:

- ما أشوفش وشك في الشركة تاني يا...

سباب آخر فاحش تضاعفت على أثره دموعها.. مع صفعة الباب من خلفه انزلقت على الأرض، تنطوي في وضع جنين بائس.. تتمسك بالسكين، تضرب بقبضتها المكان من حولها..

الحياة منحُها ليست كاملة أبدًا..

تعطيك باليمين وتقتطع من عطيتها باليسار..

تهديك الألم بوسط الأمل..

الحياة ماكرة، تسمح لك بمذاق الراحة، تغدق عليك بشيء من نعيم.. ثم تضربك بغتة دون توقع لتقصم روحك..

الحياة قاسية، مهما تنازلتْ بنعمة أو تفضلتْ بكرم؛ ستذبح منك الوريد بلا رفة جفن..

الحياة يمكنها أن تبتسم..

وأنت يمكنك أن تصدق..

لأنك أحمق!..

تظن أن الاستمرار مباح، أن الحقيقة المدفونة لن يفوح عطن رائحتها مادُمتَ قد أجدتَ الدفن..

تتوهم أنك تمتلك بداية جديدة، فرصة ثانية، تتكيف مع فقدك الأول، تتعايش مع ألمك.. وتكمل مسيرك حتى لقاء المصير..

ألم أخبرك؛ أنت أحمق..

تلوت تصرخ بوجع، بانهيار تام..

تموت في تلك اللحظة كما ماتت من قبل..

في كل يوم تتجدد الميتة..

وفي كل يوم تظن أن هناك عودة؛ لكن لمثلها.. لا مهرب من الذنب، ولا خديعة لإثم..

لمثلها.. لا نجاة!..

**

الطعام الرئيسي للذئاب هو اللحم!..

ونوع اللحم يعتمد على أكثره توافرًا..

هذه حقيقة علمية لا تزيين فيها..

تبدأ من الفرائس الضخمة، وصولًا للأرانب والقوارض، وهي.. مجرد جرذ متاح، حتى يقتنص غزاله الهارب من بين مخالبه..

سيمزقها بأنيابه ولن يرحم منها صرخة فزع أو أنين ألم..

الذئب صبور لحد يفوق التصور، حيث يمكنه تتبع فريسته لأميال دون كلل أو ملل، يساير بطء خطواتها حتى يصل بها للمكان الذي أعده لالتهامها..

ينهشها حينها بانقضاضة واحدة، ثم يتلذذ بمذاقها على مهل..

كان ممددًا على أريكتها، ساعده يخفي عينيه، سترته على مقعد إلى جواره، وأنفاسه مسترخية، مرتاحة بدرجة مغيظة.. ومثيرة لكل ريبة!..

لا تفهم ما يفعله.. وتخشاه، لكنها تتحدى خوفها وتجابهه بعناد..

طيلة أسبوعين ظل يأتيها، كما في الليلة الأولى.. حين دلف من بابها لأول مرة، نظرته ويل.. ملامحه جحيم.. وصمته قبر..

ينهى عمله ويذهب لمنزلها، يقبع على ذات الأريكة بنفس الوضعية لساعتين، ينهض بعدها مغادرًا عقب إنهائه لقدح من القهوة الداكنة وشطيرة بسيطة يطلب منها إعدادها له بلباقة!..

في البداية استجابت بحذر مستغرب..

مع التكرار تسللت إليها رهبة، وتوتر.. قلق وارتباك، لا تدرك أبعاد ما يجري هنا، تجهل ما يدور بعقله عنها..

وفي كل مرة حاولت الحديث أخرسها، يهديها بسمة كتكشيرة وحش شرس، ثم يطلب شطيرته بكياسة تجبرها على الطاعة..

لكنها وصلت لحدود الغليان، عندما وجدته اليوم أمام مقر عملها بسيارته الفارهة، يطلب منها مجاورته، يقود بها لأحد أرقى وأفخم المطاعم التي لم تحلم في يوم بتناول ولو كوبٍ من الماء فيها، يمد يده لها بالقائمة ويمسك خاصته..

ثم بنهاية الوجبة يضع أمامها علبة مخملية صغيرة ارتعد لها جسدها..

لم تفتحها، ظلت ترمقها كأفعى ستقتنص عنقها بقضمة واحدة في أية لحظة، ابتسم حينها بشراسته التي تفزعها.. واستعاد علبته.. ذهب معها للمنزل، استرخى على أريكته، طلب قدحه الأسود المعتاد..

حينها فاض بها الكيل، صاحت بحدة فاقدة لثباتها الذي ادعته طيلة الأيام الماضية:

- ممكن أفهم أنت بتعمل إيه!..

كان جالسًا وساقيه ممدتين أمامه بهدوء، ذراعيه مفرودتين من حوله ورأسه ملقى للخلف مغمض العينين، مع حدتها ألقى إليها بنظرة فاترة:

- بعمل إيه يا لينا!.. باحاول أتعايش مع مراتي..

غُصت بالكلمة..

تفرقت أجفانها باتساع واجف وحقيقة ما يريده تباغتها..

تردد اللقب من خلفه بحشرجة:

- مراتك!..

اعتدل قليلًا، أمال عنقه ودلكها بتعب:

- أنتِ مراتي، ولا نسيتِ!..

ابتسم مشيرًا إليها بنظرة كادت تقسم بسخريتها:

- بتعرفي تعملي مساچ!..

- أفندم!..

لوح بكفه ببساطة كأنما ما يطلبه بديهي بين رجل وامرأته، وفي هذه المعادلة هي.. امرأته..

- مصدع، ورقبتي متشنجة.. الفترة اللي فاتت الشغل كان متعب جدا..

أهداها تأملًا هازئًا يشوبه غضب أجاد إخفاؤه:

- بعد الفضيحة اللي حصلت، كان لازم ألم الدنيا وإلا صدارة السوق هتضيع من مجموعة الديب..

عقبها لمس كتفه مجدِدًا طلبه:

- ممكن!..

انتفضت مبتعدة وجميع حواسها تصرخ بإنذار هروب:

- أنا مش مصدقة اللي أنت بتعمله، أنت فاكر إننا متجوزين بجد!..

رفع حاجبًا مستهينًا، اعتلت نبرته سلاسة باردة:

- القانون بيقول إنك مراتي..

استقام على حين غرة يقترب منها، يشرف عليها ولهجته تحاوطها بحصار خانق:

- ولا أنتِ كنتِ فاكرة إن اللعبة والـ double cross من غير تمن!..

شدت قامتها تواجهه دون هروب..

هي ليست فتاة ضعيفة، ستهرب من مواجهة ذئب جائع.. لقد تعلمت النهش في غابة الحياة وحدها، ووحدها يمكنها النجاة:

- طبعا في تمن، وأنت هتدفعه.. ولا ناسي إن باقي الصفقة لسه ما تمش!..

وضع كفيه بجيبي سرواله، هز كتفيه بيسر وجاوب بلا تعقيدات:

- مش ناسي.. بس معقول أنتِ عملتِ الخطة دي كلها، وضربتِ شريكتك في ضهرها عشان كام ألف!..

تراجعت تمط شفتيها وتجيب بتلقائية:

- أكيد لأ.. الطلاق هو اللي له تمن..

زوى ما بين حاجبيه بتساؤل لم تتأخر في الرد عليه بنظرة خبيثة:

- اتنين مليون جنيه؛ أكيد مش عاوز تكرر الفضيحة ومراتك تجرجرك في المحاكم عشان المؤخر والبلا بلا بلا ده..

صمت لثوانٍ ضحك بنهايتها..

ضحكة عالية مرحة مستمتعة، ولا تنكر أن ضحكته الرجولية جذابة لحد مذهل..

ضحكة أنهاها باقتراب جديد، بكفيه تحتويان وجهها دون تكلف أو اعتبارات، وكلماته تفتعل الدهشة:

- معقول!.. هو ده طموحك، مجرد ست أصفار!..

تغضن جبينها بينما يكمل بنبرة مغوية:

- يعني ماكنتيش طمعانة في عمار كله لنفسك!.. في ثروته!.. في اسمه وقصره ولقب.. حرم الديب!..

انتفضت تتحاشاه، تفلت منه، تستدير بفرار والفكرة تدوي بذهنها كطلقة مدفع عتيق.. ثقيلة، عالية، قاتلة..

بررت رافضة سخاء عرضه بحنق:

- لا طبعا، أنا بحب واحد تا...

توقفت عن الحديث بعدما أفشت سرًا هو نقطة ضعف..

ابتسامته هذه المرة تألقت لحد مرعب، التصق بظهرها وهمسه يجتاح أذنها.. جوارحها بالكلية:

- يعني في واحد في حياتك!.. طيب والفضيحة اللي حصلت!..

قبل أن تبتعد ثبتها قربه فتعانقت أجفانها برجفة:

- كل الأخبار اللي في الجرايد مش مذكور فيها اسمي صريح، ده كان اتفاقي مع مراتك.. الآنسة ل.ج.. وبس..

تكررت همساته المتسائلة باهتمام حقيقي:

- دي حقيقة ولا تلفيق برده!..

- قصدك إيه!..

أدارها بين يديه، يقتحم عينيها بنظرة مسيطرة:

- أنتِ آنسة!..

دفعته تبعده عنها وجوابها مستنكر، كأنها لا تصدق أنه يشكك في أخلاقها بالفعل:

- أيوة طبعا..

توحشت ابتسامته وإن لم تدرك هي مقدار وحشيتها:

- هايل..

مس وجنتها بظاهر كفه:

- يعني أنا هاكون الأول..

أجفلت من وقاحة جملته وصدقها كواقع لا مهرب منه، تراجعت تتمسك بقوتها وثباتها:

- أنا مش هاكون مراتك، إحنا هنتطلق.. وهتديني فلوسي اللي باقية من صفقة خروجك بالسلامة وتبرئة اسمك من تهمة الاغتصاب، واتنين مليون تمن الطلاق من سكات..

تحرك نحوها بتلكؤ راقبته بتوجس حذِر:

- يعني مش عاوزة تعيشي في قصر!..

اخترق المسمى عقلها متمسكًا بغريزتها الجشعة:

- مش عاوزة تعملي شوبينج من باريس ولندن وتركبي عربية أحدث موديل، تغيريها كل سنة!..

ازدردت لعابها والصورة تبدو لناظريها المتوهم وكأنها الجنة..

النعيم الذي تتمناه وتحلم به منذ نعومة أظافرها لكن الحياة بخلت عليها حتى بالفتات..

وبعدما أحبت، عندما انتقى قلبها رجلًا يسكنه كان مثلها، بل هي تعلوه رتبة في الشركة التي يعمل بها كليهما، ومرتبها يزيد عنه..

"مش عاوزة تقضي كل صيف في سانتوريني مثلا!"..

همسه الشيطاني يوسوس لطمعها بإغواء مباشر..

يعزف على وتر الضعف مقطوعة الاستسلام..

لم تنتبه لسخرية لهجته وهو يشبهها بلقب لطالما أحبته:

- تبقي سيدة القصر!..

كان جسدها مخدرًا بالكامل، وعيها مفقودًا، غائبًا في تيه المشهد.. ما يصفه لخيالها وأمنياتها، لواقعية الحلم المستحيل..

لكنها تشبثت بحقيقة أخيرة تقيها دفعة السقوط:

- أنا مش هابقى زوجة تانية..

انحنى يتمتم قرب وجهها، يغوي جشعها الراكض بإثارة الفكرة:

- وسن اختفت من حياتي خلاص..

ذاك تحرى فيه الصدق..

كل الوسائل التي حشدها لأجل إيجادها تبوء بالفشل كل يوم..

وهو أخيرًا أعاد شركته للوقوف على قدميها في السوق، لم يتوقف عن البحث ولن يفعل.. لكن هذه الوضيعة لها نصيبها من الافتراس..

رمشت بضعف والنهم لعرضه يتملك منها:

- يعني إيه!..

خدرتها حروفه وتمتماته التي استحوذت على ما تبقى من تعقلها، بصرها زاغ مع مُعتقد كونها زوجته الوحيدة:

- يعني مافيش غيرك..

وأخذ براءة شفتيها.. كان هادئًا، ناعمًا، مترفقًا بعذرية تدعيها..

ليس عليه أن يمزقها بقضمة واحدة، ربما يمكنه أن يلتهمها بتروٍ، ويستلذ بالمذاق دون عجالة..

تسلل بلطف، بتمهل.. حملها لغرفة نومها..

وهناك أجهز عليها حتى الثمالة دون غرق.. دون سُكر..

هناك نال الذئب وجبته حتى تمام الشبع!..

**

بعض الحب موسوم بالخلود، موشوم بالبقاء، وخلود العشق ألم.. مأساة.. عذاب..

كل أساطير العشاق لم يحدث فيها التقاء، وإن حدث انتهت بموت.. بفراق..

هي لا تريد لأسطورتها التي بالكاد بدأتها أن تنتهي.. فما بالها بخاتمة بائسة لا ترضي العاشقة بداخلها!..

محبطة نعم..

تشعر بالكثير من الخيبة ولن تكذب أو تنفي..

تخاف أن يستمر على درب قسوته، أو أن يصل الطريق به لتنفيذ كل وعيد تلاه على مسامعها..

لكنها قوية، عنيدة.. وستتمسك بالصفتين حتى تعيده إليها..

الأيام بينهما تمر بجفاء.. بفتور، يتجاهل وتتابعه بعينيها في توسل يتغاضى عنه، يقسو بالصمت ويعلن الحرب الباردة، فترجوه الهدنة..

تحملت وتخبر قلبها أن يستمر في تحمل المزيد، لأنها تحيا بالأمل.. الأمل في عشقه، قلبه، رجولته وأخلاقه ومبادئه..

كان يومًا عصيبًا في العمل على ما يبدو، عاد متأخرًا.. أخذ حمامًا سريعًا وخلد للنوم دون طعام، والغد عطلة نهاية الأسبوع..

الغد لها.. بدأته بوجبة إفطار.. مائدة حضرتها من كل ما يحب، عطرت المنزل ببخور عربي اعتادت عليه في سنوات خالية.. طافت بأرجائه كنحلة نشيطة تمنحه بهجة حضورها وتترك بصمتها في أركانه..

طرقت بابه برفق، فتحته بتردد ووجدته نائمًا بعمق، ملامحه المجهدة رق لها فؤادها فاقتربت منه بلا شعور.. جلست على طرف الفراش تراقبه، تحتويه بنظرة دافئة.. تسرب منها عشقها ليلامسه.. يلثم جبينه وقلبه وروحه..

مست خشونة وجنته بأناملها، فتح عينيه مع لمستها.. انعقاد حاجبيه وترها فتراجعت تبرر ببسمة خجول:

- صباح الخير..

انتفض يقفز خارج الفراش كأنما قربها منه يحرقه:

- بتعملي إيه هنا!..

تبعته تقف قبالته بذات البسمة وإن شابها هدوء.. احتواء لغضب متوقع، ورفض مرتقب:

- جيت أصحيك عشان تفطر، أنت نمت إمبارح من غير أكل..

ضحكته الخافتة المبتور كانت ساخرة.. متعبة:

- ده بجد!..

ابتسامتها ظلت تعانق شفتيها بصدق وإخلاص بينما تقترب منه:

- أيوة.. عشان أنا مراتك اللي المفروض أهتم بيك..

واحتوت فكه بباطن كفها، تمسد طرفه بإبهامها الناعم:

- وعشان بحبك..

تقطيبته الرافضة المنزعجة ارتسمت على جبهته، نقشت خطوطها المتعرجة هناك وحفرت تجاعيد الاستياء والتباعد.. تشبثت، تمسكت، تعلقت بكفه تفند الحقيقة، وتجيب سؤاله القديم:

- بحبك لأنك رجل المبادئ..

تجمد تحت وقع لمستها وحروفها، أراحت كفيها فوق كتفيه تستند إليه:

- بحبك لأنك أكتر راجل في الدنيا ممكن يستاهل الحب..

تخللت خصلاته عند عنقه وهمسها يسحبه نحوها كتعويذة ساحر أجاد السحر حتى منتهاه:

- بحبك دلوقتِ مش إمبارح لأن دُچى دلوقتِ مش هي دُچى إمبارح..

لم تقاوم الضمة.. العناق، ووجنتها تستريح عند نبض قلبه الذي تصاعد مع حديثها وقربها فأهداها الأمل وحلق بها مع الأمنية:

- كبرتْ ونضجتْ وعرفتْ إن الماضي مجرد عقبة في طريقها لبكرة..

صخب قلبه المصدق على ما تريده ويريده بالمثل لكنه يعاند؛ أراحها.. أكملت برقة:

- بكرة اللي بتتمنى يكون معاك..

تراجعت تغرق فيه.. في عينيه وعشقه، تغرق بين يديه ولا ترغب في عودة لسطح المشاعر.. هناك في العمق ملاذها وجنَّتها:

- قدرنا هادانا بفرصة تانية؛ بلاش نضيعها..

رجفة حدقتيه كانت تخبر عن حقيقة واحدة..

حقيقة انحنى لها فمه ببسمة كالعلقم.. كالتعب والشقاء والفراق والعودة:

- أنتِ عارفة مأساتي إيه!..

امتدت يداه تطوقانها بتردد، تقربها منها وتقترب منها، ترتعش كلماته كما نظرته:

- إني بحبِك، ومش عارف ممكن أتخلص من حبك إمتى أو إزاي!..

بإثرها أعلن بقنوط يغلفه الشجن وينطوي فيه الألم:

- بس غالبا هافضل أحبك لحد آخر يوم في عمري..

- دي هدية ربنا ليَّ..

همستها بعبرة وابتسامة وعناق، همستها وذراعيها تعتصران رأسه، تشب على أطراف أصابعها وتعِد بما تعلم أنها لن تتنازل عنه ما حيت:

- ومصممة إني أتمسك بيها لآخر يوم في عمري أنا..

تشنج جسده خفت مع ضمتها، الرجفة لم تختفِ، وهي أرادت أن تطمئنه.. لقد استعادته!..

حررته بعض الشيء ودموعها تتمازج مع بسمتها:

- بحبَك يا منذر..

في عقله ألف تصور.. في خياله مائة حكاية ونهاية..

في قلبه خاتمة واحدة.. هي!..

لأيها يخضع، لأيها يستكين!..

تجولت بأصابعها حول ملامحه تناشده الاستسلام للعشق، ترجوه القرب والبقاء..

مع ضعفه استجاب، يحبها..

لا فائدة من الإنكار، ولا نجاة من ذاك الهلاك..

شغف اللحظة كانت له السيادة، والغرام هو سلطان القلوب وحاكمها.. أخذها بكل جنون، بكل ما في الفؤاد من لهفة.. بكل ما في الروح من شوق وتوق..

عاد لنفسه بين يديها.. وعادت لأملها معه..

غاب فيها كما لم يغِب من قبل، غاب لدهر.. ثم أفاق وانتهت السكرة!..

انتهت ليجد أنهما بفراشه الذي قضى لياليه به وحيدًا يفكر بها، أنه خضع.. ضعُف.. رضخ للغواية!..

تصلب جسده وتراجع، يحملق في السقف متجاهلًا انطوائها فوق صدره، كل ما كان يموج بداخله في هذه اللحظة.. هذا الحدث وذاك المشهد الذي كان بطله ويناظره بعين ثالثة من بعيد رُغمًا عنه..

كل انفعال؛ تحول للقرف!..

أهذه هي النهاية!.. يخضع لسلطة الفراش!..

انتفض مع مرور الخاطر بذهنه، أبعدها وبحث عن ثيابه يرتديها، تأملها من وقفته وذبحها بلا رحمة:

- لأ.. مش ده اللي هيكون بينا، مش ده اللي هيرجعني ليكِ يا دُچى..

وإصبعه يشير باحتقار لفراش مبعثر جمعهما قبل دقائق..

جمع الحب والرغبة واللهفة..

اعتدلت تستر جسدها بالغطاء، تناظره بصدمة قاتلة:

- إيه اللي بتقوله ده يا منذر!..

غادرها باندفاع نحو الحمام، يزيل أثرها عنه بجنون:

- الحقيقة..

لم تصدق ما جرى.. استقامت بتهالك تعيد سِتر بعثرتها وشتاتها، تجلس على مقعد وبصرها مسلط على أثر ما كان بينهما..

قلبها يتلوى بين جنبيها بعذاب..

يصرخ فيها وروحها تتهشم لحطام..

هو يكذب، أو هي تتخيل.. أو ذاك كله كابوس!..

خرج يفتش عن ثياب، يلبس ما تطاله يداه بلا تمييز، يتغافل عن سكونها وهوانها، يهرب منها ومن نفسه وخنوعه لعشق لم يفُز منه سوى بكسر تلو كسر..

"طلقني"..

أمرت أو طلبت لا فارق.. وقفت خلفه تعلن رغبة الفراق، وهو تمسك بواجهة القسوة حيث لا نجاة من مذبحة الهوى الدامية دونها:

- أكيد الطلاق هو نهايتنا فعلا، بس مش دلوقتِ..

قسا وزاد واستزاد، ينحر.. يطعن.. يميتها كما مات من قبل:

- لما آخد ابني في حضني هاديكِ حريتك، هاخرجك من حياتنا لأن مكانك مش هيكون معايا ولا مع ابني..

صرخت بخبال وكل ما فيها لا يتحمل ما يهذي به، لا يستسيغ مجرد النطق:

- أنت مجنون!.. ليه بتعمل كده!.. ليه مش حاسس بيَّ!..

قررت تخطي محاولة إثبات الحب الفاشلة مرارًا وتكرارًا، وذهبت بمباشرة لما لن تسامح بحقها فيه أبدًا:

- أنا مش هاسيب ابني، أنت اللي هتخرج من حياتنا..

قبض على ذراعها وهزها بغلظة:

- لأ، بتحلمي.. ابني هيكون منك أنتِ..

نفضها من طريقه، يتناول مفاتيح سيارته ونيته رحيل:

- زي ما حرمتيني منه هاحرمك..

يثرثر بهذيان فعلي، برفض، بهوس:

- زي ما كنت بالنسبة لك مجرد وسيلة هتكوني كده بالنسبة لي..

- أنت سامع نفسك!..

تكرر صراخها وبطنها تتقلص بألم:

- أنا ما بقيتش عارفاك..

توقف يستدير إليها بعينين محمرتين كجمرتي شيطان:

- طلقني وحالا يا منذر..

- وإلا!..

هددت بما تنوي تنفيذه ولو وقف العالم كله يحول بينها وبينه:

- هاسافر ومش هتشوفني تاني..

هاجمها بانقضاضة مباغتة جعلته يواجهها:

- اتعلمي قبل أي تهديد؛ تكوني عارفة هتقدري تنفذيه ولا لأ!..

واختفى.. تبخر من المكان والمشهد مُسقطًا الخسارة كمبنى متهدم على رأسها وحدها..

كزلزال بقوة ألف ريختر استهدف هشاشة بنيانها..

لم تكن هذه هي الخاتمة التي تمنتها..

الوجع يفوق الصبر.. والحمل الثقيل يكسر الظهر..

سترحل.. ستتركه..

كأنما كتب عليها الهزيمة في كل حكاية، لكن البتر هذه المرة سيكون حاسمًا..

ذهبت لحمام غرفتها، وقفت تحت المرش باكية.. تختلط عبراتها بالمياه وتذوي بلا أثر، جسدها كله يؤلمها..

بطنها تنقبض وأحشائها تتمزق..

تنثنى بأنين، فتلمح خيط النزف يسيل فوق ساقيها، يذوب مع الماء، يزينه بحمرة الموت..

تشهق بهلع.. يتملك منها الفزع، تتشتت ووعيها يتأرجح..

ترتعش مع فكرة الفقد، تخطو خارج الغرفة الزجاجية، بنيتها محادثته ليعود، ليغيثها وطفلهما.. لكن متى كانت النية كافية!..

انزلقت قدمها، اصطدم جبينها بالمغسلة فشُج بنزف جديد، وسقطت على الأرضية المبتلة فاقدة..

ومفقودة..

(43)

مرحبًا بك في الجحيم..

وحسب!..

**

طريق الندم يبدأ بشك، بسوء ظن تؤمن به مستحقًا، بخضوع لمارد الغضب واستسلام لفورة هياج..

ثم ينتهي بخسارة!..

أحيانًا تكون القسوة هي سبيل النجاة، لكنها غالبًا درب الضلال..

مع كل خطوة يبتعدها كان سعير رفضه وبغضه لما حدث يخمد.. تهمد نيرانه حتى الانطفاء التام، وفي المقابل تحتدم نار الأسف..

مع كل خطوة كان يستوعب فداحة ما فعل.. بها وبنفسه..

كيف خسر رجلًا يعرفه وبات ذاك الوحش الذي نهشها دون رحمة!..

كيف سمح لسواد العشق أن يطغى على نقائه!..

كيف كسرها!..

كيف خسرها!..

انتهت به خطواته لسيارته، قبع خلف المقود لعشر دقائق بصره غائب في أفق معتم، لا يرى.. لا يسمع.. لا يشعر..

أنفاسه شبه لاهثة، مختنقة.. وضيقه يغُل عنقه..

زفر باحتراق، ترجل وعاد للمنزل بتردد، بحيرة وشتات.. بقنوط، يائسًا من استعادتها بعد شناعة فعلته..

هو لا يختلف في شيء عن اتهاماته التي رماها بها، سلَّم عقله وحاضره لماضٍ أسود، فهُزم في حربه معه وخسر الاثنين..

يتشبث بالوجع ولا يدرك العشق..

يتعلق بخيوط ممزقة من خديعة، ولا يعود لأرض الحقيقة حيث هي وقلبها وكلها له..

يموت بالسم والترياق بين يديه!..

دلف لغرفته التي تركها بها بتثاقل، عيناه تفتشان عنها، وقلبه يناديها بارتجاف حائر.. خائف من أن ترفض نبضه، لم يلمحها بها.. توجه لغرفتها ولم تكن هناك، لكن باب الحمام المقفل جعله يطرقه برفق، يناديها بهمس متعب..

كل ما فيه متعب حتى حشرجة صوته باسمها..

لم ينل جوابًا، وكان يعلم أنه لا يستحق واحدًا..

جدد الطرق والهمس وأعلن باعتذار خافت:

- دُچى، أنا آسف..

صمت..

بل سكون مقبض دون صوت، حتى خرير الماء معدوم..

توسلها بمناشدة:

- من فضلك اخرجي نتكلم، أنا...

وعجزت حروفه..

بمَ سيكمل حديثه الباهت وهو قد تجاوز كل حد!..

احتوت كفه المقبض، أداره ببطء خشية رفضها:

- ممكن تسمعيني!..

لكنها لم تسمع، لم تجِب، لم تكن واعية بالمرة وجسدها العاري المبلل منطوٍ على الأرضية، وتحته بركة من نزف!..

تجمد في وقفته لثلاث ثوانٍ بلا استيعاب..

المشهد قاتل، المشهد مقتص من حكاية رعب هو بطلها الأبله الذي دخل بيت السفاح بإرادته الحرة، والآن وحشه ينتظره في الزاوية لينقض عليه.. ليمزقه إربًا..

انتفض وركض وصرخ..

رفعها بين ذراعيه وضمها لصدره، ربت على وجنتها، ناداها ألف مرة وبحة تشج حلقه، تجرحه حد ألم لا يطاق..

جرح جبينها الغائر زين وجهها بالدماء، وهلعه لا يساعده على ردة فعل مناسبة..

استقام يحملها، يريحها بالفراش، يفتش عن ثياب ألبسها إياها كيفما اتفق، هاتف سيارة إسعاف، وتبعها حتى المشفى بقلب منقبض..

كل ما فيه منقبض.. مرتعب.. مذعور.. خاسر ومذاق الخسارة مرير..

وجم بقاعة الاستقبال يفكر، يستعيد صورتها.. يحلل عقله التفاصيل ويغفل عن إحداثيات الفقد، الأمر خارج حدود الوعي.. يبتهل لله أن تكون بخير..

لكنه يعلم أن الخير بعيد حتى وإن سلِم الجسد..

بعد ساعة أتته طبيبة شابة، رمقته باهتمام ثم أوضحت ما جرى بعملية طبية:

- آسفة سيد إدريسي؛ فقدنا الطفل.. لكن زوجتك ستكون بخير، نُقلت لغرفتها وستفيق خلال وقت قصير..

سددت الطعنة لأعماق روحه ولم تكترث، لم تر أين استقر السكين الثالم في دواخله، أردفت بتدقيق متشكك:

- كيف حدث جرح جبهتها سيد إدريسي!..

انتبه لها من ضياعه.. من متاهة هرول بين جدرانها دون اعتبار للتيه..

هو اختار.. هو قرر.. هو حدد المصير..

هو قتل ابنه!..

هز رأسه بشيء من لوعة تصدع معها كيانه:

- لا أعلم، كنتُ بالخارج وعدتُ لأجدها غارقة في نزيفها على أرضية الحمام..

مطت الطبيبة شفتيها، قررت مع تشوشه وبعثرة ملامحه:

- حسنًا، سننتظر حتى تفيق زوجتك ونرى..

تنبه لحديثها الذي تغلغل في لا وعيه ليسحبه لمنطقة حية:

- لا أفهمك!..

تبسمت المرأة بشيء من جمود ونظرتها تسيء به كل ظن:

- لو أثبتت السيدة إدريسي أنها تعرضت لأي نوع من العنف الزوجي سأضطر لإبلاغ الشرطة..

- ماذا!..

مع تفرق جفنيه بذهول كان الصدق يرسم محياه، لكن هذه ليست حالتها الأولى من العنف المفضي إلى موت..

موت امرأة.. موت طفل..

لن تتركه يذهب بلا عقاب، تخطته بحزم وتعبير صارم أخير:

- وحدها تمتلك قرار تبرئتك أو إدانتك سيدي..

هل ستبرئه!..

أم أنه يستحق أسوأ وأقسى عقوبة قد ينالها عاشق مذنب وجريرة العشق هي إثمه الأعظم!..

ربما عنفه لم يلامس جسدها، لكنه أحرق قلبها، أشعل في روحها النار وألقاها في أعماق جحيمه بلا محاكمة.. بلا مراجعة نفس.. أو عدل قضاء..

**

الدنيا مسرح كبير، والحياة مسرحية بلا تصنيف..

لا أحد فيها يجيد دوره بتقمص عظيم..

لا أحد يستحق دور البطولة..

مجرد حشود تتكوم بعشوائية في الأركان، لا يربطهم نص ولا يلتزمون بمسار..

في لحظة ما ظن نفسه بطل حكاية ناعمة، حكاية عشق ستدوم حد الخلود، حتى أنه عندما حدث في خيوطها تمزق لم يبتلعه.. لم يمرره.. توقف عنده وقرر الحرب..

لكنه كان قائدًا لا يتقن النزال، لا يقرأ الخصم ولا يحفظ خرائط مدينته.. انطلق بعبثية، بفوضى، بلا ترتيب ففقد الوجهة، تخبط بين جدران سجن أمنياته، واصطدم بقاع الوهم الذي أخبره أن الحقيقة تخالف الحلم..

أن الواقع لا يناسب الواهمين..

أنه كان ظالمًا وإن ظن في قصاصه لقلبه حياة..

أنه تجاوز كل الخطوط، بل حطمها وحطم معها سكناه بقلبها..

مع النظرة الأولى بينهما أيقن من الهزيمة، من تكرار ضياعها!..

فتحت عينيها ولاقته آتيًا عند باب الغرفة، رمقته بخواء.. بفتور.. بلوم وحزن..

وهي امرأة حزنها فتنة..

شجن عينيها سحر..

وضعفها ثورة سلمية على سلطة رجولته..

قبل أن يبادر أمسكت هي بالزمام، باغتته بقسوة الوجع الذي ينخر روحها:

- أتمنى تكون راضي دلوقتِ بانتقامك مني يا منذر..

اقترب، مد يده نحوها وتوقف..

لا يملك الحق في المناشدة، في لمسة تطمئنه عليها أو تريح خافقه النابض بيأس، تعثرت كل الكلمات وتناثرت الحروف..

العجز هو سلطان اللحظة وبطل المشهد..

"طلقني"..

انتفض من جلسته.. انتفض فؤاده.. انتفضت كل خلية في جسده مع كلمتها، نبرتها، حزمها الباهت وقوتها الواهية وصدق الرغبة!..

لم يقاوم، اندفع يتشبث بكفها عنوة، يحارب تباعدها ويتعلق بها:

- لأ.. مستحيل يا دُچى..

سحبتها بعنف حتى كادت تنخلع بينهما، سخرت منه ومن الفقد بينما يدها تلامس بطنها التي لم تنتفخ بطفل تمنته..

وتمناه..

- مستحيل ليه!.. لسه عاوزني أسدد الدين!..

تعانقت أجفانه، طرف بنظرة مشوشة، أنَّ بصمت ثم هز رأسه بإنهاك:

- سامحيني..

لم تستطع كبح جماح العبرة وألم الطعنة يتضاعف بين جوانحها، صرخت به تتمنى قتله والقلب يعارض.. الألم يتصدر الصورة والعتاب يتسيد المشاعر:

- أسامحك على إيه!..

مسحت دموعها التي لا تتوقف وصوتها يغوص في مستنقع الاختناق حد الموت:

- على شكك فيَّ!..

عددت آثامه دون مغفرة:

- على رفضك ليَّ رغم كل محاولاتي إني أثبت لك حبي!..

واعتدلت تتقوى بنفسها لنفسها:

- على الإهانة والرخص اللي حسستني بيهم!..

أعتمت نظرتها وبهت بريق المقل رُغم وهج الدمع:

- ولا على ابني اللي قتلته بإيديك!..

أشارت بيدها تجاه الخارج بحركة مبهمة وصياحها يكاد يفتت كيانها، يذبحها ويدمي أنفاسها المتلاحقة:

- كان المفروض أقولهم أيوة أنت اللي اتسببت في موته، أنت ظلمت وقسيت ومارست جبروتك من غير ما تفكر أو تهتم برد فعل..

تركت لعبراتها العنان حيث لا تجدي معها محاولات الكبت:

- من غير ما تحط ابنك اللي معتبره دين في حساباتك..

هزت كتفيها وأعلنتها فظة.. غليظة، بقلب نازف:

- أهو مات يا منذر.. ابنك مات..

مات وكان القدر..

الموت حق كالميلاد.. حق كهبة المنح..

لكن لكل حق سبب، وهو كان سبب الفقد..

ذاك لن تنساه.. لن تغفره.. لن تمرره..

كانت تعلم أن ضميره سيجلده، عذابه سيصليه أسوأ سعير، تعلم وتتمنى وتريد.. هو يستحق، لم تقدم بين يديه سوى كل عشق..

وحتى عندما تركته كان لأجله..

أما هو فاختار الضلال، حسم النهاية والخسارة هبطت على رأس كليهما..

طفلها مات..

أخبروها أنه كان صبيًا، اختارت له اسمه، ثيابه، وابتاع هو له مهده..

تحسست الفراغ الذي تركه بأحشائها، ظلمة خوائها دونه، انقلبت توليه ظهرها، تضم بطنها بساعدها وتتقوقع في وهن:

- سيبني يا منذر، مش عاوزاك هنا.. طلقني..

كلا.. لن يفعل..

تلقى كل طعناتها التي وجهتها لروحه باستسلام المذنب الآثم، أقر بالجرم ويشتهي العقاب.. عقابًا لن يكون إلا معها..

لن يعيد الخطأ..

لن يحررها منه.. لن يتحرر منها..

هي في العشق ملحمة، وهو رجل انكفأ بسقوط حر على عتبات الملاحم..

بإصرار تجاهل ألمه، أراد تخفيف ألمها، جاورها في الفراش وطوقها، ضم ظهرها إليه، أجفلت مع بداية استشعارها لثقله لكنها لم تستطع الابتعاد، لاحقها، منعها، احتواها وهمس لها بتسلط عاشق:

- أنا معترف بذنبي، موافق على أي عقاب إلا الفراق.. مستحيل تبعدي عني تاني..

تملصت منه..

قاومته وقاوم رفضها..

لهثت بتعب، جسدها المرهق لا يمنحها القوة الكافية للتحرر.. بكت بمزيد، ضمته تشتد حولها.. يديرها إليه، يترك صدره الذي انهالت عليه باللكمات تحت إمرتها..

ودت لو حطمت ضلوعه..

ودت لو نهشت روحه كما افترس أملها..

لعنته وصوتها المكتوم يصله ضائعًا، مكسورًا، طالبت بالفراق مرة وعشر، ورفض ألفًا، أصرت وتمسك.. طالبها بالرأفة.. بعدالة يستحقها حتى وإن عظمت جريرته:

- رصيدي عندِك ما يستاهلش فرصة تانية يا دُچى؟..

مسد خصلاتها بأصابعه، خللها ودفن وجهها في عناق أراد معه أن يلتحم بها..

أن تتمازج ذراتهما فيتحولان لجسد واحد.. يستوعب وجيعتها ويشاركها إياها متغاضيًا عما يعتصر نفسه من وجع:

- ماعملتش حاجة حلوة تشفع لي!..

تنفسها..

احتفظ بأنفاسه لهنيهة طالت حتى احتاج للهواء فزفرها ببطء:

- حب السنين اللي فاتت مش تمن كافي!..

جاهدت لتنأى عنه، أحبط محاولاتها ووجهها يستقر بين راحتيه، يمسح وجنتيها بإبهاميه ويغرق في موج عينيها الذي هجر شطآنه:

- معترف بذنبي، عارف إنه كبير والغفران مش سهل.. يمكن ظلمتك بس....

- يمكن!..

تمتمت بها محتجة، حانقة جعلته يعدل كلماته برفق:

- ظلمتك، بس الحب كان هو السبب الوحيد..

أبعدته ولازمت الجدية بحسم:

- لأ يا منذر، مش الحب.. الكبرياء والغرور والكرامة اللي فاكرني أهنتها..

جلست تنظر لأي شيء سواه بينما المرارة تقطر من حروفها.. تغرق فيها:

- حاكمتني بتهمة زور، ورغم إني دافعت عن نفسي وقدمت لك دليل برائتي؛ أصريت على حكمك الظالم..

والتفت ترمقه بنظرة غير مصدقة:

- أنت اتهمتني بالخيانة!..

نفت بإيماءات متتالية غير متوازنة:

- قبل كده طلبت الطلاق عشان ماقدرتش أحبك وكنت باظلمك معايا في كل لحظة..

صدقها افترسه.. ككل أسف لا يجدي، وندم لا ينفع:

- المرة دي أنا بحبك بس مش هاقدر أعيش معاك..

اعتدل يوازيها، يبتلع ما ترميه به دون شربة ماء، يختنق بغصته ويسعى لنجاة متمسكًا بطوق اعتراف الحب:

- أنا معترف بكل الذنوب، ومستعد أتحاسب وأتعاقب..

احتوى يدها بكفيه وضغطها بلين:

- بس فراق لأ..

كان صادقًا.. وكانت تتألم..

كان متشبثًا.. وكانت تتألم..

كان نادمًا.. وكانت تتألم..

الألم طغى على ما سواه بداخلها حتى استهلكها، أنهاها وامتص منها نبض الحياة..

أعلنت بصرامة لا تقبل الجدل، ما تريده في الحال:

- أنا محتاجة أبعد عنك..

- دُچى!..

- هابعد يا منذر..

بحزم صمدت على خيار الهجر، انتوت التنفيذ وعامل الوقت هو المانع وحسب:

- هارجع مصر، أفكر.. أحسبها أنا كمان، مش متحملة أكون قريبة منك دلوقتِ..

تغرس خنجر الرحيل حتى المقبض بعشقه، تراقبه ينزف ولا تتأثر.. لا تقترب، لا تحنو، ترغب في الهجران، وستفعل.. ستفعل وتبكي..

تبكي كل ليلة، تفكر وتعيش مائة قصة بخيالها عن صغير فقدته قبل أن تشعر بركلاته على جدار رحمها..

تبكي الحب.. تبكي الوهم..

تبكي الضياع والتيه والحلم الذي مات قبل أن تضمه بين يديها..

تبكي دورًا بائسًا كأن المخرج الأحمق لم يجد سواها لتعتلي خشبة مسرحه وتهذي به..

الحياة هذيان..

الحياة ألم..

الحياة فراق!..

**

من حقنا أن نحلم، ومن حق الحياة أن تنحر أحلامنا في المهد لحظة الميلاد..

معادلة موزونة لا يؤمن بها إلا من ذاق كلا الأمرين..

النصر والهزيمة.. القسوة والعاطفة..

الأبيض والأسود، ربما الكثير من الأسود..

شهقة الألم التي عبرت شفتيها كانت بطاقته لوشمها بالعار، امتلكها كزوجة.. وتأكد من صدق إدعائها؛ فبين ذراعيه رأى امرأة رُغم الصفاقة والكذب والخديعة.. امرأة لم يمسسها رجل من قبل..

خجلى.. مترددة.. مرتبكة.. وخاضعة باستسلام دون استجابة قوية تشي بسالف تجربة..

الطمع كان سلاحه..

سلاحًا فعالًا أتت ثماره بلا تأخير، الفتاة التي جمع كل ما يمكنه من معلومات عنها، بداية من كيف التقى أبويها في حفل بسيط تابع لأحد الجمعيات الخيرية، مرورًا بميلادها بمنتصف شقيقتين، إلى زواج والدها الثاني بحثًا عن صبي يحمل اسمه وميراثه المعدوم كعادة ذكورية لا تموت مع أي زمان راحل..

وصولًا لعملها بشركة مبتدئة، الزميل الريفي النازح من قريته للعاصمة، والذي تتخطاه بدرجتين، القصة الرومانسية الهزلية بينهما..

انتهاءً بها في فراش الذئب، لقمة سائغة بمذاق الجشع.. والثأر..

ثأرًا حرص على أن يكون شهيًا، أن يستمتع بكل قضمة منه، يمضغها على مهل.. ويبتلعها بتريث لنيل كمال اللذة..

ثأرًا انتهى مع لحظات ذروة الشهوة والنصر..

وتخلله حرصه على ألا تحمل جنينًا يهدد خطته بثغرة!..

ابتعد يسترخى بأنفاس متتابعة، ظافرة.. بريق عينيه داكنة الخضرة بهذا الوقت كاد يضيء الغرفة عوضًا عن الضوء الخافت الذي أصرت عليه بديلًا للساطع وهي بين يديه..

انكمشت تستتر بدثار حتى عنقها، تتنفس بلهاث والخجل يغمرها، خجلًا استهجنه.. في جميع الأحوال هي من بدأت اللعبة، هي من اختارت، هي من أهدت روحها للشيطان.. هي من باعت فضيلتها لمن يدفع الثمن..

ران صمت قصير، دقيقتين أو أكثر قليلًا، يتأمل سقفها وبصره يطوف في حجرتها الضيقة كشقتها كلها والتي تعيش بها وحيدة هاربة من خضوع أم وتسلط أب بمدينة أخرى..

استقام بغتة يجلس على طرف الفراش، يلتقط ثيابه ويرتديها بهدوء جعلها تتأمل ظهره، تحتار قبل أن تقرر السؤال:

- بتعمل إيه!..

تجاهلها لثوان تالية انتهى خلالها من إعادة مظهره كما كان، ساوى خصلاته في مرآتها، ومن جيب سترته التقط دفترًا صغيرًا عقدت حاجبيها لدى رؤياه، عاد يجاورها، يخط شيئًا ما قبل أن يمزق الورقة ويضعها على الوسادة قرب رأسها..

استيعابها لما يفعله ألجمها..

كان يحرر لها شيكًا استغربت دافعه ولم تفهم سببه!..

تناولته ورمقت الرقم به بدهشة، ازدردت لعابها باختناق، اعتدلت تراقب جفاءه.. صلابة نظرته.. جمود جسده، سكونه المقبض:

- إيه ده يا عمار!..

أمال عينيه إليها بنظرة وحشية مباغتة أجفلتها، امتلك فكها وهمس قبالة وجهها بفحيح شرس:

- عمار بيه..

اقترب أكثر، أنفاسه تلفحها كألسنة لهب ثائر:

- ما تنسيش نفسك..

ارتعدت وخلصت وجهها من قبضته بعسر، تراجعت غير واعية والسحر ينقلب على الساحر..

على هذه الرقعة هي في وضعية "كش ملك"..

مات الشاه..

- أنت بتقول إيه!..

صرخت بوجهه، عتمة النظرة بترت الصراخ واللعنات وكل سباب العالم الذي احتشد بحلقها فغُصت به، تناول الشيك.. دفعها لتستوي على ظهرها بازدراء، رماه فوقها ببسمة جانبية محتقرة فحمله الهواء وأسقطه ببطء:

- أغلى ليلة مع مومس..

- لأ..

همستها باحتضار، وأتم هو الذبح:

- أنتِ طالق..

تشبثت به بغتة، تنشب أظافرها في وجهه، عنقه، تبكي والجنون بات حتميًا مع صياحها الأبح:

- هاقتلك.. أنت قلت لي إني هاكون مراتك..

قبض على معصميها يكبلهما، يضغطهما بغلظة حتى أوشك على كسرهما، تخلت عن عنقه التي خدشتها عنوة مع قساوة أصابعه والنار تحتدم بين جفنيه فتحرقها:

- تفتكري أنا ممكن أتجوز عاهرة!..

أعادها لوضعها الأول وثبتها بامتهان:

- واحدة باعت شرفها بالفلوس!..

- أنا مش عاهرة، أنا مراتك..

قهقه بسخرية والقرف يخط حضوره فوق ملامحه الوسيمة:

- الورقة العرفي مش جواز..

قاومته بعنف..

بكل ما فيها من قوة، ركلت الهواء ويديها أسيرتين بيديه:

- القانون بيقول إنها جواز..

هددت بما تظنه نقطة ضعف، عامل ضغط لن يبلى:

- هافضحك في كل مكان، والقانون هيكون في صفي.. هاخد حقي منك..

مال فجأة، ارتعبت وهي تظنه سيكرر الامتلاك بمزيد من مهانة، لكنه توقف عند أذنها، همس بنبرة إبليسية تليق بضارية، كل قوانين الوحوش تقول أنه غير قابل للترويض:

- هتقولي لهم إيه!.. جوزي طلقني!..

ارتبكت والجواب بعيد عن ذهنها المشتت..

أردف بينما يتراجع.. يحررها وينهض واقفًا جوار الفراش، يمسد عنقه المخدوش ويناظرها من علٍ بتقزز:

- طلاق، وشيك بمؤخر ما كنتيش تحلمي بيه.. من جوازة اتعرف في كل الجرايد إنها عرفي، متعة..

- هافضحك..

أنَّت تكررها باكية، وانتشى هو بظفره:

- جربي، بس المرة دي الديب مش هيكتفي بده..

جذب الغطاء دون مقدمات، يعريها وسبابته تشير لحمرة عذريتها..

شهقت بهلع تفتش عن ستر، تحجب به عارها، تخفيه عن تبجح عينيه التي جالت فوق جسدها بقصد، يتأمل أثر مروره الذي تركه عامدًا..

ارتدت ثوبًا كان أول ما طالته يداها، ارتجفت في مواجهته حين تمم هو الذبح بفظاظة:

- بمبلغ بسيط ممكن ترجعي زي ما كنتِ، وحبيب القلب يلبس يا ربة الصون والعفاف..

الوصف كان بذيئًا، حقيرًا رُغم اعتياد اللفظ..

ضاعف من دموعها، ارتعشت أكثر وهو ينهي المشهد السخيف من تلك المسرحية البلهاء:

- يا تاخدي الشيك ده بباقي فلوس صفقتك مع المحامي، يا ترفعي قضية نفقة آخرها ملاليم.. والمرة دي الفضيحة هتطولك..

غادر بخطوات واسعة ثابتة وصوته يرحل معه بخفوت تدريجي:

- احسبيها صح، عشان على الأقل تبقي قبضتِ التمن..

صفق باب منزلها من خلفه بلا اكتراث لنحيبها الذي وصله، بلامبالاة بنشيجها وتحطيمها لشيء ما بدوي مزعج، هبط الدرج واستقر بسيارته..

هدأ جحيمه بعض الشيء، لكن ذيل الأفعى الذي دهسه لن يغنيه عن بُغيته، عن نيته في قطع الرأس..

الرأس مختفية..

تلاشت.. تبخرت.. انمحت من خريطة الحياة..

أقسم أنه سيجدها..

وحينها لن تملك من أمرها مثقال ذرة من نجاة، أو أمل..

بتر أفكاره رنين هاتفه، أحد محققيه يضيف إلى معلوماته جديدًا؛ لقد عرف من أين أتت بالمال!..

الآن وجهته بقية الجسد..

الآن حان دور لص الأنساب "نضال الزيات"..

**

الحياة ليست جيدة في المطلق، كما أنها كذلك ليست قاسية حتى الأبد..

الخالق لا يلقي بأثقال الابتلاءات فوق كتفيك إن لم يكن يدرك أنك أهل لتحملها، أنك تستطيع.. ستحيا.. ستستمر.. ستنجو مهما تخبطت بين الدروب حائرًا، تائهًا، ضالًا عن الطريق القويم..

مستبيحًا مُلك الشيطان، ومتخذًا من جلد الضواري سترًا لا غنى عنه..

مهما سكنتَ الجحيم، أو بغضتَ النعيم..

مهما ظَلمت، أو ظُلِمت..

مهما تعديتَ بغير حق، أو نُهِبتْ جميع حقوقك في زمان ما..

الخالق يمنح بوسط المِحَن، يرسل إليك بالخير في جوف الخوف والخسارة والفقد..

الخالق ودود، رحيم، يعيدك إليه دومًا باللين.. أو الشدة، كل ما عليك أن تقرأ رسالته في حينها.. أن تستوعبها، وترى العظة..

أن تستجيب!..

وقد قرر أن يستجيب..

اختار البقاء.. اختار طفليه..

هو لعنتها، وهي...

هي الشمس.. إن كان غروبها محتم؛ فشروقها منتظر..

لم تنطفئ، ولن تنطفئ.. الكسوف مرحلة، حاجز بين البشر والضوء، بينهم وبين والدفء وعلامات الحياة.. حجاب يبين لنا أننا لن ننجو دونها..

دون الشمس..

ولأن الشمس قانونها غروب.. شروق.. تتابع..

عليه أن يترك لها فرصة اعتلاء كبد السماء كملكة لا يستحق العرش، ولا يليق به سواها..

قبل ليلتين كان مستلقيًا على أريكة المعيشة في ظلام دامس، لمحها تغادر الغرفة بخطوات متثاقلة وبطنها المنتفخ كلما مرت من أمامه يحتجز بصره على ضوء المطبخ، تحضر زجاجة الصغير بهدوء روتيني معتاد، حين اعتدل يضفي بعض النور على المكان انتفضت وأسقطتها..

انكسرت تحت قدميها، وقفت فوقها ترتعد برهبة فاستقام يساعدها..

يراقب تصلب جسدها الكلي، يبعدها بحرص حتى أنه رفعها عن الأرض لعدة سنتيمترات لم تجادله فيها بينما يتفحصها بدهشة..

دهشة لم تستمر طويلًا وهو يدرك أن الصورة مشوهة..

أنها مذعورة!..

لم تنبس بحرف، غادرته على الفور وأغلقت بابها عليها قبل أن يفطن لمسوغ الذعر البغيض الذي حفر وجودًا قاسيًا على ملامحها الشاحبة.. هل تخشاه!..

أم هناك آخر!..

آخر أيقن من احتلاله لكوابيسها وهو يتابع انتفاضة جسدها بفراشها الآن، أنينها جذبه من الخارج، وقف على رأسها يرى قبضتيها تتمسكان بالشرشف تحتها، ترتجف.. تئن بعذاب.. تحارب عدوًا في أحلامها بين الحقيقة والوهم..

اقترب ولمس كتفها، همس باسمها، لم تستجب فدفعها بقوة أكبر أفاقت على أثرها بصراخ متصل حد أنه كمم شفتيها بكفه ونبرته تخرسها بحسم:

- أنا يعقوب..

لا يعلم هل اسمه يطمئنها أم يخيفها أكثر!..

هل هو وحش ليلها كما كان من قبل!..

هل هي بخير!..

ظلت ترتعش، عيناها متسعتان بفزع، تلهث وأنفاسها تلامس كفه كالنار.. أبعد يده ورفع كليهما قبالة وجهها في محاولة لمنحها شيئًا من طمأنينة..

ألقى بنظرة جانبية مخطوفة تجاه النائم قربها، لمحه يتململ قليلًا ثم يستأنف نومه، عاد إليها فوجدها على حالها وإن هدأت بعض الشيء..

تلعثمت بسؤال متحشرج:

- أنت بتعمل إيه هنا!..

تمتم بلهجة جامدة، خالية من كل انفعال مباح:

- سمعتك بتحلمي..

مسحت وجنتيها وقد أدركت أنها تبكي بلا شعور:

- ده اهتمام!..

أدار وجهه نائيًا عنها، يزفر أنفاسًا ضائقة، يستلهم صبرًا ويتجلد متغافلًا عن تهكمها المجهد:

- عاوز أتكلم معاكِ..

رمقته بنظرة مرتابة..

لا.. لا تريده..

لن يلمسها ما حيت حتى وإن أُجبرت على حمل اسمه حتى الموت، رأى نظرتها فأدرك ما تفكر به.. زم شفتيه ودمدم بهدوء عجيب:

- مجرد كلام يا شمس..

سحب يدها وأجبرها على الوقوف، جذبها فتبعته، أغلق باب الغرفة على ابنها وحثها لتجلس على الأريكة، ظل واقفًا يفكر..

امتد به الوقت حتى ملت..

استقامت تتوجه للمطبخ، تتجرع بعض الماء البارد، تراقبه من هناك بحذر حينما تحرك يدور في شرود، يغرق بدوامة أفكاره، تبتلعه ولا تعيده للسطح، تكرهه على الغرق مهما جاهد للطفو..

عادت لجلستها تحت وقع نظرته المبهمة، كادت تسأل عما يريد لكنه بادر بجدية عازمًا على التنفيذ:

- أنتِ محتاجة دكتور نفسي..

ابتسمت بمرارة ويدها ترتاح على انتفاخ بطنها:

- هو ده اللي عاوز تقوله!..

مسح وجهه والكلمات تعانده..

ربما لأول مرة بعمره كل حروفه مشنوقة بأنشوطة التردد..

الإقدام والتراجع.. الرغبة والواجب..

هوى النفس واحتياج الواقع..

خطا يقترب، يستقر فوق الطاولة المنخفضة أمامها، يحتل بصرها ويتقيأ الخبر كنزف الروح:

- أنا موافق على الطلاق..

رد فعلها كان كما رسمه تمامًا، وإن استفاضت تقاسيمها بإضافة عدم التصديق!..

مشدوهة.. مصدومة..

متشككة وظنها به أسود، اعتمدت على المسند بتعب ونبرتها تلومه:

- ما تكدبش عليَّ..

- من يوم ما اتجوزتك ما كدبتش عليكِ..

انحنى يرتكن بمرفقيه لركبتيه، يحاصرها بدُجنة مقلتيه:

- ما بحبش الكدب..

- ليه!..

نظر إليها بسكون فجَّر حنقها، امتناعه عن الجواب ليس مطلوبًا بهذه اللحظة.. لن تقبل به، لن تخضع بصمت كما أُجبرت من قبل..

كررتها بحدة ضاقت لها عيناه، نهض يوليها ظهره.. يزفر.. يشهق.. يتوالى ضجيج أنفاسه عاليًا وصخب أفكاره يثير غضبه..

مسح وجهه، خلل خصلاته بأصابعه واستدار إليها يكشف شيئًا من تاريخه، من صحيفة أوجاعه وذنوب الأمس، يطوق طفليه بأحشائها بضمة خلف أجفانه ويسرد رواية ماضيه الممقوت:

- عشان ولادي..

كافحت لتجد وضعًا مريحًا بذاك الثقل الخانق، وضعته تحت مجهر نظرتها تنتظر التتمة، وهو استطرد بفتور:

- من زمان وأنا دايما باختار نفسي، باقول فيها إيه لو العالم كله مات عشان أنا أعيش!..

قطبت بنفور لم يستنكره..

كيف بامرأة العاطفة أن تستوعب الحرمان!..

كيف بالدفء أن يدرك وجيعة الصقيع!..

كيف بالجنة أن تتذوق استعار جهنم!..

- كل مرة كنت بادوس على أي حاجة وأي حد يقف في طريقي، عشان أنا أحق بالبقاء..

تابعته يخطو نحوها، يدنو.. يجاورها، نظرته تغيب ويغيب معها:

- بس دلوقتِ العقبة اللي اتحطت في طريقي؛ ما أقدرش أدوس عليها وأكمل..

عاد لواقع المشهد ببسمة باهتة:

- المرة دي مش هاقدر أختار نفسي..

طرفت بوهن غير فاهم، تركت له الدفة، المسار والمصير..

لم تكسر صمتًا قصيرًا طال الصورة، حافظت عليه تهبه راحته دون فضول.. دون سؤال:

- أنا عاوز أم ولادي تكون قوية، تقدر تحميهم.. تربيهم على القوة دي..

وأبعد ناظريه عنها، صوته يتوحش ونبرته تقسو:

- مش عاوزهم يكبروا شايفينها مكسورة، ضعيفة، مجبرة تعيش مع راجل ما بتحبوش حتى لو كان الراجل ده أبوهم..

فتور بسمته تبدل لسخرية..

يسخر من كل حكايا العشق، القديم منها والمنتهي بلا خاتمة:

- حتى لو هو مش مؤمن بالحب..

ثاب لعينيها المندهشتين بصدق خالص مكررًا:

- اخترت ولادي يا شمس..

هل يمكن أن تكتب لها راحة!..

هل تنجو من أعاصيره وثورة براكينه!..

هل تخرج من حيز العتمة الضيق، إلى براح النور حيث النجاة!..

هل تنكسر الدائرة التي تجمعها به!..

ألف استفهام واستفهام خشيت أن تفكر بإجابة أحدها، تناءت عنه بحيرة تائهة.. تريد التصديق، تتمنى، تحلم.. وتخشى أن تكون تلك هاوية الكذبة العميقة، التي لن يرحمها الارتطام بقاعها الصلب البعيد..

تجولت فوق قسماته بوجوم، تفتش عن تهكم.. عن خدعة.. عن حيلة سبق وقصم بمثلها قلبها، تؤجل التصديق حتى تثبت الحقيقة بكل برهان ممكن..

ولم تجد.. هناك، بسواد حدقتيه كليل غائم لم تجد سوى الحزن..

الهزيمة!..

وفي ركن ضئيل، رأت الخوف ممتزجًا بالأمل..

تركها تتفحصه كما تشاء، لم يقدم خيرًا من قبل.. الشيطان غير أهل للثقة، وهي لا تعلم أبعاد الحكاية بعد!..

سمعها تسأله بهمس خافت:

- أنت مين!..

التوى جانب ثغره بانحناء وازى ضحكة مسروقة، متهكمة:

- جايكوب..

نطق اسمه متجاهلًا عروبته، شد جذعه فأجبرها على رفع وجهها إليه:

- زي ما أنا ما اتغيرتش..

وتوهجت نظرته مع مرور الفكرة بعقله.. بقلبه.. بكيانه:

- الفرق إني بحاول أكون قد مسؤولية لقب.. أب..

بعدها غادر جوارها، وقف يواجهها، يعقد ساعديه قبالة صدره ويتمم عرضه بجدية:

- قبل ما الطلاق يتم في شرط!..

بهت حماسها، جُذت عنق أملها حديث العهد مع ما قال، تراجعت تسخر بقنوط:

- طبعا..

- اسمعيه الأول..

زوت حاجبًا وترقبت شرطه بأسى، سحب نفسًا بطيئًا وأطلقه مع كلماته:

- هنسافر اليونان..

اكتنفها استنكار حائر، كيف سيحررها منه ويصطحبها معه!..

هزت رأسها بلا إدراك:

- يعني إيه!..

عاد لجلسته على المنضدة ليواجه بصرها بتطويق مسيطر:

- أنا مش هاقدر أعيش هنا خلاص، ومستحيل هاسيب ولادي يتربوا من غير أب..

استنارت مع تصريحه للمغزى؛ تذكرت الوالد العائد..

لم تلتقيه في مرة لكن الخبر وصلها..

عنه وعن أخت صغرى، يعيشان بالقرب!..

لم تفكر كثيرًا في الأمر، كان بها من الألم والفكر ما يكفي ويفيض، عقلها مكتظ بصراعات شتى، وقلبها مزدحم بمشاعر فوضوية، مبعثرة..

الآن أدركت..

استطرد هو يشرح ما ينوي فعله، تسافر معه.. تحيا بمنزل منفصل مع الأطفال، سيكون غير بعيد عنهم، يراهم يوميًا، ويقضون معه العطلات..

ستكون حرة.. وقريبة.. وولديه بأحضانه..

وضع نصب عينيها مخططًا كاملًا لغد محسوم قدومه..

إما أن تفعلها حرة منه، أو تفعلها معه مرغمة!..

ستذهب معه شاءت أم أبت، لكن هناك مفاضلة؛ زوجة.. أو لا..

يفرد تحت قدميها بساط الاختيار، ثم يسحبه بتقنين ما تختار، وكيف لها أن تفكر مرتين!..

تمتمت خاضعة لنهاية ربما من زاوية نظرها هي طوق نجاة:

- يعني هاسيب بلدي!..

رد بصرامة مقتضبة، وهو يعلم بمقاطعة أهلها لها:

- ليكِ مين فيها!..

رمته بنظرة بائسة:

- هاعيش وحيدة.. زيك!..

تراجع بحسم وشذرات من مرارة تنتهك صوته:

- في ناس كده..

استقام وأقامها قربه.. يوقن من موافقتها، ستهرب منه.. تفارقه مهما كان الثمن، ذاك ما يعلمه عن يقين، أكمل بنبرة مظلمة كقاع بحر ميت:

- قدرها الغربة..

تنهدت مشوشة لا تسعفها أفكارها بقرار:

- وولادنا!..

فكر لثوان يستعيد حديث أخيه قبل أيام، ردده شاردًا:

- يزن بيقول إن ولادنا لازم يكبروا وهم عارفين بعض، عارفين إن لهم ضهر، سند.. لو وقعوا هيرفعهم.. عارفين إن عندهم عيلة وأصل..

تساءلت نظرتها بتشتت جاوبه بحزم.. بوعد:

- أنا مش هامنع الولاد عن عيلتهم..

تنفسها لمرة أخيرة.. ابتلع الهواء المحيط بها، يحبس عبيرها بصدره..

هي انتصاره..

هي هزيمته..

هي الغد..

هي الفقد..

هي النشوة والسكرة والفكرة..

هي السبية والسلطانة..

هي الشمس، وهو الظلام.. والنصر تنازل لها عنه!..

هي لم تعُد له..

تعانقت أجفانه إثر تنهيدة متقطعة:

- فكري...

- موافقة..

بترت عرضه باستجابة.. باقتناص.. بتشبث..

ابتعد خطوتين وجسده يتصلب، يشد قامته، يسدل الستار على عرض لم ينل تصفيقًا من جمهوره الهارب:

- هنسافر، تولدي.. ونتطلق..

تشككت ومزق الشك بصرامة شرسة:

- ما بخلفش وعدي يا شمس..

ذاك الوعد هو المرسى لسفينتها التي تبحر عباب بحار الوجع منذ سنوات..

هو ميناء السلام..

هو الحقيقة بعد وهم..

والأمل إثر ألم..

هو جناحي العصفور الحر في سماء الشجن..

هو حياة..

**

الحب هو تلك التفاصيل الصغيرة التي يحفظها كل عاشق من معشوقه عن ظهر قلب..

الإفاقة الناعمة كل صباح، تتمطى كهريرة مدللة، تتثاءب وتفتح عينيها لتلاقي عينيه، تبتسم بنعاس والتتيم لا يفارق نظرتها.. تقبل وجنته ويبدأ قبلاته المتناثرة من مفرق جبينها..

الحب هو مراقبتها في كل ما تفعل كلما امتلك الوقت..

تمارينها شبه اليومية، بسمتها النقية التي عادت تغمر ثغرها وكامل قسماتها بصفاء، عنايتها بالصغير وتقربها منه..

مشاغباتهما معًا، فواكه البحر التي تقلب معدته وتتلذذ هي بها..

عصائره المبتكرة، حين تقف إلى جواره وتشاهده يحضرها باستمتاع.. الغمزة من بعيد..

حركة الشفاه بهمسة حب.. أو همسة وقحة..

القبلة المحلقة مع نسمات الهواء..

يفتش عنها وتفتش عنه، يلتقيان فتتوقف آلية عمل الكون، ويتباطأ دوران الأرض..

الحب هو خصلاته الطويلة الداكنة المشعثة بعد نوم، هو ذراعيه اللتين ترحبان بالضمة عقب كل فراق ولو قصُر..

هو طفلهما بأحضانه، يهتم به كي ترتاح هي..

هو جنونها وصبره، عنفوانها وقوة احتماله..

هو تحرشه بها وسط الجموع في جرأة تهديها بسمة مرغمة وإن سبَّته في غفلة من الحضور.. الحب هو كل ما يجمعهما معًا..

الحب هي..

الحب هو..

وتلك حياة..

يوم مجهِد شارف على نهايته، نام الرضيع بمهده، أنهت حمامًا معطرًا، صففت شعرها وجلست تدلل جسدها بشيء من طقوسها الخاصة..

كان في اجتماع مغلق مع جده وأخيه الأصغر الذي علمت برغبته في العودة من حيث أتى، بصحبة زوجته والأطفال.. لم يُثِر الأمر بها الكثير من المشاعر، فلا يزال شيطان الجحيم يهديها رهبة!..

دلف للغرفة بهدوء، وجدها على طرف الفراش، تمسد ذراعها بكريم جذبت أنفه رائحته، اقترب يتشممه مهمهمًا بلذة.. تراجعت تسأله بفضول أنثوي لا يخلو من اهتمام:

- هيسافر!..

ابتعد يومئ بإيجاب، نظرته يشوبها شيء من حزن تفهمته..

استقامت تربت على كتفه، تهدي فكه لثمة داعمة باحتواء:

- اليونان مش آخر الدنيا..

اندست بالفراش تتحضر للنوم بينما يراقبها، بصره مسلط عليها بنظرة غامضة توجست لها.. راقبت سكونه بحذر قبل أن تستفسر:

- يزن.. بتبص لي كده ليه!..

ابتسم بغتة بعبث ماكر:

- فاكرة طريقة عمل الحفيد في المنزل!..

احتارت لثوانٍ، استوعبت بإثرها مقصده.. تفرقت أجفانها فأظهرت العسل الرائق الذي يعشق الغرق فيه بمقلتيها، دنا خطوة بطيئة ونظرها لا يتركه:

- إيه رأيك أعلمك المرة دي؛ طريقة عمل الحفيدة وفي أربع خطوات!..

- يزن..

تمتمت تنهره بخفوت، هي منهكة وكل ما تشتهيه كان النوم، لكنه تغافل عن ذاك كله بخبث، توقف عند طرف الفراش ومد يده يخلع قميصه الخفيف بحركة سريعة نفضتها:

- الخطوة الأولى..

شهقت مع وثبته ليحاصرها، انفلتت منه، أنزلت قدميها بنية ركض منعه وهو يعيدها، تتوسع بسمته بلوم:

- كده!.. الطبخة باظت، وهننط خطوتين..

حجب اعتراضاتها وتذمرها بامتلاك ناعم أجبرها على مجاراته..

كل حواسها باتت له.. جوارحها ملك يديه..

وقلبها لا يتوقف عن النبض بهواه، واللهاث باسمه..

هو الرجل الذي حدد لها خرائط العشق والجسد، الذي كتب معها تاريخ الرحلة ومسارها، ثم احتل بجدارة بطولة الأسطورة..

هو رجلها..

استرخت فوق صدره، تطوقه ويضمها، أصابعه تتخلل خصلاتها وهمسها يتسلل لمسامعه بصوت ناعس:

- I love you..

حط بشفتيه على رأسها بتمهل:

- مش أكتر مني..

عاندته ببسمة متعبة:

- لأ.. أكتر..

ضاعت في دهاليز النوم بهمهمة تتعلق به.. بوجوده.. بقلبه:

- you are my comfort zone..

لم يعجبه التعبير رُغم رقته، أبعد وجهها يوقظها، يجبرها على النظر إليه منزعجًا:

- comfort!.. ليه هو أنا الست الوالدة!..

ضربت كتفه وقررت فراق عناقه كعقاب، بتره باحتضان اعتصر فيه ضلوعها:

- أنتَ.. بجد يعني..

كانت تدمدم بسباب غير مفهوم تَبَسَم له، حافظ على وجودها بين ذراعيه هاتفًا بشقاوة:

- خلاص.. خلاص يا زلابيا..

زمت فمها وكررت السباب الذي لم يفطن لمحتواه، قرر إغاظتها بعمد:

- طيب ما ينفعش أبقى الـ sexy zone.. أو الـ hot zone!..

كان يعلم أنها ستعود للكمه ومحاولة الابتعاد، استحوذ على وجهها وسرق منها قبلة تخللتها ابتسامة مشاكسة.. ضمها واعتذر برفق، سكنت قربه والنوم يحتلها بسطوته..

هي الدفء..

هي الجنون..

هي النبض..

هي الأنفاس..

هي الحلم والأمنية والراحة..

هي السلام..

هي مصالحة القدر لقلبه الحزين..

هي الهدية..

هي البداية والنهاية والسُكنى..

هي الحياة..

**

في الحروب لا يحلو مذاق نصف انتصار..

لا يوجد ما يسمى بنصف هزيمة..

في الحروب لا حلول وسطى..

إما الظفر كقائد فاتح، أو الخسارة كجندي هارب..

في الحروب كل الوسائل مباحة، وجميع الغايات مرتقبة..

في الحروب لا فضيلة، لا مبادئ.. هناك فقط ضحايا، ونزيف دم..

بحربها أعلنت النصر بعد معركة واحدة حسمت ختام الحكاية، أسدلت الستار وأكُف جمهور مسرحها الجحيمي تلتهب بتصفيق حاد..

لقد دحرت الأمس، وأعلنت احتلالها للغد بينما تطأ اليوم تحت أقدامها وتمر..

تسحق كل عاطفة، تُجبر سلطان الرغبة على الزحف إليها، لا تقبل بالخنوع أو الاستسلام لسيطرة أحد.. مهما كلفها الأمر..

إلا القدر!..

ذلك الذي يظهر، ويباغت عندما نظن أننا محصنون ضد الخسارة..

في حربها اعتمدت استراتيجية النفس الطويل، الصبر والتروي، حتى وصلت للمبتغى.. ثم تدخل القدر يعاندها، يكسر انتصارها المكتمل، يسحقه.. بثغرة!..

وقفت بمكتب مساعدته تنتظر لقاءه، ترفض عرض الاسترخاء بمقعد، كان في اجتماع عمل مغلق.. تأملت المكان الحديث نسبيًا، وابتسمت باستهانة..

مؤسسة "الرشيدي" للمحاماة والاستشارات القانونية..

غرف أنيقة متجاورة، يفصل بينها جدران نصفها من الزجاج، أجهزة حواسيب باهظة، موظفين منتشرين هنا وهناك بأناقة تامة..

رائحة الثراء تفوح من الحوائط والأثاث جوار الفخامة والعملية الجادة..

"مالك" لا يمزح في العمل، ويبدو أن عائده جيد لحد كبير..

سمعت صوت باب مكتبه ينفتح، يغادره رجل ذو طلة مهيبة تعرفته على الفور، كانت في طريقه فرمقها بنظرة رسمية وتخطاها، بعدها تقابل بصرها مع بصر من أتت لأجله..

راقبته يشد قامته، يتأملها بشيء من ضيق أثار تهكمها، يفسح لها طريق الدخول بإشارة من كفه فتتبعه، أغلق الباب والتفت إليها بصمت.. قرأت عينيه، ملامحه، لغة جسده في ثانيتين لا أكثر..

هو مرهق، يخنقه حزن.. وغضب، يمقت وجودها، وبالخلفية رماد اشتياق محترق..

لوم.. عتاب.. حنق..

تجاهلت ذاك كله وبادرت بتعليق بعيد عن سبب حضورها:

- في شغل بينك وبين وجيه نصار!..

لم يستغرب معرفتها بأحدث عملائه الذي رحل قبل قليل، منذ أنقذ حياته والعلاقة بينهما نمت بشكل ما.. بطيء، لكن الصداقة عنوانها، واليوم أتاه لغرض العمل..

يريد منه أن يصبح المستشار القانوني الأول لسلسلة الفنادق على مستوى العالم كما يخطط للتوسع قريبًا..

- جاية ليه يا نيروز!..

تغاضيه عن الجواب لم يشكل فارقًا.. ابتسمت ببرود وأسقطت قنبلتها على عالمه بلا مقدمات:

- أنا حامل..

وهكذا برقت السماء وأرعدت..

امرأة تعشق الدراما، وتستمرئ أدوار البطولة..

ثغرة احتاطت لها، لكن من يمكنه تسيير الأقدار!..

تصلب للحظات لم تطُل، حسم أمره برد الصفعة وإن نبض قلبه لطفل تمناه طوال عمر وحرمه إياه قدره ثم اختياره:

- والمطلوب!..

رفعت حاجبًا متعجبًا، تلبست رداء الجمود وعدت لعشر.. مائة ربما:

- نتجوز..

افتعل صدمة تممها بضحكة خافتة ساخرة مستنكرة:

- نزليه أسهل..

ارتدت خطوة..

خطوة واحدة ولأول مرة يلمح رجفتها صادقة، هزة حدقتيها وأهدابها التي رمشت بسخط..

زفرت واعتلت برأسها عرش الشموخ والتكبر:

- أنا مش هاقتل ابني..

- ابنِك مش مسؤوليتي..

رماها بوجهها والنشوة تنتشر بأوردته..

هل هكذا تشعر الشياطين حين الظفر!..

اقترب يقبض على ذراعها، يسحبها قربه، يهمس بوجهها بنبرة جليدية:

- دي كانت مجرد ليلة يا نيروز، عاوزاني ألبس الباقي من عمري ولا إيه!..

ازدردت لعابها والحقيقة تحطم غرورها..

ظنت أنه لن يرفض الطفل.. سيتمسك به، خاصة وبوجوده قربها، امتلاكها.. حتى وإن آذته، هشمت عنجهيته الذكورية ودهستها بلا شفقة..

زمت شفتيها، فككت أصابعه التي تحاوط مرفقها بغلظة، وانتقلت للخطة "باء" كما قررت:

- ده آخر كلام عندك يا مالك!..

صمته كان الجواب جوار نظرته الهازئة والتواء فمه الممتعض، ابتسمت بالمقابل.. بسمتها كانت وحشية، شرسة تليق بضارية مختل:

- كده نبقى متفقين..

عقد حاجبيه بتوجس، تمتم بحذر:

- بمعنى!..

هزت كتفيها وتجاوزته بلا اكتراث:

- يعني ما تجيش في يوم تقول لي عاوز أشوف ابني.. أنا مش هاقتله؛ هاسافر، هيتولد برا وهناك مش هيفرق وجود أب من عدمه.. وبعد كام شهر أرجع، أنا وهو.. كل حاجة متخطط لها، وجودي هنا مجرد صحوة ضمير..

قرب الباب توقفت، وضعت يدها على مقبضه ورمته بفتور من فوق كتفها:

- خلصت الحدوتة..

كادت تخرج، توقفت لهنيهة تفكر بأمر ما.. لا تلمح تقطيبته، تغضن جبينه وصراع أفكاره يستعر بعقله، قلبه يتدخل ويلقي بزمام العاطفة ليلجم جواد القسوة..

استدارت إليه، اقتربت، واجهته حد الالتصاق وأمام وجهه همست بصرامة كالنار:

- بس لو فكرت في يوم تقرب منه؛ صدقني مش هارحمك..

واختفت.. رحلت بخطوات واسعة، قوية، متجبرة تشبهها..

تشبه حورية الأمس.. وشيطانة اليوم..

رحلت وخلفته من ورائها جريحًا بأرض معركة ظن أنه فيها مقاتل صنديد، فإذا به المهزوم الوحيد..

**

ماذا لو كانت عقوبة خطيئتك هي الموت لكن عنقك فرت من المقصلة!..

ماذا لو كُتبت لك الحياة لكنك لا تحيا!..

أنت ميت بقانون الروح..

أنت مذبوح..

أنت مذنب والإثم يدنسك حتى نهاية الأنفاس..

أنت لم تمت حقيقة لكن الأقرب إليك هو من دفع الثمن..

كانت جالسة على أرضية الحمام بانهيار، تنشج، تختنق، تشتهي موتًا رحيمًا وتبخل به قسوة الواقع..

قبل ثلاثة أيام أعلنها رجل آخر كعاهرة، وصمها باللقب واتهمها بالغواية والكيد والفجور..

كيف نسقط ولا نتحطم!..

ذاك يخالف كل قواعد الجاذبية.. كل قواعد الفعل ورد الفعل.. كل قوانين الثواب والعقاب..

قوانين البشر!..

وقبل ساعات بعد صمت دام طويلًا وهوان طال أكثر؛ أخيرًا ردت والدتها على الاتصال الملعون..

وعلمت الخبر..

لم تعُد الفاسقة التي خانت الأخت والزوج والعشق وحسب؛ الآن هي قاتلة وبأبشع الطرق..

قتلت شقيقتها وطفلتيها وكاد الثالث يلحق بهما.. قتلت البراءة والطهر بلا جريرة..

لا لم تقتل..

هي أحرقتهم أحياء..

مع مرور الفكرة بذهنها تجسد الخيال، المشهد جحيم.. النار تحاوطهم من جميع الزوايا، الصراخ، الاحتراق..

النهاية..

سقطت على الأرض بعدما تقيأت سوائل معدتها الفارغة، لم تملك رفاهية البكاء والعبرات تبخل عليها براحة.. حتى أحبالها الصوتية مزقها نحيب الصمت عجزًا عن صرخة عذاب..

فقدت الإحساس بالزمان والمكان، أهي ملقاة هكذا منذ ساعة!..

عشر.. عشرون..

من يكترث بالأنفاس والساعات إن كنت مدفونًا بقبر جريمتك الأبشع!..

دموعها جافة، وجهها مصمت، أفكارها خاوية، وعقلها غاب..

النار تستعر بخيالها والوهم بات حقيقة بالنفس المُلامة..

تشاهد ركض صغير برضيعة..

تتأمل في ظلمة جسدًا ممددًا بانتظار لحظة ختام من قلب الجحيم..

تغيب وتعود وجسدها بذات الجلسة، تتذكر الأمس البعيد، الطفلة جميلة الملامح، عسلية الخصلات، هشة البنية.. الدمية الناعمة التي تصغرها بخمسة أعوام، حملها لها وليدة، عنايتها بها وسط دُماها، التعلق والقرب والحمائية..

والسقطة..

الخيانة بفراش عُهر..

فراشها هي..

تفكر بالموت، كانت أولى به.. لا البريئة التي سقطت في عشق إبليس، ولا الأنقياء الذين أصابتهم اللعنة..

انزلقت تنطوي على نفسها برعشة قوية، العبرة شاقة مضنية، حتى أجفانها بخيلة كبخل القدر عليها براحة.. لا تتعانق فتغرق في عتمة الغياب، ولا ترى من خلف غشاوة ضبابية أين المآل!..

جرس الباب انتزعها من سُباتها المتصلب.. من يأتيها بعدما حدث!..

أتراها أمها!..

لكن كيف ستترك أبيها المريض وحفيدها الذي لا يكاد يخرج من غرفة العمليات حتى يعود ومعشوقها الأوحد هو صاحب الفضل..

لم تفقد ثقتها بقلبه في لحظة وإن نحرتها قسوته..

تدخل عقب الحريق، نقل الصغير لمشفى خاص، وبدأت سلسلة من العمليات المحددة مسبقًا للتخفيف من التشوه الذي تعرض له..

تعالى الرنين مجددًا يعيدها لأرض الواقع، استقامت تجر ساقيها، تتمنى أن يكون لصًا أو قاتلًا ينهي تلك الرواية البائسة التي صارت بطلتها..

ثم ابتسمت ساخرة، اللصوص والقتلة لا يطرقون الأبواب..

لكن ربما تطرقها الشياطين، تخدش خشبها مخالب الوحوش..

كان هو!..

من عدسة الباب رأته، وهو لمح خفوت الضوء الصادر منها فتهكمت شفتاه بالتواء ماكر، ورفع سبابته ووسطاه جوار رأسه بتحية هازئة..

كان يوقن أنها ستفتح له بابها على مصراعيه، ستستقبله، هي ارتطمت بالحضيض.. ولا يوجد بعد الحضيض سواه..

يوقن وتحقق يقينه مع دوران المزلاج، تقف جامدة بنظرة فارغة، تراه يعبر للداخل، يمر بثبات.. يغلقه ويستدير إليها بتفحص خبيث وازى خبث نبرته:

- كنت عارف إن نهايتنا مع بعض..

البعض لا يحتاج لغواية، شيطانه كفيل به.. بل أولى به..

القاتل أتى لعقر دارها بقدميه!..

قاتلها.. قاتل شقيقتها، زوجته.. قاتل أطفاله..

وضع إحدى يديه في جيبه والثانية تتحرك بإيماءات متتابعة تجاور كلماته:

- لو كنتِ سمعتِ كلامي ماكانش ده كله حصل من الأول..

اقترب خطوة، مال يحاصرها بوجهه ولم تتراجع:

- بس أنتِ اخترتِ الطريق الصعب..

صمتها العجيب استغربه، ضيق عينيه فبدت نظرته كثعبان سام على وشك اللدغ:

- ساكتة ليه يا ليلى!.. إياد عمل معاكِ إيه!..

- أنت كدبت عليه..

تمتمت بالحروف المبعثرة دون صوت، سمعها بعسر وتوسعت ابتسامته:

- ليه!.. ما خنتيش جوزك وأختك معايا!..

رفعت عينيها إليه وشحوب ملامحها يتحدث بما يعتمل بقلبها:

- أنا اللي غويتك يا راجح!..

برقت مقلتاه بلمعة شبقة، اعتلت نظرته رغبة وتحركت بجسده ثورة عندما قربها منه ولم ترفض:

- جمالك بس غواية..

مرر أنامله على وجنتها بتوق:

- عينيكِ لعنة..

إبهامه أغار بحضور مقبض فوق شفتها السفلى فأصابها برجفة أهدته نشوة:

- شفايفك جنة..

مع نهاية كلماته قرر الغرق في جنته الموعودة، داهمها دون تمهيد، التهم الثغر والنحر وعبثت يداه بحرمة الجسد..

كانت جامدة.. في بُعد موازٍ..

ما يجري الآن، تشاهده بعين بعيدة.. من زاوية علوية، ترى انغماسه فيها.. تلمح تحجرها، صخرة باردة لا حياة فيها ولا روح..

تراقب يدها تنغرس بصدره..

لا.. ليست يدها ذاتها، بل السكين التي قبضت عليها أصابعها بقوة.. بإصرار.. بعزيمة..

تتأمل شهقته، ابتعاده، سقوطه على ركبتيه تحت قدميها ذليلًا، تفيق من غيابها على الدم الذي انفجر من الجرح إثر سحب السكين.. اتساع عينيه المرتعب وخبال تفاصيله..

ابتعدت خطوة تدقق في فعلتها بغير وعي.. لقد قتلته!..

كادت تهرب، تصرخ.. لكنها توقفت، ألقت النبأ بدموع تحررت أخيرًا من سجن مآقيها:

- هالة انتحرت، حرقت نفسها هي والولاد يا راجح..

همستها بالجمود الصقيعي نفسه..

لا تشعر.. لا تتنفس.. تموت..

تلتفت بهروب وقد انتصرت بأثر الخبر عليه بينما تتلاحق أنفاسه..

تتعثر عندما يمسك بقدمها، تهلع، تسقط، تنكفئ على وجهها فتجده يزحف فوقها، يريد خنقها بشهقات غير مكتملة..

تكرر الطعنة.. هذه المرة بالأقرب إليها؛ عنقه!..

تدفعه عنها فينقلب على ظهره، تعتليه هي وتتوالى الطعنات بلا توقف.. تصرخ وتطعن..

تبكي وتطعن.. تضحك بهيستيريا وتطعن.. تنهار وتطعن..

تغمرها الدماء، يديها، ثيابها، جلدها.. وتستمر بالطعن..

تستمر رُغم همود الجسد..

رُغم العينين الجاحظتين في إعلان صريح عن موت..

تستمر حتى الكلل..

تستمر وكل ما تراه هو حمرة النزف..

تعُد طعناتها واحدة تلو واحدة..

عشر..

عشرون..

ثلاثون..

وأصاب يديها الإعياء مع رابعة تالية..

لقد انتهى..

هذه هي خاتمة الرواية..

هنيئًا لكِ خيانتك "ليلى"..

هنيئًا لك الجنون..

(44)

الأخير

حكايا الماضي على أعتاب الخاتمة..

فقط احذر..

الأمس دومًا ما يترك أثرًا لا يزول..

**

على أعتاب فقدان العقل وجدت سلامها..

المشهد كالتالي يا سادة..

دماء، الكثير منها..

تغرق الأرضية أسفل كليهما، ثيابها، يديها، وجهها، خصلاتها التي استحالت شقرتها لحمرة قاتمة، مذاقها الصدئ بفمها، رائحتها العفنة تقتحم أنفها..

السكين، لا تزال بين أصابعها، تمسكها بكلتا يديها، تقبض عليها بتحفز كأنما سيعود ويهاجمها فتتأهب لمزيد من الطعنات..

جسده، ممدد على البساط المدنس بنزفه المتدفق، عيناه شاخصتان بألم.. بهلع.. بعجز، صدره وعنقه، كتفيه وبطنه مكتظة بالثقوب كإسفنجة، والروح فاضت ربما مع الطعنة الرابعة أو الخامسة..

هي، تعتليه، تجلس على ساقيه، ترفع السكين للأعلى وبصرها لا يفارقه، تلهث بعنف، تضحك وتدمع وتئن وتتوهمه ينهض ليطعنها بالمثل بذات اللحظة..

ينخفض ذراعاها ببطء، تتمهل في حذر مع همود التام، تنتحب، تنشج، تتبسم، تصرخ وتثور وتختنق.. تزيح ساقها لتبتعد عنه فتتعثر، تنزلق مع لزوجة الدم وتسقط فوق الجسد الخامد، تتقابل بوجهها مع حدقتيه الميتتين، تصرخ وتنتفض كالملدوغة.. تتراجع، تلقي بالسكين وتزحف للخلف، تستند لجدار، تريح رأسها إليه، تغمض عينيها وترتاح..

ترى معشوقها يقترب، تستغرب لكنها تبتسم، يعانقها، يربت على رأسها، يتمتم بأذنها أنها أدت واجبها على النحو الأفضل، طهرت نفسها وشرفه..

يظهر من حولها صغيريها، يسقطان بأحضانها، تضمهما بشدة وتتعلق أكثر برجُلها، تخبره عن حب لم يمُت بقلبها ولن يموت.. عن ثأر انتزعته عنوة من بين ضروس إبليس التي طحنت أختها وبصقتها..

ثم تضحك بغتة، تقهقه بجنون عجيب.. تفرق بين أجفانها وتنظر للفراغ، ترمق المقتول من موقعها بسخرية، بمقت، بعتاب مثير للدهشة؛ كأنما تسأله لمَ!..

انظر كيف وصل بنا الحال!..

تتذكر قبل دقائق، مجيئه، رنين جرس بابها وسط مستنقع وحدتها المظلم، جرها لقدميها وصولًا إليه، تحيته البغيضة من وراء عدستها، السكين المهملة فوق طاولة الطعام منذ هددت بها الوغد الآخر..

تلمح يدها تمتد إليها بلا وعي، بلا رغبة في سيطرة.. تقبض عليها وتخفيها إلى جوارها، تفتح له.. تستقبله، ترى شماتته، صفاقته، وقاحته.. اشتهائه!..

تعديه لكل حدود سبق وتحطمت بينهما..

كفها تتمرد على الخوف كما العقل الغائب، تغوص بسكينها في جانب صدره..

ويبدأ العرض!..

هو لا يستحق حياة..

هي لا تستحق حياة..

كلاهما ملوثان، خائنان، آثمان..

كلاهما مصيرهما جحيم واحد..

تأملته بنظرة مطولة، تلفتت حولها فكانت وحيدة، لا حبيب، لا أبناء.. لقد كانوا هنا قبل لحظات!..

عادت تزحف عقبها إلى الطاولة القريبة، تتناول هاتفها الملقى فوقها، تطلب رقمًا تحفظه عن ظهر قلب، رقمًا لم تنسه أبدًا..

تنتظر جوابًا من الطرف الثاني، لو ماتت بعده فذاك يكفيها، رنين لأربع مرات وأتاها صوته، يعلن عن اسمه.. يسأل عن الطالب!..

"وجيه"..

همست بوهن متحشرج وصله بعسر..

وصله بصوت محفور بالقلب والروح والأفكار.. بالحلم وبقايا سعادة منسية..

اعتدل في جلسته حيث كان يجاور زوجته بغرفة المعيشة، بمسافة شبه بعيدة كان طفليه على الأرض منشغلان بنزال لعبة الكترونية، وهما يتحاوران بهدوء عن آخر كتاب قرأته، وقرأه هو في وقت فراغ قديم لم يعُد متاحًا..

الأمور بينهما مستقرة منذ أسبوعين، طلب فرصة وتشبث قلبها بالطلب فوافقت على منحه إياها، فاضت نفسها بالتقدير له بعدما

علمت مصادفة من مكالمة مبتورة أنه ساعد ابن أخت زوجته السابقة والذي كان ضحية حريق لا تدرك تفاصيله..

تشبثت والهدوء يخيم على الأجواء بينهما، أما ما بقي فتركته للزمان.. هو كفيل بالعلاج، أو الحسم!..

"ليلى!"..

همسته المستعرة باسم غريمتها في الفؤاد والعقل..

غريمة رحلت ولم ترحل..

تغضن جبينها وهي تلمحه ينهض، يخطو نحو مكتبه، نظرها معلق به قبل أن يغلق الباب بوجهها، فتشغل حالها بالطفلين ورجفة مبهمة تنخر في ثباتها فتكاد تهدمه..

لكنه لم يكُن يشعر، لم يرَ، لم يستوعب سوى أن نبرتها التي أتته فجرت ينابيع خوفه.. واشتياقه!..

نبرة لا يعرفها وإن كان يغيب في فوضاها حرفًا حرفًا..

"أنا انتقمت لشرفك يا وجيه"..

همسة تالية منها، توتر في وقفته، ضغط جبينه بسبابته وإبهامه، قبل رد غير فاهم أردفت هي بضحكة خافتة:

- قتلته..

توسعت عيناه بصدمة سوداء غيمت بضبابها على عالمه بأكمله:

- انتقمت لهالة اللي ماتت بسببه وبسببي..

نحيب غريب اقتص عنق الضحكة، والدموع تكاد تصله عبر الأثير:

- انتقمت لكادي وانتقمت للمى.. وفراس..

هنا تضاعف النشيج فتقطع بمشقة تعثرت معها أنفاسها بموازاة صمته ولجام الذهول يتحكم به، بكلماته وأفكاره.. كل ما فيه تجمد:

- ضربته بالسكينة..

ظلت تهذي بخبال، هنا شاب الصوت ابتسامة مختلة استشعرها من الأنباء التي تخرق سمعه، تشرح كأنما يقف معها وتخبره عما حدث بكل يسر ممكن.. تمثل المشهد، كيف قتلت بأداء مبهر:

- فضلت أضربه لحد ما إيديا وجعتني..

ضحكة مبتسرة رحبت بأذنيه في استقبال مشدوه:

- أربعة وتلاتين طعنة، بعدها... هه.. هه.. هه..

لهاث تالٍ، دموع، قهقهات، انتحاب:

- بعدها ما لقيتش مكان تاني أضربه فيه..

عبرات تهطل كسيل تراءت له مرأى العين:

- كنت عاوزة أضرب أكتر، لكن إيديا وجعتني.. شرفك يستاهل تمن غالي يا وجيه..

"ليلى"..

تمتم يناديها، يوقف تخبط اللحظة والمشهد ينبطق كما عالمه حوله فيكبل الهواء المحيط به حد تطويق خانق:

- أنتِ فين!..

جوابها كان سلسًا، بديهيًا لدرجة أرعبته:

- في بيتي، وهو قدامي أهو.. ميت، ودمه مغرقني ومغرق الأرض.. كنت بحب السجادة دي..

تمتمت بتعابيرها المشوشة من وسط ضحكة كالشوك، انغرست فيه ومزقت جلده وقلبه وروحه:

- راجح مات يا وجيه، دفع التمن، أنا سعيدة قوي.. الشيطان مات..

رمش بينما نبضه يهدر بقسوة كادت تنتزعه من مكمنه بين ضلوعه:

- ما تتحركيش من عندك، أنا جاي لك..

سمع البسمة تتخلل حروفها، البهجة تنسجها، والسعادة تغزل خيوطها حتى أن العشق نقش ثوب الكلمات بدفء ألوانه وثورة حضوره:

- أنت كنت هنا دلوقتِ.. هتيجي تاني بجد!.. هاشوفك!.. أنت وحشتني قوي.. عشان خاطري سامحني..

لم يفهم ما تقول، حالتها لا تبدو طبيعية وكيف تفعل وهي قد انتزعت روح أحدهم للتو!.. استمرت في الحديث، وهو لم يغلق الخط.. خرج يركض للطابق العلوي، يأمرها بالبقاء معه، بإثرها يتصل بمحاميه، بمشفى وبالشرطة.. ينهي اتصالاته بلواء متقاعد كان صديقًا لوالده.. هذا الحادث لن يعلم به أحد مهما كلفه الأمر!.. يلملم حطام مسرحيته التي أوشكت على ختام ستنقطع له أنفاس الجمهور البائس..

كان يزرر قميصه بينما يتلفت بحثًا عن مفاتيحه، عندما رآها.. تقف قرب باب الغرفة المغلق، تراقبه بحذر.. بملامح باهتة، بقنوط أوقف لهفته وتجدُد ظلمه لها يتبدى من وسط ضباب أفكاره..

تقدمت نحوه بسؤال هادئ:

- رايح لها!..

مسح وجهه بكفه وزفيره يوشك على إشعال المكان برمته:

- لازم أروح..

- أنت عارف مكانها!..

سؤال متَّهِم والصوت لا يلوم، الهدوء هو سمتُ الوجه والنظرة وذاك بقدر ما يريحه، يقبض دواخله:

- أيوة..

مع رده تأكدت من كونه يتابعها عن بُعد..

مع لهفته وخوفه وقلقه وارتباكه المتوتر أدركت من ستسكن الهامش ما بقي لها من عمر..

وجوار نظرته المرتعشة وتشتت مقلتيه رأت النهاية أقرب مما طاف بخيالها عن القادم من أيامهما معًا..

دون مزيد تنحت عن طريقه، تناءت ببصرها عنه هو، حادت عن دربه المختار للمسير، ارتدى سترته بوجوم، خطا ليغادر، أمامها توقف وتلعثم في توصية فاترة:

- خدي بالك من الولاد، مش عارف.. يمكن أغيب أكتر من يوم!..

تماسكت بصلابة تليق بها، رفعت رأسها وقابلته بحزم:

- مش محتاج توصيني..

مد يده إليها فمنعته بعينيها حين همس:

- رحيل!..

- اللهفة اللي في عينيك بتقول إنها محتاجاك؛ ما تتأخرش عليها..

أشاحت بوجهها تحرره من قيود وجودها، تسبقه للخارج.. تذهب في طريقها الذي يوازي طريقه، ويخالفه في الاتجاه..

بعض الطرق لم يُكتب لها التلاقي..

وبعض المصائر أفضل لها الفراق!..

**

على أعتاب الرحيل تصالَحَ مع غدِه وإن لم ينسَ الأمس..

وعلى أعتاب الغربة ارتبكت خطاها!..

الأمل ليس وهمًا على الدوام، يمكنه أحيانًا أن يعمي بصائرنا عن حقائق واقعنا المظلم فنكمل طريقنا..

لكن كذلك مع العمى يحدث التعثر، السقوط..

ننظر للأعلى فنتشبث بالأمنية، وحفرة المتاح لا تتمهل في ابتلاعنا من تحت أقدامنا، نَزِل، ننزلق، نرتطم بالقاع وننكسر..

ورُغم الكسر نعود لدروبه، نتعلق بأذياله مهما أصابتنا خيبة، لأننا لو لم نأمل لكنا في عداد الأموات..

الأمل هو أنفاس الحياة لكل خائف، لكل مظلوم، لكل تائهٍ عن الصواب وكل ضالٍ في متاهات الوحدة والفقد..

الأمل وإن كان سرابًا كلما اقتربنا منه علمنا بحقيقته المموهة؛ يظل هو دافعنا الوحيد لنركض إلى الأمام.. لنحيا.. لنستمر..

فربما في يومٍ، يصبح السراب للظمآن ماءً..

ربما في يوم يكون له موطنًا وهو المغترب منذ وُلِدِ..

انتهت أيامه على هذه الأرض، لم يشعر لها بانتماء وإن كانت الأقرب إليه، على الأقل أتاها وحيدًا وسيغادرها بصحبة الشمس..

بمعية توأميهما وشعاعها الذهبي الصغير..

فات ما يقرب من أسبوعين عقب الاتفاق المبرم بينهما، وعده لها بالحرية مقابل وعدها بالذهاب معه.. القرار الحاسم بالرحيل حيث المكان هنا بات خانقًا لكل ما فيه بوجود من منحه الحياة وتلاشى منها..

موعد الطائرة بعد خمس ساعات، ها هو يمر من أمام بابها، يلمحها تحمل صندوقَ كنوزها القديم الذي يتذكر محتواه المحدود، حذاء فراشة راقصة، عقدًا ذابلًا من الياسمين.. وسلسلة تحمل الحرف الأول من اسم حبيب راحل.. والمثير للسخرية؛ من اسمه كذلك.. تضعه في ركن أحد الحقائب وتحكمها حوله، تتوجه لأخرى ممتلئة عن آخرها فوق الفراش، تجاهد مع سحابها فتلهث بتعب مع ثقل حملها..

وقف عند الباب ينبهها لوجوده، نحنحة خافتة وازت طرقة عليه خشية إثارة ذعرها كما اعتاد مؤخرًا، في نيته عرضها على طبيب متخصص عقب السفر للتخلص من اضطراب ما بعد الصدمة الذي من الواضح أنها تعاني منه وتنكره، لكن بَعْد.. فلكل حادث حديث وهنا خيطه الأخير انقطع..

ما حدث لها يود لو منعه، لو أتيح له قتل ذاك الوغد المهووس ألف مرة لفعلها.. لأجلها!.. ولو علِم ما كان في نيته لدهسه بسيارته حين اللقاء الأول..

قتل!..

نعم.. أنهى حياة أحدهم، في تجربة مقيتة وإن لم تهدِ روحه سوى فراغٍ فوق فراغ..

حين شروده القصير استدارت إليه بإجهاد، ترمقه بحذر رآه، تغافل عنه واقترب، ضغط الحقيبة وأغلقها بسرعة، حملها بلا جهد وأنزلها للأرض، التفت إليها بنظرة فاترة غامضة كنظراته المخطوفة إليها منذ ذاك الاتفاق وغادر بلا كلمة واحدة..

لحظات الوداع ثقيلة دومًا على النفس، خاصة وأنت تودع من تأخرت في القرب منه!..

راقبه أخيه الأكبر يهبط الدرج، يحمل حقيبة ضخمة ويجر واحدة ثانية، صعد إليه يتناولها منه، يتوقف قبالته لثوان في لقاء بصر ساكن

وإن تخللته حوارات غير منطوقة.. مسكوت عنها لأن المشاعر لا يسهل على أحدهما منحها كما يصعب على الثاني ابتلاعها..

وصلا للسيارة، أتت هي تتبعها "غزل" التي تحمل "يزيد".. الجد يرافق خطوات كليهما يتوكأ على عصاه بوجه مهموم، وضعا بها الحقائب، ضمت "شمس" صديقتها وودعت الجد وحفيده، جلست بعسر في المقعد الخلفي بأحضانها طفلها.. ووقف هو بين جده وأخيه..

كلاهما يتأمله بنظرة افتقاد مبكرة، وهو لا يدري ما يقدمه سوى خواء النظرة!..

يصعب عليه أن يكون محور الحدث بعدما قبع في الهامش طوال ما مضى..

والحدث هنا يفيض بالمشاعر..

هو عدوها اللدود وهي خصيمته حتى الموت ربما!..

مرر أصابعه في خصلاته، رفع عينيه إليهما ولم يجد ما يقوله، رأى بمقلتي "يزن" رغبة في ضمة.. رآها وتجاهلها، اكتفى بمد يده في

مصافحة لم يمنح معها فكرة عودة لكن الأكبر هو من تشبث ببسمة دافئة:

- أشوف وشك بخير..

أومأ له صامتًا، تشوش أفكاره يسيطر عليه.. تلك الأحاسيس منهِكة، غريبة، كغربته وغربة الروح بجسده.. صافح جده بقبضة صلبة تشبه صلابة الحوت العجوز الذي شد على يده بقوة، متناسيًا نارًا سبق وأحرق بها قلبه ومنزله:

- خليك فاكر إن هنا دايما بيتك وعيلتك..

همهم بحروف لا معنى لها غير نادم مع استيعابه لنظرة منفلتة من عقال صمت الحوت تطوف بها ذكرى غدره السالف، حرر يده منه.. حرر قلبه من تلك المعمعة الفوضوية المتعِبة.. حرر الحبال التي تثبته لأرض بها شيء ما يخصه..

"أنت مسافر!"..

انطلق السؤال كرصاصة صدئة اخترقت فؤاده من ذاك الذي ظهر بالقرب من وقفتهم على نحو مباغت، زم شفتيه، أظلمت عيناه

وسماءه.. بل شعر أنها على وشك أن ترعد بقسوة وتهطل بفيضان كالهلاك..

تجاهل الجواب واتجه للسيارة، لكنه لم يتوقع جرأة الاعتراض من أبيه الذي قطع طريقه وأمسك بساعده يمنعه:

- يعقوب.. من فضلك، لازم نتكلم..

اللمسة ذاتها لم تكتمل، بُترت بنظرة كالحريق..

كنار لن تنطفئ أبدًا، نظرة كالموت بسكونه وعتمته وهلع ما يليه..

نظرة هي أكثر من كافية ليبعد "عبد الله" يده عنه بانهزام خائب، يتراجع خطوة ويفسح له.. فتاته تقترب، تمسك بيده فيطمئنها برفق، يتابع ابنه الأكبر الذي رمقه بضيق ثم تبع الأصغر إلى السيارة.. وقف يجاوره قبل أن يستقر بالمقعد الخلفي جوار زوجته:

- مُصر إني ما أجيش أوصلك!..

رد بنبرة باهتة بها شيء من تباعُد.. المشاعر تربكه، تخيفه، والمنح يوتره:

- مافيش داعي، ساعة زيادة مش هتعمل فرق..

تأمله "يزن" بتفهم، أهداه نظرة كالضمة التي لم يُقدم عليها، أغلق باب السيارة، راقبها تبتعد بهما لثوان حتى غادرت بوابة المنزل.. هنا سأله أبوه بحزن:

- أخوك هيرجع إمتى!..

عاد إليه بنصف عين باردة هي كل ما يستحق منه:

- مش هيرجع..

بإثرها دنا منه يطعنه بغلظة:

- أخويا مشي عشان أنت رجعت، مش قادر يكون في مكان أنت فيه..

- يزن!..

ينهره بألم وهو يدرك عِظم ذنبه في حق أبنائه:

- دي الحقيقة.. إيه مستغربها!..

وامتعضت ملامحه بسؤال رافض لوجوده:

- بعدين أنت هنا بتعمل إيه!..

أشار من وراء ظهره لأخته التي جلست على أرجوحة الحديقة جوار زوجته:

- غزل هتاخد بالها من توليب لحد ما أخلص شوية أوراق تخص...

- مش مهم، ما تحكيش تفاصيل، مش عاوز أعرف عنك حاجة..

وكاد يرحل بالمثل لكنه أوقفه:

- هتفضل كده لحد إمتى يا يزن!..

شد قامته وواجهه بحزم جاف:

- لحد آخر يوم في عمرك..

وابتسم بسخرية مريرة:

- أو عمري، الأقرب منهم مش هتفرق..

- وتوليب، هتحاسبها على ذنب مالهاش يد فيه!..

غص "يزن" بالسؤال..

هو لا يريد.. لا يتحمل وجوده أو حتى وجودها..

هي التي نالت ما حُرم منه، ما حُرم منه أخيه..

لكن من قال أن ذاك الرجل هبة من السماء!..

لم يحتَجه في يوم ولن يفعل..

سمعه يدافع، يبرر، يفند:

- أنا عارف إني غلطت، نفسي تديني فرصة أصلح غلطي...

- عندك آلة زمن!..

كان السؤال مفاجئًا، غير منطقي وعجيبًا ألجم الأب:

- مش فاهم!..

هاجمه "يزن" بخطوة كحرب مشتعلة ماثلت اشتعال عينيه بنيران اليتم والبغض في مزيج موجع، يجحفه كل وصف ولا يستفيض به سرد:

- عاوز تصلح غلطك.. محتاج ترجع بالزمن تلاتين سنة؛ عندك آلة زمن!..

السؤال حقيقي لدرجة العجز، غاضب حد القتل.. ورافض إلى لحظة الموت، الوقت كفيل بعلاج الجروح، ذاك هو ما يتمسك به.. فقط كم يحتاج منه، وهل بالعمر بقية!..

اعتدل يضاهي قامة ولده المشدودة، يشير لطفلة لا تدري عن العالم سوى وجهه اللطيف، حلواها وألعابها وخسارة أم وأخوات بلا مقدمات..

ذاقت الضد والضد دون تمهيد..

- أنا وغلطت في حقك وحق أخواتك، طيب توليب!..

مع نطق اسمها لاحظ اهتزاز ملامح الابن، أكمل بألم:

- هي مالهاش ذنب تتحمل نتايج غلطي..

ثوانٍ مرت..

ثوانٍ لم يتعداها فالقرار محسوم والأب اختار منذ الميلاد كيف ستكون الخاتمة:

- هي أختي..

خطا متجهًا نحو زوجته والصغيرة التي ترميهما بنظرات متباعدة قلقة:

- أنت مش أبويا..

الحسم المتمم لحكاية لم تكن خيالية..

حكاية رسمها الواقع بكل قبحه وبشاعته وقساوته..

حكاية جميع أطرافها ظَلموا وظُلموا بشكل أو بآخر، بعضهم تاب وعاد من منتصف طريق البغي، والآخر استمر إلى حدود المصير..

رآه يجالس الاثنتين، يتابع أخته بعين حائرة للحظات بعدها يهديها بسمة وليدة كانت أمان قلبه!..

ربما هو لا يستحق المغفرة، ما يهمه أن تجد هي الظهر والسند حتى لو مات مغضوبًا عليه..

غير وجهته لوالده الذي يجلس بالشرفة شاردًا حزينًا متجاهلًا حديثه مع ولده، جاوره بأسى وسأل باهتمام صادق:

- يعقوب سافر فين!..

أدار له "يونس" بصره بشيء من جمود:

- مش مهم تعرف يا عبد الله، أنت ما عرفتش عنه حاجة طول عمره.. مش هتفرق دلوقتِ..

جواب لا مزيد بعده..

هو الحكم في قضيته بعين قاضٍ لا يرحم..

هو نهاية وقَّع صكها برغبة وإرادة حرة منذ هجر أطفاله واختار نفسه..

كما هجرهم في ضعفهم، هجروه في ضعفه وحاجته.. خاصة ذاك الذي استقر بمقعد طائرته جوار زوجته، تحمل طفلها بذراع، تضمه برفق متوتر، وقبضتها الثانية تتشبث بمسند المقعد مع دوران محرك الطائرة وبدء تحركها على ممر الإقلاع، ترتجف وأنفاسها تتصاعد بشبه اختناق جعله ينتبه لها:

- أنتِ بتخافي من الطيران!..

نفت بهزة رأس، صوتها المتحشرج تتآكل حروفه:

- دي أول مرة أركب طيارة أصلا..

رفع حاجبيه دهشة فأردفت كأنما تُسري عن مخاوفها بحديث سفسطائي:

- على طول كان السفر بالعربية، وما سافرتش برا مصر قبل كده..

تأملها لحظة أخبرها عقبها بنبرة ثابتة:

- ما تخافيش..

أغمضت عينيها وعضت شفتيها بين أسنانها:

- بحاول..

سعى لمزيد من طمأنة وسرعة الطائرة تتضاعف، عجلاتها تأخذ في الارتفاع والميل شعر به سيوقف قلبها:

- معروف إن الطيارات أأمن وسيلة نقل..

همهمت بوهن وجلد كفها يكاد يتمزق حين اشتد تمسكها بالمسند:

- بيقولوا..

ثانيتين تاليتين.. ثلاث.. أربع، وشعرت بقبضته تحاوط يدها، تفككها بحرص ليضمها بين أصابعه حتى أنها فرقت أجفانها بذهول لتراه ينظر أمامه دون ثرثرة..

ازدردت لعابها وشيء من أمان يكتنفها، أمان استغربته.. استنكرته فسحبت يدها منه بشيء من رفض مرتبك، حائر.. لم يكترث له، استقرت الطائرة بالجو، فتحت ستار النافذة تتأمل من خلفها السحب الناعمة.. تشرد عنه ويحاوط هو عينيه بقناع النوم..

لن ينام، لا ينام بسفر.. لكنه أهداها راحتها في غفلته المصطنعة..

لا يدري ما يحدث له معها!..

كل يوم هما في شأنٍ.. الارتجال بات سمة علاقته بها..

ارتجالًا يبغضه، وبذات الوقت لا يمانع من الإتيان به..

ربما تشعب بهما الدرب، لكن عند المفترق سيختار مصيره معها.. مع طفليه.. والأمس!..

الأمس رحل ومضى وانتهى..

**

على أعتاب الميلاد سقطت في بؤرة الشوق والخوف..

حُشرت في بوتقة التوق والفقد..

تشتاقه بكل ما فيها، بالقلب الذي يتقلب في غرامه دون سواه، وتخاف لحظة مولد صغيرة اقتربت، تحمل معها البتر..

خيطهما الأخير سينفصم..

لا يأخذ خطوة نحوها..

وهي ملت الانتظار واللعنات التي تملأ رأسها له، لعنات لو صبتها على رأسه هو لتبخر في مكانه أو احترق كساحر كاذب خدعها بلعبة وهم ولم يخبرها تفاصيل الخدعة..

والدته تلتقط لها الصور بكل زيارة، تدفع بابنه لأحضانها وتتحجج به.. لكنها تعلم أن هاته الصور له هو!..

يتابع من بعيد.. وبُعده يغضبها، يحرقها.. يثير براكينها..

خطت تعبر بوابة منزل صديقتها بعدما صفت سيارتها على مسافة شارعين منه، تلهث بتعب، يدها تدعم بطنها المنتفخ عن آخره، والثانية تتعلق بذراع حقيبتها كوسيلة دعم لها هي..

استقبلتها "غزل" التي تدفع عربة صغيرها بدهشة، عانقتها برقة وابتسمت بتساؤل:

- أنتِ جاية مشي!..

أشارت "رهف" من ورائها بحركة مبهمة:

- ركنت بعيد شوية واتمشيت، الدكتورة بتقولي لازم أمشي كتير عشان أسهل الولادة..

تأبطت ذراع الصديقة وسارت معها تجاه جلستهما المعتادة:

- فاضل قد إيه يا روفي!..

امتعضت ملامح "رهف" بضيق:

- يا بنتي أنا قربت أدخل العاشر، وبنت ابن عمك مش عاوزة ترحمني وتيجي..

ضحكت "غزل" بمرح لطيف ورمقتها بنظرة مشاغبة بينما تتجاوران على أريكة ناعمة:

- بنت ذكية والله، بتدي بابي ومامي فرصة يحترموا نفسهم بقى..

رفعت المنزعجة حاجبًا ساخطًا ونهرتها:

- والله!.. يعني المفروض بقى إني أروح أرمي نفسي في حضنه وأقوله سامحني يا عدي مش هابعد عنك تاني!..

اعتدلت "غزل" بعدما ألقت نظرة اطمئنان على طفلها النائم بعربته، تعقد إحدى ساقيها أسفل الأخرى لتواجهها بجدية:

- ما قلتش كده، بس على الأقل لما يجي لك ما تطرديهوش كل مرة..

- يستاهل..

قالتها ومطت شفتيها بحزن طفولي، وغيمة بؤس تظلل نظرتها الباهتة.. المشتاقة، ربتت الرفيقة على ذراعها بحنو:

- يستاهل ونص، مش هو ابن عمي.. بس عارفة إنه قفل وروبوت..

- أيوة..

- وما بيفهمش أبدا، مش مقدر إن معاه أدفى قلب في الدنيا..

- قولي له..

- لما أشوفه هاشد ودنه..

توسعت عينا "رهف" بغيظ:

- أنتِ بتاخديني على قد عقلي يا زولي!..

ضحكت الأخرى باستمتاع بينما تشاكسها:

- لو أقدر هاعملها، بس عدي عنده حبة limits كده بتخليني دايما جد معاه..

هامت نظرة الزوجة مع إيقاف التنفيذ بشرود في حبيب غائب:

- ودي أحلى حاجة فيه..

- إمممم.. يا سيدي، شوية وهتتغزلي في عينيه وعقدة حواجبه..

جعدت "رهف" أنفها ووكزت كتف صديقتها بانفعال نزق:

- عقدة حواجبه قمر أصلا..

- وبعدين!..

هنا عادت لجديتها فالتزمت العاشقة ذات الدرب:

- ولا قبلين يا غزل، هاعمل إيه!..

احتوت كفها بين يديها تمسد انتفاخ أصابعها المؤلم برقة مداعبة:

- كوني مهزقة زي صاحبتك وإدي له فرصة، لما تتقابلوا..

أدارت وجهها تجبرها على النظر بعينيها المشفقتين:

- طنط راوية بتقولي إنه بيتابع مع دكتورة نفسية، روفي مافيش راجل سهل عليه يعمل كده عشان واحدة بيحبها..

تقوست شفتا "رهف" ببؤس موجوع:

- عدي ما بيحبنيش يا غزل..

مسدت جانب فمها بإبهامها تفك القوس البائس اليائس:

- مش كل حب بيكون زي ما بنرسمه في خيالنا..

رمقتها بتشبث واهن:

- يعني إيه!..

هزت كتفيها وهي تلمح دخول سيارة زوجها من البوابة الضخمة، ترجله منها وعيناه تسقطان عليها، يبتسم بسلاسة، تلوها يقترب كأنما تشده إليها جاذبية الكون بأكمله:

- يعني سيبيه يحبك بطريقته، واستوعبي الطريقة دي.. افهميه وقربي منه..

كان "يزن" قد ظهر أمام الاثنتين بتحية هادئة ردتها "رهف" بشيء من فتور لا يبدو أنه سيرحل يومًا عن قلبها نحوه، انحنى يرمق الصغير الذي فرق أجفانه بنظرة ناعسة يستقبل أبيه، رفعه بين ذراعيه يضمه بحنان الدنيا، يداعب وجنته، يمضغ أصابعه المنمنمة بشفتيه، يهمس له بما لم تسمعانه ثم يعود به للمنزل تاركًا لهما حرية الانفراد..

تابعته زوجته للحظات، ثابت عقبها بناظريها للصديقة الحزينة:

- في وقت قبل كده كنت باقول زيك، ما بيحبنيش.. مش عاوزة أكمل معاه، بس دلوقتِ...

صمتت تشرد فيه، في الأمس القريب البعيد، في الألم والخيبة والهزيمة وانتصار العشق.. تلمح اللهفة في مقلتي المجاورة لها فتتوسع ابتسامتها وتكمل بحب:

- دلوقتِ أنا ما أقدرش أعيش من غيره، ومش عارفة أصلا لولاه كنت هاعمل إيه!..

لولاه ما كانت لتكتمل أمومتها، ما كانت لتكمل نصف الدرب بصحبة رضيعها الذي يخيفها وتذوب فيه.. ابتسمت "رهف" في المقابل، دعت لها بصدق صراح:

- ربنا يسعدكم يا زولي..

أشاحت ببصرها لأفق ضبابي، لا تلمح به سوى سراب حلم، حتى الأنامل لا تطاله:

- بس أنا وعدي حكايتنا مختلفة..

جذبتها "غزل" إليها مجددًا:

- عارفة، وعشان كده باقولك لما يجي لك تاني إدي له فرصة.. الحب الحقيقي يستحق الصبر والتضحية..

زعقت باختناق قانط:

- غزل.. هو ما بيطلبش فرصة، كل مرة بنتقابل بيسكت، بيتكلم بشكل عام.. مافيش مرة قال لي نرجع..

- مش باقولك غبي..

- ما تشتميهوش..

- أنتِ أغبى منه..

- يووه بقى.. أنا هامشي..

صاحت بها ضائقة واستقامت ترحل بالفعل، وازتها رفيقتها تسعى لإعادتها لمقعدها:

- إهدي بس يا روفي، أنا بحاول أفكر معاكِ..

- مش عاوزة أي.... آآآآه..

كانت ركلة عنيفة..

عنيفة فوق مقدار التصور، حتى أنها قبضت على كف "غزل" بقسوة أنَّت لها وأرعبتها:

- في إيه!.. رهف أنتِ هتولدي!..

رأت عبرة تنسل من بين أهدابها المنغلقة باعتصار معذب:

- مش عارفة.. الوجع بيزيد..

الوجع في كل أمور الحب بديهي، فطري..

في الميلاد..

في الفراق..

في الخوف..

خوفًا جاهد ليتخلص منه، نجح في مسعاه بشكل ما، شكل منقوص تعوزه التجربة، والتجربة لم تتأخر عندما وجد هاتفه يرن باسم ابنة العم وهو في حضرة طبيبته، يقطب جبينه بقلق، يشير إليها باعتذار.. يجيب والتوتر يتسلل لقلبه في ظلمة مخاوفه التي تحاصره..

زوجته تلد!..

طفلته ستأتي لدنياه وربما أتي معها الأمل..

لكن قبل أن تأتي، قبل أن ينقطع الخيط الوحيد الباقي عليه أن يركض إليها.. تأسف للطبيبة، ألغى الجلسة وقاد سيارته بجنون إلى عنوان المشفى الذي أخبرته به "غزل"..

بغرفتها وجدها تتألم، تحتج على محقنٍ عرضته عليها طبيبتها النسائية لتخفيف الألم، تراه، تلومه بكل لغات الأرض، بلغة الجسد والعينين، تنأى عنه وترفض بحزم:

- لأ.. عاوزة أحس بالألم ده، عاوزة أحس بيها..

اقترب بلهفة تسبق خطواته، تأكل المسافة بينهما قبل نظرته المشتاقة المرتبكة والمرتعبة، تنسحب الأمهات، يتفحصه الأب بشيء من ضيق، وابنة عمه تلومه بعينيها وتلقي عليه بنصيحة مفادها ضاعف من هلعه..

بعد قليل لن يكون هناك عودة!..

جاورها على مقعد، سحب يدها يحتويها بكفيه فشدتها منه بغلظة رسمت بعينيه عتابًا، صمته الواجف يغضبها.. ذاك الأحمق ماذا ينتظر!..

وتتحدث العاشقة المتيمة عن الفرص.. هو حتى لم يطلب!..

داهمتها نوبة انقباضات متكررة تغضنت لها ملامحها، قبضت على الغطاء بكلتا يديها واعتصرت أجفانها بدمعة هاربة، دون صراخ.. دون تأوه..

أمسك بيدها وهمس لها بحيرة متعبة:

- عاوز أحس معاكِ بالألم والخوف يا رهف..

فتحت عينيها تنظر إليه بعبرات حارقة:

- متأخر قوي يا عدي..

هز كتفه وتشبث أكثر:

- لأ.. لسه في فرصة..

صاحت به معنفة ووجعها يتخطى حدود الكتمان:

- وأنت كنت مستني اللحظة الأخيرة!..

ابتسم وأصابعه تحتوي أصابعها التي ضغطتها بقوة:

- كنت باحاول أكون الزوج اللي تستحقيه..

لامته بلا كلمات فأردف بدفء:

- ولسه بحاول، لسه محتاجك، محتاج مساعدتك..

نهض يترك المقعد، يجاورها رُغمًا عن استيائها، يحاوط كتفيها بذراعه ويلثم جبينها ثم لا يبتعد:

- محتاج قلبك..

همس بها متممًا احتياجه بأذنها، تشتاقه.. تبًا له.. اللعنة عليه..

عطره، رائحته الخاصة، دفء عناقه، خشونة ذقنه التي لامست بشرتها.. حنوه الغريب عليها، عاطفته التي لا تحمل كلمة عشق وإن غرقت في المعنى والمضمون..

تبتسم بأنين، تضرب صدره بقبضتها وتدفن وجهها فيه.. تتنفسه وتبكي:

- أنا مهزقة، زي بنت عمك بالظبط..

ارتج جسده بضحكة خافتة وهو يعتدل أكثر ليضمها بلين:

- على كده لازم أشكر غزل على حسن اختيارها لصاحبتها..

أعادت الضربة وضحكتها تجاريه بغيظ:

- هتردني ولا هتستنى تتقدم لبابا ونعمل خطوبة جديدة بعد ما أولد!..

قهقه بانشراح وأبعدها يغرق في عينيها.. يتيه.. يعود.. يلاقي مصيره، ويهتدي بعد ضلال:

- لأ.. مش حمل بُعد تاني، هاردك..

وقرن الكلمة بالفعل في قبلة يثبت بها ملكيته، قبلة بُترت بتأوهها الحاد حتى أنه انتفض مبتعدًا بارتباك وازى صراخها:

- نادي الدكتووووورة..

وبعد جولات من ألم..

من خوف وأمل ولهفة..

من إصراره على الحضور معها ثانية بثانية داخل غرفة الولادة ليعايش كل ما تعانيه وإن كان كل ما فيه يرتعد..

من صبر وابتهال لله.. أتت صغيرته..

ضئيلة، هشة، ناعمة.. وردية.. بخصلات داكنة كثيفة، وتثاؤب بريء احتكر بصره واستحوذ على قلبه..

ضمتها "رهف" وتأملهما هو معًا ببسمة غير مصدقة حين همست هي:

- فايا عدي درويش..

ضيق عينيه مستغربًا بينما ينظر إليها:

- فايا!..

أومأت بفخر أمومي، أحنت رأسها تقبل الجبين الصغير:

- يعني جمالها يخطف..

- زي رهف..

نفت ببهجة:

- أحلى من رهف..

ضحك بمشاكسة مستحدثة على نبرته ووجهه:

- تبقى شبه بابا..

انكمشت فوق صدره فضم كليهما بتلقائية:

- اتقي شري يا بابا..

حاوطهما دون مزيد من كلمات فارغة..

ذلك المشهد.. هذا الحضن.. العاطفة..

الاحتياج والتعويض وإرادة القدر..

ذاك كله هو المصير..

**

على أعتاب العشق، تسمر وتقهقرت..

لا تولد قصص الهوى دون مخاض عسير، كما لا تموت بلا مسار معقد..

وما بين الموت والحياة كثير من الوجع، من الفقد، من الأمل والأماني.. ما بينهما درب معبد بالتشبث، بالضياع، بنقيضين لا يلتقيان..

في صمت تام مرت فترة محاكمة زوجته السابقة، غاب خلالها عن المنزل لأكثر من أسبوعين بشكل متقطع، لم يُنشر عما حدث أية تفاصيل مع تدخل صديق والده، وإن أخبرها بعناوين الحكاية..

قتلت رجلًا بعنف مرضي..

خاضت التحقيقات بلا عقل، بغياب تام وعزلة في عالم وهمي خلقته لنفسها معه وطفليها..

لم تره عندما زارها؛ بل اعتكفت بعالمها وإياه..

حُوِلت للطب الشرعي الذي أثبت بعد عديد من الاختبارات كونها مصابة بالاكتئاب الذهاني.. هلاوس، ضلالات، تيه.. مرحلة متأخرة من الاكتئاب -مع بعض قسوة- لا شفاء منها..

عندما سألته عنها تهرب من الجواب، اكتفى بنبذة مختصرة حد الخلل، هي لم تتعرفه كما ينبغي أن تفعل!..

محت من عقلها ما فات بأكمله، صنعت وهمها وصدقته.. عاشت فيه وله، حتى وإن ظل هو بطل أوهامها..

كان في نبرته ألم..

هو تعرفها..

قلبه لا يزال ملكًا لها!..

أعدمها ولم يشعر بندم، أما عندما فقدت رشدها كسره الذنب..

لم يسامحها وذاك تدركه، لن يفعل حتى رُغم ما جرى، لكنه حزين.. مهموم.. شارد.. مثقل بحمول الوجع..

موصوم بعشق لا براء له..

على عتبة عشقها تسمر، لم يعُد للخلف، لم يتقدم للأمام.. هو مفقود..

حُكِم عليها بشيء من رفق قاضٍ، خمسة عشر عامًا في مصحة نفسية حكومية، باءت كل جهوده لنقلها لأخرى خاصة بالفشل.. وعندها انتهت تلك الحرب بخسارة أطرافها جميعهم، وهي..

هي التي لم تكن سوى ضرر جانبي دُهس وسط صليل السيوف ودوي المدافع فلم يلحظه أحد..

شهر طويل بالكاد رأته، بالكاد حادثته، بالكاد كان يعي ما يدور حوله خارج نطاق الصغيرين المستغربين لحال أبيهما.. شهر ما إن انتهى حتى استدعاها لمكتبه بالمنزل في نهاية اليوم، الأمر كان عجيبًا.. رسميًا، جافًا لكنه ليس ببعيد عن شكل علاقتهما..

حينما دلفت إليه وأغلقت الباب من ورائها، وقفت بمنتصف الغرف صامتة وهو جالس على أريكته المريحة يرمقها بغموض.. بشيء من ضياع، بحيرة و.. اعتذار!..

أشار إليها لتجاوره، فعلت دون اعتراض.. دون كلمات، دلك عنقه بإجهاد وتنفس ببطء محاولًا استجماع شتات أفكاره ولملمة بعثرة حروفه:

- أنا قررت إننا نسافر..

اتخذ القرار وحده، أعلنه إجباريًا، وفنَّد بتفاصيل محدودة..

بعد ما جرى لن يمكنه البقاء في الوطن، كثير من الثغرات.. السقطات.. التي لن يتحملها الطفلين إن قفزت من الظل وتعرت في نور الحقيقة، لذا الابتعاد ولو لزمان مؤقت هو الحل..

سلسلة فنادقه اتجهت للعالمية بالفعل، والبداية ستكون بالعاصمة النمساوية "فيينا".. حيث ينوي الانتقال مع الأبناء..

لكن المفاجأة ضربتها في مقتل عندما تمتم لها بجدية لا تحتمل التلاعب أو المزاح عن كونها حرة الاختيار..

السفر معهم.. أو الفراق!..

الآن قرر أن يهديها حريتها إن أرادت..

أرادت صفعه..

أرادت الصراخ بوجهه..

أرادت البكاء..

أرادت أن تعترف بحب لن تكتب له نجاة؛ لأنه أعمى.. لأنه مكبل لماضيه.. لأنه أسير الألم والشك..

أرادت كل شيء ولم تفعل أي شيء.. تصلبت في مواجهته وغابت عيناها في مجهول مشوش..

- رحيل!..

ناداها بأمل، بحذر.. بترقب، حركت ناظريها إليه، فتشت في سماء مقلتيه الغائمتين بالحزن عن غدٍ قد يشملهما معًا، لكن أمام وجهها رُفعت متاريس عشق جريح، نازف.. لا يبدو أنه سيُفرِّط في حياته بقلبه..

ابتسمت بقوة شابها أسى:

- حتى لو وافقت أسافر معاك؛ هتفضل هي بينا..

لم ينفِ، لا يمكنه التكذيب وتلك إلى الآن حقيقة ساطعة كشمس صيف حارقة لا مهرب منها حتى وإن تمنى..

تنهد واستدعى الصبر، الثبات ورغبة النسيان:

- هتفضل في حدود الذكرى..

هزت رأسها نافية بشجن:

- هتفضل جوا حدود القلب..

- أنا...

- أنت بتحبها، وهتفضل تحبها.. حتى محاولة التكيف والتعايش هتكون فاترة، باهتة، مالهاش معنى ولا طعم..

احتج بغضب وليد:

- ليلى بالنسبة لي جرح، عشان أعيش لازم أعالجه، مش أستسلم للنزيف.. كده يبقى مصيري الموت..

عادت لها بسمتها القانطة، تُقر بحقيقة أخرى لا جدال فيها:

- كل جرح مهما خف بيسيب أثر، ندبة..

أغمضت عينيها تتذكر جروحها هي:

- وكل ما عينك تقع على الندبة هتفتكر الجرح، هتفتكر الوجع، هتفتكر إزاي حصل وكل لحظة مرت عليك قبله وبعده..

ثم التقت ببصره الخاضع لواقعية ما تسرده:

- هتفتكرها..

استقامت تبتعد عنه، تتجه إلى النافذة لتراقب من خلفها ظلام الليل الضبابي مع بدايات شتاء جديد:

- هتكون دايما حاجز بيني وبينك..

تبعها يقف في ظهرها، لا يمسها.. لا يقترب حد حميمية زوجين، ولا يبتعد خشية التخلي عن قشة نجاته الأخيرة:

- ساعديني أهد الحاجز ده..

استدارت إليه وقربه ينفض قلبها بين ضلوعها، تغرق بمقلتيه وتقاوم لتطفو إلى السطح.. هي لن تخضع لعشق ثمنه القلب والروح والكرامة:

- ماعنديش قدرة أساعدك، أنا كمان محتاجة أرتاح..

- رحيل!..

يتشبث، تتراجع.. تعتصر أجفانها وتهمس باسمه مرتين بلا صوت، تندفع بحشرجة:

- أنا...

"بحبك"..

أتمتها بين ثنايا العقل، بدهاليز الأفكار المتعبة، تركض خلف النبض اليائس من مقابل.. تكبتها دون حروف، وتبدلها لقرار حاسم:

- أنا اخترت رحيل..

اهتزت نظرته برجفة كشظايا انفجار مباغت، شدت قامتها.. تقوت ببقايا كبرياء، توكأت على فتات صلابة وكررت الاختيار:

- مش هاقدر أكون مجرد مسكن يا وجيه..

عيناه بهما عتاب.. بهما خسارة.. بهما فقد.. بهما وهن.. بهما استسلام، بهما الأسر والحرية والهروب، أهداها بسمة مسروقة عند طرف شفتيه، صوته يتسلل إليها باهتًا فاقدًا لكل قواه:

- لما قررت أسألك؛ أخدت وعد على نفسي إني هانفذ اللي هتختاريه حتى لو ضد راحتي وراحة ولادي..

شاب بسمته مرارة ساخرة من نفسه.. من قصور فكره وضخامة توقعاته:

- يمكن لأني كنت فاكر إنك هتختاريني!..

أيخبرها أنه يعلم عما بخافقها إليه!..

ربما ذاك يعلمه؛ لكنه لا يدري شيئًا عنها هي.. هي التي تضع نفسها قبل كل شيء حتى وإن كان اختيار القلب..

اعتدل وزفر بشرارات الجحيم المحتدم بصدره:

- هيكون قدامنا أسبوعين قبل السفر؛ أنا مش عارف الخبر هننقله للولاد إزاي!.. بس هاوفي بوعدي لنفسي.. عشانك..

ارتج كل ما فيها وحريتها توشك على أن تكون ملك يمينها..

ارتج الفؤاد المتيم به..

الفكر الخائف من تبعات الهوى..

والكيان الحائر معه.. ودونه!..

ارتج الجسد واختضت الأنفاس وهو يفاجئها باقتراب، بكفيه تحاوطان كتفيها، وفمه يستقر فوق جبينها لثانيتين قبل أن يتراجع بهمس ختامي:

- أنا آسف..

راقبته يغادر..

يمنح ويذبح..

تعشقه وتفارقه..

تخط نهايتها بيدها كما فعلت من قبل.. تختار الرحيل!..

نعم.. بعض العشق داء لا شفاء منه..

مرض عضال لا يصيب القلب وحده، بل يحتل الجوارح، يقتنص الحواس ويسيطر على العقل والروح..

**

على أعتاب الألم سقط العشق سقوطًا مدويًا..

وعلى أعتاب الفقد وصلت للسفح، الارتطام كان قاتلًا، انتزع منها أمومتها دون اكتمال.. وضرب في أعماق قلبها بجذور الحزن والغضب ورغبة الفراق..

في قصتها القديمة معه رأته مثاليًا، رجلًا كفرسان الزمان الخالي، حلمًا لكل امرأة.. حتى وإن لم يكن حلمها هي..

اعتكفت على باب الماضي تنشد عودة، تراقبه منغلقًا بقفل مهترئ ورُغم ذلك لم تستطع كسره، تشبثت بأمس.. بحكاية حب مبتورة، وأعلن الفؤاد عصيانه بلا خضوع لغرام مستحق..

أما في قصة اليوم!..

ثأر المثالي لأوهامه التي خلقها عنها بحمية جاهلية لم تظنها فيه أبدًا..

ألَّف الرواية وصدقها..

كتب سطورها بثورة عاشق مكانه دنيا الأساطير، ثم سكب فوق أوراقه زجاجة الحبر فأضاع ما نقش في فورة شك!..

استمرأ مقعد القاضي، تحكم بسيف الجلاد.. أصدر الحكم ونفذه، لم يستمع لشهود، لم يقبل ببراهين عشقها، اختار القسوة واستباح الوجع..

شهر طويل انتهى قبل ساعات، منذ هجرته.. عادت للوطن، لأحضان أبيها الدافئة، لصمت مبهم مستمر بلا مبررات يريدها الأب الحنون وتمتنع عنها..

لن تشوه صورة الابن في عينيه..

يكفيه تشوهه بعينيها، بقلبها.. بقهر العشق وعذاباته..

تذبح الشوق وتصرخ بالغفران طالبةً الثبات، هي لن تقدر على العودة.. ليس بعد!..

تتجاهل رسائله، اتصالاته، اعتذاراته.. ندمه والذنب الذي توقن من اختناقه بطوقه، تعاقبه وتعاقب روحها قبله..

تتناسى نبض القلب له، وتتمرد على هواه..

زيفت لحاميها سببًا مناسبًا، فقدان الطفل.. حاجتها للراحة والبعد عن منزل يحمل ذكرى الفقد، انشغال الزوج بعمل.. وها هي هنا، وحيدة.. حزينة.. منطفئة..

ثم اكتمل الحزن بسقوط والدها قبل يومين!..

نوبة قلبية مباغتة، بعد إنقاذه منها أخبرها طبيبه عن حاجته لعملية جراحية عاجلة، عملية قلب مفتوح والمسمى أرعبها..

تذكرت حديثها معه، أمره لها بمهاتفة زوجها وترك الهاتف والغرفة له وحده.. لأكثر من خمسة عشر دقيقة كانت تأكل نفسها، تقضم أفكارها وتبتلع توترها..

لا تريد منه أن يخبره عن شيء..

لا تريده أن يأتي بحجة وحدتها وحاجتها إليه..

لا تريد وصاية الوالد أن تكون دافعه للتشبث!..

شعرت بيده تربت على رأسها الموضوعة قربه على طرف الفراش، اعتدلت تفتح عينيها، تتفحصه بلهفة، تبتسم بضياع وتتعلق به:

- عامل إيه يا أبو علي!..

ابتسم لها بحنو مرهق:

- زي البمب يا حبيبة أبو علي..

قبلت يده واحتفظت بها بين كفيها، تتأمل تجاعيده التي ضاعفها المرض، وجهه الباهت المصفر.. تستشعر برودة جسده العجيبة وينالها فزع:

- العملية النهاردة بالليل إن شاء الله..

حاوط إحدى يديها بأصابعه وضغطها برفق متغافلًا عن ذعرها المنساب من مقلتيها الخامدتين:

- مافيش عملية قبل منذر ما يوصل..

قطبت بضيق لم تستطع مداراته، ظهر جليًا على ملامحها جوار الدهشة وشيء من حنق:

- مين قال إنه جاي!..

حافظ الأب على ابتسامته الخافتة مجيبًا بيسر:

- هو اللي قال..

وكرر ضغطته لكفها بحزم ضعيف:

- مش عاوزة تقولي لي حصل بينكم إيه عشان تبعدي وتسيبيه ده كله وكمان مش عاوزاه يكون جنبك وأنا تعبان!..

حررت نفسها منه برفق، أشاحت بوجهها واستقامت ترمق الشارع عبر النافذة بهروب:

- ما فيش حاجة حصلت يا بابا، الإجهاض مش سهل وكنت محتاجة أكون لوحدي..

همس باسمها فاستدارت إليه بتوتر، مد ذراعه يناشدها الاقتراب:

- ساعديني أقعد..

اقتربت تدعم خصره، ترفعه فتجده يجذبها لصدره، يحتويها برفق أبوي عاتب:

- من إمتى بتكدبي على أبو علي يا دُچى!..

وقرص وجنتها ببسمة موبخة:

- فاكرة إني مش حاسس بيكِ من يوم ما رجعتِ!..

ارتجفت أجفانها بثقل دمعة حائرة بين الهطول والكتمان:

- بابا.. أنا...

- أنا عارف كل حاجة..

انتفضت ترفع ناظريها إليه بصدمة استقبلها بعينين امتزج فيهما الغضب بالشفقة:

- منذر حكى لي..

- منذر!..

انتفاضتها أخرجتها من أحضانه.. أبعدتها عن جواره وهي تنتصب بذهول ترفق به مع جوابه:

- رغم عشرة السنين اللي بينكم لسه ما فهمتيش جوزك..

رمشت بحيرة بينما تتساءل في غير تصديق:

- حكى لك إيه!..

نهرتها نظرته.. لقد فهم شكها، أدرك ريبتها في محاولة استدراج منه لكنها الحقيقة:

- قال لي على سوء ظنه، قال لي إنه وجعك.. وقال لي إنه السبب في موت ابنكم..

انبرت تنفي باختناق:

- موت ابننا قدر، مش هو السبب..

عادت له بسمته المترفقة:

- هو محمل نفسه الذنب..

لامس الفراش قربه يشير إليها لتجاوره، استجابت بوجوم محبط.. ضمها إليه، استكانت وعبرتها تسيل لتشارك قلبها نزفه الصامت:

- هو عارف إنه غلط، وأنا غلَّطته.. بس أنتِ كمان غلطتِ لما قفلت قلبك قصاده السنين دي كلها، كان من حقكم أنتوا الاتنين فرصة تبتدوا من جديد..

ورفع ذقنها لتواجه بصره، يمسح بإبهامه دمعتها بعاطفة:

- كل فرصة لازم لها تمن يا دُچى..

تشتت حدقتاها باستفهام احتواه بإجابة حانية:

- كان لازم الوجع يمسكم سوا، مع بعض.. عشان تقدروا قيمة الحب اللي بينكم..

ابتسم لها بمشاغبته اللطيفة:

- أنا زعقت له، وهددته كمان.. قلت له لو مش هتخلي بالك عليها هاحرمك منها..

بادلته البسمة بضعف خفق له فؤاده:

- بس أنا عارف وأنتِ عارفة، إنك مش هتلاقي راجل في الدنيا كلها يحبك زيه..

دفنت رأسها بصدره وتمتمت بشجن قانط:

- أنا كمان بحبه، بس...

- بس وجعك!..

- قوي..

- أنتِ كمان وجعتيه..

- من غير قصد، هو تعمد يوجعني..

- عشان كان مجروح..

حركت وجهها، تنظر إليه بغيظ طفولي:

- أنا اللي بنتك على فكرة، ما تدافعش عنه..

ضحك بخفوت وضمها بقوة أكبر:

- وهو أكتر راجل هاموت وأنا مطمن عليكِ معاه..

أجفلت وارتفعت بجسدها تعتصر عنقه هاتفة بخوف:

- بعد الشر، أنا ماليش غيرك..

- ومنذر..

تهدل كتفيها بإذعان لرغبة الأب والقلب والعشق:

- ومنذر..

مسد ظهرها وأبعدها يأمرها بصرامة مفتعلة:

- كلميه بقى وقولي له يدخل، عشان هو مستني الإذن منك..

قطبت بتشتت رسم على شفتيه بسمة واسعة:

- قال لي إمبارح إنه هيوصل النهاردة بعد العصر، بس مش هيدخل الأوضة ولا يقرب إلا لما تطلبي منه..

عقارب الساعة كانت تشير إلى الخامسة والنصف، أي أنه هنا منذ أكثر من ساعتين!..

هاتفته، سمعت الرنين خارج الباب بالفعل، طرقة وفُتح.. ظهر على عتبته بتفاصيل متعبة.. إنهاكه جلي، حزنه صريح.. وبسمته مشتاقة..

يعانقها بعينيه وتغرق في عناقه حتى أعادتها نحنة أبيها لأرض الواقع وهو يتصنع الجدية والتهديد:

- تعالى يا منذر، عشان لسه بينا حساب عسير..

اقترب منه يصافحه، يشد على يده قبل أن يصرفها هي بذات الحزم:

- روحي هاتي لجوزك قهوة، شكله تعبان..

تذمرت وبصرها يختلس الالتقاء بمعشوقها:

- أنت بتوزعني يا حسن!..

- بصراحة آه، يلا برا.. أنا وجوزك هنتكلم كلام رجالة..

وكان يؤكد في كل عبارة على كونه "زوجها" كأنما نسيت!..

تبسمت بخضوع، تركتهما منفردين، أغلقت الباب وسارت الهوينى في الممر الممتد، تفكر به.. تسترجع هيئته المختلفة، لأول مرة تراه يهمل في مظهره.. في ترتيب ثيابه ولحيته التي نمت لحد تعجبته..

أتراه حزين مثلها!..

عليها!..

على خسارة صغيرهما!..

لم تعلم أن حزنه أكبر، أن الندم لا يكفيه.. أن الجرم الذي اجترحته يداه يحرق روحه وكيانه كله، أنه خائف.. وحيد، يرتعب من فكرة فقدانها للأبد..

أن أنفاسه شابها راحة، ونبض قلبه استقر بهدوء لأنه فقط رآها..

"أنا مش هاعاتبك يا منذر، مش هاهددك.. مش هاقولك إنك تستاهل تتحرم منها"..

كلمات الوالد الغاضبة اقتحمت أفكاره، هشمت شروده بمطرقة صلبة، وجذبته لحقيقة واقعه بعنف وهو ينظر إليه برجاء:

- عمي.. أنا...

- أنت خُنت الأمانة..

اعتصر عينيه، أغمضهما بانهزام، دلك أجفانه والطوق الأسود يسيجهما بسطوة حضوره، دليل أرق.. دليل سهاد.. دليل افتقاد والحامي يردف بكرب:

- أنا اعتبرتك ابني، كنت دايما باقولها منذر بيحبك ومش هتلاقي راجل زيه..

ثم هز رأسه بأسى خائب:

- ماكنتش عارف إنك هتكسرها وتوجعها بالشكل ده..

تضاعفت الخيبة بنظرته إليه فطعنته:

- كنت فاكر إني هاموت وأنا مطمن عليها معاك..

- يا عمي ربنا يبارك لنا في عمرك، ما تقولش كده..

- ما تقاطعنيش!..

نطق بها بصرامة حاسمة ألجمت العاشق الخاسر:

- دلوقتِ أنا كلها كام ساعة وهادخل العمليات، مش عارف هاخرج منها ولا ربنا هيسترد أمانته!.. هادخل وأنا قلقان على بنتي الوحيدة اللي من بعدي مالهاش غيرك أنت..

عقب تفكير قصير، تلبس نبرته عزم ووعيد:

- بس عارف، هي هتقدر تعيش.. بنتي قوية ومش هتحتاج لحد، أنا مطمن عليها لأنها دُچى.. اللي كبرت قدام عيني ووقفت على رجليها بعد كل خسارة مرت بيها..

وشرد خارج حدود الزمان في ماضٍ غير بعيد إثر وفاة أمها ووحدته، إثر انكسار ببتر قصة غرام لم تُكتب لها خاتمة وردية:

- أنت اللي محتاجها يا منذر، مش هي اللي محتاجاك..

- أنا بحبها..

هتف بها الموسوم باسمها دون سواها..

لم ولن توجد امرأة غيرها يمكنها أن تحتله، أن تمتلكه وتستحوذ عليه:

- بحبها ومحتاجها ومش عاوز غيرها..

تسلطت عينا "حسن" على عينيه بفطنة.. بحكمة واجبة:

- يبقى تحافظ على النعمة اللي ربنا هداك بيها..

شد "منذر" على يده يجدد العهد، يتلهف بالوعد:

- أوعدك يا عمي..

- إوعدها هي، والأهم من الوعد نفسه إنك تحافظ عليه..

بنهاية حروفه عادت.. رأت الغرفة مشحونة بشرارات الارتباك والتوتر والغضب بين الاثنين..

أدركت أن فارسها الأول اقتص لها من فارس القلب..

رمقت كليهما بسكون، جاورت والدها بفراشه بعدما ناولت زوجها قهوته وغضت الطرف عنه.. لن تقترب.. لن تنظر إليه.. لن تستسلم لرغبة في ضمة.. في أمان بين ذراعيه..

لن تهديه راحته وقد حرمها الكثير..

وهو كان يفهم، يستوعب.. يخضع ويبتسم برفق، يكتفي بصورتها بين جفنيه.. ويرتاح..

حين جنَّ الليل أُخذ والدها لغرفة العمليات، وبقيت هي معه بعضها ينهش بعضه، تروح وتجيء والخوف يخنقها.. أوقف خطواتها عندما قطع طريقها، رفعت بصرها إليه ولمح العبرة المتعلقة بأطراف أهدابها، تردد للحظات قبل أن يضمها لصدره..

يقمع تمردها ويوقف احتجاجها، يهمس لها بطمأنة.. يعدها بأمانه، يهدئ مخاوفها بسكنى عناقه.. يترك لها حرية البكاء، الارتجاف، الفزع.. يحتوي ذاك كله ممتزجًا بغضبها منه بهمس واثق:

- هيكون بخير بإذن الله..

تتملص من طوقه ويصر على قربها، يكبلها إليه فتلهث بتعب وصوتها يتحشرج:

- أنا ماليش غيره..

قبَّل مفرق خصلاتها ونظر في أعماق عينيها، هناك غاص في مزيج المشاعر المهلك يعاتب ويتألم ويغرم بها مرة تلو مرة:

- وأنا!..

- أنت كسرتني..

تلومه وتنتحب.. تفقد كل قواها فتسقط بمقعد قربها، يجاورها في آخر دون أن يفلتها:

- خدي حقك مني..

يضغطها قربه، يكاد يحشرها بين ضلوعه:

- أوعدك هاتحمل عقابك..

ردت بخفوت يرتدي ثوب الشك وحقيقة الألم لا تزال تطعنها بلا هوادة:

- إزاي هاقدر أثق فيك تاني!..

زفر ووجيعة شكها تفوق كل ما سبق من وجع:

- مش مطلوب منك تعملي حاجة، ده دوري أنا.. دوري أرجَّع ثقتك فيَّ..

تهالك جسدها بين يديه، عاجزة عن التفكير أو اتخاذ قرار.. كل ما تتمناه ألا تفقد ملاذها الآمن..

مرت أربع حتى ظهر الطبيب، طمأنهما ببسمة.. تمت العملية بنجاح، والدها بغرفة الرعاية المركزة حتى الصباح.. سيكون بخير!..

أخبرها أن وجودها لا فائدة منه، لن تراه عن قرب.. عليها الرحيل ثم العودة في اليوم التالي لتكون معه عندما يستيقظ، رفضت في البداية.. احتجت على فراقه، تدخل الزوج القلق وأقنعها بالمغادرة لترتاح وتحضر له ما قد يحتاجه.. بشيء من ضغط وافقت..

وهناك باتت ليلتها على فراش من شوك، تتقلب دون نعاس حقيقي بينما هو لم تغفل عيناه عنها ولو لثانية..

يتشرب تفاصيلها..

يرتضي أسر هواها..

يضم كفها وبحسم لا يقبل الابتعاد عنها..

في الصباح ركضت عائدة للمشفى بصحبته، ارتمت قرب والدها تتباعد عن الأنابيب الموصولة بجسده، تتشبث بيده التي انقبضت حول أصابعها المرتعشة.. تلومه على لحظات الرعب التي عايشتها، تطالبه بوعد.. بعدم الغياب..

يبتسم ويعلن أن ذاك خارج حدود الوعود..

يرمقها وزوجها بعين راضية، يلمح اهتمامه.. خوفه عليها، عنايته بها.. يرى نظراتها التي تسترقها إليه كلما أبعد بصره، بعينيها لمعة فُقدت وعادت بحضوره..

بعينيها عشق وبعينيه ملجأ..

بعينيها بحر وبعينيه سفينة لا تشتهي المرسى..

بعينيها سكنه وسكينته، وبعينيه سلامها وأمانها..

ربما تعاند الظروف، يتدخل القدر بقسوة.. باختبار، لكن الحقيقة التي لا جدال فيها؛ أنهما لا ينتميان إلا معًا..

عالمهما لا يكتمل سوى بهما.. يختل دورانه دون أحدهما..

يفقد ثباته ويتيه عن دروب الهداية..

هو كوكب صغير في فراغ فضاء واسع، وهي مداره الوحيد..

هي نجمه في عتمة ليل.. وهو ضائع دونها..

كلاهما يدرك، يرضخ، يستجيب لعشق يستحق الحياة.. وليحترق الأمس في سعير الذكريات المنسية، بألمه وخساراته وانكساراته..

**

على أعتاب الحقيقة تتهشم كل أصنام الوهم..

الوهم كان قسوته، ثأره لكرامته وكبريائه ورجولته..

والحقيقة أنه سيصبح أبًا لطفل عزمت على حرمانه منه!..

بمرور الوقت قلبه ظل يوبخه، يخبره أن التخلي عن كل شيء مباح إلا قطعة منه.. أنها كسرت وأوجعت وأهانت وتغيرت..

أنها شيطان مريد.. أنها الإثم المغوي والخطيئة المزينة..

هي تفاحة الطرد من الفردوس، هي جحيمه مهما تمرد..

لكنها تحمل لقبًا آخر.. أم ابنه!..

ابنًا لم يمكنه أن يتركه لها، أن يخسره وما فات من عمر لا يساوي ما هو آت لتعويضه..

هي لا تبالي، لا تهتم بمقدار طرفة عين، والخاسر لا أحد سواه خاصة إن نسبته للقب مجهول وألَّفت روايتها الخاصة عنه..

لذا بتر كل شكوكه، أمات غضبه ودفنه بقبر التحمل.. تنازل!..

خلال شهر مضى لم تسافر كما أخبرته، كان يتابعها، يعلم عنها كل شيء.. يفتش عن ثغرة ولا يجد، حتى استسلم.. ها هو أمام بابها، يطرقه بقامة مشدودة وملامح جامدة..

يسطر النهاية ويبعثر النقاط.. فحروفهما مكسورة لا يأبه إن شكلت حكاية من الأساس..

فتحت له، تأملته بعين غير راضية.. عين ساخطة، رافضة لحضوره، وهو تخطاها، عبر للداخل ووقف يضع يديه بجيبي سرواله، يغيب

ببصره في ضباب وهمي لا يسعه الرؤية عبره.. لا يرى الغد أو أي توقعات لما هو مُنتَظر..

أغلقت الباب واقتربت تدور حوله، تواجهه.. ترميه بنظرة كالشرر، تكتفي بالصمت ويبادر هو مباشرة بلا التفاف:

- أنا فكرت، مش هاسيبك تسافري..

زوت ما بين حاجبيها.. لا تنتظر تكرمه عليها بعقد شرعي، بنسب طفلها.. ترمقه بتساؤل ساخر تغاضى عنه وأكسب لهجته برودًا صارمًا:

- في حاجات بتجبرنا نتنازل عشانها يا نيروز..

ابتسمت بتهكم مستهين:

- عاوز إيه يا مالك!..

زم شفتيه.. ضغطهما بضيق، منها ومن نفسه وسقطته:

- عاوز أكون أب لابني..

هزت كتفيها بلا اكتراث:

- بمعنى!..

زفر باختناق.. بحنق، ازدرد لعابه ودنا منها خطوة يشرف عليها، يحتل اللحظة ويجبرها على رفع عينيها إليه:

- تتجوزيني!..

العرض الحاسم والأخير.. لا يدري إن لم توافق ما الذي يمكنه فعله!.. كيف يمكنه إخضاعها!.. لن يخسر طفله، ولن يعلن عن فضيحة ما حدث بينهما..

راقبها تركن للصمت، ثوانٍ معدودة وردت بثبات:

- موافقة..

ارتد خطوة للوراء بشبه دهشة رسمت فوق ثغرها -المصبوغ بحمرة دموية تناقضت مع بشرتها بإغواء شيطاني- انحناءً ساخرًا:

- ما تستغربش.. عشان ولادي ممكن أتنازل عن أي وأغلى حاجة..

وتحركت نحوه، تشير إليه وسبابتها تلامس صدره:

- زيك بالظبط..

تغضن جبينه باستياء:

- كنتِ متوقعة إني هاجي.. مش كده!..

- بنسبة 50%..

تبدلت نبرتها لجدية حازمة:

- مش عاوزة ابني يتولد يتيم، من غير أب.. حتى لو هاقدر أربيه وأكون الدنيا كلها بالنسبة له، بس هيحتاج أبوه..

رمقته بنظرة باهتة اعتلت عينيها لأول مرة:

- أنت يا مالك..

أكملت بضحكة مريرة مبتورة:

- رغم كل اللي فات واللي عملته معايا زمان، في الآخر أنت أبو ابني..

تصلب للحظات حائرًا، يدرك أن الخطأ يدنس يديه هو منذ البداية، أنه أساء الاختيار وتركها أسيرة حرب.. غنيمة استحلها ابن عمه الأكبر فلم يقاتل لامتلاكها رُغم كونها له بالفعل..

مسح وجهه وهمس تحت وقع نظرتها الصامتة:

- نيروز.. أنا...

- لأ..

هي لن تعاتب.. لن تفتح صفحة الأمس وقد مزقتها شر ممزق ونثرتها أمام رياح عنفوانها وقسوتها..

لن تكون أنثى ضعيفة في حضرة رجل.. أي رجل!..

استدارت توليه ظهرها، تضع لفافة تبغ تناولتها من علبة فوق طاولة قريبة بين شفتيها، تمتنع عن إشعالها لأجل جنينها، تنفث أنفاسها بديلًا عن الدخان بلهيب مشتعل وبعده تتجاهل الاحتراق، تتلاعب بها بأناملها ثم تجذ عنق ما مضى:

- أنا مش هاتكلم في إمبارح، ولا أنت مسموح تتكلم عنه.. خلاص نقطة ومن أول السطر..

عادت ترمقه بنظرة فاترة، تألقت بغتة كأفعى وجدت فريسة يسهل قنصها وابتلاعها بقضمة واحدة قبل أن تخبره بشيء من دلال:

- اطلب إيدي من عمك ومرات عمك..

فتح فمه ولم يجد ما ينطق به، لامها بعينيه فابتسمت بعناد جابهه بتحدٍ:

- أنتِ محتاجة ولي أمر ولا إيه!..

جلجلت ضحكتها الفاتنة فخلبت لبه كما لم تفعل من قبل..

تبًا للعشق وللقلوب البلهاء التي يسكنها..

غمزته بعبث ماكر ودفعته للرحيل:

- أنت فاكرني هاتجوز من ورا أهل ابني ولا إيه يا ابن الرشيدي!..

سمَّر قدميه في الأرض عند الباب، أدار وجهه إليه بنظرة من فوق كتفه وابتسم:

- لسه مصرة تكملي انتقامك مني..

وقفت خلفه تجيب بجدية مباغتة:

- ده حقي يا مالك..

التفت إليها بكامل جسده يدقق فيها بشرود لم تستوعب مغزاه..

لأول مرة ترى غموض عينيه ولا تفهمه!..

يعود إليها أخيرًا، يعترف بحقيقة يعلم أنها لن تمررها مهما عليها زمان:

- واضح إني هافضل أدفع التمن طول عمري..

قست عيناها وأغلقت الباب بتصريح ختامي:

- You choose the wrong woman to fall in love with..

السقوط في غرام الأفاعي مميت..

حيث لا نجاة من السم..

ما يهمها أنها انتصرت، ومرتين!..

مرة بالثأر.. ومرة بالامتلاك..

الغد لها وحدها..

لقد مر الأمس بكل ما فيه، والعاقبة لمن أجاد لعبة الحياة..

**

على أعتاب اكتمال النصر أصابتها وحشية..

اكتنفتها نشوة وتشبعت بها خلاياها..

تفور أوردتها، تثور كما أسماك القرش حين تشم عطر الدماء..

يستحوذ عليها سُعار شهوة النزف..

في حكاية أطفال؛ بدَّلت الجميلة وحشها، فكَّت لعنته وكسرت تعويذة سحره.. سقط معها في العشق..

أما في حكايتنا فوحشنا خلق من جميلته وحشًا يشابهه، بل أكثر ضراوة منه، أهداها اللعنة فخضعت بمتعة توازي متعته أو تزيد.. سقطت معه في مستنقع الثأر والضلال والبغض..

كانت تخفي عينيها بمنظار شمسي ضخم، تلف خصلاتها المصبوغة بشقرة داكنة بوشاح أزرق وازى آخرًا يحاوط كتفيها وجذعها، يتلائم بأناقة مع ثوبها الأنثوي غير المألوف لسابق عاداتها..

تضم يديها فوق ساقيها والمضيفة الجوية الفاتنة تدفع مقعدها المتحرك بين صفوف المقاعد إلى حيث ستستقر لبضع ساعات قادمة في الجو..

توقفت، انحنت هي وزميلتها تدعمان جسدها للانتقال للمقعد الخاص بها قرب النافذة والعجوز التي تجاورها، تبتسم لها بكياسة وتسألها بانجليزية أنيقة:

- هل يمكنني مساعدتك بشيء آخر سيدة ڤارادي!..

أومأت لها بنفي راقٍ، استقرت في جلستها وتأملت الخارج بعين راضي.. بجواز سفرها هي السائحة المجرية "أوليفيا ڤارادي".. القعيدة نتاج حادث سيارة قديم، وقد كانت في زيارة لأرض الفراعنة كسياحة علاجية وهدنة نفسية..

مع المال يسهل عليك تحطيم كل الأبواب وليس فتحها وحسب..

يسهل عليك شراء الذمم والضمائر..

مرتزقة بثمن بخس لتحقيق أحقر الرغبات..

قبل شهر يسبق زواجها، أتاها إخطار بنكي من سويسرا حيث أكثر البنوك العالمية أمانًا، يُعلمها بوجود حساب خاص يحمل اسمها.. وخزانة تتبعه، ومعه رسالة من أحد البنوك المصرية سبق وتحديد موعد وصولها إليها قبل خمسة أعوام!..

رسالة من والدها الراحل.. صندوق أمانات، مفتاحه بين أغراض أبيها.. لا يحوي سوى مظروف خالٍ من كل شيء عدا خط يده، ووصيته لها..

يخبرها عن الحساب الخاص به خارج البلاد، حسابًا جعله باسمها ليبعد عنه شبهات ارتباطه بمشفاه، يحرر المال من ضريبته..

سرقة أخرى.. تألمت حينها، ثم ابتسمت ساخرة عندما علمت أن تلك الغابة لا يجوز العيش فيها دون مخالب وأنياب.. وإلا ستُفترس!..

سافرت وقتها بمؤتمر طبي أخير قبل الزواج بثلاثة أسابيع، انتقلت بنهايته لتسوي الحساب وتجد طريقة للتعامل دون السفر في كل مرة..

والآن ها هي..

تسن أنيابها..

تشحذ مخالبها..

تمزق جسد الشيطان و.. قلبه!..

تخطط، تصبر، تثأر.. تدور برأسها للمرأة إلى جوارها وتبتسم فتلمح ابتسامتها العاتبة.. الرؤوم، أمها الروحية التي قصت عليها كل التفاصيل وأصرت على اصطحابها معها حيث تذهب..

سمعت النداء الأول قبل الإقلاع، غلق الهواتف وإحكام أحزمة الأمان.. أخرجت من حقيبتها هاتفًا صغيرًا يطلقون عليه burner phone مدفوع مقدمًا، لا يمكن تعقبه، يستخدم لمرة واحدة وبعدها يمكنها أن تلقيه بالقمامة وحسب..

أجرت اتصالها الهاتفي الأخير.. لمن كان زوجها وسيظل، ما إن سمعت صوته الحذِر حتى انتشت بصمت.. تنفست ببطء وهمست بنبرة ظافرة:

- إزيك يا عمار!.. وحشتني..

سكونه أثبت أنها باغتته.. لم تترك له فرصة الإتيان برد فعل، أردفت بسخرية:

- يا ترى بتحلم بيَّ!..

ضحكت بهدوء خافت وعيناها ترمقان الأفق عبر النافذة بانتظار التحليق بين السحب بعيدًا عنه:

- قتلتني كام مرة في خيالك!..

- الموت رحمة ليكِ يا وسن..

رده بتر تسلسل حديثها الشامت، وردها كان أكثر سرعة و.. قسوة:

- وليك أنت كمان..

قسوة تضاعفت لحد مقبض وصوتها كما نظرتها يكتسيان بظلمة:

- عشان كده ما فكرتش أقتلك زي ما قتلت أبويا..

يكتسيان ببغض يكفي لإغراق الأرض بين موجه العاتي:

- بس هادفعك أغلى تمن ممكن..

بادر بصرامة هادرة لو كانت هي القديمة لارتجفت لها هلعًا:

- هاوصلك.. ووقتها مش...

- مش هترحمني!..

أكملت كلماته باستهانة أتبعتها بضحكة أخرى، تممتها بتبجح:

- نتفاهم وقتها بقى..

صمت..

انتظر ما تريد إعلامه به، محطة وصولها قريبة.. لكن قبلها عليها أن تستمتع بنصرها أكثر، تتلذذ بحقده الذي ينهشه.. بهزيمة الذئب:

- عرفت اللي عملته مع نضال.. يستاهل!..

لم يُجب..

استعاد ما فعل، الدليل الذي سرقته منه.. خطته التي رسمها وبدأت بحشر امرأة متزوجة في طريق لص الأنساب، محاولة إخصاب غير شرعية فاشلة انتهت باكتشاف الزوج المخدوع لها..

تهديد بالقتل، ومشادة عنيفة ختامها بقسم الشرطة.. تحقيقات، دلائل، قضية.. وسجن!..

أعادته إليها من شروده باستخفاف ممتعض:

- هو كان حقيقي يستاهل، بس أنت مارضيتش تحرق كل أوراقك زمان، مش عارفة كنت متوقع منه إيه!..

تأملت أظافرها بلا اكتراث، هزت كتفيها بسلاسة وأكملت ببسمة:

- حرقته بنفسي بعد ما هددته يساعدني، تقريبا أنت كنت مستنيني عشان أهزمك بكارتك القديم..

وامتنت له هازئة، تدرك مقدار احتراقه بهذه اللحظة:

- شكرا إنك احتفظت بيه عشاني.. إيه رأيك في تلميذتك النجيبة!..

طحن أسنانه، استقام يدور في الغرفة بلا هدف..

لو كانت أمامه لقتلها ألف مرة!..

هاجمها بانفعال خارج عن لجام سيطرته الأزلية:

- بتكلميني ليه يا وسن!..

تنهدت.. سكنت لدقيقة كاملة انتظرها وعقله يشتعل، أفكاره تتضارب بلا وجهة، تخميناته تصل لحدود السماء، وقاع الجحيم.. أزاحت وشاحها عن جذعها بعض الشيء لتظهر بطنها المنتفخ قليلًا، تربت فوقه بحنو.. تبتسم بشيء من جنون وتجيب بسعادة عجيبة:

- بكلمك عشان أقولك إنك هتبقى أب يا عمار..

لم تلمح تجمُد خطواته وإن خمنت نظرة عينيه.. تعلم الآن أن مخه ربما انفجر.. قلبه بات رمادًا في بوتقة سعير لن يبقى أو يذر..

روحه غارقة في سوادها دون رجعة، أكملت وغنيمتها تحلق بها بين الغيمات، وسط خيالات أقوى من أي مخدر:

- أنا حامل، في نص الشهر السادس..

منذ توقفت عن ابتلاع حبوبها المانعة للحمل كخطوة أولى في درب الثأر!..

منذ ظلت تهادنه بكذبة، تخدعه بتعاطيها بينما تذوبها قرصًا بقرص بحمام غرفتها.. تخضع له، تراضيه، تغويه.. تترك جسدها له أرضًا خصبة لثمرة النصر.. تربة تنتظر الغرس بصبر..

أهناك أقسى من أن تفوز بقطعة منه!..

تسرقها!.. تحرمه منها!..

تنفست بعمق مرتاح كأنما تلك الطعنة النافذة هي ضحكتها الأخيرة.. الطويلة:

- وابنك مش هتشوفه طول ما أنت عايش..

انتشت بضحكة حقيقية خاطفة لم تكملها وهي تردف بحسم:

- ولي عهد الديب، هيكون ألد أعدائه..

أضافت لحسمها صرامة قاسية.. باترة:

- ما تحاولش تدور عليَّ، أنا في طيارة هتبعدني عنك بعد دقايق.. لما أولد هابعت لك دليل إن ابنك معايا، وبعدها هاختفي تاني.. مش هتلاقيني يا عمار، لا أنا..

سحبت الهواء البارد تملأ به صدرها، تهدأ.. تستكين لنصرها وتغمض عينيها:

- ولا ابنك..

- هاقتلِك..

الحروف أتتها متقطعة، شبه مسموعة.. مختنقة وتعلم أنها قطعت وتر قلبه بسكين ثالم..

هو الذي قتل وسلب وانتهك وثأر لأجل أخيه.. فكيف بطفله!..

جاوبته مكررة ببرود، غير آبهة سوى بمتعة إراقة دم خافقه بين ضلوعه:

- لما تلاقيني؛ نبقى نتفاهم..

ثم ختمت حديثها تقتلع الروح من جسده، تنزع منه زمام الهجوم وتضعه عنوة في خانة الخاسر المهزوم:

- الوداع يا عمار.. نهاية مناسبة لينا إحنا الاتنين، اعتبره win win..

فكرت لهنيهة، تخضبت شفاها بنزف بسمة مريرة وعدَّلت الختام:

– أو lose lose..

أغلقت الخط والهاتف واسترخت استعدادًا للرحيل..

تهجر وطنًا..

تهجر جحيمًا..

تخلق غَدَها الخاص بمذاق الثأر المُسكِر..

تسقط في قاع بئر معتم بوعي تام، باختيار حر..

تترك لوحشيتها مقعد السلطة، لضارية وليدة خيوط السطوة..

خيوط النهاية..

الخاتمة

هناك لحظات يتبدل بعدها الزمن..

لحظات يبدأ بوصولها للنهاية؛ عهد جديد!..

**

لحظة فقد!..

"بعد عام"

نحن لا نخسر شيئًا إلا ورزقنا الله تعويضًا يطيب شيئًا من الألم..

فتحت باب منزلها الفارغ بإنهاك، تسحب الصغير بيدها، يتبعها بسكون لم يتبدل منذ نجا من النار وإن احترق جسده وماتت روحه وهو حي..

تشوهه لم يتلاشَ ولن يفعل..

دراسته احتجبت به داخل جدران للمنزل..

الجد رحل عقب ما حدث لكلتا ابنتيه بشهر، لم يتحمل فمات وحيدًا حين كانت هي بصحبة الحفيد الباقي أثناء إحدى العمليات التي تكفل بها زوج ابنتها السابق..

تكفل بالكثير ومازال رُغم سفره وابتعاد..

أعدت له طعامه المفضل فتناول منه بضع لقيمات، وضعته بالفراش وجاورته تضمه..

لم يعُد لأحدهما سوى الآخر.. لم ينطق بكلمة..

اكتفت بقبلة لجبينه، ونوم حزين تخشى ألا تستيقظ منه فيفقد الفتى سياج أمانه المتهدم المتمثل فيها..

أغمضت عينيها ترجو من الغد أن يكون أفضل..

لكن ذاك بيد القدر وحده، وكل ما تملكه هو الدعاء..

**

لحظة وهم!..

"بعد زمن لا يهم تحديده"

3234

ابتسمت تنظر لطرف الفراش كأنما ترى ما لا يراه أحد، تحادثه بهمس خجول ووجهها يكتسب حمرة زادت من سحرها الذي لم يؤثر به وقت أو تخنقه جدران مصحة نفسية..

تؤنب في خيالها طفلتها التي زعقت بأخيها..

والحبيب يتدخل، يضمها، يشاكسها..

يخجلها!..

ويعِد بحل كل المشكلات لأن جنته معها.. ومع صغيريه..

**

لحظة أمل..

"بعد شهر"

لا شيء أجمل من العودة للمنزل بنهاية يوم عمل مجهد..

لقاء بخليلة روحه..

بطفله الذي يكبر في كل يوم لحد يخطف قلبه مع كل حركة منه..

أتم شهره السادس، بدأ يجلس بشيء من دعم..

وهي.. جنته.. حياته..

سعادة دنياه..

فتح باب الجناح متوقعًا استقبالها له بضمة، أو ضحكاتها لصغيره كما اعتاد..

لكنها استقبلته اليوم بصراخ!..

بوسادة قذفته بها..

ومزهرية لولا انحناءة سريعة منه لشجت رأسه!..

ثم سباب.. الكثير منه، توسعت عيناه بذهول، ركض إليها، كبَّلها.. تحكم بجنونها العجيب وهتف بحدة:

- في إيه يا مجنونة أنتِ!..

تملصت منه وحاولت ركله بدموع:

- هاقتلك يا يزن وأرتاح منك..

أدارها بين يديه يتفحصها، يلمح عبراتها ويكاد يفقد عقله بغير فهم:

- أنا عملت لك إيه بقى!..

ضربته بركبتها في ساقه.. بخطأ منها في تقدير المسافة لم تصِب الضربة مكانها المنشود، ابتعد عنها بغضب:

- غزل أنتِ اتجننتِ بجد ولا إيه!..

صاحت بنحيب مختنق وهي تقذفه هذه المرة بمرمدة كريستالية، ارتطمت بالجدار وتحطمت بدوي مزعج بعدما تفاداها بأعجوبة:

- لأ.. أنا حامل..

**

لحظة حسم!..

"بعد شهرين"

التغيير ليس بالأمر السهل.. لا يتقبله كثيرون..

لكنه في موضع حتم عليه الرحيل والابتعاد عن جذوره بموطنه..

استقر بفيينا بصحبة صغيريه بعد انفصاله عن زوجته..

لمرة ثانية.. طلاق آخر..

كُتب عليه أن يحيا وحيدًا وهو تقبل وحدته، بعد كسر.. بعد فقد.. لا يهم، ما يهمه أن طفليه بأمان..

من الوجع.. والخوف..

حتى وإن تحمل الغضب، الاستياء والخصام من ابنته.. الانطواء من ابنه عقب ابتعادهما عن الأم مرة أخرى..

أمًا تتواصل معهما كل يوم عبر اتصالات مرئية..

وتتحاشاه!..

**

لحظة ختام..

لحظة نصر..

"بعد أربعة أشهر إلا قليلًا"

تناولت وليدها بأحضانها ملوثًا ببقايا دمائها وسائل الرحم، لا يزال يبكي بعواء ذئبي أثلج صدرها..

يصرخ محتجًا على الخروج لوحشية الغابة، لا يدرك أنه ابن أشرس ضواريها.. عليه ألا يخاف.. لن يخاف وهي معه!..

همست بأذنه وبسمتها تأكل وجهها:

- تمّام..

هو لحظة الحسم.. هو اكتمال هزيمة أبيه..

هو المتمم لانتصارها في حرب الخدعة..

هي الهامش الذي لم يحُز دور البطولة طوال الأسطورة..

ثم فاز بها بضربة سهم حمقاء في ثغرة "أخيل" الوحيدة..

كعبه..

قلبه..

.....

لحظة إصرار!..

"بعد أربعة أشهر"..

وعدته وصدقت في الوعد..

لم يتوقف بحثه عنها، فتش في كل مكان محتمل..

خمن كل وجهة قد تهرب إليها.. والمحصلة صفر!..

أخيه الأصغر مستقر بين الرهبان حتى يحدد برغبته موعد عودته، وهي قبل أسبوع أرسلت له الدليل القاطع على صدق إدعائها الذي كان بداخله أمل أحمق أنه؛ محض خدعة!..

خصلة ناعمة، بنية داكنة تماثل لون خصلاته..

تطالبه بتحليل الحامض النووي..

وصدى ضحكاتها الساخرة المنتصرة يصله في أحلامه..

هي لم تكن تكذب..

لقد سرقت ابنه منه!..

**

لحظة استقرار!..

"بعد شهرين"..

حمل طفلته برفق، داعب وجنتها وابتسم لأمها التي أقبلت عليه بصحبة صغيره، تجالسه وتحمل الابن فوق ساقيها، تضمه ثم تخبر أبيه بحنو:

- واسل عاوز يشيل فايا..

رفع حاجبه، ابتسم وحط بيده على كتف ابنه يحادثه بنبرة رجولية يشوبها مزاح:

- مش هتخاف زي كل مرة!..

نفى الفتى بهزة رأس ومد يديه أمامه بطاعة لطيفة:

- مش هاخاف ومش هاوقعها..

وضعها "عدي" بأحضانه.. وضمت هي يديها حول يدي الصغير تساعده، تسمع همسته المستغربة.. المبتهجة:

- صغيرة قوي..

فيشاغبه والده مع لمسة لأرنبة أنفه:

- أنت كنت أصغر..

قطب ابنه وعاند:

- لأ.. أنا راجل..

ضحك الاثنان ومالت "رهف" تعانقه وطفلتها بالمثل:

- أنت أحسن أخ في الدنيا أصلا..

بعض الكمال لا يعوزه سوى تصحيح زاوية النظر..

وهو أخيرًا وجد اكتماله بها ومعها..

**

لحظة استمرار!..

"بعد سبعة أشهر"

فلسفة الحياة بسيطة، وفطرية للغاية..

نحن مَن نفضل تناولها مِن جانبها المعقد!..

عادت للمنزل بصحبة زوجها، وجدت رجلها الأول في استقبالها جوار مربيته.. تحمل طفلتها الصهباء كأمها.. يستقبلها ببسمة حماسية، يقترب منها ويرمق الرضيعة في لفافتها بفضول:

- شبه أنكل مالك..

ضمته تحت جناحها ورمت الزوج الجالس قبالتها بنظرة غرور:

- شبه مامي يا آدم..

تلو ذلك وضعتها بأحضانه دون مقدمات مراقبة بسمة أبيها اليائسة من حربها الأبدية:

- ترف!..

ضمها "آدم" بحذر مرتبك وهمس ببهجة كونه حظى بأخت صغرى:

- اسمها حلو قوي..

- لايق على ماما..

كانت من الوالد الذي ضحك بخفوت مع حدة عينيها، ذلك السهم القاتل الذي وجهته إليه فاستقبله قلبه رُغمًا عنه..

وعن الأمس..

**

لحظة عودة..

لحظة أمان..

"بعد ثلاثة أشهر"

القرار لم يكن سهلًا.. عليه أو عليها..

عادت إليه وأجبرته على العودة لأرض الوطن..

لن تفارق أبيها، ولن تهجر جذورها مرة ثانية..

استجاب.. منحته بذور الثقة، فغرسها بتربة قلبها وروحها وبدأ في إروائها بعشقه.. بثباته..

بقربه ورفقه وأسفه الذي يرسم حضوره بعينيه في كل لحظة..

بندم لا يبدو أن له نهاية.. وغرام استجاب لقيده بلا شرط..

عاد من العمل ليجدها في انتظاره، تراقبه بحذر.. تقدم وتحجم في تردد، اقترب يحتويها، يسأل برقة وخوفه يبعثره:

- مالك يا دُچى!..

انطوت فوق صدره، تستمع لنبضه، تنبش عن أمانها بين يديه وهمسها يقلب عالمه:

- أنا حامل!..

**

لحظة ميلاد!..

"بعد شهرين"

امتزج أنين ألمها بصرخات وليدة في خليط ملحمي..

بداية الحياة..

أول الأنفاس..

الجسد الضعيف وخروجه من جسدها في معجزة ربانية تتكرر بأركان الأرض كل دقيقة..

تهمس لها الطبيبة بانجليزية ركيكة:

- هل ترغبين في حملها!..

أومأت لها بتهالك وسؤالها يسبق جوابها:

- ماذا عن توأمها!..

استدارت المرأة للخلف، ترمق طبيب الأطفال الذي يعتني بالرضيع، تتساءل بإشارة ويجيب بإيماءة يائسة..

توأمها لم ينجُ!..

.....

لحظة سكينة!..

"بعد شهرين ونصف"

القدر لا يترك فرصة إلا واختبر فيها بني البشر..

بقسوة.. بلين..

بمنح.. بحرمان!..

وهو ابتلاه قدره بفقد جديد.. صغيره لم يتمسك بالحياة!..

وُلد بجسد هزيل ضعيف، لم يستطع التنفس، توقف قلبه قبل أن ينبض خارج رحم أمه..

ولم يمتلك رفاهية الحزن أو الغضب..

هي كانت تحتاجه.. كليهما تحتاجانه..

تبكي بوجع، بحسرة.. برجفة احتلت كيانها كله.. جسدها المنهك منذ سافرا لا يتحمل فتفقد وعيها ليومين كاملين..

تهرب كما اعتادت.. تتركه لوحدته..

لطفلته المحتجزة بحضَّانة المشفى تقاتل للنجاة..

للحياة..

معظم الآباء إن لم يكن كلهم؛ يريدون أبناءً مثلهم.. يشبهونهم في كل شيء..

الحياة.. العمل.. الزواج..

تجد أسرة من القضاة، ثانية من الأطباء، وثالثة تضم العديد من المحامين..

مثلهم أو أفضل إن كان ذاك بالإمكان..

إلاه هو..

لا يريد أن يرى "يعقوبًا" آخر!..

وقد خسره..

قبع قربها يراقبها بصمت.. ضئيلة للغاية بالكاد توازي حجم كفيه وإن لم يحملها بعد..

ابتسمت له ممرضة المكان، أشارت إليه وهي تخبره بحنو أمومي:

- هذا المحاربة الصغيرة تقاتل بقوة، هل آتيك بها لتحملها!..

أصابه ارتباك مباغت..

الفكرة.. المشهد.. المشاعر!..

زم شفتيه وتماسك متسائلًا:

- هل يمكنني ذلك!..

مدت يديها ترفعها من صندوقها الزجاجي، تلفها بعناية وتضعها بين يديه:

- لقد صرح الطبيب بخروجها هذا الصباح..

كان يشعر بغربة تفيض من خلاياه..

لكن مع وجودها قرب صدره، ببراءة ملامحها المنمنمة، دُجنة خصلاتها، ووردية بشرتها.. بيدها التي داعبها فأغلقتها حول سبابته..

مع ذاك كله؛ وجد الوطن..

وابتسم!..

.....

لحظة بداية!..

"بعد ثلاثة أشهر"

3249

فتح باب منزله القديم، دلف للداخل يجر حقيبتها، يحمل طفلته بيده الأخرى بينما تنحني هي بوجه باهت لتستقبل صغيرها الراكض إليها بأحضانها المشتاقة..

ترى مربيته تتوارى بغرفة جانبية، وهو يترك الباب مفتوحًا، يخطو تجاه غرفة أخرى معدة لصغيرته، يريحها نائمة بمهدها.. يتأملها لدقيقة يعود بإثرها لزوجته التي راقبت خطواته بحذر..

لكل ألم نهاية..

كما لكل أمل بداية..

وما أجمل من اجتماع الاثنين!..

وقف يواجهها، ابنها يتعلق بساقه فيحني رأسه إليه، لامس خصلاته الداكنة مثله ومثل أبيه، تمهل لثوانٍ.. فكر.. سحب دفقة من الهواء وخرجت نبرته ثابتة، هادئة، جامدة كعينيه وملامحه:

- لسه مصرة على الطلاق!..

تجمدت بالمقابل..

طافت بناظريها في المنزل الذي قضت بين جدرانه أشهرها الأخيرة ببلد غريبة، احتوت أوجاع روحها وقلبها بلقاءات متوالية بطبيب نفسي اختاره عربيًا ليسهل تواصله معها..

لم تتردد لكنها رأت رغبته في غدٍ يجمعهما..

غدٍ لن تتحمله.. لا تريده..

عليها أن تختار نفسها، شدت جسدها ورفعت عينيها إليه بصلابة:

- أنت وعدتني..

اقترب، وازاها في وقفتها فلم تتراجع، غاص بأعماق مقلتيها وأدرك أن النهاية لن تتغير..

الشمس لا تنتمي للجحيم.. كما أن الشياطين لا تعاشر الملائكة..

كتب الخاتمة بحبر غير قابل للمحو، بنظرة قاتمة لا تهتز بأثر النور، ونبرة باردة قتل فيها كل انفعال:

- أنتِ طالق..

ارتجت حدقتاها لوهلة!..

لقد لفظها دون مقدمات.. دون تمهيد..

بلا ديباجة تشبُث؛ حدث البتر..

لم تدرك أنها تنهدت إلا عندما انثنى طرف فمه بشبه بسمة مُرة، مد يده في جيبه.. أمسك بكفها وبباطنها ترك شيئًا صغيرًا لم تتبينه من النظرة الأولى..

أعادتها فوجدتها ذاكرة هاتفها القديم الذي كسره في يوم ما مضى..

صور الحبيب الراحل وكل ما يخصه..

ابتعد يستدير، يجر من ركن قرب الباب حقيبة ضخمة لم تلحظها إلا عندما سحبها.. يقف، يلتفت بحزم متممًا الحكاية:

- خلال شهر بالكتير البيت هيكون جاهز، أنا هاقضي الوقت ده في فندق قريب..

يغمض عينيه.. يتنفس بتمهل.. يعيد فتحهما ويهديها نظرة وداع:

- لو احتجتِ أي حاجة كلميني، خلال تلات دقايق هاكون هنا..

ودون مزيد غادر.. أغلق الباب من خلفه بهدوء..

أنشأ الحاجز الذي أرادته واختارته..

نسي أمسه لأجل طفلته.. اختارها على نفسه، ودَّع شيطانه واستقر في منطقة حياد البشر..

حملت صغيرها، ذهبت للغرفة التي تنام بها أخته.. ضمته قرب مهدها وأناملها تتمسك بقلب قلادتها التي تحاوط عنقها..

هي الآن حرة!..

تراقب تثاؤب وليدتها، عيناها اللتان فتحتهما بنعاس، تتذكر اسمها وتبتسم بشرود حائر بعدما سألته عن معناه:

- يعني إيه سولانا!..

تغض الطرف عن نظرته التي أسقطها كقنبلة على رأسها حينها، عودته ببصره تجاه ملاكه البريء وجوابه بعنفوان أراد بثه في روحها:

- شروق الشمس..

على أعتاب الخاتمة أخذنا الخطوة الأخيرة..

تخطينا الأمس وإن نقش بأرواحنا حضوره..

مررنا باليوم واخترنا كيف نصل به لنهاية..

ثم ها نحن، في انتظار غدٍ آت لا محالة..

على أمل..

على حلم..

على أمنية..

وبعض الخوف لن يضر.. فالحذر وإن لم يمنع القدر؛ يمنحنا شرف محاولة النجاة..

ذات أمس وُلدت بدايات..

وذات غد نتمنى أن تحسُن الخواتيم..

أما ذات أمل؛ فالحلم أن نرتاح في فردوس النعيم مهما تعثرت خطواتنا بدروب شياطين الجحيم..

إهداء

(2)

إلى من عبرت معي جحيم الأمس..

هناك ما هو أسوأ!..

الشيطان لن يهنأ إلا والبشرية ترزح تحت ثقل ذنوبها معه في عذاب بمذاق الخلود..

تمت بحمد الله

2020/11/29

على وعد باللقاء بإذن الله مع الجزء الثاني من سلسلة

"عابرو الجحيم"

"ما بعد الرماد"

ما بعد الرماد
الجزء الثاني

صابرين الديب

هنا البدايات ليست لطيفة..

نحن سنبدأ من حيث انتهى الآخرون، هؤلاء الذين سبقونا..

نحن سنبدأ من بعد نهاية الاحتراق..

لمحة

نحن لسنا أقوياء بما يكفي؛ حتى لحظة الاختبار.. حتى بداية الحرب..

القوة لا تثبت بالنظرية، بل بالتطبيق..

...

- القلوب زيها زي حاجات كتير؛ قابلة للكسر..

"ترف الرشيدي"

**

تلك البسمة الساخرة..

الالتواء الجانبي الطفيف الملتصق بشفتيه على الدوام كأنما يستهين بكل ما هو موجود على سطح الأرض؛ هو أيقونته..

...

- النظر بياكل نص المتعة اللي ممكن تحسيها في الضلمة!..

"نوار العاصي"

**

بين اللحن والأنفاس مقطوعة جنون..

...

- الحب ده للناس اللي عندها قلب..

"غاية الصواف"

**

لا ترقص كفراشة..

بل تتوهج بقلب الظلام كألسنة لهب سيحرق جميع الفراشات..

...

- الحب ضعف، والاستسلام له ضعف أكبر..

"سولانا أبو الغار"

**

هو قبطان سيَّار، موج البحار العالي سفينته، يطوف عبره بلا مرسى، بلا مرساة.. حيث الأرض الصلبة ستظل سجنه الممقوت..

...

- إحنا بنيجي الدنيا في لحظة شهوة!..

"آدم الرشيدي"

**

الخوف أحيانًا جرس إنذار مع انقباضة القلب، لكن إن تدخلت نبضة مخالفة لعرف كل ما سبق؛ فليحترق الخوف في جحيم العشق..

...

- ماكانش لازم أقع في حبه!..

"غصون أبو الغار"

**

العقل هو بوصلة القلب، إن تشتت وفقدت تواصلها مع وجهتها ضل الاثنان..

...

- حب!.. لا، هو بس كيوبيد بيتسلى..

"ضي نصار"

**

الحياة لا تساوي قيمتها؛ إن لم تجد ما تقاتل لأجله.. إن لم توقن من كونه يستحق ذاك القتال، تلك الحرب..

...

- القلوب المكسورة لازم تتعلم القسوة..

"باهي نصار"

**

كل شيء على هذه الأرض قابل للتجربة، كل نشوة مستساغة وكل لذة مباحة.. ما دمتَ تمتلك الوسيلة المناسبة!..

...

- أنا سافل بالوراثة..

"زين أبو الغار"

**

كان لديه الكثير ليمنحه؛ الآن هو فقد كل كثيره في لعبة خاسرة، مع خصم مخادع، غير شريف بالمرة..

...

- الحب عمره ماكان اختيار، والهروب منه عبث..

"يزيد أبو الغار"

**

لا أحد يملك عليها السلطة.. لا أحد يحق له إصدار الأوامر أو أن يملي عليها ما يجب فعله..

هي تحيا بقوانينها الخاصة وليتفجر العالم بألغام اللامبالاة..

...

- الحب سهل، بس الكره أسهل..

"توليب أبو الغار"

**

كل الأمور دومًا تحت السيطرة؛ حتى يتدخل القلب!..

...

- مش كل النهايات سعيدة..

"واسل درويش"

**

الحياة لا تناسب فتاة مثلها، أو ربما الحياة تحتاج إلى الكثير ممن يشبهونها!..

...

- I can fix him..

"فايا درويش"

**

كان ينبغي على أحدهم أن يعلِمها بتبعات السقوط في الحب مع رجل فاقد لكل مبادئه التي لا تحيا هي دونها..

ربما قبل أن تسقط!..

...

- كل ما نحب أكتر؛ كل ما الخوف جوانا بيزيد..

"عطر الإدريسي"

**

الذئاب لا تتواصل سويًا إلا بالنهش!..

...

- أنا مش راجع أعيش دور الوريث ولا الابن المحروم من أبوه..

"تمّام الديب"

**

هو رجل يتعامل مع الموت أكثر منه مع الحياة..

...

- الخوف علامة صحية مع شخص زيي..

"فراس طولان"

**

امرأة اللعنة والخطيئة والسحر الأسود..

...

- يزن.. آدم محتاج لك!..

"نيروز رستم"

النهاية.. التي تسبق بداية أخرى..